

## تفسير سورة يونس

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكٰفِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾﴾ .

﴿١﴾ يقول تعالى: ﴿الرَّ تلك آيات الكتاب الحكيم﴾: وهو هذا القرآن، المشتمل على الحكمة والأحكام، الدالّة آياته على الحقائق الإيمانية والأوامر والنواهي الشرعيّة، الذي على جميع الأمة تلقّيه بالرضا والقبول والانقياد.

﴿٢﴾ ومع هذا؛ فأعرض أكثرهم فهم لا يعلمون، فتعجبوا ﴿أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾: عذاب الله، وخوفهم نِقَمَ الله، وذكرهم بآيات الله، ﴿وبشّر الذين آمنوا﴾: إيماناً صادقاً ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: لهم جزاء موفر وثوابٌ مذخور عند ربهم بما قدّموه وأسلموه من الأعمال الصالحة الصادقة، فتعجّب الكافرون من هذا الرجل العظيم تعجباً حملهم على الكفر به! ﴿قال الكافرون﴾ عنه: ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾؛ أي: بين السحر، لا يخفى بزعمهم على أحد، وهذا من سفههم وعنادهم؛ فإنهم تعجبوا من أمر ليس مما يتعجب منه ويستغرب، وإنما يتعجب من جهالتهم وعدم معرفتهم بمصالحهم؛ كيف لم يؤمنوا بهذا الرسول الكريم الذي بعثه الله من أنفسهم؛ يعرفونه حقّ المعرفة، فردّوا دعوته، وحرصوا على إبطال دينه؟! والله متمّ نوره ولو كره الكافرون.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوٰى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ عِنْدِهِ ذٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحٰتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾ .

﴿٣﴾ يقول تعالى مبيناً لربوبيّته وإلهيّته وعظمته: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: مع أنه قادرٌ على خلقها في لحظة واحدة، ولكن لما له في ذلك من الحكمة الإلهية، ولأنه رفيقٌ في أفعاله، ومن جملة حكمته فيها أنّه خلقها بالحقّ وللحقّ؛ ليُعَرَفَ بأسمائه وصفاته، ويُفَرَدَ بالعبادة. ﴿ثم﴾: بعد خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ ﴿استوى على العرش﴾: استواءً يليق بعظمته ﴿يُدَبِّرُ

الأمر: ﴿ في العالم العلوي والسفلي؛ من الإماتة والإحياء، وإنزال الأرزاق، ومداولة الأيام بين الناس، وكشف الضّر عن المضرورين، وإجابة سؤال السائلين؛ فأنواع التدابير نازلةً منه وصاعدةً إليه، وجميع الخلق مذعنون لعزّه خاضعون لعظمته وسلطانه. ﴿ ما من شفيع إلا من بعد إذنّه ﴾: فلا يُقدّم أحدٌ منهم على الشفاعة، ولو كان أفضل الخلق، حتى يأذن الله، ولا يأذن إلا لمن ارتضى، ولا يرتضى إلا أهل الإخلاص والتوحيد له. ﴿ ذلكم ﴾: الذي هذا شأنه ﴿ الله ربكم ﴾؛ أي: هو الله الذي له وصفُ الإلهية الجامعة لصفات الكمال، ووصف الربوبية الجامع لصفات الأفعال. ﴿ فاعبُدوه ﴾؛ أي: أفردوه بجميع ما تقدرون عليه من أنواع العبودية. ﴿ أفلا تدكرون ﴾: الأدلة الدالة على أنه وحده المعبود المحمود ذو الجلال والإكرام.

﴿٤﴾ فلما ذكر حكمه القدري، وهو التدبير العام، وحكمه الديني، وهو شرعه الذي مضمونه ومقصوده عبادته وحده لا شريك له؛ ذكر الحكم الجزائي، وهو مجازاته على الأعمال بعد الموت، فقال: ﴿ إليه مرجعكم جميعاً ﴾؛ أي: سيجمعكم بعد موتكم لميقات يوم معلوم. ﴿ إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾: فالقادر على ابتداء الخلق قادرٌ على إعادته، والذي يرى ابتداءه بالخلق ثم ينكرُ إعادته للخلق؛ فهو فاقدُ العقل، منكرٌ لأحد المثلين؛ مع إثبات ما هو أولى منه؛ فهذا دليلٌ عقلي واضحٌ على المعاد. ثم ذكر الدليل النقلي، فقال<sup>(١)</sup>: ﴿ وعد الله حقاً ﴾؛ أي: وعده صادقٌ لا بُدَّ من إتمامه، ﴿ ليجزي الذين آمنوا ﴾: بقلوبهم بما أمرهم الله بالإيمان به، ﴿ وعملوا الصالحات ﴾: بجوارحهم من واجباتٍ ومستحباتٍ ﴿ بالقسط ﴾؛ أي: بإيمانهم وأعمالهم جزاءً قد بينه لعباده وأخبر أنه لا تعلم نفسٌ ما أخفي لهم من قرةٍ أعين. ﴿ والذين كفروا ﴾: بآيات الله، وكذبوا رسل الله ﴿ لهم شرابٌ من حميم ﴾؛ أي: ماء حارٌّ يشوي الوجوه ويقطع الأمعاء، ﴿ وعذابٌ أليم ﴾: من سائر أصناف العذاب، ﴿ بما كانوا يكفرون ﴾؛ أي: بسبب كفرهم وظلمهم، وما ظلمهم الله ولكن أنفُسهم يظلمون.

﴿ هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدره منازلٍ لتعلموا عددَ السنينَ والحسابَ ما خلق الله ذلك إلا بالحقِّ يفصلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي آخِزَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿٥ - ٦﴾ لما قرّر ربوبيته وإلهيته؛ ذكر الأدلة العقلية الأفقية الدالة على ذلك

(١) كذا في النسختين؛ جعل تفسير قوله: «وعد الله حقاً» بعد تفسير قوله: «إنه يبدأ الخلق ثم يعيده».

وعلى كماله في أسمائه وصفاته؛ من الشمس والقمر والسموات والأرض: وجميع ما خلق فيهما من سائر أصناف المخلوقات، وأخبر أنها آيات ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ و ﴿لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾؛ فَإِنَّ الْعِلْمَ يَهْدِي إِلَى مَعْرِفَةِ الدَّلَالَةِ فِيهَا وَكَيْفِيَّةِ اسْتِنْبَاطِ الدَّلَائِلِ<sup>(١)</sup> على أقرب وجه، والتقوى تُحَدِّثُ فِي الْقَلْبِ الرِّغْبَةَ فِي الْخَيْرِ وَالرَّهْبَةَ مِنَ الشَّرِّ، النَّاشِئِينَ عَنِ الْأَدَلَّةِ وَالْبَرَاهِينِ وَعَنِ الْعِلْمِ وَالْيَقِينِ.

وحاصل ذلك أَنَّ مَجْرَدَ خَلْقِ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ بِهَذِهِ الصِّفَةِ دَالٌّ عَلَى كَمَالِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَعِلْمِهِ وَحَيَاتِهِ وَقِيُومِيَّتِهِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْإِحْكَامِ وَالْإِتْقَانِ وَالْإِبْدَاعِ وَالْحُسْنِ دَالٌّ عَلَى كَمَالِ حِكْمَةِ اللَّهِ وَحَسَنِ خَلْقِهِ وَسَعَةِ عِلْمِهِ، وَمَا فِيهَا مِنْ أَنْوَاعِ الْمَنَافِعِ وَالْمَصَالِحِ - كَجَعْلِ الشَّمْسِ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا يَحْصُلُ بِهِمَا مِنَ النِّفْعِ الضَّرُورِيِّ وَغَيْرِهِ مِمَّا<sup>(٢)</sup> يَحْصُلُ - يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَاعْتِنَائِهِ بِعِبَادِهِ وَسَعَةِ بَرِّهِ وَإِحْسَانِهِ، وَمَا فِيهَا مِنَ التَّخْصِیصَاتِ دَالٌّ عَلَى مَشِیئَةِ اللَّهِ وَإِرَادَتِهِ النَّافِذَةِ، وَذَلِكَ دَالٌّ عَلَى أَنَّهُ وَحْدَهُ الْمَعْبُودُ الْمَحْبُوبُ الْمَحْمُودُ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ وَالْأَوْصَافِ الْعِظَامِ، الَّذِي لَا تَنْبَغِي الرِّغْبَةُ وَالرَّهْبَةُ إِلَّا إِلَيْهِ، وَلَا يُضْرَفُ خَالِصُ الدُّعَاءِ إِلَّا لَهُ لَا لغيره مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الْمَرْبُوبَاتِ الْمَفْتَقِرَاتِ إِلَى اللَّهِ فِي جَمِيعِ شُؤْنِهَا.

وفي هذه الآيات الحثُّ والترغيب على التفكير في مخلوقات الله والنظر فيها بعين الاعتبار؛ فَإِنَّ بِذَلِكَ تَنْفَسِحَ<sup>(٣)</sup> البصيرة ويزدادُ الإيمان والعقل وتقوى القريحة، وفي إهمال ذلك تهاونٌ بما أمر الله به، وإغلاقٌ لزيادة الإيمان، وجمودٌ للذهن والقريحة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ مَا لَهُمْ مَأْوَهُمْ أَن تَأْتِيَهُمْ سَاعَةٌ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾

﴿٧﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾؛ أي: لا يطمعون بلقاء الله، الذي هو أكبر ما طمع فيه الطامعون، وأعلى ما أمَّله المؤمنون، بل أعرضوا عن ذلك، وربما كذبوا به، ﴿ورضوا بالحياة الدنيا﴾: بدلاً عن الآخرة، ﴿واطمأننوا بها﴾؛ أي: ركنوا إليها، وجعلوها غاية أمرهم<sup>(٤)</sup> ونهاية قصدهم؛ فسعوا لها، وأكبوا على لذاتها وشهواتها؛ بأيّ طريقٍ حصلت حصّلوها، ومن أيّ وجهٍ لاحت ابتدروها، قد صرفوا إراداتهم ونيّاتهم وأفكارهم وأعمالهم إليها، فكانت لهم خُلِقُوا

(١) في (ب): «الدليل».

(٢) في (ب): «ما».

(٣) في (ب): «تنفسح».

(٤) في (ب): «مراهم».

للبقاء فيها، وكأنها ليست بدار<sup>(١)</sup> مَمَرٌ يتزوّد فيها المسافرون إلى الدار الباقية التي إليها يرحل الأولون والآخرون وإلى نعيمها ولذاتها سَمُرُ الموقفون. ﴿والذين هم عن آياتنا غافلون﴾: فلا ينتفعون بالآيات القرآنيّة ولا بالآيات الأفقيّة والنفسيّة، والإعراض عن الدليل مستلزمٌ للإعراض والغفلة عن المدلول المقصود.

﴿٨﴾ ﴿أولئك﴾: الذين هُذا وصفهم، ﴿مأواهُم النار﴾؛ أي: مقرهم ومسكنهم التي لا يرحلون عنها؛ ﴿بما كانوا يكسبون﴾: من الكفر والشرك وأنواع المعاصي. فلما ذكر عقابهم؛ ذكر ثواب المطيعين، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعَوْتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَاخْرُجْ دَعْوَتُهُمْ إِنَّ الْخِطَابَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿٩﴾ يقول تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾؛ أي: جمعوا بين الإيمان والقيام بموجبه ومقتضاه من الأعمال الصالحة، المشتملة على أعمال القلوب وأعمال الجوارح، على وجه الإخلاص والمتابعة. ﴿يهديهم ربهم بإيمانهم﴾؛ أي: بسبب ما معهم من الإيمان يُثيبهم الله أعظم الثواب، وهو الهداية، فيعلّمهم ما ينفعهم، ويمنّ عليهم بالأعمال الناشئة عن الهداية، ويهديهم للنظر في آياته، ويهديهم في هذه الدار إلى الصراط المستقيم، وفي الصراط المستقيم، وفي دار الجزاء إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم، ولهذا قال: ﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾: الجارية على الدوام. ﴿في جنات النعيم﴾: أضافها الله إلى النعيم لاشتغالها على النعيم التام؛ نعيم القلب بالفرح والسرور والبهجة والحبور ورؤية الرحمن وسماع كلامه والاعتباط برضاه وقربه ولقاء الأحبة والإخوان والتمتع بالاجتماع بهم وسماع الأصوات المطربات والنعيمات المشجيات والمناظر المفرحات، ونعيم البدن بأنواع المآكل والمشارب والمناكح ونحو ذلك مما لا تعلمه النفوس ولا خطر ببال أحد، أو قدر أن يصفّه الواصفون.

﴿١٠﴾ ﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم﴾؛ أي: عبادتهم فيها لله أولها تسيخ لله وتنزيه له عن النقائص، وآخرها تحميد لله؛ فالتكاليف سقطت عنهم في دار

(١) في (ب): «دار».

الجزاء، وإنما بقي لهم أكمل اللذات، الذي هو ألدُّ عليهم من المآكل اللذيذة، ألا وهو ذِكْرُ الله الذي تطمئنُّ به القلوب وتفرحُ به الأرواح، وهو لهم بمنزلة النفس من دون كلفةٍ ومشقَّةٍ. ﴿و﴾ أما تحيُّتهم فيما بينهم عند التلاقي والتزاور؛ فهو السلام؛ أي: كلامٌ سالمٌ من اللغو والإثم، موصوفٌ بأنه ﴿سلامٌ﴾. وقد قيل في تفسير قوله: ﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم﴾. . . ﴿إلى آخر الآية: إن أهل الجنة إذا احتاجوا إلى الطعام والشراب ونحوهما؛ قالوا: سبحانك اللهم! فأخضِرَ لهم في الحال، فإذا فرغوا قالوا: ﴿الحمدُ لله ربِّ العالمين﴾.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١١).

﴿١١﴾ وهذا من لطفه وإحسانه بعباده: أنه لو عَجَّلَ لهم الشرَّ إذا أتوا بأسبابه وبأذْرهم بالعقوبة على ذلك كما يعجّل لهم الخير إذا أتوا بأسبابه؛ ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾؛ أي: لمحققتهم العقوبة، ولكنه تعالى يمهّلهم ولا يهملهم ويعفو عن كثيرٍ من حقوقه؛ فلو يؤاخذ الله الناس بظلمهم؛ ما ترك على ظهرها من دابة، ويدخل في هذا أن العبد إذا غضب على أولاده أو أهله أو ماله ربّما دعا عليهم دعوةً لو قُبِلت منه؛ لهلكوا ولأضره ذلك غاية الضرر، ولكنّه تعالى حليمٌ حكيمٌ. وقوله: ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾؛ أي: لا يؤمنون بالآخرة؛ فلذلك لا يستعدون لها ولا يعملون ما يُنجيهم من عذاب الله، ﴿في طغيانهم﴾؛ أي: باطلهم الذي جاوزوا به الحقَّ والحدَّ ﴿يعمّهون﴾: يتردّدون حائرين، لا يهتدون السبيل، ولا يوفّقون لأقوم دليل، وذلك عقوبة لهم<sup>(١)</sup> على ظلمهم وكفرهم بآيات الله.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٢).

﴿١٢﴾ وهذا إخبارٌ عن طبيعة الإنسان من حيث هو، وأنه إذا مسّه ضرٌّ من مرض أو مصيبة؛ اجتهد في الدعاء، وسأل الله في جميع أحواله؛ قائماً وقاعداً ومضطجعاً، وألحَّ في الدعاء؛ ليكشف الله عنه ضرّه، ﴿فلما كشفنا عنه ضرّه مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ﴾؛ أي: استمر في غفلته معرضاً عن ربّه كأنه ما جاءه

(١) في (ب): «منه».

ضراً فكشفه الله عنه؛ فأبى ظلم أعظم من هذا الظلم؛ يطلب من الله قضاء غرضه؛ فإذا أناله إياه؛ لم ينظر إلى حق ربه؛ وكأنه ليس عليه لله حق؟! وهذا تزيين من الشيطان زين له ما كان مستهجناً مستقبحاً في العقول والفطر، ﴿كذلك زين للمسرفين﴾؛ أي: المتجاوزين للحد ﴿ما كانوا يعملون﴾.

﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿١٣﴾ يخبر تعالى أنه أهلك الأمم الماضية بظلمهم وكفرهم بعدما جاءتهم البينات على أيدي الرسل<sup>(١)</sup> تبين الحق، فلم ينفادوا لها، ولم يؤمنوا، فأحل بهم عقابه الذي لا يرد عن كل مجرم متجرىء على محارم الله، وهذه سنته في جميع الأمم.

﴿١٤﴾ ﴿ثم جعلناكم﴾ أي: المخاطبون ﴿خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون﴾؛ فإن أنتم اعتبرتم، واتعظتم بمن قبلكم، واتبعتم آيات الله، وصدقتم رسله؛ نجوتم في الدنيا والآخرة، وإن فعلتم كفعل الظالمين قبلكم؛ أحل بكم ما أحل بهم، ومن أندر فقد أندر.

﴿وَإِذَا تَتَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَنْبِئُكَ بِشَيْءٍ مِنْ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ أَفَلَا يَكُونُ لَكَ أَنْ أُولِئِكَ مِنْ تِلْقَائِي فَغَيَّبْتُهُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتَ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّكُمْ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿١٥﴾ يذكر تعالى تعنت المكذبين لرسوله محمد ﷺ، وأنهم إذا تتلى عليهم آيات الله القرآنية المبينة للحق؛ أعرضوا عنها، وطلبوا وجوه التعنت، فقالوا جراءة منهم وظلماً: ﴿أنت بقرآن غير هذا أو بدله﴾: فقبحهم الله؛ ما أجرأهم على الله وأشدهم ظلماً ورداً لآياته! فإذا كان الرسول العظيم يأمره الله أن يقول لهم: ﴿قل

(١) في (ب): «رساله».

ما يكون لي؟؛ أي: ما ينبغي ولا يليق ﴿أَنْ أَبَدَّلهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي﴾؛ فإنني رسول محض، ليس لي من الأمر شيء. ﴿لَنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾؛ أي: ليس لي غير ذلك؛ فإنني عبدٌ مأمور، ﴿لَإِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: فهذا قولٌ خير الخلق وأدبه مع أوامر ربِّه ووحيه؛ فكيف بهؤلاء السفهاء الضالِّين الذين جمعوا بين الجهل والضلال والظلم والعناد والتعنُّت والتعجيز لربِّ العالمين؛ أفلا يخافون عذابَ يومٍ عظيم؟! فإن زعموا أنَّ قصدهم أن يبيِّن لهم الحقَّ بالآيات التي طلبوا؛ فهم كذَّبة في ذلك؛ فإنَّ الله قد بيَّن من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، وهو الذي يصرِّفها كيف يشاء؛ تابعاً لحكمته الربانيَّة ورحمته بعباده.

﴿١٦﴾ ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا طَوِيلًا﴾ من قبله؟؛ أي: قبل تلاوته وقبل درايتكم به وأنا ما خَطَر على بالي ولا وقع في ظني. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: أني حيث لم أتقوله في مدة عمري، ولا صدَّر مني ما يدل على ذلك؛ فكيف أتقوله بعد ذلك، وقد لبثت فيكم عمراً طويلاً، تعرفون حقيقة حالي، بأنني أميٌّ لا أقرأ، ولا أكتب، ولا أدرس، ولا أتعلَّم من أحد، فأتيتكم بكتاب عظيم أعجز الفصحاء وأعياء العلماء؛ فهل يمكن مع هذا أن يكون من تلقاء نفسي؟! أم هذا دليلٌ قاطع أنه تنزيل من حكيم حميد؟! فلو أعملتم أفكاركم وعقولكم، وتدبَّرتم حالي وحال هذا الكتاب؛ لجزمتم جزماً لا يقبل الرِّيب بصدقِهِ، وأنَّه الحقُّ الذي ليس بعده إلا الضلال، ولكن إذا<sup>(١)</sup> أبيتم إلا التكذيب والعناد؛ فإنتم لا شك أنكم ظالمون.

﴿١٧﴾ و ﴿مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾؛ فلو كنت متقولاً؛ لكنت أظلم الناس، وفاتني الفلاح، ولم تخفَ عليكم حالي، ولكني جئتكم بآيات الله، فكذبتم بها، فتعيَّن فيكم الظلم، ولا بدَّ أن أمركم سيضمحل ولن تنالوا الفلاح ما دمتم كذلك. ودلَّ قوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا...﴾ الآية: أنَّ الذي حمَلهم على هذا التعنُّت الذي صدر منهم هو عدمُ إيمانهم بقاء الله وعدم رجائه وأنَّ من آمن بقاء الله؛ فلا بدَّ أن ينقاد لهذا الكتاب ويؤمن به، لأنَّه حسن القصد.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ

(١) في (ب): «إذا».

أَتُنَبِّئُكَ اللَّهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾

﴿١٨﴾ يقول تعالى: ﴿ويعبدون﴾؛ أي: المشركون المكذبون لرسول الله ﷺ من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم؛ أي: لا تملك لهم مثقال ذرة من النفع ولا تدفع عنهم شيئاً ﴿ويقولون﴾: قولاً خالياً من البرهان: ﴿هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾؛ أي: يعبدونهم ليقربوهم إلى الله ويشفعوا لهم عنده، وهذا قول من تلقاء أنفسهم، وكلامٌ ابتكروه هم، ولهذا قال مبطلاً لهذا القول: ﴿قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض﴾؛ أي: الله تعالى هو العالم الذي أحاط علماً بجميع ما في السماوات والأرض، وقد أخبركم بأنه ليس له شريك ولا إله معه؛ فأنتم يا معشر المشركين تزعمون أنه يوجد له فيها شركاء، أف்தخبرونه بأمر خفي عليه وعلمتموه؟! أنتم أعلم أم الله؟! فهل يوجد قولٌ أبطل من هذا القول المتضمن أن هؤلاء الضلال الجهال السفهاء أعلم من رب العالمين؟! فليكتف العاقل بمجرد تصور هذا القول؛ فإنه يجزم بفساده وبطلانه. ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾؛ أي: تقدس وتنزه أن يكون له شريك أو نظير، بل هو الله الأحد الفرد الصمد الذي لا إله في السماوات والأرض إلا هو، وكلُّ معبودٍ في العالم العلوي والسفلي سواه فإنه باطلٌ عقلاً وشرعاً وفطرة، ﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العليُّ الكبير﴾.

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِي مَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَقَوْلُوكَ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةً مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانظُرُوا إِلَى مَا مَعَكُمْ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿١٩﴾ أي: ﴿وما كان الناس إلا أمةً واحدة﴾: متفقين على الدين الصحيح، ولكنهم اختلفوا، ﴿فبعث الله الرسل مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾. ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾: بإمهال العاصين وعدم معاجلتهم بذنوبهم، ﴿لقضي بينهم﴾: بأن ننجي المؤمنين ونهلك الكافرين المكذبين، وصار هذا فارقاً بينهم ﴿فيما فيه يختلفون﴾، ولكنه أراد امتحانهم وابتلاء بعضهم ببعض؛ ليتبين الصادق من الكاذب.

﴿٢٠﴾ ﴿ويقولون﴾؛ أي: المكذبون المتعتنون: ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾؛ يعنون: آيات الاقتراح التي يعينونها؛ كقولهم: ﴿لولا أنزل إليه ملك فيكون معه



نذيراً... ﴿ الآيات، وكقولهم: ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً... ﴿ الآيات. ﴿ فقل: ﴿ لهم إذا طلبوا منك آية: ﴿ إنما الغيب لله؛ أي: هو المحيط علماً بأحوال العباد، فيدبرهم بما يقتضيه علمه فيهم وحكمته البديعة، وليس لأحدٍ تديبٍ في حكم ولا دليل ولا غاية ولا تعليل. ﴿ فانتظروا إني معكم من المنتظرين؛ أي: كل ينتظر بصاحبه ما هو أهل له فانظروا لمن تكون العاقبة.

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَدْدِ ضَرَاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ .

﴿ ٢١ ﴾ يقول تعالى: ﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم ﴾: كالصحة بعد المرض والغنى بعد الفقر والأمن بعد الخوف؛ نسوا ما أصابهم من الضراء، ولم يشكروا الله على الرخاء والرحمة، بل استمروا في طغيانهم ومكرهم، ولهذا قال: ﴿ إذا لهم مكرٌ في آياتنا؛ أي: يسعون بالباطل ليبطلوا به الحق. ﴿ قل الله أسرع مكرًا: ﴿ فإن المكر السيء لا يحيق إلا بأهله؛ فمقصودهم منعكس عليهم، ولم يسلموا من التبعة، بل تكتب الملائكة عليهم ما يعملون، ويحصيه الله عليهم، ثم يجازيهم الله عليه أوفر الجزاء.

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِن أُنجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَجْنَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغَيْبِكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ .

﴿ ٢٢ - ٢٣ ﴾ لما ذكر تعالى القاعدة العامة في أحوال الناس عند إصابة الرحمة لهم بعد الضراء واليسر بعد العسر؛ ذكر حالة تؤيد ذلك، وهي حالهم في البحر عند اشتداده والخوف من عواقبه، فقال: ﴿ هو الذي يسيركم في البر والبحر: ﴿ بما يسر لكم من الأسباب المسيرة لكم فيها وهداكم إليها. ﴿ حتى إذا كنتم في الفلك؛ أي: السفن البحرية، ﴿ وجرين بهم بريح طيبة: ﴿ موافقة لما يهونه من غير انزعاج ولا مشقة، ﴿ وفرحوا بها: ﴿ واطمأنوا إليها؛ فبينما هم كذلك؛ إذ جاءتهم ﴿ ريحٌ عاصفٌ: ﴿ شديدة الهبوب، ﴿ وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم؛ أي: عرفوا أنه الهلاك، فانقطع حينئذٍ تعلقهم بالمخلوقين،

وعرفوا أنه لا يُنجيهم من هذه الشدة إلا الله وحده، فدعوه ﴿مخلصين له الدين﴾: ووعدوا من أنفسهم على وجه الإلزام، فقالوا: ﴿لئن أنجيتنا من هذه لنكوننَّ من الشاكرين﴾. فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق؛ أي: نسوا تلك الشدة وذلك الدعاء وما ألزموه أنفسهم، فأشركوا بالله من اعترفوا أنه لا يُنجيهم من الشدائد ولا يدفع عنهم المضايق؛ فهلا أخلصوا لله العبادة في الرخاء كما أخلصوه في الشدة؟! ولكن هذا البغي يعود وبأله عليهم، ولهذا قال: ﴿يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا﴾؛ أي: غاية ما تؤملون ببغيكم وشروءكم عن الإخلاص لله أن تنالوا شيئاً من حُطام الدنيا وجاهها النزر اليسير الذي سينقضي سريعاً ويمضي جميعاً ثم تنتقلون عنه بالرغم. ﴿ثم إلينا مرجعكم﴾: في يوم القيامة، ﴿فننبئكم بما كنتم تعملون﴾: وفي هذا غاية التحذير لهم عن الاستمرار على عملهم.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهَا آتْنَاهَا أَمْرًا لَّيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿٢٤﴾ وهذا المثل من أحسن الأمثلة، وهو مطابق لحالة الدنيا؛ فإن لذاتها وشهواتها وجاهها ونحو ذلك يزهو لصاحبه إن زها وقتاً قصيراً؛ فإذا استكمل وتم؛ اضمحل وزال عن صاحبه أو زال صاحبه عنه، فأصبح صفرَ اليدين منها، ممتلىء القلب من همها وحزنها وحسرتها؛ فذلك ﴿كماءٍ أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض﴾؛ أي: نبت فيها من كل صنفٍ وزوج بهيج، ﴿مما يأكل الناس﴾: كالحبوب والثمار، ﴿و﴾ مما تأكل ﴿الأنعام﴾: كأنواع العشب والكلأ المختلف الأصناف. ﴿حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت﴾؛ أي: تزخرفت في منظرها واكتست في زينتها فصارت بهجةً للناظرين ونزهةً للمتفرجين وآيةً للمتبصرين، فصرت ترى لها منظراً عجيباً ما بين أخضر وأصفر وأبيض وغيره. ﴿وظنَّ أهلها أنهم قادرون عليها﴾؛ أي: حصل معهم طمعٌ بأن ذلك سيستمر ويدوم لوقوف إرادتهم<sup>(١)</sup> عنده وانتهاء مطالبهم فيه؛ فبينما هم في تلك الحالة؛ أتاهم أمرُ الله ﴿ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس﴾؛ أي: كأنها ما كانت، فهذه حالة

(١) في (ب): «إراداتهم».

الدُّنْيَا سِوَاءَ سِوَاءٍ. ﴿كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ﴾؛ أي: نبيِّئُها ونوضِّحُها بتقريب المعاني إلى الأذهان وضرب الأمثال، ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ أي: يُعْمِلُونَ أَفْكَارَهُمْ فِيمَا يَنْفَعُهُمْ، وأما الغافل المعرض؛ فهذا لا تنفعه الآيات، ولا يزيلُ عنه الشكَّ البيانُ. ولما ذكر الله حال الدنيا وحاصل نعيمها؛ شوق إلى الدار الباقية، فقال:

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوًا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿٢٥﴾ عمَّ تعالى عباده بالدعوة إلى دار السلام والحثُّ على ذلك والترغيب، وخصَّ بالهداية من شاء استخلاصه واصطفاه؛ فهذا فضله وإحسانه، والله يختصُّ برحمته من يشاء، وذلك عدله وحكمته، وليس لأحدٍ عليه حُجَّةٌ بعد البيان والرسل، وسمى الله الجنة دار السلام لسلامتها من جميع الآفات والنقائص، وذلك لكمال نعيمها وتمامه وبقائه وحسنه من كلِّ وجه.

﴿٢٦﴾ ولما دعا إلى دار السلام؛ كأن النفوس تشوّقت إلى الأعمال الموجبة لها الموصلة إليها، فأخبر عنها بقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾؛ أي: للذين أحسنوا في عبادة الخالق، بأن عبده على وجه المراقبة والنصيحة في عبوديته، وقاموا بما قدروا عليه منها، وأحسنوا إلى عباد الله، بما يقدرون عليه من الإحسان القولِّي والفعلي: من بذل الإحسان المالي والإحسان البدني والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتعليم الجاهلين ونصيحة المعرضين وغير ذلك من وجوه البرِّ والإحسان؛ فهؤلاء الذين أحسنوا لهم الحسنَى، وهي الجنة الكاملة في حسناتها، وزيادَةٌ، وهي النظر إلى وجه الله الكريم، وسماع كلامه، والفوز برضاه، والبهجة بقربه؛ فهذا حصل لهم أعلى ما يتمناه الممتنون، ويسأله السائلون.

ثم ذكر اندفاع المحذور عنهم، فقال: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾؛ أي: لا ينالهم مكروهٌ بوجه من الوجوه؛ لأنَّ المكروه إذا وقع بالإنسان؛ تبيَّن ذلك في وجهه وتغيَّر وتكدَّر. وأما هؤلاء؛ فكما قال الله<sup>(١)</sup> عنهم: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾، أولئك أصحاب الجنة الملازمون لها هم فيها خالدون، لا يحولون، ولا يزولون، ولا يتغيرون.

(١) في (ب): «فَهُمْ كَمَا قَالَ اللَّهُ».

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ مِثْلَهَا وَزَهُفُهُمْ ذُلًّا مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنْ آيِلٍ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾ .

﴿٢٧﴾ لما ذكر أصحاب الجنة؛ ذكر أصحاب النار، فذكر أن بضاعتهم التي اكتسبوها في الدنيا هي الأعمال السيئة المُسَخَّطَة لله من أنواع الكفر والتكذيب وأصناف المعاصي، فجزاؤهم سيئة مثلها؛ أي: جزاء يسوؤهم بحسب ما عملوا من السيئات على اختلاف أحوالهم، ﴿وترهقهم﴾؛ أي: تغشاهم ﴿ذُلًّا﴾: في قلوبهم وخوف من عذاب الله لا يدفعه عنهم دافع ولا يعصمهم منه عاصم، وتسري تلك الذلَّة الباطنة إلى ظاهرهم، فتكون سواداً في وجوههم<sup>(١)</sup>. ﴿كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾: فكم بين الفريقين من الفرق! ويا بُعد ما بينهما من التفاوت! ﴿وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة. ووجوه يومئذ باسرة. تظن أن يفعل بها فاقرة﴾، ﴿وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة. ووجوه يومئذ عليها غبرة. ترهقها قفرة. أولئك هم الكفرة الفجرة﴾.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَلَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيانًا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَصَلَ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ .

﴿٢٨﴾ يقول تعالى: ﴿ويوم نحشُرهم جميعاً﴾؛ أي: نجتمع جميع الخلائق لميعاد يوم معلوم، ونحضر المشركين وما كانوا يعبدون من دون الله، ﴿ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاءكم﴾؛ أي: الزموا مكانكم ليقع التحاكم والفضل بينكم وبينهم، ﴿فزَلَّلنا بينهم﴾؛ أي: فرّقنا بينهم بالبعد البدني والقلبي، فحصلت<sup>(٢)</sup> بينهم العداوة الشديدة بعد أن بذلوا لهم في الدنيا خالص المحبة وصفو الوداد، فانقلبت تلك المحبة والولاية بغضاً وعداوة. وتبرأ شركاؤهم منهم وقالوا: ﴿ما كنتم إيانا تعبدون﴾: فإننا ننزه الله أن يكون له شريك أو نديد.

﴿٢٩﴾ ﴿كفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنّا عن عبادتكم لغافلين﴾: ما

(٢) في (ب): «وحصلت».

(١) في (ب): «الوجوه».

أمرناكم بها ولا دعوناكم لذلك، وإنما عبدتم من دعاكم إلى ذلك، وهو الشيطان؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾، وقال: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ. قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾: فالملائكة الكرام والأنبياء والأولياء ونحوهم يتبرؤون ممن عبدتهم يوم القيامة، ويتصلون من دعائهم إياهم إلى عبادتهم، وهم الصادقون البارون في ذلك.

﴿٣٠﴾ فحينئذ يتحسر المشركون حسرة لا يمكن وصفها، ويعلمون مقدار ما قدموا من الأعمال وما أسلفوا من رديء الخصال، ويتبين لهم يومئذ أنهم كانوا كاذبين، وأنهم مفترون على الله، قد ضلّت عبادتهم واضمحلت معبوداتهم وتقطعت بهم الأسباب والوسائل، ولهذا قال: ﴿هنالِكَ﴾؛ أي: في ذلك اليوم، ﴿تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ﴾: أي: تتفقد أعمالها وكسبها وتتبعه بالجزاء وتجازى بحسبه إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾: من قولهم بصحة ما هم عليه من الشرك، وأن ما يعبدون من دون الله تنفعهم، وتدفع عنهم العذاب.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٣١) ﴿فَلَا لَكُمْ أَلَهٌ إِلَّا اللَّهُ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ (٣٢) ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٣).

﴿٣١﴾ أي: قل لهؤلاء الذين أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً محتجاً عليهم بما أقرؤا به من توحيد الربوبية على ما أنكروه من توحيد الإلهية: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾: بإنزال الأرزاق من السماء وإخراج أنواعها من الأرض وتيسير أسبابها فيها. ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾؛ أي: من هو الذي خلقهما وهو مالكهما؟ وخصهما بالذكر من باب التنبيه على المفضل بالفاضل، ولكمال شرفهما ونفعهما. ﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾؛ كإخراج أنواع الأشجار والنبات من الحبوب والنوى، وإخراج المؤمن من الكافر، والطائر من البيضة... ونحو ذلك، ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾: عكس هذه المذكورات. ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾: في العالم العلوي والسفلي، وهذا شاملٌ لجميع أنواع التدابير الإلهية؛ فإنك إذا سألتهم عن ذلك؛ ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾: لأنهم يعترفون بجميع ذلك، وأن الله لا

شريك له في شيء من المذكورات، ﴿فقل﴾ لهم إلزاماً بالحجة: ﴿أفلا تتقون﴾: الله فتخلصون له العبادة وحده لا شريك له، وتخلعون ما تعبدون من دونه من الأنداد والأوثان.

﴿٣٢﴾ ﴿فذلِّكم﴾: الذي وصف نفسه بما وصفها به ﴿الله ربكم﴾؛ أي: المألوه المعبود المحمود المرئي جميع الخلق بالنعم، وهو ﴿الحق﴾ فماذا بعد الحق إلا الضلال: فإنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير لجميع الأشياء، الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يدفع السيئات إلا هو، ذو الأسماء الحسنی والصفات الكاملة العظيمة والجلال والإكرام. ﴿فأنتى تُصرفون﴾: عن عبادة من هذا وصفه إلى عبادة الذي ليس له من وجوده إلا العدم ولا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نُشوراً؛ فليس له من الملك مثقال ذرة، ولا شركة له بوجه من الوجوه، ولا يشفع عند الله إلا بإذنه.

﴿٣٣﴾ فتباً لمن أشرك به، وويحاً لمن كفر به؛ لقد عَدِموا عقولهم بعد أن عَدِموا أديانهم، بل فقدوا دنياهم وأخراهم، ولهذا قال تعالى عنهم: ﴿كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون﴾: بعد أن<sup>(١)</sup> أراهم الله من الآيات البيّنات والبراهين النيّرات ما فيه عبرة لأولي الألباب وموعظة للمتقين وهدى للعالمين.

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْ تَوْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَنْ يَهْدِيَ إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يَنْفَعِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿٣٤﴾ يقول تعالى مبيناً عجز آلهة المشركين وعدم اتصافها بما يوجب اتخاذها آلهة مع الله: ﴿قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق﴾؛ أي: يبتديه، ﴿ثم يعيده﴾: ولهذا استفهام بمعنى النفي والتقرير؛ أي: ما منهم أحد يبدأ الخلق ثم يعيده، وهي أضعف من ذلك وأعجز، ﴿قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده﴾: من غير مشارك ولا معاون له على ذلك. ﴿فأنتى توفكون﴾؛ أي: تصرفون وتُحرفون عن عبادة المنفرد

(١) في (ب): «بعدها».

بالاتِّبَاءِ وَالْإِعَادَةَ إِلَى عِبَادَةِ مَنْ لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ .

﴿٣٥﴾ ﴿٣٥﴾ قل هل من شركائكم من يَهْدِي إلى الحقِّ: بيانه وإرشاده أو بإلهامه وتوفيقه، ﴿قل الله﴾: وحده ﴿يَهْدِي﴾: إلى الحقِّ بالأدلة والبراهين وبالإلهام والتوفيق والإعانة إلى سلوك أقوم طريق. ﴿أمن لا يَهْدِي﴾؛ أي: لا يَهْتَدِي ﴿إلا﴾ أن يَهْدِي: لعدم علمه ولضلاله، وهي شركاؤهم التي لا تهدي ولا تهتدي إلا أن تهدي. ﴿فما لكم كيف تحكمون﴾؛ أي: أي شيء جعلكم تحكمون هذا الحكم الباطل بصحة عبادة أحدٍ مع الله بعد ظهور الحجة والبرهان أنه لا يستحقُّ العبادة إلا الله وحده؟! فإذا تبيَّن أنه ليس في آلهتهم التي يعبدون مع الله أوصاف معنوية ولا أوصاف فعلية تقتضي أن تُعبد مع الله، بل هي متَّصفة بالنقائص الموجبة لبطلان إلهيتها؛ فلاي شيء جعلت مع الله آلهة؟!

﴿٣٦﴾ فالجواب: إن هذا من تزيين الشيطان للإنسان أبيض البهتان وأصل الضلال، حتى اعتقد ذلك، وألفه، وظنَّ حقاً وهو لا شيء، ولهذا قال: ﴿وما يتَّبِعُ الذين يدعون من دون الله شركاء﴾؛ أي: ما يتبعون في الحقيقة شركاء لله؛ فإنه ليس لله شريك أصلاً عقلاً ولا نقلاً، وإنما يتَّبِعون الظنَّ، و ﴿إنَّ الظنَّ لا يغني من الحقِّ شيئاً﴾: فسَمَّوها آلهة وعبدها مع الله؛ ﴿إن هي إلا أسماء سَمَّيتموها أنتم وآبائكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾. ﴿إنَّ الله عليم بما يفعلون﴾: وسيجازيهم على ذلك بالعقوبة البليغة.

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ نَصَدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَعْظَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَاْتِهِمْ نَأْيُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمَنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلِكُمْ أَنْتُمْ بَرِيحُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيحٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ .

﴿٣٧﴾ يقول تعالى: ﴿وما كان هذا القرآن أن يُفترى من دون الله﴾؛ أي: غير ممكن ولا متصور أن يُفترى هذا القرآن على الله [تعالى]؛ لأنه الكتاب العظيم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، وهو الكتاب الذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله ولو كان

بعضهم لبعض ظهيراً، وهو الكتاب<sup>(١)</sup> الذي تكلم به رب العالمين؛ فكيف يقدر أحد من الخلق أن يتكلم بمثله أو بما يقاربه والكلام تابع لعظمة المتكلم ووصفه؟! فإن كان أحد يماثل الله في عظمته وأوصاف كماله؛ أمكن أن يأتي بمثل هذا القرآن، ولو تنزلنا على الفرض والتقدير، فتقوله أحد على رب العالمين؛ لعاجله بالعقوبة وبادره بالنكال.

ولكن الله أنزل هذا الكتاب رحمة للعالمين وحجة على العباد أجمعين، أنزله ﴿تصديق الذي بين يديه﴾: من كتب الله السماوية؛ بأن وافقها وصدقها بما شهدت به وبشرت بنزوله، فوقع كما أخبرت، ﴿وتفصيل الكتاب﴾: للحلال والحرام والأحكام الدينية والقدرية والإخبارات الصادقة. ﴿لا ريب فيه من رب العالمين﴾؛ أي: لا شك ولا مزية فيه بوجه من الوجوه، بل هو الحق اليقين، تنزيل من رب العالمين، الذي ربى جميع الخلق بنعمه، ومن أعظم أنواع تربيته أن أنزل عليهم هذا الكتاب الذي فيه مصالحهم الدينية والدنيوية، المشتمل على مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال.

﴿٣٨﴾ ﴿أم يقولون﴾؛ أي: المكذبون به عناداً وبغياً: ﴿افتراه﴾: محمد على الله واختلقه، ﴿قل﴾: لهم ملزماً لهم بشيء، إن قدروا عليه؛ أمكن ما ادعوه، وإلا كان قولهم باطلاً: ﴿فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾: يعاونكم على الإتيان بسورة مثله، وهذا محال، ولو كان ممكناً؛ لادعوا قدرتهم على ذلك، ولأتوا بمثله، ولكن لما بان عجزهم؛ تبين أن ما قالوه باطل، لا حظ له من الحجة.

﴿٣٩﴾ والذي حملهم على التكذيب بالقرآن المشتمل على الحق الذي لا حق فوقه أنهم لم يجيطوا به علماً؛ فلو أحاطوا به علماً وفهموه حق فهمه؛ لأدعوا بالتصديق به، وكذلك إلى الآن لم يأتهم تأويله الذي وعدهم أن ينزل بهم العذاب، ويحل بهم النكال، وهذا التكذيب الصادر منهم من جنس تكذيب من قبلهم، ولهذا قال: ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾: وهو الهلاك الذي لم يبق منهم أحداً؛ فليحذر هؤلاء أن يستمروا على تكذيبهم، فيحل بهم ما أحل<sup>(٢)</sup> بالأمم المكذبين والقرون المهلكين.

(٢) في (ب): «حل».

(١) في (ب): «وهو كتاب الله».



وفي هذا دليل على الثبوت في الأمور، وأنه لا ينبغي للإنسان أن يبادر بقبول شيء أو رده قبل أن يحيط به علماً.

﴿٤٠﴾ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾؛ أي: بالقرآن وما جاء به، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾: وهم الذين لا يؤمنون به على وجه الظلم والعداوة والفساد، فسيجازيهم على فسادهم بأشد العذاب.

﴿٤١﴾ ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾: فاستمر على دعوتك، وليس عليك من حسابهم من شيء، وما من حسابك عليهم من شيء، لكل عمله. ﴿فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلِكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الشَّيْئًا وَلَكِنَّ الْإِنْسَانَ أَنِفَافًا ﴿٤٤﴾﴾.

﴿٤٢﴾ يخبر تعالى عن بعض المكذبين للرسول ولما جاء به: ﴿و﴾ إن ﴿منهم من يستمعون﴾: إلى النبي ﷺ وقت قراءته للوحي، لا على وجه الاسترشاد، بل على وجه التفرج والتكذيب وتطلب العثرات، وهذا استماع غير نافع ولا مجد على أهله خيراً، لا جرم انسدهم عليهم باب التوفيق وحرما من فائدة الاستماع، ولهذا قال: ﴿أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون﴾: وهذا الاستفهام<sup>(٢)</sup> بمعنى النفي المتقرر؛ أي: لا تسمع الصم الذين لا يستمعون القول ولو جهرت به، وخصوصاً إذا كان عقلهم معدوماً؛ فإذا كان من المحال إسماع الأصم الذي لا يعقل للكلام؛ فهؤلاء المكذبون كذلك ممتنع إسماعك إياهم إسماعاً ينتفعون به، وأما سماع<sup>(٣)</sup> الحججة؛ فقد سمعوا ما تقوم عليهم به حجة الله البالغة؛ فهذا طريق عظيم من طرق العلم قد انسدهم عليهم، وهو طريق المسموعات المتعلقة بالخبر.

﴿٤٣﴾ ثم ذكر انسداد الطريق الثاني، وهو طريق النظر فقال: ﴿ومنهم من ينظر إليك﴾: فلا يفيد نظره إليك، ولا سبر أحوالك شيئاً فكما أنك لا تهدي العمي

(٢) في (ب): «وهذا استفهام».

(١) في (ب): «وتطلب».

(٣) في (ب): «إسماع».

ولو كانوا لا يبصرون؛ فكذلك لا تهدي هؤلاء؛ فإذا فسدت عقولهم وأسماعهم وأبصارهم التي هي الطرق الموصلة إلى العلم ومعرفة الحقائق؛ فأين الطريق الموصول لهم إلى الحق؟!

ودلّ قوله: ﴿ومنهم من ينظرُ إليك...﴾ الآية: أن النظر إلى حالة النبي ﷺ وهدية وأخلاقه وأعماله وما يدعو إليه من أعظم الأدلة على صدقه وصحة ما جاء به، وأنه يكفي البصير عن غيره من الأدلة.

﴿٤٤﴾ وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾: فلا يزيد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم، ﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾: يجيئهم الحقُّ قلا يقبلونه، فيعاقبهم الله بعد ذلك بالطبع على قلوبهم، والختم على أسماعهم وأبصارهم.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿٤٥﴾ يخبر تعالى عن سرعة انقضاء الدنيا، وأن الله تعالى إذا حشر الناس وجمعهم ليوم لا ريب فيه كأنهم ما لبثوا إلا ساعة من نهار، وكأنه ما مرَّ عليهم نعيمٌ ولا بؤسٌ، وهم يتعارفون بينهم كحالهم في الدنيا؛ ففي هذا اليوم يرح المتقون، ويخسر ﴿الذين كذبوا بقاء الله وما كانوا مهتدين﴾ إلى الصراط المستقيم والدين القويم حيث فاتهم النعيم، واستحقوا دخول النار.

﴿وَإِنَّمَا زُيِّنَتْ بَعْضَ الَّذِي نَعُدُّهُمْ أَوْ تَوَفَّنَا فَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿٤٦﴾ أي: لا تحزن أيها الرسول على هؤلاء المكذبين، ولا تستعجل لهم؛ فإنهم لا بد أن يصيبهم الذي نعدهم من العذاب: إما في الدنيا فتراه بعينك وتقرُّ به نفسك، وإما في الآخرة بعد الوفاء؛ فإن مرجعهم إلى الله، وسينبئهم بما كانوا يعملون أحصاه [الله] ونسوه، والله على كل شيء شهيد؛ ففيه الوعيد الشديد لهم والتسلية للرسول الذي كذبه قومه وعاندوه.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولَهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْرٌ لِّنَفْسِي صَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿٤٧﴾ يقول تعالى: ﴿ولكل أمة:﴾ من الأمم الماضية ﴿رسول﴾: يدعوهم إلى

توحيد الله ودينه . فإذا جاءهم ﴿رسولهم﴾ بالآيات؛ صدّقه بعضهم وكذّبه آخرون، فيقضي الله بينهم بالقسط بنجاة المؤمنين وإهلاك المكذبين . ﴿وهم لا يظلمون﴾: بأن يعذبوا قبل إرسال الرسول وبيان الحجّة، أو يعذبوا بغير جرمهم .

﴿٤٨ - ٤٩﴾ فليحذر المكذّبون لك من مشابهة الأمم المهلكين فيحلّ بهم ما حلّ بأولئك ولا يستبطنوا العقوبة ويقولوا: ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾: فإنّ هذا ظلم منهم؛ حيث طلبوه من النبي ﷺ؛ فإنه ليس له من الأمر شيء، وإنما عليه البلاغ والبيان للناس، وأما حسابهم وإنزال العذاب عليهم؛ فمن الله تعالى، يُنزّل<sup>(١)</sup> عليهم إذا جاء الأجل الذي أجله فيه والوقت الذي قدره فيه الموافق لحكمته الإلهية؛ فإذا جاء ذلك الوقت؛ لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون . فليحذر المكذّبون من الاستعجال؛ فإنهم مستعجلون بعذاب الله الذي إذا نزل لا يردُّ بأسه عن القوم المجرمين . ولهذا قال:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُهُ بَيْنَنَا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَتَدْرَأُونَ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُهُ بَيْنَنَا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥١﴾﴾

﴿٥٠﴾ يقول تعالى: ﴿قل أرايتم إن أناكم عذابه بيانا﴾: وقت نومكم بالليل، ﴿أو نهارا﴾: في وقت غفلتكم، ﴿ماذا يستعجل منه المجرمون﴾؛ أي: أيّ بشارة استعجلوا بها، وأيّ عقاب ابتدروه؟

﴿٥١﴾ ﴿أنتم إذا ما وقع أمتم به﴾: فإنه لا ينفع الإيمان حين حلول عذاب الله، ويقال لهم توبيخاً وعتاباً في تلك الحال التي زعموا أنهم يؤمنون: ﴿الآن﴾: تؤمنون في حال الشدّة والمشقة، ﴿وقد كنتم به تستعجلون﴾: فإنّ سنة الله في عباده أنه يعتبرهم إذا استعبوه قبل وقوع العذاب؛ فإذا وقع العذاب؛ لا ينفع نفساً إيمانها؛ كما قال تعالى عن فرعون لما أدركه الغرق: ﴿قال آمنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، وأنه يُقال له: ﴿الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين﴾، وقال تعالى: ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلقت في عباده﴾، وقال هنا: ﴿أنتم إذا ما وقع أمتم به الآن﴾: تدعون الإيمان<sup>(٢)</sup>،

(١) في (ب): «يُنزّل».

(٢) في (ب): «تُدعون للإيمان».

﴿وقد كنتم به تستعجلون﴾: فهذا ما عملت أيديكم، وهذا ما استعجلتم به.

﴿٥٢﴾ ثم قيل للذين ظلموا: حين يوفون أعمالهم يوم القيامة: ﴿ذوقوا عذاب الخلد﴾؛ أي: العذاب الذي تخلدون فيه، ولا يفتُر عنكم ساعة. ﴿هل تجزؤون إلا بما كنتم تكسبون﴾: من الكفر والتكذيب والمعاصي.

﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُمْ لَحَقُّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ قَسِيرٍ ظِلْمَتٌ مَّا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرَأُ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يَحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿٥٣﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ويستنبئونك أحق هو﴾؛ أي: يستخبرك المكذبون على وجه التعنت والعناد لا على وجه التبيين والاسترشاد<sup>(١)</sup>. ﴿أحق هو﴾؛ أي: أصحح حشر العباد وبعثهم بعد موتهم ليوم المعاد وجزاء العباد بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر؟ ﴿قل﴾: لهم مقسماً على صحته مستدلاً عليه بالدليل الواضح والبرهان: ﴿إي وربّي إنّه لحق﴾: لا مزيّة فيه ولا شبهة تعتريه، ﴿وما أنتم بمعجزين﴾: لله أن يبعثكم؛ فكما ابتداء خلقكم ولم تكونوا شيئاً؛ كذلك يعيدكم مرّة أخرى ليجازيكم بأعمالكم.

﴿٥٤﴾ ﴿و﴾ إذا كانت القيامة، فلو ﴿أنّ لكلّ نفس ظلمت﴾: بالكفر والمعاصي جميع ﴿ما في الأرض﴾: من ذهب وفضّة وغيرهما؛ لتفتدي به من عذاب الله، ﴿لافتدت به﴾: ولما نفّعتها ذلك، وإنما النفع والضّر والشواب والعقاب على الأعمال الصالحة والسيئة، ﴿وأسرأوا﴾؛ أي: الذين ظلموا، ﴿الندامة لما رأوا العذاب﴾: ندما على ما قدّموا ولات حين مناص، ﴿وقضى بينهم بالقسط﴾؛ أي: العدل التام الذي لا ظلم ولا جور فيه بوجه من الوجوه.

﴿٥٥﴾ ﴿ألا إن لله ما في السموات والأرض﴾: يحكم فيهم بحكمه الديني والقدري، وسيحكم فيهم بحكمه الجزائي، ولهذا قال: ﴿ألا إن وعد الله حقّ ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾: فلذلك لا يستعدون للقاء الله، بل ربّما لم يؤمنوا به، وقد تواترت عليه الأدلة القطعيّة والبراهين النقليّة والعقليّة.

(١) في (ب): «والرشاد».

﴿٥٦﴾ ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾؛ أي: هو المتصرف بالإحياء والإماتة وسائر أنواع التدابير<sup>(١)</sup> لا شريك له في ذلك. ﴿وإليه تُرجعون﴾: يوم القيامة، فيجازيكم بأعمالكم خيرا وشرها.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾  
 ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾

﴿٥٧﴾ يقول تعالى مرغباً للخلق في الإقبال على هذا الكتاب الكريم بذكر أوصافه الحسنة الضرورية للعباد فقال: ﴿يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم﴾؛ أي: تعظكم وتذكركم عن الأعمال الموجبة لسخط الله، المقتضية لعقابه، وتحذركم عنها ببيان آثارها ومفاسدها، ﴿وشفاء لما في الصدور﴾: وهو هذا القرآن، شفاء لما في الصدور من أمراض الشهوات الصّادة عن الانقياد للشرع، وأمراض الشبهات القادحة في العلم اليقيني؛ فإنّ ما فيه من المواعظ والترغيب والترهيب والوعد والوعيد مما يوجب للعبد الرغبة والرغبة، وإذا وُجِدَتْ فيه الرغبة في الخير والرّهبة عن الشرّ ونمتا على تكرّر ما يرد إليها من معاني القرآن؛ أوجب ذلك تقديم مراد الله على مراد النفس، وصار ما يرضي الله أحبّ إلى العبد من شهوة نفسه، وكذلك ما فيه من البراهين والأدلة التي صرّفها الله غاية التصريف وبينها أحسن بيان مما يزيل الشبهة القادحة في الحقّ ويصل به القلب إلى أعلى درجات اليقين، وإذا صحّ القلب من مرضه، ورَقَلَ بأثواب العافية؛ تبعته الجوارح كلّها؛ فإنها تصلح بصلاحه وتفسد بفساده.

﴿وهدى ورحمة للمؤمنين﴾: فالهدى هو العلم بالحقّ والعمل به، والرحمة هي ما يحصل من الخير والإحسان والثواب العاجل والآجل لمن اهتدى به؛ فالهدى أجل الوسائل، والرحمة أكمل المقاصد والرغائب، ولكن لا يهتدي به ولا يكون رحمة إلا في حقّ المؤمنين، وإذا حصل الهدى وحلت الرحمة الناشئة عنه؛ حصلت السعادة والفلاح والربح والنجاح والفرح والسرور.

﴿٥٨﴾ ولذلك أمر تعالى بالفرح بذلك، فقال: ﴿قل بفضل الله﴾: الذي هو القرآن، الذي هو أعظم نعمة ومِنَّة وفضل تفضّل الله به على عباده، ورحمته: الدين

(١) في (ب): «التدبير».

والإيمان وعبادة الله ومحَبَّته ومعرفته. ﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾: من متاع الدنيا ولذاتها؛ فنعمة الدين المتصلة بسعادة الدارين لا نسبة بينها وبين جميع ما في الدنيا مما هو مضمحلٌّ زائل عن قريب. وإنما أمر الله تعالى بالفرح بفضلِهِ ورحمته؛ لأنَّ ذلك مما يوجب انبساط النفس ونشاطها وشكرها لله تعالى وقوتها وشدَّة الرغبة في العلم والإيمان الداعي للزيادة منهما، وهذا فرحٌ محمودٌ؛ بخلاف الفرح بشهوات الدنيا ولذاتها أو الفرح بالباطل؛ فإنَّ هذا مذمومٌ؛ كما قال تعالى عن قوم قارون له: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾، وكما قال تعالى في الذين فرحوا بما عندهم من الباطل المناقض لما جاءت به الرسل: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾.

﴿قُلْ آيَةُ رَبِّهِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ بَيْنَهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَإِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تَرَى عَلَى اللَّهِ تَفْتُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿٥٩﴾ يقول تعالى منكرًا على المشركين الذين ابتدعوا تحريم ما أحلَّ الله وتحليل ما حرَّمه<sup>(١)</sup>: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ؟﴾ يعني: أنواع الحيوانات المحللة التي جعلها الله رزقًا لهم ورحمة في حقهم، قل لهم موبخًا على هذا القول الفاسد: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتُونَ﴾: ومن المعلوم أنَّ الله لم يأذن لهم؛ فعلم أنهم مفترون.

﴿٦٠﴾ ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: أن يفعل الله بهم من النكال ويُجلِّ بهم من العقاب؛ قال تعالى: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مَسْوَدَّةٌ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾: كثير وذو إحسان جزيل. ولكنَّ أكثر الناس لا يشكرون، إما أن لا يقوموا بشكرها، وإما أن يستعينوا بها على معاصيه، وإما أن يحرموا منها، ويردُّوا ما منَّ الله به على عباده، وقليلٌ منهم الشاكر الذي يعترف بالنعمة، ويشني بها على الله، ويستعين بها على طاعته.

ويستدل بهذه الآية على أنَّ الأصل في جميع الأطعمة الحلُّ؛ إلا ما وردَّ الشرع

(١) في (ب): «ما حرَّم».

بتحريمه؛ لأن الله أنكر على من حرّم الرزق الذي أنزله لعباده.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾﴾.

﴿٦١﴾ يخبر تعالى عن عموم مشاهدته وإطلاعه على جميع أحوال العباد في حركاتهم وسكناتهم، وفي ضمن هذا الدعوة لمراقبته على الدوام، فقال: ﴿وما تكون في شأن﴾؛ أي: حال من أحوالك الدينية والدنيوية، ﴿وما تتلو من القرآن﴾؛ أي: وما تتلو من القرآن الذي أوحاه الله إليك، ﴿ولا تعملون من عمل﴾: صغير أو كبير، ﴿إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه﴾؛ أي: وقت شروعكم فيه واستمراركم على العمل به، فراقبوا الله في أعمالكم، وأدوها على وجه النصيحة والاجتهاد فيها، وإياكم وما يكره الله تعالى؛ فإنه مطلع عليكم عالمٌ بظواهركم وبواطنكم. ﴿وما يعزب عن ربك﴾؛ أي: ما يغاب عن علمه وسمعه وبصره ومشاهدته ﴿من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾؛ أي: قد أحاط به علمه وجرى به قلمه. وهاتان المرتبتان من مراتب القضاء والقدر كثيراً ما يُقرن الله بينهما، وهما العلم المحيط بجميع الأشياء وكتابتها المحيطة بجميع الحوادث؛ كقوله تعالى: ﴿ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير﴾.

﴿إِن أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يُبَدِّلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿٦٢﴾ يخبر تعالى عن أوليائه وأحبائه ويذكر أعمالهم وأوصافهم وثوابهم، فقال: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم﴾: فيما يستقبلونه مما أمامهم من المخاوف والأهوال، ﴿ولا هم يحزنون﴾: على ما أسلفوا؛ لأنهم لم يسلفوا إلا صالح الأعمال، وإذا كانوا لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؛ ثبت لهم الأمن والسعادة والخير الكثير الذي لا يعلمه إلا الله تعالى.

﴿٦٣﴾ ثم ذكر وصفهم، فقال: ﴿الذين آمنوا﴾: بالله وملائكته وكتبه ورسله

واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، وصدّقوا إيمانهم باستعمال التقوى بامثال الأوامر واجتناب النواهي؛ فكلُّ من كان مؤمناً تقيّاً؛ كان لله تعالى وليّاً.

﴿٦٤﴾ و ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾: أما البشارة في الدنيا؛ فهي الثناء الحسن والموّدة في قلوب المؤمنين والرؤيا الصالحة وما يراه العبد من لطف الله به وتيسيره لأحسن الأعمال والأخلاق وصرفه عن مساوئ الأخلاق، وأما في الآخرة؛ فأولها البشارة عند قبض أرواحهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾: وفي القبر ما يُبَشِّرُ به من رضا الله تعالى والنعيم المقيم، وفي الآخرة تمام البشرى بدخول جنات النعيم والنجاة من العذاب الأليم. ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾: بل ما وعد الله؛ فهو حق لا يمكن تغييره ولا تبديله؛ لأنّه الصادق في قيله، الذي لا يقدر أحدٌ أن يخالفه فيما قدره وقضاه. ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾: لأنه اشتمل على النجاة من كلِّ محذور، والظفر بكلِّ مطلوب محبوب، وحصر الفوز فيه؛ لأنه لا فوز لغير أهل الإيمان والتقوى.

والحاصل أنّ البشرى شاملة لكل خير وثواب ربّه الله في الدنيا والآخرة على الإيمان والتقوى، ولهذا أطلق ذلك فلم يقيدّه.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٦٥)

﴿٦٥﴾ أي: ولا يحزنك قول المكذّبين فيك من الأقوال التي يتوصّلون بها إلى القدح فيك وفي دينك؛ فإن أقوالهم لا تُعزّهم ولا تضرك شيئاً. ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾؛ يؤتيا من يشاء ويمنعها ممن يشاء، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرِيدَ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي: فليطلبها بطاعته؛ بدليل قوله بعده: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾: ومن المعلوم أنك على طاعة الله، وأنّ العزّة لك ولاتباعك من الله. ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾. وقوله: ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾؛ أي سمعه قد أحاط بجميع الأصوات؛ فلا يخفى عليه شيء منها؛ وعلمه قد أحاط بجميع الظواهر والبواطن؛ فلا يَعْزُبُ عنه مثقال ذرة في السماوات والأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وهو تعالى يسمعُ قولك وقول أعدائك فيك، ويعلم ذلك تفصيلاً؛ فاكتفِ بعلم الله وكفايته؛ فمن يتق الله فهو حسبه.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَسْمَعُ الَّذِي يَدْعُوكَ مِنْ



دُونَ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ  
أَيَّلًا لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ .

﴿٦٦﴾ يخبر تعالى أن له ما في السماوات والأرض خلقاً وملكاً [وعبيداً]، يتصرف فيهم بما يشاء<sup>(١)</sup> من أحكامه؛ فالجميع ممالك لله مسخرون مدبرون لا يستحقون شيئاً من العبادة وليسوا شركاء لله بوجه من الوجوه، ولهذا قال: ﴿وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن﴾: الذي لا يغني من الحق شيئاً، ﴿وإن هم إلا يخرصون﴾: في ذلك خرص<sup>(٢)</sup> وإفك وبهتان؛ فإن كانوا صادقين في أنها شركاء لله؛ فليظهِروا من أوصافها ما تستحق به مثقال ذرة من العبادة؛ فلن يستطيعوا؛ فهل منهم أحد يخلق شيئاً أو يرزق أو يملك شيئاً من المخلوقات أو يدبر الليل والنهار الذي جعله الله قياماً للناس!؟

﴿٦٧﴾ وهو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه: في النوم والراحة بسبب الظلمة التي تغطي وجه الأرض؛ فلو استمر الضياء؛ لما قروا ولما سكنوا. ﴿وهو﴾ جعل الله ﴿النهار مبصر﴾؛ أي: مضيئاً يبصر به الخلق فيتصرفون في معاشهم ومصالح دينهم ودنياهم. ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون﴾: عن الله سمع فهم وقبول واسترشاد، لا سمع تعنت وعناد؛ فإن في ذلك لآيات لقوم يسمعون يستدلون بها على أنه وحده المعبود، وأنه الإله الحق، وأن إلهية ما سواه باطلة، وأنه الرؤوف الرحيم العليم الحكيم.

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْعَزِيزُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ  
عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ  
عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ لَا يَقْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِتْنَا مَرَجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ  
الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ .

﴿٦٨﴾ يقول تعالى مخبراً عن بهت المشركين لرَبِّ العالمين: ﴿قالوا اتخذ الله ولداً﴾: فزَّه نفسه عن ذلك بقوله: ﴿سبحانه﴾؛ أي: تنزه عما يقول الظالمون في نسبة النقائص إليه علواً كبيراً. ثم برهن عن ذلك بعدة براهين:

(٢) في (ب): «في ذلك خرص كذب».

(١) في (ب): «بما شاء».

أحدها قوله: ﴿هو الغني﴾؛ أي: الغنى منحصر فيه، وأنواع الغنى مستغرقة فيه؛ فهو الغني الذي له الغنى التام بكل وجه واعتبار من جميع الوجوه؛ فإذا كان غنياً من كل وجه؛ فلا بُدَّ شيء يتخذ الولد؟! ألحاجة منه إلى الولد؟ فهذا منافٍ لغناه؛ فلا يتخذ أحداً ولداً إلا لنقص في غناه!

البرهان الثاني قوله: ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾: وهذه كلمة جامعة عامة، لا يخرج عنها موجودٌ من أهل السماوات والأرض، الجميع مخلوقون عبيدٌ ممالك، ومن المعلوم أن هذا الوصف العام ينافي أن يكون له [منهم] ولد؛ فإن الولد من جنس والده، لا يكون مخلوقاً ولا مملوكاً؛ فملكيتته لما في السماوات والأرض عموماً تنافي الولادة.

البرهان الثالث قوله: ﴿إن عندكم من سلطانٍ بهذا﴾؛ أي: هل عندكم من حجة وبرهان يدلُّ على أن لله ولداً؟! فلو كان لهم دليلٌ؛ لأبدوه، فلما تحدّاهم وعجزهم عن إقامة الدليل؛ علم بطلان ما قالوه، وأن ذلك قولٌ بلا علم، ولهذا قال: ﴿أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾: فإن هذا من أعظم المحرّمات.

﴿٦٩ - ٧٠﴾ ﴿قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون﴾؛ أي: لا ينالون مطلوبهم ولا يحصل لهم مقصودهم، وإنما يتمتعون في كفرهم وكذبهم في الدنيا قليلاً، ثم ينتقلون إلى الله ويرجعون إليه، فيذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون، وما ظلمهم الله، ولكن أنفسهم يظلمون.

﴿٧١﴾ ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَفْقَرُونَ إِنْ كَانَ كِبْرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِتَايَاتِي اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أكونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَاحِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِتَايَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَدَبِّرِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿٧١﴾ يقول تعالى لنبيه: وائل على قومك ﴿نبا نوح﴾: في دعوته لقومه حين دعاهم إلى الله مدةً طويلةً فمكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فلم يزددهم دعاؤه إياهم إلا طغياناً، فتملأوا منه وسئموا، وهو عليه الصلاة والسلام غير متكاسل ولا متوانٍ في دعوته، فقال لهم: ﴿يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري

بآيات الله؛ أي: إن كان مقامي عندكم وتذكيري إياكم ما ينفعهم<sup>(١)</sup> بآيات الله الأدلة الواضحة البيّنة، قد شقّ عليكم، وعظّم لديكم، وأردتم أن تنالوني بسوء أو تردّوا الحقّ. ﴿فعلى الله توكلت﴾؛ أي: اعتمدت على الله في دفع كل شرّ يُراد بي وبما أَدْعُو إليه؛ فهذا جندي وعدتي. وأنتم؛ فاتوا بما قدرتم عليه من أنواع العُدَد والعَدَد، ﴿فاجمعوا أمركم﴾: كلكم بحيث لا يتخلف منكم أحد ولا تدخروا<sup>(٢)</sup> من مجهودكم شيئاً، ﴿و﴾ أحضروا ﴿شركاءكم﴾: الذين كنتم تعبدونهم وتوالونهم من دون الله ربّ العالمين، ﴿ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة﴾؛ أي: مشتبهاً خفياً، بل ليكن ذلك ظاهراً علانية. ﴿ثم اقصوا إليّ﴾؛ أي: اقصوا عليّ بالعقوبة والسوء الذي في إمكانكم، ﴿ولا تنظروني﴾؛ أي: لا تمهلوني ساعة من نهار.

فهذا برهان قاطع وآية عظيمة على صحة رسالته وصدق ما جاء به؛ حيث كان وحده لا عشيرة تحميه ولا جنود تؤويه، وقد بادى قومه بتسفيه آرائهم وفساد دينهم وغيب آلهتهم، وقد حملوا من بغضه وعداوته ما هو أعظم من الجبال الرواسي، وهم أهل القدرة والسطوة، وهو يقول لهم: اجتمعوا أنتم وشركاؤكم ومن استطعتم، وأبدوا كل ما تقدرّون عليه من الكيد، فأوقعوا بي إن قدرتم على ذلك، فلم يقدرّوا على شيء من ذلك، فعلم أنه الصادق حقّاً، وهم الكاذبون فيما يدعون.

﴿٧٢﴾ ولهذا قال: ﴿فإن تولّيتم﴾: عن ما دعوتكم إليه؛ فلا موجب لتولّيكم؛ لأنه تبيّن أنكم لا تولون عن باطل إلى حقّ، وإنما تولّون عن حقّ قامت الأدلة على صحته إلى باطل قامت الأدلة على فساده، ومع هذا؛ ﴿فما سألتكم من أجر﴾: على دعوتي وعلى إجابتك، فتقولوا: هذا جاءنا ليأخذ أموالنا فتمتنعون لأجل ذلك. ﴿إن أجري إلا على الله﴾؛ أي: لا أريد الثواب والجزاء إلا منه، ﴿و﴾ أيضاً؛ فإنني ما أمرتكم بأمر وأخالفكم إلى ضده. بل ﴿أمزّت أن أكون من المسلمين﴾: فأنا أول داخل وأول فاعل لما أمرتكم به.

﴿٧٣﴾ ﴿فكذبوه﴾: بعدما دعاهم ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً فلم يزدّهم دعاؤه إلا

(١) كذا في النسختين. ولعل الصواب: «ما ينفعكم».

(٢) في (ب): «ولا تدخرون».

فَرَارًا. ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكِ﴾: الذي أمرناه أن يصنعه بأعيننا، وقلنا له: إذا فار الثور؛ فاحمل فيها من كل زوجين اثنين، وأهلك؛ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ، وَمَنْ آمَنَ، ففعل ذلك، فأمر الله السماء بماء منهمر، وفجّر الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمرٍ قد قُدِرَ، وحملناه على ذاتِ ألواحٍ ودُسر، تجري بأعيننا. ﴿وجعلناهم خلّاتف﴾: في الأرض بعد إهلاك المكذّبين، ثم بارك الله في ذرّيته وجعل ذرّيته هم الباقين، ونشرهم في أقطار الأرض، ﴿وأغرقتنا الذين كذبوا بآياتنا﴾: بعد ذلك البيان وإقامة البرهان. ﴿فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾: وهو الهلاك المخزي واللعة المتتابعة عليهم في كل قرن يأتي بعدهم، لا تسمع فيهم إلا لوماً، ولا ترى إلا قدحاً وذمّاً؛ فليحذر هؤلاء المكذّبون أن يحلّ بهم ما حلّ بأولئك الأقوام المكذّبين من الهلاك والخزي والتكال.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿٧٤﴾ أي: ثم بعثنا من بعد نوح عليه السلام، ﴿رسلاً إلى قومهم﴾: المكذّبين يدعونهم إلى الهدى ويحذرونهم من أسباب الردى، ﴿فجاءوهم بالبينات﴾؛ أي: كل نبي أيدّ دعوته بالآيات الدالة على صحة ما جاء به. ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل﴾؛ يعني: أن الله تعالى عاقبهم حيث جاءهم الرسول فبادروا بتكذيبه، طبع الله على قلوبهم، وحال بينهم وبين الإيمان بعد أن كانوا متمكّنين منه؛ كما قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾. ولهذا قال هنا: ﴿كذلك نطبع على قلوب المعتدين﴾؛ أي: نختم عليها فلا يدخلها خير، وما ظلمهم الله، ولكنهم ظلموا أنفسهم بردهم الحقّ لما جاءهم وتكذيبهم الأول.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَهَارُونَ<sup>(١)</sup> إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْمِنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا

(١) في (ب): إلى آخر القصة.

وَتَكُونُ لَكُمْ الْكِرْبِيَّةَ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَنْتَوِي بِكُلِّ سَجِرٍ  
 عَلَيْهِ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا  
 جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحْيِي اللَّهُ الْحَقَّ  
 بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ  
 وَمَلَائِكَتِهِ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَى يُقَوْمُ إِن  
 كُنتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً  
 لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا  
 لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ  
 مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ  
 رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ  
 أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴿٩٠﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَ إِسْرَائِيلَ  
 وَالْبَحْرِ فَأَتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا  
 الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ ءَأَلْفَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ  
 الْمُفْسِدِينَ ﴿٩٢﴾ فَايَوْمَ نَنجِيكَ بِيَدِنَا لِتَكُونَ لِمَن خَلَقَ ءَابَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَن ءَايَاتِنَا  
 لَغَافِلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءًا صَدَقَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمْ  
 أَوَّلُهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٤﴾ ﴿٩٥﴾

﴿٧٥﴾ أي: ثم بعثنا من بعد هؤلاء الرسل الذين أرسلهم الله إلى القوم  
 المكذبين المهلكين ﴿موسى﴾: ابن عمران كليم الرحمن أحد أولي العزم من  
 المرسلين وأحد الكبار المقتدى بهم المنزل عليهم الشرائع المعظمة الواسعة. ﴿و﴾  
 جعلنا معه أخاه ﴿هارون﴾ وزيراً. بعثناهما ﴿إلى فرعون وملائته﴾؛ أي: كبار دولته  
 ورؤسائهم؛ لأنَّ عامتهم تبع للروساء، ﴿بآياتنا﴾: الدالة على صدق ما جاء به من  
 توحيد الله والنهي عن عبادة ما سوى الله تعالى. ﴿فاستكبروا﴾: عنها ظلماً وعلواً  
 بعدما استيقنوها، ﴿وكانوا قوماً مجرمين﴾؛ أي: وصفهم الإجرام والتكذيب.

﴿٧٦﴾ ﴿فلما جاءهم الحق من عندنا﴾: الذي هو أكبر أنواع الحق وأعظمها،  
 وهو من عند الله، الذي خضعت لعظمته الرقاب، وهو رب العالمين المرئي جميع

خلقه بالنعيم، فلما جاءهم الحق من عند الله على يد موسى؛ ردّوه فلم يقبلوه، و ﴿قالوا إنّ هذا لسحر مبين﴾: لم يكفهم قبحهم الله إعراضهم ولا ردّهم إياه، حتى جعلوه أبطل الباطل، وهو السحر الذي حقيقته التمويه، بل جعلوه سحراً مبيناً ظاهراً، وهو الحق المبين.

﴿٧٧﴾ ولهذا ﴿قال﴾ لهم ﴿موسى﴾ موبخاً لهم عن ردّهم الحق الذي لا يرده إلا أظلم الناس: ﴿أتقولون للحقّ لما جاءكم﴾؛ أي: أتقولون: إنّه سحر مبين. ﴿أسحرّ هذا﴾؛ أي: فانظروا وصفه وما اشتمل عليه؛ فبمجرّد ذلك يجرّم بأنه الحق، ﴿ولا يفلح الساحرون﴾: لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ فانظروا لمن تكون له العاقبة، ولمن له الفلاح وعلى يديه النجاح، وقد علموا بعد ذلك وظهر لكل أحد أن موسى عليه السلام هو الذي أفلح، وفاز بظفر الدنيا والآخرة.

﴿٧٨﴾ ﴿قالوا﴾ لموسى راثنين لقلوه بما لا يرده: ﴿أجئتنا لتلفتنا عمّا وجَدنا عليه آباءنا﴾؛ أي: أجئتنا لتصدنا عمّا وجَدنا عليه آباءنا من الشرك وعبادة غير الله وتأمّرنا بأن نعبد الله وحده لا شريك له؛ فجعلوا قول آباؤهم الضالين حجّة يردّون بها الحق الذي جاءهم به موسى عليه السلام. وقوله<sup>(١)</sup>: ﴿وتكون لكما الكبرياء في الأرض﴾؛ أي: وجئتمونا لتكونوا أنتم الرؤساء ولتخرِجونا من أراضينا؟ وهذا تمويه منهم وترويض على جهالهم وتهييج لعوائهم على معاداة موسى وعدم الإيمان به، وهذا لا يحتجّ به من عرف الحقائق وميّز بين الأمور؛ فإنّ الحجج لا تدفع إلا بالحجج والبراهين، وأما من جاء بالحق؛ فَرُدّ قوله بأمثال هذه الأمور؛ فإنها تدلّ على عجز موردها عن الإتيان بما يرُدّ القول الذي جاء<sup>(٢)</sup> به خصمه؛ لأنه لو كان له حجّة؛ لأوردها، ولم يلجأ إلى قوله: قصدك كذا أو مرادك كذا، سواء كان صادقاً في قوله وإخباره عن قصد خصمه أم كاذباً، مع أنّ موسى عليه الصلاة والسلام كل من عرف حاله وما يدعو إليه؛ عرف أنه ليس له قصد في العلو في الأرض، وإنما قصده كقصد إخوانه المرسلين، هداية الخلق وإرشادهم لما فيه نفعهم. ولكن حقيقة الأمر كما نطقوا به بقولهم: ﴿وما نحن لكما بمؤمنين﴾؛ أي: تكبراً وعناداً، لا لبطلان ما جاء به موسى وهارون، ولا لاشتباه فيه، ولا لغير ذلك من المعاني سوى الظلم والعدوان وإرادة العلو الذي رموا به موسى وهارون.

(١) في (ب): «وقولهم».

(٢) في (ب): «جاءه».

﴿٧٩﴾ ﴿وقال فرعون﴾؛ معارضاً للحقّ الذي جاء به موسى ومغالباً<sup>(١)</sup> لملئيه وقومه: ﴿اتنوني بكلّ ساحرٍ عليم﴾؛ أي: ماهر بالسحر متقن له. فأرسل في مدائن مصر من أتاه بأنواع السحرة على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم.

﴿٨٠﴾ ﴿فلما جاء السحرة﴾: للمغالبة لموسى<sup>(٢)</sup>، ﴿قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون﴾؛ أي: أي شيء أردتم، لا أعين لكم شيئاً، وذلك لأنه جازم بغلبته غير مبالٍ بهم وبما جاؤوا به.

﴿٨١﴾ ﴿فلما ألقوا﴾: حبالهم وعصيهم إذا هي كأنها حياتٌ تسعى، فقال ﴿موسى ما جئتم به السحر﴾؛ أي: هذا السحر الحقيقي العظيم، ولكن مع عظمته ﴿إنّ الله سيبيطله إنّ الله لا يضلحُ عمل المفسدين﴾؛ فإنهم يريدون بذلك نصر الباطل على الحق، وأيّ فساد أعظم من هذا؟! وهكذا كل مفسد عمل عملاً واحتال كيداً أو أتى بمكر؛ فإنّ عمله سيبيطل ويضمحل، وإن حصل لعمله روجان في وقت ما؛ فإن ماله الأضمحل والمحق، وأما المصلحون الذين قصدهم بأعمالهم وجه الله تعالى، وهي أعمال ووسائل نافعة مأمورٌ بها؛ فإنّ الله يصلح أعمالهم ويرقيها ويُنمّيها على الدوام.

﴿٨٢﴾ فألقى موسى عصاه، فتلقفت جميع ما صنعوا، فبطل سحرهم، واضمحل باطلهم. ﴿و﴾ أحقّ ﴿الله الحقّ بكلماته ولو كره المجرمون﴾: فألقى السحرة حين تبيّن لهم الحقّ، فتوعدهم فرعون بالصلب وتقطيع الأيدي والأرجل، فلم يبالوا بذلك، وثبتوا على إيمانهم.

﴿٨٣﴾ وأما فرعون ومَلّؤه وأتباعهم؛ فلم يؤمن منهم أحدٌ، بل استمروا في طغيانهم يعمهون، ولهذا قال: ﴿فما آمن لموسى إلا ذُرّيّةٌ من قومه﴾؛ أي: شباب من بني إسرائيل صبروا على الخوف لما ثبت في قلوبهم الإيمان، ﴿على خوفٍ من فرعون وملئهم أن يفتنهم﴾: عن دينهم. ﴿وإنّ فرعونَ لعالٍ في الأرض﴾؛ أي: له القهر والغلبة فيها؛ فحقيقٌ بهم أن يخافوا من بطشته، ﴿و﴾ خصوصاً ﴿إنه كان من المسرفين﴾؛ أي: المتجاوزين للحدّ في البغي والعدوان. والحكمة - والله أعلم - بكونه ما آمن لموسى إلا ذُرّيّةٌ من قومه: أنّ الذُرّيّة والشباب أقبل للحقّ وأسرع له انقياداً؛ بخلاف الشيوخ ونحوهم ممّن تربّى على الكفر؛ فإنهم بسبب ما مكث في

(١) في (ب): «ومغالطاً».

(٢) في (ب): «مع موسى».

قلوبهم من العقائد الفاسدة أبعد من الحق من غيرهم.

﴿٨٤﴾ ﴿وقال موسى﴾: موصياً لقومه بالصبر، ومذكراً لهم ما يستعينون به على ذلك، فقال: ﴿يا قوم إن كنتم آمنتم بالله﴾: فقوموا بوظيفة الإيمان، وعلى الله ﴿توكلوا إن كنتم مسلمين﴾؛ أي: اعتمدوا عليه والجؤوا إليه واستنصروه.

﴿٨٥﴾ ﴿فقالوا﴾: ممثلين لذلك: ﴿على الله توكلنا ربنا لا نجعلنا فتنة للقوم الظالمين﴾؛ أي: لا تسلطهم علينا فيفتنونا أو يغلبونا، فيفتنونا بذلك، ويقولون: لو كانوا على حق لما غلبوا.

﴿٨٦﴾ ﴿ونجنا برحمتك من القوم الكافرين﴾: لنسلم من شرهم ولنقيم على ديننا<sup>(١)</sup> على وجهٍ نتمكن به من إقامة شرائعه وإظهاره من غير معارض ولا منازع.

﴿٨٧﴾ ﴿وأوحينا إلى موسى وأخيه﴾: حين اشتد الأمر على قومهما من فرعون وقومه وحرصوا على فتنتهم عن دينهم، ﴿أن تبوأ لقومكما بمصر بيوتاً﴾؛ أي: مروهم أن يجعلوا لهم بيوتاً يتمكّنون به من الاستخفاء فيها، ﴿واجعلوا بيوتكم قبلة﴾؛ أي: اجعلوها محلاً تصلون فيها حيث عجزتم عن إقامة الصلاة في الكنائس والبيع العامة. ﴿وأقيموا الصلاة﴾: فإنها معونة على جميع الأمور، ﴿وبشّر المؤمنين﴾: بالنصر والتأييد وإظهار دينهم؛ فإن مع العسر يسراً، إن مع العسر يسراً. وحين اشتد الكرب وضاق الأمر؛ فرّجه الله ووسعه.

﴿٨٨﴾ ﴿فلما رأى موسى القسوة والإعراض من فرعون وملئهم؛ دعا عليهم وأمن هارون على دعائه، فقال: ﴿ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة﴾: يتزينون بها من أنواع الحلّي والثياب والبيوت المزخرفة والمراكب الفاخرة والخدام، ﴿وأموالاً﴾: عظيمة ﴿في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك﴾؛ أي: إن أموالهم لم يستعينوا بها إلا على الإضلال في سبيلك فيضلّون ويضلّون. ﴿ربنا اطمس على أموالهم﴾؛ أي: أتلّفها عليهم إما بالهلاك وإما بجعلها حجارة غير منفع بها، ﴿واشدّد على قلوبهم﴾؛ أي: قسّها، ﴿فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾: قال ذلك غضباً عليهم حيث تجرّؤوا على محارم الله وأفسدوا عباد الله وصدّوا عن سبيله، ولكمال معرفته بربه بأن الله سيعاقبهم على ما فعلوا بإغلاق باب الإيمان عليهم.

﴿٨٩﴾ ﴿قال﴾ الله تعالى: ﴿قد أجيبت دعوتكما﴾: هذا دليل على أن موسى

(١) في (ب): «ولنقيم ديننا».



يدعو وهارون يؤمن على دعائه، وإن الذي يؤمن يكون شريكاً للداعي في ذلك الدعاء. ﴿فاستقيماً﴾: على دينكما، واستمراً على دعوتكما، ﴿ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون﴾؛ أي: لا تتبعان سبيل الجهال الضلال، المنحرفين عن الصراط المستقيم، المتبعين لطرق الجحيم.

﴿٩٠﴾ فأمر الله موسى أن يسري ببني إسرائيل ليلاً، وأخبره أنهم سيَتَّبِعُونَهُ<sup>(١)</sup>، وأرسل فرعون في المدائن حاشرين يقولون: إِنَّ هَؤُلَاءِ - أي: موسى وقومه - لشُرذمةٌ قليلون. وإنهم لنا لغائطون. وإنا لجميع حاذرون. فجمع جنوده قاصيهم ودانيهم، فأتبعهم بجنوده بغياً وعدواً؛ أي: خروجهم باغين على موسى وقومه ومعتدين في الأرض، وإذا اشتد البغي واستحكمت الذنوب؛ فانتظر العقوبة. ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر﴾: وذلك أن الله أوحى إلى موسى لما وصل البحر أن يضربه بعصاه، فضربه، فانفلق اثني عشر طريقاً، وسلكه بنو إسرائيل، وساق فرعون وجنودهم خلفهم<sup>(٢)</sup> داخلين، فلما استكمل موسى وقومه خارجين من البحر وفرعون وجنوده داخلين فيه؛ أمر الله البحر، فالتطم على فرعون وجنوده، فأغرقهم وبنو إسرائيل ينظرون، حتى إذا أدرك فرعون الغرق وجزم بهلاكه؛ ﴿قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل﴾: وهو الله الإله الحق الذي لا إله إلا هو، ﴿وأنا من المسلمين﴾؛ أي: المنقادين لدين الله، ولما جاء به موسى.

﴿٩١﴾ قال الله تعالى مبيناً أن هذا الإيمان في هذه الحالة غير نافع له: ﴿الآن﴾: تؤمن وتقر برسول الله، ﴿وقد عصيت قبل﴾؛ أي: بارزت بالمعاصي والكفر والتكذيب، ﴿وكنت من المفسدين﴾: فلا ينفك الإيمان كما جرث عادة الله أن الكفار إذا وصلوا إلى هذه الحالة الاضطرارية أنه لا ينفعهم إيمانهم؛ لأن إيمانهم صار إيماناً مشاهداً؛ كإيمان من ورد القيامة، والذي ينفع إنما هو الإيمان بالغيب.

﴿٩٢﴾ ﴿فاليوم ننجيك بيدك لتكون لمن خلفك آية﴾: قال المفسرون: إن بني إسرائيل لما في قلوبهم من الرعب العظيم من فرعون، كأنهم لم يصدقوا بإغراقه، وشكوا في ذلك، فأمر الله البحر أن يلقى على نجوة مرتفعةً ببدنه؛ ليكون لهم عبرة وآية. ﴿وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون﴾: فلذلك تمر عليهم وتكرر فلا

(١) في (ب): «يَتَّبِعُونَ».

(٢) كذا في النسختين. وفي (أ) غيرت إلى: «وجنوده خلفه» بخط مغاير.

ينتفعون بها؛ لعدم إقبالهم عليها، وأما من له عقل وقلب حاضر؛ فإنه يرى من آيات الله ما هو أكبر دليل على صحّة ما أخبرت به الرسل.

﴿٩٣﴾ ﴿ولقد بوأنا بني إسرائيل مَبْوَأَ صِدْقٍ﴾؛ أي: أنزلهم الله وأسكنهم في مساكن آل فرعون، وأورثهم أرضهم وديارهم، ﴿ورزقناهم من الطيبات﴾: من المطاعم والمشارب وغيرهما، ﴿فما اختلفوا﴾: في الحقّ ﴿حتى جاءهم العلم﴾: الموجب لاجتماعهم وائتلافهم، ولكن بغى بعضهم على بعض، وصار لكثير منهم أهوية وأغراض تخالف الحقّ، فحصل بينهم من الاختلاف شيء كثير. ﴿إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾: بحكمه العدل الناشئ عن علمه التام وقدرته الشاملة.

وهذا هو الداء الذي يعرض لأهل الدين الصحيح، وهو أنّ الشيطان إذا أعجزوه أن يطيعوه في ترك الدين بالكليّة، سعى في التحريش بينهم وإلقاء العداوة والبغضاء، فحصل من الاختلاف ما هو موجب ذلك، ثم حصل من تضليل بعضهم لبعض وعداوة بعضهم لبعض ما هو قرّة عين اللعين، وإلا؛ فإذا كان ربهم واحداً ورسولهم واحداً ودينهم واحداً ومصالحهم العامة متّفقة؛ فلا شيء يختلفون اختلافاً يفرّق شملهم ويشتت أمرهم ويحلّ رابطتهم ونظامهم فيفوت من مصالحهم الدنيئة والدنيوية ما يفوت ويموت من دينهم بسبب ذلك ما يموت؟! فتسألك اللهم لطفاً بعبادك المؤمنين، يجمع شملهم، ويرأب صدعهم، ويردّ قاصيهم على دانيهم يا ذا الجلال والإكرام!

﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿٩٤﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾: هل هو صحيح أم غير صحيح، ﴿فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك﴾؛ أي: اسأل أهل الكتب المنصفين والعلماء الراسخين؛ فإنهم سيقروا لك بصدق ما أخبرت به وموافقته لما معهم.

فإن قيل: إن كثيراً من أهل الكتاب من اليهود والنصارى، بل ربما كان أكثرهم ومعظمهم، كذبوا رسول الله، وعاندوه، وردّوا عليه دعوته، والله تعالى أمر رسوله

أن يستشهد بهم، وجعل شهادتهم حجةً لما جاء به وبرهاناً على صدقه؛ فكيف يكون ذلك؟! فالجواب عن هذا من عدة أوجه:

منها: أن الشهادة إذا أضيفت إلى طائفةٍ أو أهل مذهبٍ أو بلدٍ ونحوهم؛ فإنها إنما تتناول العدول الصادقين منهم، وأما من عداهم؛ فلو كانوا أكثر من غيرهم؛ فلا عبرة فيهم؛ لأن الشهادة مبنية على العدالة والصدق، قد حصل ذلك بإيمان كثير من أحبارهم الربانيين؛ كعبد الله بن سلام<sup>(١)</sup> وأصحابه وكثير ممن أسلم في وقت النبي ﷺ وخلفائه ومن بعدهم.

ومنها: أن شهادة أهل الكتاب للرسول مبنية على كتابهم التوراة الذي ينتسبون إليه؛ فإذا كان موجوداً في التوراة ما يوافق القرآن ويصدقُه ويشهدُ له بالصحة؛ فلو اتفقوا من أولهم وآخرهم على إنكار ذلك؛ لم يقدح بما جاء به الرسول.

ومنها: أن الله تعالى أمر رسوله أن يستشهد بأهل الكتاب على صحة ما جاءه وأظهر ذلك وأعلنه على رؤوس الأشهاد، ومن المعلوم أن كثيراً منهم من أحرص الناس على إبطال دعوة الرسول محمد ﷺ؛ فلو كان عندهم ما يردُّ ما ذكره الله؛ لأبدؤهُ وأظهروه ويبيّنوه، فلما لم يكن شيئاً من ذلك؛ كان عدم ردِّ المعادي وإقرار المستجيب من أدلِّ الأدلة على صحة هذا القرآن وصدقه.

ومنها: أنه ليس أكثر أهل الكتاب ردِّ دعوة الرسول، بل أكثرهم استجاب لها وانقاد طوعاً واختياراً؛ فإنَّ الرسولُ بُعِثَ وأكثُرُ أهل الأرض المتدينين أهل الكتاب<sup>(٢)</sup>، فلم يمكث ديبه مدةً غير كثيرة حتى انقاد للإسلام أكثر أهل الشام ومصر والعراق وما جاورها من البلدان التي هي مقرُّ دين أهل الكتاب ولم يبقَ إلا أهل الرياسات الذين آثروا ریاساتهم على الحقِّ ومَن تبعهم من العوامِّ الجهلة ومن تدبّر بدینهم اسماً لا معنى؛ كالإفرنج الذين حقيقة أمرهم أنهم دهرية منحلون عن جميع أديان الرسل، وإنما انتسبوا للدين المسيحي ترويحاً لملكهم وتمويهاً لباطلهم؛ كما يعرف ذلك من عرف أحوالهم البيّنة الظاهرة.

وقوله: ﴿لقد جاءك الحق﴾؛ أي: الذي لا شك فيه بوجه من الوجوه، ﴿من

(١) في (ب): «كعبد الله بن سلام وكعب الأحبار وغيرهما». ثم عدل عنها الشيخ في (أ) إلى ما هو مثبت.

(٢) في (ب): «أهل كتاب».

رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمَمْتَرِينَ<sup>(١)</sup> ﴿٩٥﴾: كقوله تعالى: ﴿كَتَابٌ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾.

﴿٩٥﴾ ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾: وحاصل هذا أَنَّ اللَّهَ نَهَى عَنْ شَيْئَيْنِ: الشُّكُّ فِي هَذَا الْقُرْآنِ، وَالْإِمْتِرَاءُ مِنْهُ. وَأَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ التَّكْذِيبُ بِهِ، وَهُوَ آيَاتِ اللَّهِ الْبَيِّنَاتِ، الَّتِي لَا تَقْبَلُ التَّكْذِيبَ بِوَجْهِهِ، وَرَتَّبَ عَلَى هَذَا الْخَسَارِ، وَهُوَ عَدَمُ الرِّبْحِ أَصْلًا، وَذَلِكَ بِفَوَاتِ الثَّوَابِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَحُصُولِ الْعِقَابِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الشَّيْءِ أَمْرٌ بِضَدِّهِ، فَيَكُونُ أَمْرًا بِالتَّصْدِيقِ التَّامِّ بِالْقُرْآنِ وَطَمَآنِينَةِ الْقَلْبِ إِلَيْهِ وَالْإِقْبَالَ عَلَيْهِ عِلْمًا وَعَمَلًا؛ فَبِذَلِكَ يَكُونُ الْعَبْدُ مِنَ الرَّابِحِينَ، الَّذِينَ أَدْرَكُوا أَجَلَ الْمَطَالِبِ وَأَفْضَلَ الرِّغَائِبِ وَأَتَمَّ الْمُنَاقِبِ، وَانْتَفَى عَنْهُمْ الْخَسَارُ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿٩٦ - ٩٧﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾؛ أي: إنهم من الضالين الغاوين أهل النار، لا بد أن يصيروا إلى ما قدره الله وقضاه؛ فلا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية؛ فلا تزيدهم الآيات إلا طغياناً وغياً إلى غيرهم، وما ظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسهم بردهم للحق لما جاءهم أول مرة، فعاقبهم الله بأن طبع على قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم الذي وعدوا به؛ فحينئذ يعلمون حق اليقين أن ما هم عليه هو الضلال وأن ما جاءتهم به الرسل هو الحق، ولكن في وقت لا يجدي عليهم إيمانهم شيئاً؛ فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستغثون. وأما الآيات؛ فإنها تنفع من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿٩٨﴾ يقول تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ﴾: من القرى المكذبين، ﴿ءَامَنَتْ﴾: حين رأت العذاب، ﴿فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾؛ أي: لم يكن منهم أحد انتفع بإيمانه حين رأى العذاب؛ كما قال تعالى عن فرعون ما تقدم قريباً لما قال: ﴿ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، فقيل له: ﴿الآن وقد عصيت

(١) في (ب): «ولهذا قال: ﴿فلا تكونن من الممترين﴾».

قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمَفْسُدِينَ ﴿٩٩﴾ ، وكما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِأَسْنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فلم يك يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَا رَأَوْا بِأَسْنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ ، وقال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ . لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ، كَلَّا﴾ ، والحكمة في هذا ظاهرة؛ فَإِنَّ الْإِيمَانَ الْاضْطِرَارِيَّ لَيْسَ بِإِيمَانٍ حَقِيقَةً ، ولو صرَّف عنه العذاب والأمر الذي اضطره إلى الإيمان؛ لرجع إلى الكفران . وقوله: ﴿إِلَّا قَوْمٌ يُونِسَ لَمَا آمَنُوا بَعْدَمَا رَأَوْا الْعَذَابَ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ : فهم مُسْتَشْتُونَ مِنَ الْعَمُومِ السَّابِقِ ، ولا بدَّ لذلك من حكمة لعالم الغيب والشهادة لم تصل إلينا ولم تدرِكها أفهامنا؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونِسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . . .﴾ إلى قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ . فَأَمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ . ولعلَّ الحكمة في ذلك أَنَّ غَيْرَهُمْ مِنَ الْمَهْلُكِينَ لَوْ رُذِّقُوا لِعَادُوا لَمَا نَهَوْا عَنْهُ ، وأما قوم يونس؛ فَإِنَّ اللَّهَ أَعْلَمُ<sup>(١)</sup> أَنَّ إِيمَانَهُمْ سَيَسْتَمِرُّ ، بل قد استمرَّ فعلاً ، وثبتوا عليه . والله أعلم .

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿١٠٠﴾ .

﴿٩٩﴾ يقول تعالى لنبية محمد ﷺ: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً﴾ : بأن يلهمهم الإيمان ويوزع قلوبهم للتقوى؛ فقدرتُه صالحاً لذلك ، ولكنته اقتضت حكمته أن كان بعضهم مؤمنين وبعضهم كافرين . ﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ ؛ أي: لا تقدرُ على ذلك ، وليس في إمكانك ، ولا قدرة غير الله شيء من ذلك .

﴿١٠٠﴾ ﴿وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله﴾ : بإرادته ومشيتته وإذنه القَدْرِيَّ الشرعيِّ؛ فمن كان من الخَلْقِ قابلاً لذلك يزكو عنده الإيمان؛ وفقه وهداه ، ﴿ويجعل الرجس﴾ ؛ أي: الشرِّ والضلَّال ﴿على الذين لا يعقلون﴾ : عن الله أوامره ونواهيهِ ، ولا يُلقون بالألِّ لنصائحه ومواعظه .

(١) في (ب): «علم» .

﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾  
 فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ  
 ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

﴿١٠١﴾ يدعو تعالى عباده إلى النظر لما في السماوات والأرض، والمراد بذلك نظر الفكر والاعتبار والتأمل لما فيها وما تحتوي عليه والاستبصار؛ فإن في ذلك آيات لقوم يؤمنون وعبراً لقوم يوقنون، تدلُّ على أن الله وحده المعبود المحمود ذو الجلال والإكرام والأسماء والصفات العظام، ﴿وما تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ فإنهم لا يتفكرون بالآيات؛ لإعراضهم وعنادهم.

﴿١٠٢ - ١٠٣﴾ ﴿فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: فهل ينتظر هؤلاء الذين لا يؤمنون بآيات الله بعد وضوحها إلا مثل أيام الذين خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ؛ أي: من الهلاك والعقاب؛ فإنهم صنعوا كصنيعهم، وسنة الله جارية في الأولين والآخرين. ﴿قُلْ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾: فستعلمون لمن تكون له العاقبة الحسنة والنجاة في الدنيا والآخرة. وليست إلا للرسول وأتباعهم، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: من مكاره الدنيا والآخرة وشدائدتهما. ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾: أوجبناه على أنفسنا، ﴿نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾: فإن الله يدافع عن الذين آمنوا؛ فإنه بحسب ما مع العبد من الإيمان؛ تحصل له النجاة من المكاره.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّعُكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقْرَبُ وَجْهَكَ لِلَّذِينَ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

﴿١٠٤﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ سيد المرسلين وإمام المتقين وخير الموقنين: ﴿قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني﴾؛ أي: في ريب واشتباه؛ فإنني لست في شك منه، بل لدي العلم اليقيني أنه الحق وأن ما تدعون من دون الله باطل، ولي على ذلك الأدلة الواضحة والبراهين الساطعة، ولهذا قال: ﴿فلا أعبُدُ الذين تعبُدون من دون الله﴾: من الأنداد والأصنام وغيرهما؛ لأنها لا تخلق ولا ترزق ولا تدبر شيئاً من الأمور، وإنما هي مخلوقة مسخرة ليس فيها ما يقتضي

عبادتها. ﴿ولكن أعبُد الله الذي يتوفأكم﴾؛ أي: هو الله الذي خلقكم، وهو الذي يميئكُم ثم يبعثكم ليجازيكم بأعمالكم؛ فهو الذي يستحق أن يُعبَد، ويصلَّى له، [ويخضع]، ويسجد، ﴿وأمرت أن أكون من المؤمنين﴾.

﴿١٠٥﴾ ﴿وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾؛ أي: أخلص أعمالك الظاهرة والباطنة لله، وأقم جميع شرائع الدين، ﴿حَنِيفًا﴾؛ أي: مقبلاً على الله معرضاً عما سواه. ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: لا في حالهم ولا تكن معهم.

﴿١٠٦﴾ ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾: وهذا وصف لكل مخلوق أنه لا ينفع ولا يضر، وإنما النافع الضار هو الله تعالى. ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ﴾؛ أي<sup>(١)</sup>: دعوت من دون الله ما لا ينفَعك ولا يضرُك، ﴿فَإِنَّكَ إِذَا﴾ لمن ﴿الظالمين﴾؛ أي: الضارين أنفسهم بإهلاكها، وهذا الظلم هو الشرك؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشُّرْكَ لظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾: فإذا كان خيرُ الخلق لو دعا مع الله غيره؛ لكان من الظالمين المشركين؛ فكيف بغيره!؟

﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنَّ يُرَدِّكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (١٠٧).

﴿١٠٧﴾ هذا من أعظم الأدلة على أن الله وحده المستحق للعبادة؛ فإنه النافع الضار المعطي المانع الذي إذا مسَّ بضرٍ كفقر ومرض ونحوها: ﴿فلا كاشف له إلا هو﴾: لأن الخلق لو اجتمعوا على أن ينفَعوا بشيء لم ينفَعوا إلا بما كتبه الله ولو اجتمعوا على أن يضرُّوا أحداً؛ لم يقدروا على شيء من ضرره إذا لم يرد [الله]. ولهذا قال: ﴿وَإِنْ يُرَدِّكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾؛ أي: لا يقدر أحدٌ من الخلق أن يردَّ فضله وإحسانه؛ كما قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾. ﴿يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾؛ أي: يختص برحمته من شاء من خلقه والله ذو الفضل العظيم، ﴿وهو الغفور﴾: لجميع الزلات، الذي يوفق عبده لأسباب مغفرته، ثم إذا فعلها العبد؛ غفر الله ذنوبه كبارها وصغارها، ﴿الرحيم﴾: الذي وسعت رحمته كل شيء ووصل جوده إلى جميع الموجودات؛ بحيث لا تستغني عن إحسانه طرفة عين.

(١) في (ب): «بان».

فإذا عرف العبد بالدليل القاطع أن الله هو المنفرد بالنعمة وكشف النقم وإعطاء الحسنات وكشف السيئات والكربات، وأن أحداً من الخلق ليس بيده من هذا شيء إلا ما أجراه الله على يده؛ جزم بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل ولهذا لما بين الدليل الواضح؛ قال بعده:

﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا النَّاسُ فَدَّ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخْرُجَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْخَارِجِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿١٠٨﴾ أي: ﴿قل﴾: يا أيها الرسول لما تبين البرهان: ﴿يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم﴾؛ أي: الخبر الصادق المؤيد بالبراهين الذي لا شك فيه بوجه من الوجوه، وهو واصل إليكم من ربكم، الذي من أعظم تربيته لكم أن أنزل إليكم هذا القرآن، الذي فيه تبيان لكل شيء، وفيه من أنواع الأحكام والمطالب الإلهية والأخلاق المرضية ما فيه أعظم تربية لكم وإحسان منه إليكم؛ فقد تبين الرشد من الغي، ولم يبق لأحد شبهة. ﴿فمن اهتدى﴾: بهدى الله؛ بأن علم الحق وتفهمه وآثره على غيره فلنفسه. والله تعالى غني عن عباده، وإنما ثمره أعمالهم راجعة إليهم. ﴿ومن ضل﴾: عن الهدى؛ بأن أعرض عن العلم بالحق أو عن العمل به، ﴿فإنما يضل عليها﴾: ولا يضر الله شيئاً فلا يضر إلا نفسه. ﴿وما أنا عليكم بوكيل﴾: فأحفظ أعمالكم وأحاسبكم عليها، وإنما أنا لكم نذير مبين، والله عليكم وكيل؛ فانظروا لأنفسكم ما دتم في مدة الإمهال.

﴿١٠٩﴾ ﴿واتبع﴾: أيها الرسول ما أوحى إليك علماً وعملاً وحالاً ودعوة إليه، ﴿واصبر﴾: على ذلك؛ فإن هذا أعلى أنواع الصبر، وإن عاقبته حميدة؛ فلا تكسل ولا تضجر، بل دُم على ذلك واثبت، ﴿حتى يحكم الله﴾: بينك وبين من كذبك. ﴿وهو خير الحاكمين﴾: فإن حكمه مشتمل على العدل التام والقسط الذي يُحمد عليه. وقد امثل ﷺ أمر ربّه، وثبت على الصراط المستقيم، حتى أظهر الله دينه على سائر الأديان، ونصره على أعدائه بالسيف والسنان، بعدما نصره الله عليهم بالحجة والبرهان، فله الحمد والثناء الحسن كما ينبغي لجلاله وعظمته وكماله وسعة إحسانه.

تم تفسير سورة يونس. والحمد لله رب العالمين.





## تفسير سورة هود عليه السلام

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ كِتَابٌ أَنْحَكْتَ ءَايَاتُهُ ثُمَّ فَضَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُرْمِنْتَهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَإِنْ أَسْتَفِرُّوا رَبَّكَ ثُمَّ تَوَبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِي كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾﴾ .

﴿١﴾ يقول تعالى: هذا ﴿كتاب﴾: عظيم ونزل كريم، ﴿أَنْحَكْتَ آيَاتِهِ﴾؛ أي: أتقنت وأحسنت، صادقة أخبارها، عادلة أوامرها ونواهيها، فصيحة ألفاظه بهية معانيه، ﴿ثُمَّ فَضَّلَتْ﴾؛ أي: ميزت وبينت بياناً في أعلى أنواع البيان، ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ﴾: يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها، لا يأمر ولا ينهى إلا بما تقتضيه حكمته، ﴿خَيْرٍ﴾: مطلع على الظواهر والبواطن؛ فإذا كان إحكامه وتفصيله من عند الله الحكيم الخبير؛ فلا تسأل بعد هذا عن عظمته وجلالته واشتماله على كمال الحكمة وسعة الرحمة.

﴿٢﴾ وإنما أنزل الله كتابه لأن لا تعبدوا إلا الله؛ أي: لأجل إخلاص الدين كله لله، وأن لا يُشْرِكْ به أحدٌ من خلقه. ﴿إِنِّي لَكُمْ﴾: أيها الناس، ﴿مِنهُ﴾؛ أي: من الله ربكم ﴿نَذِيرٌ﴾: لمن تجرأ على المعاصي بعقاب الدنيا والآخرة، ﴿وَبَشِيرٌ﴾: للمطيعين لله بثواب الدنيا والآخرة.

﴿٣﴾ ﴿وَأَنْ أَسْتَفِرُّوا رَبَّكُمْ﴾: عن ما صدر منكم من الذنوب، ﴿ثُمَّ تَوَبُوا إِلَيْهِ﴾: فيما تستقبلون من أعماركم بالرجوع إليه بالإنابة والرجوع عما يكرهه الله إلى ما يحبّه ويرضاه. ثم ذكر ما يترتب على الاستغفار والتوبة، فقال: ﴿يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا﴾؛ أي: يعطيكم من رزقه ما تتمتعون به، وتنتفعون ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ أي: إلى وقت وفاتكم. ﴿وَيُؤْتِي﴾: منكم ﴿كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾؛ أي: يعطي أهل الإحسان والبر من فضله وبرّه ما هو جزاء لإحسانهم من حصول ما يحبون ودفع ما يكرهون. ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾: عن ما دعوتكم إليه، بل أعرضتم عنه، وربّما كذبتم به، ﴿فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾: وهو يوم القيامة، الذي يجمع الله فيه الأوّلين والآخريين.

﴿٤﴾ فيجازيهم بأعمالهم إن خيراً؛ فخير، وإن شراً؛ فشر. وفي قوله: ﴿وهو على كل شيء قدير﴾: كالدليل على إحياء الله الموتى؛ فإنه على كل شيء قدير<sup>(١)</sup>، ومن جملة الأشياء إحياء الموتى، وقد أخبر بذلك، وهو أصدق القائلين؛ فيجب وقوع ذلك عقلاً ونقلاً.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنۢنُونَ صُدُورَهُمْ لَيَسۡتَخۡفُوا مِنۡهُ أَلَا حِينٌ يَسۡتَغۡشَوۡنَ ثِيَابَهُمْ يَعۡلَمُ مَا يُسۡرُونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾

﴿٥﴾ يخبر تعالى عن جهل المشركين وشدة ضلالهم أنهم ﴿يَننُونَ صدورهم﴾؛ أي: يميلونها ليستخفوا من الله، فتقع صدورهم حاجةً لعلم الله بأحوالهم وبصره لهيئاتهم. قال تعالى مبيناً خطأهم في هذا الظن: ﴿أَلَا حِينٌ يَسْتَغْشَوْنَ ثِيَابَهُمْ﴾؛ أي: يتغطون بها، يعلمهم في تلك الحال التي هي من أخفى الأشياء، بل ﴿يعلم ما يُسرُونَ﴾: من الأقوال والأفعال، ﴿وما يُعلنون﴾: منها، بل ما هو أبلغ من ذلك، وهو: ﴿إنه عليهم بذات الصدور﴾؛ أي: بما فيها من الإرادات والوساوس والأفكار التي لم ينطقوا بها سراً ولا جهرًا؛ فكيف تخفى عليه حالكم إذا ثنيتم صدوركم لتستخفوا منه؟!

ويحتمل أن المعنى في هذا: أن الله يذكر إعراض المكذبين للرسول، الغافلين عن دعوته، أنهم من شدة إعراضهم يننون صدورهم؛ أي: يخذوذبون حين يرون الرسول؛ لئلا يراهم ويُسْمِعَهُمْ دعوته ويعظّمهم بما ينفعهم؛ فهل فوق هذا الإعراض شيء؟! ثم توعدهم بعلمه تعالى بجميع أحوالهم وأنهم لا يخفون عليه، وسيجازيهم بصنيعهم.

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوَدَّعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾

﴿٦﴾ أي: جميع ما دبّ على وجه الأرض من آدمي<sup>(٢)</sup> وحيوانٍ برّيٍ أو بحريٍّ؛ فالله تعالى قد تكفل بأرزاقهم وأقواتهم، فرزقهم<sup>(٣)</sup> على الله. ﴿ويعلم مستقرها ومستودعها﴾؛ أي: يعلم مستقر هذه الدواب، وهو المكان الذي تقيم فيه وتستقرُّ

(١) في (ب): «فإنه قدير على كل شيء».

(٢) في (ب): «أو».

(٣) في (ب): «فرزقها».

فيه وتأوي إليه، ومستودعها المكان الذي تنتقل إليه في ذهابها ومجيئها وعوارض أحوالها. ﴿كُلٌّ﴾: من تفاصيل أحوالها ﴿في كتاب مبين﴾؛ أي: في اللوح المحفوظ، المحتوي على جميع الحوادث الواقعة، والتي تقع في السماوات والأرض، الجميع قد أحاط بها علم الله، وجرى بها قلمه، ونفذت فيها مشيئته ووسعها رزقه؛ فلتطمئن القلوب إلى كفاية من تكفل بأرزاقها، وأحاط علماً بذواتها وصفاتها.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِن أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْسِبُهُ آلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿٧﴾ يخبر تعالى أنه ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة. ﴿و﴾ حين خلق السماوات والأرض، ﴿كان عرشه على الماء﴾: فوق السماء السابعة؛ فبعد أن خلق السماوات والأرض؛ استوى على عرشه، يدبر الأمور ويصرفها كيف شاء من الأحكام القدرية والأحكام الشرعية. ولهذا قال: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾؛ أي: ليمتحنكم إذ خلق لكم ما في السماوات والأرض بأمره ونهيه، فينظر أيكم أحسن عملاً. قال الفضيل بن عياض رحمه الله: أخلصه وأصوبه. قيل: يا أبا علي! ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إنَّ العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً؛ لم يُقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً؛ لم يُقبل، حتى يكون خالصاً صواباً. والخالص: أن يكون لوجه الله، والصواب: أن يكون متبعاً فيه الشرع والسنة. وهذا كما قال تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾: فالله تعالى خلق الخلق لعبادته ومعرفته بأسمائه وصفاته، وأمرهم بذلك؛ فمن انقاد وأدى ما أمر به؛ فهو من المفلحين، ومن أعرض عن ذلك؛ فأولئك هم الخاسرون، ولا بد أن يجمعهم في دار يجازيهم على ما أمرهم به ونهاهم. ولهذا ذكر الله تكذيب المشركين بالجزاء، فقال: ﴿ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولنَّ الذين كفروا إن هذا إلا سحرٌ مبين﴾؛ أي: ولئن قلت لهؤلاء

وأخبرتهم بالبعث بعد الموت؛ لم يصدّقوك، بل كذبوك أشدّ الكذب<sup>(١)</sup>، وقدحوا فيما جئت به، وقالوا: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾: ألا وهو الحقّ المبين.

﴿٨﴾ ﴿وَلْتَنُ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾؛ أي: إلى وقت مقدّر فتباطؤوه، لقالوا من جهلهم وظلمهم: ﴿مَا يَحْسِبُهُ﴾؟! ومضمونُ هذا تكذيبهم به؛ فإنهم يستدلّون بعدم وقوعه بهم عاجلاً على كذب الرسول المخبر بوقوع العذاب؛ فما أبعد هذا الاستدلال. ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾: فيتمكّنون من النظر في أمرهم، ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾؛ أي: نزل ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾: من العذاب حيث تهاونوا به، حتى جزموا بكذب مَنْ جاء به.

﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ ۖ وَلَيْنَ أَذَقْتُهُ نِعْمًا بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسْتَه لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۖ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۖ﴾

﴿٩ - ١٠﴾ يخبر تعالى عن طبيعة الإنسان أنه جاهل ظالم: بأنّ الله إذا أذاقه منه رحمة كالصحة والرزق والأولاد ونحو ذلك، ثم نزعها منه؛ فإنه يستسلم لليأس وينقاد للحنوط؛ فلا يرجو ثواب الله ولا يخطر بباله أنّ الله سيردّها أو مثلها أو خيراً منها عليه، وأنّه إذا أذاقه رحمة من بعد ضراء مسته، أنه يفرح ويبتطر ويظنّ أنه سيدوم له ذلك الخير ويقول: ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾؛ أي: يفرح بما أوتي مما يوافق هوى نفسه، فخورٌ بنعم الله على عباد الله، وذلك يحمله على الأشر والبطر والإعجاب بالنفس والتكبر على الخلق واحتقارهم وازدراءهم، وأيّ عيب أشدّ من هذا؟!

﴿١١﴾ وهذه طبيعة الإنسان من حيث هو؛ إلا مَنْ وفقه الله وأخرجه من هذا الخلق الذميمة إلى ضده، وهم الذين صبروا أنفسهم عند الضراء فلم يياسوا، وعند السراء فلم يبظروا، وعملوا الصالحات من واجبات ومستحبات. ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾؛ لذنوبهم يزول بها عنهم كل محذور، ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾؛ وهو الفوز بجنات النعيم التي فيها ما تشتهيهِ الأنفس، وتلذّد الأعين.

﴿فَلَمَّا كَثُرَ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَصَاحِبُكَ بِهِ صَدَرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ

(١) في (ب): «أشدّ الكذب».

جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ وَادْعُوا مَنِ اسْتَعْظَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ ﴿١٣﴾ فَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا إِنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾

﴿١٢﴾ يقول تعالى مسلماً لنبية محمد ﷺ عن تكذيب المكذبين: ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز﴾؛ أي: لا ينبغي هذا لمثلك؛ أن قولهم يؤثر فيك ويصدك عما أنت عليه، فتترك بعض ما يوحى إليك، ويضيق صدرك لتعتتهم بقولهم: ﴿لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك﴾: فإن هذا القول ناشىء من تعنت وظلم وعناد وضلال وجهل بمواقع الحجج والأدلة؛ فامض على أمرك، ولا تصدك هذه الأقوال الركيكة التي لا تصدرك إلا من سفية، ولا يضيق لذلك صدرك؛ فهل أوردوا عليك حجة لا تستطيع حلها؟! أم قدحوا ببعض ما جئت به قدحاً يؤثر فيه وينقص قدره فيضيق صدرك لذلك؟! أم عليك حسابهم ومطالب بهدايتهم جبراً؟! ﴿إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل﴾: فهو الوكيل عليهم، يحفظ أعمالهم، ويجازيهم بها أتم الجزاء.

﴿١٣﴾ ﴿أم يقولون افتراه﴾؛ أي: افتري محمد هذا القرآن، فأجابهم بقوله: ﴿قل﴾: لهم: ﴿فأتوا بعشر سورٍ مثله مفتريات وادعوا من استظعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾؛ أي: إنه قد افتراه؛ فإنه لا فرق بينكم وبينه في الفصاحة والبلاغة، وأنتم الأعداء حقاً الحريصون بغاية ما يمكنكم على إبطال دعوته فإن كنتم صادقين فأتوا بعشر سورٍ مثله مفتريات!

﴿١٤﴾ ﴿فإن لم يستجيبوا لكم﴾: على شيء من ذلكم، ﴿فاعلموا أنما أنزل بعلم الله﴾: من عند الله<sup>(١)</sup>؛ لقيام الدليل والمقتضي وانتفاء المعارض. ﴿وأن لا إله إلا هو﴾؛ أي: واعلموا أنه لا إله إلا هو؛ أي: هو [وحده] المستحق للالوهية والعبادة. ﴿فهل أنتم مسلمون﴾؛ أي: منقادون لألوهيته، مستسلمون لعبوديته.

وفي هذه الآيات إرشاد إلى أنه لا ينبغي للداعي إلى الله أن يصدّه اعتراض المعترضين ولا قدح القادحين، خصوصاً إذا كان القدح لا مستند له ولا يقدر فيما دعا إليه، وأنه لا يضيق صدره، بل يطمئن بذلك، ماضياً على أمره، مقبلاً على

(١) في (ب): «فاعلموا أنما أنزل بعلم الله» وقد شطب الشيخ من (ب) قوله: «من عند الله».

شأنه، وأنه لا يجب إجابة اقتراحات المقترحين للأدلة التي يختارونها، بل يكفي إقامة الدليل السالم عن المعارض على جميع المسائل والمطالب.

وفيها: أن هذا القرآن معجزٌ بنفسه، لا يقدر أحدٌ من البشر أن يأتي بمثله، ولا بعشر سورٍ مثله، بل ولا بسورةٍ من مثله؛ لأنَّ الأعداء البلغاء الفصحاء تحدّاهم الله بذلك، فلم يعارضوه؛ لعلمهم أنّهم لا قدرة فيهم على ذلك.

وفيها: أن مما يُطلَبُ فيه العِلْمُ ولا يكفي غلبة الظنِّ، علِمَ القرآنُ وعلِمَ التوحيد؛ لقوله تعالى: ﴿فاعلموا أنّما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو﴾.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿١٥﴾ يقول تعالى: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها﴾؛ أي: كلُّ إرادته مقصورةً على الحياة الدنيا وعلى زينتها من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، قد صرف رغبته وسعيه وعمله في هذه الأشياء، ولم يجعل لدار القرار من إرادته شيئاً؛ فهذا لا يكون إلا كافراً؛ لأنّه لو كان مؤمناً؛ لكان ما معه من الإيمان يمنعه أن تكون جميع إرادته للدار الدنيا، بل نفس إيمانه وما تيسر له من الأعمال أثرٌ من آثار إرادته الدار الآخرة، ولكن، هذا الشقي الذي كأنه خُلِقَ للدنيا وحدها، ﴿نوف إليهم أعمالهم فيها﴾؛ أي: نعطيهم ما قُسم لهم في أم الكتاب من ثواب الدنيا. ﴿وهم فيها لا يُبْخَسُونَ﴾؛ أي: لا يُنْقَصون شيئاً مما قُدِّر لهم، ولكن هذا منتهى نعيمهم.

﴿١٦﴾ ﴿أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار﴾: خالدٍ فيها أبداً، لا يفترونهم العذاب، وقد حرموا جزيل الثواب. ﴿وحبِطَ ما صنعوا فيها﴾؛ أي: في الدنيا؛ أي: بطل، واضمحَلَّ ما عملوه مما يكيدون به الحق وأهله، وما عملوه من أعمال الخير التي لا أساس لها، ولا وجود لشرطها وهو الإيمان.

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَتَلَّوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَتْ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿١٧﴾ يذكر تعالى حال رسوله محمد ﷺ ومن قام مقامه من ورثته القائمين

بدينه. وحججه الموقنين بذلك، وأنهم لا يوصف بهم غيرهم، ولا يكون أحد مثلهم، فقال: ﴿أفمن كان على بينة من ربه﴾: بالوحي الذي أنزل<sup>(١)</sup> الله فيه المسائل المهمة ودلائلها الظاهرة، فتيقن تلك البينة، ﴿ويتلوه﴾؛ أي: يتلو هذه البينة والبرهان برهاناً آخر، ﴿شاهد منه﴾: وهو شاهد الفطرة المستقيمة والعقل الصحيح، حين شهد حقيقة ما أوحاه الله وشرعه وعلم بعقله حسنه فازداد بذلك إيماناً إلى إيمانه ﴿و﴾ ثم شاهد ثالث؛ وهو ﴿كتاب موسى﴾: التوراة التي جعلها الله ﴿إماماً﴾ للناس ﴿ورحمة﴾ لهم، يشهد لهذا القرآن بالصدق ويوافقه فيما جاء به من الحق؛ أي: أفمن كان بهذا الوصف، قد تواردت عليه شواهد الإيمان وقامت لديه أدلة اليقين؛ كمن هو في الظلمات والجهالات ليس بخارج منها؟ لا يستوون عند الله ولا عند عباد الله. ﴿أولئك﴾؛ أي: الذين وفقوا لقيام الأدلة عندهم، يؤمنون بالقرآن حقيقة، فيثمر لهم إيمانهم كل خير في الدنيا والآخرة.

﴿ومن يكفر به﴾؛ أي: القرآن، ﴿من الأحزاب﴾؛ أي: سائر طوائف أهل الأرض المتحزبة على رد الحق، ﴿فالنار موعده﴾: لا بد من وروده إليها، ﴿فلا تك في مرية [منه]﴾؛ أي: في أدنى شك. ﴿إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾: إما جهلاً منهم وضلالاً، وإما ظلاماً وعناداً وبغياً، وإلا؛ فمن كان قصده حسناً وفقهه مستقيماً؛ فلا بد أن يؤمن به؛ لأنه يرى ما يدعو إلى الإيمان من كل وجه.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿١٨﴾ يخبر تعالى أنه لا أحد ﴿أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾: ويدخل في هذا كل من كذب على الله بنسبة الشريك له، أو وصفه بما لا يليق بجلاله، أو

(١) في (ب): «أنزله».

الإخبار عنه بما لم يقل، أو ادعاء النبوة، أو غير ذلك من الكذب على الله؛ فهؤلاء أعظم الناس ظلماً. ﴿أولئك يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ﴾: ليجازيهم بظلمهم؛ فعندما يحكم عليهم بالعقاب الشديد؛ ﴿يقولُ الأَشْهَادُ﴾؛ أي: الذين شهدوا عليهم بافترائهم وكذبهم: ﴿هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين﴾؛ أي: لعنة لا تقطع؛ لأنَّ ظلمهم صار وصفاً لهم ملازماً، لا يقبل التخفيف.

﴿١٩﴾ ثم وصف ظلمهم فقال: ﴿الذين يصدّون عن سبيل الله﴾: فصدّوا بأنفسهم عن سبيل الله، وهي سبيل الرسل التي دعوا الناس إليها، وصدّوا غيرهم عنها، فصاروا أئمة يدعون إلى النار ﴿ويبغونها﴾؛ أي: سبيل الله ﴿عوجاً﴾؛ أي: يجتهدون في ميلها وتشينها وتهجينها؛ لتصير عند الناس غير مستقيمة، فيحسّنون الباطل؛ ويقبّحون الحق؛ قبحهم الله. ﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾.

﴿٢٠﴾ ﴿أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض﴾؛ أي: ليسوا فائتين الله؛ لأنهم تحت قبضته وفي سلطانه، ﴿وما كان لهم من دون الله من أولياء﴾: فيدفعون عنهم المكروه أو يحصلون لهم ما ينفعهم، بل تقطعت بهم الأسباب. ﴿يضاعف لهم العذاب﴾؛ أي: يغلظ ويزداد؛ لأنهم ضلوا بأنفسهم وأضلوا غيرهم. ﴿ما كانوا يستطيعون السمع﴾؛ أي: من بغضهم للحق ونفورهم عنه، ما كانوا يستطيعون أن يسمعوا آيات الله سماعاً يتفهمون به؛ ﴿فما لهم عن التذكرة معرضين﴾. كأنهم حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ. فرث من قسورة، ﴿وما كانوا يبصرون﴾؛ أي: ينظرون نظر عبرة وتفكر فيما ينفعهم، وإنما هم كالصم البكم الذين لا يعقلون.

﴿٢١﴾ ﴿أولئك الذين خسروا أنفسهم﴾: حيث فوتوها أعظم الثواب واستحقوا أشد العذاب، ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾؛ أي: اضمحل دينهم الذي يدعون إليه ويحسّنونه، ولم تغن عنهم آلهتهم التي يعبدون من دون الله لما جاء أمر ربك.

﴿٢٢﴾ ﴿لا جرم﴾؛ أي: حقاً وصدقاً، ﴿أنهم في الآخرة هم الأخسرون﴾: حصر الخسار فيهم، بل جعل لهم منه أشده؛ لشدة حسرتهم وحرمانهم وما يعانون من المشقة من العذاب، فنستجير بالله من حالهم.

ولما ذكر حال الأشقياء؛ ذكر أوصاف السعداء وما لهم عند الله من الثواب، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا



خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ .

﴿٢٣﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: بقلوبهم؛ أي: صدقوا واعترفوا لما أمر الله بالإيمان به من أصول الدين وقواعده، ﴿وعملوا الصالحات﴾: المشتملة على أعمال القلوب والجوارح وأقوال اللسان، ﴿وأخبتوا إلى ربهم﴾؛ أي: خضعوا له واستكانوا لعظمته وذلوا لسلطانه، وأنابوا إليه بمحبته وخوفه ورجائه والتضرع إليه. ﴿أولئك﴾: الذين جمعوا تلك الصفات، ﴿أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾: لأنهم لم يتركوا من الخير مطلباً إلا أدركوه، ولا خيراً إلا سَبَقُوا إليه.

﴿٢٤﴾ ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾؛ أي: فريق الأشقياء وفريق السعداء، ﴿كالأعمى والأصم﴾: هؤلاء الأشقياء. ﴿والبصير والسميع﴾: مثل السعداء. ﴿هل يستويان مثلاً؟ لا يستويان مثلاً، بل بينهما من الفرق ما لا يأتي عليه الوصف.﴾ ﴿أفلا تذكرون﴾: الأعمال التي تنفعكم فتفعلونها، والأعمال التي تضركم فتركونها.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِتِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾<sup>(١)</sup> ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْآسْرِ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرِيكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرِيكَ أَن تَبْعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِآدَى الرَّأْيِ وَمَا نَرِي لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُمْ عَلَىٰ يَدَيْ رَبِّي وَمَآئِنِي رَحْمَةً مِّن عِندِي فَعَمِيَّتْ عَلَيْكُمُ الْآلَةُ الْمُكْمَلُومَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَاهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُوا لَا آتَاكُم بِهِ مَالًا إِن أَعْرَجِي إِلَّا عَلَىٰ اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُّكْلِفُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَىٰ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَقُولُوا مَن يُضْرِبِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَفْتُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا يَا شُعْبُقُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَيْنَا يَا مَعْدَنًا إِن كُنتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِن أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ

(١) في (ب): إلى آخر القصة.

تَرْجِعُونَ ﴿٢٥﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُمْ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَجْعُرُونَ ﴿٢٥﴾  
 وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٦﴾  
 وَأَصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ وَصْنَعُ الْفُلِكَ  
 وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٢٨﴾  
 فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُثْقِلٌ ﴿٢٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا  
 وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ  
 وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٠﴾ \* وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَرِّبُهَا وَمُرْسَاهُ إِنْ رَأَىٰ لَغْوَرٌ  
 رَجِمْ ﴿٣١﴾ وَهِيَ تَجْرَىٰ بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَئِ أَرْكَبَ  
 مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ سَتَأْتِي إِلَىٰ جِبَلٍ يَئِصُّنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ  
 مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجَعُ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ يَتَّارِضْ أَبْلَىٰ مَاءِكَ  
 وَنَسَمَاءُ أَفْلَىٰ وَغِيصَ الْمَاءِ وَفُصِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٣٤﴾  
 وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ أَبِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٣٥﴾ قَالَ  
 يَنْتُوخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلِنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّي أَخْطَاكَ أَنْ تَكُونَ  
 مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَتَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرَ لِي  
 وَتَرْحَمَنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٧﴾ قِيلَ يَنْتُوخُ أَهِيظُ بِسَلْمِ مِنَّا وَبَرَكَاتِ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِمَّنْ  
 مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنَمَتُهُمْ ثُمَّ يَمْسَهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا  
 كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٩﴾ \* .

﴿٢٥﴾ أي: ﴿ولقد أرسلنا نوحا﴾: أول المرسلين ﴿إلى قومه﴾: يدعوهم إلى الله وينهاهم عن الشرك، فقال: ﴿إني لكم نذيرٌ مبين﴾؛ أي: بينت لكم ما أُنذرتكم به بيانا زال به الإشكال.

﴿٢٦﴾ ﴿أن لا تعبدوا إلا الله﴾؛ أي: أخلصوا العبادة لله وحده، واتركوا كل ما يُعبد من دون الله. ﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم﴾: إن لم تقوموا بتوحيد الله وتطيعوني.

﴿٢٧﴾ ﴿فقال الملا الذين كفروا من قومه﴾؛ أي: الأشراف والرؤساء راديين لدعوة نوح عليه السلام كما جرت العادة لأمثالهم أنهم أول من رد دعوة المرسلين

﴿ما نراك إلا بشراً مثلاً﴾: وهذا مانع بزعمهم عن أتباعه، مع أنه في نفس الأمر هو الصواب الذي لا ينبغي غيره؛ لأنَّ البشر يتمكَّن البشرُ أن يتلقَّوا عنه ويراجعوه في كلِّ أمر؛ بخلاف الملائكة. ﴿وما نراك أتبعك إلا الذين هم أراذلنا﴾؛ أي: ما نرى أتبعك ممَّا إلا الأراذل والسفلة - بزعمهم - وهم في الحقيقة الأشرافُ وأهل العقول، الذين انقادوا للحقِّ، ولم يكونوا كالأراذل الذين يُقال لهم: الملاء، الذين أتبعوا كلَّ شيطان مريد، وأتخذوا آلهة من الحجر والشجر يتقربون إليها ويسجدون لها؛ فهل ترى أرذل من هؤلاء وأخس؟! وقولهم: ﴿بادي الرأي﴾؛ أي: إنما أتبعوك من غير تفكُّر وروية، بل بمجرد ما دعوتهم أتبعوك؛ يعنون بذلك أنهم ليسوا على بصيرة من أمرهم، ولم يعلموا أنَّ الحقَّ المبين تدعو إليه بداهة العقول، وبمجرد ما يصل إلى أولي الألباب يعرفونه ويتحقَّقونه، لا كالأمور الخفية التي تحتاج إلى تأمل وفكر طويل. ﴿وما نرى لكم علينا من فضل﴾؛ أي: لستم أفضل منا فننقاد لكم، ﴿بل نظنُّكم كاذبين﴾: وكذبوا في قولهم هذا؛ فإنهم رأوا من الآيات التي جعلها الله مؤيدة لنوح ما يوجب لهم الجزم التام على صدقه.

﴿٢٨﴾ ولهذا ﴿قال﴾ لهم نوحٌ مجابياً: ﴿يا قوم أرايتم إن كنتُ على بينة من ربِّي﴾؛ أي: على يقين وجزم؛ يعني: وهو الرسول الكامل القدوة، الذي ينقاد له أولو الألباب، وتضمجِّل في جنب عقله عقول الفحول من الرجال، وهو الصادق حقًّا؛ فإذا قال: إني على بينة من ربِّي؛ فحسبك بهذا القول شهادة له وتصديقاً. ﴿وأتاني رحمة من عنده﴾؛ أي: أوحى إليَّ وأرسلني ومنَّ عليَّ بالهداية، ﴿فعميت عليكم﴾؛ أي: خفيت عليكم وبها تناقستم، ﴿أنلزمكموها﴾؛ أي: أنكرهكم على ما تحقَّقناه، وشككتم أنتم فيه. وأنتم كارهون حتى حرصتم على ردِّ ما جئتُ به، ليس ذلك ضارِّنا، وليس بقادح من يقيننا فيه، ولا قولكم وافتراؤكم علينا صادًّا لنا عمَّا كنَّا عليه، وإنَّما غايته أن يكون صادًّا لكم أنتم وموجباً لعدم انقيادكم للحقِّ الذي تزعمون أنه باطل؛ فإذا وصلت الحال إلى هذه الغاية؛ فلا نقدر على إكراهكم على ما أمر الله ولا إلزامكم ما نفرثم عنه، ولهذا قال: ﴿أنلزمكموها وأنتم لها كارهون﴾!؟

﴿٢٩﴾ ﴿ويا قوم لا أسألكم عليه﴾؛ أي: على دعوتي إياكم ﴿مالاً﴾: فتستثقلون المغرم، ﴿إن أجري إلا على الله﴾: وكأنهم طلبوا منه طرد المؤمنين الضعفاء، فقال لهم: ﴿وما أنا بطارد الذين آمنوا﴾؛ أي: ما ينبغي لي ولا يليق بي

ذلك، بل أتلقاهم بالرحب والإكرام والإعزاز والإعظام، ﴿إِنَّهُمْ مَلَاقُو رَبِّهِمْ﴾: فميشيهم على إيمانهم وتقواهم بجنت النعيم. ﴿وَلَكِنِّي أُرَاكُم قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾: حيث تأمروني بطرد أولياء الله وإبعادهم عني، وحيث رددتكم الحق لأنهم أتباعه، وحيث استدلتهم على بطلان الحق بقولكم: إني بشرٌ مثلكم، وإنه ليس لنا عليكم من فضل.

﴿٣٠﴾ ﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُمْهُمْ﴾؛ أي: مَنْ يَمْنَعُنِي مِنْ عَذَابِهِ؛ فَإِنَّ طَرْدَهُمْ مُوجِبٌ لِلْعَذَابِ وَالتَّكَالِ الَّذِي لَا يَمْنَعُهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَانِعٌ. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾: مَا هُوَ الْأَنْفَعُ لَكُمْ وَالْأَصْلَحُ وَتَدَبَّرُونَ الْأُمُورَ؟!﴾

﴿٣١﴾ ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾؛ أي: غَايَتِي أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ؛ أَبْشُرْكُمْ وَأَنْذِرْكُمْ، وَمَا عَدَا ذَلِكَ؛ فَلَيْسَ بِيَدِي مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ، فَلَيْسَتْ خَزَائِنُ اللَّهِ عِنْدِي أَدْبَرَهَا أَنَا وَأَعْطَيْتُ مَنْ أَشَاءُ وَأَحْرَمُ مَنْ أَشَاءُ. ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾: فَأَخْبِرْكُمْ بِسِرَائِرِكُمْ وَبِوِطْأَتِكُمْ، ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾: وَالْمَعْنَى أَنِّي لَا أَدْعِي رَتْبَةً فَوْقَ رَتْبَتِي، وَلَا مَنْزِلَةً سِوَى الْمَنْزِلَةِ الَّتِي أَنْزَلَنِي اللَّهُ بِهَا، وَلَا أَحْكَمُ عَلَى النَّاسِ بظنِّي، فَلَا ﴿أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنَكُمْ﴾؛ أي: الضعفاء<sup>(١)</sup> الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَحْتَقِرُهُمُ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا؛ ﴿لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾: فَإِنْ كَانُوا صَادِقِينَ فِي إِيمَانِهِمْ؛ فَلَهُمُ الْخَيْرُ الْكَثِيرُ، وَإِنْ كَانُوا غَيْرَ ذَلِكَ؛ فَحَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ. ﴿إِنِّي إِذْكَ﴾؛ أي: إِنْ قُلْتُ لَكُمْ شَيْئًا مِمَّا تَقْدَمُ، ﴿لِمَنْ الظَّالِمِينَ﴾: وَهَذَا تَأْيِيسٌ مِنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِقَوْمِهِ أَنْ يَنْبَذَ فَقَرَاءَ الْمُؤْمِنِينَ أَوْ يَمْقِتَهُمْ، وَتَقْنِيعٌ لِقَوْمِهِ بِالطَّرْقِ الْمُقْنَعَةِ لِلْمَنْصَفِ.

﴿٣٢﴾ ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ لَا يَنْكِفُ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ دَعْوَتِهِمْ وَلَمْ يَدْرِكُوا مِنْهُ مَطْلُوبَهُمْ؛ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ [من العذاب] ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾: فَمَا أَجْهَلُهُمْ وَأَضْلَهُمْ! حَيْثُ قَالُوا هَذِهِ الْمَقَالَةُ لِنَبِيِّهِمُ النَّاصِحِ؛ فَهَلَّا قَالُوا إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ: يَا نُوحُ! قَدْ نَصَحْتَنَا وَأَشْفَقْتَ عَلَيْنَا وَدَعَوْتَنَا إِلَى أَمْرٍ لَمْ يَتَبَيَّنْ لَنَا فَرِيدٌ مِنْكَ أَنْ تَبَيَّنَ لَنَا لِنَتَقَادَ لَكَ، وَإِلَّا فَأَنْتَ مُشْكُورٌ فِي نَصْحِكَ؛ لَكَانَ هَذَا الْجَوَابُ الْمَنْصَفِ لِلَّذِي قَدْ دُعِيَ إِلَى أَمْرٍ خَفِيَ عَلَيْهِ، وَلَكِنَّهُمْ فِي قَوْلِهِمْ كَاذِبُونَ، وَعَلَى نَبِيِّهِمْ مُتَجَرِّثُونَ، وَلَمْ يَرُدُّوْا مَا قَالَهُ بِأَدْنَى شِبْهِةٍ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَرُدُّوهُ بِحُجَّةٍ،

(١) فِي (ب): «الضعفاء».

ولهذا عدلوا من جهلهم وظلمهم إلى الاستعجال بالعذاب وتعجيز الله .

﴿٣٣﴾ ولهذا أجابهم نوح عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ﴾؛ أي: إن اقتضت مشيئته وحكمته أن يُنزلَ بكم؛ فعل ذلك، ﴿وما أنتم بمعجزين﴾: لله، وأنا ليس بيدي من الأمر شيء.

﴿٣٤﴾ ﴿ولا ينفعكم نُصحي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يَرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾؛ أي: إن إرادة الله غالبية؛ فإنه إذا أراد أن يغويكم لردكم الحق؛ فلو حرصت غاية مجهودي ونصحت لكم أتم النصح - وهو قد فعل عليه السلام -؛ فليس ذلك بنافع لكم شيئاً. ﴿هو ربكم﴾: يفعل بكم ما يشاء ويحكم فيكم بما يُريد، ﴿وإليه تُرْجَعُونَ﴾: فيجازيكم بأعمالكم.

﴿٣٥﴾ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾: هذا الضمير محتمل أن يعود إلى نوح كما كان السياق في قصته مع قومه، وأن المعنى: إن قومه يقولون: افترى على الله كذباً، وكذب بالوحي الذي يزعم أنه من الله، وأن الله أمره أن يقول: ﴿قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلِيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾؛ أي: كلٌ عليه وزره، ﴿ولا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾. ويحتمل أن يكون عائداً إلى النبي محمد ﷺ، وتكون هذه الآية معترضة في أثناء قصة نوح وقومه؛ لأنها من الأمور التي لا يعلمها إلا الأنبياء، فلما شرع الله في قصصها على رسوله، وكانت من جملة الآيات الدالة على صدقه ورسالته؛ ذكر تكذيب قومه له، مع البيان التام، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾؛ أي: هذا القرآن اختلقه محمد من تلقاء نفسه؛ أي: فهذا من أعجب الأقوال وأبطلها؛ فإنهم يعلمون أنه لم يقرأ ولم يكتب ولم يرحل عنهم لدراسة على أهل الكتب، فجاء بهذا الكتاب الذي تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله؛ فإذا زعموا مع هذا أنه افتراه؛ عليم أنهم معاندون، ولم يبق فائدة في حجاجهم، بل اللائق في هذه الحال الإعراض عنهم، ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلِيَّ إِجْرَامِي﴾؛ أي: ذنبي وكذبي. ﴿وأنا بريء مما تجرمون﴾؛ أي: فلم تستلجئون في تكذبي؟

﴿٣٦﴾ وقوله: ﴿وَأُوْحِي إِلَى نُوْحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾؛ أي: قد فسوا ﴿فلا تبتئس بما كانوا يفعلون﴾؛ أي: فلا تحزن ولا تبال بهم وبأفعالهم؛ فإن الله قد مَقَّتْهم وأحق عليهم عذابه الذي لا يرد.

﴿٣٧﴾ ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا﴾؛ أي: بحفظنا ومرأى منا وعلى مرضاتنا، ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا﴾؛ أي: لا تراجعني في إهلاكهم، ﴿إنهم

مُفْرَقُونَ ﴿٣٧﴾؛ أي: قد حَقَّ عليهم القول، وَتَقَدَّرَ فِيهِمُ الْقَدْرُ.

﴿٣٨﴾ فامتثل أمر ربِّه، وَجَعَلَ يصنع الفلك، ﴿وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ﴾: ورأوا ما يصنع، ﴿سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا﴾: الآن، ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾.

﴿٣٩﴾ ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾: نحنُ أم أنتم؟ وقد علموا ذلك حين حلَّ بهم العقاب.

﴿٤٠﴾ ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾؛ أي: قدرنا بوقت نزول العذاب بهم، ﴿وَفَارَ التَّنُورَ﴾؛ أي: أنزل الله السماء بالماء المنهمر، وفجر الأرض كلها عيوناً، حتى التنوير التي هي محلُّ النار في العادة وأبعد ما يكون عن الماء تفجَّرت، فالتقى الماء على أمرٍ قد قدير، ﴿قُلْنَا﴾ لنوح: ﴿احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ آثْنَيْنِ﴾؛ أي: من كلِّ صنفٍ من أصناف المخلوقات ذكر وأنثى؛ لتبقى مادة سائر الأجناس، وأما بقية الأصناف الزائدة عن الزوجين؛ فلأنَّ السفينة لا تطيق حملها، ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾: ممَّن كان كافراً؛ كابنه الذي غرق. ﴿وَمَنْ آمَنَ وَ﴾ - الحال أنه - ﴿مَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

﴿٤١﴾ ﴿وَقَالَ﴾ نوحٌ لمن أمره الله أن يحملهم: ﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبُهَا وَمُرْسَاهَا﴾؛ أي: تجري على اسم الله وترسي<sup>(١)</sup> [على اسم الله وتجري] بتسخيره وأمره. ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: حيث غفر لنا، ورجمنا، ونجاننا من القوم الظالمين.

﴿٤٢﴾ ثم وصف جرياتها كأنها نشاهدها، فقال: ﴿وهي تجري بهم﴾؛ أي: بنوح ومن ركب معه ﴿في موج كالجبال﴾: والله حافظها، وحافظ أهلها، ﴿ونادى نوحُ ابنه﴾: لما ركب ليركب معه، ﴿وكان﴾ ابنه ﴿في مغزل﴾: عنهم حين ركبوا؛ أي: مبتعداً، وأراد منه أن يقرب ليركب، فقال له: ﴿يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين﴾: فيصيبك ما يصيبهم.

﴿٤٣﴾ فقال ابنه مكذباً لأبيه أنه لا ينجو إلا من ركب [معه] السفينة: ﴿سأوي إلى جبل يعصمني من الماء﴾؛ أي: سأرتقي جبلاً أمتنع به من الماء. فقال نوحٌ: ﴿لا عاصمَ اليوم من أمرِ الله إلا من رَحِمَ﴾: فلا يعصم أحداً جبلاً ولا غيره، ولو

(١) كذا في النسختين.

تَسَبَّبَ بِغَايَةِ مَا يَمَكِّنُهُ مِنَ الْأَسْبَابِ؛ لَمَّا نَجَا إِنْ لَمْ يُنَجِّهِ اللَّهُ، ﴿وَحَالِ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ﴾ الْإِبْنُ ﴿مِنَ الْمَغْرَقِينَ﴾.

﴿٤٤﴾ فَلَمَّا أَغْرَقَهُمُ اللَّهُ وَنَجَّى نُوْحًا وَمَنْ مَعَهُ؛ وَ﴿قِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ﴾: الَّذِي خَرَجَ مِنْكَ، وَالَّذِي نَزَلَ إِلَيْكَ، اِبْلَعِي الْمَاءَ الَّذِي عَلَى وَجْهِكَ، ﴿وَيَا سَمَاءَ أَقْلَعِي﴾: فَاثْمَثْنَا لِأَمْرِ اللَّهِ، فَاثْبَلَعَتِ الْأَرْضُ مَاءَهَا، وَأَقْلَعَتِ السَّمَاءُ فَنَضِبَ الْمَاءَ مِنَ الْأَرْضِ، ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾: بِهَلَاكِ الْمَكْذِبِينَ وَنَجَاةِ الْمُؤْمِنِينَ، ﴿وَاسْتَوَتْ﴾ السَّفِينَةُ ﴿عَلَى الْجُودِيِّ﴾؛ أَي: أُرْسِتْ عَلَى ذَلِكَ الْجَبَلِ الْمَعْرُوفِ فِي أَرْضِ الْمَوْصِلِ، ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾؛ أَي: أَتَّبِعُوا بِهَلَاكِهِمْ لَعْنَةً وَبُعْدًا وَسُخْقًا لَا يَزَالُ مَعَهُمْ.

﴿٤٥﴾ ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾؛ [أَي]: وَقَدْ قُلْتَ لِي: فَاحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ، وَلَنْ تُخْلِفَ مَا وَعَدْتَنِي بِهِ. لَعَلَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - حَمَلْتَهُ الشَّفَقَةَ وَأَنَّ اللَّهَ وَعَدَهُ بِنَجَاةِ أَهْلِهِ - ظَنَّ أَنَّ الْوَعْدَ لِعُمُومِهِمْ؛ مَنْ آمَنَ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ؛ فَلذَلِكَ دَعَا رَبَّهُ بِذَلِكَ الدُّعَاءِ، وَمَعَ هَذَا؛ فَفَوَّضَ الْأَمْرَ لِحِكْمَةِ اللَّهِ الْبَالِغَةِ.

﴿٤٦﴾ فَقَالَ اللَّهُ لَهُ: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾: الَّذِينَ وَعَدْتُكَ بِإِنجَائِهِمْ، ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾؛ أَي: هَذَا الدُّعَاءُ الَّذِي دَعَيْتَ<sup>(١)</sup> بِهِ لِنَجَاةِ كَافِرٍ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ، ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾؛ أَي: مَا لَا تَعْلَمُ عَاقِبَتَهُ وَمَآلَهُ، وَهَلْ يَكُونُ خَيْرًا أَوْ غَيْرَ خَيْرٍ. ﴿إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾؛ أَي: إِنِّي أَعْظُكَ وَعِظًا تَكُونَ بِهِ مِنَ الْكَامِلِينَ، وَتَنْجُو بِهِ مِنْ صِفَاتِ الْجَاهِلِينَ.

﴿٤٧﴾ فَحِينَئِذٍ نَدِمَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَدَامَةً شَدِيدَةً عَلَى مَا صَدَرَ مِنْهُ، وَ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾: فَالْمَغْفِرَةُ وَالرَّحْمَةُ يَنْجُو الْعَبْدُ مِنْ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ. وَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ نُوْحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ عِلْمٌ بِأَنَّ سْؤَالَ لِرَبِّهِ فِي نَجَاةِ ابْنِهِ مُحَرَّمٌ دَاخِلٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾، بَلْ تَعَارَضَ عِنْدَهُ الْأَمْرَانِ، وَظَنَّ دَخُولَهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَهْلَكَ﴾، وَبَعْدَ هَذَا<sup>(٢)</sup> تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ دَاخِلٌ فِي الْمَنْهِيِّ عَنِ الدُّعَاءِ لَهُمْ وَالْمَرَاجَعَةِ فِيهِمْ.

(١) كَذَا فِي النُّسَخَاتَيْنِ. وَعُدِّلْتُ فِي (أ) إِلَى: «دَعَوْتُ» بِخَطِّ مَغَايِرِ.

(٢) فِي (ب): «ذَلِكَ».

﴿٤٨﴾ ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ﴾: من الآدميين وغيرهم من الأزواج التي حملها معه، فبارك الله في الجميع، حتى ملؤوا أقطار الأرض ونواحيها ﴿وَأُمَّمٌ سَنَمْتَعُهُمْ﴾: في الدنيا، ﴿ثُمَّ يَمْسُهُمْ مَتًّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: هذا الإنجاء ليس بمانع لنا من أنْ مَنْ كَفَرَ بعد ذلك؛ أحلَلْنَا به العقاب، وإنْ مُتَعُوا قليلاً؛ فسيؤخذون بعد ذلك.

﴿٤٩﴾ قال الله لنبيه محمد ﷺ بعدما قَصَّ عليه هذه القصة المبسوطه التي لا يعلمها إلا مَنْ مَنَّ عليه برسالته: ﴿تلك من أبناء الغيبِ نوحِها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا﴾: فيقولوا: إنه كان يعلمها؛ فاحمد الله واشكره واصبر على ما أنت عليه من الدين القويم والصراط المستقيم والدعوة إلى الله. ﴿إن العاقبة للمتقين﴾: الذين يتقون الشرك وسائر المعاصي، فستكون لك العاقبة على قومك كما كانت لنوح على قومه.

﴿وَالِإِىَّ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا﴾<sup>(١)</sup> قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَنْقُورِ لَا أَشْتَكُرُ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَنْقُورِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَرَبِّذْكُمْ قُوَّةً إِلَى قَوْمِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوِّهِ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ ﴿٥٥﴾ إِنِّي نَوَّكْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِأَصْبِنِهَا إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَقْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَسَخَّخْتُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُمْ شَيْئًا إِنْ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَافِظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَتِنَا وَمَنَّا وَجَعَلْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَمَدُوا بِنَائِبِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ يَوْمِ الْفَيْصَمَةِ الْآلِ إِنْ عَادُوا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بَعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾.

﴿٥٠﴾ أي: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى عاد﴾: وهم القبيلة المعروفة في الأحقاف من أرض اليمن، ﴿أخاهم﴾: في النسب، ﴿هوداً﴾: ليتمكنوا من الأخذ عنه والعلم

(١) في (ب): إلى آخر القصة.



بصدقه، فقال لهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾؛ أي: أمرهم بعبادة الله وحده، ونهاهم عما هم عليه من عبادة غير الله، وأخبرهم أنهم قد افتروا على الله الكذب في عبادتهم لغيره وتجويزهم لذلك، ووضّح لهم وجوب عبادة الله وفساد عبادة ما سواه.

﴿٥١﴾ ثم ذكر عدم المانع لهم من الانقياد، فقال: ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾؛ أي: غرامة من أموالكم على ما دعوتكم إليه فتقولوا: هذا يريد أن يأخذ أموالنا، وإنما أدعوكم وأعلمكم مجاناً. ﴿إِنْ أُجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: ما أدعوكم إليه وأنه موجب لقبوله، منتفٍ المانع عن رده.

﴿٥٢﴾ ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبِّكُمْ﴾: عما مضى منكم، ﴿ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾: فيما تستقبلونه بالتوبة النصوح والإنابة إلى الله تعالى؛ فإنكم إذا فعلتم ذلك؛ ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾: بكثرة الأمطار التي تَحْضُبُ بها الأرض ويكثر خيرها، ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾: فإنهم كانوا من أقوى الناس، ولهذا قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، فوعدهم أنهم إن آمنوا زادهم قُوَّةً إلى قُوَّتِهِمْ، ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا﴾: عنه؛ أي: عن ربكم ﴿مَجْرِمِينَ﴾؛ أي: مستكبرين عن عبادته، متجرئين على محارمه.

﴿٥٣﴾ فقالوا رادّين لقوله: ﴿يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾: إن كان قصدهم بالبينة البينة التي يقترحونها؛ فهذه غير لازمة للحق، بل اللازم أن يأتي النبيّ بآية تدلُّ على صحة ما جاء به، وإن كان قصدهم أنه لم يأتهم ببينة تشهد لما قاله بالصحة؛ فقد كذبوا في ذلك؛ فإنه ما جاء نبيّ لقومه إلا وبعث الله على يديه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، ولو لم يكن له آية إلا دعوته إياهم لإخلاق الدين لله وحده لا شريك له، والأمر بكل عمل صالح وخلق جميل، والنهي عن كل خلق ذميم من الشرك بالله والفواحش والظلم وأنواع المنكرات، مع ما هو مشتمل عليه هوّد عليه السلام من الصفات التي لا تكون إلا لخيار الخلق وأصدقهم، لكفى بها آيات وأدلة على صدقه، بل أهل العقول وأولو الألباب يرون أن هذه الآية أكبر من مجرد الخوارق التي يراها بعض الناس هي المعجزات فقط.

ومن آياته وبيّناته الدالة على صدقه أنه شخصٌ واحدٌ، ليس له أنصار ولا أعوان، وهو يصرخ في قومه ويناديهم ويعجزهم ويقول لهم: إني توكلتُ على الله ربّي وربكم، ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾. من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون﴾: وهم الأعداء الذين لهم السطوة والغلبة، ويريدون إطفاء ما

معه من النور بأيّ طريق كان، وهو غير مكترث منهم ولا مبال بهم، وهم عاجزون لا يقدرّون أن ينالوه بشيء من السوء، إنّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون. وقولهم: ﴿وما نحنُ بباركي آلهتنا عن قولك﴾؛ أي: لا نترك عبادة آلهتنا لمجرد قولك الذي ما أقمّت عليه بيّنة بزعمهم. ﴿وما نحنُ لك بمؤمنين﴾: ولهذا تأيس منهم لنبيهم هود عليه السلام في إيمانهم، وأنهم لا يزالون في كفرهم يعمهون.

﴿٥٤﴾ ﴿إن نقول﴾: فيك ﴿إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء﴾؛ أي: أصابتك بخيال وجنون، فصرت تهذي بما لا يُعقل؛ فسبحان من طبع على قلوب الظالمين! كيف جعلوا أصدق الخلق الذي جاء بأحقّ الحقّ بهذه المرتبة التي يستحي العاقل من حكايتها عنهم، لولا أنّ الله حكاها عنهم؟!

﴿٥٥﴾ ولهذا بيّن هود عليه الصلاة والسلام أنه واثق غاية الوثوق أنّه لا يصيبه منهم ولا من آلهتهم أذى، فقال: ﴿إني أشهد الله واشهدوا أنني بريء مما تشركون. من دونه فكيدوني جميعاً﴾؛ أي: اطلبوا لي الضرر كلّكم بكلّ طريق تتمكّنون بها مني، ثم لا تنظرون؛ أي: لا تمهلوني.

﴿٥٦﴾ ﴿إني توكلت على الله﴾؛ أي: اعتمدت في أمري كلّ على الله، ﴿ربّي وربكم﴾؛ أي: هو خالق الجميع ومدبرنا وإياكم، وهو الذي ربّانا. ﴿ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها﴾: فلا تتحرّك ولا تسكن إلا بإذنه؛ فلو اجتمعتم جميعاً على الإيقاع بي، والله لم يسلطكم عليّ؛ لم تقدروا على ذلك؛ فإن سلطكم فلحكمة<sup>(١)</sup> أرادها. ﴿إنّ ربّي على صراط مستقيم﴾؛ أي: على عدل وقسط وحكمة وحميد في قضائه وقدره [وفي] شرعه وأمره وفي جزائه وثوابه وعقابه، لا تخرج أفعاله عن الصراط المستقيم التي يُحمد، ويثنى عليه بها.

﴿٥٧﴾ ﴿فإن تولّوا﴾: عما دعوتكم إليه، ﴿فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم﴾: فلم يبق عليّ تبعّة من شأنكم، ﴿ويستخلف ربّي قوماً غيركم﴾: يقومون بعبادته ولا يشركون به شيئاً، ﴿ولا تضروونه شيئاً﴾: فإنّ ضرركم إنما يعود إليكم<sup>(٢)</sup>؛ فالله لا تضرّه معصية العاصين ولا تنفعه طاعة الطائعين<sup>(٣)</sup>، من عمل صالحاً؛ فلنفسه، ومن أساء؛ فعليها. ﴿إنّ ربّي على كلّ شيء حفيظ﴾.

(١) في (ب): «الحكمة».

(٢) في (ب): «عليكم».

(٣) في (ب): «المطيعين».

﴿٥٨﴾ ﴿ولما جاء أمرنا﴾؛ أي: عذابنا بإرسال الريح العقيم التي ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم؛ ﴿ونجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ﴾؛ أي: عظيم شديد أحله الله بعد إفاصبحوا لا يرى إلا مساكنهم.

﴿٥٩﴾ ﴿وتلك عاد﴾: الذين أوقع الله بهم ما أوقع بظلم منهم لأنهم ﴿جحدوا بآيات ربهم﴾: ولهذا قالوا لهود: ما جئتنا ببينة! فتيين بهذا أنهم متيقنون لدعوته، وإنما عاندوا وجحدوا، ﴿وعصوا رسله﴾؛ لأن من عصى رسولا؛ فقد عصى جميع المرسلين؛ لأن دعوتهم واحدة، ﴿وأتبعوا أمر كل جبار﴾؛ أي: متسلط على عباد الله بالجبروت، ﴿عنيد﴾؛ أي: معاند لآيات الله، فعصوا كل ناصح ومشفق عليهم، واتبعوا كل غاش لهم يريد إهلاكهم، لا جرم أهلكتهم الله.

﴿٦٠﴾ ﴿وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة﴾: فكل وقت وجيل إلا ولأنبائهم القبيحة وأخبارهم الشنيعة ذكر يذكرون به وذم يلحقهم. ﴿ويوم القيامة﴾: لهم أيضاً لعنة، ﴿ألا إن عاداً كفروا ربهم﴾؛ أي: جحدوا من خلقهم ورزقهم ورباهم. ﴿ألا بعداً لعاد قوم هود﴾؛ أي: أبعدهم الله عن كل خير، وقربهم من كل شر.

﴿وَإِلَىٰ نَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾<sup>(١)</sup> قَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿١١﴾ قَالُوا يَصْطَلِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿١٢﴾ قَالَ يَتَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَبْضُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿١٣﴾ وَيَتَقَوْمِ هَذِهِ نَافَةٌ لَّكُمْ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿١٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرٌ مَّكَدُوبٍ ﴿١٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْفَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمٍ ﴿١٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا آلَا إِنَّ نَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ آلَا بَعْدًا لِّنَمُودَ ﴿١٨﴾

(١) في (ب): إلى آخر قصتهم.

﴿٦١﴾ أي: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى ثمود﴾: وهم عادُ الثانية، المعروفون، الذين يسكنون الحجر ووادي القري، ﴿أخاهم﴾: في النسب، ﴿صالحاً﴾: عبد الله ورسوله ﷺ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾؛ أي: وحُدوه وأخلصوا له الدين، ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾: لا من أهل السماء ولا من أهل الأرض، ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾؛ أي: خلقكم فيها، فقال: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾؛ أي: استخلفكم فيها وأنعم عليكم بالنعمة الظاهرة والباطنة، ومكنكم في الأرض؛ تبنون وتغرسون وتزرعون وتحراثون ما شئتم وتتفنون بمنافعها وتستغلون مصالحها؛ فكما أنه لا شريك له في جميع ذلك؛ فلا تشركوا به في عبادته. ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾: مما صدَرَ منكم من الكفر والشرك والمعاصي وأقلعوا عنها، ﴿ثُمَّ تَوَبُوا إِلَيْهِ﴾؛ أي: ارجعوا إليه بالتوبة النصوح والإنابة. ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾؛ أي: قريبٌ ممن دعاه دعاء مسألة أو دعاء عبادة يجيبه بإعطائه سؤاله<sup>(١)</sup> وقبول عبادته وإثابته عليها أجل الثواب.

واعلم أن قُرْبَهُ تعالى نوعان: عامٌ وخاصٌ: فالقربُ العامُّ: قُرْبُهُ بعلمه من جميع الخلق، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾.

والقربُ الخاصُّ: قُرْبُهُ من عابديه وسائليه ومحبيه، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿فَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾، وفي هذه الآية، وفي قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِي﴾، وهذا النوع قربٌ يقتضي إطفاه تعالى وإجابته لدعواتهم وتحقيقه لمراداتهم، ولهذا يقرن باسمه القريب اسمه المجيب.

﴿٦٢﴾ فلما أمرهم نبيهم صالح عليه السلام ورغبهم في الإخلاص لله وحده؛ ردوا عليه دعوته، وقابلوه أشنع المقابلة. ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾؛ أي: قد كنا نرجوك ونؤمل فيك العقل والنفع، وهذا شهادة منهم لنبيهم صالح: أنه ما زال معروفاً بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وأنه من خيار قومه، ولكنه لما جاءهم بهذا الأمر الذي لا يوافق أهواءهم الفاسدة؛ قالوا هذه المقالة التي مضمونها أنك قد كنت كاملاً، والآن أخلفت ظننا فيك، وصرت بحالة لا يرجى منك خيرٌ، وذنبه ما قالوه عنه، [وهو قولهم]: ﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾: ويزعمهم أن هذا من أعظم القدح في صالح؛ كيف قدح في عقولهم وعقول آبائهم

(١) في (ب): «سؤله».

الضالِّين؟! وكيف ينهاهم عن عبادة مَنْ لا ينفع ولا يضرُّ ولا يغني شيئاً من الأحجار والأشجار ونحوها، وأمرهم بإخلاص الدِّين لله ربِّهم الذي لم تزلْ نِعْمُهُ عليهم تثرى وإحسانُهُ عليهم دائماً ينزلُ، الذي ما بهم من نعمةٍ إلا منه، ولا يدفع عنهم السيئات إلا هو؟! ﴿وإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾؛ أي: ما زلنا شاكِّين فيما دعوتنا إليه شكاً مؤثراً في قلوبنا الرب.

﴿٦٣﴾ وبزعمهم أَنهم لو علموا صحَّة ما دعاهم إليه؛ لاتبَعوه، وهم كَذَبَةٌ في ذلك، ولهذا بَيَّن كَذِبَهُم في قوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾؛ أي: برهان ويقين مِنِّي، ﴿وَأَنَانِي مِنْهُ رَحْمَةٌ﴾؛ أي: مَنْ عَلَيَّ برسالته ووحيه؛ أي: أفأتابعكم على ما أنتم عليه وما تدعونني إليه. ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾؛ أي: غير خسار وتَبَاب وضرر.

﴿٦٤﴾ ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾: لها شِرْبٌ من البئر يوماً، ثم يشربون كلُّهم مِنْ صُرْعِهَا، ولهم شِرْبٌ يوم معلوم، ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾؛ أي: ليس عليكم من مؤنتها وعلفها شيء، ﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ﴾؛ أي: بعقر؛ ﴿فِيأُخَذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾.

﴿٦٥﴾ ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ﴾: لهم صالح: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدٌ غَيْرَ مَكْذُوبٍ﴾: بل لا بدَّ من وقوعه.

﴿٦٦﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾: بوقوع العذاب، ﴿نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾؛ أي: نجيناهم من العذاب والخزي والفضيحة. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾: ومن قوِّته وعزِّته أن أهلك الأمم الطاغية ونجَّى الرسل وأتباعهم.

﴿٦٧﴾ وأخذت ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾: فقطعت قلوبهم؛ ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِمِينَ﴾؛ أي: خامدين لا حراك لهم.

﴿٦٨﴾ ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾؛ أي: كأنهم لما جاءهم العذاب ما تمَّتَعُوا في ديارهم ولا أنسوا فيها<sup>(١)</sup> ولا تنعموا بها يوماً من الدهر، قد فارقههم النعيم، وتناولهم العذاب السرمدي، الذي لا ينقطع، الذي كأنه لم يزل. ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾؛ أي: جحدوه بعد أن جاءتهم الآية المبصرة. ﴿أَلَا بَعْدَ لَثَمُودَ﴾: فما

(١) في (ب): «بها».

أشقاهم وأذلهم! نستجير بالله من عذاب الدنيا وخزيها.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلَنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى<sup>(١)</sup> قَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَّمَ فَمَا لِيَتَّخِذَ الْغَيْبُ عِندَهُ عِلْمًا مِمَّا يَخْتَفِي لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِاللَّيْلِ إِذْ يَأْتِي السُّبْحَ بِالْحَمِيمِ وَكُنَّا مِنْ أَشْقَاهِمُ خَبِيرًا وَجَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَائِلِينَ أَنِ بَارِكْ لِلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْهَا وَإِنَّا لَهُمْ عَائِدِينَ كَمَا إِتَيْنَا آلَ عَادَ فَوَاسِلْ إِلَيْهِمْ وَإِنَّا لَمُتَّبِعُونَ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا إِنَّا كَاتِبُونَ بِاللَّيْلِ وَنَحْنُ عَلِيمُونَ وَإِنَّا لَمُتَّبِعُونَ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَائِلِينَ أَنِ بَارِكْ لِلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْهَا وَإِنَّا لَهُمْ عَائِدِينَ كَمَا إِتَيْنَا آلَ عَادَ فَوَاسِلْ إِلَيْهِمْ وَإِنَّا لَمُتَّبِعُونَ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا إِنَّا كَاتِبُونَ بِاللَّيْلِ وَنَحْنُ عَلِيمُونَ وَإِنَّا لَمُتَّبِعُونَ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَائِلِينَ أَنِ بَارِكْ لِلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْهَا وَإِنَّا لَهُمْ عَائِدِينَ كَمَا إِتَيْنَا آلَ عَادَ فَوَاسِلْ إِلَيْهِمْ وَإِنَّا لَمُتَّبِعُونَ﴾

﴿٦٩﴾ أي: ﴿ولقد جاءت رُسُلنا﴾: من الملائكة الكرام رسولنا ﴿إبراهيم﴾ الخليل ﴿بالبشري﴾؛ أي: بالبخارة بالولد حين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط وأمرهم أن يمرؤا على إبراهيم فيبشروه بإسحاق، فلما دخلوا عليه، ﴿قالوا سلاماً﴾ قال سلام؛ أي: سلموا عليه ورد عليهم السلام. ففي هذا مشروعية السلام، وأنه لم يزل من ملة إبراهيم عليه السلام، وأن السلام قبل الكلام، وأنه ينبغي أن يكون الرد أبلغ من الابتداء؛ لأن سلامهم بالجملة الفعلية الدالة على التجدد، ورده بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت والاستمرار، وبينهما فرق كبير؛ كما هو معلوم

(١) في (ب): إلى آخر القصة.

في علم العربية. ﴿فَمَا لَبِثَ﴾: إبراهيم لما دخلوا عليه، ﴿أَنْ جَاءَ بِعَجَلٍ حَنِيذٍ﴾؛ أي: بادر لبيته فاستحضر لأضيافه عجلاً مشويًا على الرضفِ سميناً، فقرَّبَه إليهم فقال: أَلَا تَأْكُلُونَ.

﴿٧٠﴾ ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلى تلك الضيافة، ﴿نَكَرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾: وظنَّ أنهم أتوه بشرُّ ومكروه، وذلك قبل أن يعرف أمرهم، فقالوا: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾؛ أي: إِنَّا رَسَلُ اللّٰه، أَرْسَلْنَا اللّٰهَ إِلَى إِهْلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ.

﴿٧١﴾ وامرأة إبراهيم ﴿قَائِمَةً﴾: تخدمُ أضيافه، ﴿فَضَحِكْتَ﴾: حين سمعت بحالهم وما أرسلوا به تعجباً، ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾.

﴿٧٢﴾ فتعجبت من ذلك و ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾: فهذان مانعان من وجود الولد. ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾.

﴿٧٣﴾ ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّٰهِ﴾: فإنَّ أمره لا عجب فيه؛ لنفوذ مشيئته التامة في كل شيء؛ فلا يُستغرب على قدرته شيء، وخصوصاً فيما يدبره ويمضيه لأهل هذا البيت المبارك. ﴿رَحْمَةُ اللّٰهِ وَبَرَكَاتُهُ﴾ عليكم أهل البيت؛ أي: لا تزال رحمته وإحسانه وبركاته، وهي الزيادة من خيره وإحسانه وحلول الخير الإلهي على العبد. ﴿عليكم أهل البيت إِنَّهُ حميدٌ مجيدٌ﴾؛ أي: حميد الصفات؛ لأنَّ صفاته صفات كمال، حميد الأفعال؛ لأنَّ أفعاله إحسانٌ وجودٌ وبرٌّ وحكمةٌ وعدلٌ وقسطٌ. ﴿مجيدٌ﴾: والمجد هو عظمة الصفات وسعتها؛ فله صفات الكمال، وله من كلِّ صفةٍ كمالٍ أكملها وأتمها وأعماها.

﴿٧٤﴾ ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾: الذي أصابه من خيفة أضيافه، ﴿وَجَاءَهُ الْبُشْرَى﴾: بالولد؛ التفت حينئذٍ إلى مجادلة الرسل في إهلاك قوم لوط، وقال لهم: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا. قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾.

﴿٧٥﴾ ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾؛ أي: ذو خُلق [حسن] وسعة صدر وعدم غضب عند جهل الجاهلين، ﴿أَوَّاهٌ﴾؛ أي: متضرع إلى الله في جميع الأوقات، ﴿منيبٌ﴾؛ أي: رجَّاع إلى الله بمعرفته ومحبته والإقبال عليه والإعراض عمَّن سواه؛ فلذلك كان يجادل عن مَنْ حَتَمَ اللّٰه بهلاكهم.

﴿٧٦﴾ فقل له: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾: الجدل. ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾: بهلاكهم، ﴿وَأِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾: فلا فائدة في جدالك.

﴿٧٧﴾ ﴿ولما جاءت رسلنا﴾؛ أي: الملائكة الذين صدروا من إبراهيم، لما أتوا ﴿لوطاً سيء بهم﴾؛ أي: شق عليه مجيئهم، ﴿وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصب﴾؛ أي: شديد حرج؛ لأنه علم أن [قومه] لا يتركونهم؛ لأنهم في صور شباب جرد مرد في غاية الكمال والجمال.

﴿٧٨﴾ ولهذا وقع ما خطر بباله، فجاءه ﴿قومه يهرعون إليه﴾؛ أي: يسرعون ويبادرون يريدون أضيافه بالفاحشة التي كانوا يعملونها، ولهذا قال: ﴿ومن قبل كانوا يعملون السيئات﴾؛ أي: الفاحشة التي ما سبقهم عليها أحد من العالمين. ﴿قال يا قوم هؤلاء بناتي هنن أطهر لكم﴾: من أضيافي - وهذا كما عرض سليمان ﷺ على المرأتين أن يسقن الولد المختصم فيه لاستخراج الحق - ولعلمه أن بناته ممتنع منالهن ولا حق لهم فيهن، والمقصود الأعظم دفع هذه الفاحشة الكبرى. ﴿فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي﴾؛ أي: إما أن تراعوا تقوى الله، وإما أن تراعوني في ضيفي ولا تخزوني عندهم. ﴿أليس منكم رجل رشيد﴾: فينهاكم ويزجركم. وهذا دليل على مروجهم وانحلالهم من الخير والمروءة.

﴿٧٩﴾ ﴿فقالوا﴾ له: ﴿لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد﴾؛ أي: لا نريد إلا الرجال، ولا لنا رغبة في النساء.

﴿٨٠﴾ فاشتد قلق لوط عليه الصلاة والسلام و ﴿قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد﴾؛ كقبيلة مانعة؛ لمنعتكم. وهذا بحسب الأسباب المحسوسة، وإلا؛ فإنه يآوي إلى أقوى الأركان، وهو الله الذي لا يقوم لقوته أحد.

﴿٨١﴾ ولهذا لما بلغ الأمر منتهاه واشتد الكرب؛ ﴿قالوا﴾ له: ﴿إننا رسل ربك﴾؛ أي: أخبروه بحالهم ليطمئن قلبه، ﴿لن يصلوا إليك﴾: بسوء. ثم قال جبريل بجناحه، فطمس أعينهم، فانطلقوا يتوعدون لوطاً بمجيء الصبح، وأمر الملائكة لوطاً أن يسري بأهله ﴿بقطع من الليل﴾؛ أي: بجانب منه قبل الفجر بكثير؛ ليتمكنوا من البعد عن قريتهم، ﴿ولا يلتفت منكم أحد﴾؛ أي: بادروا بالخروج، وليكن همكم النجاء، ولا تلتفتوا إلى ما وراءكم، ﴿إلا امرأتك إنته مصيبتها﴾: من العذاب ﴿ما أصابهم﴾؛ لأنها تشارك قومها في الإثم، فتدلهم على أضياف لوط إذا نزل به أضياف. ﴿إن موعدهم الصبح﴾: فكان لوطاً استعجل ذلك، فقيل له: ﴿أليس الصبح بقريب﴾.

﴿٨٢﴾ ﴿فلما جاء أمرنا﴾: بنزول العذاب وإحلاله فيهم ﴿جعلنا﴾: ديارهم



﴿عَالِيهَا سَافِلَهَا﴾؛ أي: قلبناها عليهم، ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾؛ أي: من حجارة النار الشديدة الحرارة، ﴿منضودٍ﴾؛ أي: متتابعة تتبع من شد عن القرية.  
 ﴿٨٣﴾ ﴿مَسْؤَمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ﴾؛ أي: معلمة عليها علامة العذاب والغضب، ﴿وما هي من الظالمين﴾: الذين يشابهون لفعل قوم لوط، ﴿ببعيد﴾: فليحذر العباد أن يفعلوا كفعالهم؛ لئلا يصيبهم ما أصابهم.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا﴾<sup>(١)</sup> قَالَ يَتَقَوُّوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرِيكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَعْمَلُونَ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ يَقِيْتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَشْعَبُ آبَاؤُنَا أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَتَقَوُّوا رَبَّهُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ يَتْنٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَكُمُ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَتَقَوُّوا لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِّنكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَشْعَبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْمُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَتَقَوُّوا رَبَّهُمْ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا إِنَّ رَبِّي يَبْتَغِي الصَّالِحِينَ ﴿٩٢﴾ وَيَتَقَوُّوا أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْمَلُونَ مِمَّنْ يُاتِيهِ عَذَابٌ يُعْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْثَةَ فَاصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَنَّتِيمٌ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّرِ بَعْتُوا فِيهَا آلَا بُعْدًا لِّمَدِينٍ كَمَا بَعْدَتْ نَعْمُودُ ﴿٩٥﴾ .

﴿٨٤﴾ أي: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى مدین﴾: القبيلة المعروفة، الذين يسكنون مدين، في أدنى فلسطين، ﴿أخاهم﴾: في النسب، ﴿شعيباً﴾: لأنهم يعرفونه ويتمكنون<sup>(٢)</sup>

(١) في (ب): إلى آخر القصة.

(٢) في (ب): «وليتمکنوا».

من الأخذ عنه، فقال لهم: ﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾؛ أي: أخلصوا له العبادة؛ فإنهم كانوا يشركون [به]، وكانوا مع شركهم يَبْنَحسون المكيال والميزان، ولهذا نهاهم عن ذلك، فقال: ﴿ولا تَنقُصوا المِكيالَ والمِيزانَ﴾: بل أوفوا الكيل والميزان بالقسط. ﴿إني أراكم بخير﴾؛ أي: بنعمة كثيرة وصحة وكثرة أموال وبنين؛ فاشكروا الله على ما أعطاكم، ولا تكفروا بنعمة<sup>(١)</sup> الله فيزيلها عنكم. ﴿وإني أخاف عليكم عذابَ يومٍ محيطٍ﴾؛ أي: عذاباً يحيط بكم ولا يُقَي منكم باقيةً.

﴿٨٥﴾ ﴿ويا قوم أوفوا المكيالَ والميزانَ بالقِسطِ﴾؛ أي: بالعدل الذي ترضون أن تعطوه، ﴿ولا تَبخَسوا الناسَ أشياءهم﴾؛ أي: لا تنقصوا من أشياء الناس، فتسرقوها بأخذها بنقص المكيال والميزان، ﴿ولا تَعَثُوا في الأرضِ مفسدينَ﴾: فإن الاستمرار على المعاصي يفسد الأديان والعقائد والدين والدنيا ويهلك الحرث والنسل.

﴿٨٦﴾ ﴿بِيقينِ الله خيرٌ لكم﴾؛ أي: يكفيكم ما أبقى الله لكم من الخير وما هو لكم؛ فلا تطمعوا في أمرٍ لكم عنه غنية وهو ضارٌ لكم جداً، ﴿إن كنتم مؤمنين﴾: فاعملوا بمقتضى الإيمان. ﴿وما أنا عليكم بحفيظٍ﴾؛ أي: لست بحافظٍ لأعمالكم ووكيل عليها، وإنما الذي يحفظها الله تعالى، وأما أنا فأبلغكم ما أرسلتُ به.

﴿٨٧﴾ ﴿قالوا يا شعيبُ أصلاتك تأمرُك أن نتركَ ما يعبدُ آباؤنا﴾؛ أي: قالوا ذلك على وجه التهكم بنبئهم والاستبعاد لإجابتهم له، ومعنى كلامهم: أنه لا موجب لنهيك لنا إلا أنك تصلي لله وتتعبد له؛ أفإن كنت كذلك؛ أفوجب لنا أن نترك ما يعبدُ آباؤنا لقولٍ ليس عليه دليلٌ إلا أنه موافقٌ لك؟! فكيف ننبعك ونترك آباءنا الأقدمين أولي العقول والألباب؟! وكذلك لا يوجب قولك لنا أن نفعل في أموالنا ما قلت لنا من وفاء الكيل والميزان وأداء الحقوق الواجبة فيها، بل لا نزال نفعل فيها ما شئنا؛ لأنها أموالنا، فليس لك فيها تصرف، ولهذا قالوا في تهكمهم: ﴿إنك لأنت الحليمُ الرشيدُ﴾؛ أي: أئتت أنت الذي الحلم والوقار لك خلق والرشد لك سجية؛ فلا يصدرُ عنك إلا رشدٌ، ولا تأمرُ إلا برشدٍ، ولا تنهى إلا عن غيٍّ؟! أي: ليس الأمر كذلك، وقصدهم أنه موصوفٌ بعكس هذين الوصفين: بالسفه والغواية؛ أي: أن المعنى: كيف تكون أنت الحليم الرشيد، وآباؤنا هم السفهاء

(١) في (ب): «نعمة».

الغاوين؟! وهذا القول الذي أخرجوه بصيغة التهكم وأن الأمر بعكسه ليس كما ظنوه، بل الأمر كما قالوه: إن صلاته تأمره أن ينهاهم عما كان يعبد آباؤهم الضالون وأن يفعلوا في أموالهم ما يشاؤون؛ فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وأي فحشاء ومنكر أكبر من عبادة غير الله، ومن منع حقوق عباد الله، أو سرقها بالمكاييل والموازين، وهو عليه الصلاة والسلام الحليم الرشيد؟!

﴿٨٨﴾ ﴿قال﴾ لهم شعيب: ﴿يا قوم أرايتم إن كنتم على بينة من ربّي﴾؛ أي: يقين وطمأنينة في صحّة ما جئت به، ﴿ورزقني منه رزقاً حسناً﴾؛ أي: أعطاني الله من أصناف المال ما أعطاني، ﴿و﴾ أنا لا ﴿أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾: فلست أريد أن أنهاكم عن البخس في المكيال والميزان وأفعله أنا حتى تتطرق إليّ التهمة في ذلك، بل ما أنهاكم عن أمر إلا وأنا أول مبتدئ لتركه. ﴿إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت﴾؛ أي: ليس لي من المقاصد إلا أن تصلح أحوالكم وتستقيم منافعكم، وليس لي من المقاصد الخاصّة لي وحدي شيء بحسب استطاعتي. ولما كان هذا فيه نوع تزكية للنفس؛ دفع هذا بقوله: ﴿وما توفيقي إلا بالله﴾؛ أي: وما يحصل لي من التوفيق لفعل الخير و<sup>(١)</sup>الانفكاك عن الشر إلا بالله تعالى، لا بحولي ولا بقوّتي. ﴿عليه توكلت﴾؛ أي: اعتمدت في أموري ووثقت في كفايته. ﴿وإليه أنيب﴾: في أداء ما أمرني به من أنواع العبادات، وفي هذا التقرب إليه بسائر أفعال الخيرات، وبهذين الأمرين تستقيم أحوال العبد، وهما الاستعانة بربه والإنابة إليه؛ كما قال تعالى: ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾. وقال: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾.

﴿٨٩﴾ ﴿ويا قوم لا يجرمئكم شقائي﴾؛ أي: لا تحملئكم مخالفتي ومشاقتي، ﴿أن يصيبكم﴾: من العقوبات، ﴿مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد﴾: لا في الدار ولا في الزمان.

﴿٩٠﴾ ﴿واستغفروا ربكم﴾: عما اقترفت من الذنوب، ﴿ثمّ توبوا إليه﴾: فيما يستقبل من أعماركم بالتوبة النصوح والإنابة إليه بطاعته وترك مخالفته. ﴿إن ربّي رحيمٌ ودودٌ﴾: لمن تاب وأناب؛ يرحمه فيغفر له ويتقبل توبته ويحبّه.

ومعنى الودود من أسمائه تعالى: أنّه يحبّ عباده المؤمنين ويحبّونه؛ فهو فعول بمعنى فاعل ومعنى <sup>(٢)</sup>مفعول.

(٢) في (ب): «ويعنى».

(١) في (ب): «أو».

﴿٩١﴾ ﴿قَالُوا يَا شَعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ﴾؛ أي: تَضَجَّرُوا مِنْ نَصَائِحِهِ وَمَوَاعِظِهِ لَهُمْ، فَقَالُوا: مَا نَفَقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ، وَذَلِكَ لِبُخْصِهِمْ لَمَّا يَقُولُ وَنَفَرْتَهُمْ عَنْهُ. ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً﴾؛ أي: فِي نَفْسِكَ، لَسْتَ مِنَ الْكِبَارِ وَالرُّؤَسَاءِ، بَلْ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ. ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾؛ أي: جَمَاعَتِكَ وَقَبِيلَتِكَ، ﴿لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾؛ أي: لَيْسَ لَكَ قَدْرٌ فِي صَدُورِنَا وَلَا احْتِرَامٌ فِي أَنْفُسِنَا، وَإِنَّمَا احْتَرَمْنَا قَبِيلَتَكَ بِتَرَكْنَا إِيَّاكَ.

﴿٩٢﴾ ﴿قَالَ﴾<sup>(١)</sup> لَهُمْ مَتَرَقِّقاً لَهُمْ: ﴿يَا قَوْمِ أَرْهَطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾؛ أي: كَيْفَ تَرَاعُونِي لِأَجْلِ رَهْطِي وَلَا تَرَاعُونِي لِلَّهِ، فَصَارَ رَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ. ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا﴾؛ أي: نَبَذْتُمْ أَمْرَ اللَّهِ وَرَاءَ ظَهْرِكُمْ، وَلَمْ تُبَالُوا بِهِ، وَلَا خِفْتُمْ مِنْهُ. ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾: لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، فَسُيْجَازِيكُمْ عَلَى مَا عَمِلْتُمْ أَتَمَّ الْجَزَاءِ.

﴿٩٣﴾ ﴿و﴾ لَمَّا أَعْيَوْهُ وَعَجَزَ عَنْهُمْ؛ قَالَ: ﴿يَا قَوْمِ اْعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾؛ أي: عَلَى حَالَتِكُمْ وَدِينِكُمْ. ﴿إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ﴾<sup>(٢)</sup> تَعْلَمُونَ مِنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ: وَيَحُلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ، أَنَا أَمْ أَنْتُمْ، وَقَدْ عَلِمُوا ذَلِكَ حِينَ وَقَعَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ، ﴿وَارْتَقِبُوا﴾: مَا يَحُلُّ بِي. ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ مَا يَحِلُّ بِكُمْ.

﴿٩٤﴾ ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾: بِإِهْلَاكِ قَوْمِ شَعِيبٍ، ﴿نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾: لَا تَسْمَعُ لَهُمْ صَوْتاً، وَلَا تَرَى مِنْهُمْ حَرَكَةً.

﴿٩٥﴾ ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾؛ أي: كَأَنَّهُمْ مَا أَقَامُوا فِي دِيَارِهِمْ وَلَا تَنَعَمُوا فِيهَا حِينَ أَتَاهُمُ الْعَذَابُ. ﴿أَلَا بَعْدَ لَمَدِينٍ﴾: إِذْ أَهْلَكَهَا اللَّهُ وَأَخْرَاهَا، ﴿كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودٌ﴾؛ أي: قَدْ اشْتَرَكَ هَاتَانِ الْقَبِيلَتَانِ فِي السَّحْقِ وَالْبُعْدِ وَالْهَلَاكِ.

وَشَعِيبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يُسَمَّى خَطِيبَ الْأَنْبِيَاءِ؛ لِحَسَنِ مَرَاجَعَتِهِ لِقَوْمِهِ. وَفِي قِصَّتِهِ مِنَ الْفَوَائِدِ وَالْعِبَرِ شَيْءٌ كَثِيرٌ:

مِنْهَا: أَنَّ الْكُفَّارَ كَمَا يَعَاقِبُونَ وَيَخَاطَبُونَ بِأَصْلِ الْإِسْلَامِ؛ فَكَذَلِكَ بِشَرَائِعِهِ وَفُرُوعِهِ؛ لِأَنَّ شُعَيْباً دَعَا قَوْمَهُ إِلَى التَّوْحِيدِ وَإِلَى إِيفَاءِ الْمَكِّيَالِ وَالْمِيزَانِ، وَجَعَلَ الْوَعِيدَ مُرْتَباً عَلَى مَجْمُوعِ ذَلِكَ.

(٢) فِي (ب): «سَوْفَ».

(١) فِي (ب): «قَالَ».

ومنها: أن نقصَ المكايل والموازين من كباير الذنوب وتخشى العقوبة العاجلة على من تعاطى ذلك، وأن ذلك من سرقة أموال الناس، وإذا كان سرقتهم في المكايل والموازين موجبةً للوعيد؛ فسرقتهم على وجه القهر والغلبة من باب أولى وأحرى.

ومنها: أن الجزء من جنس العمل؛ فمن بَخَسَ أموال الناس يريد زيادة ماله؛ عوقِبَ بنقيض ذلك، وكان سبباً لزوال الخير الذي عنده من الرزق؛ لقوله: ﴿إني أراكم بخير﴾؛ أي: فلا تتسببوا إلى زواله بفعلكم.

ومنها: أن على العبد أن يَقْتَنِعَ بما آتاه الله وَيَقْتَنِعَ بالحلال عن الحرام وبالمكاسب المباحة عن المكاسب المحرمة، وأن ذلك خيرٌ له؛ لقوله: ﴿بقيّة الله خيرٌ لكم﴾؛ ففي ذلك من البركة وزيادة الرزق ما ليس في التكالب على الأسباب المحرمة من المَحْقِ وضد البركة.

ومنها: أن ذلك من لوازم الإيمان وآثاره؛ فإنه رتب العمل به على وجود الإيمان، فدلّ على أنه إذا لم يوجد العمل؛ فالإيمان ناقصٌ أو معدومٌ.

ومنها: أن الصلاة لم تزل مشروعةً للأنبياء المتقدمين، وأنها من أفضل الأعمال، حتى إنه متقررٌ عند الكفار فضلها وتقديمها على سائر الأعمال، وأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي ميزانٌ للإيمان وشرائعه؛ فبإقامتها تكملُ أحوال العبد، وبعدم إقامتها تختلُ أحواله الدينية.

ومنها: أن المال الذي يرزقه الله الإنسان، وإن كان الله قد خوّلَه إياه؛ فليس له أن يصنع فيه ما يشاء؛ فإنه أمانةٌ عنده، عليه أن يقيم حقَّ الله فيه بأداء ما فيه من الحقوق والامتناع من المكاسب التي حرّمها الله ورسوله، لا كما يزعمه الكفار ومن أشبههم؛ أن أموالهم لهم أن يصنعوا فيها ما يشاؤون ويختارون، سواءً وافقَ حكمَ الله أو خالفه.

ومنها: أن من تكمّلَ دعوة الداعي وتمامها: أن يكونَ أول مبادرٍ لما يأمر غيره به وأول منتهٍ عما ينهى غيره عنه؛ كما قال شعيبٌ عليه السلام: ﴿وما أريدُ أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾، ولقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون [كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ]﴾.

ومنها: أن وظيفة الرسل وسنتهم وملّتهم إرادةُ الإصلاح بحسب القدرة والإمكان، فيأتون بتحصيل المصالح وتكميلها أو بتحصيل ما يُقدَّرُ عليه منها،

وبدفع المفسدِ وتقليلها، ويراعون المصالح العامة على المصالح الخاصة.

وحقيقة المصلحة هي التي تَصْلُحُ بها أحوال العباد، وتستقيم بها أمورهم الدنيئة والدنيوية.

ومنها: أن مَنْ قام بما يَقْدِرُ عليه من الإصلاح؛ لم يكن مَلُوماً ولا مَذموماً في عدم فعله ما لا يَقْدِرُ عليه؛ فعلى العبد أن يُقيم من الإصلاح في نفسه وفي غيره ما يَقْدِرُ عليه.

ومنها: أن العبد ينبغي له أن لا يَتَكَلَّ على نفسه طرفة عين، بل لا يزال مستعيناً بربه، متوكلاً عليه، سائلاً له التوفيق، وإذا حصل له شيءٌ من التوفيق؛ فلينسبه لِمَولِيهِ ومُسَدِّدِهِ ولا يُعْجَبْ بنفسه؛ لقوله: ﴿وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾.

ومنها: الترهيب بأخذات الأمم، وما جرى عليهم، وأنه ينبغي أن تُذَكَّرَ القَصَصُ التي فيها إيقاع العقوبات بالمجرمين في سياق الوعظ والزجر؛ كما أنه ينبغي ذِكْرُ ما أكرم الله به أهل التقوى عند الترغيب والحث على التقوى.

ومنها: أن التائب من الذنب كما يُسمح له عن ذنبه ويُعفى عنه؛ فإنَّ الله تعالى يحبه ويؤده، ولا عبرة بقول من يقول: إنَّ التائب إذا تاب؛ فحسبه أن يُعْفَرَ له ويعود عليه العفو، وأما عَوْدُ الوُدِّ والحبِّ؛ فإنه لا يعود؛ فإنَّ الله قال: ﴿واستغفروا ربكم ثمَّ توبوا إليه إنَّ ربي رحيمٌ ودودٌ﴾.

ومنها: أن الله يدفع عن المؤمنين بأسباب كثيرة قد يعلمون بعضها وقد لا يعلمون شيئاً منها، وربما دَفَعَ عنهم بسبب قبيلتهم وأهل وطنهم الكفار؛ كما دفع الله عن شعيب رجم قومِهِ بسبب رهطِهِ.

وأن هذه الروابط التي يحصلُ بها الدفع عن الإسلام والمسلمين لا بأس بالسعي فيها، بل ربِّما تعيَّن ذلك؛ لأنَّ الإصلاح مطلوبٌ على حسب القدرة والإمكان؛ فعلى هذا لو ساعد المسلمون الذين تحت ولاية الكفار، وعملوا على جعل الولاية جمهوريةً يتمكَّن فيها الأفراد والشعوب من حقوقهم الدنيئة والدنيوية؛ لكان أولى من استسلامهم لدولةٍ تقضي على حقوقهم الدنيئة والدنيوية، وتحرص على إبادتها وجعلهم عَمَلَةً وخداماً لهم. نعم؛ إن أمكن أن تكون الدولة للمسلمين وهم الحكام؛ فهو المتعيَّن، ولكن لعدم إمكان هذه المرتبة؛ فالمرتبة التي فيها دفع ووقاية للدين والدنيا مقدمة. والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾<sup>(١)</sup> ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَأَتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ  
وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَبْسُ الرِّزْدُ الْمَوْرُودُ  
﴿٩٨﴾ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَبْسُ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقِصُهُمْ  
عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ  
ءَالِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْنِبٍ ﴿١٠١﴾ .

﴿٩٦﴾ يقول تعالى: ﴿ولقد أرسلنا موسىٰ بآياتنا﴾: ابن عمران ﴿بآياتنا﴾: الدالة على صدق ما جاء به؛ كالعصا واليد ونحوهما من الآيات التي أجراها الله على يدي موسى عليه السلام، ﴿وسلطان مبين﴾؛ أي: حجة ظاهرة بيّنة ظهرت ظهور الشمس.

﴿٩٧﴾ ﴿إلى فرعون وملئه﴾؛ أي: أشرف قومه؛ لأنهم المتبوعون، وغيرهم تبع لهم، فلم ينقادوا لما مع موسى من الآيات التي أراهم إيّاها كما تقدم بسطها في سورة الأعراف، ولكنهم ﴿اتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد﴾: بل هو ضال غاير لا يأمر إلا بما هو ضرر محض.

﴿٩٨﴾ لا جرم لَمَّا اتَّبعه قومه؛ أراهم وأهلكهم؛ ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَبْسُ الرِّزْدُ الْمَوْرُودُ﴾.

﴿٩٩﴾ ﴿وأتبعوا في هذه﴾؛ أي: في الدنيا ﴿لعنة ويوم القيامة﴾؛ أي: يلعنهم الله وملائكته والناس أجمعون في الدنيا والآخرة. ﴿ببس الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾؛ أي: بس ما اجتمع لهم، وترادف عليهم من عذاب الله ولعنة الدنيا والآخرة.

﴿١٠٠﴾ ولما ذكر قصص هؤلاء الأمم مع رسلهم؛ قال الله تعالى لرسوله: ﴿ذلك من أنباء القرى نقصه عليك﴾: لتنذر به ويكون آية على رسالتك وموعظة وذكرى للمؤمنين. ﴿منها قائم﴾: لم يتلف بل بقي من آثار ديارهم ما يدل عليهم. ﴿و﴾ منها ﴿حصيد﴾: قد تهدمت مساكنهم، واضمحلت منازلهم فلم يبق لها أثر.

﴿١٠١﴾ ﴿وما ظلمناهم﴾: بأخذهم بأنواع العقوبات، ﴿ولكن ظلموا أنفسهم﴾: بالشرك والكفر والعناد. ﴿فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء﴾

لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ: وهكذا كلُّ من التجأ إلى غير الله؛ لم ينفعه ذلك عند نزول الشدائد. ﴿وما زادوهم غير تنبيء﴾؛ أي: خسار ودمار بالصدِّ مما خطر ببالهم.

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَةَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿١٠٢﴾ أي: يقصِّمهم بالعذاب، ويبيدهم، ولا ينفعهم ما كانوا يذعون من دون الله من شيء.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتُ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمَنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَمَنْ فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيْقٌ ﴿١٠٦﴾ خَلْدِيْنَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فَمَنْ فِي الْجَنَّةِ خَلْدِيْنَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَّجْدُورٍ ﴿١٠٨﴾﴾<sup>(١)</sup>.

﴿١٠٣﴾ ﴿إن في ذلك﴾: المذكور من أخذه للظالمين بأنواع العقوبات، ﴿آية﴾ لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ؛ أي: لعبرة ودليلاً على أن أهل الظلم والإجرام لهم العقوبة الدنيوية والعقوبة الآخروية. ثم انتقل من هذا إلى وصف الآخرة، فقال: ﴿ذلك يومٌ مجموع له الناس﴾؛ أي: جُمِعوا لأجل ذلك اليوم للمجازاة وليظهر لهم من عظمة الله وسلطانه وعدله العظيم ما به يعرفونه حقَّ المعرفة. ﴿وذلك يومٌ مشهودٌ﴾؛ أي: يشهده الله وملائكته وجميع المخلوقين.

﴿١٠٤﴾ ﴿وما نُؤَخِّرُهُ﴾؛ أي: إتيان يوم القيامة، ﴿إلا لأجل مَّعْدُودٍ﴾: إذا انقضى أجل الدنيا، وما قدر الله فيها من الخلق؛ فحينئذٍ ينقلهم إلى الدار الأخرى، ويُجري عليهم أحكامه الجزائية، كما أجرى عليهم في الدنيا أحكامه الشرعية.

﴿١٠٥﴾ ﴿يومٌ يَأْتُ﴾: ذلك اليوم ويجتمع الخلق، ﴿لا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾: حتى الأنبياء والملائكة الكرام لا يشفعون إلا بإذنه. ﴿فمنهم﴾؛ أي: الخلق ﴿شقيٌّ وسعيدٌ﴾: فالأشقياء هم الذين كفروا بالله، وكذبوا رسله وعصوا أمره، والسعداء هم المؤمنون المتقون.

﴿١٠٦﴾ ﴿وأما جزاؤهم﴾: ﴿فأما الذين شَقُوا﴾؛ أي: حصلت لهم الشقاوة

(١) الآيات في (ب) لم تذكر.



والخزي والفضيحة ﴿ففي النار﴾: منغمسون في عذابها مشتد عليهم عقابها. ﴿لهم فيها﴾: من شدة ما هم فيه ﴿زفيرٌ وشهيقٌ﴾: وهو أشنع الأصوات وأقبحها.

﴿١٠٧﴾ ﴿خالدين فيها﴾؛ أي: في النار التي هذا عذابها، ﴿ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك﴾؛ أي: خالدين فيها أبداً إلا المدة التي شاء الله أن لا يكونوا فيها، وذلك قبل دخولها؛ كما قاله جمهور المفسرين؛ فلاستثناء على هذا راجع إلى ما قبل دخولها؛ فهم خالدون فيها جميع الأزمان سوى الزمن الذي قبل الدخول فيها. ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِّمَا يَرِيدُ﴾: فكل ما أراد فعله واقتضته حكمته؛ فعله تبارك وتعالى، لا يرده أحد عن مراده.

﴿١٠٨﴾ ﴿وأما الذين سُعدوا﴾؛ أي: حصلت لهم السعادة والفلاح والفوز، ﴿ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك﴾: ثم أكد ذلك بقوله: ﴿عطاءً غير مجدود﴾؛ أي: ما أعطاهم الله من النعيم المقيم واللذة العالية؛ فإنه دائم مستمر غير منقطع بوقت من الأوقات. نسأل الله الكريم من فضله.

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوقِفُهُمْ نَصِيْبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾.

﴿١٠٩﴾ يقول الله تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿فلا تك في مريّة مما يعبد هؤلاء﴾: المشركون؛ أي: لا تشك في حالهم، وأن ما هم عليه باطل؛ فليس لهم دليل شرعي ولا عقلي، وإنما دليلهم وشبهتهم أنهم يعبدون كما يعبد آباؤهم من قبل، ومن المعلوم أن هذا ليس بشبهة فضلاً عن أن يكون دليلاً؛ لأن أقوال ما عدا الأنبياء يحتج لها لا يحتج بها، خصوصاً أمثال هؤلاء الضالين، الذين كثر خطوهم وفساد أقوالهم في أصول الدين؛ فإن أقوالهم وإن اتفقوا عليها؛ فإنها خطأ وضلال ﴿وإننا لموقفهم نصيبهم غير منقوص﴾؛ أي: لا بد أن ينالهم نصيبهم من الدنيا مما كتب لهم، وإن كثر ذلك النصيب أو راق في عينك؛ فإنه لا يدل على صلاح حالهم؛ فإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان والدين الصحيح إلا من يحب. والحاصل أنه لا يغرر باتفاق الضالين على قول الضالين من آبائهم الأقدمين، ولا على ما خولهم الله، وآتاهم من الدنيا.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَآخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ

لَفِي شَكِّ مِّنْهُ مُرِيبٌ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوقِنَنَّ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَاسْتَقِيمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْفَرُوا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ .

﴿١١٠﴾ يخبر تعالى أنه أتى موسى الكتاب الذي هو التوراة، الموجب للاتفاق على أوامره ونواهيه والاجتماع، ولكن مع هذا؛ فإن المنتسبين إليه اختلفوا فيه اختلافاً أضرَّ بعقائدهم وجامعتهم الدينية. ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾: بتأخيرهم وعدم معاجلتهم بالعذاب، ﴿لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ﴾: بإحلال العقوبة بالظالم، ولكنه تعالى اقتضت حكمته أن أخر القضاء بينهم إلى يوم القيامة، وبقوا في شكٍ مريبٍ. وإذا كانت هذه حالهم مع كتابهم؛ فمع القرآن الذي أوحاه الله إليك غير مستغربٍ من طائفة اليهود أن لا يؤمنوا به، وأن يكونوا في شكٍ منه مريبٍ.

﴿١١١﴾ ﴿وإن كُلاًّ لَّمَّا لَيُوقِنَنَّ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾؛ أي: لا بد أن يقضي الله بينهم<sup>(١)</sup> يوم القيامة بحكمه العدل، فيجازي كلاً بما يستحقه. ﴿إنه بما يعملون﴾: من خير وشر، ﴿خبيرٌ﴾: فلا يخفى عليه شيء من أعمالهم؛ دقيقها وجليلها.

﴿١١٢﴾ ثم لما أخبر بعدم استقامتهم التي أوجب اختلافهم وافتراقهم؛ أمر نبيه محمداً ﷺ ومن معه من المؤمنين أن يستقيموا كما أمروا، فيسلكوا ما شرعه الله من الشرائع، ويعتقدوا ما أخبر الله به من العقائد الصحيحة، ولا يزيغوا عن ذلك يمناً ولا يسرة، ويدوموا على ذلك، ولا يطغوا بأن يتجاوزوا ما حده الله لهم من الاستقامة، وقوله: ﴿إنه بما تعملون بصيرٌ﴾؛ أي: لا يخفى عليه من أعمالكم شيء، وسيجازيكم عليها. ففيه ترغيبٌ لسلك الاستقامة وترهيبٌ من ضدها.

﴿١١٣﴾ ولهذا حذرهم عن الميل إلى من تعدى الاستقامة، فقال: ﴿ولا تَرْكَبُوا﴾؛ [أي: لا تميلوا] ﴿إلى الذين ظلموا﴾: فإنكم إذا ملت إليهم وافقتموهم على ظلمهم أو رضيتهم ما هم عليه من الظلم؛ ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾: إن فعلتم ذلك. ﴿وما لكم من دون الله من أولياء﴾: يمنعونكم من عذاب الله، ولا يحصلون لكم شيئاً من ثواب الله. ﴿ثم لا تنصرون﴾؛ أي: لا يدفع عنكم العذاب إذا مسكم.

ففي هذه الآية التحذير من الركوب إلى كل ظالم، والمراد بالركوب: الميل والانضمام

(١) في (ب): «لا بد أن الله يقضي بينهم».

إليه بظلمه وموافقته على ذلك والرضا بما هو عليه من الظلم، وإذا كان هذا الوعيد في الركون إلى الظلمة؛ فكيف حال الظلمة بأنفسهم؟! نسأل الله العافية من الظلم.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرُفْلًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكَرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ (١١٤) وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ .

﴿١١٤﴾ يأمر تعالى بإقامة الصلاة كاملة ﴿طَرَفِي النَّهَارِ﴾؛ أي: أوله وآخره، ويدخل في هذا صلاة الفجر وصلاتا الظهر والعصر، ﴿وَرُفْلًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾: ويدخل في ذلك صلاة المغرب والعشاء، ويتناول ذلك قيام الليل؛ فإنها مما تُزَلَّفُ العبد وتقرُّبه إلى الله تعالى. ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾؛ أي: فهذه الصلوات الخمس وما ألحق بها من التطوعات من أكبر الحسنات، وهي مع أنها حسنة تقرب إلى الله وتوجب الثواب؛ فإنها تُذْهِبُ السَّيِّئَاتِ وتمحوها، والمراد بذلك الصغائر؛ كما قيَّدتها الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ؛ مثل قوله: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان؛ مكفرات لما بينهنَّ ما اجْتَنَبْتَ الكبائر»<sup>(١)</sup>، بل كما قيَّدتها الآية التي في سورة النساء، وهي قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكَفَّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾. ﴿ذَلِكَ﴾: لعل الإشارة لكلِّ ما تقدَّم؛ من لزوم الاستقامة على الصراط المستقيم، وعدم مجاوزته وتعديه، وعدم الرُّكُونِ إلى الذين ظلموا، والأمر بإقامة الصلاة، وبيان أنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ؛ الجميع ﴿ذَكَرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾: يفهمون بها ما أمرهم الله به ونهاهم، ويمثلون لتلك الأوامر الحسنة المثمرة للخيرات الدافعة للشُّرُورِ والسَّيِّئَاتِ.

﴿١١٥﴾ ولكن تلك الأمور تحتاج إلى مجاهدة النفس والصبر عليها، ولهذا قال: ﴿وَأَصْبِرْ﴾؛ أي: احبس نفسك على طاعة الله وعن معصيته وإلزامها لذلك واستمر ولا تضجر. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾: بل يتقبَّل الله عنهم أحسن الذي عملوا ويجزئهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون.

وفي هذا ترغيبٌ عظيمٌ للزوم الصبر بتشويق النفس الضعيفة إلى ثواب الله كلاً ما وَنَّتْ وَفَتَّرَتْ.

(١) أخرجه مسلم (٢٣٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَتَهُونَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾ .

﴿١١٦﴾ لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى إِهْلَاكَ الْأُمَّةِ الْمَكْذُوبَةِ لِلرَّسْلِ، وَأَنَّ أَكْثَرَهُمْ مُنْحَرِفُونَ عَنِ أَهْلِ الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ، وَذَلِكَ كُلُّهُ يَقْضِي عَلَى الْأَدْيَانِ بِالذَّهَابِ وَالِاضْمِحْلَالِ؛ ذَكَرَ أَنَّهُ لَوْلَا أَنَّهُ جَعَلَ فِي الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ، يَدْعُونَ إِلَى الْهُدَى وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ وَالرَّدَى، فَحَصَلَ مِنْ نَفْعِهِمْ، وَأَبْقِيَتْ بِهِ الْأَدْيَانِ، وَلَكِنَّهُمْ قَلِيلُونَ جَدًّا<sup>(١)</sup>، وَغَايَةُ الْأَمْرِ أَنَّهُمْ نَجَوْا بِاتِّبَاعِهِمُ الْمُرْسَلِينَ، وَقِيَامِهِمْ بِمَا قَامُوا بِهِ مِنْ دِينِهِمْ، وَيَكُونُ حِجَّةَ اللَّهِ أَجْرَاهَا عَلَى أَيْدِيهِمْ؛ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنِ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنِ بَيِّنَةٍ ﴿و﴾ لَكِنِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ؛ أَي: اتَّبَعُوا مَا هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ وَالتَّرَفِ، وَلَمْ يَبْغُوا بِهِ بَدَلًا. ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾؛ أَي: ظَالِمِينَ بِاتِّبَاعِهِمْ مَا أُتْرِفُوا فِيهِ، فَلِذَلِكَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْعِقَابُ وَاسْتَأْصَلَهُمُ الْعَذَابُ.

وَفِي هَذَا حَتُّ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ أَنْ يَكُونَ فِيهِمْ بَقَايَا؛ مُصْلِحُونَ لِمَا أَفْسَدَ النَّاسُ، قَائِمُونَ بِدِينِ اللَّهِ، يَدْعُونَ مِنْ ضَلُّ إِلَى الْهُدَى، وَيَصْبِرُونَ مِنْهُمْ عَلَى الْأَذَى، وَيَبْصُرُونَهُمْ مِنَ الْعَمَى، وَهَذِهِ الْحَالَةُ أَعْلَى حَالَةٍ يَرِغَبُ فِيهَا الرَّاعِبُونَ، وَصَاحِبُهَا يَكُونُ إِمَامًا فِي الدِّينِ؛ إِذَا جَعَلَ عَمَلَهُ خَالصًا لِرَبِّ الْعَالَمِينَ.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ .

﴿١١٧﴾ أَي: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ مِنْهُمْ وَالْحَالُ أَنَّهُمْ مُصْلِحُونَ؛ أَي: مُقِيمُونَ عَلَى الصَّلَاحِ مُسْتَمِرُونَ عَلَيْهِ؛ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَهْلِكَ إِلَّا إِذَا ظَلَمُوا، وَقَامَتْ عَلَيْهِمْ حِجَّةُ اللَّهِ.

وَيُحْتَمَلُ أَنَّ الْمَعْنَى: وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمِهِمُ السَّابِقِ إِذَا رَجَعُوا وَأَصْلَحُوا عَمَلَهُمْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْفُو عَنْهُمْ، وَيَمْحُو مَا تَقَدَّمَ مِنْ ظُلْمِهِمْ.

(١) جَاءَ فِي هَامِشِ (ب): «وَالْمَعْرُوفُ فِي تَفْسِيرِهَا غَيْرَ هَذَا الْمَعْنَى الَّذِي ذَكَرَ هُنَا؛ وَهُوَ أَنَّ هَذَا بِمَعْنَى النَّفْيِ أَي: أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الْقُرُونِ السَّالِفَةِ أُولُو بَقِيَّةٍ... إلخ. إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ؛ أَي: لَكِنِ بَقِيَ قَلِيلٌ بِهَذِهِ الصِّفَةِ، وَهُوَ قَرِيبٌ مِنَ الْمَعْنَى الَّذِي ذَكَرْنَا، لَكِنِ مَا ذَكَرْنَا فِي الْأَصْلِ...» وَمَا بَعْدَ كَلِمَةِ الْأَصْلِ غَيْرُ وَاضِحٍ. وَلَعَلَّ الْأَقْرَبَ: «لَكِنِ مَا ذَكَرْنَا فِي الْأَصْلِ أَنْسَبَ». وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَوَعَّتْ كَلِمَةَ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾

﴿١١٨﴾ يخبر تعالى أنه لو شاء لجعل الناس أمة واحدة على الدين الإسلامي؛ فإن مشيئته غير قاصرة، ولا يمتنع عليه شيء، ولكنه اقتضت حكمته أن لا يزالون مختلفين، مخالفين للصرط المستقيم، متبعين السبل الموصلة إلى النار، كل يرى الحق فيما قاله والضلال في قول غيره.

﴿١١٩﴾ ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾: فهداهم إلى العلم بالحق والعمل به والاتفاق عليه؛ فهؤلاء سبقت لهم سابقة السعادة وتداركتهم العناية الربانية والتوفيق الإلهي، وأما من عداهم؛ فهم مخذولون مؤكولون إلى أنفسهم. وقوله: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾؛ أي: اقتضت حكمته أنه خلقهم ليكون منهم السعداء والأشقياء والمتفقون والمختلفون والفريق الذي هدى الله والفريق الذي حقت عليهم الضلالة؛ ليتبين للعباد عدله وحكمته، وليظهر ما كمن في الطباع البشرية من الخير والشر، وليقوم سوق الجهاد والعبادات التي لا تتم ولا تستقيم إلا بالامتحان والابتلاء، ﴿و﴾ لأنه ﴿تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾: فلا بد أن يبسر للنار أهلاً يعملون بأعمالها الموصلة إليها.

﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَاللَّهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

﴿١٢٠﴾ لما ذكر في هذه السورة من أخبار الأنبياء ما ذكر؛ ذكر الحكمة في ذكر ذلك، فقال: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾؛ أي: قلبك؛ ليطمئن، ويثبت، ويصبر كما صبر أولو العزم من الرسل؛ فإن النفوس تأس بالافتداء وتنشط على الأعمال، وتريد المنافسة لغيرها، ويتأيد الحق بذكر شواهد وكثرة من قام به. ﴿وجاءك في هذه﴾: السورة ﴿الحق﴾: اليقين فلا شك فيه بوجه من الوجوه؛ فالعلم بذلك من العلم بالحق الذي هو أكبر فضائل النفوس. ﴿وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾؛ أي: يتعظون به فيرتدعون عن الأمور المكروهة ويتذكرون الأمور المحبوبة لله فيفعلونها.

﴿١٢١﴾ وأما من ليس من أهل الإيمان؛ فلا تنفعهم المواعظ وأنواع التذكير، ولهذا قال: ﴿وقل للذين لا يؤمنون﴾: بعدما قامت عليهم الآيات: ﴿اغملوا على مكائتكم﴾؛ أي: حالتكم التي أنتم عليها، ﴿إننا عاملون﴾: على ما كنا عليه.

﴿١٢٢﴾ ﴿وانظروا﴾: ما يحلُّ بنا، ﴿إننا منتظرون﴾: ما يحلُّ بكم.

﴿١٢٣﴾ وقد فصل الله بين الفريقين، وأرى عباده نُصِرَه لعباده المؤمنين، وقمعه لأعداء الله المكذبين. ﴿ولله غيب السموات والأرض﴾؛ أي: ما غاب فيهما من الخفايا والأمور الغيبية، ﴿وإليه يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهَا﴾: من الأعمال والعمال، فيميز الخبيث من الطيب، ﴿فاعبذْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾؛ أي: قم بعبادته، وهي جميع ما أمر الله به مما تقدر عليه. ﴿وتوكل على الله﴾: في ذلك.

﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾: من الخير والشر، بل قد أحاط علمه بذلك، وجرى به قلمه، وسيجري عليه حكمه وجزاؤه.

تم تفسير سورة هود.

والحمد لله رب العالمين. وصلى الله على محمد وسلم. وكان الفراغ من نسخه في يوم السبت في ٢١ من شهر ربيع الآخر سنة ١٣٤٧.



المجلد الرابع<sup>(١)</sup>  
من  
تيسير الكريم الرحمن  
في  
تفسير كلام الرب المنان

لجامعه الفقير إلى ربه  
عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله السعدي  
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين  
أمين

(١) وكذا في الورقة الثانية من النسخة (ب). وفي الورقة الأولى: إملاء ما من به المنان من تفسير القرآن لجامعه الفقير إلى ربه المعيد المبدي عبد الرحمن بن ناصر السعدي عفا الله عنه.





## تفسير سورة يوسف بن يعقوب عليهما الصلاة والسلام

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْعَاقِلِينَ ﴿٣﴾﴾

﴿١﴾ يخبر تعالى أن آيات القرآن هي ﴿آيات الكتاب المبين﴾؛ أي: البين الواضحة ألفاظه ومعانيه.

﴿٢﴾ ومن بيانه وإيضاحه أنه أنزله باللسان العربي، أشرف الألسنة وأبينها، المبين لكل ما يحتاجه الناس من الحقائق النافعة، وكل هذا الإيضاح والتبيين ﴿لعلكم تعقلون﴾؛ أي: لتعقلوا حدوده وأصوله وفروعه وأوامره ونواهيه؛ فإذا عقلتُم ذلك بإيقانكم، وأنصفت قلوبكم بمعرفتها؛ أثمر ذلك عمل الجوارح والانقياد إليه، و ﴿لعلكم تعقلون﴾؛ أي: تزداد عقولكم بتكرّر المعاني الشريفة العالية على أذهانكم، فتتقلون من حال إلى أحوال أعلى منها وأكمل.

﴿٣﴾ ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾؛ وذلك لصدقها وسلاسة عبارتها ورؤنق معانيها، ﴿بما أوحينا إليك هذا القرآن﴾؛ أي: بما اشتمل عليه هذا القرآن الذي أوحيناه إليك وفضلناك به على سائر الأنبياء، وذاك محض منة من الله وإحسان. ﴿وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾؛ أي: ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان قبل أن يوحى الله إليك، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا.

ولما مدح ما اشتمل عليه هذا القرآن من القصص وأنها أحسن القصص على الإطلاق؛ فلا يوجد من القصص في شيء من الكتب مثل هذا القرآن؛ ذكر قصة يوسف وأبيه وإخوته، القصة العجيبة الحسنة فقال:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَبْنَؤُ لَا نَفْعُ لِي بِذَلِكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُرِيكَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾

واعلم أن الله ذكر أنه يقصُّ على رسوله أحسن القصص في هذا الكتاب، ثم ذكر هذه القصة، وبسطها وذكر ما جرى فيها، فعلم بذلك أنها قصة تامة كاملة حسنة؛ فمن أراد أن يكملها أو يحسنها بما يذكر في الإسرائيليات التي لا يُعرف لها سند ولا ناقل، وأغلبها كذب؛ فهو مستدرِك على الله، ومكملٌ لشيء يزعم أنه ناقص، وحسبُك بأمر ينتهي إلى هذا الحدِّ قبحاً؛ فإن تضاعف هذه السورة قد ملئت في كثير من التفاسير من الأكاذيب والأمور الشنيعة المناقضة لما قصه الله تعالى بشيء كثير؛ فعلى العبد أن يفهم عن الله ما قصه، ويدع ما سوى ذلك مما ليس عن النبي ﷺ ينقل.

﴿٤﴾ فقله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم الصلاة والسلام، ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾: فكانت هذه الرؤيا مقدّمة لما وصل إليه يوسف عليه السلام من الارتفاع في الدنيا والآخرة، وهكذا إذا أراد الله أمراً من الأمور العظام؛ قدّم بين يديه مقدّمة توطئة له وتسهيلاً لأمره، واستعداداً لما يرِدُ على العبد من المشاق، ولطفاً بعبده وإحساناً إليه فأولها يعقوب بأن الشمس أمه والقمر أبوه والكواكب إخوته، وأنه ستنقل به الأحوال إلى أن يصير إلى حال يخضعون له ويسجدون له إكراماً وإعظاماً، وأن ذلك لا يكون إلا بأسباب تتقدّمه من اجتناب الله له واصطفائه له وإتمام نعمته عليه بالعلم والعمل والتمكين في الأرض، وأن هذه النعمة ستشمل آل يعقوب الذين سجدوا له، وصاروا تبعاً له فيها.

﴿٦﴾ ولهذا قال: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾؛ أي: يصطفيك ويختارك بما من به عليك من الأوصاف الجليلة والمناقب الجميلة، ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾؛ أي: من تعبير الرؤيا وبيان ما تؤول إليه الأحاديث الصادقة كالكتب السماوية ونحوها، ﴿وَيُرِيكَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾: في الدنيا والآخرة؛ بأن يُوتيك في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾: حيث

أنعم الله عليهما بنعم عظيمة واسعة دينية وديوية. ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؛ أي: علمه محيط بالأشياء وبما احتوت عليه ضمائر العباد من البرِّ وغيره، فيعطي كلاً ما تقتضيه حكمته وحمده؛ فإنه حكيم يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها.

﴿٥﴾ ولما تم<sup>(١)</sup> تعبيرها ليوسف؛ قال له أبوه: ﴿يَا بَنِيَّ لَا تَقْضُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾؛ أي: حسداً من عند أنفسهم؛ بأن تكون أنت الرئيس الشريف عليهم. ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾: لا يفتر عنه ليلاً ولا نهاراً ولا سراً ولا جهاراً؛ فالبعد عن الأسباب التي يتسلط بها على العبد أولى. فامتثل يوسف أمر أبيه، ولم يخبر إخوته بذلك، بل كتمها عنهم.

﴿٦﴾ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْسَّائِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ آبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَيِّكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾

﴿٧﴾ يقول تعالى: ﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات﴾؛ أي: عبر وأدلة على كثير من المطالب الحسنة، ﴿للسائلين﴾؛ أي: لكل من سأل عنها بلسان الحال أو بلسان المقال؛ فإن السائلين هم الذين ينتفعون بالآيات والعبر، وأما المعروضون؛ فلا ينتفعون بالآيات ولا بالقصص<sup>(٢)</sup> والبيئات.

﴿٨﴾ ﴿إذ قالوا﴾: فيما بينهم: ﴿ليوسف وأخوه﴾: بنيامين؛ أي: شقيقه، وإلاً فكلهم إخوة، ﴿أحبُّ إلى أبينا منا ونحن عصبة﴾؛ أي: جماعة، فكيف يفضلهما [علينا] بالمحبة والشفقة. ﴿إن أبانا لفي ضلال مبين﴾؛ أي: لفي خطأ بين حيث فضلها علينا من غير موجب نراه، ولا أمر نشاهده.

﴿٩﴾ ﴿اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً﴾؛ أي: غيِّبوه عن أبيه في أرض بعيدة لا يتمكن من رؤيته فيها؛ فإنكم إذا فعلتم أحد هذين الأمرين؛ ﴿يخل لكم وجه أبيكم﴾؛ أي: يتفرغ لكم، ويُقبل عليكم بالشفقة والمحبة؛ فإنه قد اشتغل قلبه بيوسف شغلاً لا يتفرغ لكم. ﴿وتكونوا من بعده﴾؛ أي: من بعد هذا الصنيع قوماً صالحين؛ أي: تتوبون إلى الله وتستغفرونه من بعد ذنبكم، فقدموا العزم على التوبة قبل صدور الذنب منهم؛ تسهلاً لفعله، وإزالة لشناعته، وتنشيطاً من بعضهم لبعض.

(١) في (ب): «بان».

(٢) في (ب): «في القصص».

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْهَ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ .

﴿١٠﴾ أي: ﴿قال قائل﴾: من إخوة يوسف الذين أرادوا قتله أو تبيعيده: ﴿لا تقتلوا يوسف﴾: فإن قتله أعظم إنمأ وأشنع، والمقصود يحصل بتبيعيده عن أبيه من غير قتل، ولكن توصلوا إلى تبيعيده بأن تلقوه ﴿في غيابة الجب﴾: وتتوعدوه على أنه لا يخبر بشأنكم، بل على أنه عبد مملوك آبق [منكم] لأجل أن يلتقطه ﴿بعض السيارة﴾: الذين يريدون مكاناً بعيداً فيحتفظون فيه، وهذا القائل أحسنهم رأياً في يوسف وأبرهم وأتقاهم في هذه القضية؛ فإن بعض الشر أهون من بعض، والضرر الخفيف يدفع به الضرر الثقيل. فلما اتفقوا على هذا الرأي:

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَزْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَّيْرُونَ ﴿١٤﴾﴾ .

﴿١١﴾ أي: قال إخوة يوسف متوصلين إلى مقصدهم لأبيهم: ﴿يا أبانا ما لك لا تأمناً على يوسف وإنا له لناصحون﴾؛ أي: لأي شيء يذخلك الخوف منا على يوسف من غير سبب ولا موجب، والحال أننا ﴿له لناصحون﴾؛ أي: مشفقون عليه نودُّ له ما نودُّ لأنفسنا.

وهذا يدل على أن يعقوب عليه السلام لا يترك يوسف يذهب مع إخوته للبرية ونحوها.

﴿١٢﴾ فلما نفوا عن أنفسهم التهمة المانعة لعدم إرساله معهم؛ ذكروا له من مصلحة يوسف وأنسه الذي يحبه أبوه له ما يقتضي أن يسمح بإرساله معهم، فقالوا: ﴿أرسله معنا غداً يزتع ويلعب﴾؛ أي: يبتزعه في البرية ويستأنس، ﴿وإننا له لحافظون﴾؛ أي: سنراعيه، ونحفظه من أذى يريده.

﴿١٣﴾ فأجابهم بقوله: ﴿إنني ليحزُنُنِي أن تذهبوا به﴾؛ أي: مجرد ذهابكم به يحزُنُنِي ويشقُّ عليّ؛ لأنني لا أقدر على فراقه، ولو مدة يسيرة؛ فهذا مانع من إرساله.

﴿١٤﴾ مانع ثانٍ، وهو أنني ﴿أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون﴾؛ أي: في حال غفلتكم عنه؛ لأنه صغير لا يمتنع من الذئب.

﴿١٤﴾ ﴿قَالُوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة﴾؛ أي: جماعة حريصون على حفظه؛ ﴿إنَّا إذا لخاسرون﴾؛ أي: لا خير فينا ولا نفع يُرجى مئاً إن أكله الذئب وغلبننا عليه.

فلما مهّدوا لأبيهم الأسباب الداعية لإرساله وعدم الموانع؛ سمّح حينئذ بإرساله معهم لأجل أنسه.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَاءَ وَرِأْسَهُمْ عِشَاءَ يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذَّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءَهُ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿١٥﴾ أي: لما ذهب إخوة يوسف بيوسف بعدما أذن له أبوه، وعزموا أن يجعلوه في غيابة الجبّ كما قال قائلهم السابق ذكره، وكانوا قادرين على ما أجمعوا عليه، فنفذوا فيه قدرتهم، وألقوه في الجبّ، ثم إن الله لطف به بأن أوحى إليه وهو بتلك الحال الحرجة: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ أي: سيكون منك معاتبه لهم وإخبار عن أمرهم هذا وهم لا يشعرون بذلك الأمر. ففيه بشارة له بأنه سينجو مما وقع فيه، وأن الله سيجمعه بأهله وإخوته على وجه العزّ والتمكين له في الأرض.

﴿١٦﴾ ﴿وجاؤوا أباهم عشاء يبكون﴾: ليكون إتيانهم متأخراً عن عاداتهم، وبكاؤهم دليلاً لهم وقريئة على صدقهم.

﴿١٧﴾ فقالوا متعذرين بعذر كاذب: ﴿يا أبانا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾: إما على الأقدام أو بالرمي والنضال، ﴿وتركنا يوسف عند متاعنا﴾: توفيراً له وراحة، ﴿فأكله الذئب﴾: في حال غيبتنا عنه واستباقنا<sup>(١)</sup>. ﴿وما أنت بمؤمنٍ لنا ولو كنا صادقين﴾؛ أي: تعذرنا بهذا العذر، والظاهر أنك لا تصدقنا؛ لما في قلبك من الحزن على يوسف والرقّة الشديدة عليه، ولكن عدم تصديقك إيانا لا يمنّنا أن نعتذر بالعذر الحقيقي. وكلّ هذا تأكيد لعذرهم.

﴿١٨﴾ ﴿و﴾ مما أكّدوا به قولهم أنهم: ﴿جاؤوا على قميصه بدم كذب﴾:

(١) في (ب): «في استباقنا».

زعموا أنه دم يوسف حين أكله الذئب، فلم يصدقهم أبوهم بذلك، و ﴿قال بل سؤلت لكم أنفسكم أمراً﴾؛ أي: زينت لكم أنفسكم أمراً قبيحاً في التفريق بيني وبينه؛ لأنه رأى من القرائن والأحوال ومن رؤيا يوسف التي قصها عليه ما دلّه على ما قال. ﴿فصبر جميلٌ والله المستعان على ما تصفون﴾؛ أي: أمّا أنا؛ فوظيفتي سأحرص على القيام بها، وهي أنني أصبر على هذه المحنة صبراً جميلاً سالمًا من السخط والتشكي إلى الخلق، وأستعين الله على ذلك لا على حولي وقوتي، فوعد من نفسه هذا الأمر، وشكا إلى خالقه في قوله: ﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله﴾: لأنّ الشكوى إلى الخالق لا تنافي الصبر الجميل؛ لأنّ النبي إذا وعد وفى.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَذَا عَلِمَ وَأَسْرُوهُ يَضَعَةٌ وَاللَّهُ عَلَيْهِ يَمًا يَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِشَمْنٍ بِخَيْرٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿١٩﴾ أي: مكث يوسف في الجبّ ما مكث، حتى ﴿جاءت سيّارة﴾؛ أي: قافلة تريد مصر، ﴿فأرسلوا واردهم﴾؛ أي: فرطهم ومقدمهم الذي يعسّ لهم المياه ويسبرها ويستعد لهم بتهيئة الحياض ونحو ذلك، ﴿فأدلى﴾: ذلك الوارد ﴿دلوه﴾: فتعلّق فيه يوسف عليه السلام وخرج، فقال: ﴿يا بُشْرَىٰ هذا غلام﴾؛ أي: استبشر وقال: هذا غلام نفيس، ﴿وأسرّوه بضاعة﴾.

﴿٢٠﴾ وكان إخوته قريباً منه، فاشتره السيّارة منهم ﴿بشمن بخس﴾؛ أي: قليل جداً، فسره بقوله: ﴿دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين﴾: لأنّه لم يكن لهم قصد إلا تغييبه وإبعاده عن أبيه، ولم يكن لهم قصد في أخذ ثمنه. والمعنى في هذا أنّ السيّارة لما وجدوه؛ عزموا أن يُسروا أمره، ويجعلوه من جملة بضائعهم التي معهم، حتى جاءهم إخوته، فزعموا أنّه عبد أبق منهم، فاشتروه منهم بذلك الثمن، واستوثقوا منهم فيه لثلا يهرب. والله أعلم.

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَنُعَلِّمُهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ أَمِينٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿٢١﴾ أي: لما ذهب به السيّارة إلى مصر وباعوه بها، فاشتره عزيز مصر، فلما اشتراه؛ أعجب به ووصّى عليه امرأته وقال: ﴿أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه

ولداً؛ أي: إما أن ينفعنا كنفع العبيد بأنواع الخدم، وإما أن نستمتع فيه استمتاعنا بأولادنا، ولعل ذلك أنه لم يكن لهما ولدٌ. ﴿وكذلك مكثاً ليوسف في الأرض﴾؛ أي: كما يسرنا أن يشتره عزيز مصر ويكرمه هذا الإكرام؛ جعلنا هذا مقدمة لتمكينه في الأرض من هذا الطريق. ﴿ولنعلمه من تأويل الأحاديث﴾: إذا بقي لا شغل له ولا هم له سوى العلم؛ صار ذلك من أسباب تعلمه علماً كثيراً من علم الأحكام وعلم التعبير وغير ذلك. ﴿والله غالبٌ على أمره﴾؛ أي: أمره تعالى نافذ لا يبطله مبطلٌ ولا يغلبه مغالبٌ. ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾: فلذلك يجري منهم، ويصدُر ما يصدُر في مغالبة أحكام الله القدريّة، وهم أعجز وأضعف من ذلك.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿٢٢﴾ أي: ﴿لما بلغ﴾ يوسف ﴿أشدّه﴾؛ أي: كمال قوته المعنويّة والحسيّة وصلح لأن يتحمّل الأحمال الثقيلة من النبوة والرسالة؛ ﴿آتيناها حكماً وعلماً﴾؛ أي: جعلناه نبياً رسولاً وعالماً ربانياً. ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾: في عبادة الخالق ببذل الجهد والتّصح فيها، وإلى عباد الله ببذل النفع والإحسان إليهم؛ نؤتيهم من جملة الجزاء على إحسانهم علماً نافعاً. ودلّ هذا على أن يوسف وفّى مقام الإحسان، فأعطاه الله الحكم بين الناس والعلم الكثير والنبوة.

﴿رَوَدَّتْهُ آتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْت لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ ولقد همّت به وهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُتَّخِصِنِينَ ﴿٢٤﴾ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

هذه المحنة العظيمة أعظم على يوسف من محنة إخوته وصبره عليها، أعظم أجراً لأنه صبر اختياراً مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوع الفعل، فقدّم محبة الله عليها، وأما محنته بإخوته؛ فصبره صبر اضطرار؛ بمنزلة الأمراض والمكاره التي

تُصيب العبد بغير اختياره، وليس له ملجأ إلا الصبر عليها طائعا أو كارها.

﴿٢٣ - ٢٤﴾ وذلك أن يوسف عليه الصلاة والسلام بقي مكرماً في بيت العزيز، وكان له من الجمال والكمال والبهاء ما أوجب ذلك أن ﴿رَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾؛ أي: هو غلامها وتحت تدبيرها والمسكن واحدٌ يتيسر إيقاع الأمر المكروه من غير شعور<sup>(١)</sup> أحدٍ ولا إحساس بشئ. ﴿وَ﴾ زادت المصيبة بأن ﴿عَلَّقَتْ الْأَبْوَابَ﴾: وصار المحل خالياً، وهما آمان من دخول أحدٍ عليهما بسبب تغليق الأبواب. وقد دعتُه إلى نفسها، فقالت: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾؛ أي: افعل الأمر المكروه وأقبل إلي! ومع هذا؛ فهو غريبٌ لا يحتشم مثله ما يحتشمه إذا كان في وطنه وبين معارفه، وهو أسيرٌ تحت يدها، وهي سيدته، وفيها من الجمال ما يدعو إلى ما هنالك، وهو شابٌ عَزَبٌ، وقد توعدته إن لم يفعل ما تأمره به بالسجن أو العذاب الأليم، فصبر عن معصية الله مع وجود الداعي القوي فيه؛ لأنه قد همَّ فيها همًّا تَرَكَهُ لِلَّهِ، وقدم مراد الله على مراد النفس الأمارة بالسوء، ورأى من برهان ربِّه - وهو ما معه من العلم والإيمان الموجب لِتَرْكِ كُلِّ مَا حَرَّمَ اللَّهُ - ما أوجب له البعد والانكفاف عن هذه المعصية الكبيرة، و ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾؛ أي: أعوذ بالله أن أفعل هذا الفعل القبيح؛ لأنه مما يُسَخِّطُ اللَّهَ وَيُبْعِدُ عَنْهُ، ولأنه خيانةٌ في حقِّ سيدي الذي أكرم مثواي؛ فلا يليقُ بي أن أقابله في أهله بأقبح مقابلة، وهذا من أعظم الظلم، والظالم لا يفلح.

والحاصل أنه جعل الموانع له من هذا الفعل: تقوى الله، ومراعاة حقِّ سيده الذي أكرمه، وصيانة نفسه عن الظلم الذي لا يفلح من تعاطاه، وكذلك ما من الله عليه من برهان الإيمان الذي في قلبه يقتضي منه امتثال الأوامر واجتناب الزواجر، والجامع لذلك كله أن الله صرف عنه السوء والفحشاء؛ لأنه من عباده المخلصين له في عباداتهم، الذين أخلصهم الله واختارهم واختصهم لنفسه، وأسدى عليهم من النعم، وصرف عنهم من المكارة ما كانوا به من خيار خلقه.

﴿٢٥﴾ ولما امتنع من إجابة طلبها بعد المراودة الشديدة؛ ذهب ليهرب منها ويبادر إلى الخروج من الباب ليتخلص ويهرب من الفتنة، فبادرته إليه وتعلقت بثوبه، فشقت قميصه، فلما وصلا إلى الباب في تلك الحال؛ ألقيا سيدها - أي:

(١) في (ب): «إشعار».



زوجها - لدى الباب، فرأى أمراً شقاً عليه، فبادرت إلى الكذب، وأن المرادة قد كانت من يوسف، وقالت: ﴿ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً﴾: ولم تقل: من فعل بأهلك سوءاً؛ تبرئة لها وتبرئة له أيضاً من الفعل، وإنما النزاع عند الإرادة والمرادة، ﴿إلا أن يُسجنَ أو عذابَ أليم﴾؛ أي: أو يعذب عذاباً أليماً.

﴿٢٦﴾ ﴿فبرأ نفسه مما رمته به، و﴾ قال هي راودتني عن نفسي﴾: فحينئذٍ احتملت الحال صدق كل واحد منهما، ولم يعلم أيهما، ولكن الله تعالى جعل للحق والصدق علامات وأمارات تدل عليه، قد يعلمها العباد وقد لا يعلمونها؛ فمن الله [تعالى] في هذه القضية بمعرفة الصادق منهما تبرئة لبيته وصفيه يوسف عليه السلام، فانبعث شاهد من أهل بيتها يشهد بقريته من وجدت معه فهو الصادق، فقال: ﴿إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين﴾؛ لأن ذلك يدل على أنه هو المقبل عليها المراد لها المعالج، وأنها أرادت أن تدفعه عنها، فشقت قميصه من هذا الجانب.

﴿٢٧﴾ ﴿وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين﴾: لأن ذلك يدل على هروبه منها؛ وأنها هي التي طلبته، فشقت قميصه من هذا الجانب.

﴿٢٨﴾ ﴿فلما رأى قميصه قد من دبر﴾: عرّف بذلك صدق يوسف وبرأته وأنها هي الكاذبة، فقال لها سيدها: ﴿إنه من كيدك إن كيدك عظيم﴾: وهل أعظم من هذا الكيد الذي برأت به نفسها مما أرادت وفعلت ورمت به نبي الله يوسف عليه السلام؟!

﴿٢٩﴾ ﴿ثم إن سيدها لما تحقق الأمر؛ قال ليوسف: ﴿يوسف أعرض عن هذا﴾؛ أي: اترك الكلام فيه وتناسه ولا تذكره لأحد طلباً للستر على أهله. ﴿واستغفري﴾: أيتها المرأة، ﴿لذنبك إنك كنت من الخاطئين﴾: فأمر يوسف بالإعراض، وهي بالاستغفار والتوبة.

﴿٣٠﴾ ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِينَ لَمْتُمْنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْنَهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا

نَصَرَفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٠﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجُتُهُ حَتَّىٰ جِئَ ﴿٣٢﴾

﴿٣٠﴾ يعني: أن الخبر اشتهر وشاع في البلد، وتحدثت به النسوة، فجعلن يُلْمَنها وَيَقْلُن: ﴿امرأة العزيز تراوَد فتاها عن نفسه قد شغفها حباً﴾؛ أي: هذا أمرٌ مستقبِح! هي امرأةٌ كبيرةُ القدر وزوجها كبيرُ القدر ومع هذا لم تزل تراوَد فتاها الذي تحت يدها وفي خدمتها عن نفسه، ومع هذا؛ فإنَّ حُبَّهُ قد بلغ من قلبها مبلغاً عظيماً. ﴿قد شَغَفَهَا حَباً﴾؛ أي: وصل حُبُّه إلى شغاف قلبها، وهو باطنه وسويداؤه، وهذا أعظم ما يكون من الحب. ﴿إنا لنراها في ضلالٍ مبين﴾: حيث وجدت منها هذه الحالة التي لا ينبغي منها، وهي حالة تحطُّ قدرها وتضعه عند الناس.

﴿٣١﴾ وكان هذا القول منهنَّ مكرراً ليس المقصودُ به مجرد اللوم لها والقدح فيها، وإنما أَرَدْنَ أن يتوصّلن بهذا الكلام إلى رؤية يوسف الذي فِتِنَتْ به امرأة العزيز لِتَحَقِّقَ امرأةُ العزيز وتريهِنَّ إِيَّاه ليعذِرْنَها، ولهذا سمّاه مكرراً، فقال: ﴿فلما سمعت بمكرهنَّ أرسلت إليهنَّ﴾: تدعوهنَّ إلى منزلها للضيافة، ﴿وأعدت لهن متكأ﴾؛ أي: محلاً مهيباً بأنواع الفرش والوسائد وما يُقصد بذلك من المآكل اللذيذة، وكان في جملة ما أتت به وأحضرتة في تلك الضيافة طعامٌ يحتاجُ إلى سكين: إمَّا أترجُّ أو غيره. ﴿وأتت<sup>(١)</sup> كلَّ واحدةٍ منهنَّ سكيناً﴾: ليقطعن فيها ذلك الطعام، ﴿وقالت﴾ ليوسف: ﴿اخرج عليهنَّ<sup>(٢)</sup>﴾: في حالة جماله وبهائه، ﴿فلما رأينه أكبرته﴾؛ أي: أعظمته في صدورهنَّ ورأين منظراً فائقاً لم يشاهدنَّ مثله؛ ﴿وقطعن﴾: من الدهش ﴿أيديهنَّ﴾: بتلك السكاكين اللاتي معهن، ﴿وقلن حاش لله﴾؛ أي: تنزيهاً لله، ﴿ما هذا بشراً إن هذا إلا ملكٌ كريم﴾: وذلك أن يوسف أعطي من الجمال الفائق والنور والبهاء ما كان به آيةً للنظرين وعبرةً للمتأملين.

﴿٣٢﴾ فلما تقرّر عندهنَّ جمالُ يوسف الظاهر، وأعجبهنَّ غايةً، وظهر منهنَّ من العذر لامرأة العزيز شيءٌ كثيرٌ؛ أرادت أن تُريهِنَّ جماله الباطن بالعفة التامة، فقالت معلنة لذلك ومبيّنة لحبه الشديد غير مبالية ولأن اللوم انقطع عنها من النسوة: ﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم﴾؛ أي: امتنع، وهي مقيمة على مراودته، لم

(٢) في (ب): «إليهن».

(١) في (ب): «فأتت».

تزدها مرور الأوقات إلّا محبّةً وشوقاً وقلقاً لوصاله وتوقاً، ولهذا قالت له بحضرتها: ﴿ولئن لم يفعل ما أمره ليسجننّ وليكونا من الصّاغرين﴾: لتلجئه بهذا الوعيد إلى حصول مقصودها منه.

﴿٣٣﴾ فعند ذلك اعتصم يوسف بربه، واستعان به على كيدهنّ و ﴿قال ربّ السجن أحبّ إليّ مما يدعونني إليه﴾: وهذا يدلّ على أن النسوة جعلن يُشزن على يوسف في مطاوعة سيده، وجعلن يكذّنه في ذلك، فاستحبّ السجن والعذاب الدنيويّ على لذّة حاضرة توجب العذاب الشديد. ﴿والأّ تصرف عني كيدهنّ أصبّ إليهنّ﴾؛ أي: أمل إليهنّ؛ فإني ضعيف عاجز إن لم تدفع عني السوء؛ صبوت إليهنّ، ﴿وأكن من الجاهلين﴾<sup>(١)</sup>: فإنّ هذا جهل؛ لأنّه أثر لذّة قليلة منغصة على لذات متتابعات وشهوات متنوعات في جنات النعيم، ومنّ أثر هذا على هذا؛ فمن أجهل منه؟! فإنّ العلم والعقل يدعو إلى تقديم أعظم المصلحتين وأعظم اللذّتين، ويؤثّر ما كان محمود العاقبة.

﴿٣٤﴾ ﴿فاستجاب له ربه﴾: حين دعاه، ﴿فصرف عنه كيدهنّ﴾: فلم تزل تراوده وتستعين عليه بما تقدّر عليه من الوسائل حتى أيسّها وصرّف الله عنه كيدها. ﴿إنّه هو السميع﴾: لدعاء الداعي، ﴿العليم﴾: بنيته الصالحة وبنيته الضعيفة المقتضية لإمداده بمعونته ولطفه، فهذا ما نجّى الله به يوسف من هذه الفتنة الملمّة والمحنة الشديدة.

﴿٣٥﴾ وأما أسياده؛ فإنّه لما اشتهر الخبر وبان وصار الناس فيها بين عاذرٍ ولائم وقادح، ﴿بدا لهم﴾؛ أي: ظهر لهم ﴿من بعد ما رأوا الآيات﴾: الدالّة على براءته، ﴿يسجننّه حتى حين﴾؛ أي: لينقطع بذلك الخبر ويتناساه الناس؛ فإنّ الشيء إذا شاع؛ لم يزل يذكر، ويشاع مع وجود أسبابه؛ فإذا عدت أسبابه؛ نسي، فرأوا أنّ هذا مصلحة لهم، فأدخلوه في السجن.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٌ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَأْتُهَا مِنِّي بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَأَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ

(١) في (ب): ﴿وأكن﴾ إن صبوت إليهن من الجاهلين».

مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَنُفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعَتْ مِثْلَهُ مَلَائِكَةُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَصْنَعِي السِّجْنَ مَأْزِيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاءُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِي أَلْقَيْتُمْ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ [يَصْنَعِي السِّجْنَ أَمَا أَحَدُكُمْ فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَا الْآخِرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ. قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِينَ] ﴿٤١﴾<sup>(١)</sup>.

﴿٣٦﴾ أي: ﴿و﴾ لما دخل يوسف السجن؛ كان في جملة من ﴿دخل معه السجن فينان﴾؛ أي: شابان، فرأى كل واحد منهما رؤيا، فقصها على يوسف ليعبرها، ﴿قال أحدهما إني أراني أعصرُ خمرًا، وقال الآخرُ إني أراني أحمل فوق رأسي خبزًا﴾: وذلك الخبز ﴿تأكل الطيرُ منه نبثنا بتأويله﴾؛ أي: بتفسيره وما يؤول إليه أمرهما. وقولهما: ﴿إنا نراك من المحسنين﴾؛ أي: من أهل الإحسان إلى الخلق؛ فأحسن إلينا في تعبيرك لرؤيانا كما أحسنت إلى غيرنا، فتوسل ليوسف بإحسانه.

﴿٣٧﴾ وَ﴿قَالَ﴾ لهما مجيباً لطلبهما<sup>(٢)</sup>: ﴿لا يأتيكما طعامٌ ترزقانه إلا نباتكما بتأويله قبل أن يأتيكما﴾؛ أي: فلتطمئن قلوبكما فإني سأبادر إلى تعبير رؤياكما، فلا يأتيكما غداؤكما أو عشاؤكما أول ما يجيء إليكما؛ إلا نباتكما بتأويله قبل أن يأتيكما، ولعل يوسف عليه الصلاة والسلام قصد أن يدعوها إلى الإيمان في هذه الحال التي بدت حاجتهما إليه؛ ليكون أنجع لدعوته وأقبل لهما. ثم قال: ﴿ذلكما﴾: التعبير الذي سأعبره لكما، ﴿مما علمني ربي﴾؛ أي: هذا من علم الله علمنيه وأحسن إليّ به. وذلك ﴿إني تركتُ مِلَّةَ قومٍ لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون﴾: والترك كما يكون للداخل في شيء ثم ينتقل عنه يكون لمن لم يدخل فيه أصلاً؛ فلا يُقال: إن يوسف كان من قبل على غير مِلَّة إبراهيم.

﴿٣٨﴾ ﴿واتبعت مِلَّةَ آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب﴾: ثم فسّر تلك الملة

(١) ما بين المعقوفتين زيادة لا توجد في النسختين.

(٢) في (ب): «لطلبتهما».

بقوله: ﴿ما كان لنا﴾؛ [أي: ما ينبغي ولا يليق بنا] ﴿أن نُشركَ بالله من شيءٍ﴾: بل نُفردُ الله بالتوحيد ونُخلِصُ له الدين والعبادة. ﴿ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس﴾؛ أي: هذا من أفضل [منه]<sup>(١)</sup> وإحسانه وفضله علينا وعلى مَنْ هداه الله كما هدانا؛ فإنه لا أفضل من مئة الله على العباد بالإسلام والدين القويم؛ فمن قبله وانقاد له؛ فهو حظُّه، وقد حصل له أكبر النعم وأجلِّ الفضائل. ﴿ولكنَّ أكثرَ الناس لا يشكرون﴾: فلذلك تأتيهم المنة والإحسان فلا يقبلونها ولا يقومون لله بحقه. وفي هذا من الترغيب للطريق التي هو عليها ما لا يخفى؛ فإنَّ الفتيين لما تفرَّروا عنده أنهما رأياه بعين التعظيم والإجلال وأنه محسنٌ معلَّم؛ ذكر لهما أنَّ هذه الحالة التي أنا عليها كلها من فضل الله وإحسانه، حيث منَّ عليَّ بترك الشرك واتباع ملة آبائي<sup>(٢)</sup>؛ فبهذا وصلتُ إلى ما رأيتمَا، فينبغي لكما أن تسلكما ما سلكتُ.

﴿٣٩﴾ ثم صرح لهما بالدعوة فقال: ﴿يا صاحبي السجن أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار﴾؛ أي: أرباب عاجزة ضعيفة لا تنفع ولا تضرُّ ولا تعطي ولا تمنع وهي متفرقة ما بين أشجار وأحجار وملائكة وأموات وغير ذلك من أنواع المعبودات التي يتخذها المشركون، أتلك خير أم الله الذي له صفات الكمال الواحد في ذاته وصفاته وأفعاله؟ فلا شريك له في شيء من ذلك، القهار الذي انتقادت الأشياء لقهره وسلطانه؛ فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ما من دابةٍ إلا هو آخذٌ بناصيتها.

﴿٤٠﴾ ومن المعلوم أنَّ مَنْ هذا شأنه ووصفه خيرٌ من الآلهة المتفرقة التي هي مجرد أسماء لا كمال لها ولا فعال لديها، ولهذا قال: ﴿ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم﴾؛ أي: كسوتموها أسماء [و] سميتموها آلهة، وهي لا شيء، ولا فيها من صفات الألوهية شيء. ﴿ما أنزل الله بها من سلطان﴾: بل أنزل الله السلطان بالنهي عن عبادتها وبيان بطلانها، وإذا لم يُنزلِ الله بها سلطاناً؛ لم يكن طريقٌ ولا وسيلةٌ ولا دليلٌ لها. لأنَّ الحكمَ ﴿لله﴾: وحدَه؛ فهو الذي يأمرُ وينهى ويشرعُ الشرائع ويسنُّ الأحكام، وهو الذي أمركم ﴿أن لا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم﴾؛ أي: المستقيم الموصل إلى كلِّ خير، وما سواه من الأديان؛ فإنَّها غير مستقيمة، بل معوجةٌ توصل إلى كلِّ شرٍّ. ﴿ولكنَّ أكثرَ الناس لا يعلمون﴾:

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «منته».

(٢) في (ب): «آبائه».

حقائق الأشياء، وإلّا؛ فإنّ الفرق بين عبادة الله وحده لا شريك له وبين الشرك به أظهر الأشياء وأبينها، ولكن لعدم العلم من أكثر الناس بذلك حصل منهم ما حصل من الشرك. فيوسف عليه السلام دعا صاحبي السجن لعبادة الله وحده وإخلاص الدين له، فيُحتمل أنهما استجابا وانقادا فتّمت عليهما النعمة، ويُحتمل أنهما لم يزا على شركهما، فقامت عليهما بذلك الحجة.

﴿٤١﴾ ثم إنه عليه السلام شرّع يعبر رؤياهما بعدما وعدهما ذلك، فقال: ﴿يا صاحبي السجن أما أحدكما﴾: وهو الذي رأى أنه يعصرُ خمراً؛ فإنه يخرج من السجن، ويسقي ﴿رَبَّهُ خَمْراً﴾؛ أي: يسقي سيده الذي كان يخدمه خمراً، وذلك مستلزم لخروجه من السجن. ﴿وأما الآخر﴾: وهو الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه، ﴿فِيضَلُّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾: فإنه عبر عن الخبز<sup>(١)</sup> الذي تأكله الطير بلحم رأسه وشحمه وما فيه من المخ، وأنه لا يقبر ويستتر عن الطيور، بل يُصلب ويُجعل في محلّ تتمكّن الطيور من أكله، ثم أخبرهما بأنّ هذا التأويل الذي تأوله لهما أنه لا بدّ من وقوعه، فقال: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾؛ أي: تسألان عن تعبيره وتفسيره.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَنَّهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ (٤١).

﴿٤٢﴾ أي: ﴿وقال﴾ يوسف عليه السلام ﴿للذي ظنّ أنه ناجٍ منهما﴾: وهو الذي رأى أنه يعصرُ خمراً: ﴿اذكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾؛ أي: اذكر له شأني وقصّتي لعله يرقّ لي فيخرجني مما أنا فيه، ﴿فأنساه الشيطانُ ذكْرَ رَبِّهِ﴾؛ أي: فأنسى الشيطان ذلك الناجي ذكر الله تعالى وذكر ما يُقربُ إليه ومن جملة ذلك نسيانه ذكْرَ يوسف الذي يستحقُّ أن يُجازى بأتمّ الإحسان، وذلك ليتمّ الله أمره وقضاه. ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾: والبضع من الثلاث إلى التسع، ولهذا قيل: إنه لبث سبع سنين.

ولما أراد الله أن يُتمّ أمره ويأذن بإخراج يوسف من السجن؛ قدر لذلك سبباً لإخراج يوسف وارتفاع شأنه وإعلاء قدره وهو رؤيا الملك.

(١) في (ب): «عبر الخبز».

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنَّ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامُهُ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنْتِشِكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾ يَوْسُفَ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصُونَ ﴿٤٨﴾﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ ﴿٤٩﴾﴾ .

لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَخْرِجَ يَوْسُفَ مِنَ السِّجْنِ؛ أَرَى اللَّهُ الْمَلِكَ هَذِهِ الرُّؤْيَا الْعَجِيبَةَ الَّتِي تَأْوِيلُهَا يَتَنَاوَلُ جَمِيعُ الْأُمَّةِ؛ لِيَكُونَ تَأْوِيلُهَا عَلَى يَدِ يَوْسُفَ، فَيُظْهِرُ مِنْ فَضْلِهِ وَيُبَيِّنُ مِنْ عِلْمِهِ مَا يَكُونُ لَهُ رِفْعَةً فِي الدَّارَيْنِ. وَمِنَ التَّقَادِيرِ الْمُنَاسِبَةِ أَنَّ الْمَلِكَ الَّذِي تَرَجَّعَ إِلَيْهِ أُمُورَ الرِّعِيَّةِ هُوَ الَّذِي رَأَاهَا؛ لِارْتِبَاطِ مَصَالِحِهَا بِهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ رَأَى رُؤْيَا هَالَتِهِ، فَجَمَعَ عُلَمَاءَ قَوْمِهِ وَذَوِي الرَّأْيِ مِنْهُمْ وَقَالَ:

﴿٤٣﴾ ﴿إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ﴾؛ أَي: سَبْعٌ مِنَ الْبَقَرَاتِ ﴿عِجَافٌ﴾: وَهَذَا مِنَ الْعَجَبِ أَنَّ السَّبْعَ الْعِجَافَ الْهَزِيلَاتِ اللَّاتِي سَقَطَتْ قُوَّتُهُنَّ يَأْكُلْنَ السَّبْعَ السِّمَانَ الَّتِي كُنَّ نَهَائِيَّةً فِي الْقُوَّةِ. ﴿و﴾ رَأَيْتُ ﴿سَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ﴾ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ سُنْبُلَاتٍ يَابِسَاتٍ؛ ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ﴾: لِأَنَّ تَعْبِيرَ الْجَمِيعِ وَاحِدًا وَتَأْوِيلَهُنَّ شَيْءٌ وَاحِدًا، ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾.

﴿٤٤﴾ فَتَحِيرُوا وَلَمْ يَعْرِفُوا لَهَا وَجْهًا؛ ﴿وَقَالُوا أَضْغَاتُ أَحْلَامٍ﴾؛ أَي: أَحْلَامٌ لَا حَاصِلَ لَهَا وَلَا لَهَا تَأْوِيلٌ. وَهَذَا جَزْمٌ مِنْهُمْ بِمَا لَا يَعْلَمُونَ وَتَعَدُّرٌ مِنْهُمْ بِمَا لَيْسَ بِعَدْرٍ. ثُمَّ قَالُوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾؛ أَي: لَا نَعْبُرُ إِلَّا الرُّؤْيَا وَأَمَّا الْأَحْلَامُ الَّتِي هِيَ مِنَ الشَّيْطَانِ أَوْ مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ فَإِنَّا لَا نَعْبُرُهَا. فَجَمَعُوا بَيْنَ الْجَهْلِ وَالْجَزْمِ بِأَنَّهَا أَضْغَاتُ أَحْلَامٍ وَالْإِعْجَابِ بِالنَّفْسِ بِحَيْثُ إِنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوا: لَا نَعْلَمُ تَأْوِيلَهَا! وَهَذَا مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي لَا تَنْبَغِي لِأَهْلِ الدِّينِ وَالْحِجَا. وَهَذَا أَيْضًا مِنْ لُطْفِ اللَّهِ بِيَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فَإِنَّهُ لَوْ عَبَّرَهَا ابْتِدَاءً قَبْلَ أَنْ يَعْضُهَا عَلَى الْمَلَأِ مِنْ قَوْمِهِ وَعُلَمَائِهِمْ فَيَعْجِزُوا عَنْهَا؛ لَمْ يَكُنْ لَهَا ذَلِكَ الْمَوْقِعُ، وَلَكِنْ لَمَّا عَرَضَهَا عَلَيْهِمْ، فَعَجِزُوا عَنِ الْجَوَابِ، وَكَانَ الْمَلِكُ مَهْتَمًّا لَهَا غَايَةً، فَعَبَّرَهَا يَوْسُفُ؛ وَقَعَتْ عِنْدَهُمْ مَوْقِعًا عَظِيمًا.

وهذا نظيرُ إظهار الله فضلَ آدمَ على الملائكة بالعلم بعد أن سألهم فلم يعلموا، ثم سأل آدمَ فعلمهم أسماء كلِّ شيءٍ، فحصل بذلك زيادةً فضله. وكما يُظهِرُ فضلُ أفضل خلقه محمدٍ ﷺ في القيامة أن يُلهمَ الله الخلقَ أن يتشفَّعوا بآدمَ ثم بنوحَ ثم إبراهيمَ ثم موسى ثم عيسى عليهم السلام، فيعتذرون عنها، ثم يأتون محمداً ﷺ، فيقول: «أنا لها، أنا لها»<sup>(١)</sup>، فيشفع في جميع الخلق، وينال ذلك المقامَ المحمودَ الذي يغيِّطُه به الأولون والآخرون؛ فسبحان من خَفِيَّتْ أَلطافُه ودَقَّتْ في إيصاله البر والإحسان إلى خواصِّ أصفِيائه وأوليائه.

﴿٤٥﴾ ﴿وقال الذي نجا منهما﴾؛ أي: من الفتيين، وهو الذي رأى أنه يعصرُ خمراً، وهو الذي أوصاه يوسف أن يذكره عند ربِّه، ﴿وإذَكَرَ بعد أُمَّةٍ﴾؛ أي: وتذكَّر يوسف وما جرى له في تعبيره لرؤياهما وما وصَّاه به وعلم أنه كفيلاً بتعبير هذه الرؤيا بعد مدَّةٍ من السنين، فقال: ﴿أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون﴾: إلى يوسف لأسأله عنها.

﴿٤٦﴾ فأرسلوه، فجاء إليه، ولم يعنِّفه يوسف على نسيانه، بل استمع ما يسأله عنه، وأجابه عن ذلك، فقال: ﴿يوسفُ أيُّها الصديقُ﴾؛ أي: كثير الصدق في أقواله وأفعاله، ﴿أفتنا في سبعِ بقراتِ سمانٍ يأكلُهُنَّ سبعُ عجافٍ وسبعِ سنبلاتِ خضرٍ وأخرٍ يابساتٍ لعلِّي أرجعُ إلى الناسِ لعلَّهم يعلمون﴾: فإنَّهم متشوفون لتعبيرها، وقد أهمَّتْهم.

﴿٤٧﴾ فعبَّر يوسفُ السبعَ البقراتِ السمانَ والسبعَ السنبلاتِ الخضرَ بأنَّهنَّ سبعُ سنينٍ مخصباتٍ، والسبعَ البقراتِ العجافَ والسبعَ السنبلاتِ اليابساتِ بأنَّهنَّ سبعُ سنينٍ مجدباتٍ، ولعلَّ وجهَ ذلك - والله أعلم - أنَّ الخصبَ والجذبَ لما كان الحَرثُ مبنياً عليه، وأنَّه إذا حصل الخصبُ؛ قويتِ الزروعُ والحروثُ وحسُنَ منظرُها وكثُرَتِ غلالُها، والجذبُ بالعكس من ذلك، وكانت البقر هي التي تُحرثُ عليها الأرضُ وتُسقى عليها الحروثُ في الغالب، والسنبلاتُ هي أعظمُ الأقواتِ وأفضلها؛ عبرها بذلك لوجود المناسبةِ، فجمع لهم في تأويلها بين التعبير والإشارة لما يفعلونه ويستعدُّون به من التدبير في سني الخصبِ إلى سني الجذبِ، فقال: ﴿تزرعون سبعَ سنينٍ دأباً﴾؛ أي: متتابعاتٍ، ﴿فما حصدتُم﴾: من تلك الزروعِ، ﴿فذرَّوه﴾؛ أي:

(١) أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٣).



اتركوه ﴿فِي سُنْبُلِهِ﴾: لَأَنَّهُ أَبْقَى لَهُ وَأَبْعَدَ مِنْ (١) الالْتِفَاتِ إِلَيْهِ، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾؛ أَي: دَبَّرُوا [أَيْضًا] أَكْلَكُمْ فِي هَذِهِ السَّنِينَ الْخَصْبَةِ، وَلِيَكُن قَلِيلًا؛ لِيَكْثُرَ مَا تَدْخُرُونَ، وَيَعْظُمُ نَفْعُهُ وَوَقْعُهُ.

﴿٤٨﴾ ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾؛ أَي: بَعْدَ تِلْكَ السَّنِينَ السَّبْعِ الْمَخْصَبَاتِ، ﴿سَبْعَ شِدَادٍ﴾؛ أَي: مَجْدِبَاتٍ، ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾؛ أَي: يَأْكُلْنَ جَمِيعَ مَا أَذْخَرْتُمُوهُ وَلَوْ كَانَ كَثِيرًا، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُخْصِنُونَ﴾؛ أَي: تَمْنَعُونَهُ مِنَ التَّقْدِيمِ لَهُنَّ.

﴿٤٩﴾ ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾؛ أَي: السَّبْعِ الشِّدَادِ ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْبُرُونَ﴾؛ أَي: فِيهِ تَكْثُرُ الْأَمْطَارُ وَالسِّيُولُ، وَتَكْثُرُ الْغَلَاثُ، وَتَزِيدُ عَلَى أَقْوَاتِهِمْ حَتَّىٰ إِنَّهُمْ يَعْبُرُونَ الْعَنْبَ وَنَحْوَهُ زِيَادَةً عَلَىٰ أَكْلِهِمْ، وَلَعَلَّ اسْتِدْلَالَه عَلَىٰ وُجُودِ هَذَا الْعَامِ الْخَصْبِ مَعَ أَنَّهُ غَيْرُ مُصْرَّحٍ بِهِ فِي رُؤْيَا الْمَلِكِ؛ لَأَنَّهُ فَهَمَ مِنَ [التَّقْدِيرِ] (٢) بِالسَّبْعِ الشِّدَادِ أَنَّ الْعَامَ الَّذِي يَلِيهَا يَزُولُ بِهِ شِدَّتُهَا، وَمَنْ الْمَعْلُومُ أَنَّهُ لَا يَزُولُ الْجَذْبُ الْمُسْتَمِرُّ سَبْعَ سَنِينَ مُتَوَالِيَاتٍ إِلَّا بِعَامٍ مُخْصَبٍ جَدًّا، وَإِلَّا؛ لَمَّا كَانَ لِلتَّقْدِيرِ فَائِدَةٌ.

فلما رجع الرسول إلى الملك والناس، وأخبرهم بتأويل يوسف للرؤيا؛ عجبوا من ذلك، وفرحوا بها أشدَّ الفرح.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتَنْبِيءُ بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالَ النَّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَوَدْتَنِّي يُوسُفُ عَنْ نَفْسِهِ قُلْتُ حَشَشَ اللَّهُ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْكَنُ حَصَّصَ الْحَقُّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥٢﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنْ نَفْسَ لَأَمَارَةٍ بِالشُّوْءِ إِلَّا مَا رَجِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتَنْبِيءُ بِهِ أَنْتَ خَلَفْتَهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٥﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٦﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ يَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَلَاَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْفُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

(٢) كذا في (ب) وفي (أ): «التعبير».

(١) في (ب): «عن».

﴿٥٠﴾ يقول تعالى: ﴿وقال المَلِكُ﴾ لمن عنده: ﴿ائتوني به﴾؛ أي: بيوسف عليه السلام بأن يخرجوه من السجن ويحضره إليه. فلما جاء يوسف الرسول، وأمره بالحضور عند الملك؛ امتنع عن المبادرة إلى الخروج حتى تتبين براءته التامة، وهذا من صبره وعقله ورأيه التام، فقال للرسول: ﴿ارجع إلى ربك﴾؛ يعني به: الملك، ﴿فاسأله ما بال النسوة اللاتي قَطَّعنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾؛ أي: اسأله ما شأنهن وقصتهن؛ فإن أمرهن ظاهر متضح. ﴿إِنَّ رَبِّي بكَيدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾.

﴿٥١﴾ فأحضرهنَّ الملك وقال: ﴿ما خطبُكُنَّ﴾؛ أي: شأنكن، ﴿إذ راودتُنَّ يوسفَ عن نفسه﴾: فهل رأيتن منه ما يريب؟! فبرأته و ﴿قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوءٍ﴾؛ أي: لا قليل ولا كثير؛ فحينئذ زال السبب الذي تُبْتى عليه التهمة، ولم يبقَ إلا ما عند امرأة العزيز، فقالت ﴿امرأة العزيز الآنَ حَضَّحَصَ الحقُّ﴾؛ أي: تمحص<sup>(١)</sup> وتبين بعدما كنا نُدْخِلُ معه من السوء والتهمة ما أوجب السجن ليوسف<sup>(٢)</sup>، ﴿أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين﴾: في أقواله وبراءته.

﴿٥٢﴾ ﴿ذلك﴾: الإقرار الذي أقرتُ أني راودتُ يوسف<sup>(٣)</sup>، ﴿ليعلم أني لم أخنه بالغيب﴾: يُحتمل أن مرادها بذلك زوجها؛ أي: ليعلم أني حين أقرتُ أني راودتُ يوسف أني لم أخنه بالغيب؛ أي: لم يَجِرْ مِنِّي إلا مجرد المرادة، ولم أفسد عليه فراشه. ويُحتمل أن المراد بذلك: ليعلم يوسف حين أقرتُ أني أنا الذي راودته، وأنه صادقٌ أني لم أخنه في حال غيبته عني. ﴿وأن الله لا يَهْدِي كيد الخائنين﴾: فإن كلَّ خائنٍ لا بدَّ أن تعود خيانته ومكره على نفسه، ولا بدَّ أن يتبين أمره.

﴿٥٣﴾ ثم لما كان في هذا الكلام نوعٌ تزكية لنفسها وأنه لم يجر منها ذنبٌ في شأن يوسف استدركت فقالت: ﴿وما أبرئُ نفسي﴾؛ أي: من المرادة والهَمُّ والحرص الشديد والكيد في ذلك. ﴿إنَّ النفسَ لأَمارةٌ بالسوء﴾؛ أي: لكثيرة الأمر لصاحبها بالسوء؛ أي: الفاحشة وسائر الذنوب؛ فإنها مركبُ الشيطان، ومنها يدخلُ على الإنسان. ﴿إلا ما رَجِمَ ربي﴾: فنجاه من نفسه الأثمارة حتى صارت نفسه مطمئنة إلى ربها منقادة لداعي الهدى متعاضية عن داعي الردى؛ فذلك ليس من

(١) في (ب): «تمحص».

(٢) في (ب): «لسجن يوسف».

(٣) في (ب): «ذلك الإقرار الذي أقرتُ ليعلم أني لم أخنه بالغيب».

النفس، بل من فضل الله ورحمته بعبده. ﴿إِنَّ رَبِّيَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ أي: هو غفور لمن تجرأ على الذنوب والمعاصي إذا تاب وأتاب، رحيمٌ بقبول توبته وتوفيقه للأعمال الصالحة.

وهذا هو الصوابُ أن هذا من قول امرأة العزيز لا من قول يوسف؛ فإن السياق في كلامها، ويوسفُ إذ ذاك في السجن لم يحضُر.

﴿٥٤﴾ فلما تحقق الملك والناس براءة يوسف التامة؛ أرسل إليه الملك، وقال: ﴿ائتوني به أستخِضه لنفسي﴾؛ أي: أجعله خصيصة لي ومقرَّباً لدي. فأتوه به مكرماً محترماً، ﴿فلماً كلمه﴾؛ أعجبه كلامه، وزاد موقعه عنده، فقال له: ﴿إِنَّكَ اليومَ لدينا﴾؛ أي: عندنا ﴿مكين أمين﴾؛ أي: متمكن أمين على الأسرار.

﴿٥٥﴾ فقال يوسف طلباً للمصلحة العامة: ﴿اجعلني على خزائن الأرض﴾؛ أي: على خزائن جبايات الأرض وغلالاتها وكيلاً حافظاً مدبراً. ﴿إني حفظٌ عليم﴾؛ أي: حفظٌ للذي أتولاه؛ فلا يضيعُ منه شيءٌ في غير محله، وضابطٌ للدخل والخارج، عليمٌ بكيفية التدبير والإعطاء والمنع والتصرف في جميع أنواع التصرفات. وليس ذلك حرصاً من يوسف على الولاية، وإنما هو رغبةٌ منه في النفع العام، وقد عرف من نفسه من الكفاية والأمانة والحفظ ما لم يكونوا يعرفونه؛ فلذلك طلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض، فجعله الملك على خزائن الأرض وولاه إياها.

﴿٥٦ - ٥٧﴾ قال تعالى: ﴿وكذلك﴾؛ أي: بهذه الأسباب والمقدمات المذكورة، ﴿مكناً ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء﴾: في عيش رغدٍ ونعمة واسعةٍ وجاه عريض، ﴿نصيبٌ برحمتنا من نساء﴾؛ أي: هذا من رحمة الله بيوسف التي أصابه بها وقدراها له، وليست مقصورةً على نعمة الدنيا. فإن الله لا يضيع أجر المحسنين، ويوسف عليه السلام من سادات المحسنين؛ فله في الدنيا حسنةٌ وفي الآخرة حسنةٌ، ولهذا قال: ﴿ولأجر الآخرة خيراً﴾ - من أجر الدنيا - ﴿للذين آمنوا وكانوا يتقون﴾؛ أي: لمن جمع بين التقوى والإيمان؛ فبالثقوى تُترك الأمور المحرمة من كبائر الذنوب وصغائرها، وبالإيمان التامُ يحصلُ تصديق القلب بما أمر الله بالتصديق به وتتبعه أعمال القلوب وأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات.

﴿وَجَاءَ إِخْوَةَ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ

قَالَ أَتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفِي الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرُبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَتَرُوهُ عَنْهٗ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَمُهَمِّدُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا عَسَيْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهِ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبِغِي هَٰذِهِ بِضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانًا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَجِدِ وَاَدْخُلُوا مِن آبُوبٍ مُّتَّفَرِّقًا وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْحَمْتُمْ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ .

أي: لما تولَّى يوسف عليه السلام خزائن الأرض؛ دبرها أحسنَ تدبير، فزرع في أرض مصرَ جميعها في السنين المخصبة زروعاً هائلة، واتخذ لها المحلات الكبار، وجبا من الأطعمة شيئاً كثيراً، وحفظه وضبطه ضبطاً تاماً، فلما دخلتِ السنونُ المجدبة، وسرى الجذب حتى وصل إلى فلسطين التي يقيم فيها يعقوب وبنوه، فأرسل يعقوبُ بنه لأجل الميرة إلى مصر.

﴿٥٨﴾ فجاء ﴿إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون﴾؛ أي: لم يعرفوه.

﴿٥٩﴾ ﴿ولما جهَّزهم بجهازهم﴾؛ أي: كال لهم كما كان يكيلُ لغيرهم، وكان من تدبيره الحسن أنه لا يكيل لكلِّ واحدٍ أكثر من جملٍ بعير، وكان قد سألهم عن حالهم، فأخبروه أنَّ لهم أخاً عند أبيه، وهو بنيامين، فقال لهم: ﴿اتنوني بأخ لكم من أبيكم﴾: ثم رغبهم في الإتيان به، فقال: ﴿ألا ترون أنَّني أوفي الكيل وأنا خيرُ المنزلين﴾: في الضيافة والإكرام.

﴿٦٠﴾ ثُمَّ رَهَبِهِمْ بَعْدَ الْإِتْيَانِ بِهِ، فَقَالَ: ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾: وَذَلِكَ لَعَلَّمَهُ بِاضْطِرَارِهِمْ إِلَى الْإِتْيَانِ إِلَيْهِ، وَأَنَّ ذَلِكَ يَحْمِلُهُمْ عَلَى الْإِتْيَانِ بِهِ.

﴿٦١﴾ فَقَالُوا: ﴿سِنْرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾: دَلَّ هَذَا عَلَى أَنْ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ مَوْلِعاً بِهِ لَا يَصْبِرُ عَنْهُ، وَكَانَ يَتَسَلَّى بِهِ بَعْدَ يَوْسُفَ؛ فَلِذَلِكَ احْتِجَاجٌ إِلَى مَرَاوِدَةٍ فِي بَعْثِهِ مَعَهُمْ، ﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾: لَمَّا أَمَرْتَنَا بِهِ.

﴿٦٢﴾ ﴿وَقَالَ﴾ يَوْسُفُ ﴿لِفَتْيَانِهِ﴾ الَّذِينَ فِي خِدْمَتِهِ: ﴿اجْعَلُوا بَضَاعَتَهُمْ﴾؛ أَي: الثَّمَنَ الَّذِي اشْتَرَوْا بِهِ مِنْهُ الْمِيرَةَ، ﴿فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا﴾؛ أَي: بَضَاعَتَهُمْ إِذَا رَأَوْهَا بَعْدَ ذَلِكَ فِي رِحَالِهِمْ؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: لِأَجْلِ التَّحَرُّجِ مِنْ أَخْذِهَا عَلَى مَا قِيلَ. وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَرْغَبَهُمْ فِي إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ بِالْكَيْلِ لَهُمْ كَيْلًا وَافِيًا ثُمَّ إِعَادَةَ بَضَاعَتِهِمْ إِلَيْهِمْ عَلَى وَجْهِ لَا يَحْسُونُ بِهَا وَلَا يَشْعُرُونَ لَمَّا يَأْتِي؛ فَإِنَّ الْإِحْسَانَ يُوْجِبُ لِلْإِنْسَانِ تَمَامَ الْوَفَاءِ لِلْمَحْسَنِ.

﴿٦٣﴾ ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى آبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾؛ أَي: إِنْ لَمْ تَرْسَلْ مَعَنَا أَخَانًا، ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانًا نَكْتُلُ﴾؛ أَي: لِيَكُونَ ذَلِكَ سَبَبًا لِكَيْلِنَا. ثُمَّ التَّزَمُوا لَهُ بِحِفْظِهِ فَقَالُوا: ﴿وَإِنَّا لَهُ لِحَافِظُونَ﴾: مِنْ أَنْ يَعْضُرَ لَهُ مَا يَكْرَهُ.

﴿٦٤﴾ ﴿قَالَ﴾ لَهُمْ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿هَلْ آمَنْتُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا آمَنْتُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾؛ أَي: قَدْ تَقَدَّمَ مِنْكُمْ التَّزَامُ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا فِي حِفْظِ يَوْسُفَ، وَمَعَ هَذَا؛ فَلَمْ تَفْعَلُوا بِمَا عَقَدْتُمْ مِنَ التَّكَايُدِ؛ فَلَا أَتَقُ بِالتَّزَامِكُمْ وَحِفْظِكُمْ، وَإِنَّمَا أَتَقُ بِاللَّهِ تَعَالَى. ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾؛ أَي: يَعْلَمُ حَالِي وَأَرْجُو أَنْ يَرْحَمَنِي، فَيَحْفَظُهُ وَيَرْدُّهُ عَلَيَّ، وَكَأَنَّهُ فِي هَذَا الْكَلَامِ قَدْ لَانَ لِإِرْسَالِهِ مَعَهُمْ.

﴿٦٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ ﴿لَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بَضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾: هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ قَدْ كَانَ مَعْلُومًا عِنْدَهُمْ أَنَّ يَوْسُفَ قَدْ رَدَّهَا عَلَيْهِمْ بِالْقَصْدِ، وَأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَمْلِكَهُمْ إِيَّاهَا، فَقَالُوا لِأَبِيهِمْ تَرْغِيبًا فِي إِرْسَالِ أَخِيهِمْ مَعَهُمْ: ﴿يَا أَبَانَا مَا تَبْغِي﴾؛ أَي: أَيُّ شَيْءٍ نَطْلُبُ بَعْدَ هَذَا الْإِكْرَامِ الْجَمِيلِ حَيْثُ وَفَّى لَنَا الْكَيْلَ، وَرَدَّ عَلَيْنَا بَضَاعَتَنَا عَلَى [هَذَا] الْوَجْهِ الْحَسَنِ الْمَتَضَمِّنِ لِلْإِخْلَاصِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ؟! ﴿هَذِهِ بَضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلِنَا﴾؛ أَي: إِذَا ذَهَبْنَا بِأَخِينَا؛ صَارَ سَبَبًا لِكَيْلِهِ لَنَا، فَمِزْنَا أَهْلِنَا، وَأَتَيْنَا لَهُمْ بِمَا هُمْ مَضْطَرُّونَ إِلَيْهِ مِنَ الْقَوْتِ، ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانًا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾: بِإِرْسَالِهِ مَعَنَا؛ فَإِنَّهُ يَكِيلُ لِكُلِّ وَاحِدٍ حِمْلَ بَعِيرٍ. ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾؛ أَي:

سهل لا ينالك ضررٌ؛ لأن المدة لا تطول، والمصلحة قد تبينت.

﴿٦٦﴾ فقال لهم يعقوب: ﴿لن أرسله معكم حتى تؤتوني مؤثقا من الله﴾؛ أي: عهداً ثقيلاً وتحلفون بالله ﴿لنأتئني به إلا أن يحاط بكم﴾؛ أي: إلا أن يأتيكم أمرٌ لا قبيل لكم به ولا تقدرين دفعه، ﴿فلما آتوه مؤثقهم﴾: على ما قال وأراد؛ قال: الله على ما نقول وكيلٌ؛ أي: تكفينا شهادته علينا وحفظه وكفاله<sup>(١)</sup>.

﴿٦٧﴾ ثم لما أرسله معهم؛ وصّاهم إذا هم قدموا مصر أن لا يدخلوا ﴿من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة﴾: وذلك أنه خاف عليهم العين؛ لكثرتهم وبهاء منظرهم؛ لكونهم أبناء<sup>(٢)</sup> رجل واحد، ولهذا سبب، ﴿و﴾ إلا ف﴿ما أغني عنكم من الله﴾: شيئاً؛ فالمقدر لا بد أن يكون. ﴿إن الحكم إلا لله﴾؛ أي: القضاء قضاؤه والأمر أمره؛ فما قضاها، وحكم به لا بد أن يقع. ﴿عليه توكلت﴾؛ أي: اعتمدت على الله لا على ما وصّيتكم به من السبب. ﴿وعليه فليتوكل المتوكلون﴾: فإن بالتوكل يحصل كل مطلوب، ويندفع كل مرهوب.

﴿٦٨﴾ ﴿ولما ذهبوا و﴿دخلوا من حيث أمرهم أبوهما ما كان﴾: ذلك الفعل ﴿يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها﴾: وهو موجب الشفقة والمحبة للأولاد، فحصل له في ذلك نوع طمأنينة وقضاء لما في خاطره، وليس هذا قصوراً في علمه؛ فإنه من الرسل الكرام والعلماء الربانيين، ولهذا قال عنه: ﴿وإنه لذو علم﴾؛ أي: لصاحب علم عظيم، ﴿لما علمناه﴾؛ أي: لتعليمنا إيّاه، لا بحوله وقوته أدركه، بل بفضل الله وتعليمه. ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾: عواقب الأمور ودقائق الأشياء، وكذلك أهل العلم منهم يخفى عليهم من العلم وأحكامه ولوازمه شيء كثير.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَىٰ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِمَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِزَّةُ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَقُودٌ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتَنَا لِنُقْسِدَ فِي الْأَرْضِ

(١) في (ب): «كفائه».

(٢) في (ب): «ابن». وفي (أ): جاءت كلمة «أبناء» بخط مغاير.

وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ قَبَدَا بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴿٧٦﴾ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَفَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبَيِّدْهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَا أَبَتِئِنَّا الْعَزِيزُ إِن لَّهُ لَهٗ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَمَعًا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا لَطَلِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴿٧٩﴾

﴿٦٩﴾ أي: لما دخل إخوة يوسف على يوسف؛ ﴿أوى إليه أخاه﴾؛ أي: شقيقه، وهو بنيامين، الذي أمرهم بالإتيان به وضمه إليه، واختصه من بين إخوته، وأخبره بحقيقة الحال، و ﴿قال إنني أنا أخوك؛ فلا تبتسئ﴾؛ أي: لا تحزن. ﴿بما كانوا يعملون﴾: فإن العاقبة خير لنا، ثم خبره بما يريد أن يصنع ويتحيل لبقائه عنده إلى أن ينتهي الأمر.

﴿٧٠﴾ ﴿فلما جهَّزهم بجهازهم﴾؛ أي: كال لكل واحد من إخوته، ومن جملتهم أخوه هذا، ﴿جعل السقاية﴾: وهو الإناء الذي يُشرب به ويُكال فيه ﴿في رحل أخيه ثم﴾: أوعوا متاعهم، فلما انطلقوا ذاهبين؛ ﴿أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون﴾: ولعل هذا المؤذن لم يعلم بحقيقة الحال.

﴿٧١﴾ ﴿قالوا﴾؛ أي: إخوة يوسف، ﴿وأقبلوا عليهم﴾: لإبعاد التهمة؛ فإن السارق ليس له هم إلا البعد والانطلاق عن سرق منه؛ لتسلم له سرقته، وهؤلاء جاؤوا مقبلين إليهم، ليس لهم هم إلا إزالة التهمة التي رُموا بها عنهم، فقالوا في هذه الحال: ﴿ماذا تفقدون؟﴾ ولم يقولوا: ما الذي سرقنا؟ لجزمهم بأنهم براء من السرقة.

﴿٧٢﴾ ﴿قالوا نفقد ضواع الملك ولمن جاء به جنل بعير﴾؛ أي: أجرة له على وجدانه، ﴿وأنا به زعيم﴾؛ أي: كفيل. وهذا يقوله المؤذن المتفقد.

﴿٧٣﴾ ﴿قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسيد في الأرض﴾: بجميع أنواع المعاصي، ﴿وما كنا سارقين﴾: فإن السرقة من أكبر أنواع الفساد في الأرض.

ولإنما أقسموا على علمهم أنهم ليسوا مفسدين ولا سارقين؛ لأنهم عرفوا أنهم سبوا من أحوالهم ما يدلهم على عفتهم وورعهم وأن هذا الأمر لا يقع منهم بعلم من اتهموهم، وهذا أبلغ في نفي التهمة من أن لو قالوا: تالله لم نفسد في الأرض ولم نسرق.

﴿٧٤﴾ قالوا فما جزاؤه؟ أي: جزاء هذا الفعل، ﴿إن كنتم كاذبين﴾: بأن كان معكم.

﴿٧٥﴾ قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو؟ أي: الموجود في رحله، ﴿جزاؤه﴾: بأن يملكه صاحب السرقة، وكان هذا في دينهم؛ أن السارق إذا ثبت عليه السرقة؛ كان ملكاً لصاحب المال المسروق، ولهذا قالوا: ﴿كذلك نجزي الظالمين﴾.

﴿٧٦﴾ فبدأ المفتش بأوعيتهم قبل وعاء أخيه، وذلك لتزول الريبة التي يظن أنها فعلت بالقصد. فلما لم يجد في أوعيتهم شيئاً، ﴿استخرجها من وعاء أخيه﴾: ولم يقل: وجدها أو سرقها أخوه مراعاةً للحقيقة الواقعة؛ فحينئذ تم ليوسف ما أراد من بقاء أخيه عنده على وجه لا يشعر به إخوته. قال تعالى: ﴿كذلك كذنا ليوسف﴾؛ أي: يسرنا له هذا الكيد الذي توصل به إلى أمر غير مذموم. ﴿ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك﴾: لأنه ليس من دينه أن يتملك السارق، وإنما له عندهم جزاء آخر؛ فلو ردت الحكومة إلى دين الملك؛ لم يتمكن يوسف من إبقاء أخيه عنده، ولكنه جعل الحكم منهم؛ ليمم له ما أراد. قال تعالى: ﴿نرفع درجات من نشاء﴾: بالعلم النافع ومعرفة الطرق الموصلة إلى مقصدها؛ كما رفعنا درجات يوسف. ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾؛ فكل عالم فوّه من هو أعلم منه حتى ينتهي العلم إلى عالم الغيب والشهادة.

﴿٧٧﴾ فلما رأى إخوة يوسف ما رأوا؛ ﴿قالوا إن يسرق﴾: هذا الأخ؛ فليس هذا غريباً منه، ﴿فقد سرق أخ له من قبل﴾؛ يعنون: يوسف عليه السلام، ومقصودهم تبرئة أنفسهم، وأن هذا وأخاه قد يصدُر منهم ما يصدُر من السرقة، وهما ليسا شقيقين لنا، وفي هذا من الغصّ عليهما ما فيه، ولهذا ﴿أسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم﴾؛ أي: لم يقابلهم على ما قالوه بما يكرهون، بل كظم الغيظ وأسر الأمر في نفسه، و ﴿قال﴾ في نفسه: ﴿أنتم شرّ مكانا﴾: حيث ذممتونا بما أنتم على أسرّ منه. ﴿والله أعلم بما تصفون﴾: منّا من وصفنا بسرقة يعلم الله أنا برآء منها.



﴿٧٨﴾ ثم سلكوا معه مسلك التملق لعله يسمح لهم بأخيهم، ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾؛ أي: وإنه لا يصبر عنه، وسيشقُّ عليه فراقه. ﴿فَخُذْ أَحَدُنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾: فأحسن إلينا وإلى أيينا بذلك.

﴿٧٩﴾ فقال يوسفُ: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾؛ أي: لهذا ظلمنا منا لو أخذنا البريء بذنوب من وجدنا متاعنا عنده، ولم يقل: من سرق. كلُّ هذا تحرُّرٌ من الكذب. ﴿إِنَّا إِذَا﴾؛ أي: إن أخذنا غير من وجد في رحله، ﴿لِظَالِمُونَ﴾: حيثُ وَضَعْنَا الْعُقُوبَةَ فِي غَيْرِ مَوَاضِعِهَا.

﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ أَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّكَ ابْنُكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسَلِّ الْقَرَبَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْلَنَّا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿٨٠﴾ أي: فلما استياس إخوة يوسف من يوسف أن يسمح لهم بأخيهم، ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾؛ أي: اجتمعوا وحدهم ليس معهم غيرهم، وجعلوا يتناجون فيما بينهم، ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾: في حفظه وأنكم تاتون به إلا أن يحاط بكم، ﴿وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾: فاجتمع عليكم الأمران: تفريطكم في يوسف السابق، وعدم إتيانكم بأخيه باللاحق؛ فليس لي وجه أواجه به أبي. ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾؛ أي: سأقيم في هذه الأرض ولا أزال بها، ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾؛ أي: يقدر لي المجيء وحدي أو مع أخي، ﴿وهو خير الحاكمين﴾.

﴿٨١﴾ ثم وصَّاهم ما يقولون لأبيهم، فقال: ﴿ارْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾؛ أي: وأخذ بسرقتك، ولم يحصل لنا أن نأتيك به مع ما بذلنا من الجهد في ذلك، والحال أننا ما شهدنا بشيء لم نعلمه، وإنما شهدنا بما علمنا؛ لأننا رأينا الصواع استخرج من رحله. ﴿وما كنا للغيب حافظين﴾؛ أي: لو كنا نعلم الغيب؛ لما حرَّضنا وبذلنا المجهود في ذهابه معنا، ولما أعطيناك عهدونا ومواثيقنا، فلم نظن أن الأمر سيبلغ ما بلغ.

﴿٨٢﴾ ﴿وَأَسْأَلُ﴾: إن شككت في قولنا ﴿القرية التي كنا فيها والبعير التي أقبلنا فيها﴾ فاطلّعوا على ما أخبرناك به، ﴿وإننا لصادقون﴾: لم نكذب، ولم نغيّر، ولم نبذل، بل هذا الواقع.

﴿٨٣﴾ فلما رجعوا إلى أبيهم وأخبروه بهذا الخبر؛ اشتدّ حزنه وتضاعف كمدّه وأنهمهم أيضاً في هذه القضية كما أنهمهم في الأولى و ﴿قال بل سؤلث لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل﴾؛ أي: ألجأ في ذلك إلى الصبر الجميل الذي لا يصحبه تسخط ولا جزع ولا شكوى للخلق. ثم لجأ إلى حصول الفرج لما رأى أنّ الأمر اشتدّ والكربة انتهت، فقال: ﴿عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً﴾؛ أي: يوسف وبنيامين وأخوهم الكبير الذي أقام في مصر. ﴿إنه هو العليم﴾: الذي يعلم حالي واحتياجي إلى تفريجه ومثته واضطراري إلى إحسانه، ﴿الحكيم﴾: الذي جعل لكل شيء قَدراً، ولكل أمرٍ منتهى بحسب ما اقتضته حكمته الربانيّة.

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوْسُفَ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾  
 قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذَكُرُ يُوْسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾ قَالَ  
 إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿٨٤﴾ أي: وتولّى يعقوب عليه الصلاة والسلام عن أولاده بعدما أخبروه هذا الخبر، واشتدّ به الأسف والأسى، وابتضت عيناه من الحزن الذي في قلبه والكمد الذي أوجب له كثرة البكاء حيث<sup>(١)</sup> ابيضت عيناه من ذلك؛ ﴿فهو كظيم﴾؛ أي: ممتلىء القلب من الحزن الشديد، ﴿وقال يا أسفى على يوسف﴾؛ أي: ظهر منه ما كمن من الهم<sup>(٢)</sup> القديم والشوق المقيم، ودكرته هذه المصيبة الخفيفة بالنسبة للأولى، المصيبة الأولى.

﴿٨٥﴾ فقال له أولاده متعجبين من حاله: ﴿تالله تفتأ تذكر يوسف﴾؛ أي: لا تزال تذكر يوسف في جميع أحوالك، ﴿حتى تكون حرضاً﴾؛ أي: فانياً لا حراك فيك ولا قدرة لك على الكلام، ﴿أو تكون من الهالكين﴾؛ أي: لا تترك ذكره مع قدرتك على ذكره أبداً.

﴿٨٦﴾ فقال يعقوب: ﴿إنما أشكو بثي﴾؛ أي: ما أبث من الكلام،

(١) في (ب): «حتى».

(٢) في (ب): «ظهر منه وبرز الهم».

﴿وَحُزْنِي﴾: الذي في قلبي. ﴿إلى الله﴾: وحده لا إليكم ولا إلى غيركم من الخلق؛ فقولوا ما شئتم، ﴿وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾: من أنه سيردكم عليّ ويقرّ عيني بالاجتماع بهم.

﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّبُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا بَنِي الْعَزِيزِ مَسْنَا وَأَهْلَنَا الضَّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُرْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَمْ تَأْتِيكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِنْ يَتَّى وَبَصِيرَةٍ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاتَاكَ اللَّهُ حِكْمًا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَقْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾

﴿٨٧﴾ أي: قال يعقوب عليه السلام لبنيه: ﴿يا بني اذهبوا فتحسبوا من يوسف وأخيه﴾؛ أي: احرصوا واجتهدوا على التفتيش عنهما، ﴿ولا تياسوا من رَوْحِ اللَّهِ﴾: فإن الرجاء يوجب للعبد السعي والاجتهاد فيما رجاه، والإياس يوجب له التثاقل والتباطؤ، وأولى ما رجا العباد فضل الله وإحسانه ورحمته وروحه. ﴿إنه لا يياس من رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾: فإنهم لكفرهم يستبعدون رحمته، ورحمته بعيدة منهم؛ فلا تشبهوا بالكافرين. ودل هذا على أنه بحسب إيمان العبد يكون رجاؤه لرحمة الله وزوجه.

﴿٨٨﴾ فذهبوا. فلما دخلوا على يوسف، ﴿قالوا﴾: متضرعين إليه: ﴿يا أيها العزيز مَسْنَا وَأَهْلَنَا الضَّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُرْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾؛ أي: قد اضطررنا نحن وأهلنا ﴿وجئنا ببضاعة مرجاة﴾؛ أي: مدفوعة مرغوب عنها لقلتها وعدم وقوعها الموقع؛ ﴿فأوف لنا الكيل﴾؛ أي: مع عدم وفاء العوض، وتصدق علينا بالزيادة عن الواجب. ﴿إن الله يجزي المتصدقين﴾: بثواب الدنيا والآخرة.

﴿٨٩﴾ فلما انتهى الأمر وبلغ أشده؛ رق لهم يوسف رقة شديدة، وعرفهم بنفسه، وعاتبهم فقال: ﴿هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه﴾: أما يوسف؛ فظاهراً فعلهم فيه، وأما أخوه؛ فلعله - والله أعلم - قولهم: ﴿إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل﴾، أو أن السبب الذي فرق بينه وبين أبيه هم السبب فيه والأصل الموجب

له. ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾: وهذا نوع اعتذارٍ لهم بجهلهم أو توبيخ لهم إذ فعلوا فعل الجاهلين، مع أنه لا ينبغي ولا يليق منهم.

﴿٩٠﴾ فعرفوا أن الذي خاطبهم هو يوسف، فقالوا: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾: بالإيمان والتقوى والتمكين في الدنيا، وذلك بسبب الصبر والتقوى، ﴿فَإِنَّهُ مِنْ يَتَّقِي وَيُصْبِرُ﴾؛ أي: يتقي فعل ما حرّم الله ويصبر على الآلام والمصائب وعلى الأوامر بامثالها. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾: فَإِنَّ هَذَا مِنَ الْإِحْسَانِ، وَاللَّهُ لَا يُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا.

﴿٩١﴾ ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾؛ أي: فضلك علينا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وأسأنا إليك غاية الإساءة، وحرصنا على إيصال الأذى إليك والتباعد لك عن أهلك، فأترك الله تعالى ومكنك مما تريد [وإن كنا لخاطئين، وهذا غاية الاعتراف منهم بالجرم الحاصل منهم على يوسف].

﴿٩٢﴾ فقال لهم يوسف عليه السلام كرمًا وجوداً: ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ﴾؛ أي: لا اثرب عليكم ولا ألومكم، ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾؛ فسمح لهم سماحاً تاماً من غير تعبير لهم على ذكر الذنب السابق، ودعا لهم بالمغفرة والرحمة، وهذا نهاية الإحسان الذي لا يتأتى إلا من خواص الخلق وخيار المصطفين.

﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقَوَهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بِصِيرًا وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾  
 ﴿٩٣﴾ ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ ﴿٩٤﴾ ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْكَبِيرِ﴾ ﴿٩٥﴾ ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ آتَيْنَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَأَزْتَدَ بِصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٩٦﴾ ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ ﴿٩٧﴾ ﴿قَالَ سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٩٨﴾.

﴿٩٣﴾ أي: قال يوسف عليه السلام لإخوته: ﴿أذهبوا بقميصي هذا فالقوه على وجه أبي يأت بصيراً﴾؛ فهذا القميص لما كان فيه أثر ريح يوسف الذي أودع قلب أبيه من الحزن والشوق ما الله به عليم؛ أراد أن يشمه فترجع إليه روحه وتراجع إليه نفسه ويرجع إليه بصره، والله في ذلك حكيم وأسرار لا يطلع عليها العباد، وقد اطلع يوسف من ذلك على هذا الأمر. ﴿وأتوني بأهلكم أجمعين﴾؛ أي: أولادكم وعشيرتكم وتوابعكم كلهم؛ ليحصل تمام اللقاء ويزول عنكم نكد المعيشة وضنك الرزق.

﴿٩٤﴾ ﴿ولما فصلت العير﴾: عن أرض مصر مقبلةً إلى أرض فلسطين؛ شمَّ يعقوبُ ريحَ القميص، فقال: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يَوْسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾؛ أي: تسخرون منِّي، وتزعُمون أن هذا الكلام صدر منِّي من غير شعور؛ لأنَّه رأى منهم من التعجب من حاله ما أوجب له هذا القول.

﴿٩٥﴾ فوقع ما ظنَّه بهم، فقالوا: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾؛ أي: لا تزال تائهاً في بحرٍ لُجِّي<sup>(١)</sup>، لا تدري ما تقول.

﴿٩٦﴾ ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ﴾: بقرب الاجتماع بيوسف وإخوته وأبيهم، ﴿الْقَاهِ﴾؛ أي: القميص ﴿على وجهه فارتدَّ بصيراً﴾؛ أي: رجع على حاله الأولى بصيراً بعد أن ابيضَّت عيناه من الحزن، فقال لمن حَضَرَهُ من أولاده وأهله الذين كانوا ينفِّدون رأيه، ويتعجبون منه متصراً عليهم مُتَّبِحاً بنعمة الله عليه: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: حيث كنتُ مترجياً للقاء يوسف مترقّباً لزوال الهمِّ والغمِّ والحزن.

﴿٩٧﴾ ﴿فَأَقْرُوا بِذُنُوبِهِمْ، وَنَجِعُوا بِذَلِكَ﴾ و﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾: حيث فعلنا معك ما فعلنا.

﴿٩٨﴾ ﴿قَالَ﴾ مجيباً لطلبتهم ومسرعاً لإجابتهم: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾: ورجائي به أن يغفرَ لكم ويرحمكم ويتغمِّدكم برحمته. وقد قيل: إنه آخر الاستغفار لهم إلى وقت السحر الفاضل؛ ليكونَ أتمَّ للاستغفار وأقرب للإجابة.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَىٰ أَبِيهِ وَقَالَ أَدْخُلُوا مَعِيَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبِيهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِي هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رُبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَزَّغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿٩٩﴾ أي: ﴿فَلَمَّا﴾ تجهَّز يعقوب وأولاده وأهلهم أجمعون وارتحلوا من بلادهم قاصدين الوصول إلى يوسف في مصر وسكنها، فلما وصلوا إليه و﴿دخلوا على يوسف آوى إليه أبيه﴾؛ أي: ضمَّهما إليه واختصَّهما بقربه وأبدى لهما من

(١) في (ب): «في بحر الحب». وقد استبدلها الشيخُ بما أثبت في هامش (أ).

البرِّ والإحسان<sup>(١)</sup> والتبجيل والإعظام شيئاً عظيماً. ﴿وقال﴾ لجميع أهله: ﴿ادخلوا مصر إن شاء الله آمين﴾: من جميع المكاره والمخاوف. فدخلوا في هذه الحال السارة، وزال عنهم النَّصَبُ ونكد المعيشة وحصل السرور والبهجة.

﴿١٠٠﴾ ﴿ورفع أبويه على العرش﴾؛ أي: على سرير الملك ومجلس العزيز، ﴿وخرؤا له سجداً﴾؛ أي: أبوه وأمه وإخوته سجوداً على وجه التعظيم والتبجيل والإكرام. ﴿وقال﴾ لما رأى هذه الحال ورأى سجودهم له: ﴿يا أبتِ هذا تأويل رؤيائي من قبل﴾: حين رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر له ساجدين؛ فهذا وقوعها الذي آتت إليه ووصلت. ﴿قد جعلها ربِّي حقاً﴾: فلم يجعلها أضغاث أحلام. ﴿وقد أحسن بي﴾: إحساناً جسيماً، ﴿إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو﴾: وهذا من لطفه وحسن خطابه عليه السلام؛ حيث ذكر حاله في السجن، ولم يذكر حاله في الجب؛ لتتمام عفوهِ عن إخوته، وأنه لا يذكر ذلك الذنب، وأن إتيانكم من البادية من إحسان الله إليّ، فلم يقل جاء بكم من الجوع والنصب، ولا قال: أحسن بكم، بل قال: أحسن بي، جعل الإحسان عائداً إليه؛ فتبارك من يختص برحمته من يشاء من عباده ويهب لهم من لدنه رحمةً إنه هو الوهاب، ﴿من بعد أن نزع الشيطان بيني وإخوتي﴾: فلم يقل: نزع الشيطان إخوتي، بل كأن الذنب والجهل صدر من الطرفين؛ فالحمد لله الذي أخزى الشيطان ودحره وجمعنا بعد تلك الفرقة الشاقة. ﴿إن ربِّي لطيف لما يشاء﴾: يوصل برّه وإحسانه إلى العبد من حيث لا يشعر ويوصله إلى المنازل الرفيعة من أمور يكرهها. ﴿إنه هو العليم﴾: الذي يعلم ظواهر الأمور وبواطنها وسرائر العباد وضمائرهم. ﴿الحكيم﴾: في وضعه الأشياء مواضعها وسوقه الأمور إلى أوقاتها المقدره لها.

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ قَوْنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّلَاحِينَ﴾.

﴿١٠١﴾ لما أتم الله ليوسف ما أتم من التمكين في الأرض والملك وأقر عينه بأبويه وإخوته وبعد العلم العظيم الذي أعطاه الله إياه، فقال مقراً بنعمة الله شاكراً لها داعياً بالثبات على الإسلام: ﴿رب قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ﴾: وذلك أنه كان على

(١) في (ب): «الإكرام».

خزائن الأرض وتديرها ووزيراً كبيراً للملك، ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾؛ أي: من تأويل أحاديث الكتب المنزلة وتأويل الرؤيا وغير ذلك من العلم. ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ... تَوْفَنِي مُسْلِماً﴾؛ أي: أدم عليّ الإسلام وثبّثني عليه حتى توفاني عليه، ولم يكن هذا دعاءً باستعجال الموت. ﴿وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ﴾: من الأنبياء الأبرار والأصفياء الأخيار.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (١٠٢).

﴿١٠٢﴾ لما قصّ الله هذه القصة على محمد ﷺ؛ قال الله له: ﴿ذَلِكَ﴾: [الإنباء] الذي أخبرناك به ﴿من أنباء الغيب﴾: الذي لولا إبحاؤنا إليك؛ لما وصل إليك هذا الخبر الجليل، فإنك لم تكن حاضراً ﴿لديهم إذ أجمعوا أمرهم﴾؛ أي: إخوة يوسف. ﴿وهم يمكرون﴾: به حين تعاقدوا على التفريق بينه وبين أبيه في حالة لا يطلع عليها إلا الله تعالى ولا يمكن أحداً أن يصل إلى علمها إلا بتعليم الله له إياها؛ كما قال تعالى لما قصّ قصة موسى وما جرى له؛ ذكرّ الحال التي لا سبيل للخلق إلى علمها إلا بوحيه، فقال: ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين...﴾ الآيات؛ فهذا أدل دليل على أنّ من جاء بها رسول الله حقاً.

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٣) ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (١٠٤) ﴿وَكَايِنَ مِّنْ آيَاتٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (١٠٥) ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (١٠٦) ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٠٧).

﴿١٠٣﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت﴾: على إيمانهم ﴿بمؤمنين﴾: فإن مداركهم ومقاصدهم قد أصبحت فاسدة؛ فلا ينفعهم حرص الناصحين عليهم، ولو عدت الموانع؛ بأن كانوا يعلمونهم ويدعونهم إلى ما فيه الخير لهم ودفع الشر عنهم من غير أجر ولا عوض، ولو أقاموا لهم من الشواهد والآيات الدالات على صدقهم ما أقاموا.

﴿١٠٤﴾ ولهذا قال: ﴿وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين﴾: يتذكرون به ما ينفعهم ليفعلوه، وما يضرهم ليتركوه.

﴿١٠٥﴾ ﴿وَكَايِنٌ﴾؛ أي: وكم ﴿من آية في السموات والأرض يمرُّون عليها﴾: دالة لهم على توحيد الله، ﴿وهم عنها معرضون﴾.

﴿١٠٦﴾ ومع هذا، إن وُجد منهم بعض الإيمان، فلا ﴿يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾: فهم وإن أقرُّوا بربوبية الله تعالى وأنه الخالق الرازق المدبِّر لجميع الأمور؛ فإنهم يشركون في ألوهية الله وتوحيده.

﴿١٠٧﴾ فهؤلاء الذين وصلوا إلى هذه الحال لم يبقَ عليهم إلا أن يحلَّ بهم العذاب ويفجأهم العقاب وهم آمنون، ولهذا قال: ﴿أفأمنوا﴾؛ أي: الفاعلون لتلك الأفعال، المعرضون عن آيات الله، ﴿أن تأتيهم غاشية من عذاب الله﴾؛ أي: عذاب يغشاهم ويغمهم ويستأصلهم، ﴿أو تأتيهم الساعة بغتة﴾؛ أي: فجأة، ﴿وهم لا يشعرون﴾؛ أي: فإنهم قد استوجبوا لذلك؛ فليتوبوا إلى الله، ويتزكوا ما يكون سبباً في عقابهم.

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿١٠٩﴾.

﴿١٠٨﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿قل﴾ للناس: ﴿هذه سبيلي﴾؛ أي: طريقي التي أدعو إليها، وهي السبيل الموصلة إلى الله وإلى دار كرامته، المتضمنة للعلم بالحق والعمل به وإيثاره، وإخلاص الدين لله وحده لا شريك له. ﴿أدعو إلى الله﴾؛ أي: أحث الخلق والعباد إلى الوصول إلى ربهم وأرغبهم في ذلك وأرهبهم مما يُبعدهم عنه، ومع هذا؛ فأنا ﴿على بصيرة﴾: من ديني؛ أي: على علم ويقين من غير شك ولا امتراء ولا مزية. وكذلك ﴿من اتبعني﴾: يدعو إلى الله كما أدعو على بصيرة من أمره. ﴿وسبحان الله﴾: عما نُسب إليه مما لا يليق بجلاله أو ينافي كماله. ﴿وما أنا من المشركين﴾: في جميع أموري، بل أعبد الله مخلصاً له الدين.

﴿١٠٩﴾ ثم قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً﴾؛ أي: لم نرسل ملائكة ولا غيرهم من أصناف الخلق؛ فلايُّ شيء يستغرب قومك رسالتك، ويزعمون أنه ليس لك عليهم فضل، فلك فيمن قبلك من المرسلين أسوة حسنة.



﴿نوحى إليهم من أهل القرى﴾؛ أي: لا من البادية، بل من أهل القرى، الذين هم أكمل عقولاً وأصح آراء، وليتبيين أمرهم ويتضح شأنهم. ﴿أفلم يسيروا في الأرض﴾: إذا لم يصدقوا لقولك، ﴿فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾: كيف أهلكهم الله بتكذيبهم؛ فاحذروا أن تقيموا على ما قاموا عليه، فيصيبكم ما أصابهم. ﴿ولدار الآخرة﴾؛ أي: الجنة وما فيها من النعيم المقيم، ﴿خير للذين اتقوا﴾: الله في امتثال أوامره واجتناب نواهيه؛ فإن نعيم الدنيا منغص منكذ منقطع، ونعيم الآخرة تام كامل لا يفنى أبداً، بل هو على الدوام في تزايد وتواصل. عطاء غير مجذوذ. ﴿أفلا تعقلون﴾؛ أي: أفلا يكون لكم عقول تؤثر الذي هو خير على الأدنى؟

﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَطَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾.

﴿١١٠﴾ يخبر تعالى أنه يرسل الرسل الكرام، فيكذبهم القوم المجرمون اللثام، وأن الله تعالى يمهلهم ليرجعوا إلى الحق، ولا يزال الله يمهلهم حتى إنه تصل الحال إلى غاية الشدة منهم على الرسل، حتى إن الرسل على كمال يقينهم وشدة تصديقهم بوعد الله ووعيده ربما أنه يخطر بقلوبهم نوع من الإياس ونوع من ضعف العلم والتصديق؛ فإذا بلغ الأمر هذه الحال؛ ﴿جاءهم نصرنا فنجى من نشاء﴾: وهم الرسل وأتباعهم، ﴿ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين﴾؛ أي: ولا يرد عذابنا عن اجترم وتجراً على الله؛ فما لهم من قوة ولا ناصر.

﴿١١١﴾ ﴿لقد كان في قصصهم﴾؛ أي: قصص الأنبياء والرسل مع قومهم ﴿عبرة لأولي الأبواب﴾؛ أي: يعتبرون بها أهل الخير وأهل الشر، وأن من فعل مثل فعلهم؛ ناله ما نالهم من كرامة أو إهانة، ويعتبرون بها أيضاً ما لله من صفات الكمال والحكمة العظيمة، وأنه الله الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له. وقوله: ﴿ما كان حديثاً يفترى﴾؛ أي: ما كان هذا القرآن الذي قص الله به عليكم من أنباء الغيب ما قص من الأحاديث المفتراة المختلقة. ﴿ولكن﴾: كان ﴿تصديق الذي بين يديه﴾: من الكتب السابقة؛ يوافقها ويشهد لها بالصحة،

﴿وتفصيل كل شيء﴾: يحتاج إليه العباد من أصول الدين وفروعه ومن الأدلة والبراهين. ﴿وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾: فإنهم بسبب ما يحصل لهم به من العلم بالحق وإيثاره يحصل لهم الهدى، وبما يحصل لهم من الثواب العاجل والآجل تحصل لهم الرحمة.

## فصل

في ذكر شيء من العبر والفوائد التي اشتملت عليها هذه القصة العظيمة التي قال الله في أولها: ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾، وقال: ﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين﴾، وقال في آخرها: ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾، غير ما تقدم في مطاوبها من الفوائد.

فمن ذلك: أن هذه القصة من أحسن القصص وأوضحها وأبينها؛ لما فيها من أنواع التنقلات: من حال إلى حال، ومن محنة إلى محنة، ومن محنة إلى منحة ومئة، ومن ذل إلى عز، ومن رق إلى ملك، ومن فرقة وشتات إلى اجتماع وائتلاف، ومن حزن إلى سرور، ومن رخاء إلى جذب، ومن جذب إلى رخاء، ومن ضيق إلى سعة، ومن إنكار إلى إقرار؛ فتبارك من قصها فأحسنها، ووضّحها، وبينها.

ومنها: أن فيها أصلاً لتعبير الرؤيا؛ فإن<sup>(١)</sup> علم التعبير من العلوم المهمة التي يعطيها الله من يشاء من عباده، وإن أغلب ما تُبنى عليه المناسبة والمشابهة في الاسم والصفة:

فإن رؤيا يوسف التي رأى أن الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً له ساجدين وجه المناسبة فيها أن هذه الأنوار هي زينة السماء وجمالها وبها منافعها؛ فكذلك الأنبياء والعلماء زينة للأرض وجمال، وبهم يُهتدى في الظلمات كما يُهتدى بهذه الأنوار، ولأن الأصل أبوه وأمه، وإخوته هم الفرع؛ فمن المناسب أن يكون الأصل أعظم نوراً وجزماً لما هو فرع عنه؛ فلذلك كانت الشمس أمه والقمر أبوه والكواكب إخوته. ومن المناسبة أن الشمس لفظ مؤنث؛ فلذلك كانت أمه، والقمر والكواكب مذكّرات؛ فكانت لأبيه وإخوته. ومن المناسبة أن الساجد معظمٌ مُحترَمٌ للمسجود له، والمسجود له معظمٌ مُحترَمٌ؛ فلذلك دل ذلك على أن يوسف يكون معظماً

(١) في (ب): «وإن».

محترماً عند أبويه وإخوته، ومن لازم ذلك أن يكون مجتنبى مفضلاً في العلم والفضائل الموجبة لذلك، ولذلك قال له أبوه: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رُبُّكَ وَيَعْلَمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾.

ومن المناسبة في رؤيا الفتيين: أنه أول رؤيا الذي رأى أنه يعصرُ خمراً؛ أن الذي يعصرُ خمراً في العادة يكون خادماً لغيره، والعصرُ يُقصدُ لغيره؛ فلذلك أوله بما يؤول إليه؛ أنه يسقي ربّه، وذلك متضمّن لخروجه من السجن. وأول الذي رأى أنه يحملُ فوق رأسه خبزاً تأكلُ الطير منه بأن جلدة رأسه ولحمه وما في ذلك من المنخُ أنه هو الذي يحمل<sup>(١)</sup> وأنه سيربُزُ للطيور بمحلّ تتمكّن من الأكل من رأسه، فرأى من حاله أنه سيقتل ويصلب بعد موته فيبُرزُ للطيور فتأكل من رأسه، وذلك لا يكون إلا بالصلب بعد القتل.

وأول رؤيا الملك للبقرات والسُّنبلات بالسنين المخصبة والسنين المجذبة، ووجه المناسبة أن الملك به ترتبط أحوال الرعية ومصالحها، وبصلاحه تصلح وبفساده تفسد، وكذلك السنون بها صلاح أحوال الرعية واستقامة أمر المعاش أو عدمه، وأما البقر؛ فإنها تُحَرثُ الأرض عليها ويُسْتَقى عليها الماء وإذا أخصبت السنة؛ سمت، وإذا أجدبت؛ صارت عجافاً، وكذلك السنابل في الخصب تكثر وتخضر، وفي الجذب تقل وتيسر، وهي أفضل غلال الأرض.

ومنها: ما فيها من الأدلة على صحة نبوة محمد ﷺ؛ حيث قصّ على قومه هذه القصة الطويلة، وهو لم يقرأ كتب الأولين، ولا دارس أحداً يراه قومه بين أظهرهم صباحاً ومساءً، وهو أمي لا يخط ولا يقرأ، وهي موافقة لما في الكتب السابقة، وما كان لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون.

ومنها: أنه ينبغي البعد عن أسباب الشرّ وكتمان ما تُخشى مضرّته؛ لقول<sup>(٢)</sup> يعقوب ليوسف: ﴿[يا بني] لا تَقْضُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾.

ومنها: أنه يجوز ذكر الإنسان بما يكره على وجه النصيحة لغيره؛ لقوله: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾.

ومنها: أن نعمة الله على العبد نعمة على من يتعلّق به من أهل بيته وأقاربه وأصحابه، وأنه ربما شملتهم وحصل لهم ما حصل له بسببه؛ كما قال يعقوب في

(٢) في (ب): «لقوله».

(١) في (ب): «يحمله».

تفسيره لرؤيا يوسف: ﴿وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب﴾، ولما تمت النعمة على يوسف؛ حصل لآل يعقوب من العز والتمكين في الأرض والسرور والغبطة ما حصل بسبب يوسف.

ومنها: أنّ العدل مطلوب في كل الأمور، لا في معاملة السلطان رعيته، ولا فيما دونه، حتى في معاملة الوالد لأولاده في المحبة والإيثار وغيره، وأنّ في الإخلال بذلك يختل عليه الأمر وتفسد الأحوال، ولهذا لما قدم يعقوب يوسف في المحبة وآثره على إخوته؛ جرى منهم ما جرى على أنفسهم وعلى أبيهم وأخيه.

ومنها: الحذر من شؤم الذنوب، وأنّ الذنب الواحد يستتبع ذنوباً متعدّدة، ولا يتم لفاعله إلا بعدة جرائم؛ فإخوة يوسف لما أرادوا التفريق بينه وبين أبيه؛ احتالوا لذلك بأنواع من الحيل، وكذبوا عدة مرات، وزوروا على أبيهم في القميص والدّم الذي فيه، وفي إتيانهم عشاء يكون، ولا تستبعد أنّه قد كثر البحث فيها في تلك المدة، بل لعلّ ذلك أتصل إلى أن اجتمعوا بيوسف، وكلما صار البحث؛ حصل من الإخبار بالكذب والافتراء ما حصل، وهذا شؤم الذنب وآثاره التابعة والسابقة واللاحقة.

ومنها: أنّ العبرة في حال العبد بكمال النهاية لا بنقص البداية؛ فإنّ أولاد يعقوب عليهم السلام جرى منهم ما جرى في أول الأمر مما هو أكبر أسباب النقص واللوم، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح والسماح التام من يوسف ومن أبيهم والدعاء لهم بالمغفرة والرحمة، وإذا سمح العبد عن حقه؛ فالله خير الراحمين، ولهذا في أصحّ الأقوال أنهم كانوا أنبياء؛ لقوله تعالى: ﴿وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾، وهم أولاد يعقوب الاثنا عشر وذريّتهم، ومما يدلّ على ذلك أن في رؤيا يوسف أنه رأى كواكب نيرة، والكواكب فيها النور والهداية، الذي من صفات الأنبياء؛ فإنّ لم يكونوا أنبياء؛ فإنّهم علماء هداة.

ومنها: ما من الله به على يوسف عليه الصلاة والسلام من العلم والحلم ومكارم الأخلاق والدعوة إلى الله وإلى دينه وعفوه عن إخوته الخاطئين عفواً بادرهم به وتمم ذلك بأن لا يثرّب عليهم ولا يعيرهم به، ثم برّه العظيم بأبويه وإحسانه لإخوته بل لعموم الخلق.

ومنها: أن بعض الشر أهون من بعض، وارتكاب أخفّ الضررين أولى من ارتكاب أعظمهما؛ فإنّ إخوة يوسف لما اتفقوا على قتل يوسف أو إلقائه أرضاً،

وقال قائل منهم: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجَبِّ﴾؛ كان قوله أحسنَ منهم وأخفَّ، وبسببه خفَّ عن إخوته الإثم الكبير.

ومنها: أنَّ الشيء إذا تداولته الأيدي وصار من جملة الأموال ولم يُعلم أنه كان على غير وجه الشرع؛ أنه لا إثم على مَنْ باشره ببيع أو شراء أو خدمة أو انتفاع أو استعمال؛ فإنَّ يوسف عليه السلام باعه إخوته بيعاً حراماً لا يجوز، ثم ذهبَتْ به السيَّارة إلى مصر، فباعوه بها، وبقي عند سيِّده غلاماً رقيقاً، وسماه الله سيِّداً<sup>(١)</sup>، وكان عندهم بمنزلة الغلام الرقيق المكرم.

ومنها: الحذر من الخلوة بالنساء التي يُخشى منهنَّ الفتنة، والحذر أيضاً من المحبَّة التي يُخشى ضررها؛ فإنَّ امرأة العزيز جرى منها ما جرى بسبب توحدها بيوسف وحبِّها الشديد له، الذي ما تركها حتَّى راودته تلك المرادة، ثم كذبت عليه، فسجَّن بسببها مدة طويلة.

ومنها: أنَّ الهمَّ الذي همَّ به يوسف بالمرأة ثم تركه لله مما يرقِّيه<sup>(٢)</sup> إلى الله زُلْفى؛ لأنَّ الهمَّ داع من دواعي النفس الأمَّارة بالسوء، وهو طبيعة لأغلب الخلق، فلما قابل بينه وبين محبَّة الله وخشيته؛ غلبت محبَّة الله وخشيته داعي النفس والهوى، فكان ممن ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾، ومن السبعة الذين يُظلمهم الله في ظلِّ عرشه يومَ لا ظلَّ إلَّا ظلُّه: أحدهم: رجلٌ دعته امرأة ذات منصبٍ وجمال فقال: إني أخاف الله<sup>(٣)</sup>. وإثما الهمُّ الذي يلام عليه العبد الهمُّ الذي يساكنه، ويصير عزماً ربِّما اقترن به الفعل.

ومنها: أنَّ مَنْ دَخَلَ الإيمان قلبه، وكان مخلصاً لله في جميع أموره؛ فإنَّ الله يدفع عنه ببرهان إيمانه وصدق إخلاصه من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصي ما هو جزاء لإيمانه وإخلاصه؛ لقوله: ﴿وَهُمْ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ وَكَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلِصِينَ﴾: على قراءة من قرأها بكسر اللام، ومن قرأها بالفتح؛ فإنَّه من إخلاص الله إياه، وهو متضمَّن لإخلاصه هو بنفسه، فلما أخلص عمله لله؛ أخلصه الله، وخلصه من السوء والفحشاء.

ومنها: أنه ينبغي للعبد إذا رأى محلاً فيه فتنة وأسباب معصية أن يفرَّ منه ويهرب

(١) في (ب): «شراء».

(٢) في (ب): «يقرِّبه».

(٣) كما في «صحيح البخاري» (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

غاية ما يمكنه؛ ليمكن من التخلص من المعصية؛ لأن يوسف عليه السلام لما راودته التي هو في بيتها؛ فرّ هارباً يطلبُ الباب ليتخلص من شرّها.

ومنها: أن القرائن يُعمل بها عند الاشتباه، فلو تخاصم رجلٌ وامرأته في شيء من أواني الدار؛ فما يصلح للرجل؛ فإنه للرجل، وما يصلح للمرأة؛ فهو لها، هذا إذ لم يكن بينة، وكذا لو تنازع نجارٌ وحدادٌ في آلة حرفتهما من غير بينة، والعمل بالقامة في الأشباه والأثر من هذا الباب؛ فإن شاهد يوسف شهد بالقرينة وحكم بها في قدّ القميص واستدلّ بقدّه من دُبره على صدق يوسف وكذبها. ومما يدلُّ على هذه القاعدة أنه استدلّ بوجود الصّواع في رَحْلِ أخيه على الحكم عليه بالسرقة من غير بينة شهادة ولا إقرار؛ فعلى هذا إذا وجد المسروق في يد السارق، خصوصاً إذا كان معروفاً بالسرقة؛ فإنه يحكم عليه بالسرقة، وهذا أبلغ من الشهادة. وكذلك وجود الرجل يتقيأ الخمر أو وجود المرأة التي لا زوج لها ولا سيّد حاملاً؛ فإنه يُقام بذلك الحدُّ ما لم يقم مانعٌ منه، ولهذا سُمّي الله هذا الحكم شاهداً، فقال: ﴿وشهد شاهدٌ من أهلها﴾.

ومنها: ما عليه يوسف من الجمال الظاهر والباطن؛ فإنّ جماله الظاهر أوجب للمرأة التي هو في بيتها ما أوجب، وللنساء اللاتي جمعتن حين لُمنها على ذلك أن قطعن أيديهنّ وقلن: ﴿ما هذا بشراً إن هذا إلاّ ملكٌ كريمٌ﴾. وأما جماله الباطن؛ فهو العفة العظيمة عن المعصية مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوعها وشهادة امرأة العزيز والنسوة بعد ذلك ببراءته، ولهذا قالت امرأة العزيز: ﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم﴾، وقالت بعد ذلك: ﴿الآن حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوِدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصّادِقِينَ﴾، وقالت النسوة: ﴿حاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾.

ومنها: أن يوسف عليه السلام اختار السجن على المعصية؛ فهكذا ينبغي للعبد إذا ابتلي بين أمرين: إما فعل معصية، وإما عقوبة دنيوية؛ أن يختار العقوبة الدنيوية على موافقة الذنب الموجب للعقوبة الشديدة في الدنيا والآخرة، ولهذا من علامات الإيمان أن يكره العبد أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُلقى في النار.

ومنها: أنه ينبغي للعبد أن يلتجئ إلى الله ويختمي بحماه عند وجود أسباب المعصية ويتبرأ من حوله وقوته؛ لقول يوسف عليه السلام: ﴿وإلاّ تُضْرَفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصَبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

ومنها: أن العلم والعقل يدعوان صاحبهما إلى الخير وينهيانه عن الشر، وأن الجهل يدعو صاحبه إلى موافقة هوى النفس وإن كان معصية ضاراً لصاحبه.

ومنها: أنه كما على العبد عبودية لله في الرخاء؛ فعليه عبودية في الشدة؛ فيوسف عليه السلام لم يزل يدعو إلى الله، فلما دَخَلَ السجن؛ استمرَّ على ذلك ودعا الفتيين إلى التوحيد ونهاهما عن الشرك. ومن فطنته عليه السلام أنه لما رأى فيهما قابليةً لدعوته حيث ظنَّ فيه الظنَّ الحسن، وقال له: ﴿إنا نراك من المحسنين﴾ وأتياه لأن يَعْبُرَ لهما رؤياهما، فرأهما متشوقين لتعبيرها عنده، رأى ذلك فرصة فانتهازها، فدعاهما إلى الله تعالى قبل أن يَعْبُرَ رؤياهما؛ ليكون أنجح لمقصوده وأقرب لحصول مطلوبه، ويبن لهما أولاً أن الذي أوصله إلى الحال التي رأياه فيها من الكمال والعلم وإيمانه وتوحيده وتركه ملةً من لا يؤمن بالله واليوم الآخر، وهذا دعاء لهما بالحال، ثم دعاهما بالمقال، وبين فساد الشرك وبرهن عليه، وحقيقة التوحيد وبرهن عليه.

ومنها: أنه يبدأ بالأهم فالأهم، وأنه إذا سُئِلَ المفتي، وكان السائل حاجته من (١) غير سؤاله أشد؛ أنه ينبغي له أن يعلمه ما يحتاج إليه قبل أن يجيب سؤاله؛ فإن هذا علامة على نصح المعلم وفطنته وحسن إرشاده وتعليمه؛ فإن يوسف لما سأله الفتیان عن الرؤيا؛ قدَّم لهما قبل تعبيرها دعوتهما إلى الله وحده لا شريك له.

ومنها: أن مَنْ وقع في مكروه وشدة؛ لا بأس أن يستعين بمن له قدرة على تخليصه أو الإخبار بحاله، وأن هذا لا يكون شكوى للمخلوق؛ فإن هذا من الأمور العادية التي جرى العرف باستعانة الناس بعضهم ببعض، ولهذا قال يوسف للذي ظنَّ أنه ناج من الفتيين: ﴿أذكرني عند ربك﴾.

ومنها: أنه ينبغي ويتأكد على المعلم استعمال الإخلاص التام في تعليمه، وأن لا يجعل تعليمه وسيلةً لمعاوضة أحد في مال أو جاه أو نفع، وأن لا يمتنع من التعليم أو لا ينصح فيه إذا لم يفعل السائل ما كلفه به المعلم؛ فإن يوسف عليه السلام قد قال، ووصى أحد الفتيين أن يذكره عند ربه، فلم يذكره ونسي، فلما بدت حاجتهم إلى سؤال يوسف؛ أرسلوا ذلك الفتى، وجاءه سائلاً مستفتياً عن تلك الرؤيا، فلم يعنقه يوسف، ولا ويخه لتركه ذكره، بل أجابه عن سؤاله جواباً تاماً من كل وجه.

(١) في (ب): «في».

ومنها: أنه ينبغي للمسؤول أن يدلّ السائل على أمر ينفعه مما يتعلّق بسؤاله ويرشده إلى الطريق التي ينتفع بها في دينه ودنياه؛ فإنّ هذا من كمال نصحه وفطنته وحسن إرشاده؛ فإنّ يوسف عليه السلام لم يقتصر على تعبير رؤيا الملك، بل دلّهم - مع ذلك - على ما يصنعون في تلك السنين المخصبات من كثرة الزرع وكثرة جبايته.

ومنها: أنه لا يُلام الإنسان على السعي في دفع التهمة عن نفسه وطلب البراءة لها، بل يُحمد على ذلك؛ كما امتنع يوسف عن الخروج من السجن حتى تتبيّن لهم براءته بحال النسوة اللاتي قطعن أيديهنّ.

ومنها: فضيلة العلم؛ علم الأحكام والشرع، وعلم تعبير الرؤيا، وعلم التدبير والتربية، وأنه أفضل من الصورة الظاهرة، ولو بلغت في الحسن جمال يوسف؛ فإنّ يوسف بسبب جماله حصلت له تلك المحنة والسجن، وبسبب علمه حصل له العزّ والرّفعة والتمكين في الأرض؛ فإنّ كلّ خير في الدنيا والآخرة من آثار العلم وموجباته.

ومنها: أنّ علم التعبير من العلوم الشرعيّة، وأنّه يثاب الإنسان على تعلّمه وتعليمه، وأنّ تعبير الرؤيا داخل في الفتوى؛ لقوله للفتيين: ﴿قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾، وقال الملك: ﴿أفتنوني في رؤياي﴾، وقال الفتى ليوسف: ﴿أفتنا في سبع بقرات...﴾ الآيات؛ فلا يجوز الإقدام على تعبير الرؤيا من غير علم.

ومنها: أنه لا بأس أن يخبر الإنسان عمّا في نفسه من صفات الكمال من علم أو عمل إذا كان في ذلك مصلحة، ولم يقصد به العبد الرياء، وسليماً من الكذب؛ لقول يوسف: ﴿اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظٌ عليّم﴾.

وكذلك لا تُدّمّ الولاية إذا كان المتولّي فيها يقوم بما يقدر عليه من حقوق الله وحقوق عباده، وأنّه لا بأس بطلبها إذا كان أعظم كفاءةً من غيره، وإنّما الذي يُدّمّ إذا لم يكن فيه كفاية، أو كان موجوداً غيره مثله أو أعلى منه، أو لم يُردّ بها إقامة أمر الله؛ فهذه الأمور يُنهى عن طلبها والتعرّض لها.

ومنها: أن الله واسع الجود والكرم، يجود على عبده بخير الدنيا والآخرة، وأنّ خير الآخرة له سببان: الإيمان، والتقوى، وأنه خير من ثواب الدنيا وملكها، وأنّ العبد ينبغي له أن يدعو نفسه، ويشوقها لثواب الله، ولا يدعها تحزن إذا رأت أهل الدنيا ولذاتها وهي غير قادرة عليها، بل يسليها بثواب الله الأخرويّ وفضله العظيم؛



لقوله تعالى: ﴿وَلَا جُرْ الْآخِرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

ومنها: أن جباية الأرزاق إذا أريدَ بها التوسعة على الناس من غير ضررٍ يلحقهم؛ لا بأس بها؛ لأنَّ يوسف أمرهم بجباية الأرزاق والأطعمة في السنين المخصابات<sup>(١)</sup> للاستعداد للسنين المجدبة، وأنَّ هذا غير مناقضٍ للتوكل على الله، بل يتوكل العبد على الله، ويعمل بالأسباب التي تنفعه في دينه ودنياه.

ومنها: حسن تدبير يوسف لما تولَّى خزائن الأرض حتى كثرت عندهم الغلات جداً، حتى صار أهل الأقطار يقصدون مصر لطلب الميرة منها؛ لعلمهم بوفرةها فيها، وحتى أنه كان لا يكيل لأحد إلا مقدار الحاجة الخاصّة، أو أقلّ لا يزيد كلُّ قادم على كيل بعيرٍ وحمله.

ومنها: مشروعية الضيافة، وأنها من سنن المرسلين، وإكرام الضيف؛ لقول يوسف لإخوته: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾.

ومنها: أن سوء الظن مع وجود القرائن الدالة عليه غير ممنوع ولا محرّم؛ فإنَّ يعقوب قال لأولاده بعدما امتنع من إرسال يوسف معهم حتى عالجوه أشدّ المعالجة ثم قال لهم بعد ما أتوه وزعموا أن الذئب أكله: ﴿بَلِ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾، وقال لهم في الأخ الآخر: ﴿هَلِ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمَنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾، ثم لما احتبسه يوسف عنده، وجاء إخوته لأبيهم؛ قال لهم: ﴿بَلِ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾؛ فهم في الأخيرة وإن لم يكونوا مفرّطين؛ فقد جرى منهم ما أوجب لأبيهم أن قال ما قال من غير إثم عليه ولا حرج.

ومنها: أن استعمال الأسباب الدافعة للعين وغيرها<sup>(٢)</sup> من المكاره أو الرفاعة له بعد نزولها غير ممنوع، بل جائز، وإن كان لا يقع شيء إلا بقضاء وقدر؛ فإنَّ الأسباب أيضاً من القضاء والقدر؛ لأمر يعقوب؛ حيث قال لبنيه: ﴿يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾.

ومنها: جواز استعمال المكاييد التي يتوصّل بها إلى الحقوق، وأنَّ العلم بالطرق الخفية الموصلة إلى مقاصدها مما يُحمد عليه العبد، وإنما الممنوع التحيل على إسقاط واجبٍ أو فعلٍ محرّم.

ومنها: أنه ينبغي لمن أراد أن يوهّم غيره بأمرٍ لا يحبُّ أن يُطلع عليه أن يستعمل

(١) في (ب): «المخسبة». (٢) في (ب): «أو غيرها».

المعارض القوليَّة والفعليَّة المانعة له من الكذب؛ كما فعل يوسف حيث ألقى الصُّوع في رحل أخيه، ثم استخرجها منه موهماً أنَّه سارق، وليس فيه إلا القرينة الموهمة لإخوته، وقال بعد ذلك: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾، ولم يقل: مَنْ سَرَقَ مَتَاعَنَا. وكذلك لم يقل: إنا وجدنا متاعنا عنده؛ بل أتى بكلام عامٍ يَصْلُحُ له ولغيره، وليس في ذلك محذورٌ، وإثماً فيه إيهامٌ أنَّه سارقٌ؛ ليحصل المقصود الحاضر، وأنه يبقى [عند] أخيه، وقد زال عن الأخ هذا الإيهام بعدما تبيَّنت الحال.

ومنها: أنه لا يجوز للإنسان أن يشهدَ إلا بما عَلِمَهُ وتحقَّقه [إما]<sup>(١)</sup> بمشاهدة أو خبر من يثق به، وتطمئنُّ إليه النفس؛ لقولهم: ﴿وما شَهِدْنَا إِلَّا بما عَلِمْنَا﴾.

ومنها: هذه المحنة العظيمة التي امتحنَ الله بها نبيَّه وصفيَّه يعقوب عليه السلام؛ حيث قضى بالتفريق بينه وبين ابنه يوسف الذي لا يقدر على فراقه ساعةً واحدةً ويحزُّنه ذلك أشدَّ الحزن، فحصل التفريق بينه وبينه مدةً طويلة لا تقصر عن ثلاثين<sup>(٢)</sup> سنة، ويعقوبٌ لم يفارقِ الحزنَ قلبه في هذه المدة، ﴿وابيضَّت عيناه من الحزنِ فهو كظيمٌ﴾، ثم ازداد به الأمر شدةً حين صار الفراق بينه وبين ابنه الثاني شقيق يوسف، هذا وهو صابرٌ لأمر الله محتسبٌ الأجر من الله قد وَعَدَ من نفسه الصبر الجميل، ولا شكَّ أنه وفي بما وعد به، ولا ينافي ذلك قوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وحزني إلى الله﴾؛ فإنَّ الشكوى إلى الله لا تُنافي الصبر، وإثماً الذي ينافيه الشكوى إلى المخلوقين.

ومنها: أنَّ الفرج مع الكرب، وأنَّ مع العسر يسراً؛ فإنه لما طال الحزن على يعقوب واشتدَّ به إلى أنهى ما يكون، ثم حصل الاضطراب لآل يعقوب ومسَّهم الضرُّ؛ أذنَّ الله حينئذٍ بالفرج، فحصل التلاقي في أشدَّ الأوقات إليه حاجةً واضطراباً، فتمَّ بذلك الأجر وحصل السرورُ وعُليَمَ من ذلك أنَّ الله يتلي أوليائه بالشدَّة والرِّخاء والعسر واليسر؛ ليمتحنَ صبرهم وشكرهم، ويزداد بذلك إيمانهم ويقيئهم وعزفانهم.

ومنها: جواز إخبار الإنسان بما يجد وما هو فيه من مرضٍ أو فقرٍ ونحوهما على

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «إلا» والصواب ما أثبت.

(٢) في (ب): «خمسة عشر». وصوبها الشيخ في هامش (أ) كما هو مثبت.

غير وجه التسخُّط؛ لأنَّ إخوة يوسف قالوا: ﴿يا أيُّها العزيز مسنا وأهلنا الضرُّ﴾، ولم يُنكِرْ عليهم يوسف.

ومنها: فضيلة التقوى والصبر، وأنَّ كلَّ خير في الدنيا والآخرة فمن آثار التقوى والصبر، وأنَّ عاقبة أهلها أحسن العواقب؛ لقوله: ﴿قد منَّ الله علينا إنَّه من يتَّقِ ويصبر فإنَّ الله لا يضيع أجر المحسنين﴾.

ومنها: أنه ينبغي لمن أنعم الله عليه بنعمة بعد شدة وفقر وسوء حال أن يعترف بنعمة الله عليه، وأن لا يزال ذاكراً حاله الأولى؛ ليحدث لذلك شكراً كلما ذكرها؛ لقول يوسف عليه السلام: ﴿وقد أحسنَ بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو﴾.

ومنها: لطف الله العظيم بيوسف؛ حيث نقله في تلك الأحوال، وأوصل إليه الشدائد والمحن؛ ليوصله بها إلى أعلى الغايات ورفيع الدرجات.

ومنها: أنه ينبغي للعبد أن يتملِّق إلى الله دائماً في تثبيت إيمانه، ويُعمِلَ الأسباب الموجبة لذلك، ويسأل الله حسنَ الخاتمة وتمام النعمة؛ لقول يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿ربِّي قد آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحَفْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.

فهذا ما يسرَّ الله من الفوائد والعبر في هذه القصة المباركة، ولا بدَّ أن يظهر للمتدبِّر المتفكِّر غير ذلك؛ فنسأله تعالى علماً نافعاً وعملاً متقبلاً إنه جوادٌ كريمٌ.

تم تفسير سورة يوسف وأبيه وإخوته عليهم الصلاة والسلام.  
والحمد لله رب العالمين.



## تفسير سورة الرعد

وهي مدنية - وقيل مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَرَّةَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾.

﴿١﴾ يخبر تعالى أنَّ هذا القرآن هو آيات الكتاب الدالة على كلِّ ما يحتاج إليه العباد من أصول الدين وفروعه، وأن الذي أنزل إلى الرسول من ربه هو الحقُّ المُبين؛ لأنَّ أخباره صدق وأوامره ونواهيهِ عدلٌ مؤيِّدة بالأدلة والبراهين القاطعة؛

فمن أقبل عليه وعلى علمه؛ كان من أهل العلم بالحق الذي يوجب لهم علمهم العمل بما أحب الله. ﴿ولكن أكثر الناس [لا يؤمنون]﴾: بهذا القرآن: إما جهلاً وإعراضاً عنه وعدم اهتمام به، وإما عناداً وظلماً؛ فلذلك أكثر الناس غير متفتحين به؛ لعدم السبب الموجب للانتفاع.

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَجْرِ لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِوْاسٍ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَىٰ الْأَيْلَ النَّهَارَ إِنْ فِي ذَلِكَ لِآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَيْتُونٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنَفْضِلٌ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ إِنْ فِي ذَلِكَ لِآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾.

﴿٢﴾ يخبر تعالى عن انفراده بالخلق والتدبير والعظمة والسلطان الدال على أنه وحده المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له، فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ﴾: على عظمها واتساعها بقدرته العظيمة، ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾؛ أي: ليس لها عمَدٌ من تحتها؛ فإنه لو كان لها عمَدٌ؛ لرأيتُموها، ﴿ثُمَّ﴾: بعدما خلق السماوات والأرض، ﴿أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾: العظيم، الذي هو أعلى المخلوقات، استواءً يليق بجلاله ويناسب كماله. ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾: لمصالح العباد ومصالح مواشيهم وثمارهم. ﴿كُلَّ﴾: من الشمس والقمر، ﴿يَجْرِي﴾: بتدبير العزيز العليم ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: بسير منتظم لا يفتران ولا يبينان حتى يجيء الأجل المسمى، وهو طيُّ الله هذا العالم ونقلهم إلى الدار الآخرة التي هي دار القرار؛ فعند ذلك يطوي الله السماوات ويبدلها ويغيّر الأرض ويبدلها، فتكور الشمس والقمر و﴿يُجْمَعُ﴾<sup>(١)</sup> بينهما فيلقيان في النار؛ ليرى من عبدهما أنّهما غير أهل للعبادة، فيتحسّر بذلك أشدّ الحسرة، وليعلم الذين كفروا أنّهم كانوا كاذبين. وقوله: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾: لهذا جمع بين الخلق والأمر؛ أي: قد استوى الله العظيم على سرير الملك؛ يدبّر الأمور في العالم العلوي والسفلي، فيخلق ويرزق، ويغني ويفقر، ويرفع أقواماً ويضع آخرين، ويعزّز ويذلّ، ويخفيض ويرفع، ويقيّل العثرات،

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «تجمع».

ويفرّجُ الكربات، وينفذُ الأقدار في أوقاتها التي سبق بها علمه وجرى بها قلمه، ويرسل ملائكته الكرام لتدبير ما جعلهم على تدبيره، وينزل الكتب الإلهية على رسله، ويبين ما يحتاج إليه العباد من الشرائع والأوامر والنواهي، ويفصلها غاية التفصيل بيانها وإيضاحها وتمييزها. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: بسبب ما أخرج لكم من الآيات الأفقيّة والآيات القرآنيّة، ﴿بلقاء ربكم توقنون﴾: فإن كثرة الأدلّة وبيانها ووضوحها من أسباب حصول اليقين في جميع الأمور الإلهيّة، خصوصاً في العقائد الكبار؛ كالبعث والنشور والإخراج من القبور.

وأيضاً؛ فقد علم أن الله تعالى حكيم؛ لا يخلق الخلق سدى، ولا يتركهم عبثاً؛ فكما أنه أرسل رسله وأنزل كتبه لأمر العباد ونهيمهم؛ فلا بد أن ينقلهم إلى دار يحلّ فيهم جزاؤه؛ فيجازي المحسنين بأحسن الجزاء، ويجازي المسيئين بإساءتهم.

﴿٣﴾ ﴿وهو الذي مدّ الأرض﴾؛ أي: خلقها للعباد ووسّعها وبارك فيها ومهّدها للعباد وأودع فيها من مصالحهم ما أودع، ﴿وجعل فيها رواسي﴾؛ أي: جبلاً عظاماً؛ لثلاً تميد بالخلق؛ فإنّه لولا الجبال؛ لمادت بأهلها؛ لأنها على تيار ماء لا ثبوت لها ولا استقرار إلا بالجبال الرّواسي التي جعلها الله أوتاداً لها. ﴿و﴾ جعل فيها ﴿أنهاراً﴾ تسقي الآدميين وبهائمهم وحروثهم؛ فأخرج بها من الأشجار والزرع والثمار خيراً كثيراً، ولهذا قال: ﴿ومن كلّ الثمرات جعل فيها زوجين اثنين﴾؛ أي: صنفين مما يحتاج إليه العباد. ﴿يُغشي الليل النهار﴾: فتظلم الآفاق، فيسكن كلّ حيوان إلى ماواه، ويستريحون من التعب والنصب في النهار، ثم إذا قَضَوْا مآربهم من النوم؛ غشي النهارُ الليل؛ فإذا هم مصبحون [منتشرون]<sup>(١)</sup> في مصالحهم وأعمالهم في النهار، ﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾. ﴿إنّ في ذلك لآياتٍ﴾: على المطالب الإلهيّة ﴿لقوم يتفكرون﴾: فيها وينظرون فيها نظر اعتبارٍ دالّة على أن الذي خلقها ودبّرها وصرّفها هو الله الذي لا إله إلا هو، ولا معبود سواه، وأنّه عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم، وأنّه القادر على كل شيء، الحكيم في كل شيء، المحمود على ما خلقه وأمر به، تبارك وتعالى.

﴿٤﴾ ﴿و﴾ من الآيات على كمال قدرته وبديع صنعته أن جعل ﴿في الأرض

(١) في (أ): «متشرين». وما أثبت من (ب).

قِطَعٌ متجاورات وجناتٌ ﴿٥﴾: فيها أنواع الأشجار: من الأعناب والنخل والزرع، وغير ذلك، والنخيل التي بعضها ﴿صنوان﴾؛ أي: عدة أشجار في أصل واحد. ﴿وغيرُ صنوان﴾: بأن كان كل شجرة على حدها، والجميع ﴿يسقى بماء واحد﴾: وأرضه واحدة. ﴿ونفضل بعضها على بعض في الأكل﴾: لونا وطعماً ونفعاً ولذّة؛ فهذه أرض طيبة تنبت الكلاً والعشب الكثير والأشجار والزرع، وهذه أرض تلاصقها لا تنبت كلاً ولا تمسك ماءً، وهذه تمسك الماء ولا تنبت الكلاً، وهذه تنبت [الزرع] <sup>(١)</sup> والأشجار ولا تنبت الكلاً، وهذه الثمرة حلوة وهذه مرّة وهذه بين ذلك؛ فهل هذا التنوع في ذاتها وطبيعتها أم ذلك تقدير العزيز الرحيم؟ ﴿إن في ذلك لآياتٍ لقوم يعقلون﴾؛ أي: لقوم لهم عقول تهديهم إلى ما ينفعهم وتقودهم إلى ما يرشدون ويعقلون عن الله وصاياه وأوامره ونواهيه، وأما أهل الإعراض وأهل البلادة؛ فهم في ظلماتهم يعمهون وفي غيهم يترددون، لا يهتدون إلى ربهم سبيلاً ولا يعون له قبيلاً.

﴿وَإِن تَعَجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَوَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَوَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ الْأَعْلَالِ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾﴾.

﴿٥﴾ يحتمل أن معنى قوله: ﴿وَإِن تَعَجَبَ﴾: من عظمة الله تعالى وكثرة أدلة التوحيد؛ فإن العجب مع هذا إنكار المكذبين وتكذيبهم بالبعث وقولهم: ﴿أإذا كنا تراباً أإننا لفي خلقٍ جديدٍ﴾؛ أي: هذا بعيد في غاية الامتناع بزعمهم أنهم بعدما كانوا تراباً أن الله يُعيدهم؛ فإنهم من جهلهم قاسوا قدرة الخالق بقدرة المخلوق، فلما رأوا هذا ممتنعاً في قدرة المخلوق، ظنوا أنه ممتنع على قدرة الخالق، ونسوا أن الله خلقهم أول مرّة ولم يكونوا شيئاً. ويُحتمل أن معناه: وإن تعجب من قولهم وتكذيبهم للبعث؛ فإن ذلك من العجائب؛ فإن الذي توضح له الآيات ويرى منها <sup>(٢)</sup> الأدلة القاطعة على البعث ما لا يقبل الشك والريب ثم ينكر ذلك؛ فإن قوله من العجائب، ولكن ذلك لا يستغرب على ﴿الذين كفروا بربهم﴾: وجحدوا وحدانيته، وهي أظهر الأشياء وأجلاها. ﴿وأولئك الأغلال﴾: المانعة لهم من الهدى ﴿في أعناقهم﴾: حيث دُعوا إلى الإيمان فلم يؤمنوا، وعرض عليهم الهدى فلم يهتدوا،

(١) في (أ): «الزرع». وما أثبت من (ب).

(٢) في (ب): «من».

فَقَلَّبْتَ قُلُوبَهُمْ وَأَفْتَدْتَهُمْ عِقَابَ عِقَابٍ عَلَيْهِمْ لَمَّا كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَلَمَّا نزلَتْ آيَاتُنَا لَمَّ يَتَذَكَّرُ فِيهَا مَنُورًا ﴿٦﴾ وَأَوَّلُكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧﴾ : لا يخرجون منها أبداً.

﴿وَسْتَعْلِمُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾ .

﴿٦﴾ يخبر تعالى عن جهل المكذِّبين لرسوله، المشركين به، الذين وُعدوا فلم يتَّعظوا، وأقيمت عليهم الأدلة فلم ينقادوا لها، بل جاهاروا بالإنكار، واستدلوا بحلم الله الواحد القهار عنهم وعدم معاجلتهم بذنوبهم أنهم على حق، وجعلوا يستعجلون الرسول بالعذاب، ويقول قائلهم: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾! ﴿و﴾ الحال أنه ﴿قد خلت من قبلهم المثلاث﴾؛ أي: وقائع الله وأيامه في الأمم المكذِّبين، أفلا يتفكرون في حالهم ويتركون جهلهم؟! ﴿وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم﴾؛ أي: لا يزال خيره إليهم وإحسانه وبره وعفوه نازلاً إلى العباد، وهم لا يزال شركهم<sup>(١)</sup> وعصيانهم إليه صاعداً؛ يعصونه فيدعوهم إلى بابه، ويجرمون فلا يحرمهم خيره وإحسانه؛ فإن تابوا إليه؛ فهو حبيهم؛ لأنه يحب التوابين ويحب المتطهرين، وإن لم يتوبوا؛ فهو طبيهم؛ يبتليهم بالمصائب ليظهرهم من المعائب: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنَّه هو الغفور الرحيم﴾ . ﴿وإن ربك لشديد العقاب﴾: على من لم يزل مصراً على الذنوب، قد أبى التوبة والاستغفار والاتجاء إلى العزيز الغفار؛ فليحذر العباد عقوباته بأهل الجرائم؛ فإن أخذَه أليم شديد.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾ .

﴿٧﴾ أي: ويقترح الكفار عليك من الآيات التي يُعيثونها ويقولون: ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾، ويجعلون هذا القول منهم عُذراً لهم في عدم الإجابة إلى الرسول، والحال أنه منذر، ليس له من الأمر شيء، والله هو الذي ينزل الآيات، وقد أيده بالأدلة البينات التي لا تخفى على أولي الأبصار، وبها يهتدي من قصده الحق، وأما الكافر الذي من ظلمه وجهله يقترح على الله الآيات؛ فهذا اقتراح منه

(١) في (ب): «وهم لا يزال شركهم».

باطل وكذب وافتراء<sup>(١)</sup>؛ فإنه لو جاءت أي آية كانت؛ لم يؤمن ولم ينقد؛ لأنه لم يمتنع من الإيمان لعدم ما يدلُّه على صحته، وإنما ذلك لهوى نفسه وأتباع شهوته. ﴿ولكل قوم هادٍ﴾؛ أي: داع يدعوهم إلى الهدى من الرسل وأتباعهم، ومعهم من الأدلة والبراهين ما يدلُّ على صحَّة ما معهم من الهدى.

﴿اللَّهُ يَلْمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عِنْدَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَمْ تُعْقِبَتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿١١﴾﴾.

﴿٨ - ٩﴾ يخبر تعالى بعموم علمه وسعة اطلاعه وإحاطته بكل شيء، فقال: ﴿اللَّهُ يَلْمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى﴾: من بني آدم وغيرهم، ﴿وما تغيض الأرحام﴾؛ أي: تنقص مما فيها، إما أن يهلك الحمل أو يتضاءل أو يضمحل، ﴿وما تزداد﴾: الأرحام وتكبر الأجنة التي فيها. ﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾: لا يتقدم عليه ولا يتأخر ولا يزيد ولا ينقص إلا بما تقتضيه حكمته وعلمه؛ فإنه ﴿عالم الغيب والشهادة الكبير﴾: في ذاته وأسمائه وصفاته، ﴿المتعال﴾: على جميع خلقه بذاته وقدرته وقهره.

﴿١٠﴾ ﴿سواء منكم﴾: في علمه وسمعه وبصره، ﴿من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل﴾؛ أي: مستقر بمكان خفي فيه، ﴿وسارب بالنهار﴾؛ أي: داخل سريه في النهار، والسرْب هو ما يستخفي<sup>(٢)</sup> فيه الإنسان: إما جوف بيته، أو غار، أو مغارة، أو نحو ذلك.

﴿١١﴾ ﴿له﴾؛ أي: للإنسان ﴿معقبات﴾: من الملائكة يتعاقبون في الليل والنهار، ﴿من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾؛ أي: يحفظون بدنه وروحه من كل من يريد به سوء، ويحفظون عليه أعماله، وهم ملازمون له دائماً؛ فكما أن علم الله محيط به؛ فالله قد أرسل هؤلاء الحفظة على العباد بحيث لا تخفى أحوالهم ولا أعمالهم ولا يُنسى منها شيء. ﴿إن الله لا يغير ما بقوم﴾: من

(١) في (ب): «وافتراء».

(٢) في (ب): «ما يخفي».



النعمة والإحسان وزَعَدِ العيش، ﴿حَتَّى يَغْيُرُوا مَا بَأْنَفْسِهِمْ﴾: بأن ينتقلوا من الإيمان إلى الكفر، ومن الطاعة إلى المعصية، أو من شكر نعم الله إلى البطر بها، فيسلبهم الله عند ذلك إياها، وكذلك إذا غير العباد ما بأنفسهم من المعصية، فانتقلوا إلى طاعة الله؛ غيّر الله عليهم ما كانوا فيه من الشقاء إلى الخير والسرور والغبطة والرحمة. ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا﴾؛ أي: عذاباً وشدةً وأمرأً يكرهونه؛ فإن إرادته لا بد أن تنفذ فيهم، فإنه ﴿لَا مَرَدَّ لَهُ﴾، ولا أحد يمنعهم منه، ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنَ الْوَالِي﴾: يتولّى أمورهم، فيجلب لهم المحبوب، ويدفع عنهم المكروه. فليحذروا من الإقامة على ما يكره الله؛ خشية أن يحلّ بهم من العقاب ما لا يرُدُّ عن القوم المجرمين.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيَسْخِجُ الرِّعْدَ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ ﴿١٣﴾﴾.

﴿١٢﴾ يقول تعالى: ﴿هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً﴾؛ أي: يُخاف منه الصواعق والهدم وأنواع الضرر على بعض الثمار ونحوها، ويُطمع في خيره ونفعه، ﴿ويُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾: بالمطر الغزير الذي به نفع العباد والبلاد.

﴿١٣﴾ ﴿ويسخج الرعد بحمده﴾: وهو الصوت الذي يُسمع من السحاب المززعج للعباد؛ فهو خاضع لربه، مسبح بحمده، ﴿و﴾ تسخج ﴿الملائكة من خيفته﴾؛ أي: خُشعاً لربهم خائفين من سطوته، ﴿ويرسل الصواعق﴾: وهي هذه النار التي تخرج من السحاب. ﴿فيصيب بها من يشاء﴾: من عباده بحسب ما شاء وأراده. ﴿وهو شديد المحال﴾؛ أي: شديد الحول والقوة؛ فلا يريد شيئاً إلاّ فعله، ولا يتعاصى عليه شيء، ولا يفوته هارب. فإذا كان هو وحده الذي يسوق للعباد الأمطار والسحب التي فيها مادة أرزاقهم، وهو الذي يدبّر الأمور وتخضع له المخلوقات العظام التي يُخاف منها وتزعج العباد، وهو شديد القوة؛ فهو الذي يستحق أن يُعبَد وحده لا شريك له، ولهذا قال:

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِيَلْفُوهٖ وَمَا دُعَاةُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾﴾.

﴿١٤﴾ أي: لله وحده ﴿دعوة الحق﴾: وهي عبادته وحده لا شريك له،

وإخلاص دعاء العبادة ودعاء المسألة له تعالى؛ أي: هو الذي ينبغي أن يُصرف له الدعاء والخوف والرجاء والحبُّ والرغبة والرغبة والإنابة؛ لأنَّ ألوهيته هي الحقُّ، وألوهية غيره باطلة. ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾: من الأوثان والأنداد التي جعلوها شركاء لله، ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ﴾؛ أي: لمن يَدْعُوها ويعبُدُها بشيء قليل ولا كثير، لا من أمور الدنيا ولا من أمور الآخرة. ﴿إِلَّا كِبَاسُطٌ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ﴾: الذي لا تناله كفاؤه لبعده؛ ﴿لِيَبْلُغَ﴾: ببسط كفايه إلى الماء ﴿فَاهٍ﴾؛ فإنه عطشان، ومن شدة عطشه يتناول بيده ويبسطها إلى الماء الممتنع وصولها إليه؛ فلا يصلُ إليه؛ كذلك الكفار الذين يدعون معه آلهة لا يستجيبون لهم بشيء ولا ينفعونهم في أشدِّ الأوقات إليهم حاجة؛ لأنهم فقراء؛ كما أنَّ من دعواهم فقراء ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾، ﴿وَمَا دَعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾: لبطلان ما يدعون من دون الله، فبطلت عبادتهم ودعاؤهم؛ لأنَّ الوسيلة تَبْطُلُ ببطلان غايتها، ولما كان الله تعالى هو الملك الحق المبين؛ كانت عبادته حقًا متصلة النفع بصاحبها في الدنيا والآخرة.

وتشبيه دعاء الكافرين لغير الله بالذي يبسط كفايه إلى الماء ليلبغ فاه من أحسن الأمثلة؛ فإنَّ ذلك تشبيهٌ بأمرٍ محال؛ فكما أن هذا محال؛ فالمشبه به محال، والتعليق على المحال من أبلغ ما يكون في نفي الشيء؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلْمًا لَّهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝١٥﴾.

﴿١٥﴾ أي: جميع ما احتوت عليه السماوات والأرض كلها خاضعة لربها، تسجد له ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾: فالطُّوع لمن يأتي بالسجود والخضوع اختياراً كالمؤمنين، والكره لمن يستكبر عن عبادة ربه، وحاله وفطرته تكذبه في ذلك. ﴿وِظُلْمًا لَهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾؛ أي: ويسجد له ظلال المخلوقات أول النهار وآخره، وسجود كل شيء بحسب حاله؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾؛ فإذا كانت المخلوقات كلها تسجد لربها طوعاً وكرهاً؛ كان هو الإله حقاً، المعبود المحمود حقاً، وإلهية غيره باطلة، ولهذا ذكر بطلانها وبرهن عليه بقوله:

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَتَأْتَحِدُونَ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا

قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ نَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهْرُ ﴿١٦﴾ .

﴿١٦﴾ أي: قل لهؤلاء المشركين به أوثاناً وأنداداً؛ يحبونها كما يحبون الله، ويبدلون لها أنواع التقربات والعبادات: أفتأهت عقولكم حتى اتخذتم من دونه أولياء تتولونهم بالعبادة وليسوا بأهل لذلك؛ فإنهم ﴿لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً﴾، وتتركون ولاية من هو كامل الأسماء والصفات، المالك للأحياء والأموات، الذي بيده الخلق والتدبير والنفع والضُّر؛ فما تستوي عبادة الله وحده وعبادة المشركين به، كما لا يستوي الأعمى والبصير، وكما لا ﴿تستوي الظلمات والنور﴾: فإن كان عندهم شكٌ واشتباةٌ وجعلوا له شركاء، زعموا أنهم خلقوا كخَلْقِهِ، وفعلوا كفعله؛ فأزل عنهم هذا الاشتباه واللبس بالبرهان الدال على تَوْحِيدِ الإله بالوحدانية، فقل لهم: الله خالق كل شيء؛ فإنه من المحال أن يَخْلُقَ شيءٌ من الأشياء نفسه، ومن المحال أيضاً أن يوجد من دون خالقي، فتعيّن أن لها إلهاً خالقاً لا شريك له في خلقه؛ لأنه الواحد القهار؛ فإنه لا توجد الوحدة والقهر إلا لله وحده؛ فالمخلوقات كلُّ مخلوق فوقه مخلوق يقهره، ثم فوق ذلك القاهر قاهرٌ أعلى منه، حتى ينتهي القهر للواحد القهار؛ فالقهر والتوحيد متلازمان متعيّنان لله وحده، فتبيّن بالدليل العقلي القاهر أن ما يدعى من دون الله ليس له شيء من خلق المخلوقات، وبذلك كانت عبادته باطلة.

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ .

﴿١٧﴾ شبه تعالى الهدى الذي أنزل<sup>(١)</sup> على رسوله لحياة القلوب والأرواح بالماء الذي أنزله لحياة الأشباح. وشبه ما في الهدى من النفع العام الكثير الذي يضطرُّ إليه العباد بما في المطر من النفع العام الضروري. وشبه القلوب الحاملة للهدى وتفاوتها بالأودية التي تسيل فيها السيول؛ فوادي كبير يسع ماء كثيراً كقلب كبير يسع علماً كثيراً، ووادي صغير يأخذ ماءً قليلاً كقلب صغير يسع علماً

(١) في (ب): «أنزله».

قليلاً... وهكذا. وشبه ما يكون في القلوب من الشهوات والشبهات عند وصول الحق إليها بالزبد الذي يعلو الماء ويعلو ما يوقد عليه النار من الحلية التي يُراد تخليصها وسبكها، وأنها لا تزال فوق الماء طافيةً مكدرّةً له حتى تذهب وتضمحل، ويبقى ما ينفع الناس من الماء الصافي والحلية الخالصة، كذلك الشبهات والشهوات لا يزال القلب يكرهها ويجاهدها بالبراهين الصادقة والإرادات الجازمة حتى تذهب وتضمحل ويبقى القلب خالصاً صافياً ليس فيه إلا ما ينفع الناس من العلم بالحق وإيثاره والرغبة فيه؛ فالباطل يذهب ويَمَحَقُهُ الحق؛ ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾، وقال هنا: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾: ليتضح الحق من الباطل والهدى من الضلال.

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِمْ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ إِلَهَادًا﴾.

﴿١٨﴾ لما بين تعالى الحق من الباطل؛ ذَكَرَ أَنَّ النَّاسَ عَلَىٰ قَسَمَيْنِ: مستجيب لربه فذكر ثوابه، وغير مستجيب فذكر عقابه، فقال: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾؛ أي: انقادت قلوبهم للعلم والإيمان، وجوارحهم للأمر والنهي، وصاروا موافقين لرّبهم فيما يريد منهُم؛ فلهم ﴿الحسنى﴾؛ أي: الحالة الحسنة والثواب الحسن؛ فلهم من الصفات أجلها، ومن المناقب أفضلها، ومن الثواب العاجل والآجل ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ﴿والذين لم يستجيبوا له﴾: بعدما ضَرَبَ لَهُمُ الْأَمْثَالَ وَبَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقَّ لَهُمُ الْحَالَةُ غَيْرَ الْحَسَنَةِ. ﴿فَلَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾: من ذهب وفضة وغيرهما، ﴿ومثله معه لافتدوا به﴾: من عذاب يوم القيامة؛ ما تُقْبَلُ مِنْهُمْ. وأتى لهم ذلك؟! ﴿أولئك لهم سوء الحساب﴾: وهو الحساب الذي يأتي على كل ما أسلفوه من عمل سيئ وما ضيعوه من حقوق الله وحقوق عباده، قد كُتِبَ ذَلِكَ وَسُطِرَ عَلَيْهِمْ: ﴿وقالوا يا ونلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾. ﴿و﴾ بعد هذا الحساب السيئ، ﴿مأواهم جهنم﴾: الجامعة لكل عذاب من الجوع الشديد والعطش الوجيع والنار الحامية والزقوم والمهزير والضريع، وجميع ما ذكره الله من أصناف العذاب. ﴿وبئس المهاد﴾؛ أي: المَقْرُ والمسكن مسكنهم.

﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَنْذَرُكَ أَتُولُوا بِالْآيَاتِ ۚ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُؤْتُونَ

يَعْهَدُ اللَّهُ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عِزِّي الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ .

﴿١٩ - ٢٠﴾ يقول تعالى: مفرقاً بين أهل العلم والعمل وبين ضدّهم: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾: ففهم ذلك وعمل به. ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾: لا يعلم الحقّ ولا يعمل به؛ فبينهما من الفرق كما بين السماء والأرض؛ فحقيق بالعبد أن يتذكّر ويتفكّر، أيّ الفريقين أحسن حالاً وخير مآلاً، فيؤثر طريقها، ويسلك خلف فريقها، ولكن ما كلُّ أحدٍ يتذكّر ما ينفعه ويضره. ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾؛ أي: أولو العقول الرزينة والآراء الكاملة، الذين هم لبُّ العالم وصفوة بني آدم. فإن سألت عن وصفهم؛ فلا تجد أحسن من وصف الله لهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بَعْدَ اللَّهِ﴾: الذي عهدته إليهم والذي عاهدهم عليه من القيام بحقوقه كاملة موفرة؛ فالوفاء بها توفيتها حقّها من التتميم لها والنصح فيها، ومن تمام الوفاء بها أنهم ﴿لا ينقضون الميثاق﴾؛ أي: العهد الذي عاهدوا الله عليه<sup>(١)</sup>، فدخل في ذلك جميع الموائيق والعهود والأيمان والتذورات التي يعقدها العباد، فلا يكون العبد من أولي الألباب الذين لهم الثواب العظيم إلا بأدائها كاملة وعدم نقضها وبخسها.

﴿٢١﴾ ﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل﴾: ولهذا عامٌّ في كلِّ ما أمر الله بوصله من الإيمان به وبرسوله ومحبته ومحبته رسوله والانقياد لعبادته وحده لا شريك له ولطاعة رسوله، ويصلون آباءهم وأمّهاتهم ببرهم بالقول والفعل وعدم عقوبتهم، ويصلون الأقارب والأرحام بالإحسان إليهم قولاً وفعلاً، ويصلون ما بينهم وبين الأزواج والأصحاب والمماليك بأداء حقهم كاملاً موفراً من الحقوق الدينيّة والدينيّة. والسبب الذي يجعل العبد واصلاً ما أمر الله به أن يوصل خشية الله وخوف يوم الحساب، ولهذا قال: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾؛ أي: يخافونه، فيمنعهم خوفهم منه ومن القدوم عليه يوم الحساب أن يتجزّوا على معاصي الله أو يقصروا

(١) في (ب): «عاهدوا عليه الله».

في شيء مما أمر الله به؛ خوفاً من العقاب ورجاءً للثواب.

﴿٢٢﴾ ﴿والذين صبروا﴾: على المأمورات بالامتثال، وعن المنهيات بالانكفاف عنها والبعد منها، وعلى أقدار الله المؤلمة بعدم تسخّطها، ولكن بشرط أن يكون ذلك الصبر ﴿ابتغاء وجه ربهم﴾: لا لغير ذلك من المقاصد والأغراض الفاسدة؛ فإنّ هذا الصبر النافع، الذي يَحْبِسُ به العبد نفسه طلباً لمرضاة ربه ورجاءً للقرب منه والحظوة بثوابه، وهو الصبر الذي من خصائص أهل الإيمان، وأما الصبر المشترك الذي غايته التجلّد ومنتهاه الفخر؛ فهذا يصدرُ من البرّ والفاجر والمؤمن والكافر؛ فليس هو الممدوح على الحقيقة. ﴿وأقاموا الصّلاة﴾: بأركانها وشروطها ومكملاتها ظاهراً وباطناً. ﴿وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية﴾: دخل في ذلك النفقات الواجبة كالزكوات والكفارات والنفقات<sup>(١)</sup> المستحبة، وأنهم ينفقون حيث دعت الحاجة إلى النفقة سراً وعلانية. ﴿ويدروونّ بالحسنة السيئة﴾؛ أي: من أساء إليهم بقول أو فعل؛ لم يقابلوه بفعله، بل قابلوه بالإحسان إليه، فيعطون من حرّمهم، ويعفون عمّن ظلّمهم، ويصلون من قطعهم، ويحسنون إلى من أساء إليهم، وإذا كانوا يقابلون المسيء بالإحسان؛ فما ظنك بغير المسيء. ﴿أولئك﴾: الذين وُصِفَتْ صفاتهم الجليلة ومناقبهم الجميلة؛ ﴿لهم عُقبى الدار﴾.

﴿٢٣ - ٢٤﴾ فسرها بقوله: ﴿جنات عدن﴾؛ أي: إقامة لا يزولون عنها ولا يبغون عنها جِوْلاً؛ لأنهم لا يرون فوقها غاية؛ لما اشتملت عليه من النعيم والسرور، الذي تنتهي إليه المطالب والغايات، ومن تمام نعيمهم وقرة أعينهم أنّهم ﴿يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذريّاتهم﴾: من الذكور والإناث وأزواجهم؛ أي: الزوج أو الزوجة، وكذلك النظراء والأشباه والأصحاب والأحباب؛ فإنّهم من أزواجهم وذريّاتهم. ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كلّ باب﴾: يهنونهم بالسلامة وكرامة الله لهم، ويقولون: ﴿سلام عليكم﴾؛ أي: حلّت عليكم السلامة والتحية من الله وحصلت لكم، وذلك متضمّن لزال كلّ مكروه ومستلزم لحصول كل محبوب ﴿بما صبرتم﴾؛ أي: صبركم هو الذي أوصلكم إلى هذه المنازل العالية والجنان الغالية. ﴿فنعم عُقبى الدار﴾: فحقيق بمن نصح نفسه، وكان لها عنده قيمة أن يجاهدّها لعلّها تأخذ من أوصاف أولي الألباب بنصيب،

(١) في النسختين: «والنفقات» مكرّرة مرتين.

ولعلها تحظى بهذه الدار التي هي مُنيّة النفوس وسرور الأرواح الجامعة لجميع اللذات والأفراح؛ فلمثلها فليعمل العاملون، وفيها فليتنافس المتنافسون.

﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ .

﴿٢٥﴾ لما ذكر حال أهل الجنة؛ ذكر أنّ أهل النار بعكس ما وصفهم به، فقال عنهم: ﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه﴾؛ أي: من بعدما أكدّه عليهم على أيدي رسله وغلظ عليهم، فلم يقابلوه بالانقياد والتسليم، بل قابلوه بالإعراض والنقض. ﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾: فلم يصلوا ما بينهم وبين ربهم بالإيمان والعمل الصالح، ولا وصلوا الأرحام، ولا أدوا الحقوق، بل أفسدوا في الأرض بالكفر والمعاصي والصد عن سبيل الله وابتغائها عوجاً. ﴿أولئك لهم اللعنة﴾؛ أي: البعد والذم من الله وملائكته وعباده المؤمنين. ﴿ولهم سوء الدار﴾: وهي الجحيم بما فيها من العذاب الأليم.

﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾﴾ .

﴿٢٦﴾ أي: هو وحده يوسع الرزق ويبسطه على من يشاء ويقدره ويضيقه على من يشاء. ﴿وفرحوا﴾؛ أي: الكفار ﴿بالحياة الدنيا﴾: فرحاً أوجب لهم أن يطمثوا بها ويغفلوا عن الآخرة، وذلك لنقصان عقولهم. ﴿وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع﴾؛ أي: شيء حقير يتمتع به قليلاً ويفارق أهله وأصحابه ويُعقبهم وياً طويلاً.

﴿وَقَوْلِ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾  
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا تَبَيَّنَ ﴿٢٩﴾﴾ .

﴿٢٧﴾ يخبر تعالى أنّ الذين كفروا بآيات الله يتعتنون على رسول الله ويقترحون ويقولون: ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾: وبزعمهم أنها لو جاءت لآمنوا، فأجابهم الله بقوله: ﴿قل إنّ الله يضلّ من يشاء ويهدي إليه من أناب﴾؛ أي: طلب رضوانه، فليست الهداية والضلال بأيديهم حتى يجعلوا ذلك متوقفاً على الآيات، ومع ذلك؛ فهم كاذبون ف﴿لو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحسبنا عليهم كلّ شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون﴾.

ولا يلزمُ أن يأتي الرسولُ بالآية التي يعينونها ويقترحونها، بل إذا جاءهم بآية تبيِّنُ ما جاء به من الحقِّ؛ كفى ذلك وحصل المقصودُ وكان أنفع لهم من طلبهم الآيات التي يعينونها؛ فإنها لو جاءتهم طَبَقَ ما اقترحوا، فلم يؤمنوا بها؛ لعاجلهم العذاب.

﴿٢٨﴾ ثم ذكر تعالى علامة المؤمنين، فقال: ﴿الذين آمنوا وتطمئنُّ قلوبهم بذكر الله﴾؛ أي: يزول قلقها واضطرابها، وتحضرها أفراسها ولذاتها. ﴿ألا بذكر الله تطمئنُّ القلوب﴾؛ أي: حقيق بها وحرِّيُّ أن لا تطمئنُّ لشيءٍ سوى ذكره؛ فإنه لا شيء ألدُّ للقلوب ولا أشهى ولا أحلى من محبة خالقها والأنس به ومعرفته، وعلى قدر معرفتها بالله ومحبتها له يكون ذكُّها له، هذا على القول بأن ذكر الله ذكُّ العبد لربه من تسبيح وتهليل وتكبير وغير ذلك، وقيل: إن المراد بذكر الله كتابه الذي أنزله ذكرى للمؤمنين؛ فعلى هذا معنى طمأنينة القلب بذكر الله أنها حين تعرف معاني القرآن وأحكامه تطمئنُّ لها؛ فإنها تدل على الحق المبين المؤيد بالأدلة والبراهين، وبذلك تطمئنُّ القلوب؛ فإنها لا تطمئنُّ إلا باليقين والعلم، وذلك في كتاب الله مضمونٌ على أتم الوجوه وأكملها، وأما ما سواه من الكتب التي لا ترجع إليه؛ فلا تطمئنُّ بها، بل لا تزال قلقةً من تعارض الأدلة وتضاد الأحكام، ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾، وهذا إنما يعرفه من خبر كتاب الله، وتدبره، وتدبر غيره من أنواع العلوم؛ فإنه يجد بينها وبينه فرقاً عظيماً.

﴿٢٩﴾ ثم قال تعالى: ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾؛ أي: آمنوا بقلوبهم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وصدَّقوا هذا الإيمان بالأعمال الصالحة؛ أعمال القلوب كمحبة الله وخشيته ورجائه، وأعمال الجوارح كالصلاة ونحوها. ﴿طوبى لهم وحسن مآب﴾؛ أي: لهم حالة طيبة ومرجع حسن، وذلك بما ينالون من رضوان الله وكرامته في الدنيا والآخرة، وإن لهم كمال الراحة وتمام الطمأنينة، ومن جملة ذلك شجرة طوبى التي في الجنة، التي يسير الراكب في ظلها مائة عام ما يقطعها؛ كما وردت بها الأحاديث الصحيحة<sup>(١)</sup>.

﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِيَتَلَّوْا عَلَيْهَا الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ

(١) رواية: أن طوبى شجرة في الجنة مسيرة مائة عام عند الإمام أحمد (٧١/٣)، وأبي يعلى (١٣٧٤)، وابن حبان (٧٤١٣)، وقد جاء الحديث عند البخاري (٤٨٨١)، ومسلم (٢٨٢٦) وغيرهما دون ذكر اسم الشجرة (طوبى)، وانظر «الصحيحة» (١٩٨٥). والله أعلم.



يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ .

﴿٣٠﴾ يقول تعالى لنبية محمد ﷺ: ﴿كذلك أرسلناك﴾: إلى قومك تدعوهم إلى الهدى، ﴿قد خلّت من قبلها أمم﴾: أرسلنا فيهم رسلنا، فلست ببدع من الرسل حتى يستنكروا رسالتك، ولست تقول من تلقاء نفسك، بل تتلو عليهم آيات الله، التي أوحاها الله إليك، التي تطهر القلوب وتركي النفوس، والحال أنّ قومك يكفرون بالرحمن، فلم يقابلوا رحمته وإحسانه - التي أعظمها أن أرسلناك إليهم رسولاً وأنزلنا عليك كتاباً - بالقبول والشكر، بل قابلوها بالإنكار والرد؛ أفلا يعتبرون بمنّ خلا من قبلهم من القرون المكذبة كيف أخذهم الله بذنوبهم؟ ﴿قل هو ربّي لا إله إلا هو﴾: وهذا متضمّن [للتوحيدين]: توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية؛ فهو ربي الذي ربّاني بنعمه منذ أوجدني، وهو إلهي الذي ﴿عليه توكلت﴾ في جميع أموري وإليه أنيب<sup>(١)</sup>؛ أي: أرجع في جميع عباداتي وفي حاجاتي.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُفِّرَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِئِصَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ .

﴿٣١﴾ يقول تعالى مبيناً فضل القرآن الكريم على سائر الكتب المنزلة: ﴿ولو أنّ قرآنًا﴾: من الكتب الإلهية، ﴿سُيِّرَتْ به الجبال﴾: عن أماكنها، و﴿قُطِعَتْ به الأرض﴾: جناناً وأنهاراً، و﴿كُفِّرَ به الموتى﴾: لكان هذا القرآن. ﴿بل لله الأمر جميعاً﴾: فيأتي بالآيات التي تقتضيها حكمته؛ فما بال المكذبين يقترحون من الآيات ما يقترحون؟! فهل لهم ولغيرهم من الأمر شيء؟! ﴿أفلم يئأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً﴾: فليعلموا أنّه قادرٌ على هدايتهم جميعاً، ولكنّه لا يشاء ذلك، بل يهدي من يشاء ويضلّ من يشاء. ﴿ولا يزال الذين كفروا﴾: على كفرهم لا يعتبرون ولا يتعظون، والله تعالى يوالي عليهم القوارع التي تصيبهم في ديارهم أو تحلّ قريباً منها وهم مصرّون على كفرهم. ﴿حتى يأتي وعد الله﴾: الذي وعدّهم به لنزول العذاب المتصل الذي لا يمكن رفعه. ﴿إنّ الله

(١) كذا في النسختين وتمام الآية: ﴿وإليه متاب﴾.

لا يَخْلِفُ الميعادُ ﴿٣٢﴾: وهذا تهديدٌ لهم وتخويفٌ من نزول ما وعدهم الله به على كفرهم وعنادهم وظلمهم.

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿٣٢﴾ يقول تعالى لرسوله مثبِّتاً له ومسلماً: ﴿ولقد استهزىء برسول من قبلك﴾: فلست أول رسول كُذِّبَ وأُوذِيَ. ﴿فأمليتُ للذين كفروا﴾: برسلمهم؛ أي: أمهلتهم مدة حتى ظنوا أنهم غيرُ معذبين، ﴿ثم أخذتهم﴾: بأنواع العذاب. ﴿فكيف كان عقاب﴾: كان عقاباً شديداً وعذاباً أليماً؛ فلا يَغْتَرُّ هؤلاء الذين كذبوك واستهزؤوا بك بامهالنا؛ فلهم أسوةٌ فيمن قبلهم من الأمم، فليحذروا أن يفعلَ بهم كما فعلَ بأولئك.

﴿أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُل سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَبْظَهَرُ مِنْ الْقَوْلِ بَل زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾ هُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَّاقٍ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿٣٣﴾ يقول تعالى: ﴿أفمن هو قائمٌ على كلِّ نفسٍ بما كسبت﴾: بالجزاء العاجل والآجل، بالعدل والقسط، وهو الله تبارك وتعالى؛ كمن ليس كذلك. ولهذا قال: ﴿وجعلوا لله شركاء﴾: وهو الله الأحد الفرد الصمد الذي لا شريك له ولا ندٌّ ولا نظير. ﴿قل﴾: لهم إن كانوا صادقين: ﴿سموهم﴾: لتعلم حالهم. ﴿أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض﴾: فإنه إذا كان عالم الغيب والشهادة، وهو لا يعلم له شريكاً؛ علمٌ بذلك بطلان دعوى الشريك له، وأنكم بمنزلة الذي يُعلم الله أن له شريكاً وهو لا يعلمه، وهذا أبطل ما يكون! ولهذا قال: ﴿أم بظاهر من القول﴾؛ أي: غاية ما يمكن من دعوى الشريك له تعالى أنه بظاهر أقوالكم، وأما في الحقيقة؛ فلا إله إلا الله، وليس أحدٌ من الخلق يستحقُّ شيئاً من العبادة. ولكن ﴿زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ﴾: الذي مكروهه، وهو كفرهم وشركهم وتكذيبهم لآيات الله. ﴿وصدُّوا عن السبيل﴾؛ أي: عن الطريق المستقيمة الموصلة إلى الله وإلى دار كرامته. ﴿ومن يضلِّلِ الله فما له من هادٍ﴾: لأنه ليس لأحدٍ من الأمر شيء.

﴿٣٤﴾ ﴿لهم عذابٌ في الحياة الدنيا ولعذابُ الآخرة أشقُّ﴾: من عذاب الدنيا؛

لشدته ودوامه. ﴿وما لهم من الله من واقٍ﴾: يقيهم من عذاب [الله]؛ فعذابه إذا وجه إليهم لا مانع منه.

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿٣٥﴾ يقول تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾: الذين تركوا ما نهاهم الله عنه، ولم يقصروا فيما أمرهم به؛ أي: صفتها وحقيقتها، ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾: أنهار العسل وأنهار الخمر وأنهار اللبن وأنهار الماء التي تجري في غير أخدود، فتسقي تلك البساتين والأشجار، فتحمل جميع أنواع الثمار. ﴿أكلها دائم وظلها﴾: دائم أيضاً. ﴿تلك عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾؛ أي: عاقبتهم ومآلهم التي إليها يصيرون. ﴿وعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾: فكم بين الفريقين من الفرق المبين؟

﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابٌ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿٣٦﴾ يقول تعالى: ﴿والذين آتيناهم الكتاب﴾؛ أي: منّا عليهم به وبمعرفته، ﴿يفرحون بما أنزل إليك﴾: فيؤمنون به ويصدقونه ويفرحون بموافقة الكتاب بعضها لبعض وتصديق بعضها بعضاً، وهذه حال من آمن من أهل الكتابين. ﴿ومن الأحزاب من ينكِرُ بعضه﴾؛ أي: ومن طوائف الكفار المتحريين على الحق من ينكر بعض هذا القرآن ولا يصدقه؛ فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل؛ فإنما يضل عليها، إنما أنت يا محمد منذرٌ تدعو إلى الله. ﴿قل إنما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾؛ أي: بإخلاص الدين لله وحده. ﴿إليه أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَابٌ﴾؛ أي: مرجعي الذي أرجع به إليه، فيجازيني بما قمتُ به من الدعوة إلى دينه والقيام بما أمرت به.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿٣٧﴾ أي: ولقد أنزلنا هذا القرآن والكتاب ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾؛ أي: محكماً متقناً بأوضح الألسنة وأفصح اللغات؛ لئلا يقع فيه شكٌ واشتباة، وليوجب أن يتبع وحده ولا يُداهن فيه ولا يتبع ما يضاؤه ويناقضه من أهواء الذين لا يعلمون، ولهذا توعد رسوله - مع أنه معصومٌ - ليمتنن عليه بعصمته، ولتكون أمته أسوته في الأحكام،

فقال: ﴿ولئن أتبعْت أهواءهم بعدما جاءك من العلم﴾: البيّن، الذي ينهاك عن اتّباع أهوائهم. ﴿ما لك من الله من ولي﴾: يتولّك فيحصل لك الأمر المحبوب. ﴿ولا واق﴾: يقيقك من الأمر المكروه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿٣٨﴾ أي: لست أول رسول أرسل إلى الناس حتى يستغربوا رسالتك. فقد ﴿أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذريةً﴾: فلا يعيبك أعداؤك بأن يكون لك أزواج وذرية كما كان لإخوانك المرسلين؛ فلائي شيء يقدحون فيك بذلك وهم يعلمون أن الرسل قبلك كذلك إلا لأجل أغراضهم الفاسدة وأهوائهم، وإن طلبوا منك آية اقترحوها؛ فليس لك من الأمر شيء. فما ﴿كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله﴾: والله لا يأذن فيها إلا في وقتها الذي قدره وقضاه. ﴿لكل أجل كتاب﴾: لا يتقدم عليه ولا يتأخر عنه، فليس استعجالهم بالآيات أو بالعذاب موجباً لأن يقدم الله ما كتب أنه يؤخر، مع أنه تعالى فعّال لما يريد.

﴿٣٩﴾ ﴿يمحو الله ما يشاء﴾: من الأقدار، ﴿ويثبت﴾: ما يشاء منها، وهذا المحو والتغيير في غير ما سبق به علمه وكتبه قلّمه؛ فإن هذا لا يقع فيه تبديل ولا تغيير؛ لأن ذلك محال على الله أن يقع في علمه نقص أو خلل، ولهذا قال: ﴿وعنده أم الكتاب﴾؛ أي: اللوح المحفوظ الذي ترجع إليه سائر الأشياء؛ فهو أصلها، وهي فروع [له] وشعب؛ فالتغيير والتبديل يقع في الفروع والشعب؛ كأعمال اليوم والليلة التي تكتبها الملائكة ويجعل الله لثبوتها أسباباً ولمحوها أسباباً، لا تتعدى تلك الأسباب ما رُسم في اللوح المحفوظ؛ كما جعل الله البرّ والصلة والإحسان من أسباب طول العمر وسعة الرزق، وكما جعل المعاصي سبباً لمحق بركة الرزق والعمر، وكما جعل أسباب النجاة من المهالك والمعاطب سبباً للسلامة، وجعل التعرّض لذلك سبباً للعطب؛ فهو الذي يدبّر الأمور بحسب قدرته وإرادته، وما يدبّره منها لا يخالف ما قد علمه وكتبه في اللوح المحفوظ.

﴿وَإِنْ مَا نُزِّلْنَاكَ بَعْضَ الَّذِي نَعُدُّهُمْ أَرْ تَوَفَّيْنَاكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾.

﴿٤٠﴾ يقول تعالى لنبئه محمد ﷺ: لا تعجل عليهم بإصابة ما يوعدون [به] من

العذاب؛ فهم إن استمروا على طغيانهم وكفرهم؛ فلا بد أن يصيبهم ما وعدوا به: إما أن نريتك إياه في الدنيا فتقر بذلك عينك، أو نوقيتك قبل إصابتهم؛ فليس ذلك شغلاً لك. ﴿فإنما عليك البلاغ﴾: والتبيين للخلق، ﴿وعلينا الحساب﴾: فنحاسب الخلق على ما قاموا به مما عليهم وضيعوه، ونشيبهم أو نعاقبهم.

﴿٤١﴾ ثم قال متوعداً للمكذبين: ﴿أو لم يروا أننا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾: قيل: بإهلاك المكذبين واستئصال الظالمين، وقيل: بفتح بلدان المشركين ونقصهم في أموالهم وأبدانهم، وقيل غير ذلك من الأقوال. والظاهر - والله أعلم - أن المراد بذلك أن أراضي هؤلاء المكذبين جعل الله يفتحها ويجتاحها ويحلل القوارع بأطرافها تنبيهاً لهم قبل أن يجتاحهم النقص ويوقع الله بهم من القوارع ما لا يردُّه أحد، ولهذا قال: ﴿والله يحكم لا معقب لحكمه﴾: ويدخل في هذا حكمه الشرعي والقدري والجزائي؛ فهذه الأحكام التي يحكم الله فيها توجد في غاية الحكمة والإتقان، لا خلل فيها ولا نقص، بل هي مبنية على القسط والعدل والحمد؛ فلا يتعقبها أحد، ولا سبيل إلى القدح فيها؛ بخلاف حكم غيره؛ فإنه قد يوافق الصواب وقد لا يوافقه. ﴿وهو سريع الحساب﴾؛ أي: فلا يستعجلوا بالعذاب؛ فإن كل ما هو آت فهو قريب.

﴿وقد مكر الذين من قبلهم فله المكر جميعاً يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكفر لمن عقى الدار﴾ (٤٢) ويقول الذين كفروا لست مرسلًا قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب (٤٣).

﴿٤٢﴾ يقول تعالى: ﴿وقد مكر الذين من قبلهم﴾: برسلمهم وبالحق الذي جاءت به الرسل، فلم يُغن عنهم مكرهم، ولم يصنعوا شيئاً؛ فإنهم يحاربون الله وبيارزونه. ﴿فله المكر جميعاً﴾؛ أي: لا يقدر أحد أن يمكر مكرًا إلا بإذنه وتحت قضائه وقدره؛ فإذا كانوا يمكرون بدينه؛ فإن مكرهم سيعود عليهم بالخيبة والندم؛ فإن الله يعلم ما تكسب كل نفس؛ أي: همومها وإراداتها وأعمالها الظاهرة والباطنة، والمكر لا بد أن يكون من كسبها؛ فلا يخفى على الله مكرهم، فيمتنع أن يمكروا مكرًا يضر الحق وأهله ويفيدهم شيئاً. ﴿وسيعلم الكفار لمن عقى الدار﴾؛ أي: ألهم أو لرسوله؟ ومن المعلوم أن العاقبة للمتقين للكفر، وأعماله.

﴿٤٣﴾ ويقول الذين كفروا لست مرسلًا؛ أي: يكذبونك ويكذبون ما أرسلت

به. ﴿قل﴾ لهم إن طلبوا على ذلك شهيداً: ﴿كفى بالله شهيداً بيني وبينكم﴾: وشهادته بقوله وبفعله وإقراره: أما قوله؛ فيما أوحاه الله إلى أصدق خلقه مما يُثبِتُ به رسالته. وأما فعله؛ فلأنَّ الله تعالى أيد رسوله ونصره نصراً خارجاً عن قدرته وقدرة أصحابه وأتباعه، وهذا شهادةٌ منه له بالفعل والتأييد، وأما إقراره؛ فإنه أخبر الرسول عنه أنه رسول<sup>(١)</sup>، وأنه أمر الناس باتباعه؛ فمن اتَّبعه؛ فله رضوانُ الله وكرامته، ومن لم يتَّبعه؛ فله النار والسخط، وحلٌّ له ماله ودمه، والله يقرُّه على ذلك؛ فلو تقول عليه بعض الأقاويل؛ لعاجله بالعقوبة.

﴿ومَنْ عنده علمُ الكتاب﴾: وهذا شاملٌ لكلِّ علماء أهل الكتابين؛ فإنهم يشهدون للرسول، من آمن وأتبع الحقَّ، صرَّح بتلك الشهادة التي عليه، ومن كتم ذلك؛ فأخبار الله عنه أنَّ عنده شهادةٌ أبلغ من خبره، ولو لم يكن عنده شهادةٌ؛ لردَّ استشهاد بالبرهان؛ فسكوته يدلُّ على أن عنده شهادةٌ مكتومةٌ، وإنما أمر الله باستشهاد أهل الكتاب لأنهم أهل هذا الشأن، وكلُّ أمرٍ إنما يُستشهد فيه أهله ومن هم أعلم به من غيرهم؛ بخلاف مَنْ هو أجنبيٌّ عنه؛ كالأميين من مشركي العرب وغيرهم؛ فلا فائدة في استشهادهم؛ لعدم خبرتهم ومعرفتهم. والله أعلم.

تم تفسير سورة الرعد.

والحمد لله رب العالمين.

## تفسير سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ كَتَبْتُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾.

(١) في (ب): «رسوله».

﴿١ - ٢﴾ يخبر تعالى أنه أنزل كتابه على رسوله محمد ﷺ؛ لنفع الخلق؛ ليخرج الناس من ظلمات الجهل والكفر والأخلاق السيئة وأنواع المعاصي إلى نور العلم والإيمان والأخلاق الحسنة. وقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: لا يحصل منهم المراد المحبوب لله إلا بإرادة من الله ومعونه؛ ففيه حثٌ للعباد على الاستعانة بربهم. ثم فسّر النور الذي يهديهم إليه هذا الكتاب، فقال: ﴿إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾؛ أي: الموصل إليه وإلى دار كرامته، المشتمل على العلم بالحق والعمل به. وفي ذكر العزيز الحميد بعد ذكر الصراط الموصل إليه إشارة إلى أن مَنْ سَلَكَه؛ فهو عزيزٌ بعزُّ الله، قويٌّ ولو لم يكن له أنصار إلا الله، محمودٌ في أموره، حسن العاقبة، وليدلُّ ذلك على أن صراطَ الله من أكبر الأدلة على ما لله من صفات الكمال ونعوت الجلال، وأن الذي نصبه لعباده عزيزُ السلطان حميدٌ في أقواله وأفعاله وأحكامه، وأنه مألوفٌ معبودٌ بالعبادات التي هي منازل الصراط المستقيم، وأنه كما أن له ملك السماوات والأرض خلقاً ورزقاً وتدبيراً؛ فله الحكم على عباده بأحكامه الدينية؛ لأنهم ملكه، ولا يليق به أن يتركهم سدى. فلما بيّن الدليل والبرهان؛ توعد مَنْ لم يَتَّقْ ذلك، فقال: ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾: لا يقدر قدره، ولا يوصف أمره.

﴿٣﴾ ثم وصفهم بأنهم الذين استحبوا ﴿الحياة الدنيا على الآخرة﴾: فرضوا بها واطمأنوا وغفلوا عن الدار الآخرة. ﴿ويصدون﴾ الناس ﴿عن سبيل الله﴾: التي نصبها لعباده وبيّنها في كتبه وعلى السنة رسله؛ فهؤلاء قد نابذوا مولاهم بالمعاداة والمحاربة. ﴿ويبغونها﴾؛ أي: سبيل الله ﴿عوجاً﴾؛ أي: يحرصون على تهجينها وتقبيحها للتنفير عنها، ولكن يأبى الله إلا أن يُتِمَّ نوره ولو كره الكافرون. ﴿أولئك﴾: الذين ذُكِرَ وصفهم ﴿في ضلال بعيد﴾: لأنهم ضلُّوا وأضلُّوا وشاقوا الله ورسولَهُ وحاربهما؛ فأبى ضلال أبعد من هذا؟! وأما أهل الإيمان؛ فبعكس هؤلاء؛ يؤمنون بالله وآياته، ويستحبون الآخرة على الدنيا، ويدعون إلى سبيل الله، ويحسنونها مهما أمكنهم، ويبينون استقامتها.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿٤﴾ وهذا من لطفه بعباده أنه ما أرسل رسولاً إلا بلسان قومه؛ لبيّن لهم ما يحتاجون إليه، ويتمكنون من تعلّم ما أتى به، بخلاف ما لو أتى على غير لسانهم؛

فإنهم يحتاجون إلى تعلم<sup>(١)</sup> تلك اللغة التي يتكلم بها، ثم يفهمون عنه. فإذا بين [لهم] الرسول ما أمروا به ونهوا عنه وقامت عليهم حجة الله؛ ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ﴾: ممن لم ينقذ للهدى، ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾: ممن اختصه برحمته. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: الذي من عزته أنه انفرد بالهداية والإضلال وتقليب القلوب إلى ما شاء، ومن حكمته أنه لا يضع هدايته ولا إضلاله إلا بالمحل اللائق به.

ويستدل بهذه الآية الكريمة على أن علوم العربية الموصلة إلى تبين كلامه وكلام رسوله أمورٌ مطلوبةٌ محبوبةٌ لله؛ لأنه لا يتم معرفة ما أنزل على رسوله إلا بها، إلا إذا كان الناس في حالة<sup>(٢)</sup> لا يحتاجون إليها، وذلك إذا تمرنوا على العربية، ونشأ عليها صغيرهم، وصار طبيعة لهم؛ فحينئذ قد اكتفوا المؤنة، وصلحوا على أن<sup>(٣)</sup> يتلقوا عن الله وعن رسوله ابتداءً، كما تلقى عنهم الصحابة رضي الله عنهم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَخْرَجْتُمْ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدَّبُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ لِّمَنْ رَزَقْنَاهُ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّتْ رِجْسُكُمْ وَلِيْنٌ شَكَرْتُمْ لِأَزِيدَنَّكُمْ وَلِيْنٌ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَعَنُوكُمْ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾.

﴿٥﴾ يخبر تعالى أنه أرسل موسى بآياته العظيمة الدالة على صدق ما جاء به وصحته، وأمره بما أمر الله به رسوله محمداً ﷺ، بل وبما أمر به جميع الرسل قومهم: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾؛ أي: ظلمات الجهل والكفر وفروعه إلى نور العلم والإيمان وتوابعه. ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا﴾؛ أي: بنعمه عليهم وإحسانه إليهم، وبآيأته في الأمم المكذبين ووقائعه بالكافرين؛ ليشكروا نعمه وليحذروا عقابه. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾؛ أي: في أيام الله على العباد، ﴿لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾؛ أي: صبار في الضراء والعسر والضيق، شكور على السراء والنعمة؛ فإنه يستدل بآيأته على كمال قدرته وعميم إحسانه وتمام عدله وحكمته.

(٢) في (ب): «بحالة».

(١) في (ب): «إلى أن يتعلموا».

(٣) في (ب): «وصلحوا لأن».



﴿٦﴾ ولهذا امثل موسى عليه السلام أمر ربّه، فذكّرهم نعم الله، فقال: ﴿اذكروا نعمة الله عليكم﴾؛ أي: بقلوبكم وألستكم، ﴿إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم﴾؛ أي: يؤلونكم، ﴿سوء العذاب﴾؛ أي: أشده. وفسّر ذلك بقوله: ﴿ويذبّحون أبناءكم ويستخيون نساءكم﴾؛ أي: يبقونهنّ فلا يقتلونهنّ. ﴿وفي ذلكم﴾: الانجاء ﴿بلاء من ربكم عظيم﴾؛ أي: نعمة عظيمة، أو وفي ذلكم العذاب الذي ابتليتم به من فرعون وملئه ابتلاء من الله عظيم لكم لينظر هل تصبرون أم لا.

﴿٧﴾ وقال لهم حاثًا على شكر نعم الله: ﴿وإذ تأذن ربكم﴾؛ أي: أعلم ووعد، ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾: من نعمي، ﴿ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾: ومن ذلك أن يزيل عنهم النعمة التي أنعم بها عليهم. والشكر: هو اعتراف القلب بنعم الله، والثناء على الله بها، وصرّفها في مرضاة الله تعالى. وكفر النعمة ضد ذلك.

﴿٨﴾ ﴿وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً﴾: فلن تضروا الله شيئاً، فإن الله غنيّ حميدٌ، فالطاعات لا تزيد في ملكه، والمعاصي لا تنقصه، وهو كامل الغنى، حميدٌ في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، ليس له من الصفات إلا كل صفة حميدٍ وكمال، ولا من الأسماء إلا كل اسم حسن، ولا من الأفعال إلا كل فعل جميل.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا دَعَوْتَنَا إِلَيْهِ مُرْسِبٍ ﴿١﴾ ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أِنِّي إِلَهُ شَكٌّ فَأَطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنْ يُغْفِرَ اللَّهُ عَنْ قَوْمٍ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾

﴿٩﴾ يقول تعالى مخوفاً عباده ما أحله بالأمم المكذبة حين جاءتهم الرسل فكذبوهم، فعاقبهم بالعقاب العاجل الذي رآه الناس وسمعوه، فقال: ﴿الم يأتكم نبا الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود﴾: وقد ذكر الله قصصهم في كتابه وبسطها. ﴿والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله﴾: من كثرتهم وكون أخبارهم اندرست؛ فهؤلاء كلهم ﴿جاءتهم رسلهم بالبينات﴾؛ أي: بالأدلة الدالة على صدق ما جاؤوا به، فلم يرسل الله رسولا إلا آتاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر؛ فحين أتتهم رسلهم بالبينات؛ لم يتقادوا لها، بل استكبروا عنها، ﴿فردوا أيديهم في أفواههم﴾؛ أي: لم يؤمنوا بما جاؤوا به، ولم يتفوهوا بشيء مما يدل على الإيمان؛ كقوله: ﴿جعلوا أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت﴾. ﴿وقالوا﴾ صريحا لرسولهم: ﴿إننا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب﴾؛ أي: موقع في الريبة.

﴿١٠﴾ وقد كذبوا في ذلك وظلموا، ولهذا ﴿قالت﴾ لهم ﴿رسلهم أفي الله شك﴾؛ أي: فإنه أظهر الأشياء وأجلاها؛ فمن شك في الله ﴿فاطر السموات والأرض﴾: الذي وجود الأشياء مستند إلى وجوده؛ لم يكن عنده ثقة بشيء من المعلومات، حتى الأمور المحسوسة. ولهذا خاطبتهم الرسل خطاب من لا يشك فيه، ولا يصلح الريب فيه. ﴿يدعوكم﴾: إلى منافعكم ومصالحكم، ﴿ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى﴾؛ أي: ليثيبكم على الاستجابة لدعوته بالثواب العاجل والآجل، فلم يدعكم لينتفع بعبادتكم، بل النفع عائد إليكم. فردوا على رسولهم رد السفهاء الجاهلين، ﴿وقالوا﴾ لهم: ﴿إن أنتم إلا بشر مثلنا﴾؛ أي: فكيف تفضلوننا بالنبوة والرسالة؟ ﴿تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا﴾: فكيف نترك رأي الآباء وسيرتهم لرأيكم؟! وكيف نطيعكم وأنتم بشر مثلنا؟! ﴿فأتونا بسلطان مبين﴾؛ أي: بحجة وبينة ظاهرة، ومرادهم بينة يقترحونها هم، وإلا؛ فقد تقدم أن رسولهم جاءتهم بالبينات.

﴿١١﴾ ﴿قالت لهم رسلهم﴾ مجيبين لاقتراحهم<sup>(١)</sup> واعتراضهم: ﴿إن نحن إلا بشر مثلكم﴾؛ أي: صحيح وحقيقة أننا بشر مثلكم. ﴿ولكن﴾ ليس في ذلك ما يدفع ما جئنا به من الحق؛ فإن ﴿الله يمتن على من يشاء من عباده﴾؛ فإذا من الله علينا بوحيه ورسالته؛ فذلك فضله وإحسانه، وليس لأحد أن يخجر على الله فضله

(١) في (ب): «عن اقتراحهم».

ويمنعه من تفضله؛ فانظروا ما جئناكم به؛ فإن كان حقاً؛ فاقبلوه، وإن كان غير ذلك؛ فردوه، ولا تجعلوا حالنا حجة لكم على رد ما جئناكم به، وقولكم: ﴿فائتونا بسطانٍ مبین﴾، فإن هذا ليس بأيدينا وليس لنا من الأمر شيء. ﴿وما كان لنا أن نأتیکم بسطانٍ إلا بإذن الله﴾: فهو الذي إن شاء جاءكم به وإن شاء لم يأتكم به، وهو لا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته ورحمته. ﴿وعلى الله﴾: لا على غيره، ﴿فليتوكل المؤمنون﴾: فيعتمدون عليه في جلب مصالحهم ودفْع مضارهم؛ لعلمهم بتمام كفايته وكمال قدرته وعميم إحسانه، ويثقون به في تيسير ذلك، وبحسب ما معهم من الإيمان يكون توكلهم. فَعلم بهذا وجوب التوكل وأنه من لوازم الإيمان ومن العبادات الكبار التي يحبها الله ويرضاها لتوقف سائر العبادات عليه.

﴿١٢﴾ ﴿وما لنا أن لا نتوكل على الله وقد هدانا سُبُلنا﴾؛ أي: أي شيء يمنعنا من التوكل على الله والحال أننا على الحق والهدى، ومن كان على الحق والهدى؛ فإن هداه يوجب له تمام التوكل، وكذلك ما يُعَلِّمُ من أن الله متكفل بمعونة المهتدي وكفايته، يدعو إلى ذلك؛ بخلاف من لم يكن على الحق والهدى؛ فإنه ليس ضامناً على الله؛ فإن حاله مناقضة لحال المتوكل؟! وفي هذا كالأشارة من الرسل عليهم الصلاة والسلام لقومهم بآية عظيمة، وهو أن قومهم في الغالب أن لهم القهر والغلبة عليهم، فتحدتتهم رسلهم بأنهم متوكلون على الله في دفع كيدهم ومكرهم، وجازمون بكفايته إياهم، وقد كفاهم الله شرهم مع حرصهم على إتلافهم وإطفاء ما معهم من الحق، فيكون هذا كقول نوح لقومه: ﴿يا قوم إن كان كِبَرٌ عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة ثم اقصوا إليّ ولا تُنظرون...﴾ الآيات، وقول هود عليه السلام: ﴿قال إنني أشهد الله وأشهدوا أنني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تُنظرون﴾. ﴿ولنضبرن على ما آذيتُمونا﴾: ولنستمرن على دعوتكم ووعظكم وتذكيركم، ولا نبالي بما يأتينا منكم من الأذى؛ فإننا سنوطن أنفسنا على ما ينالنا منكم من الأذى؛ احتساباً للأجر ونصحاً لكم، لعل الله أن يهديكم مع كثرة التذكير. ﴿وعلى الله﴾: وحده لا على غيره، ﴿فليتوكل المتوكلون﴾: فإن التوكل عليه مفتاح لكل خير.

واعلم أن الرسل عليهم الصلاة والسلام توكلهم في أعلى المطالب وأشرف

المراتب، وهي التوكل على الله في إقامة دينه ونصره وهداية عبيده وإزالة الضلال عنهم. وهذا أكمل ما يكون من التوكل.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِنْ رَبِّهِ جَهَنَّمَ وَنُسِفَ مِنْ مَاءٍ صَٰدِقٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ رَبِّهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾ .

﴿١٣﴾ لما ذكر دعوة الرسل لقومهم ودوامهم على ذلك وعدم مللهم؛ ذكر منتهى ما وصلت بهم الحال مع قومهم، فقال: ﴿وقال الذين كفروا لرسولهم﴾: متوعدين لهم: ﴿لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا﴾: وهذا أبلغ ما يكون من الرد، وليس بعد هذا فيهم مطمع؛ لأنه ما كفاهم أن أعرضوا عن الهدى، بل توعدوهم بالإخراج من ديارهم، ونسبوا إلى أنفسهم، وزعموا أن الرسل لا حق لهم فيها، وهذا من أعظم الظلم؛ فإن الله أخرج عباده إلى الأرض، وأمرهم بعبادته، وسخر لهم الأرض وما عليها يستعينون بها على عبادته؛ فمن استعان بذلك على عبادة الله؛ حل له ذلك وخرج من التبعة، ومن استعان بذلك على الكفر وأنواع المعاصي؛ لم يكن ذلك خالصاً له ولم يحل له، فعلم أن أعداء الرسل في الحقيقة ليس لهم شيء من الأرض التي توعدوا الرسل بإخراجهم منها. وإن رجعنا إلى مجرد العادة؛ فإن الرسل من جملة أهل بلادهم وأفراد منهم؛ فلا شيء يمنعهم حقاً لهم صريحاً واضحاً؟! هل هذا إلا من عدم الدين والمروءة بالكلية؟! ولهذا لما انتهى مكرهم بالرسول إلى هذه الحال؛ ما بقي حينئذ إلا أن يمضي الله أمره وينصر أوليائه. ﴿فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين﴾: بأنواع العقوبات.

﴿١٤﴾ ﴿ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك﴾؛ أي: العاقبة الحسنة التي جعلها الله للرسول ومن تبعهم جزاء، ﴿لمن خاف مقامي﴾: عليه في الدنيا، وراقب الله مراقبة من يعلم أنه يراه، ﴿وخاف وعيدي﴾؛ أي: ما توعدت به من عصاني؛ فأوجب له ذلك الانكفاف عما يكرهه الله والمبادرة إلى ما يحبه الله.

﴿١٥﴾ ﴿واستفتحوا﴾؛ أي: الكفار؛ أي: هم الذين طلبوا واستعجلوا فتح الله وفرقائه بين أوليائه وأعدائه، فجاءهم ما استفتحوا به، وإلاً؛ فالله حلِيمٌ، لا يعاجل

من عصاه بالعقوبة. ﴿وخاب كل جبارٍ عنيدٍ﴾؛ أي: خسر في الدنيا والآخرة من تجبر على الله وعلى الحق وعلى عباد الله، [واستكبراً<sup>(١)</sup>] في الأرض، وعاند الرسل، وشاقهم.

﴿١٦﴾ ﴿من ورائه جهنم﴾؛ أي: جهنم لهذا الجبار العنيد بالمرصاد؛ فلا بد له من ورودها، فيذاق حينئذ العذاب الشديد. ﴿ويُسقى من ماءٍ صديدٍ﴾: في لونه وطعمه ورائحته الخبيثة، وهو في غاية الحرارة.

﴿١٧﴾ ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾: من العطش الشديد، ﴿ولا يكادُ يُسِغُهُ﴾: فإنه إذا قرب إلى وجهه؛ شواه، وإذا وصل إلى بطنه؛ قطع ما أتى عليه من الأمعاء، ﴿ويأتيه الموتُ من كلِّ مكانٍ وما هو بميتٍ﴾؛ أي: يأتيه العذاب الشديد من كلِّ نوع من أنواع العذاب، وكلُّ نوع منه من شدته يبلغ إلى الموت، ولكنَّ الله قضى أن لا يموتوا؛ كما قال تعالى: ﴿لا يُقضى عليهم فيموتوا ولا يُخففُ عنهم من عذابها كذلك نجزي كلَّ كفورٍ﴾. وهم يصطرخون فيها، ﴿ومن ورائه﴾؛ أي: الجبار العنيد ﴿عذابٌ غليظٌ﴾؛ أي: قويٌّ شديدٌ لا يعلم بوصفه وشدته إلا الله تعالى.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾.

﴿١٨﴾ يخبر تعالى عن أعمال الكفار التي عملوها: إما أن المراد بها الأعمال التي عملوها لله بأنها في ذهابها وبطلانها واضمحلالها كاضمحلال الرماد الذي هو أدق الأشياء وأخفها إذا اشتدَّت به الريح في يوم عاصف شديد الهبوب؛ فإنه لا يُبقي منه شيئاً ولا يُقدَّر منه على شيء يذهب ويضمحل؛ فكذلك أعمال الكفار، ﴿لا يقدرُونَ ممَّا كسبوا على شيء﴾، ولا على مثقال ذرة منه؛ لأنه مبنيٌّ على الكفر والتكذيب. ﴿ذلك هو الضلال البعيد﴾: حيث بطلَ سعيهم واضمحلَ عملهم. وإما أن المراد بذلك أعمال الكفار التي عملوها ليكيدوا بها الحق؛ فإنهم يسعون ويكدحون في ذلك، ومكرهم عائدٌ عليهم، ولن يضرُّوا الله ورسله وجنده وما معهم من الحق شيئاً.

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «استكبروا».

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ يَئُوسَ كَثِبًا  
 ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا  
 لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَدْنَا اللَّهَ لَهَدَيْتَنَا سَوَاءٌ  
 عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَّرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾ .

﴿١٩﴾ يَنْبَهُ تَعَالَى عِبَادَهُ بِأَنَّهُ ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾؛ أَي: لِيَعْبُدَهُ  
 الْخَلْقُ وَيَعْرِفُوهُ وَيَأْمُرَهُمْ وَيَنْهَاهُمْ، وَلِيَسْتَدْلُوا بِهِمَا وَمَا فِيهِمَا عَلَى مَا لَهُ مِنْ صِفَاتِ  
 الْكَمَالِ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ - عَلَى عَظَمَتِهَا وَسَعَتِهَا - قَادِرٌ  
 عَلَى أَنْ يَعْيِدَهُمْ خَلْقًا جَدِيدًا؛ لِيَجَازِيَهُمْ بِإِحْسَانِهِمْ وَإِسَاءَتِهِمْ، وَأَنَّ قُدْرَتَهُ وَمَشِيئَتَهُ لَا  
 تَقْصُرُ عَنْ ذَلِكَ.

ولهذا قال: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾: يُحْتَمَلُ أَنَّ الْمَعْنَى: إِنْ يَشَأْ  
 يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِقَوْمٍ غَيْرِكُمْ يَكُونُونَ أَطْوَعَ لِلَّهِ مِنْكُمْ. وَيُحْتَمَلُ أَنَّ الْمُرَادَ: إِنْ يَشَأْ  
 يُفْنِيكُمْ ثُمَّ يَعْيِدُهُمْ بِالْبَعْثِ خَلْقًا جَدِيدًا. وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا الْإِحْتِمَالِ مَا ذَكَرَهُ بَعْدَهُ مِنْ  
 أَحْوَالِ الْقِيَامَةِ.

﴿٢٠﴾ ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾؛ أَي: بِمَمْتَنِعٍ، بَلْ هُوَ سَهْلٌ عَلَيْهِ جَدًّا،  
 ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كُنْفُسًا وَاحِدَةً وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يَعْيِدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ  
 عَلَيْهِ﴾.

﴿٢١﴾ ﴿وَبَرِّزُوا﴾؛ أَي: الْخَلَائِقُ ﴿لِلَّهِ جَمِيعًا﴾: حِينَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ  
 فَيُخْرَجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ، فَيَقِفُونَ فِي أَرْضٍ مُسْتَوِيَةٍ، قَاعٍ صَفْصَفٍ، لَا  
 تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا، وَيَبْرُزُونَ لَهُ لِأَيْخَفَى عَلَيْهِ مِنْهُمْ خَافِيَةٌ؛ فَإِذَا بَرَّزُوا؛ صَارُوا  
 يَتَحَاجُّونَ، وَكُلٌّ يَدْفَعُ عَنِ نَفْسِهِ وَيُدَافِعُ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَلَكِنْ أَنَّى لَهُمْ ذَلِكَ؟!  
 يَقُولُ ﴿الضُّعَفَاءُ﴾؛ أَي: التَّابِعُونَ وَالْمَقْلُدُونَ، ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾: وَهُمْ الْمُتَبَوِّعُونَ  
 الَّذِينَ هُمْ قَادَةُ فِي الضَّلَالِ: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾؛ أَي: فِي الدُّنْيَا أَمَرْتُمُونَا بِالضَّلَالِ  
 وَزَيَّيْتُمُونَا لَنَا فَأَغْوَيْتُمُونَا. ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ﴾ الْيَوْمَ ﴿مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾؛  
 أَي: وَلَوْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فَلَوْ ﴿قَالُوا﴾؛ أَي: الْمُتَبَوِّعُونَ وَالرُّؤَسَاءُ: أَغْوَيْنَاكُمْ كَمَا غَوَيْنَا،  
 فَ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ﴾؛ فَلَا يُغْنِي أَحَدٌ أَحَدًا. ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا﴾: مِنْ  
 الْعَذَابِ، ﴿أَمْ صَبَّرْنَا﴾: عَلَيْهِ. ﴿مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾؛ أَي: [مِنْ] مَلْجَأٍ نَلْجَأُ إِلَيْهِ،  
 وَلَا مَهْرَبٍ لَنَا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ.

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلْهُمُونِي وَلَوْلِمَا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِيكُمْ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأَدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ فِيهَا يَسْلَمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ .

﴿٢٢﴾ أي: ﴿وقال الشيطان﴾: الذي هو سبب لكل شر يقع ووقع في العالم خاطباً لأهل النار ومبتزاً منهم، ﴿لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾: ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ﴾: على السنة رسله فلم تطيعوه؛ فلو أطمعتموه؛ لأدرتكم الفوز العظيم. ﴿ووعدتكم﴾: الخير، ﴿فأخلفتكم﴾؛ أي: لم يحصل ولن يحصل لكم ما مئيتكم به من الأماني الباطلة. ﴿وما كان لي عليكم من سلطان﴾؛ أي: من حجة على تأييد قولي، ﴿إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي﴾؛ أي: هذه نهاية ما عندي أنني دعوتكم إلى مُرادِي وزينتكم لكم فاستجبتم لي أتباعاً لأهوائكم وشهواتكم؛ فإذا كانت الحال بهذه الصورة؛ ﴿فلا تلوُموني ولوُموا أنفسكم﴾: فأنتم السبب وعليكم المدار في موجب العقاب. ﴿وما أنا بمُصْرِخِكُمْ﴾؛ أي: بمغيثكم من الشدة التي أنتم بها، ﴿وما أنتم بمُصْرِخِي﴾: كل له قسطٌ من العذاب. ﴿إني كفرت بما أشركتمون من قبل﴾؛ أي: تبرات من جعلكم لي شريكاً مع الله، فلست شريكاً لله، ولا تجب طاعتي. ﴿إن الظالمين﴾: لأنفسهم بطاعة الشيطان ﴿لهم عذابٌ أليمٌ﴾: خالدون فيه أبداً. وهذا من لطف الله بعباده أن حذرهم من طاعة الشيطان، وأخبر بمدخله التي يدخل منها على الإنسان ومقاصده فيه، وأنه يقصد أن يدخله النيران.

وهنا بين لنا أنه إذا دخل النار وجنَّده<sup>(١)</sup>؛ أنه يتبرأ منهم هذه البراءة، ويكفر بشركهم، ولا ينثك مثل خبير. واعلم أن الله ذكر في هذه الآية أنه ليس له سلطان، وقال في آية أخرى: ﴿إنما سلطانه على الذين يتولونهُ والذين هم به مشركون﴾؛ فالسلطان الذي نفاه عنه هو سلطان الحجَّة والدليل، فليس له حجَّة أصلاً على ما يدعو إليه، وإنما نهاية ذلك أن يُقيم لهم من الشبه والتزيينات ما به يتجرؤون على المعاصي، وأما السلطان الذي أثبتته؛ فهو التسلُّط بالإغراء على

(١) في (ب): «وحزبه».

المعاصي لأوليائه يؤزهم إلى المعاصي أزا، وهم الذين سلطوه على أنفسهم بموالاته والالتحاق بحزبه، ولهذا ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون.

﴿٢٣﴾ ولما ذكر عقاب الظالمين؛ ذكر ثواب الطائعين، فقال: ﴿وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ أي: قاموا بالدين قولاً وعملاً واعتقاداً، ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: فيها من اللذات والشهوات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: لا يحولهم وقوتهم، بل بحول الله وقوته. ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾؛ أي: يحيي بعضهم بعضاً بالسلام والتحية والكلام الطيب.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمِثْلَ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿٢٤﴾ يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾: وهي شهادة أن لا إله إلا الله وفروعها ﴿كشجرة طيبة﴾: وهي النخلة ﴿أصلها ثابت﴾: في الأرض. ﴿وفرعها﴾: منتشر ﴿في السماء﴾: وهي كثيرة النفع دائماً.

﴿٢٥﴾ ﴿تؤتي أكلها﴾؛ أي: ثمرتها، ﴿كلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾: فكذلك شجرة الإيمان أصلها ثابت في قلب المؤمن علماً واعتقاداً، وفرعها من الكلم الطيب والعمل الصالح والأخلاق المرضية والآداب الحسنة في السماء دائماً، يصعد إلى الله منه من الأعمال والأقوال التي تخرجها شجرة الإيمان، ما ينتفع به المؤمن وينتفع غيره، ﴿ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون﴾: ما أمرهم به ونهاهم عنه؛ فإن في ضرب الأمثال تقريباً للمعاني المعقولة من الأمثال المحسوسة، ويتبين المعنى الذي أراده الله غاية البيان ويتضح غاية الوضوح، ولهذا من رحمته وحسن تعليمه؛ فله أتم الحمد وأكمله وأعمه. فهذه صفة كلمة التوحيد، وثباتها في قلب المؤمن.

﴿٢٦﴾ ثم ذكر ضدها، وهي كلمة الكفر وفروعها، فقال: ﴿وَمِثْلَ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾: المأكول والمطعم، وهي شجرة الحنظل ونحوها. ﴿اجْتُثَّتْ﴾: هذه الشجرة ﴿من فوق الأرض ما لها من قرار﴾؛ أي: [من] ثبوت؛ فلا عروق تمسكها، ولا ثمرة صالحة تتيجها، بل إن وُجد فيها ثمرة؛ فهي ثمرة خبيثة، كذلك



كلمة الكفر والمعاصي، ليس لها ثبوت نافع في القلب، ولا تثير إلا كل قول خبيث وعمل خبيث يستنصر به صاحبه، ولا ينتفع، ولا<sup>(١)</sup> يصعد إلى الله منه عمل صالح، ولا ينتفع نفسه، ولا ينتفع به غيره.

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (٢٧).

﴿٢٧﴾ يخبر تعالى أنه يثبت عباده المؤمنين؛ أي: الذين قاموا بما عليهم من الإيمان القلبي التام، الذي يستلزم أعمال الجوارح ويثمرها، فيثبتهم الله: في الحياة الدنيا عند ورود الشبهات بالهداية إلى اليقين، وعند عروض الشهوات بالإرادة الجازمة على تقديم ما يحبه الله على هوى النفس ومرادها، وفي الآخرة عند الموت بالثبات على الدين الإسلامي والخاتمة الحسنة، وفي القبر عند سؤال الملكين للجواب الصحيح إذا قيل للميت: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟<sup>(٢)</sup> هداهم للجواب الصحيح بأن يقول المؤمن: الله ربي، والإسلام ديني، ومحمد نبيي. ﴿ويضل الله الظالمين﴾: عن الصواب في الدنيا والآخرة، وما ظلمهم الله ولكنهم ظلموا أنفسهم.

وفي هذه الآية دلالة على فتنه القبر وعذابه ونعيمه؛ كما تواترت بذلك النصوص عن النبي ﷺ في الفتنة وصفتها ونييم القبر وعذابه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ (٢٨) ﴿جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَهَا وَيَنسَوْنَ الْفَرَارِ﴾ (٢٩) ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ (٣٠).

﴿٢٨﴾ يقول تعالى مبيناً حال المكذبين لرسوله من كفار قريش وما آل إليه أمرهم: ﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً﴾: ونعمة الله هي إرسال

(١) في (ب): «فلا».

(٢) كما في حديث البراء بن عازب في قصة خروجه مع النبي ﷺ في جنازة رجل من الأنصار: أخرجه الإمام أحمد (٤/٢٨٧ و ٢٨٨ و ٢٩٥ و ٢٩٦)، وأبو داود (٤٧٥٣)، والحاكم (١/٣٧) وقال: «صحيح على شرط الشيخين» وأقره الذهبي، ووافقهما الألباني في «أحكام الجنائز» ص (١٥٩).

محمد ﷺ إليهم يدعوهم إلى إدراك الخيرات في الدنيا والآخرة وإلى النجاة من شرور الدنيا والآخرة، فبدّلوا هذه النعمة بردّها والكفر بها والصدّ عنها بأنفسهم وصدّهم غيرهم حتى ﴿أحلّوا قومهم دار البوار﴾: وهي النار؛ حيث تسبّبوا لإضلالهم، فصاروا وبالأعلى قومهم من حيث يُظنّ نفعهم، ومن ذلك أنهم زينو لهم الخروج يوم بدر ليحاربوا الله ورسوله، فجرى عليهم ما جرى، وقُتل كثير من كبرائهم وصناديدهم في تلك الواقعة.

﴿٢٩﴾ ﴿جهنم يضلّونها﴾؛ أي: يحيط بهم حرّها من جميع جوانبهم. ﴿وبش القرار﴾.

﴿٣٠﴾ ﴿وجعلوا لله أنداداً﴾؛ أي: نظراء وشركاء، ﴿ليضلّوا عن سبيله﴾؛ أي: ليضلّوا العباد عن سبيل الله بسبب ما جعلوا لله من الأنداد ودعّوهم إلى عبادتها. ﴿قل﴾ لهم متوعداً: ﴿تمتّعوا﴾ بكفركم وضلالكم قليلاً؛ فليس ذلك بنافعكم، ﴿فإنّ مصيركم إلى النار﴾؛ أي: مالكم ومأواكم فيها وبش المصير.

﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ﴾ ﴿٣١﴾.

﴿٣١﴾ أي: قل لعبادي المؤمنين أمراً لهم بما فيه غاية صلاحهم وأن ينتهزوا الفرصة قبل أن لا يمكنهم ذلك، ﴿يقِيمُوا الصلاة﴾: ظاهراً وباطناً، ﴿وينفقوا مما رزقناهم﴾؛ أي: من النعم التي أنعمنا بها عليهم قليلاً أو كثيراً، ﴿سراً وعلانية﴾: وهذا يشمل النفقة الواجبة كالزكاة ونفقة من تجب عليه نفقته، والمستحبة كالصدقات ونحوها. ﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال﴾؛ أي: لا ينفع فيه شيء، ولا سبيل إلى استدراك ما فات؛ لا بمعاوضة بيع وشراء، ولا بهبة خليل وصديق؛ فكل امرئ له شأن يغنيه؛ فليقدّم العبد لنفسه، ولينظر ما قدّمه لغد، وليتقدّم أعماله، ويحاسب نفسه قبل الحساب الأكبر.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿وَمَا أَنْتُمْ مِنْ كَلِمَةٍ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ ﴿٣٤﴾.

﴿٣٢﴾ يخبر تعالى أنه وحده ﴿الذي خلق السموات والأرض﴾: على اتساعهما وعظمتها، ﴿وأنزل من السماء ماء﴾: وهو المطر الذي ينزله الله من السحاب، فأخرج بذلك الماء ﴿من الثمرات﴾: المختلفة الأنواع، ﴿رزقاً لكم﴾: ورزقاً لأنعامكم. ﴿وسخر لكم الفلك﴾؛ أي: السفن والمراكب، ﴿لتجري في البحر بأمره﴾: فهو الذي يسر لكم صنعتها وأقدركم عليها وحفظها على تيار الماء لتحملكم وتحمل تجارتكم وأمتعتكم إلى بلد تقصدونه. ﴿وسخر لكم الأنهار﴾: لتسقي حروثكم وأشجاركم، وتشربوا منها.

﴿٣٣﴾ ﴿وسخر لكم الشمس والقمر دائبين﴾: لا يفتران ولا ينيان، يسعيان لمصالحكم من حساب أزمنتكم ومصالح أبدانكم وحيواناتكم وزروعكم وثماركم. ﴿وسخر لكم الليل﴾: لتسكنوا فيه، ﴿والنهار﴾ مبصراً لتبتغوا من فضله.

﴿٣٤﴾ ﴿وأتاكم من كل ما سألتموه﴾؛ أي: أعطاكم من كل ما تعلقت به أمانيتكم وحاجتكم مما تسألونه إياه بلسان الحال أو بلسان المقال من أنعام وآلات وصناعات وغير ذلك. ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾: فضلاً عن قيامكم بشكرها. ﴿إن الإنسان لظلولم كفار﴾؛ أي: هذه طبيعة الإنسان من حيث هو ظالم متجرب على المعاصي مقصر في حقوق ربه، كفار لنعم الله لا يشكرها ولا يعترف بها؛ إلا من هداه الله فشكر نعمته، وعرف حق ربه وقام به.

ففي هذه الآيات من أصناف نعم الله على العباد شيء عظيم مجمل ومفضل يدعو الله به العباد إلى القيام بشكره وذكره، ويحثهم على ذلك، ويرغبهم في سؤاله ودعائه آناء الليل والنهار؛ كما أن نعمته تتكرر عليهم في جميع الأوقات.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا [وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ] رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّونَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُرَادًا غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا

وَقَبَّلَ دُعَاءَهُ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾<sup>(١)</sup>.

﴿٣٥﴾ أي: ﴿و﴾ اذكر إبراهيم عليه الصلاة والسلام في هذه الحالة الجميلة. إذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد؛ أي: الحرم ﴿آمناً﴾: فاستجاب الله دعاءه شرعاً وقدرًا، فحرمه الله في الشرع، ويسر من أسباب حرمة قدرًا ما هو معلوم، حتى إنه لم يرده ظالم بسوء إلا قصمه الله؛ كما فعل بأصحاب الفيل وغيرهم. ولما دعا له بالأمن؛ دعا له ولبنيه بالأمن، فقال: ﴿واجنُبني وبنِي أن نعبد الأصنام﴾؛ أي: اجعلني وإياهم جانباً بعيداً عن عبادتها والإمام بها.

﴿٣٦﴾ ثم ذكر الموجب لخوفه عليه وعلى بنيه بكثرة من افتتن وابتلي بعبادتها. فقال: ﴿رب إنهن أضللن كثيراً من الناس﴾؛ أي: ضلوا بسببها، ﴿فمن تبعني﴾: على ما جئت به من التوحيد والإخلاص لله رب العالمين ﴿فإنه مني﴾: لتمام الموافقة، ومن أحب قوماً وتبعهم؛ التحق بهم. ﴿ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾: وهذا من شفقة الخليل عليه الصلاة والسلام؛ حيث دعا للعاصين بالمغفرة والرحمة من الله، والله تبارك وتعالى أرحم منه بعباده، لا يعذب إلا من تمرد عليه.

﴿٣٧﴾ ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم﴾: وذلك أنه أتى بهاجر أم إسماعيل وبابنها إسماعيل عليه الصلاة والسلام وهو في الرضاع من الشام حتى وضعهما في مكة، وهي إذ ذاك ليس فيها سكن ولا داع ولا مجيب، فلما وضعهما؛ دعا ربه بهذا الدعاء، فقال متضرعاً متوكلاً على ربه: رب ﴿إني أسكنت من ذريتي﴾؛ أي: لا كل ذريتي؛ لأن إسحاق في الشام وباقي بنيه كذلك، وإنما أسكن في مكة إسماعيل وذريته. وقوله: ﴿بوادٍ غير ذي زرع﴾؛ أي: لأن أرض مكة لا تصلح للزراعة. ﴿ربنا ليقيموا الصلاة﴾؛ أي: اجعلهم موحدين مقيمين الصلاة؛ لأن إقامة الصلاة من أخص وأفضل العبادات الدينية؛ فمن أقامها كان مقيماً لدينه. ﴿فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم﴾؛ أي: تحبهم وتحب الموضوع الذي هم ساكنون فيه. فأجاب الله دعاءه، فأخرج من ذرية إسماعيل محمداً ﷺ، حتى دعا ذريته إلى الدين الإسلامي وإلى ملّة أبيهم إبراهيم، فاستجابوا له وصاروا مقيمي الصلاة. وافترض الله حجّ هذا البيت الذي أسكن به ذريته

(١) الآيات ما بين المعقوفتين زيادة على النسختين.

إبراهيم، وجعل فيه سرًا عجيبيًا جاذبًا للقلوب؛ فهي تحبُّه ولا تقضي منه وطراً على الدوام، بل كلما أكثر العبد التردد إليه؛ ازداد شوقه وعظم ولعُه وتوقُّه، وهذا سرُّ إضافته تعالى إلى نفسه المقدسة. ﴿وارزُقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾: فأجاب الله دعاءه، فصار يُجيب إليه ثمرات كل شيء؛ فإنك ترى مكة المشرفة كلَّ وقت، والثمارُ فيها متوفِّرة، والأرزاق تتوالى إليها من كل جانب.

﴿٣٨﴾ ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُغْلِي؛ أَي: أَنْتَ أَعْلَمُ بِنَا مَنَا، فَنَسْأَلُكَ مِنْ تَدْبِيرِكَ وَتَرْبِيتِكَ لَنَا أَنْ تيسِّرَ لَنَا مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي نَعْلَمُهَا وَالَّتِي لَا نَعْلَمُهَا مَا هُوَ مُقْتَضَى عِلْمِكَ وَرَحْمَتِكَ. ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾: وَمِنْ ذَلِكَ هَذَا الدُّعَاءُ الَّذِي لَمْ يَقْصِدْ بِهِ الْخَلِيلَ إِلَّا الْخَيْرَ وَكَثْرَةَ الشُّكْرِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

﴿٣٩﴾ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾: فَهَبْتُهُمْ مِنْ أَكْبَرِ النِّعَمِ، وَكَوْنَهُمْ عَلَى الْكِبَرِ فِي حَالِ الْإِيَّاسِ مِنَ الْأَوْلَادِ نِعْمَةً أُخْرَى، وَكَوْنَهُمْ أَنْبِيَاءَ صَالِحِينَ أَجَلٌ وَأَفْضَلُ. ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾؛ أَي: لِقَرِيبِ الْإِجَابَةِ مِمَّنْ دَعَاهُ، وَقَدْ دَعَوْتُهُ فَلَمْ يَخَيِّبْ رَجَائِي.

﴿٤٠ - ٤١﴾ ثم دعا لنفسه ولذريته، فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مَقِيمَ الصَّلَاةِ وَمَنْ دُرَيْتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾: فَاسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ؛ إِلَّا أَنَّ دُعَاءَهُ لِأَبِيهِ إِنَّمَا كَانَ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَاهُ إِيَّاهُ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ؛ تَبَرَّأَ مِنْهُ.

ثم قال تعالى:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِبِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْتَدِيَهُمْ هَوَاءً ﴿٤٣﴾﴾.

﴿٤٢﴾ هذا وعيدٌ شديد للظالمين وتسلية للمظلومين؛ يقول تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾: حيث أمهلهم وأدرَّ عليهم الأرزاق وترَكهم يتقلَّبون في البلاد آمنين مطمئنِّين؛ فليس في هذا ما يدلُّ على حسن حالهم؛ فَإِنَّ اللَّهَ يُمَلِّي لِلظَّالِمِ وَيُنْمِلُهُ لِيَزْدَادَ إِثْمًا، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ؛ لَمْ يُفْلِتْهُ، ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾. والظلم ها هنا يشمل الظلم فيما بين العبد وربِّه وظلمه لعباد الله. ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾؛

أي: لا تطرف من شدة ما ترى من الأهوال وما أزعجها من القلاقل.

﴿٤٣﴾ ﴿مُهْطِعِينَ﴾؛ أي: مسرعين إلى إجابة الداعي حين يدعوهم إلى الحضور بين يدي الله للحساب، لا امتناع لهم ولا محيص ولا ملجأ، ﴿مُقْنَعِي رُؤُوسِهِمْ﴾؛ أي: رافعيها، قد غُلَّتْ أيديهم إلى الأذقان، فارتفعت لذلك رؤوسهم، ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْنِدْتُهُمْ هَوَاءً﴾؛ أي: أفندتهم فارغة من قلوبهم، قد صعدت إلى الحناجر، لكنّها مملوءة من كل همّ وغمّ وحزن وقلق.

﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ الْوَلِيمَ تَكَوِّنُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسْجِدِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكَرَهُمْ وَإِنْ كَانَتْ مَكَرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿٤٤﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾؛ أي: صف لهم صفة تلك الحال، وحذّره من الأعمال الموجبة للعذاب، الذي حين يأتي في شدائده وقلقله، فيقول الذين ظلموا بالكفر والتكذيب وأنواع المعاصي، نادمين على ما فعلوا، سائلين للرجعة في غير وقتها: ﴿رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾؛ أي: رُدَّنَا إِلَى الدُّنْيَا؛ فَإِنَّا قَدْ أَبْصَرْنَا؛ ﴿نُجِبْ دَعْوَتَكَ﴾؛ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ، ﴿وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ﴾؛ وَهَذَا كُلُّهُ لِأَجْلِ التَّخَلُّصِ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ، وَإِلَّا؛ فَهَمَّ كَذِبَةٌ فِي هَذَا الْوَعْدِ؛ فَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نَهَوْا عَنْهُ، وَلِهَذَا يُؤَبِّخُونَ وَيُقَالُ لَهُمْ: ﴿أَوْلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾؛ عَنِ الدُّنْيَا وَانْتَقَالَ إِلَى الْآخِرَةِ؛ فَهَا قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ حَتْمُكُمْ فِي إِقْسَامِكُمْ وَكَذِبِكُمْ فِيمَا تَدَّعُونَ.

﴿٤٥﴾ ﴿و﴾ ليس عليكم قاصر في الدنيا من أجل الآيات البيّنات، بل ﴿سَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾؛ مِنْ أَنْوَاعِ الْعُقُوبَاتِ، وَكَيْفَ أَحَلَّ اللَّهُ لَهُمْ الْعُقُوبَاتِ حِينَ كَذَبُوا بِالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ، ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾؛ الْوَاضِحَةَ الَّتِي لَا تَدَّعُ أَدْنَى شَكٍّ فِي الْقَلْبِ إِلَّا أَرَأَيْتَهُ، فَلَمْ تَنْفَعْ فِيكُمْ تِلْكَ الْآيَاتِ، بَلْ أَعْرَضْتُمْ وَدَمْتُمْ عَلَىٰ بَاطِلِكُمْ، حَتَّى صَارَ مَا صَارَ، وَوَصَلْتُمْ إِلَىٰ هَذَا الْيَوْمِ الَّذِي لَا يَنْفَعُ فِيهِ اعْتِدَاؤُ مَنْ اعْتَدَرَ بِبَاطِلٍ.

﴿٤٦﴾ ﴿وَقَدْ مَكَرُوا﴾؛ أَي: الْمَكْذِبُونَ لِلرَّسُولِ ﴿مَكَرَهُمْ﴾؛ الَّذِي وَصَلَتْ

إراداتهم وقدرهم عليه، ﴿وعند الله مكرهم﴾؛ أي: هو محيطٌ به علماً وقدرَةً، فإنه عاد مكرهم عليهم، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله. ﴿وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال﴾؛ أي: ولقد كان مكر الكفار المكذبين للرسول بالحق وبمن جاء به من عظمه لتزول الجبال الراسيات بسببه عن أماكنها؛ أي: مكروا مكرًا كَبَارًا لا يُقَادَرُ قَدْرُهُ، ولكن الله رد كيدهم في نحورهم. ويدخل في هذا كلُّ مَنْ مكر من المخالفين للرسول لينصر باطلاً أو يبطل حقًا، والقصد أن مكرهم لم يغن عنهم شيئاً ولم يضرُوا الله شيئاً، وإنما ضروا أنفسهم.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلِّفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قِطْرَانٍ تَعَثَّى وَجُوهُهُمْ نَارٌ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ لِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ الْوَاحِدُ وَيَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿٤٧﴾ يقول تعالى: ﴿فلا تحسبن الله مُخَلِّفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾: بنجاتهم ونجاة أتباعهم وسعادتهم، وإهلاك أعدائهم وخذلانهم في الدنيا وعقابهم في الآخرة؛ فهذا لا بد من وقوعه؛ لأنه وعد به الصادق قولاً على السنة أصدق خلقه، وهم الرسل، وهذا أعلى ما يكون من الأخبار، خصوصاً وهو مطابقٌ للحكمة الإلهية والسنن الربانية وللعقول الصحيحة، والله تعالى لا يعجزه شيء؛ فإنه ﴿عزیز ذو انتقام﴾؛ أي: إذا أراد أن ينتقم من أحد؛ فإنه لا يفوته ولا يعجزه، وذلك في يوم القيامة.

﴿٤٨﴾ ﴿يوم تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾: تُبَدَّلُ غَيْرَ السَّمَاوَاتِ، وهذا التبديل تبديل صفات لا تبديل ذات؛ فإن الأرض يوم القيامة تُسَوَّى وتُمدَّد كمدِّ الأديم، ويلقى ما على ظهرها من جبل ومعلم، فتصير قاعاً صنفصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمثاً، وتكون السماء كالمهل من شدة أهوال ذلك اليوم، ثم يطويها الله تعالى بيمينه. ﴿وبرزوا﴾؛ أي: الخلائق من قبورهم إلى يوم بعثهم ونشورهم في محل لا يخفى منهم على الله شيء، ﴿لله الواحد القهار﴾؛ أي: المنفرد بعظمته وأسمائه وصفاته وأفعاله العظيمة وقهره لكلِّ العوالم؛ فكلها تحت تصرفه وتدبيره؛ فلا يتحرك منها متحرك، ولا يسكن ساكن إلا بإذنه.

﴿٤٩﴾ ﴿وترى المجرمين﴾؛ أي: الذين وصفهم الإجماع وكثرة الذنوب في

ذُلكَ اليوم، ﴿مَقْرَنَيْنِ فِي الْأَصْفَادِ﴾؛ أي: يُسَلْسَلُ كُلُّ أَهْلِ عَمَلٍ مِنَ الْمَجْرَمِينَ بِسَلْسَلٍ مِنْ نَارٍ، فَيُقَادُونَ إِلَى الْعَذَابِ فِي أَدْلَى صُورَةٍ وَأَشْنَعِهَا وَأَبْشَعِهَا.

﴿٥٠﴾ ﴿سَرَابِيلُهُمْ﴾؛ أي: ثِيَابُهُمْ ﴿مِنْ قَطْرَانٍ﴾: وَذَلِكَ لِشِدَّةِ اشْتِعَالِ النَّارِ فِيهِمْ وَحَرَارَتِهَا وَنَتْنِ رِيحِهَا، ﴿وَتَغْشَى وَجُوهَهُمْ﴾: الَّتِي هِيَ أَشْرَفُ مَا فِي أَبْدَانِهِمْ ﴿النَّارُ﴾؛ أي: تَحِيطُ بِهَا، وَتَصْلَاهَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَغَيْرِ الْوَجُوهِ مِنْ بَابِ أَوْلَى وَأُحْرَى.

﴿٥١﴾ وَلَيْسَ هَذَا ظَلَمًا مِنَ اللَّهِ [لَهُمْ]، وَإِنَّمَا هُوَ جَزَاءٌ لِمَا قَدَّمُوا وَكَسَبُوا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾: مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ بِالْعَدْلِ وَالْقِسْطِ الَّذِي لَا جَوْرَ فِيهِ بَوَاحٍ مِنَ الْوَجُوهِ. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾، وَيُحْتَمَلُ أَنْ مَعْنَاهُ سَرِيعُ الْمَحَاسِبَةِ؛ فَيَحَاسِبُ الْخَلْقَ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ كَمَا يَرْزُقُهُمْ وَيُدَبِّرُهُمْ بِأَنْوَاعِ التَّدَابِيرِ فِي لِحْظَةٍ وَاحِدَةٍ، لَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ عَنْ شَأْنٍ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِعَسِيرٍ عَلَيْهِ.

﴿٥٢﴾ فَلَمَّا بَيَّنَّ الْبَيَانَ الْمُبِينِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ؛ قَالَ فِي مَدْحِهِ: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ﴾؛ أي: يَتَبَلَّغُونَ بِهِ وَيَتَزَوَّدُونَ إِلَى الْوُصُولِ إِلَى أَعْلَى الْمَقَامَاتِ وَأَفْضَلِ الْكِرَامَاتِ؛ لِمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَصُولِ وَالْفُرُوعِ وَجَمِيعِ الْعُلُومِ الَّتِي يَحْتَاجُهَا الْعِبَادُ، ﴿وَلِيُنذِرُوا بِهِ﴾: لِمَا فِيهِ مِنَ التَّرْهيبِ مِنْ أَعْمَالِ الشَّرِّ وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ لِأَهْلِهَا مِنَ الْعِقَابِ، ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾: حَيْثُ صَرَفَ فِيهِ مِنَ الْأَدَلَّةِ وَالْبَرَاهِينِ عَلَى الْوَهْيِيَّةِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ مَا صَارَ ذَلِكَ حَقَّ الْيَقِينِ، ﴿وَلِيَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾؛ أي: الْعُقُولَ الْكَامِلَةَ مَا يَنْفَعُهُمْ فَيَفْعَلُونَهُ وَمَا يَضُرُّهُمْ فَيَتْرَكُونَهُ، وَبِذَلِكَ صَارُوا أَوْلَى الْأَلْبَابِ وَالْبَصَائِرِ؛ إِذْ بِالْقُرْآنِ أَزْدَادَتْ مَعَارِفَهُمْ وَأَرَاؤُهُمْ، وَتَنَوَّرَتْ أَفْكَارُهُمْ لَمَّا أَخَذُوهُ غَضًّا طَرِيًّا؛ فَإِنَّهُ لَا يَدْعُو إِلَّا إِلَى أَعْلَى الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ وَأَفْضَلِهَا، وَلَا يَسْتَدِلُّ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا بِأَقْوَى الْأَدَلَّةِ وَأَبْيَنِهَا، وَهَذِهِ الْقَاعِدَةُ إِذَا تَدَرَّبَ بِهَا الْعَبْدُ الذَّكِيُّ؛ لَمْ يَزَلْ فِي صَعُودِ رُوقِيٍّ عَلَى الدَّوَامِ فِي كُلِّ خِصْلَةٍ حَمِيدَةٍ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

تم تفسير سورة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام.





## تفسير سورة الحجر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رَبِّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٥﴾﴾ .

﴿١﴾ يقول تعالى معظماً لكتابه مادحاً له: ﴿تلك آيات الكتاب﴾؛ أي: الآيات الدالة على أحسن المعاني وأفضل المطالب، ﴿وقرآن مبين﴾: للحقائق بأحسن لفظ وأوضحه وأدله على المقصود.

﴿٢﴾ وهذا مما يوجب على الخلق الانقياد إليه والتسليم لحكمه وتلقيه بالقبول والفرح والسرور، فأما من قابل هذه النعمة العظيمة بردها والكفر بها؛ فإنه من المكذبين الضالين، الذين سيأتي عليهم وقت يتمنون أنهم مسلمون؛ أي: منقادون لأحكامه، وذلك حين ينكشف الغطاء وتظهر أوائل الآخرة ومقدمات الموت؛ فإنهم في أحوال الآخرة كلها يتمنون أنهم مسلمون، وقد فات وقت الإمكان، ولكنهم في هذه الدنيا مغترون.

﴿٣﴾ ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾: بلذاتهم، ﴿ويلهمهم الأمل﴾؛ أي: يؤملون البقاء في الدنيا فيلهيهم عن الآخرة، ﴿فسوف يعلمون﴾: أن ما هم عليه باطل، وأن أعمالهم ذهبت خسراناً عليهم، ولا يغتروا بإمهال الله تعالى؛ فإن هذه سنته في الأمم.

﴿٤﴾ ﴿وما أهلكنا من قرية﴾: كانت مستحقة للعذاب، ﴿إلا ولها كتاب معلوم﴾: مقدر لإهلاكها.

﴿٥﴾ ﴿ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون﴾: وإلا؛ فالذنوب لا بد من وقوع أثرها وإن تأخر.

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُزِّلَ الْمَلَكَةُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُمُ الْحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ .

﴿٦﴾ أي: وقال المكذبون لمحمد ﷺ استهزاءً وسخريةً: ﴿يا أيها الذي نُزِلَ عليه الذكر﴾: على زعمك، ﴿إنك لمجنون﴾: إذ تظنُّ أنا سنتبعك ونترك ما وجدنا عليه آباءنا لمجرد قولك.

﴿٧ - ٨﴾ ﴿لو ما تأتينا بالملائكة﴾: يشهدون لك بصحة ما جئت به، ﴿إن كنت من الصادقين﴾: فلما لم تأت بالملائكة؛ فلست بصادق. وهذا من أعظم الظلم والجهل: أما الظلم؛ فظاهر؛ فإنَّ هذا تجرؤ على الله وتعنت بتعيين الآيات التي لم يختزها، وحصل المقصود والبرهان بدونها من الآيات الكثيرة الدالة على صحة ما جاء به. وأما الجهل؛ فإنَّهم جهلوا مصلحتهم من مضرَّتهم؛ فليس في إنزال الملائكة خيرٌ لهم، بل لا ينزل الله الملائكة إلا بالحق الذي لا إمهال على من لم يتبَّعه وينقذ له. ﴿وما كانوا إذا﴾؛ أي: حين تنزل الملائكة إن لم يؤمنوا ولن يؤمنوا، ﴿مُنظَرين﴾؛ أي: بمُهمَلين، فصار طلبهم لإنزال الملائكة تعجلاً لأنفسهم بالهلاك والدمار؛ فإن الإيمان ليس في أيديهم، وإنما هو بيد الله، ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحسبنا عليهم كلَّ شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله، ولكن أكثرهم يجهلون﴾.

﴿٩﴾ ويكفيهم من الآيات إن كانوا صادقين هذا القرآن العظيم، ولهذا قال هنا: ﴿إننا نحن نزلنا الذكر﴾؛ أي: القرآن الذي فيه ذكرى لكل شيء من المسائل والدلائل الواضحة، وفيه يتذكر من أراد التذكر. ﴿وإننا له لحافظون﴾؛ أي: في حال إنزاله وبعد إنزاله؛ ففي حال إنزاله حافظون له من استراق كلِّ شيطان رجيماً، وبعد إنزاله أودعه الله في قلب رسوله واستودعه في قلوب أمته وحفظ الله ألفاظه من التغيير فيها والزيادة والنقص ومعانيه من التبديل؛ فلا يحرف محرفٌ معنى من معانيه إلا وقَّض الله له من بيِّن الحقِّ المبين، وهذا من أعظم آيات الله ونعمه على عباده المؤمنين، ومن حفظه أن الله يحفظ أهله من أعدائهم، ولا يسلب عليهم عدواً يحتاجهم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١١﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٢﴾ كَذَلِكَ نَسَلُكُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿١٠﴾ يقول تعالى لنبيه إذ كذبه المشركون: لم يزل هذا دأب الأمم الخالية والقرون الماضية، فقد أرسلنا ﴿قبلك في شيع الأولين﴾؛ أي: فرقهم وجماعتهم رسلاً.

﴿١١﴾ ﴿وما يأتيهم من رسول﴾: يدعوهم إلى الحق والهدى، ﴿إلا كانوا به يستهزئون﴾.

﴿١٢ - ١٣﴾ ﴿كذلك نسلكه﴾؛ أي: ندخل التكذيب ﴿في قلوب المجرمين﴾؛ أي: الذين وصفهم الظلم والبهت، عاقبناهم لما تشابهت قلوبهم بالكفر والتكذيب تشابهت معاملتهم لأنبيائهم ورسولهم بالاستهزاء والسخرية وعدم الإيمان، ولهذا قال: ﴿لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين﴾؛ أي: عادة الله فيهم بإهلاك من لم يؤمن بآيات الله.

﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون﴾ ﴿١٤﴾ ﴿لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون﴾ ﴿١٥﴾.

﴿١٤ - ١٥﴾ أي: ولو جاءتهم كل آية عظيمة؛ لم يؤمنوا وكابروها، ﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السماء﴾: فصاروا يعرجون فيه ويشاهدونه عياناً بأنفسهم؛ لقالوا من ظلمهم وعنادهم منكبين لهذه الآية: ﴿إنما سكرت أبصارنا﴾؛ أي: أصابها سكر وغشاوة حتى رأينا ما لم نر. ﴿بل نحن قوم مسحورون﴾؛ أي: ليس هذا بحقيقة، بل هذا سحر. وقوم وصلت بهم الحال إلى هذا الإنكار؛ فإنهم لا مطمع فيهم ولا رجاء.

ثم ذكر الآيات الدالات على ما جاءت به الرسل من الحق فقال:

﴿ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزينناها للنظرين﴾ ﴿١٦﴾ ﴿وحفظناها من كل شيطان رجيم﴾ ﴿١٧﴾ ﴿إلا من استرق السمع فأنبغهم شهاباً مريئاً﴾ ﴿١٨﴾ ﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رويساً وأنبتنا فيها من كل شئ موزون﴾ ﴿١٩﴾ ﴿وجعلنا لكو فيها معيش ومن نشئ لهم برزقين﴾ ﴿٢٥﴾.

﴿١٦﴾ يقول تعالى مبيناً كمال اقتداره ورحمته بخلقه: ﴿ولقد جعلنا في السماء بروجاً﴾؛ أي: نجوماً كالأبراج والأعلام العظام يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، ﴿وزينناها للنظرين﴾: فإنه لولا النجوم؛ لما كان للسماء هذا المنظر البهي والهيئة العجيبة، وهذا مما يدعو الناظرين إلى التأمل فيها والنظر في معانيها والاستدلال بها على بارئها.

﴿١٧﴾ ﴿وحفظناها من كل شيطان رجيم﴾: إذا استرق السمع؛ أتبعته الشهب الثواقب، فبقيت السماء ظاهرها مجمل بالنجوم النيرات، وباطنها محروس ممنوع من الآفات.

﴿١٨﴾ ﴿إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَّ السَّمْعَ﴾؛ أي: [إِلَّا] في بعض الأوقات قد يسترق بعض الشياطين السمع بخفية واختلاس. ﴿فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مَبِينٌ﴾؛ أي: بين منير يقتله أو يخيله؛ فربما أدركه الشهاب قبل أن يوصلها الشيطان إلى وليه فينقطع خبر السماء عن الأرض، وربما ألقاها إلى وليه قبل أن يدركه الشهاب، فيضمها، ويكذب معها مائة كذبة، ويستدل بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء.

﴿١٩﴾ ﴿وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا﴾؛ أي: وسعناها سعة يتمكن الآدميون والحيوانات كلها من الامتداد بأرجائها والتناول من أرزاقها والسكون في نواحيها. ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رِوَاسِيًّا﴾؛ أي: جبلاً عظيماً تحفظ الأرض بإذن الله أن تميّد وتشتتها أن تزول. ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾؛ أي: نافع متقوم يضطر إليه العباد والبلاد ما بين نخيل وأعناب وأصناف الأشجار وأنواع النبات والمعادن.

﴿٢٠﴾ ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾: من الحرث ومن الماشية ومن أنواع المكاسب والحرث، ﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾؛ أي: أنعمنا عليكم بعبيد وإماء وأنعام لنفعمكم ومصالحكم، وليس عليكم رزقها، بل حوزكم الله إياها، وتكفل بأرزاقها.

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ ﴿٢١﴾.

﴿٢١﴾ أي: جميع الأرزاق وأصناف الأقدار لا يملكها أحدٌ إلا الله؛ فخزائنها بيده، يعطي من يشاء ويمنع من يشاء بحسب حكمته ورحمته الواسعة. ﴿وَمَا نُنزِّلُهُ﴾؛ أي: المقدر من كل شيء من مطر وغيره، ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾: فلا يزيد على ما قدره الله، ولا ينقص منه.

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَقَيْنَاكُمْ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ ﴿٢٢﴾.

﴿٢٢﴾ أي: وسخرنا الرياح رباح الرحمة تُلقح السحاب كما يُلقح الذكر الأنثى، فينشأ عن ذلك الماء بإذن الله، فيسقيه الله العباد ومواسيهم وأرضهم، ويُبقي في الأرض مدخراً لحاجاتهم وضروراتهم ما هو مقتضى قدرته ورحمته. ﴿وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾؛ أي: لا قدرة لكم على خزنه وأدخاره، ولكن الله يخزنه لكم ويسلكه ينابيع في الأرض رحمة بكم وإحساناً إليكم.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْبِلِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَعْرِبِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾.

﴿٢٣ - ٢٥﴾ أي: هو وحده لا شريك له الذي يحيي الخلق من العدم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، ويميتهم لأجالهم التي قدرها، ﴿ونحن الوارثون﴾؛ كقوله: ﴿إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يُرجعون﴾؛ وليس ذلك بعزيز ولا ممتنع على الله؛ فإنه تعالى يعلم المستقدمين من الخلق والمستأخرين منهم، ويعلم ما تنقُصُ الأرض منهم وما تفرِّقُ من أجزائهم، وهو الذي قدرته لا يعجزها معجز، فيعيد عباده خلقاً جديداً، ويحشرهم إليه. ﴿إنه حكيم﴾: يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها، ويجازي كلَّ عامل بعمله: إن خيراً؛ فخير، وإن شراً؛ فشر.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْبَلَاءَ خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلِ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَخَرِّجْهَا مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِنْ يَوْمَ الَّذِينَ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْتَنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْتَنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ يَوْمَ أُلْقِيَ الْمَغْلُوبُ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ يَا أَعْيُنِي لِأَرْتَبِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أَعْيُنِيهِمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾.

يذكر تعالى نعمته وإحسانه على أبينا آدم عليه السلام، وما جرى من عدوه إبليس، وفي ضمن ذلك التحذير لنا من شره وفتنته، فقال تعالى:

﴿٢٦﴾ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾؛ أي: آدم عليه السلام ﴿مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾؛ أي: من طين قد ييس بعدما حُمِرَ حتى صار له صَلْصَلَةٌ وصوت كصوت الفخار. والحما المسنون: الطين المتغير لونه وريحه من طول مكته.

﴿٢٧﴾ ﴿وَالْبَلَاءَ﴾: وهو أبو الجن؛ أي: إبليس، ﴿خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلِ﴾: خلق آدم، ﴿مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾؛ أي: من النار الشديدة الحرارة.

﴿٢٨ - ٢٩﴾ فلما أراد الله خلق آدم؛ قال للملائكة: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾. فإذا سَوَّيْتُهُ، ﴿جَسَدًا تَامًا﴾، ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾.

﴿٣٠ - ٣١﴾ فامثلوا أمر ربهم، ﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون﴾: تأكيد بعد تأكيد؛ ليدل على أنه لم يتخلف منهم أحد، وذلك تعظيماً لأمر الله وإكراماً لآدم حيث عَلِمَ ما لم يعلموا. ﴿إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين﴾: وهذه أول عداوته لآدم وذريته.

﴿٣٢ - ٣٣﴾ قال: ﴿يا إبليس ما لك ألا تكون مع الساجدين. قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون﴾: فاستكبر على أمر الله، وأبدى العداوة لآدم وذريته، وأعجب بعنصره، وقال: أنا خير من آدم.

﴿٣٤ - ٣٥﴾ قال: ﴿اللهم معاقباً له على كفره واستكباره: ﴿فاخرج منها فإنك رجيم﴾؛ أي: مطرود ومبعد من كل خير، ﴿وإن عليك اللعنة﴾؛ أي: الذم والعيب والبعد عن رحمة الله ﴿إلى يوم الدين﴾. فيها وما أشبهها دليل على أنه سيستمر على كفره وبعده من الخير.

﴿٣٦ - ٣٨﴾ قال رب فأنظرنى؛ أي: أمهلنى ﴿إلى يوم يُبعثون﴾. قال فإنك من المنظرين. إلى يوم الوقت المعلوم: وليس إجابة الله لدعائه كرامة في حقه، وإنما ذلك امتحاناً وابتلاءً من الله له وللعباد؛ ليتبين الصادق الذي يطيع مولاه دون عدوه ممن ليس كذلك، ولذلك حذرنا منه غاية التحذير، وشرح لنا ما يريده مثلاً.

﴿٣٩﴾ قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض؛ أي: أزين لهم الدنيا، وأدعوهم إلى إثارها على الأخرى، حتى يكونوا منقادين لكل معصية، ﴿ولأغوينهم أجمعين﴾؛ أي: أصدهم كلهم عن الصراط المستقيم، ﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾؛ أي: الذين أخلصتهم، واجتبتهم لإخلاصهم وإيمانهم وتوكلهم.

﴿٤٠﴾ قال الله: ﴿هذا صراط علي مستقيم﴾؛ أي: معتدل موصل إلى وإلى دار كرامتي.

﴿٤١﴾ ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾: تميلهم به إلى ما تشاء من أنواع الضلالات بسبب عبوديتهم لربهم وانقيادهم لأوامره، أعانهم الله وعصمهم من الشيطان.

﴿٤٢﴾ ﴿إلا من أتبعك﴾: فرضي بولايتك وطاعتك بدلاً من طاعة الرحمن، ﴿من الغاوين﴾: والغاوي ضد الراشد؛ فهو الذي عرف الحق وتركه، والضال الذي تركه من غير علم منه به.

﴿٤٣﴾ ﴿وإن جهنم لموعدهم أجمعين﴾؛ أي: إبليس وجنوده.

﴿٤٤﴾ ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾: كل باب أسفل من الآخر. ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ﴾؛ أي: من أتباع إبليس ﴿جِزَاءً مَقْسُومًا﴾: بحسب أعمالهم؛ قال تعالى: ﴿فَكُتِبَ عَلَيْكُمُ الْمُنَافَقَةُ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا كَفَرْتُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. ﴿وَالْغَاوُونَ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾.

ولما ذكر تعالى ما أعد لأعدائه أتباع إبليس من النكال والعذاب الشديد؛ ذكر ما أعد لأوليائه من الفضل العظيم والنعيم المقيم، فقال:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَأَمِينٍ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ تَبَٰرَكَ عِبَادِيَ أَيُّ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿٤٥﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾: الذين اتقوا طاعة الشيطان وما يدعوهم إليه من جميع الذنوب والعصيان، ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾: قد احتوت على جميع الأشجار، وأينعت فيها جميع الثمار اللذيذة في جميع الأوقات.

﴿٤٦﴾ ويقال لهم حال دخولها: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَأَمِينٍ﴾: من الموت والنوم والنَّصَبِ واللُّغُوبِ وانقطاع شيء من النعيم الذي هم فيه أو نقصانه ومن المرض والحزن والهَمِّ وسائر المكدرات.

﴿٤٧﴾ ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾: فتبقى قلوبهم سالمةً من كل غلٍّ<sup>(١)</sup> وحسدٍ متصافية متحابَّة، ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾: دل ذلك على تزاورهم واجتماعهم وحسن أدبهم فيما بينهم في كون كل منهم مقابلاً للآخر لا مستدبراً له، متكئين على تلك السُرر المزيَّنة بالفرش واللؤلؤ وأنواع الجواهر.

﴿٤٨﴾ ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾: لا ظاهرٌ ولا باطنٌ، وذلك لأن الله ينشئهم نشأةً وحياةً كاملةً لا تقبل شيئاً من الآفات. ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾: على سائر الأوقات.

﴿٤٩﴾ [ولما ذكر ما يوجب الرغبة والرغبة من مفعولات الله من الجنة والنار؛ ذكر ما يوجب ذلك من أوصافه تعالى] فقال: ﴿نَبِيٌّ عِبَادِي﴾؛ أي: أخبرهم خبراً جازماً مؤيداً بالأدلة، ﴿أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾: فإنهم إذا عرفوا كمال رحمته ومغفرته؛ سعوا بالأسباب<sup>(٢)</sup> الموصلة لهم إلى رحمته، وأقلعوا عن الذنوب وتابوا منها؛ لينالوا مغفرتة.

في (ب): «في الأسباب».

(١) في (ب): «دغل».

﴿٥٠﴾ ومع هذا؛ فلا ينبغي أن يتمادى بهم الرجاء إلى حال الأمن والإدلال؛ فنبئهم ﴿أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾؛ أي: لا عذاب في الحقيقة إلا عذاب الله الذي لا يقادَرُ قَدْرَهُ ولا يُبْلَغُ كُنْهَهُ، نعوذ به من عذابه؛ فإنهم إذا عرفوا أن<sup>(١)</sup> لا يعذب عذابه أحدٌ ولا يوثق وثاقه أحدٌ؛ حذروا وأبعدوا عن كل سبب يوجب لهم العقاب.

فالعبد ينبغي أن يكون قلبه دائماً بين الخوف والرجاء والرغبة والرهبة؛ فإذا نظر إلى رحمة ربه ومغفرته وجوده وإحسانه؛ أحدث له ذلك الرجاء والرغبة، وإذا نظر إلى ذنوبه وتقصيره في حقوق ربه؛ أحدث له الخوف والرهبة والإقلاع عنها.

﴿وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَمًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِئُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشْرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَا تَبْشُرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشْرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿٥١﴾ يقول تعالى لنبئهم محمد ﷺ: ﴿وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾؛ أي: عن تلك القصة العجيبة؛ فإن في قصصهم أنباء الرسل وما جرى لهم ما يوجب لهم العبرة والافتداء بهم، خصوصاً إبراهيم الخليل، الذي أمرنا الله أن نتبع ملته، وضيفه هم الملائكة الكرام، أكرمه الله بأن جعلهم أضيافه.

﴿٥٢﴾ ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا﴾؛ أي: سلموا عليه فرد عليهم، ﴿قال إِنَّا مِنْكُمْ وَجِئُونَ﴾؛ أي: خائفون؛ لأنه لما دخلوا عليه، وحسبهم ضيوفاً؛ ذهب مسرعاً إلى بيته، فأحضر لهم ضيافتهم عجلًا حينئذ، فقدمه إليهم، فلما رأى أيديهم لا تصل إليه؛ خاف منهم أن يكونوا لصوصاً أو نحوهم فقالوا له:

﴿٥٣﴾ ﴿لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾: وهو إسحاق عليه الصلاة والسلام. تضمنت هذه الإشارة بأنه ذكر لا أنثى. ﴿عليم﴾؛ أي: كثير العلم. وفي الآية الأخرى: ﴿وبشّرناه بإسحاق نبياً من الصالحين﴾.

﴿٥٤﴾ ﴿قال﴾ لهم متعجباً من هذه البشارة: ﴿أبشّرتموني﴾: بالولد ﴿على أن مَسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾: وصار نوع إياس منه. ﴿فبم تبشرون﴾؛ أي: على أي وجه تبشرون وقد عدت الأسباب!؟

(١) في (ب): «أنه».



﴿٥٥﴾ ﴿قَالُوا بِشْرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾: الذي لا شك فيه؛ لأن الله على كل شيء قدير، وأنتم بالخصوص يا أهل هذا البيت، رحمة الله وبركاته عليكم؛ فلا يُستغرب فضل الله وإحسانه إليكم. ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾: الذين يستبعدون وجود الخير، بل لا تزال راجياً لفضل الله وإحسانه وبره وامتنانه.

﴿٥٦﴾ فأجابهم إبراهيم بقوله: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾: الذين لا علم لهم بربهم وكمال اقتداره، وأما من أنعم الله عليه بالهداية والعلم العظيم؛ فلا سبيل إلى القنوط إليه؛ لأنه يعرف من كثرة الأسباب والوسائل والطرق لرحمة الله شيئاً كثيراً.

ثم لما بشروه بهذه البشارة؛ عَرَفَ أَنَّهُمْ مَرْسَلُونَ لِأَمْرِ مَهْمٌ.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا أَمْرَاتَهُ قَدَرْنَا إِنَّا لَمِنَ الْعَادِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّكَذِّبُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَمُصَدِّقُونَ ﴿٦٤﴾ فَاسْرِبْ بِأَهْلِكَ يَقْطَعُ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْمِزُكَ أَحَدٌ وَآمَنُوا حَيْثُ تَوَمَّرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصَدِّغِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَكْفُرُوا ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ نَتَّهِكْ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتٌ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَمَعْرَكٍ لَهُنَّ لَبِي سَكْرِيهِنَّ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذْتُهُنَّ الصَّيْحَةَ مَشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَابِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِنَّ جِبَابًا مِّنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّا لَنَسِيبِلُ مُّقْبِرٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾

﴿٥٧﴾ أي: ﴿قال﴾ الخليل عليه السلام للملائكة: ﴿فما خطبكم أيها المرسلون؛ أي: ما شأنكم؟ ولأي شيء أرسلتكم؟!﴾

﴿٥٨﴾ ﴿قالوا﴾ إننا أرسلنا إلى قوم مجرمين؛ أي: كثر فسادهم وعظم شرهم لنعذبهم ونعاقبهم.

﴿٥٩ - ٦٠﴾ ﴿إلا آل لوط﴾؛ أي: إلا لوطاً وأهله، ﴿إلا أمراته قدرنا﴾ أي: الباقين بالعذاب، وأما لوط؛ فسخرجته وأهله ونجيتهم منها. فجعل إبراهيم يجادل الرسل في إهلاكهم ويراجعهم، فقيل له: ﴿يا إبراهيم أعرض

عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنتهم آتيتهم عذاب غير مردود. فذهبوا منه.  
﴿٦١ - ٦٢﴾ ﴿فلما جاء آل لوط المرسلون قال﴾ لهم لوط: ﴿إنكم قوم  
مُنكَرُونَ﴾؛ أي: لا أعرفكم، ولا أدري من أنتم.

﴿٦٣﴾ ﴿قالوا بل جنناك بما كانوا فيه يَمْتَرُونَ﴾؛ أي: جنناك بعذابهم الذي  
كانوا يشكون فيه ويكذبونك حين تعدهم به.

﴿٦٤﴾ ﴿وأنتيناك بالحق﴾: الذي ليس بالهزل. ﴿وإننا لصادقون﴾: فيما قلنا لك.

﴿٦٥﴾ ﴿فأسر بأهلك بقطع من الليل﴾؛ أي: في أثنائه حين تنام العيون ولا  
يدري أحد عن مسراك. ﴿ولا يَلْتَفِتْ منكم أحد﴾؛ أي: بل بادروا وأسرعوا،  
﴿وامضوا حيث تُؤْمَرُونَ﴾: كأن معهم دليلاً يدلهم على أين يتوجهون.

﴿٦٦﴾ ﴿وقضينا إليه ذلك﴾؛ أي: أخبرناه خبراً لا مثنوية فيه، ﴿أن دابر هؤلاء  
مقطوع مصبحين﴾؛ أي: سيصبحهم العذاب الذي يجتاحهم، ويستأصلهم.

﴿٦٧ - ٦٩﴾ ﴿وجاء أهل المدينة﴾؛ أي: المدينة التي فيها لوط،  
﴿يستبشرون﴾؛ أي: يبشرون بعضهم بعضاً بأضياف لوط وصباحة وجوههم واقتدارهم  
عليهم، وذلك لقصدهم فعل الفاحشة فيهم، فجاؤوا حتى وصلوا إلى بيت لوط،  
فجعلوا يعالجون لوطاً على أضيافه، ولوط يستعيد منهم ويقول: ﴿إن هؤلاء ضيفي  
فلا تفضحون. واتقوا الله ولا تخزون﴾؛ أي: راقبوا الله أول ذلك، وإن كان ليس  
فيكم خوف من الله؛ فلا تفضحوني في أضيافي، وتستهكوا منهم الأمر الشنيع.

﴿٧٠﴾ ﴿قالوا﴾ له جواباً عن قوله: ﴿ولا تخزون﴾ فقط: ﴿أولم ننهك عن  
العالمين﴾: أن تضيقهم، فنحن قد أنذرناك، ومن أنذر؛ فقد أعذر.

﴿٧١ - ٧٢﴾ ﴿قال﴾ لهم لوط من شدة الأمر الذي أصابه: ﴿هؤلاء بناتي إن  
كنتم فاعلين﴾: فلم يبالوا بقوله، ولهذا قال الله لرسوله محمد ﷺ: ﴿لعمرك إنهم  
لفي سكرتهم يعمهون﴾: وهذه السكره هي سكرة محبة الفاحشة التي لا يُبالون معها  
بعذل ولا لوم.

﴿٧٣﴾ ﴿فلما بينت له الرسل حالهم؛ زال عن لوط ما كان يجده من الضيق  
والكرب، فامثل أمر ربه، وسرى بأهله ليلاً، فنجاوا. وأما أهل القرية؛ فأخذتهم  
الصيحة مشرقين﴾؛ أي: وقت شروق الشمس؛ حين كانت العقوبة عليهم أشد.

﴿٧٤﴾ ﴿فجعلنا عاليها سافلها﴾؛ أي: قلبنا عليهم مدينتهم، ﴿وأمطرنا عليهم

حجارة من سجيل: تتبع فيها من شد من البلد منهم.

﴿٧٥﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾؛ أي: المتأملين المتفكرين الذين لهم فكرٌ ورويةٌ وفراصةٌ يفهمون بها ما أريد بذلك من أن من تجزأ على معاصي الله، خصوصاً هذه الفاحشة العظيمة، وأن الله سيعاقبهم بأشنع العقوبات؛ كما تجرؤوا على أشنع السيئات.

﴿٧٦﴾ ﴿وَإِنَّهَا﴾؛ أي: مدينة قوم لوط ﴿لَبَسِيلٌ مُّقِيمٌ﴾: للسالكين، يعرفه كلُّ من تردّد في تلك الديار.

﴿٧٧﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: وفي هذه القصة من العبر: عنايته تعالى بخليله إبراهيم؛ فإن لوطاً عليه السلام من أتباعه وممن آمن به، فكأنه تلميذ له؛ فحين أراد الله إهلاك قوم لوط حين استحققوا ذلك؛ أمر رسله أن يمرؤوا على إبراهيم عليه السلام كي يبشروه بالولد ويخبروه بما بعثوا له، حتى إنّه جادلهم عليه السلام في إهلاكهم، حتى أقنعوه، فطابت نفسه، وكذلك لوط عليه السلام، لما كانوا أهل وطنه؛ فربما أخذته الرقة عليهم والرافة بهم؛ قدر الله من الأسباب ما به يشتد غيظه وحنقه عليهم، حتى استبطأ إهلاكهم لما قيل له: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

ومنها: أن الله تعالى إذا أراد أن يهلك قرية ازداد شرهم وطغيانهم؛ فإذا انتهى؛ أوقع بهم من العقوبات ما يستحقونه.

﴿وَإِن كَانَ آخِزًا لِّلْأَيَّةِ لظَّالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لِيَآمِرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿٧٨﴾ وهؤلاء قوم شعيب، نعتهم الله وأضافهم إلى الأيكة، وهو البستان كثير الأشجار؛ ليذكر نعمته عليهم، وأنهم ما قاموا بها، بل جاءهم نبيهم شعيب، فدعاهم إلى التوحيد، وترك ظلم الناس في المكايل والموازين، وعالجهم على ذلك أشد المعالجة، فاستمروا على ظلمهم في حق الخالق وفي حق الخلق، ولهذا وصفهم هنا بالظلم.

﴿٧٩﴾ ﴿فَانقَمْنَا مِنْهُمْ﴾: فأخذهم عذاب يوم الظلة؛ إنه كان عذاب يوم عظيم. ﴿وَإِنَّهُمَا﴾؛ أي: ديار قوم لوط وأصحاب الأيكة، ﴿ليامام مبين﴾؛ أي: لبطريق واضح يمر بهم المسافرون كل وقت، فيبين من آثارهم ما هو مشاهد بالأبصار، فيعتبر بذلك أولو الأبواب.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ آلِ عَجْرٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَأَيَّدْنَاهُمْ بِآيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يُنَجِّتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾ .

﴿٨٠﴾ يخبر تعالى عن أهل الحجر، وهم قوم صالح، الذين يسكنون الحجر المعروف في أرض الحجاز: أنهم كذبوا المرسلين؛ أي: كذبوا صالحاً، ومن كذب رسولاً؛ فقد كذب سائر الرسل لاتفاق دعوتهم، وليس تكذيب بعضهم لشخصه، بل لما جاء به من الحق، الذي اشترك جميع الرسل بالإتيان به.

﴿٨١﴾ ﴿وَأَيَّدْنَاهُمْ آيَاتِنَا﴾: الدالة على صحة ما جاءهم به صالح من الحق التي من جملتها تلك الناقة التي هي من آيات الله العظيمة. ﴿فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾: كبراً وتجبُّراً على الله.

﴿٨٢﴾ ﴿وَكَانُوا﴾: من كثرة إناعم الله عليهم، ﴿يُنَجِّتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾: من المخاوف، مطمئنين في ديارهم؛ فلو شكروا النعمة وصدقوا نبيهم صالحاً عليه السلام؛ لأدر الله عليهم الأرزاق، ولأكرمهم بأنواع من الثواب العاجل والآجل، ولكنهم لما كذبوا وعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا: ﴿يَا صَالِحُ آيَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

﴿٨٣﴾ ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾: فتقطعت قلوبهم في أجوافهم وأصبحوا في دارهم جائمين هلكى، مع ما يتبع ذلك من الخزي واللعنة المستمرة.

﴿٨٤﴾ ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾: لأن أمر الله إذا جاء لا يرده كثرة جنود ولا قوة أنصار ولا غزارة أموال.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّهُ فَاصِّحٌ الصَّفْحَ الْجَمِيلِ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾ .

﴿٨٥﴾ أي: ما خلقناها عبثاً باطلاً كما يظن ذلك أعداء الله، بل ما خلقناها إلا بالحق؛ الذي منه أن يكونا بما فيهما دالتين على كمال خالقهما واقتداره وسعة رحمته وحكمته وعلمه المحيط، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له. ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّهُ﴾: لا ريب فيها؛ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس. ﴿فَاصِّحُ الصَّفْحِ الْجَمِيلِ﴾: وهو الصفح الذي لا أذية فيه، بل يقابل

إساءة المسيء بالإحسان وذبّه بالغفران؛ لتنال من ربك جزيل الأجر والثواب؛ فإن كل ما هو آتٍ فهو قريب.

وقد ظهر لي معنى أحسن مما ذكرت هنا، وهو أن الأمور به هو الصفح الجميل؛ أي: الحسن الذي قد سلّم من الحقد والأذية القولية والفعليّة، دون الصفح الذي ليس بجميل، وهو الصفح في غير محلّه؛ فلا يصفح حيث اقتضى المقام العقوبة؛ كعقوبة المعتدين الظالمين الذين لا ينفع فيهم إلا العقوبة، وهذا هو المعنى.

﴿٨٦﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ﴾: لكل مخلوق، ﴿الْعَلِيمُ﴾: بكل شيء؛ فلا يعجزه أحد من جميع ما أحاط به علمه، وجرى عليه خلقه، وذلك سائر الموجودات.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلِنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ (١).

﴿٨٧﴾ يقول تعالى ممثلاً على رسوله: ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني﴾: وهنّ على الصحيح السور السبع الطوال: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال مع التوبة. أو أنها فاتحة الكتاب؛ لأنها سبع آيات. فيكون عطف ﴿القرآن العظيم﴾ على ذلك من باب عطف العام على الخاص؛ لكثرة ما في المثاني من التوحيد وعلوم الغيب والأحكام الجليلة وتنشيتها فيها. وعلى القول بأن الفاتحة هي السبع المثاني معناها أنها سبع آيات تنشئ في كل ركعة.

﴿٨٨﴾ وإذا كان الله قد أعطاه القرآن العظيم مع السبع المثاني؛ كان قد أعطاه أفضل ما يتنافس فيه المتنافسون وأعظم ما فرح به المؤمنون، ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾، ولذلك قال بعده: ﴿لا تمدنن

(١) الآيات ما بين المعقوفتين زيادة على النسختين.

عينيك إلى ما مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ﴿٨٩﴾؛ أي: لا تعجب إعجاباً يَحْمِلُكَ عَلَى إِشْغَالِ فِكْرِكَ بِشَهَوَاتِ الدُّنْيَا الَّتِي تَمَتَّعَ بِهَا الْمَتْرَفُونَ وَاعْتَرَّتْ بِهَا الْجَاهِلُونَ، وَاسْتَعْنَى بِمَا آتَاكَ اللَّهُ مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ. ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾: فَإِنَّهُمْ لَا خَيْرَ فِيهِمْ يُرْجَى، وَلَا نَفْعَ يُرْتَقَبُ؛ فَلِكِ فِي الْمُؤْمِنِينَ عَنْهُمْ أَحْسَنُ الْبَدْلِ وَأَفْضَلُ الْعَوْضِ. ﴿وَإِخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: أَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ وَحَسِّنْ لَهُمْ خُلُقَكَ مَحَبَّةً وَإِكْرَامًا وَتَوْدَادًا.

﴿٨٩﴾ ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾؛ أي: قُمْ بِمَا عَلَيْكَ مِنَ النَّذَارَةِ وَأَدِّءِ الرِّسَالَةَ وَالتَّبْلِيغَ لِلقُرْبِ وَالْبَعِيدِ وَالْعَدُوِّ وَالصَّدِيقِ؛ فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ؛ فَلَيْسَ عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ، وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ.

﴿٩٠﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾؛ أي: كَمَا أَنْزَلْنَا الْعُقُوبَةَ عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ عَلَى بَطْلَانٍ مَا جِئْتَ بِهِ، السَّاعِينَ لَصُدِّ النَّاسَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ.

﴿٩١﴾ ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾؛ أي: أَصْنَافًا وَأَعْضَاءً وَأَجْزَاءً يَصْرِفُونَهُ بِحَسَبِ مَا يَهُوونَهُ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: سِحْرٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: كِهَانَةٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: مَفْتَرَى... إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَقْوَالِ الْكُفْرَةِ الْمَكْذُوبِينَ بِهِ، الَّذِينَ جَعَلُوا قَدَحَهُمْ فِيهِ؛ لِيَصُدُّوا النَّاسَ عَنِ الْهُدَى.

﴿٩٢ - ٩٣﴾ ﴿فَوَرَبُّكَ لَنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾؛ أي: جَمِيعَ مَنْ قَدَحَ فِيهِ وَعَابَهُ وَحَرَّفَهُ وَبَدَلَهُ، ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: وَفِي هَذَا أَعْظَمُ تَرْهِيْبٍ وَزَجْرٍ لَهُمْ عَنِ الْإِقَامَةِ عَلَى مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ<sup>(١)</sup>.

﴿٩٤﴾ ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ أَنْ لَا يِيَالِي بِهِمْ وَلَا بغيرهم، وَأَنْ يَصُدَّعَ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ وَيَعْلَنَ بِذَلِكَ لِكُلِّ أَحَدٍ وَلَا يَعُوْقُهُ عَنْ أَمْرِهِ عَائِقٌ وَلَا تَصُدُّهُ أَقْوَالُ الْمُتَهَوِّكِينَ. ﴿وَأَعْرَضَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾: أَي؛ لَا تَبَالِ بِهِمْ، وَاتْرِكْ مَشَاتِمَتَهُمْ وَمَسَابِئَتَهُمْ مَقْبَلًا عَلَى شَانِكَ.

﴿٩٥﴾ ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾: بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ. وَهَذَا وَعْدٌ مِنَ اللَّهِ لِرَسُولِهِ أَنْ لَا يَضُرُّهُ الْمُسْتَهْزِئُونَ، وَأَنْ يَكْفِيَهُ اللَّهُ إِيَاهُمْ بِمَا شَاءَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعُقُوبَةِ، وَقَدْ فَعَلَ تَعَالَى: فَإِنَّهُ مَا تَظَاهَرَ أَحَدٌ بِالْإِسْتِهْزَاءِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبِمَا جَاءَ بِهِ؛ إِلَّا أَهْلَكَهُ اللَّهُ وَقَتَّلَهُ شَرًّا قَتْلَةً.

(١) فِي (ب): «عَلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ».

﴿٩٦﴾ ثم ذكر وصفهم، وأنهم كما يؤذونك يا رسول الله؛ فإنهم أيضاً يؤذون الله، ﴿الذين يجعلون<sup>(١)</sup> مع الله إلهاً آخر﴾: وهو ربهم وخالقهم ومدبرهم. ﴿فسوف يعلمون﴾: غبّ أفعالهم إذا وردوا القيامة.

﴿٩٧﴾ ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون﴾: لك من التكذيب والاستهزاء؛ فنحن قادرون على استئصالهم بالعذاب والتعجيل لهم بما يستحقونه، ولكن الله يمهّلهم، ولا يمهّلهم.

﴿٩٨﴾ فأنت يا محمد، ﴿سبّح<sup>(٢)</sup> بحمد ربك وكن من الساجدين﴾؛ أي: أكثر من ذكر الله وتسبيحه وتحميده والصلاة؛ فإن ذلك يوسع الصدر ويشرّحه ويُعينك على أمورك.

﴿٩٩﴾ ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾؛ أي: الموت؛ أي: استمرّ في جميع الأوقات على التقرب إلى الله بأنواع العبادات. فامتثل ﷺ أمر ربّه، فلم يزل دائماً في العبادة حتى أتاه اليقين من ربّه، ﷺ تسليماً كثيراً.

تم تفسير سورة الحجر. والحمد لله رب العالمين آمين.



## تفسير سورة النحل

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَنْ أَمُرُ اللَّهَ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُزِيلُ الْمَلٰٓئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾.

﴿١﴾ يقول تعالى مقرباً لما وعد به محققاً لوقوعه: ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾: فإنه آت، وما هو آت فإنه قريب. ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾: من نسبة الشريك والولد والصاحبة والكفو وغير ذلك مما نسبه إليه المشركون مما لا يليق بجلاله أو ينافي كماله.

(١) في (ب): «يؤذون الله ويجعلون». (٢) في (ب): «فسبّح».

﴿٢﴾ ولما نزه نفسه عما وصفه به أعداؤه؛ ذكّر الوحي الذي ينزله على أنبيائه مما يجب اتباعه في ذكر ما يُنسب لله من صفات الكمال، فقال: ﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره﴾؛ أي: بالوحي الذي به حياة الأرواح، ﴿على من يشاء من عباده﴾: ممن يعلمه صالحاً لتحمل رسالته. وزبدة دعوة الرسل<sup>(١)</sup> كلهم ومدارها على قوله: ﴿أن أذروا أنه لا إله إلا أنا﴾<sup>(٢)</sup>؛ أي: على معرفة الله تعالى، وتوحيده في صفات العظمة، التي هي صفات الألوهية، وعبادته وحده لا شريك له؛ فهي التي أنزل بها كتبه، وأرسل رسله، وجعل الشرائع كلها تدعو إليها، وتحث، وتجاهد من حاربها، وقام بضدها.

ثم ذكر الأدلة والبراهين على ذلك، فقال:

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٣﴾ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٤﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٥﴾ وَتَحْمِلُ أَوْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّئِنْ تَكُونُوا بِلَاغِهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٦﴾ وَالنَّخْلَ وَالنَّعْلَمَ وَالْحَمِيرَ لِزِكْرِبُهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَعَلَى اللَّهِ فَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨﴾﴾.

هذه السورة تسمى سورة النعم؛ فإن الله ذكر في أولها أصول النعم وقواعدها، وفي آخرها متمماتها ومكملاتها.

﴿٣﴾ فأخبر أنه ﴿خلق السموات والأرض بالحق﴾؛ ليستدل بهما العبادة على عظمة خالقهما وما له من نعوت الكمال، ويعلموا أنه خلقهما مسكناً لعباده الذين يعبدونه بما يأمرهم به من الشرائع التي أنزلها على السنة رسله، ولهذا نزه نفسه عن شرك المشركين به، فقال: ﴿تعالى عما يشركون﴾، أي: تنزهه وتعاضم عن شركهم؛ فإنه الإله حقاً، الذي لا تنبغي العبادة والحب والذل إلا له تعالى.

﴿٤﴾ ولما ذكر خلق السماوات [والأرض]<sup>(٣)</sup>؛ ذكر خلق ما فيهما، وبدأ بأشرف ذلك، وهو الإنسان، فقال: ﴿خلق الإنسان من نطفة﴾؛ لم يزل يدبرها ويرقيها وينمّيها حتى صارت بشراً تاماً كامل الأعضاء الظاهرة والباطنة، قد غمره بنعمه

(٢) في (ب): «لا إله إلا أنا فاتقون».

(١) في (ب): «المرسلين».

(٣) زيادة لا توجد في النسخين.



الغزيرة، حتى إذا استتمَّ فَخَرَ بنفسه وأعجب بها. ﴿فإذا هو خصيم مبين﴾: يُحتمل أن المراد: فإذا هو خصيم لربه؛ يكفر به، ويجادل رسله، ويكذب بآياته، ونسي خلقه الأول، وما أنعم الله عليه به من النعم، فاستعان بها على معاصيه.

ويُحتمل أن المعنى أن الله أنشأ الآدمي من نطفة، ثم لم يزل ينقله من طورٍ إلى طورٍ، حتى صار عاقلاً، متكلماً، ذا ذهن ورأي، يخاصم ويجادل؛ فليشكر العبد ربه الذي أوصله إلى هذه الحال، التي ليس في إمكانه القدرة على شيء منها.

﴿٥﴾ ﴿والأنعام خلقها لكم﴾؛ أي: لأجلكم ولأجل منافعكم ومصالحكم، من جملة منافعها العظيمة، أن ﴿لكم فيها دفء﴾: مما تتخذون من أصوافها وأوبارها وأشعارها وجلودها من الثياب والفرش والبيوت. ﴿و﴾ لكم فيها ﴿منافع﴾: غير ذلك، ﴿ومنها تأكلون﴾.

﴿٦﴾ ﴿ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون﴾؛ أي: في وقت رواحها وراحتها وسكونها ووقت حركتها وسرحها، وذلك أن جمالها لا يعود إليها منه شيء؛ فإنكم أنتم الذين تتجملون بها كما تتجملون بثيابكم وأولادكم وأموالكم وتُعجبون بذلك<sup>(١)</sup>.

﴿٧﴾ ﴿وتحمل أثقالكم﴾: من الأحمال الثقيلة، بل وتحملكم أنتم، ﴿إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس﴾: ولكن الله ذلّلها لكم؛ فمنها ما تركبونه، ومنها ما تحملون عليه ما تشاؤون من الأثقال إلى البلدان البعيدة والأقطار الشاسعة. ﴿إن ربكم لرهوف رحيم﴾: إذ سخر لكم ما تضطرون إليه وتحتاجونه؛ فله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه وسعة جوده وبرّه.

﴿٨﴾ ﴿والخيل والبغال والحمير﴾: سخرناها لكم؛ ﴿لتركبوها وزينة﴾؛ أي: تارة تستعملونها للضرورة في الركوب، وتارة لأجل الجمال والزينة، ولم يذكر الأكل؛ لأن البغال والحمير محرّم أكلها، والخيل لا تستعمل في الغالب للأكل، بل يُنهي عن ذبحها لأجل الأكل خوفاً من انقطاعها، وإلّا؛ فقد ثبت في «الصحيحين» أن النبي ﷺ أذن في لحوم الخيل<sup>(٢)</sup>. ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾: مما يكون بعد

(١) جاء في هامش (ب): «المشهور في التفسير أن قوله: ﴿حين تريحون﴾ أي إذا راحت الأنعام على أهلها وعادت من مسارحها»، والله أعلم.

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٢٠)، ومسلم (١٩٤١) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

نزول القرآن من الأشياء التي يركبها الخلق في البرّ والبحر والجوّ ويستعملونها في منافعهم ومصالحهم؛ فإنه لم يذكرها بأعيانها؛ لأنّ الله تعالى لم يذكر في كتابه إلا ما يعرفه العباد أو يعرفون نظيره، وأمّا ما ليس له نظير؛ فإنه لو ذكّر؛ لم يعرفوه ولم يفهموا المراد منه، فيذكّر أصلاً جامعاً يدخل فيه ما يعلمون وما لا يعلمون؛ كما ذكر نعيم الجنة، وسمّي منه ما نعلم ونشاهد نظيره؛ كالنخل والأعنان، والرمان وأجمل ما لا نعرف له نظيراً في قوله: ﴿فيهما من كلّ فاكهة زوجان﴾؛ فكذلك هنا ذكر ما نعرفه من المراكب؛ كالخيل والبغال والحمير والإبل والسفن، وأجمل الباقي في قوله: ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾.

﴿٩﴾ ولما ذكر تعالى الطريق الحسيّ، وأنّ الله قد جعل للعباد ما يقطعونه به من الإبل وغيرها؛ ذكر الطريق المعنويّ الموصل إليه، فقال: ﴿وعلى الله قُضدُ السبيل﴾؛ أي: الصراط المستقيم، الذي هو أقرب الطرق وأخصرها، موصل إلى الله وإلى كرامته، وأمّا الطريق الجائر في عقائده وأعماله، وهو كلّ ما خالف الصراط المستقيم؛ فهو قاطعٌ عن الله، موصلٌ إلى دار الشقاء، فسلك المهتدون الصراط المستقيم بإذن ربّهم، وضلّ الغاؤون عنه، وسلكوا الطرق الجائرة. ﴿ولو شاء لهداكم أجمعين﴾: ولكنّه هدى بعضاً كرماً وفضلاً، ولم يهدِ آخرين حكماً منه وعدلاً.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿١٠ - ١١﴾ بذلك على كمال قدرة الله الذي أنزل هذا الماء من السحاب الرقيق اللطيف ورحمته، حيث جعل فيه ماءً غزيراً منه يشربون، وتشرب مواشيهم، ويسقون منه حرورهم، فتخرج لهم الثمرات الكثيرة والنعيم الغزيرة.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّكَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿١٢﴾ أي: سخّر لكم هذه الأشياء لمنافعكم وأنواع مصالحكم؛ بحيث لا تستغنون عنها أبداً؛ فبالليل تسكنون وتنامون وتستريحون، وبالنهار تنتشرون في معاشكم ومنافع دينكم ودنياكم، وبالشمس والقمر من الضياء والنور والإشراق

وإصلاح الأشجار والثمار والنبات وتجفيف الرطوبات وإزالة البرودة الضارة للأرض وللأبدان وغير ذلك من الضروريات والحاجيات التابعة لوجود الشمس والقمر، وفيهما وفي الثُجُوم من الزينة للسماء والهداية في ظلمات البرِّ والبحر ومعرفة الأوقات وحساب الأزمنة ما تتنوع دلالاتها وتتصرف آياتها، ولهذا جمعها في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾؛ أي: لمن لهم عقول يستعملونها في التدبُّر والتفكُّر فيما هي مهيئة له مستعدة، تعقل ما تراه وتسمعه، لا كنظر الغافلين الذين حُظُّهم من النظر حظُّ البهائم التي لا عقل لها.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ ﴿١٣﴾.

﴿١٣﴾ أي: فيما ذرأ الله ونشر للعباد من كل ما على وجه الأرض من حيوان وأشجار ونبات وغير ذلك مما تختلف ألوانه وتختلف منافعه آية على كمال قدرة الله وعميم إحسانه وسعة بره وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له. ﴿لِقَوْمٍ يَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: يستحضرون في ذاكرتهم ما ينفعهم من العلم النافع ويتأملون ما دعاهم الله إلى التأمل فيه حتى يتذكروا بذلك ما هو دليل عليه.

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿١٤﴾.

﴿١٤﴾ أي: [و]هو وحده لا شريك له ﴿الذي سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾: وهياه لمنافعكم المتنوعة؛ ﴿لتأكلوا منه لَحْمًا طَرِيًّا﴾: وهو السمك والحوث الذي يصطادونه منه، ﴿وتستخرجوا منه حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾: فتزيدكم جمالاً وحسناً إلى حسنكم. ﴿وترى الْفُلْكَ﴾؛ أي: السفن والمراكب ﴿مَوَاجِرَ فِيهِ﴾؛ أي: تَمَخَّرَ الْبَحْرَ الْعَجَاجَ الْهَائِلَ بِمَقْدَمِهَا حَتَّى تَسْلُكَ فِيهِ مِنْ قَطْرِ إِلَى آخِرِ تَحْمِلِ الْمَسَافِرِينَ وَأَرْزَاقَهُمْ وَأَمْتَعَتَهُمْ وَتِجَارَاتِهِمْ الَّتِي يَطْلُبُونَ بِهَا الْأَرْزَاقَ وَفَضَلَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ. ﴿ولعلكم تشكرون﴾: الذي يسر لكم هذه الأشياء وهياها وتثنون على الله الذي من بها؛ فله تعالى الحمد والشكر والثناء؛ حيث أعطى العباد من مصالحهم ومنافعهم فوق ما يطلبون وأعلى مما يتمنون وآتاهم من كل ما سألوه لا نحصي ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه.

﴿وَالَّذِي فِي الْأَرْضِ رَوًى أَنْ نَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَرَ سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ﴿١٥﴾ وَعَلَّمَتْ وَيَالْتَجِمُ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾.

﴿١٥ - ١٦﴾ أي: ﴿وَأَلْقَى﴾: الله تعالى لأجل عباده ﴿فِي الْأَرْضِ رِوَاسِي﴾: وهي الجبال العظام؛ لئلا تميذ بهم وتضطرب بالخلق، فيتمكنون من حرث الأرض والبناء والسير عليها، ومن رحمته تعالى أن جعل فيها أنهاراً يسوقها من أرض بعيدة إلى أرض مضطرة إليها؛ لسقيهم وسقي مواشيهم وحرثهم؛ أنهاراً على وجه الأرض وأنهاراً في بطنها يستخرجونها بحفرها حتى يصلوا إليها فيستخرجونها بما سخر الله لهم من الدوالي والآلات ونحوها، ومن رحمته أن جعل في الأرض سُبُلًا؛ أي: طرقاً توصل إلى الديار المتناثية. ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾: السبيل إليها، حتى إنك تجد أرضاً مشتبكة بالجبال مسلسلة فيها، وقد جعل الله فيما بينها منافذ ومسالك للسالكين.

﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (١٧) وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨) وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوتُ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوتُ عَيْرٌ أَحْيَاءٌ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١) إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٢٢) لَا جَرَمَ أَنْ اللَّهُ يَعْلَمَ مَا تُسْرُوتُ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّونَ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣) .

﴿١٧﴾ لما ذكر تعالى ما خلقه من المخلوقات العظيمة وما أنعم به من النعم العظيمة؛ ذكر أنه لا يشبهه أحد، ولا كفاء له ولا ند له، فقال: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ﴾: جميع المخلوقات، وهو الفعل لما يريد، ﴿كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾: شيئاً لا قليلاً ولا كثيراً. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾: فتعرفون أن المنفرد بالخلق أحق بالعبادة كلها؛ فكما أنه واحد في خلقه وتدييره؛ فإنه واحد في إلهيته وتوحيده وعبادته، وكما أنه ليس له مشارك إذ أنشأكم وأنشأ غيركم؛ فلا تجعلوا له أنداداً في عبادته، بل اخلصوا له الدين.

﴿١٨﴾ ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾: عدداً مجرداً عن الشكر، ﴿لَا تُحْصُوهَا﴾: فضلاً عن كونكم تشكرونها؛ فإن نعمه الظاهرة والباطنة على العباد بعدد الأنفاس واللحظات، من جميع أصناف النعم، مما يعرف العباد ومما لا يعرفون، وما يدفع عنهم من النقم؛ فأكثر من أن تحصى. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: يرضى منكم باليسير من الشكر مع إنعامه الكثير.

﴿١٩ - ٢٠﴾ وكما أن رحمته واسعة وجوده عميم ومغفرته شاملة للعباد؛ فعلمه

محيط بهم، يعلم ما يسرون وما يعلنون بخلاف مَنْ عُبِدَ مِنْ دُونِهِ فَإِنَّهُمْ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا: قليلاً ولا كثيراً. ﴿وَهُمْ يُخْلُقُونَ﴾؛ فكيف يَخْلُقُونَ شَيْئًا مع افتقارهم في إيجادهم إلى الله تعالى!؟

﴿٢١ - ٢٢﴾ ومع هذا؛ ليس فيهم من أوصاف الكمال شيء لا علم ولا غيره. ﴿أَمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّذِينَ لَا يُبْصِرُونَ وَلَا تَسْمَعُونَ وَلَا تُعْقِلُونَ﴾: فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل شيئاً، أفْتَتَّخِذُ هَذِهِ آلِهَةً مِنْ دُونِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؟! فتباً لعقول المشركين ما أضلّها وأفسدّها؛ حيث ضلّت في أظهر الأشياء فساداً، وسوّوا بين الناقص من جميع الوجوه؛ فلا أوصاف كمال، ولا شيء من الأفعال! وبين الكامل من جميع الوجوه الذي له كلُّ صفة كمال وله من تلك الصفة أكملها وأعظمها؛ فله العلم المحيط بكلِّ الأشياء والقدرة العامّة والرحمة الواسعة التي ملأت جميع العوالم والحمد والمجد والكبرياء والعظمة التي لا يقدر أحد من الخلق أن يحيط ببعض أوصافه، ولهذا قال: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾: وهو الله الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد؛ فأهل الإيمان والعقول أجلّته قلوبهم، وعظّمته، وأحبّته حبّاً عظيماً، وصرّفوا له كلّ ما استطاعوا من القربات البدنيّة والماليّة وأعمال القلوب وأعمال الجوارح، وأثنوا عليه بأسمائه الحسنى وصفاته وأفعاله المقدسة.

﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ﴾: لهذا الأمر العظيم، الذي لا ينكره إلا أعظم الخلق جهلاً وعناداً، وهو توحيد الله. ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾: عن عبادته. ﴿٢٣﴾ ﴿لَا جَزْمَ﴾؛ أي: حقاً لا بدّ ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾: من الأعمال القبيحة. ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾: بل يبغضهم أشدّ البغض، وسيجازيهم من جنس عملهم. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٢٤﴾ يَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَنَّ اللَّهَ بَيّنَهُمْ مِنَ الْفَوَاحِشِ فَنَحَرَ عَلَيْهِمُ السَّقْفَ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَنْتَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِبُهُمْ وَيَقُولُ أَيُّ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَشْفُقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَاةَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا

كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَأَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴿٢٨﴾

﴿٢٤﴾ يقول تعالى مخبراً عن شدة تكذيب المشركين بآيات الله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنزِلَ رُبُّكُمْ﴾؛ أي: إذا سئلوا عن القرآن والوحي الذي هو أكبر نعمة أنعم الله بها على العباد؛ فماذا قولكم به؟ وهل تشكرون هذه النعمة وتعترفون بها أم تكفرون وتعاندون؟ فيكون جوابهم أقبح جواب وأسمجه، فيقولون عنه: إنه ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: كذب اختلقه محمد على الله، وما هو إلا قَصَصُ الْأَوَّلِينَ التي يتناقلها الناس جيلاً بعد جيل، منها الصدق ومنها الكذب.

﴿٢٥﴾ فقالوا هذه المقالة، ودعوا أتباعهم إليها، وحمَلُوا وِزْرَهُمْ ووزر من انقاد لهم إلى يوم القيامة، وقوله: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؛ أي: من أوزار المقلدين الذين لا علم عندهم إلا ما دَعَوْهُم إليه، فيحملون إثم ما دَعَوْهُم إليه وأما الذين يعلمون؛ فكلُّ مُسْتَقِلِّ بِجُرْمِهِ؛ لأنه عرف ما عرفوا. ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾؛ أي: بشس ما حملوا من الوزر المثليل لظهورهم من وِزْرِهِمْ ووزر من أضلوه.

﴿٢٦ - ٢٧﴾ ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾: برسلمهم، واحتالوا بأنواع الحيل على رد ما جاؤوهم به، وبنوا من مكرهم قصوراً هائلة، ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾؛ أي: جاءها الأمر من أساسها وقاعدتها، ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾: فصار ما بَنَوْهُ عَذَاباً عَذَّبُوا بِهِ. ﴿وَأَنَّهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾: وذلك أنهم ظنوا أن هذا البنيان سينفعهم ويقيهم العذاب، فصار عذابهم فيما بَنَوْهُ وَأَصْلُوهُ. وهذا من أحسن الأمثال في إبطال الله مكر أعدائه؛ فإنهم فكروا وقدرُوا فيما جاءت به الرسل لما كذبوه وجعلوا لهم أصولاً وقواعد من الباطل يرجعون إليها ويردّون بها ما جاءت به الرسل، واحتالوا أيضاً على إيقاع المكروه والضرر بالرسل وَمَنْ تَبِعَهُمْ، فصار مكرهم وبيلاً عليهم، فصار تدبيرهم فيه تدميرهم، ذلك لأن مكرهم سييء، ولا يحق المكر السييء إلا بأهله. هذا في الدنيا، ولعذاب الآخرة أخزى، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾؛ أي: يفضحهم على رؤوس الخلائق ويبين لهم كذبهم واقترأهم على الله. ﴿ويقول ابن شركائني الذين كنتم تشاقون فيهم﴾؛ أي: تحاربون وتعادون الله وجزيه لأجلهم تزعمون أنهم شركاء لله؛ فإذا سألهم هذا السؤال؛ لم يكن لهم جواب إلا الإقرار بضلالهم

والاعتراف بعنادهم، فيقولون: ﴿صَلُّوا عَلَيْنَا وَشَهِدُوا عَلَيَّ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾: ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾؛ أي: العلماء الربانيون: ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ﴾؛ أي: يوم القيامة، [﴿وَالسُّوءَ﴾؛ أي]: العذاب ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. وفي هذا فضيلة أهل العلم، وأنهم الناطقون بالحق في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وأن لقولهم اعتباراً عند الله وعند خلقه.

﴿٢٨﴾ ثم ذكر ما يفعل بهم عند الوفاة وفي القيامة، فقال: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُم الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾؛ أي: تتوفاهم في هذه الحال التي كثر فيها ظلمهم وغيثهم، وقد علم ما يلقي الظلمة في ذلك المقام من أنواع العذاب والخزي والإهانة. ﴿فَالْقُوا السَّلْمَ﴾؛ أي: استسلموا وأنكروا ما كانوا يعبدونهم من دون الله، وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾: فيقال لهم: ﴿بَلَى﴾: كنتم تعملون السوء. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: فلا يفيدكم الجحود شيئاً. ولهذا في بعض مواقف القيامة؛ ينكرون ما كانوا عليه في الدنيا؛ ظناً أنه ينفعهم؛ فإذا شهدت عليهم جوارحهم، وتبين ما كانوا عليه؛ أقرؤا واعترفوا، ولهذا لا يدخلون النار حتى يعترفوا بذنوبهم.

﴿٢٩﴾ فإذا دخلوا<sup>(١)</sup> أبواب جهنم، كلُّ أهل عمل يدخلون من الباب اللائق بحالهم؛ فبئس ﴿مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾: نار جهنم؛ فإنها مثوى الحسرة والندم، ومنزل الشقاء والألم، ومحلُّ الهموم والغموم، وموضع السخَط من الحي القيوم، لا يُفْتَر عنهم من عذابها، ولا يُزْفَع عنهم يوماً من أليم عقابها، قد أعرض عنهم الربُّ الرحيم، وأذاقهم العذاب العظيم.

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعَمَ دَارَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ نُوَفِّئُهُمُ الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿٣٠﴾ لما ذَكَرَ اللهُ قِيلَ الْمَكْذِبِينَ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ؛ ذَكَرَ مَا قَالَهُ الْمُتَّقُونَ، وَأَنَّهمْ اعْتَرَفُوا وَأَقْرَأُوا بِأَنَّ مَا أَنْزَلَ اللهُ نِعْمَةً عَظِيمَةً وَخَيْرٌ عَظِيمٌ أَمْتَنَ اللهُ بِهِ عَلَى الْعِبَادِ،

(١) في (ب): «ودخلوا».

قبلوا تلك النعمة، وتلقّوها بالقبول والانقياد، وشكروا الله عليها، فعلموها وعملوا بها. ﴿للذين أحسنوا﴾: في عبادة الله تعالى وأحسنوا إلى عباد الله؛ فلهم ﴿في هذه الدنيا حسنة﴾: رزق واسع وعيشة هنيئة وطمأنينة قلب وأمن وسرور. ﴿ولدار الآخرة خير﴾: من هذه الدار وما فيها من أنواع اللذات والمشتبهات؛ فإن هذه نعيمها قليل محشو بالآفات منقطع؛ بخلاف نعيم الآخرة، ولهذا قال: ﴿ولنعم دار المتقين﴾.

﴿٣١ - ٣٢﴾ ﴿جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاؤون﴾؛ أي: مهما تمتته أنفسهم وتعلقت به إراداتهم؛ حصل لهم على أكمل الوجوه وأتمها؛ فلا يمكن أن يطلبوا نوعاً من أنواع النعيم الذي فيه لذّة القلوب وسرور الأرواح؛ إلا وهو حاضر لديهم، ولهذا يُعطي الله أهل الجنة كل ما تمنّوه عليه، حتى إنهم يذكرهم أشياء من النعيم لم تخطر على قلوبهم؛ فتبارك الذي لا نهاية لكرمه ولا حدّ لجوده، الذي ليس كمثله شيء في صفات ذاته وصفات أفعاله وأثار تلك النعوت وعظمة الملك والملكوت. ﴿كذلك يخزي الله المتقين﴾: لِسَخَطِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ؛ بأداء ما أوجبه عليهم من الفروض والواجبات المتعلقة بالقلب والبدن واللسان من حقّه وحقّ عباده، وترك ما نهاهم الله عنه. ﴿الذين تتوفّاهم الملائكة﴾: مستمرّين على تقواهم، ﴿طيبين﴾؛ أي: طاهرين مطهّرين من كل نقص ودنس يتطرّق إليهم ويُخلّ في إيمانهم، فطابت قلوبهم بمعرفة الله ومحبّته، وألسنتهم بذكره والثناء عليه، وجوارحهم بطاعته والإقبال عليه. ﴿يقولون سلام عليكم﴾؛ أي: التحية الكاملة حاصلّة لكم، والسلامة من كلّ آفة، وقد سلمتم من كلّ ما تكرهون. ﴿ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾: من الإيمان بالله والانقياد لأمره؛ فإنّ العمل هو السبب والمادة والأصل في دخول الجنة والنجاة من النار، وذلك العمل حصل لهم برحمة الله ومثته، لا بحولهم وقوتهم.

— ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿٣٣﴾ يقول تعالى: هل ينظرون هؤلاء الذين جاءتهم الآيات فلم يؤمنوا ودكروا فلم يتذكروا، ﴿إلا أن تأتيهم الملائكة﴾: لقبض أرواحهم، ﴿أو يأتي أمر ربك﴾:



بالعذاب الذي سيحلُّ بهم؛ فإنَّهم قد استحقُّوا لوقوعه فيهم. ﴿كذلك فعَل الذين من قبلهم﴾: كذَّبوا وكفروا، ثم لم يؤمنوا، حتى نزل بهم العذاب. ﴿وما ظلمهم الله﴾؛ إذ عذبهم، ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾؛ فإنَّها مخلوقة لعبادة الله؛ ليكونَ مألها إلى كرامة الله، فظلموها وتركوا ما خَلَقَتْ له وعرضوها للإهانة الدائمة والشقاء الملازم.

﴿٣٤﴾ ﴿فأصابهم سيئاتٌ ما عملوا﴾؛ أي: عقوبات أعمالهم وآثارها، ﴿وحاق بهم﴾؛ أي: نزل ﴿ما كانوا به يستهزئون﴾: فإنَّهم كانوا إذا أخبرتهم رسُلهم بالعذاب؛ استهزؤوا به، وسخروا ممَّن أخبر به، فحلَّ بهم ذلك الأمر الذي سخروا منه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسْلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿٣٥﴾ أي: احتجَّ المشركون على شركهم بمشيئة الله، وأنَّ الله لو شاء ما أشركوا ولا حرَّموا شيئاً من الأنعام التي أحلَّها؛ كالبحيرة والوصيلة والحام ونحوها من دونه، وهذه حجَّة باطلة؛ فإنَّها لو كانت حقًّا؛ ما عاقب الله الذين من قبلهم حيث أشركوا به، فعاقبهم أشدَّ العقاب؛ فلو كان يحبُّ ذلك منهم؛ لما عذبهم. وليس قصدهم بذلك إلا ردَّ الحقِّ الذي جاءت به الرسل، وإلا؛ فعندهم علمٌ أنه لا حجَّة لهم على الله؛ فإنَّ الله أمرهم ونهاهم، ومكَّنهم من<sup>(١)</sup> القيام بما كلَّفهم، وجعل لهم قوَّة ومشيئة تصدر عنها أفعالهم؛ فاحتجاجهم بالقضاء والقَدَر من أبطل الباطل، هذا وكلِّ أحدٍ يعلم بالحسِّ قدرة الإنسان على كلِّ فعل يريده من غير أن ينازعه منازع؛ فجمعوا بين تكذيب الله وتكذيب رسِّله وتكذيب الأمور العقلية والحسية. ﴿فهل على الرسل إلا البلاغ المبين﴾؛ أي: البين الظاهر الذي يصلُّ إلى القلوب ولا يبقى لأحدٍ على الله حجَّة؛ فإذا بلَّغتهم الرسل أمر ربِّهم ونهيه - واحتجُّوا عليهم بالقَدَر -؛ فليس للرسْلِ من الأمر شيء، وإنما حسابهم على الله عزَّ وجلَّ.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى

(١) في (ب): «على».

اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٣٦﴾ إِنْ تَحَرَّضَ عَلَىٰ هُدْيَتِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٧﴾

﴿٣٦﴾ يخبر تعالى أن حجته قامت على جميع الأمم، وأنه ما من أمة متقدمة أو متأخرة إلا وبعث الله فيها رسولا، وكلهم متفقون على دعوة واحدة ودين واحد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له. ﴿أَنْ اعبُدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾: فانقسمت الأمم بحسب استجابتها لدعوة الرسل وعدمها قسمين: ﴿فمنهم من هدى الله﴾: فاتبعوا المرسلين علما وعملا، ﴿ومنهم من حقت عليه الضلالة﴾: فاتبع سبيل الغي. ﴿فسيروا في الأرض﴾: بأبدانكم وقلوبكم، ﴿فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾: فإنكم سترون من ذلك العجائب؛ فلا تجد<sup>(١)</sup> مكذبا إلا كان عاقبته الهلاك.

﴿٣٧﴾ ﴿إِنْ تَحَرَّضَ عَلَىٰ هِدَاهِم﴾: وتبذل جهدك في ذلك، ﴿فإنَّ الله لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾: ولو فعل كل سبب؛ لم يهده إلا الله. ﴿وما لهم من ناصرين﴾: ينصرونهم من عذاب الله، ويقونهم بأسه.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيَبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾

﴿٣٨﴾ يخبر تعالى عن المشركين المكذبين لرسوله أنهم ﴿أقسموا بالله جهداً أيمانهم﴾؛ أي: حلفوا أيمانا مؤكدة مغلظة على تكذيب الله وأن الله لا يبعث الأموات ولا يقدر على إحيائهم بعد أن كانوا تراباً. قال تعالى مكذبا لهم: ﴿بلى﴾ سيبعثهم ويجمعهم ليوم لا ريب فيه. ﴿وعدا عليه حقا﴾: لا يخلفه ولا يغيره. ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾: ومن جهلهم العظيم إنكارهم البعث والجزاء.

﴿٣٩ - ٤٠﴾ ثم ذكر الحكمة في الجزاء والبعث، فقال: ﴿ليبين لهم الذي يختلفون فيه﴾: من المسائل الكبار والصغار، يبين حقائقها ويوضحها، ﴿وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين﴾: [حين]<sup>(٢)</sup> يرون أعمالهم خسرات عليهم، وما نفعتهم آلهتهم التي يدعون مع الله من شيء لما جاء أمر ربك، وحين يرون ما

(٢) كذا في (ب). وفي (أ): «حتى».

(١) في (ب): «فلا تجدون».

يعبدون حطباً لجهنم، وتكور الشمس والقمر، وتتناثر النجوم، ويتضح لمن يعبدها أنها عبيد مسخرات، وأنهن مفتقرات إلى الله في جميع الحالات، وليس ذلك على الله بصعب ولا شديد؛ فإنه إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون من غير منازعة ولا امتناع، بل يكون على طبق ما أَرَادَهُ وشاءه.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوْنَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿٤١﴾ يخبر تعالى بفضل المؤمنين الممتحنين، ﴿الذين هاجروا في الله﴾؛ أي: في سبيله وابتغاء مرضاته، ﴿من بعد ما ظلموا﴾: بالأذية والمحنة من قومهم، الذين يفتنونهم ليردوهم إلى الكفر والشرك، فتركوا الأوطان والخلاان، وانتقلوا عنها لأجل طاعة الرحمن، فذكر لهم ثوابين: ثواباً عاجلاً في الدنيا من الرزق الواسع والعيش الهنيء الذي رآه عياناً بعدما هاجروا وانتصروا على أعدائهم وافتتحوا البلدان وغنموا منها الغنائم العظيمة فتمولوا وآتاهم الله في الدنيا حسنة. ﴿ولأجر الآخرة﴾: الذي وعدهم على لسان رسوله خيرٌ و﴿أكبر﴾ من أجر الدنيا؛ كما قال تعالى: ﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون. يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوانٍ وجناتٍ لهم فيها نعيم مقيم. خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجرٌ عظيم﴾. وقوله: ﴿لو كانوا يعلمون﴾؛ أي: لو كان لهم علمٌ ويقينٌ بما عند الله من الأجر والثواب لمن آمن به وهاجر في سبيله؛ لم يتخلف عن ذلك أحدٌ.

﴿٤٢﴾ ثم ذكر وصف أوليائه، فقال: ﴿الذين صبروا﴾: على أوامر الله، وعن نواهيها، وعلى أقدار الله المؤلمة، وعلى الأذية فيه والمحن. ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾؛ أي: يعتمدون عليه في تنفيذ محابته لا على أنفسهم، وبذلك تنجح أمورهم وتستقيم أحوالهم؛ فإن الصبر والتوكل ملاك الأمور كلها؛ فما فات أحداً شيء من الخير إلا لعدم صبره وبذل جهده فيما أريد منه أو لعدم توكله واعتماده على الله.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾  
 ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾  
 ﴿٤٣﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً﴾؛ أي:

لست ببدع من الرسل، فلم نرسل قبلك ملائكة، بل رجالاً كامليين لا نساء. ﴿نوحى إليهم﴾: من الشرائع والأحكام ما هو من فضله وإحسانه على العبيد، من غير أن يأتوا بشيء من قبل أنفسهم. ﴿فاسألوا أهل الذكر﴾؛ أي: الكتب السابقة ﴿إن كنتم لا تعلمون﴾: نبأ الأولين، وشككتهم، هل بعث الله رجالاً؟ فاسألوا أهل العلم بذلك، الذين نزلت عليهم الزبور والبيّنات، فعلموها وفهموها؛ فإنهم كلهم قد تقرّر عندهم أنّ الله ما بعث إلّا رجالاً يوحي إليهم من أهل القرى.

وعموم هذه الآية فيها مدح أهل العلم، وأنّ أعلى أنواعه العلم بكتاب الله المنزل؛ فإنّ الله أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم في جميع الحوادث، وفي ضمنه تعديل لأهل العلم وتزكية لهم؛ حيث أمر بسؤالهم، وأنّ بذلك يخرج الجاهل من التّبعة، فدلّ على أنّ الله ائتمنهم على وحيه وتنزيله، وأنهم مأمورون بتزكية أنفسهم والاتصاف بصفات الكمال.

﴿٤٤﴾ وأفضل أهل الذكر أهل هذا القرآن العظيم؛ فإنهم أهل الذكر على الحقيقة، وأولى من غيرهم بهذا الاسم، ولهذا قال تعالى: ﴿وانزلنا إليك الذكر﴾؛ أي: القرآن الذي فيه ذكر ما يحتاج إليه العباد من أمور دينهم ودنياهم الظاهرة والباطنة، ﴿لتبين للناس ما نزل إليهم﴾: وهذا شامل لتبيين ألفاظه وتبيين معانيه. ﴿ولعلمهم يتفكرون﴾: فيه، فيستخرجون من كنوزه وعلومه بحسب استعدادهم وإقبالهم عليه.

﴿أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخيف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾ (٤٥) أو يأخذهم في قلبهم فما هم بمعجزين ﴿٤٦﴾ أو يأخذهم على خوف فإن ربكم لرؤوف رحيم ﴿٤٧﴾.

﴿٤٥ - ٤٧﴾ هذا تخويف من الله تعالى لأهل الكفر والتكذيب وأنواع المعاصي من أن يأخذهم بالعذاب على غرة وهم لا يشعرون: إما أن يأخذهم العذاب من فوقهم، أو من أسفل منهم بالخسف وغيره، وإما في حال تقلبهم وشغلهم وعدم خطور العذاب ببالهم، وإما في حال تخوفهم من العذاب؛ فليسوا بمعجزين الله<sup>(١)</sup> في حالة من هذه الأحوال، بل هم تحت قبضته، ونواصيهم بيده، ولكنه رؤوف

(١) في (ب): «الله».

رحيم، لا يعاجل العاصين بالعقوبة، بل يمهلهم ويعافهم ويرزقهم، وهم يؤذونه ويؤذون أولياءه، ومع هذا يَفْتَحُ لهم<sup>(١)</sup> أبواب التوبة، ويدعوهم إلى الإقلاع عن السيئات التي تضرهم، ويَعِدُّهم بذلك أفضل الكرامات ومغفرة ما صدر منهم من الذنوب؛ فليستح المجرم من ربه أن تكون نعم الله عليه نازلة في جميع [اللحظات] ومعاصيه صاعدة إلى ربه في كل الأوقات، وليعلم أن الله يمهل ولا يهمل، وأنه إذا أخذ العاصي؛ أخذه أخذ عزيز مقتدر؛ فليتب إليه، وليرجع في جميع أموره إليه؛ فإنه رءوف رحيم؛ فالبدارَ البدارَ إلى رحمة الواسعة، وبره العميم، وسلوك الطرق الموصلة إلى فضل الرب الرحيم، ألا وهي تقواه، والعمل بما يحبه ويرضاه.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَنْفِيوُا ظِلَالَهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

﴿٤٨﴾ يقول تعالى: ﴿أولم يروا﴾؛ أي: الشاكون في توحيد ربهم وعظمته وكماله، ﴿إلى ما خلق الله من شيء﴾؛ أي: إلى جميع مخلوقاته، وكيف تنفياً أظلتها ﴿عن اليمين والشمال سجداً لله﴾؛ أي: كلها ساجدة لربها خاضعة لعظمته وجلاله، ﴿وهم داخرون﴾؛ أي: ذليلون تحت التسخير والتدبير والقهر، ما منهم أحد إلا وناصيته بيد الله وتدبيره عنده.

﴿٤٩﴾ ﴿ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة﴾: من الحيوانات الناطقة والصامتة، ﴿والملائكة﴾: الكرام، خضعهم بعد العموم لفضلهم وشرفهم وكثرة عبادتهم، ولهذا قال: ﴿وهم لا يستكبرون﴾؛ أي: عن عبادته؛ على كثرتهم وعظمة أخلاقهم وقوتهم؛ كما قال تعالى: ﴿لن يستكبر المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون﴾.

﴿٥٠﴾ ﴿يخافون ربهم من فوقهم﴾: لما مدحهم بكثرة الطاعة والخضوع لله؛ مدحهم بالخوف من الله الذي هو فوقهم بالذات والقهر وكمال الأوصاف؛ فهم أدلاء تحت قهره. ﴿ويفعلون ما يؤمرون﴾؛ أي: مهما أمرهم الله تعالى؛ امتثلوا

(١) في (ب): «عليهم».

لأمره طوعاً واختياراً. وسجود المخلوقات لله تعالى قسماً: سجود اضطرار ودلالة على ما له من صفات الكمال، وهذا عامٌ لكل مخلوق من مؤمن وكافرٍ وبرٍّ وفاجرٍ وحيوانٍ ناطقٍ وغيره. وسجود اختيارٍ يختصُّ بأوليائه وعباده المؤمنين من الملائكة وغيرهم من المخلوقات.

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَجِدْ فَإِنِّي فَازِهِبُونَ ﴿٥١﴾ وَلَمْ يَأْتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُمْ مِّنْ نَّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ تَعْلَمُونَ إِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فَأَلَيْهِ تَجْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضَّرُّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ فَتَمْتَعُوا ثُمَّ قَلَمُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ .

﴿٥١﴾ يأمر تعالى بعبادته وحده لا شريك له، ويستدلُّ على ذلك بانفراده بالنعمة [الوحدانية]، فقال: ﴿لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾؛ أي: تجعلون له شريكاً في إلهيته، وهو ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾: متوحد في الأوصاف العظيمة، متفرد بالأفعال كلها؛ فكما أنه الواحد في ذاته وأسمائه ونعوته وأفعاله؛ فلتوحدوه في عبادته، ولهذا قال: ﴿فِي أَيِّ يَافَزِهِبُونَ﴾؛ أي: خافوني، وامثلوا<sup>(١)</sup> أمري، واجتنبوا نهبي من غير أن تشركوا شيئاً من المخلوقات؛ فإنها كلها لله تعالى مملوكة.

﴿٥٢﴾ ﴿فَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾؛ أي: الدين والعبادة والذُّلُّ في جميع الأوقات لله وحده على الخلق أن يخلصوه لله وَيَنْصِبُوا بعبوديته. ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾: من أهل الأرض أو أهل السماوات؛ فإنهم لا يملكون لكم ضرراً ولا نفعاً، والله المنفرد بالعطاء والإحسان.

﴿٥٣﴾ ﴿وَمَا بِكُمْ مِّنْ نَّعْمَةٍ﴾: ظاهرة وباطنة ﴿فَمِنَ اللَّهِ﴾: لا أحد يشركه فيها، ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ﴾: من فقر ومرض وشدة ﴿فَالَيْهِ تَجَارُونَ﴾؛ أي: تضرعون بالدعاء والتضرع لعلكم أنه لا يدفع الضرَّ والشدة إلا هو؛ فالذي انفرد بإعطائكم ما تحبون، وصرف ما تكرهون، هو الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده.

﴿٥٤ - ٥٥﴾ ولكن كثيراً من الناس يظلمون أنفسهم ويجحدون نعمة الله عليهم إذا نجَّاهم من الشدة - فصاروا في حال الرخاء -؛ أشركوا به بعض مخلوقاته الفقيرة، ولهذا قال: ﴿ليكفروا بما آتيناكم﴾؛ أي: أعطيناكم؛ حيث نجَّيناكم من

(١) في (ب): «أي: فامثلوا».

الشدّة، وخلصناهم من المشقة. ﴿فتمتعوا﴾: في دنياكم قليلاً ﴿فسوف تعلمون﴾: عاقبة كفركم.

﴿وَجَعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَشَتَّانَ عَمَّا كَتَبْتَ تَقَرُّونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿٥٦﴾ يخبر تعالى عن جهل المشركين وظلمهم وافتراءهم على الله الكذب، وأنهم يجعلون لأصنامهم التي لا تعلم ولا تنفع ولا تضر نصيباً مما رزقهم الله وأنعم به عليهم، فاستعانوا برزقه على الشرك به، وتقرّبوا به إلى أصنام منحوتة؛ كما قال تعالى: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله... الآية.﴾ تالله لئن سألت عن ما كنتم تفترون: ويقال: ﴿الله أمركم بهذا أم على الله تفترون؟ وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة؟! فيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة.

﴿٥٧ - ٥٩﴾ ويجعلون لله البنات: حيث قالوا عن الملائكة العباد المقربين: إنهم بنات الله، ﴿ولهم ما يشتهون﴾؛ أي: لأنفسهم الذكور، حتى إنهم يكرهون البنات كراهة شديدة؛ فكان أحدهم ﴿إذا بُشِّرَ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾: من الغم الذي أصابه، ﴿وهو كظيم﴾؛ أي: كاظم على الحزن والأسف إذ بُشِّرَ بِأُنثَىٰ، وحتى إنه يُفْتَضِّح عند أبناء جنسه، ويتوارى منهم من سوء ما بُشِّرَ به، ثم يُعْمَلُ فكره ورأيه الفاسد فيما يصنع بتلك البنت التي بُشِّرَ بها: ﴿أيمسكه على هون﴾؛ أي: يتركها من غير قتل على إهانة وذل، ﴿أم يدسه في التراب﴾؛ أي: يدفنها وهي حيّة، وهو الواؤد الذي ذم الله به المشركين. ﴿ألا ساء ما يحكمون﴾: إذ وصفوا الله بما لا يليق بجلاله من نسبة الولد إليه، ثم لم يكفهم هذا حتى نسبوا له أروا القسمين، وهو الإناث اللاتي يأنفون بأنفسهم عنها ويكرهونها؛ فكيف ينسبونها لله تعالى؟! فبس الحكم حكمهم.

﴿٦٠﴾ ولما كان هذا من أمثال السوء التي نسبها إليه أعداؤه المشركون؛ قال تعالى: ﴿للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء﴾؛ أي: المثل الناقص والعيب التام. ﴿ولله المثل الأعلى﴾: وهو كل صفة كمال، وكل كمال في الوجود فالله أحق به

من غير أن يستلزم ذلك نقصاً بوجه، وله المثل الأعلى في قلوب أوليائه، وهو التعظيم والإجلال والمحبة والإنابة والمعرفة. ﴿وهو العزيز﴾: الذي قهر جميع الأشياء، وانقادت له المخلوقات بأسرها. ﴿الحكيم﴾: الذي يَضَعُ الأشياء مواضعها فلا يأمر ولا يفعل إلا ما يُحمد عليه، ويُثنى على كماله فيه.

﴿وَلَوْ يُوَٰخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِّن دَٰبَّةٍ وَلَٰكِن يُّوْخِرُهُم إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فِإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَجِرُّونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿٦١﴾ لما ذكر تعالى ما افتراه الظالمون عليه؛ ذكّر كمال حلمه وصبره، فقال: ﴿ولو يواخذ الله الناس بظلمهم﴾: من غير زيادة ولا نقص، ﴿ما ترك﴾ على ظهرها ﴿من دابة﴾؛ أي: لأهلك المباشرين للمعصية وغيرهم من أنواع الدواب والحيوانات؛ فإن شؤم المعاصي يهلك به الحرث والنسل. ﴿ولكن يؤخرهم﴾: عن تعجيل العقوبة عليهم، ﴿إلى أجل مسمى﴾: وهو يوم القيامة. ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾: فليخذروا ما داموا في وقت الإمهال قبل أن يجيء الوقت الذي لا إمهال فيه.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ۗ وَتَصِفُ أَسِنَّتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلسَّنَةَ لَا جَرَءَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ ۗ تَأَلَّفَهُ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرِئَنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَالَهُمْ فَهَوَّوْا لَهُمْ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿٦٢﴾ يخبر تعالى أن المشركين ﴿يجعلون لله ما يكرهون﴾: من البنات ومن الأوصاف القبيحة، وهو الشرك؛ بصرف شيء من العبادات إلى بعض المخلوقات التي هي عبيد لله؛ فكما أنهم يكرهون ولا يرضون أن يكون عبيد لهم - وهم مخلوقون من جنسهم - شركاء لهم فيما رزقهم الله؛ فكيف يجعلون له شركاء من عبيده؟ ﴿و﴾: هم مع هذه الإساءة العظيمة، ﴿تصف أسنتهم الكذب أن لهم الحسنى﴾؛ أي: أن لهم الحالة الحسنة في الدنيا والآخرة؛ ردّ عليهم بقوله: ﴿لا جرء أن لهم النار وأنهم مفراطون﴾: مقدمون إليها، ماكثون فيها، غير خارجين منها أبداً.

﴿٦٣﴾ بين تعالى لرسوله ﷺ أنه ليس هو أول رسول كُذّب، فقال تعالى: ﴿تألفه لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك﴾: رسلاً يدعوهم إلى التوحيد، ﴿فرئنا لهم الشيطان أعمالهم﴾: فكذبوا الرسل، وزعموا أن ما هم عليه هو الحق المنجي من



كُلٌّ مَكْرُوهٌ، وَأَنَّ مَا دَعَتْ إِلَيْهِ الرَّسُلُ؛ فَهُوَ بِخِلَافِ ذَلِكَ، فَلَمَّا زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ؛ صَارَ ﴿وَلِيَّهُمْ﴾: فِي الدُّنْيَا، فَأَطَاعُوهُ وَأَتَّبَعُوهُ وَتَوَلَّوْهُ، ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: فِي الْآخِرَةِ؛ حَيْثُ تَوَلَّوْا عَنْ وِلَايَةِ الرَّحْمَنِ وَرَضُوا بِوِلَايَةِ الشَّيْطَانِ، فَاسْتَحَقُّوا لِذَلِكَ عَذَابَ الْهَوَانِ.

﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [٦٥].<sup>(١)</sup>

﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [٦٥].

﴿٦٥﴾ عَنْ اللَّهِ مَوَاعِظُهُ وَتَذَكِيرُهُ، فَيَسْتَدَلُّونَ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ وَحْدَهُ الْمَعْبُودُ، الَّذِي لَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ؛ لِأَنَّهُ الْمَنْعَمُ بِإِنْزَالِ الْمَطَرِ وَإِنْبَاتِ جَمِيعِ أَصْنَافِ النَّبَاتِ، وَعَلَى أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّ الَّذِي أَحْيَا الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَادِرٌ عَلَى إِحْيَاءِ الْأَمْوَاتِ، وَأَنَّ الَّذِي نَشَرَ هَذَا الْإِحْسَانَ لِدَوْرِ رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَجُودٍ عَظِيمٍ.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِيُعَلِّمَنَّكُمَا فِي بُطُونِهِمْ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبْنَا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [٦٦] وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [٦٧].

﴿٦٦﴾ أَي: ﴿إِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ﴾: الَّتِي سَخَّرَهَا اللَّهُ لِمَنَافِعِكُمْ، ﴿لَعِبْرَةً﴾: تَسْتَدَلُّونَ بِهَا عَلَى كَمَالِ قُدْرَةِ اللَّهِ وَسِعَةِ إِحْسَانِهِ؛ حَيْثُ أَسْقَاكُمْ مِنْ بُطُونِهَا الْمَشْتَمَلَةَ عَلَى الْفَرْثِ وَالدَّمِ، فَأَخْرَجَ مِنْ بَيْنِ ذَلِكَ لَبْنَا خَالِصًا مِنَ الْكَدْرِ سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ لِلذَّاتِ وَلِأَنَّهُ يُسْقِي وَيَغْذِي؛ فَهَلْ هَذِهِ إِلَّا قُدْرَةُ الْهَيْئَةِ لَا أُمُورَ طَبِيعِيَّةٍ؟! فَأَيُّ شَيْءٍ فِي الطَّبِيعَةِ يَقْلِبُ الْعَلْفَ الَّذِي تَأْكُلُهُ الْبَهِيمَةُ وَالشَّرَابَ الَّذِي تَشْرَبُهُ مِنَ الْمَاءِ الْعَذْبِ وَالْمَلْحَ لَبْنَا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ؟!

﴿٦٧﴾ وَجَعَلَ تَعَالَى لِعِبَادِهِ مِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ مَنَافِعَ لِلْعِبَادِ وَمَصَالِحَ مِنْ أَنْوَاعِ الرِّزْقِ الْحَسَنِ الَّذِي يَأْكُلُهُ الْعِبَادُ طَرِيًّا وَنَضِيجًا وَحَاضِرًا وَمَدَّخِرًا وَطَعَامًا وَشَرَابًا يُتَّخَذُ مِنْ عَصِيرِهَا وَنَبِيدِهَا وَمِنَ السُّكَّرِ الَّذِي كَانَ حَلَالًا قَبْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ

(١) فِي النُّسَخَتَيْنِ لَا يُوْجَدُ تَفْسِيرٌ لِلآيَةِ (٦٤)؛ وَلَعَلَّ الْمُؤَلِّفَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - سَهَا عَنْهَا.

إِنَّ اللَّهَ نَسَخَ جِلَّ الْمسكرات وَأعاض عنها بالطيبات من الأنبذة وأنواع الأشربة اللذيذة المباحة، ولهذا قال من قال: إِنَّ المراد بالسُّكْر هنا الطعام والشراب اللذيذ، وهو أولى من القول الأول. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعقلون﴾: عن الله كمال اقتداره؛ حيث أخرجها من أشجارٍ شبيهة بالحطب، فصارت ثمرةً لذيذة وفاكهةً طيبة، وعلى شمول رحمته؛ حيث عمَّ<sup>(١)</sup> بها عباده، ويسرّها لهم، وأتته الإله المعبود وحده؛ حيث إنه المنفرد بذلك.

— ﴿وَأوحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ اللَّبَالِ يَوْمًا مِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿٦٨ - ٦٩﴾ في خلق هذه النحلة الصغيرة، التي هداها الله هذه الهداية العجيبة، ويسر لها المراعي، ثم الرجوع إلى بيوتها التي أصلحتها بتعليم الله لها وهدايته لها، ثم يخرج من بطونها هذا العسل اللذيذ مختلف الألوان بحسب اختلاف أرضها ومراعيها؛ فيه شفاء للناس من أمراض عديدة؛ فهذا دليل على كمال عناية الله تعالى وتماام لطفه بعباده، وأنه الذي لا ينبغي أن يُحبَّ غيره، ويُدعى سواه.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَوَفِّقُكُمْ وَيُنَزِّلُ إِلَيْكُمْ أَنْزَالَ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿٧٠﴾ يخبر تعالى أنه الذي خَلَقَ العباد ونقلهم في الخليقة طوراً بعد طور، ثم بعد أن يستكملوا آجالهم يتوفاهم، ومنهم من يُعَمَّرُهُ حتى يُرَدَّ ﴿إلى أرذل العُمُر﴾؛ أي: أخسّه، الذي يبلغ به الإنسان إلى ضَعْفِ القوى الظاهرة والباطنة، حتى العقل الذي هو جوهر الإنسان يزيد ضَعْفُهُ، حتى إنه ينسى ما كان يعلمه، ويصير عقله كعقل الطفل، ولهذا قال: ﴿لَكِنِّي لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾؛ أي: قد أحاط علمه وقدرته بجميع الأشياء، ومن ذلك ما يُثَقَّلُ به الآدمي من أطوار الخليقة خلقاً بعد خلق؛ كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشِبْهَةَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾.

(١) في (ب): «عَمَّ».

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَأْيِ رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعِنْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (٧١).

﴿٧١﴾ وهذا من أدلة توحيده وقبح الشرك به؛ يقول تعالى: كما أنكم مشتركون بأنكم مخلوقون مرزوقون؛ إلا أنه تعالى ﴿فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾: فجعل منكم أحراراً لهم مالٌ وثروة، ومنكم أرقاء لهم لا يملكون شيئاً من الدنيا؛ فكما أن ساداتهم الذين فضّلهم الله عليهم بالرزق ليسوا ﴿بِرَأْيِ رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾: ويرون هذا من الأمور الممّنتعة؛ فكذلك مَنْ أشركتم بها مع الله؛ فإنها عبيدٌ ليس لها من الملك مثقال ذرّة؛ فكيف تجعلونها شركاء لله تعالى؟! هل هذا إلا من أعظم الظلم والجحود لنعم الله، ولهذا قال: ﴿أَفَبِعِنْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾؛ فلو أقرّوا بالنعمة ونسبوا إلى مَنْ أولاهما؛ لما أشركوا به أحداً.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَيْنًا وَحَفْدةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِعِنْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ (٧٢).

﴿٧٢﴾ يخبر تعالى عن منته العظيمة على عباده؛ حيث جعل لهم أزواجاً ليسكنوا إليها، وجعل لهم من أزواجهم أولاداً تقرُّ بهم أعينهم ويخدمونهم ويقضون حوائجهم وينتفعون بهم من وجوه كثيرة، ورزقهم من الطيبات من المآكل والمشارب والنعم الظاهرة التي لا يقدر العباد أن يحرصوها. ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِعِنْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾؛ أي: أيؤمنون بالباطل الذي لم يكن شيئاً مذكوراً، ثم أوجده الله، وليس له من وجوده سوى العدم؟ فلا تخلق ولا تزرق ولا تدبر من الأمور<sup>(١)</sup> شيئاً، وهذا عامٌ لكل ما عُد من دون الله؛ فإنها باطلة؛ فكيف يتخذها المشركون من دون الله. ﴿وبِعِنْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾: يجحدونها، ويستعينون بها على معاصي الله والكفر به، هل هذا إلا من أظلم الظلم وأفجر الفجور وأسفه السفه؟!.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾

(١) في (ب): «الأمر».

﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ﴿٧٤﴾ ضَرْبَ اللَّهِ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴿٧٥﴾ وَضَرْبَ اللَّهِ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبُكُمْ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَأُلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴿٧٦﴾

﴿٧٣ - ٧٤﴾ يخبر تعالى عن جهل المشركين وظلمهم، أنهم يعبدون من دونه آلهة اتخذوها شركاء لله، والحال أنهم لا يملكون لهم رزقاً من السماوات والأرض؛ فلا يُنزلون مطراً ولا رزقاً، ولا يُنبِتون من نبات الأرض شيئاً، ولا يملكون مثقال ذرة في السماوات والأرض، ولا يستطيعون لو أرادوا؛ فإن غير المالك للشيء ربما كان له قوة واقتدار على ما ينفع من يتصل به، وهؤلاء لا يملكون ولا يقدرون؛ فهذه صفة آلهتهم؛ كيف جعلوها مع الله وشبهوها بملك الأرض والسماوات الذي له الملك كله والحمد كله والقوة كلها، ولهذا قال: ﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾: المتضمنة للتسوية بينه وبين خلقه. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾: فعلينا أن لا نقول عليه بلا علم، وأن نسمع ما ضربه العليم من الأمثال؛ فلهذا ضرب تعالى مثلين له ولمن يُعبد من دونه:

﴿٧٥﴾ أحدهما: عبدٌ مملوك؛ أي: رقيق لا يملك نفسه ولا يملك من المال والدنيا شيئاً، والثاني: حرٌّ غنيٌّ قد رزقه الله منه رزقاً حسناً من جميع أصناف المال، وهو كريمٌ محبٌ للإحسان؛ فهو ينفقُ منه سراً وجهراً؛ هل يستوي هذا وذاك؟! لا يستويان؛ مع أنهما مخلوقان، غير محال استواءهما؛ فإذا كانا لا يستويان؛ فكيف يستوي المخلوق العبد الذي ليس له ملك ولا قدرة ولا استطاعة، بل هو فقير من جميع الوجوه، بالرب الخالق المالك لجميع الممالك، القادر على كل شيء؟! ولهذا حمد نفسه واختص بالحمد بأنواعه، فقال: ﴿الحمد لله﴾: فكأنه قيل: إذا كان الأمر كذلك؛ فلم سوى المشركون آلهتهم بالله؟! قال: ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾: فلو علموا حقيقة العلم؛ لم يتجرؤوا على الشرك العظيم.

﴿٧٦﴾ والمثل الثاني: مثل ﴿رجلين أحدهما أبكم﴾: لا يسمع ولا ينطق، و﴿لا يقدر على شيء﴾: لا قليل ولا كثير، ﴿وهو كلٌّ على مولاه﴾: أي: يخدمه مولاه ولا يستطيع هو أن يخدم نفسه؛ فهو ناقصٌ من كل وجه، فهل يستوي هذا ومن

كان ﴿يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾: فأقواله عدلٌ وأفعاله مستقيمة؛ فكما أنهما لا يستويان؛ فلا يستوي مَنْ عُبِدَ من دون الله وهو لا يقدرُ على شيء من مصالحه؛ فلولا قيامُ الله بها؛ لم يستطع شيئاً منها، لا يكون كفواً ولا نداً لمن لا يقولُ إلاَّ الحقَّ، ولا يفعلُ إلاَّ ما يُحَمَدُ عليه.

﴿وَاللَّهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٧٧).

﴿٧٧﴾ أي: هو تعالى المنفرد بغيبِ السماوات والأرض؛ فلا يعلم الخفايا والبواطن والأسرار إلاَّ هو، ومن ذلك علمُ الساعة؛ فلا يدري أحدٌ متى تأتي إلاَّ الله؛ فإذا جاءت وتجلت؛ لم تكن ﴿إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾: من ذلك، فيقومُ الناس من قبورهم إلى يوم بعثهم ونشورهم، وتفوتُ الفرص لمن يريد الإمهال. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: فلا يُستغرب على قدرته الشاملة إحياءه للموتى.

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٨).

﴿٧٨﴾ أي: هو المنفرد بهذه النعم؛ حيث ﴿أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾: ولا تقديرون على شيء. ثم إنه ﴿جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾: خصَّ هذه الأعضاء الثلاثة لشرفها وفضلها ولأنها مفتاح لكل علم؛ فلا وصلٌ للعبد علمٌ إلاَّ من أحدِ هذه الأبواب الثلاثة، وإلا؛ فسائر الأعضاء والقوى الظاهرة والباطنة هو الذي أعطاهم إيَّاهما وجعل يُنمِّيها فيهم شيئاً فشيئاً إلى أن يصل كلُّ أحدٍ إلى الحالة اللاتقة به، وذلك لأجل أن يشكروا الله باستعمال ما أعطاهم من هذه الجوارح في طاعة الله؛ فمن استعملها في غير ذلك؛ كانت حجةً عليه، وقابل النعمة بأقبح المعاملة.

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٧٩).

﴿٧٩﴾ أي: لأنهم المتنفعون بآيات الله، المتفكرون فيما جعلت آيةً عليه، وأما غيرهم؛ فإنَّ نظرهم نظرٌ لهوٍ وغفلة. ووجه الآية فيها أن الله تعالى خلقها بخلقة

تَصْلُحُ لِلطَّيْرَانِ، ثُمَّ سَخَّرَ لَهَا هَذَا الْهَوَاءَ اللَّطِيفَ، ثُمَّ أَوْدَعَ فِيهَا مِنْ قُوَّةِ الْحَرَكَةِ مَا قَدَرْتَ بِهِ عَلَى ذَلِكَ، وَذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى حِكْمَتِهِ وَعِلْمِهِ الْوَاسِعِ وَعِنَايَتِهِ الرَّبَّانِيَّةِ بِجَمِيعِ مَخْلُوقَاتِهِ وَكَمَالِ اقْتِدَارِهِ؛ تَبَارَكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا عَشَرَ مِثْقَالًا وَمِثْقَالُ الْمَثَرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ مِثْقَالِ السُّبْحِ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْبَأْسَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ ﴿٨٠﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٨١﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿٨٠﴾ يذكرُ تعالى عباده نعمه، ويستدعي منهم شكرها والاعتراف بها، فقال: ﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكنًا﴾: في الدُّور والقصور ونحوها، تُكِنُّكُمْ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ، وَتَسْتُرُكُمْ أَنْتُمْ وَأَوْلَادُكُمْ وَأَمْتَعَتُكُمْ، وَتُتَّخَذُونَ فِيهَا الْبُيُوتَ وَالْغُرُفَ، وَالْبُيُوتُ الَّتِي هِيَ لِأَنْوَاعِ مَنَافِعِكُمْ وَمَصَالِحِكُمْ، وَفِيهَا حِفْظٌ لِأَمْوَالِكُمْ وَحِرْمَانٌ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْفَوَائِدِ الْمَشَاهِدَةِ. ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ﴾: إما من الجلودِ نَفْسِهِ، أَوْ مِمَّا نَبَتَ عَلَيْهِ مِنْ صَوْفٍ وَشَعْرٍ وَوَبَرٍ، ﴿بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا﴾؛ أَي: خَفِيفَةَ الْحَمْلِ<sup>(١)</sup> تَكُونُ لَكُمْ فِي السَّفَرِ، وَالْمَنَازِلِ الَّتِي لَا قَصْدَ لَكُمْ فِي اسْتِيطَانِهَا، فَتَقِيكُمْ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَالْمَطَرِ، وَتَقِي مَنَاعِكُمْ مِنَ الْمَطَرِ. ﴿و﴾ جعل لكم ﴿من أصوافها﴾؛ أَي: الْأَنْعَامِ، ﴿وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا عَشَرَ مِثْقَالًا﴾: وَهَذَا شَامِلٌ لِكُلِّ مَا يُتَّخَذُ مِنْهَا مِنَ الْإِنْيَةِ وَالْأَوْعِيَةِ وَالْفُرْشِ وَالْأَلْبَسَةِ وَالْأَجِلَّةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. ﴿وَمِنَّا إِلَى حِينٍ﴾؛ أَي: تَتَمَتَّعُونَ بِذَلِكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَتَتَنَفَّعُونَ بِهَا؛ فَهَذَا مِمَّا سَخَّرَ اللَّهُ الْعِبَادَ لِصِنْعَتِهِ وَعَمَلِهِ.

﴿٨١﴾ ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ﴾؛ أَي: مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ الَّتِي لَا صِنْعَةَ لَكُمْ فِيهَا، ﴿ظِلَالًا﴾: وَذَلِكَ كَأُظْلَةِ الْأَشْجَارِ وَالْجِبَالِ وَالْأَكَامِ وَنَحْوِهَا. ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾؛ أَي: مَغَارَاتٍ تُكِنُّكُمْ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَالْأَمْطَارِ وَالْأَعْدَاءِ. ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ﴾؛ أَي: أَلْبَسَةَ وَثِيَابًا، ﴿تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾: وَلَمْ يَذْكُرِ اللَّهُ الْبَرْدَ؛ لِأَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ أَوْلَاهَا فِي أَصُولِ النِّعَمِ وَآخِرُهَا فِي مَكْمَلَاتِهَا وَمَتَمِّمَاتِهَا، وَوَقَايَةِ الْبَرْدِ مِنْ أَصُولِ النِّعَمِ؛ فَإِنَّهُ مِنَ الضَّرُورَةِ وَقَدْ ذَكَرَهُ فِي أَوْلَاهَا فِي قَوْلِهِ: ﴿لَكُمْ فِيهَا

دِفءٌ وَمَنَافِعٌ. و ﴿تَقِيكُمْ بِأَسْكُمْ﴾؛ أي: وثياباً تقيكم وقت البأس والحرب من السلاح، وذلك كالدروع والرُّود<sup>(١)</sup> ونحوها. ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾: حيث أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ مِنْ نِعْمِهِ مَا لَا يَدْخُلُ تَحْتَ الْحَصْرِ. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: إذا ذَكَرْتُمْ نِعْمَةَ اللَّهِ وَرَأَيْتُمُوهَا غَامِرَةً لَكُمْ مِنْ كُلِّ وَجْهِ؛ ﴿تُسَلِّمُونَ﴾: لعظمتِهِ وَتَتَقَادُونَ لِأَمْرِهِ وَتَصْرَفُونَهَا فِي طَاعَةِ مُوَلِّيَيْهَا وَمُسْتَدِيهَا؛ فَكَثْرَةُ النِّعَمِ مِنَ الْأَسْبَابِ الْجَالِبَةِ مِنَ الْعِبَادِ مَزِيدَ الشُّكْرِ وَالشَّاءَ بِهَا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى.

﴿٨٢﴾ وَلَكِنْ أَبِي الظَّالِمُونَ إِلَّا تَمْرُدًا وَعِنَادًا، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ عَنْهُمْ: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾: عَنْ اللَّهِ وَعَنْ طَاعَتِهِ بَعْدَمَا ذُكِّرُوا بِنِعْمِهِ وَأَيَاتِهِ، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾: لَيْسَ عَلَيْكَ مِنْ هِدَايَتِهِمْ وَتَوْفِيقِهِمْ شَيْءٌ، بَلْ أَنْتَ مُطَالِبٌ بِالْوَعظِ وَالتَّذْكِيرِ وَالْإِنذَارِ وَالتَّحْذِيرِ.

﴿٨٣﴾ فَإِذَا أُذِّبَتْ مَا عَلَيْكَ؛ فَحَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ؛ فَإِنَّهُمْ يَرَوْنَ الْإِحْسَانَ وَيَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ، وَلَكِنَّهُمْ يُنْكِرُونَهَا وَيَجْحَدُونَهَا. ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾: لَا خَيْرَ فِيهِمْ، وَمَا يَنْفَعُهُمْ تَوَالِي الْآيَاتِ؛ لِفَسَادِ مَشَاعِرِهِمْ وَسُوءِ قُصُودِهِمْ، وَسَيَرُونَ جِزَاءَ اللَّهِ لِكُلِّ جِبَارٍ عَنِيدٍ كَفُورٍ لِلنِّعَمِ مَتَمَرِّدٍ عَلَى اللَّهِ وَعَلَى رِسْلِهِ.

﴿وَيَوْمَ نَبَعْتُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا تُرَى لَا يُؤَدِّتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾<sup>(٨٤)</sup>  
وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ<sup>(٨٥)</sup> وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ<sup>(٨٦)</sup> وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلْمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْقَرُونَ<sup>(٨٧)</sup> ﴿

﴿٨٤ - ٨٥﴾ يخبر تعالى عن حال هؤلاء الذين كفروا في يوم القيامة، وأنه لا يقبل لهم عذر ولا يُزْفَعُ عَنْهُمْ الْعِقَابُ، وَأَنَّ شُرَكَاءَهُمْ تَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ، وَيَقْرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ وَالْإِفْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ، فَقَالَ: ﴿وَيَوْمَ نَبَعْتُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾: يَشْهَدُ عَلَيْهَا بِأَعْمَالِهِمْ وَمَاذَا أَجَابُوا بِهِ الدَّاعِيَ إِلَى الْهُدَى، وَذَلِكَ الشَّهِيدُ الَّذِي يَبْعَثُهُ اللَّهُ أَزْكَى الشَّهَدَاءِ وَأَعْدَلِهِمْ، وَهُمْ الرِّسَالُ الَّذِينَ إِذَا شَهِدُوا؛ تَمَّ عَلَيْهِمُ الْحُكْمُ. ﴿ثُمَّ لَا يُؤَدَّنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾: فِي الْإِعْتِدَارِ؛ لِأَنَّ إِعْتِدَارَهُمْ بَعْدَمَا عَلِمُوا يَقِينًا بِطِلَانِ مَا هُمْ عَلَيْهِ إِعْتِدَارٌ كَاذِبٌ لَا يَفِيدُهُمْ شَيْئًا، وَإِنْ طَلَبُوا أَيْضًا الرَّجُوعَ إِلَى الدُّنْيَا

(٢) فِي (ب): «فَلَا».

(١) فِي (ب): «الرُّود».

ليستدركوا؛ لم يُجابوا ولم يُعَبَّوا، بل يبادِرُهُم العذاب الشديد الذي لا يخفُّ عنهم من غير إنظار ولا إمهالٍ من حين يرونه؛ لأنَّهم لا حسنات لهم، وإنَّما تعدُّ أعمالهم وتُحصى ويوقَّفون عليها، ويُقرَّرُون بها، ويُفتَضَحون.

﴿٨٦﴾ ﴿وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم﴾: يوم القيامة، وعلموا بطلانها، ولم يمكنهم الإنكار، ﴿قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كُنَّا ندعو من دونك﴾: ليس عندها نفعٌ ولا شفَعٌ، فنوَّهوا بأنفسهم بطلانها، وكفروا بها، وبدت البغضاء والعداوة بينهم وبينها، ﴿فألقوا إليهم القول﴾؛ أي: ردَّت عليهم شركاؤهم عليهم قولهم، فقالت لهم: ﴿إنكم لكاذبون﴾: حيث جعلتمونا شركاء لله وعبدتمونا معه، فلم نامركم بذلك، ولا زَعَمنا أن فينا استحقاقاً للألوهية؛ فاللوم عليكم.

﴿٨٧﴾ فحينئذ استسلموا لله، وخضعوا لحكمه، وعلموا أنهم مستحقون للعذاب، ﴿وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون﴾: فدخلوا النارَ وقد امتلأت قلوبهم من مَقَّتِ أنفسهم ومن حَمَدِ رَبِّهم، وأنه لم يعاقبهم إلا بما كسبوا.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾.

﴿٨٨﴾ حيث كفروا بأنفسهم، وكذبوا بآيات الله، وحاربوا رُسُلَه، وصدَّوا الناس عن سبيل الله، وصاروا دعاة إلى الضلال، فاستحقُّوا مضاعفة العذاب كما تضاعف جرمهم، وكما أفسدوا في أرض الله.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

﴿٨٩﴾ لما ذَكَرَ فيما تقدَّم أنه يبعث في كلِّ أمةٍ شهيداً؛ ذكر ذلك أيضاً هنا، وخصَّ منهم هذا الرسول الكريم، فقال: ﴿وجئنا بك شهيداً على هؤلاء﴾؛ أي: على أمتك تشهد عليهم بالخير والشرِّ، وهذا من كمال عدل الله تعالى؛ أن كلَّ رسول يشهد على أمته؛ لأنَّه أعظمُّ اطلاعاً من غيره على أعمال أمته، وأعدل وأشفقُ من أن يشهد عليهم إلا بما يستحقُّون، وهذا كقوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾، وقال تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كلِّ أمةٍ بشهيدٍ وجئنا بك على هؤلاء شهيداً. يومئذ يوذُّ الذين كفروا وعصوا الرسولَ لو تُسَوَّى بهم الأرضُ﴾. وقوله: ﴿ونزلنا عليك الكتابَ تبياناً لكلِّ شيءٍ﴾: في أصول الدين وفروعه، وفي أحكام الدارين، وكل ما



يحتاج إليه العباد؛ فهو مبينٌ فيه أتمُّ تبيين، بألفاظ واضحة ومعانٍ جليّة، حتى إنّه تعالى يُنّي فيهِ الأمور الكبار التي يحتاج القلب لمرورها عليه كلَّ وقتٍ وإعادتها في كلِّ ساعةٍ ويعيدها ويبيدها بألفاظٍ مختلفةٍ وأدلةٍ متنوعةٍ لتستقرَّ في القلوب فتشمر من الخير والبرِّ بحسب ثبوتها في القلب، وحتى إنه تعالى يجمع في اللفظ القليل الواضح معاني كثيرةً يكون اللفظ لها كالقاعدة والأساس. واعتبر هذا بالآية التي بعد هذه الآية، وما فيها من أنواع الأوامر والنواهي التي لا تُحصَر.

فلما كان هذا القرآن تبياناً لكلِّ شيءٍ؛ صار حجّة الله على العباد كلِّهم، فانقطعت به حجّة الظالمين، وانتفع به المسلمون، فصار هدىً لهم يهتدون به إلى أمر دينهم ودنياهم ورحمةً ينالون به كلَّ خير في الدنيا والآخرة؛ فالهدى ما نالوا به من علم نافع وعمل صالح، والرحمة ما ترتب على ذلك من ثواب الدنيا والآخرة؛ كصلاح القلب وبرّه وطمأنينته، وتمام العقل الذي لا يتمُّ إلا بتربيته على معانيه التي هي أجلُّ المعاني وأعلاها، والأعمال الكريمة والأخلاق الفاضلة والرزق الواسع والنصر على الأعداء بالقول والفعل ونيل رضا الله تعالى وكرامته العظيمة التي لا يعلم ما فيها من النعيم المقيم إلا الربُّ الرحيم.

﴿٩٠﴾ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ  
وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾

﴿٩٠﴾ فالعدل الذي أمر الله به يشمل العدل في حقّه وفي حقِّ عباده؛ فالعدل في ذلك أداء الحقوق كاملةً موفورة؛ بأن يؤدّي العبد ما أوجب الله عليه من الحقوق الماليّة والبدنيّة والمركبة منهما في حقّه وحقِّ عباده، ويعامل الخلق بالعدل التام، فيؤدّي كلُّ والٍ ما عليه تحت ولايته، سواء في ذلك ولاية الإمامة الكبرى وولاية القضاء ونواب الخليفة ونواب القاضي. والعدل: هو ما فرضه الله عليهم في كتابه وعلى لسان رسوله وأمرهم بسلوكه، ومن العدل في المعاملات أن تعاملهم في عقود البيع والشراء وسائر المعاوزات بإيفاء جميع ما عليك؛ فلا تبخس لهم حقاً، ولا تغشهم ولا تخدعهم وتظلمهم؛ فالعدل واجب، والإحسان فضيلةٌ مستحبّة، وذلك كنعف الناس بالمال والبدن والعلم وغير ذلك من أنواع النفع، حتى يدخل فيه الإحسان إلى الحيوان البهيم المأكول وغيره، وخصّ الله إيتاء ذِي القُرْبَىٰ وإن كان داخلاً في العموم؛ لتأكّد حقهم وتعيّن صلّتهم وبرهم والحرص على ذلك، ويدخل في ذلك جميع الأقارب؛ قريبتهم وبعيدهم، لكن كلُّ مَنْ كان أقرب كان أحقَّ بالبرِّ.

وقوله: ﴿ويُنهي عن الفحشاء﴾: وهو كلُّ ذنبٍ عظيمٍ استفحشته الشرائعُ والفِطْرُ؛ كالشركِ باللهِ والقتلِ بغيرِ حقٍّ والزُّنا والسَّرقةِ والعُجبِ والكِبْرِ واحتقارِ الخلقِ وغيرِ ذلكِ من الفواحشِ، ويدخلُ في المنكرِ كلُّ ذنبٍ ومعصيةٍ متعلِّقٌ بحقِّ اللهِ تعالى، وبالبغيِ كلُّ عدوانٍ على الخلقِ في الدِّماءِ والأموالِ والأعراضِ. فهذه قاعدةٌ ترجعُ إليها سائرُ الجزئياتِ؛ فكلُّ مسألةٍ مشتملةٍ على عدلٍ أو إحسانٍ أو إيتاءِ ذي القربى؛ فهي مما أمرَ اللهَ به، وكلُّ مسألةٍ مشتملةٍ على فحشاءٍ أو منكرٍ أو بغيٍّ؛ فهي مما نهى اللهُ عنه، وبها يُعلَّمُ حُسْنُ ما أمرَ اللهُ به وُقُوحُ ما نهىَ عنه، وبها يُعتبرُ ما عندَ الناسِ من الأقوالِ، وتردُّ إليها سائرُ الأحوالِ؛ فتباركُ مَنْ جعلَ في كلامِهِ الهدى والشفاءَ والنورَ والفرقانَ بينَ جميعِ الأشياءِ، ولهذا قال: ﴿يعظِّمُكُمْ﴾؛ به، أي: بما بيَّنه لكم في كتابه بأمرِكُمْ بما فيه غايةِ صلاحِكُمْ ونهيِكُمْ عما فيه مضرَّتِكُمْ. ﴿لعلَّكُمْ تذكرونُ﴾: ما يعظِّمُكم به فتفهمونه وتعتقلونه؛ فإنَّكم إذا تذكَّرتُموه وعقلتموه؛ عملتم بمقتضاه، فسعدتُم سعادةً لا شقاوةَ معها.

فلما أمرَ بما هو واجبٌ في أصلِ الشرعِ؛ أمرَ بوفاءٍ ما أوجبه العبدُ على نفسه، فقال:

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَبَتْ أَتْمَتْنَا نَحْمَدُوكَ دَخَلًا مِنْ بَيْنِكُمْ أَنْ تُكُونُوا أُمَّةً هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبُلُوكُمْ اللَّهُ بِئِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿٩١﴾ وهذا يشملُ جميعَ ما عاهدَ العبدُ عليه ربَّه من العباداتِ والندورِ والأيمانِ التي عقدها إذا كان الوفاءُ بها برًّا، ويشملُ أيضاً ما تعاقدَ عليه هو وغيره؛ كالعهودِ بينَ المتعاقدينِ، وكالوعدِ الذي يعده العبدُ لغيره ويؤكِّده على نفسه؛ فعليه في جميعِ ذلكِ الوفاءُ وتتميمها مع القدرة، ولهذا نهى اللهُ عن نقضِها، فقال: ﴿ولا تنقضوا الأيمانَ بعدَ توكيدها﴾: بعقدها على اسمِ اللهِ تعالى. ﴿وقد جعلتُمُ اللهَ عليكم أيها المتعاقدون، كفيلاً﴾: فلا يحلُّ لكم أن لا تُحكِموا ما جعلتُمُ اللهَ عليكم كفيلاً، فيكون ذلكُ تركُ تعظيمِ اللهِ واستهانةً به، وقد رضي الآخرُ منك باليمينِ والتوكيدِ الذي جعلتُ اللهَ فيه كفيلاً؛ فكما ائتمنتُك وأحسنَ ظنَّه فيك؛ فلتنْفِ له بما

قلت وأكذته. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾: فيجازي كلَّ عامل بعمله على حسب نيَّته ومقصده.

﴿٩٢﴾ ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾: في نقضكم للعهودِ بأسوأ الأمثال وأقبحها وأدلها على سفه متعاطيها، وذلك ﴿كالتِي﴾ تَغزُلُ غزلاً قوياً؛ فإذا استحکم وتمَّ ما أريد منه؛ نَقَضْتَهُ فجعلته ﴿أثكناً﴾: فتعبت على الغزل، ثم على النقض، ولم تستفد سوى الخيبة والعناء وسفاهة العقل ونقص الرأي؛ فكذلك مَنْ نَقَضَ ما عاهد عليه؛ فهو ظالمٌ جاهلٌ سفيهٌ ناقص الدين والمرءة. وقوله: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾؛ أي: لا تنبغي هذه الحالة منكم؛ تعقدون الأيمان المؤكدة، وتنتظرون فيها الفرص: فإذا كان العاقد لها ضعيفاً غير قادرٍ على الآخر؛ أتمها لا لتعظيم العقد واليمين، بل لعجزه. وإن كان قوياً يرى مصلحته الدنيوية في نقضها؛ نَقَضَهَا غير مبالٍ بعهدِ الله ويمينه، كلُّ ذلك دَوْراناً مع أهوية النفوس وتقديمها لها على مراد الله منكم وعلى المرءة الإنسانية والأخلاق المرضية؛ لأجل أن تكون أمة أكثر عدداً وقوة من الأخرى. وهذا ابتلاء من الله وامتحان يبتليكم [الله] به؛ حيث قيض من أسباب المحن الذي يُمتَحَنُ به الصادق الوفي من الفاجر الشقي. ﴿وَلِيَبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾: فيجازي كلَّ عامله<sup>(١)</sup>، ويخزي الغادر.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلِتَسْأَلَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿٩٣﴾ أي: ﴿لو شاء الله﴾ لجمع الناس على الهدى، وجعلهم ﴿أمةً واحدةً﴾: ولكئنه تعالى المنفرد بالهداية والإضلال، وهدايته وإضلاله من أفعاله التابعة لعلمه وحكمته، يعطي الهداية من يستحقها فضلاً، ويمنعها من لا يستحقها عدلاً ﴿وَلِتَسْأَلَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: من خيرٍ وشرٍّ، فيجازيكم عليها أتمَّ الجزاء وأعدله.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَزَلَ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا أَلْسِنَةَ مَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿٩٤﴾ أي: ﴿ولا تتخذوا أيمانكم﴾: وعهودكم ومواثيقكم تبعاً لأهوائكم، متى

(١) في (ب): «بِمَا عَمِلَ».

شئتم وقيتم بها، ومتى شئتم نقضتموها؛ فإنكم إذا فعلتم ذلك؛ تزل أقدامكم بعد ثبوتها على الصراط المستقيم. ﴿وتذوقوا السوء﴾؛ أي: العذاب الذي يسوؤكم ويخزنكم. ﴿بما صدقتم عن سبيل الله﴾: حيث ضللتكم وأضلتكم غيركم. ﴿ولكم عذاب عظيم﴾: مضاعف.

— ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لِّكَرٍّ إِن كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿٩٥﴾ يحذر تعالى عباده من نقض العهود والأيمان لأجل متاع الدنيا وحطامها، فقال: ﴿ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً﴾: تنالونه بالنقض وعدم الوفاء. ﴿إنما عند الله﴾: من الثواب العاجل والآجل لمن أثر رضاه وأوفى بما عاهد عليه الله، ﴿هو خير لكم﴾: من حطام الدنيا الزائلة ﴿إن كنتم تعلمون﴾.

﴿٩٦﴾ فأثروا ما يبقى على ما يفنى؛ فإن الذي ﴿عندكم﴾: ولو كثر جداً لا بد أن ينفد ويفنى، ﴿وما عند الله باقٍ﴾: ببقائه، لا يفنى ولا يزول؛ فليس بعاقل من أثر الفاني الخسيس على الباقي النفيس، وهذا كقوله تعالى: ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى﴾. ﴿وما عند الله خير للأبرار﴾. وفي هذا الحث والترغيب على الزهد في الدنيا، خصوصاً الزهد المتعين، وهو الزهد فيما يكون ضرراً على العبد ويوجب له الاشتغال عما أوجب الله عليه وتقديمه على حق الله؛ فإن هذا الزهد واجب. ومن الدواعي للزهد أن يقابل العبد لذات الدنيا وشهواتها بخيرات الآخرة؛ فإنه يجد من الفرق والتفاوت ما يدعوه إلى إثارة أعلى الأمرين، وليس الزهد الممدوح هو الانقطاع للعبادات القاصرة؛ كالصلاة والصيام والدُّر ونحوها، بل لا يكون العبد زاهداً زهداً صحيحاً حتى يقوم بما يقدر عليه من الأوامر الشرعية الظاهرة والباطنة، ومن الدعوة إلى الله وإلى دينه بالقول والفعل؛ فالزهد الحقيقي هو الزهد فيما لا ينفع في الدين والدنيا، والرغبة والسعي في كل ما ينفع. ﴿ولنجزيَن الذين صبروا﴾: على طاعة الله وعن معصيته، وقطموا أنفسهم عن الشهوات الدنيوية المضرة بدينهم؛ ﴿أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾: الحسنَةُ بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة؛ فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

﴿٩٧﴾ ولهذا ذكر جزاء العاملين في الدنيا والآخرة فقال: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾: فَإِنَّ الْإِيمَانَ شَرَطَ فِي صِحَّةِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَقَبُولِهَا، بَلْ لَا تَسْمَىٰ أَعْمَالًا صَالِحَةً إِلَّا بِالْإِيمَانِ، وَالْإِيمَانُ مُقْتَضٍ لَهَا؛ فَإِنَّهُ التَّصَدِيقُ الْجَازِمُ الْمَشِيرُ لِأَعْمَالِ الْجَوَارِحِ مِنَ الْوَاجِبَاتِ وَالْمُسْتَحَبَّاتِ؛ فَمَنْ جَمَعَ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ؛ ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾: وَذَلِكَ بِطَمَآنِينَةٍ قَلْبِهِ وَسُكُونِ نَفْسِهِ وَعَدَمِ التَّفَاتِيهِ لِمَا يُشَوِّشُ عَلَيْهِ عَلَيْهِ قَلْبِهِ وَيُرْزُقُهُ اللَّهُ رِزْقًا حَلَالًا طَيِّبًا مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾: فِي الْآخِرَةِ ﴿أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: مِنْ أَصْنَافِ اللَّذَاتِ؛ مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَيُؤْتِيهِ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ ﴿٩٨﴾ إِنَّكُمْ لِمَنْ سُلْطَنٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَنُكُمْ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُمُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾.

﴿٩٨ - ١٠٠﴾ أي: فإذا أردت القراءة لكتاب الله الذي هو أشرف الكتب وأجلها، وفيه صلاح القلوب والعلوم الكثيرة؛ فإن الشيطان أحرص ما يكون على العبد عند شروعه في الأمور الفاضلة، فيسعى في صرفه عن مقاصدها ومعانيها؛ فالطريق إلى السلامة من شره الالتجاء إلى الله والاستعاذة به من شره، فيقول القارئ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم؛ متدبراً لمعناها، معتمداً بقلبه على الله في صرفه عنه، مجتهداً في دفع وساوسه<sup>(١)</sup> وأفكاره الرديئة، مجتهداً على السبب الأقوى في دفعه، وهو التحلي بحلية الإيمان والتوكل؛ فإن الشيطان ليس له سلطان؛ أي: تسلط على الذين آمنوا وعلى ربهم؛ وحده لا شريك له، يتوكلون؛ فيدفع الله عن المؤمنين المتوكلين عليه شر الشيطان ولا يبقى له عليهم سبيل. ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ﴾؛ أي: تسلطه على الذين يتولونه؛ أي: يجعلونه لهم ولياً، وذلك بتخليهم عن ولاية الله، ودخولهم في طاعة الشيطان، وانضمامهم لحزبه؛ فهم الذين جعلوا له ولاية على أنفسهم، فأرهم إلى المعاصي أزا، وقادهم إلى النار قوداً.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزِيلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ

(١) في (ب): «وساوسه».

أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا  
وَهُدَىٰ وَيُذَكِّرَ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ .

﴿١٠١﴾ يذكر تعالى أن المكذبين بهذا القرآن يتتبعون ما يرونه حجة لهم، وهو أن الله تعالى هو الحاكم الحكيم، الذي يشرع الأحكام ويبدل حكماً مكان آخر؛ لحكمته ورحمته؛ فإذا رآوه كذلك؛ قدحوا في الرسول وبما جاء به، و﴿قالوا إنما أنت مفتن﴾، قال الله تعالى: ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾: فهم جهال، لا علم لهم بربهم ولا بشرعهم، ومن المعلوم أن قدح الجاهل بلا علم لا عبرة به؛ فإن القدح في الشيء فرغ عن العلم به وما يشتمل عليه مما يوجب المدح والقدح.

﴿١٠٢﴾ ولهذا ذكر تعالى حكمته في ذلك، فقال: ﴿قل نزله روح القدس﴾: وهو جبريل الرسول المقدس المنزه عن كل عيب وخيانة وأفة، ﴿بالحق﴾؛ أي: نزوله بالحق، وهو مشتمل على الحق في أخباره وأوامره ونواهيته؛ فلا سبيل لأحد أن يقدح فيه قدحاً صحيحاً؛ لأنه إذا علم أنه الحق؛ علم أن ما عارضه وناقضه باطل. ﴿ليثبت الذين آمنوا﴾: عند نزول آياته وتواردها عليهم وقتاً بعد وقت؛ فلا يزال الحق يصل إلى قلوبهم شيئاً فشيئاً، حتى يكون إيمانهم أثبت من الجبال الرواسي. وأيضاً؛ فإنهم يعلمون أنه الحق، وإذا شرع حكماً من الأحكام، ثم نسخه؛ علموا أنه أبده بما هو مثله أو خير منه لهم، وأن نسخه هو المناسب للحكمة الربانية والمناسبة العقلية. ﴿وهدى وبشرى للمسلمين﴾؛ أي: يهديهم إلى حقائق الأشياء، ويبين لهم الحق من الباطل والهدى من الضلال، ويبشرهم أن لهم أجراً حسناً ما كثر في أبدأ. وأيضاً؛ فإنه كلما نزل شيئاً فشيئاً؛ كان أعظم هداية وبشارة لهم من لو أتاهم جملة واحدة وتفرق الفكر فيه، بل ينزل الله حكماً وتارة أكثر؛ فإذا فهموه وعقلوه وعرفوا المراد منه وترووا منه؛ أنزل نظيره... وهكذا. ولذلك بلغ الصحابة رضي الله عنهم به مبلغاً عظيماً، وتغيرت أخلاقهم وطبائعهم، وانتقلوا إلى أخلاق وعوائد وأعمال فاقوا بها الأولين والآخرين، وكان أعلى وأولى لمن بعدهم أن يتربوا بعلومه، ويتخلقوا بأخلاقه، ويستضيئوا بنوره في ظلمات الغي والجهالات، ويجعلوه إمامهم في جميع الحالات. فبذلك تستقيم أمورهم الدينية والدينية.

﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّئِيَّاكَ يُكْفِرُوا وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّئِيَّاكَ يُكْفِرُوا وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّئِيَّاكَ يُكْفِرُوا وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّئِيَّاكَ يُكْفِرُوا

وَهَذَا لِسَانٌ عَكْرِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ .

﴿١٠٣﴾ يخبر تعالى عن قبيل المشركين المكذبين لرسوله: ﴿أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يَعْلَمُهُ﴾: هذا الكتاب الذي جاء به، ﴿بَشْرًا﴾: وذلك البشر الذي يشيرون إليه أعجمي اللسان. ﴿وهذا﴾: القرآن ﴿لسانٌ عربيٌّ مبينٌ﴾: هل هذا القول ممكنٌ أو له حظٌ من الاحتمال؟! ولكن الكاذب يكذب ولا يفكر فيما يؤول إليه كذبه، فيكون في قوله من التناقض والفساد ما يوجب رده بمجرد تصوّره.

﴿١٠٤﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾: الدالة دلالة صريحة على الحق المبين فيردونها ولا يقبلونها، ﴿لا يهديهمُ اللهُ﴾: حيث جاءهم الهدى فردوه فعوقبوا بجزمائه وخذلان الله لهم. ﴿ولهم﴾: في الآخرة ﴿عذابٌ أليمٌ﴾.

﴿١٠٥﴾ ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ﴾؛ أي: إنما يصدرُ افتراء الكذب من ﴿الذين لا يؤمنون بآيات الله﴾: كالمعاندين لرسوله من بعد ما جاءتهم البينات. ﴿وأولئك هم الكاذبون﴾؛ أي: الكذب منحصرٌ فيهم، وعليهم أولى بأن يطلق من غيرهم. وأما محمد ﷺ المؤمن بآيات الله الخاضع لربه؛ فمُحالٌ أن يكذب على الله، ويتقوّل عليه ما لم يقل، فأعداؤه رمّوه بالكذب الذي هو وصفهم، فأظهر الله خزيهم وبيّن فضائحهم؛ فله تعالى الحمد.

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَالْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ .

﴿١٠٦ - ١٠٨﴾ يخبر تعالى عن شناعة حال مَنْ كَفَرَ به من بعد إيمانه فعمي بعدما أبصر، ورجع إلى الضلال بعدما اهتدى، وشرّح صدره بالكفر راضياً به مطمئناً: أن لهم الغضب الشديد من الرب الرحيم، الذي إذا غضب؛ لم يقم لغضبه شيء وغضب عليهم كل شيء. ﴿ولهم عذابٌ عظيمٌ﴾؛ أي: في غاية الشدة، مع أنه دائم أبداً. وذلك أنهم ﴿استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة﴾: حيث ارتدوا على

أدبارهم؛ طمعاً في شيء من حطام الدنيا، ورغبةً فيه، وزهداً في خير الآخرة.

فلما اختاروا الكفر على الإيمان؛ منعهم الله الهداية، فلم يهديهم؛ لأن الكفر وصفهم، فطبع على قلوبهم؛ فلا يدخلها خيرٌ، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم؛ فلا ينفذ منها ما ينفعهم ويصل إلى قلوبهم، فشملتهم الغفلة وأحاط بهم الخذلان وحرّموا رحمة الله التي وسعت كل شيء، وذلك أنّها أتتهم فردّوها وعرضت عليهم فلم يقبلوها.

﴿١٠٩﴾ ﴿لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون﴾: الذين خسروا أنفسهم وأموالهم وأهلهم يوم القيامة، وفاتهم النعيم المقيم، وحصلوا على العذاب الأليم، وهذا بخلاف من أكره على الكفر وأجبر عليه، وقلبه مطمئن بالإيمان راغب فيه؛ فإنّه لا حرج عليه ولا إثم، ويجوز له التّطيق بكلمة الكفر عند الإكراه عليها.

وذلك على أنّ كلام المكروه على الطلاق أو العتاق أو البيع أو الشراء أو سائر العقود أنّه لا عبرة به ولا يترتب عليه حكم شرعي؛ لأنّه إذا لم يعاقب على كلمة الكفر إذا أكره عليها؛ فغيرها من باب أولى وأحرى.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فِتْنَاؤُمْ جَاهِدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهِيَ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾.

﴿١١٠﴾ أي: ثم ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾: الذي ربّى عباده المخلصين بلطفه وإحسانه ﴿لغفور رحيم﴾ لمن هاجر في سبيله، وخرّى دياره وأمواله طالباً لمرضاة الله، وفتن على دينه ليرجع إلى الكفر، فثبت على الإيمان، وتخلّص ما معه من اليقين، ثم جاهد أعداء الله ليُدخلهم في دين الله بلسانه ويده، وصبر على هذه العبادات الشاقّة على أكثر الناس؛ فهذه أكبر الأسباب التي تُنال بها أعظم العطايا وأفضل المواهب، وهي مغفرة الله للذنوب صغارها وكبارها، المتضمن ذلك زوال كل أمرٍ مكروه، ورحمته العظيمة التي بها صلحت أحوالهم واستقامت أمور دينهم ودنياهم؛ فلهم الرحمة من الله في يوم القيامة.

﴿١١١﴾ حين ﴿تأتي كل نفس تجادل عن نفسها﴾: كل يقول: نفسي نفسي، لا يهّمه سوى نفسه؛ ففي ذلك اليوم يفتقر العبد إلى حصول مثقال ذرة من الخير. ﴿وتوفى كل نفس ما عملت﴾: من خيرٍ وشرٍ. ﴿وهم لا يُظلمون﴾: فلا يزداد في



سيئاتهم، ولا يُنْقِصُ من حسناتهم. ﴿فاليوم لا تُظَلِّمُ نَفْسٌ سَيِّئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَّاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿١١٢ - ١١٣﴾ وهذه القرية هي مكة المشرفة التي كانت آمنة مطمئنة لا يهاج فيها أحد، وتحترمها الجاهلية الجهلاء، حتى إن أحدهم يجد قاتل أبيه وأخيه فلا يهيجه مع شدة الحمية فيهم والنصرة العربية، فحصل لها من الأمن التام ما لم يحصل لسواها، وكذلك الرزق الواسع، كانت بلدة ليس فيها زرع ولا شجر، ولكن يسر الله لها الرزق يأتيها من كل مكان، فجاءهم رسول منهم يعرفون أمانته وصدقته؛ يدعوهم إلى أكمل الأمور، وينهاهم عن الأمور السيئة، فكذبوه وكفروا بنعمة الله عليهم، فأذاقهم الله ضد ما كانوا فيه، والبسهم ﴿لباس الجوع﴾ الذي هو ضد الرغد، ﴿والخوف﴾ الذي هو ضد الأمن، وذلك بسبب صنيعهم وكفرهم وعدم شكرهم، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ عَابِدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَالْحَمَّ الْخَزِيرَ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بِلَاحٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا نَصَبْنَا لَكُمْ هَذَا حَلالًا وَهَذَا حَرَامٌ لِنُفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُمْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾.

﴿١١٤﴾ يأمر عباده بأكل ما رزقهم الله من الحيوانات والحبوب والثمار وغيرها. ﴿حلالاً طيباً﴾؛ أي: حالة كونها متصفة بهذين الوصفين؛ بحيث لا تكون مما حرم الله أو أثنأ من غضب ونحوه؛ فتمتعوا بما خلق الله لكم من غير إسراف ولا تعد. ﴿واشكروا نعمة الله﴾: بالاعتراف بها بالقلب، والشناء على الله بها، وصرها في طاعة الله. ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾؛ أي: إن كنتم مخلصين له العبادة؛ فلا تشكروا إلا إياه، ولا تنسوا المنعم.

﴿١١٥﴾ ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾: الأشياء المضرّة تنزيهاً لكم، وذلك: كالميتة، ويدخُل في ذلك كلُّ ما كان موته على غير ذكاةٍ مشروعة، ويُسْتثنى منه ميتة الجرادِ والسمك. ﴿وَالدَّم﴾: المسفوح، وأما ما يبقى في العروق واللحم؛ فلا يضُرُّ. ﴿ولحم الخنزير﴾: لِقذارتهِ وخبيثه، وذلك شاملٌ للحمّه وشحمه وجميع أجزائه. ﴿وما أهلك لغير الله به﴾: كالذي يذبح للأصنام والقبور ونحوها؛ لأنه مقصودٌ به الشرك. ﴿فمن اضطرَّ﴾: إلى شيء من المحرّمات؛ بأن حملته الضرورةُ وخاف إن لم يأكل أن يهلك؛ فلا جناح عليه إذا لم يكن باغياً أو عادياً؛ أي: إذا لم يُرِدْ أكل المحرّم، وهو غير مضطرٍّ ولا متعدّ الحلال إلى الحرام أو متجاوزٍ لما زاد على قدرِ الضرورة؛ فهذا الذي حرّمه الله من المباحات.

﴿١١٦﴾ ﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلالٌ وهذا حرامٌ﴾؛ أي: لا تحرموا وتحلّلوا من تلقاء أنفسكم كذباً وافتراءً على الله وتقولاً عليه؛ ﴿لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون﴾: لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولا بدّ أن يُظهِرَ اللهُ خزيهم.

﴿١١٧﴾ ﴿إن تمتعوا في الدنيا؛ فإنه ﴿متاعٌ قليل﴾: ومصيرهم إلى النار، ﴿ولهم عذابٌ أليم﴾.

﴿١١٨﴾ ﴿فالله تعالى ما حرّم علينا إلاّ الخبيثات تفضلاً منه وصيانةً عن كلِّ مستقذر، وأما الذين هادوا؛ فحرّم الله عليهم طيباتٍ أحلّت لهم بسبب ظلمهم عقوبةً لهم؛ كما قصّه في سورة الأنعام في قوله: ﴿وعلى الذين هادوا حَرَمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ ومن البقر والغنم حرّمنا عليهم شحومهما إلاّ ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم بيغيهم وإنّا لصادقون﴾.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١١٩).

﴿١١٩﴾ وهذا حصٌّ منه لعباده على التوبة ودعوة لهم إلى الإنابة، فأخبر أنّ من عمل سوءاً ﴿بجهالة﴾: بعاقية ما تخجنى عليه، ولو كان متعمداً للذنب؛ فإنه لا بدّ أن ينقص ما في قلبه من العلم وقت مقارفة الذنب؛ فإذا تاب وأصلح بأن ترك الذنب وندم<sup>(١)</sup> عليه

وأصلح أعماله؛ فإنَّ الله يغفر له ويرحمه ويتقبل توبته ويعيده إلى حالته الأولى أو أعلى منها.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَّلَا يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٥﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢٦﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّمَا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٧﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعِ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٨﴾﴾.

﴿١٢٠﴾ يخبر تعالى عمَّا فضَّلَ به خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام وخصَّ به من الفضائل العالية والمناقب الكاملة، فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾؛ أي: إماماً جامعاً لخصال الخير هادياً مهتدياً، ﴿قَانِتاً لِلَّهِ﴾؛ أي: مديماً لطاعة ربِّه مخلصاً له الدين، ﴿حَنِيفاً﴾: مقبلاً على الله بالمحبَّة والإنابة والعبوديَّة، معرضاً عمَّن سواه. ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: في قوله وعمله وجميع أحواله؛ لأنَّه إمام الموحدين الحنفاء.

﴿١٢١﴾ ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾؛ أي: آتاه الله في الدنيا حسنةً، وأنعم عليه بنعم ظاهرة وباطنية، فقام بشكرها، فكان نتيجةً هذه الخصال الفاضلة أن ﴿اجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ واختصَّ بخلته وجعله من صفوة خلقه وخيار عباده المقرَّبين. ﴿وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾: في علمه وعمله، فعلم بالحقِّ وآثره على غيره.

﴿١٢٢﴾ ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾: رزقاً واسعاً، وزوجةً حسنةً، وذريَّةً صالحين، وأخلاقاً مرضيةً. ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾: الذين لهم المنازل العالية والقرب العظيم من الله تعالى.

﴿١٢٣﴾ ومن أعظم فضائله أنَّ الله أوحى لسيد الخلق وأكملهم أن يتَّبِعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ وَيَقْتَدِيَ بِهِ هُوَ وَأُمَّتُهُ.

﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

﴿١٢٤﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ﴾؛ أي: فرضاً ﴿عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾: حين ضلُّوا عن يوم الجمعة، وهم اليهود، فصار اختلافهم سبباً لأن يجب عليهم في السبت احترامه وتعظيمه، وإلَّا؛ فالفضيلة الحقيقية ليوم الجمعة، الذي هدى الله هذه الأمة إليه. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ﴾.

يختلفون ﴿١﴾: فيبين لهم المحق من المبطل والمستحق للثواب ممن استحق العذاب (١).

﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّلْهُمْ بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (١٢٥).

﴿١٢٥﴾ أي: ليكن دعاؤك للخلق مسلمهم وكافرهم إلى سبيل ربك المستقيم المشتمل على العلم النافع والعمل الصالح، ﴿بالحكمة﴾؛ أي: كل أحد على حسب حاله وفهمه وقبوله وانقياده، ومن الحكمة الدعوة بالعلم لا بالجهل، والبدء بالأهم فالأهم، وبالأقرب إلى الأذهان والفهم، وبما يكون قبوله أتم، وبالرفق واللين؛ فإن انقاد بالحكمة، وإلا؛ فينتقل معه بالدعوة بالموعظة الحسنة، وهو الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب: إما بما تشتمل عليه الأوامر من المصالح وتعدادها والنواهي من المضار وتعدادها، وإما بذكر إكرام من قام بدين الله وإهانة من لم يقم به، وإما بذكر ما أعد الله للطائعين من الثواب العاجل والآجل وما أعد للعاصين من العقاب العاجل والآجل؛ فإن كان المدعو يرى أن ما [هو] عليه حق، أو كان داعية إلى الباطل؛ فيجادل بالتي هي أحسن، وهي الطرق التي تكون أدعى لاستجابته عقلاً ونقلاً، ومن ذلك الاحتجاج عليه بالأدلة التي كان يعتقد؛ فإنه أقرب إلى حصول المقصود وأن لا تؤدي المجادلة إلى خصام أو مشامة تذهب بمقصودها ولا تحصل الفائدة منها، بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق لا المغالبة ونحوها. وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾؛ علم السبب الذي أذاه إلى الضلال، وعلم أعماله المترتبة على ضلالته، وسيجازه عليها. ﴿وهو أعلم بالمهتدين﴾: علم أنهم يصلحون للهداية فهداهم، ثم من عليهم فاجتباهم.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (١٢٦) وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي صَبْرِ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾.

﴿١٢٦﴾ يقول تعالى مبيحاً للعدل ونادياً للفضل والإحسان: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾: من أساء إليكم بالقول والفعل، ﴿فعاقبوا بمثل ما عُوقبتم به﴾: من غير زيادة منكم على

ما أجره معكم. ﴿وَلَيْتَن صَبِرْتُمْ﴾: عن المعاقبة و عفوئتم عن جرمهم، ﴿لهو خيرٍ للصابرين﴾: من الاستيفاء، وما عند الله خير لكم وأحسن عاقبة؛ كما قال تعالى: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾.

﴿١٢٧ - ١٢٨﴾ ثم أمر رسوله بالصبر على دعوة الخلق إلى الله والاستعانة بالله على ذلك وعدم الاتكال على النفس، فقال: ﴿واضربوا وما صبرك إلا بالله﴾: هو الذي يُعينك عليه ويثبتك. ﴿ولا تحزنن عليهم﴾: إذا دعوتهم فلم تر منهم قبولاً لدعوتك؛ فإن الحزن لا يُجدي عليك شيئاً. ﴿ولا تك في ضيق﴾؛ أي: شدة وخرج ﴿مما يمكرون﴾: فإن مكرهم عائد إليهم، وأنت من المتقين المحسنين، والله مع المتقين المحسنين بعونه وتوفيقه وتسديده، وهم الذين اتقوا الكفر والمعاصي، وأحسنوا في عبادة الله؛ بأن عبدوا الله كأنهم يرونه؛ فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم، والإحسان إلى الخلق ببذل النفع لهم من كل وجه. نسأل الله أن يجعلنا من المتقين المحسنين.

تم تفسير سورة النحل. ولله الحمد والمنة.



## تفسير سورة بني إسرائيل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾.

﴿١﴾ ينزه تعالى نفسه المقدسة ويعظمها لأن له الأفعال العظيمة والمنن الجسيمة التي من جملتها أنه ﴿أسرى بعبدِهِ﴾: ورسوله محمد ﷺ، ﴿من المسجد الحرام﴾: الذي هو أجل المساجد على الإطلاق، ﴿إلى المسجد الأقصى﴾: الذي هو من المساجد الفاضلة، وهو محل الأنبياء، فأسرى به في ليلة واحدة إلى مسافة بعيدة جداً، ورجع في ليلته، وأراه الله من آياته ما ازداد به هدئ وبصيرة وثباتاً وفرقاناً، وهذا من اعتنائه تعالى به ولطفه؛ حيث يسره ليسرى في جميع أموره، وخوله نعماً فاق بها الأولين والآخرين. وظاهر الآية أن الإسراء كان في أول الليل، وأنه من

نفس المسجد الحرام، لكن ثبت في الصحيح أنه أُسْرِيَ به من بيت أم هانئ<sup>(١)</sup>؛ فعلى هذا تكون الفضيلة في المسجد الحرام لسائر الحرم؛ فكله تضاعف<sup>(٢)</sup> فيه العبادة كتضاعفها في نفس المسجد، وأنَّ الإسراء بروحه وجسده معاً، وإلا لم يكن في ذلك آية كبرى ومنقبة عظيمة.

وقد تكاثرت الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ في الإسراء<sup>(٣)</sup> وذكر تفاصيل ما رأى، وأنه أُسْرِيَ به إلى بيت المقدس، ثم عُرج به من هناك إلى السماوات حتى وصل إلى ما فوق السماوات العلى، ورأى الجنة والنار، والأنبياء على مراتبهم، وفُرض عليه الصلوات خمسين، ثم ما زال يراجع ربه بإشارة موسى الكليم حتى صارت خمساً في الفعل<sup>(٤)</sup> وخمسين في الأجر<sup>(٥)</sup> والثواب، وحاز من المفخر تلك الليلة هو وأُمَّته ما لا يعلم مقداره إلا الله عز وجل. ودَكَرَهُ هنا وفي مقام الإنزال للقرآن ومقام التحدي بصفة العبودية؛ لأنه نال هذه المقامات الكبار بتكميله لعبودية ربه.

وقوله: ﴿الذي بارَكنا حوله﴾؛ أي: بكثرة الأشجار والأنهار والخصب الدائم، ومن بركته تفضيله على غيره من المساجد سوى المسجد الحرام ومسجد المدينة، وأنه يُطلَّب شدُّ الرحل إليه للعبادة والصلاة فيه، وأنَّ الله اختصه محلاً لكثير من أنبيائه وأصفيائه.

﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكَتَبَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ①  
ذُرِّيَّةً مِّن حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ② وَقَضَيْنَا إِلَيْكَ بَيْتَ إِسْرَائِيلَ فِي الْكَلْبِ  
لِنُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلِنَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ③ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا  
أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ④ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ  
وَأَمَدَدْنَاكُمْ بِالْقُوْلِ وَبَنِيكِ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ⑤ إِنَّ أَحْسَنْتَ أَحْسَنَتْهُ لَأَنْفُسِكُمْ وَإِن

(١) انظر «سيرة ابن هشام» (١٥/٢) ط دار إحياء التراث العربي. وانظر «الفتح» (٢٠٤/٧) فقد جمع الحافظ ابن حجر بين الروايات.

(٢) في (ب): «تضاعف».

(٣) كما في «صحيح البخاري» (٣٢٠٧ و٣٨٨٧)، ومسلم (١٦٢) وقد ساق الحافظ ابن كثير أحاديث الإسراء في أول تفسير سورة الإسراء.

(٤) في (ب): «بالفعل».

(٥) في (ب): «بالأجر».

أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ الْآخِرَةَ لِيُسْتَفْأَ وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّأُوا مَا عَلَوُا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُمْ عُدتْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ ﴿٨﴾

﴿٢﴾ كثيراً ما يفرُّ الباري بين نبوة محمد ﷺ ونبوة موسى ﷺ وبين كتابيهما وشريعتيهما؛ لأنَّ كتابيهما أفضل الكتب، وشريعتيهما أكمل الشرائع، ونبوتيهما أعلى النبوات، وأتباعهما أكثر المؤمنين، ولهذا قال هنا: ﴿وَأَتَيْنَا موسى الكتاب﴾: الذي هو التوراة، ﴿وَجَعَلْنَاهُ هَدًى لبني إسرائيل﴾: يهتدون به في ظلِّمات الجهل إلى العلم بالحقِّ. ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً﴾؛ أي: وقلنا لهم ذلك، وأنزلنا إليهم الكتاب لذلك؛ ليعبدوا الله وحده، ويُنبيوا إليه، ويتَّخذوه وحده وكيلاً ومدبراً لهم في أمر دينهم ودنياهم، ولا يتعلَّقوا بغيره من المخلوقين الذين لا يملكون شيئاً ولا ينفعونهم بشيء.

﴿٣﴾ ﴿ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾؛ أي: يا ذُرِّيَّةَ مَنْ مَنَّا عليهم وحملناهم مع نوح. ﴿إِنَّهٗ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾: ففيه التنويه بالثناء على نوح عليه السلام بقيامه بشكر الله واتِّصافه بذلك، والحثُّ لذُرِّيَّتِهِ أَنْ يَقْتَدُوا به في شكره ويتابعوه عليه، وأن يتذكَّروا نعمة الله عليهم إذ<sup>(١)</sup> أبقاهم، واستخلفهم في الأرض، وأغرق غيرهم.

﴿٤﴾ ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾؛ أي: تقدَّمتنا وعهَدنا إليهم وأخبرناهم في كتابهم أنهم لا بدَّ أن يقعَ: منهم إفسادٌ في الأرض مرتين بعمل المعاصي والبَطْر لنعم الله والعلوِّ في الأرض والتكبرُ فيها، وأنه إذا وقع واحدةٌ منهما؛ سلَّط الله عليهم الأعداء وانتقم منهم، وهذا تحذيرٌ لهم وإنذارٌ لعلَّهم يرجعون فيتذكَّرون.

﴿٥﴾ ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ أُولَاهُمَا﴾؛ أي: أولى المرتين اللتين يفسدون فيهما؛ أي: إذا وقع منهم ذلك الفساد، ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ﴾: بعثاً قدرياً وسلطاناً عليكم تسليطاً كونياً جزائياً، ﴿عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾؛ أي: ذوي شجاعة وعددٍ وعدَّةٍ، فنصرهم الله عليكم، فقتلوكم وسبَّوا أولادكم ونهبوا أموالكم، وجاسوا ﴿خلالَ الديار﴾: فهتكوا الدَّور، ودخلوا المسجد الحرام، وأفسدوه. ﴿وكان وعداً مفعولاً﴾: لا بدَّ من وقوعه لوجود سببه منهم. واختلف المفسِّرون في تعيين هؤلاء المسلَّطين؛ إلاَّ أنَّهم

(١) في (ب): «إذا».

أَتَفَقُوا عَلَى أَنَّهُمْ قَوْمٌ كَفَّارٌ: إمَّا من أهل العراق، أو الجزيرة، أو غيرها؛ سَلَطَهُمُ اللَّهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا كَثُرَتْ فِيهِمُ الْمَعَاصِي وَتَرَكُوا كَثِيرًا مِنْ شَرِيعَتِهِمْ وَطَغَوْا فِي الْأَرْضِ.

﴿٦﴾ ﴿٦﴾ نَمَّ رَدَدْنَا لَكُمْ الْكِرَّةَ عَلَيْهِمْ؛ أَي: عَلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ سَلَطُوا عَلَيْكُمْ فَأَجَلَيْتُمُوهُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ، ﴿وَأَمَدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾؛ أَي: أَكْثَرْنَا أَرْزَاقَكُمْ وَكَثَّرْنَاكُمْ وَقَوَّيْنَاكُمْ عَلَيْهِمْ، ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾: مِنْهُمْ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ إِحْسَانِكُمْ وَخُضُوعِكُمْ لِلَّهِ.

﴿٧﴾ ﴿٧﴾ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ: لِأَنَّ النِّفْعَ عَائِدٌ إِلَيْكُمْ حَتَّى فِي الدُّنْيَا كَمَا شَاهَدْتُمْ مِنْ انْتِصَارِكُمْ عَلَى أَعْدَائِكُمْ. ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾؛ أَي: فَلْأَنْفُسِكُمْ يَعُودُ الضَّرْرُ؛ كَمَا أَرَاكُمْ اللَّهُ مِنْ تَسْلِيْطِ الْأَعْدَاءِ. ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾؛ أَي: الْمَرَّةَ الْآخِرَى<sup>(١)</sup> الَّتِي تَفْسِدُونَ فِيهَا فِي الْأَرْضِ؛ سَلَطْنَا أَيْضًا عَلَيْكُمْ الْأَعْدَاءَ، ﴿لِيَسُوءُوا وَجُوهَكُمْ﴾: بِانْتِصَارِهِمْ عَلَيْكُمْ وَسَبِّكُمْ، ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: وَالْمَرَادُ بِالْمَسْجِدِ مَسْجِدَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، ﴿وَلِيَتَّبِعُوا﴾؛ أَي: يَخْرُبُوا وَيَدْمُرُوا ﴿مَا عَلَّمْنَا﴾: عَلَيْهِ ﴿تَبِيرًا﴾: فَيَخْرُبُوا بِيُوتَكُمْ وَمَسَاجِدَكُمْ وَحُرُوتَكُمْ.

﴿٨﴾ ﴿٨﴾ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمُ: فَيُدِيلُ لَكُمْ الْكِرَّةَ عَلَيْهِمْ، فَرَحِمَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمُ الدُّوْلَةَ وَتَوَعَّدَهُمْ عَلَى الْمَعَاصِي، فَقَالَ: ﴿وَإِنْ عُذْتُمْ﴾: إِلَى الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ، ﴿عُدْنَا﴾: إِلَى عِقُوبَتِكُمْ، فَعَادُوا لِذَلِكَ، فَسَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ، فَانْتَقَمَ اللَّهُ بِهِ مِنْهُمْ؛ فَهَذَا جَزَاءُ الدُّنْيَا، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ النَّكَالِ أَعْظَمُ وَأَشْنَعُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾: يَصِلُونَهَا وَيَلَازِمُونَهَا لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا أَبَدًا. وَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ التَّحْذِيرُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ مِنَ الْعَمَلِ بِالْمَعَاصِي؛ لِثَلَاثٍ يَصِيبُهُمْ مَا أَصَابَ بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ فَسَنَةُ اللَّهِ وَاحِدَةٌ لَا تَبْدُلُ وَلَا تَغْيِرُ، وَمَنْ نَظَرَ إِلَى تَسْلِيْطِ الْكُفْرَةِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَالظُّلْمَةِ؛ عَرَفَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ ذُنُوبِهِمْ عِقُوبَةٌ لَهُمْ، وَأَنَّهُمْ إِذَا أَقَامُوا كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ؛ مَكَّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ، وَنَصَرَهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ.

﴿٩﴾ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هِيَ أُمَّةٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ ﴿١٠﴾



﴿٩ - ١٠﴾ يخبر تعالى عن شرف القرآن وجلالته وأنه ﴿يهدي للتي هي أقوم﴾؛ أي: أعدل وأعلى من العقائد والأعمال والأخلاق؛ فمن اهتدى بما يدعو إليه القرآن؛ كان أكمل الناس وأقومهم وأهداهم في جميع الأمور. ﴿ويبشّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات﴾: من الواجبات والسُنن، ﴿أن لهم أجراً كبيراً﴾: أعدّه الله لهم في دار كرامته لا يعلم وصفه إلا هو. ﴿وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة اعتدنا لهم عذاباً أليماً﴾؛ فالقرآن مشتمل على البشارة والندارة وذكر الأسباب التي تُنال بها البشارة، وهو الإيمان والعمل الصالح، والتي تستحقُّ بها الندارة، وهو ضدُّ ذلك.

﴿وَدَعِ الْإِنْسَانَ بِالْشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾.

﴿١١﴾ وهذا من جهل الإنسان وعجلته؛ حيث يدعو على نفسه وأولاده بالشر عند الغضب، ويبادرُ بذلك الدعاء كما يبادرُ بالدعاء في الخير، ولكنَّ الله من لطفه <sup>(١)</sup> يستجيب له في الخير ولا يستجيب له بالشر، ولو يُعجلُ الله للناس الشرَّ استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم.

﴿وَجَعَلْنَا آيَاتٍ لِلنَّهَارِ وَآيَاتٍ لِّللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾.

﴿١٢﴾ يقول تعالى: ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين﴾؛ أي: دالتين على كمال قدرة الله وسعة رحمته وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له. ﴿فمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾؛ أي: جعلناه مظلماً للسكون فيه والراحة. ﴿وجعلنا آية النهار مبصرة﴾؛ أي: مضيئة، ﴿لتبتغوا فضلاً من ربكم﴾: في معاشكم وصنائعكم وتجاراتكم وأسفاركم، ﴿ولتعلموا﴾: بتوالي الليل والنهار واختلاف القمر ﴿عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾: فتبنون عليها ما تشاؤون من مصالحكم. ﴿وكلُّ شيءٍ فضّلناه تفصيلاً﴾؛ أي: بيّنا الآيات، وصرّفناه لتمييز الأشياء، ويتبيّن الحقُّ من الباطل؛ كما قال تعالى: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيءٍ﴾.

﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْمَنَهُ طَرَفُهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخِرَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مِنْشُورًا ﴿١٣﴾﴾ أقرأ  
﴿كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾.

(١) في (ب): «بلطفه».

﴿١٣ - ١٤﴾ وهذا إخبارٌ عن كمال عدله: أن كلَّ إنسانٍ يُلْزِمُهُ طَائِرُهُ في عُنُقِهِ؛ أي: ما عمل من خيرٍ وشرٍّ يجعله الله ملازماً له لا يتعداه إلى غيره؛ فلا يحاسبُ بعملٍ غيره ولا يحاسبُ غيره بعمله. ﴿ونُخْرِجُ له يومَ القيامةِ كتاباً يلقاهُ منشوراً﴾: فيه عمله من الخير والشرِّ حاضرًا صغيره وكبيره، ويقال له: ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾: وهذا من أعظم العدل والإنصاف أن يقال للعبيد: حاسبٌ نفسك؛ ليعرف ما عليه من الحقِّ الموجب للعقاب.

﴿مَنْ أَهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا نَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾.

﴿١٥﴾ أي: هداية كلِّ أحدٍ وضلاله لنفسه. لا يحمل أحدٌ ذنبَ أحدٍ، ولا يدفع عنه مثقالَ ذرَّةٍ من الشرِّ، والله تعالى أعدل العادلين، لا يعذبُ أحدًا حتى تقوم عليه الحجَّةُ بالرسالة ثم يعاند الحجَّةَ، وأما من انقاد للحجَّةِ أو لم تبلغه حجَّةُ الله تعالى؛ فإنَّ الله تعالى لا يعذبُ به. استدل بهذه الآية على أن أهل الفترات وأطفال المشركين لا يعذبهم الله حتى يبعث إليهم رسولاً؛ لأنَّ منزَّه عن الظلم.

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ فَنَدْمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكُنْ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾.

﴿١٦﴾ يخبر تعالى أنه إذا أراد أن يُهْلِكَ قَرْيَةً من القرى الظالمة ويستأصلها بالعذاب؛ أمر مُتْرَفِيهَا أَمْرًا قَدْرِيًّا، ففسقوا فيها، واشتدَّ طغيانهم؛ ﴿فحقَّ عليها القول﴾؛ أي: كلمة العذاب التي لا مردَّ لها؛ ﴿فندمرناها تدميراً﴾.

﴿١٧﴾ وهؤلاء أمم كثيرةٌ أبادهم الله بالعذاب من بعد قوم نوح؛ كعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ممن عاقبهم الله لما كثُرَ بغيهم واشتدَّ كفرهم؛ أنزل الله بهم عقابه العظيم. ﴿وكفى برَّبِّكَ بذنوب عباده خبيراً بصيراً﴾: فلا يخافوا منه ظلماً، وأنه يعاقبهم على ما عملوه.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لِمُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لِمُ جَهَنَّمَ يَصَلُّهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ كَلَّا نُمِدُّ هُنُوًا وَهُنُوًا مِنْ عَطَاؤِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاؤُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿١٨﴾ يخبر تعالى أن ﴿مَنْ كَانَ يَرِيدُ﴾: الدنيا ﴿العاجلة﴾ المنقضية الزائلة، فعمل لها وسعى، ونسي المبتدأ أو المنتهى: أن الله يعجل له من حطامها ومتاعها ما يشاؤه ويريده، مما كَتَبَ اللهُ له في اللوح المحفوظ، ولكنه متاعٌ غير نافع ولا دائم له، ثم يجعل له في الآخرة ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا﴾؛ أي: يباشر عذابها، ﴿مذموماً مدحوراً﴾؛ أي: في حالة الخزي والفضيحة والذم من الله ومن خلقه والبعد عن رحمة الله، فيجمع له بين العذاب والفضيحة.

﴿١٩﴾ ﴿ومن أراد الآخرة﴾: فرضيها وآثرها على الدنيا، ﴿وسعى لها سعيها﴾: الذي دعت إليه الكتب السماوية والآثار النبوية، فعمل بذلك على قدر إمكانه، ﴿وهو مؤمن﴾: بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. ﴿فأولئك كان سعيهم مشكوراً﴾؛ أي: مقبولاً منمى مدخراً، لهم أجرهم وثوابهم عند ربهم.

﴿٢٠﴾ ومع هذا؛ فلا يفوتهم نصيبهم من الدنيا؛ فكلاً يؤمده الله منها؛ لأنه عطاؤه وإحسانه. ﴿وما كان عطاء ربك محظوراً﴾؛ أي: ممنوعاً من أحد، بل جميع الخلق راتعون بفضلِهِ وإحسانِهِ.

﴿٢١﴾ ﴿انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض﴾: في الدنيا بسعة الأرزاق وقتلتها، واليسر والعسر، والعلم والجهل، والعقل والسفه، وغير ذلك من الأمور التي فضل الله العباد بعضهم على بعض بها. ﴿وللآخرة أكبر درجاتٍ وأكبر تفضيلاً﴾: فلا نسبة لنعيم الدنيا ولذاتها إلى الآخرة بوجه من الوجوه؛ فكم بين من هو في الغرف العاليات واللذات المتنوعات والسرور والخيرات والأفراح ممن هو يتقلب في الجحيم، ويعذب بالعذاب الأليم، وقد حلَّ عليه سخطُ الربِّ الرحيم، وكلُّ من الدارين بين أهلها من التفاوت ما لا يمكن أحداً عدّه.

﴿لَا يَجْعَلُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقَعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾.

﴿٢٢﴾ أي: لا تعتقد أن أحداً من المخلوقين يستحق شيئاً من العبادة، ولا تشرك بالله أجداً منهم؛ فإن ذلك داع للذم والخذلان؛ فالله وملائكته ورسله قد نهبوا عن الشرك، وذموا من عمله أشدَّ الذم، ورتبوا عليه من الأسماء المذمومة والأوصاف المقبوحة ما كان به متعاطيه أشنع الخلق وصفاً وأقبحهم نعتاً، وله من الخذلان في أمر دينه ودنياه بحسب ما تركه من التعلق بربه؛ فمن تعلق بغيره؛ فهو مخذولٌ قد وكلَّ إلى مَنْ تعلق به، ولا أحد من الخلق ينفع أحداً إلا بإذن الله؛ وكما أن مَنْ جعل مع الله إلهاً آخر له الذم والخذلان؛ فمن وحده وأخلص

دينه لله، وتعلّق به دون غيره؛ فإنه محمودٌ مُعانٌ في جميع أحواله.

﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ .

﴿٢٣﴾ لما نهى تعالى عن الشرك به؛ أمر بالتوحيد، فقال: ﴿وقضى ربك﴾: قضاء دينياً، وأمر أمراً شرعياً ﴿أن لا تعبدوا﴾: أحداً من أهل الأرض والسموات الأحياء والأموات، ﴿إلا إياه﴾: لأنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي له كلُّ صفة كمال، وله من تلك الصفة أعظمها، على وجه لا يشبهه أحدٌ من خلقه، وهو المنعمُ بالنعم الظاهرة والباطنة، الدافع لجميع النقم، الخالق، الرازق، المدبّر لجميع الأمور؛ فهو المتفردٌ بذلك كله، وغيره ليس له من ذلك شيء. ثم ذكر بعد حقّه القيام بحقّ الوالدين، فقال: ﴿وبالوالدين إحساناً﴾؛ أي: أحسنوا إليهما بجميع وجوه الإحسان القولّي والفعلي؛ لأنهما سببٌ وجود العبد، ولهما من المحبة للولد والإحسان إليه، والقرب ما يقتضي تأكّد الحقّ ووجوب البرّ. ﴿إمّا يبلُغَنَّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما﴾؛ أي: إذا وصلا إلى هذا السنّ الذي تضعفُ فيه قواهما ويحتاجان من اللطف والإحسان ما هو معروفٌ، ﴿فلا تقلّ لهما أفٌّ﴾: وهذا أدنى مراتب الأذى، نبّه به على ما سواه، والمعنى: لا تؤذيهما أدنى أذى، ﴿ولا تنهزهما﴾؛ أي: تزجرهما وتتكلم لهما كلاماً خشناً. ﴿وقلّ لهما قولا كريماً﴾: بلفظٍ يحبّانه، وتأدّب وتلطّف بكلامٍ ليّن حسن يلدُّ على قلوبهما، وتطمئنُّ به نفوسهما، وذلك يختلف باختلاف الأحوال والعوائد والأزمان.

﴿٢٤﴾ ﴿واخفض لهما جناح الذلّ من الرحمة﴾؛ أي: تواضع لهما ذلّاً لهما ورحمةً واحتساباً للأجر، لا لأجل الخوف منهما أو الرجاء لهما ونحو ذلك من المقاصد التي لا يؤجر عليها العبد. ﴿وقل ربّ ارحمهما﴾؛ أي: ادعُ لهما بالرحمة أحياءً وأمواتاً؛ جزاءً على تربيتيهما إيّاك صغيراً. وفهّم من هذا أنّه كلّما ازدادت التربية؛ ازداد الحقّ. وكذلك من تولّى تربية الإنسان في دينه ودُنياه تربيةً سالحةً غير الأبوين؛ فإنّ له على من ربّاه حقّ التربية.

﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾ .

﴿٢٥﴾ أي: ربّكم تعالى مطلع على ما أكنّته سرائركم من خير وشرّ، وهو لا

ينظر إلى أعمالكم وأبدانكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وما فيها من الخير والشر. ﴿إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾: بأن تكون إرادتكم ومقاصدكم دائرة على مرضاة الله، ورغبتكم فيما يقربكم إليه، وليس في قلوبكم إرادات مستقرة لغير الله. ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ﴾؛ أي: الرجاعين إليه في جميع الأوقات؛ ﴿غَفُورًا﴾: فمن أطلع الله على قلبه، وعلم أنه ليس فيه إلا الإجابة إليه ومحبة ومحبة ما يقرب إليه؛ فإنه وإن جرى منه في بعض الأوقات ما هو مقتضى الطباع البشرية؛ فإن الله يعفو عنه، ويغفر له الأمور العارضة غير المستقرة.

﴿وَمَا تَذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا نُبْذِرُ تَبْذِيرًا﴾ ﴿٢٦﴾ ﴿إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ ﴿٢٧﴾ ﴿وَأَمَّا تَعْرِضَنَّهُمْ أَتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ تَرَوْهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ ﴿٢٨﴾ ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ ﴿٢٩﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ ﴿٣٠﴾.

﴿٢٦ - ٢٧﴾ يقول تعالى: ﴿وَأَتِ حَقَّ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾: من البر والإكرام الواجب والمسنون، وذلك الحق يتفاوت بتفاوت الأحوال والأقارب والحاجة وعدمها والأزمنة، ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾: آتة حقه من الزكاة ومن غيرها؛ لتزول مسكنته، ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾: وهو الغريب المنقطع به عن بلده، فيعطى الجميع من المال، على وجه لا يضر المعطي، ولا يكون زائداً على المقدار اللائق؛ فإن ذلك تبذير، قد نهى الله عنه وأخبر: إنَّ المُبْذِرِينَ ﴿إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾: لأنَّ الشيطان لا يدعو إلا إلى كل خصلة ذميمة، فيدعو الإنسان إلى البخل والإمساك؛ فإذا عصاه؛ دعا إلى الإسراف والتبذير، والله تعالى إنما يأمر بأعدل الأمور وأقسطها، ويمدح عليه؛ كما في قوله عن عباد الرحمن الأبرار: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾.

﴿٢٩﴾<sup>(١)</sup> وقال هنا: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾: كناية عن شدة الإمساك والبخل، ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾: فتتفق فيما لا ينبغي أو زيادة على ما ينبغي، ﴿فَتَقْعُدَ﴾: إن فعلت ذلك ﴿مَلُومًا﴾؛ أي: تلام على ما فعلت، ﴿مَّحْسُورًا﴾؛ أي: حاسر اليد فارغها؛ فلا بقي ما في يدك من المال، ولا خلفه مدح وثناء.

(١) ذكر المؤلف تفسير الآية (٢٩) بعد الآية (٢٧) لتناسبهما.

﴿٢٨﴾ وهذا الأمر بإيتاء ذي القربى مع القدرة والغنى، فأما مع العُدْم أو تعسر النفقة الحاضرة؛ فأمر تعالى أن يُردُّوا رداً جميلاً، فقال: ﴿وإِذَا تَعَرَّضْتُمْ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا﴾؛ أي: تعرض عن إعطائهم إلى وقت آخر ترجو فيه من الله تيسير الأمر. ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مِيسُورًا﴾؛ أي: لطيفاً برفقٍ ووعده بالجميل عند سُنُوحِ الفرصة واعتذارٍ بعدم الإمكان في الوقت الحاضر؛ لينقلبوا عنك مطمئنة خواطرهم؛ كما قال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذَى﴾. وهذا أيضاً من لطف الله تعالى بالعباد، أمرهم بانتظار الرحمة والرزق منه؛ لأنَّ انتظار ذلك عبادة، وكذلك وعدهم بالصدقة والمعروف عند التيسر عبادة حاضرة؛ لأنَّ الهمَّ بفعل الحسنة حسنة، ولهذا ينبغي للإنسان أن يفعل ما يَقْدِرُ عليه من الخير، وينوي فعل ما لم يَقْدِرْ عليه لِثَبَابِ عَلَى ذَلِكَ، ولعلَّ الله ييسر له بسبب رجائه.

﴿٣٠﴾ ثم أخبر تعالى: أَنَّ اللَّهَ ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾: من عباده ويقدره ويضيقه على من يشاء حكمةً منه. ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾: فيجزئهم على ما يعلمه صالحاً لهم، ويدبرهم بلطفه وكرمه.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾.

﴿٣١﴾ وهذا من رحمته بعباده؛ حيث كان أرحم بهم من والديهم، فنهى الوالدين أن يقتلوا أولادهم خوفاً من الفقر والإملاق، وتكفل برزق الجميع، وأخبر أن: ﴿قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾؛ أي: من أعظم كبائر الذنوب؛ لزوال الرحمة من القلب، والعقوق العظيم، والتجزي على قتل الأطفال الذين لم يجز منهم ذنب ولا معصية.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الرِّزْقَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾.

﴿٣٢﴾ والنهي عن قربانه أبلغ من النهي عن مجرد فعله؛ لأنَّ ذلك يشمل النهي عن جميع مقدماته ودواعيه؛ فإنَّ من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، خصوصاً هذا الأمر الذي في كثير من النفوس أقوى داعٍ إليه، ووصف الله الرِّزْنَ وقبحه بأنه ﴿كَانَ فَاحِشَةً﴾؛ أي: إثماً يُستفحش في الشرع والعقل والفطر؛ لتضمُّنه التجري على الحرمة في حقِّ الله وحقِّ المرأة وحقِّ أهلها أو زوجها وإفساد الفراش واختلاط الأنساب وغير ذلك من المفاسد. وقوله: ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾؛ أي: بسُّ السبيل سبيلٌ من تجرأ على هذا الذنب العظيم.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ أَنْفِي حَرَمَ اللَّهِ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَهُ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ (٣٣).

﴿٣٣﴾ وهذا شامل لكل نفس حرم الله قتلها من صغير وكبير وذكر وأنثى وحر وعبد ومسلم وكافر له عهد، ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾: كالنفس بالنفس، والزاني المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة، والباغي في حال بغيه إذا لم يندفع إلا بالقتل. ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا﴾؛ أي: بغير حق، ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَهُ﴾: وهو أقرب عصباته وورثته إليه ﴿سُلْطَانًا﴾؛ أي: حجة ظاهرة على القصاص من القاتل، وجعلنا له أيضاً تسليطاً قدرياً على ذلك، وذلك حين تجتمع الشروط الموجبة للقصاص؛ كالعمد العدوان والمكافأة. ﴿فَلَا يَسْرِفُ﴾: الولي ﴿فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾: والإسراف مجاوزة الحد: إما أن يمثل بالقاتل، أو يقتله بغير ما قتل به، أو يقتل غير القاتل. وفي هذه الآية دليل إلى أن الحق في القتل للولي؛ فلا يقتص إلا بإذنه، وإن عفا؛ سقط القصاص، وأن ولي المقتول يعينه الله على القاتل ومن أعانه، حتى يتمكن من قتله.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ (٣٤).

﴿٣٤﴾ وهذا من لطفه ورحمته باليتيم الذي فقد والده وهو صغير غير عارف بمصلحة نفسه ولا قائم بها أن أمر أوليائه بحفظه وحفظ ماله وإصلاحه وأن لا يقربوه ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾: من التجارة فيه وعدم تعريضه للأخطار والحرص على تنميته، وذلك ممتد إلى أن يبلغ اليتيم ﴿أشده﴾؛ أي: بلوغه وعقله ورشده؛ فإذا بلغ أشده؛ زالت عنه الولاية، وصار ولي نفسه، ودفع إليه ماله؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ آتَيْتُمْ مِنْهُمْ زُجْجًا فَأَدْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾، ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾: الذي عاهدتم الله عليه، والذي عاهدتم الخلق عليه. ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾؛ أي: مسؤولين عن الوفاء به وعدمه؛ فإن وفيتم؛ فلکم الثواب الجزيل، وإن لم تفعلوا<sup>(١)</sup>؛ فعليكم الإثم العظيم.

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كُنْتُمْ بِالْقَسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (٣٥).

(١) في (ب): «وإن لم تفوا».

﴿٣٥﴾ وهذا أمرٌ بالعدل وإيفاء المكايل والموازين بالقسط من غير بخس ولا نقص. ويؤخذ من عموم المعنى، النهي عن كلِّ غشٍّ في ثمنٍ أو مثمنٍ أو معقودٍ عليه، والأمر بالنصح والصدق في المعاملة. ﴿ذلك خير﴾: من عدمه، ﴿وأحسن تأويلاً﴾؛ أي: أحسن عاقبة، به يسلم العبد من التبعات، وبه تنزل البركة.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾﴾.

﴿٣٦﴾ أي: ولا تتبّع ما ليس لك به علم، بل تثبت في كلِّ ما تقوله وتفعله؛ فلا تظنَّ ذلك يذهب لا لك ولا عليك. ﴿إنَّ السمع والبصر والفؤاد كلُّ أولئك كان عنه مسؤولاً﴾: فحقيق بالعبد الذي يعرف أنه مسؤول عما قاله وفعله وعما استعمل به جوارحه التي خلقها الله لعبادته أن يُعدَّ للسؤال جواباً، وذلك لا يكون إلا باستعمالها بعبودية الله، وإخلاص الدين له، وكفها عما يكرهه الله تعالى.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُنْقَلِبَ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾.

﴿٣٧﴾ يقول تعالى: ﴿ولا تمش في الأرض مَرَحاً﴾؛ أي: كبراً وتيهاً وبطراً متكبّراً على الحقِّ ومتعاضماً على الخلق. ﴿إنك﴾: في فعلك ذلك ﴿لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً﴾: في تكبرك بل تكون حقيراً عند الله، ومحتقراً عند الخلق، مبغوضاً، ممقوتاً، قد اكتسبت شرَّ الأخلاق، واكتسبت بأرذلها، من غير إدراك لبعض ما تروم.

﴿٣٨﴾ ﴿كل ذلك﴾: المذكور الذي نهى الله عنه فيما تقدّم من قوله: ﴿لا تجعل مع الله إلهاً آخر﴾، والنهي عن عقوق الوالدين، وما عُطف على ذلك، ﴿كان سيئته عند ربك مكروهاً﴾؛ أي: كل ذلك يسوء العاملين ويضرهم والله تعالى يكرهه ويأباه.

﴿٣٩﴾ ﴿ذلك﴾ الذي بيّناه ووضّحناه من هذه الأحكام الجليلة، ﴿مما أوحى إليك ربك من الحكمة﴾: فإنَّ الحكمة الأمر بمحاسن الأعمال ومكارم الأخلاق والنهي عن أراذل الأخلاق وأسوأ الأعمال. وهذه الأعمال المذكورة في هذه الآيات من الحكمة العالية التي أوحاها رب العالمين لسيد المرسلين في أشرف الكتب ليأمر بها أفضل الأمم؛ فهي من الحكمة التي من أوتيتها؛ فقد أوتي خيراً كثيراً. ثم ختمها



بالنهي عن عبادة غير الله كما افتتحها بذلك، فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ﴾؛ أي: خالداً مخلداً؛ فإنه من يُشْرِكْ بالله فقد حَرَّمَ اللهُ عليه الجنة ومأواه النار. ﴿مَلُومًا مَذْحُورًا﴾؛ أي: قد لحقتك اللائمة واللعنة والذم من الله وملائكته والناس أجمعين.

﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتًا إِنَّكُمْ لَقَوْلُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ٤٠﴾.

﴿٤٠﴾ وهذا إنكارٌ شديدٌ على من زعم أن الله اتخذ من خلقه بنات، فقال: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ﴾؛ أي: اختار لكم الصّفوة والقسم الكامل، ﴿وَاتَّخَذَ﴾: لنفسه ﴿من الملائكة إنثاء﴾: حيث زعموا أن الملائكة بنات الله. ﴿إِنَّكُمْ لَقَوْلُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾: فيه أعظم الجرأة على الله، حيث نسبتُم له الولد المتضمّن لحاجته، واستغناء بعض المخلوقات عنه، وحكموا له بأردأ القسمين، وهن الإناث، وهو الذي خلقكم واصطفاكم بالذكور، فتعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ٤١﴾ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ٤٢﴾ سُبْحٰنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُقُولُونَ ٤٣﴾ عَلُوًّا كَبِيرًا ٤٤﴾ نَسِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا ٤٥﴾.

﴿٤١﴾ يخبر تعالى أنه صرّف لعباده في هذا القرآن؛ أي: نوع الأحكام ووضّحها وأكثر من الأدلة والبراهين على ما دعا إليه، ووعظ وذكّر لأجل أن يتذكروا ما ينفعهم فيسئلوكه وما يضرهم فيدعوه، ولكن أبى أكثر الناس ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ عن آيات الله؛ لبغضهم للحقّ ومحبتهم ما كانوا عليه من الباطل، حتى تعصّبوا لباطلهم، ولم يُعيروا آيات الله لهم سمعاً، ولا ألقوا لها بالاً.

﴿٤٢﴾ ومن أعظم ما صرّف فيه الآيات والأدلة التّوحيد الذي هو أصل الأصول، فأمر به ونهى عن ضده وأقام عليه من الحجج العقلية والنقلية شيئاً كثيراً؛ بحيث إن من أصغى إلى بعضها لا تدع في قلبه شكاً ولا ريباً، ومن الأدلة على ذلك هذا الدليل العقلي الذي ذكره هنا، فقال: ﴿قل﴾: للمشركين الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر: ﴿لو كان معه آلهة كما يقولون﴾؛ أي: على موجب زعمهم وافترائهم؛ ﴿إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً﴾؛ أي: لاتخذوا سبيلاً إلى الله بعبادته والإنابة إليه والتقرّب وابتغاء الوسيلة؛ فكيف يجعل العبد الفقير الذي يرى

شدة افتقاره لعبودية ربه إلهاً مع الله؟! هل هذا إلا من أظلم الظلم وأسفه السّفه؛ فعلى هذا المعنى تكون هذه الآية كقوله تعالى: ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب﴾: وكقوله تعالى: ﴿ويوم يحشُرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلّوا السبيل قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء﴾.

ويُحتمل أن المعنى في قوله: ﴿قُل لو كان مع آلهة كما يقولون إذا لا بُتَغُوا إلى ذي العرش سبيلاً﴾؛ أي: لطلبوا السبيل وسَعَوْا في مغالبة الله تعالى، فإما أن يعلوا عليه فيكون من علا وقَهَرَ هو الربّ الإله، فأما وقد علموا أنهم يقرّون أن آلهتهم التي يدعون<sup>(١)</sup> من دون الله مقهورة مغلوبة ليس لها من الأمر شيء؛ فلم اتّخذوها وهي بهذه الحال؟! فيكون هذا كقوله تعالى: ﴿ما اتَّخَذَ اللَّهُ من ولدٍ وما كان معه من إله إذا لَذَهَبَ كُلُّ إلهٍ بما خَلَقَ ولعلا بعضهم على بعض﴾.

﴿٤٣﴾ ﴿سبحانه وتعالى﴾؛ أي: تقدّس وتنزّه وعلت أوصافه، ﴿عما يقولون﴾: من الشرك به واتّخاذ الأنداد معه، ﴿علواً كبيراً﴾: فعلا قدره وعظّم وجلّت كبرياؤه التي لا تُقادر أن يكون معه آلهة؛ فقد ضلّ من قال ذلك ضلالاً ميبناً وظلم ظلاماً كبيراً، لقد تضاءلت لعظمته المخلوقات العظيمة، وصغرّت لدى كبريائه السماوات السبع ومن فيهن والأرضون السبع ومن فيهن، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه، وافتقر إليه العالم العلوي والسفلي فقرّاً ذاتياً لا ينفك عن أحدٍ منهم في وقتٍ من الأوقات، هذا الفقر بجميع وجوهه؛ فقرٌ من جهة الخلق والرزق والتدبير، وفقرٌ من جهة الاضطراب إلى أن يكون معبوده ومحبوته الذي إليه يتقرّبون، وإليه في كل حال يفزعون.

﴿٤٤﴾ ولهذا قال: ﴿تسبّح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيءٍ﴾: من حيوانٍ ناطق وغير ناطق، ومن أشجار ونبات وجامد، وحيٍّ وميت، ﴿إلا يسبّح بحمده﴾: بلسان الحال ولسان المقال، ﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾؛ أي: تسبيح باقي المخلوقات التي على غير لغتكم، بل يحيط بها علام الغيوب. ﴿إنه كان حليماً غفوراً﴾: حيث لم يعاجل بالعقوبة من قال فيه قولاً تكاد السماوات والأرض تنفطر منه وتخرّ له الجبال، ولكنّه أمهلهم، وأنعم عليهم، وعافاهم،

(١) في (ب): «يعبدون».

ورزقهم، ودعاهم إلى باهٍ ليتوبوا من هذا الذنب العظيم؛ ليعطيهم الثواب الجزيل، ويغفر لهم ذنبهم؛ فلولا حلمه ومغفرته؛ لسقطت السماوات على الأرض، ولما ترك على ظهرها من دابةٍ.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُمْ وَلَوْ أَنْ عَلَيَّ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٤٧﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَاؤًا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾.

﴿٤٥﴾ يخبر تعالى عن عقوبته للمكذبين بالحق الذين ردّوه وأعرضوا عنه أنه يحول بينهم وبين الإيمان، فقال: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾: الذي فيه الوعظ والتذكير والهدى والإيمان والخير والعلم الكثير؛ ﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾: يسترهم عن فهمه حقيقة وعن التحقق بحقائقه والانقياد إلى ما يدعو إليه من الخير.

﴿٤٦﴾ ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾؛ أي: أغطية وأغشية لا يفقهون معها القرآن، بل يسمعون سماعاً تقوم به عليهم الحجة، ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾؛ أي: صمماً عن سماعه، ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ﴾: داعياً لتوحيده، ناهياً عن الشرك به؛ ﴿وَلَوْ أَنَّ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾: من شدة بغضهم له ومحبتهم لما هم عليه من الباطل؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

﴿٤٧﴾ ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾؛ أي: إنما منغناهم من الانتفاع عند سماع القرآن لأننا نعلم أن مقاصدهم سيئة؛ يريدون أن يعثروا على أقل شيءٍ ليفدحوا به، وليس استماعهم لأجل الاسترشاد وقبول الحق، وإنما هم معتمدون على عدم اتباعه، ومن كان بهذه الحالة؛ لم يفذه الاستماع شيئاً، ولهذا قال: ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾؛ أي: متناجين، ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ﴾: في مناجاتهم؛ ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾: فإذا كانت هذه مناجاتهم الظالمة فيما بينهم، وقد بنّوها على أنه مسحور؛ فهم جازمون أنهم غير معتبرين لما قال، وأنه يهذي لا يدري ما يقول.

﴿٤٨﴾ قال تعالى: ﴿أَنْظِرْ﴾: متعجباً ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾: التي هي

أضلّ الأمثال وأبعدها عن الصواب، ﴿فَضَّلُوا﴾: في ذلك، أو فصارت سبباً لضلالهم؛ لأنهم بنّوا عليها أمرهم، والمبني على فاسدٍ أفسد منه. فلا يهتدون ﴿سبيلاً﴾؛ أي: لا يهتدون أيّ اهتداء، فَتَصِيْبُهُمُ الضلال المحض والظلم الصرف.

﴿وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفْنَا إِيَّانَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِمْ وَتَقُولُونَ إِنْ لَيْتَنَّا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾.

﴿٤٩﴾ يخبر تعالى عن قول المنكرين للبعث وتكذيبهم به واستبعادهم بقولهم: ﴿إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفْنَا﴾؛ أي: أجساداً بالية. ﴿إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾؛ أي: لا يكون ذلك، وهو محالٌ بزعمهم، فجهلوا أشدَّ الجهل؛ حيثُ كذبوا رسل الله، وجحدوا آيات الله، وقاسوا قدرة خالق السماوات والأرض بقدرتهم الضعيفة العاجزة، فلما رأوا أن هذا ممتنع عليهم لا يقدرّون عليه؛ جعلوا قدرة الله كذلك؛ فسبحان من جعل خلقاً من خلقه يزعمون أنهم أولو العقول والألباب مثلاً في جهل أظهر الأشياء وأجلها وأوضحها براهين وأعلاها؛ ليُري عباده أنه ما ثمَّ إلا توفيقه وإعانتة أو الهلاك والضلال، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾.

﴿٥٠ - ٥١﴾ ولهذا أمر رسوله ﷺ أن يقول لهؤلاء المنكرين للبعث استبعاداً: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا. أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ﴾؛ أي: يعظم ﴿في صدوركم﴾: لتسلموا بذلك - على زعمكم - من أن تنالكم قدرة الله أو تنفذ فيكم مشيئته؛ فإنكم غير معجزين الله في أيّ حالة تكونون وعلى أيّ وصفٍ تتحوّلون، وليس لكم في أنفسكم تدبيرٌ في حالة الحياة وبعد الممات؛ فدعوا التدبير والتصريف لمن هو على كل شيء قدير وبكل شيء محيط. ﴿فسيقولون﴾: حين تُقيم عليهم الحجّة في البعث: ﴿من يعيدنا قل الذي فَطَرَكُم أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: فكما فَطَرَكُم ولم تكونوا شيئاً مذكوراً؛ فإنه سيعيدكم خلقاً جديداً؛ ﴿كما بدأنا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدُهُ﴾، ﴿فسينغضون إليك رؤوسهم﴾؛ أي: يهزؤونها إنكاراً وتعجباً مما قلت. ﴿ويقولون متى هو﴾؛ أي: متى وقت البعث الذي تزعمه على قولك؟ لا إقراراً منهم لأصل البعث، بل ذلك سفة منهم وتعجيز. ﴿قل عسى أن يكون قريباً﴾: فليس في تعيين وقته فائدة،

وإنما الفائدة والمدار على تقريره والإقرار به وإثباته، وإلا؛ فكل ما هو آتٍ؛ فإنه قريب.

— ﴿٥٢﴾ ﴿يوم يدعوكم﴾: للبعث والنشور وينفخ في الصور، ﴿فتستجيبون بحمده﴾؛ أي: تنقادون لأمره ولا تستعصون عليه. وقوله: ﴿بحمده﴾؛ أي: هو المحمود تعالى على فعله، ويجزي به العباد إذا جمعهم ليوم التناد، ﴿وتظنون إن لبتنم إلا قليلاً﴾: من سرعة وقوعه، وأن الذي مرَّ عليكم من النعيم كأنه ما كان؛ فهذا الذي يقول عنه المنكرون: متى هو؟ يندمون غاية الندم عند وروده، ويُقال لهم: هذا الذي كنتم به تكذبون.

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَتْ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿٥٣﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يُرْحَمَكُمُ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبِكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَمَا آتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾.

﴿٥٣﴾ وهذا من لطفه بعباده؛ حيث أمرهم بأحسن الأخلاق والأعمال والأقوال الموجبة للسعادة في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿وقل لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾: وهذا أمرٌ بكل كلام يقرب إلى الله؛ من قراءةٍ وذكرٍ وعلمٍ وأمرٍ بمعروفٍ ونهيٍ عن منكرٍ وكلامٍ حسنٍ لطيفٍ مع الخلق على اختلاف مراتبهم ومنازلهم، وأنه إذا دار الأمر بين أمرين حسنين؛ فإنه يؤمر بإيثار أحسنهما إن لم يمكن الجمع بينهما، والقول الحسنُ داعٍ لكل خلقٍ جميلٍ وعملٍ صالحٍ؛ فإنَّ مَنْ مَلَكَ لسانه؛ مَلَكَ جميع أمره. وقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: يسعى بين العباد بما يُفسدُ عليهم دينهم ودنياهم؛ فدواءُ هذا أن لا يُطيعوه في الأقوال غير الحسنة التي يدعوهم إليها، وأن يلينوا فيما بينهم؛ لينقمع الشيطان الذي ينزع بينهم؛ فإنه عدوُّهم الحقيقي الذي ينبغي لهم أن يحاربوه؛ فإنه يدعوهم ليكونوا من أصحاب السعير، وأما إخوانهم؛ فإنهم وإن نزع الشيطان فيما بينهم وسعى في العداوة؛ فإنَّ الحزم كلَّ الحزم السعي في ضدِّ عدوِّهم، وأن يَقَمَعُوا أنفسهم الأمارة بالسوء، التي يدخل الشيطان من قِبَلها؛ فبذلك يطيعون ربَّهم، ويستقيم أمرهم، ويُهدون لرشدهم.

﴿٥٤﴾ ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾: من أنفسكم؛ فلذلك لا يريد لكم إلا ما هو الخير، ولا يأمركم إلا بما فيه مصلحة لكم، وقد تريدون شيئاً خيراً في عكسه. ﴿إِنْ يَشَأْ يُرْحَمَكُمُ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبِكُمْ﴾: فيوفق مَنْ شاء لأسباب الرحمة، ويخذل

من شاء فَيُضِلُّ عنها فيستحقُّ العذاب. ﴿وما أرسلناك عليهم وكيلاً﴾: تُدبِّرُ أمرهم وتقوم بمجازاتهم، وإِنَّمَا اللهُ هو الوكيل، وأنت مبلغٌ هادٍ إلى صراط مستقيم.

﴿٥٥﴾ ﴿وربك أعلمُ بمن في السمواتِ والأرض﴾: من جميع أصناف الخلائق، فيعطي كلاً منهم ما يستحقُّه وتقتضيه حكمته، ويفضِّلُ بعضهم على بعض في جميع الخصال الحسنيَّة والمعنويَّة؛ كما فضِّلَ بعض النبيِّين المشتركين بوحيه على بعض، بالفضائل والخصائص الرَّاجعة إلى ما مَنْ به عليهم، من الأوصاف الممدوحة، والأخلاق المرضيَّة والأعمال الصالحة وكثرة الأتباع ونزول الكتب على بعضهم، المشتملة على الأحكام الشرعيَّة والعقائد المرضيَّة؛ كما أنزل على داود زبوراً، وهو الكتاب المعروف؛ فإذا كان تعالى قد فضِّلَ بعضهم على بعض وآتى بعضهم كتباً؛ فلم يَنْكِرُ المكذِّبون لمحمدٍ ﷺ ما أنزله اللهُ عليه وما فضَّله به من النبوة والكتاب؟

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشَفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا نَحْوِيلاً﴾ ﴿٥٦﴾ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ ﴿٥٧﴾.

﴿٥٦﴾ يقول تعالى: ﴿قل﴾ للمشركين بالله الذين اتَّخذوا من دونه أنداداً يعبدونهم كما يعبدون الله، ويدعونهم كما يدعونه ملزماً لهم بتصحيح ما زعموه، واعتقدوه إن كانوا صادقين: ﴿ادعوا الذين زعمتم﴾: آلهة من دون الله، فانظروا هل يَنْفَعونكم أو يدْفَعون عنكم الضَّرَّ؟ فإنهم لا ﴿يملكون كَشَفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ﴾: من مرضٍ أو فقرٍ أو شدَّةٍ ونحو ذلك؛ فلا يدفعونه بالكُلِّيَّة. ولا يملكون أيضاً تَحْوِيلَهُ من شخصٍ إلى آخر، ومن شدَّةٍ إلى ما دونها؛ فإذا كانوا بهذه الصفة؛ فلأيِّ شيءٍ تدعونهم من دون الله؛ فإنهم لا كمالَ لهم ولا فعال نافعة؛ فاتَّخذهم نقصٌ في الدين والعقل وسَفَهٌ في الرأي.

ومن العجب أنَّ السَّفَه عند الاعتیاد والممارسة وتلقَّيه عن الآباء الضالِّين بالقبول يراه صاحبه هو الرأي السديد والعقل المفيد، ويرى إخلاصَ الدِّين لله الواحد الأحد الكامل المنعم بجميع النعم الظاهرة والباطنة هو السَّفَه والأمر المتعجَّب منه؛ كما قال المشركون: ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً إنَّ هذا لشيءٌ عُجَابٌ﴾.

﴿٥٧﴾ ثم أخبر أيضاً أنَّ الذين يعبدونهم من دون الله في شغلٍ شاغلٍ عنهم باهتمامهم بالافتقار إلى الله وابتغاء الوسيلة إليه؛ فقال: ﴿أولئك الذين يدعون﴾:

من الأنبياء والصالحين والملائكة، ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾؛ أي: يتنافسون في القرب من ربهم، ويبدلون ما يقدرون عليه من الأعمال الصالحة المقربة إلى الله تعالى وإلى رحمته، ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾: فيجتنبون كل ما يوصل إلى العذاب. ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾؛ أي: هو الذي ينبغي شدة الحذر منه والتوقّي من أسبابه. وهذه الأمور الثلاثة الخوف والرجاء والمحبة التي وصف الله بها هؤلاء المقربين عنده هي الأصل والمادة في كل خير؛ فمن تمّت له؛ تمّت له أموره، وإذا خلا القلب منها؛ ترحلت عنه الخيرات، وأحاطت به الشرور.

وعلاوة المحبة ما ذكره الله أن يجتهد العبد في كل عمل يقربه إلى الله، وينافس في قربه بإخلاص الأعمال كلها لله، والنصح فيها وإيقاعها في أكمل الوجوه المقدر عليها؛ فمن زعم أنه يحب الله بغير ذلك؛ فهو كاذب.

﴿وَلَا يَمَنُّ مِنْ قَرِيبَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ آلَيْكُمْ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾.

﴿٥٨﴾ أي: ما من قرية من القرى المكذبة للرسول إلا لا بد أن يصيبهم هلاك قبل يوم القيامة أو عذاب شديد، كتاب كتبه الله وقضاء أبرمه لا بد من وقوعه؛ فليبادر المكذبون بالإنبابة إلى الله وتصديق رُسُلِهِ قبل أن تتم عليهم كلمة العذاب ويحق عليهم القول.

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوْلُونَ وَإِنَّا تَمُودُ النَّاقَةَ مُتَمِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخَوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرِّثْيَا الَّتِي أَرْتِكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنَحْوَهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾.

﴿٥٩﴾ يذكر تعالى رحمته بعدم إنزاله الآيات التي يقترح بها المكذبون، وأنه ما منعه أن يرسلها إلا خوفًا من تكذيبهم لها؛ فإذا كذبوا بها؛ عاجلهم العقاب وحلّ بهم من غير تأخير كما فعل بالأولين الذين كذبوا بها، ومن أعظم الآيات الآية التي أرسلها الله إلى تمود، وهي الناقة العظيمة الباهرة التي كانت تصدر عنها جميع القبيلة بأجمعها، ومع ذلك كذبوا بها، فأصابهم ما قصّ الله علينا في كتابه. وهؤلاء كذلك؛ لو جاءتهم الآيات الكبار؛ لم يؤمنوا؛ فإنه ما منعهم من الإيمان خفاء ما

جاء به الرسول واشتباها هل هو حقٌ أو باطل؟ فإنه قد جاء من البراهين الكثيرة ما دلَّ على صحَّة ما جاء به الموجب لهداية مَنْ طلب الهداية؛ فغيرُها مثلُها، فلا بدُّ أن يسلكوا بها ما سلكوا بغيرها، فتركُ إنزالها والحالة هذه خيرٌ لهم وأنفع. وقوله: ﴿وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً﴾؛ أي: لم يكن القصدُ بها أن تكون داعيةً وموجبةً للإيمان الذي لا يحصلُ إلاَّ بها، بل المقصود منها التخويف والترهيب؛ ليرتدعوا عن ما هم عليه.

﴿٦٠﴾ ﴿وإذ قلنا لك إِنَّ رَبَّكَ أَحاط بالناس﴾: علماً وقدرة؛ فليس لهم ملجأ يلجؤون إليه ولا ملاذً يلوذون به عنه، وهذا كافٍ لمن له عقلٌ في الانكفاف عما يكرهه الله الذي أحاط بالناس، ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك﴾: أكثر المفسرين على أنها ليلة الإسراء، ﴿والشجرة الملعونة﴾: التي ذكرت ﴿في القرآن﴾: وهي شجرة الزقوم التي تثبتُ في أصل الجحيم.

والمعنى: إذا كان هذان الأمران قد صارا فتنةً للناس، حتى استلجَّ الكفار بكفرهم وازداد شرُّهم، وبعض مَنْ كان إيمانه ضعيفاً رجع عنه، بسبب أن ما أخبرهم به من الأمور التي كانت ليلة الإسراء، ومن الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كان خارقاً للعادة، والإخبار بوجود شجرة تثبتُ في أصل الجحيم أيضاً من الخوارق؛ فهذا الذي أوجب لهم التكذيب؛ فكيف لو شاهدوا الآيات العظيمة والخوارق الجسيمة؟! أليس ذلك أولى أن يزداد بسببه شرُّهم؛ فلذلك رحمهم الله وصرفها عنهم. ومن هنا تعلمُ أن عدم التصريح في الكتاب والسنة بذكر الأمور العظيمة التي حدثت في الأزمنة المتأخرة أولى وأحسن؛ لأنَّ الأمور التي لم يشاهد الناس لها نظيراً ربَّما لا تقبلها عقولهم، [لو أخبروا بها قبل وقوعها] فيكون ذلك ريباً في قلوب بعض المؤمنين ومانعاً يمنع من لم يدخل الإسلام ومنفراً عنه، بل ذكر الله ألفاظاً عامةً تتناول جميع ما يكون. والله أعلم. ﴿ونخوفهم﴾: بالآيات، ﴿فما يزيدهم﴾: التخويف ﴿إلا طغياناً كبيراً﴾: وهذا أبلغ ما يكون في التحلي بالشرِّ ومحبتِّه وبغض الخير وعدم الانقياد له.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿١٦﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَعْرَضْتَ عَنْكَ رَبِّي أَنَّى أَغْوَيْتَنِي ﴿١٧﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴿١٨﴾ وَأَسْتَفْرِزْ مِنْ أَسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ



بصَوْتِكَ وَأَجَلَبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجَلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٢﴾ .

﴿٦١﴾ ينبئه تبارك وتعالى عباده على شدة عداوة الشيطان وحرصه على إضلالهم، وأنه لما خلق الله آدم؛ استكبر عن السجود له و ﴿قال﴾ متكبراً: ﴿السُّجُدَ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾؛ أي: من طين، وبزعمه أنه خير منه؛ لأنه خلق من نار، وقد تقدم فساد هذا القياس الباطل من عدة أوجه.

﴿٦٢﴾ فلما تبين لإبليس تفضيل الله لآدم؛ ﴿قال﴾ مخاطباً لله: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْت عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ﴾؛ أي: لأستأصلنهم بالإضلال ولأغوينهم، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾: عرف الخبيث أنه لا بد أن يكون منهم من يعاديه ويعصيه.

﴿٦٣﴾ فقال الله له: ﴿أذهب فمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾: واختارك على ربّه ووليّه الحق. ﴿فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً﴾؛ أي: مدخراً لكم موفراً جزاء أعمالكم.

﴿٦٤﴾ ثم أمره الله أن يفعل كل ما يقدر عليه من إضلالهم، فقال: ﴿واستفزز من استطعت منهم بصوتك﴾: ويدخل في هذا كل دأب إلى المعصية، ﴿وأجلب عليهم بخيلك ورجلك﴾: ويدخل فيه كل راكب وماشٍ في معصية الله؛ فهو من خيل الشيطان ورجله. والمقصود أن الله ابتلى العباد بهذا العدو المبين الداعي لهم إلى معصية الله بأقواله وأفعاله. ﴿وشاركهم في الأموال والأولاد﴾: وذلك شامل لكل معصية تعلقت بأموالهم وأولادهم من منع الزكاة والكفارات والحقوق الواجبة، وعدم تأديب الأولاد وتربيتهم على الخير وترك الشر، وأخذ الأموال بغير حقها أو وضعها بغير حقها أو استعمال المكاسب الرديئة، بل ذكر كثير من المفسرين أنه يدخل في مشاركة الشيطان في الأموال والأولاد ترك التسمية عند الطعام والشراب والجماع، وأنه إذا لم يُسم الله في ذلك؛ شارك فيه الشيطان؛ كما ورد فيه الحديث<sup>(١)</sup>. ﴿وعدهم﴾: الأوعاد المزخرفة التي لا حقيقة لها، ولهذا قال: ﴿وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾؛ أي: باطلاً مضمحلاً؛ كأن يزين لهم المعاصي والعقائد الفاسدة، ويعدهم عليها الأجر؛ لأنهم يظنون أنهم على الحق، وقال

(١) كما في «صحيح البخاري» (١٤١)، ومسلم (٢٠١٨).

تعالى: ﴿الشيطان يعدُّكم الفقر ويأمرُكم بالفحشاءِ واللّه يَعدُّكم مغفرةً منه وفضلاً﴾ .  
 ﴿٦٥﴾ ولما أخبر عما يريد الشيطان أن يفعل بالعباد؛ ذَكَرَ ما يُغْتَصَمُ به من فتنته، وهو عبودية الله والقيام بالإيمان والتوكل، فقال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾؛ أي: تسلُّط وإغواء، بل الله يدفع عنهم بقيامهم بعبوديته كلَّ شرٍّ، ويحفظهم من الشيطان الرجيم، ويقوم بكفائتهم. ﴿وكفى بربك وكيلًا﴾: لمن توكل عليه، وأدى ما أمر به.

﴿رَبِّكُمْ الَّذِي يُزِيحُ لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّكُمْ كَأَنْتُمْ رَجِيمًا﴾  
 ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ دَعَا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا جَنَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَسِّفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُفْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ .

﴿٦٦﴾ يذكر تعالى نعمته على العباد بما سخَّر لهم من الفلك والسفن والمراكب، وألهمهم كيفية صنعتها وسخَّر لها البحر المنتظم يحملها على ظهره؛ ليتنفع العباد بها في الركوب والحمل للأمتعة والتجارة، وهذا من رحمته بعباده؛ فإنه لم يزل بهم رحيمًا رءوفًا، يؤتيهم من كلِّ ما تعلقت به إرادتهم ومنافعهم.

﴿٦٧﴾ ومن رحمته الدالة على أنه وحده المعبود دون ما سواه أنهم إذا مسَّهم الضُّرُّ في البحر، فخافوا من الهلاك لتراكم الأمواج؛ ضلَّ عنهم ما كانوا يدعون من دون الله في حال الرِّخاء من الأحياء والأموات، فكأنهم لم يكونوا يدعونهم في وقت من الأوقات؛ لعلمهم أنهم ضعفاء عاجزون عن كشف الضُّرِّ، وصرخوا بدعوة فاطر الأرض والسموات، الذي تستغيث به في شدائدها جميعُ المخلوقات، وأخلصوا له الدعاء والتضرُّع في هذه الحال، فلما كَشَفَ اللهُ عنهم الضُّرَّ ونجَّاهم إلى البرِّ؛ نسوا ما كانوا يدعون إليه من قبل، وأشركوا به مَنْ لا ينفع ولا يضرُّ ولا يعطي ولا يمنع، وأعرضوا عن الإخلاص لربِّهم ومليكيهم.

وهذا من جهل الإنسان وكفره؛ فإنَّ الإنسان كفورٌ للنعم؛ إِلَّا مَنْ هدى الله فمنَّ عليه بالعقل السليم واهتدى إلى الصراط المستقيم؛ فإنه يعلم أنَّ الذي يكشف الشدائد، وينجِّي من الأهوال هو الذي يستحقُّ أن يُفْرَدَ، وتُخَلَّصَ له سائر الأعمال في الشدَّة والرِّخاء واليسر والعسر، وأما من خَدِلَ ووَكِلَ إلى عقله الضعيف؛ فإنه لم

يلحظ وقت الشدة إلا مصلحته الحاضرة وإنجاءه في كل تلك الحال، فلما حصلت له النجاة وزالت عنه المشقة؛ ظنَّ بجهله أنه قد أعجز الله، ولم يختر بقلبه شيء من العواقب الدنيوية فضلاً عن أمور الآخرة.

﴿٦٨ - ٦٩﴾ ولهذا ذكروهم الله بقوله: ﴿أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً﴾؛ أي: فهو على كل شيء قدير، إن شاء أنزل عليكم عذاباً من أسفل منكم بالخسف، أو من فوقكم بالحاصب، وهو العذاب الذي يحصبهم فيصبحوا هالكين؛ فلا تظنوا أن الهلاك لا يكون إلا في البحر، وإن ظننتم ذلك؛ فأنتم آمنون من ﴿أن يعيدكم﴾: في البحر؛ ﴿تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفاً من الريح﴾؛ أي: ريحاً شديدة جداً تقصف ما أتت عليه، ﴿فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا﴾؛ أي: تبعة ومطالبة؛ فإن الله لم يظلمكم مثقال ذرة.

﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَجَعَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ رِزْقًا وَمِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾

﴿٧٠﴾ وهذا من كرمه عليهم وإحسانه الذي لا يقادَر قدره؛ حيث كرم بني آدم بجميع وجوه الإكرام، فكرمهم بالعلم والعقل وإرسال الرسل وإنزال الكتب، وجعل منهم الأولياء والأصفياء، وأنعم عليهم بالنعمة الظاهرة والباطنة، ﴿وحملناهم في البر﴾: على الركاب من الإبل والبغال والحمير والمراكب البرية. وفي ﴿البحر﴾: في السفن والمراكب، ﴿ورزقناهم من الطيبات﴾: من المأكَل والمشارب والملابس والمناجح؛ فما من طيب تتعلق به حوائجهم إلا وقد أكرمهم الله به ويسره لهم غاية التيسير، ﴿وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾: بما خصهم به من المناقب وفضلهم به من الفضائل التي ليست لغيرهم من أنواع المخلوقات، أفلا يقومون بشكر من أولى النعم ودفع النقم ولا تحجبهم النعم عن المنعم فيشتغلوا بها عن عبادة ربهم، بل ربما استعانوا بها على معاصيه؟!

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْبَاتِهِمْ فَمَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظَلَمُونَ فِيهَا سَبِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧١﴾﴾

﴿٧١﴾ يخبر تعالى عن حال الخلق يوم القيامة، وأنه يدعو كل أناس معهم إمامهم وهاديهم إلى الرشد، وهم الرسل ونوابهم، فتعرض كل أمة، ويحضرها رسولهم الذي دعاهم، وتعرض أعمالهم على الكتاب الذي يدعو إليه الرسول هل

هي موافقة له أم لا؟ فينقسمون بهذا قسمين: ﴿فمن أوتي كتابه بيمينه﴾: لكونه أتبع إمامه الهادي إلى صراطٍ مستقيم، واهتدى بكتابه؛ فكثرت حسناته، وقلّت سيئاته؛ ﴿فأولئك يقرؤون كتابهم﴾: قراءة سرور وبهجة على ما يرون فيها مما يفرحهم ويسرهم، ﴿ولا يظلمون فتيلاً﴾: مما عملوه من الحسنات.

﴿٧٢﴾ ﴿ومن كان في هذه﴾: الدنيا ﴿أعمى﴾: عن الحق؛ فلم يقبله ولم يتخذ له، بل أتبع الضلال، ﴿فهو في الآخرة أعمى﴾: عن سلوك طريق الجنة كما لم يسلكه في الدنيا، ﴿وأضل سبيلاً﴾: فإنّ الجزء من جنس العمل، وكما تدين تدان. وفي هذه الآية دليل على أنّ كلّ أمة تُدعى إلى دينها وكتابها وهل عملت به أم لا؟ وأنهم لا يؤاخذون بشرع نبيّ لم يؤمروا باتباعه، وأنّ الله لا يعذب أحداً إلاّ بعد قيام الحجّة عليه ومخالفته لها، وأنّ أهل الخير يعطون كتبهم بأيمانهم، ويحصل لهم من الفرح والسرور شيءٌ عظيم، وأنّ أهل الشرّ بعكس ذلك، وأنهم لا يقدرّون على قراءة كتبهم من شدّة غمهم وحزنهم وثبورهم.

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرًا وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلاً ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً ﴿٧٤﴾ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً ﴿٧٥﴾ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلاً ﴿٧٦﴾ سُنَّةً مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ رُسُلِنَا وَلَا يَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴿٧٧﴾﴾.

﴿٧٣﴾ يذكر تعالى منته على رسوله محمد ﷺ وحفظه له من أعدائه الحريصين على فتنته بكل طريق، فقال: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا﴾؛ أي: قد كادوا لك أمراً لم يُذكره، وتحيلوا لك على أن تفتري على الله غير الذي أنزلنا إليك، فتجيء بما يوافق أهواءهم، وتدع ما أنزل الله إليك. ﴿وَإِذَا﴾: لو فعلت ما يهرون؛ ﴿لَا تَخَذُوكَ خَلِيلاً﴾؛ أي: حبيباً صفيّاً أعزّ عليهم من أحبّابهم لما جبلك الله عليه من مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب المحبّبة للقريب والبعيد والصديق والعدوّ، ولكن لتعلم أنّهم لم يعادوك وينابذوك العداوة إلاّ للحقّ الذي جئت به لا لذاتك؛ كما قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكَذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

﴿٧٤﴾ ﴿و﴾ مع هذا ﴿لَوْلَا أَنْ ثَبَّنَّاكَ﴾: على الحقّ وامتثنا عليك بعدم الإجابة

لداعيهم، ﴿لقد كدت تركزن إليهم شيئاً قليلاً﴾: من كثرة المعالجة ومحبتك لهديتهم.

﴿٧٥﴾ ﴿إذا﴾: لو ركنت إليهم بما يهون، ﴿لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات﴾؛ أي: لأصبتك بعذاب مضاعف في الدنيا والآخرة، وذلك لكمال نعمة الله عليك وكمال معرفتك. ﴿ثم لا تجد لك علينا نصيراً﴾: ينقذك مما يحل بك من العذاب، ولكن الله تعالى عصمك من أسباب الشر ومن الشر، فثبتك وهداك الصراط المستقيم، ولم تركزن إليهم بوجه من الوجوه؛ فله عليك أتم نعمة وأبلغ منحة.

﴿٧٦ - ٧٧﴾ ﴿وإن كادوا لَيَسْتَفِرُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾؛ أي: من بغضهم لمقامك بين أظهرهم، قد كادوا أن يخرجوك من الأرض ويخلوك عنها، ولو فعلوا ذلك؛ لم يلبثوا بعدك فيها إلا قليلاً، حتى تحل بهم العقوبة؛ كما هي سنة الله التي لا تحول ولا تبدل في جميع الأمم، كل أمة كذبت رسولها وأخرجته؛ عاجلها الله بالعقوبة، ولما مكر به الذين كفروا وأخرجوه؛ لم يلبثوا إلا قليلاً حتى أوقع الله بهم بيدٍ، وقتل صناديدهم، وفض بيضتهم؛ فله الحمد.

وفي هذه الآيات دليل على شدة افتقار العبد إلى تثبيت الله إياه، وأنه [ينبغي له أن] لا يزال متملقاً لربه أن يشته على الإيمان ساعياً في كل سبب موصل إلى ذلك؛ لأن النبي ﷺ - وهو أكمل الخلق - قال الله له: ﴿ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً﴾؛ فكيف بغيره!؟

وفيها: تذكير الله لرسوله منته عليه وعصمته من الشر، فدل ذلك على أن الله يحب من عباده أن يتفطنوا لإنعامه عليهم عند وجود أسباب الشر بالعصمة منه والثبات على الإيمان.

وفيها: أنه بحسب علو مرتبة العبد وتواتر النعم عليه من الله يعظم إثمُهُ ويتضاعف جرمُهُ إذا فعل ما يلام عليه؛ لأن الله ذكر رسوله لو فعل - وحاشاه من ذلك - بقوله: ﴿إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً﴾.

وفيها: أن الله إذا أراد إهلاك أمة؛ تضاعف جرمها وعظم وكبر، فيحوق عليها القول من الله، فيوقع بها العقاب؛ كما هي سنته في الأمم إذا أخرجوا رسولهم.

﴿أَفِرَّ الصَّلَاةَ إِذْلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾

﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٨﴾ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ .

﴿٧٨﴾ يأمر تعالى نبيه محمداً ﷺ بإقامة الصلاة تامة ظاهراً وباطناً في أوقاتها، ﴿لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾؛ أي: ميلانها إلى الأفق الغربي بعد الزوال، فیدخلُ في ذلك صلاة الظهر وصلاة العصر ﴿إِلَى عَسَقِ اللَّيْلِ﴾؛ أي: ظلمته، فدخل في ذلك صلاة المغرب وصلاة العشاء، ﴿وَقِرْآنَ الْفَجْرِ﴾؛ أي: صلاة الفجر، وسميت قرآناً لمشروعية إطالة القرآن فيها أطول من غيرها، ولفضل القراءة؛ حيث يشهدها الله وملائكة الليل وملائكة النهار.

ففي هذه الآية ذكر الأوقات الخمسة للصلوات المكتوبات، وأن الصلوات الموقعة فيه فرائض؛ لتخصيصها بالأمم.

وفيهما أن الوقت شرط لصحة الصلاة، وأنه سبب لوجوبها؛ لأن الله أمر بإقامتها لهذه الأوقات، وأن الظهر والعصر يُجمعان، والمغرب والعشاء كذلك؛ للعدر؛ لأن الله جمع وقتها جميعاً.

وفيه فضيلة صلاة الفجر، وفضيلة إطالة القراءة فيها، وأن القراءة فيها ركن؛ لأن العبادة إذا سُميت ببعض أجزائها؛ دل على فرضية ذلك.

﴿٧٩﴾ وقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ﴾؛ أي: صلِّ به في سائر أوقاته، ﴿نَافِلَةً لَكَ﴾؛ أي: لتكون صلاة الليل زيادة لك في علو القدر ورفع الدرجات؛ بخلاف غيرك؛ فإنها تكون كفارة لسيئاته. ويُحتمل أن يكون المعنى أن الصلوات الخمس فرض عليك وعلى المؤمنين؛ بخلاف صلاة الليل؛ فإنها فرض عليك بالخصوص؛ لكرامتك على الله أن جعلَ وظيفتك أكثر من غيرك، وليكثر ثوابك، وتنال بذلك المقام المحمود، وهو المقام الذي يحمده فيه الأولون والآخرون، مقام الشفاعة العظمى، حين يستشفع الخلائق بآدم ثم بنوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى، وكلهم يعتذر ويتأخر عنها، حتى يستشفعوا بسيد ولد آدم ليرحمهم الله من هم الموقف وكربه، فيشفع عند ربه، فيشفعه ويُقيمه مقاماً يغبطه به الأولون والآخرون، وتكون له المنة على جميع الخلق.

﴿٨٠﴾ وقوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾؛ أي:

اجعل مداخلتي ومخارجي كلها في طاعتك وعلى مرضاتك، وذلك لتضمّنها الإخلاص وموافقته<sup>(١)</sup> الأمر. ﴿واجعل لي من لَدُنْكَ سلطاناً نصيراً﴾؛ أي: حجة ظاهرة وبرهاناً قاطعاً على جميع ما أتته وما أذره، وهذا أعلى حالة يُنزلُها الله العبد، أن تكون أحواله كلها خيراً ومقربةً له إلى ربه، وأن يكون له على كلِّ حالة من أحواله دليلٌ ظاهرٌ، وذلك متضمّنٌ للعلم النافع والعمل الصالح للعلم بالمسائل والدلائل.

— ﴿٨١﴾ وقوله: ﴿وقل جاء الحقُّ وزهقَ الباطلُ﴾: والحقُّ هو ما أوحاه الله إلى رسوله محمدٍ ﷺ، فأمره الله أن يقولَ ويعلنَ: قد جاء الحقُّ الذي لا يقوم له شيءٌ، وزهقَ الباطلُ؛ أي: اضمحل وتلاشى. ﴿إنَّ الباطلَ كان زهوقاً﴾؛ أي: هذا وصف الباطل، ولكنّه قد يكون له صولةٌ وروجان إذا لم يقابله الحقُّ، فعند مجيء الحقِّ يضمحلُّ الباطل فلا يبقى له حراك، ولهذا لا يروج الباطل إلا في الأزمان والأمكنة الخالية من العلم بآيات الله وبيناته. وقوله:

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾.

﴿٨٢﴾ فالقرآن مشتملٌ على الشفاء والرحمة، وليس ذلك لكلِّ أحدٍ، وإنما ذلك للمؤمنين به المصدّقين بآياته العالمين به، وأما الظالمون بعدم التصديق به أو عدم العمل به؛ فلا تزيدهم آياته إلا خساراً؛ إذ به تقوم عليهم الحجّة؛ فالشفاء الذي تضمّنه القرآن عامٌ لشفاء القلوب من الشبه والجهالة والآراء الفاسدة والانحراف السيء والقصود السيئة؛ فإنه مشتملٌ على العلم اليقيني الذي تزول به كلُّ شبهة وجهالة، والوعظ والتذكير الذي يزول به كلُّ شهوة تخالف أمر الله، وشفاء الأبدان من آلامها وأسقامها، وأما الرحمة؛ فإنَّ ما فيه من الأسباب والوسائل التي يحثُّ عليها متى فعلها العبد، فاز بالرحمة والسعادة الأبدية والثواب العاجل والآجل.

﴿وَإِذَا أَنَّمَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾.

﴿٨٣﴾ هذه طبيعة الإنسان من حيث هو، إلا من هداه الله؛ فإنَّ الإنسان عند إنعام الله عليه يفرح بالنعم، ويبطرُ بها، ويعرضُ، وينأى بجانبه عن ربه؛ فلا يشكره، ولا يذكره. ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾: كالمرض ونحوه، ﴿كَانَ يَئُوسًا﴾: من

(١) في (ب): «وموافقة».

الخير، قد قطع عن ربّه رجاءه، وظنّ أنّ ما هو فيه دائمٌ أبداً، وأمّا مَنْ هداه الله؛ فإنّه عند النعم يخضعُ لربّه، ويشكر نعمته، وعند الضراء يتضرّع، ويرجو من الله عافيته وإزالة ما يقع فيه، وبذلك يخفُّ عليه البلاء.

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾

﴿٨٤﴾ أي: ﴿قُلْ كُلٌّ﴾: من الناس، ﴿يعملُ على شاكلته﴾؛ أي: على ما يليق به من الأحوال: إن كانوا من الصفوة الأبرار؛ لم يشاكلهم إلا عملهم لربّ العالمين، ومن كانوا من غيرهم من المخذولين؛ لم يناسبهم إلا العمل للمخلوقين، ولم يوافقهم إلا ما وافق أغراضهم. وربك ﴿أعلم بمن هو أهدى سبيلاً﴾: فيعلم مَنْ يَصْلُحُ للهداية فيهديه، ومن لا يَصْلُحُ لها فيخذله ولا يهديه.

﴿وَسْتَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾

﴿٨٥﴾ وهذا متضمّن لردع من يسأل المسائل التي لا يُفصّدُ بها إلا التعتُّ والتّعجيز، ويدع السؤال عن المهمّ، فيسألون عن الرُّوح التي هي من الأمور الخفيّة التي لا يتقن وصفها وكيفيتها كلّ أحدٍ، وهم قاصرون في العلم الذي يحتاج إليه العباد، ولهذا أمر الله رسوله أن يُجيب سؤالهم بقوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾؛ أي: من جملة مخلوقاته التي أمرها أن تكونَ فكانتَ، فليس في السؤال عنها كبيرُ فائدةٍ مع عدم علمكم بغيرها.

وفي هذه الآية دليلٌ على أنّ المسؤول إذا سُئِلَ عن أمرٍ، الأوّلَى بالسائل غيره أن يعرض عن جوابه، ويدلّه على ما يحتاج إليه، ويرشده إلى ما ينفعه.

﴿وَلَيْنَ شِئْنَا لَنُدْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾

﴿٨٦ - ٨٧﴾ يخبر تعالى أنّ القرآن والوحي الذي أوحاه إلى رسوله رحمةٌ منه عليه وعلى عباده، وهو أكبر النعم على الإطلاق على رسوله؛ فإنّ فضل الله عليه كبيرٌ لا يقاдрُ قدره؛ فالذي تفضّل به عليك قادرٌ على أن يذهبَ به ثم لا تجدُ راداً يرده ولا وكيلاً يتوجّه عند الله فيه؛ فلتغتبطَ به وتقرّر به عينك، ولا يحزنك تكذيبُ المكذبين واستهزاء الضالين؛ فإنّهم عرضت عليهم أجلُّ النعم فردوها لهوانهم على الله وخذلانِهِ لهم.



﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ ﴿٨٨﴾ .

﴿٨٨﴾ وهذا دليل قاطع وبرهان ساطع على صحة ما جاء به الرسول وصدقه؛ حيث تحدى الله الإنس والجن أن يأتوا بمثله، وأخبر أنهم لا يأتون بمثله، ولو تعاونوا كلهم على ذلك؛ لم يقديروا عليه، ووقع كما أخبر الله؛ فإن دواعي أعدائه المكذبين به متوفرة على رد ما جاء به بأي وجه كان، وهم أهل اللسان والفصاحة؛ فلو كان عندهم أدنى تأهل وتمكن من ذلك؛ لفعلوه، فعلم بذلك أنهم أذعنوا غاية الإذعان طوعاً وكرهاً، وعجزوا عن معارضته، وكيف يقدر المخلوق من تراب، الناقص من جميع الوجوه، الذي ليس له علم ولا قدرة ولا إرادة ولا مشيئة ولا كلام ولا كمال إلا من ربه؛ أن يعارض كلام رب الأرض والسموات، المطلع على سائر الخفيات، الذي له الكمال المطلق والحمد المطلق والمجد العظيم، الذي لو أن البحر يمدّه من بعده سبعة أبحر مداداً والأشجار كلها أقلاماً؛ لتفد المداد وفتيت الأقلام ولم تنفذ كلمات الله؛ فكما أنه ليس أحد من المخلوقين ماثلاً لله في أوصافه؛ فكلامه من أوصافه التي لا يماثله فيها أحد؛ فليس كمثل شيء في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله تبارك وتعالى؛ فتباً لمن اشتبه عليه كلام الخالق بكلام المخلوق، وزعم أن محمداً ﷺ افتراه على الله، واختلقه من نفسه.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَنْجِرَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوءُوا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجْوَىٰ وَعَسَىٰ فَتُنَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَافَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتِ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُؤْيَاكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾ قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَمْشِيًّا يَمَشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ .

﴿٨٩ - ٩٣﴾ يقول تعالى: ﴿ولقد صرّفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾؛ أي: نوعنا فيه المواعظ والأمثال، وثبتنا فيه المعاني التي يضطر إليها العباد لأجل أن

يتذكروا ويتقوا، فلم يتذكر إلا القليل منهم، الذين سبقت لهم من الله سابقة السعادة، وأعانهم الله بتوفيقه، وأما أكثر الناس؛ فأبوا إلا كفوراً لهذه النعمة التي هي أكبر من جميع النعم، وجعلوا يتعنتون عليه آيات غير آياته يخترعونها من تلقاء أنفسهم الظالمة الجاهلة، فيقولون لرسول الله ﷺ الذي أتى بهذا القرآن المشتمل على كل برهان وآية: ﴿لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾؛ أي: أنهاراً جارية، ﴿أو تكون لك جنة من نخيل وعنب﴾: فتستغني بها عن المشي في الأسواق والذهاب والمجيء، ﴿أو تسقط السماء كما رزقت علينا كسفاً﴾؛ أي: قطعاً من العذاب، ﴿أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً﴾؛ أي: جميعاً أو مقابلة ومعاينة يشهدون لك بما جئت به، ﴿أو يكون لك بيت من زخرف﴾؛ أي: مزخرف بالذهب وغيره، ﴿أو ترقى في السماء﴾: رُقياً حسياً. ﴿و﴾ مع هذا فلن ﴿نؤمن لِرُؤيتك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه﴾. ولما كانت هذه تعنتات وتعجيزات وكلام أسفه الناس وأظلمهم، المتضمنة لرد الحق وسوء أدب مع الله، وأن الرسول ﷺ هو الذي يأتي بالآيات؛ أمره الله أن ينزّهه، فقال: ﴿قل سبحان ربي﴾: عمّا تقولون علواً كبيراً، وسبحانه أن تكون أحكامه وآياته تابعة لأهوائهم الفاسدة وآرائهم الضالة. ﴿هل كنت إلا بشراً رسولاً﴾: ليس بيده شيء من الأمر.

﴿٩٤﴾ وهذا السبب الذي منع أكثر الناس من الإيمان؛ حيث كانت الرسل التي ترسل إليهم من جنسهم بشراً، وهذا من رحمته بهم أن أرسل إليهم بشراً منهم؛ فإنهم لا يطيقون التلقي من الملائكة.

﴿٩٥﴾ فلو ﴿كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين﴾: يثبتون على رؤية الملائكة والتلقي عنهم؛ ﴿لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾: ليمكنهم التلقي عنه.

﴿٩٦﴾ ﴿قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم إنه كان بعباده خبيراً بصيراً﴾: فمن شهادته لرسوله ما أيده به من المعجزات، وما أنزل عليه من الآيات، ونصره على من عاداه وناواه؛ فلو تقول عليه بعض الأقاويل؛ لأخذ منه باليمين، ثم لقطع منه الوتين؛ فإنه خيرٌ بصير، لا تخفى عليه من أحوال العباد خافية.

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمياً وَبُكماً وَصُمّاً مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعيراً﴾ (٩٧) ذَلِكَ

جَزَاءَهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرُفَاتًا أَوَآءَا لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ﴿٩٨﴾  
 أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا  
 رَيْبَ فِيهِ فَإِذَا الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ  
 خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ ﴿١٠٠﴾ .

﴿٩٧﴾ يخبر تعالى أنه المنفرد بالهداية والإضلال؛ فمن يهديه فيسيره لليسرى  
 ويجنبه العسرى؛ فهو المهتدي على الحقيقة، ومن يضلله فيخذله ويكبله إلى نفسه:  
 فلا هادي له من دون الله، وليس له ولي ينصره من عذاب الله حين يحشرهم الله  
 على وجوههم، خزيًا عمياً وبُكماً، لا يبصرون، ولا ينطقون. ﴿مأواهم﴾؛ أي:  
 مقرهم ودارهم ﴿جهنم﴾: التي جمعت كل هم وغم وعذاب. ﴿كلما خبت﴾؛  
 أي: تهيات للانطفاء، ﴿زدناهم سعيراً﴾؛ أي: سَعَرْنَاهَا بِهِمْ، لا يُفْتَرُ عنهم  
 العذاب، ولا يُقضى عليهم فيموتوا، ولا يخفف عنهم من عذابها.

﴿٩٨﴾ ولم يظلمهم الله تعالى، بل جازاهم بما كفروا بآياته وأنكروا البعث  
 الذي أخبرت به الرُّسل، ونطقت به الكتب، وعجزوا ربهم؛ فأنكروا تمام قدرته،  
 ﴿وقالوا إذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً﴾؛ أي: لا يكون هذا؛ لأنه  
 في غاية البعد عند عقولهم الفاسدة.

﴿٩٩﴾ ﴿أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض﴾: وهي أكبر من خلق  
 الناس، ﴿قادرٌ على أن يخلق مثلهم﴾: بلى إنه على ذلك قدير. ﴿و﴾ لكنه قد  
 جعل لذلك ﴿أجلاً لا ريب فيه﴾: ولا شك وإلا فلو شاء لجاءهم به بغتة ومع  
 إقامة الحجج والأدلة على البعث؛ ﴿فأبى الظالمون إلا كفوراً﴾: ظلماً منهم  
 وافتراءً.

﴿١٠٠﴾ ﴿قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي﴾: التي لا تُنفد ولا تبيد، ﴿إذا  
 لأمسكتم خشية الإنفاق﴾؛ أي: خشية أن يُنفد ما تنفقون منه، مع أنه من المحال أن  
 تُنفد خزائن الله، ولكن الإنسان مطبوعٌ على الشح والبخل.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَنَسَىٰ بَيْنَ إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُمُ فِرْعَوْنُ إِنِّي  
 لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَابِرٍ  
 وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ بِفِرْعَوْنٍ مَّشْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَنْسِفَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا

﴿١٠٢﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِيَنبِيَ إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٣﴾ ﴿١٠٢﴾

﴿١٠١﴾ أي: لست أيها الرسول المؤيد بالآيات أول رسول كذبه الناس؛ فلقد أرسلنا قبلك موسى بن عمران الكلیم إلى فرعون وقومه وآتيناہ ﴿تسع آيات بينات﴾: كلٌ واحدة منها تكفي لمن قصده أتباع الحق كالحية والعصا والطوفان والنجراد والقمل والضفادع والدم والرجز وقلق البحر؛ فإن شككت في شيء من ذلك؛ ﴿فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون﴾: مع هذه الآيات: ﴿إني لأظنك يا موسى مسحور﴾.

﴿١٠٢﴾ ﴿ف﴾ قال له موسى: ﴿لقد علمت﴾: يا فرعون، ﴿ما أنزل هؤلاء﴾: الآيات. ﴿إلا رب السموات والأرض بصائر﴾: منه لعباده؛ فليس قولك هذا بالحقيقة، وإنما قلت ذلك ترويحاً على قومك واستخفافاً لهم. ﴿وإني لأظنك يا فرعون متبور﴾؛ أي: ممقوتاً، ملقى في العذاب، لك الويل والدم واللعة.

﴿١٠٣ - ١٠٤﴾ ﴿فأراد﴾: فرعون ﴿أن يستفزهم من الأرض﴾؛ أي: يُجلبهم ويخرجهم منها، ﴿فأغرقناه ومن معه جميعاً﴾: وأورثنا بني إسرائيل أرضهم وديارهم، ولهذا قال: ﴿وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً﴾؛ أي: جميعاً؛ ليُنجزى<sup>(١)</sup> كل عامل بعمله.

﴿وَالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَالْحَقِّ نَزَلٌ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾

﴿١٠٥﴾ أي: وبالحق أنزلنا هذا القرآن الكريم لأمر العباد ونهيهم وثوابهم وعقابهم، ﴿وبالحق نزل﴾؛ أي: بالصدق والعدل والحفظ من كل شيطان رجيم. ﴿وما أرسلناك إلا مبشراً﴾: من أطاع الله بالشواب العاجل والآجل، ﴿ونذيراً﴾: لمن عصى الله بالعقاب العاجل والآجل، ويلزم من ذلك بيان ما يبشر به وينذر.

﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْتَبٍ وَنَزَّلْنَاهُ نِزْلًا مُبِينًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَأَمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُونَ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَجِرُونَ لِالَّذِقَانِ سَجْدًا ﴿١٠٧﴾ وَقَوْلُونَ سُبْحٰنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَجِرُونَ لِالَّذِقَانِ يَتَكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾

﴿١٠٦﴾ أي: وأنزلنا هذا القرآن مفزفاً مفزفاً بين الهدى والضلال والحق

(١) في (ب): «لنجازي».

والباطل؛ ﴿لَتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْتَبٍ﴾؛ أي: على مهل؛ ليتدبروه، ويتفكروا في معانيه ويستخرجوا علومه، ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾؛ أي: شيئاً فشيئاً مفرقاً في ثلاث وعشرين سنة. ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾.

﴿١٠٧﴾ فإذا تبين أنه الحق الذي لا شك فيه ولا ريب بوجه من الوجوه، ف﴿قُلْ﴾ لمن كذب به وأعرض عنه: ﴿آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾: فليس لله حاجة فيكم ولستم بضاريه شيئاً، وإنما ضرر ذلك عليكم؛ فإن لله عبادة غيركم، وهم الذين آتاهم الله العلم النافع؛ ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾؛ أي: يتأثرون به غاية التأثر ويخضعون له.

﴿١٠٨﴾ ﴿ويقولون سبحان ربنا﴾: عما لا يليق بجلاله مما نسبته إليه المشركون. ﴿إن كان وعد ربنا﴾: بالبعث والجزاء بالأعمال، ﴿لمفعولاً﴾: لا خلف فيه ولا شك.

﴿١٠٩﴾ ﴿ويخرون للأذقان﴾؛ أي: على وجوههم، ﴿يبكون ويزيدهم﴾: القرآن ﴿خشوعاً﴾: وهؤلاء كالذين من الله عليهم من مؤمني أهل الكتاب؛ كعبد الله بن سلام، وغيره ممن أسلم<sup>(١)</sup> في وقت النبي ﷺ وبعد ذلك.

﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ ﴿١١٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وِليٌّ مِنَ الدُّنْيَا وَكَبِيرَةً تَكْبِيرًا﴾ ﴿١١١﴾.

﴿١١٠﴾ يقول تعالى لعباده: ﴿ادعوا الله أو ادعوا الرحمن﴾؛ أي: أيهما شئتم. ﴿أيًّا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾؛ أي: ليس له اسم غير حسن؛ أي: حتى ينهى عن دعائه به؛ [بل] أي اسم دعوتومه به؛ حصل به المقصود، والذي ينبغي أن يدعى في كل مطلوب بما يناسب ذلك الاسم. ﴿ولا تجهر بصلاتك﴾؛ أي: قراءتك، ﴿ولا تخافت بها﴾؛ فإن في كل من الأمرين محذوراً، أما الجهر؛ فإن المشركين المكذبين به إذا سمعوه، سبوه، وسبوا من جاء به. وأما المخافتة؛ فإنه لا يحصل المقصود لمن أراد استماعه مع الإخفاء. ﴿وابتغ بين ذلك﴾؛ أي: بين الجهر والإخفات ﴿سبيلاً﴾؛ أي: تتوسط فيما بينهما.

(١) في (ب): «ممن آمن».

﴿١١١﴾ ﴿وقل الحمد لله﴾: الذي له الكمال والثناء والحمد والمجد من جميع الوجوه، المنزه عن كل آفة ونقص. ﴿الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك﴾: بل الملك كله لله الواحد القهار؛ فالعالم العلوي والسفلي كلهم مملوكون لله، ليس لأحد من الملك شيء. ﴿ولم يكن له ولي من الدل﴾؛ أي: لا يتولى أحداً من خلقه ليتعزز به ويعاونه، فإنه الغني الحميد، الذي لا يحتاج إلى أحد من المخلوقات في الأرض ولا في السماوات، ولكنه يتخذ أولياءه إحساناً منه إليهم ورحمة بهم، ﴿الله ولي الذين آمنوا يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾. ﴿وكبزه تكبيراً﴾؛ أي: عظمه وأجله بالإخبار بأوصافه العظيمة، وبالثناء عليه بأسمائه الحسنى، وبتمجيده بأفعاله المقدسة، وبتعظيمه وإجلاله بعبادته وحده لا شريك له، وإخلاص الدين كله له.

تم تفسير سورة الإسراء ولله الحمد والمنة والثناء الحسن على يد جامع عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي.

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين. آمين. وصلى الله على محمد وسلم تسليماً كثيراً.

وذلك في ٧ جمادى الأولى سنة ١٣٤٤هـ.

ونقلته من خط المؤلف بقلم الفقير إلى ربه سليمان الحمد البسام غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين. آمين. وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. آمين ثم آمين.

المجلد الخامس  
من  
تيسير الكريم الرحمن  
في  
تفسير كلام المنان<sup>(١)</sup>

للشيخ الإمام العالم العلامة شيخنا  
عبد الرحمن الناصر بن سعدي  
غفر الله له آمين

(١) في (ب) المجلد الخامس من تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحيم الرحمن،  
لجامعه الفقير إلى ربه المعيد المبدي عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي  
سده الله فيما يخفي ويبيدي إنه بكل خير كفيـل وعلى كل شئـي وكـيل .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وأصلي وأسلم على محمد وآله وصحبه.

أما بعد؛ فلما كان علم التفسير للقرآن أشرف العلوم على الإطلاق وأهمها وأحقها بتحقيق معانيه وفهم مبانيه؛ لكونه تنزيلاً من حكيم حميد، أنزله هدىً ورحمةً للعباد وتبياناً لكل شيء وتفصيلاً لكل ما يحتاجونه في دينهم ودنياهم وأخراهم، وكان من خاصة علم القرآن أن فهم بعضه وطائفة منه يعين على فهم جميعه؛ لأن القرآن من أوله إلى آخره يدور على تقرير الأصول النافعة والحقائق والشرائع الكبار والأحكام الحسنة والعقائد الصحيحة، ويوجه العباد إلى كل خير، ويحذّرهم من كل شر، ويعيد تقرير هذه الأمور ويؤديها، بأساليب متنوعة وتصاريح مناسبة في غاية اليسر والسهولة والإحكام والحسن الذي لا مزيد عليه.

وقد تكرر عليّ السؤال من كثير من الأصحاب في نشر تفسيرنا هذا جميعه، وألحوا لما يرونه من الفائدة الكبيرة، فاعتذرت بأن ذلك يصعب جداً؛ لأنه مبسوط، وأيضاً في هذه الأوقات قلت رغبات الناس في الكتب المطولة؛ لذلك أحببت إجابتهم لنشر بعض ما طلبوا، وهو الاقتصار على جزء واحد من أجزاء هذا التفسير<sup>(١)</sup>، ووقع الاختيار على الجزء الأوسط من سورة الكهف إلى آخر النمل؛ فما لا يحصل جميعه لا يترك جميعه.

وأرجو الله وأسأله أن يجعل ذلك خالصاً لوجهه، نافعاً لنا وإخواننا، وأن يمدنا بعونه وعنايته وتوفيقه؛ إنه جواد كريم رءوف رحيم.

وأتبعته بكليات وأصول من كليات التفسير؛ لاستدراك ما لعله يفوت القارئ في غير هذا الجزء؛ فإن الأصول والكليات تبنى عليها الفروع والجزئيات، ويحصل بها من النفع والفائدة على اختصارها ما لا يحصل في الكلام الطويل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

المؤلف

(١) كانت هذه رغبة الشيخ وقد طبع الجزء الخامس مفرداً في حياة الشيخ، ثم طبع الكتاب كاملاً

بعد وفاة الشيخ رحمه الله. انظر المقدمة.



## تفسير سورة الكهف

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١)

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾ فِيمَا يَنْزِرُ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُنَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَنَّكَتِ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ تَفْتَنُ إِن تَرَ يَوْمِنَا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾

﴿١﴾ ﴿الحمد﴾: هو الشاء عليه بصفاته التي هي كلها صفات كمال، وبنعمه الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، وأجل نعمه على الإطلاق إنزاله الكتاب العظيم على عبده ورسوله محمد ﷺ، فحمد نفسه، وفي ضمنه إرشاد العباد ليحمدوه على إرسال الرسول إليهم، وإنزال الكتاب عليهم. ثم وصف هذا الكتاب بوصفين مشتملين على أنه الكامل من جميع الوجوه، وهما: نفي العوج عنه، وإثبات أنه مقيم<sup>(٢)</sup> مستقيم: فنفي العوج يقتضي أنه ليس في أخباره كذب، ولا في أوامره ونواهيه ظلم ولا عتث. وإثبات الاستقامة يقتضي أنه لا يخبر ولا يأمر إلا بأجل الإخبارات، وهي الأخبار التي تملأ القلوب معرفة وإيماناً وعقلاً؛ كالأخبار بأسماء الله وصفاته وأفعاله، ومنها الغيوب المتقدمة والمتأخرة، وأن أوامره ونواهيه تزكي النفوس وتطهرها وتنمّيها وتكملها؛ لاشتمالها على كمال العدل والقسط والإخلاص والعبودية لله رب العالمين وحده لا شريك له. وحقيق بكتاب موصوف بما ذكر أن يحمّد الله نفسه على إنزاله، وأن يتمدح إلى عباده به.

﴿٢﴾ وقوله: ﴿لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾؛ أي: لينذر بهذا القرآن الكريم عقابه الذي عنده؛ أي: قدره وقضاه على من خالف أمره، وهذا يشمل عقاب الدنيا وعقاب الآخرة. وهذا أيضاً من نعمه أن خوف عباده وأنذرهم ما يضرهم ويهلكهم؛

(١) البسمة في الأصل وضعت قبل قوله: «تفسير سورة الكهف».

(٢) في (ب): «قيم».

كما قال تعالى لما ذَكَرَ فِي هَذَا الْقُرْآنِ وَصَفَ النَّارَ؛ قَالَ: ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾؛ فَمَنْ رَحِمْتَهُ بِعِبَادِهِ أَنْ قِيَصَ الْعُقُوبَاتِ الْغَلِيظَةَ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرَهُ وَبَيْنَهَا لَهُمْ وَبَيِّنَ لَهُمُ الْأَسْبَابَ الْمَوْصِلَةَ إِلَيْهَا. ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾؛ أَي: وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ لِيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ وَبِرَسُولِهِ وَكِتَابِهِ الَّذِينَ كَمَلُوا إِيمَانَهُمْ، فَأَوْجِبَ لَهُمْ عَمَلُ الصَّالِحَاتِ، وَهِيَ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ مِنْ وَاجِبٍ وَمُسْتَحَبٍّ، الَّتِي جَمَعْتَ الْإِخْلَاصَ وَالْمَتَابَعَةَ: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾: وَهُوَ الثَّوَابُ الَّذِي رَتَّبَهُ اللَّهُ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَأَعْظَمُهُ وَأَجْلَهُ الْفَوْزُ بِرِضَا اللَّهِ وَدُخُولِ الْجَنَّةِ الَّتِي فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ. وَفِي وَصْفِهِ بِالْحُسْنِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ لَا مَكْدَرَ فِيهِ وَلَا مَنْغُصَ بَوَاجِهِ مِنَ الْوَجْهِ؛ إِذْ لَوْ وُجِدَ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ؛ لَمْ يَكُنْ حَسَنًا تَامًا.

﴿٣﴾ وَمَعَ ذَلِكَ؛ فَهَذَا الْأَجْرُ الْحَسَنُ ﴿مَا كَثِيرٌ فِيهِ أَبَدًا﴾: لَا يَزُولُ عَنْهُمْ وَلَا يَزُولُونَ عَنْهُ، بَلْ نَعِيمُهُمْ فِي كُلِّ وَقْتٍ مَتَزَايِدٌ. وَفِي ذِكْرِ التَّبَشِيرِ مَا يَقْتَضِي ذِكْرَ الْأَعْمَالِ الْمَوْجِبَةِ لِلْمُبَشِّرِ بِهِ، وَهُوَ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ قَدْ اشْتَمَلَ عَلَى كُلِّ عَمَلٍ صَالِحٍ مُوَصَّلٍ لِمَا تَسْتَبَشِرُ بِهِ النَّفُوسُ، وَتَفْرَحُ بِهِ الْأَرْوَاحُ.

﴿٤ - ٥﴾ ﴿وَيَنْذِرُ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾: مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمَشْرِكِينَ، الَّذِينَ قَالُوا هَذِهِ الْمَقَالَةُ الشَّنِيعَةُ؛ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوهَا عَنْ عِلْمٍ وَلَا يَقِينٍ؛ لَا عِلْمَ مِنْهُمْ وَلَا عِلْمَ مِنْ آبَائِهِمُ الَّذِينَ قَلَّدُوهُمْ وَاتَّبَعُوهُمْ، بَلْ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ. ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾؛ أَي: عَظُمَتْ شِنَاعَتُهَا وَاشْتَدَّتْ عَقُوبَتُهَا، وَأَيُّ شِنَاعَةٍ أَعْظَمَ مِنْ وَصْفِهِ بِالِاتِّخَاذِ لِلْوَلَدِ<sup>(١)</sup> الَّذِي يَقْتَضِي نَقْصَهُ وَمِشَارَكَةَ غَيْرِهِ لَهُ فِي خِصَائِصِ الرَّبُوبِيَّةِ وَالْإِلَهِيَّةِ وَالْكَذِبِ عَلَيْهِ؟! ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا؟!﴾ وَلِهَذَا قَالَ هُنَا: ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾؛ أَي: كَذِبًا مُحَضًّا مَا فِيهِ مِنَ الصِّدْقِ شَيْءٍ. وَتَأَمَّلْ كَيْفَ أَبْطَلَ هَذَا الْقَوْلَ بِالتَّدرِجِ وَالتَّنْقَالِ مِنْ شَيْءٍ إِلَى أَبْطَلٍ مِنْهُ: فَأَخْبَرَ أَوْلَى أَنَّهُ ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾: وَالْقَوْلُ عَلَى اللَّهِ بِبَلَاءِ عِلْمٍ لَا شَكَّ فِي مَنَعِهِ وَبِطِلَانِهِ. ثُمَّ أَخْبَرَ ثَانِيًا أَنَّهُ قَوْلٌ قَبِيحٌ شَنِيعٌ، فَقَالَ: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾. ثُمَّ ذَكَرَ ثَالِثًا مَرْتَبَتَهُ مِنَ الْقُبْحِ، وَهُوَ الْكَذِبُ الْمَنَافِي لِلصِّدْقِ.

(١) فِي (ب): «الْوَلَدِ».

﴿٦﴾ ولما كان النبي ﷺ حريصاً على هداية الخلق، ساعياً في ذلك أعظم السعي، فكان ﷺ يفرح ويسرُّ بهداية المهتدين، ويحزن ويأسفُ على المكذبين الضالِّين؛ شفقةً منه ﷺ عليهم، ورحمةً بهم؛ أرشده الله أن لا يَشْغَلَ نفسه بالأسف على هؤلاء الذين لا يؤمنون بهذا القرآن؛ كما قال في [الآية] الأخرى: ﴿لعلك باخع نفسك أن لا تكونوا مؤمنين﴾، وقال: ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾، وهنا قال: ﴿فلعلك باخع نفسك﴾؛ أي: مهلكها غمًا وأسفًا عليهم، وذلك أن أجرك قد وَجَبَ على الله، وهؤلاء لو عَلِمَ الله فيهم خيراً لهداهم، ولكنَّه علم أنهم لا يضلُّحون إلا للنار؛ فلذلك خذَلهم فلم يهتدوا؛ فإشغالك نفسك غمًا وأسفًا عليهم ليس فيه فائدة لك.

وفي هذه الآية ونحوها عبرة؛ فإنَّ المأمور بدعاء الخلق إلى الله عليه التبليغ والسعي بكلِّ سبب يوصل إلى الهداية، وسدَّ طرق الضلال والغواية، بغاية ما يمكنه، مع التوكُّل على الله في ذلك؛ فإنَّ اهتدوا؛ فيها ونعمت، وإلَّا؛ فلا يحزن ولا يأسف؛ فإنَّ ذلك مضعفٌ للنفس، هادمٌ للقوى، ليس فيه فائدة، بل يمضي على فعله الذي كُلف به وتوجَّه إليه، وما عدا ذلك؛ فهو خارجٌ عن قدرته. وإذا كان النبي ﷺ يقولُ الله له: ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾، وموسى عليه السلام يقول: ﴿ربِّ إني لا أملك إلا نفسي وأخي...﴾ الآية؛ فمن عداهم من باب أولى وأحرى؛ قال تعالى: ﴿فذكر إنما أنت مذكرٌ لست عليهم بمصيطر﴾.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّمَن لَّابِلُوهُرَ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۖ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ (٨)

﴿٧﴾ يخبر تعالى أنه جعل جميع ما على وجه الأرض من مآكل لذيدةٍ ومشاربٍ وملابسٍ طيبةٍ<sup>(١)</sup> وأشجارٍ وأنهارٍ وزروعٍ وثمارٍ ومناظرٍ بهيجةٍ ورياضٍ أنيقةٍ وأصواتٍ شجيَّةٍ وصورٍ مليحةٍ وذهبٍ وفضةٍ وخيلٍ وإبلٍ ونحوها؛ الجميع جعله الله زينةً لهذه الدار فتنةً واختباراً؛ ﴿لَتَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾؛ أي: أخلصه وأصوبه.

﴿٨﴾ ومع ذلك سيجعلُ الله جميع هذه المذكورات فانيةً مضمحلَّةً وزائلةً منقضيةً، وستعود الأرض ﴿صعيداً جُرُزاً﴾: قد ذهب لذاتها وانقطعت أنهارها واندرست آثارها وزال نعيمها.

(١) في (ب): «ومساكن طيبة».

هذه حقيقة الدنيا، قد جلاها الله لنا كأنها رأي عين، وحذرنا من الاغترار بها، ورغبنا في دار يدوم نعيمها ويسعد مقيمها، كل ذلك رحمة بنا، فاغتر بزخرف الدنيا وزينتها من نظَّر إلى ظاهر الدنيا دون باطنها، فصحبوا الدنيا صحبة البهائم، وتمتعوا بها تمتع السوائم، لا ينظرون في حق ربهم، ولا يهتمون لمعرفة، بل همهم تناول الشهوات من أي وجه حصلت وعلى أي حالة اتفقت؛ فهؤلاء إذا حضر أحدهم الموت، قلق لخراب ذابته وفوات لذاته، لا لما قدمت يده من التفریط والسيئات.

وأما من نظَّر إلى باطن الدنيا وعلم المقصود منها ومنه؛ فإنه تناول منها ما يستعين به على ما خلق له، وانتهاز الفرصة في عمره الشريف، فجعل الدنيا منزل عبور لا محل حبور، وشقة سفر لا منزل إقامة، فبذل جهده في معرفة ربه وتنفيذ أوامره وإحسان العمل؛ فهذا بأحسن المنازل عند الله، وهو حقيق منه بكل كرامة ونعيم وسرور وتكريم، فنظر إلى باطن الدنيا حين نظر المغتر إلى ظاهرها، وعمل لآخرته حين عمل البطال لدنياه، فشتان ما بين الفريقين! وما أبعد الفرق بين الطائفتين!

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحِمَةٌ وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَاهُمْ نِعْمًا لِيَتَلَوْنَهَا أَيُّ الْحَزِينِ أَحْسَنُ لِمَا لَبِئُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾

﴿٩﴾ وهذا الاستفهام بمعنى النفي والنهي؛ أي: لا تظن أن قصة أصحاب الكهف وما جرى لهم غريبة على آيات الله وبديعة في حكمته، وأنه لا نظير لها ولا مجانس لها، بل لله تعالى من الآيات العجيبة الغريبة ما هو كثير من جنس آياته في أصحاب الكهف وأعظم منها، فلم يزل الله يُري عباده من الآيات في الآفاق وفي أنفسهم ما يتبين به الحق من الباطل والهدى من الضلال. وليس المراد بهذا النفي عن أن تكون قصة أصحاب الكهف من العجائب، بل هي من آيات الله العجيبة، وإنما المراد أن جنسها كثير جداً؛ فالوقوف معها وحدها في مقام العجب والاستغراب نقص في العلم والعقل، بل وظيفة المؤمن التفكير بجميع آيات الله التي دعا الله العباد إلى التفكير فيها؛ فإنها مفتاح الإيمان وطريق العلم والإيقان. وإضافتهم<sup>(١)</sup> إلى الكهف الذي هو الغار في الجبل، ﴿والرقيم﴾؛ أي: الكتاب الذي

(١) في (ب): «وأضافهم».

قد رُقِمَتْ فِيهِ أَسْمَاؤُهُمْ وَقَصَّتْهُمْ لِمَلازِمَتِهِمْ لَهُ دَهْرًا طَوِيلًا.

﴿١٠﴾ ثم ذكر قصّتهم مجملّةً فضّلها بعد ذلك فقال: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةَ﴾؛ أي: الشباب ﴿إِلَى الْكَهْفِ﴾: يريدون بذلك التحصّن والتحرّز من فتنة قومهم لهم، ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾؛ أي: تُثَبِّتْنَا بِهَا وَتَحْفَظُنَا مِنَ الشَّرِّ وَتَوْفِقُنَا لِلْخَيْرِ، ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾؛ أي: يَسِّرْ لَنَا كُلَّ سَبَبٍ مُوصِلٍ إِلَى الرَّشْدِ، وَأَصْلِحْ لَنَا أَمْرَ دِينِنَا وَدُنْيَانَا؛ فَجَمَعُوا بَيْنَ السَّعْيِ وَالْفِرَارِ مِنَ الْفِتْنَةِ إِلَى مَحَلٍّ يُمْكِنُ الْإِسْتِخْفَاءَ فِيهِ، وَبَيْنَ تَضَرُّعِهِمْ وَسُؤَالِهِمْ لِلَّهِ تَيْسِيرَ أُمُورِهِمْ وَعَدَمَ اتِّكَالِهِمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَعَلَى الْخَلْقِ.

﴿١١﴾ فلذلك استجاب الله دعاءهم، وقبّض لهم ما لم يكن في حسابهم؛ قال: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ﴾؛ أي: أَمْنَاهُمْ ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾: وهي ثلاثمائة سنة وتسع سنين، وفي النوم المذكور حفظ لقلوبهم من الاضطراب والخوف وحفظ لهم من قومهم، [وليكون آية بينة].

﴿١٢﴾ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾؛ أي: مِنْ نَوْمِهِمْ، ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾؛ أي: لِنَعْلَمَ أَيُّهُمْ أَحْصَى لِمَقْدَارِ مَدَّتِهِمْ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ...﴾ الآية، وفي العلم بمقدار لبيّتهم ضبط للحساب، ومعرفة لكمال قدرة الله تعالى وحكمته ورحمته؛ فلو استمروا على نومهم؛ لم يحصل الاطلاع على شيء من ذلك من قصّتهم.

﴿تَحْنُ نَفْسُ عَلَيْنَا نَبَاهُمْ بِالْحَقِّ إِتَمَّ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾.

﴿١٣﴾ هذا شروع في تفصيل قصّتهم، وأنّ الله يقصّها على نبيه بالحقّ والصدق الذي ما فيه شك ولا شبهة بوجه من الوجوه. ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾: وهذا من جموع القلّة، يدلّ ذلك على أنّهم دون العشرة، آمنوا بالله وحده لا شريك له من دون قومهم، فشكر الله لهم إيمانهم، فزادهم هدى؛ أي: بسبب أصل اهتدائهم إلى الإيمان زادهم الله من الهدى الذي هو العلم النافع والعمل الصالح؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾.

﴿١٤﴾ ﴿وربطنا على قلوبهم﴾؛ أي: صبرناهم وثبتناهم وجعلنا قلوبهم مطمئنة

في تلك الحالة المزعجة، وهذا من لطفه تعالى بهم وبره أن وفقهم للإيمان والهدى والصبر والثبات والطمأنينة. ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: الذي خَلَقْنَا وَرَزَقْنَا وَدَبَّرْنَا وَرَبَّنَا هو خالق السماوات والأرض، المنفرد بخلق هذه المخلوقات العظيمة، لا تلك الأوثان والأصنام، التي لا تَخْلُقُ ولا تَرزُقُ ولا تَمْلِكُ نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، فاستدلوا بتوحيد الربوبية على توحيد الإلهية. ولهذا قالوا: ﴿لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾؛ أي: من سائر المخلوقات، ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذًا﴾ - أي: إن دَعَوْنَا معه آلهة بعدما علمنا أنه الربُّ الإله الذي لا تجوز ولا تنبغي العبادة إلا له - ﴿شَطَطًا﴾؛ أي: ميلاً عظيماً عن الحق، وطريقاً بعيدة عن الصواب، فجمعوا بين الإقرار بتوحيد الربوبية وتوحيد الإلهية والتزام ذلك وبيان أنه الحق وما سواه باطل، وهذا دليل على كمال معرفتهم بربهم وزيادة الهدى من الله لهم.

﴿هَتُوَالَاءِ قَوْمًا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾.

﴿١٥﴾ لما ذكروا ما منَّ الله به عليهم من الإيمان والهدى والتقوى؛ التفتوا إلى ما كان عليه قومهم من اتخاذ الآلهة من دون الله، فمقتوهم، وبيّنوا أنهم ليسوا على يقين من أمرهم، بل هم في غاية الجهل والضلال، فقالوا: ﴿لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾؛ أي: بحجة وبرهان على ما هُم عليه من الباطل، ولا يستطيعون سبيلاً إلى ذلك، وإثماً ذلك افتراءً منهم على الله وكذب عليه، وهذا أعظم الظلم، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾.

﴿وَإِذْ أَعْرَضْتَهُمْ وَمَا يَنْبُذُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوَا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئُ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾.

﴿١٦﴾ أي: قال بعضهم لبعض: إذ حَصَلَ لَكُمْ اعتزال قومكم في أجسامكم وأديانكم؛ فلم يَبْقَ إِلَّا النجاء من شرهم والتسبب بالأسباب المفضية لذلك؛ لأنه لا سبيل لهم إلى قتالهم ولا بقائهم بين أظهرهم وهم على غير دينهم. ﴿فَأَوْوَا إِلَى الْكَهْفِ﴾؛ أي: انضموا إليه واختفوا فيه، ﴿يَنْشُرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئُ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾: وفيما تقدّم أخبر أنهم دَعَوهُ بقولهم: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾؛ فجمعوا بين التبزي من حولهم وقوتهم والالتجاء

إلى الله في صلاح أمرهم ودعائه بذلك، وبين الثقة بالله أنه سيفعل ذلك، لا جرم أن الله نشر لهم من رحمته وهياً لهم من أمرهم مِرْقَاقاً؛ فحفظ أديانهم وأبدانهم، وجعلهم من آياته على خلقه، ونشر لهم من الثناء الحسن ما هو من رحمته بهم، ويسر لهم كل سبب، حتى المحل الذي ناموا فيه كان على غاية ما يمكن من الصيانة؛ ولهذا قال:

﴿ وَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَوُّرًا عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضِلِّ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ وِلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنَقَلْبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَنَسِيطَ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا ﴿١٨﴾ .

﴿١٧﴾ أي: حفظهم الله من الشمس، فيسر لهم غاراً إذا طلعت الشمس؛ تميل عنه يمينا، وعند غروبها تميل عنه شمالاً؛ فلا ينالهم حرها فتفسد أبدانهم بها. ﴿وهم في فجوة منه﴾؛ أي: من الكهف؛ أي: مكان متسع، وذلك ليطرقتهم الهواء والنسيم، ويزول عنهم الوخم والتأذي بالمكان الضيق، خصوصاً مع طول المكث، ﴿ذلك من آيات الله﴾: الدالة على قدرته ورحمته وإجابة دعائهم وهدايتهم حتى في هذه الأمور، ولهذا قال: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾؛ أي: لا سبيل إلى نيل الهداية إلا من الله؛ فهو الهادي المرشد لمصالح الدارين. ﴿وَمَن يُضِلِّ فَلَن تَجِدَ لَهُ وِلِيًّا مُّرْشِدًا﴾؛ أي: لا تجد من يتولاه ويدبره على ما فيه صلاحه، ولا يرشده إلى الخير والفلاح؛ لأن الله قد حكّم عليه بالضلال، ولا راداً لحكمه.

﴿١٨﴾ ﴿وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود﴾؛ أي: تحسبهم أيها الناظر إليهم كأنهم أيقاظ، والحال أنهم نيام. قال المفسرون: وذلك لأن أعينهم منفتحة لئلا تفسد؛ فالناظر إليهم يحسبهم أيقاظاً وهم رقود. ﴿ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال﴾: وهذا أيضاً من حفظه لأبدانهم؛ لأن الأرض من طبيعتها أكل الأجسام المتصلة بها؛ فكان من قدر الله أن قلبهم على جنوبهم يمينا وشمالاً بقدر ما لا تفسد الأرض أجسامهم، والله تعالى قادر على حفظهم من الأرض من غير تقليب، ولكنه تعالى حكيم، أراد أن تجري سنته في الكون ويربط الأسباب بمسبباتها. ﴿وكلبهم باسط

ذراعية بالوصيد؛ أي: الكلب الذي كان مع أصحاب الكهف أصابه ما أصابهم من النوم وقت حراسته، فكان باسطاً ذراعيه بالوصيد؛ أي: الباب أو فئته. هذا حفظهم من الأرض، وأما حفظهم من الآدميين؛ فأخبر أنه حماهم بالرعب الذي نشره الله عليه؛ فلو أطلع عليهم أحد؛ لامتلاً قلبه رعباً وولّى منهم فراراً، وهذا الذي أوجب أن يبقوا كل هذه المدة الطويلة وهم لم يعثر عليهم أحد مع قربهم من المدينة جداً، والدليل على قربهم أنهم لما استيقظوا؛ أرسلوا أحدهم يشتري لهم طعاماً من المدينة، وبقوا في انتظاره، فدل ذلك على شدة قربهم منها.

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيَّ أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾.

﴿١٩﴾ يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾: من نومهم الطويل، ﴿لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: ليتباحثوا للوقوف على الحقيقة من مدة لبثهم. ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾: وهذا مبني على ظن القائل، وكأنهم وقع عندهم اشتباه في طول مدتهم؛ فلهمذا ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾: فردوا العلم إلى المحيط علمه بكل شيء جملة وتفصيلاً، ولعل الله تعالى بعد ذلك أطلعهم على مدة لبثهم؛ لأنه بعثهم ليتساءلوا بينهم، وأخبر أنهم تساءلوا وتكلموا بمبلغ ما عندهم وصار آخر أمرهم الاشتباه؛ فلا بد أن يكون قد أخبرهم يقيناً؛ علمنا ذلك من حكمته في بعثهم، وأنه لا يفعل ذلك عبثاً، ومن رحمته بمن طلب علم الحقيقة في الأمور المطلوب علمها وسعى لذلك ما أمكنه؛ فإن الله يوضح له ذلك، وبما ذكر فيما بعده من قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيُغْلَبُوا﴾ وأن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها؛ فلولا أنه حصل العلم بحالهم؛ لم يكونوا دليلاً على ما ذكر. ثم إنهم لما تساءلوا بينهم، وجرى منهم ما أخبر الله به؛ أرسلوا أحدهم بـورقهم؛ أي: بالدرهم التي كانت معهم؛ ليشتري لهم طعاماً يأكلونه من المدينة التي خرجوا منها، وأمره أن يتخير من الطعام أزكاه؛ أي: أطيبه وألذّه، وأن يتلطف في ذهابه وشراؤه وإيابه، وأن يختفي في ذلك، ويخفي حال إخوانه، ولا يُشْعِرَنَّ بهم أحداً.

﴿٢٠﴾ وذكروا المحذور من اطلاع غيرهم عليهم وظهورهم عليهم أنهم بين



أمرين: إما الرِّجْم بالحجارة فيقتلونهم أشنع قِتْلَةٍ لِحِقْقِهِمْ عَلَيْهِمْ وَعَلَى دِينِهِمْ، وإما أن يفتنوهم عن دينهم ويردُّوهم في ملَّتِهِمْ، وفي هذه الحال لا تفلحون أبداً، بل يخسرون في دينهم ودنياهم وأخراهم.

وقد دلَّت هاتان الآيتان على عدة فوائد:

منها: الحثُّ على العلم وعلى المباحثة فيه؛ لكون الله بعثهم لأجل ذلك.

ومنها: الأدب فيمن اشتبه عليه العلم أن يرده إلى عالمه، وأن يَقِفَ عند حدِّه.

ومنها: صحة الوكالة في البيع والشراء وصحة الشركة في ذلك.

ومنها: جواز أكل الطيبات والمطاعم اللذيذة إذا لم تخرُجْ إلى حدِّ الإسراف المنهِيَّ عنه؛ لقوله: ﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾: وخصوصاً إذا كان الإنسان لا يلائمه إلا ذلك، ولعلَّ هذا عمدة كثير من المفسرين القائلين بأنَّ هؤلاء أولاد ملوك؛ لكونهم أمره بأزكى الأطعمة التي جرت عادة الأغنياء الكبار بتناولها.

ومنها: الحثُّ على التحرُّز والاستخفاء والبعد عن مواقع الفتن في الدين واستعمال الكتمان في ذلك على الإنسان وعلى إخوانه في الدين.

ومنها: شدة رغبة هؤلاء الفتية في الدين وفرارهم من كلِّ فتنة في دينهم وتركهم أوطانهم<sup>(١)</sup> في الله.

ومنها: ذكْر ما اشتمل عليه الشرُّ من المضارِّ والمفاسد الداعية لبغضه وتركه، وأنَّ هذه الطريقة هي طريقة المؤمنين المتقدمين والمتأخرين؛ لقولهم: ﴿وَلَنْ تَفْلِحُوا إِذَا أَبَدْنَا﴾.

﴿وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ مِنْهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا أَتَوْنَا عَلَيْهِمْ بِنِينًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً ﴿١٦﴾﴾.

﴿٢١﴾ يخبر تعالى أنه أطلَعَ الناس على حال أهل الكهف، وذلك - والله أعلم - بعدما استيقظوا وبعثوا أحدهم يشتري لهم طعاماً وأمره بالاستخفاء والإخفاء،

(١) في (ب): «الأوطانهم».

فأراد الله أمراً فيه صلاح للناس وزيادة أجر لهم، وهو أن الناس رأوا منهم آية من آيات الله المشاهدة بالعيان على أن وعد الله حق لا شك فيه ولا مزية ولا بُعد بعدما كانوا يتنازعون بينهم أمرهم؛ فمن مثبت للوعد والجزاء ومن نافٍ لذلك، فجعل قصتهم زيادة بصيرة ويقين للمؤمنين وحنة على الجاحدين، وصار لهم أجر هذه القضية، وشهر الله أمرهم، ورفع قدرهم، حتى عظمهم الذين أطلعوا عليهم؛ قالوا: ﴿ابنوا عليهم بُنياناً﴾: الله أعلم بحالهم ومآلهم! وقال من غلب على أمرهم - وهم الذين لهم الأمر -:

﴿لَتَنْتَخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً﴾؛ أي: نعبد الله تعالى فيه ونتذكر به أحوالهم وما جرى لهم. وهذه الحالة محظورة نهى عنها النبي ﷺ<sup>(١)</sup> وذم فاعليها، ولا يدل ذكرها هنا على عدم ذمها؛ فإن السياق في شأن أهل الكهف والثناء عليهم، وأن هؤلاء وصلت بهم الحال إلى أن قالوا ابنوا عليهم مسجداً بعد خوف أهل الكهف الشديد من قومهم وحذرهم من الأطلاع عليهم، فوصلت الحال إلى ما ترى. وفي هذه القصة دليل على أن من فرّ بدينه من الفتن؛ سلمه الله منها، وأن من حرص على العافية؛ عافاه الله، ومن أوى إلى الله؛ آواه الله وجعله هدايةً لغيره، ومن تحمل الذل في سبيله وابتغاء مرضاته؛ كان آخر أمره وعاقبه العز العظيم من حيث لا يحتسب، وما عند الله خير للأبرار.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامَتُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾.

﴿٢٢﴾ يخبر تعالى عن اختلاف أهل الكتاب في عدة أصحاب الكهف اختلافاً صادراً عن رجمهم بالغيب وتقولهم بما لا يعلمون، وأنهم فيهم على ثلاثة أقوال: منهم من يقول: «ثلاثة رابعهم كلبهم»، ومنهم من يقول: «خمس سادسهم كلبهم»، وهذان القولان ذكر الله بعدهما أن هذا رجم منهم بالغيب، فدل على بطلانهما، ومنهم من يقول: «سبعة وثامتهم كلبهم»، وهذا - والله أعلم - هو

(١) كما في «صحيح البخاري» (٤٣٥)، ومسلم (٥٣١) عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهما، وعن جندب بن عبد الله كما في مسلم (٥٣٢). وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم» (٦٦٩/٢): «فقد تواترت النصوص عن النبي ﷺ، بالنهي عن ذلك والتغليظ فيه».

الصواب؛ لأنَّ الله أبطل الأوثان ولم يبطله، فدلَّ على صحَّته، وهذا من الاختلاف الذي لا فائدة تحته، ولا يحصلُ بمعرفة عددهم مصلحةٌ للناس دينيةً ولا دنيويةً، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾: وهم الذين أصابوا الصوابَ وعلموا إصابتهم. ﴿فلا تمار﴾: تجادل وتُحاج ﴿فيهم إلاَّ وراءَ ظاهرا﴾؛ أي: مبنياً على العلم واليقين، ويكون أيضاً فيه فائدة، وأما الممارسة المبنية على الجهل والرجم بالغيب أو التي لا فائدة فيها: إما أن يكون الخضم معانداً، أو تكون المسألة لا أهمية فيها ولا تحصلُ فائدة دينيةً بمعرفتها؛ كعدد أصحاب الكهف ونحو ذلك؛ فإنَّ في كثرة المناقشات فيها والبحوث المتسلسلة تضييعاً للزمان وتأثيراً في مودة القلوب بغير فائدة. ﴿ولا تستفت فيهم﴾؛ أي: في شأن أهل الكهف ﴿منهم﴾؛ أي: من أهل الكتاب، ﴿أحدًا﴾: وذلك لأنَّ مبنى كلامهم فيهم على الرجم بالغيب والظنُّ الذي لا يُغني من الحق شيئاً؛ ففيها دليلٌ على المنع من استفتاء مَنْ لا يصلحُ للفتوى: إما لقصوره في الأمر المستفتى فيه، أو لكونه لا يبالي بما تكلم به، وليس عنده ورعٌ يحجزه، وإذا نُهي عن استفتاء هذا الجنس؛ فنهيه هو عن الفتوى من باب أولى وأحرى.

وفي الآية أيضاً دليلٌ على أن الشخص قد يكون منهياً عن استفتائه في شيء دون آخر، فاستفتى فيما هو أهلٌ له بخلاف غيره؛ لأنَّ الله لم ينه عن استفتائهم مطلقاً، إنما نهى عن استفتائهم في قصة أصحاب الكهف وما أشبهها.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ عَدَاً ۖ (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۗ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ۖ﴾ (٢٤)

﴿٢٣﴾ هذا النهي كغيره، وإن كان لسبب خاصٍّ وموجه للرسول ﷺ؛ فإنَّ الخطاب عامٌّ للمكلفين؛ فنهى الله أن يقول العبدُ في الأمور المستقبلية: ﴿إني فاعلٌ ذلك﴾: من دون أن يقرنه بمشيئة الله، وذلك لما فيه من المحذور، وهو الكلام على الغيوب<sup>(١)</sup> المستقبلية التي لا يُدري هل يفعلُه أم لا؟ وهل تكون أم لا؟ وفيه ردُّ الفعل إلى مشيئة العبد استقلالاً، وذلك محذورٌ محظورٌ؛ لأنَّ المشيئة كلها لله، ﴿وما تشاؤون إلاَّ أن يشاء الله ربُّ العالمين﴾، ولما في ذكر مشيئة الله من تيسير الأمر وتسهيله وحصول البركة فيه والاستعانة من العبد لربه.

(١) في (ب): «الغيب».

﴿٢٤﴾ ولما كان العبد بشراً لا بد أن يسهو عن ذكر المشيئة<sup>(١)</sup>؛ أمره الله أن يستثني بعد ذلك إذا ذكّر؛ ليحصل المطلوب ويندفع المحذور. ويؤخذ من عموم قوله: ﴿وَأَذَكَّرُ رَبِّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾: الأمرُ بذكر الله عند النسيان؛ فإنه يزيله ويذكر العبد ما سها عنه. وكذلك يؤمّر الساهي الناسي لذكر الله أن يذكر ربه ولا يكون من الغافلين. ولما كان العبد مفتقراً إلى الله في توفيقه للإصابة وعدم الخطأ في أقواله وأفعاله؛ أمره الله أن يقول: ﴿عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشداً﴾: فأمره أن يدعو الله ويرجوه ويثق به أن يهديه لأقرب الطرق الموصلة إلى الرشد، وحرئاً بعبد تكون هذه حاله، ثم يبذل جهده، ويستفرغ وسعه في طلب الهدى والرشد، أن يوفق لذلك، وأن تأتيه المعونة من ربه، وأن يسدده في جميع أموره.

— ﴿وَلِيُثَبِّتُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لِيُثَبِّتُوا لَهُمْ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْبَرُ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ .

﴿٢٥ - ٢٦﴾ لما نهاه الله عن استفتاء أهل الكتاب في شأن أهل الكهف لعدم علمهم بذلك، وكان الله عالم الغيب والشهادة العالم بكل شيء؛ أخبره الله بمدة لبثهم، وأن علم ذلك عنده وحده؛ فإنه من غيب السماوات والأرض، وغيبها مختص به؛ فما أخبر به عنها على السنة رُسُلِهِ؛ فهو الحقّ اليقين الذي لا يشك فيه، وما لا يُطْلِعُ رسله عليه؛ فإن أحداً من الخلق لا يعلمه. وقوله: ﴿أبصُرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾: تعجّب من كمال سمعه وبصره وإحاطتهما بالمسموعات والمبصرات بعدما أخبر بإحاطة علمه بالمعلومات، ثم أخبر عن انفراده بالولاية العامة والخاصة؛ فهو الولي الذي يتولّى تدبير جميع الكون، والولي لعباده المؤمنين؛ يخرجهم من الظلمات إلى النور، ويسرهم لليسرى، ويجنبهم العسرى، ولهذا قال: ﴿ما لهم من دونه من وليٍّ﴾؛ أي: هو الذي تولّى أصحاب الكهف بلطفه وكرمه، ولم يكلمهم إلى أحد من الخلق. ﴿ولا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾: وهذا يشمل الحكم الكونيّ القدريّ والحكم الشرعيّ الدينيّ؛ فإنه الحاكم في خلقه قضاءً وقدرًا وخلقاً وتدبيراً، والحاكم فيهم بأمره ونهيه وثوابه وعقابه.

ولما أخبر أنه تعالى له غيب السماوات والأرض؛ فليس لمخلوق إليها طريق إلا

(١) في (ب): «أن يسهو فيترك ذكر المشيئة».

عن الطريق<sup>(١)</sup> التي يُخبر بها عباده، وكان هذا القرآن قد اشتمل على كثير من الغيوب؛ أمر تعالى بالإقبال عليه، فقال:

﴿وَأْتَلْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَكًا﴾ (٢٧)

﴿٢٧﴾ التلاوة: هي الاتِّباع؛ أي: اتَّبِعْ ما أوحى الله إليك بمعرفة معانيه وفهمها وتصديق أخباره وامتنثال أوامره ونواهيه؛ فإنه الكتاب الجليل، الذي لا مبدل لكلماته؛ أي: لا تُعَيَّر ولا تُبَدَّل لصدقتها وعدلها وبلوغها من الحسن فوق كل غاية، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾؛ فلكمالها<sup>(٢)</sup> استحال عليها التغيير والتبديل، فلو كانت ناقصة؛ لَعَرَضَ لها ذلك أو شيء منه. وفي هذا تعظيم للقرآن في ضمنه الترغيب على الإقبال عليه. ﴿وَلَنْ تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾؛ أي: لن تجد من دون ربك ملجأ تلجأ إليه ولا معاذًا تعوذ به؛ فإذا تعيَّن أنه وحده الملجأ في كل الأمور؛ تعيَّن أن يكون هو المألوه المرغوب إليه في السراء والضراء، المفتقر إليه في جميع الأحوال، المسؤول في جميع المطالب.

﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ قُرْطًا﴾ (٢٨)

﴿٢٨﴾ يأمر تعالى نبيه محمداً ﷺ، وغيره أسوته في الأوامر والنواهي أن يصبر نفسه مع المؤمنين العباد المنيبين. ﴿الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾؛ أي: أول النهار وآخره؛ يريدون بذلك وجه الله، فوصفهم بالعبادة والإخلاص فيها؛ ففيها الأمر بصحبة الأخيار ومجاهدة النفس على صحبتهم ومخالطتهم، وإن كانوا فقراء؛ فإن في صحبتهم من الفوائد ما لا يُحصى. ﴿ولا تعد عينك عنهم﴾؛ أي: لا تجاوزهم بصرك وترفع عنهم نظرك؛ ﴿تريد زينة الحياة الدنيا﴾؛ فإن هذا ضار غير نافع، قاطع عن المصالح الدينية؛ فإن ذلك يوجب تعلق القلب بالدنيا، فتصير الأفكار والهواجس فيها، وتزول من القلب الرغبة في الآخرة؛ فإن زينة الدنيا تروق للناظر وتَسْحَرُ القلب<sup>(٣)</sup>، فيغفل القلب عن ذكر الله، ويُقْبَلُ على اللذات والشهوات، فيضيع وقته، وينفرط أمره، فيخسر الخسارة الأبدية والندامة السرمديّة،

(٢) في (ب): «فلتمامها».

(١) في (ب): «إلى من الطريق».

(٣) في (ب): «وتسحر العقل».

ولهذا قال: ﴿وَلَا تُطِغْ مِنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾: غَفَلَ عن الله فعاقبه بأن أغفله عن ذكره، ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾؛ أي: صار تبعاً لهواه؛ حيث ما اشتتهت نفسه فعله، وسعى في إدراكه، ولو كان فيه هلاكه وخسرانه؛ فهو قد اتخذ إلهه هواه؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ...﴾ الآية. ﴿وكان أمره﴾؛ أي: مصالح دينه ودينياه ﴿فُرُطاً﴾؛ أي: ضائعة معطلة؛ فهذا قد نهى الله عن طاعته؛ لأن طاعته تدعو إلى الاقتداء به، ولأنه لا يدعو إلا لما هو متّصف به.

ودلت الآية على أنّ الذي ينبغي أن يُطاع، ويكون إماماً للناس من امتلاء قلبه بمحبة الله، وفاض ذلك على لسانه، فلهج بذكر الله، واتبع مرضي ربه، فقدمها على هواه، فحفظ بذلك ما حفظ من وقته، وصلحت أحواله، واستقامت أفعاله، ودعا الناس إلى ما من الله به عليه؛ فحقيق بذلك أن يُتبع، ويُجعل إماماً.

والصبر المذكور في هذه الآية هو الصبر على طاعة الله، الذي هو أعلى أنواع الصبر، ويتمامه يتم باقي الأقسام.

وفي الآية استحباب الذكر والدعاء والعبادة طرفي النهار؛ لأن الله مدحهم بفعله، وكل فعل مدح الله فاعله؛ دل ذلك على أن الله يحبه؛ وإذا كان يحبه فإنه يأمر به ويرغب فيه.

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهَا سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾  
 ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٥﴾﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نَعَمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣٦﴾﴾.

﴿٢٩﴾ أي: ﴿قل﴾ للناس يا محمد: هو<sup>(١)</sup> ﴿الحق من ربكم﴾؛ أي: قد تبين الهدى من الضلال، والرشد من الغي، وصفات أهل السعادة وصفات أهل الشقاوة، وذلك بما بينه الله على لسان رسوله؛ فإذا بان وأتضح ولم يبق فيه شبهة؛ ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾؛ أي: لم يبق إلا سلوك أحد الطريقين بحسب توفيق العبد وعدم توفيقه، وقد أعطاه الله مشيئة بها يقدر على الإيمان والكفر والخير

(١) في (ب): «هذا».

والشرُّ؛ فمن آمن؛ فقد وُفِّقَ للصواب، ومن كَفَرَ؛ فقد قامت عليه الحِجَّةُ، وليس بمكره على الإيمان؛ كما قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾، [وليس في قوله: ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ الإذن في كلا الأمرين وإنما ذلك تهديد ووعيد لمن اختار الكفر بعد البيان التام كما ليس فيها تركه قتال الكافرين]. ثم ذكر تعالى مآل الفريقين، فقال: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ﴾: بالكفر والفسوق والعصيان، ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهَم سُرَادِقُهَا﴾؛ أي: سورها المحيط بها؛ فليس لهم منفذٌ ولا طريقٌ ولا مخلصٌ منها، تصلاهم النار الحامية. ﴿وإن يَسْتَغِيثُوا﴾؛ أي: يطلبوا الشراب ليطفئ ما نزل بهم من العطش الشديد؛ ﴿يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾؛ أي: كالرصاص المذاب أو كعكر الزيت من شدة حرارته. ﴿يَشْوِي الوجوه﴾؛ أي: فكيف بالأمعاء والبطن؟! كما قال تعالى: ﴿يُضْهِرُّ به ما في بطونهم والجلودُ. ولهم مَقَامِعٌ من حديدٍ﴾. ﴿يسس الشرابُ﴾: الذي يُراد ليطفئ العطش ويدفع بعض العذاب فيكون زيادةً في عذابهم وشدة عقابهم، ﴿وساءت﴾: النار ﴿مرتفقاً﴾: وهذا ذمٌ لحالة النار؛ أنها ساءت المحل الذي يرتفق به؛ فإنها ليس فيها ارتفاع؛ وإنما فيها العذاب العظيم الشاق الذي لا يُفْتَرُّ عنهم ساعة، وهم فيه مُبْلِسُونَ، قد أيسوا من كلِّ خيرٍ، ونسيهم الرحيم في العذاب كما نسوه.

﴿٣٠﴾ ثم ذكر الفريق الثاني، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ أي: جمعوا بين الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره وعمل الصالحات من الواجبات والمستحبات. ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾: وإحسانُ العمل أن يريد العبدُ العمل لوجه الله متبعاً في ذلك شرع الله؛ فهذا العمل لا يضيِّعه الله ولا شيئاً منه، بل يحفظه للعاملين، ويوفِّقهم من الأجر بحسب عملهم وفضله وإحسانه.

﴿٣١﴾ وذكر أجرهم بقوله: ﴿أولئك لهم جناتٌ عدنٍ تجري من تحتها الأنهار يُحَلِّوْنَ فيها من أساورٍ من ذهبٍ ويلبسون ثياباً خضراً من سُندُسٍ وإِسْتَبْرَقٍ مَتَّكِنِينَ فيها على الأرائك﴾؛ [أولئك] أي: أولئك الموصوفون بالإيمان والعمل الصالح، لهم الجناتُ العالياً التي قد كَثُرَتْ أشجارها فأجَنَّتْ مَنْ فيها، وكثرت أنهارها، فصارت تجري من تحت تلك الأشجار الأنيقة والمنازل الرفيعة، وحليتهم فيها الذهب، ولباسهم فيها الحرير الأخضر من السُّندس، وهو الغليظ من الدِّباج، والإِسْتَبْرَق وهو ما رَقَّ منه، متَّكِنِينَ فيها على الأرائك، وهي السرر المزيَّنة المجمَّلة

بالثياب الفاخرة؛ فإنَّها لا تسمَّى أريكة حتى تكون كذلك، وفي اتكائهم على الأرائك ما يدلُّ على كمال الراحة وزوال النَّصب والتعب وكون الخدم يسعون عليهم بما يشتهون، وتَمَام ذلك الخلود الدائم والإقامة الأبدية؛ فهذه الدار الجلييلة، ﴿نعم الثواب﴾: للعاملين، ﴿وحسنت مرتفقاً﴾: يرتفقون بها، ويتمتعون بما فيها مما تشتهيه الأنفس، وتلذُّ الأعين من الحبرة والسرور والفرح الدائم واللذات المتواترة والنعم المتوافرة، وأيُّ مرتفقٍ أحسنُ من دارٍ، أدنى أهلها يسير في ملكه ونعيمه وقصوره وبساتينه أفني سنة؟ ولا يرى فوق ما هو فيه من النعيم، قد أعطِيَ جميعَ أمانيه ومطالبه، وزيد من المطالب ما قصرت عنه الأمانى، ومع ذلك؛ فنعيمهم على الدوام، متزايدٌ في أوصافه وحسنه، فنسأل الله الكريم أن لا يحرمنا خير ما عنده من الإحسان بشر ما عندنا من التقصير والعصيان. ودلت الآية الكريمة وما أشبهها على أن الجليَّة عامَّةٌ للذكور والإناث؛ كما ورد في الأخبار الصحيحة؛ لأنَّه أطلقها في قوله: ﴿يُحَلَّوْنَ﴾، وكذلك الحرير ونحوه.

﴿٣٢﴾ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا زَاجِرِينَ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كَلَّا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أَكْلَهُمَا وَلَمْ تَنْظُرْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُمْ نَمْرٌ ﴿٣٤﴾

﴿٣٢﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: اضرب للناس مثل هذين الرجلين: الشاكر لنعمة الله، والكافر لها، وما صدر من كل منهما من الأقوال والأفعال، وما حصل بسبب ذلك من العقاب العاجل والآجل والثواب؛ ليعتبروا بحالهما، ويتعظوا بما حصل عليهما، وليس معرفة أعيان الرجلين وفي أي زمان أو مكان هما فيه فائدة أو نتيجة؛ فالنتيجة تحصل من قصتهما فقط، والتعرض لما سوى ذلك من التكلف. فأحد هذين الرجلين الكافر لنعمة الله الجلييلة جعل الله له جنتين؛ أي: بستائين حستين ﴿من أعناب وحفناهما بنخل﴾؛ أي: في هاتين الجنتين من كل الثمرات، وخصوصاً أشرف الأشجار العنب والنخل؛ فالعنب وسطها، والنخل قد حف بذلك ودار به، فحصل فيه من حسن المنظر وبهائه وبروز الشجر والنخل للشمس والرياح التي تكمل بها الثمار وتنضج وتتجوهر، ومع ذلك جعل بين تلك الأشجار زرعاً.

﴿٣٣﴾ فلم يبق عليهما إلا أن يقال: كيف ثمار هاتين الجنتين؟ وهل لهما ماء يكفيهما؟ فأخبر تعالى أن كلا من ﴿الجنتين آتت أكلها﴾؛ أي: ثمرها وزرعها ضعفين؛ أي: متضاعفاً، وأنها ﴿لم تنظلم منه شيئاً﴾؛ أي: لم تنقص من أكلها أدنى شيء، ومع ذلك فالأنهار في جوانبها سارحة كثيرة غزيرة.



﴿٣٤﴾ ﴿وكان له﴾؛ أي: لذلك الرجل ﴿ثمر﴾؛ أي: عظيم؛ كما يفيدُه التنكير؛ أي: قد استكملت جنتاه ثمارهما، وارجحت أشجارهما ولم تعرض لهما آفة أو نقص، فهذا غاية منتهى زينة الدنيا في الحرث، ولهذا اغتر هذا الرجل وتبجح وافتخر، ونسي آخرته.

﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَيَّ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾

﴿٣٤﴾ أي: فقال صاحب الجنتين لصاحبه المؤمن وهما يتحاوران؛ أي: يتراجعان بينهما في بعض الماكرات المعتادة مفتخرًا عليه: ﴿أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً﴾: فخر بكثرة ماله وعزة أنصاره من عبيد وخدم وأقارب، وهذا جهل منه، وإلا؛ فأني افتخر بأمر خارجي ليس فيه فضيلة نفسية ولا صفة معنوية، وإنما هو بمنزلة فخر الصبي بالأمانى التي لا حقائق تحتها؟!

﴿٣٥ - ٣٦﴾ ثم لم يكفِه هذا الافتخار على صاحبه، حتى حَكَمَ بجهله وظلمه، وظنَّ لما دخل جنته، ﴿فقال ما أظنُّ أن تبيد﴾؛ أي: تنقطع وتضمحل ﴿هذه أبداً﴾: فاطمأن إلى هذه الدنيا، ورضي بها، وأنكر البعث، فقال: ﴿وما أظنُّ الساعة قائمة ولئن رُودتُ إلى ربِّي﴾: على ضرب المثل؛ ﴿لأجدنَّ خيراً منها مُنْقَلَبًا﴾؛ أي: ليعطيني خيراً من هاتين الجنتين! وهذا لا يخلو من أمرين: إما أن يكون عالماً بحقيقة الحال، فيكون كلامه هذا على وجه التهكم والاستهزاء، فيكون زيادة كفرٍ إلى كفره. وإما أن يكون هذا ظنه في الحقيقة، فيكون من أجهل الناس وأبخسهم حظاً من العقل؛ فأني تلازم بين عطاء الدنيا وعطاء الآخرة حتى يظنَّ بجهله أن من أعطى في الدنيا أعطى في الآخرة؟! بل الغالب أن الله تعالى يزوي الدنيا عن أوليائه وأصفيائه، ويوسعها على أعدائه، الذين ليس لهم في الآخرة نصيب. والظاهر أنه يعلم حقيقة الحال، ولكنه قال هذا الكلام على وجه التهكم والاستهزاء؛ بدليل قوله: ﴿ودخل جنته وهو ظالم لنفسه﴾: فإثبات أن وصفه الظلم في حال دخوله الذي جرى منه من القول ما جرى، يدل على تمرده وعناده.

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا

﴿٣٧﴾ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴿٣٧﴾ .

﴿٣٧﴾ أي: قال له صاحبه المؤمن ناصحاً له ومذكراً له حاله الأولى التي أوجده الله فيها في الدنيا ﴿من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً﴾؛ فهو الذي أنعم عليك بنعمة الإيجاد والإمداد، وواصل عليك النعم، ونقلك من طور إلى طور، حتى سواك رجلاً كامل الأعضاء والجوارح المحسوسة والمعقولة، وبذلك يسر لك الأسباب وهيأ لك ما هيأ من نعم الدنيا، فلم تحصل لك الدنيا بحولك وقوتك، بل بفضل الله تعالى عليك؛ فكيف يليق بك أن تكفر بالله الذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً، وتجهل نعمته، وتزعم أنه لا يبعثك، وإن بعثك أنه يعطيك خيراً من جنتك؟! هذا ممّا لا ينبغي ولا يليق.

﴿٣٨﴾ ولهذا لما رأى صاحبه المؤمن حاله واستمراره على كفره وطغيانه؛ قال مخبراً عن نفسه على وجه الشكر لربه والإعلان بدينه عند ورود المجادلات والشبه: ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾: فأقرّ بربوبية ربه وانفراده فيها والتزام طاعته وعبادته، وأنه لا يشرك به أحداً من المخلوقين.

ثم أخبر أن نعمة الله عليه بالإيمان والإسلام، ولو مع قلّة ماله وولده؛ أنها هي النعمة الحقيقية، وأن ما عداها معرضٌ للزوال والعقوبة عليه والتكال، فقال:

﴿إِن تَرَىٰ أَنَا أَقْلَمُ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُوَفِّيَنَّ خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَنُصِيعَ صَعِيدًا زَلْفًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصِيعَ مَآؤَهَا غُورًا فَلَن يَسْتَطِيعَ لَكُمُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ فَاصْبِرْ يَقِلُّبُ كَفَيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَآوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ بَلَغْتُ لِمَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَكُمُ فِتْنَةٌ يَصُرُونَكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ .

﴿٣٩﴾ أي: قال للكافر صاحبه المؤمن: أنت وإن فخرت عليّ بكثرة مالك وولدك، ورأيتني ﴿أقلّ منك مالاً وولداً﴾؛ فإنّ ما عند الله خيرٌ وأبقى، وما يرجي من خيره وإحسانه أفضل من جميع الدنيا التي يتنافس فيها المتنافسون.

﴿٤٠﴾ ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُمْرًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾؛ أي: عذاباً بمطر عظيم أو غيره. ﴿فَتَصْبِحُ﴾: بسبب ذلك ﴿صَعِيداً زَلَقاً﴾؛ أي: قد اقتلعت أشجارها، وتلفت ثمارها وغرق زرْعها، وزال نفعها.

﴿٤١﴾ ﴿أَوْ يَصْبِحَ مَأْوَاهَا﴾ الذي مادتها منه ﴿غوراً﴾؛ أي: غائراً في الأرض. ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلْبًا﴾؛ أي: غائراً لا يُستطاع الوصول إليه بالمعاول ولا بغيرها، وإنما دعا على جنته المؤمن غضباً لربِّه؛ لكونها غرته وأطغته واطمأن إليها؛ لعلَّه ينيب، ويراجع رُشده، ويبصر في أمره.

﴿٤٢﴾ ﴿فَاسْتَجَابَ اللَّهُ دَعَاءَهُ﴾، ﴿وَأَحْيَطَ بِشِمْرِهِ﴾؛ أي: أصابه عذاب أحاط به واستهلكه فلم يبقَ منه شيء، والإحاطة بالثمر يستلزم تلَف جميع أشجاره وثماره وزرعه، فندم كلُّ الندامة، واشتدَّ لذلك أسفه. ﴿فَأَصْبَحَ يَقْلُبُ كَفَيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾؛ أي: على كثرة نفقاته الدنيوية عليها، حيث اضمحلت وتلاشت، فلم يبق لها عوض، وندم أيضاً على شريكه وشره، ولهذا قال: ﴿وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾.

﴿٤٣﴾ ﴿قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِراً﴾؛ أي: لما نزل العذاب بجنته؛ ذهب عنه ما كان يفتخرُ به من قوله لصاحبه: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفْراً﴾، فلم يدفعوا عنه من العذاب شيئاً أشدَّ ما كان إليهم حاجةً، وما كان بنفسه منتصراً، وكيف ينتصر أو يكون له انتصارٌ على قضاء الله وقدره الذي إذا أمضاه وقدره لو اجتمع أهل السماء والأرض على إزالة شيءٍ منه لم يقدرُوا؟! ولا يُستبعد من رحمة الله ولطفه أن صاحب هذه الجنة التي أحيط بها تحسنت حاله، ورزقه الله الإنابة إليه وراجع رُشده، وذهب تمرُّده وطغيانه؛ بدليل أنه أظهر الدَّم على شركه برِّه، وأنَّ الله أذهب عنه ما يُطغيه وعاقبه في الدنيا، وإذا أراد الله بعبدٍ خيراً عَجَّلَ له العقوبة في الدنيا، وفضلُ الله لا تحيطُ به الأوهام والعقول، ولا ينكره إلا الظالمُ جهولٌ.

﴿٤٤﴾ ﴿هَنَالِكِ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقَاباً﴾؛ أي: في تلك الحال التي أجرى الله فيها العقوبة على من طغى وأثر الحياة الدنيا، والكرامة لمن آمن وعمل صالحاً وشكر الله ودعا غيره لذلك؛ تبيَّن وتوضَّح أن الولاية الحق لله

وحده<sup>(١)</sup>؛ فمن كان مؤمناً به تقيّاً؛ كان له وليّاً، فأكرمه بأنواع الكرامات، ودَفَعَ عنه الشرور والمثلّات - ومن لم يؤمن بربه ويتولّاه؛ خَسِرَ دينه ودُنياه - فتوابه الدنيوي والأخرويّ خيرُ ثواب يُرجى ويؤمّل.

ففي هذه القصة العظيمة اعتبارٌ بحال الذي أنعم الله عليه نعماً دنيويّة، فألهته عن آخرته، وأطغته، وعصى الله فيها، أنّ مالها الاتقطاع والاضمحلال، وأنه وإن تمتّع بها قليلاً؛ فإنّه يحرمها طويلاً، وأنّ العبد ينبغي له إذا أعجبه شيء من ماله أو ولده أن يضيف النعمة إلى مولياها ومُسديها، وأن يقول: ما شاء الله، لا قوّة إلا بالله؛ ليكون شاكرًا [لله] متسبباً لبقاء نعمته عليه؛ لقوله: ﴿ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوّة إلا بالله﴾.

وفيها: الإرشاد إلى التسلّي عن لذات الدنيا وشهواتها بما عند الله من الخير؛ لقوله: ﴿إن ترن أنا أقلّ منك مالا وولداً فعسى ربّي أن يؤتيني خيراً من جنتك﴾.

وفيها: أنّ المال والولد لا ينفعان إن لم يُعينا على طاعة الله؛ كما قال تعالى: ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تُقرّبكم عندنا زُلْفى إلا من آمن وعمل صالحاً﴾.

وفيه: الدُّعاء يتلّف مال من كان ماله سبب طغيانه وكفره وخسرانه، خصوصاً إن فضّل نفسه بسببه على المؤمنين، وفخّر عليهم.

وفيها: أنّ ولاية الله وعدمها إنما تتضح نتيجتها إذا انجلى الغبار وحقّ الجزاء، ووجد العاملون أجرهم؛ فهنالِكَ الولاية لله الحقّ هو خيرُ ثواباً وخيرُ عُقباً؛ أي: عاقبةً ومالاً.

— ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقَدِّرًا ﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾.

﴿٤٥﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ أصلاً ولمن قام بوراثته بعده تبعاً: اضرب للناس مَثَلًا الحياة الدنيا؛ ليتصوّروها حقّ التصوّر ويعرفوا ظاهرها وباطنها، فيقيسوا بينها وبين الدار الباقية، ويؤثروا أيهما أولى بالإيثار. وإنّ مَثَل هذه الحياة الدنيا كمثّل المطر؛ ينزل على الأرض، فيختلط نباتها، تُنبِت من كلّ زوج بهيج، فيبينا زهرتها

(١) في (ب): «أن الولاية لله الحق».

وزُخِرْفَهَا تَسْرُ النَّاطِرِينَ، وَتَفْرُحُ الْمَتَفَرِّجِينَ، وَتَأْخُذُ بَعْيُونَ الْغَافِلِينَ؛ إِذْ أَصْبَحَتْ ﴿هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ﴾: فَذَهَبَ ذَلِكَ النَّبَاتُ النَّاضِرُ وَالزَّهْرُ الزَّاهِرُ وَالْمَنْظَرُ الْبَهِيُّ، فَأَصْبَحَتْ الْأَرْضُ غَبْرَاءَ تَرَابًا قَدْ انْحَرَفَ عَنْهَا النَّظْرُ، وَصَرَفَ عَنْهَا الْبَصْرُ، وَأَوْحَشَتْ الْقَلْبَ؛ كَذَلِكَ هَذِهِ الدُّنْيَا؛ بَيْنَمَا صَاحِبُهَا قَدْ أُعْجِبَ بِشِبَابِهِ، وَفَاقَ فِيهَا عَلَى أَقْرَانِهِ وَأَتْرَابِهِ، وَحَصَلَ دَرَهْمُهَا وَدِينَارُهَا، وَاقْتَطَفَ مِنْ لَذَّتِهِ أَزْهَارَهَا، وَخَاضَ فِي الشَّهَوَاتِ فِي جَمِيعِ أَوْقَاتِهِ، وَظَنَّ أَنَّهُ لَا يَزَالُ فِيهَا سَائِرَ أَيَامِهِ؛ إِذْ أَصَابَهُ الْمَوْتُ أَوْ التَّلْفُ لِمَالِهِ، فَذَهَبَ عَنْهُ سُرُورُهُ، وَزَالَتْ لَذَّتُهُ وَحُبُورُهُ، وَاسْتَوْحَشَ قَلْبُهُ مِنَ الْآلَامِ، وَفَارَقَ شِبَابَهُ وَقُوَّتَهُ وَمَالَهُ، وَانْفَرَدَ بِصَالِحٍ أَوْ سَيِّئٍ أَعْمَالِهِ، هُنَالِكَ يَعْضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ حِينَ يَعْلَمُ حَقِيقَةَ مَا هُوَ عَلَيْهِ وَيَتَمَنَّى الْعَوْدَ إِلَى الدُّنْيَا، لَا لِيَسْتَكْمَلَ الشَّهَوَاتِ، بَلْ لِيَسْتَدْرِكَ مَا فَرَطَ مِنْهُ مِنَ الْغَفَلَاتِ؛ بِالتَّوْبَةِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ، فَالْعَاقِلُ الْحَازِمُ الْمَوْقِفُ يَعْضُضُ عَلَى نَفْسِهِ هَذِهِ الْحَالَةَ، وَيَقُولُ لِنَفْسِهِ: قَدَّرِي أَنَّكَ قَدْ مِتَّ، وَلَا بَدَّ أَنْ تَمُوتِي؛ فَأَيُّ الْحَالَتَيْنِ تَخْتَارِينَ: الْاِغْتِرَارُ بِزُخْرَفِ هَذِهِ الدَّارِ، وَالتَّمَتُّعُ بِهَا كَتَمَتُّعِ الْأَنْعَامِ السَّارِحَةِ، أَمْ الْعَمَلُ لِدَارٍ أَكْلُهَا دَائِمٌ وَظَلْمُهَا، وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلذُّ الْأَعْيُنُ؛ فَبِهَذَا يُعْرَفُ تَوْفِيقُ الْعَبْدِ مِنْ خِذْلَانِهِ، وَرَبِيحُهُ مِنْ خَسْرَانِهِ.

﴿٤٦﴾ وَلِهَذَا أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ الْمَالَ وَالْبَنِينَ ﴿زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ أَي: لَيْسَ وِرَاءَ ذَلِكَ شَيْءٌ، وَأَنَّ الَّذِي يَبْقَى لِلْإِنْسَانِ وَيَنْفَعُهُ وَيُسِّرُهُ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ، وَهَذَا يَشْمَلُ جَمِيعَ الطَّاعَاتِ الْوَاجِبَاتِ وَالْمُسْتَحَبَّةِ مِنْ حَقُوقِ اللَّهِ وَحَقُوقِ عِبَادِهِ مِنْ صَلَاةٍ وَزَكَاةٍ وَصَدَقَةٍ وَحَجٍّ وَعَمْرَةٍ وَتَسْبِيحٍ وَتَحْمِيدٍ وَتَهْلِيلٍ [وَتَكْبِيرٍ] وَقِرَاءَةٍ وَطَلَبِ عِلْمٍ نَافِعٍ وَأَمْرِ بِمَعْرُوفٍ وَنَهْيٍ عَنِ الْمُنْكَرِ وَصَلَةِ رَحِمٍ وَبِرِّ وَالِدَيْنِ وَقِيَامِ بِحَقِّ الزَّوْجَاتِ وَالْمَمَالِكِ وَالْبَهَائِمِ وَجَمِيعِ وَجْهِ الْإِحْسَانِ إِلَى الْخَلْقِ، كُلُّ هَذَا مِنَ الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ؛ فَهَذِهِ خَيْرٌ عِنْدَ اللَّهِ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلًا؛ فَثَوَابُهَا يَبْقَى وَيَتَضَاعَفُ عَلَى الْآبَادِ، وَيُؤْمَلُ أَجْرُهَا وَبِرُّهَا وَنَفْعُهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ؛ فَهَذِهِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يَتَنَافَسَ بِهَا الْمُتَنَافِسُونَ، وَيَسْتَبَقُوا إِلَيْهَا الْعَامِلُونَ، وَيَجِدُّوا فِي تَحْصِيلِهَا الْمُجْتَهِدُونَ.

وَتَأْمَلُ كَيْفَ لَمَّا ضَرَبَ اللَّهُ مِثْلَ الدُّنْيَا وَحَالِهَا وَاضْمَحْلَالَهَا؛ ذَكَرَ أَنَّ الَّذِي فِيهَا نَوْعَانِ: نَوْعٌ مِنْ زِينَتِهَا يُتَمَتَّعُ بِهِ قَلِيلًا ثُمَّ يَزُولُ بِلَا فَائِدَةٍ تَعُودُ لِصَاحِبِهِ، بَلْ رَبَّمَا لِحَقَّتْهُ مَضْرَّتُهُ، وَهُوَ الْمَالَ وَالْبَنُونَ. وَنَوْعٌ يَبْقَى لِصَاحِبِهِ عَلَى الدَّوَامِ، وَهِيَ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ.

﴿وَيَوْمَ نُسِئُ السِّبْغَ لِلْجِبَالِ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ

صَفَا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوَضَعَ الْكُتُبَ  
فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً  
إِلَّا أَحْصَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّ رِيكًا أَحَدًا ﴿٤٩﴾ .

﴿٤٧ - ٤٨﴾ يخبر تعالى عن حال يوم القيامة وما فيه من الأحوال المقلقة والشدائد المزعجة، فقال: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾؛ أي: يزيلها عن أماكنها؛ يجعلها كثيباً، ثم يجعلها كالعهن المنفوش، ثم تضمحل وتلاشى وتكون هباءً منبثاً، وتبرز الأرض فتصير قاعاً صافصفاً لا عوج فيه ولا أمتاً، ويحشرُ الله جميع الخلق على تلك الأرض؛ فلا يغادرُ منهم أحداً، بل يجمع الأولين والآخرين من بطون الفلوات وقور البحار، ويجمعهم بعدما تفرقوا، ويعيدهم بعدما تمزقوا خلقاً جديداً، فيُعْرَضُونَ عليه صفاً ليستعرضهم وينظر في أعمالهم ويحكم فيهم بحكمه العدل الذي لا جور فيه ولا ظلم، ويقول لهم: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾؛ أي: بلا مال ولا أهل ولا عشيرة، ما معهم إلا الأعمال التي عملوها والمكاسب في الخير والشر التي كسبوها؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾، وقال هنا مخاطباً للمنكرين للبعث وقد شاهدوه عياناً: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَنْ لَنْ نَجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾؛ أي: أنكرتم الجزاء على الأعمال ووعد الله ووعيده؛ فما قد رأيتموه وذقتموه.

﴿٤٩﴾ فحينئذٍ تُحْضَرُ كتب الأعمال التي كتبها الملائكة الأبرار<sup>(١)</sup>، فتطير لها القلوب، وتُعْظَم من وقعها الكروب، وتكاد لها الصمُّ الصلاب تذوب، ويشفق<sup>(٢)</sup> منها المجرمون؛ فإذا رأوها مسطرةً عليهم أعمالهم محصى عليهم أقوالهم وأفعالهم؛ قالوا: ﴿يَا وَيْلَتَنَا مَا هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾؛ أي: لا يترك خطيئة صغيرة ولا كبيرة إلا وهي مكتوبة فيه محفوظة لم ينس منها عمل سراً ولا علانية ولا ليل ولا نهار. ﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً﴾: لا يقدرُونَ على إنكاره، ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾: فحينئذٍ يجازون بها ويُقَرَّرُونَ بها ويُخزَنُونَ ويحَقُّ عليهم العذاب، ﴿ذلك بما قدمت أيديهم وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾: بل هم غير خارجين عن عدله وفضله.

(١) في (ب): «كتبها الملائكة الكرام». (٢) في (ب): «وتشفق».

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ .

﴿٥٠﴾ يخبر تعالى عن عداوة إبليس لآدم وذريته، وأن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم إكراماً وتعظيماً وامثالاً لأمر الله، فامتثلوا ذلك؛ ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾، وقال: ﴿أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَهُ طِينًا﴾. وقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾، فتيبنا بهذا عداوته لله ولأبيكم؛ فكيف تتخذونه ﴿وَذُرِّيَّتَهُ﴾؛ أي: الشياطين ﴿أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾؛ أي: بئس ما اختاروا لأنفسهم من ولاية الشيطان الذي لا يأمرهم إلا بالفحشاء والمنكر عن ولاية الرحمن الذي كل السعادة والفلاح والسرور في ولايته.

وفي هذه الآية الحث على اتخاذ الشيطان عدواً والإغراء بذلك وذكر السبب الموجب لذلك، وأنه لا يفعل ذلك إلا ظالم، وأي ظلم أعظم من ظلم من اتخذ عدوه الحقيقي ولياً وترك الولي الحميد؟! قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُتَّخِذِينَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٥٢﴾﴾ .

﴿٥١﴾ يقول تعالى: ما أشهدت الشياطين وهؤلاء المضلين خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم؛ أي: ما أحضرتهم ذلك ولا شاورتهم عليه؛ فكيف يكونون خالقين لشيء من ذلك، بل المتفرد بالخلق والتدبير والحكمة والتقدير هو الله، خالق الأشياء كلها، المتصرف فيها بحكمته؛ فكيف يجعل له شركاء من الشياطين يوالون ويطاعون كما يطاع الله وهم لم يخلقوا ولم يشهدوا خلقاً ولم يعاونوا الله تعالى، ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنْتُمْ مُتَّخِذِينَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾؛ أي: معاونين مظاهرين لله على شأن من الشؤون؛ أي: ما ينبغي ولا يليق بالله أن يجعل لهم قسطاً من التدبير؛ لأنهم ساعون في إضلال الخلق والعداوة لربهم؛ فاللائق أن يقصّبهم ولا يدينهم.

﴿٥٢﴾ ولما ذكر حال من أشرك به في الدنيا، وأبطل هذا الشرك غاية الإبطال، وحكم بجهل صاحبه وسفاهه؛ أخبر عن حالهم مع شركائهم يوم القيامة، وأن الله

يقول لهم: نادوا شركائِي بزعمكم؛ أي: على موجب زعمكم الفاسد، وإلّا؛ فبالحقيقة ليس لله شريك في الأرض ولا في السماء؛ أي: نادوهم لينفعوكم ويخلصوكم من الشدائد. ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾: لأنّ الحكم والملك يومئذٍ لله، لا أحد يملك مقال ذرة من النفع لنفسه ولا لغيره. ﴿وجعلنا بينهم﴾؛ أي: بين المشركين وشركائهم ﴿موبقاً﴾؛ أي: مهلكاً يفرق بينهم وبينهم، ويبعد بعضهم من بعض، ويتبيّن حينئذٍ عداوة الشركاء لشركائهم، وكفرهم بهم، وتبريهم منهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾.

﴿وَرَاءَ الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾.

﴿٥٣﴾ أي: لما كان يوم القيامة، وحصل من الحساب ما حصل، وتميّز كل فريق من الخلق بأعمالهم، وحقّت كلمة العذاب على المجرمين، فرأوا جهنّم قبل دخولها، فانزعجوا، واشتدّ قلقهم لظنّهم أنّهم موقعوها، وهذا الظنّ قال المفسرون: إنّهُ بمعنى اليقين، فأيقنوا أنّهم داخلوها، ﴿ولم يجدوا عنها مصرفاً﴾؛ أي: معدلاً يعدلون إليه، ولا شافع لهم من دون إذنه. وفي هذا من التخويف والترهيب ما ترعد له الأفئدة والقلوب.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾.

﴿٥٤﴾ يخبر تعالى عن عظمة القرآن وجلالته وعمومه، وأنّه صرف فيه ﴿من كلِّ مَثَلٍ﴾؛ أي: من كلِّ طريق موصل إلى العلوم النافعة والسعادة الأبدية وكل طريق يعصم من الشرّ والهلاك؛ ففيه أمثال الحلال والحرام، وجزاء الأعمال، والترغيب والترهيب، والأخبار الصادقة النافعة للقلوب؛ اعتقاداً وطمأنينةً ونوراً، وهذا مما يوجب التسليم لهذا القرآن وتلقّيه بالانقياد والطاعة وعدم المنازعة له في أمر من الأمور، ومع ذلك؛ كان كثير من الناس يجادلون في الحقّ بعدما تبين، ويجادلون بالباطل ليُدْحِضُوا به الحقّ، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾؛ أي: مجادلةً ومنازعةً فيه، مع أنّ ذلك غير لائقٍ بهم، ولا عدلٍ منهم، والذي أوجب له ذلك، وعدم الإيمان بالله، إنّما هو الظلم والعناد، لا لقصور في بيانه وحجّته وبرهانه، وإلّا؛ فلو جاءهم العذاب وجاءهم ما جاء قبلهم؛ لم تكن هذه حالهم، ولهذا قال:

﴿وَمَا مَنَّ عَلَى النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَسَتَفْقِرُوا لَهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ

أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾.



﴿٥٥﴾ أي: ما منع الناس من الإيمان - والحال أن الهدى الذي يحصلُ به الفرق بين الهدى والضلال والحق والباطل قد وصل إليهم وقامت عليهم حجة الله، فلم يمنعهم عدم البيان، بل منعهم الظلم والعدوان عن الإيمان، فلم يبق إلا أن تأتيهم سنة الله وعادته في الأولين، من أنهم إذا لم يؤمنوا؛ عوجلوا بالعذاب، أو يروى العذاب قد أقبل عليهم، ورأوه مقابلةً ومعاينةً؛ أي: فليخافوا من ذلك، وليتوبوا من كفرهم؛ قبل أن يكون العذاب الذي لا مردَّ له.

﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَجَعَلْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِئُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ۝٥٦﴾

﴿٥٦﴾ أي: لم نرسل الرُّسلَ عبثاً، ولا لِيَتَّخِذَهُمُ النَّاسُ أَرْبَابًا، ولا لِيَدْعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ، بل أرسلناهم يدعون الناس إلى كلِّ خير، وينهون عن كلِّ شرٍّ، ويبشرونهم على امتثال ذلك بالثواب العاجل والآجل، وينذرونهم على معصية ذلك بالعقاب العاجل والآجل، فقامت بذلك حجة الله على العباد، ومع ذلك يأبى الظالمون الكافرون إلا المجادلة بالباطل لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ، فسَعَوْا فِي نَصْرِ الْبَاطِلِ مَهْمَا أَمَكْنَهُمْ، وفي دحض الحق وإبطاله، واستهزؤوا برسُلِ اللَّهِ وآيَاتِهِ، وفرحوا بما عندهم من العلم، ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نَوْرَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾، ويظهر الحق على الباطل، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾، ومن حكمة الله ورحمته أن تقييضة المبطلين المجادلين الحق بالباطل من أعظم الأسباب إلى وضوح الحق وتبين شواهد وأدلته وتبين الباطل وفساده؛ فبضدّها تتبين الأشياء.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ۝٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلًا ۝٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْتَهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ۝٥٩﴾

﴿٥٧﴾ يخبر تعالى أنه لا أعظم ظلماً ولا أكبر جرماً من عبدٍ ذُكِّرَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيُبَيِّنُ لَهُ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ وَالْهُدَى مِنَ الضَّلَالِ، وَخَوْفٍ وَرُهْبٍ وَرُغْبٍ وَرُغَبٍ، فَأَعْرَضَ عَنْهَا، فلم يتذكر بما ذُكِّرَ بِهِ، ولم يرجع عما كان عليه، ﴿ونسي ما قدمت يداؤه﴾ من الذنوب، ولم يراقب علام الغيوب؛ فهذا أعظم ظلماً من المعرض الذي لم تأت به

آياتُ الله ولم يُدَكِّرْ بها، - وإن كان ظالماً -؛ فإنه أشدُّ<sup>(١)</sup> ظلماً من هذا؛ لكون العاصي على بصيرةٍ وعلمٍ أعظم ممَّن ليس كذلك، ولكنَّ الله تعالى عاقبه بسبب إعراضه عن آياته ونسيانه لذنوبه ورضاه لنفسه حالة الشرِّ مع علمه بها، أن سدَّ عليه أبواب الهداية بأن جعلَ على قلبه أكثَّةً؛ أي: أعطية محكمة تمنعه أن يفقه الآيات وإن سمعها؛ فليس في إمكانه الفقه الذي يصل إلى القلب. ﴿وفي آذانهم وقرآناً؛ أي: صمماً يمنعهم من وصول الآيات ومن سماعها على وجه الانتفاع، وإن كانوا بهذه الحالة؛ فليس لهدايتهم سبيلٌ. ﴿وإن تدعُّهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبداً﴾: لأنَّ الذي يُرجى أن يجيب الداعي للهدى من ليس عالماً، وأما هؤلاء الذين أبصروا ثم عموا، ورأوا طريق الحقِّ فتركوه، وطريق الضلال فسلكوه، وعاقبهم الله بإقفال القلوب والطَّبَعِ عليها؛ فليس في هدايتهم حيلةٌ ولا طريقٌ. وفي هذه الآية من التخويف لمن ترك الحقَّ بعد علمه أن يُحالَ بينه وبينه، ولا يتمكَّن منه بعد ذلك ما هو أعظم مرهبٍ وزاجرٍ عن ذلك.

﴿٥٨﴾ ثم أخبر تعالى عن سعة مغفرته ورحمته، وأنه يغفر الذنوب ويتوب الله على من يتوب فيتغمده برحمته ويشمله بإحسانه، وأنه لو أخذ<sup>(٢)</sup> العباد على ما قدَّمت أيديهم من الذنوب؛ لعجلَ لهم العذاب، ولكنَّه تعالى حليماً لا يعجلُ بالعقوبة، بل يُمهِّلُ ولا يُهملُ، والذنوب لا بدُّ من وقوع آثارها، وإن تأخرت<sup>(٣)</sup> عنها مدة طويلة، ولهذا قال: ﴿بل لهم موعدٌ لن يجدوا من دونه موثلاً﴾؛ أي: لهم موعدٌ يجازون فيه بأعمالهم، لا بدُّ لهم منه، ولا مندوحة لهم عنه، ولا ملجأ ولا محيد عنه.

﴿٥٩﴾ وهذه سنَّته في الأولين والآخرين، أن لا يعاجلهم بالعقاب، بل يستدعيهم إلى التوبة والإنابة؛ فإن تابوا وأنابوا؛ عفَّر لهم ورحمهم وأزال عنهم العقاب، وإلَّا؛ فإن استمروا على ظلمهم وعنادهم، وجاء الوقت الذي جعله موعداً لهم؛ أنزل بهم بأسه، ولهذا قال: ﴿وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا﴾؛ أي: بظلمهم، لا بظلم مئاً. ﴿وجعلنا لمهلكهم موعداً﴾؛ أي: وقتاً مقدراً لا يتقدَّمون عنه ولا يتأخرون.

(١) في (ب): «أخف». وقد أعاد الشيخ كتابتها بخطه في هامش (أ): «أشد».

(٢) في (ب): «وأخذ». (٣) في (ب): «تأخر».

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَآ آتِجِحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٥﴾  
فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَعْرِ سَرَبًا ﴿٦٦﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ  
ءَاٰنِنَا غَدَاةً نَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هٰذَا نَصَبًا ﴿٦٧﴾ قَالَ اَرَاَيْتَ اِذْ اَوْنٰنَا اِلَى الصَّخْرَةِ فَاِنِّي نَسِيتُ  
الْحُوتَ وَمَا اَنْسَيْنِيهُ اِلَّا الشَّيْطٰنُ اَنْ اَذْكُرَهُ وَاَتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَعْرِ عَجَبًا ﴿٦٨﴾ قَالَ ذٰلِكَ مَا كُنَّا  
نَبِيغُ فَاَرْتَدَّا عَلٰى ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٩﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاٰتَيْنَهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ  
مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٧٠﴾ قَالَ لَمَّ مُوسٰى هَلْ اَتَّبَعَكَ عَلٰى اَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَنِي رُشْدًا ﴿٧١﴾ قَالَ اِنَّكَ لَنْ  
تَسْتَطِيْعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلٰى مَا لَمْ تُحِطْ بِهٖ خَبْرًا ﴿٧٣﴾ قَالَ سَتَجِدُنِيْ اِنْ شَاءَ اللّٰهُ  
صَابِرًا وَّلَا اَعْصِيْ لَكَ اَمْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ فَاِنِ اَتَّبَعْتَنِيْ فَلَا تَتَّبِعْنِيْ عَن شَيْءٍ حَتّٰى اُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا  
﴿٧٥﴾ فَاَنْطَلَقَا حَتّٰى اِذَا رَكِبَا فِي السَّفِيْنَةِ خَرَقَهَا ﴿٧٦﴾ قَالَ اَخْرَقْنٰهَا لِغُرُقِ اَهْلِهَا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا اِمْرًا  
﴿٧٧﴾ قَالَ اَلَمْ اَقُلْ اِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيْعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِيْ بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِيْ مِنْ  
اَمْرِيْ عَسْرًا ﴿٧٩﴾ فَاَنْطَلَقَا حَتّٰى اِذَا لَقِيَا غُلٰمًا فَفَنَلَهُ قَالَ اَفَلَيْتَ نَفْسًا رَّكِيَةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا  
نُّكْرًا ﴿٨٠﴾ ﴿٨١﴾ قَالَ اَلَمْ اَقُلْ لَكَ اِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيْعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ قَالَ اِنْ سَاَلْتَنِيْ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا  
فَلَا تُصَحِّبْنِيْ فَد بَلَّغْتَنِيْ مِنْ لَّدُنِّيْ عَذْرًا ﴿٨٣﴾ فَاَنْطَلَقَا حَتّٰى اِذَا اٰتٰى اَهْلَ قَرْيَةٍ اَسْتَطَعَمَا اَهْلَهَا فَاَبْرًا  
اَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيْدُ اَنْ يَنْقُضَ فَاَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتُمْ لَنَخَذْتُمْ عَلَيْهِ اَجْرًا ﴿٨٤﴾  
قَالَ هٰذَا فِرَاقُ بَيْتِيْ وَبَيْتِكَ سَابِغْتُكَ بِتَاوِيْلٍ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٥﴾ اِنَّا السَّفِيْنَةُ فَكَانَتْ  
لِمَسْكِيْنَ يَعْمَلُوْنَ فِي الْبَحْرِ فَاَرَدْتُمْ اَنْ اَعِيْبَهَا وَكَانَ وِرَآءَهُمْ مَّلِكٌ يَّاخُذُ كُلَّ سَفِيْنَةٍ غَصْبًا ﴿٨٦﴾ وَاَمَّا  
الْغُلٰمُ فَكَانَ اَبُوهُ مُؤْمِنِيْنٍ فَخَشِيْنَا اَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٧﴾ فَاَرَدْنَا اَنْ يُبَدِّلَهُمَا رِجْمًا  
خَيْرًا مِنْهُ زَكٰوَةً وَاَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨٨﴾ وَاَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلٰمَيْنِ يَتِيْمِيْنَ فِي الْمَدِيْنَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ  
كَنْزٌ لَّهُمَا وَكَانَ اَبُوهُمَا صٰلِحًا فَاَرَادَ رَبُّكَ اَنْ يَّبْلِغَا اَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنْ  
رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُمْ عَن اَمْرِيْ ذٰلِكَ تَاوِيْلٌ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٩﴾ ﴿٩٠﴾

﴿٦٠﴾ يخبر تعالى عن نبيه موسى عليه السلام وشدة رغبته في الخير وطلب العلم أنه قال لفتاه؛ أي: خادمه الذي يلازمه في حضره وسفره، وهو يوشع بن

(١) في (النسختين) إلى قوله: ﴿ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبراً﴾.

نون، الذي نبأه الله بعد ذلك: ﴿لَا أُبْرِحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾؛ أي: لا أزال مسافراً وإن طالت عليَّ الشُّقَّةُ ولحقتني المشقَّةُ حتى أصل إلى مجمع البحرين، وهو المكان الذي أوحى إليه أنك ستجد فيه عبداً من عباد الله العالمين، عنده من العلم ما ليس عندك، ﴿أَوْ أَمْضِي حُقُبًا﴾؛ أي: مسافة طويلة. المعنى أنَّ الشوق والرغبة حَمَلَ موسى أن قال لفتاه هذه المقالة.

﴿٦١﴾ وهذا عزمٌ منه جازم، فلذلك أمضاه، ﴿فلما بلغا﴾؛ أي: هو وفتاه مَجْمَعٌ بينهما نسيا حوتهما: وكان معهما حوتٌ يتزوَّدان منه ويأكلان، وقد وعدَّ أنه متى فقد الحوت؛ فثمَّ ذلك العبد الذي قصدته. ﴿فَاتَّخَذَ﴾: ذلك الحوت سبيلَه؛ أي: طريقه ﴿في البحر سرباً﴾. وهذا من الآيات، قال المفسرون: إنَّ ذلك الحوت الذي كانا يتزوَّدان منه لما وصلا إلى ذلك المكان أصابه بللُّ البحر، فانسرب بإذن الله في البحر، وصار مع حيواناته حياً.

﴿٦٢﴾ فلما جاوز موسى وفتاه مجمعَ البحرين؛ قال موسى لفتاه: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾؛ أي: لقد تعبنا من هذا السفر المجاوز فقط، وإلَّا؛ فالسفر الطويل الذي وصلا به إلى مجمع البحرين لم يجدا من التعب فيه، وهذا من الآيات والعلامات الدالة لموسى على وجود مطلبه، وأيضاً؛ فإنَّ الشوق المتعلِّق بالوصول إلى ذلك المكان سهَّل لهما الطريق، فلما تجاوزا غايتهما؛ وجدا مسَّ التعب.

﴿٦٣﴾ فلما قال موسى لفتاه هذه المقالة؛ قال له فتاه: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ﴾ [أي: ألم تعلم حين آوانا الليل إلى تلك الصخرة المعروفة بينهما فإنِّي نسيت الحوت]، ﴿وما أنسانيه إلاَّ الشيطانُ﴾: لأنَّه السببُ في ذلك، ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾؛ أي: لما انسرب في البحر ودخل فيه؛ كان ذلك من العجائب. قال المفسرون: كان ذلك المسلك للحوت سرباً ولموسى وفتاه عجباً.

﴿٦٤﴾ فلما قال له الفتى هذا القول، وكان عند موسى وعدُّ من الله أنه إذا فقدَّ الحوت؛ وَجَدَ الْخَضِرَ، فقال موسى: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ﴾؛ أي: نطلب. ﴿فَارْتَدَّ﴾؛ أي: رجعا ﴿على آثارهما قصصاً﴾؛ أي: رجعا يَقْضَانِ أثرهما [إلى المكان] الذي نسيا فيه الحوت.

﴿٦٥﴾ فلما وصلا إليه؛ ﴿وجدا عبداً من عبادنا﴾: وهو الخضر، وكان عبداً

صالحاً لا نبياً على الصحيح. ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾؛ أي: أعطاه الله رحمة خاصة، بها زاد علمه وحسن عمله، ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا﴾؛ أي: من عندنا ﴿عِلْماً﴾: وكان قد أعطي من العلم ما لم يعط موسى، وإن كان موسى عليه السلام أعلم منه بأكثر الأشياء وخصوصاً في العلوم الإيمانية والأصولية؛ لأنه من أولي العزم من المرسلين، الذين فضّلهم الله على سائر الخلق بالعلم والعمل وغير ذلك.

﴿٦٦﴾ فلما اجتمع به موسى؛ قال له على وجه الأدب والمشاورة والإخبار عن مطلبه: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُسُودًا﴾؛ أي: هل أتبعك على أن تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ مَا بِهِ أُسْتَرَشَدُ وَأَهْتَدِي وَأَعْرِفُ بِهِ الْحَقَّ فِي تِلْكَ الْقَضَايَا، وكان الخضر قد أعطاه الله من الإلهام والكرامة ما به يحصل له الاطلاع على بواطن كثير من الأشياء التي خفيت حتى على موسى عليه السلام.

﴿٦٧﴾ فقال الخضر لموسى: لا أمتنع من ذلك، ولكئلك ﴿لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾؛ أي: لا تقدر على أتباعي وملازمتي؛ لأنك ترى ما لا تقدر على الصبر عليه من الأمور، التي ظاهرها المنكر وباطنها غير ذلك.

﴿٦٨﴾ ولهذا قال: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾؛ أي: كيف تصبر على أمر ما أحطت بباطنه وظاهره وعلمت المقصود منه ومآله.

﴿٦٩﴾ فقال موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾: وهذا عزم منه قبل أن يوجد الشيء الممتحن به، والعزم شيء ووجود الصبر شيء آخر؛ فلذلك ما صبر موسى عليه السلام حين وقع الأمر.

﴿٧٠﴾ فحينئذ قال له الخضر: ﴿فَإِنْ أَتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾؛ أي: لا تبتدئني بسؤال منك وإنكار حتى أكون أنا الذي أخبرك بحاله في الوقت الذي ينبغي إخبارك به، فنهاه عن سؤاله، ووعده أن يوقفه على حقيقة الأمر.

﴿٧١﴾ ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾؛ أي: اقتلع الخضر منها لوحاً، وكان له مقصود في ذلك سببها، فلم يصبر موسى عليه السلام؛ لأن ظاهره أنه منكر؛ لأنه عيب للسفينة وسبب لغرق أهلها، ولهذا قال موسى: ﴿أَخْرَقْتُهَا لِتُفَرِّقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتُ شَيْئًا إِمْرًا﴾؛ أي: عظيماً شنيعاً، ولهذا من عدم صبره عليه السلام.

﴿٧٢﴾ فقال له الخضر: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾؛ أي: فوقع كما أخبرتك.

﴿٧٣﴾ وكان هذا من موسى نسياناً، فقال: ﴿لا تَوَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُزْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾؛ أي: لا تُعَسِّرْ عَلَيَّ الأَمْرَ، واسمح لي؛ فَإِنَّ ذَلِكَ وَقَعَ عَلَيَّ وَجْهَ النِّسْيَانِ، فلا تَوَاخِذْنِي فِي أَوَّلِ مَرَّةٍ، فجمع بين الإقرار به والعذر منه، وَأَنَّهُ مَا يَنْبَغِي لَكَ أَيُّهَا الْخَضِرُ الشَّدَّةَ عَلَيَّ صَاحِبِكَ، فسمح عنه الخضر.

﴿٧٤﴾ ﴿فَانْطَلِقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا﴾؛ أي: صغيراً، ﴿فَقَتَلَهُ﴾<sup>(١)</sup>: الخضر، فاشتدَّ بِمُوسَى الغضب، وأخذته الحميَّة الدينيَّة حين قتل غلاماً صغيراً لم يُذنب. ﴿قَالَ أَقْتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾: وَأَيُّ نُكْرٍ مِثْلَ قَتْلِ الصَّغِيرِ الَّذِي لَيْسَ عَلَيْهِ ذَنْبٌ وَلَمْ يَقْتُلْ أَحَدًا؟! وكان الأول من موسى نسياناً، وهذه غير نسيان، ولكن عدم صبر.

﴿٧٥﴾ فقال له الخضرُ معاتباً ومذكراً: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾؟

﴿٧٦﴾ فَ﴿قَالَ﴾ له موسى: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ﴾ بعد هذه المرة؛ ﴿فَلَا تَصَاحِبْنِي﴾؛ أي: فَأَنْتَ مَعْدُورٌ بِذَلِكَ وَبَتَرَكَ صَحْبَتِي، ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾؛ أي: أَعذَرْتَ مِنِّي، وَلَمْ تَقْصُر.

﴿٧٧﴾ ﴿فَانْطَلِقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيْتُمَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعْتُمَا أَهْلَهَا﴾؛ أي: اسْتَطَعْتُمَا أَهْلَهَا فَلَمْ يُضَيِّفُوهُمَا، ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾؛ أي: [قد] عَابَ وَاسْتَهْدَمَ، ﴿فَأَقَامَهُ﴾: الخضرُ؛ أي بناه وأعادَه جديداً، فَ﴿قَالَ﴾ له موسى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾؛ أي: أَهْلُ هَذِهِ الْقَرْيَةِ لَمْ يَضَيِّفُونَا مَعَ وَجُوبِ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وَأَنْتَ تَبْنِيهِ مِنْ دُونِ أَجْرَةٍ، وَأَنْتَ تَقْدِرُ عَلَيْهَا؟!

﴿٧٨﴾ فحينئذٍ لم يفِ موسى عليه السلام بما قال، واستعذر الخضرُ منه، فَ﴿قَالَ﴾ له: ﴿هَذَا فِرَاقٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾: فَإِنَّكَ شَرَطْتَ ذَلِكَ عَلَيَّ نَفْسَكَ، فَلَمْ يَبْقَ الآنَ عَذْرٌ وَلَا مَوْضِعٌ لِلصُّحْبَةِ. ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾؛ أي: سأخبرك بما أنكرت عليَّ وأنبئت بأنَّ لي في ذلك من المآرب وما يؤول إليه الأمر.

﴿٧٩﴾ ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ﴾: التي خرقتها، ﴿فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾: يقتضي ذلك الرِّقَّةَ عليهم والرأفة بهم، ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾؛ أي: كان مرورهم على ذلك الملك الظالم؛ فكلُّ سفينة صالحة

(١) في (ب): «قتله».

تمرُّ عليه ما فيها عيبٌ غَصَبها وأخذها ظلماً، فأردتُ أن أخْرِقها ليكونَ فيها عيبٌ فتسلم من ذلك الظالم.

﴿٨٠﴾ ﴿وأما الغلام﴾: الذي قتلته؛ ﴿فكان أبواه مؤمِنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً﴾: وكان ذلك الغلام قد قُدرَ عليه أنه لو بَلَغَ لأرهِقَ أبويه طغياناً وكفراً؛ أي: لحملهما على الطغيان والكفر: إمَّا لأجل محبَّتِهما إيَّاه، أو للحاجة إليه؛ أو يحملهما<sup>(١)</sup> على ذلك؛ أي: فقتلته؛ لاطِّلاعي على ذلك؛ سلامةً لدين أبويه المؤمنين، وأيُّ فائدة أعظمُ من هذه الفائدة الجليلة؟!

﴿٨١﴾ وهو وإن كان فيه إساءةٌ إليهما وقطعٌ لذريَّتِهما؛ فإنَّ الله تعالى سيعطيهما من الذرِّيَّة ما هو خيرٌ منه، ولهذا قال: ﴿فأرذنا أن يُبدِلَهما ربُّهما خيراً منه زكاةً وأقربَ رُحماً﴾؛ أي: ولدًا صالحًا زكيًّا واصلاً لرحمِهِ؛ فإنَّ الغلام الذي قُتِلَ لو بلغ لَعَقَّهما أشدَّ العقوق بحملهما على الكفر والطغيان.

﴿٨٢﴾ ﴿وأما الجدار﴾: الذي أقمته؛ ﴿فكان لِغلامين يتيمينِ في المدينة وكان تحته كنزٌ لهما وكان أبوهما صالحاً﴾؛ أي: حالهما تقتضي الرأفة بهما ورحمتِهما؛ لكونِهما صغيرين، عدما أباهما، وحفظهما الله أيضاً بصلاح والدهما. ﴿فأراد ربُّك أن يُبَلِّغَا أشدَّهما ويستخرِجا كنزَهُما﴾؛ أي: فلهدا هدمتُ الجدار واستخرجتُ ما تحته من كنزِهما ورددته وأعدته مجاناً؛ ﴿رحمةً من ربِّك﴾؛ أي: هذا الذي فعلته رحمةً من الله آتاه الله عبده الخضر. ﴿وما فعلته عن أمري﴾؛ أي: ما أتيت شيئاً من قبَل نفسي ومجرد إرادتي، وإمَّا ذلك من رحمة الله وأمره. ﴿ذلك﴾: الذي فسرتُه لك ﴿تأويلٌ ما لم تَسْطِعْ عليه صبراً﴾.

وفي هذه القصة العجيبة الجليلة من الفوائد والأحكام والقواعد شيءٌ كثيرٌ ننبه على بعضه بعون الله:

فمنها: فضيلة العلم والرَّحلة في طلبه، وأنه أهمُّ الأمور؛ فإنَّ موسى عليه السلام رحل مسافةً طويلةً، ولقي النَّصَب في طلبه، وترك القعود عند بني إسرائيل لتعليمهم وإرشادهم، واختار السفر لزيادة العلم على ذلك.

ومنها: البداءة بالأهمِّ فالأهمِّ؛ فإنَّ زيادة العلم وعلم الإنسان أهمُّ من تَرْك ذلك والاشتغال بالتعليم من دون تروُّد من العلم، والجمعُ بين الأمرين أكمل.

ومنها: جواز أخذ الخادم في الحضّر والسفر؛ لكفاية المؤمن<sup>(١)</sup> وطلب الراحة؛ كما فعل موسى.

ومنها: أنّ المسافر لطلب علم أو جهادٍ أو نحوه، إذا اقتضت المصلحة الإخبار بمطلبه وأين يريدُه؛ فإنه أكمل من كتّمه؛ فإنّ في إظهاره فوائد من الاستعداد له عدّته وإتيان الأمر على بصيرة وإظهار الشوق لهذه العبادة الجليلة؛ كما قال موسى: ﴿لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حُقباً﴾، وكما أخبر النبي ﷺ أصحابه حين غزا تبوك بوجهه مع أنّ عادته التّورية، وذلك تبع للمصلحة.

ومنها: إضافة الشرّ وأسبابه إلى الشيطان على وجه التسويل والتزيين، وإن كان الكلّ بقضاء الله وقدره؛ لقول فتى موسى: ﴿وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره﴾.

ومنها: جواز إخبار الإنسان عمّا هو من مقتضى طبيعة النفس من نصّب أو جوع أو عطش إذا لم يكن على وجه التسخّط وكان صدقاً؛ لقول موسى: ﴿لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً﴾.

ومنها: استحباب كون خادم الإنسان ذكياً فظناً كيّساً؛ ليتّم له أمره الذي يريد.

ومنها: استحباب إطعام الإنسان خادمه من مأكله وأكلهما جميعاً؛ لأنّ ظاهر قوله: ﴿آتنا غداءنا﴾: إضافة إلى الجميع: أنّه أكل هو وهو جميعاً.

ومنها: أنّ المعونة تنزل على العبد على حسب قيامه بالمأمور به، وأنّ الموافق لأمر الله يُعان ما لا يُعان غيره؛ لقوله: ﴿لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً﴾، والإشارة إلى السفر المجاوز لمجمع البحرين، وأما الأول؛ فلم يشتك منه التعب مع طولِه؛ لأنّه هو السفر على الحقيقة، وأما الأخير؛ فالظاهر أنه بعض يوم؛ لأنهم فقدوا الحوت حين أووا إلى الصخرة؛ فالظاهر أنّهم باتوا عندها، ثم ساروا من الغد، حتى إذا جاء وقت الغداء؛ قال موسى لفتاه: آتنا غداءنا؛ فحينئذٍ تذكّر أنّه نسّيه في الموضوع الذي إليه منتهى قصده.

ومنها: أنّ ذلك العبد الذي لقيه ليس نبياً، بل عبداً صالحاً؛ لأنّه وصفه بالعبودية، وذكر مئة الله عليه بالرحمة والعلم، ولم يذكّر رسالته ولا نبوته، ولو كان نبياً؛ لذكر ذلك كما ذكر غيره. وأما قوله في آخر القصة: ﴿وما فعلته عن أمري﴾؛ فإنه لا يدلّ على أنّه نبيّ، وإنّما يدلّ على الإلهام والتحديث؛ كما يكون

(١) في (ب): «المؤنة».



لغير الأنبياء؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾، ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَىٰ النَّخْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾.

ومنها: أن العلم الذي يَعْلَمُه الله لعباده نوعان: علمٌ مكتسبٌ يدرِكُه العبد بجَدِّه واجتهاده، ونوعٌ: علمٌ لَدُنِّي يهبُه الله لمن يمتنُّ عليه من عباده؛ لقوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾.

ومنها: التأدب مع المعلم وخطاب المتعلم إياه أطف خطاب؛ لقول موسى عليه السلام: ﴿هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾: فأخرج الكلام بصورة الملاطفة والمشاورة، وأنت هل تأذن لي في ذلك أم لا؟ وإقراره بأنه يتعلم منه؛ بخلاف ما عليه أهل الجفاء أو الكبر، الذي لا يُظهِر للمعلم افتقاره إلى علمه، بل يدعي أنه يتعاون هو وإياه، بل ربّما ظنَّ أنه يعلم معلّمه وهو جاهلٌ جدًّا؛ فالذلُّ للمعلم وإظهار الحاجة إلى تعليمه من أنفع شيء للمتعلم.

ومنها: تواضع الفاضل للتعلم ممّن دونه؛ فإن موسى بلا شك أفضل من الخضر.

ومنها: تعلم العالم الفاضل للعلم الذي لم يتمهَر فيه ممّن مهَرَ فيه، وإن كان دونه في العلم بدرجات كثيرة؛ فإن موسى عليه السلام من أولي العزم من المرسلين، الذين منحهم الله وأعطاهم من العلم ما لم يعط سواهم، ولكن في هذا العلم الخاص كان عند الخضر ما ليس عنده؛ فلهذا حرص على التعلم منه؛ فعلى هذا لا ينبغي للفقير المحدث إذا كان قاصراً في علم النحو أو الصرف أو نحوه من العلوم أن لا يتعلمه ممّن مهَرَ فيه، وإن لم يكن محدثاً ولا فقيهاً.

ومنها: إضافة العلم وغيره من الفضائل لله تعالى، والإقرار بذلك، وشكر الله عليها؛ لقوله: ﴿تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ﴾؛ أي: مما علمك الله تعالى.

ومنها: أن العلم النافع هو العلم المرشد إلى الخير، فكلُّ علم يكون فيه رشد وهداية لطريق<sup>(١)</sup> الخير وتحذير عن طريق الشر أو وسيلة لذلك؛ فإنه من العلم النافع، وما سوى ذلك؛ فإما أن يكون ضاراً أو ليس فيه فائدة؛ لقوله: ﴿أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾.

ومنها: أن من ليس له قوّة الصبر على صحبة العالم والعلم وحسن الثبات على

(١) في (ب): «الطرق».

ذلك؛ أنه [يفوته بحسب عدم صبره كثير من] <sup>(١)</sup> العلم؛ فمن لا صبر له؛ لا يدرك العلم، ومن استعمل الصبر ولازمه؛ أدرك به كل أمر سعى فيه؛ لقول الخضر يتعذر من موسى بذكر المانع لموسى من الأخذ عنه: إنه لا يصبر معه.

ومنها: أن السبب الكبير لحصول الصبر إحاطة الإنسان علماً وخبرةً بذلك الأمر الذي أمر بالصبر عليه، وإلاً؛ فالذي لا يدره أو لا يدري غايته ولا نتيجته ولا فائدته وثمرته ليس عنده سبب الصبر؛ لقوله: ﴿وكيف تصبر على ما لم تحط به خبيراً﴾؛ فجعل الموجب لعدم صبره عدم إحاطته خبيراً بالأمر.

ومنها: الأمر بالتأني والتثبت وعدم المبادرة إلى الحكم على الشيء حتى يعرف ما يُراد منه وما هو المقصود.

ومنها: تعليق الأمور المستقبلية التي من أفعال العباد بالمشيئة، وأن لا يقول الإنسان للشيء: إني فاعل ذلك في المستقبل إلا أن يقول إن شاء الله.

ومنها: أن العزم على فعل الشيء ليس بمنزلة فعله؛ فإن موسى قال: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾؛ فوطن نفسه على الصبر ولم يفعل.

ومنها: أن المعلم إذا رأى المصلحة في إيزاعه للمتعلم أن يترك الابتداء في السؤال عن بعض الأشياء حتى يكون المعلم هو الذي يوقفه عليها؛ فإن المصلحة تتبع؛ كما إذا كان فهمه قاصراً، أو نهاه عن الدقيق في سؤال الأشياء التي غيرها أهم منها أو لا يدركها ذهنه، أو يسأل سؤالاً لا يتعلق في موضع البحث.

ومنها: جواز ركوب البحر في غير الحالة التي يخاف منها.

ومنها: أن الناسي غير مؤاخذ بنسيانه؛ لا في حق الله، ولا في حقوق العباد؛ لقوله: ﴿لا تؤاخذني بما نسيت﴾.

ومنها: أنه ينبغي للإنسان أن يأخذ من أخلاق الناس ومعاملاتهم العفو منها وما سمحت به أنفسهم، ولا ينبغي له أن يكلّفهم ما لا يطيقون أو يشقّ عليهم ويرهقهم؛ فإنّ هذا مدعاة إلى النفور منه والسامة، بل يأخذ المتيسر ليتيسر له الأمر.

(١) في (أ): «أنه ليس بأهل لتلقي العلم». ثم عدل عنها الشيخ في هامش (ب) إلى ما أثبت.

ومنها: أن الأمور تجري أحكامها على ظاهرها، وتعلّق بها الأحكام الدنيويّة في الأموال والدماء وغيرها؛ فإنّ موسى عليه السلام أنكر على الخضير خرّقه السفينة وقتل الغلام، وأنّ هذه الأمور ظاهرها أنّها من المنكر، وموسى عليه السلام لا يسعّه السكوت عنها في غير هذه الحال التي صحّب عليها الخضر، فاستعجل عليه السلام، وبادَرَ إلى الحكم في حالتها العامّة، ولم يلتفت إلى هذا العارض الذي يوجب عليه الصبر وعدم المبادرة إلى الإنكار.

ومنها: القاعدة الكبيرة الجليلة، وهو أنّه يُدْفَع الشرُّ الكبير بارتكاب الشرِّ الصغير، ويُراعى أكبر المصلحتين بتفويت أدناهما؛ فإنّ قتل الغلام شرٌّ، ولكنّ بقاءه حتى يفتن أبويه عن دينهما أعظمُ شرّاً منه، وبقاء الغلام من دون قتل وعصمته وإن كان يظنُّ أنّه خيرٌ؛ فالخير ببقاء دين أبويه وإيمانها خيرٌ من ذلك؛ فلذلك قتلُه الخضر. وتحت هذه القاعدة من الفروع والفوائد ما لا يدخل تحت الحصر، فتزاحم المصالح والمفاسد كلّها داخل في هذا.

ومنها: القاعدة الكبيرة أيضاً، وهي أنّ عمل الإنسان في مال غيره إذا كان على وجه المصلحة وإزالة المفسدة أنّه يجوز، ولو بلا إذن، حتى ولو ترتّب على عمله إتلاف بعض مال الغير؛ كما خرّق الخضر السفينة لتعيّب فتسلم من غضب الملك الظالم؛ فعلى هذا: لو وقع حرق أو غرق أو نحوهما في دار إنسان أو ماله، وكان إتلاف بعض المال أو هدم بعض الدار فيه سلامةً للباقي؛ جاز للإنسان، بل شرع له ذلك؛ حفظاً لمال الغير. وكذلك لو أراد ظالم أخذ مال الغير، ودفع إليه إنسان بعض المال افتداءً للباقي؛ جاز، ولو من غير إذن.

ومنها: أن العمل يجوز في البحر كما يجوز في البر؛ لقوله: ﴿يعملون في البحر﴾، ولم ينكر عليهم عملهم.

ومنها: أنّ المسكين قد يكون له مال لا يبلغ كفايته ولا يخرج بذلك عن اسم المسكنة؛ لأنّ الله أخبر أنّ هؤلاء المساكين لهم سفينة.

ومنها: أنّ القتل من أكبر الذنوب؛ لقوله في قتل الغلام: ﴿لقد جئت شيئاً نكراً﴾.

ومنها: أنّ القتل قصاصاً غير مُنكر؛ لقوله: ﴿بغير نفس﴾.

ومنها: أنّ العبد الصالح يحفظه الله في نفسه وفي ذرّيته.

ومنها: أن خدمة الصالحين أو من يتعلّق بهم أفضل من غيرها؛ لأنّه علل

استخراج كنزهما وإقامة جدارهما بأن<sup>(١)</sup> أباهما صالح.

ومنها: استعمال الأدب مع الله تعالى في الألفاظ؛ فإن الخضر أضاف عَيْبَ السفينة إلى نفسه؛ بقوله: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، وأما الخير؛ فأضافه إلى الله تعالى؛ لقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾؛ كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ فَبُهِرَ لِي لَيْلٌ أُفِيئُ فِيهَا نَفْسِي، وَفِيهَا أُعْلِمُ أَنَّ اللَّهَ مُخْرِجُ الْوَيْدِ، وَرَبُّ الْوَعْدِ﴾؛ وقال الجن: ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾؛ مع أن الكل بقضاء الله وقدره.

ومنها: أنه ينبغي للصاحب أن لا يفارق صاحبه في حالة من الأحوال ويترك صحبته حتى يُعْتَبَهُ وَيُعْذِرَ مِنْهُ؛ كما فعل الخضر مع موسى.

ومنها: أن موافقة الصاحب لصاحبه في غير الأمور المحذورة مدعاة وسبب لبقاء الصحة وتأكدها؛ كما أن عدم الموافقة سبب لقطع المرافقة.

[ومنها: أن هذه القضايا التي أجراها الخضر هي قدر محض، أجراها الله وجعلها على يد هذا العبد الصالح ليستدل العباد بذلك على ألطافه في أفضيته، وأنه يقدر على العبد أموراً يكرهها جداً وهي صلاح دينه، كما في قضية الغلام، أو وهي صلاح دنياه كما في قضية السفينة، فأراهم نموذجاً من لطفه وكرمه ليعرفوه، ويرضوا غاية الرضا بأقداره الكريمة].

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٢﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَهَاتَيْنَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَنْجَى سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَرْجُبُ فِي عَيْبٍ حَمِيمٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَبْدَأُ الْفَرْقِينَ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ لِحُسْنِهِ وَنَسْفُولُ لَهُ مِنْ أَمْرًا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾.

﴿٨٣﴾ كان أهل الكتاب أو المشركون سألوا رسول الله ﷺ عن قصة ذي القرنين، فأمره الله أن يقول: ﴿سأتلو عليكم منه ذكراً﴾: فيه نبأ مفيد وخطاب عجيب؛ أي: سأتلو عليكم من أحواله ما يُتَذَكَّرُ فيه ويكون عبرة، وأما ما سوى ذلك من أحواله؛ فلم يتلّه عليهم.

﴿٨٤ - ٨٥﴾ ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: مَلَكَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَمَكَّنَهُ مِنَ النَّفُوذِ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ وَانْقِيَادِهِمْ لَهُ. ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سِبْبًا. فَاتَّبَعَ سِبْبًا﴾؛ أي: أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمَوْصَلَةَ لَهُ لِمَا وَصَلَ إِلَيْهِ مَا بِهِ يَسْتَعِينُ عَلَى قَهْرِ الْبُلْدَانِ وَسَهُولَةِ الْوُصُولِ إِلَى أَقْصَى الْعِمْرَانِ، وَعَمِلَ بِتِلْكَ الْأَسْبَابِ الَّتِي أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهَا؛ أَي: اسْتَعْمَلَهَا عَلَى وَجْهِهَا؛ فَلَيْسَ كُلُّ مَنْ عِنْدَهُ شَيْءٌ مِنَ الْأَسْبَابِ يَسْلُكُهُ، وَلَا كُلُّ أَحَدٍ يَكُونُ قَادِرًا عَلَى السَّبَبِ؛ فَإِذَا اجْتَمَعَ الْقُدْرَةُ عَلَى السَّبَبِ الْحَقِيقِيِّ وَالْعَمَلُ بِهِ؛ حَصَلَ الْمَقْصُودُ، وَإِنْ عُدِمَا أَوْ أَحَدُهُمَا؛ لَمْ يَحْضُرْ، وَهَذِهِ الْأَسْبَابُ الَّتِي أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهَا لَمْ يُخْبِرْنَا اللَّهُ وَلَا رَسُولُهُ بِهَا، وَلَمْ تَتَنَاوَلْهَا الْأَخْبَارُ عَلَى وَجْهِ يَفِيدُ الْعِلْمَ؛ فَلِهَذَا لَا يَسْعُنَا غَيْرَ السَّكُوتِ عَنْهَا وَعَدَمِ الْإِلْتِفَاتِ لِمَا يَذْكُرُهُ النُّقْلَةُ لِلْإِسْرَائِيلِيَّاتِ وَنَحْوِهَا، وَلَكِنَّا نَعْلَمُ بِالْجُمْلَةِ أَنَّهَا أَسْبَابٌ قَوِيَّةٌ كَثِيرَةٌ دَاخِلِيَّةٌ وَخَارِجِيَّةٌ، بِهَا صَارَ لَهُ جَنْدٌ عَظِيمٌ ذُو عَدَدٍ وَعُدَدٍ وَنِظَامٍ، وَبِهِ تَمَكَّنَ مِنْ قَهْرِ الْأَعْدَاءِ وَمِنْ تَسْهِيلِ الْوُصُولِ إِلَى مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا وَأَنْحَائِهَا.

﴿٨٦﴾ فَأَعْطَاهُ اللَّهُ مَا بَلَغَ بِهِ ﴿مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾، حَتَّى رَأَى الشَّمْسَ فِي مَرَأَى الْعَيْنِ كَأَنَّهَا ﴿تَغْرُبُ فِي عَيْنِ حَمِئَةٍ﴾؛ أَي: سُودَاءَ، وَهَذَا الْمَعْتَادُ لِمَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَفْقِ الشَّمْسِ الْغَرْبِيِّ مَاءً؛ رَأَاهَا تَغْرُبُ فِي نَفْسِ الْمَاءِ، وَإِنْ كَانَتْ فِي غَايَةِ الْارْتِفَاعِ. ﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا﴾؛ أَي: عِنْدَ مَغْرِبِهَا ﴿قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾؛ أَي: إِمَّا أَنْ تَعَذِّبَهُمْ بِقَتْلِ أَوْ ضَرْبِ أَوْ أَسْرِ وَنَحْوِهِ، وَإِمَّا أَنْ تُحْسِنَ إِلَيْهِمْ؛ فَخَيَّرَ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ؛ لِأَنَّ الظَّاهِرَ أَنَّهُمْ [إِمَّا] كَفَارًا أَوْ فَسَاقًا أَوْ فِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ غَيْرَ فَسَاقٍ؛ لَمْ يَرْخُصْ لَهُ فِي تَعَذِّبِهِمْ.

﴿٨٧﴾ فَكَانَ عِنْدَ ذِي الْقُرْنَيْنِ مِنَ السِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ مَا اسْتَحَقَّ بِهِ الْمَدْحَ وَالثَّنَاءَ؛ لِتَوْفِيقِ اللَّهِ لَهُ لِذَلِكَ، فَقَالَ: سَأَجْعَلُهُمْ قَسَمِينَ: ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ﴾: بِالْكَفْرِ، ﴿فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا﴾؛ أَي: تَحْصُلُ لَهُ الْعُقُوبَتَانِ؛ عَقُوبَةُ الدُّنْيَا، وَعَقُوبَةُ الْآخِرَةِ.

﴿٨٨﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جِزَاءٌ الْحُسْنَى﴾؛ أَي: فَلَهُ الْجَنَّةُ وَالْحَالَةُ الْحَسَنَةُ عِنْدَ اللَّهِ جِزَاءً يَوْمَ الْقِيَامَةِ. ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾؛ أَي: وَسَنُحْسِنُ إِلَيْهِ وَنُلْطِفُ لَهُ بِالْقَوْلِ وَنَيَسِّرُ لَهُ الْمَعَامَلَةَ. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى كَوْنِهِ مِنَ الْمُلُوكِ الصَّالِحِينَ [و] الْأَوْلِيَاءِ الْعَادِلِينَ الْعَالَمِينَ؛ حَيْثُ وَافَقَ مَرْضَاةَ اللَّهِ فِي مَعَامَلَةِ كُلِّ أَحَدٍ بِمَا يَلِيقُ بِحَالِهِ.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ ٨٩ ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجدهَا تَطَّلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ ٩٠ ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ ٩١ ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ ٩٢ ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ ٩٣ ﴿قَالُوا يَنْذَا لَقرَيْنِ إِنَّا يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ ٩٤ ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ ٩٥ ﴿ءَأَتَوْنِي زَيْرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَأَتَوْنِي أَفْرِغَ عَلَيْهِ قَطْرًا﴾ ٩٦ ﴿فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُمْ نَفْسًا﴾ ٩٧ ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ ٩٨ ﴿.

﴿٨٩﴾ أي: لما وصل إلى مغرب الشمس؛ كَرَّ راجعاً، قاصداً مطلعها، متبعاً للأسباب التي أعطاها الله.

﴿٩٠﴾ فوصل إلى مطلع الشمس ف﴿وجدها تَطَّلُعُ على قوم لم نجعل لهم من دونها سِتْرًا﴾؛ أي: وجدها تَطَّلُعُ على أناس ليس لهم سِتْرٌ من الشمس: إما لعدم استعدادهم في المساكن، وذلك لزيادة همجيتهم وتوحُّشهم وعدم تمدُّنهم، وإما لكون الشمس دائمة عندهم لا تغرب [عنهم] غرباً يُذكر؛ كما يوجد ذلك في شرقي إفريقيا الجنوبي، فوصل إلى موضع انقطع عنه علم أهل الأرض فضلاً عن وصولهم إياه بأبدانهم.

﴿٩١﴾ ومع هذا؛ فكلُّ هذا بتقدير الله له وعلمه به، ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا [بما لديه خبيراً﴾؛ أي: بما عنده من الخير والأسباب العظيمة، وعلمنا معه حيثما توجه وسار.

﴿٩٢ - ٩٣﴾ ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا. حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾: قال المفسرون: ذهب متوجِّهاً من المشرق قاصداً للشمال، فوصل إلى ما بين السَّدَّيْنِ، وهما سَدَّان كانا معروفين في ذلك الزمان، سَدَّان من سلاسل الجبال المتصلة يمنية ويسرة، حتى تتصل بالبحار<sup>(١)</sup>، بين يأجوج ومأجوج وبين الناس، ﴿وجد﴾: من دون السدين ﴿قوماً لا يكادون يفقهون قولاً﴾؛ لعجْمَةِ ألسنتهم واستعجاب أذهانهم وقلوبهم.

﴿٩٤﴾ وقد أعطى الله ذا القرنين من الأسباب العلمية ما فقه به السنة أولئك القوم وفقههم وراجعهم وراجعوه، فاشتكوا إليه ضرر يأجوج ومأجوج، وهما أمتان

(١) في (ب): «وهما سَدَّان كانا سلاسل جبال معروفين في ذلك الزمان».

عظيمتان من بني آدم، فقالوا: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مَفْسُدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾: بالقتل وأخذ الأموال وغير ذلك. ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾؛ أي: جُعلاً؛ ﴿عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾: ودل ذلك على عدم اقتدارهم بأنفسهم على بنيان السد، وعرفوا اقتدار ذي القرنين عليه، فبدلوا له أجره ليفعل ذلك، وذكروا له السبب الداعي، وهو إفسادهم في الأرض.

﴿٩٥﴾ فلم يكن ذو القرنين ذا طمع ولا رغبة في الدنيا ولا تاركاً لإصلاح أحوال الرعية، بل قصده الإصلاح؛ فلذلك أجاب طلبتهم؛ لما فيها من المصلحة، ولم يأخذ منهم أجره، وشكر ربه على تمكينه واقتداره، فقال لهم: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾؛ أي: مما تبذلون لي وتعطوني، وإنما أطلب منكم أن تعينوني بقوة منكم بأيديكم؛ ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾؛ أي: مانعاً من عبورهم عليكم.

﴿٩٦﴾ ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾؛ أي: قطع الحديد، فأعطوه ذلك، ﴿حتى إذا ساوى بين الصدفين﴾؛ أي: الجبلين اللذين بُني بينهما السد، ﴿قال انفخوا﴾: النار؛ أي أوقدوها إيقاداً عظيماً واستعملوا لها المنافيخ لتشتد فتذيب النحاس، فلما ذاب النحاس الذي يريد أن يُلصقه بين زُبُر الحديد، ﴿قال آتوني أفرغ عليه قطراً﴾؛ أي: نحاساً مذاباً، فأفرغ عليه القطر، فاستحکم السد استحكاماً هائلاً، وامتنع به من وراءه من الناس من ضرر يأجوج ومأجوج.

﴿٩٧﴾ ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾؛ أي: فما لهم استطاعة ولا قدرة على الصعود عليه؛ لارتفاعه، ولا على نقيه؛ لإحكامه وقوته.

﴿٩٨﴾ فلما فعلَ هذا الفعل الجميل والأثر الجليل؛ أضاف النعمة إلى موليتها، وقال: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾؛ أي: من فضله وإحسانه عليّ، وهذه حال الخلفاء والصالحين إذا منَّ الله عليهم بالنعم الجليلة؛ ازداد شكرهم وإقرارهم واعترافهم بنعمة الله؛ كما قال سليمان عليه السلام لما حَضَرَ عنده عرش ملكة سبأ مع البعد العظيم؛ قال: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾؛ بخلاف أهل التجبر والتكبر والعلو في الأرض؛ فإنَّ النعم الكبار تزيدهم أشراً وبطراً؛ كما قال قارون لما آتاه الله من الكنوز ما إنَّ مفاتيحه لتنوء بالعضبة أولي القوة؛ قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾. وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾؛ أي: لخروج يأجوج ومأجوج. ﴿جَعَلَهُ﴾؛ أي: ذلك السد المحكم المتقن ﴿دَكَّاءً﴾؛ أي: دكّه فانهدم، واستوى هو والأرض، ﴿وكان وعدُ ربِّي حقًّا﴾.

﴿٩٩﴾ وَرَكَعًا بَعْضُهُمْ يَوْمِيذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَهُمْ جَمَاعًا ﴿٩٩﴾ .

﴿٩٩﴾ يحتمل أن الضمير يعود إلى يأجوج ومأجوج، وأنهم إذا خرجوا على الناس من كثرتهم واستيعابهم للأرض كلها يموج بعضهم ببعض؛ كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾، ويحتمل أن الضمير يعود إلى الخلائق يوم القيامة، وأنهم يجتمعون فيه، فيكثرون، ويموج بعضهم ببعض من الأهوال والزلازل العظام؛ بدليل قوله:

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَهُمْ جَمَاعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنِ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾ .

﴿٩٩﴾ أي: إذا نفخ إسرافيل في الصور؛ أعاد الله الأرواح إلى الأجساد، ثم حَشَرَهُم وجمعهم لموقف القيامة، الأولين منهم والآخرين، والكافرين والمؤمنين؛ لِيَسْأَلُوا، وَيُحَاسِبُوا، وَيُجْزَوْا<sup>(١)</sup> بأعمالهم.

﴿١٠٠﴾ فأما الكافرون على اختلافهم؛ فإنَّ جهنم جزاؤهم خالدين فيها أبدًا، ولهذا قال: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ﴾؛ أي: عُرِضَتْ لهم لتكون مأواهم ومنزلهم، وليتمتعوا بأغلالها وسعيرها وحميمها وزمهريرها، وليذوقوا من العقاب ما تبكم له القلوب، وتصم الآذان.

﴿١٠١﴾ وهذا أثار أعمالهم وجزاء أفعالهم؛ فإنَّهم في الدنيا كانت أعينهم في غطاء عن ذكر الله؛ أي: معرضين عن الذكر الحكيم والقرآن الكريم، وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه، وفي أعينهم أغطية تمنعهم من رؤية آيات الله النافعة؛ كما قال تعالى: ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾. ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾؛ أي: لا يقدرّون على سماع آيات الله، الموصلة إلى الإيمان؛ لبغضهم القرآن والرسول؛ فإنَّ المَبْغُضَ لا يستطيع أن يلقي سمعه إلى كلام من أبغضه؛ فإذا انحجبت عنهم طرق العلم والخير؛ فليس لهم سمع ولا بصر ولا عقل نافع؛ فقد كفروا بالله، وجحدوا آياته، وكذبوا رسله، فاستحقوا جهنم، وساءت مصيرًا.

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَنْجِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾ .

(١) كذا في النسختين وعدلت في (أ) بخط مغاير ويجزوا.



﴿١٠٢﴾ وهذا برهانٌ وبيانٌ لبطلان دعوى المشركين الكافرين، الذين اتَّخذوا بعض الأنبياء والأولياء شركاء لله يعبدونهم، ويزعمون أنهم يكونون لهم أولياء، ينجونهم من عذاب الله، ويُنبِلونهم ثوابه، وهم قد كفروا بالله وبرسوله<sup>(١)</sup>، يقول الله لهم على وجه الاستفهام والإنكار المتقرّر بطلانه في العقول: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾؛ أي: لا يكون ذلك، ولا يوالي وليُّ الله معادياً لله أبداً؛ فإنَّ الأولياء موافقون لله في محبّته ورضاه وسخطه وبغضه، فيكون على هذا المعنى مشابهاً لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَخْشَرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ \* قالوا سبحانك أنت وليُّنا من دونهم﴾؛ فمن زعم أنه يتَّخذ وليَّ الله وليّاً له وهو معادٍ لله؛ فهو كاذبٌ. ويُحتمل - وهو الظاهر - أنَّ المعنى: أفحسب الكفار بالله المنابذون لرسوله أن يتَّخذوا من دون الله أولياء ينصرونهم وينفعونهم من دون الله ويدفعون عنهم الأذى؟ هذا حساباً باطلٌ وظنٌ فاسدٌ؛ فإنَّ جميع المخلوقين ليس بيدهم من النفع والضرّ شيءٌ، ويكون هذا كقوله تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ رَعَيْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾، ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ﴾. ونحو ذلك من الآيات التي يذكُر الله فيها أن المتَّخذ من دونه وليّاً ينصره ويواليه ضالٌّ خائب الرجاء غير نائل لبعض مقصوده. ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ نَزْلًا﴾؛ أي: ضيافة وقرى؛ فبئس الثزل نُزلهم، وبئس جهنم ضيافتهم.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاءُهمْ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ .

﴿١٠٣﴾ أي: قل يا محمد للناس على وجه التحذير والإنذار: هل أخبركم بأخسر الناس ﴿أعمالاً﴾ على الإطلاق؟

﴿١٠٤﴾ ﴿الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا﴾؛ أي: بطل واضمحلَّ كلُّ ما عملوه من عمل، ﴿وهم يحسبون أنهم﴾ محسنون في صنعه؛ فكيف بأعمالهم التي يعلمون أنها باطلةٌ وأنها محاذةٌ لله ورسله ومعاودة؟!

(١) في (ب): «وبرسوله».

﴿١٠٥﴾ فمن هم هؤلاء الذين خسرت أعمالهم فخسروا أنفسهم يوم القيامة وأهلهم يوم القيامة<sup>(١)</sup> ألا ذلك هو الخسران المبين؟ ﴿أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه﴾؛ أي: جحدوا الآيات القرآنيّة والآيات العيانيّة الدالّة على وجوب الإيمان به وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر. ﴿فحِطَّت﴾: بسبب ذلك ﴿أعمالهم﴾ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً: لأنّ الوزن فائدته مقابلة الحسنات بالسيئات والنظر في الراجح منها والمرجوح، وهؤلاء لا حسنات لهم؛ لعدم شرطها، وهو الإيمان؛ كما قال تعالى: ﴿ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً﴾، لكن تعدّ أعمالهم، وتُحصى ويقرّرون بها، ويُخزّون بها على رؤوس الأشهاد ثم يعذبون عليها.

﴿١٠٦﴾ ولهذا قال: ﴿ذلك جزاؤهم﴾؛ أي: حبوط أعمالهم، وأنّه لا يُقام لهم يوم القيامة وزن؛ لحقارتهم وخسّتهم بكفرهم بآيات الله واتخاذهم آياته ورسله هزواً يستهزئون بها ويسخّرون [منها]<sup>(٢)</sup>، مع أنّ الواجب في آيات الله ورسله الإيمان التام بها والتعظيم لها والقيام بها أتمّ القيام، وهؤلاء عكسوا القضيّة، فانعكس أمرهم وتوسعوا وانتكسوا في العذاب.

ولما بيّن مآل الكافرين وأعمالهم؛ بيّن أعمال المؤمنين ومآلهم، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٧٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٧٨﴾﴾.

﴿١٠٧﴾ أي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: بقلوبهم، ﴿وعملوا الصالحات﴾: بجوارحهم، وشمل هذا الوصف جميع الدين؛ عقائده وأعماله، أصوله وفروعه الظاهرة والباطنة؛ فهؤلاء على اختلاف طبقاتهم من الإيمان والعمل الصالح، ﴿لهم﴾ جنات الفردوس: يُحتمل أن المراد بجنات الفردوس أعلى الجنة ووسطها وأفضلها، وأنّ هذا الثواب لمن كَمَّلَ الإيمان والعمل الصالح، وهم الأنبياء والمقربون، ويُحتمل أن يُراد بها جميع منازل الجنان، فيشمل هذا الثواب جميع طبقات أهل الإيمان من المقربين والأبرار والمقتصدين؛ كلٌّ بحسب حاله، وهذا [أولى]<sup>(٣)</sup> المعنيين؛ لعمومه، ولذكر الجنة بلفظ الجمع المضاف إلى الفردوس،

(١) كذا في (أ). وفي (ب): «فخسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة».

(٢) كذا في (ب). وفي (أ): «منهم». (٣) كذا في (ب). وفي (أ): «أول».

وَأَنَّ الْفَرْدوسَ يُطْلَقُ عَلَى الْبِسْتَانِ الْمَحْتَوِي عَلَى الْكُرْمِ أَوْ الْأَشْجَارِ الْمَلْتَفَّةِ، وَهَذَا صَادِقٌ عَلَى جَمِيعِ الْجَنَّةِ؛ فَجَنَّةُ الْفَرْدوسِ نُزِّلَ وَضِيافَةٌ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَأَيُّ ضِيافَةٍ أَجَلٌ وَأَكْبَرُ وَأَعْظَمُ مِنْ هَذِهِ الضِّيافَةِ، الْمَحْتَوِيَةَ عَلَى كُلِّ نَعِيمٍ لِلْقُلُوبِ وَالْأَرْوَاحِ وَالْأَبْدَانِ؟! وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلذُّ الْأَعْيُنُ، مِنَ الْمَنَازِلِ الْأَنْيَقَةِ وَالرِّيَاضِ النَّاصِرَةِ وَالْأَشْجَارِ الْمُثْمِرَةِ وَالطَّيُورِ الْمَغْرُودَةِ الْمَشْجِيَةِ وَالْمَأْكَلِ اللَّذِيذَةِ وَالْمَشَارِبِ الشَّهِيَّةِ وَالنِّسَاءِ الْحَسَنِ وَالْخُدَمِ وَالْوُلْدَانِ وَالْأَنْهَارِ السَّارِحَةِ وَالْمَنَازِلَ الرَّائِقَةَ وَالْجَمَالَ الْحَسِيَّ وَالْمَعْنَوِيَّ وَالنِّعْمَةَ الدَّائِمَةَ، وَأَعْلَى ذَلِكَ وَأَفْضَلُهُ وَأَجْلَهُ التَّنَعُّمُ بِالْقُرْبِ مِنَ الرَّحْمَنِ وَنَيْلُ رِضَاكَ الَّذِي هُوَ أَكْبَرُ نَعِيمِ الْجَنَانِ، وَالتَّمَتُّعُ بِرُؤْيَا وَجْهِهِ الْكَرِيمِ وَسَمَاعِ كَلَامِ الرَّءُوفِ الرَّحِيمِ فَلِلَّهِ تِلْكَ الضِّيافَةُ؛ مَا أَجْلَهَا وَأَجْمَلُهَا وَأَدْوَمُهَا وَأَكْمَلُهَا! وَهِيَ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَحِيطَ بِهَا وَصْفُ أَحَدٍ مِنَ الْخَلَائِقِ، أَوْ تَخْطُرَ عَلَى الْقُلُوبِ؛ فَلَوْ عَلِمَ الْعِبَادُ بَعْضَ ذَلِكَ النَّعِيمِ عِلْمًا حَقِيقِيًّا يَصِلُ إِلَى قُلُوبِهِمْ لَطَارَتْ إِلَيْهَا قُلُوبُهُمْ بِالْأَشْوَاقِ، وَلِتَقَطَّعَتْ أَرْوَاحُهُمْ مِنْ أَلَمِ الْفِرَاقِ، وَلَسَارَوْا إِلَيْهَا زُرْفَاتٍ وَوَحْدَانًا، وَلَمْ يُوْثِرُوا عَلَيْهَا دُنْيَا فَانِيَةً وَلذَاتٍ مَنْغَصَةً مُتَلَاشِيَةً، وَلَمْ يَفُوتُوا أَوْقَاتًا تَذْهَبُ ضَائِعَةً خَاسِرَةً، يُقَابِلُ كُلَّ لِحْظَةٍ مِنْهَا مِنَ النَّعِيمِ مِنَ الْحَقْبِ آلَافٌ مُؤَلَّفَةٌ، وَلَكِنَّ الْغَفْلَةَ شَمَلَتْ، وَالْإِيمَانَ ضَعُفَ، وَالْعِلْمَ قَلَّ، وَالْإِرَادَةَ وَهَتْ<sup>(١)</sup>، فَكَانَ مَا كَانَ؛ فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

﴿١٠٨﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾: هَذَا هُوَ تَمَامُ النَّعِيمِ، أَنَّ فِيهَا النَّعِيمَ الْكَامِلَ، وَمِنْ تَمَامِهِ أَنَّهُ لَا يَنْقَطِعُ، ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوْلًا﴾؛ أَي: تَحْوِيلًا وَلَا انْتِقَالَ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَرُونَ إِلَّا مَا يَعْجِبُهُمْ وَيَبْهَجُهُمْ وَيَسْرُهُمْ وَيَفْرَحُهُمْ، وَلَا يَرُونَ نَعِيمًا فَوْقَ مَا هُمْ فِيهِ.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَنْفَذَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَادًا﴾ (١٠٩).

﴿١٠٩﴾ أَي: قُلْ لَهُمْ مَخْبَرًا عَنِ عِظَمَةِ الْبَارِي وَسِعَةِ صِفَاتِهِ وَأَنَّهَا لَا يَحِيطُ الْعِبَادُ بِشَيْءٍ مِنْهَا: ﴿لَوْ كَانَ الْبَحْرُ﴾؛ أَي: هَذِهِ الْأَبْحَارُ الْمَوْجُودَةُ فِي الْعَالَمِ ﴿مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي﴾؛ أَي: وَأَشْجَارُ الدُّنْيَا مِنْ أَوْلِهَا إِلَى آخِرِهَا مِنْ أَشْجَارِ الْبِلْدَانِ وَالْبَرَارِيِّ وَالْبَحَارِ أَقْلَامٌ، ﴿لَنَفَذَ الْبَحْرُ﴾: وَتَكَسَّرَتِ الْأَقْلَامُ ﴿قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتِ رَبِّي﴾.

(١) فِي (ب): «نَفَذَتْ».

رَبِّي ﴿: وهذا شيء عظيم لا يحيط به أحد، وفي الآية الأخرى: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم﴾: وهذا من باب تقريب المعنى إلى الأذهان؛ لأن هذه الأشياء مخلوقة، وجميع المخلوقات منقضية منتهية، وأما كلام الله؛ فإنه من جملة صفاته، وصفاته غير مخلوقة ولا لها حد ولا منتهى؛ فأى سعة وعظمة تصورتها القلوب؛ فالله فوق ذلك، وهكذا سائر صفات الله تعالى؛ كعلمه وحكمته وقدرته ورحمته؛ فلو جُمع علم الخلائق من الأولين والآخرين أهل السماوات وأهل الأرض؛ لكان بالنسبة إلى علم العظيم أقل من نسبة عصفور وقع على حافة البحر، فأخذ بمنقاره من البحر بالنسبة للبحر وعظمته، ذلك بأن الله له الصفات العظيمة الواسعة الكاملة، وأن إلى ربك المنتهى.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ لَهُدًى ﴿١١٠﴾﴾.

﴿١١٠﴾ أي: قل يا محمد للكفار وغيرهم: ﴿إنما أنا بشر مثلكم﴾؛ أي: لست بإله، ولا لي شركة في الملك، ولا علم بالغيب، ولا عندي خزائن الله، وإنما أنا بشر مثلكم، عبد من عبيد ربي. ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ﴾؛ أي: فضلت عليكم بالوحي الذي يوحيه الله إليّ، الذي أجله الإخبار لكم، ﴿أنما إلهكم إله واحد﴾؛ أي: لا شريك له ولا أحد يستحق من العبادة مثقال ذرة [غيره]، وأدعوكم إلى العمل الذي يقربكم منه ويُنبئكم ثوابه ويدفع عنكم عقابه، ولهذا قال: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾: وهو الموافق لشرع الله من واجب ومستحب، ﴿ولا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾؛ أي: لا يراني بعمله، بل يعمله خالصاً لوجه الله تعالى؛ فهذا الذي جمع بين الإخلاص والمتابعة هو الذي ينال ما يرجو ويطلب، وأما من عدا ذلك؛ فإنه خاسر في دنياه وآخرها، وقد فاتته القرب من مولاه ونيل رضاه.

آخر تفسير سورة الكهف. ولله الحمد.



## تفسير سورة مريم

وهي مدنية<sup>(١)</sup>

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّانِ الرَّحِيمِ

﴿كَهَيِّصَ ١﴾ ذَكَرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدُ زَكَرِيَّا ٢ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ٣ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ٤ ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ٥ ﴿٥﴾ يَرْتَضِي وَيُرِيثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ٦ ﴿٦﴾

﴿٢﴾ أي: هذا ﴿ذَكَرُ رَحْمَةَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيًّا﴾: سننقُصُه عليك، ونفصلُه تفصيلاً يُعرِّفُ به حالة نبيِّه زكريا وأثاره الصالحة ومناقبه الجميلة؛ فإنَّ في قصِّها عبرة للمعتبرين وأسوة للمقتدين، ولأنَّ في تفصيل رحمته لأوليائه وبأبي سبب حصلت لهم مما يدعو إلى محبة الله تعالى والإكثار من ذكره ومعرفته والسبب الموصل إليه، وذلك أنَّ الله تعالى اجتبي واصطفى زكريَّا عليه السلام لرسالته، وخصَّه بوحيه، فقام بذلك قيام أمثاله من المرسلين، ودعا العباد إلى ربه، وعلمهم ما علمه الله، ونصح لهم في حياته وبعد مماته كإخوانه من المرسلين ومن أتبعهم.

﴿٣ - ٤﴾ فلما رأى من نفسه الضعف، وخاف أن يموت، ولم يكن أحدٌ ينوب منابه في دعوة الخلق إلى ربِّهم والنصح لهم، شكا إلى ربه ضعفه الظاهر والباطن، وناداه نداء خفياً؛ ليكون أكمل وأفضل وأتمَّ إخلاصاً، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾؛ أي: وهى وضمَّعتُ، وإذا ضعف العظم الذي هو عماد البدن؛ ضعف غيره. ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾؛ لأنَّ الشيب دليلُ الضعف والكبر ورسولُ الموت ورائدُه ونذيرُه، فتوسَّل إلى الله تعالى بضعفه وعجزه، وهذا من أحبِّ الوسائل إلى الله؛ لأنَّه يدلُّ على التبرُّي من الحول والقوة وتعلُّق القلب بحول الله وقوته. ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾؛ أي: لم تكن يا ربُّ تردُّني خائباً ولا محروماً من الإجابة، بل لم تزل بي حفيًّا ولدعائي مجيباً، ولم تزل الطافُك تتوالى عليَّ وإحسانُك واصلاً

(١) كذا في النسختين، وقد حكى الإجماع على مكيتها ابن الجوزي والقرطبي. انظر كتاب «ابن السعدي مفسراً» (ص ٢٧٥).

إِلَيَّ، وَهَذَا تَوَسَّلَ إِلَى اللَّهِ بِإِنْعَامِهِ عَلَيْهِ وَإِجَابَةِ دَعْوَاتِهِ السَّابِقَةِ، فَسَأَلَ الَّذِي أَحْسَنَ سَابِقًا أَنْ يَتِمَّ إِحْسَانَهُ لَاحِقًا.

﴿٥﴾ ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي﴾؛ أَي: وَإِنِّي خِفْتُ مِنْ يَتَوَلَّى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِي أَنْ لَا يَقُومُوا بِدِينِكَ حَقَّ الْقِيَامِ، وَلَا يَدْعُوا عِبَادَكَ إِلَيْكَ.

وظاهر هذا أنه لم يرَ فيهم أحداً فيه لياقة للإمامة في الدين، وهذا فيه شفقةً زكرياً عليه السلام ونصحه وأن طلبه للولد ليس كطلب غيره؛ قصده مجرد المصلحة الدنيوية، وإنما قصده مصلحة الدين والخوف من ضياعه، ورأى غيره غير صالح لذلك، وكان بيته من البيوت المشهورة في الدين ومعدن الرسالة ومظنة للخير، فدعا الله أن يرزقه ولداً يقوم بالدين من بعده، واشتكى أن امرأته عاقرة؛ أي: ليست تلد أصلاً، وأنه قد بلغ من الكبر عتياً؛ أي: عمراً يندُر معه وجود الشهوة والولد. ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾.

﴿٦﴾ وهذه الولاية ولاية الدين وميراث النبوة والعلم والعمل، ولهذا قال: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾؛ أَي: عَبْدًا صَالِحًا تَرْضَاهُ وَتُحِبُّهُ إِلَى عِبَادِكَ.

والحاصل أنه سأل الله ولداً صالحاً يبقى بعد موته ويكون ولياً من بعده ويكون نبياً مرضياً عند الله وعند خلقه، وهذا أفضل ما يكون من الأولاد، ومن رحمة الله بعبده أن يرزقه ولداً صالحاً جامعاً لمكارم الأخلاق ومحامد الشيم، فرحمه ربه واستجاب دعوته فقال:

﴿يَنزَكِينَا إِنَّا نُنشِرُكَ بِعَلْمِ اسْمِهِ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْئٍ وَقَدْ خَلَقْتَنِي مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ ءَايَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾.

﴿٧﴾ أَي: بَشَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى يَدِ الْمَلَائِكَةِ بِيَحْيَى، وَسَمَّاهُ اللَّهُ لَهُ يَحْيَى، وَكَانَ اسْمًا مُوَافِقًا لِمَسْمَاهُ؛ يَحْيَا حَيَاةً حَسِيَّةً فَتَمُّ بِهِ الْمُنَّةَ، وَيَحْيَا حَيَاةً مَعْنَوِيَّةً، وَهِيَ حَيَاةُ الْقَلْبِ وَالرُّوحِ بِالْوَحْيِ وَالْعِلْمِ وَالدِّينِ. ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾؛ أَي: لَمْ يَسْمُ هَذَا الْاسْمَ قَبْلَهُ أَحَدٌ، وَرُحِمَتْ أَنْ الْمَعْنَى: لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ مِثْلًا

ومسامياً؛ فيكون ذلك بشارةً بكماله وأتصافه بالصفات الحميدة، وأنه فاق من قبله، ولكن على هذا الاحتمال؛ هذا العموم لا بد أن يكون مخصوصاً بإبراهيم وموسى ونوح عليهم السلام ونحوهم ممن هو أفضل من يحيى قطعاً.

﴿٨﴾ فحينئذ لما جاءت البشارة بهذا المولود الذي طلبه؛ استغرب وتعجب وقال: ﴿رَبِّ أُمِّي يَكُونُ لِي غَلامٌ﴾: والحال أن المانع من وجود الولد موجود بي وبزوجتي، وكأنه وقت دعائه لم يستحضر هذا المانع؛ لقوة الوارد في قلبه وشدة الحرص العظيم على الولد، وفي هذه الحال حين قُبِلَتْ دعوته؛ تعجب من ذلك.

﴿٩﴾ فأجابه الله بقوله: ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾؛ أي: الأمر مستغرب في العادة، وفي سنة الله في الخليفة، ولكن قدرة الله تعالى صالحة لإيجاده بدون أسبابها؛ فذلك هيّن عليه، ليس بأصعب من إيجاده قبل، ولم يك شيئاً.

﴿١٠﴾ ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾؛ أي: يطمئن بها قلبي، وليس هذا شكاً في خبر الله، وإنما هو كما قال الخليل عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي؛ فطلب زيادة العلم والوصول إلى عين اليقين بعد علم اليقين، فأجابه الله إلى طلبه رحمةً به. ﴿قَالَ آيَتُكَ أَنْ لَا تَكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا زَمْزَأً﴾، والمعنى واحد؛ لأنه تارة يعبر بالليالي، وتارة بالأيام، ومؤداها واحد، وهذا من الآيات العجيبة؛ فإن منعه من الكلام مدة ثلاثة أيام وعجزه عنه من غير خرس ولا آفة بل كان سويّاً لا نقص فيه من الأدلة على قدرة الله الخارقة للعوائد، ومع هذا ممنوع من الكلام الذي يتعلّق بالآدميين وخطابهم، وأما التسبيح [والتهليل] والذكر ونحوه فغير ممنوع منه، ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾.

﴿١١﴾ فاطمأن قلبه، واستبشر بهذه البشارة العظيمة، وامثل لأمر الله له بالشكر بعبادته وذكوره، فعكف في محرابه، وخرج على قومه منه ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: بالإشارة والرمز، ﴿أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾: لأن البشارة بيحيى في حق الجميع مصلحة دينية.

﴿يَبْعَثُ خِذِّ الْكِتَابِ بِقُوَّةٍ وَمَا يُنْتَهَى الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَرَكُودًا وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾  
وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾.

﴿١٢﴾ دَلَّ الْكَلَامِ السَّابِقِ عَلَى وِلَادَةِ يَحْيَى وَشِبَاهِهِ وَتَرْبِيَّتِهِ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى حَالَةٍ يَفْهَمُ فِيهَا الْخَطَابَ؛ أَمْرَهُ اللَّهُ أَنْ يَأْخُذَ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ؛ أَي: بِجِدِّ وَاجْتِهَادٍ، وَذَلِكَ بِالْاجْتِهَادِ فِي حِفْظِ أَلْفَاظِهِ وَفَهْمِ مَعَانِيهِ وَالْعَمَلِ بِأَوْامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، هَذَا تَمَامُ أَخْذِ الْكِتَابِ بِقُوَّةٍ، فَامْتَثَلَ أَمْرَ رَبِّهِ، وَأَقْبَلَ عَلَى الْكِتَابِ فَحَفِظَهُ وَفَهَمَهُ، وَجَعَلَ اللَّهُ فِيهِ مِنَ الذِّكَاةِ وَالْفِطْنَةِ مَا لَا يَوْجَدُ فِي غَيْرِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَ صَبِيًّا﴾ [أَي: مَعْرِفَةَ أَحْكَامِ اللَّهِ وَالْحِكْمَ بِهَا وَهُوَ فِي حَالِ صِغَرِهِ وَصِبَاهِ].

﴿١٣﴾ وَآتَيْنَاهُ أَيْضاً ﴿حَنَاناً مِنْ لَدُنَّا﴾؛ أَي: رَحْمَةً وَرَأْفَةً تَيْسَّرَتْ بِهَا أُمُورُهُ، وَصَلِحَتْ بِهَا أَحْوَالُهُ، وَاسْتَقَامَتْ بِهَا أَعْمَالُهُ. ﴿وَزَكَاةً﴾؛ أَي: طَهَارَةً مِنَ الْآفَاتِ وَالذُّنُوبِ، فَطَهَّرَ قَلْبَهُ وَتَزَكَّى عَقْلَهُ، وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ زَوَالَ الْأَوْصَافِ الْمَذْمُومَةِ وَالْأَخْلَاقِ الرَّدِيئَةِ وَزِيَادَةَ الْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ وَالْأَوْصَافِ الْمَحْمُودَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾؛ أَي: فَاعِلاً لِلْمَأْمُورِ تَارِكاً لِلْمَحْظُورِ.

﴿١٤﴾ وَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً تَقِيًّا؛ كَانَ لِلَّهِ وَلِيًّا، وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ، وَحَصَلَ لَهُ مِنَ الثَّوَابِ الدُّنْيَوِيِّ وَالْآخِرِيِّ مَا رَبَّهَ اللَّهُ عَلَى التَّقْوَى، وَكَانَ أَيْضاً ﴿بِرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾؛ أَي: لَمْ يَكُنْ عَاقِاً وَلَا مَسِيئاً إِلَى أَبِيهِ، بَلْ كَانَ مُحْسِناً إِلَيْهِمَا بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ. ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَاراً عَصِيًّا﴾؛ أَي: لَمْ يَكُنْ مُتَجَبِّراً مُتَكَبِّراً عَنِ عِبَادَةِ اللَّهِ، وَلَا مُتَرَفِعاً عَلَى عِبَادِ اللَّهِ وَلَا عَلَى وَالِدَيْهِ، بَلْ كَانَ مُتَوَاضِعاً مُتَذَلِّلاً مُطِيعاً أَوْاباً لِلَّهِ عَلَى الدَّوَامِ، فَجَمَعَ بَيْنَ الْقِيَامِ بِحَقِّ اللَّهِ وَحَقِّ خَلْقِهِ.

﴿١٥﴾ وَلِهَذَا حَصَلَتْ لَهُ السَّلَامَةُ مِنَ اللَّهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ؛ مِبَادِئِهَا وَعَوَاقِبِهَا؛ فَلِذَا<sup>(١)</sup> قَالَ: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾: وَذَلِكَ يَقْتَضِي سَلَامَتَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ وَالشَّرِّ وَالْعِقَابِ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ الثَّلَاثَةِ وَمَا بَيْنَهَا، وَأَنَّهُ سَالِمٌ مِنَ النَّارِ وَالْأَهْوَالِ وَمِنْ أَهْلِ دَارِ السَّلَامِ؛ فَصَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى وَالِدِهِ وَعَلَى سَائِرِ الْمُرْسَلِينَ، وَجَعَلْنَا مِنْ أَتْبَاعِهِمْ إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ.

— ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَأَتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنَّيَأُوعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ

(١) في (ب): «فلهذا».



يَمَسِّنِي بَشَرًا وَلَمْ أَكُ بَعِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ ۗ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴿١٦﴾

﴿١٦﴾ لما ذكر قصة زكريا ويحيى، وكانت من الآيات العجيبة؛ انتقل منها إلى ما هو أعجب منها تدريجاً من الأدنى إلى الأعلى، فقال: ﴿وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ﴾: الكريم ﴿مريم﴾: عليها السلام، وهذا من أعظم فضائلها؛ أن تُذكَرَ في الكتاب العظيم الذي يتلوه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها؛ تُذكَرَ فيه بأحسن الذكر وأفضل الثناء؛ جزاءً لعملها الفاضل وسعيها الكامل؛ أي: وأذْكَرُ في الكتاب مريم في حالها الحسنة حين ﴿انبتذت﴾؛ أي: تباعدت عن أهلها ﴿مكاناً شرفياً﴾؛ أي: مما يلي الشرق عنهم.

﴿١٧﴾ ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾؛ أي: سترأً ومانعاً، وهذا التباعد منها واتخاذ الحجاب لتعتزل وتتفرد بعبادة ربها، وتقنت له في حالة الإخلاص والخضوع والذل لله تعالى، وذلك امتثالاً منها لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ. يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾. وقوله: ﴿فَأرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾: وهو جبريل عليه السلام، ﴿فتمثل لها بشراً سوياً﴾؛ أي: كاملاً من الرجال في صورة جميلة وهيئة حسنة لا عيب فيه ولا نقص؛ لكونها لا تحتمل رؤيته على ما هو عليه.

﴿١٨﴾ فلما رآته في هذه الحال، وهي معتزلة عن أهلها، منفردة عن الناس، قد اتَّخَذَتْ الحِجَابَ عن أعزِّ الناس عليها، وهم أهلها؛ خافت أن يكون رجلاً قد تعرَّضَ لها بسوءٍ وطَمِعَ فيها، فاعتصمت برَبِّها واستعاذت منه فقالت له: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ﴾؛ أي: التَّجِيءِ به، واعتصم برحمته أن تنالني بسوءٍ، ﴿إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا﴾؛ أي: إن كنت تخافُ الله وتعمل بتقواه؛ فاترك التعرُّضَ لي؛ فجمعت بين الاعتصام برَبِّها وبين تخويفه وترهيبه وأمره بلزوم التقوى، وهي في تلك الحالة الخالية والشباب والبعد عن الناس، وهو في ذلك الجمال الباهر والبشريَّة الكاملة السويَّة، ولم ينطق لها بسوءٍ أو يتعرَّضَ لها، وإنما ذلك خوف منها، وهذا أبلغ ما يكون من العفة والبعد عن الشرِّ وأسبابه، وهذه العفة خصوصاً مع اجتماع الدواعي، وعدم المانع من أفضل الأعمال، ولذلك أثنى الله عليها، فقال: ﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾، ﴿والتي أحصنت فرجها فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَإِنبَاءَ آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾؛ فأعاضها الله بعفتها ولدأ من آيات الله، ورسولاً من رسله.

﴿١٩﴾ فلما رأى جبريل منها الرُّوع والخيفة؛ قال: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾؛

أي: إنما وظيفتي وشغلي تنفيذُ رسالة ربي فيك، ﴿لَأَهَبَ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا﴾: وهذه بشارةٌ عظيمةٌ بالولد وزكائه؛ فإنَّ الزكاء يستلزم تطهيره من الخصال الذميمة واتصافه بالخصال الحميدة.

﴿٢٠﴾ فتعجبت من وجود الولد من غير أب، فقالت: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾: والولد لا يوجد إلا بذلك.

﴿٢١﴾ ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلِيُّ هَيْئًا وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾: تدلُّ على كمال قدرة الله تعالى وعلى أنَّ الأسباب جميعها لا تستقلُّ بالتأثير، وإنما تأثيرها بتقدير الله، فيُري عباده خرق العوائد في بعض الأسباب العادية؛ لئلا يقفوا مع الأسباب، ويقطعوا النظر عن مقدِّرها ومسبِّبها. ﴿ورحمة مئًا﴾؛ [أي]: ولنجعله رحمة مئًا به وبوالدته وبالناس: أما رحمة الله به؛ فليما خصَّه الله بوحيه، ومنَّ عليه بما منَّ به على أولي العزم. وأما رحمته بوالدته؛ فليما حصل لها من الفخر والشناء الحسن والمنافع العظيمة. وأما رحمته بالناس؛ فإنَّ أكبر نعمه عليهم أن بعث فيهم رسولا، يتلو عليهم آياته، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة فيؤمنون به، ويطيعونه، وتحصل لهم سعادة الدنيا والآخرة. ﴿وكان﴾؛ أي: وجود عيسى عليه السلام على هذه الحالة ﴿أمراً مقضياً﴾: قضاء سابقاً؛ فلا بدَّ من نفوذ هذا التقدير والقضاء، فنفع جبريل عليه السلام في جيبها.

﴿٢٢﴾ ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَّتْ بِهِ مَكَانًا قَاصِيًا ۖ ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا ۖ ﴿٢٣﴾ فَانْدَبَهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۖ ﴿٢٤﴾ وَهَزَيْتِ إِلَيْكَ يَجْعَلَ النَّخْلَةَ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا حَنِينًا ۖ ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرِينَنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ۖ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿٢٢﴾ أي: لما حملت بعيسى عليه السلام؛ خافت من الفضيحة، فتباعدت عن الناس مكاناً قاصياً.

﴿٢٣﴾ فلما قرَّب ولادها؛ ألبأها المخاض إلى جذع نخلة، فلما ألمها وجع الولادة، ووجع الانفراد عن الطعام والشراب، ووجع قلبها من قالة الناس، وخافت عدم صبرها؛ تمتت أنها ماتت قبل هذا الحادث وكانت نسياً منسياً؛ فلا تُذكر، وهذا التمني بناءً على ذلك المزعج، وليس في هذه الأمنية خير لها ولا مصلحة، وإنما الخير والمصلحة بتقدير ما حصل.

﴿٢٤﴾ فحِينتِذِ سَكَّنَ الْمَلِكُ رَوْعَهَا، وَثَبَّتْ جَاشِهَا، وَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا؛ لَعَلَّهُ مِنْ (١) مَكَانٍ أَنْزَلَ مِنْ مَكَانِهَا، وَقَالَ لَهَا: لَا تَخْزِنِي؛ أَي: لَا تَجْزَعِي وَلَا تَهْتَمِي؛ فَ قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتِكَ سَرِيًّا؛ أَي: نَهْرًا تَشْرِبِينَ مِنْهُ.

﴿٢٥﴾ ﴿وَهَزِّي إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا﴾؛ أَي: طَرِيًّا لَذِيذًا نَافِعًا.

﴿٢٦﴾ ﴿فَكَلِمِي﴾: مِنَ التَّمْرِ، ﴿وَاشْرِبِي﴾: مِنَ النَّهْرِ، ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾: بِعَيْسَى؛ فَهَذَا طَمَأْنِينَتُهَا مِنْ جِهَةِ السَّلَامَةِ مِنَ أَلْمِ الْوَلَادَةِ وَحُصُولِ الْمَأْكَلِ وَالْمَشْرَبِ الْهَنِيِّ، وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ قَالَةِ النَّاسِ؛ فَأَمَرَهَا أَنَّهَا إِذَا رَأَتْ أَحَدًا مِنَ الْبَشَرِ أَنْ تَقُولَ عَلَى وَجْهِ الْإِشَارَةِ: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾؛ أَي: سَكُوتًا، ﴿فَلَنْ أَكُلَمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾؛ أَي: لَا تَخَاطِبِيهِمْ بِكَلَامٍ لِتَسْتَرِيحِي مِنْ قَوْلِهِمْ وَكَلَامِهِمْ، وَكَانَ مَعْرُوفًا عِنْدَهُمْ أَنَّ السَّكُوتَ مِنَ الْعِبَادَاتِ الْمَشْرُوعَةِ. وَإِنَّمَا لَمْ تُؤَمَّرْ بِمَخَاطَبَتِهِمْ (٢) فِي نَفْيِ ذَلِكَ عَنْ نَفْسِهَا، لِأَنَّ النَّاسَ لَا يَصَدَّقُونَهَا، وَلَا فِيهِ فَائِدَةٌ، وَلِيَكُونَ تَبَرُّثُهَا بِكَلَامِ عَيْسَى فِي الْمَهْدِ أَعْظَمَ شَاهِدٍ عَلَى بَرَاءَتِهَا؛ فَإِنَّ إِتْيَانَ الْمَرْأَةِ بِوَلَدٍ مِنْ دُونِ زَوْجٍ وَدَعْوَاهَا أَنَّهُ مِنْ غَيْرِ أَحَدٍ مِنْ أَكْبَرِ الدَّعَاوَى الَّتِي لَوْ أَقِيمَ عِدَّةٌ مِنَ الشُّهُودِ لَمْ تَصَدَّقْ بِذَلِكَ، فَجُعِلَتْ بَيِّنَةٌ هَذَا الْخَارِقِ لِلْعَادَةِ أَمْرًا مِنْ جِنْسِهِ، وَهُوَ كَلَامُ عَيْسَى فِي حَالِ صِغَرِهِ جَدًّا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَمْرَيْمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَتَّخَذَتِ هُنُورًا مَا كَانَ أَبُوكِ أَمْرًا سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمَّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ .

﴿٢٧﴾ أَي: فَلَمَّا تَعَلَّتْ مَرِيْمٌ مِنْ نَفَاسِهَا؛ أَتَتْ بِعَيْسَى قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ، وَذَلِكَ لِعِلْمِهَا بِبَرَاءَةِ نَفْسِهَا وَطَهَارَتِهَا، فَأَتَتْ غَيْرَ مَبَالِيَةٍ وَلَا مَكْتَرِثَةٍ، فَقَالُوا: ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾؛ أَي: عَظِيمًا وَخِيْمًا، وَأَرَادُوا بِذَلِكَ الْبَغْيَ حَاشَاهَا مِنْ ذَلِكَ.

﴿٢٨﴾ ﴿يَا أُخْتُ هَارُونَ﴾: الظاهر أنه أخ لها حقيقي فنسبها إليه، [وكانوا

(٢) في (ب): «بخطابهم».

(١) في (ب): «في».

يسمون بأسماء الأنبياء، وليس هو هارون بن عمران أخا موسى، لأن بينهما قروناً كثيرة]، ﴿ما كان أبوك امرأ سوءٍ وما كانت أمك بغياً﴾؛ أي؛ لم يكن أبواك إلا صالحين سالمين من الشرِّ، وخصوصاً هذا الشرُّ الذي يشيرون إليه، وقصدُهم: فكيف كنتِ على غير وصفهما وأتيتِ بما لم يأتيا به؟! وذلك أن الذرِّية في الغالب بعضها من بعض في الصلاح وضده، فتعجبوا بحسب ما قام بقلوبهم؛ كيف وقع منها؟!

﴿٢٩﴾ ﴿فأشارت﴾ لهم ﴿إليه﴾؛ أي: كلّموه، وإنّما أشارت لذلك لأنّها أمرت عند مخاطبة الناس لها أن تقول: ﴿إنّي نذرتُ للرحمن صوماً فلن أكلمَ اليوم إنسياً﴾، فلما أشارت إليهم بتكليمه؛ تعجبوا من ذلك، وقالوا: ﴿كيف نكلّم من كان في المهدِ صبياً﴾؛ لأنّ ذلك لم تجرِ به عادةٌ ولا حصل من أحدٍ في ذلك السنّ.

﴿٣٠﴾ فحينئذٍ قال عيسى عليه السلام وهو في المهدِ صبياً: ﴿إنّي عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾: فخاطبهم بوصفه بالعبودية، وأنه ليس فيه صفة يستحقُّ بها أن يكون إلهاً أو ابناً للإله، تعالى الله عن قول النصارى المخالفين لعيسى في قوله: ﴿إنّي عبد الله﴾، ومدّعون موافقته، ﴿أتاني الكتاب﴾؛ أي: قضى أن يؤتيني الكتاب، ﴿وجعلني نبياً﴾: فأخبرهم بأنّه عبدُ الله، وأنّ الله علّمه الكتاب وجعله من جملة أنبيائه؛ فهذا من كماله لنفسه.

﴿٣١﴾ ثم ذكر تكميله لغيره، فقال: ﴿وجعلني مباركاً أينما كنت﴾؛ أي: في أيّ مكانٍ وأيّ زمانٍ؛ فالبركة جعلها الله في من تعليم الخير والدعوة إليه والنهي عن الشرِّ والدعوة إلى الله في أقواله وأفعاله؛ فكلُّ من جالسه أو اجتمع به؛ نالته بركته وسعد به مصاحبه. ﴿وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً﴾؛ أي: أوصاني بالقيام بحقوقه التي من أعظمها الصلاة، وحقوق عبادته التي أجلها الزكاة؛ مدّة حياتي؛ أي: فأنا ممثلٌ لوصية ربّي، عاملٌ عليها، منفذٌ لها.

﴿٣٢﴾ وأوصاني أيضاً أن أبرّ والدتي فأحسنَ إليها غاية الإحسان، وأقوم بما ينبغي لها؛ لشرفها وفضلها، ولكونها والدّة لها حقُّ الولادة وتوابعها. ﴿ولم يجعلني جباراً﴾؛ أي: متكبراً على الله مترفعاً على عباده، ﴿شقيّاً﴾: في دنيائي وأخراي، فلم يجعلني كذلك، بل جعلني مطيعاً له خاضعاً خاشعاً متذللاً متواضعاً لعباد الله سعيداً في الدنيا والآخرة أنا ومن اتّبعتني.

﴿٣٣﴾ فلما تمَّ له الكمال ومحامد الخصال؛ قال: ﴿وسلامٌ عليَّ يومَ ولدتُ ويومِ أموتُ ويومَ أبعثُ حيًّا﴾؛ أي: من فضل ربي وكرمه حصلت لي السلامة يوم ولادتي ويوم موتي ويوم بعثي من الشَّرِّ والشیطان والعقوبة، وذلك يقتضي سلامته من الأهوال ودار الفجَّار، وأنَّه من أهل دار السلام؛ فهذه معجزةٌ عظيمة وبرهانٌ باهرٌ على أنَّه رسول الله وعبدُ الله حقًّا.

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿٣٤ - ٣٥﴾ أي: ذلك الموصوف بتلك الصفات عيسى ابن مريم من غير شك ولا مِرية، بل ﴿قول الحق﴾ وكلام الله الذي لا أصدق منه قيلًا ولا أحسن منه حديثًا؛ فهذا الخبر اليقيني عن عيسى عليه السلام، وما قيل فيه ممَّا يخالفُ هذا؛ فإنَّه مقطوعٌ ببطلانه، وغايته أن يكون شكًّا من قائله لا علم له به، ولهذا قال: ﴿الذي فيه يمترون﴾؛ أي: يشكون فيمارون بشكهم ويجادلون بخزصهم؛ فمن قائل عنه: إنَّه الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة، تعالى الله عن إفكهم وتقولهم علواً كبيراً؛ ف﴿ما كان لله أن يتخذ من ولد﴾؛ أي: ما ينبغي ولا يليق؛ لأنَّ ذلك من الأمور المستحيلة؛ لأنَّه الغنيُّ الحميد المالك لجميع الممالك؛ فكيف يتخذ من عباده ومماليكه ولداً. ﴿سبحانه﴾؛ أي: تنزهه وتقدِّسه عن الولد والنقص، ﴿إذا قضى أمراً﴾؛ أي: من الأمور الصغار والكبار؛ لم يمتنع عليه ولم يستصعب، ﴿فإنما يقول له كن فيكون﴾؛ فإذا كان قدره ومشيئته نافذاً في العالم العلوي والسفلي، فكيف يكون له ولد؟! وإذا كان، إذا أراد شيئاً؛ قال له: كن فيكون؛ فكيف يُستبعدُ إيجاده عيسى من غير أب؟!.

﴿٣٦﴾ ولهذا أخبر عيسى أنَّه عبدٌ مريبوب كغيره، فقال: ﴿وإنَّ الله ربِّي ورُبُّكم﴾: الذي خلقنا وصوّرنا ونفدَّ فينا تديبره وصرَّفنا تقديره. ﴿فاعبدوه﴾؛ أي: أخلصوا له العبادة واجتهدوا في الإنابة. وفي هذا الإقرار بتوحيد الربوبية وتوحيد الإلهية والاستدلال بالأول على الثاني، ولهذا قال: ﴿هذا صراط مستقيم﴾؛ أي: طريق معتدلٌ موصلٌ إلى الله؛ لكونه طريق الرسل وأتباعهم، وما عدا هذا؛ فإنَّه من طرق الغي والضلال.

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ .

﴿٣٧﴾ لما بيّن تعالى حال عيسى ابن مريم الذي لا يُشكُّ فيها ولا يُمتري؛ أخبر أنّ الأحزاب؛ أي: فرق الضلال من اليهود والنصارى وغيرهم على اختلاف طبقاتهم اختلفوا في عيسى عليه السلام؛ فمن غالٍ فيه وجاف؛ فمنهم من قال: إنه الله! ومنهم من قال: إنه ابن الله! ومنهم من قال: إنه ثالث ثلاثة! ومنهم من لم يجعله رسولا، بل رماه بأنه ولد بغوي كاليهود! وكل هؤلاء أقوالهم باطلة، وآراؤهم فاسدة مبنية على الشك والعناد والأدلة الفاسدة والشبه الكاسدة، وكل هؤلاء مستحقون للوعيد الشديد، ولهذا قال: ﴿فويلٌ للذين كفروا﴾: بالله ورسله وكتبه، ويدخل فيهم اليهود والنصارى، القائلون بعيسى قول الكفر، ﴿من مشهدٍ يومٍ عظيمٍ﴾؛ أي: مشهد يوم القيامة، الذي يشهده الأولون والآخرون، أهل السماوات وأهل الأرض، الخالق والمخلوق، الممتلىء بالزلازل والأهوال، المشتمل على الجزاء بالأعمال؛ فحيثئذ يتبين ما كانوا يخفون، ويبدون، وما كانوا يكتُمون.

﴿٣٨﴾ ﴿أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا﴾؛ أي: ما أسمعهم وما أبصرهم في ذلك اليوم، فيقرّون بكفرهم وشركهم وأقوالهم، ويقولون: ﴿ربّنا أبصرنا وسمِعنا فازجِعنا نعمل صالحاً إنا موقنون﴾: ففي القيامة يستيقنون حقيقة ما هم عليه. ﴿لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين﴾: وليس لهم عذر في هذا الضلال؛ لأنهم بين معاند ضال على بصيرة عارف بالحق صادف عنه، وبين ضال عن طريق الحق، متمكّن من معرفة الحق والصواب، ولكنّه راضٍ بضلاله، وما هو عليه من سوء أعماله، غير ساعٍ في معرفة الحق من الباطل.

وتأمّل كيف قال: ﴿فويلٌ للذين كفروا﴾؛ بعد قوله: ﴿فاختلف الأحزاب من بينهم﴾، ولم يقل: فويلٌ لهم؛ ليعود الضمير إلى الأحزاب؛ لأنّ من الأحزاب المختلفين طائفة [أصابت] ووافقت الحقّ فقالت في عيسى: إنه عبد الله ورسوله، فأمنوا به واتبعوه؛ فهؤلاء مؤمنون غير داخلين في هذا الوعيد؛ فلهذا خصّ الله بالوعيد الكافرين.

﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ .

﴿٣٩ - ٤٠﴾ الإنذار: هو الإعلام بالمخوف على وجه الترهيب والإخبار بصفاته، وأحق ما يُنذر به ويخوف به العباد يوم الحسرة حين يُقضى الأمر، فيُجمع الأولون والآخرون في موقفٍ واحدٍ، ويُسألون عن أعمالهم؛ فمن آمن بالله وأتبع رسله؛ سَعِدَ سعادةً لا يشقى بعدها، ومَن لم يؤمن بالله ويتَّبِع رسله؛ شقي شقاوةً لا يسعدُ<sup>(١)</sup> بعدها، وخَسِرَ نفسه وأهله؛ فحينئذٍ يتحسّر ويندم ندامةً تنقطع<sup>(٢)</sup> منها القلوب، وتتصدّع منها الأفتدة، وأيُّ حسرة أعظم من فوات رضا الله وجنته واستحقاق سخطه والنار على وجه لا يَتَمَكَّنُ من الرجوع لِيَسْتَأْنِفَ العمل، ولا سبيل له إلى تغيير حاله بالعود إلى الدنيا؟! فهذا قَدَامهم، والحال أَنهم في الدنيا في غفلة عن هذا الأمر العظيم؛ لا يخطر بقلوبهم، ولو خطر؛ فعلى سبيل الغفلة، قد عمَّتهم الغفلة، وشملتهم السكره؛ فهم لا يؤمنون بالله، ولا يتبعون رسله، قد ألهمتهم دنياهم، وحالت بينهم وبين الإيمان شهواتهم المنقضية الفانية؛ فالدنيا وما فيها من أولها إلى آخرها ستذهب عن أهلها ويذهبون عنها، وسيرث الله الأرض ومَن عليها، ويرجعهم إليه، فيجازيهم بما عملوا فيها، وما خسروا فيها أو ربحوا؛ فمن عمل خيراً؛ فليحمد الله، ومن وجدَ غير ذلك؛ فلا يلومنَّ إلا نفسه.

﴿وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ بِرَبِّهِمْ إِنَّهُمْ كَانَ صِدِيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَا بَرِّهِمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ لِأَرْحَمِنَا وَأَهْجُرِنَا مِثْلًا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُمْ كَانُوا فِي حَقِيئًا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَرَلَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيئًا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا أَعْتَرَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيمًا ﴿٥٥﴾﴾

أجلُ الكتب وأفضلها وأعلاها هذا الكتاب المبين والذكر الحكيم؛ فإن ذكّر فيه الأخبار؛ كانت أصدق الأخبار وأحقها وأنفعها، وإن ذكّر فيه الأمر والنهي؛ كانت أجل الأوامر والنواهي وأعدلها وأقسطها، وإن ذكّر فيه الجزاء والوعد والوعيد؛ كان

(١) في (ب): «لا سعادة».

(٢) في (ب): «تنقطع».

أصدق الأنبياء وأحقها وأدلتها على الحكمة والعدل والفضل، وإن ذكّر فيه الأنبياء والمرسلون؛ كان المذكور فيه أكمل من غيره وأفضل، ولهذا كثيراً ما يُبدى ويعيد في قصص الأنبياء الذين فضلهم على غيرهم، ورفّع قدرهم وأعلى أمرهم بسبب ما قاموا به من عبادة الله ومحبتة والإجابة إليه والقيام بحقوقه وحقوق العباد ودعوة الخلق إلى الله والصبر على ذلك والمقامات الفاخرة والمنازل العالية، فذكر الله في هذه السورة جملة من الأنبياء؛ يأمر الله رسوله أن يذكرهم؛ لأن في ذكرهم إظهار الشناء على الله وعليهم، وبيان فضله وإحسانه إليهم، وفيه الحث على الإيمان بهم ومحبتهم والافتداء بهم فقال:

﴿٤١﴾ ﴿وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾: جمع الله له بين الصديقيّة والنبوة؛ فالصديق كثير الصدق؛ فهو الصادق في أقواله وأفعاله وأحواله، المصدق بكل ما أمر بالتصديق به، وذلك يستلزم العلم العظيم، الواصل إلى القلب، المؤثر فيه، الموجب لليقين، والعمل الصالح الكامل، وإبراهيم عليه السلام هو أفضل الأنبياء كلهم بعد محمد ﷺ، وهو الأب الثالث للطوائف الفاضلة، وهو الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب، وهو الذي دعا الخلق إلى الله، وصبر على ما ناله من العذاب العظيم، فدعا القريب والبعيد، واجتهد في دعوة أبيه مهما أمكنه.

﴿٤٢﴾ وذكر الله مراجعته إياه فقال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾: مهجناً له عبادة الأوثان: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾؛ أي: لم تعبد أصناماً ناقصة في ذاتها وفي أفعالها؛ فلا تسمع، ولا تبصر، ولا تملك لعابدها نفعا ولا ضرا، بل لا تملك لأنفسها شيئاً من النفع، ولا تقدر على شيء من الدفع؟! فهذا برهانٌ جليّ دالٌّ على أن عبادة الناقص في ذاته وأفعاله مستقبح عقلاً وشرعاً، ودلٌّ تنبيهه وإشارته أن الذي يجب ويحسن عبادة من له الكمال، الذي لا ينال العباد نعمة إلا منه، ولا يدفع عنهم نقمة إلا هو، وهو الله تعالى.

﴿٤٣﴾ ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾؛ أي: يا أبت لا تخفزي وتقول: إنني ابنتك، وإن عندك ما ليس عندي، بل قد أعطاني الله من العلم ما لم يُعطك، والمقصود من هذا قوله: ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكُ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾؛ أي: مستقيماً معتدلاً، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وطاعته في جميع الأحوال.

وفي هذا من لطف الخطاب ولينه ما لا يخفى، فإنه لم يقل: يا أبت أنا عالم وأنت جاهل، أو: ليس عندك من العلم شيء، وإنما أتى بصيغة [تقتضي] أن عندني



وعندك علماً، وأن الذي وصل إلي لم يصل إليك ولم يأتك؛ فينبغي لك أن تتبّع الحجة وتتقاد لها.

﴿٤٤﴾ ﴿يا أبت لا تعبد الشيطان﴾: لأن من عبَد غير الله؛ فقد عبد الشيطان؛ كما قال تعالى: ﴿ألم أعهَد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾. ﴿إن الشيطان كان للرحمن عَصِيًّا﴾: فمن أتبع خطواته؛ فقد اتَّخذه ولياً، وكان عاصياً لله بمنزلة الشيطان. وفي ذكر إضافة العصيان إلى اسم الرحمن إشارة إلى أن المعاصي تمنع العبد من رحمة الله وتُغلقُ عليه أبوابها؛ كما أن الطاعة أكبر الأسباب لنيل رحمته.

﴿٤٥﴾ ولهذا قال: ﴿يا أبت إنني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن﴾؛ أي: بسبب إصرارك على الكفر، وتماديك في الطغيان، ﴿فتكون للشيطان ولياً﴾؛ أي: في الدنيا والآخرة، فتنزّل بمنزلة الذميمة، وترتع في مراتعه الوخيمة، فتدرج الخليل عليه السلام بدعوة أبيه بالأسهل فالأسهل، فأخبره بعلمه، وأن ذلك موجب لاتباعك إياي، وأنت إن أطعني؛ اهتديت إلى صراط مستقيم. ثم نهاه عن عبادة الشيطان، وأخبره بما فيها من المضار. ثم حذره عقاب الله ونقمته إن أقام على حاله، وأنه يكون ولياً للشيطان.

﴿٤٦﴾ فلم ينجح هذا الدعاء بذلك الشقي، وأجاب بجواب جاهل وقال: ﴿أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم﴾: فتبجح بآلهته التي هي من الحجر والأصنام، ولأم إبراهيم عن رغبتة عنها، وهذا من الجهل المفرط والكفر الوخيم؛ يتمدح بعبادة الأوثان ويدعو إليها. ﴿لئن لم تنته﴾؛ أي: عن شتم آلهتي ودعوتي إلى عبادة الله، ﴿لأرجمك﴾؛ أي: قتلاً بالحجارة، ﴿واهجرني ملياً﴾؛ أي: لا تكلمني زماناً طويلاً.

﴿٤٧﴾ فأجابه الخليل جواب عباد الرحمن عند خطاب الجاهلين، ولم يشتمه، بل صبر، ولم يقابل أباه بما يكره، وقال: ﴿سلام عليك﴾؛ أي: ستسلم من خطابي إياك بالشم والسب وبما تكره، ﴿سأستغفر لك ربّي إنّه كان بي حفيّاً﴾؛ أي: لا أزال أدعو الله لك بالهداية والمغفرة بأن يهديك للإسلام الذي به تحصل المغفرة؛ فإنه كان بي حفيّاً؛ أي: رحيماً رءوفاً بحالي معتنياً بي، فلم يزل يستغفر الله له رجاء أن يهديه الله، فلما تبين له أنه عدو لله، وأنه لا يفيد فيه شيئاً؛ ترك الاستغفار له وتبرأ منه.

وقد أمرنا الله بالتباعد ملة إبراهيم؛ فمن أتباع ملته سلوك طريقه في الدعوة إلى الله بطريق العلم والحكمة واللين والسهولة والانتقال من رتبة إلى رتبة<sup>(١)</sup>، والصبر على ذلك، وعدم السامة منه، والصبر على ما ينال الداعي من أذى الخلق بالقول والفعل، ومقابلة ذلك بالصفح والعفو، بل بالإحسان القول والفعل.

﴿٤٨﴾ فلما أيس من قومه وأبيه؛ قال: ﴿واعتزلكم وما تدعون من دون الله﴾؛ أي: أنتم وأصنامكم، ﴿وأدعو ربي﴾: وهذا شاملٌ لدعاء العبادة ودعاء المسألة، ﴿عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقيًا﴾؛ أي: عسى الله أن يسعدني بإجابة دعائي وقبول أعمالي، وهذه وظيفة من أيس ممن دعاهم - فاتبعوا أهواءهم، فلم تنجح فيهم المواعظ، فأصروا في طغيانهم يعمهون - أن يشتغل بإصلاح نفسه، ويرجو القبول من ربه، ويعتزل الشر وأهله.

﴿٤٩﴾ ولما كان مفارقة الإنسان لوطنه ومألفه وأهله وقومه من أشق شيء على النفس لأمر كثيرة معروفة، ومنها انفراؤه عن من يعتز به ويتكثر، وكان من ترك شيئاً لله؛ عوضه الله خيراً منه، واعتزل إبراهيم قومه؛ قال الله في حقه: ﴿فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلاً﴾: من إسحاق ويعقوب، ﴿جعلنا نبياً﴾: فحصل له وهؤلاء الصالحين<sup>(٢)</sup> المرسلين إلى الناس، الذين خصهم الله بوحيه، واختارهم لرسالته، واصطفاهم من العالمين.

﴿٥٠﴾ ﴿وهبنا لهم﴾؛ أي: لإبراهيم وابنيه إسحاق ويعقوب، ﴿من رحمنا﴾: وهذا يشمل جميع ما وهب الله لهم من الرحمة من العلوم النافعة والأعمال الصالحة والدورية الكثيرة المنتشرة، الذين قد كثر فيهم الأنبياء والصالحون، ﴿وجعلنا لهم لساناً صدقاً علينا﴾: وهذا أيضاً من الرحمة التي وهبها لهم؛ لأن الله وعد كل محسن أن ينشر له ثناء صادقاً بحسب إحسانه، وهؤلاء من أئمة المحسنين، فنشر الله الثناء الحسن الصادق غير الكاذب العالي غير الخفي، فذكرهم ملاء الخافقين، والثناء عليهم ومحبتهم امتلأت بها القلوب وفاضت بها الألسنة، فصار قدوة للمقتدين وأئمة للمهتدين، ولا تزال أذكأرهم في سائر العصور متجددة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

(١) في (ب): «من مرتبة إلى مرتبة».

(٢) في (ب): «فحصل له هبة هؤلاء الصالحين».

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَادَيْتُهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْتُهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ .

﴿٥١﴾ أي: واذكر في هذا القرآن العظيم موسى بن عمران على وجه التبجيل له والتعظيم والتعريف بمقامه الكريم وأخلاقه الكاملة. ﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾: قُرىء بفتح اللام على معنى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى اخْتَارَهُ، واستخلصه، واصطفاه على العالمين، وقُرىء بكسرها على معنى أَنَّهُ ﴿مُخْلَصًا﴾ لِلَّهِ تَعَالَى فِي جَمِيعِ أَعْمَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَنِيَّاتِهِ، فَوْصَفُهُ الْإِخْلَاصَ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ، وَالْمَعْنِيَانِ مُتَلَازِمَانِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ أَخْلَصَهُ لِإِخْلَاصِهِ، وَإِخْلَاصُهُ مُوجِبٌ لِاسْتِخْلَاصِهِ، وَأَجَلُ حَالَةٍ يُوصَفُ بِهَا الْعَبْدُ الْإِخْلَاصَ مِنْهُ وَالِاسْتِخْلَاصَ مِنْ رَبِّهِ. ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾؛ أي: جمع الله له بين الرسالة والنبوة؛ فالرسالة تقتضي تبليغ كلام المرسل وتبليغ جميع ما جاء به من الشرع دَقُّه وَجِلُّه، وَالنَّبُوَّةُ تَقْتَضِي إِحْيَاءَ اللَّهِ إِلَيْهِ وَتَخْصِيصَهُ بِإِنزَالِ الْوَحْيِ إِلَيْهِ؛ فَالنبوة بينه وبين رَبِّهِ، وَالرِّسَالَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْخَلْقِ.

﴿٥٢﴾ بل خَصَّهُ اللَّهُ مِنْ أَنْوَاعِ الْوَحْيِ بِأَجَلِ أَنْوَاعِهِ وَأَفْضَلُهَا، وَهُوَ تَكْلِيمُهُ تَعَالَى وَتَقْرِيْبُهُ مُنَاجِيًّا لِلَّهِ تَعَالَى، وَبِهَذَا اخْتَصَّ مِنْ بَيْنِ الْأَنْبِيَاءِ بِأَنَّهُ كَلِيمُ الرَّحْمَنِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَنَادَيْتَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾؛ أي: الْأَيْمَنِ مِنْ مُوسَى فِي وَقْتِ مَسِيرِهِ، أَوْ: الْأَيْمَنِ؛ أي: الْأَبْرَكِ مِنَ الْيُمْنِ وَالْبِرْكَةِ، وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَنْ بَوْرِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾. ﴿وَقَرَّبْتَاهُ نَجِيًّا﴾: وَالْفَرْقُ بَيْنَ النَّدَاءِ وَالنَّجَاءِ: أَنَّ النَّدَاءَ هُوَ الصَّوْتُ الرَّفِيعُ، وَالنَّجَاءُ مَا دُونَ ذَلِكَ.

وفي هذا إثبات الكلام لله تعالى وأنواعه من النداء والنجاء؛ كما هو مذهب أهل السنة والجماعة؛ خلافاً لمن أنكر ذلك من الجهمية والمعتزلة، ومن نحا نحوهم.

﴿٥٣﴾ وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾: هذا من أكبر فضائل موسى وإحسانه ونصحه لأخيه هارون: أَنَّهُ سَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يُشْرِكَهُ فِي أَمْرِهِ وَأَنْ يَجْعَلَهُ رَسُولًا مِثْلَهُ، فَاسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ ذَلِكَ، وَوَهَبَ لَهُ مِنْ رَحْمَتِهِ أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا؛ فَنبوة هارون تابعة لنبوة موسى عليهما السلام، فساعده على أمره وأعانه عليه.

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ .

﴿٥٤﴾ أي: واذكر في القرآن الكريم هذا النبي العظيم، الذي خَرَجَ مِنْهُ الشَّعْبُ

العربي، أفضل الشعوب وأجلها، الذين منهم سيد ولد آدم. ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾؛ أي: لا يعدُّ وعداً إلاَّ وُقِيَ به، وهذا شاملٌ للوعد الذي يعقده مع الله أو مع العباد، ولهذا لما وعد من نفسه الصبر على ذبح أبيه له؛ قال: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾: وقِيَ بذلك، ومكَّن أباه من الذبح الذي هو أكبر مصيبة تصيب الإنسان. ثم وصَّفه بالرسالة والنبوة التي هي أكبر منن الله على عبده، وجعله<sup>(١)</sup> من الطبقة العليا من الخلق.

﴿٥٥﴾ ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾؛ أي: كان مقيماً لأمر الله على أهله، فيأمرهم بالصلاة المتضمنة للإخلاص للمعبود، وبالزكاة المتضمنة للإحسان إلى العبيد؛ فكمَّل نفسه، وكمَّل غيره، وخصوصاً أخصَّ الناس عنده، وهم أهله؛ لأنهم أحقُّ بدعوته من غيرهم. ﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾: وذلك بسبب امتثاله لمراضي ربه واجتهاده فيما يرضيه؛ ارتضاه الله وجعله من خواص عباده وأوليائه المقربين؛ فرضي الله عنه، ورضي هو عن ربه.

﴿وَأَذَكَرَ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾.

﴿٥٦﴾ أي: اذكر في الكتاب<sup>(٢)</sup> على وجه التعظيم والإجلال والوصف بصفات الكمال إدريس. ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾: جمَعَ الله له بين الصديقية الجامعة للتصديق التام والعلم الكامل واليقين الثابت والعمل الصالح، وبين اصطفاؤه لوحيه واختياره لرسالته.

﴿٥٧﴾ ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾؛ أي: رفع الله ذكره في العالمين ومنزلته بين المقربين، فكان عالي الذكر عالي المنزلة.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾﴾.

﴿٥٨﴾ لما ذكر هؤلاء الأنبياء المكرمين وخواص المرسلين وذكر فضائلهم ومراتبهم؛ قال: ﴿وَلِئَلَّكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾؛ أي: أنعم الله عليهم نعمة لا تُلحق ومئة لا تُسبَق؛ من النبوة والرسالة، وهم الذين أمرنا أن ندعو الله أن يهدينا صراط الذين أنعم عليهم، وأن من أطاع الله كان ﴿مع الذين أنعم الله عليهم

(١) في (ب): «وأهلها».

(٢) في (ب): «الكتب».

من النبيين... ﴿ الآية، وأن بعضهم ﴿ من ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾؛ أي: من ذُرِّيَّتِهِ. ﴿ ومن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ ﴾: فهذه خير بيوت العالم، اصطفاهم الله واختارهم واجتباهم، وكان حالهم عند تلاوة آيات الرحمن عليهم، المتضمنة للإخبار بالغيوب وصفات عَلَامِ الْغُيُوبِ والإخبار باليوم الآخر والوعد والوعيد؛ ﴿ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾؛ أي: خضعوا لآيات الله، وخشعوا لها، وأثرت في قلوبهم من الإيمان والرغبة والرهبة ما أوجب لهم الْبُكَاءَ وَالْإِنَابَةَ وَالسُّجُودَ لِرَبِّهِمْ، ولم يكونوا من الذين إذا سمعوا آيات الله؛ خَرُّوا عَلَيْهَا صُغًا وَعُمِيَانًا.

وفي إضافة الآيات إلى اسمه الرحمن دلالة على أن آياته من رحمته بعباده وإحسانه إليهم؛ حيث هداهم بها إلى الحق، وبصّرهم من العمى، وأنقذهم من الضلالة، وعلمهم من الجهالة.

﴿ خَلَفَ مِنْ بَدِينِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا ٥٩ ﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَلَّمُونَ فِيهَا شَيْئًا ﴿ ٦٠ ﴾ جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا ﴿ ٦١ ﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءَ إِنْثَانٍ وَلَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءَ رِجَالٍ مِمَّنْ رَزَقَهُمْ فِيهَا بَكَرَةً وَعَشِيًّا ﴿ ٦٢ ﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿ ٦٣ ﴾ .

﴿ ٥٩ ﴾ لما ذَكَرَ تعالى هؤلاء الأنبياء... المخلصون<sup>(١)</sup>، المتبعون لمراضي ربهم، المنببون إليه؛ ذكر من أتى بعدهم وبدلوا ما أمروا به، وأنه خَلَفَ ﴿ من بعدهم خَلَفٌ ﴾: رجعوا إلى الخَلْفِ والوراء، ف ﴿ أضاعوا الصَّلَاةَ ﴾: التي أمروا بالمحافظة عليها وإقامتها، فتهاونوا بها وضيعوها، وإذا ضيعوا الصلاة التي هي عماد الدين وميزان الإيمان والإخلاص لرب العالمين، التي هي آكد الأعمال وأفضل الخصال؛ كانوا لما سواها من دينهم أضيع وله أرفض. والسبب الداعي لذلك أنهم اتبعوا شهوات أنفسهم وإراداتها، فصارت همهم منصرفة إليها مقدمة لها على حقوق الله، فنشأ من ذلك التضييع لحقوقه والإقبال على شهوات أنفسهم مهما لاحث لهم حصلوها، وعلى أي وجه اتفقت تناولوها. ﴿ فسوف يلقون عذابًا ﴾؛ أي: عذاباً مضاعفاً شديداً.

﴿ ٦٠ ﴾ ثم استثنى تعالى فقال: ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ ﴾: عن الشرك والبدع والمعاصي،

(١) في النسختين، وضعت كلمة: (قطع) بخط صغير فوق كلمة «المخلصون».

فألق عنها، وندم عليها، وعزم عزمًا جازمًا أن لا يعاودها، ﴿وَأَمِنْ﴾: بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾: وهو العمل الذي شرعه الله على ألسنة رسله إذا قصد به وجهه، ﴿فَأُولَئِكَ﴾: الذين جمعوا بين التوبة والإيمان والعمل الصالح، ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾: المشتملة على النعيم المقيم والعيش السليم وجوار الرب الكريم، ﴿وَلَا يُظَلَّمُونَ شَيْئًا﴾: من أعمالهم، بل يجدونها كاملة، موفرة أجورها، مضاعفاً عددها.

﴿٦١﴾ ثم ذكر أن الجنة التي وعدهم بدخولها ليست كسائر الجنات، وإنما هي ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾؛ أي: جنات إقامة لا ظعن فيها ولا جَوْل ولا زوال، وذلك لسعتها وكثرة ما فيها من الخيرات والسرور والبهجة والحبور. ﴿الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾؛ أي: التي وَعَدَهَا الرَّحْمَنُ، أضافها إلى اسمه الرَّحْمَنُ؛ لأنها فيها من الرحمة والإحسان ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطرَ على قلب بشر، وسماها تعالى رَحْمَتَهُ، فقال: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون﴾. وأيضاً؛ ففي إضافتها إلى رحمته ما يدل على استمرار سرورها، وأنها باقية ببقاء رحمته التي هي أثرها وموجبها.

والعباد في هذه الآية المراد عبادُ إلهيته، الذين عبدوه والتزموا شرائعه، فصارت العبودية وصفاً لهم؛ كقوله: ﴿وعبادُ الرحمن﴾، ونحوه؛ بخلاف عباده المماليك فقط، الذين لم يعبدوه؛ فهؤلاء وإن كانوا عبيداً لربوبيته لأنه خلقهم ورزقهم ودبرهم؛ فليسوا داخلين في عبيد إلهيته، العبودية الاختيارية التي يُمدحُ صاحبها، وإنما عبوديتهم عبودية اضطرارٍ لا مدح لهم فيها.

وقوله: ﴿بالغيب﴾: يُحتمل أن تكون متعلقة بوعد الرحمن، فيكون المعنى على هذا: أن الله وَعَدَهُمْ إِيَّاهَا وعداً غائباً لم يشاهده، ولم يَرَوْه فآمنوا بها، وصدقوا غيبها، وسَعَوْا لها سَعْيِهَا مع أنهم لم يَرَوْهَا؛ فكيف لو رأوها؛ لكانوا أشدَّ لها طلباً وأعظم فيها رغبةً وأكثر لها سعياً، ويكون في هذا مدح لهم بإيمانهم بالغيب، الذي هو الإيمان النافع.

ويُحتمل أن تكون متعلقة بعباده؛ أي: الذين عبدوه في حال غيبهم وعدم رؤيتهم إِيَّاهُ؛ فهذه عبادتهم ولم يروه؛ فلو رأوه؛ لكانوا أشدَّ له عبادةً وأعظم إنابةً وأكثر حباً وأجل شوقاً.

ويحتمل أيضاً أن المعنى: هذه الجنات التي وَعَدَهَا الرَّحْمَنُ عباده من الأمور

التي لا تدركها الأوصاف ولا يعلمها أحدٌ إلا الله؛ ففيه من التشويق لها والوصف المجمل ما يهيج النفوس، ويزعج الساكن إلى طلبها، فيكون هذا مثل قوله: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾.

والمعاني كلها صحيحة ثابتة، ولكن الاحتمال الأول أولى؛ بدليل قوله: ﴿إنه كان وعده مائتاً﴾: لا بد من وقوعه؛ فإنه لا يخلف الميعاد، وهو أصدق القائلين.

﴿٦٢﴾ ﴿لا يسمعون فيها لغواً﴾؛ أي: كلاماً لاغياً لا فائدة فيه ولا ما يؤثم؛ فلا يسمعون فيها شتماً ولا عيباً ولا قولاً فيه معصية لله أو قولاً مكدرًا، ﴿إلا سلاماً﴾؛ أي: [إلا] الأقوال السالمة من كل عيب؛ من ذكر لله، وتحية، وكلام سرور وبشارة، ومطارحة الأحاديث الحسنة بين الإخوان، وسماع خطاب الرحمن، والأصوات الشجية من الحور والملائكة والولدان، والنغمات المطربة، والألفاظ الرخيمة؛ لأن الدار دار السلام؛ فليس فيها إلا السلام التام من جميع الوجوه. ﴿ولهم رزقهم فيها بكرةً وعشيًا﴾؛ أي: أرزاقهم من المآكل والمشارب وأنواع اللذات مستمرةً حيثما طلبوا وفي أي وقت رغبوا، ومن تمامها ولذتها وحسنها أن تكون في أوقات معلومة بكرةً وعشيًا؛ ليعظم وقعها، ويتم نفعها.

﴿٦٣﴾ ذ ﴿تلك الجنة﴾: التي وصفناها بما ذكر ﴿التي نورث من عبادنا من كان تقياً﴾؛ أي: نورثها المتقين، ونجعلها منزلهم الدائم، الذي لا يظعنون عنه ولا يبعون عنه جولاً؛ كما قال تعالى: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين﴾.

﴿وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ شَيْئاً رَبَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٤﴾﴾.

﴿٦٤﴾ استبطأ النبي ﷺ جبريل عليه السلام مرة في نزوله إليه، فقال له: لو تأتينا أكثر مما تأتينا؛ شوقاً<sup>(١)</sup> إليه وتوحيشاً لفراقه وليطمئن قلبه بنزوله؛ فأنزل الله تعالى على لسان جبريل: ﴿وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾؛ أي: ليس لنا من الأمر شيء، إن أمرنا؛ ابتدأنا أمره ولم نعص له أمراً؛ كما قال عنهم: ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون﴾؛ فنحن عبيد مأمورون. ﴿له ما بين أيدينا وما خلفنا

وما بين ذلك؛ أي: له الأمور الماضية والمستقبله والحاضرة في الزمان والمكان؛ فإذا تبين أن الأمر كله لله، وأنا عبيدٌ مدبرون، فيبقى الأمر دائراً بين هل تقتضيه الحكمة الإلهية فينفضه أم لا تقتضيه فيؤخره؟ ولهذا قال: ﴿وما كان ربك نسياً﴾؛ أي: لم يكن الله لينساک وبهملك؛ كما قال تعالى: ﴿ما ودعك ربك وما قلى﴾؛ بل لم يزل معتنياً بأمرورك مجرباً لك على أحسن عوائده الجميلة وتدبيره الجميلة؛ أي: فإذا تأخر نزولنا عن الوقت المعتاد؛ فلا يحزنك ذلك ولا يهّمك، واعلم أن الله هو الذي أراد ذلك؛ لما له من الحكمة فيه.

﴿٦٥﴾ ثم علل إحاطة علمه وعدم نسيانه بأنه ﴿رب السموات والأرض﴾؛ فربوبيته للسموات والأرض، وكونهما على أحسن نظام وأكملة، ليس فيه غفلة ولا إهمال ولا سدى ولا باطل: برهاناً قاطعاً على علمه الشامل؛ فلا تشغل نفسك بذلك، بل اشغلها بما ينفعك ويعود عليك طائلاً، وهو عبادته وحده لا شريك له، ﴿واصطبر لعبادته﴾؛ أي: اصبر نفسك عليها، واجهدها، وقم عليها أتم القيام وأكملة بحسب قدرتك، وفي الاشتغال بعبادة الله تسلياً للعباد عن جميع التعلقات والمشتبهات؛ كما قال تعالى: ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه...﴾ إلى أن قال: ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها...﴾ الآية.

﴿هل تعلم له سمياً﴾؛ أي: هل تعلم لله مسامياً ومشابهاً ومماثلاً من المخلوقين؟ وهذا استفهامٌ بمعنى النفي المعلوم بالعقل؛ أي: لا تعلم له مسامياً ولا مشابهاً؛ لأنه الربُّ وغيره مربوبٌ، الخالق وغيره مخلوقٌ، الغنيُّ من جميع الوجوه، وغيره فقيرٌ بالذات من كلِّ وجه، الكامل الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وغيره ناقصٌ ليس فيه من الكمال إلا ما أعطاه الله تعالى؛ فهذا برهانٌ قاطعٌ على أن الله هو المستحقُّ لإفراجه بالعبودية، وأنَّ عبادته حقٌّ، وعبادة ما سواه باطلٌ؛ فلهذا أمر بعبادته وحده والاصطبار لها، وعلل ذلك بكماله وانفراجه بالعظمة والأسماء الحسنى.

﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِثْ لَسَوْفَ أَخْرَجُ حَيًّا ۖ ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلُ وَتَرَىٰ شَيْئًا ۖ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿٦٦﴾ المراد بالإنسان هاهنا كلُّ منكر للبعث مستبعدٍ لوقوعه؛ فيقول مستفهماً على وجه النفي والعدا والكفر: ﴿إِذَا مَا مِثْ لَسَوْفَ أَخْرَجُ حَيًّا﴾؛ أي: كيف



يعيدني الله حيًا بعد الموت وبعد ما كنتُ رميمًا؟! هذا لا يكون ولا يُتصوّر! وهذا بحسب عقله الفاسد ومقصده السيئ وعنايه لرسول الله وكتبه؛ فلو نظّر أدنى نظّرٍ وتأمل أدنى تأمل؛ لرأى استبعاده للبعث في غاية السخافة.

﴿٦٧﴾ ولهذا ذكر تعالى برهاناً قاطعاً ودليلاً واضحاً يعرفه كلُّ أحدٍ على إمكان البعث، فقال: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾؛ أي: أولاً يلتفتُ نظره ويستدركُ حالته الأولى، وأنَّ الله خلقه أولَ مرّةٍ ولم يكُ شيئاً؟! فمن قدّر على خلقه من العدم، ولم يكُ شيئاً مذكوراً؛ أليس بقادرٍ على إنشائه بعدما تمزّق، وجمعه بعدما تفرّق؟! وهذا كقوله: ﴿وهو الذي يُبدىء الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾.

وفي قوله: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ﴾: دعوة للنظر بالدليل العقليّ بالطف خطاب، وأنَّ إنكار من أنكر ذلك مبنيٌّ على غفلةٍ منه عن حاله الأولى، وإلّا؛ فلو تدكّرها وأحضّرها في ذهنه؛ لم ينكر ذلك.

﴿قَوْرَيْكَ لَنَحْضُرْنَهُمُ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا﴾ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَولىٰ بِهَا صِلِيًا ﴿٧٠﴾.

﴿٦٨﴾ أقسم الله تعالى وهو أصدق القائلين بربوبيّته لَيَحْضُرَنَّ] هؤلاء المنكرين للبعث هم وشياطينهم، فيجمعهم لميقاتٍ يوم معلوم، ﴿ثم لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا﴾؛ أي: جاثين على ركبهم من شدّة الأهوال وكثرة الزلزال وفضاعة الأحوال، منتظرين لحكم الكبير المتعال.

﴿٦٩﴾ ولهذا ذكر حكمه فيهم، فقال: ﴿ثم لَنَنْزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًا﴾؛ أي: ثم لننزعنّ من كلِّ طائفةٍ وفرقةٍ من الظالمين المشتركين في الظلم والكفر والعتوّ أشدّهم عتوّاً وأعظمهم ظلماً وأكبرهم كفراً، فيقدّمهم إلى العذاب، ثم هكذا يقدّم إلى العذاب الأغلظ إثماً فالأغلظ، وهم في تلك الحال متلاعنون؛ يلعن بعضهم بعضاً، ويقول أخراهم لأولاهم: ﴿ربّنا هؤلاء أضلّونا فاتّهم عذاباً ضعفاً من النار [قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون] وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل...﴾.

﴿٧٠﴾ وكل هذا تابعٌ لعدله وحكمته وعلمه الواسع، ولهذا قال: ﴿ثم لنحننّ أعلم بالذين هم أولىٰ بها صليًا﴾؛ أي: علمنا محيطٌ بمن هو أولىٰ صليًا بالنار، وقد

علمناهم، وعلما أعمالهم واستحقاقها وقسطها من العذاب.

﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا ﴿٧٢﴾﴾.

﴿٧١﴾ وهذا خطاب لسائر الخلائق؛ برّهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم؛ أنه ما منهم من أحد إلا سيرد النار، حكماً حتمه الله على نفسه، وأوعد به عباده؛ فلا بد من نفوذِهِ، ولا محيد عن وقوعه. واختُلف في معنى الورود: ف قيل: ورودها حضورها للخلائق كلهم حتى يحصل الانزعاج من كل أحد، ثم بعد يُنَجِّي الله المتقين.

وقيل: ورودها دخولها، فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً. وقيل: الورود هو المرور على الصراط الذي هو على متن جهنم، فيمرُّ الناس على قدر أعمالهم؛ فمنهم من يمرُّ كلمح البصر، وكالريح، وكأجاويد الخيل، وكأجاويد الركاب، ومنهم من يسعى، ومنهم يمشي مشياً، ومنهم من يزحف زحفاً، ومنهم من يُخطف فيلقى في النار؛ كل بحسب تقواه.

﴿٧٢﴾ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾: الله تعالى بفعل المأمور واجتناب المحذور. ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ﴾: أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿فِيهَا جِثًا﴾: وهذا بسبب ظلمهم وكفرهم، وجب لهم<sup>(١)</sup> الخلود وحق عليهم العذاب، وتقطعت بهم الأسباب.

﴿وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَرَّ أَهْلُكَا بَقَلَهُمُ بَيْنَ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَنتَا وَرِيًّا ﴿٧٤﴾﴾.

﴿٧٣﴾ أي: وإذا تلى على هؤلاء الكفار آياتنا بينات؛ أي: واضحات الدلالة على وحدانية الله وصدق رسله، توجب لمن سمعها صدق الإيمان وشدة الإيقان؛ قابلوها بضد ما يجب لها، واستهزؤوا بها وبمن آمن بها، واستدلوا بحسن حالهم في الدنيا على أنهم خير من المؤمنين، فقالوا معارضين للحق: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾؛ أي: نحن والمؤمنون ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾؛ أي: في الدنيا من كثرة الأموال والأولاد وتفوق<sup>(٢)</sup> الشهوات. ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾؛ أي: مجلساً؛ أي: فاستنتجوا من هذه المقدمة الفاسدة بسبب أنهم أكثر مالاً وأولاداً، وقد حصلت [لهم] أكثر مطالبهم من

(٢) في (ب): «وتوفر».

(١) في (ب): «له».

الدُّنْيَا، ومجالسهم وأنديتهم مزخرفة مزوّقة، والمؤمنون بخلاف هذه الحال؛ فهم خَيْرٌ من المؤمنين!!

﴿٧٤﴾ وهذا دليلٌ في غاية الفساد، وهو من باب قلب الحقائق، وإلّا؛ فكثرة الأموال والأولاد وحسن المنظر كثيراً ما يكون سبباً لهلاك صاحبه وشقاؤه وشره، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَانًا﴾؛ أي: متاعاً من أوّان وفرش وبيوت وزخارف، ﴿وَرَثِيًّا﴾<sup>(١)</sup>؛ أي: أحسن مرأى ومنظراً من غضارة العيش وسرور اللذات وحسن الصور؛ فإذا كان هؤلاء المهلكون أحسن منهم أثاناً ورثياً، ولم يمنعهم ذلك من حلول العقاب بهم؛ فكيف يكون هؤلاء وهم أقلُّ منهم وأذلُّ معتصمين من العذاب، ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيَّتِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾؟! وَعَلِمَ مِنْ هَذَا أَنْ الاستدلال على خير الآخرة بخير الدنيا من أفسد الأدلّة وأثمة من طرق الكفار.

﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾. ﴿٧٥﴾

﴿٧٥﴾ لما ذكر دليلهم الباطل الدالّ على شدّة عنادهم وقوّة ضلالهم؛ أخبر هنا أنّ مَنْ كان في الضلالة؛ بأن رَضِيَها لنفسه، وسعى فيها؛ فإنّ الله يمدّه منها ويزيده فيها حبّاً؛ عقوبة له على اختيارها على الهدى؛ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾، ﴿وَنَقَلْبُ أُنْفِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾. ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا﴾؛ أي: القائلون: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾، ﴿مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ﴾: بقتل أو غيره، ﴿وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾: التي هي بابُ الجزاء على الأعمال. ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾؛ أي: فحينئذ يتبيّن لهم بطلان دعواهم، وأنها دعوى مضمحلّة، ويتيقنون أنّهم أهل الشرِّ وأضعفُ جنداً، ولكن لا يفيدهم هذا العلم شيئاً؛ لأنّه لا يمكنهم الرجوع إلى الدنيا فيعملون غير عملهم الأول.

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾. ﴿٧٦﴾

﴿٧٦﴾ لما ذكر أنه يُمدُّ للظالمين<sup>(٢)</sup> في ضلالهم؛ ذكّر أنّه يزيد المهتدين هداية من فضله عليهم ورحمته، والهدى يشمّل العلم النافع والعمل الصالح؛ فكلُّ مَنْ

(١) في (ب): «وأحسن رثياً». وقد شطب الشيخ أحسن في (أ).

(٢) في (ب): «للضالين».

سَلَكَ طَرِيقاً فِي الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ؛ زَادَهُ اللَّهُ مِنْهُ، وَسَهَّلَهُ عَلَيْهِ، وَيَسَّرَهُ لَهُ، وَوَهَبَ لَهُ أَمْوراً أُخْرَى لَا تَدْخُلُ تَحْتَ كَسْبِهِ، وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى زِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَنَقْصِهِ؛ كَمَا قَالَ السَّلَفُ الصَّالِحُ.

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيُزَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً﴾، ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾. وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَيْضاً الْوَاقِعُ؛ فَإِنَّ الْإِيمَانَ قَوْلُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَعَمَلُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ، وَالْمُؤْمِنُونَ مُتَفَاوِتُونَ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ أَعْظَمَ تَفَاوُتٍ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾؛ أَي: الْأَعْمَالُ الْبَاقِيَةُ الَّتِي لَا تَنْقَطِعُ إِذَا انْقَطَعَ غَيْرُهَا، وَلَا تَتَضَمَّلُ هِيَ الصَّالِحَاتُ مِنْهَا؛ مِنْ صَلَاةٍ وَزَكَاةٍ وَصَوْمٍ وَحَجٍّ وَعَمْرَةٍ وَقِرَاءَةٍ وَتَسْبِيحٍ وَتَكْبِيرٍ وَتَحْمِيدٍ وَتَهْلِيلٍ وَإِحْسَانٍ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ وَأَعْمَالٍ قَلْبِيَّةٍ وَبَدَنِيَّةٍ؛ فَهَذِهِ الْأَعْمَالُ ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَرَدّاً﴾؛ أَي: خَيْرٌ عِنْدَ اللَّهِ ثَوَابِهَا وَأَجْرُهَا، وَكَثِيرٌ لِلْعَامِلِينَ نَفْعُهَا وَرَدُّهَا، وَهَذَا مِنْ بَابِ اسْتِعْمَالِ أَفْعَلَ التَّفْضِيلِ فِي غَيْرِ بَابِهِ؛ فَإِنَّهُ مَا تَمَّ غَيْرُ الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ عَمَلٌ يَنْفَعُ وَلَا يَبْقَى لِصَاحِبِهِ ثَوَابُهُ وَلَا يَنْجَعُ، وَمُنَاسِبَتُهُ ذِكْرُ الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ: أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ أَنَّ الظَّالِمِينَ جَعَلُوا أَحْوَالَ الدُّنْيَا مِنَ الْمَالِ وَالْوَلَدِ وَحَسَنِ الْمَقَامِ وَنَحْوِ ذَلِكَ عِلْمَةً لِحَسَنِ حَالِ صَاحِبِهَا؛ أَخْبَرَ هُنَا أَنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ كَمَا زَعَمُوا، بَلِ الْعَمَلُ الَّذِي هُوَ عِنْوَانُ السَّعَادَةِ وَمَنْشُورُ الْفَلَاحِ، هُوَ الْعَمَلُ بِمَا يَحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ.

﴿أَفْرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالاً وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ انَّحَدَّ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾.

﴿٧٧﴾ أَي: أَفَلَا تَعْجَبُ مِنْ حَالِهِ هَذَا الْكَافِرِ الَّذِي جَمَعَ بَيْنَ كُفْرِهِ بِآيَاتِ اللَّهِ وَدَعْوَاهِ الْكَبِيرَةِ أَنَّهُ سَيُوتَى فِي الْآخِرَةِ مَالاً وَوَلَدًا؛ أَي: يَكُونُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، هَذَا مِنْ أَعْجَبِ الْأُمُورِ؛ فَلَوْ كَانَ مُؤْمِناً بِاللَّهِ وَادَّعَى هَذِهِ الدَّعْوَى؛ لَسَهَّلَ الْأَمْرَ. وَهَذِهِ الْآيَةُ وَإِنْ كَانَتْ نَازِلَةً فِي كَافِرٍ مُعَيَّنٍ<sup>(١)</sup>؛ فَإِنَّهَا تَشْمَلُ كُلَّ كَافِرٍ زَعَمَ أَنَّهُ عَلَى الْحَقِّ، وَأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ.

﴿٧٨﴾ قَالَ اللَّهُ تَوْبِيخاً لَهُ وَتَكْذِيباً: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾؛ أَي: أَحَاطَ عِلْمُهُ بِالْغَيْبِ

(١) وهو العاص بن وائل؛ كما في «صحيح البخاري» (٤٧٣٥) عن خباب رضي الله عنه.

حتى عَلِمَ ما يكون، وأنَّ من جملة ما يكونُ أَنَّهُ يُؤْتَى يوم القيامة مالا وولداً. ﴿٧٩﴾  
 اتَّخَذَ عند الرحمن عهداً: أَنَّهُ نائلٌ ما قاله؛ أي: لم يكن شيءٌ من ذلك، فعَلِمَ أَنَّهُ  
 متقولٌ قائلٌ ما لا علم له به. وهذا التقسيم والترديدُ في غاية ما يكون من الإلزام  
 وإقامة الحجَّة؛ فإنَّ الذي يزعم أَنه حاصلٌ له خيرٌ عند الله في الآخرة لا يخلو: إما  
 أَن يكونَ قوله صادراً عن علم بالغيوب المستقبلية، وقد عَلِمَ أَن هذا لله وحده؛ فلا  
 أحد يعلم شيئاً من المستقبلات الغيبية إلا ما أطلعه الله عليه<sup>(١)</sup> من رسله.

وإما أَن يكونَ متَّخِذاً عهداً عند الله بالإيمان به وأتباع رسله الذين عهدَ الله  
 لأهلِهِ، وأوزَعَ أَنهم أهل الآخرة، والناجون<sup>(٢)</sup> الفائزون؛ فإذا انتفى هذان الأمران؛  
 عَلِمَ بذلك بطلان الدعوى.

﴿٧٩﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿كَلَّا﴾؛ أي: ليس الأمر كما زعم؛ فليس للقائل  
 اطلاعٌ على الغيب، لأنَّه كافرٌ ليس عنده من علم الرسائل<sup>(٣)</sup> شيءٌ، ولا اتَّخَذَ عند  
 الرحمن عهداً؛ لكفرِهِ وعدم إيمانه ولكِنَّه يستحقُّ ضدَّ ما تقوَّله، وإنَّ قوله مكتوبٌ  
 محفوظٌ ليُجازى عليه ويعاقب، ولهذا قال: ﴿سَنَكْتُبُ ما يقولُ ونَمُدُّ له من العذاب  
 مَدًّا﴾؛ أي: نزيده من أنواع العقوبات كما ازداد من الغي والضلال.

﴿٨٠﴾ ﴿وَنَرِيهَ ما يقولُ﴾؛ أي: نريه ماله وولده، فينتقل من الدنيا فرداً بلا مال  
 ولا أهل ولا أنصارٍ ولا أعوان، ﴿ويأتينا فرداً﴾: فيرى من وخيم العقابِ ما هو  
 جزاء أمثاله من الظالمين.

﴿[وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُم عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ  
 عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾]﴾<sup>(٤)</sup> أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَزُّهُمْ أَزْأًا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ  
 إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ﴿٨٤﴾﴾.

﴿٨٣﴾ وهذا من عقوبة الكافرين: أَنهم لما لم يعتصموا بالله ولم يتمسكوا بحبل  
 الله، بل أشركوا به ووالوا أعداءه من الشياطين؛ سلَّطهم عليهم وقبضهم، فجعلت  
 الشياطينُ تَوَزُّهم إلى المعاصي أَزْأًا، وتزعجهم إلى الكفر إزعاجاً، فيوسوسون لهم،

(١) في (ب): «إليه».

(٢) في (ب): «الرسل».

(٣) في (ب): «الناجون».

(٤) لم تذكر الآيات (٨١ - ٨٢) في النسختين، ولم تفسرا.

ويوحون إليهم، ويزينون لهم الباطل، ويقبّحون لهم الحقّ، فيدخل حبّ الباطل في قلوبهم ويتشربها، فيسعى فيه سعي المحقّ في حقّه، فينصره بجهد، ويحارب عنه، ويجاهد أهل الحق في سبيل الباطل، وهذا كلّ جزء له على تولّيه من وليّه وتولّيه لعدوّه؛ جَعَلَ له عليه سلطاناً، وإلّا؛ فلو آمن بالله وتوكّل عليه؛ لم يكن له عليه سلطان؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾.

﴿٨٤﴾ ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على هؤلاء الكفار المستعجلين بالعذاب، ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾؛ أي: إنّ لهم أياماً معدودة؛ لا يتقدّمون عنها ولا يتأخرون، نُمهّلهم ونحلم عنهم مدة ليراجعوا أمر الله؛ فإذا لم ينبجّع فيهم ذلك؛ أخذناهم أخذ عزيز مقتدر.

﴿يَوْمَ تَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِدًا ﴿٨٦﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾.

﴿٨٥﴾ يخبر تعالى عن تفاوت الفريقين: المتّقين والمجرمين، وأنّ المتّقين له بأتقاء الشرك والبدع والمعاصي، يحشُرهم إلى موقف القيامة مكرمين مبجلين معظّمين، وأنّ مآلهم الرحمن، وقصدهم المنان وفداً<sup>(١)</sup> إليه، والوافد لا بدّ أن يكون في قلبه من الرجاء وحسن الظنّ بالوافد إليه ما هو معلوم، فالمتّقون يقدّون إلى الرحمن راجين منه رحمته وعميم إحسانه والفوز بعطاياه في دار رضوانه، وذلك بسبب ما قدّموه من العمل بتقواه واتباع مرضيه، وأنّ الله عهد إليهم بذلك الثواب على السنة رسله، فتوجّهوا إلى ربّهم مطمئنّين به، واثقين بفضلّه.

﴿٨٦﴾ وأما المجرمون؛ فإنّهم يُساقون ﴿إلىٰ جهنّم وريداً﴾؛ أي: عطاشاً، وهذا أبشع ما يكون من الحالات سوقهم على وجه الدلّ والصغار إلى أعظم سجن وأفظع عقوبة، وهو جهنّم، في حال ظمئهم ونصبهم؛ يستغيثون فلا يُغاثون، ويدعون فلا يُستجاب لهم، ويستشفعون فلا يُشفع لهم.

﴿٨٧﴾ ولهذا قال: ﴿لا يملكون الشفاعة﴾؛ أي: ليست الشفاعة ملكهم ولا لهم منها شيء، وإنّما هي لله تعالى، ﴿قل لله الشفاعة جميعاً﴾، وقد أخبر أنّه لا تنفعهم شفاعة الشافعين؛ لأنّهم لم يتخذوا عنده عهداً بالإيمان به وبرسله، وإلّا؛ فمن اتّخذ

(١) في (ب): «وفوداً».

عنده عهداً، فأمن به وبرسله، وأتبعهم؛ فإنه ممن ارتضاه الله وتحصل له الشفاعة؛ كما قال تعالى: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾. وسمى الله الإيمان به وأتباع رسله عهداً؛ لأنه عهد في كتبه وعلى السنة رسله بالجزاء الجميل لمن أتبعهم.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۗ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۝٨٨﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَنْفَطِرْنَ مِنَّةُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا ۝٩١﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۝٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۝٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ۝٩٥﴾.

﴿٨٨﴾ وهذا تقييح وتشنيع لقول المعاندين الجاحدين، الذين زعموا أن الرحمن اتخذ ولداً؛ كقول النصارى: المسيح ابن الله، واليهود: عزيز ابن الله، والمشركين: الملائكة بنات الله؛ تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

﴿٨٩ - ٩١﴾ ﴿لقد جئتم شيئاً إدًّا﴾؛ أي: عظيماً وخيماً من عظيم أمره أنه: ﴿تكاد السموات﴾: على عظمتها وصلابتها؛ ﴿يتفطرن منه﴾؛ أي: من هذا القول، ﴿وتنشق الأرض﴾: منه؛ أي: تتصدع وتنفطر، ﴿وتخر الجبال هدًا﴾؛ أي: تندك الجبال ﴿أن دعوا للرحمن ولداً﴾؛ أي: من أجل هذه الدعوى القبيحة تكاد هذه المخلوقات أن يكون منها ما ذكر.

﴿٩٢﴾ والحال أنه ﴿ما ينبغي﴾؛ أي: لا يليق ولا يكون ﴿للرحمن أن يتخذ ولداً﴾: وذلك لأن اتخاذه الولد يدل على نقصه واحتياجه، وهو الغني الحميد، والولد أيضاً من جنس والديه، والله تعالى لا شبيه له ولا مثل ولا سمي.

﴿٩٣﴾ ﴿إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً﴾؛ أي: ذليلاً منقاداً غير متعاص ولا ممتنع، الملائكة والإنس والجن وغيرهم، الجميع ممالك متصرف فيهم، ليس لهم من الملك شيء، ولا من التدبير شيء؛ فكيف يكون له ولد وهذا شأنه وعظمته ملكه؟!

﴿٩٤﴾ ﴿لقد أحصاهم وعدهم عدداً﴾؛ أي: لقد أحاط علمه بالخلائق كلهم، أهل السماوات والأرض، وأحصاهم، وأحصى أعمالهم؛ فلا يضل ولا ينسى ولا تخفى عليه خافية.

﴿٩٥﴾ ﴿وكلهم آتية يوم القيامة فرداً﴾؛ أي: لا أولاد ولا مال ولا أنصار، ليس معه إلا عمله، فيجازيه الله ويوفيه حسابه، إن خيراً؛ فخير، وإن شراً فشر؛ كما

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾.

﴿٩٦﴾ هذا من نعمه على عباده الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح: أن وَعَدَهُمْ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ وُدًّا؛ أي: محبة ووداداً في قلوب أوليائه وأهل السماء والأرض، وإذا كان لهم في القلوب وُدٌّ؛ تيسر لهم كثيرٌ من أمورهم، وحصل لهم من الخيرات والدعوات والإرشاد والقبول والإمامة ما حَصَلَ، ولهذا ورد في الحديث الصحيح: <sup>(١)</sup> «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا؛ نادى جبريلَ: إِنِّي أَحَبُّ فَلَانًا؛ فأحبه. فيحبه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ فَلَانًا؛ فأحبه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض» وإنما جَعَلَ اللَّهُ لَهُمْ وُدًّا لأنه وُدُّوه، وأحبهوه، فودَّدهم إلى أوليائه وأحبابه.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هَلْ يُحِصُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾.

﴿٩٧﴾ يخبر تعالى عن نعمته، وأنه يسر هذا القرآن الكريم بلسان الرسول محمد ﷺ؛ يسر ألفاظه ومعانيه؛ ليحصل المقصود منه والانتفاع به؛ ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾: بالترغيب في الميسر به من الثواب العاجل والآجل، وذكر الأسباب الموجبة للبشارة، ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾؛ أي: شديدين في باطلهم، أقوياء في كفرهم، فتنذِرهم، فتقوم عليهم الحجة، وتبين لهم المحجة، فيهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة.

﴿٩٨﴾ ثم توعدهم بإهلاك المكذبين قبلهم، فقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ﴾: من قوم نوح وعاد وثمود وفرعون وغيرهم من المعاندين المكذبين، لما استمروا في طغيانهم؛ أهلكهم الله؛ فليس لهم من باقية. ﴿هَلْ يُحِصُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾: والرِّكْزُ: الصوت الخفي؛ أي: لم يبق منهم عينٌ ولا أثرٌ، بل بقيت أخبارهم عبرةً للمعتبرين، وأسماؤهم عظةً للمتعتزين.

تم تفسير سورة مريم. ولله الحمد والشكر.



(١) أخرجه البخاري (٦٠٤٠) ومسلم (٢٦٣٧)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.



## تفسير سورة طه

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طه﴾ ١) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ٢) إِلَّا تَذَكُّرَةً لِمَنْ يَخْشَى ٣) تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ٤) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ٥) لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ٦) وَإِنْ يُجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ٧) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ٨)

﴿١ - ٢﴾: من جملة الحروف المقطعة المفتحة بها كثير من السور، وليست اسماً للنبي ﷺ. ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾؛ أي: ليس المقصود بالوحي وإنزال القرآن عليك وشرع الشريعة لتشقى بذلك، ويكون في الشريعة تكليف يشق على المكلفين، وتعجز عنه قوى العاملين، وإنما الوحي والقرآن والشرع شرعه الرحيم الرحمن، وجعله موصلاً للسعادة والفلاح والفوز، وسهله غاية التسهيل، ويسر كل طريقه وأبوابه، وجعله غذاء للقلوب والأرواح وراحة للأبدان، فتلقته الفطر السليمة والعقول المستقيمة بالقبول والإذعان؛ لعلمها بما احتوى عليه من الخير في الدنيا والآخرة.

﴿٣﴾ ولهذا قال: ﴿إِلَّا تَذَكُّرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾: إلا ليتذكر به من يخشى الله تعالى، فيتذكر ما فيه من الترغيب لأجل<sup>(١)</sup> المطالب فيعمل بذلك، ومن الترهيب عن الشقاء والخسران فيهرب منه، ويتذكر به الأحكام الحسنة الشرعية المفصلة التي كان مستقراً في عقله حسنهما مجملاً، فوافق التفصيل ما يجده في فطرته وعقله، ولهذا سماه الله تذكرة، والتذكرة لشيء كان موجوداً؛ إلا أن صاحبه غافل عنه أو غير مستحضر لتفصيله.

وخصّ بالتذكرة من يخشى؛ لأن غيره لا ينتفع به، وكيف ينتفع به من لم يؤمن بجنته ولا نارٍ ولا في قلبه من خشية الله مثقال ذرة!؟ هذا ما لا يكون، ﴿سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَى. وَيَتَجَبَّبُهَا الْأَشْقَى. الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى﴾.

﴿٤﴾ ثم ذكر جلاله هذا القرآن العظيم، وأنه تنزيل خالق الأرض والسماوات،

(١) في (ب): «إلى أجل».

المدبر لجميع المخلوقات؛ أي: فاقبلوا تنزيله بغاية الإذعان والمحبة والتسليم، وعظموه نهاية التعظيم. وكثيراً ما يقرن بين الخلق والأمر؛ كما في هذه الآية وكما في قوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾، وفي قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾، وذلك أنه الخالق الأمر الناهي؛ فكما أنه لا خالق سواه؛ فليس على الخلق إلزام ولا أمر ولا نهى إلا من خالقهم. وأيضاً؛ فإن خلقه للمخلوق فيه من التدبير<sup>(١)</sup> القدرى الكونى، وأمره فيه التدبير الشرعى الدينى؛ فكما أن الخلق لا يخرج عن الحكمة، فلم يخلق شيئاً عبثاً؛ فكذلك لا يأمر ولا ينهى إلا بما هو عدلٌ وحكمة وإحسان.

﴿٥﴾ فلما بين أنه الخالق المدبر الأمر الناهي؛ أخبر عن عظمته وكبريائه، فقال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ﴾: الذي هو أرفع المخلوقات وأعظمها وأوسعها، ﴿استوى﴾: استواء يليق بجلاله ويناسب عظمته وجماله، فاستوى على العرش، واحتوى على الملك.

﴿٦﴾ ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾: من ملكٍ وإنسى وجنى وحيوانٍ وجمادٍ ونباتٍ، ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾؛ أي: الأرض؛ فالجميع مُلكٌ لله تعالى، عبيدٌ مدبرون مسخرون تحت قضائه وتدبيره، ليس لهم من المُلْك شيء، ولا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً.

﴿٧﴾ ﴿وَإِنْ تَجَهَّزْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ﴾: الكلام الخفى، ﴿وأخفى﴾: من السرِّ، الذي في القلب ولم يُنطق به، أو السرُّ ما خطر على القلب، وأخفى ما لم يخطر؛ يعلم تعالى أنه يخطر في وقته وعلى صفته. المعنى أن علمه تعالى محيطٌ بجميع الأشياء؛ دقيقها وجليلها؛ خفيها وظاهرها؛ فسواء جهرت بقولك أو أسرته؛ فالكل سواء بالنسبة لعلمه تعالى.

﴿٨﴾ فلما قرّر كماله المطلق بعموم خلقه وعموم أمره ونهيه وعموم رحمته وسعة عظمته وعلوه على عرشه وعموم ملكه وعموم علمه؛ نتج من ذلك أنه المستحق للعبادة، وأن عبادته هي الحق التي يوجبها الشرع والعقل والفترة، وعبادة غيره باطلة، فقال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا معبود بحق ولا مألوه بالحب والذل والخوف والرجاء والمحبة والإنابة والدعاء إلا هو. ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾؛

(١) كذا في (أ) وفي (ب): «فيه التدبير».

أي: له الأسماء الكثيرة الكاملة الحسنی: من حسنھا أنّھا كلّھا أسماء دالة علی المدح؛ فلیس فیھا اسم لا یدل علی المدح والحمد، ومن حسنھا أنّھا لیست أعلاماً محضّة، وإنما هی أسماء وأوصاف، ومن حسنھا أنّھا دالة علی الصفات الكاملة وأنّ له من كلّ صفة أكملها وأعمّها وأجلّها، ومن حسنھا أنّ أمر العباد أن یدعوه بها؛ لأنّها وسیلة مقربة إلیه؛ یحبّها ویحبّ من یحبّها، ویحبّ من یحفظها، ویحبّ من یبحث عن معانیها، ویتعبد له بها؛ قال تعالی: ﴿ولله الأسماء الحسنی فادعوه بها﴾.

﴿وهل أتاك حديث موسى ﴿٩﴾ إذ رآ ناراً فقال لأهله أمكثوا إنني آنستُ ناراً لعلني أبلغكم منها ببس أو أجد على النار هدى ﴿١٠﴾ فلما أتتها نودي يموسى ﴿١١﴾ إنني أنا ربك فأخضع نفسك إنك بالواد المقدس طوى ﴿١٢﴾ وأنا اخترتك فاستمع لما يُوحى ﴿١٣﴾ إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري ﴿١٤﴾ إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى ﴿١٥﴾﴾ (١).

﴿٩ - ١٠﴾ يقول تعالی لنبيه محمد ﷺ على وجه الاستفهام التقريري والتعظيم لهذه القصة والتفخيم لها: ﴿هل أتاك حديث موسى﴾: في حاله التي هي مبدأ سعادته ومنشأ نبوته؛ أنه رأى ناراً من بعيد، وكان قد ضلّ الطريق، وأصابه البرد، ولم يكن عنده ما يتدفأ به في سفره. فقال لأهله: ﴿إنني آنستُ﴾؛ أي: أبصرتُ ﴿ناراً﴾: وكان ذلك في جانب الطور الأيمن. ﴿لعلني أتكم منها ببس﴾: تصطلون به، ﴿أو أجد على النار هدى﴾؛ أي: من يهديني الطريق. وكان مطلبه النور الحسي والهداية الحسية، فوجد ثمّ النور المعنوي؛ نور الوحي الذي تستنير به الأرواح والقلوب، والهداية الحقيقية؛ هداية الصراط المستقيم الموصلة إلى جنات النعيم، فحصل له أمر لم يكن في حسابه ولا خطر بياله.

﴿١١﴾ ﴿فلما أتاها﴾؛ أي: النار التي آنسها من بعيد، وكانت في الحقيقة نوراً، وهي نارٌ تحرق وتشرق، ويدل على ذلك قوله ﷺ: «حجابه النور أو النار، لو كسفته؛ لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره» (٢). فلما وصل إليها؛ نودي منها؛ أي: ناداه الله؛ كما قال: ﴿ونادينا من جانب الطور الأيمن وقرّبناه نجياً﴾.

(١) ما بين المعقوفين زيادة على النسختين. (٢) أخرجه مسلم (١٧٩)، عن أبي موسى.

﴿١٢﴾ ﴿إني أنا ربُّكَ فاخلعْ نعلَيْكَ إِنَّكَ بالوادِ المقدَّسِ طوى﴾: أخبره أنَّه ربُّه، وأمره أن يستعدَّ ويتهيأً لمناجاته ويهتَمَ لذلك، ويُلقِي نعليه، لأنَّه بالوادي المقدَّس المطهر المعظَّم، ولو لم يكن من تقدسيه إلاَّ أنَّه<sup>(١)</sup> اختاره لمناجاته كليمه موسى؛ لكفى. وقد قال كثيرٌ من المفسرين: إنَّ الله أمره أن يُلقِي نعليه لأنهما من جلد حمارٍ<sup>(٢)</sup>؛ فالله أعلم بذلك.

﴿١٣﴾ ﴿وأنا اخترتُكَ﴾؛ أي: تخيَّرتك واصطفيتك من الناس، وهذه أكبر نعمةٍ ومئة أنعم الله بها عليه تقتضي من الشكر ما يليق بها، ولهذا قال: ﴿فاستمع لما يُوحى﴾؛ أي: ألق سمعك للذي أوحى إليك؛ فإنَّه حقيقٌ بذلك؛ لأنَّه أصل الدين ومبدؤه وعماد الدعوة الإسلامية.

﴿١٤﴾ ثم بيَّن الذي يوحى إليه بقوله: ﴿إِنِّي أنا الله لا إله إلاَّ أنا﴾؛ أي: الله المستحقُّ الألوهية المتَّصف بها؛ لأنه الكامل في أسمائه وصفاته، المنفرد بأفعاله، الذي لا شريك له ولا مثيل ولا كفو ولا سميَّ. ﴿فاعْبُدني﴾: بجميع أنواع العبادة ظاهرها وباطنها أصولها وفروعها. ثم خصَّ الصلاة بالذكر، وإن كانت داخلةً في العبادة؛ لفضلها وشرفها وتضمُّنها عبودية القلب واللسان والجوارح. وقوله: ﴿ليذكرني﴾: اللام للتعليل؛ أي: أقم الصلاة لأجل ذكرِك إِيَّاي؛ لأن ذكره تعالى أجلُّ المقاصد، وبه<sup>(٣)</sup> عبودية القلب، وبه سعادته؛ فالقلب المعطلُّ عن ذكر الله معطلُّ عن كلِّ خير وقد خرب كلَّ الخراب، فشرع الله للعباد أنواع العبادات التي المقصود منها إقامة ذكره، وخصوصاً الصلاة؛ قال تعالى: ﴿اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إنَّ الصلاة تُنهي عن الفحشاء والمنكر ولذكرُ الله أكبر﴾؛ أي: ما فيها من ذكر الله أكبرٌ من نهيها عن الفحشاء والمنكر، وهذا النوع يقال له: توحيد الإلهية وتوحيد العبادة؛ فالألوهية وصفه تعالى، والعبودية وصف عبده.

﴿١٥﴾ ﴿إنَّ الساعة آتيةٌ﴾؛ أي: لا بدَّ من وقوعها، ﴿أكاد أخفيها﴾؛ أي: عن نفسي؛ كما في بعض القراءات؛ كقوله تعالى: ﴿يسألونك عن الساعة قلَّ إنَّما

(١) في (ب): «أن الله».

(٢) أخرجه الترمذي (١٧٣٤)، والحاكم في «المستدرک» (٣٧٩/٢)، وتعقبه الذهبي، وقال الألباني: «ضعيف جداً». انظر «ضعيف سنن الترمذي» (٢٩١).

(٣) في (ب): «وهو».

علمها عند الله، وقال: ﴿وعنده علم الساعة﴾؛ فعلمها قد أخفاه عن الخلائق كلهم؛ فلا يعلمها ملك مقرَّب ولا نبي مرسل، والحكمة في إتيان الساعة: ﴿لَتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾: من الخير والشر؛ فهي الباب لدار الجزاء، ﴿لَيَجْزِي الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾.

﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ (١١).

﴿١٦﴾ أي: فلا يصدُّك ويشغلك عن الإيمان بالساعة والجزاء والعمل لذلك من كان كافراً بها، غير معتقِد لوقوعها، يسعى في الشك فيها والتشكيك، ويجادل فيها بالباطل، ويقيم من الشبه ما يقدر عليه؛ متبعاً في ذلك هواه، ليس قصده الوصول إلى الحق، وإنما قصاره أتباع هواه؛ فإياك أن تصغي إلى من هذه حاله أو تقبل شيئاً من أقواله وأعماله الصادرة عن الإيمان بها والسعي لها سعيها. وإنما حذر الله تعالى عن هذه حاله؛ لأنه من أخوف ما يكون على المؤمن بوسوسته وتدجيله وكون النفوس مجبولة على التشبه والافتداء بأبناء الجنس، وفي هذا تنبيه وإشارة إلى التحذير عن كل داع إلى باطل، يصد عن الإيمان الواجب أو عن كماله، أو يوقع الشبهة في القلب، وعن النظر في الكتب المشتعلة على ذلك.

وذكر في هذا الإيمان به وعبادته والإيمان باليوم الآخر؛ لأن هذه الأمور الثلاثة أصول الإيمان وركن الدين، وإذا تمت؛ تم أمر الدين، ونقصه أو فقده بنقصها أو نقص شيء منها. وهذه نظير قوله تعالى في الإخبار عن ميزان سعادة الفرق الذين أتوا الكتاب وشقاوتهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. وقوله: ﴿فتردى﴾؛ أي: تهلك وتشقى إن أتبت طريق من يصد عنها، وقوله تعالى:

﴿وَمَا تَلَكَ يَمِينِكَ يَمْسُونَ﴾ (٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَى ﴿٨﴾ قَالَ أَلْقَاهَا يَمْسُونَ ﴿٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حِجَّةٌ تَسْعَى ﴿١٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴿١١﴾ وَأَضْمَمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةٌ أُخْرَى ﴿١٢﴾ لِزَيْكٍ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿١٣﴾.

﴿١٧﴾ لما بين الله لموسى أصل الإيمان؛ أراد أن يبين له ويريه من آياته ما

يطمئن به قلبه، وتقرُّ به عينه، ويقوى إيمانه بتأييد الله له على عدوه، فقال: ﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾: هذا مع علمه تعالى، ولكن لزيادة الاهتمام في هذا الموضوع؛ أخرج الكلام بطريق الاستفهام.

﴿١٨﴾ فقال موسى: ﴿هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي﴾: ذكر فيها هاتين المنفعتين؛ منفعة لجنس الآدمي، وهو أنه يعتمد عليها في قيامه ومشيه، فيحصل فيها معونة ومنفعة للبهائم، وهو أنه كان يرعى الغنم؛ فإذا رعاها في شجر الخبط ونحوه؛ هشَّ بها؛ أي: ضرب الشجر ليتساقط ورقه فيرعاها الغنم. هذا الخلق الحسن من موسى عليه السلام الذي من آثاره حُسْنُ رعاية الحيوان البهيم والإحسان إليه دلٌّ على عناية من الله له واصطفاءً وتخصيص تفضيه رحمة الله وحكمته. ﴿ولي فيها مآرب﴾؛ أي: مقاصد ﴿أخرى﴾: غير هذين الأمرين.

ومن أدب موسى عليه السلام أن الله لما سأله عما في يمينه، وكان السؤال محتملاً عن السؤال عن عينها أو منفعتها؛ أجابه بعينها ومنفعتها.

﴿١٩ - ٢٠﴾ فقال الله له: ﴿ألقها يا موسى. فآلقاها فإذا هي حية تسعى﴾: انقلبت بإذن الله ثعباناً عظيماً، فولى موسى هارباً خائفاً ولم يعقب.

وفي وصفها بأنها تسعى إزالة لوهم يمكن وجوده، وهو أن يُظنَّ أنها تخييل لا حقيقة؛ فكونها تسعى يزيل هذا الوهم.

﴿٢١﴾ فقال الله لموسى: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾؛ أي: ليس عليك منها بأس، سنعيدها سيرتها الأولى؛ أي: هيئتها وصفتها؛ إذ كانت عصا، فامتثل موسى أمر الله إيماناً به وتسليماً، فأخذها، فعادت عصاه التي كان يعرفها. هذه آية.

﴿٢٢﴾ ثم ذكر الآية الأخرى، فقال: ﴿واضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾؛ أي: أدخل يدك إلى جيبيك، وضمْ عليك عَضْدَكَ الذي هو جناح الإنسان؛ ﴿تَخْرُجُ بِيضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ﴾؛ أي: بياضاً ساطعاً من غير عيب ولا برص. ﴿آيةً أخرى﴾.

﴿٢٣﴾ قال الله: ﴿فَذَانِكَ بَرَهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلِكِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾؛ ﴿لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾؛ أي: فعلنا ما ذكرنا من انقلاب العصا حية تسعى ومن خروج اليد بياضاً للناظرين، لأجل أن تُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى الدالَّة على صحَّة رسالتك وحقيقة ما جئت به، فيطمئن قلبك، ويزداد علمك، وتثق بوعد الله لك بالحفظ والنصرة، ولتكون حجة وبرهاناً لمن أرسلت إليهم.

﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَبَيِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَأَحْلِلْ  
عَقْدَةَ مِنِّ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰزُونَ أَجْمَى ﴿٣٠﴾ أَشَدُّ بِهِ  
أَزْرَى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَىٰ سَجَّكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَتَذَكَّرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا  
﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ .

﴿٢٤﴾ لما أوحى الله إلى موسى ونبأه وأراه الآيات الباهرات؛ أرسله إلى فرعون ملك مصر، فقال: ﴿أذهب إلى فرعون إنه طغى﴾؛ أي: تمرد وزاد على الحد في الكفر والفساد والعلو في الأرض والقهر للضعفاء، حتى إنه ادعى الربوبية والألوهية قبحة الله؛ أي: وطغيانه سبب لهلاكه، ولكن من رحمة الله وحكمته وعدله أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة بالرسل.

﴿٢٥﴾ فحينئذ علم موسى عليه السلام أنه تحمّل حملاً عظيماً؛ حيث أرسل إلى هذا الجبار العنيد، الذي ليس له منازع في مصر من الخلق، وموسى عليه السلام وحده، وقد جرى منه ما جرى من القتل، فامتثل أمر ربه، وتلقاه بالانشرح والقبول، وسأله المعونة وتيسير الأسباب التي هي من تمام الدعوة، فقال: ﴿رب اشرخ لي صدري﴾؛ أي: وسّعه وافسحه لأتحمل الأذى القولي والفعلي، ولا يتكدر قلبي بذلك، ولا يضيق صدري؛ فإن الصدر إذا ضاق؛ لم يصلح صاحبه لهداية الخلق ودعوتهم؛ قال الله لنبينا محمد ﷺ: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾، وعسى الخلق يقبلون الحق مع اللين وسعة الصدر وانشراحه عليهم.

﴿٢٦﴾ ﴿ويسز لي أمري﴾؛ أي: سهل عليّ كل أمر أسلكه وكل طريق أقصده في سبيلك، وهون عليّ ما أمامي من الشدائد، ومن تيسير الأمر أن ييسر للداعي أن يأتي جميع الأمور من أبوابها، ويخاطب كل أحد بما يناسب له، ويدعوه بأقرب الطرق الموصلة إلى قبول قوله.

﴿٢٧ - ٢٨﴾ ﴿واحلل عقدة من لساني﴾. يَفْقَهُوا قَوْلِي: وكان في لسانه ثقل لا يكاد يفهم عنه الكلام كما قال المفسرون؛ كما قال الله عنه: إنه قال: ﴿وأخي هارون هو أفصح مني لساناً﴾، فسأل الله أن يحل منه عقدة؛ يفقهوا ما يقول، فيحصل المقصود التأم من المخاطبة والمراجعة والبيان عن المعاني.

﴿٢٩ - ٣٠﴾ ﴿واجعل لي وزيراً من أهلي﴾؛ أي: عويناً يعاونني ويؤازرنني

ويساعدني على من أرسلت إليهم، وسأل أن يكون من أهله؛ لأنه من باب البر، وأحق بـير الإنسان قرابته. ثم عيَّنه بسؤاله، فقال: ﴿هارونَ أخي﴾.

﴿٣٢ - ٣١﴾ ﴿اشدد به أزري﴾؛ أي قوَّني به وشدَّ به ظهري. قال الله: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكَمَّا سُلْطَانًا﴾، ﴿وأشركه في أمري﴾؛ أي: في النبوة؛ بأن تجعله نبياً رسولاً كما جعلتني.

﴿٣٣ - ٣٤﴾ ثم ذكر الفائدة في ذلك، فقال: ﴿كي نسبحك كثيراً. ونذكرك كثيراً﴾: علم عليه الصلاة (والسلام)<sup>(١)</sup> أن مدار العبادات كلها والدين على ذكر الله، فسأل الله أن يجعل أخاه معه يتساعدان ويتعاونان على البر والتقوى، فيكثر منهما ذكرك الله من التسييح والتهليل وغيره من أنواع العبادات.

﴿٣٥﴾ ﴿إنك كنت بنا بصيراً﴾: تعلمُ حالنا وضعفنا وعجزنا وافتقارنا إليك في كل الأمور، وأنت أبصر بنا من أنفسنا وأرحم؛ فمَن علينا بما سألناك، وأجب لنا فيما دعوناك.

﴿٣٦﴾ فقال الله: ﴿قد أوتيت سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾؛ أي: أعطيت جميع ما طلبت، فسشرح صدرك، ونيسر أمرك، ونحل عقدة من لسانك؛ يفقهوا قولك، ونشدَّ ﴿عَضُدَكَ بِأَخِيكَ هَارُونَ، وَنَجْعَلُ لَكَمَّا سُلْطَانًا؛ فَلَإِيَّاكُمْ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾.

وهذا السؤال من موسى عليه السلام، يدلُّ على كمال معرفته بالله وكمال فطنته ومعرفته للأمور وكمال نصحه، وذلك أن الداعي إلى الله المرشد للخلق، خصوصاً إذا كان المدعو من أهل العناد والتكبر والطغيان<sup>(٢)</sup>، يحتاج إلى سعة صدر، وحلم تام على ما يصيبه من الأذى، ولسان فصيح يتمكن من التعبير به عن ما يريده ويقصده، بل الفصاحة والبلاغة لصاحب هذا المقام من ألزم ما يكون؛ لكثرة المراجعات والمراوضات، ولحاجته لتحسين الحق وتزيينه بما يقدر عليه؛ ليحببه إلى النفوس، وإلى تقبيح الباطل وتهجينه لينفر عنه، ويحتاج مع ذلك أيضاً أن يتيسر له أمره، فيأتي البيوت من أبوابها، ويدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن؛ يعامل الناس كلاً بحسب حاله، وتمام ذلك أن يكون لمن هذه صفته أعوانٌ ووزراءٌ يساعدونه على مطلوبه؛ لأن الأصوات إذا كثرت؛ لا

(١) كلمة (السلام) زيادة على النسختين. (٢) في (ب): «عناد وتكبر وطغيان».



بَدَّ أَنْ تَوَثَّرَ؛ فَلذَلِكَ سَأَلَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هَذِهِ الْأُمُورَ، فَأَعْطَيْهَا.

وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى حَالَةِ الْأَنْبِيَاءِ الْمُرْسَلِينَ إِلَى الْخَلْقِ؛ رَأَيْتَهُمْ بِهَذِهِ الْحَالِ بِحَسَبِ أَحْوَالِهِمْ، خُصُوصاً خَاتَمَهُمْ وَأَفْضَلَهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ؛ فَإِنَّهُ فِي الدَّرُورَةِ الْعَلِيَا مِنْ كُلِّ صِفَةِ كَمَالٍ، وَلَهُ مِنْ شَرْحِ الصَّدْرِ وَتَيْسِيرِ الْأَمْرِ وَفِصَاحَةِ اللِّسَانِ وَحَسَنِ التَّعْبِيرِ وَالْبَيَانِ وَالْأَعْوَانِ عَلَى الْحَقِّ مِنَ الصَّحَابَةِ فَمَنْ بَعْدَهُمْ مَا لَيْسَ لِغَيْرِهِ.

﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَا يُوحَى ﴿٣٨﴾ أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيَلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ بِأَعْدُوِّ لِي وَعَدُوِّ لَمْ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَذَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ﴿٤٠﴾ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴿٤١﴾ وَقَلَّاتِ نَفْسًا فَجَعَيْنَاكَ مِنَ الْغَمْرِ وَفَنَّكَ فَنُورًا فَلَمَّتْ سِينِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَصْطَفَيْنَاكَ لِنَفْسِي ﴿٤٣﴾﴾

﴿٣٧ - ٣٩﴾ لَمَّا ذَكَرَ مِنْتَهُ عَلَىٰ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُوسَىٰ بْنِ عِمْرَانَ فِي الدِّينِ وَالْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ وَإِجَابَةَ سُؤْلِهِ؛ ذَكَرَ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِ وَقَتَّ التَّرْبِيَةَ وَالتَّنْقِلاتَ فِي أَطْوَارِهِ، فَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾: حَيْثُ أَلْهَمْنَا أُمَّكَ أَنْ تَقْدِفَكَ فِي التَّابُوتِ وَقَتَّ الرِّضَاعِ خَوْفًا مِنْ فِرْعَوْنَ؛ لِأَنَّهُ أَمَرَ بِذَبْحِ أَبْنَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَأَخَفْتَهُ أُمُّهُ وَخَافَتْ عَلَيْهِ خَوْفًا شَدِيدًا، فَقَدَفْتَهُ فِي التَّابُوتِ، ثُمَّ قَدَفْتَهُ فِي الْيَمِّ؛ أَي: شَطَّ نَيْلِ مِصْرَ، فَأَمَرَ اللَّهُ الْيَمَّ أَنْ يُلْقِيَهُ فِي السَّاحِلِ، وَقِيَّضَ أَنْ يَأْخُذَهُ أَعْدَى الْأَعْدَاءِ لِلَّهِ وَلِمُوسَىٰ، وَيَتْرَبِي فِي أَوْلَادِهِ، وَيَكُونُ قَرَّةَ عَيْنٍ لِمَنْ رَأَاهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾؛ فَكُلُّ مَنْ رَأَاهُ أَحَبَّهُ. ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾؛ أَي: وَلِتَتْرَبِي عَلَىٰ نَظْرِي وَفِي حَفْظِي وَكَلَامِي، وَأَيُّ نَظَرٍ وَكِفَالَةٍ أَجَلٌ وَأَكْمَلُ مِنْ وَايَةِ الْبَرِّ الرَّحِيمِ الْقَادِرِ عَلَىٰ إِيْصَالِ مِصَالِحِ عَبْدِهِ وَدَفْعِ الْمِضَارِّ عَنْهُ؛ فَلَا يَنْتَقِلُ مِنْ حَالَةٍ إِلَىٰ حَالَةٍ إِلَّا وَاللَّهُ تَعَالَىٰ هُوَ الَّذِي دَبَّرَ ذَلِكَ لِمِصْلَحَةِ مُوسَىٰ!

﴿٤٠﴾ وَمِنْ حَسَنِ تَدْبِيرِهِ أَنَّ مُوسَىٰ لَمَّا وَقَعَ فِي يَدِ عَدُوِّهِ؛ قَلَقَتْ أُمُّهُ قَلَقًا شَدِيدًا، وَأَصْبَحَ فُؤَادُهَا فَارِعًا، وَكَادَتْ تُخَيِّرُ بِهِ، لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ ثَبَّتَهَا وَرَبَطَ عَلَىٰ قَلْبِهَا؛ فَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَىٰ مُوسَىٰ الْمِرَاضِعَ؛ فَلَا يَقْبَلُ ثَدْيَ امْرَأَةٍ قَطُّ؛ لِيَكُونَ مَالَهُ إِلَىٰ أُمِّهِ فَتَرْضِعَهُ وَيَكُونُ عِنْدَهَا مَطْمَئِنَّةً سَاكِنَةً قَرِيرَةَ الْعَيْنِ، فَجَعَلُوا يَعْضُونَ عَلَيْهِ الْمِرَاضِعَ؛ فَلَا يَقْبَلُ ثَدْيًا، فَجَاءَتْ أُخْتُ مُوسَىٰ، فَقَالَتْ لَهُمْ: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾: عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتِ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ، ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ

تَقَرَّرَ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنُ وَقَتَلْتَ نَفْسًا: وهو القبطي لما دخل المدينة وقت غفلة من أهلها وَجَدَ رَجُلَيْنِ يَقْتَتَلَانِ: واحد من شيعة موسى والآخر من عدوه قبطي، فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه، فَوَكَّرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ، فدعا الله وسأله المغفرة فَغَفَرَ لَهُ، ثم فرَّ هارباً لما سمع أن الملائكة طلبوه يريدون قتله. ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾<sup>(١)</sup>: من عقوبة الذنب ومن القتل، ﴿وَقَتَّلْنَاكَ فُتُونًا﴾؛ أي: اخترناك وبلونناك فوجدناك مستقيماً في أحوالك، أو نقلناك في أحوالك وأطوارك حتى وصلت إلى ما وصلت إليه. ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾: حين فرَّ هارباً من فرعون وملئه حين أرادوا قتله، فتوجَّه إلى مدين، ووصل إليها، وتزوج هناك، ومكث عشر سنين أو ثمان سنين، ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾؛ أي: جئت مجيئاً ليس اتفاقاً من غير قصد ولا تدبير مئاً، بل بقدرٍ ولطف مئاً<sup>(٢)</sup>، ولهذا يدلُّ على كمال اعتناء الله بكليمه موسى عليه السلام.

﴿٤١﴾ ولهذا قال: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾؛ أي: أجريت عليك صنائعي ونعمي وحسن عوائدي وتربيتي؛ لتكون لنفسي حبيباً مختصاً، وتبلغ في ذلك مبلغاً لا يناله أحد من الخلق إلا النادر منهم.

وإذا كان الحبيب إذا أراد اصطناع حبيبه من المخلوقين، وأراد أن يبلغ من الكمال المطلوب له ما يبلغ؛ يبذل غاية جهده ويسعى نهاية ما يمكنه في إيصاله لذلك؛ فما ظنك بصنائع الربِّ القادر الكريم؟! وما تحسبه يفعل بمن أَرَادَهُ لِنَفْسِهِ، واصطفاه من خلقه.

﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نُبَيِّنَا فِي ذِكْرِي﴾<sup>(٤١)</sup> ﴿أَذْهَبَا إِلَيْنَا فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾<sup>(٤٢)</sup> ﴿فَقَوْلًا لَهُ قَوْلًا لِنَا لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ أَوْ يَخْشَوْنَ﴾<sup>(٤٣)</sup> ﴿فَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾<sup>(٤٤)</sup> ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾<sup>(٤٥)</sup>.

﴿٤٢﴾ لما امتنَّ الله على موسى بما امتنَّ به من النعم الدينية والدنيوية؛ قال له: ﴿أذهب أنت وأخوك﴾: هارون ﴿بآياتي﴾؛ أي: الآيات التي مني، الدالة على الحقِّ وحسنه وقبح الباطل؛ كاليد والعصا ونحوها؛ في تسع آياتٍ إلى فرعون وملئه،

(١) في (ب): «فنجاه الله».

(٢) في (ب): «أي جئت مجيئاً قد مضى به القدر وعلمه الله وأراده في هذا الوقت وهذا الزمان وهذا المكان ليس مجيئك».

﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾؛ أي: لا تفترا ولا تكسلا عن مداومة ذِكْرِي بالاستمرار عليه والزَّمَاهُ كما وعدتُما بذلك: ﴿كِي نَسَبَحَكَ كَثِيرًا وَنَذَكْرَكَ كَثِيرًا﴾؛ فَإِنَّ ذَكَرَ اللَّهُ فِيهِ مَعُونَةً عَلَى جَمِيعِ الْأُمُورِ؛ يَسْهَلُهَا، وَيَخَفِّفُ حَمْلَهَا.

﴿٤٣﴾ ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾؛ أي: جاوز الحدَّ في كفرِهِ وطغيَانِهِ وظلمه وعدوانه.

﴿٤٤﴾ ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا﴾؛ أي: سهلاً لطيفاً برفق ولين وأدبٍ في اللفظ من دون فحش ولا صلفٍ ولا غِلْظَةٍ في المقال أو فظاظَةٍ في الأفعال. ﴿لَعَلَّهُ﴾: بسبب القول اللين ﴿يَتَذَكَّرُ﴾: ما ينفعه فيأتيه ﴿أَوْ يَخْشَى﴾: ما يضره فيتركه؛ فَإِنَّ الْقَوْلَ اللَّيِّنَ دَاعٍ لِّلذِّكْرِ، وَالْقَوْلَ الْغَلِيظَ مَنْقُوعٌ عَنِ صَاحِبِهِ، وَقَدْ فُسرَ الْقَوْلُ اللَّيِّنُ فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزْكَىٰ. وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾؛ فَإِنَّ فِي هَذَا الْكَلَامِ مِنْ لَطْفِ الْقَوْلِ وَسَهُولَتِهِ وَعَدَمِ بَشَاعَتِهِ مَا لَا يَخْفَى عَلَى الْمَتَأَمِّلِ؛ فَإِنَّهُ أَتَى بِـ ﴿هَلْ﴾ الدَّالَّةَ عَلَى الْعَرَضِ وَالْمَشَاوِرَةِ، الَّتِي لَا يَشْمِئُزُّ مِنْهَا أَحَدٌ، وَدَعَاهُ إِلَى التَّزْكِيِّ وَالتَّطَهُّرِ مِنَ الْأَدْنَسِ، الَّتِي أَصْلُهَا التَّطَهُّرُ مِنَ الشَّرْكِ، الَّذِي يَقْبَلُهُ كُلُّ عَقْلٍ سَلِيمٍ، وَلَمْ يَقُلْ: أَزْكِيكَ، بَلْ قَالَ: ﴿تَزْكَى﴾: أَنْتَ بِنَفْسِكَ، ثُمَّ دَعَاهُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ الَّذِي رَبَّاهُ وَأَنْعَمَ عَلَيْهِ بِالنِّعَمِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، الَّتِي يَنْبَغِي مَقَابَلَتَهَا بِشُكْرِهَا وَذِكْرِهَا، فَقَالَ: ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾، فَلَمَّا لَمْ يَقْبَلْ هَذَا الْكَلَامَ اللَّيِّنَ الَّذِي يَأْخُذُ حَسَنُهُ بِالْقُلُوبِ؛ عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَنْجِعُ فِيهِ تَذَكِيرٌ، فَأَخَذَهُ اللَّهُ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ.

﴿٤٥﴾ ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يُفْرَطَ عَلَيْنَا﴾؛ أي: يبادرنا بالعقوبة والإيقاع بنا قبل أن تبلِّغهُ رسالاتك، ونقيم عليه الحجَّةَ، ﴿أَوْ أَنْ يُطغَى﴾؛ أي: يتمرّد عن الحقِّ، ويطنغي بملكه وسلطانهِ وجنْدِهِ وأَعْوَانِهِ.

﴿٤٦﴾ ﴿قَالَ لَا تَخَافَا﴾: أَنْ يُفْرَطَ عَلَيْكُمَا؛ ﴿إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾؛ أي: أنتمَا بحفظي ورعايتي، أسمع قولكُمَا، وأرى جميع أحوالكُمَا؛ فلا تخافا منه. فزال الخوفُ عنهُما، واطمأنت قلوبُهُما بوعد ربُّهُما.

﴿فَأَيُّهَا قَوْلًا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ أَتَبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿٤٧﴾ أي: فأتياه بهُذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ: دَعْوَتُهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَتَخْلِيصُ هَذَا الشَّعْبِ الشَّرِيفِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ قَيْدِهِ وَتَعْبِيدِهِ لَهُمْ؛ لِيَتَحَرَّرُوا وَيَمْلِكُوا أَمْرَهُمْ، وَيَقِيمَ فِيهِمْ

موسى<sup>(١)</sup> شرع الله ودينه. ﴿قد جئناك بآية﴾: تدلُّ على صدقنا، فألقى موسى عصاه؛ فإذا هي ثعبانٌ مبينٌ، ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين... إلى آخر ما ذَكَرَ اللهُ عنهما. ﴿والسلام على من اتَّبَعَ الهدى﴾؛ أي: من اتَّبَعَ الصراط المستقيم واهتدى بالشرع المبين؛ حصلت له السلامة في الدنيا والآخرة.

﴿٤٨﴾ ﴿إنا قد أوحى إلينا﴾؛ أي: خبرنا<sup>(٢)</sup> من عند الله لا من عند أنفسنا؛ ﴿أن العذاب على من كذَّب وتولَّى﴾؛ أي: كذَّب بأخبار الله وأخبار رسوله، وتولَّى عن الانقياد لهم واتباعهم، وهذا فيه الترغيب لفرعون بالإيمان والتصديق واتباعهما والترهيب من ضد ذلك، ولكن لم يُفِذ فيه هذا الوعظ والتذكير، فأنكر ربه وكفر وجادل في ذلك ظلماً وعناداً.

﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَبْصُرُ رَبِّي وَلَا يَسَىٰ ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْزُقُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ مِنَّا خَلَقْنَكُمْ فِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنَّا نُفْرِحْكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿٤٩﴾ أي: قال فرعون لموسى على وجه الإنكار: ﴿فمن ربكما يا موسى؟﴾  
 ﴿٥٠﴾ فأجاب موسى بجواب شافٍ كافٍ واضح، فقال: ﴿ربُّنا الذي أعطى كلَّ شيءٍ خَلْقَهُ ثم هدى﴾؛ أي: ربُّنا الذي خلق جميع المخلوقات، وأعطى كلَّ مخلوق خَلْقَهُ اللائق به، [الدال] على حسن صنعة من خلقه، من كبر الجسم وصغره وتوسطه وجميع صفاته، ثم هدى كلَّ مخلوق إلى ما خَلَقَهُ له، وهذه الهداية الكاملة<sup>(٣)</sup> المشاهدة في جميع المخلوقات؛ فكلُّ مخلوق تجده يسعى لما خُلِقَ له من المنافع وفي دفع المضارِّ عنه، حتَّى إنَّ الله أعطى الحيوان البهيم من العقل ما يتمكَّن<sup>(٤)</sup> به على ذلك، وهذا كقوله تعالى: ﴿الذي أحسن كلَّ شيءٍ خَلْقَهُ﴾: فالذي خَلَقَ المخلوقات، وأعطاهَا خَلْقَهَا الحسن الذي لا تقترح العقول فوق حسنه، وهداها لمصالحها؛ هو الربُّ على الحقيقة؛ فإنكاره إنكارٌ لأعظم الأشياء وجوداً،

(١) في (ب): «ويقيم موسى فيهم».

(٢) في (ب): «خبر».

(٣) في (ب): «العامة».

(٤) في (ب): «ما تمكَّن».

وهو مكابرةٌ ومجاهرةٌ بالكذب؛ فلو قُدِّرَ أَنَّ الإنسانَ أنكر من الأمور المعلومة ما أنكر؛ كان إنكارُهُ لربِّ العالمين أكبر من ذلك.

﴿٥١﴾ ولهذا لما لم يمكن فرعون أن يعانِدَ هذا الدليل القاطع؛ عدل إلى المشاغبة، وحاد عن المقصود، فقال لموسى: ﴿فما بالُ القرون الأولى﴾؛ أي: ما شأنهم؟ وما خبرهم؟ وكيف وصلت بهم الحال وقد سبقونا إلى الإنكار والكفر والظلم والعناد ولنا فيهم أسوة؟

﴿٥٢﴾ فقال موسى: ﴿علمها عند ربِّي في كتاب لا يضلُّ ربِّي ولا ينسى﴾؛ أي: قد أحصى أعمالهم من خيرٍ وشرٍّ، وكتبه في كتابه<sup>(١)</sup>، وهو اللوح المحفوظ، وأحاط به علماً وخبراً؛ فلا يضلُّ عن شيء منها ولا ينسى ما علِمَهُ منها، ومضمون ذلك أنهم قَدِمُوا إلى ما قَدَمُوهُ ولاقوا أعمالهم وسيجازون عليها؛ فلا معنى لسؤالك واستفهامك يا فرعون عنهم؛ فتلك أمةٌ قد خلت، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم؛ فإن كان الدليل الذي أوردناه عليك والآيات التي أريناكها قد تحققت صدقها ويقينها، وهو الواقع؛ فانقذ إلى الحق، ودع عنك الكفر والظلم وكثرة الجدل بالباطل، وإن كنت قد شككت فيها أو رأيتها غير مستقيمة؛ فالطريق مفتوح، وباب البحث غير مغلق، فَرُدِّ الدليل بالدليل والبرهان بالبرهان، ولن تجدَ لذلك سبيلاً ما دام الملوان<sup>(٢)</sup>؛ كيف وقد أخبر الله عنه أنه جَحَدَها مع استيقانها؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلماً وَعُلُوًّا﴾، وقال موسى: ﴿لقد علمت ما أنزل هؤلاءِ إلا ربُّ السمواتِ والأرضِ بصائرٍ﴾؟! فَعَلِمَ أنه ظالمٌ في جداله، قصده العلوُّ في الأرض.

﴿٥٣﴾ ثم استطرد في هذا الدليل القاطع بذكر كثيرٍ من نعمه وإحسانه الضروري، فقال: ﴿الذي جَعَلَ لكم الأرضَ مهتداً﴾؛ أي: فرأشاً بحالةٍ تتمكنون من السكون فيها والقرار والبناء والغراس وإثارها للازدراع وغيره، وذلكها لذلك، ولم يجعلها ممتنعةً عن مصلحةٍ من مصالحكم. ﴿وسلَّكَ لكم فيها سُبُلًا﴾؛ أي: نفذ لكم الطرق الموصلة من أرض إلى أرض، ومن قطر إلى قطر، حتى كان الآدميون يتمكنون من الوصول إلى جميع الأرض بأسهل ما يكون، وينتفعون بأسفارهم أكثر مما ينتفعون بإقامتهم. ﴿وأَنْزَلَ من السماءِ ماءً فأخْرَجْنَا به أزواجاً من نباتٍ شتى﴾؛

(١) في (ب): «في كتاب».

(٢) الملوان: أي الليل والنهار.

أي: أنزل المطر، فأحيا به الأرض بعد موتها، وأثبت بذلك جميع أصناف النوبات على اختلاف أنواعها وتشتت أشكالها وتباين أحوالها، فساقه وقدره ويسره رزقاً لنا ولأنعامنا، ولولا ذلك؛ لهلك من عليها من آدمي وحيوان.

﴿٥٤﴾ ولهذا قال: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾: وسياقها على وجه الامتنان؛ ليدل ذلك على أن الأصل في جميع النوبات الإباحة؛ فلا يخزُم منها إلا ما كان مضرًا كالسموم ونحوه. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾؛ أي: لذوي العقول الرزينة والأفكار المستقيمة، على فضل الله وإحسانه ورحمته وسعة جوده وتمام عنايته، وعلى أنه الربُّ المعبود المالك المحمود، الذي لا يستحقُّ العبادة سواه، ولا الحمد والمدح والثناء إلا من امتنَّ بهذه النعم، وعلى أنه على كل شيء قدير؛ فكما أحيا الأرض بعد موتها؛ إن ذلك لمحبي الموتى. وخصَّ الله أولي النهى بذلك لأنهم المنتفعون بها الناظرون إليها نظر اعتبار، وأما من عداهم؛ فإنهم بمنزلة البهائم السارحة والأنعام السائمة، لا ينظرون إليها نظر اعتبار، ولا تنفذ بصائرهم إلى المقصود منها، بل حظُّهم حظُّ البهائم؛ يأكلون ويشربون وقلوبهم لاهية وأجسادهم<sup>(١)</sup> مُعْرِضَةٌ، ﴿وَكَايُنَ مِنْ آيَةِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾.

﴿٥٥﴾ ولما ذكَّر كرم الأرض وحسن شكرها لما يُنزله الله عليها من المطر، وأنها بإذن ربِّها تُخرج النبات المختلف الأنواع؛ أخبر أنه خَلَقْنَا منها، وفيها يعيدنا إذا متنا فدفنَّا فيها، ومنها يخرجنا ﴿تَارَةً أُخْرَى﴾؛ فكما أوجدنا منها من العدم، وقد علمنا ذلك وتحققناه؛ فسيعيدنا بالبعث منها بعد موتنا؛ ليجازينا بأعمالنا التي عملناها عليها. وهذان دليلان على الإعادة عقليَّان واضحيان: إخراج النبات من الأرض بعد موتها، وإخراج المكلفين منها في إيجادهم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ﴿٥٧﴾ فَلَمَّا آتَيْنَكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا تُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحَشَّرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ آفَتَرَى

(١) في (ب): «وأجسامهم».

﴿٦١﴾ [فَنَنْزَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسَجْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرْفَيْكُمُ الْمَثَلَى ﴿٦٣﴾ فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَنتُوا صَفَاً وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى ﴿٦٤﴾ قَالُوا يُمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلِ الْقَوْلُ فِإِنَّا جَاهِلُهُمْ وَعَصِيئُهُمْ يُجِئُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَا نَسْتَعِي ﴿٦٦﴾ فَأَوْحَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى ﴿٦٧﴾ فَلَمَّا لَا تَخَفُ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿٦٨﴾ وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ لَلْقَفِ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَنْ ﴿٦٩﴾ فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجْدًا قَالُوا ءَأَمَنَّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَى ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَأَمَنتمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَأَذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأرجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَأَلْصِقَنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿٧١﴾ قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَيَّ مَا جَاءَنَا مِنْ آلِيْنَتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا ءَأَمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنْ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَبْقَى ﴿٧٣﴾ ﴿١﴾ .

﴿٥٦﴾ يخبر تعالى أنه أرى فرعون من الآيات والعبر والقواطع جميع أنواعها العيانية والأفقية والنفسية؛ فما استقام ولا ارعوى، وإنما كذب وتولى؛ كذب الخبير وتولى عن الأمر والنهي، وجعل الحق باطلاً والباطل حقاً، وجادل بالباطل ليضل الناس.

﴿٥٧﴾ فقال: ﴿أَجْتَنَّا لِنُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكُ﴾: زعم أن هذه الآيات التي أراه إياها موسى سحرٌ وتمويه، المقصود منها إخراجهم من أرضهم والاستيلاء عليها؛ ليكون كلامه مؤثراً في قلوب قومه؛ فإنَّ الطباع تميل إلى أوطانها، ويصعبُ عليها الخروج منها ومفارقتها، فأخبرهم أن موسى هذا قصده؛ لِيُغْضِوه وَيَسْعُوا فِي محاربتِهِ.

﴿٥٨﴾ ﴿فَلنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ﴾: مثل سحرِك، فأمهلنا واجعل لنا ﴿موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى﴾؛ أي: مستوٍ علمنا وعلمك به، أو مكاناً مستوياً معتدلاً لتتمكن من رؤية ما فيه.

﴿٥٩﴾ فقال موسى: ﴿موعدكم يوم الزينة﴾: وهو عيدهم الذي يتفرغون فيه ويقطعون شواغلهم، ﴿وأن يُخَشِّرَ النَّاسَ ضَحَى﴾؛ أي: يُجمعون كلهم في وقت

الضحى . وإنما سأل موسى ذلك لأن يوم الزينة ووقت الضحى منه يحصل منه كثرة الاجتماع ورؤية الأشياء على حقائقها ما لا يحصل في غيره .

﴿٦٠﴾ ﴿فتولّى فرعونُ فجمع كيدَه﴾ ؛ أي : جميع ما يقدرُ عليه مما يكيد به موسى ، فأرسل في مدائه من يحشُرُ السحرة الماهرين في سحرهم ، وكان السحر إذ ذاك متوفراً ، وعلمه <sup>(١)</sup> مرغوباً فيه ، فجمع خلقاً كثيراً من السحرة ، ثم أتى كلُّ منهما للموعِد ، واجتمع الناس للموعِدِ ، فكان الجمعُ حافلاً ، حضره الرجال والنساء والملا والأشراف والعوامُّ والصغار والكبار ، وحضوا الناس على الاجتماع ، وقالوا ﴿للناس هل أنتم مجتمعون لعلنا نتيع السحرة إن كانوا هم الغالبين﴾ .

﴿٦١﴾ فحين اجتمعوا من جميع البلدان ؛ وَعَظَّمهم موسى عليه السلام ، وأقام عليهم الحجَّة ، وقال لهم : ﴿ويلكم <sup>(٢)</sup> لا تفتروا على الله كذباً فيسحجتكم عذاب﴾ ؛ أي : لا تنصروا ما أنتم عليه من الباطل بسحركم ، وتغالبون الحقَّ ، وتفترون على الله الكذب ، فيستأصلكم عذاب من عنده ، ويخيب سعيكم وافتراؤكم ؛ فلا تدركون ما تطلبون من النصر والجاه عند فرعون وملئه ، ولا تسلموا من عذاب الله .

﴿٦٢﴾ وكلام الحق لا بد أن يؤثر في القلوب ، لا جرم ارتفع الخصام والنزاع بين السحرة لما سمعوا كلام موسى وارتبكوا ، ولعل من جملة نزاعهم الاشتباه في موسى هل هو على الحق أم لا؟ ولكنهم إلى الآن ما تم أمرهم ؛ ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ؛ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة ؛ فحينئذ أسروا فيما بينهم النجوى ، وأنهم يتفقون على مقالة واحدة ؛ لينجحوا في مقالهم وفعالهم ، وليتمسك الناس بدينهم .

﴿٦٣﴾ والنجوى التي أسروها فسرها بقوله : ﴿قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما﴾ ؛ كمقالة فرعون السابقة ؛ فإما أن يكون ذلك توافقاً من فرعون والسحرة على هذه المقالة من غير قصد ، وإما أن يكون تلقيناً منه لهم مقالته التي صمم عليها وأظهرها للناس ، وزادوا على قول فرعون أن قالوا : ﴿ويذهب بطريقتكم المثلى﴾ ؛ أي : طريقة السحر ؛ حسدكم عليها ، وأراد أن يظهر عليكم ؛ ليكون له الفخرُ والصيتُ والشهرة ، ويكون هو المقصودُ بهذا العلم الذي شغلتم زمانكم فيه ويذهب عنكم ما كنتم تأكلون بسببه ، وما يتبع ذلك من الرياسة .

(١) في (ب) : «وعلمه علماً» .

(٢) في (ب) : «ويحكم» .



﴿٦٤﴾ وهذا حِصٌّ من بعضهم على بعض<sup>(١)</sup> على الاجتهاد في مغالبته، ولهذا قالوا: ﴿فأجمعوا كيدكم﴾؛ أي: أظهروه دفعةً واحدةً متظاهرين متساعدين فيه متناصرين متفقاً رأيكم وكلمتكم، ﴿لم أتوا صفاً﴾: ليكونَ أمكنَ لعملكم وأهيبَ لكم في القلوب، ولثلاً يترك بعضكم بعضَ مقدوره من العمل، واعلموا أن مَنْ أفلح اليوم ونجح وغلب غيره؛ فإنه المفلح الفائز؛ فهذا يومٌ له ما بعده من الأيام؛ فما<sup>(٢)</sup> أصلهم في باطلهم وأشدّهم فيه! حيث أتوا بكل سببٍ ووسيلةٍ وممكنٍ ومكيدةٍ يكيّدون بها الحقّ.

﴿٦٥﴾ ويأبى الله إلا أن يُتِمَّ نوره ويظهر الحقّ على الباطل، فلما تمّت مكيدتهم وانحصر قصدهم ولم يبقَ إلا العمل؛ ﴿قالوا﴾ لموسى: ﴿ما أن تلقي﴾: عصاك، ﴿وإما أن نكونَ أولَ من ألقى﴾: خيروه موهمين أنهم على جزم من ظهورهم عليه بأيّ حالة كانت.

﴿٦٦﴾ فقال لهم موسى: ﴿بل ألقوا﴾: فآلقوا حبالهم وعصيهم؛ ﴿فإذا حبالهم وعصيهم يُخِيلُ إليه﴾؛ أي: إلى موسى ﴿من سحرهم﴾: البليغ، ﴿أنها تسعى﴾: [أنها حيات تسعى].

﴿٦٧﴾ فلما خِيلَ إلى موسى ذلك؛ أوجس في نفسه خيفةً كما هو مقتضى الطبيعة البشريّة، وإلاً؛ فهو جازمٌ بوعد الله ونصره.

﴿٦٨﴾ ﴿قلنا له﴾: تثبتاً وتطميناً: ﴿لا تخف إنك أنت الأعلى﴾: عليهم؛ أي: ستعلو عليهم، وتقهرهم، ويدلّوا لك، ويخضعوا.

﴿٦٩﴾ ﴿والق ما في يمينك﴾؛ أي: عصاك؛ ﴿تلقف ما صنعوا إنّما صنعوا كيد ساحرٍ ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾؛ أي: كيدهم ومكرهم ليس بمثمرٍ لهم ولا ناجح؛ فإنه من كيد السحرة الذين يموّهون على الناس ويُلَبِّسون الباطل ويخيلون أنهم على الحقّ.

﴿٧٠﴾ فألقى موسى عصاه، فتلقفت ما صنعوا كلّه وأكلته، والناسُ ينظرون لذلك الصنيع، فعلمَ السحرةُ علماً يقيناً أن هذا ليس بسحر، وأنّه من الله، فبادروا للإيمان، ﴿فألقي السحرة﴾ ساجدين، ﴿قالوا آمنا بربّ العالمين ربّ موسى

(١) في (ب): «لبعض».

(٢) في (ب): «فله درهم ما...». وقد طمسها الشيخ في (أ).

وهارون، ﴿فوقع الحقُّ وظهر وسطع، وبطل السحر والمكر والكيدُ في ذلك المجمع العظيم، فصارت بيّنة ورحمةً للمؤمنين وحجّةً على المعاندين.

﴿٧١﴾ فقال فرعون للسحرة: ﴿آمنتم له قبل أن آذنَ لكم﴾؛ أي: كيف أقدمتم على الإيمان من دون مراجعة منِّي ولا إذن، استغرب ذلك منهم لأدبهم معه وذلهم وانقيادهم له في كلِّ أمر من أمورهم، وجعل هذا من ذاك، ثم استلجَّ فرعونُ في كفره وطغيانه بعد هذا البرهان، واستخفَّ بقوله<sup>(١)</sup> قومه، وأظهر لهم أنَّ هذه الغلبة من موسى للسحرة ليس لأنَّ الذي معه الحقُّ، بل لأنَّه تمالاً هو والسحرة ومكروا ودبروا أن يخرجوا فرعونَ وقومه من بلادهم، فقبل قومه هذا المكرَ منه، وظنَّوه صدقاً، ﴿فاستخفَّ قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾؛ مع أنَّ هذه المقالة التي قالها لا تدخلُ عقلَ من له أدنى مُسكة من عقلٍ ومعرفةٍ بالواقع؛ فإنَّ موسى أتى من مَدِينٍ وحيداً، وحين أتى؛ لم يجتمع بأحدٍ من السحرة ولا غيرهم، بل بادَرَ إلى دعوة فرعون وقومه، وأراهم الآيات، فأراد فرعونُ أن يعارضَ ما جاء به موسى، فسعى ما أمكنه، وأرسل في مدائنه من يجمع له كلَّ ساحرٍ عليم، فجاؤوا إليه، ووعدهم الأجر والمنزلة عند الغلبة، وهم حرصوا غاية الحرص وكادوا أشدَّ الكيد على غلبتهم لموسى، وكان منهم ما كان؛ فهل يمكن أو يتصوَّر مع هذا أن يكونوا دبروا هم وموسى وأتفقوا على ما صدر؟! هذا من أمحل المحال. ثم توعد فرعونُ السحرة فقال: لا قُطْعَنَ ﴿أيديكم وأرجلكم من خلاف﴾: كما يفعل بالمحاربِ الساعي بالفساد؛ يَقْطَعُ يده اليمنى ورجله اليسرى. ﴿ولأصلبنتكم في جذوع النخل﴾؛ أي: لأجل أن تشتهروا وتخزوا. ﴿ولتغلمنَّ أينا أشدَّ عذاباً وأبقى﴾؛ يعني: بزعمه هو وأمه<sup>(٢)</sup> وأنه أشدَّ عذاباً من الله وأبقى؛ قلباً للحقائق، وترهيباً لمن لا عقل له.

﴿٧٢﴾ ولهذا؛ لما عرَفَ السحرةُ الحقَّ ورزقهم الله من العقل ما يدركون به الحقائق؛ أجابوه بقولهم: ﴿لن نُؤثركَ على ما جاءنا من البينات﴾ [أي لن نختارك وما وعدتنا به من الأجر والتقريب على ما أَرانا الله من الآيات البينات]: الدالَّات على أنَّ الله هو الربُّ المعبود وحده، المعظَّم المبجل وحده، وأنَّ ما سواه باطلٌ، ونؤثركَ على الذي فطرنا وخلقنا، هذا لا يكونُ. ﴿فاقض ما أنت قاض﴾: مما أوعدتنا به من القطع والصلب والعذاب، ﴿إنما تقضي هذه الحياةَ الدنيا﴾؛ أي:

(١) في (ب): «عقول».

(٢) كذا في (أ)، وفي (ب): «هو أو الله».

إنما توعدنا به غاية ما يكون في هذه الحياة الدنيا ينقضي ويزول ولا يضرنا؛ بخلاف عذاب الله لمن استمر على كفره؛ فإنه دائم عظيم. وهذا كأنه جوابٌ منهم لقوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾. وفي هذا الكلام من السحرة دليلٌ على أنه ينبغي للعاقل أن يوازن بين لذات الدنيا ولذات الآخرة وبين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

﴿٧٣﴾ ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾؛ أي: كُفِّرْنَا وَمَعَاصِينَا؛ فَإِنَّ الْإِيمَانَ مَكْفَرٌ لِلْسَيِّئَاتِ، وَالتَّوْبَةُ تَجِبُ مَا قَبْلَهَا. وَقَوْلُهُمْ: ﴿وَمَا أَكْرَهْتُنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾: الَّذِي عَارَضْنَا بِهِ الْحَقَّ. هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ غَيْرُ مَخْتَارِينَ فِي عَمَلِهِمُ الْمُتَقَدِّمِ، وَإِنَّمَا [أَكْرَهُهُمْ] <sup>(١)</sup> فَرَعُونَ إِكْرَاهًا. وَالظَّاهِرُ - وَاللَّهِ أَعْلَمُ - أَنَّ مُوسَى لَمَّا وَعَظَهُمْ - كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيْلٌ لَكُمْ لَا تَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيَسْحَاحَكُمْ بِعَذَابٍ﴾ أَثَّرَ مَعَهُمْ وَوَقَعَ مِنْهُمْ مَوْقِعًا كَبِيرًا، وَلِهَذَا تَنَازَعُوا بَعْدَ هَذَا الْكَلَامِ وَالْمَوْعِظَةِ. ثُمَّ إِنَّ فَرَعُونَ أَلْزَمَهُمْ ذَلِكَ وَأَكْرَهُهُمْ عَلَى الْمَكْرِ الَّذِي أُجْرُوهُ، وَلِهَذَا تَكَلَّمُوا بِكَلَامِهِ السَّابِقِ قَبْلَ إِتْيَانِهِمْ؛ حَيْثُ قَالُوا: ﴿إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا﴾، فَجَرَّوْا عَلَى مَا سَنَّهُ لَهُمْ وَأَكْرَهُهُمْ عَلَيْهِ. وَلَعَلَّ هَذِهِ النِّكْتَةُ الَّتِي قَامَتْ بِقُلُوبِهِمْ مِنْ كِرَاهَتِهِمْ لِمُعَارَضَةِ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ، وَفَعَلَهُمْ مَا فَعَلُوا عَلَى وَجْهِ الْإِغْمَاضِ هِيَ الَّتِي أَثَّرَتْ مَعَهُمْ وَرَحِمَهُمُ اللَّهُ بِسَبَبِهَا، وَوَفَّقَهُمُ لِلْإِيمَانِ وَالتَّوْبَةِ. ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ﴾: مِمَّا أَوْعَدْتُنَا <sup>(٢)</sup> مِنَ الْأَجْرِ وَالْمَنْزِلَةِ وَالْجَاهِ، ﴿وَأَبْقَى﴾: ثَوَابًا وَإِحْسَانًا، لَا مَا يَقُولُ فَرَعُونَ: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾؛ يَرِيدُ أَنَّهُ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى.

وجميع ما أتى من قصص موسى مع فرعون يذكُرُ الله فيه إذا أتى على قصة السحرة أن فرعون توعدهم بالقطع والصلب ولم يذكر أنه فعل ذلك، ولم يأت في ذلك حديثٌ صحيح، والجزم بوقوعه أو عدمه يتوقف على الدليل. والله أعلم بذلك وغيره، [ولكن توعدناه إياهم بذلك مع اقتداره، دليل على وقوعه، ولأنه لو لم يقع لذكره الله، ولانفاق الناقلين على ذلك].

﴿إِنَّهُمْ مَن يَأْتِ رَبَّهُمْ مَجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ (٧٤) ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ (٧٥) ﴿جَنَّتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ (٧٦).

﴿٧٤﴾ يخبر تعالى أن من أتاه وقدم عليه مجرماً - أي: وصفه الجرم من كل وجه،

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «أكرهم». (٢) في (ب): «وعدتنا».

وذلك يستلزم الكفر - واستمرَّ على ذلك حتى مات؛ فإنَّ له نار جهنم الشديد نكالها، العظيمة أغلالها، البعيد قعرها، الأليم حرها وقرها، التي فيها من العقاب ما يُذيب الأكباد والقلوب، ومن شدة ذلك أنَّ المعدَّب فيها لا يموت ولا يحيا، لا يموت فيستريح ولا يحيا حياة يتلذَّذ بها، وإنما حياته محشوة بعذاب القلب والروح والبدن، الذي لا يُقدَّر قدره ولا يُفتر عنه ساعة؛ يستغيثُ فلا يُغاث، ويدعو فلا يُستجاب له؛ نعم؛ إذا استغاث؛ أغيث بماء كالمهل يشوي الوجوه، وإذا دعا؛ أجب: بأخسؤوا فيها، ولا تكلمون.

﴿٧٥ - ٧٦﴾ ومن يأت ربّه مؤمناً به، مصداقاً لرسله، متبعاً لكتبه، قد عمل الصالحات الواجبة والمستحبة؛ ﴿فأولئك لهم الدرجات العلى﴾؛ أي: المنازل العاليات في الغرف المزخرفات، واللذات المتواصلات، والأنهار السارحات، والخلود الدائم، والسرور العظيم، فيما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. و﴿ذلك﴾: الثواب ﴿جزاء من تزكّى﴾؛ أي: تطهّر من الشرك والكفر والفسوق والعصيان: إما أن لا يفعلها بالكليّة، أو يتوب مما فعله منها، وزكّى أيضاً نفسه، ونمّاها بالإيمان والعمل الصالح؛ فإنَّ للتزكية معنيين: التنقية، وإزالة الخبث، والزيادة بحصول الخير، وسمّيت الزكاة زكاة لهذين الأمرين.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ مَرِيفًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ۖ فَلَئِنَّهُمْ فَرَعُونَٰ يُجْتَوِيهِمْ فَغَشِيَهُمْ مِّنَ اللَّيْلِ مَا غَشِيَهُمْ ۗ ۝٧٨ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ۗ ۝٧٩﴾.

﴿٧٧ - ٧٩﴾ لما ظهر موسى بالبراهين على فرعون وقومه؛ مكث في مصر يدعوهم إلى الإسلام ويسعى في تخليص بني إسرائيل من فرعون وعذابه، وفرعون في عتو ونفور، وأمره شديد على بني إسرائيل، ويريه الله من الآيات والعبر ما قصه الله علينا في القرآن، وبنو إسرائيل لا يقدرون أن يُظهِروا إيمانهم ويعلنوه، قد اتخذوا بيوتهم مساجد، وصبروا على فرعون وأذاه، فأراد الله تعالى أن ينجيهم من عدوهم ويمكن لهم في الأرض؛ ليعبدوه جَهراً ويُقيموا أمره، فأوحى إلى نبيّه موسى أن يواعد بني إسرائيل سراً ويسيروا أول الليل ليطمادوا<sup>(١)</sup> في الأرض، وأخبره أنَّ فرعون وقومه سَيَتَّبِعُونَهُ، فخرجوا أول الليل، جميع بني إسرائيل [هم] ونساؤهم وذريّتهم، فلما أصبح أهل مصر، وإذا هم ليس فيهم منهم داعٍ ولا

(١) في (ب): «الكلمة غير واضحة».

مَجِيبٌ، فَحَتَّقَ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ فِرْعَوْنَ، وَأَرْسَلَ فِي الْمَدَائِنِ مَنْ يَجْمَعُ لَهُ النَّاسَ وَيَحْضُهُمْ عَلَى الْخُرُوجِ فِي أَثَرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، [ليوقع بهم وينفذ غيظه، واللّه غالب على أمره، فتكاملت جنود فرعون فسار بهم يتبع بني إسرائيل] فَاتَّبَعُوهُمْ مَشْرِيقِينَ، فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانَ؛ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى: إِنَّا لَمَدْرُكُونَ، وَقَلِقُوا، وَخَافُوا: الْبَحْرَ أَمَامَهُمْ. وَفِرْعَوْنَ مِنْ وَرَائِهِمْ؛ قَدْ امْتَلَأَ عَلَيْهِمْ غِيظًا وَحَنَقًا، وَمُوسَى مُطْمَئِنُّ الْقَلْبِ سَاكِنُ الْبَالِ، قَدْ وَثِقَ بِوَعْدِ رَبِّهِ فَقَالَ: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾؛ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ يَضْرِبَ الْبَحْرَ بَعْصَاهُ، فَضْرِبَهُ، فَانْفَرَقَ اثْنِي عَشَرَ طَرِيقًا، وَصَارَ الْمَاءُ كَالْجِبَالِ الْعَالِيَةِ عَنِ يَمِينِ الطَّرِيقِ وَيَسَارِهَا، وَأَيَسَّ اللَّهُ طُرُقَهُمَ الَّتِي انْفَرَقَ عَنْهَا الْمَاءُ، وَأَمَرَهُمُ اللَّهُ أَنْ لَا يَخَافُوا مِنْ إِدْرَاكِ فِرْعَوْنَ وَلَا يَخْشَوْا مِنَ الْغُرُقِ فِي الْبَحْرِ، فَسَلَكُوا فِي تِلْكَ الطَّرِيقِ، فَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ، فَسَلَكُوا وَرَاءَهُمْ، حَتَّى تَكَامَلَ قَوْمُ مُوسَى خَارِجِينَ وَقَوْمُ فِرْعَوْنَ دَاخِلِينَ؛ أَمَرَ اللَّهُ الْبَحْرَ، فَالْتَطَمَ عَلَيْهِمْ، وَعَشِيَّهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ، وَغَرَقُوا كُلَّهُمْ، وَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَبَنُو إِسْرَائِيلَ يَنْظُرُونَ إِلَى عَدُوِّهِمْ، قَدْ أَقْرَأَ اللَّهُ أَعْيُنَهُمْ بِهَلَاكِهِ<sup>(١)</sup>، وَهَذَا عَاقِبَةُ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ وَعَدَمِ الْإِهْتِدَاءِ بِهَدْيِ اللَّهِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ﴾: بِمَا زَيَّنَ لَهُمُ مِنَ الْكُفْرِ، وَتَهَجِينِ مَا أَتَى بِهِ مُوسَى، وَاسْتِخْفَافِهِ إِيَّاهُمْ، وَمَا هَدَاهُمْ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ، فَأَوْرَدَهُمْ مَوَارِدَ الْغِيِّ وَالضَّلَالِ، ثُمَّ أَوْرَدَهُمْ مَوَارِدَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ.

﴿يَبْنَیْ إِسْرَائِيلَ قَدْ أَجْنَيْتُمْ مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّٰنَ وَالسَّلْوٰی ﴿٨٠﴾ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَد هَوٰی ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدٰی ﴿٨٢﴾﴾.

﴿٨٠ - ٨١﴾ يَذْكُرُ تَعَالَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مَنَّتهُ الْعَظِيمَةَ عَلَيْهِمْ بِإِهْلَاكِ عَدُوِّهِمْ، وَمَوَاعِدَتِهِ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِجَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ؛ لِيَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ الَّذِي فِيهِ الْأَحْكَامُ الْجَلِيلَةُ وَالْأَخْبَارُ الْجَمِيلَةُ، فَتَمَّ عَلَيْهِمُ النِّعْمَةُ الدِّينِيَّةُ بَعْدَ النِّعْمَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَيَذْكُرُ مَنَّتهُ أَيْضًا عَلَيْهِمْ فِي التَّيِّهِ بِإِنْزَالِ الْمَنَّٰنِ وَالسَّلْوٰی وَالرِّزْقِ الرَّغْدِ الْهَنِيِّ، الَّذِي يَحْضُلُ لَهُمْ بِلَا مَشَقَّةٍ، وَأَنَّهُ قَالَ لَهُمْ: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾؛ أَي: وَاشْكُرُوهُ عَلَى مَا أَسَدَى إِلَيْكُمْ مِنَ النِّعْمِ. ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾؛ أَي: فِي رِزْقِهِ فَتَسْتَعْمَلُونَهُ فِي مَعَاصِيهِ وَتَبْطَرُونَ النِّعْمَةَ فَإِنَّكُمْ إِنْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ حَلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي؛

(١) كذا في (أ) وفي (ب): «بهلاكهم».

أي: غضبتُ عليكم ثم عدتُ بكم. ﴿وَمَنْ يَخْلُلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾؛ أي: ردي وهلك وخاب وخسر؛ لأنه عدِمَ الرِّضَا والإحسان، وحلَّ عليه الغضب والخسران.

﴿٨٢﴾ ومع هذا؛ فالتوبة معروضة، ولو عمل العبد ما عمل من المعاصي، ولهذا قال: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ﴾؛ أي: كثير المغفرة والرحمة، ﴿لَمَنْ تَابَ﴾: من الكفر والبدعة والفسوق، و﴿آمَنَ﴾: بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾: من أعمال القلب والبدن وأقوال اللسان، ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾؛ أي: سلك الصراط المستقيم، وتابع الرسول الكريم، واقتدى بالدين القويم؛ فهذا يغفر الله أوزاره، ويعفو عما تقدّم من ذنبه وإصراره؛ لأنه أتى بالسبب الأكبر للمغفرة والرحمة، بل الأسباب كلها منحصرة في هذه الأشياء؛ فإنَّ التوبة تجب ما قبلها، والإيمان والإسلام يهدم ما قبله، والعمل الصالح الذي هو الحسنات يُذهب السيئات، وسلوك طرق الهداية، بجميع أنواعها، من تعلم علم وتدبر آية أو حديث، حتى يتبيّن له معنى من المعاني يهتدي به، ودعوة إلى دين الحقّ وردّ بدعة أو كفر أو ضلالة وجهاد وهجرة وغير ذلك، من جزئيات الهداية كلها مكفّرات للذنوب محصّلات لغاية المطلوب.

﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى﴾ ﴿٨٢﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَيَّ أَتْرَى وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿٨٣﴾ قَالَ فَإِنَّا كَدَّفَتْنَا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ النَّامِرِيُّ ﴿٨٤﴾ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَقُولُونَ لَا نَبَأَ لِقَوْمِكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَسًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَقْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٥﴾

﴿٨٣﴾ كان الله تعالى قد واعد موسى أن يأتيه ليُنزَلَ عليه التوراة ثلاثين ليلة، فأتىها بعشر، فلما تمّ الميعات؛ بادر موسى عليه السلام إلى الحضور للموعود شوقاً لرَبِّه وحرصاً على موعوده، فقال الله له: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى﴾؛ أي: ما الذي قدّمك عليهم؟ ولم لم تصبر حتى تقدّم أنت وهم؟

﴿٨٤﴾ ﴿قال هم أولاء على أثري﴾؛ أي: قريباً مني، وسيصلون في أثري، والذي عَجَّلني إليك يا ربّ الطلب<sup>(١)</sup> لقربك والمسارة<sup>(٢)</sup> في رضاك والشوق<sup>(٣)</sup> إليك.

(٢) في (ب): «ومسارة».

(١) في (ب): «طلباً».

(٣) في (ب): «وشوقاً».

﴿٨٥﴾ فقال الله له: ﴿فإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾؛ أي: بعبادتهم للعجل ابتليناهم واختبرناهم فلم يصبروا، وحين وصلت إليهم المحنة كفروا، ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾: فأخرج لهم عجلاً جسداً وصاله فصار له خوار، وقال لهم: هذا إلهكم وإله موسى، فنسيه موسى، فافتتن به بنو إسرائيل، فعبدوه، ونهاهم هارون، فلم ينتهوا.

﴿٨٦﴾ فلما رجع موسى إلى قومه وهو غضبان أسف؛ أي: ممتلىء غيظاً وحنقاً وغماً؛ قال لهم موبخاً ومقبحاً لفعالهم: ﴿يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعْذِكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدَاً حَسَنًا﴾: وذلك بإنزال التوراة. ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾؛ أي: المدة فتناولتم غيبيتي وهي مدة قصيرة؟! هذا قول كثير من المفسرين، ويحتمل أن معناه: أظال عليكم عهد النبوة والرسل، فلم يكن لكم بالنبوة علم ولا أثر، واندرست آثارها، فلم تقفوا منها على خير، فانمحت آثارها لبعث العهد بها، فعبدتم غير الله لغلبة الجهل وعدم العلم بآثار الرسالة؟! أي: ليس الأمر كذلك، بل النبوة بين أظهركم، والعلم قائم، والعدر غير مقبول. ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ﴾: بفعالكم ﴿أَنْ يَجَلَ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾؛ أي: فتعرضتم لأسبابه واقتحمتم موجب عذابه، وهذا هو الواقع. ﴿فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾: حين أمرتكم بالاستقامة ووصيت بكم هارون فلم ترقبوا غائباً ولم تحترموا حاضراً.

﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَدَفْتَهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُمْ خُورًا فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ ﴿

﴿٨٧ - ٨٨﴾ أي: قالوا له: ما فعلنا الذي فعلنا عن تعمدٍ منا وملكٍ منا لأنفسنا، ولكن السبب الداعي لذلك أننا تأمنا من زينة القوم التي عندنا، وكانوا فيما يذكرون استعاروا حلياً كثيراً من القبط، فخرجوا وهو معهم، وألقوه وجمعوه حين ذهب موسى ليراجعوه فيه إذا رجع، وكان السامريُّ قد بصر يوم الغرق بأثر الرسول، فسوّلت له نفسه أن يأخذ قبضةً من أثره، وأنه إذا ألقاها على شيءٍ حيٍّ فتنة وامتحاناً، فألقاها على ذلك العجل الذي صاعه بصورة عجل، فتحرّك العجل وصار له خوارٌ وصوتٌ، وقالوا: إن موسى ذهب يطلبُ ربّه، وهو هاهنا، فنسيه.

﴿٨٩﴾ وهذا من بلادتهم وسخافة عقولهم؛ حيث رأوا هذا الغريب الذي صار له خوارٌ بعد أن كان جماداً، فظنّوه إله الأرض والسماوات، أفلا يرون أن العجل لا

﴿يرجع إليهم قولاً﴾؛ أي: لا يتكلم ويراجعهم ويراجعونه، ﴿ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً﴾؛ فالعادم للكمال والكلام والفعال لا يستحق أن يُعبد، وهو أنقص من عابديه؛ فإنهم يتكلمون ويقدرّون على بعض الأشياء من النفع والدفع بإقدار الله لهم.

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقْوَمُوا إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَهْدُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحِيَّتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنْ حَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾.

﴿٩٠ - ٩١﴾ أي: إنهم باتخاذهم<sup>(١)</sup> العجل ليسوا معذورين فيه؛ فإنه وإن كانت عرّضت لهم الشبهة في أصل عبادته؛ فإن هارون قد نهاهم عنه، وأخبرهم أنه فتنة، وأن ربهم الرحمن الذي منه النعم الظاهرة والباطنة، الدافع للنقم، وأنه أمرهم أن يتبعوه ويعتزلوا العجل، فأبوا وقالوا: ﴿لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى﴾.

﴿٩٢ - ٩٣﴾ فأقبل موسى على أخيه لائماً له، وقال: ﴿يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلّوا. أن لا تتبعين﴾: فتخبرني لأبادر للرجوع إليهم. ﴿أف عصيت أمري﴾: في قولي: ﴿أخلفني في قومي وأضلخ ولا تتبع سبيل المفسدين﴾: فأخذ موسى برأس هارون ولحيته يجره من الغضب والعتب عليه.

﴿٩٤﴾ فقال هارون: ﴿يا ابن أم﴾: تريق له، وإلا فهو شقيقه. ﴿لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقّب قولي﴾: فإنك أمرتني أن أخلفك فيهم؛ فلو تبعتك؛ لتركت ما أمرتني بلزوميه، وخشيت لائمك، وأن تقول: فرقت بين بني إسرائيل؛ حيث تركتهم وليس عندهم راع ولا خليفة؛ فإن هذا يفرقهم، ويشتت شملهم؛ فلا تجعلني مع القوم الظالمين، ولا تشمت فينا الأعداء. فندم موسى على ما صنع بأخيه وهو غير مستحق لذلك، فقال: ﴿رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين﴾.

ثم أقبل على السامري:

(١) في (ب): «أن اتخاذهم».



﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَمِيرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ، فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾﴾ قَالَ فَأَذْهَبَ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسٌ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تَخْلَفَنَّهُ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾ .

﴿٩٥ - ٩٦﴾ أي: ما شأنك يا سامريُّ حيثُ فعلتَ ما فعلتَ؟ فقال: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾: وهو جبريلُ عليه السلام على فرس، رآه وقت خروجهم من البحر وغرق فرعون وجنوده على ما قاله المفسرون، ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ﴾ حافر فرسه، فنبدتها على العجل، ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾: أن أقبضها ثم أنبذها، فكان ما كان.

﴿٩٧﴾ فقال له موسى: اذهب؛ أي: تباعد عني واستأخر مني. ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسٌ﴾؛ أي: تعاقب في الحياة عقوبة، لا يدنو منك أحدٌ ولا يمسُّك أحدٌ، حتى إن من أراد القرب منك؛ قلت له: لا تمسني ولا تقرب مني؛ عقوبة على ذلك؛ حيث مس ما لم يمسه غيره وأجرى ما لم يجره أحدٌ. ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تَخْلَفَنَّهُ﴾: فتجازى بعملك من خيرٍ وشرٍّ. ﴿وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾؛ أي: العجل، ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾: ففعل موسى ذلك؛ فلو كان إلهاً؛ لامتنع ممن يريد به بأذى ويسعى له بالإتلاف. وكان قد أشرب العجل في قلوب بني إسرائيل، فأراد موسى عليه السلام إتلافه وهم ينظرون على وجه لا تمكن إعادته؛ بالإحراق والسحق ودزيره في اليمِّ ونسفه؛ ليزول ما في قلوبهم من حبه كما زال شخصه، ولأن في إبقائه محنة؛ لأن في النفوس أقوى داعٍ إلى الباطل.

فلما تبين لهم بطلانه؛ أخبرهم بمن يستحق العبادَة وحده لا شريك له، فقال:

﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ .

﴿٩٨﴾ أي: لا معبود إلا وجهه الكريم؛ فلا يؤله ولا يحب ولا يرجى ولا يخاف ولا يدعى إلا هو؛ لأنه الكامل الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلى، المحيط علمه بجميع الأشياء، الذي ما من نعمة بالعباد إلا منه، ولا يدفع سوء إلا هو؛ فلا إله إلا هو، ولا معبود سواه.

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَلْدَيْنَ فِيهِ وَسَاءَ لَهْمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾ .

﴿٩٩﴾ يمتنُّ اللهُ تعالى على نبيه ﷺ بما قصه عليه من أنباء السابقين وأخبار السالفين؛ كهذه القصة العظيمة، وما فيها من الأحكام وغيرها، التي لا ينكرها أحدٌ من أهل الكتاب؛ فأنت لم تدرُس أخبار الأولين، ولم تتعلَّم ممَّن دراهم؛ فأخبارك بالحقِّ اليقين من أخبارهم دليلٌ على أنك رسولُ الله حقًّا، وما جئت به صدقًا، ولهذا قال: ﴿وقد آتيناك من لدنَّا﴾؛ أي: عطية نفيسة ومِنحة جزيلة من عندنا، ﴿ذِكْرًا﴾: وهو هذا القرآن الكريم؛ ذكُرٌ للأخبار السابقة واللاحقة، وذِكْرٌ يَتَذَكَّرُ به ما لله تعالى من الأسماء والصفات الكاملة، وَيَتَذَكَّرُ به أحكام الأمر والنهي وأحكام الجزاء، وهذا ممَّا يدُلُّ على أنَّ القرآن مشتملٌ على أحسن ما يكون من الأحكام، التي تشهد العقول والفطرُ بحسنها وكمالها، ويذكُرُ هذا القرآن ما أودع اللهُ فيها، وإذا كان القرآن ذكْرًا للرسول ولأمته؛ فيجبُ تلقُّيه بالقبول والتسليم والانقياد والتعظيم، وأن يُهتدى بنوره إلى الصراط المستقيم، وأن يُقبِلوا عليه بالتعلُّم والتعليم.

﴿١٠٠﴾ وأما مقابله بالإعراض أو ما هو أعظم منه من الإنكار؛ فإنه كفرٌ لهذه النعمة، ومن فعل ذلك؛ فهو مستحقٌّ للعقوبة، ولهذا قال: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾: فلم يؤمن به أو تهاون بأوامره ونواهيهِ أو بتعلُّم معانيه الواجبة، ﴿فإنه يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾: وهو ذنبه الذي بسببه أعرض عن القرآن، وأولاه الكفر والهجران.

﴿١٠١﴾ ﴿خالدين فيه﴾؛ أي: في وِزْرهم؛ لأنَّ العذاب هو نفس الأعمال، تنقلب عذاباً على أصحابها بحسب صغرها وكبرها، ﴿وساء لهم يوم القيامة حِمْلًا﴾؛ أي: بشس الحمل الذي يحملونه والعذاب الذي يعذبونه يوم القيامة.

ثم استطرَد فذكر أحوال يوم القيامة وأهواله فقال:

﴿يَوْمَ يُفْخِ فِي الصُّورِ وَتَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾ .

﴿١٠٢ - ١٠٤﴾ أي: إذا نُفِخَ في الصور، وخرج الناس من قبورهم؛ كل على حسب حاله؛ فالمتَّقون يُحْشَرُونَ إلى الرحمن وفدًا، والمجرمون يُحْشَرُونَ زُرْقًا

ألوانهم من الخوف والقلق والعطش؛ يتناجون بينهم ويتخافتون<sup>(١)</sup> في قصرٍ مدة الدنيا وسرعة الآخرة، فيقول بعضهم ما لبثتم إلا عشرة أيام، ويقول بعضهم غير ذلك، والله يعلم تخافتهم ويسمع ما يقولون: ﴿إِذْ يَقُولُ امثلهم طريقة﴾؛ أي: أعدلهم وأقربهم إلى التقدير: ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾: والمقصود من هذا الندم العظيم؛ كيف ضيعوا الأوقات القصيرة وقطعوا ساهين لاهين معرضين عما ينفعهم مقبلين على ما يضرهم؛ فما قد حضر الجزاء، وحق الوعيد، فلم يبق إلا الندم والدعاء بالويل والثبور؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ. قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفِيعَةَ إِلَّا مَنْ أِذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرِضِيَ لَهُمْ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ. عَلِمًا ﴿١١٠﴾ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾.

﴿١٠٥ - ١٠٧﴾ يخبر تعالى عن أهوال القيامة وما فيها من الزلازل والقتل، فقال: ﴿وسألونك عن الجبال﴾؛ أي: ماذا يصنع بها يوم القيامة؟ وهل تبقى بحالها أم لا؟ ﴿فقل ينسفها ربي نسفا﴾؛ أي: يزيلها ويقلعها من أماكنها، فتكون كالعن وكالرمل، ثم يدكها فيجعلها هباء منبثًا، فتضمحل وتلاشى، ويسويها بالأرض، ويجعل الأرض ﴿قاعاً صفصفاً﴾: مستويًا، ﴿لا ترى فيها﴾: أيها الناظر، ﴿عوجاً﴾: هذا من تمام استوائها، ﴿ولا أمتاً﴾؛ أي: أودية وأماكن منخفضة أو مرتفعة، فتبرز الأرض وتتسع للخلائق ويمدّها الله مدّ الأديم، فيكونون في موقف واحد، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر.

﴿١٠٨ - ١١٠﴾ ولهذا قال: ﴿يومئذ يتبعون الداعي﴾: وذلك حين يُبعثون من قبورهم ويقومون منها؛ يدعوهم الداعي إلى الحضور والاجتماع للموقف، فيتبعونه مهطعين إليه، لا يلتفتون عنه، ولا يعرجون يمنة ولا يسرة. وقوله: ﴿لا عوج له﴾؛

(١) في (ب): «ويتخافتون».

أي: لا عوج لدعوة الداعي، بل تكون دعوته حقاً وصدقاً لجميع الخلق، يُسمِعهم جميعهم، ويصيح لهم أجمعين، فيحضرون لموقف القيامة خاشعةً أصواتهم للرحمن. ﴿فلا تسمعُ إلا همساً﴾؛ أي: إلا وطء الأقدام أو المخافتة سراً بتحريك الشفتين فقط؛ يملكهم الخشوع والسكوت<sup>(١)</sup> والإنصات؛ انتظاراً لحكم الرحمن فيهم، وتعنوا وجوههم؛ أي: تذلُّ وتخضع، فترى في ذلك الموقف العظيم الأغنياء والفقراء والرجال والنساء والأحرار والأرقاء والملوك والسوقة، ساكتين منصتين خاشعةً أبصارهم خاضعةً رقابهم جاثين على رُكبيهم عانيةً وجوههم، لا يدرون ماذا ينفصل كلُّ منهم به ولا ماذا يفعلُ به، قد اشتغل كلُّ بنفسه وشأنه عن أبيه وأخيه وصديقه وحببيه، لكلِّ امرئٍ منهم يومئذٍ شأنٌ يُغنيه، [فحينئذ] يحكم فيه الحاكم العدلُ الديانُ، ويجازي المحسنَ بإحسانه والمسيءَ بالحرمان.

والأمل بالربِّ الكريم الرحمن الرحيم أن يُري الخلائقَ منه من الفضل والإحسان والعفو والصَّفح والغُفران ما لا تعبرُ عنه الألسنة ولا تتصوِّره الأفكار، ويتطلَّع لرحمته إذ ذاك جميعُ الخلق؛ لما يشاهدونه، فيختصُّ المؤمنون به وبرسله بالرحمة. فإن قيل من أين لكم هذا الأمل؟ وإن شئت قلت: من أين لكم هذا العلم بما ذُكِر؟

قلنا: لما نعلمُهُ من غلبةِ رحمتهِ لغضبهِ، ومن سَعَةِ جوده الذي عمَّ جميع البرايا، ومما نشاهده في أنفسنا وفي غيرنا من النعم المتواترة في هذه الدار، وخصوصاً في فضل القيامة؛ فإنَّ قوله: ﴿وخشعتِ الأصواتُ للرحمن﴾ ﴿إلا مَنْ أذِنَ له الرحمن﴾، مع قوله: ﴿الملكُ يومئذٍ الحقُّ للرحمن﴾، مع قوله ﷺ: «إنَّ لله مائةَ رحمةٍ، أنزل لعباده رحمةً بها يتراحمون ويتعاطفون، حتى إن البهيمةَ ترفعُ حافرَها عن ولدها خشيةً أن تطأه»،<sup>(٢)</sup> [أي]: من الرحمة المودعة في قلبها؛ فإذا كان يومُ القيامة؛ ضمَّ هذه الرحمة إلى تسع وتسعين رحمةً، فرحم بها العباد، مع قوله ﷺ: «لله أرحمُ بعباده من الوالدة بولدها»<sup>(٣)</sup>؛ فقل ما شئت عن رحمته؛ فإنها فوق ما تقول، وتصوِّز فوق ما شئت؛ فإنها فوق ذلك؛ فسبحان من رحم في عدله

(١) في (ب): «والسكون».

(٢) كما في «صحيح البخاري» (٦٠٠٠)، و«مسلم» (٢٧٥٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤) بنحوه.

وعقوبته، كما رحم في فضله وإحسانه ومثوبته، وتعالى مَنْ وسعت رحمته كل شيء، وعمّ كرمه كل حي، وجلّ من غني عن عباده رحيم بهم، وهم مفتقرون إليه على الدوام في جميع أحوالهم؛ فلا غنى لهم عنه طرفة عين.

وقوله: ﴿يَوْمئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾؛ أي: لا يشفع أحدٌ عنده من الخلق إلا مَنْ<sup>(١)</sup> أذِنَ له في الشفاعة، ولا يأذن إلا لمن رَضِيَ قوله؛ أي: شفاعته؛ من الأنبياء والمرسلين وعباده المقرّبين فيمن ارتضى قوله وعمله، وهو المؤمن المخلص؛ فإذا اختلَّ واحدٌ من هذه الأمور؛ فلا سبيلٌ لأحدٍ إلى شفاعته من أحد.

﴿١١٢ - ١١١﴾ وينقسم الناس في ذلك الموقف قسمين: ظالمين بكفرهم وشرهم؛ فهؤلاء لا ينالهم إلا الخيبة والحزب والاليم في جهنم وسخط الديان. والقسم الثاني: مَنْ آمَنَ الإيمان المأمور به، وعمل صالحاً من واجب ومسنون؛ ﴿فلا يخاف ظلماً﴾؛ أي: زيادة في سيئاته. ﴿ولا هضماً﴾؛ أي: نقصاً من حسناته، بل تُغْفَرُ ذنوبه وتُطَهَّرُ عيوبه وتضاعفُ حسناته، ﴿وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ ﴿١١٣﴾.

﴿١١٣﴾ أي: وكذلك أنزلنا هذا الكتاب باللسان الفاضل العربي الذي تفهمونه وتفقهونه ولا يخفى عليكم لفظه ولا معناه. ﴿وصرفنا فيه من الوعيد﴾؛ أي: نوعانها أنواعاً كثيرة؛ تارةً بذكر أسمائه الدالة على العدل والانتقام، وتارةً بذكر المثالات التي أحلها بالأمم السابقة، وأمر أن تُعْتَبَرَ بها الأمم اللاحقة، وتارةً بذكر آثار الذنوب وما تُكْسِبُهُ من العيوب، وتارةً بذكر أهوال القيامة وما فيها من المزعجات والمقلقات، وتارةً بذكر جهنم وما فيها من أنواع العقاب وأصناف العذاب؛ كل هذا رحمةً بالعباد؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾: الله، فيتركون من الشر والمعاصي ما يضرهم، ﴿أو يحدث لهم ذكراً﴾: فيعملون من الطاعات والخير ما ينفعهم، فكونه عربياً وكونه مصرفاً فيه من الوعيد أكبر سبب وأعظم داع للتعقوى والعمل الصالح؛ فلو كان غير عربي أو غير مصرف فيه؛ لم يكن له هذا الأثر.

(١) في (ب): «إذا».

﴿فَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (١١٤).

﴿١١٤﴾ لما ذكر تعالى حكمه الجزائي في عبادِهِ، وحكمه الأمريّ الدينيّ الذي أنزله في الكتاب وكان هذا من آثار ملكه؛ قال: ﴿فتعالى الله﴾؛ أي: جلّ وارتفع وتقدّس عن كلّ نقص وآفة. ﴿الملك﴾: الذي المُلْكُ وصفه، والخلق كلّهم ممالك له، وأحكام المُلْكِ القدرية والشرعية نافذة فيهم. ﴿الحق﴾؛ أي: وجوده ومُلكه وكَماله حقّ؛ فصفاة الكمال لا تكون حقيقة إلا لذي الجلال، ومن ذلك الملك؛ فإنّ غيره من الخلق، وإن كان له ملك في بعض الأوقات على بعض الأشياء؛ فإنّه ملكٌ قاصرٌ باطلٌ يزول، وأما الربُّ؛ فلا يزال ولا يزول ملكاً حياً قيوماً جليلاً. ﴿ولا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾؛ أي: لا تبادِرْ بتلقّف القرآن حين يتلوه عليك جبريل، وأصبر حتى يفرغ منه؛ فإذا فرغ منه؛ فاقرأه؛ فإنّ الله قد ضَمَّنَ لك جمعه في صدرك وقراءتك إيّاه؛ كما قال تعالى: ﴿لا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقِرْآنَهُ. فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قِرْآنَهُ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾. ولما كانت عَجَلَتُهُ ﷺ على تلقّف الوحي ومبادرتُهُ إليه يدلُّ على محبّته التامة للعلم وحرصه عليه؛ أمره تعالى أن يسأله زيادة العلم؛ فإنّ العلم خيرٌ، وكثرة الخير مطلوبةٌ، وهي من الله، والطريق إليها الاجتهاد والشوق للعلم وسؤال الله والاستعانة به والافتقار إليه في كل وقت.

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة الأدب في تلقّي العلم، وأنّ المستمع للعلم ينبغي له أن يتأثّر ويصبر حتى يفرغ المملي والمعلم من كلامه المتّصل بعضه ببعض؛ فإذا فرغ منه؛ سأل إن كان عنده سؤال، ولا يبادرُ بالسؤال وقطع كلام مُلقّي العلم؛ فإنّه سببٌ للحرمان، وكذلك المسؤول ينبغي له أن يستملي سؤال السائل ويعرف المقصود منه قبل الجواب؛ فإنّ ذلك سببٌ لإصابة الصواب.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَسَيَ وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ (١١٥).

﴿١١٥﴾ أي: ولقد وصّينا آدم وأمرناه وعهّدنا إليه عهداً ليقوم به، فالتزمه وأذعن له وانقاد وعزم على القيام به، ومع ذلك نسّي ما أمر به، وانتقضت عزمته المحكّمة، فجرى عليه ما جرى، فصار عبرةً لذريّته، وصارت طبائعهم مثل طبيعة آدم؛ نسي فسيت ذريّته، وخطىء فخطئوا، ولم يثبت على العزم المؤكّد وهم

كذلك، وبادر بالتوبة من خطيئته، وأقرّ بها، واعترف فَعُفِرَتْ له، ومن يشابه أباه فما ظلم.

ثم ذكر تفصيل ما أجمله، فقال:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٢١﴾ ثُمَّ أَجْبَاهُ رَبُّهُ فَقَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿١٢٢﴾﴾.

﴿١١٦﴾ أي: لما أكمل خلق آدم بيده، وعلمه الأسماء، وفضله وكرمه؛ أمر الملائكة بالسجود له إكراماً وتعظيماً وإجلالاً، فبادروا بالسجود ممتلين، وكان بينهم إبليس، فاستكبر عن أمر ربّه، وامتنع من السجود لآدم، وقال: ﴿أنا خير منه خلقتني من نارٍ وخلقته من طين﴾.

﴿١١٧ - ١١٨﴾ فتبينت حينئذٍ عداوته البليغة لآدم وزوجه لما كان عدواً لله، وظهر من حسده ما كان سبب العداوة، فحذّر الله آدم وزوجه منه، وقال: لا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى: ﴿إِذَا أُخْرِجْتَ مِنْهَا؛ فَإِنَّ لَكَ فِيهَا الرِّزْقَ الْهَنِي وَالرَّاحَةَ التَّامَةَ، ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى. وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾؛ أي: تصيبك الشمس بحرّها، فضمن له استمرار الطعام والشراب والكسوة والماء وعدم التعب والنصب، ولكنّه نهاه عن أكل شجرة معيّنّة، فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿١٢٠﴾ فلم يزل الشيطان يوسوس لهما ويؤزّن أكل الشجرة ويقول: ﴿هل أدلك على شجرة الخلد﴾؛ أي: [الشجرة] التي من أكل منها خلد في الجنة، ﴿وملك لا يبلى﴾؛ أي: لا ينقطع إذا<sup>(١)</sup> أكلت منها.

﴿١٢١﴾ فأتاه بصورة ناصح، وتلطّف له في الكلام؛ فاغترّ به آدم، فأكلا<sup>(٢)</sup> من الشجرة، فسقط في أيديهما وسقطت كسوتهما، واتّضحت معصيتهما، وبدا لكل منهما سواة الآخر بعد أن كانا مستورين، وجعلا يَخْصِفَانِ على أنفسهما من ورق

(٢) في (ب): «وأكلا».

(١) في (ب): «إن».

أشجار الجنة؛ ليستبر بذلك، وأصابهما من الخجل ما الله به عليم. ﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾: فبادرا إلى التوبة والإنابة وقالوا:

﴿١٢٢﴾ ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾: فاجتبه ربه واختاره ويسر له التوبة، فتاب عليه وهدى، فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها، ورجع كيد العدو عليه، ويطل مكره، فتمت النعمة عليه وعلى ذريته، ووجب عليهم القيام بها والاعتراف وأن يكونوا على حذر من هذا العدو المرابط الملازم لهم ليلاً ونهاراً، ﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سواتهما إنه يراكم هو وقبيله [من حيث لا ترونهم] إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾.

﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى ﴿١٢٦﴾ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴿١٢٧﴾﴾.

﴿١٢٣﴾ يخبر تعالى أنه أمر آدم وإبليس أن يهبطا إلى الأرض، وأن يتخذوا<sup>(١)</sup> الشيطان عدواً لهم، فيأخذوا الحذر منه، ويعدوا له عدته، ويحاربوه، وأنه سينزل عليهم كتاباً ويرسل إليهم رسلاً يبينون لهم الطريق المستقيم الموصلة إليه وإلى جنته، ويحذرونهم من هذا العدو المبين، وأنهم أي وقت جاءهم ذلك الهدى الذي هو الكتب والرسول؛ فإن من اتبعه؛ اتبع ما أمر به، واجتنب ما نهى عنه؛ فإنه لا يضل في الدنيا ولا في الآخرة ولا يشقى فيهما، بل قد هدي إلى صراط مستقيم في الدنيا والآخرة، وله السعادة والأمن في الآخرة. وقد نفى عنه الخوف والحزن في آية أخرى بقوله: ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَخُوفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، واتباع الهدى بتصديق الخبر وعدم معارضته بالشبه، وامتنال الأمر بأن لا يعارضه بشهوة.

﴿١٢٤﴾ ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾؛ أي: كتابي الذي يتذكر به جميع المطالب العالية، وأن يتركه على وجه الإعراض عنه أو ما هو أعظم من ذلك؛ بأن يكون على وجه الإنكار له والكفر به. ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾؛ أي: فإن جزاءه أن نجعل

(١) أي: آدم وزوجه وذريته.



معيشته ضيقة مشقة، ولا يكون ذلك إلا عذاباً. وفُسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر، وأنه يُضيق عليه قبره، ويُحصَرُ فيه، ويعذبُ جزاءً لإعراضه عن ذكْرِ رَبِّه، وهذه إحدى الآيات الدالة على عذاب القبر.

والثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ...﴾ الآية.

والثالثة: قوله: ﴿وَلَنذِيقُنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾.

والرابعة: قوله عن آل فرعون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا...﴾ الآية.

والذي أوجب لمن فسرهما بعذاب القبر فقط من السلف وقصروها على ذلك - والله أعلم - آخر الآية، وأنَّ الله ذكَّرَ في آخرها عذاب يوم القيامة.

وبعض المفسرين يرى أن المعيشة الضنك عامة في دار الدنيا؛ بما يُصيب المعرض عن ذكْرِ رَبِّه من الهموم والغوم والآلام، التي هي عذابٌ معجل، وفي دار البرزخ، وفي الدار الآخرة؛ لإطلاق المعيشة الضنك وعدم تقييدها. ﴿ونحشُرُه﴾؛ أي: لهذا المعرض عن ذكْرِ رَبِّه ﴿يومَ القيامة أعمى﴾: البصر على الصحيح؛ كما قال تعالى: ﴿ونحشُرُهُم يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمياً وَبُكماً وَضُمّاً﴾.

﴿١٢٥﴾ ﴿قال﴾: على وجه الدلِّ والمراجعة والتألم والضجر من هذه الحالة: ﴿رَبِّ لَمْ حَشِرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ﴾: في دار الدنيا ﴿بصيراً﴾: فما الذي صيّرني إلى هذه الحالة البشعة؟

﴿١٢٦﴾ ﴿قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها﴾: بإعراضك عنها، ﴿وكذلك اليوم تنسى﴾؛ أي: تترك في العذاب؛ فأجيب بأنَّ هذا هو عينُ عملك، والجزاء من جنس العمل؛ فكما عميت عن ذكْرِ رَبِّك، وعشيت عنه، ونسيتَه ونسيت حظك منه؛ أعمى الله بصرَكَ في الآخرة، فحشرت إلى النار أعمى أصم أبكم، وأعرض عنك، ونسيك في العذاب.

﴿١٢٧﴾ ﴿وكذلك﴾؛ أي: هذا الجزاء نجزيه ﴿من أسرف﴾: بأن تعدَّى الحدود وارتكب المحارم وجاوز ما أُذن له، ﴿ولم يؤمن بآيات ربِّه﴾: الدالة على جميع مطالب الإيمان دلالة واضحة صريحة؛ فالله لم يظلمه ولم يضع العقوبة في غير محلها، وإنما السبب إسرافه وعدم إيمانه. ﴿وللعذاب الآخرة أشدُّ﴾: من عذاب الدنيا أضعافاً مضاعفة، ﴿وأبقى﴾: لكونه لا ينقطع؛ بخلاف عذاب الدنيا؛ فإنه منقطع؛ فالواجب الخوف والحذر من عذاب الآخرة.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي  
النُّهَى﴾ (١٢٨).

﴿١٢٨﴾ أي: ﴿أفلم يَهْدِ﴾: لهؤلاء<sup>(١)</sup> المكذبين المعرضين ويدلهم على سلوك طريق الرشاد وتجنب طريق الغي والفساد ما أحلَّ الله بالمكذبين قبلهم من القرون الخالية والأمم المتتابة، الذين يعرفون قَصَصَهُمْ، ويتناقلون أسماهم، وينظرون بأعينهم مساكنهم من بعدهم؛ كقوم هودٍ وصالح ولوط وغيرهم، وأنهم لما كذبوا رُسُلَنَا وأعرضوا عن كُتُبِنَا؛ أصبناهم بالعذاب الأليم؛ فما الذي يؤمن هؤلاء أن يحلَّ بهم ما حلَّ بأولئك؟ ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيَّتِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ﴾: لا شيء من هذا كله، فليس هؤلاء الكفار خيراً من أولئك حتى يُدْفَع عنهم العذاب بخيرهم، بل هم شرُّ منهم، لأنهم كفروا بأشرف الرسل وخير الكتب، وليس لهم براءة مزبورة وعهد عند الله، وليسوا كما يقولون إنَّ جَمْعَهُمْ ينفعهم ويدفع عنهم، بل هم أذلُّ وأحقر من ذلك؛ فإهلاك القرون الماضية بذنوبهم من أسباب الهداية؛ لكونها من الآيات الدالة على صحَّة رسالة الرسل الذين جاؤوهم وبطلان ما هم عليه، ولكن ما كلُّ أحدٍ ينتفع بالآيات، إنَّما ينتفع بها أولو النُّهى؛ أي: العقول السليمة والفطر المستقيمة، والألباب التي تزجر أصحابها عمَّا لا ينبغي.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ (١٢٩) فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ (١٣٠).

﴿١٢٩﴾ هذه تسليية للرسول وتصبير له عن المبادرة إلى إهلاك المكذبين المعرضين، وأن كفرهم وتكذيبهم سببٌ صالحٌ لحلول العذاب بهم ولزومِهِ لهم؛ لأنَّ الله جَعَلَ العقوبات سبباً وناشئاً عن الذنوب ملازماً لها، وهؤلاء قد أتوا بالسبب، ولكن الذي أخره عنهم كلمة ربك المتضمنة لإمهالهم وتأخيرهم وضرب الأجل المسمَّى؛ فالأجل المسمَّى ونفوذ كلمة الله هو الذي أخر عنهم العقوبة إلى إبان وقتها، ولعلمهم يراجعون أمر الله فيتوب عليهم ويرفع عنهم العقوبة إذا لم تحقَّ عليهم الكلمة.

(١) في (ب): «هؤلاء».

﴿١٣٠﴾ ولهذا أمر الله رسوله بالصبر على أذيتهم بالقول، وأمره أن يتعوّض عن ذلك وليستعين عليه بالتسبيح ﴿بحمد﴾ ربّه في هذه الأوقات الفاضلة؛ ﴿قبل طلوع الشمس وقبل<sup>(١)</sup> غروبها﴾، وفي أطراف النهار أوله وآخره؛ عموم بعد خصوص، وأوقات ﴿الليل﴾ وساعاته، لعلك إن فعلت ذلك ترضى بما يعطيك ربك من الثواب العاجل والآجل، وليطمئن قلبك، وتقرّ عينك بعبادة ربك، وتتسلى بها عن أذيتهم؛ فيخفّ حينئذٍ عليك الصبر.

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَابْقَىٰ﴾ ﴿١٣١﴾.

﴿١٣١﴾ أي: ولا تمدّ عَيْنَيْكَ ﴿معجباً ولا تكرر النظر مستحسناً إلى أحوال الدنيا والممتعّين بها من المآكل والمشارب اللذيذة والملابس الفاخرة والبيوت المزخرفة والنساء المجملّة؛ فإن ذلك كلّهُ زهرة ﴿الحياة الدنيا﴾؛ تبتهج بها نفوس المغترّين، وتأخذ إعجاباً بأبصار المعرضين، ويتمتّع بها بقطع النظر عن الآخرة القوم الظالمون، ثم تذهب سريعاً وتمضي جميعاً، وتقتل محبيها وعشاقها فيندمون حيث لا تنفع الندامة، ويعلمون ما هم عليه إذا قدموا يوم<sup>(٢)</sup> القيامة، وإنّما جعلها الله فتنة واختباراً ليعلم من يقف عندها ويغترّ بها ومن هو أحسن عملاً. كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾. ﴿ورزق ربك﴾: العاجل من العلم والإيمان وحقائق الأعمال الصالحة، والآجل من النعيم المقيم والعيش السليم في جوار الرب الرحيم، ﴿خير﴾: مما متّعنا به أزواجاً في ذاته وصفاته، ﴿وأبقى﴾: لكونه لا ينقطع أكلها دائم وظلّها؛ كما قال تعالى: ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا. والآخرة خيرٌ وأبقى﴾.

وفي هذه الآية إشارة إلى أنّ العبد إذا رأى من نفسه طموحاً إلى زينة الدنيا وإقبالاً عليها أن يُذكرها ما أمامها من رزق ربّه، وأن يوازن بين هذا وهذا.

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا مِّنْ رِّزْقِكَ وَالْعَقِبَةُ لِلْقَوِيِّ﴾ ﴿١٣٢﴾.

﴿١٣٢﴾ أي: حثّ أهلك على الصلاة، وأزعجهم إليها من فرض ونفل، والأمر بالشيء أمرٌ بجميع ما لا يتمّ إلّا به، فيكون أمراً بتعليمهم ما يصلح الصلاة ويفسدها

(١) في (ب): «وغروبها».

(٢) في (ب): «في يوم».

وَيُكْمِلُهَا. ﴿وَاضْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾؛ أي: على الصلاة بإقامتها بحدودها وأركانها [وآدابها] وخشوعها؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مَشَقٌّ عَلَى النَّفْسِ، وَلَكِنْ يَنْبَغِي إِكْرَاهُهَا وَجَهَادُهَا عَلَى ذَلِكَ وَالصَّبْرُ مَعَهَا دَائِماً؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَقَامَ صَلَاتَهُ عَلَى الْوَجْهِ الْمَأْمُورِ بِهِ؛ كَانَ لَهَا سِوَاهَا مِنْ دِينِهِ أَحْفَظَ وَأَقْوَمَ، وَإِذَا ضَيَّعَهَا؛ كَانَ لَهَا سِوَاهَا أَضْيَعٌ. ثُمَّ ضَمِنَ تَعَالَى لِرَسُولِهِ الرِّزْقَ، وَأَنْ لَا يَشْغَلَهُ الْإِهْتِمَامُ بِهِ عَنْ إِقَامَةِ دِينِهِ، فَقَالَ: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾؛ أي: رزقك علينا، قد تكفلنا به كما تكفلنا بأرزاق الخلائق كلهم؛ فكيف بمن قام بأمرنا واشتغل بذكرنا؟! ورزق الله عامم للمتقي وغيره؛ فينبغي الاهتمام بما يجلب السعادة الأبدية، وهو التقوى، ولهذا قال: ﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾: في الدنيا والآخرة ﴿لِلتَّقْوَى﴾: التي هي فعل المأمور وترك المنهي؛ فمن قام بها؛ كان له العاقبة؛ كما قال تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِمْ أَوْلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ ﴿١٣٣﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾ ﴿١٣٤﴾ ﴿قُلْ كُلُّ مُرْتَبِصٍ فَتَرْصَدُوا فَمَسْتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَبُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾ ﴿١٣٥﴾.

﴿١٣٣﴾ أي: قال المكذَّبون للرسول ﷺ: هلاً يأتينا بآية من ربِّه؛ يعنون آيات الاقتراح؛ كقولهم: ﴿وقالوا لئن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً. أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً﴾، وهذا تعنت منهم وعناد وظلم؛ فإنهم هم والرسول بشر عبيد لله؛ فلا يليق منهم الاقتراح بحسب أهوائهم، وإنما الذي ينزلها ويختار منها ما يختار بحسب حكمته هو الله، ولما كان<sup>(١)</sup> قولهم: ﴿لولا يأتينا بآية من ربِّه﴾: يقتضي أنه لم يأتهم بآية على صدقه ولا بيئة على حقه، وهذا كذب وافتراء؛ فإنه أتى من المعجزات الباهرات والآيات القاهرات ما يحصل ببعضه المقصود، ولهذا قال: ﴿أولم [تأتهم]﴾: إن كانوا صادقين في قولهم، وأنهم يطلبون الحق بدليله، ﴿بيئته ما في الصحف الأولى﴾؛ أي: هذا القرآن العظيم المصدق لما في الصحف الأولى من التوراة والإنجيل والكتب السابقة، المطابق لها، المخبر بما أخبرت به، وتصديقه أيضاً مذكور فيها، ومبشر بالرسول بها، وهذا كقولهِ تعالى: ﴿أولم يكفهم أننا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة

(١) في (ب): «ولأن».

وَذَكَرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٣٤﴾؛ فالآيات تنفع المؤمنين ويزداد بها إيمانهم وإيقانهم، وأما المعرضون عنها المعارضون لها؛ فلا يؤمنون بها ولا يتفعلون بها. ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

﴿١٣٤﴾ وإثما الفائدة في سوقها إليهم ومخاطبتهم بها لتقوم عليهم حجة الله، ولئلا يقولوا حين ينزل بهم العذاب: ﴿لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَتَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنُخْزَى﴾: بالعقوبة؛ فما قد جاءكم رسولي ومعه آياتي وبراهيني؛ فإن كنتم كما تقولون؛ فصدقوه.

﴿١٣٥﴾ ﴿قُلْ﴾: يا محمد مخاطباً للمكذِّبين لك الذين يقولون تربيصوا به ربنا المنون: ﴿قُلْ كُلٌّ مَتْرَبِصٌ﴾: فتربصوا بي الموت، وأنا أتربص بكم العذاب، ﴿قُلْ﴾ هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين؛ أي: الظفر أو الشهادة؛ فنحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا. ﴿فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصُّرَاطِ السَّوِيِّ﴾؛ أي: المستقيم، ﴿وَمَنْ اهْتَدَى﴾: بسلوكة أنا أم أنتم؛ فإن صاحبه هو الفائز الراشد الناجي المفلح، ومن حاد عنه خاسر خائب معذب. وقد علم أن الرسول هو الذي بهذه الحالة، وأعداؤه بخلافه. والله أعلم.



## تفسير سورة الأنبياء عليهم السلام

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ تُحَدِّثُ إِلَّا أَصْنَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأُ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾﴾.

﴿١﴾ هذا تعجب من حالة الناس، وأنهم <sup>(١)</sup> لا ينتجع فيهم تذكير، ولا يزعوون

(١) في (ب): «وأنه».

إلى نذير، وأنهم قد قرب حسابهم ومجازاتهم على أعمالهم الصالحة والطلحة،  
والحال أنهم ﴿في غفلة معرضون﴾؛ أي: غفلة عما خلقوا له، وإعراض عما رُجروا  
به، كأنهم للدنيا خلُقوا، وللتمتع بها ولدوا، وأن الله تعالى لا يزال يجدد لهم  
التذكير والوعظ، ولا يزالون في غفلتهم وإعراضهم.

﴿٢﴾ ولهذا قال: ﴿ما يأتيهم من ذكرٍ من ربهم محدث﴾: يذكرهم ما ينفعهم  
ويحذوهم عليه، وما يضرهم ويرهبهم منه. ﴿إلا استمعوه﴾: سماعاً تقوم عليهم به  
الحجة، ﴿وهم يلعبون﴾.

﴿٣﴾ ﴿لاهية قلوبهم﴾؛ أي: قلوبهم غافلة معرضة لاهية بمطالبها الدنيوية،  
وأبدانهم لاعبة، قد اشتغلوا بتناول الشهوات والعمل بالباطل والأقوال الرديئة، مع أن  
الذي ينبغي لهم أن يكونوا بغير هذه الصفة؛ ثقبيل قلوبهم على أمر الله ونهيه،  
وتستمعه استماعاً تفقه المراد منه، وتسعى جوارحهم في عبادة ربهم التي خلقوا  
لأجلها، ويجعلون القيامة والحساب والجزاء منهم على بال؛ فبذلك يتم لهم أمرهم  
وتستقيم أحوالهم وتزكو أعمالهم. وفي معنى قوله: ﴿اقترب للناس حسابهم﴾:  
قولان:

أحدهما: أن هذه الأمة هي آخر الأمم، ورسولها آخر الرسل، وعلى أمته تقوم  
الساعة؛ فقد قرب الحساب منها بالنسبة لما قبلها من الأمم؛ لقوله ﷺ: «بعثت أنا  
والساعة كهاتين»؛ وقرن بين إصبعيه السبابة والتي تليها<sup>(١)</sup>.

والقول الثاني: أن المراد بقرب الحساب الموت، وأن من مات قامت قيامته  
ودخل في دار الجزاء على الأعمال، وأن هذا تعجب من كل غافل معرض لا يدري  
متى يفجؤه الموت صباحاً أو مساءً؛ فهذه حالة الناس كلهم؛ إلا من أدركته العناية  
الربانية، فاستعد للموت وما بعده.

ثم ذكر ما يتناجى به الكافرون الظالمون على وجه العناد ومقابلة الحق بالباطل،  
وأنهم تناجوا وتواطؤوا فيما بينهم أن يقولوا في الرسول ﷺ: إنه بشرٌ مثلكم؛ فما  
الذي فضله عليكم وخصه من بينكم؟! فلو ادعى أحد منكم مثل دعواه؛ لكان قوله  
من جنس قوله، ولكنّه يريد أن يتفضل عليكم ويرأس فيكم؛ فلا تطيعوه ولا  
تصدقوه، وإنه ساحرٌ، وما جاء به من القرآن سحرٌ؛ فانفروا عنه ونفروا الناس،

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٥)، ومسلم (٢٩٥١).

وقولوا: ﴿أَفَتَأْتُونَ السَّخَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصِرُونَ﴾: هذا وهم يعلمون أنه رسول الله حقاً بما يشاهدون<sup>(١)</sup> من الآيات الباهرة ما لم يشاهد غيرهم، ولكن حملهم على ذلك الشقاء والظلم والعدا:

﴿٤﴾ والله تعالى قد أحاط علماً بما تناجوا به، وسيجازيهم عليه، ولهذا قال: ﴿قال ربّي يعلم القول﴾: الخفيّ والجليّ ﴿في السماء والأرض﴾؛ أي: في جميع ما احتوت عليه أقطارهما. ﴿وهو السميع﴾: لسائر الأصوات باختلاف اللغات على تفنّن الحاجات. ﴿العليم﴾: بما في الضمائر، وأكثته السرائر.

﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾  
 ﴿٥﴾ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَبِيلَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ﴿﴾.

﴿٥﴾ يذكر تعالى ائتفاك المكذّبين بمحمد ﷺ وبما جاء به من القرآن العظيم، وأنهم تقوّلوا فيه<sup>(٢)</sup>، وقالوا فيه الأقاويل الباطلة المختلفة؛ فتارة يقولون: أضغاث أحلام بمنزلة كلام النائم الهادي الذي لا يُحسُّ بما يقول! وتارة يقولون: افتراه واختلقه وتقوله من عند نفسه! وتارة يقولون: إنّه شاعرٌ وما جاء به شعراً! وكلُّ من له أدنى معرفة بالواقع من حالة الرسول، ونظر في هذا الذي جاء به؛ جزم جزمًا لا يقبل الشكّ أنه أجلُّ الكلام وأعلاه، وأنه من عند الله، وأنّ أحداً من البشر لا يقدر على الإتيان بمثل بعضه؛ كما تحدّى الله أعداءه بذلك ليعارضوه مع توفّر دواعيهم لمعارضته وعداوته، فلم يقدرُوا على شيء من معارضته وهم يعلمون ذلك؛ وإلّا فما الذي أقامهم وأقعدهم وأقضّ مضاجعهم وبلبل ألسنتهم إلا الحق الذي لا يقوم له شيء، وإنّما يقولون هذه الأقوال فيه حيث لم يؤمنوا به؛ تنفيراً عنه لمن لم يعرفه، وهو أكبرُ الآيات المستمرة الدالة على صحّة ما جاء به الرسول ﷺ وصدقه، وهو كافٍ شافٍ؛ فمن طلب دليلاً غيره أو اقترح آيةً من الآيات سواه؛ فهو جاهلٌ ظالمٌ مشبهٌ لهؤلاء المعاندين الذين كذبوه، وطلبوا من الآيات الاقتراحية ما هو أضرُّ شيء عليهم، وليس لهم فيها مصلحةٌ؛ لأنّهم إن كان قصدُهم معرفة الحقّ إذا تبين دليله؛ فقد تبين دليله بدونها، وإن كان قصدُهم التعجيز وإقامة العذر لأنفسهم إن لم يأتِ بما طلبوا؛ فإنّهم بهذه الحالة على فرض إتيان ما طلبوا من الآيات لا يؤمنون قطعاً؛ فلو جاءتهم كلُّ آيةٍ لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم، ولهذا قال الله

(١) في (ب): «شاهدوا».

(٢) في (ب): «كلمة غير واضحة».

عنهم: ﴿فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ﴾؛ أي: كناقاة صالح وعصا موسى ونحو ذلك.

﴿٦﴾ قال الله: ﴿مَا آمَنْتَ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾؛ أي: بهذه الآيات المقترحة، وإنما سنَّه تقتضي أن من طلبها، ثم حصلت له، فلم يؤمن؛ أن يعاجله بالعقوبة؛ فالأولون ما آمنوا بها، أفيؤمن هؤلاء بها؟! ما الذي فضلهم على أولئك؟! وما الخير الذي فيهم يقتضي الإيمان عند وجودها؟! وهذا الاستفهام بمعنى النفي؛ أي: لا يكون ذلك منهم أبداً.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَلَوْنَا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْتَهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾﴾.

﴿٧ - ٩﴾ هذا جوابٌ لشبهه المكذِّبين للرسول القائلين: هلاً كان ملكاً لا يحتاج إلى طعام وشراب وتصرف في الأسواق! وهلاً كان خالداً! فإذا لم يكن كذلك؛ دل على أنه ليس برسول! وهذه الشبه ما زالت في قلوب المكذِّبين للرسول، تشابهوا في الكفر؛ فتشابهت أقوالهم؛ فأجاب تعالى عن هذه الشبه، لهؤلاء المكذِّبين للرسول، المُقرِّين بإثبات الرُّسل قبله، ولو لم يكن إلا إبراهيم عليه السلام، الذي قد أقرَّ بنبوته جميع الطوائف، والمشركون يزعمون أنهم على دينه وملته؛ بأن الرُّسل قبل محمد ﷺ كلهم من البشر الذين يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، وتطراً عليهم العوارض البشرية من الموت وغيره، وأن الله أرسلهم إلى قومهم وأممهم، فصدقهم من صدقهم، وكذبهم من كذبهم، وأن الله صدقهم ما وعدهم به من النجاة والسعادة لهم ولأتباعهم، وأهلك المسرفين المكذِّبين لهم؛ فما بال محمد ﷺ تُقام الشبه الباطلة على إنكار رسالته، وهي موجودة في إخوانه المرسلين، الذين يقرُّ بهم المكذِّبون لمحمد؟! فهذا إلزامٌ لهم في غاية الوضوح، وأنهم إن أقرُّوا برسول من البشر، ولن يقرُّوا برسول من غير البشر، أن شبههم باطلة، قد أبطلوها هم بإقرارهم بفسادها وتناقضهم بها.

فلو قدَّر انتقالهم هذا إلى إنكار نبوة البشر رأساً، وأنه لا يكون نبيٌّ إن لم يكن ملكاً مخلداً لا يأكل الطعام؛ فقد أجاب الله عن هذه الشبهه بقوله: ﴿وقالوا لولا أنزل عليه ملكٌ ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون. ولو جعلناه ملكاً لجعلناه



رَجُلًا وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴿١٠﴾، وَأَنَّ الْبَشَرَ لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِتَلْقَى الْوَحْيِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾؛ فَإِنْ حَصَلَ مَعَكُمْ شَكٌّ وَعَدَمُ عِلْمٍ بِحَالَةِ الرُّسُلِ الْمُتَقَدِّمِينَ؛ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ مِنَ الْكُتُبِ السَّالِفَةِ؛ كَأَهْلِ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ؛ يَخْبِرُونَكُمْ بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ، وَأَنْتُمْ كُلُّهُمْ بَشَرٌ مِنْ جِنْسِ الْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ.

وهذه الآية وإن كان سببها خاصًا بالسؤال عن حالة الرسل المتقدمين من أهل (١) الذكر، وهم أهل العلم؛ فإنها عامة في كل مسألة من مسائل الدين أصوله وفروعه إذا لم يكن عند الإنسان علمٌ منها أن يسأل من يعلمها؛ ففيه الأمر بالتعلم والسؤال لأهل العلم، ولم يؤمر بسؤالهم إلا لأنه يجب عليهم التعليم والإجابة عما عملوه.

وفي تخصيص السؤال بأهل الذكر والعلم نهى عن سؤال المعروف بالجهل وعدم العلم، ونهى له أن يتصدى لذلك. وفي هذه الآية دليل على أن النساء ليس منهن نبيّة؛ لا مريم ولا غيرها؛ لقوله: ﴿إِلَّا رَجَالًا﴾.

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿١٠﴾ أي: ﴿لقد أنزلنا إليكم﴾: أيها المرسل إليهم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﴿كتاباً﴾: جليلاً وقرآناً مبيناً. ﴿فيه ذكركم﴾؛ أي: شرفكم وفخركم وارتفاعكم: إن تذكركم به ما فيه من الأخبار الصادقة فاعتقدتموها، وامتلئتم ما فيه من الأوامر، واجتنبتم ما فيه من النواهي؛ ارتفع قدركم وعظم أمركم. ﴿أفلا تعقلون﴾: ما ينفعكم وما يضرُّكم؛ كيف لا (٢) تعلمون على ما فيه ذكركم وشرفكم في الدنيا والآخرة؟! فلو كان لكم عقل؛ لسلكتم هذا السبيل، فلما لم تسلكوه وسلكتم غيره من الطرق التي فيها ضعتكم وخسستكم في الدنيا والآخرة وشقاوتكم فيهما؛ علم أنه ليس لكم معقولٌ صحيحٌ ولا رأيٌ رجيحٌ.

وهذه الآية مصداقها ما وقع؛ فإن المؤمنين بالرسول والذين (٣) تذكروا بالقرآن من الصحابة فمن بعدهم؛ حصل لهم من الرفعة والعلو الباهر والصيت العظيم والشرف على الملوك ما هو أمرٌ معلومٌ لكل أحد؛ كما أنه معلومٌ ما حصل لمن لم يرفع بهذا

(١) في (ب): «لأهل».

(٢) في (ب): «لا ترضون ولا تعلمون». وقد شطب الشيخ كلمة لا ترضون في (أ).

(٣) في (ب): «الذين».

القرآن رأساً، ولم يهتد به ويتزكى به من المقتِ والضَّعةِ والتَّدسيَّةِ والشقاوةِ؛ فلا سبيل إلى سعادة الدنيا والآخرة إلا بالتذكُّر بهذا الكتاب.

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرِيرٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْتَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿١١﴾ يقول تعالى محذراً لهؤلاء الظالمين المكذِّبين للرسول بما فعل بالأمم المكذبة لغيره من الرسل: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾ أي: أهلكنا بعدابٍ مستأصل ﴿من قريةٍ﴾: تَلَفَتْ عن آخرها، ﴿وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾.

﴿١٢ - ١٣﴾ وَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُهْلَكِينَ لَمَا أَحْسَوْا بِعَذَابِ اللَّهِ وَعِقَابِهِ وَبِأَسْرِهِمْ نَزُولِهِ؛ لم يمكن لهم الرجوعُ، ولا طريق لهم إلى النزوع، وإنما ضربوا الأرض بأرجلهم ندماً وقلقاً وتحسراً على ما فعلوا، فقبل لهم على وجه التهكم بهم: ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِينِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾؛ أي: لا يفيدكم الركض والندم، ولكن؛ إن كان لكم اقتدار؛ فارجعوا إلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ مِنَ اللَّذَاتِ وَالْمُسْتَهْيَاتِ وَمَسَاكِينِكُمْ الْمَزْخَرَفَاتِ وَدُنْيَاكُمْ الَّتِي غَرَّتْكُمْ وَالْهَتِكُمْ حَتَّى جَاءَكُمْ أَمْرُ اللَّهِ؛ فكونوا فيها متمكِّنين، ولذاتها جانين، وفي منازلكم مطمئنين معظمين؛ لعلكم أن تكونوا مقصودين في أموركم كما كنتم سابقاً مسؤولين من مطالب الدنيا كحالتكم الأولى، وهيهات!

﴿١٤﴾ أَيْنَ الْوَصُولُ إِلَى هَذَا وَقَدْ فَاتَ الْوَقْتُ، وَحُلَّ بِهِمُ الْعِقَابُ وَالْمَقْتُ، وَذَهَبَ عَنْهُمْ عِزُّهُمْ وَشَرَفُهُمْ وَدُنْيَاهُمْ، وَحَضَرَهُمْ نَدْمُهُمْ وَتَحَسُّرُهُمْ؟! وَلِهَذَا ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

﴿١٥﴾ ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾؛ أي: الدعاء بالويل والشبور والندم والإقرار على أنفسهم بالظلم وأنَّ الله عادلٌ فيما أحلَّ بهم، ﴿حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾؛ أي: بمنزلة النبات الذي قد حُصِدَ وَأُنِيمَ؛ قد خدمت منهم الحركات، وسكنت منهم الأصوات؛ فاحذروا أيها المخاطَبون، أن تستمروا على تكذيب أشرف الرُّسل، فيحلَّ بكم كما حلَّ بأولئك.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينًا ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿١٦﴾ يخبر تعالى أنه ما خلق السماوات والأرض عبثاً ولا لعباً من غير فائدة، بل خلقها بالحق وللحق؛ ليستدل بها العباد على أنه الخالق العظيم، المدبر الحكيم، الرحمن الرحيم، الذي له الكمال كله والحمد كله والعزة كلها، الصادق في قوله، الصادقة رسله فيما تخبر عنه، وأنه القادر على خلقهما مع سعتيهما وعظمتيهما، قادر على إعادة الأجساد بعد موتها؛ ليجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

﴿١٧﴾ ﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً﴾: على الفرض والتقدير المُحال؛ ﴿لأنخذناه من لدنا﴾؛ أي: من عندنا، ﴿إن كنا فاعلين﴾: ولم نطلعكم على ما فيه عبثٌ ولهوٌ؛ لأن ذلك نقصٌ ومثلٌ سوءٍ لا نحبُّ أن نريه إياكم؛ فالسماوات والأرض اللذان بمرأى منكم على الدوام لا يمكن أن يكون القصدُ منهما العبثُ واللهو؛ كلُّ هذا تنزل مع العقول الصغيرة وإقناعها بجميع الوجوه المقنعة؛ فسبحان الحليم الرحيم الحكيم في تنزيله الأشياء منازلها.

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَكُمْ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَن عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسْحِقُونَ الْإِنْسَانَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿١٨﴾ يخبر تعالى أنه تكفل بإحقاق الحق وإبطال الباطل، وإن كان باطلاً قيل وجوده به؛ فإن الله ينزل من الحق والعلم والبيان ما يدمغه فيضمحل ويتبين لكلٍ أحدٍ بطلانه. ﴿فإذا هو زاهق﴾؛ أي: مضمحل فإن. وهذا عامٌ في جميع المسائل الدينية، لا يورد مبطل شبهة عقلية ولا نقلية في إحقاق باطل أو ردِّ حق؛ إلا وفي أدلة الله من القواطع العقلية والنقلية ما يذهب ذلك القول الباطل ويقمعه؛ فإذا هو متبين بطلانه لكلٍ أحدٍ. وهذا يتبين باستقراء المسائل مسألة مسألة؛ فإنك تجدها كذلك. ثم قال: ولكم أيها الواصفون الله بما لا يليق به من اتخاذ الولد والصاحبة ومن الأنداد والشركاء حظكم من ذلك ونصيبكم، الذي تدركون الويل والندامة والخسران، ليس لكم مما قلتم فائدة، ولا يرجع عليكم بعائدة تؤملونها، وتعملون لأجلها، وتسعون في الوصول إليها؛ إلا عكس مقصودكم، وهو الخيبة والحرمان.

﴿١٩﴾ ثم أخبر أنه له ملك السماوات والأرض وما بينهما؛ فالكل عبده ومماليكه، فليس لأحدٍ منهم ملكٌ ولا قسطٌ من الملك ولا معاونته عليه، ولا يشفع

إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ؛ فكيف يتَّخذ من هؤلاء آلهة؟! وكيف يُجعل لله منها ولدا؟! فتعالى وتقدَّس المالك العظيم الذي خضعت له الرقاب، وذُلَّتْ له الصعاب، وخشعت له الملائكة المقرَّبون، وأدعنوا له بالعبادة الدائمة المستمرة أجمعون؛ ولهذا قال: ﴿ومن عنده﴾؛ أي: [من] الملائكة، ﴿لا يَسْتَكْبِرُونَ عن عبادتِهِ ولا يستَحْسِرُونَ﴾؛ أي: لا يملُّون، ولا يسأمون لشِدَّة رغبتهم وكمال محبَّتهم وقوَّة أبدانهم.

﴿٢٠﴾ ﴿يَسْبَحُونَ الليل والنهار لا يفترون﴾؛ أي: مستغريقين في العبادة والتسبيح في جميع أوقاتهم، فليس في أوقاتهم وقت فارغ ولا خالٍ منها، وهم على كثرتهم بهذه الصفة.

وفي هذا من بيان عظمتِهِ وجلالة سلطانه وكمال علمِهِ وحكمته ما يوجب أن لا يُعبَد إلا هو، ولا تُصَرَّف العبادة لغيره.

﴿أمر اتَّخَذُوا ءِالِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهَا ءِالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسَبَّحَنَ اللَّهُ رَبَّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَقَعُلْ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ أمر اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءِالِهَةً قُلْ هَانُوا بَرَاهِنَكُمُ هَذَا ذِكْرٌ مِّن مَّعَى وَذِكْرٌ مِّن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ .

﴿٢١﴾ لما بيَّن تعالى كمال اقتدارِهِ وعظمتِهِ وخضوع كل شيء له؛ أنكر على المشركين الذين اتَّخذوا من دون الله آلهة من الأرض في غاية العجز وعدم القدرة. ﴿هم يُنشِرُونَ﴾: استفهام بمعنى النفي؛ أي: لا يقدرُونَ على نشرِهِم وحشرِهِم؛ يفسرها قوله تعالى: ﴿واتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءِالِهَةً لا يَخْلُقُونَ شيئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ. ولا يملكُونَ لأنفسِهِم نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً﴾، ﴿واتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءِالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ. لا يستطيعُونَ نصرَهُم وهم لهم جندٌ محضرون﴾.

﴿٢٢﴾ فالمشرك يُعبُد المخلوق الذي لا يَنفَع ولا يضرُّ، ويدعُ الإخلاص لله الذي له الكمالُ كُلُّهُ ويده الأمرُ والنفعُ والضرُّ، وهذا من عدم توفيقه وسوء حظِّه وتوفُّر جهله وشِدَّة ظلمِهِ؛ فإنَّه لا يصلحُ الوجود إلا على إله واحد؛ كما أنَّه لم يوجد إلا برَبِّ واحد، ولهذا قال: ﴿لو كان فيهِمَا﴾؛ أي: في السماوات والأرض، ﴿آلهةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾: في ذاتهما، وفَسَدَ مَنْ فِيهِمَا من المخلوقات.

وبيان ذلك: أنَّ العالم العلويَّ والسفليَّ على ما يُرى في أكمل ما يكون من الصَّلاح والانتظام، الذي ما فيه خللٌ ولا عيبٌ ولا ممانعةٌ ولا معارضةً، فدلَّ ذلك

على أن مدبره واحدٌ وربّه واحدٌ وإلهه واحدٌ؛ فلو كان له مدبران وربان أو أكثر من ذلك؛ لاختل نظامه وتقوّضت أركانه؛ فإنهما يمتنعان ويتعارضان، وإذا أراد أحدهما تدبير شيء وأراد الآخر عدمه؛ فإنه محالٌ وجود مرادهما معاً، ووجود مراد أحدهما دون الآخر يدلُّ على عجز الآخر وعدم اقتداره، واتفاقهما على مرادٍ واحدٍ في جميع الأمور غير ممكن؛ فإذا يتعيّن أن القاهر الذي يوجد مرادُه وحده من غير ممانع ولا مدافع هو الله الواحد القهار، ولهذا ذكر الله دليل التمانع في قوله: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سِبْحَانُ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾، ومنه على أحد التاويلين قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا. سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾؛ ولهذا قال هنا: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾؛ أي: تنزهه وتقدّس عن كلّ نقص لكماله وحده، ﴿رَبِّ الْعَرْشِ﴾: الذي هو سقف المخلوقات وأوسعها وأعظمها؛ فربوبيّته ما دونه من باب أولى، ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾؛ أي: الجاحدون الكافرون من اتّخاذ الولد والصاحبة، وأن يكون له شريكٌ بوجه من الوجوه.

﴿٢٣﴾ لا يُسأل عما يفعل: لعظمته وعزّته وكمال قدرته<sup>(١)</sup>؛ لا يقدر أحدٌ أن يمانعه أو يعارضه؛ لا بقول ولا بفعل، ولكمال حكمته ووضع الأشياء مواضعها وإتقانها أحسن شيء يقدره العقل؛ فلا يتوجّه إليه سؤال؛ لأنّ خلقه ليس فيه خللٌ ولا إخلالٌ. ﴿وهم﴾؛ أي: المخلوقون كلهم، ﴿يُسألون﴾: عن أفعالهم وأقوالهم؛ لعجزهم وفقريهم، ولكونهم عبيداً، قد استحقت أفعالهم وحركاتهم؛ فليس لهم من التصرف والتدبير في أنفسهم ولا في غيرهم مثقال ذرّة.

﴿٢٤﴾ ثم رجع إلى تهجين حال المشركين، وأنهم اتّخذوا من دونه آلهة؛ فقلّ لهم موبخاً ومقرّعاً: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾؛ أي: حجّتكم ودليلكم على صحّة ما ذهبتم إليه، ولن يجدوا لذلك سبيلاً، بل قد قامت الأدلة القطعيّة على بطلانه، ولهذا قال: ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِّنْ مَّعِي وَذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِي﴾؛ أي: قد اتّفقت الكتب والشرائع على صحّة ما قلت لكم من إبطال الشرك؛ فهذا كتاب الله الذي فيه ذكّر كلّ شيء بأدلّته العقليّة والنقليّة، وهذه الكتب السابقة كلّها براهين<sup>(٢)</sup> وأدلة لما قلت. ولما علم أنّهم قامت عليهم الحجّة والبرهان على بطلان ما ذهبوا

(١) في (ب): «قدته».

(٢) في (ب): «برهان».

إليه؛ علم أنه لا برهان لهم؛ لأنَّ البرهان القاطع يُجزمُ أنه لا معارض له، وإلا؛ لم يكن قطعياً، وإن وُجدَ معارضات؛ فإنها شُبَّهَ لا تغني من الحقِّ شيئاً. وقوله: ﴿بل أكثرهم لا يعلمون الحق﴾؛ أي: وإنما أقاموا على ما هم عليه تقليداً لأسلافهم؛ يجادلون بغير علم ولا هدى، وليس عدمُ علمهم الحقَّ لخفايهِ وغموضِهِ، وإنما ذلك لإعراضهم عنه، وإلا؛ فلو التفتوا إليه أدنى التفاتٍ؛ تبيّن لهم الحقُّ من الباطل تبيّناً واضحاً جلياً، ولهذا قال: ﴿فهم معرضون﴾.

﴿٢٥﴾ ولما حول تعالى على ذكر المتقدمين، وأمر بالرجوع إليها في بيان هذه المسألة؛ بيّنها أتمَّ تبيين في قوله: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاّ نوحى إليه أنه لا إله إلاّ أنا فاعبدون﴾: فكلُّ الرسل الذين من قبلك مع كتبهم زُبْدَةُ رسالتهم وأصلها الأمرُ بعبادة الله وحده لا شريك له وبيانُ أنه الإله الحقُّ المعبودُ وأنَّ عبادة ما سواه باطلةٌ.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْئِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنَ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلٰهٌ مِنْ دُونِهِ فَذٰلِكَ نَجْزِي جَهَنَّمَ كَذٰلِكَ نَجْزِي الظّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿٢٦﴾ يخبر تعالى عن سفاهة المشركين المكذّبين للرسول، وأنهم زعموا - قبّحهم الله - أنّ الله اتخذ ولداً، فقالوا: الملائكة بنات الله! تعالى الله عن قولهم، وأخبر عن وصف الملائكة بأنهم<sup>(١)</sup> عبيدٌ مربوبون مدبّرون، ليس لهم من الأمر شيءٌ، وإنما هم مُكْرَمُونَ عند الله، قد ألزمهم<sup>(٢)</sup> الله، وصيّرهم من عبيد كرامته ورحمته، وذلك لما خصّهم به من الفضائل والتطهير عن الرذائل، وأنهم في غاية الأدب مع الله والامتثال لأوامره.

﴿٢٧﴾ ﴿لا﴾<sup>(٣)</sup> يسبقونه بالقول؛ أي: لا يقولون قولاً مما يتعلّق بتدبير المملكة حتى يقول الله؛ لكمال أدبهم وعلمهم بكمال حكمته وعلمه. ﴿وهم بأمره يعملون﴾؛ أي: مهما أمرهم؛ امتثلوا لأمره، ومهما دبّرهم عليه؛ فعلوه؛ فلا

(٢) في (ب): «أكرمهم».

(١) في (ب): «بأنه».

(٣) في (ب): «فلا».

يعصونه طرفة عين، ولا يكون لهم عملٌ بأهواء أنفسهم من دون أمر الله.

﴿٢٨﴾ ومع هذا؛ فالله قد أحاط بهم علمه، فعلم ﴿ما بين أيديهم وما خلفهم﴾؛ أي: أمورهم الماضية والمستقبلية؛ فلا خروج لهم عن علمه؛ كما لا خروج لهم عن أمره وتدبيره، ومن جزئيات وصفهم بأنهم لا يسبقونه بالقول أنهم لا يشفعون لأحد بدون إذنه ورضاه؛ فإذا أذن لهم وارتضى من يشفعون فيه شفعا فيه؛ ولكنه تعالى لا يرضى من القول والعمل إلا ما كان خالصاً لوجهه متبعاً فيه الرسول.

وهذه الآية من أدلة إثبات الشفاعة، وأن الملائكة يشفعون. ﴿وهم من خشيته شفيعون﴾؛ أي: خائفون وجلون، قد خضعوا لجلاله، وعنت وجوههم لعزه وجماله.

﴿٢٩﴾ فلما بين أنه لا حق لهم في الألوهية، ولا يستحقون شيئاً من العبودية بما وصفهم به من الصفات المقتضية لذلك؛ ذكر أيضاً أنه لا حظ لهم ولا بمجرد الدعوى، وأن من قال منهم: إني إله من دون الله على سبيل الفرض والتنزل. ﴿فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين﴾: وأي ظلم أعظم من ادعاء المخلوق الناقص الفقير إلى الله من جميع الوجوه مشاركتة<sup>(١)</sup> الله في خصائص الإلهية والربوبية؟!

﴿أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففلقنهما وجعلنا من الماء كل شئ حياً أفلا يؤمنون﴾ (٣٠).

﴿٣٠﴾ أي: أولم ينظر هؤلاء الذين كفروا بربهم، وجحدوا الإخلاص له في العبودية ما يدلهم دلالة مشاهدة على أنه الرب المحمود الكريم المعبود، فيشاهدون السماء والأرض، فيجدونهما ﴿رتقاً﴾؛ هذه ليس فيها سحب ولا مطر، وهذه هامة ميتة لا نبات فيها، ﴿ففتقناهما﴾؛ السماء بالمطر، والأرض بالنبات. أليس الذي أوجد في السماء السحاب بعد أن كان الجو صافياً لا قرعة فيه، وأودع فيه الماء الغزير، ثم ساقه إلى بلد ميت قد اغبرت أرجاؤه وقحط عنه ماؤه، فأمطره فيها، فاهتزت وتحركت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج مختلف الأنواع متعدد المنافع؛ أليس ذلك دليلاً على أنه الحق وما سواه باطل، وأنه

(١) في (ب): «مشاركه».

محيي الموتى، وأنه الرحمن الرحيم؟ ولهذا قال: ﴿أفلا يؤمنون﴾؛ أي: إيماناً صحيحاً ما في شك ولا شرك.

ثم عدّد تعالى الأدلة الأفيّة، فقال:

﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾  
وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ  
وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿٣١﴾ أي: ومن الأدلة على قدرته وكماله ووحدانيته ورحمته أنه لما كانت الأرض لا تستقرُّ إلاّ بالجبال؛ أرساها بها، وأوتدّها لئلاّ تميد بالعباد؛ أي: لئلاّ تضطرب؛ فلا يتمكّن العباد من السكون فيها ولا حرثها ولا الاستقرار بها، فأرساها بالجبال، فحصل بسبب ذلك من المصالح والمنافع ما حصل.

ولما كانت الجبال المتّصل بعضها ببعض قد اتّصلت اتصالاً كثيراً جداً؛ فلو بقيت بحالها جبلاً شامخاتٍ وقللاً باذخاتٍ؛ لتعطلّ الاتصال بين كثير من البلدان؛ فمن حكمة الله ورحمته أن جعل بين تلك الجبال ﴿فِجَاجًا سُبُلًا﴾؛ أي: طرقاً سهلة لا حَزَنَةً، ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾: إلى الوصول إلى مطالبهم من البلدان، ولعلهم يهتدون بالاستدلال بذلك على وحدانيّة المئان.

﴿٣٢ - ٣٣﴾ ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا﴾: للأرض التي أنتم عليها ﴿مَحْفُوظًا﴾: من السقوط؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾؛ محفوظاً أيضاً من استراق الشياطين للسمع. ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾؛ أي: غافلون لا هون.

وهذا عامٌّ في جميع آيات السماء؛ من علوها، وسعتها، وعظمتها، ولونها الحسن، وإتقانها العجيب، وغير ذلك من المشاهد، فيها من الكواكب الثوابت والسيّارات، وشمسها وقمرها النيرات، المتولّد عنهما الليل والنهار، وكونهما دائماً في فلكهما سابحين. وكذلك النجوم، فتقوم بسبب ذلك منافع العباد من الحرّ والبرد والفصول، ويعرفون حساب عباداتهم ومعاملاتهم، ويستريحون في ليالهم ويهدؤون ويسكنون، وينتشرون في نهارهم ويسعون في معاشهم؛ كل هذه الأمور إذا تدبّرها اللبيب وأمعن فيها النظر؛ جزم جزماً لا شكّ فيه أن الله جعلها مؤقّته في وقت معلوم إلى أجل محتوم، يقضي العباد منها مآربهم، وتقوم بها منافعهم، وليستمتعوا وينتفعوا، ثم بعد هذا ستزول وتضمحلّ ويفنيها الذي أوجدها ويُسكّنُها الذي



حركها، وينتقل المكلفون إلى دار غير هذه الدار؛ يجدون فيها جزاء أعمالهم كاملاً موفراً، ويعلم أن المقصود من هذه الدار أن تكون مزرعةً لدار القرار، وأنها منزل سفر لا محل إقامة.

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مَّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ (٣٤) ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلَّوْكُمْ بِالْأَشْرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (٣٥).

﴿٣٤﴾ لما كان أعداء الرسول يقولون: ﴿تربصوا به ربِّ المنون﴾؛ قال الله تعالى: هذا طريق مسلوكٍ ومعبدٍ منهوكٍ؛ فلم نجعل لبشر من قبلك يا محمد الخلد في الدنيا؛ فإذا متَّ؛ فسيبيل أمثالك من الرسل والأنبياء والأولياء [وغيرهم]. ﴿أفإن متَّ فهم الخالدون﴾؛ أي: فهل إذا متَّ؛ خلدوا بعدك، فليهنهم الخلود إذا إن كان، وليس الأمر كذلك، بل كلُّ من عليها فان.

﴿٣٥﴾ ولهذا قال: ﴿كلُّ نفس ذائقة الموت﴾: وهذا يشمل سائر نفوس الخلائق، وأن هذا كأس لا بدَّ من شربه وإن طال بالعبد المدى وعمُر سنين، ولكن الله تعالى أوجد عباده في الدنيا، وأمرهم ونهاهم، وابتلاهم بالخير والشَّرِّ وبالغنى<sup>(١)</sup> والفقر والعزُّ والذلُّ والحياة والموت؛ فتنَّة منه تعالى؛ ﴿ليبلوهم أيهم أحسنُ عملاً﴾، ومن يفتتن عند مواقع الفتن ومن ينجو، ثمَّ ﴿إلينا تُرجعون﴾: فنجازيكم بأعمالكم؛ إن خيراً فخير، وإن شراً؛ فشر، وما ربُّك بظلامٍ للعبيد. وهذه الآية تدلُّ على بطلان قول من يقول ببقاء الخضر، وأنه مخلدٌ في الدنيا؛ فهو قول لا دليل عليه، ومناقض للأدلة الشرعية.

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَخِذُّوكَ إِلَّا هُزُوًا أَلَا هَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (٣٦) ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَجٍ لَّسُوْرِكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ﴾ (٣٧) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣٨) ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوْهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٣٩) ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ (٤٠) ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ رِيسُلِي مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (٤١).

(١) في (ب): «بالغنى».

﴿٣٦﴾ وهذا من شدة كفرهم؛ فإنَّ المشركين إذا رأوا رسول الله ﷺ؛ استهزؤوا به وقالوا: ﴿أهذا الذي يذُكُرُ آلِهَتِكُمْ﴾؛ أي: هذا<sup>(١)</sup> المحقِّق بزعمهم، الذي يسبُّ آلِهَتِكُمْ ويذمُّها ويقع فيها؛ أي: فلا تُبالوا به، ولا تحتفلوا به. هذا استهزاءؤهم واحتقارهم له بما هو من كماله؛ فإنَّه الأَكْمَلُ الأَفْضَلُ، الذي من فضائله ومكارمه إخلاصُ العبادة لله، وذمُّ كلِّ ما يُعْبَدُ من دونه وتنفُّصه، وذِكْرُ محلِّه ومكانته، ولكنَّ محلَّ الازدراء والاستهزاء هؤلاء الكفار الذين جَمَعُوا كلَّ خُلُقٍ ذَمِيمٍ، ولو لم يكن إلَّا كفرهم بالرَّبِّ وجحدهم لرسولِهِ، فصاروا بذلك من أخصِّ الخلق وأردلهم، ومع هذا؛ فذِكْرُهُم للرحمن الذي هو أعلى حالاتهم كافرين به؛ لأنَّه لا يذكرونه ولا يؤمنون به إلَّا وهم مشركون؛ فذِكْرُهُم كفرٌ وشركٌ؛ فكيف بأحوالهم بعد ذلك؟! ولهذا قال: ﴿وهم يذُكُرُ الرحمن هم كافرون﴾. وفي ذكر اسمه الرحمن هنا بيانٌ لقباحة حالهم، وأنهم كيف قابلوا الرحمن - مُسْئِدِي النِّعَمِ كُلِّهَا، ودافع النِّقَمِ، الذي ما بالعباد من نعمةٍ إلَّا منه، ولا يدفع السُّوءَ إلَّا هو - بالكفر والشرك.

﴿٣٧﴾ ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾؛ أي: خُلِقَ عَجُولاً، يبادِرُ الأشياءَ، ويستعجلُ بوقوعها؛ فالمؤمنون يستعجلون عقوبة الله للكافرين ويتباطؤونها، والكافرون يتولَّون ويستعجلون بالعذاب تكديباً وعناداً ويقولون: ﴿متى هذا الوعدُ إن كنتم صادقين﴾، والله تعالى يُنْهَلُ ولا يُهْمَلُ، ويحلِّمُ ويجعلُ لهم أجلاً مؤقتاً، ﴿إذا جاء أجلُهُم لا يستأخرون ساعةً ولا يستقدمون﴾. ولهذا قال: ﴿سأريكم آياتي﴾؛ أي: في انتقامي ممَّن كَفَر بي وعصاني، ﴿فلا تستعجلون﴾: ذلك.

﴿٣٨﴾ وكذلك الذين كفروا يقولون: ﴿متى هذا الوعدُ إن كنتم صادقين﴾: قالوا هذا القول اغتراراً ولما يحقُّ عليهم العقاب وينزلُ بهم العذاب.

﴿٣٩﴾ فلو ﴿يعلم الذين كفروا﴾ حالهم الشنيعة ﴿حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم﴾؛ إذ قد أحاطَ بهم من كلِّ جانب، وغَشِيَهُم من كلِّ مكان، ﴿ولا هم يُنصرون﴾؛ أي: لا ينصرهم غيرهم؛ فلا نُصِّروا، ولا انتصروا.

﴿٤٠﴾ ﴿بل تأتيهم﴾ النار ﴿بغتة﴾: فبغتتهم من الانزعاج والذعر والخوف العظيم. ﴿فلا يستطيعون ردها﴾: إذ هم أذلُّ وأضعف من ذلك. ﴿ولا هم يُنظرون﴾؛ أي: يُنْهَلُونَ فيؤخَّر عنهم العذاب؛ فلو علموا هذه الحالة حقَّ المعرفة؛ لما استعجلوا

(١) في (ب): «أهذا».

بالعذاب، ولخافوه أشدَّ الخوف، ولكن لما ترحَّل عنهم هذا العلم؛ قالوا ما قالوا.  
 ﴿٤١﴾ ولما ذَكَرَ استهزاءهم برسوله بقولهم: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾؛ سَلَاةً  
 بِأَنَّ هَذَا دَابُّ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ مَعَ رُسُلِهِمْ، فَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَىءَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ  
 فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ﴾؛ أَي: نَزَلَ بِهِمْ، ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾؛ أَي: نَزَلَ  
 بِهِمْ الْعَذَابُ وَتَقَطَّعَتْ عَنْهُمْ الْأَسْبَابُ؛ فَلِيَحْذَرُوا هَؤُلَاءِ أَنْ يَصِيبَهُمْ مَا أَصَابَ أَوْلَئِكَ  
 الْمَكْذِبِينَ.

﴿قُلْ مَنْ يَكْفُرْكُمْ بِأَيْلِيلٍ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٤٢)  
 أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ  
 مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْفُصُهَا مِنْ  
 أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ .

﴿٤٢﴾ يقول تعالى ذاكراً عَجَزَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً، وَأَنَّهُمْ  
 محتاجون مضطرون إلى ربِّهم الرحمن، الذي رحمته شملت البرَّ والفاجر في ليلهم  
 ونهارهم، فقال: ﴿قُلْ مَنْ يَكْفُرْكُمْ﴾؛ أَي: يحرسكم ويحفظكم ﴿بالليل﴾: إذا (١)  
 كنتم نائمين على فُرُشِكُمْ وذهبت حواشِكُمْ، وبالنهار وقت انتشاركم وغفلتكم ﴿من  
 الرحمن﴾؛ أَي: بدله غيره؛ أَي: هل يحفظكم أحدٌ غيره؟ لا حافظ إلا هو. ﴿بل  
 هم عن ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾: فلهذا أشركوا به، وإلَّا؛ فلو أقبلوا على [ذكر]  
 ربِّهم، وتلقوا نصائحه؛ لَهْدُوا لِرُشْدِهِمْ، ووقفوا في أمرهم.

﴿٤٣﴾ ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا﴾؛ أَي: إذا أردناهم بسوء؛ هل من  
 آلِهَتِهِمْ مَنْ يَقْدِرُ عَلَى مَنَعِهِمْ مِنْ ذَلِكَ السُّوءِ وَالشَّرِّ النَّازِلِ بِهِمْ؟ ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ  
 أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾؛ أَي: لا يُعَانُونَ عَلَى أُمُورِهِمْ مِنْ جِهَتِنَا، وَإِذَا لَمْ  
 يُعَانُوا مِنَ اللَّهِ؛ فَهَمْ مَخْذُولُونَ فِي أُمُورِهِمْ، لَا يَسْتَطِيعُونَ جَلْبَ مَنْفَعَةٍ وَلَا دَفْعَ  
 مَضْرَّةٍ.

﴿٤٤﴾ والذي أوجب لهم استمرارهم على كفرهم وشركهم قوله: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا  
 هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾؛ أَي: أمددناهم بالأموال والبنين، وأطلنا  
 أعمارهم، فاشتغلوا بالتمتع بها، ولهوا بها عما له خلُقوا، وطال عليهم الأمد،

(١) في (ب): «إذا».

فقسست قلوبهم، وعظم طغيانهم، وتغلظ كفرانهم؛ فلو لفتوا أنظارهم إلى مَنْ عن يمينهم وعن يسارهم من الأرض؛ لم يجدوا إلا هالكاً، ولم يسمعوا إلا صوت ناعية، ولم يحسوا إلا بقرون متتابعة على الهلاك، وقد نصّب الموت في كل طريق - لاقتناص النفوس - الأشرار، ولهذا قال: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾؛ أي: بموت أهلها وفنائهم شيئاً فشيئاً حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين؛ فلو رأوا هذه الحالة؛ لم يغتروا ويستمروا على ما هم عليه. ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾: الذين بوسعهم الخروج عن قدر الله، وبطاقيتهم الامتناع من الموت؛ فهل هذا وصفهم حتى يغتروا بطول البقاء؟ أم إذا جاءهم رسول ربهم، لقبض أرواحهم، أذعنوا وذلوا ولم يظهر منهم أدنى ممانعة؟

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصَّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ نَفْحَةً مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿٤٥﴾ أي: ﴿قل﴾: يا محمد للناس كلهم: ﴿إنما أُنذِرُكُمْ بالوحي﴾؛ أي: إنما أنا رسول، لا آتيكم بشيء من عندي، ولا عندي خزائن الله، ولا أعلم الغيب، ولا أقول إنني ملك، وإنما أُنذِرُكُمْ بما أوحاه الله لي؛ فإن استجبتم فقد استجبتم لله، وسيتبيحكم على ذلك، وإن أعرضتم وعارضتم؛ فليس بيدي من الأمر شيء، وإنما الأمر لله، والتقدير كله لله. ﴿ولا يسمع الصمُّ الدعاء﴾؛ أي: الأصم لا يسمع صوتاً؛ لأن سمعه قد فسد وتعطل، وشرط السماع مع الصوت أن يوجد محل قابل لذلك. كذلك الوحي سبب لحياة القلوب والأرواح ولفقه عن الله، ولكن إذا كان القلب غير قابل لسماع الهدى؛ كان بالنسبة للهدى والإيمان بمنزلة الأصم بالنسبة إلى الأصوات؛ فهؤلاء المشركون صم عن الهدى؛ فلا يستغرب عدم اهتدائهم، خصوصاً في هذه الحالة التي لم يأتهم العذاب، ولا مسهم ألمه.

﴿٤٦﴾ فلو مسهم ﴿نفحة من عذاب ربك﴾؛ أي: ولو جزء يسير ولا يسير من عذابه؛ ﴿ليقولنَّ يا ويلنا إنا كنا ظالمين﴾؛ أي: لم يكن قولهم إلا الدعاء بالويل والثبور والندم والاعتراف بظلمهم وكفرهم واستحقاقهم العذاب.

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿٤٧﴾ يخبر تعالى عن حكمه العدل وقضائه القسط بين عباده إذا جمعهم يوم

القيامة، وأنه يضع لهم الموازين العادلة التي يبين فيها مثاقيل الدر الذي<sup>(١)</sup> توزن به الحسنات والسيئات؛ ﴿فَلَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ﴾: مسلمة و<sup>(٢)</sup> لا كافرة ﴿شَيْئاً﴾: بأن تُنْقِصَ من حسناتها أو يُزَادَ في سيئاتها، وإن كَانَ مثقال ذرة<sup>(٣)</sup> من خردل التي هي أصغر الأشياء وأحقرها من خير أو شرُّ أتينا بها وأحضرناها، ليجازى بها صاحبها؛ كقوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾، ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾. ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾؛ يعني بذلك نفسه الكريمة؛ فكفى بها حاسباً؛ أي: عالماً بأعمال العباد، حافظاً لها، مثبتاً لها في الكتاب، عالماً بمقاديرها ومقادير ثوابها وعقابها واستحقاقها، موصلاً للعمال جزاءها.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَدَّوْنَا الْفِرْقَانَ وَوَضِيئًا وَذَكَرْنَا لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿٤٨﴾ كثيراً ما يَجْمَعُ تعالى بين هذين الكتابين الجليلين اللذين لم يَطْرُقَ العالم أفضلُ منهما ولا أعظمُ ذكراً ولا أبركُ ولا أعظمُ هدىً وبيانا، وهما التوراة والقرآن، فأخبر أنه أتى موسى أصلاً وهارون تبعاً الفرقان، وهو التوراة الفارقة بين الحق والباطل والهدى والضلال، وأنها ﴿ضياء﴾؛ أي: نورٌ يهتدي به المهتدون، ويأتئ به السالكون، وتعرّف به الأحكام، ويميّز به بين الحلال والحرام، وينير في ظلمة الجهل والبدع والغواية وذكراً للمتقين؛ يتذكرون به ما ينفعهم وما يضرهم، ويتذكّر به الخير والشر، وخصّ المتقين بالذكر، لأنهم المنتفعون بذلك علماً وعملاً.

﴿٤٩﴾ ثم فسّر المتقين فقال: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾؛ أي: يخشونه في حال غيبتهم وعدم مشاهدة الناس لهم؛ فمع المشاهدة أولى، فيتورعون عمّا حرّم، ويقومون بما ألزم. ﴿وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾؛ أي: خائفون ووجلون؛ لكمال معرفتهم برّبهم، فجمعوا بين الإحسان والخوف، والعطف هنا من باب عطف الصفات المتغايرات الواردة على شيء واحد وموصوف واحد.

﴿٥٠﴾ ﴿وهذا﴾؛ أي: القرآن، ﴿ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾: فوصفه بوصفين جليلين: كونه ذكراً يتذكّر به جميع المطالب؛ من معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، ومن

(٢) في (ب): «أو».

(١) في (ب): «التي».

(٣) في (ب): «حبة».

صفات الرسل والأولياء وأحوالهم، ومن أحكام الشرع من العبادات والمعاملات وغيرها، ومن أحكام الجزاء والجنة والنار، فَيَتَذَكَّرُ به المسائل والدلائل العقلية والنقلية، وسماه ذكراً؛ لأنه يَذَكِّرُ ما رَكَزَهُ الله في العقول والفطر من التصديق بالأخبار الصادقة، والأمر بالحسن عقلاً، والنهي عن القبيح عقلاً.

وكونه مباركاً يقتضي كثرة خيره ونمائها وزيادتها، ولا شيء أعظم بركة من هذا القرآن؛ فإن كل خير ونعمة وزيادة دينية أو دنيوية أو أخروية؛ فإنها بسببه وأثر عن العمل به؛ فإذا كان ذكراً مباركاً؛ وجب تلقية بالقبول والانقياد والتسليم، وشكر الله على هذه المنحة الجليلة، والقيام بها، واستخراج بركته؛ بتعلم ألفاظه ومعانيه. ومقابلته بضد هذه الحالة؛ من الإعراض عنه، والإضراب عنه صفحاً، وإنكاره، وعدم الإيمان به؛ فهذا من أعظم الكفر وأشد الجهل والظلم، ولهذا أنكر تعالى على من أنكره، فقال: ﴿أفأنتم له منكرون﴾.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مَدِينٍ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مِنْ فَعَلْ هَذَا يَا لَهَيْتَنَا إِنَّهُ لِمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَذُكِّرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ عَيْنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا يَا لَهَيْتَنَا يَا بَرهَيْمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُمُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَتَلَّوْهُمُ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَمْ لَكُمْ تَعَبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّفُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ

(١) في النسختين: «إلى آخر القصة وهو قوله: ﴿وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين﴾.

وَلَوْطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا  
 جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٧﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ  
 الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدٌ ﴿٧٨﴾ .

﴿٥١﴾ لما ذكر تعالى موسى ومحمداً ﷺ وكتابيهما؛ قال: ﴿ولقد آتينا إبراهيم  
 رُشدَهُ من قبل﴾؛ أي: من قبل إرسال موسى ومحمد ونزول كتابيهما، فأراه الله  
 ملكوت السماوات والأرض، وأعطاه من الرُشد الذي كَمَّلَ به نفسه ودعا الناس إليه  
 ما لم يؤتِه أحداً من العالمين غير<sup>(١)</sup> محمد، وأضاف الرُشد إليه لكونه رُشداً بحسب  
 حاله وعلو مرتبته، وإلّا؛ فكل مؤمن له من الرُشد بحسب ما معه من الإيمان.  
 ﴿وكُنَّا به عالمين﴾؛ أي: أعطينا رُشدَه، واختصصناه بالرسالة والخُلة،  
 واصطفينا في الدنيا والآخرة؛ لعلمنا أنّ أهل لذلك وكفء له؛ لذكائه وذكائه.

ولهذا ذَكَرَ حاجتَه لقومه، ونهيه عن الشُّرك، وتكسير الأصنام وإلزامهم  
 بالحجّة، فقال:

﴿٥٢﴾ ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ﴾: التي مثلتموها؛ نَحْتُمُوهَا بأيديكم  
 على صور بعض المخلوقات، ﴿التي أنتم لها عاكفون﴾: مقيمون على عبادتها،  
 ملازمون لذلك؛ فما هي؟ وأيُّ فضيلة ثبتت لها؟ وأين عقولكم التي ذهبت حتى  
 أفنيتم أوقاتكم بعبادتها؛ والحال أنّكم مثلتموها ونحتموها بأيديكم؛ فهذا من أكبر  
 العجائب؛ تعبدون ما تنحون؟!

﴿٥٣﴾ فأجابوا بغير حجّة جواب العاجز الذي ليس بيده أدنى شبهة، فقالوا:  
 ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا﴾: كذلك يفعلون فسلكننا سبيلهم واتبعناهم على عبادتها!! ومن  
 المعلوم أنّ فعل أحدٍ من الخلق سوى الرُّسل ليس بحجّة ولا تجوز به القدوة،  
 خصوصاً في أصل الدين وتوحيد ربِّ العالمين.

﴿٥٤﴾ ولهذا قال لهم إبراهيم مضملاً للجميع: ﴿لقد كنتم أنتم وأبائكم في  
 ضلال مبين﴾؛ أي: ضلال بين واضح، وأيُّ ضلال أبلغ من ضلالهم في الشرك  
 وترك التوحيد؟! أي: فليس ما قلتم يصلح للتمسك به، وقد اشتركتم وإياهم في  
 الضلال الواضح البين لكل أحد.

(١) في (ب): «بعد».





وقطعاً، وكانت مجموعةً في بيت واحدٍ فكسرها كلها، ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ﴾؛ أي: إِلَّا صنمهم الكبير؛ فَإِنَّهُ تَرَكَهُ لِمَقْصِدٍ سَيِّئَةٍ.

وتأمل هذا الاحتراز العجيب؛ فَإِنَّ كُلَّ مَمْقُوتٍ عِنْدَ اللَّهِ لَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ أَلْفَاظُ التَّعْظِيمِ إِلَّا عَلَى وَجْهِ إِضَافَتِهِ لِأَصْحَابِهِ؛ كَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا كَتَبَ إِلَى مَلُوكِ الْأَرْضِ الْمُشْرِكِينَ يَقُولُ: إِلَى عَظِيمِ الْفُرسِ... إِلَى عَظِيمِ الرُّومِ... وَنَحْوَ ذَلِكَ<sup>(١)</sup> وَلَمْ يَقُلْ: إِلَى الْعَظِيمِ! وَهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: كَبِيرًا مِنْ أَصْنَامِهِمْ؛ فَهَذَا يَنْبَغِي التَّنْبُّهُ لَهُ وَالِاحْتِرَازَ مِنْ تَعْظِيمِ مَا حَقَّرَهُ اللَّهُ؛ إِلَّا إِذَا أُضِيفَ إِلَى مَنْ عَظَّمَهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾؛ أَي: تَرَكَ إِبْرَاهِيمَ تَكْسِيرَ صَنَمِهِمْ هَذَا لِأَجْلِ أَنْ يَرْجِعُوا إِلَيْهِ، وَيَسْتَمْلُوا حُجَّتَهُ، وَيَلْتَفِتُوا إِلَيْهَا، وَلَا يُعْرِضُوا عَنْهَا، وَلِهَذَا قَالَ فِي آخِرِهَا: ﴿فَرَجِعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ﴾.

﴿٥٩﴾ فَحِينَ رَأَوْا مَا حَلَّ بِأَصْنَامِهِمْ مِنَ الْإِهَانَةِ وَالْخِزْيِ؛ ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾: فَرَمَوْا إِبْرَاهِيمَ بِالظُّلْمِ الَّذِي هُمْ أَوْلَى بِهِ حَيْثُ كَسَرَهَا، وَلَمْ يَدْرُوا أَنَّ تَكْسِيرَهُ لَهَا مِنْ أَفْضَلِ مَنَاقِبِهِ وَمِنْ عَدْلِهِ وَتَوْحِيدِهِ، وَإِنَّمَا الظَّالِمُ مَنِ اتَّخَذَهَا آلِهَةً، وَقَدْ رَأَى مَا يَفْعَلُ بِهَا.

﴿٦٠﴾ ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذُكُرُهُمْ﴾ - أَي: يَعِيبُهُمْ وَيَذُمَّهُمْ، وَمَنْ هَذَا شَأْنُهُ لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ هُوَ الَّذِي كَسَرَهَا، أَوْ أَنَّ بَعْضَهُمْ سَمِعَهُ يَذُكُرُ أَنَّهُ سَيَكِيدُهَا - ﴿يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾.

﴿٦١﴾ فَلَمَّا تَحَقَّقُوا أَنَّهُ إِبْرَاهِيمُ؛ ﴿قَالُوا فَاتُوا بِهِ﴾؛ أَي: بِإِبْرَاهِيمِ، ﴿عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ﴾؛ أَي: بِمَرَأَى مِنْهُمْ وَمَسْمَعِ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾؛ أَي: يَحْضُرُونَ مَا يَصْنَعُ بِمَنْ كَسَرَ آلِهَتِهِمْ. وَهَذَا الَّذِي أَرَادَ إِبْرَاهِيمَ وَقَصَّدَ: أَنْ يَكُونَ بَيَانُ الْحَقِّ بِمَشْهَدٍ مِنَ النَّاسِ؛ لِشَاهِدُوا الْحَقَّ وَتَقَوْمَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ؛ كَمَا قَالَ مُوسَى حِينَ وَاعَدَ فِرْعَوْنَ: ﴿مَوْعِدْكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسَ ضَحِيًّا﴾.

﴿٦٢﴾ فَحِينَ حَضَرَ النَّاسَ وَأَخْضِرَ إِبْرَاهِيمُ؛ قَالُوا لَهُ: ﴿أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا﴾؛ أَي: التَّكْسِيرَ ﴿بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾؟ وَهَذَا اسْتِفْهَامٌ تَقْرِيرٌ؛ أَي: فَمَا الَّذِي جَرَّأَكَ؟ وَمَا الَّذِي أَوْجَبَ لَكَ الْإِقْدَامَ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ؟

﴿٦٣﴾ فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ وَالنَّاسُ مُشَاهِدُونَ: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾؛ أَي: كَسَرَهَا

(١) كما في «صحيح البخاري» (٧ و٤٤٢٤)، ومسلم (١٧٧٣).

غضباً عليها لما عُدَّتْ معه، وأراد أن تكونَ العبادةُ منكم لصنمكم الكبير وحده، وهذا الكلامُ من إبراهيم القصدُ منه إلزامُ الخصم وإقامةُ الحجَّةِ عليه، ولهذا قال: ﴿فاسألُوهم إن كانوا ينطقون﴾، وأراد الأصنامَ المكسرة؛ أسألوها لم كُسرَتْ؟ والصنم الذي لم يكسر؛ اسألوه لأيِّ شيءٍ كسرها؟ إن كان عندهم نطقٌ؛ فسيجيبونكم إلى ذلك، وأنا وأنتم وكلُّ أحدٍ يدري أنها لا تنطقُ، ولا تتكلمُ، ولا تنفع ولا تضرُّ، بل ولا تنصر نفسَها ممَّن يريدها بأذى.

﴿٦٤﴾ ﴿فرجعوا إلى أنفسهم﴾؛ أي: ثابت عليهم عقولُهم، ورجعت إليهم أحلامُهم، وعلموا أنهم ضالُّون في عبادتها، وأقروا على أنفسهم بالظلم والشرك، ﴿فقالوا إنكم أنتم الظالمون﴾: فحصل بذلك المقصودُ، ولزمتهم الحجَّةُ بإقرارهم أن ما هم عليه باطلٌ، وأن فعلهم كفرٌ وظلمٌ.

﴿٦٥﴾ ولكن لم يستمروا على هذه الحالة، ولكن ﴿نكسوا على رؤوسهم﴾؛ أي: انقلب الأمر عليهم، وانتكست عقولهم، وضلَّت أحلامهم، فقالوا لإبراهيم: ﴿لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾؛ فكيف تهكِّم بنا، وتستهزئ بنا، وتأمرنا أن نسألها، وأنت تعلم أنها لا تنطقُ؟

﴿٦٦﴾ فقال إبراهيم موبخاً لهم ومعلنأ بشركهم على رؤوس الأشهاد ومبينأ عدم استحقاق آلهتهم للعبادة: ﴿أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم﴾: فلا نفع ولا دفع.

﴿٦٧﴾ ﴿أف لكم ولما تعبدون من دون الله﴾؛ أي: ما أضلكم وأخسر صفقتكم وما أخسكم أنتم وما عبدتم من دون الله!! إن كنتم تعقلون عرفتم هذه الحال، فلما عدمتم العقلَ وارتكبتم الجهلَ والضلالَ على بصيرة؛ صارت البهائم أحسن حالاً منكم.

﴿٦٨﴾ فحينئذٍ لما أفحمهم ولم يبينوا حجَّةً؛ استعملوا قوتهم في معاقبته، ف ﴿قالوا حرِّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين﴾؛ أي: اقتلوه أشنع القتلات بالإحراق غضباً لآلهتكم ونصرةً لها؛ فتعساً لهم تعساً، حيث عبدوا من أقروا أنه يحتاج إلى نصرهم واتخذوه إلهاً!!

﴿٦٩﴾ فانتصر الله لخليله لما ألقوه في النار، وقال لها: ﴿كوني بزداً وسلاماً على إبراهيم﴾: فكانت عليه برداً وسلاماً، لم يتلَّه فيها أذى، ولا أحسَّ بمكروه.

﴿٧٠﴾ ﴿وأرادوا به كيداً﴾: حيث عزموا على إحراقه، ﴿فجعلناهم

الأخسرين ﴿٧١﴾؛ أي: في الدنيا والآخرة؛ كما جعل الله خليله وأتباعه هم الرابحين المفلحين.

﴿٧١﴾ ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا﴾: وذلك أنه لم يؤمن به من قومه إلا لوط عليه السلام، قيل: إنه ابن أخيه، فنجاه الله، وهاجر ﴿إلى الأرض التي بارَكنا فيها للعالمين﴾؛ أي: الشام، فغادر قومه في بابل من أرض العراق، ﴿وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم﴾. ومن بركة الشام أن كثيراً من الأنبياء كانوا فيها، وأن الله اختارها مهاجراً لخليله، وفيها أحدُ بيوتِهِ الثلاثة المقدَّسة، وهو بيت المقدس.

﴿٧٢﴾ ﴿ووهبنا له﴾: حين اعتزل قومه، ﴿إسحاق ويعقوب﴾: ابن إسحاق، ﴿نافلة﴾: بعدما كبر وكانت زوجته عاقراً، فبشَّرتَه الملائكة بإسحاق، ﴿ومن وراء إسحاق يعقوب﴾، ويعقوب هو إسرائيل الذي كانت منه الأمة العظيمة، وإسماعيل بن إبراهيم الذي كانت منه الأمة الفاضلة العريية، ومن ذريته سيد الأولين والآخرين. ﴿وكلاً﴾: من إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ﴿جعلنا صالحين﴾؛ أي: قائمين بحقوقِهِ وحقوق عبادِهِ.

﴿٧٣﴾ ﴿ومن صلاحهم أنه جعلهم أئمة يهدون بأمره، وهذا من أكبر نعم الله على عبده: أن يكون إماماً يَهتدي به المهتدون، ويمشي خلفه السالكون، وذلك لما صبروا، وكانوا بآياتِ الله يوقنون.

وقوله: ﴿يهدون بأمرنا﴾؛ أي: يهدون الناس بديننا، لا يأمرّون بأهواء أنفسهم، بل بأمر الله ودينه وأتباع مرضاته، ولا يكون العبدُ إماماً حتى يدعو إلى أمر الله.

﴿وأوحينا إليهم فعل الخيرات﴾: يفعلونها ويدعون الناس إليها، وهذا شاملٌ للخيرات كلها<sup>(١)</sup> من حقوق الله وحقوق العباد، ﴿وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة﴾: هذا من باب عطف الخاص على العام؛ لشرف هاتين العبادتين وفضلهما، ولأنَّ مَنْ كَمَلهما كما أمر؛ كان قائماً بدينه، ومن ضيَّعهما؛ كان لما سواهما أضيع، ولأنَّ الصلاة أفضلُ الأعمال التي فيها حقُّه، والزكاة أفضلُ الأعمال التي فيها الإحسان لخلقه.

﴿وكانوا لنا﴾؛ أي: لا لغيرنا ﴿عابدين﴾؛ أي: مديمين على العبادات القلبية

(١) في (ب): «الجميع الخيرات».

والقولية والبدنية في أكثر أوقاتهم، فاستحقوا أن تكون العبادة وصفهم، فاتصفوا بما أمر الله به الخلق، وخلقهم لأجله.

﴿وَلَوْطًا ءَايَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَاتِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾ .

﴿٧٤﴾ هذا ثناء من الله على رسوله لوط عليه السلام بالعلم الشرعي والحكم بين الناس بالصواب والسداد، وأن الله أرسله إلى قومه يدعوهم إلى عبادة الله وينهاهم عما هم عليه من الفواحش، فلبث يدعوهم، فلم يستجيبوا له، فقلب الله عليهم ديارهم، وعذبهم عن آخرهم؛ لأنهم ﴿كانوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾: كذبوا الداعي وتوعدوه بالإخراج، ونجى الله لوطاً وأهله، فأمره أن يسري بهم ليلاً ليعبدوا عن القرية، فسروا ونجوا من فضل الله عليهم ومته.

﴿٧٥﴾ ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾: التي من دخلها كان من الآمنين من جميع المخاوف، النائلين كل خير وسعادة وبر وسرور وثناء، وذلك لأنه من الصالحين، الذين صلحت أعمالهم، وزكت أحوالهم، وأصلح الله فاسداهم، والصلاح هو السبب لدخول العبد برحمة الله؛ كما أن الفساد سبب لحرمانه الرحمة والخير، وأعظم الناس صلاحاً الأنبياء عليهم السلام، ولهذا يصفهم بالصلاح، وقال سليمان عليه السلام: ﴿وَأَدْخَلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ .

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾ .

﴿٧٦- ٧٧﴾ أي: واذكر عبدنا ورسولنا نوحاً عليه السلام مثنياً مادحاً حين أرسله الله إلى قومه، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً؛ يدعوهم إلى عبادة الله، وينهاهم عن الشرك به، ويبدي فيهم ويعيد، ويدعوهم سراً وجهاراً وليلاً ونهاراً، فلما رآهم لا ينجع فيهم الوعظ ولا يفيد لديهم الزجر؛ نادى ربه وقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَارًا. إِنَّكَ إِنْ تَذَرْنَاهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾؛ فاستجاب الله له، فأغرقهم، ولم يبق منهم أحداً، ونجى الله نوحاً وأهله ومن معه من المؤمنين في الفلك المشحون، وجعل ذريته هم الباقين، ونصره الله على قومه المستهزئين.

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِنُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَسَلَّمْنَا الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَنْ يُفَوِّصُ لَهُمْ وَيَعْمَلُ لَهُمْ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾

﴿٧٨﴾ أي: واذكر هذين النبيين [الكريمين<sup>(١)</sup>] داود وسليمان مثنياً مبعجلاً؛ إذ اتاهما الله العلم الواسع والحكم بين العباد؛ بدليل قوله: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾؛ أي: إذ تحاكم إليهما صاحبُ حرثٍ نفشت فيه غنم القوم الأخرى؛ أي: رعت ليلاً، فأكلت ما في أشجاره ورعت زرعه، ففضى فيه داود عليه السلام بأن الغنم تكون لصاحب الحرث؛ نظراً إلى تفريط أصحابها، فعاقبهم بهذه العقوبة، وحكم فيها سليمان بحكم موافق للصواب؛ بأن أصحاب الغنم يدفعون غنمهم إلى صاحب الحرث، فينتفع بدرها وصوفها، ويقومون على بستان صاحب الحرث حتى يعود إلى حاله الأولى؛ فإذا عاد إلى حاله؛ تراذوا، ورجع كل منهما بماله، وكان هذا من كمال فهمه وفطنته عليه السلام.

﴿٧٩﴾ ولهذا قال: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾؛ أي: فهمناه هذه القضية، ولا يدل ذلك أن داود لم يفهمه الله في غيرها، ولهذا خصصها بالذكر؛ بدليل قوله: ﴿وَكُلًّا﴾: من داود وسليمان آتيناهما ﴿حُكْمًا وَعِلْمًا﴾: وهذا دليل على أن الحاكم قد يصيب الحق والصواب، وقد يخطيء ذلك، وليس بملوم إذا أخطأ مع بذل اجتهاده.

ثم ذكر ما خص به كلا منهما، فقال: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾: وذلك أنه كان من أعبد الناس وأكثرهم لله ذكراً وتسييحاً وتمجيداً، وكان قد أعطاه الله من حسن الصوت ورفقته ورخامته ما لم يؤتبه أحداً من الخلق، فكان إذا سبح وأثنى على الله؛ جاوبته الجبال الصم والطيور البهيم، وهذا فضل الله عليه وإحسانه، ولهذا<sup>(٢)</sup> قال: ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾.

(٢) في (ب): «فلهذا».

(١) في (أ): «الكريم».

﴿٨٠﴾ ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صِنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾؛ أي: عَلَّمَ اللَّهُ داود عليه السلام صِنْعَةَ الدَّرُوعِ؛ فهو أول من صَنَعَهَا وَعَلَّمَهَا وَسَرَتْ صِنَاعَتَهُ إِلَى مَنْ بَعْدَهُ، فَأَلَانَ اللَّهُ لَهُ الْحَدِيدَ، وَعَلَّمَهُ كَيْفَ يَسْرُدُهَا، وَالْفَائِدَةُ فِيهَا كَبِيرَةٌ؛ ﴿لِتُخَصِّنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾؛ أي: هي وقاية لكم وحفظٌ عند الحرب واشتداد البأس. ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾: نعمة الله عليكم؛ حيث أجراها على يد عبده داود؟ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ سِرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسِرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾.

يُحْتَمَلُ أَنْ تَعْلِيمَ اللَّهِ لِدَاوُدَ صِنْعَةَ الدَّرُوعِ وَإِلَانَتَهَا أَمْرٌ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ، وَأَنْ يَكُونَ كَمَا قَالَ الْمَفْسُرُونَ: إِنَّ اللَّهَ أَلَانَ لَهُ الْحَدِيدَ، حَتَّى كَانَ يَعْمَلُهُ كَالْعَجِينِ وَالطِّينِ مِنْ دُونِ إِذَابَةٍ لَهُ عَلَى النَّارِ.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَعْلِيمَ اللَّهِ لَهُ عَلَى جَارِي الْعَادَةِ، وَأَنْ إِلَانَةَ الْحَدِيدِ لَهُ بِمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمَعْرُوفَةِ الْآنَ لِإِذَابَتِهَا، وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ امْتَنَّ [بِذَلِكَ] عَلَى الْعِبَادِ وَأَمَرَهُمْ بِشُكْرِهَا، وَلَوْلَا أَنْ صَنَعْتَهُ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ مَقْدُورَةً لِلْعِبَادَةِ؛ لَمْ يَمْتَنَّ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ وَيَذْكَرُ فَائِدَتَهَا؛ لِأَنَّ الدَّرُوعَ الَّتِي صَنَعَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَتَعَدِّرٌ أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ أَعْيَانَهَا، وَإِنَّمَا الْمَثَلُ بِالْجِنْسِ. وَالْإِحْتِمَالُ الَّذِي ذَكَرَهُ الْمَفْسُرُونَ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ؛ إِلَّا قَوْلُهُ: ﴿وَأَلَّنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾، وَلَيْسَ فِيهِ أَنَّ الْإِلَانَةَ مِنْ دُونِ سَبَبٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ.

﴿٨١﴾ ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾؛ أي: سَخَّرْنَاهَا ﴿عَاصِفَةً﴾؛ أي: سَرِيعَةً فِي مَرُورِهَا، ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾: حَيْثُ دَبَّرَتْ امْتَثَلَتْ أَمْرَهُ، غَدُوْهَا شَهْرٌ وَزَوَاحِهَا شَهْرٌ، ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾: وَهِيَ أَرْضُ الشَّامِ؛ حَيْثُ كَانَ مَقْرَهُ، فَيَذْهَبُ عَلَى الرِّيحِ شَرْقًا وَغَرْبًا، وَيَكُونُ مَاوَاهَا وَرَجُوعُهَا إِلَى الْأَرْضِ الْمُبَارَكَةِ. ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾: قَدْ أَحَاطَ عَلَمُنَا بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ، وَعَلِمْنَا مِنْ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ مَا أَوْصَلْنَاهُمَا بِهِ إِلَى مَا ذَكَرْنَا.

﴿٨٢﴾ ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ﴾: وَهَذَا أَيْضًا مِنْ خِصَائِصِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَهُ الشَّيَاطِينَ وَالْعَفَّارِيَّتَ، وَسَلَّطَهُ عَلَى تَسْخِيرِهِمْ فِي الْأَعْمَالِ الَّتِي لَا يَقْدِرُ عَلَى كَثِيرٍ مِنْهَا غَيْرِهِمْ، فَكَانَ مِنْهُمْ مَنْ يَغُوصُ لَهُ الْبَحْرَ وَيَسْتَخْرِجُ الدُّرَّ وَاللُّؤْلُؤَ وَغَيْرَ ذَلِكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْمَلُ لَهُ ﴿مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾. وَسَخَّرَ طَائِفَةً مِنْهُمْ لِبِنَاءِ بَيْتِ الْمَقْدَسِ، وَمَاتَ وَهُمْ عَلَى عَمَلِهِ، وَبَقُوا بَعْدَهُ سَنَةً، حَتَّى عَلِمُوا مَوْتَهُ؛ كَمَا سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ

تعالى. ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾؛ أي: لا يقديرون على الامتناع منه وعصيانِهِ، بل حَفِظَهُمُ اللَّهُ لَهُ بِقُوَّتِهِ وَعِزَّتِهِ وَسُلْطَانِهِ.

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُمْ فَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرِّهِمْ وَأَتَيْنَاهُمُ أَهْلَهُمْ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرْنَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿٨٣﴾ أي: واذكر عبدنا ورسولنا أيوب مثنياً معظماً له رافعاً لقدرِهِ حين ابتلاه ببلاء شديد فوجده صابراً راضياً عنه، وذلك أَنَّ الشيطان سُلِّطَ على جسده ابتلاءً من الله وامتحاناً، فنفخ في جسده، فتقرَّح قروحاً عظيمةً، ومكث مدّةً طويلةً، واشتدَّ به البلاء، ومات أهله، وذهب ماله، فنادى رَبَّهُ: رَبِّ ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾: فتوسَّلَ إلى الله بالإخبار عن حال نفسه، وأنه بلغ الضُّرُّ منه كلَّ مبلغ، وبرحمة رَبِّهِ الواسعة العامة.

﴿٨٤﴾ فاستجاب الله له وقال له: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مَغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾: فركض برجلِهِ، فخرجت من ركضتِهِ عَيْنُ ماءٍ باردةٍ، فاغتسل منها، وشرب، فأذهب الله ما به من الأذى. ﴿وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ﴾؛ أي: ردَدْنَا عليه أهله وماله. ﴿وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾: بأن منحه الله [مع] العافية من الأهل والمال شيئاً كثيراً، ﴿رحمةً من عندنا﴾: به حيثُ صَبَرَ ورضي، فأثابه الله ثواباً عاجلاً قبل ثواب الآخرة. ﴿وَذَكَرْنَا لِلْعَابِدِينَ﴾؛ أي: جعلناه عبرةً للعابدين الذين يتفجعون بالصبر؛ فإذا رأوا ما أصابه من البلاء، ثم ما أثابه بعد زواله، ونظروا السبب؛ وجدوه الصبر، ولهذا أثنى الله عليه به في قوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾، فجعلوه أسوةً وقدوةً عندما يصيبهم الضُّرُّ.

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿٨٥﴾ أي: واذكر عبادنا المصطفين وأنبياءنا المرسلين بأحسن الذكر، وأثن عليهم أبلغ الثناء: ﴿إسماعيل﴾ ابن إبراهيم، ﴿وإدريس وذا الكفل﴾: نبيين من أنبياء بني إسرائيل؛ ﴿كلُّ﴾ من هؤلاء المذكورين ﴿من الصابرين﴾. والصبر: هو حبس النفس ومنعها مما تميل بطبعها إليه، وهذا يشمل أنواع الصبر الثلاثة: الصبر على طاعة الله، والصبر عن معصية الله، والصبر على أقدار الله المؤلمة.

فلا يستحقُّ العبد اسم الصبر التام حتى يوفِّي هذه الثلاثة حقَّها؛ فهؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد وصَّفهم الله بالصبر؛ فدلَّ أنهم وفَّوها حقَّها وقاموا بها كما ينبغي.

﴿٨٦﴾ ووصفهم أيضاً بالصلاح، وهو يشمل: صلاح القلب بمعرفة الله ومحبته والإنابة إليه كلَّ وقت، وصلاح اللسان؛ بأن يكون رطباً من ذكر الله، وصلاح الجوارح باشتغالها بطاعة الله وكفها عن المعاصي.

فبصبرهم وصلاتهم أدخلهم الله برحمته، وجعلهم مع إخوانهم من المرسلين، وأثابهم الثواب العاجل والآجل، ولو لم يكن من ثوابهم إلا أن الله تعالى نوه بذكرهم في العالمين، وجعل لهم لسان صدق في الآخرين؛ لكفى بذلك شرفاً وفضلاً.

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمْرِ وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿٨٧ - ٨٨﴾ أي: واذكر عبدنا ورسولنا ﴿ذَا النُّونِ﴾، وهو يونس؛ أي: صاحب النون، وهي الحوت، بالذكر الجميل والثناء الحسن؛ فإن الله تعالى أرسله إلى قومه، فدعاهم، فلم يؤمنوا، فوعدهم بنزول العذاب بأمدٍ سماه لهم، فجاءهم العذاب، ورأوه عياناً، فعجوا إلى الله وضجوا وتابوا، فرفع الله عنهم العذاب؛ كما قال تعالى: ﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي وتمعنهم إلى حين﴾، وقال: ﴿وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون. فآمنوا فمتمتعناهم إلى حين﴾. وهذه الأمة العظيمة الذين آمنوا بدعوة يونس من أكبر فضائله، ولكنه عليه الصلاة والسلام ذهب مغضباً وأبق عن ربه للذنوب التي لم يذكرها الله لنا في كتابه ولا حاجة لنا إلى تعيينها؛ لقوله: ﴿إذ أبق إلى الفلك... وهو مليم﴾؛ أي: فاعل ما يلام عليه، [والظاهر أن عجلته ومغاضبته لقومه وخروجه من بين أظهرهم قبل أن يأمره الله بذلك]. وظن أن الله لا يقدر عليه؛ أي: يضيِّق عليه في بطن الحوت، أو ظن أنه سيفوت الله تعالى، ولا مانع من عروض هذا الظن للكامل من الخلق على وجه لا يستقر ولا يستمر عليه، فركب في السفينة مع أناس، فاقترعوا من يلقون منهم في البحر لما خافوا



الغرق إن بقُوا كلهم، فأصابت القرعة يونس، فالتقمه الحوت، وذهب فيه<sup>(١)</sup> إلى ظلمات البحار، فنادى في تلك الظلمات: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، فأقرَّ لله تعالى بكمال الألوهية، ونزَّهه عن كل نقص وعيبٍ وآفة، واعترف بظلم نفسه وجنائه؛ قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلبِثَ فِي بطنِهِ إِلَى يَوْمِ يُعْثُونَ﴾، ولهذا قال هنا: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾؛ أي: الشدة التي وقع فيها، ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾: وهذا وعدٌ وبشارةٌ لكل مؤمن وقع في شدةٍ وغمٍّ: أن الله تعالى سيُنجيه منها ويكشف عنه، ويخفف لإيمانه؛ كما فعل بيونس عليه السلام.

﴿وَرَكَّبْنَا إِذِ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿٨٩﴾ أي: واذكر عبدنا ورسولنا زكريا، منوهاً بذكره، ناشراً لمناقبه وفضائله التي من جملتها هذه المنقبة العظيمة، المتضمنة لئصحه للخلق ورحمة الله إياه، وأنه ﴿نادى ربه رب لا تذرني فرداً﴾؛ أي: ﴿قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك رب شقياً. وإني خفتُ الموالِي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك ولياً. يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً﴾: من هذه الآيات علمنا أن قوله: ﴿رب لا تذرني فرداً﴾: أنه لما تقارب أجله؛ خاف أن لا يقوم أحدٌ بعده مقامه في الدعوة إلى الله والنصح لعباد الله، وأن يكون في وقته فرداً ولا يُخلف من يشفعه ويعينه على ما قام به. ﴿وأنت خير الوارثين﴾؛ أي: خير الباقيين، وخير من خلفني بخير، وأنت أرحم بعبادك مني، ولكنني أريد ما يطمئن به قلبي، وتسكن له نفسي ويجري في موازيني ثوابه.

﴿٩٠﴾ ﴿فاستجبنا له ووهبنا له يحيى﴾: النبي الكريم، الذي لم يجعل الله له من قبل سمياً، ﴿وأصلحنا له زوجه﴾: بعدما كانت عاقراً لا يصلح رحمها للولادة، فأصلح الله رحمها للحمل لأجل نبيه زكريا، وهذا من فوائد المجلس والقرين الصالح؛ أنه مباركٌ على قرينه، فصار يحيى مشتركاً بين الوالدين. ولما ذكر هؤلاء

الأنبياء والمرسلين كلاً على انفراده؛ أثنى عليهم عموماً، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾؛ أي: يبادرون إليها، ويفعلونها في أوقاتها الفاضلة، ويكملونها على الوجه اللائق الذي ينبغي، ولا يتركون فضيلةً يقدرّون عليها إلا انتهزوا الفرصة فيها. ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً﴾؛ أي: يسألوننا الأمور المرغوب فيها من مصالح الدنيا والآخرة، ويتعوذون بنا من الأمور المرهوب منها من مضارّ الدارين، وهم راغبون [راهبون]، لا غافلون لاهون، ولا مدلون. ﴿وكانوا لنا خاشعين﴾؛ أي: خاضعين متذلّلين متضرّعين، وهذا لكمال معرفتهم برّبهم.

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَهِنَا رَجُومٌ ﴿٩٣﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَنُيُوتٌ ﴿٩٤﴾﴾.

﴿٩١﴾ أي: واذكر مريم عليها<sup>(١)</sup> السلام مثنياً عليها مبيّناً لقدرها شاهراً لشرفها، فقال: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾؛ أي: حفظته من الحرام وقربانه، بل ومن الحلال، فلم تنزوّج؛ لاشتغالها بالعبادة واستغراق وقتها بالخدمة لربّها، وحين جاءها جبريل في صورة بشرٍ سويّ تامّ الخلق والحسن؛ ﴿قالت إنني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً﴾، فجازاها الله من جنس عملها ورزقها ولدأ من غير أب، بل نفّخ فيها جبريل عليه السلام، فحملت ياذن الله، ﴿وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾؛ حيث حملت به ووضعته من دون مسيس أحد، وحيث تكلم في المهد، وبرأها مما ظنّ بها المتهمون، وأخبر عن نفسه في تلك الحالة، وأجرى الله على يديه من الخوارق والمعجزات ما هو معلوم، فكانت وابنها آية للعالمين، يتحدّث بها جيلاً بعد جيل، ويعتبر بها المعثرون.

﴿٩٢﴾ ولما ذكّر الأنبياء عليهم السلام؛ قال مخاطباً للناس: و ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾؛ أي: هؤلاء الرسل المذكورون هم أمتكم وأئمتكم الذين بهم تأتمون ويهديهم تقتدون، كلهم على دين واحدٍ وصراطٍ واحدٍ، والربُّ أيضاً واحدٌ، ولهذا قال: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾: الذي خلقتكم وربيتكم بنعمتي<sup>(٢)</sup> في الدين والدنيا؛ فإذا كان

(١) في (ب): «عليه».

(٢) في (ب): «بنعمي».

الربُّ واحداً والنبيُّ واحداً والدينُ واحداً، وهو عبادةُ الله وحده لا شريك له بجميع أنواع العبادة؛ كان وظيفتكم والواجبُ عليكم القيامَ بها، ولهذا قال: ﴿فاعبدون﴾: فرتب العبادة على ما سبق بالفاء ترتيب المسبب على سببه.

﴿٩٣﴾ وكان اللائق الاجتماع على هذا الأمر وعدم التفرُّق فيه، ولكنَّ البغي والاعتداء أياً إلا الافتراق والتقطع، ولهذا قال: ﴿وتقطعوا أمرهم بينهم﴾؛ أي: تفرَّق الأحزاب المنتسبون لأتباع الأنبياء فرقاً، وتشتَّتوا كلُّ يدعي أن الحقَّ معه والباطل مع الفريق الآخر، وكلُّ حزبٍ بما لديهم فرحون. وقد عَلِمَ أَنَّ المصيب منهم مَنْ كان سالكاً للدين القويم والصراط المستقيم، مؤتماً بالأنبياء، وسيظهر هذا إذا انكشَفَ الغطاء، وبرَّحَ الخفاء، وحَسَرَ الله الناس لفصل القضاء؛ فحينئذٍ يتبيَّن الصادق من الكاذب، ولهذا قال: ﴿كلُّ﴾: من الفرق المتفرِّقة وغيرهم، ﴿إلينا راجعون﴾؛ أي: فنجازيهم أتمَّ الجزاء.

﴿٩٤﴾ ثم فصل جزاءه فيهم منطوقاً ومفهوماً، فقال: ﴿فمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾؛ أي: الأعمال التي شرعتها الرسلُ وحَثَّتْ عليها الكتب، ﴿وهو مؤمنٌ﴾: بالله ورسوله وما جاؤوا به، ﴿فلا كفرانَ لسعِيهِ﴾؛ أي: لا نضيع سَعِيَهُ ولا نبطله، بل نضاعفه له أضعافاً كثيرة. ﴿وإنَّا له كاتبون﴾؛ أي: مثبتون له في اللوح المحفوظ وفي الصحف التي مع الحفظة؛ أي: ومن لم يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ أو عَمِلَهَا وهو ليس بمؤمن؛ فإنه محرومٌ خاسرٌ في دينه ودنياه.

﴿وَحَرَمٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٩٥﴾.

﴿٩٥﴾ أي: يمتنع على القرى المهلكة المعذبة الرجوع إلى الدنيا ليستدرِكوا ما فرطوا فيه؛ فلا سبيل إلى الرجوع لمن أهلك وعذب، فليحذر المخاطبون أن يستمروا على ما يوجب الإهلاك، فيقع بهم، فلا يمكن رفعه، وليقلعوا وقت الإمكان والإدراك.

﴿حَتَّىٰ إِذَا فُجِّحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ ﴿٩٦﴾ وَأَقْرَبَ الْوَعْدِ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُؤَلِّنَا قَدِّ كُنَّا فِي عَفْوَهِ مِنْ هَذَا بَلِّ كُنَّا ظَلِيمِينَ﴾ ﴿٩٧﴾.

﴿٩٦﴾ هذا تحذيرٌ من الله للناس أن يقيموا على الكفر والمعاصي، وأنه قد قَرَّبَ انفتاح يأجوج ومأجوج، وهما قبيلتان عظيمتان من بني آدم، وقد سدَّ عليهم

ذو القرنين لما سُكِّي إليه إفسادهم في الأرض، وفي آخر الزمان يفتَحُ السدُّ عنهم؛ فيخرجونَ إلى الناس، وفي هذه الحالة والوصف الذي ذَكَرَهُ اللهُ من كلِّ مكان مرتفع، وهو الحدب، ﴿يَنْسِلُونَ﴾؛ أي: يسرعون.

في هذا دلالةٌ على كثرتهم الباهرة، وإسراعهم في الأرض، إما بذواتهم، وإما بما خَلَقَ اللهُ لهم من الأسباب التي تقربُ لهم البعيد، وتسهلُ عليهم الصعب، وأنهم يَفْهَرُونَ الناس، ويَعْلُونَ عليهم في الدنيا، وأنه لا يدان لأحدٍ بقتالهم.

﴿٩٧﴾ ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾؛ أي: يوم القيامة الذي وَعَدَ اللهُ بآتيانه، ووَعَدَهُ حَقٌّ وصدقٌ؛ ففي ذلك اليوم ترى أبصار الكفار شاخصةً من شدة الأفرار والأهوال المزعجة والقلقل المفطعة، وما كانوا يعرفون من جنایاتهم وذنوبهم، وأنهم يَدْعُونَ بالويل والثبور والندم والحسرة على ما فات ويقولون: لقد ﴿كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ اليوم العظيم، فلم نَزَلْ فيها مستغرقين، وفي لهو الدنيا متمتعين، حتى أتانا اليقين، ووردنا القيامة؛ فلو كان يموتُ أحدٌ من الندم والحسرة لماتوا. ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾: اعترفوا بظلمهم وَعَدَلَ اللهُ فيهم؛ فحيثُ يُؤْمَرُ بهم إلى النار هم وما كانوا يعبدون، ولهذا قال:

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَتْ هُوَلَاءَ بِإِلَهَةٍ مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَوْجٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَةً وَهُمْ فِي مَا أَشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَخْرُجُ مِنْهُمُ الْفِرْعُ الْأَكْبَرُ وَنَلَقَهُمُ الْمَلٰٓئِكَةُ هٰذَا يَوْمَ كُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿٩٨﴾ أي: وإنكم<sup>(١)</sup> أيها العابدون، مع الله آلهة غيره، ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾؛ أي: وقودها وخطبها، ﴿أنتم لها واردون﴾: وأصنامكم.

﴿٩٩﴾ والحكمة في دخول الأصنام النار وهي جمادى لا تعقل، وليس عليها ذنب؛ بيان كذب من اتخذها آلهة، ويزداد عذابهم؛ فلماذا قال: ﴿لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها﴾: هذا كقوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾، وكلٌّ من العابدين والمعبدون فيها خالدون، لا يخرجون منها، ولا يتقلون عنها.

(١) في (ب): «إنكم».

﴿١٠٠﴾ ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾: من شدة العذاب، ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾: صمّ بكم عمي، أو لا يسمعون من الأصوات غير صوتها؛ لشدة غليانها، واشتداد زفيرها وتغيظها.

﴿١٠١ - ١٠٢﴾ ودخول آلهة المشركين النار إنما هو الأصنام أو من عبده وهو راض بعبادته، وأما المسيح وعزير والملائكة ونحوهم ممن عبده من الأولياء؛ فإنهم لا يعدّون فيها، ويدخلون في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾؛ أي: سبقت لهم سابقة السعادة في علم الله وفي اللوح المحفوظ وفي تسييرهم في الدنيا لليسرى والأعمال الصالحة. ﴿أولئك عنها﴾؛ أي: عن النار ﴿مبعدون﴾: فلا يدخلونها، ولا يكونون قريباً منها، بل يُبعدون عنها غاية البعد، حتى لا يسمعوها حسيها، ولا يروا شخصها. ﴿وهم فيما اشتتت أنفسهم خالدين﴾: من المآكل والمشارب والمناجح والمناظر مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، مستمرّ لهم ذلك، يزداد حسنه على الأحقاب.

﴿١٠٣﴾ ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ﴾؛ أي: لا يقلقهم إذا فرغ الناس أكبر فرع، وذلك يوم القيامة، حين تقرب النار تتغيظ على الكافرين والعاصين، فيفرغ الناس لذلك الأمر، وهؤلاء لا يحزنهم؛ لعلمهم بما يقدمون عليه، وأن الله قد آمنهم مما يخافون. ﴿وتتلقاهم الملائكة﴾: إذا بعثوا من قبورهم وآتوا على النجائب وفدأ لنشورهم مهنيين لهم قائلين: ﴿هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ توعِدُونَ﴾: فليهنكم ما وعدكم الله، وليعظم استبشاركم بما أمامكم من الكرامة، وليكثر فرحكم وسروركم بما أمّنكم الله من المخاوف والمكاره.

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْهَا بِإِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ .

﴿١٠٤﴾ يخبر تعالى أنه يوم القيامة يطوي السماوات على عظمها وأتساعها كما يطوي الكاتب للسجل؛ أي: الورقة المكتوب فيها؛ فتنشر نجومها، وتكور<sup>(١)</sup> شمسها وقمرها، وتزول عن أماكنها.

(١) في (ب): «ويكور».

﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدُهُ﴾؛ أي: إعادتنا للخلق مثل ابتدائنا لخلقهم؛ فكما ابتدأنا خلقهم ولم يكونوا شيئاً؛ كذلك نعيدهم بعد موتهم، ﴿وَعَدَا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾: ننفذ ما وعدنا؛ لكامل قدرته، وأنه لا تمتنع منه الأشياء.

﴿١٠٥﴾ ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ﴾: وهو الكتاب المزبور، والمراد الكتب المنزلة؛ كالتوراة، ونحوها، ﴿من بعد الذِّكْرِ﴾؛ أي: كتبناه في الكتب المنزلة بعدما كتبناه في الكتاب السابق الذي هو اللوح المحفوظ وأم الكتاب الذي توافقه جميع التقادير المتأخرة عنه والمكتوب في ذلك: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ﴾؛ أي: أرض الجنة، ﴿يَرْتُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾: الذين قاموا بالمأمورات، واجتنبوا المنهيات؛ فهم الذين يورثهم الله الجنات؛ كقول أهل الجنة: ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا﴾، ﴿وأورثنا الأرض ننبأ من الجنة حيث نشاء﴾، ويحتمل أن المراد الاستخلاف في الأرض، وأن الصالحين يمكن الله لهم في الأرض، ويوليهم عليها؛ كقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ...﴾ الآية.

﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ ﴿١٠٦﴾ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿١٠٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ مَا دُنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرَىٰ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرَىٰ لَعَلَّهُمُ فَتَنَةٌ لَّكُمْ وَمَنْعٌ إِلَيَّ حِينٍ﴾ ﴿١١١﴾ قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ ﴿١١٢﴾.

﴿١٠٦﴾ يُشْنِي اللَّهُ تَعَالَى عَلَى كِتَابِهِ الْعَزِيزِ الْقُرْآنِ وَيَبَيِّنُ كِفَايَتَهُ التَّامَّةَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ وَأَنَّهُ لَا يُسْتَغْنَى عَنْهُ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾؛ أي: يتبَلَّغون به في الوصول إلى ربهم وإلى دار كرامته، فيوصلهم إلى أجل المطالب وأفضل الرغائب، وليس للعبادين الذين هم أشرف الخلق وراءه غاية؛ لأنه الكفيل بمعرفة ربهم بأسمائه وصفاته وأفعاله وبالإخبار بالغيوب الصادقة وبالذعوة لحقائق الإيمان وشواهد الإيقان، المبيِّن للمأمورات كلها والمنهيات جميعها، المعرف بعيوب النفس والعمل والطرق التي ينبغي سلوكها في دقيق الدين وجليله، والتَّحْذِير من طُرُق الشيطان، وبيان مداخلة على الإنسان؛ فمن لم يُعْزِهِ الْقُرْآنُ؛ فلا أغناه الله، ومن لا يكفيه؛ فلا كفاه الله.

﴿١٠٧﴾ ثم أثنى على رسوله الذي جاء بالقرآن، فقال: ﴿وما أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾: فهو رحمته المهداة لعباده؛ فالمؤمنون به قَبِلُوا هذه الرحمة وشكروها وقاموا بها، وغيرهم كفروها، وبدلوا نعمة الله كفرةً، وأبوا رحمة الله ونعمته.

﴿١٠٨﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾: الذي لا يستحقُّ العبادة إِلَّا هو، ولهذا قال: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾؛ أي: منقادون لعبوديته مستسلمون لألوهيته؛ فَإِنْ فَعَلُوا؛ فَلْيُحْمَدُوا رَبَّهُمْ عَلَىٰ مَا مِنْ عَلَيْهِم بِهَذِهِ النِّعْمَةِ الَّتِي فَاقَتِ الْمُنَى.

﴿١٠٩ - ١١٠﴾ وَإِنْ ﴿تَوَلَّوْا﴾: عن الانقياد لعبودية ربهم؛ فحذَّزهم حلول المثلات ونزول العقوبة. ﴿فَقُلْ أَذَنْتُكُمْ﴾؛ أي: أعلمتكم بالعقوبة، ﴿عَلَىٰ سِوَاهِ﴾؛ أي: علمي وعلمكم بذلك مستوٍ؛ فلا تقولوا إذا نزل بكم العذاب: ما جاءنا من بشير ولا نذير، بل الآن استوى علمي، وعلمكم لما أذرتكم وحذرتكم وأعلمتكم بمآل الكفر، ولم أكنم عنكم شيئاً. ﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقْرَبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ﴾؛ أي: من العذاب؛ لَأَنَّ عِلْمَهُ عِنْدَ اللَّهِ، وهو بيده؛ ليس لي من الأمر شيء.

﴿١١١﴾ ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لِّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾؛ أي: لعلَّ تأخير العذاب الذي استعجلتموه شرًّا لكم، وَإِنْ تَمَتَّعُوا فِي الدُّنْيَا إِلَىٰ حِينٍ، ثم يكون أعظم لعقوبتكم.

﴿١١٢﴾ ﴿قَالَ رَبُّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾؛ أي: بيننا وبين القوم الكافرين؛ فاستجاب الله لهذا الدعاء، وحكم بينهم في الدنيا قبل الآخرة بما عاقب الله به الكافرين من وقعة بدرٍ وغيرها. ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾؛ أي: نسأل ربنا الرحمن ونستعين به على ما تصفون من قولكم: سنظهر عليكم، وسيضمحل دينكم! فنحن في هذا لا نعجب بأنفسنا، ولا نتكل على حولنا وقوتنا، وإنما نستعين بالرحمن الذي ناصية كل مخلوق بيده، ونرجوه أن يتيَّم ما استعنا به من رحمته. وقد فعل والله الحمد.



## تفسير سورة الحج

## قبل مكة وقيل مدينة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبِّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تَدْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾.

﴿١﴾ يخاطب الله الناس كافة بأن يتقوا ربهم الذي رباهم بالنعمة الظاهرة والباطنة، فحقيق بهم أن يتقوه بترك الشرك والفسوق والعصيان، ويمثلوا أوامره مهما استطاعوا. ثم ذكر ما يعينهم على التقوى ويحذرهم من تركها، وهو الإخبار بأحوال القيامة، فقال: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾: لا يُقَدَّرُ قَدْرُهُ وَلَا يُبْلَغُ كُنْهُهُ، ذلك بأنها إذا وقعت الساعة؛ رجفت الأرض، وارتجت، وزلزلت زلزالها، وتصدعت الجبال، واندكت، وكانت كثيباً مهيلاً، ثم كانت هباءً منبثاً، ثم انقسم الناس ثلاثة أزواج؛ فهناك تنفطر السماء، وتكور الشمس والقمر، وتنتشر النجوم، ويكون من القلاقل والבלابل ما تنصدع له القلوب، وتجل منه الأفئدة، وتشيب منه الولدان، وتذوب له الصم الصلاب.

﴿٢﴾ ولهذا قال: ﴿يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تَدْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾: مع أنها مجبولة على شدة محبتها لولدها، خصوصاً في هذه الحال التي لا يعيش إلا بها، ﴿وتضع كل ذات حمل حملها﴾: من شدة الفزع والهول، ﴿وترى الناس سكارى وما هم بسكارى﴾؛ أي: تحسبهم أيها الرائي لهم سكارى من الخمر، وليسوا سكارى.

﴿ولكن عذاب الله شديد﴾: فلذلك أذهب عقولهم، وفرغ قلوبهم، وملاها من الفزع، وبلغت القلوب الحناجر، وشخصت الأبصار، [و] في ذلك اليوم لا يجزي والد عن ولده، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً، ويومئذ يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وفصيلته التي تؤويه، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه، وهناك بعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً، يا ويلتى ليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً، وتسود حينئذ وجوه وتبيض وجوه، وتُنصَب الموازين التي يوزن بها مثاقيل الذر من الخير والشر، وتُنشر صحائف الأعمال وما فيها من جميع



الأعمال والأقوال والنيات من صغير وكبير، ويُنصَبُ الصراط على متن جهنم، وتُزَلَفُ الجنة للمتقين، وبُرُزَّتِ الجحيم للغاوين، إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تعيظاً وزفيراً، وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً، ويقال لهم: لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً، وإذا نادوا ربهم ليُخْرِجهم منها؛ قال: اخسؤوا فيها ولا تكلمون؛ قد غضب عليهم الرب الرحيم، وحَضَرَهُمُ العذاب الأليم، وأيسوا من كل خير، ووجدوا أعمالهم كلها، لم يفقدوا منها نقيراً ولا قَظميراً.

هذا؛ والمتقون في روضات الجنات يُخَبِّرون، وفي أنواع اللذات يتفكّهون، وفيما اشتهدت أنفسهم خالدون؛ فحقيق بالعاقل الذي يعرف أن كل هذا أمامه أن يعد له عدته، وأن لا يُلْهِيه الأمل فيترك العمل، وأن تكون تقوى الله شعاره، وخوفه دناره، ومحبة الله وذكره روح أعماله.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يَضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾.

﴿٣ - ٤﴾ أي: ومن الناس طائفة وفرقة؛ سلكوا طريق الضلال، وجعلوا يجادلون بالباطل الحق؛ يريدون إحقاق الباطل وإبطال الحق، والحال أنهم في غاية الجهل، ما عندهم من العلم شيء، وغاية ما عندهم تقليد أئمة الضلال من كل شيطان مريد متمرد على الله وعلى رسوله معانيد لهم، قد شاق الله ورسوله، وصار من الأئمة الذين يدعون إلى النار. ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: قدر على هذا الشيطان المريد، ﴿أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ﴾؛ أي: اتبعه؛ ﴿فَأَنَّهُ يَضِلُّهُ﴾: عن الحق ويجنبه الصراط المستقيم؛ ﴿ويهديه إلى عذاب السعير﴾: وهذا نائب إبليس حقاً؛ فإن الله قال عنه: ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾. فهذا الذي يجادل في الله قد جمع بين ضلاله بنفسه وتصديه إلى إضلال الناس، وهو متبع ومقلد لكل شيطان مريد، ظلمات بعضها فوق بعض، ويدخل في هذا جمهور أهل الكفر والبدع؛ فإن أكثرهم مقلدة يجادلون بغير علم.

﴿يَتَّيِبُهَا لِلنَّاسِ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَبِّ مِنَ الْبَحْتِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَعَصِيرٍ مُخَلَّقَةٍ لِنَبِّئَنَّ لَكُمْ وَنَقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِنَّكَ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَن يُؤْتُونَ وَمِنْكُمْ مَن يُرَدُّ إِلَىٰ

أَرَدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ  
 اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَثَبَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ رَزِقٍ **بِهِج** ⑤ ذَلِكَ يَأْنُّ لِلَّهِ أَنْ يَخْلُقَ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ يُخَيِّمُ الْمَوْقِفَ وَأَنْتَ عَلَى  
 كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ⑥ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ⑦ .

⑤ يقول تعالى: ﴿يا أيُّها الناس إن كنتم في ريبٍ من البعث﴾؛ أي: شكٌ واشتباه وعدم علم بوقوعه، مع أن الواجب عليكم أن تصدقوا ربكم وتصدقوا رسله في ذلك، ولكن إذا أبيتم إلا الريب؛ فهاكم دليلين عقليين تشاهدونهما، كلٌ واحدٍ منهما يدلُّ دلالةً قطعيةً على ما شككتم فيه، ويُزيل عن قلوبكم الريب:

أحدهما: الاستدلال بابتداء خلق الإنسان، وأن الذي ابتدأه سعيده، فقال فيه: ﴿فإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾: وذلك بخلق أبي البشر آدم عليه السلام، ﴿ثم من نطفة﴾؛ أي: مني، ولهذا ابتداء أول التخليق، ﴿ثم من علقة﴾؛ أي: تنقلب تلك النطفة بإذن الله دماً أحمر، ﴿ثم من مضغ﴾؛ أي: ينتقل الدم مضغاً؛ أي: قطعة لحم بقدر ما يُمضغ، وتلك المضغ تارة تكون ﴿مخلقة﴾؛ أي: مصوراً منها خلق الآدمي. وتارة ﴿غير مخلقة﴾: بأن تقذفها الأرحام قبل تخليقها، ﴿لنبيِّن لكم﴾: أصل نشأتكم؛ مع قدرته تعالى على تكميل خلقه في لحظة واحدة، ولكن ليبيِّن لنا كمال حكمته وعظيم قدرته وسعة رحمته.

﴿ونُقِرُّ في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى﴾: [أي:] ونُقِرُّ؛ أي: نبقى في الأرحام من الحمل الذي لم تقذفه الأرحام ما نشاء إبقاءه إلى أجل مسمى، وهو مدَّة الحمل، ﴿ثم نخرجكم﴾: من بطون أمهاتكم ﴿طفلاً﴾: لا تعلمون شيئاً، وليس لكم قدرة، وسخرنا لكم الأمهات، وأجرنا لكم في ثديها الرزق، ثم تُنقلون<sup>(١)</sup> طوراً بعد طورٍ حتى تبلغوا أشدكم، وهو كمال القوة والعقل. ﴿ومنكم من يُتوفى﴾: من قبل أن يبلغ سنَّ الأشد، ومنكم من يتجاوزهُ فيردُّ ﴿إلى أرذل العمر﴾؛ أي: أخسُّه وأرذله، وهو سنُّ الهرم والتخريف، الذي به يزول العقل ويضمحلُّ كما زالت باقي القوة وضعفت، ﴿لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً﴾؛ أي: لأجل أن لا يعلم هذا المعمر شيئاً مما كان يعلمه قبل ذلك، وذلك لضعف عقله؛ فقوة الآدمي محفوفةٌ بضعفين: ضعف الطفولية ونقصها، وضعف الهرم ونقصه؛ كما

(١) في (ب): «تنتقلون».

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾.

والدليل الثاني: إحياء الأرض بعد موتها، فقال الله فيه: ﴿وترى الأرض هامدة﴾؛ أي: خاشعة مغبرة لا نبات فيها ولا خضرة، ﴿فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت﴾؛ أي: تحركت بالنبات، ﴿وربّت﴾؛ أي: ارتفعت بعد خضوعها، وذلك لزيادة نباتها، ﴿وأنبثت من كل زوج﴾؛ أي: صنف من أصناف النبات ﴿بهيج﴾؛ أي: يبهج الناظرين ويسر المتأملين.

٦ - ٧ ﴿فهذان الدليلان القاطعان يدلّان على هذه المطالب الخمسة، وهي هذه: ﴿ذلك﴾: الذي أنشأ الآدمي من ما وصف لكم وأحيا الأرض بعد موتها، ﴿بأن الله هو الحق﴾؛ أي: الرب المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وعبادته هي الحق، وعبادة غيره باطلة. ﴿وأنه يحيي الموتى﴾: كما ابتدأ الخلق، وكما أحيا الأرض بعد موتها، ﴿وأنه على كل شيء قدير﴾: كما أشهدكم من بديع قدرته وعظيم صنعته ما أشهدكم، ﴿وأن الساعة آتية لا ريب فيها﴾: فلا وجه لاستبعادها، ﴿وأن الله يبعث من في القبور﴾: فيجازيكم بأعمالكم حسنًا وسيئها.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِي عَطْفِهِ يُضِلُّ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾ [ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلْمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾] (١).

﴿٨﴾ المجادلة المتقدمة للمقلد، وهذه المجادلة للشيطان المرید الداعي إلى البدع، فأخبر أنه ﴿يجادل في الله﴾؛ أي: يجادل رسل الله وأتباعهم بالباطل ليُدحض به الحق، ﴿بغير علم﴾: صحيح، ﴿ولا هدى﴾؛ أي: غير متبع في جداله هذا من يهديه؛ لا عقل مرشد، ولا متبوع مهتد، ﴿ولا كتاب منير﴾؛ أي: واضح بين؛ [أي:] فلا له حجة عقلية ولا نقلية، إن هي إلا شبهات يوحياها إليه الشيطان، وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم.

﴿٩﴾ ومع هذا: ﴿ثاني عطفه﴾؛ أي: لاوي جانبه وعنقه، وهذا كناية عن كبره عن الحق واحتقاره للخلق؛ فقد فرح بما معه من العلم غير النافع، واحتقر أهل

(١) الآية (١٠) لا توجد في النسختين.

الحقّ وما معهم من الحقّ؛ ﴿ليضل﴾ الناس؛ أي: ليكون من دعاة الضلال.

ويدخل تحت هذا جميع أئمة الكفر والضلال. ثم ذكّر عقوبتهم الدنيويّة والأخرويّة، فقال: ﴿له في الدنيا خزي﴾؛ أي: يفتضح هذا في الدنيا قبل الآخرة. وهذا من آيات الله العجيبة؛ فإنك لا تجد داعياً من دعاة الكفر والضلال إلا وله من المقت بين العالمين واللعنة والبغض والذمّ ما هو حقيقّ به، وكلّ بحسب حاله. ﴿ونذيقه يوم القيامة عذاب [الحريق]﴾؛ أي: نذيقه حرّها الشديد وسعيرها البليغ، وذلك بما قدّمت يده. ﴿وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبْغِ اللَّهُ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا لَمَن ضَرَّهُمْ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِمْ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَليُّنَ الْعَشِيرِ ﴿١٣﴾﴾.

﴿١١﴾ أي: ومن الناس من هو ضعيف الإيمان، لم يدخل الإيمان قلبه، ولم تخالطه بشاشته، بل دخل فيه إما خوفاً وإما عادة على وجه لا يثبت عند المحن. ﴿فإن أصابه خيرٌ اطمأن به﴾؛ أي: إن استمرّ رزقه رغداً ولم يحصل له من المكاره شيء اطمأن بذلك الخير، لا إيمانه<sup>(١)</sup>؛ فهذا ربّما أن الله يعافيه ولا يقبض له من الفتن ما ينصرف به عن دينه. ﴿وإن أصابته فتنة﴾: من حصول مكروه أو زوال محبوب؛ ﴿انقلب على وجهه﴾؛ أي: ارتدّ عن دينه؛ ﴿خسر الدنيا والآخرة﴾: أما في الدنيا؛ فإنه لا يحصل له بالردة ما أمّله، الذي جعل الردّة رأساً لماله وعوضاً عما يظن إدراكه، فخاب سعيه، ولم يحصل له إلا ما قسّم له، وأما الآخرة؛ فظاهراً، حريم الجنة التي عرضها السماوات والأرض، واستحقّ النار. ﴿ذلك هو الخسران المبين﴾؛ أي: الواضح البين.

﴿١٢ - ١٣﴾ ﴿يدعوا﴾: هذا الراجع على وجهه من دون الله ما لا ينفعه ولا يضره، وهذا صفة كلّ مدعوٍّ ومعبودٍ من دون الله؛ فإنه لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضرراً. ﴿ذلك هو الضلال البعيد﴾: الذي قد بلغ في البعد إلى حدّ النهاية؛ حيث أعرض عن عبادة النافع الضارّ الغني المغني، وأقبل على عبادة مخلوقٍ مثله

(١) كذا في (أ)، وفي (ب): «لا بإيمانه».

أو دونه، ليس بيده من الأمر شيء، بل هو إلى حصول ضد مقصوده أقرب، ولهذا قال: ﴿يَدْعُو لِمَنْ ضَرَّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾: فَإِنَّ ضَرَّهُ فِي الْعَقْلِ وَالْبَدَنِ وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَعْلُومٌ. ﴿لِبئْسَ الْمَوْلَى﴾؛ أي: هذا المعبود، ﴿ولبئس العشير﴾؛ أي: القرين الملازم على صحبته؛ فَإِنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الْمَوْلَى وَالْعَشِيرِ حَصُولَ النَّفْعِ وَدَفْعَ الضَّرْرِ؛ فَإِذَا لَمْ يَحْصُلْ شَيْءٌ مِنْ هَذَا؛ فَإِنَّهُ مَذْمُومٌ مَلُومٌ.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (١٤).

﴿١٤﴾ لما ذكر تعالى المجادل بالباطل، وأنه على قسمين: مقلد وداع؛ ذكر أن المتسمي بالإيمان أيضاً على قسمين: قسم لم يدخل الإيمان قلبه كما تقدم. والقسم الثاني: المؤمن حقيقة؛ صدق ما معه من الإيمان بالأعمال الصالحة، فأخبر تعالى أنه يدخلهم ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: وَسُمِّيَتِ الْجَنَّةُ جَنَّةً لِاسْتِمَالِهَا عَلَى الْمَنَازِلِ وَالْقُصُورِ وَالْأَشْجَارِ وَالنَّوَابِتِ الَّتِي تُجْرَى مِنْ فِيهَا وَيَسْتَرُّ بِهَا مِنْ كَثْرَتِهَا. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾: فَمَهْمَا أَرَادَهُ تَعَالَى؛ فَعَلَهُ؛ مِنْ غَيْرِ مَمَانَعٍ وَلَا مَعَارِضٍ، وَمِنْ ذَلِكَ إِيصَالُ أَهْلِ الْجَنَّةِ إِلَيْهَا، جَعَلْنَا اللَّهَ مِنْهُمْ بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ.

﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيُقْطِعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيبُ﴾ (١٥).

﴿١٥﴾ أي: من كان يظن أن الله لا ينصر رسوله وأن دينه سيضمحل فإن النصر من الله ينزل من السماء، [﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيُقْطِعْ﴾: النصر عن الرسول] <sup>(١)</sup>، ﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ﴾؛ أي: ما يكيد به الرسول ويعمله من محاربه والحرص على إبطال دينه ما يُغِيبُهُ مِنْ ظُهُورِ دِينِهِ. وهذا استفهام بمعنى النفي، وأنه لا يقدر على شفاء غيظه بما يعمله من الأسباب.

ومعنى هذه الآية الكريمة: يا أيها المعادي للرسول محمد ﷺ، الساعي في إطفاء دينه، الذي يظن بجهله أن سعيه سيفيده شيئاً! اعلم أنك مهما فعلت من الأسباب، وسعيت في كيد الرسول؛ فإن ذلك لا يذهب غيظك ولا يشفي كمدك؛

(١) زيادة من هامش (أ). وفي (ب): «فليمدد ذلك الظان بسبب»؛ أي: حبل من السماء وليرق إليها، ثم ليقطع النصر النازل عليه من السماء.

فليس لك قدرة في ذلك، ولكن سنشير عليك برأي تتمكن به من شفاء غيظك ومن قطع النصر عن الرسول إن كان ممكناً: اتت الأمر مع بابيه، وارتقى إليه بأسبابه: اعمد إلى جبل من ليف أو غيره، ثم علقه في السماء، ثم اصعد به حتى تصل إلى الأبواب التي ينزل منها النصر، فسدها وأغلقها واقطعها؛ فبهذه الحال تشفي غيظك؛ فهذا هو الرأي والمكيده، وأما سوى هذه الحال؛ فلا يخطر ببالك أنك تشفي بها غيظك، ولو ساعدك من ساعدك من الخلق.

وهذه الآية الكريمة فيها من الوعد والبشارة بنصر الله لدينه ولرسوله وعباده المؤمنين ما لا يخفى، ومن تأيس الكافرين الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، والله متم نوره ولو كره الكافرون؛ أي: وسعوا مهما أمكنهم.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ يَبَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِيَ مَن يُرِيدُ ۝﴾.

﴿١٦﴾ أي: وكذلك لما فصلنا في هذا القرآن ما فصلنا؛ جعلناه آيات بينات واضحات دلالات على جميع المطالب والمسائل النافعة، ولكن الهداية بيد الله؛ فمن أراد الله هدايته؛ اهتدى بهذا القرآن، وجعله إماماً له وقدوة واستضاء بنوره، ومن لم يرد الله هدايته؛ فلو جاءته كل آية؛ ما آمن ولم ينفعه القرآن شيئاً، بل يكون حجة عليه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝﴾ (١٧) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۝﴾ (١٨) ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ۝﴾ (١٩) ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ۝﴾ (٢٠) ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ۝﴾ (٢١) ﴿وَلَهُمْ مَقَابِعُ مِن حَدِيدٍ ۝﴾ (٢٢) ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُجَاوَزُونَ فِيهَا مِنْ أَسْوَدٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَلَوْؤُلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝﴾ (٢٣) ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ ۝﴾ (٢٤).

(١) في النسختين: «إلى قوله: ﴿وهودوا إلى صراط الحميد﴾».

﴿١٧﴾ يخبر تعالى عن طوائف أهل الأرض من الذين أتوا الكتاب من المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين ومن المجوس ومن المشركين: أن الله سيجمعهم جميعهم ليوم القيامة، ويفصل بينهم بحكمه العدل، ويجازيهم بأعمالهم التي حفظها وكتبها وشهداها، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

﴿١٩ - ٢٢﴾ ثم فَصَّلَ هذا الفصل بينهم بقوله: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾: كلُّ يدعي أنه المحقُّ. ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾: يشمل كلَّ كافر من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين والمشركين، ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾؛ أي: يُجعل لهم ثيابٌ من قَطْران، وتُشعل فيها النار؛ ليعمَّهم العذابُ من جميع جوانبهم، ﴿يُصَّبُ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾: الماء الحارُّ جدًّا، ﴿يُضْهِرُّ بِهِ مَا فِي بَطُونِهِمْ﴾: من اللحم والشحم والأمعاء من شدة حرِّه وعظيم أمره. ﴿وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ﴾: بيد الملائكة الغلاظ الشداد تضرِبُهم فيها وتقمعُهم. كلُّما أرادوا أن يخرجوا منها أُعيدوا فيها؛ فلا يُفْتَرُّ عنهم العذاب ولا هُمْ يُنْظَرُونَ، ويقال لهم توبيخاً: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾؛ أي: المحرق للقلوب والأبدان.

﴿٢٣﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: ومعلومٌ أنَّ هذا الوصف لا يَصْدُقُ على غير المسلمين، الذين آمنوا بجميع الكتب وجميع الرسل، ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾؛ أي: يسوِّرون في أيديهم، رجالهم ونسأؤهم أساور الذهب، ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾: فتمَّ نعيمهم بذلك<sup>(١)</sup>: أنواع المأكولات اللذيذات، المشتتمل عليها لفظ الجنات، وذكر الأنهار السَّارحات، أنهار الماء واللبن والعسل والخمر، وأنواع اللباس والحلي الفاخر.

﴿٢٤﴾ وذلك بسبب أنَّهم ﴿هُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾: الذي أفضله وأطيبه كلمة الإخلاص، ثم سائر الأقوال الطيبة التي فيها ذكر الله أو إحسانٌ إلى عباد الله. ﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾؛ أي: الصراط المحمود، وذلك لأنَّ جميع الشرع كله محتوٍ على الحكمة والحمد وحسن المأمور به وقبح المنهي [عنه]، وهو الدين الذي لا إفراط فيه ولا تفريط، المشتتمل على العلم النافع والعمل الصالح. أو: وهدوا إلى صراط الله الحميد؛ لأنَّ الله كثيراً ما يُضيف الصراط إليه؛ لأنَّه يوصلُ صاحبه إلى الله. وفي ذكر الحميد هنا ليبين أنَّهم نالوا الهداية بحمد ربِّهم

(١) كذا في (أ). وفي (ب): «بذكر». وهو الصواب.

ومثته عليهم، ولهذا يقولون في الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾.

﴿١٨﴾ واعترض تعالى بين هذه الآيات بذكر سجود المخلوقات له؛ جميع من في السماوات والأرض، والشمس، والقمر، والنجوم، والجبال، والشجر، والدواب الذي يشمل الحيوانات كلها. وكثير من الناس، وهم المؤمنون: ﴿وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾؛ أي: وَجِبَ وَكُتِبَ لكفره وعدم إيمانه، فلم يوقفه الله للإيمان؛ لأنَّ الله أهانه. ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهَ فَمَا لَهُ مِنْ مَكْرَمٍ﴾: ولا راد لما أراد، ولا معارض لمشيئته؛ فإذا كانت المخلوقات كلها ساجدةً لرَبِّها، خاضعةً لعظمتيه، مستكينهً لعزته، عانيةً لسلطانه؛ دلَّ أنه وحده الربُّ المعبودُ الملكُ المحمودُ، وأنَّ من عدل عنه إلى عبادة سواه؛ فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً، وخسر خسراناً مُبيناً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَلَفِ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَمِ يُظَلِّمِ نَفْسَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ (٢٥).

﴿٢٥﴾ يخبر تعالى عن شناعة ما عليه المشركون الكافرون برَبِّهم، وأنهم جمَعوا بين الكفر بالله ورسوله، وبين الصدِّ عن سبيل الله، ومنَع الناس من الإيمان، والصدِّ أيضاً عن المسجد الحرام الذي ليس ملكاً لهم ولا لأبائهم، بل الناس فيه سواء المقيم فيه والطارئ إليه، بل صدُّوا عنه أفضل الخلق محمداً وأصحابه، والحال أنَّ المسجد الحرام من حرمةٍ واحترامه وعظمتيه أنَّ ﴿مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾؛ فمجرد الإرادة للظلم<sup>(١)</sup> والإلحاد في الحرم موجب للعذاب، وإنَّ كان غيرُه لا يعاقب العبد إلا بعمل الظلم؛ فكيف بمن أتى فيه أعظم الظلم من الكفر والشرك والصدِّ عن سبيله ومنع من يريده بزيارة؟! فما ظنُّهم أن يفعل الله بهم؟!.

وفي هذه الآية الكريمة وجوب احترام الحرم وشدة تعظيمه والتحذير من إرادة المعاصي فيه وفعلها.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتِ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ

(١) في (ب): «إرادة الظلم».



يَأْتِيكَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ  
عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَاكْلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لِيَقْضُوا  
تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُدُورَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ .

﴿٢٦﴾ يذكر تعالى عظمة البيت الحرام وجلالته وعظمة بانيه، وهو خليل الرحمن، فقال: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾؛ أي: هيأناه له وأنزلناه إياه، وجعل قسماً من ذُرِّيَّتِهِ من سكانه، وأمره الله بينانيه، فبناه على تقوى الله، وأسسّه على طاعة الله، وبناه هو وابنه إسماعيل، وأمره أن لا يُشْرِكَ به شيئاً؛ بأن يُخْلِصَ لله أعماله وبينيه على اسم الله. ﴿وَطَهَّرْ بَيْتِي﴾؛ أي: من الشرك والمعاصي ومن الأنجاس والأدناس، وأضافه الرحمن إلى نفسه لشرفه وفضله ولتعظيم محبته في القلوب، وتنصب إليه الأفتدة من كل جانب، وليكون أعظم لتطهيره وتعظيمه؛ لكونه بيت الرب للطائفين به والعاكفين عنده، المقيمين لعبادة من العبادات من ذكر وقراءة وتعلم علم وتعليمه وغير ذلك من أنواع القرب، ﴿وَالرُّكُوعِ السُّجُودِ﴾؛ أي: المصلين؛ أي: طهره لهؤلاء الفضلاء الذين همهم طاعة مولاهم وخدمته والتقرب إليه عند بيته؛ فهؤلاء لهم الحق ولهم الإكرام، ومن إكرامهم تطهير البيت لأجلهم. ويدخل في تطهيره تطهيره من الأصوات اللاغية والمرتفعة التي تشوش على المتعبدين بالصلاة والطواف.

وقدم الطواف على الاعتكاف والصلاة لاختصاصه بهذا البيت، ثم الاعتكاف لاختصاصه بجنس المساجد.

﴿٢٧﴾ ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾؛ أي: أعلمهم به، وادعهم إليه، وبلغ دانيهم وقاصيهم فرضه وفضيلته؛ فإنك إذا دعوتهم؛ أتوك حجاجاً وعماراً. ﴿رَجَالاً﴾؛ أي: مشاة على أرجلهم من الشوق، ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾؛ أي: ناقة ضامر تقطع المهامة والمفاز، وتواصل السير حتى تأتي إلى أشرف الأماكن، ﴿مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾؛ أي: من كل بلد بعيد.

وقد فعل الخليل عليه السلام ثم من بعده ابنه محمد ﷺ، فدعيا الناس إلى حج هذا البيت، وأبديا في ذلك وأعادا، وقد حصل ما وعد الله به؛ أنه الناس رجالاً وركباناً من مشارق الأرض ومغاربها.

﴿٢٨﴾ ثم ذكر فوائد زيارة بيت الله الحرام مرغباً فيه، فقال: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ

لهم ﴿؛ أي: لينالوا بيت الله منافع دينية من العبادات الفاضلة، والعبادات التي لا تكون إلا فيه، ومنافع دنيوية، من التكسب وحصول الأرباح الدنيوية، وكلُّ هذا أمرٌ مشاهدٌ، كلُّ يعرفه. ﴿ويذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾: وهذا من المنافع الدينية والدنيوية؛ أي: ليدكروا اسم الله عند ذبح الهدايا شكراً لله على ما رزقهم منها ويسرها لهم؛ فإذا ذبحتموها؛ ﴿فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير﴾؛ أي: شديد الفقر.

﴿٢٩﴾ ثم ليَقضُوا تَفَثَهُمْ؛ أي: يقضوا نُسُكَهُمْ ويزيلوا الوسخ والأذى الذي لِحَقَّهُمْ في حال الإحرام، ﴿وليوفوا نُذُورَهُمْ﴾: التي أوجبها على أنفسهم من الحج والعمرة والهدايا، ﴿وليَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾؛ أي: القديم، أفضل المساجد على الإطلاق، المعتقد من تسلط الجبابرة عليه. وهذا أمرٌ بالطواف، خصوصاً بعد الأمر بالمناسك عموماً؛ لفضله وشرفه، ولكونه المقصود، وما قبله وسائل إليه. ولعله والله أعلم أيضاً لفائدة أخرى، وهو أن الطواف مشروع كل وقت، وسواء كان تابعاً لِنُسُكٍ أم مستقلاً بنفسه.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَتَ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَجَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَمُ إِلَّا مَا يَتَلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَىٰ بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَجِيٍّ ﴿٣١﴾﴾.

﴿٣٠﴾ ﴿ذلك﴾؛ أي<sup>(١)</sup>: ذكرنا لكم من تلحم الأحكام وما فيها من تعظيم حُرْمَاتِ اللَّهِ وإجلالها وتكريمها؛ لأنَّ تعظيم حُرْمَاتِ اللَّهِ من الأمور المحبوبة لله المقربة إليه التي من عَظَمَهَا وأجَلَّهَا أثابه الله ثواباً جزيلاً، وكانت خيراً له في دينه ودنياه وأخراه عند ربه. وحرماثُ الله كلُّ ما له حرمةٌ وأمرٌ باحترامه من عبادة<sup>(٢)</sup> أو غيرها؛ كالمناسك كلها، والحرم والإحرام، والهدايا، والعبادات التي أمر الله العباد بالقيام بها؛ فتعظيمها إجلالاً بالقلب ومحبتها وتكميلُ العبودية فيها غير متهاونٍ ولا متكاسلٍ ولا متناقلٍ. ثم دَكَرَ مَنَّةً وإحسانه بما أحله لعباده من بهيمة الأنعام من إبل وبقرة وغنم، وشرعها من جملة المناسك التي يُتَقَرَّبُ بها إليه، فعظمت مَنَّةً فيها

(١) كذا في (أ) وفي (ب): «الذي». (٢) في (ب): «عبادة».

من الوجهين. ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ في القرآن تحريمه من قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكَ الْمَيْتَةُ وَالِدَمُّ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ...﴾ الآية. ولكن الذي من رحمته بعباده أن حرّمه عليهم وَمَنَعَهُمْ مِنْهُ تَزَكِيَةً لَهُمْ وَتَطْهِيراً مِنَ الشَّرْكِ بِهِ وَقَوْلِ الزُّورِ<sup>(١)</sup>، ولهذا قال: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ﴾؛ أي: الخبث القذر ﴿مِنَ الْأَوْثَانِ﴾؛ أي: الأنداد التي جعلتموها آلهة مع الله؛ فإنّها أكبر أنواع الرجس.

والظاهر أن ﴿مِنَ﴾ هنا ليست لبيان الجنس كما قاله كثير من المفسرين، وإنما هي للتبويض، وأنّ الرجس عام في جميع المنهيات المحرّمات، فيكون منهياً عنها عموماً، وعن الأوثان التي هي بعضها خصوصاً، ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾؛ أي: جميع الأقوال المحرّمات؛ فإنّها من قول الزور، [الذي هو الكذب ومن ذلك شهادة الزور، فلما نهاهم عن الشرك والرجس وقول الزور].

﴿٣١﴾ أمرهم أن يكونوا ﴿حُفَّاءَ لِلَّهِ﴾؛ أي: مقبلين عليه وعلى عبادته، معرضين عما سواه. ﴿غَيْرِ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ﴾: فمثله ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾؛ أي: سقط منها، ﴿فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ﴾: بسرعة، ﴿أَوْ تَهْوَىٰ بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾؛ أي: بعيد. كذلك المشركون<sup>(٢)</sup>؛ فالإيمان بمنزلة السماء محفوظة مرفوعة، ومن ترك الإيمان بمنزلة الساقط من السماء عرضة للآفات والبلبات؛ فإما أن تخطفه الطير فتقطع أعضاءه، كذلك المشرك إذا ترك الاعتصام بالإيمان؛ تخطفته الشياطين من كل جانب، ومزقوه، وأذهبوا عليه دينه ودنياه.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعْبَكَ اللَّهُ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَفَعٌ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحْلُوهَا إِلَى الْبَيْتِ الْمَقْدِسِ﴾ ﴿٣٣﴾.

﴿٣٢﴾ أي: ذلك الذي ذكرنا لكم من تعظيم حُرّماتِهِ وشعائِرِهِ، والمراد بالشعائر أعلام الدين الظاهرة:

ومنها: المناسك كلها؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الصِّفَا وَالْمَرُوءَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾.

ومنها: الهدايا والقربان للبيت، وتقدّم أنّ معنى تعظيمها إجلالها والقيام بها وتكميلها على أكمل ما يقدر عليه العبد.

(١) في (ب): «وتطهيراً الشرك به وقوله الزور».

(٢) في (ب): «المشرك».

ومنها: الهدايا؛ فتعظيمها باستحسانها واستسمانها، وأن تكون مكملة من كل وجه. فتعظيم شعائر الله صادر من تقوى القلوب؛ فالمعظم لها يبرهن على تقواه وصحة إيمانه؛ لأن تعظيمها تابع لتعظيم الله وإجلاله.

﴿٣٣﴾ ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾؛ أي: في الهدايا، ﴿منافع إلى أجل مسمى﴾: هذا في الهدايا المسوقة من البذن ونحوها؛ ينتفع بها أربابها بالركوب والحلب ونحو ذلك مما لا يضرها إلى أجل مسمى مقدر موقت، وهو ذبحها إذا وصلت محلها، وهو البيت العتيق؛ أي: الحرم كله، منى وغيرها؛ فإذا ذبحت؛ أكلوا منها وأهدوا وأطعموا البائس الفقير.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿٣٤﴾ أي: ﴿ولكل أمة﴾: من الأمم السالفة ﴿جعلنا منسكاً﴾؛ أي: فاستبقوا إلى الخيرات وتسارعوا إليها، ولننظر أيكم أحسن عملاً. والحكمة في جعل الله لكل أمة منسكاً؛ لإقامة ذكره والالتفات لشكره، ولهذا قال: ﴿ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإنهم إله واحد﴾: وإن اختلفت أجناس الشرائع؛ فكلها متفقة على هذا الأصل، وهو ألوهية الله وإفراؤه بالعبودية وترك الشرك به، ولهذا قال: ﴿فله أسلموا﴾؛ أي: انقادوا واستسلموا له لا لغيره؛ فإن الإسلام له طريق إلى الوصول إلى دار السلام. ﴿وبشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾: بخير الدنيا والآخرة، والمخبت، الخاضع لربه، المستسلم لأمره، المتواضع لعباده.

﴿٣٥﴾ ثم ذكر صفات المخبتين، فقال: ﴿الذين إذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: خوفاً وتعظيماً، فتركوا لذلك المحرمات لخوفهم ووجلهم من الله وحده. ﴿والصابرين على ما أصابهم﴾: من البأساء والضراء وأنواع الأذى؛ فلا يجري منهم لتسخطٍ لشيء من ذلك، بل صبروا ابتغاء وجه ربهم؛ محتسبين ثوابه، مرتقبين أجره. ﴿والمقيمى الصلاة﴾؛ أي: الذين جعلوها قائمة مستقيمة كاملة؛ بأن أدوا اللازم فيها والمستحب وعبوديتها الظاهرة والباطنة. ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾: وهذا يشمل جميع النفقات الواجبة؛ كالزكاة والكفارة والنفقة على الزوجات والمماليك والأقارب، والنفقات المستحبة؛ كالصدقات بجميع وجوهها.

وأتى بـ ﴿من﴾ المفيدة للتبويض ليُعَلِّمَ سهولة ما أمر الله به ورغب فيه، وأنه جزءٌ يسيرٌ مما رَزَقَ الله، ليس للعبد في تحصيله قدرةٌ لولا تيسيرُ الله له ورزقه إياه؛ فيا أيها المرزوق من فضل الله! أنفق مما رَزَقَكَ الله؛ ينفق الله عليك ويزدك من فضله.

﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبَهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَآؤَهَا وَلَكِنَّ بِنَالِهِ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَيَشِرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿٣٦﴾ هذا دليل على أن الشعائر عامٌ في جميع أعلام الدين الظاهرة، وتقدم أن الله أخبر أن من عَظَّمَ شعائره؛ فإن ذلك من تقوى القلوب، وهنا أخبر أن من جملة شعائره البُدن؛ أي: الإبل والبقر على أحد القولين، فَتَعُظَّمُ وتستحسن وتُستحسن. ﴿لكم فيها خيرٌ﴾؛ أي: المهدي وغيره من الأكل والصدقة والانتفاع والثواب والأجر. ﴿فاذكروا اسم الله عليها﴾؛ أي: عند ذبحها، قولوا: بسم الله، واذبحوها ﴿صَوَافٍ﴾؛ أي: قائماتٍ؛ بأن تُقام على قوائمها الأربع، ثم تُعَقَّلَ يدها اليسرى، ثم تُنَحَّرَ. ﴿فإذا وَجَبَتْ جُنُوبَهَا﴾؛ أي: سقطت في الأرض جنوبها حين تُسَلَخُ ثم يسقط الجزارُ جنوبها على الأرض؛ فحينئذٍ قد استعدت لأن يُؤَكَلَ منها؛ ﴿فكلوا منها﴾: وهذا خطابٌ للمهدي، فيجوز له الأكل من هديه، ﴿وأطعموا القانع والمعتَرَّ﴾؛ أي: الفقير الذي لا يسأل تقنعاً وتعففاً، والفقير الذي يسأل؛ فكل منهما له حقٌّ فيهما. ﴿كذلك سَخَّرْنَاهَا لكم﴾؛ أي: البدن، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: الله على تسخيرها؛ فإنه لولا تسخيرها لها؛ لم يكن لكم بها طاقة، ولكنه ذلَّلها لكم وسَخَّرها رحمةً بكم وإحساناً إليكم؛ فاحمدوه.

﴿٣٧﴾ وقوله: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَآؤَهَا﴾؛ أي: ليس المقصود منها ذبحها فقط، ولا ينال الله من لحومها ولا دماؤها شيءٌ؛ لكونه الغني الحميد، وإنما يناله الإخلاص فيها والاحتساب والنية الصالحة، ولهذا قال: ﴿ولكن يناله التقوى منكم﴾: ففي هذا حثٌ وترغيبٌ على الإخلاص في النحر، وأن يكون القصد وجه الله وحده؛ لا فخراً ولا رياءً ولا سمعةً ولا مجرد عادة، وهكذا سائر العبادات إن لم يقترن بها الإخلاص وتقوى الله؛ كانت كالقشور الذي لا لب فيه والجسد الذي لا روح فيه. ﴿كذلك سَخَّرها لكم لتكبروا الله﴾؛ أي: تعظموه

وَتَجْلُوهُ، كما ﴿هداكم﴾؛ أي: مقابلةً لهديته إياكم؛ فإنه يستحقُّ أكمل الثناء وأجلَّ الحمد وأعلى التعظيم. ﴿وبشِّر المحسنين﴾: بعبادة الله؛ بأنَّ يعبدوا الله كأنهم يرونه؛ فإنَّ لم يصلوا إلى هذه الدرجة؛ فليعبُدوه معتقدين وقت عبادتهم اطلاعاً عليهم ورؤيته إياهم، والمحسنين لعباد الله بجميع وجوه الإحسان؛ من نفع مال أو علم أو جاه أو نصح أو أمر بمعروفٍ أو نهى عن منكرٍ أو كلمة طيبةٍ ونحو ذلك؛ فالمحسِنون لهم البشارة من الله بسعادة الدنيا والآخرة، وسيُحسِنُ الله إليهم كما أحسنوا في عبادته ولعباده؛ ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾، ﴿للذين أحسنوا الحُسنى وزيادة﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ (٣٨).

﴿٣٨﴾ هذا إخبارٌ ووعدٌ وبشارةٌ من الله للذين آمنوا أنَّ الله يدافع عنهم كلَّ مكروه، ويدفع عنهم كلَّ شرٍّ بسبب إيمانهم: من شرِّ الكفار وشرِّ وسوسة الشيطان وشرور أنفسهم وسيئات أعمالهم، ويحمل عنهم عند نزول المكاره ما لا يتحملون، فيخفف عنهم غاية التخفيف، كلُّ مؤمن له من هذه المدافعة والفضيلة بحسب إيمانه، فمستقلٌ ومستكثرٌ.

﴿إنَّ الله لا يحبُّ كلَّ خَوَّانٍ﴾؛ أي: خائنٍ في أمانته التي حمَّله الله إياها، فيبخسُ حقوق الله عليه ويخونها ويخون الخلق. ﴿كفورٍ﴾: لنعم الله، يوالي عليه الإحسان، ويتوالى منه الكفر والعصيان؛ فهذا لا يحبه الله، بل يُبغضه ويمقته وسيجازهه على كفره وخيانتِهِ. ومفهوم الآية أنَّ الله يحبُّ كلَّ أمينٍ قائمٍ بأمانته شكورٍ لمولاه.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَلَكِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ عَلِيمٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِذَا مَكَتْلَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾.

﴿٣٩﴾ كان المسلمون في أول الإسلام ممنوعين من قتال الكفار ومأمورين بالصبر عليهم لحكمة إلهية، فلما هاجروا إلى المدينة، وأوذوا وحصل لهم منعة

وَقُوَّةٌ؛ أذن لهم بالقتال؛ كما قال تعالى<sup>(١)</sup>: ﴿أَذِّنْ لِلَّذِينَ يِقَاتِلُونَ﴾: يُفهم منه أنهم كانوا قبل ممنوعين، فأذن الله لهم بقتال الذين يقاتلون، وإنما أذن لهم لأنهم ظلموا بمنعهم من دينهم وأديتهم عليه وإخراجهم من ديارهم. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾: فليستصبروه وليستعينوا به.

﴿٤٠﴾ ثم ذكر صفة ظلمهم، فقال: ﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾؛ أي: أخرجوا إلى الخروج بالأذى والفتنة، ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا﴾: أن ذنبهم الذي نقم منهم أعداؤهم، ﴿أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾؛ أي: إلا أنهم وحدوا الله وعبدوه مخلصين له الدين؛ فإن كان هذا ذنباً؛ فهو ذنبهم؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَقَمُّوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾: وهذا يدل على حكمة الجهاد؛ فإن<sup>(٢)</sup> المقصود منه إقامة دين الله، أو<sup>(٣)</sup> ذب الكفار المؤذنين للمؤمنين البادئين لهم بالاعتداء عن ظلمهم واعتدائهم، والتمكّن من عبادة الله وإقامة الشرائع الظاهرة، ولهذا قال: ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾: فيدفع الله بالمجاهدين في سبيله ضرر الكافرين؛ ﴿لَهَدَمْتُ صَوَامِعُ وَبِيَعُ وَصَلَوَاتُ وَمَسَاجِدُ﴾؛ أي: لهدمت هذه المعابد الكبار لطوائف أهل الكتاب معابد اليهود والنصارى والمساجد للمسلمين. ﴿يُذَكَّرُ فِيهَا﴾؛ أي: في هذه المعابد ﴿اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾: تُقام فيها الصلوات، وتُتلى فيها كتب الله، ويُذكر فيها اسم الله بأنواع الذكر؛ فلولا دفع الله الناس بعضهم ببعض؛ لاستولى الكفار على المسلمين، فخرّبوا معابدهم وقتلواهم عن دينهم، فدلّ هذا أنّ الجهاد مشروع لأجل دفع الصائل والمؤذي، ومقصودٌ لغيره. ودلّ ذلك على أنّ البلدان التي حصلت فيها الطمأنينة بعبادة الله، وعمرت مساجدها، وأقيمت فيها شعائر الدين كلها من فضائل المجاهدين وبركتهم، دفع الله عنها الكافرين؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

فإن قلت: نرى الآن مساجد المسلمين عامرة لم تخرب؛ مع أنّها كثيرٌ منها إمارة صغيرة وحكومة غير منظمّة، مع أنّهم لا يدان لهم بقتال من جاورهم من الإفرنج، بل نرى المساجد التي تحت ولايتهم وسيطرتهم عامرة، وأهلها آمنون مطمئنون؛ مع قدرة ولايتهم من الكفار على هدمها، والله أخبر أنه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض؛ لهدمت هذه المعابد، ونحن لا نشاهد دفعا؟

(٢) في (ب): «وأن».

(١) في (ب): «قال تعالى».

(٣) في (ب): «وذنب».

أجيب بأنَّ جواب هذا السؤال والاستشكال داخلٌ في عموم هذه الآية وفردٌ من أفرادها؛ فإنَّ مَنْ عَرَفَ أحوال الدول الآن ونظامها، وأنها تعتبرُ كلَّ أمةٍ وجنس تحت ولايتها وداخل في حكمها؛ تعتبرُهُ عضواً من أعضاء المملكة وجزءاً من أجزاء الحكومة، سواء كانت تلك الأمة مقتدرةً بعددها أو عددها أو مالها أو علمها أو خدمتها، فتراعي الحكوماتُ مصالح ذلك الشعب الدينيَّة والديويَّة، وتخشى إن لم تفعل ذلك أن يختلَّ نظامها وتفقد بعض أركانها، فيقوم من أمر الدين بهذا السبب ما يقوم، خصوصاً المساجد؛ فإنَّها ولله الحمد في غاية الانتظام، حتى في عواصم الدول الكبار، وتراعي تلك الدول الحكومات المستقلة؛ نظراً لخواطر رعاياهم المسلمين، مع وجود التحاسد والتباغض بين دول النصارى، الذي أخبر الله أنه لا يزال إلى يوم القيامة، فتبقى الحكومة المسلمة التي لا تقدرُ تدافع عن نفسها سالمةً من كثير ضررهم<sup>(١)</sup>؛ لقيام الحسد عندهم؛ فلا يقدرُ أحدُهم أن يمدَّ يده عليها، خوفاً من احتمائها بالآخر، مع أن الله تعالى لا بدُّ أن يُري عباده من نصر الإسلام والمسلمين ما قد وَعَدَ به في كتابه، وقد ظهرت ولله الحمد أسبابه بشعور المسلمين بضرورة رجوعهم إلى دينهم، والشعورُ مبدأ العمل؛ فنحمدُه ونسأله أن يُنِّم نعمته، ولهذا قال في وعده الصادق المطابق للواقع: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾؛ أي: يقوم بنصر دينه، مخلصاً له في ذلك، يقاتلُ في سبيله لتكون كلمة الله هي العليا.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾؛ أي: كامل القوة، عزيزٌ، لا يُرام، قد قهر الخلائق وأخذ بنواصبيهم. فأبشروا يا معشر المسلمين؛ فإنَّكم وإن ضَعُفَ عددُكم وعددُكم وقوي عددُ عدوكم<sup>(٢)</sup>؛ فإنَّ ركنكم القويَّ العزيز ومعتمدكم على مَنْ خَلَقَكُمْ وَخَلَقَ ما تعملون؛ فاعملوا بالأسباب المأمور بها، ثم اطلبوا منه نصرَكم؛ فلا بدُّ أن ينصرَكم، ﴿يا أيُّها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾، وقوموا أيُّها المسلمون بحق الإيمان والعمل الصالح؛ فقد ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾.

(١) في (ب): «من ضررهم».

(٢) في (ب): «وقوي عدد عدوكم وعدتكم». ولعل الصواب: «وقوي عدد عدوكم وعددوهم».



﴿٤١﴾ ثم ذكر علامة مَنْ ينصره، وبها يُعرف أَنَّ مَنْ ادَّعى أنه يَنْصُرُ اللهَ وَيَنْصُرُ دينه ولم يَتَّصِفْ بهذا الوصف؛ فهو كاذب، فقال: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ؛ أَي: مَلَكْنَاهُمْ لِإِيَّاهَا، وجعلناهم المتسلطين عليها من غير منازع ينازعهم ولا معارض؛ ﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾: في أوقاتها وحدودها وأركانها وشروطها في الجمعة والجماعات. ﴿وَاتَوُوا الزَّكَاةَ﴾: التي عليهم خصوصاً، وعلى رعيَّتهم عموماً، أتوا أهلها الذين هم أهلها. ﴿وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ﴾: وهذا يشملُ كُلَّ معروفٍ حُسْنُهُ شرعاً وعقلاً من حقوق الله وحقوق الآدميين. ﴿وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾: كُلَّ منكرٍ شرعاً وعقلاً، معروف قبْه، والأمر بالشيء والنهي عنه يدخلُ فيه ما لا يتمُّ إلَّا به؛ فإذا كان المعروف والمنكر يتوقَّف على تعلُّم وتعليم أجبروا الناس على التعلُّم والتعليم، وإذا كان يتوقَّف على تأديبٍ مقدَّر شرعاً أو غير مقدَّر؛ كأنواع التعزير؛ قاموا بذلك، وإذا كان يتوقَّف على جعل أناس متصدِّين له؛ لزم ذلك، ونحو ذلك مما لا يتمُّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلَّا به.

﴿ولله عاقبة الأمور﴾؛ أي: جميع الأمور ترجعُ إلى الله، وقد أخبر أنَّ العاقبة للتقوى؛ فمن سلَّطه الله على العباد من الملوك وقام بأمر الله؛ كانت له العاقبة الحميدة والحالة الرشيدة، ومن تسلَّط عليهم بالجبروت، وأقام فيهم هوى نفسه؛ فإنَّه وإن حصل له ملكٌ موقت؛ فإنَّ عاقبته غيرُ حميدة؛ فولايته مشؤومة، وعاقبته مذمومة.

﴿وَإِنْ يَكْذِبُونَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّنْ مِن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَبْنَؤُا مِعْطَلَةٌ وَقَصِرَ مَشِيدِ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُوا لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿٤٢ - ٤٤﴾ يقول تعالى لنبية محمد ﷺ: وَإِنْ يَكْذِبُكَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ؛ فليست بأول رسول كُذِّب، وليسوا بأول أمة كُذِّبَت رسولها؛ ﴿فقد كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نوح وعاد وثمود. وقوم إبراهيم (وقوم لوط). وأصحاب مَدْيَنَ﴾؛ أي: قوم شعيب. ﴿وكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾: المكذِّبين، فلم أعاجلهم بالعقوبة، بل أمهلتهم حتى استمروا في طغيانهم يعمهون وفي كفرهم وشركهم يزدادون، ﴿ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ﴾:

بالعذاب أخذ عزيز مقتدر. ﴿فكيف كان نكير﴾؛ أي: إنكارى عليهم كفرهم وتكذيبهم كيف حاله؟! كان أشد العقوبات وأفظع المثالات؛ فمنهم من أغرقه، ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من أهلِكَ بالريح العقيم، ومنهم من خُسِفَ به الأرض، ومنهم من أُرْسِلَ عليه عذاب يوم الظُّلَّة؛ فليعتبر بهم هؤلاء المكذبون أن يصيبهم ما أصابهم؛ فإنهم ليسوا خيراً منهم، ولا كُتِبَ لهم براءة في الكتب المنزلة من الله. وكم من المعذبين المهلكين أمثال هؤلاء كثير!

﴿٤٥﴾ ولهذا قال: ﴿فكأين من قرية﴾؛ أي: وكم من قرية، ﴿أهلكناها﴾: بالعذاب الشديد والخزي الدنيوي، ﴿وهي ظالمة﴾: بكفرها بالله وتكذيبها لرسوله، لم يكن عقوبتنا لها ظلماً منا. ﴿فهي خاوية على عروشها﴾؛ أي فديارهم مهتمة قصورها وجدرانها، قد سقطت على عروشها<sup>(١)</sup>، فأصبحت خراباً بعد أن كانت عامرة، وموحشة بعد أن كانت أهلة بأهلها آنسة. ﴿ويشر معطلة وقصر مشيد﴾؛ أي: وكم من بئر قد كان يزدحم عليه الخلق لشربهم وشرب مواشيهم، فقد أهله وعديم منه الوارد والصادر! وكم من قصر تعب عليه أهله فشيّدوه ورفعوه وحصّوه وزخرفوه؛ فحين جاءهم أمر الله؛ لم يُغن عنهم شيئاً، وأصبح خالياً من أهله، قد صاروا عبرة لمن اعتبر ومثلاً لمن فُكّر ونظر.

﴿٤٦﴾ ولهذا دعا الله عباده إلى السير في الأرض لينظروا ويعتبروا، فقال: ﴿أفلم يسيروا في الأرض﴾: بأبدانهم وقلوبهم؛ ﴿فتكون لهم قلوب يعقلون بها﴾: آيات الله ويتأملون بها مواقع عبره، ﴿أو آذان يسمعون بها﴾: أخبار الأمم الماضين وأنباء القرون المعديين، وإلا فمجرد نظر العين وسماع الأذن وسير البدن الخالي من التفكر والاعتبار غير مفيد ولا موصل إلى المطلوب، ولهذا قال: ﴿فإنها لا تغمى الأبصار ولكن تغمى القلوب التي في الصدور﴾؛ أي: هذا العمى الضار في الدين عمى القلب عن الحق حتى لا يشاهده كما لا يشاهد الأعمى المرثيات، وأما عمى البصر؛ فغايبته بلعة ومنفعة دنيوية.

﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَنَّمَا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمَلَتْ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْنَا إِلَيْهَا الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿٤٧﴾ أي: يتعجلك هؤلاء المكذبون بالعذاب لجهلهم وظلمهم وعنادهم

(١) في (ب): «سقطت عروشها».

وتعجيزاً لله وتكذيباً لرسوله، ولن يُخَلِّفَ اللهُ وعده؛ فما وَعَدَهُمْ به من العذاب لا بدَّ من وقوعه، ولا يمنعه من مانع، وأما عَجَلَتُهُ والمبادرة فيه؛ فليس ذلك إليك يا محمد، ولا يستفزُّكَ عجلتُهم وتعجيزُهم إيانا؛ فإنَّ أمامهم يوم القيامة الذي يُجمع فيه أولهم وآخرهم، ويجازون بأعمالهم، ويقع بهم العذابُ الدائم الأليم، ولهذا قال: ﴿وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾: من طوله وشِدَّتِه وهولِه؛ فسواء أصابهم عذابٌ في الدنيا أم تأخَّر عنهم العذاب؛ فإنَّ هذا اليوم لا بدَّ أن يدرِكهم.

ويُحتمل أنَّ المراد أنَّ الله حليمٌ، ولو استعجلوا العذاب؛ فإنَّ يوماً عنده كألف سنة مما تعدون؛ فالمدَّة وإنَّ تطاوَّثُموها، واستبطَّأتم فيها نزول العذاب؛ فإنَّ الله يمهِّل المدد الطويلة، ولا يُهمل، حتى إذا أخذ الظالمين بعذابه؛ لم يُفْلِتْهم.

﴿٤٨﴾ ﴿وَكَايُنْ مِنْ قَرِيْبَةٍ أَمَلِيْتُ لَهَا﴾؛ أي: أمهلتها مدة طويلة، ﴿وهي ظالمة﴾؛ أي: مع ظلمهم، فلم يكن مبادرتهم بالظلم موجِباً لمبادرتنا بالعقوبة، ﴿ثم أخذتها بالعذابِ وإلَيَّ المصيرُ﴾؛ أي: مع عذابها في الدنيا سترجِعُ إلى الله فيعذبها بذنوبها؛ فليحذر هؤلاء الظالمون من حلول عقاب الله، ولا يغتروا بالإمهال.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ﴾ أَوْلَيْتِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾.

﴿٤٩﴾ يأمر تعالى عبده ورسوله محمداً ﷺ أن يخاطبَ الناس جميعاً بأنَّه رسولُ الله حقًّا؛ مبشراً للمؤمنين بثواب الله، منذراً للكافرين والظالمين من عقابه. وقوله: ﴿مبِينٌ﴾ أي: بيِّنُ الإنذار، وهو التخويف مع الإعلام بالمخوف، وذلك لأنَّه أقام البراهين الساطعة على صدق ما أنذرهم به.

﴿٥٠﴾ ثم ذَكَرَ تفصيل النذارة والبشارة، فقال: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا﴾: بقلوبهم إيماناً صحيحاً صادقاً، ﴿وعملوا الصالحات﴾: بجوارحهم ﴿في جنَّاتِ النعيم﴾؛ أي: الجنات التي يُنْتَعَمُ بها بأنواع النعيم من المأكَل والمشارب والمناكح والصُّور والأصوات والتنعم برؤية الربِّ الكريم وسماع كلامه.

﴿٥١﴾ ﴿والذين كفروا﴾؛ أي: جَحَدُوا نعمة ربِّهم، وكذَّبُوا رُسُلَه وآياته<sup>(١)</sup>.

(١) كذا في النسختين؛ فقد سها المؤلف رحمه الله وأدخل الآيتين (٥٦ و٥٧) من هذه السورة مع الآية (٥١).

فأولئك ﴿أصحاب الجحيم﴾؛ أي: الملازمون لها، المصاحبون لها في كل أوقاتهم؛ فلا يخفف عنهم من عذابها، ولا يفتر عنهم لحظة من عقابها.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسُخُ اللَّهُ مَا يُلْقَى الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقَى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿٥٢﴾ يخبر تعالى بحكمته البالغة واختياره لعباده وأن الله ما أرسل قبل محمد من رسول ولا نبيٍّ إلا إذا تمنى ﴿؛ أي: قرأ قراءته التي يذکر بها الناس ويأمرهم وينهاهم﴾، ﴿ألقي الشيطان في أمنيته﴾؛ أي: في قراءته من طرقة ومكايده ما هو مناقض لتلك القراءة مع أن الله تعالى قد عصم الرسل بما يبلغون عن الله وحفظ وحيه أن يشتبه أو يختلط بغيره، ولكن هذا إلقاء من الشيطان غير مستقر ولا مستمر، وإنما هو عارض يعرض ثم يزول، وللعوارض أحكام، ولهذا قال: ﴿فينسخ الله ما يلقي الشيطان﴾؛ أي: يزيله، ويذهب، ويبطله، ويبين أنه ليس من آياته. و﴿يحكم الله آياته﴾؛ أي: يتقنها، ويحررها، ويحفظها، فتبقى خالصة من مخالطة إلقاء الشيطان. ﴿والله [عزيز]﴾<sup>(١)</sup>؛ أي: كامل القوة والافتدار؛ فبكمال قوته يحفظ وحيه، ويزيل ما تلقيه الشياطين. ﴿حكيم﴾: يضع الأشياء مواضعها.

﴿٥٣﴾ فمن كمال حكمته مكن الشياطين من الإلقاء المذكور؛ ليحصل ما ذكره بقوله ﴿ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة﴾: لطائفتين من الناس لا يبالي الله بهم: [وهم الذين] ﴿في قلوبهم مرض﴾؛ أي: ضعف وعدم إيمان تام وتصديق جازم، فيؤثر في قلوبهم أدنى شبهة تطرأ عليها؛ فإذا سمعوا ما ألقاه الشيطان؛ داخلهم الرب والشك، فصار فتنة لهم.

﴿والقاسية قلوبهم﴾؛ أي: الغليظة التي لا يؤثر فيها زجر ولا تذكير، ولا تفهم عن الله وعن رسوله لقسوتها؛ فإذا سمعوا ما ألقاه الشيطان؛ جعلوه حجة لهم على باطلهم، وجادلوا به، وشاقوا الله ورسوله، ولهذا قال: ﴿وإن الظالمين لفي شقاق

(١) كذا في النسختين؛ وعليه فسرها المؤلف والآية: ﴿عليم﴾.

بعيد؛ أي: مشاقفة لله ومعاندة للحق ومخالفة له بعيد من الصواب. فما يلقيه الشيطان يكون فتنة لهؤلاء الطائفتين، فيظهر به ما في قلوبهم من الخبث الكامن فيها.

﴿٥٤﴾ وأما الطائفة الثالثة؛ فإنه يكون رحمة في حقها، وهم المذكورون بقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾: وأن الله منّهم من العلم ما به يعرفون الحق من الباطل والرشد من الغي، فيفرقون<sup>(١)</sup> بين الأمرين الحق المستقر الذي يَحْكُمُهُ اللهُ، والباطل العارض الذي يَنْسَخُهُ اللهُ، بما على كل منهما من الشواهد، وليعلموا أن الله حكيم يقيض بعض أنواع الابتلاء وليظهر بذلك كمائن النفوس الخيرة والشريفة؛ ﴿فِيؤْمِنُوا بِهِ﴾: بسبب ذلك، ويزداد إيمانهم عند دفع المعارض والشبه؛ ﴿فَتَحَبَّتْ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: تخشع وتخضع وتسلم لحكمته، وهذا من هدايته إياهم. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾: بسبب إيمانهم ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾: علم بالحق وعمل بمقتضاه؛ فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وهذا النوع من تثبيت الله لعبده.

وهذه الآيات فيها بيان أن للرسول ﷺ أسوة بإخوانه المرسلين؛ لما وقع منه عند قراءته ﷺ ﴿وَالنَّجْمِ﴾، فلما بلغ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ. وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾؛ ألقى الشيطان في قراءته: تلك الغرائق العلى. وإن شفاعتَهُنَّ<sup>(٢)</sup> لَنُرْجِيَنَّ؛ فحصل بذلك للرسول حزن وللناس فتنة؛ كما ذكر الله، فأنزل الله هذه الآيات<sup>(٣)</sup>.

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لَّهُ بِحَكْمٍ بَيْنَهُمْ فَأَلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿٥٥﴾ يخبر تعالى عن حالة الكفار، وأنهم لا يزالون في شك مما جنتهم به يا محمد؛ لعنادهم وإعراضهم، وأنهم<sup>(٤)</sup> لا يبرحون مستمرين على هذه الحال، ﴿حَتَّىٰ

(١) في (ب): «يُمَيِّزُونَ». (٢) في (أ) و(ب): «شفاعتهم».

(٣) قصة الغرائق اختلف العلماء في ثبوتها عن النبي ﷺ، انظر تفسير ابن كثير (٤٤١/٥) وفتح الباري (٤٣٩/٨) والدرر المنثور (٦٦١/٤) وأضواء البيان (٧٣٠/٤) وللشيخ الألباني رسالة مفردة بعنوان نصب المجانيق لنسف قصة الغرائق.

(٤) في (ب): «وأنه».

تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ۖ أَي: مفاجأة، ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ﴾؛ أي: لا خير فيه، وهو يوم القيامة؛ فإذا جاءتهم الساعة أو أتاهم ذلك اليوم؛ علم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين، وندموا حيث لا ينفعهم الندم، وأبلسوا، وأيسوا من كل خير، وودّوا لو آمنوا بالرسول واتّخذوا معه سبيلاً. ففي هذا تحذيرهم من إقامتهم على مزيّتهم وفزيتهم.

﴿٥٦ - ٥٧﴾ ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿لِلَّهِ﴾: تعالى لا لغيره، ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾: بحكمه العدل وقضائه الفصل. ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا﴾: بالله ورسوله وما جاؤوا به، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: ليصدّقوا بذلك إيمانهم ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾: نعيم القلب والروح والبدن مما لا يصفه الواصفون ولا تدرکه العقول. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾: بالله ورسوله، ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾: الهاديّة للحقّ والصواب، فأعرضوا عنها أو عاندوها ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾: لهم من شدّته وألمه وبلوغه للأفئدة؛ كما استهانوا برسوله وآياته؛ أهانهم الله بالعذاب.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لِيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿٥٨﴾ هذه بشارّة كبرى لمن هاجر في سبيل الله، فخرج من داره ووطنه وأولاده وماله ابتغاء وجه الله ونصرة لدين الله؛ فهذا قد وجب أجره على الله؛ سواء مات على فراشه أو قُتِلَ مجاهداً في سبيل الله. ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾: في البرزخ وفي يوم القيامة<sup>(١)</sup>؛ بدخول الجنة الجامعة للروح والريحان والحسن والإحسان ونعيم القلب والبدن، ويُحْتَمَلُ أَنَّ المراد<sup>(٢)</sup> أَنَّ المهاجر في سبيل الله قد تكفّل برزقه في الدنيا رزقاً واسعاً حسناً، سواء علم الله منه أنه يموت على فراشه أو يُقْتَلُ شهيداً؛ فكلهم مضمون له الرزق؛ فلا يتوهم أنه إذا خرج من دياره وأمواله سيفتقر ويحتاج؛ فإن رازقه هو خير الرازقين. وقد وقع كما أخبر؛ فإن المهاجرين السابقين تركوا ديارهم وأبناءهم وأموالهم نُصْرَةَ لدين الله، فلم يلبثوا إلا يسيراً حتى فتح الله عليهم البلاد، ومكّنهم من العباد، فاجتّبوا من أموالها ما كانوا به من أغنى الناس.

(١) في (ب): «وفي القيامة».

(٢) في (ب): «المعنى».

﴿٥٩﴾ ويكون على هذا القول قوله: ﴿لِيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ﴾: إما ما يفتح الله عليهم من البلدان، خصوصاً فتح مكة المشرفة؛ فإنهم دخلوها في حالة الرضا والسرور، وإما المراد به رزق الآخرة، وأن ذلك دخول الجنة، فتكون الآية جمعت بين الرزقين؛ رزق الدنيا ورزق الآخرة. واللفظ صالح لذلك كله، والمعنى صحيح؛ فلا مانع من إرادة الجميع. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾: بالأمور؛ ظاهراً وباطناً، متقدماً ومتأخراً. ﴿حَلِيمٌ﴾: يعصيه الخلاق ويبارزونه بالعظام، وهو لا يعاجلهم بالعقوبة، مع كمال اقتداره، بل يواصل لهم رزقه، ويسدي إليهم فضله.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُؤٌ غَفُورٌ﴾ (٦٠).

﴿٦٠﴾ ذلك بأن من جُنِيَ عليه وظلم؛ فإنه يجوز له مقابلة الجاني بمثل جنايته؛ فإن فعل ذلك؛ فليس عليه سبيل، وليس بمَلُوم؛ فإن بُغِيَ عليه بعد هذا؛ فإن الله ينصره؛ لأنه مظلوم؛ فلا يجوز أن يُبغَى عليه بسبب أنه استوفى حقه، وإذا كان المجازي غيره بإساءته إذا ظلم بعد ذلك؛ نصره الله؛ فالذي بالأصل لم يعاقب أحداً إذا ظلم وجُنِيَ عليه؛ فالنصر إليه أقرب. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُؤٌ غَفُورٌ﴾؛ أي: يعفو عن المذنبين؛ فلا يعاجلهم بالعقوبة، ويغفر ذنوبهم، فيزيلها ويزيل آثارها عنهم؛ فالله هذا وصفه المستقر اللازم الذاتي، ومعاملته لعباده في جميع الأوقات بالعفو والمغفرة، فينبغي لكم أيها المظلومون المجتنبون أن تعفوا وتصفحوا وتغفروا؛ ليعاملكم الله كما تعاملون عباده؛ فمن عفا وأصلح؛ فأجره على الله.

﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (٦١) ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَبَتْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَبَتْ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (٦٢).

﴿٦١﴾ ذلك الذي شرع لكم تلك الأحكام الحسنة العادلة هو حسن التصرف في تقديره وتدبيره، الذي ﴿يؤلج الليل في النهار﴾ الذي يندخل هذا على هذا وهذا على هذا، يأتي بالليل بعد النهار، وبالنهار بعد الليل، ويزيد في أحدهما ما ينقصه من (١) الآخر، ثم بالعكس، فيترتب على ذلك قيام الفصول ومصالح الليل والنهار

والشمس والقمر، التي هي من أجل نعمه على العباد، وهي من الضروريات لهم. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾: يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات. ﴿بصيرٌ﴾: يرى دبيب النملة السوداء تحت الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، سواء منكم من أسر القول ومن جهر به، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار.

﴿٦٢﴾ ﴿ذلك﴾: صاحب الحكم والأحكام، ﴿بأنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾؛ أي: الثابت الذي لا يزال ولا يزول، فالأول الذي ليس قبله شيء، الآخر الذي ليس بعده شيء، كامل الأسماء والصفات، صادق الوعد، الذي وعده حق ولقاؤه حق ودينه حق وعبادته هي الحق النافعة الباقية على الدوام. ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾: من الأصنام والأنناد من الحيوانات والجمادات، ﴿هو الباطل﴾: الذي هو باطل في نفسه، وعبادته باطلة؛ لأنها متعلقة بمضمحل فإن، فتبطل تبعاً لغايتها ومقصودها. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾: العلي في ذاته؛ فهو عالٍ على جميع المخلوقات، وفي قدره؛ فهو كامل الصفات، وفي قهره لجميع المخلوقات، الكبير في ذاته وفي أسمائه وفي صفاته، الذي من عظمته وكبريائه أن الأرض قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه، ومن كبريائه أن كرسيه وسع السماوات والأرض، ومن عظمته وكبريائه أن نواصي العباد بيده؛ فلا يتصرفون إلا بمشيئته، ولا يتحركون إلا بإرادته، وحقيقة الكبرياء التي لا يعلمها إلا هو؛ لا ملك مقرب ولا نبي مرسل: أنها كل صفة كمال وجلال وكبرياء وعظمة؛ فهي ثابتة له، وله من تلك الصفة أجلها وأكملها، ومن كبريائه أن العبادات كلها، الصادرة من أهل السماوات والأرض كلها، المقصود منها تكبيره وتعظيمه وإجلاله وإكرامه، ولهذا كان التكبير شعاراً للعبادات الكبار كالصلاة وغيرها.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ ﴿٦٣﴾ ﴿لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ الْغَنِيُّ الْحَكِيمُ﴾ ﴿٦٤﴾.

﴿٦٣﴾ هذا حدث منه تعالى وترغيب في النظر بآياته الدالة على وحدانيته وكماله، فقال: ﴿ألم تر﴾؛ أي: ألم تشاهد ببصرك وبصيرتك، ﴿أنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾: وهو المطر، فينزل على أرض خاشعة مجدبة، قد اغبرت أرجاؤها وييس ما فيها من شجر ونبات، فتصبح مخضرة؛ قد اكتست من كل زوج كريم، وصار لها بذلك منظر بهيج، أن الذي أحيها بعد موتها وهمودها لمحيي الموتى بعد أن كانوا رميماً. ﴿إنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾: اللطيف: الذي يدرك بواطن الأشياء وخفياتها



وسرائرها، الذي يسوق إلى عباده<sup>(١)</sup> الخير، ويدفع عنه الشرَّ بطرقٍ لطيفةٍ تخفي على العباد. ومن لطفه أنه يُري عبده عزَّته في انتقامه، وكمال اقتداره، ثم يظهر لطفه بعد أن أشرف العبد على الهلاك. ومن لطفه أنه يعلم مواقع القطر من الأرض وبذور الأرض في بواطنها، فيسوق ذلك الماء إلى ذلك البذر الذي خفي على علم الخلائق، فَيَبُتُّ منه أنواعُ النبات. ﴿خَبِيرٌ﴾: بسرائر الأمور وخبايا الصدور وخفايا الأمور.

﴿٦٤﴾ ﴿له ما في السموات﴾ والأرض خَلْقاً وعبيداً، يتصرَّف فيهم بملكه وحكمته وكمال اقتداره، ليس لأحدٍ غيره من الأمر شيءٌ. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ الْغَنِيُّ﴾: بذاتِهِ، الذي له الغنى المطلق التام من جميع الوجوه. ومن غناه أنه لا يحتاج إلى أحدٍ من خَلْقِهِ ولا يواليهم من ذلَّةٍ ولا يتكثَّر بهم من قِلَّةٍ. ومن غناه أنه ما اتخذ صاحبةً ولا ولدًا. ومن غناه أنه صمدٌ لا يأكل ولا يشرب ولا يحتاج إلى ما يحتاج إليه الخلق بوجهٍ من الوجوه؛ فهو يُطْعِمُ ولا يُطْعَمُ. ومن غناه أن الخلق كلُّهم مفتقرون إليه؛ في إيجادهم وإعدادهم وإمدادهم، وفي دينهم ودنياهم. ومن غناه أنه لو اجتمع مَنْ في السموات وَمَنْ في الأرض، الأحياء منهم والأموات، في صعيدٍ واحدٍ، فسأل كل منهم ما بلغت أميَّته، فأعطاهم فوق أمانيتهم؛ ما نَقَصَ ذلك من ملكه شيء. ومن غناه أن يَدَّه سحاء بالخير والبركات الليل والنهار، لم يزل إفضاله على الأنفاس. ومن غناه وكرمه ما أودعه في دار كرامتِهِ مما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا حَظَرَ على قلب بشر. ﴿الْحَمِيدُ﴾؛ أي: المحمود في ذاته، وفي أسمائه؛ لكونها حسنى، وفي صفاته؛ لكونها كلها صفات كمال، وفي أفعاله؛ لكونها دائرة بين العدل والإحسان والرحمة والحكمة، وفي شرعه؛ لكونه لا يأمر إلا بما فيه مصلحةٌ خالصةٌ أو راجحةٌ، ولا ينهى إلا عما فيه مفسدةٌ خالصةٌ أو راجحةٌ، الذي له الحمد الذي يملأ ما في السموات والأرض وما بينهما وما شاء بعدها، الذي لا يُخصي العبادة ثناءً على حمده، بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يُثني عليه عباده، وهو المحمود على توفيق من يوفِّقه وخذلان من يخذله، وهو الغني في حمده، الحميد في غناه.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ

(١) في (ب): «عبده».

تَقَعُ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا يَادْنِيَةً إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ .

﴿٦٥﴾ أي: ألم تشاهد ببصرك وقلبك نعمة ربك السابغة وأياديه الواسعة، و﴿إِنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ﴾: من حيوانات ونبات وجمادات؛ فجميع ما في الأرض مسخر لبني آدم؛ حيواناتها لركوبه وحمله وأعماله وأكله وأنواع انتفاعه، وأشجارها وثمارها يقتاتها، وقد سلط على غرسها واستغلالها، ومعادنها يستخرجها وينتفع بها. ﴿وَالْفَلَكَ﴾؛ أي: وسخر لكم الفلك، وهي السفن، ﴿تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾: تحمِلُكم وتحمل تجارتكم وتوصلكم من محل إلى محل وتستخرجون من البحر حلية تلبسونها. ومن رحمته بكم أنه ﴿يُمِسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ﴾؛ فلولا رحمته وقدرته؛ لسقطت السماء على الأرض، فتلف ما عليها، وهلك من فيها: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾: أرحم بهم من والديهم ومن أنفسهم، ولهذا يريد لهم الخير، ويريدون لها الشر والضرر. ومن رحمته أن سخر لهم ما سخر من هذه الأشياء.

﴿٦٦﴾ ﴿وهو الذي أحياكم﴾: وأوجدكم<sup>(١)</sup> من العدم، ﴿ثم يميتكم﴾: بعد أن أحياكم، ﴿ثم يحييكم﴾: بعد موتكم؛ ليجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته. ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾؛ أي: جنسه إلا من عصمه الله؛ ﴿لكفور﴾: لنعم الله، كفور بالله، لا يعترف بإحسانه، بل ربما كفر بالبعث وقدره ربه.

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُكَ فِي الْأَمْرِ وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَّ لَهْدَىٰ مُسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَكْبَرُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَخْتَكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ .

﴿٦٧﴾ يخبر تعالى أنه جعل لكل أمة ﴿منسكاً﴾؛ أي: معبداً وعبادة، قد تختلف في بعض الأمور، مع اتفاقها على العدل والحكمة؛ كما قال تعالى: ﴿لكل

(١) في (ب): «أوجدكم».

جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْزَعَةً وَمِنهَاجاً ولو شاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ... ﴿الآية﴾ ﴿هَم نَاسِكُوهُ﴾؛ أي: عاملون عليه بحسب أحوالهم؛ فلا اعتراض على شريعة من الشرائع، خصوصاً من الأئمة أهل الشرك والجهل المبين؛ فإنه إذا ثبتت رسالة الرسول بأدلتها؛ وجب أن يُتَلَقَّى جميع ما جاء به بالقبول والتسليم وترك الاعتراض، ولهذا قال: ﴿فَلا يَنازِعُنَكَ في الأمر﴾؛ أي: لا يَنازِعُكَ المَكذِبون لك، ويعترضون على بعض ما جئتهم به بعقولهم الفاسدة؛ مثل منازعتهم في حل الميتة بقياسهم الفاسد؛ يقولون: تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله؟! وكقولهم: ﴿إِنَّمَا البيعُ مثلُ الربَا﴾... ونحو ذلك من اعتراضاتهم التي لا يلزم الجواب عن أعيانها، وهم منكرون لأصل الرسالة، وليس فيها مجادلةً ومحااجةً بانفرادها، بل لكلِّ مقام مقال؛ فصاحب هذا الاعتراض المنكِرُ لرسالة الرسول إذا زَعَمَ أَنَّهُ يجادلُ لِيستَرشد؛ يُقالُ له: الكلامُ معك في إثبات الرِّسالة وعدمها، وإلَّا؛ فالإقتصارُ على هذه دليلٌ أَنَّ مقصوده التعنت والتعجيز، ولهذا أمر الله رسوله أن يدعو إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ويمضي على ذلك؛ سواءً اعترض المعترضون أم لا، وأنه لا ينبغي أن يثنيكَ عن الدَّعوةِ شيءٍ؛ لأنَّكَ على ﴿هَدْيٍ مستقيم﴾؛ أي: معتدلٍ، موصل للمقصود، متضمن علم الحق والعمل به؛ فأنت على ثقةٍ من أمرِكَ وبقين من دينك، فيوجبُ ذلك لك الصلابة والمضي لما أمرك به ربُّكَ، ولست على أمرٍ مشكوكٍ فيه أو حديثٍ مفترى، فتقف مع الناس ومع أهوائهم وآرائهم ويوقنكَ اعتراضهم، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿فتوكَّلْ على اللَّهِ إِنَّكَ على الحقِّ المبين﴾.

مع أن في قوله: ﴿إِنَّكَ لَعلى هَدْيٍ مستقيم﴾: إرشاداً لأجوبة المعترضين على جزئيات الشرع بالعقل الصحيح؛ فإنَّ الهدى وصفٌ لكلِّ ما جاء به الرسول، والهدى ما تحصَّل به الهداية في مسائل الأصول والفروع، وهي المسائل التي يُعرَفُ حسنُها وعدلُها وحكمتُها بالعقل والفطرة السليمة، وهذا يُعرَفُ بتدبُّر تفاصيل الأمور والمنهيات.

﴿٦٨ - ٦٩﴾ ولهذا أمره الله بالعدول عن جدالهم في هذه الحالة، فقال: ﴿وَإِنْ جَادَلوكَ فَقُلْ اللهُ أعلم بما تعملون﴾؛ أي: هو عالمٌ بمقاصدكم ونياتكم؛ فمجازيكم عليها في يوم القيامة الذي يحكم الله بينكم ﴿فيما كنتم فيه تختلفون﴾: فمن وافق الصراط المستقيم؛ فهو من أهل النعيم، ومن زاغ عنه؛ فهو من أهل الجحيم.

﴿٧٠﴾ ومن تمام حكمه أن يكون حكماً بعلم؛ فلذلك ذَكَرَ إحاطة علمه وإحاطة كتابه، فقال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾: لا يخفى عليه منها خافية من ظواهر الأمور وبواطنها؛ خفيها وجلبيها، متقدمها ومتأخرها؛ [إن] ذلك العلم المحيط بما في السماء والأرض، قد أثبتته الله في كتاب، وهو: اللوح المحفوظ، حين خَلَقَ اللهُ القلم؛ «قال له: اكتب! قال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة»<sup>(١)</sup>. ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾: وإن كان تصوُّره عندكم لا يُحاط به؛ فالله تعالى يسيرٌ عليه أن يحيط علماً بجميع الأشياء، وأن يكتب ذلك في كتابٍ مطابق للواقع.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ (٧١) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ بَتَلَوْا عَلَيْهِم مَّا آيَاتُنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرِّ مِّنْ ذَلِكَُمَّ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿٧١﴾

﴿٧١﴾ يذكر تعالى حالة المشركين به العادلين به غيره، وأن حالهم أقبح الحالات، وأنه لا مستند لهم على ما فعلوه؛ فليس لهم به علم، وإنما هو تقليد تلقوه عن آبائهم الضالين، وقد يكون الإنسان لا علم عنده بما فعله، وهو في نفس الأمر له حجة ما علمها، فأخبر هنا أن الله لم يُنزل في ذلك ﴿سُلْطَانًا﴾؛ أي: حجة تدلُّ عليه وتجوِّزه، بل قد أنزل البراهين القاطعة على فسادِه وبطلانِه، ثم توعد الظالمين منهم المعاندين للحق، فقال: ﴿وما للظالمين من نصير﴾: ينصُرهم من عذاب الله إذا نزل بهم، وحلَّ.

﴿٧٢﴾ وهل هؤلاء الذين لا علم لهم بما هم عليه قصد في اتباع الآيات والهدى إذا جاءهم أم هم راضون بما هم عليه من الباطل، ذكر ذلك بقوله: ﴿وإذا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾: التي هي آيات الله الجليلة المستلزمة لبيان الحق من الباطل؛ لم يلتفتوا إليها، ولم يرفعوا بها رأساً، بل ﴿تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر﴾: من بُغضها وكرهتها؛ ترى وجوههم معبسةً وأبشارهم مكفهرة. ﴿يكادون يسطون﴾

(١) أخرجه أحمد (٣١٧/٥)، وأبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥)، والحديث صححه الألباني في «الصحيحة» (١٣٣)، و«السنة» لابن أبي عاصم (٤٨/١).

بالذين يتلون عليهم آياتنا؛ أي: يكادون يوقعون بهم القتل والضرب البليغ من شدة بغضهم وبغض الحق وعداوته؛ فهذه الحالة من الكفار بش الحالة وشرها بش الشر، ولكن ثم ما هو شر منها: حالتهم التي يؤولون إليها؛ فلهذا قال: ﴿قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدّها الله الذين كفروا وبش المصير﴾: فهذه شرها طويل عريض، ومكروها وآلمها تزداد على الدوام.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ ضَرْبَ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾

﴿٧٣ - ٧٤﴾ هذا مثل ضربته الله لقبح عبادة الأوثان وبيان نقصان عقول من عبدها وضعف الجميع، فقال: ﴿يا أيها الناس﴾: هذا خطاب للمؤمنين والكفار؛ المؤمنون يزدادون علماً وبصيرة، والكافرون تقوم عليهم الحجّة. ﴿ضرب مثل فاستمعوا له﴾؛ أي: ألقوا إليه أسماعكم، وافهموا<sup>(١)</sup> ما احتوى عليه، ولا يصادف منكم قلباً لاهيةً وأسماعاً معرضة، بل ألقوا إليه القلوب والأسماع، وهو هذا: ﴿إن الذين تدعون من دون الله﴾: شمل كل ما يُدعى من دون الله، ﴿لن يخلقوا ذباباً﴾: الذي هو من أحقر المخلوقات وأخسها؛ فليس في قدرتهم خلق هذا المخلوق الضعيف؛ فما فوقه من باب أولى، ﴿ولو اجتمعوا له﴾: بل أبلغ من ذلك: لو ﴿يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه﴾: وهذا غاية ما يصير من العجز. ﴿ضعف الطالب﴾: الذي هو المعبود من دون الله، ﴿والمطلوب﴾: الذي هو الذباب؛ فكل منهما ضعيف، وأضعف منهما من يتعلق بهذا الضعيف وينزله منزلة رب العالمين؛ فهذا ما قدر الله حق قدره، حيث سوى الفقير العاجز من جميع الوجوه بالغني القوي من جميع الوجوه، سوى من لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعا ولا ضرا ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً بمن هو النافع الضار المعطي المانع مالك الملك والمتصرف فيه بجميع أنواع التصريف.

﴿إن الله لقوي عزيز﴾؛ أي: كامل القوة، كامل العزة، من كمال قوته وعزته: أن نواصي الخلق بيديه، وأنه لا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن إلا بإرادته

(١) في (ب): «وتفهموا».

ومشيئته؛ فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ومن كمال قوته: أنه يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ومن كمال قوته: أنه يبعث الخلق كلهم، أولهم وآخرهم بصيحة واحدة، ومن كمال قوته أنه أهلك الجبابرة والأمم العاتية بشيء يسير وسوط من عذابه.

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿٧٥ - ٧٦﴾ لما بين تعالى كماله وضعف الأصنام وأنه المعبود حقاً؛ بين حالة الرسل وتميزهم عن الخلق بما تميّزوا به من الفضائل، فقال: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ أي: يختار ويجتبي من الملائكة رسلاً ومن الناس رسلاً؛ يكونون أزكى ذلك النوع وأجمعه لصفات المجد وأحقه بالاصطفاء؛ فالرسل لا يكونون إلا صفوة الخلق على الإطلاق، والذي اختارهم واجتباهم ليس جاهلاً بحقائق الأشياء، أو يعلم شيئاً دون شيء، وإن<sup>(١)</sup> المصطفى لهم السميع البصير، الذي قد أحاط علمه وسمعته وبصره بجميع الأشياء؛ فاختياره إياهم عن علم منه أنهم أهل لذلك، وأن الوحي يصلح فيهم؛ كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾. ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾؛ أي: هو يرسل الرسل يدعو الناس إلى الله؛ فمنهم المجيب، ومنهم الراد لدعوتهم، ومنهم العامل، ومنهم الناكل؛ فهذا وظيفة الرسل، وأما الجزاء على تلك الأعمال؛ فمصيرها إلى الله؛ فلا تعدم منه فضلاً وعدلاً.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَسَجْدُوا وَعَابَدُوا رَبَّهُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿٧٧﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالصلاة، وخص منها الركوع والسجود

(١) في (ب): «وإنما».

لفضلها وركنيتيها وعبادته التي هي قرّة العيون وسلوة القلب المحزون، وإن ربوبيته وإحسانه على العباد يقتضي منهم أن يُخْلِصُوا له العبادة، ويأمرهم بفعل الخير عموماً، وعَلَّقَ تعالى الفلاح على هذه الأمور، فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾؛ أي: تفوزون بالمطلوب المرغوب، وتنجون من المكروه المرهوب؛ فلا طريق للفلاح سوى الإخلاص في عبادة الخالق والسعي في نفع عبده؛ فمن وُفِّقَ لذلك؛ فله القَدْخُ المعلاً من السعادة والنجاح والفلاح.

﴿٧٨﴾ ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾: والجهاد بذل الوسع في حصول الغرض المطلوب؛ فالجهاد في الله حقُّ جهاده هو القيام التام بأمر الله، ودعوة الخلق إلى سبيله بكلِّ طريق موصل إلى ذلك؛ من نصيحة وتعليم وقاتل وأدب وزجرٍ ووعظٍ وغير ذلك. ﴿هو اجتباؤكم﴾؛ أي: اختاركم يا معشر المسلمين من بين الناس، واختار لكم الدين، ورضيه لكم، واختار لكم أفضل الكتب وأفضل الرسل؛ فقابلوا هذه المنحة العظيمة بالقيام بالجهاد فيه حقَّ القيام. ولما كان قوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾؛ ربما تَوَهَّمَتْ متوهّم أن هذا من باب تكليف ما لا يُطاق أو تكليف ما يشقُّ؛ احتَرَزَ منه بقوله: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾؛ أي: مشقّةٍ وعسرٍ، بل يسره غاية التيسير، وسهّله بغاية السهولة؛ فأولاً: ما أمرَ وألزمَ إلا بما هو سهل على النفوس لا يُثْقِلُها ولا يَؤوُدُها، ثم إذا عَرَضَ بعضُ الأسباب الموجبة للتخفيف؛ خَفَّفَ ما أمر به: إما بإسقاطه، أو إسقاط بعضه.

ويؤخذ من هذه الآية قاعدة شرعية، وهي أن «المشقّة تجلب التيسير» و«الضرورات تبيح المخطورات»، فيدخل في ذلك من الأحكام الفرعية شيء كثيرٌ معروفٌ في كتب الأحكام.

﴿ملة أبيكم إبراهيم﴾؛ أي: هذه الملة المذكورة والأوامر المزبورة ملة أبيكم إبراهيم، التي ما زال عليها؛ فالزموها واستمسكوا بها. ﴿هو سمّاكم المسلمين من قبل﴾؛ أي: في الكتب السابقة المذكورون ومشهورون، ﴿وفي هذا﴾؛ أي: هذا الكتاب وهذا الشرع؛ أي: ما زال هذا الاسم لكم قديماً وحديثاً؛ ﴿ليكون الرسول شهيداً عليكم﴾: بأعمالكم خيراً وشرّها، ﴿وتكونوا شهداء على الناس﴾: لكونكم خيراً أمةً أُخْرِجَتْ للناس، أمةً وسطاً عدلاً خياراً، تشهدون للرسول أنهم بلّغوا أممهم، وتشهدون على الأمم أن رُسُلَهُم بلّغتهم بما أخبركم الله به في كتابه.

﴿فأقيموا الصلاة﴾: بأركانها وشروطها وحدودها وجميع لوازمها، ﴿وآتوا

الزَّكَاةَ ﴿١﴾: المفروضة لمستحقيها؛ شكراً لله على ما أولاكم. ﴿واعتصموا بالله﴾؛ أي: امتنعوا به، وتوكلوا عليه<sup>(١)</sup> في ذلك، ولا تتكلموا على حولكم وقوتكم. ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾: الذي يتولى أموركم، فيدبركم بحسن تدبيره، ويصرفكم على أحسن تقديره. ﴿فنعم المولى ونعم النصير﴾؛ أي: نعم المولى لمن تولاه فحصل له مطلوبه، ونعم النصير لمن استنصره فدفع عنه المكروه.

تم تفسير [سورة] الحج. والحمد لله رب العالمين.



## تفسير سورة المؤمنين

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾.

هذا تنويه من الله بذكر عباده المؤمنين، وذكر فلاحهم وسعادتهم، وبأي شيء وصلوا إلى ذلك، وفي ضمن ذلك الحث على الانصاف بصفاتهم والترغيب فيها؛ فليزين العبد نفسه وغيره على هذه الآيات؛ يعرف بذلك ما معه وما مع غيره من الإيمان زيادةً ونقصاً، كثرةً وقلةً.

﴿١﴾ فقوله: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾؛ أي: قد فازوا وسعدوا ونجحوا، وأدركوا كل ما يرام، المؤمنون الذين آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين.

﴿٢﴾ الذين من صفاتهم الكاملة أنهم ﴿في صلاتهم خاشعون﴾: والخشوع في الصلاة هو حضور القلب بين يدي الله تعالى، مستحضراً لقربه، فيسكن لذلك قلبه، وتطمئن نفسه، وتسكن حركاته، ويقبل التفاته، متأدباً بين يدي ربه، مستحضراً

(١) في (ب): «على». وفي (أ): طمس وكتب فوق السطر بخط مغاير «عليه».



جميع ما يقوله ويفعله في صلاته من أول صلاته إلى آخرها، فتتفي بذلك الوسواس والأفكار الرديئة، وهذا روح الصلاة والمقصود منها، وهو الذي يُكْتَبُ للعبد؛ فالصلاة التي لا خشوع فيها ولا حضور قلب، وإن كانت مُجْزِيَةً مثاباً عليها؛ فإن الثواب على حسب ما يَغْقِلُ القلب منها.

﴿٣﴾ ﴿والذين هم عن اللغو﴾: وهو الكلام الذي لا خير فيه ولا فائدة، ﴿معرضون﴾: رغبة عنه وتنزيهاً لأنفسهم وترفعاً عنه، وإذا مرؤوا باللغو مرؤوا كراماً، وإذا كانوا معرضين عن اللغو؛ فإعراضهم عن المحرّم من باب أولى وأحرى، وإذا مَلَكَ العبدُ لسانه وخَزَنَهُ إِلَّا فِي الْخَيْرِ؛ كان مالِكاً لأمره؛ كما قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل حين وصّاه بوصايا؛ قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟». قلت: بلى يا رسول الله! فأخذ بلسان نفسه وقال: «كفّ عليك هذا»<sup>(١)</sup>. فالْمُؤْمِنُونَ من صفاتهم الحميدة كَفُّ ألسنتهم عن اللغو والمحرّمات.

﴿٤﴾ ﴿والذين هم للزكاة فاعلون﴾؛ أي: مؤدّون لزكاة أموالهم على اختلاف أجناس الأموال؛ مزكين لأنفسهم من أدناس الأخلاق ومساويء الأعمال التي تزكو النفوس بتركها وتجنّبها؛ فأحسنوا في عبادة الخالق في الخشوع في الصلاة، وأحسنوا إلى خلقه بأداء الزكاة.

﴿٥﴾ ﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾: عن الزنا، ومن تمام حفظها تجنّب ما يدعو إلى ذلك؛ كالنظر واللمس ونحوهما، فحفظوا فروجهم من كلِّ أحدٍ.

﴿٦﴾ ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾: من الإماء المملوكات؛ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ؛ بقربهما؛ لأن الله تعالى أحلها.

﴿٧﴾ ﴿فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ﴾: غير الزوجة والسُرِّيَّة؛ ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾: الذين تعدّوا ما أحلّ الله إلى ما حرّمه، المتجرّثون على محارم الله. وعموم هذه الآية يدلّ على تحريم [نكاح] المتعة؛ فإنها ليست زوجة حقيقة مقصوداً بقاؤها ولا مملوكة، وتحريم نكاح المحلّل لذلك. ويدلّ قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾: أنّه يُشْتَرَطُ في حلّ المملوكة أن تكون كلّها في ملكه؛ فلو كان له بعضها؛ لم تحلّ؛ لأنّها ليست ممّا ملكت يمينه، بل هي ملك له ولغيره؛ فكما أنّه لا يجوز أن يَشْتَرِكَ

(١) أخرجه أحمد (٢٣١/٥)، والترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٢٩٧٣)، وقال الترمذي: «حديث

حسن صحيح». وانظر «الإرواء» (٤١٣).

في المرأة الحرّة زوجان؛ فلا يجوز أن يشترك في الأمة المملوكة سيدان.

﴿٨﴾ ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾؛ أي: مراعون لها، ضابطون، حافظون، حريصون على القيام بها وتنفيذها. وهذا عامٌ في جميع الأمانات التي هي حقٌّ لله، والتي هي حقٌّ للعباد؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾: فجميع ما أوجبه الله على عبده أمانة على العبد حفظها بالقيام التام بها. وكذلك يدخل في ذلك أمانات الأدميين؛ كأمانات الأموال والأسرار ونحوهما؛ فعلى العبد مراعاة الأمرين وأداء الأمانتين؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَوَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾، وكذلك العهد يشمّل العهد الذي بينهم وبين ربهم والذي بينهم وبين العباد، وهي الالتزامات والعقود التي يعقدها العبد؛ فعليه مراعاتها والوفاء بها، ويحرّم عليه التفريط فيها وإهمالها.

﴿٩﴾ ﴿والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾؛ أي: يداومون عليها في أوقاتها وحدودها وأشراطها وأركانها؛ فمدحهم بالخشوع بالصلاة وبالمحافظة عليها، لأنّه لا يتم أمرهم إلّا بالأمرين؛ فمن يداوم على الصلاة من غير خشوع أو على الخشوع من دون محافظة عليها؛ فإنّه مذموم ناقص.

﴿١٠﴾ ﴿أولئك﴾: الموصوفون بتلك الصفات ﴿هم الوارثون﴾.

﴿١١﴾ ﴿الذين يرثون الفردوس﴾: الذي هو أعلى الجنة ووسطها وأفضلها؛ لأنهم حلّوا من صفات الخير أعلاها وذروتها، أو المراد بذلك جميع الجنة؛ ليدخل بذلك عموم المؤمنين على درجاتهم في مراتبهم كلّ بحسب حاله. ﴿هم فيها خالدون﴾: لا يظعنون عنها ولا يبنغون عنها جولا؛ لاشتمالها على أكمل النعيم وأفضلها وأتمّه من غير مكدرٍ ولا منغص.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّا كَرَّمْنَا بَعْدَ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكْفُرْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَعْتُونَ ﴿١٦﴾﴾.

ذكر الله في هذه الآيات أطوار الأدمي وتقلّاته من ابتداء خلقه إلى آخر ما يصير إليه:

﴿١٢﴾ فذكر ابتداء خلق أبي النوع البشري آدم عليه السلام، وأنه ﴿من سلالة

من طين؛ أي: قد سُلت وأُخذت من جميع الأرض، ولذلك جاء بنوه على قدر الأرض: منهم الطيب والخبيث وبين ذلك، والسهل والحزن وبين ذلك.

﴿١٣﴾ ﴿ثم جعلناه﴾؛ أي: جنس الآدميين ﴿نطفة﴾: تخرج من بين الصلب والترائب، فتستقر ﴿في قرارٍ مكين﴾: وهو الرحم، محفوظة من الفساد والريح وغير ذلك.

﴿١٤﴾ ﴿ثم خلقنا النطفة﴾: التي قد استقرت قبل ﴿علقة﴾؛ أي: دمًا أحمر بعد مضي أربعين يوماً من النطفة، ثم ﴿خلقنا العلقة﴾: بعد أربعين يوماً ﴿مضغة﴾؛ أي: قطعة لحم صغيرة بقدر ما يُمضغ من صغرها، ﴿فخلقنا المضغة﴾: اللينة ﴿عظاماً﴾: صلبة قد تخللت اللحم بحسب حاجة البدن إليها، ﴿فكسونا العظام لحماً﴾؛ أي: جعلنا اللحم كسوة للعظام؛ كما جعلنا العظام عماداً للحم، وذلك في الأربعين الثالثة، ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾: نفخ فيه الروح، فانتقل من كونه جماداً إلى أن صار حيواناً. ﴿فتبارك الله﴾؛ أي: تعالي وتعاضم وكثر خيره، ﴿أحسن الخالقين﴾: ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين. ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين. ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾؛ فخلقه كله حسن، والإنسان من أحسن مخلوقاته، بل هو أحسنها على الإطلاق؛ كما قال تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾، ولهذا كان خواصه أفضل المخلوقات وأكملها.

﴿١٥﴾ ﴿ثم إنكم بعد ذلك﴾: الخلق ونفخ الروح، ﴿لميتون﴾: في أحد أطواركم وتنفلاتكم.

﴿١٦﴾ ﴿ثم إنكم يوم القيامة تُبعثون﴾: فتجازون بأعمالكم حسنها وسيئها؛ قال تعالى: ﴿أيحسب الإنسان أن يُترك سدى. ألم يك نطفةً من مني يُمنى. ثم كان علقةً فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكور والأنثى. أليس ذلك بقادرٍ على أن يحيي الموتى﴾.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿٧﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرُ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْآرْضِ وَنَا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَدَرُونَ ﴿٨﴾ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٩﴾ وَسَجْرَةَ تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لِلْأَكْلِينَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿١٧﴾ لما ذكر تعالى خلق آدمي؛ ذكر مسكنه وتوفّر النعم عليه من كل وجه، فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ﴾: سقفاً للبلاد ومصلحةً للعباد، ﴿سَبْعَ طَرَائِقَ﴾؛ أي: سبع سماواتٍ طباقاً، كلُّ طبقةٍ فوق الأخرى، قد زينتُ بالثُجُومِ والشمس والقمر، وأودعَ فيها من مصالح الخلق ما أودع. ﴿وَمَا كُنَّا مِنَ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾؛ فكما أن خَلَقْنَا عَامًّا لكل مخلوق؛ فعلمنا أيضاً محيطاً بما خَلَقْنَا؛ فلا نغفل مخلوقاً ولا ننساه، ولا نَخْلُقُ خَلْقاً فنضِيعه، ولا نغفل عن السماء فتقع على الأرض، ولا ننسى ذرّةً في لجج البحار وجوانب الفلوات ولا دابةً إلا سُقْنَا إليها رزقها، ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾: وكثيراً ما يقرنُ تعالى بين خلقه وعلمه؛ كقوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾، ﴿بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾؛ لأنَّ خلق المخلوقات من أقوى الأدلّة العقلية على علم خالقها وحكمته.

﴿١٨﴾ ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾: يكون رزقاً لكم ولأنعامكم بقدر ما يكفيكم؛ فلا ينقصه [بحيث لا يكفي الأرض والأشجار، فلا يحصل منه المقصود. ولا يزيده زيادة لا تحتمل]، بحيث يتلف المساكن، ولا تعيش منه النباتات والأشجار، بل أنزله وقت الحاجة لنزوله، ثم صرفه عند التضرر من دوامه، ﴿فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: أنزلناه عليها، فسكن واستقر وأخرج بقدرة منزله جميع الأزواج النباتية، وأسكنه أيضاً معداً في خزائن الأرض؛ بحيث لم يذهب نازلاً حتى لا يوصل إليه ولا يبلغ قعره. ﴿وإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ﴾: إمّا بأن لا نُنزِلُهُ، أو نُنزِلُهُ فيذهب نازلاً لا يوصل إليه، أو لا يوجد منه المقصود منه، وهذا تنبيه منه لعباده أن يشكروه على نعمته ويقدرُوا عدمها؛ ماذا يحصلُ به من الضرر؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾.

﴿١٩﴾ ﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ﴾؛ أي: بذلك الماء، ﴿جَنَّاتٍ﴾؛ أي: بساتين ﴿مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾: خصّ تعالى هذين النوعين، مع أنه ينشر منه غيرهما من الأشجار؛ لفضلهما ومنافعهما التي فاقت بها الأشجار، ولهذا ذكر العام في قوله: ﴿لَكُمْ﴾؛ أي: في تلك الجنات فواكه كثيرة منها تأكلون من تينٍ وأترجٍ ورماني وتفاح وغيرها.

﴿٢٠﴾ ﴿وشجرة تخرج من طور سيناء﴾: وهي شجرة الزيتون؛ أي: جنسها، خُصّت بالذكر لأنَّ مكانها خاص في أرض الشام، ولمنافعها التي دُكر بعضها في

قوله: ﴿تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصِنَعٌ لِلآكَلِينَ﴾؛ أي: فيها الزيت الذي هو دهنٌ، يُسْتَعْمَلُ استعماله من الاستصباح به، واصطباح للآكلين؛ أي: يجعل إداماً للآكلين وغير ذلك من المنافع.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۗ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالِكِ تَحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿٢١﴾ أي: ومن نعمه عليكم أن سَخَّرَ لكم الأنعام؛ الإبل والبقر والغنم، فيها عبرةٌ للمعتبرين ومنافع للمنتفعين، ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا﴾: من لبنٍ يخرج من بين قرثٍ ودم خالص سائغ للشاربين، ﴿ولكم فيها منافع كثيرة﴾: من أصوافها وأوبارها وأشعارها، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم، ﴿ومنها تأكلون﴾: أفضل المأكَل من لحم وشحم.

﴿٢٢﴾ ﴿وعليها وعلى الفلكِ تحمَلون﴾؛ أي: جعلها سفناً لكم في البرِّ، تحمَلون عليها أثقالكم إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيه إلا بشقِّ الأنفس؛ كما جعل لكم السفن في البحر تحمَلكم وتحمل متاعكم قليلاً كان أو كثيراً؛ فالذي أنعم بهذه النعم وصنَّف أنواع الإحسان وأدرَّ علينا من خيره المدرار هو الذي يستحقُّ كمال الشُّكر وكمال الثناء والاجتهاد في عبوديته وأن لا يُستعان بنعمه على معاصيه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهِ غَيْرُهُ ۗ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فترَوُّوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَدَدْتُ ۗ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَن اصْنَعِ الْفَالِكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ مِّنْ نَّسَبٍ وَأَهْلِكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ۗ وَلَا تُخْطِئُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ۗ إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَالِكِ فَقُلْ أَتَدْعُوهُ لِأَنَّهُ كَانَ مِنَ الْغَالِبِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُلْ رَبِّ أُنزِلْنِي مُزَلًّا مُّبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

(١) في (النسختين): إلى آخر القصة وهي قوله: ﴿إن في ذلك آيات وإن كنا لمبتلين﴾.

﴿٢٣﴾ يذكر تعالى رسالة عبده ورسوله نوح عليه السلام أول رسول أرسله لأهل الأرض، فأرسله إلى قومه، وهم يعبدون الأصنام، فأمرهم بعبادة الله وحده، فقال: ﴿يا قوم اعبدوا الله﴾؛ أي: أخلصوا له العبادة؛ لأنَّ العبادة لا تصحُّ إلا بإخلاصها. ﴿ما لكم من إله غيره﴾: فيه إبطال ألوهية غير الله وإثبات الإلهية لله تعالى؛ لأنَّه الخالق الرازق الذي له الكمال كلُّه، وغيره بخلاف ذلك. ﴿أفلا تتقون﴾: ما أنتم عليه من عبادة الأوثان والأصنام التي صُوِّرت على صور قوم صالحين، فعبدوها مع الله؟

﴿٢٤﴾ فاستمرَّ على ذلك يدعوهم سرًّا وجهاراً وليلاً ونهاراً ألف سنة إلا خمسين عاماً، وهم لا يزدادون إلاَّ عتواً ونفوراً، ﴿فقال الملائكة﴾: من قومه الأشراف والسادة المتبوعون على وجه المعارضة لنبیِّهم نوح والتحذير من أتباعه: ﴿ما هذا إلاَّ بشرٌ مثلكم يريد أن يتفَضَّلَ عليكم﴾؛ أي: ما هذا إلاَّ بشرٌ مثلكم، قصده حين ادَّعى النبوة أن يزيد عليكم فضيلة ليكون متبوعاً، وإلاَّ؛ فما الذي يفضله عليكم وهو من جنسكم؟! وهذه المعارضة لا زالت<sup>(١)</sup> موجودة في مكذبي الرسل، وقد أجاب الله عنها بجواب شافٍ على السنة رسله؛ كما في قوله: ﴿قالوا﴾؛ أي: لرسولهم. ﴿إن أنتم إلاَّ بشرٌ مثلنا تريدون أن تصدُّونا عمَّا كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطانٍ مبين. قالت لهم ربُّهم إن نحن إلاَّ بشرٌ مثلكم ولكنَّ الله يَمُنُّ على من يشاء من عباده﴾: فأخبروا أنَّ هذا فضلُ الله ومُنَّته، فليس لكم أن تحجُّروا على الله، وتمنَّعوه من إيصال فضله علينا.

وقالوا أيضاً: ﴿ولو شاء الله لأنزل ملائكة﴾: وهذه أيضاً معارضةً بالمشيئة باطلة؛ فإنَّه وإن كان لو شاء لأنزل ملائكة؛ فإنَّه حكيمٌ رحيمٌ، حكمته ورحمته تقتضي أن يكون الرسول من جنس الآدميين؛ لأنَّ الملائكة لا قدرة لهم على مخاطبته، ولا يمكن أن يكون إلاَّ بصورة رجل، ثم يعود اللبس عليهم كما كان. وقولهم: ﴿ما سمعنا بهذا﴾؛ أي: بإرسال الرسول ﴿في آبائنا الأولين﴾ وأيُّ حجة في عدم سماعهم إرسال رسول في آبائهم الأولين؟! لأنَّهم لم يحيطوا علماً بما تقدَّم؛ فلا يجعلون جهلهم حجةً لهم! وعلى تقدير أنَّه لم يرسل منهم رسولاً: فإما أن يكونوا على الهدى؛ فلا حاجة لإرسال الرسول إذ ذاك، وإما أن يكونوا على

(١) في (ب): «ما زالت».

غيره؛ فليحمدوا ربهم ويشكروه أن خصّهم بنعمة لم تأت آباءهم ولا شعروا بها، ولا يجعلوا عدم الإحسان على غيرهم سبباً لكفرهم للإحسان إليهم.

﴿٢٥﴾ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾؛ أي: مجنون، ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ﴾؛ أي: انتظروا به ﴿حتى حين﴾: إلى أن يأتيه الموت.

وهذه الشبه [التي] أوردوها<sup>(١)</sup> معارضةً لنبوة نبيهم دالةً على شدة كفرهم وعنادهم وعلى أنهم في غاية الجهل والضلال؛ فإنها لا تصلح للمعارضة بوجه من الوجوه؛ كما ذكرنا، بل هي في نفسها متناقضة متعارضة؛ فقله: ﴿ما هذا إلا بشرٌ مثلكم يريد أن يتفضل عليكم﴾؛ أثبتوا أنّ له عقلاً يكيدهم به ليعلوهم ويسودهم، ويحتاج مع هذا أن يُحذّر منه لئلا يُغترّ به؛ فكيف يلتئم مع قولهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ؟! وهل هذا إلا من مشبه ضال، منقلب عليه الأمر، قصده الدفع بأيّ طريق اتفق له، غير عالم بما يقول. ويأبى الله إلا أن يُظهر خزي من عاداه وعادى رسله.

﴿٢٦﴾ فلما رأى نوح أنه لا يفيدهم دعاؤه إلا فراراً؛ ﴿قال رب انصُرني بما كذبتون﴾: فاستنصر ربه عليهم غضباً لله حيث ضيعوا أمره وكذبوا رسله. وقال: ﴿رب لا تدز على الأرض من الكافرين ذياراً. إنك إن تدزهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً﴾. قال تعالى: ﴿ولقد نادانا نوح فلنعم المجيئون﴾.

﴿٢٧﴾ ﴿فأوحينا إليه﴾: عند استجابتنا له سبباً ووسيلةً للنجاة قبل وقوع أسبابه: ﴿أن اصنع الفلك﴾؛ أي: السفينة ﴿بأعيننا ووحينا﴾؛ أي: بأمرنا لك ومعونتنا، وأنت في حفظنا وكلاءتنا؛ بحيث نراك ونسمعك. ﴿فإذا جاء أمرنا﴾: بإرسال الطوفان الذي عذبوا به، ﴿وفار الثور﴾؛ أي: فارت الأرض وتفجرت عيوناً حتى محل النار الذي لم تجر العادة إلا ببعده عن الماء. ﴿فاسلك فيها من كل زوجين اثنين﴾؛ أي: أدخل في الفلك من كل جنس من الحيوانات ذكراً وأنثى تبقى<sup>(٢)</sup> مادة النسل لسائر الحيوانات التي اقتضت الحكمة الربانية إيجادها في الأرض. ﴿وأهلك﴾؛ أي: أدخلهم ﴿إلا من سبق عليه القول﴾: كابنه، ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا﴾؛ أي: لا تدعني أن أنجيهم؛ فإن القضاء والقدر قد حتم. ﴿إنهم مفرقون﴾.

﴿٢٨﴾ ﴿فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك﴾؛ أي: علوتم عليها

(٢) كذا في (أ). وفي (ب): «لتبقى».

(١) في (ب): «أوردتها».

واستقلت بكم في تيار الأمواج ولجج اليم؛ فاحمدوا الله على النجاة والسلامة. وقل<sup>(١)</sup>: ﴿الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين﴾: وهذا تعليم منه له ولمن معه أن يقولوا هذا شكراً له وحمداً على نجاتهم من القوم الظالمين في عملهم وعذابهم.

﴿٢٩﴾ ﴿وقل رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين﴾؛ أي: وبقيت عليكم نعمة أخرى؛ فادعوا الله فيها، وهي أن ييسر الله لكم منزلاً مباركاً، فاستجاب الله دعاءه؛ قال الله: ﴿وقضيت الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين...﴾ إلى أن قال: ﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك...﴾ الآية.

﴿٣٠﴾ ﴿إن في ذلك﴾؛ أي: في هذه القصة ﴿آيات﴾: تدل على أن الله وحده المعبود، وعلى أن رسوله نوحاً صادقاً، وأن قومه كاذبون، وعلى رحمة الله بعباده؛ حيث حملهم في صلب أبيهم نوح في الفلك لما غرق أهل الأرض، والفلك أيضاً من آيات الله؛ قال تعالى: ﴿ولقد تركناها آية فهل من مدكر﴾. ولهذا جمعها هنا؛ لأنها تدل على عدة آيات ومطالب. ﴿وإن كنا لمبتلين﴾.

﴿٣١﴾ ﴿أَشْنَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ ﴿٣١﴾ ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلْقَائِهِ الْآخِرَةَ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿وَلَيْنَ أُطِغْتُمْ بَشَرًا مِّثْلُكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَسِرُونَ﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿أَيَعِدُّكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْتُمْ تُخْرَجُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ ﴿هِيَآتْ هَيَّآتْ لِمَا تُوْعَدُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ ﴿٣٧﴾ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصِحْنَنَّ نَادِيَهُنَّ﴾ ﴿٤٠﴾ ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ عَشَاءً مُّتَعَدًّا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٤١﴾.

﴿٣١﴾ لما ذكر نوحاً وقومه وكيف أهلكهم؛ قال: ﴿ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾: الظاهر أنهم ثمود قوم صالح عليه السلام؛ لأن هذه القصة تشبه قصتهم.

﴿٣٢﴾ ﴿فأرسلنا فيهم رسولا منهم﴾: من جنسهم يعرفون نسبه وحسبه وصدقه؛



ليكونَ ذلكَ أسرعَ لانقيادهم إذا كان منهم وأبعد عن اشمئزازهم، فدعا إلى ما دعث إليه الرسلُ أممهم: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾: فكلُّهم اتَّفَقُوا على هذه الدعوة، وهي أول دعوة يدعون بها أممهم؛ الأمر بعبادة الله، والإخبار أنَّه المستحقُّ لذلك، والنهي عن عبادة ما سواه، والإخبار ببطلان ذلك وفساده، ولهذا قال: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾: رَبِّكُمْ فَتَجْتَنَّبُوا هَذِهِ الْأَوْثَانَ وَالْأَصْنَامَ.

﴿٣٣﴾ فقال ﴿الملا من قومِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ أي: قال الرؤساء الذين جَمَعُوا بين الكفر والمعاندة وإنكار البعث والجزاء، وأطغاهم ترفُّهم في الحياة الدُّنْيَا؛ معارضةً لنبیِّهم وتكذيباً وتحذيراً منه. ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾؛ أي: من جنسكم، ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾: فما الذي يُفَضُّهُ عليكم؟! فهلاً كان ملكاً لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب!

﴿٣٤﴾ ﴿وَلِيُنَّزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ سَمَوَاتِهِمْ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ أي: إن تبعتموه وجعلتموه لكم رئيساً وهو مثلكم؛ إنكم لمسلوبو العقل نادمون على ما فعلتم! وهذا من العجب؛ فإنَّ الخسارَ والندامةَ حقيقةً لمن لم يتابعه ولم يتَّقِ له، والجهلُ والسفهُ العظيم لمن تكبَّرَ عن الانقياد لبشرٍ خصَّه الله بوحیه، وفضَّله برسالته وابتلي بعبادة الشجر والحجر، وهذا نظير قولهم: ﴿قالوا أشرأ منَّا واحداً نبتُّعه إننا إذا لفي ضلال وسُعير. أَلْقَى الذُّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشِيرٌ﴾.

﴿٣٥ - ٣٦﴾ فلما أنكروا رسالته وَرَدُّوها؛ أنكروا ما جاء به من البعث بعد الموت والمجازاة على الأعمال، فقالوا: ﴿أَيُعَذِّبُكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنْكُمْ مَخْرُجُونَ. هِيَ هِيَ هِيَ لَمَّا تَوَعَّدُونَ﴾؛ أي: بعيدٌ بعيدٌ ما يعذبكم به من البعث بعد أن تمزقتم وكنتم تراباً وعظاماً. فنظروا نظراً قاصراً، ورأوا هذا بالنسبة إلى قُدْرِهِمْ غير ممكن، فقاَسُوا قدرة الخالق بقُدْرِهِمْ، تعالى الله، فأنكروا قدرته على إحياء الموتى، وعجَّزوه غاية التَّعْجِيز، ونسوا خَلْقَهُمْ أول مرة، وأنَّ الذي أنشأهم من العدم؛ فإعادته لهم بعد البلاء أهون عليه، وكلاهما هيِّنٌ لديه؛ فلم لا يُنْكَرُونَ أول خَلْقِهِمْ ويكابرون المحسوسات ويقولون: إننا لم نزل موجودين، حتى يَسْلَمَ لهم إنكارهم البعث ويُنتَقَلَ معهم إلى الاحتجاج على إثبات وجود الخالق العظيم! وهنا دليل آخر، وهو أن الذي أحيا الأرض بعد موتها؛ إنَّ ذلك لمحيي الموتى؛ إنَّه على كل شيء قدير. وثمَّ دليل آخر، وهو ما أجاب به المنكرين للبعث

في قوله: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ. إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾. فقال في جوابهم: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾؛ أي: في البلى ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾.

﴿٣٧﴾ ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾؛ أي: يموت أناس ويحيا أناس، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.

﴿٣٨﴾ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾<sup>(١)</sup>: فلهذا أتى بما أتى به من توحيد الله وإثبات المعاد! ﴿فَتَرِيصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾؛ أي: ارفعوا عنه العقوبة بالقتل وغيره احتراماً له ولأنه مجنونٌ غير مؤاخذ بما يتكلم به؛ أي: فلم يبق بزعمهم الباطل مجادلةً معه لصحة ما جاء به؛ فإنهم قد زعموا بطلانه، وإنما بقي الكلام هل يوقعون به أم لا؛ فبزعمهم أن عقولهم الرزينة اقتضت الإبقاء عليه وترك الإيقاع به مع قيام الموجب!! فهل فوق هذا العناد والكفر غاية؟! مع قيام الموجب!!

﴿٣٩﴾ ولهذا لما اشتد كفرهم ولم ينفع فيهم الإنذار؛ دعا عليهم نبيهم، فقال: ﴿رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ﴾؛ أي: بإهلاكهم وخزيهم الدنيوي قبل الآخرة.

﴿٤٠ - ٤١﴾ قال الله مجيباً لدعوته: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ. فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾: لا بالظلم والجور، بل بالعدل وظلمهم أخذتهم الصيحة فأهلكتهم عن آخرهم. ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾؛ أي: هشيماً يئساً بمنزلة غثاء السيل الملقى في جنبات الوادي، وقال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمٍ مُخْتَصِرِينَ﴾. ﴿فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: أتبعوا مع عذابهم البعد واللعنة والذم من العالمين؛ ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾<sup>(٤٢)</sup> مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَخْرُونَ<sup>(٤٣)</sup> ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولًا تَرًا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةٌ رَسُولًا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ<sup>(٤٤)</sup>.

﴿٤٢ - ٤٣﴾ أي: ثم أنشأنا من بعد هؤلاء المكذبين المعاندين ﴿قُرُونًا آخَرِينَ﴾:

(١) سها المؤلف - رحمه الله - وقام بتفسير الآية (٢٥) من نفس السورة؛ وصواب الآية: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افترى على الله كذباً وما نحن له بمؤمنين﴾.

كُلُّ أُمَّةٍ فِي وَقْتٍ مَسْمُومَةٍ وَأَجَلٍ مَحْدُودٍ، لَا تَتَقَدَّمُ عَنْهُ وَلَا تَتَأَخَّرُ، وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا مُتَتَابِعَةً لَعَلَّهُمْ يُؤْمِنُونَ وَيُنِيبُونَ، فَلَمَّ يَزَلْ الْكُفْرُ وَالتَّكْذِيبُ دَابَّ الْأُمَمَ الْعُصَاةَ وَالتَّكْفِرَةَ الْبَغَاةَ، ﴿كُلُّ مَا جَاءَ أُمَّةٍ رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾: مع أن كل رسول يأتي من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، بل مجرد دعوة الرسل وشرعهم يدل على حقيقة ما جاؤوا به.

﴿٤٤﴾ ﴿فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا﴾: بالهلاك، فلم يبق منهم باقية، وتعطلت مساكنهم من بعدهم، ﴿وَجَعَلْنَا هُمْ أَحَادِيثَ﴾: يتحدث بهم من بعدهم، ويكونون عبرة للمتقين ونكالا للمكذبين وخزيا عليهم مقرونا بعذابهم. ﴿فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: ما أشقاهم! وتغسأ لهم! ما أخسر صفقتهم!

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِيدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

مر عليّ منذ زمانٍ طويلٍ كلامٌ لبعض الغلماء، لا يحضرني الآن اسمه، وهو أنّه بعد [بعث] موسى ونزول التوراة، رَفَعَ اللَّهُ العذاب عن الأمم؛ أي: عذاب الاستئصال، وشرع للمكذّبين المعاندين بالجهاد، ولم أذِر من أين أخذه، فلمّا تَدَبَّرْتُ هذه الآيات مع الآيات التي في سورة القصص؛ تبين لي وجهه: أمّا هذه الآيات؛ فلأنّ الله ذَكَرَ الأمم المُهْلَكَةَ المتتابعة على الهلاك، ثم أخبر أنّه أرسل موسى بعدهم وأنزل عليه التوراة فيها الهداية للناس، ولا يَرِدُ على هذا إهلاك فرعون؛ فإنّه قبل نزول التوراة.

وأما الآيات التي في سورة القصص؛ فهي صريحةٌ جدًّا؛ فإنّه لما ذَكَرَ هلاك فرعون؛ قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بِصَائِرٍ لِلنَّاسِ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: فهذا صريحٌ أنّه آتاه الكتاب بعد هلاك الأمم الباغية، وأخبر أنّه أنزله بصائر للناس وهدى ورحمة.

ولعل من هذا ما ذَكَرَ اللَّهُ في سورة يونس من قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ﴾؛ أي: من بعد نوح، ﴿رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ. ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ...﴾ الآيات. والله أعلم.

﴿٤٥﴾ فقوله: ﴿ثم أرسلنا موسى﴾: ابن عمرانَ كلِيمَ الرحمن، ﴿وأخاه هارون﴾: حين سأل ربّه أن يُشركه في أمره فأجاب سُؤلَه، ﴿بآياتنا﴾: الدالّة على صدقهما وصحّة ما جاء به، ﴿وسلطانٍ مُبينٍ﴾؛ أي: حجّة بيّنة من قوتها أن تفهّر القلوب وتتسلّط عليها لقوّتها فتتقأذ لها قلوبُ المؤمنين وتقومُ الحجّة البيّنة على المعاندين. وهذا كقوله: ﴿ولقد آتينا موسى تسع آياتٍ بيّناتٍ﴾: ولهذا رئيسُ المعاندين عَرَفَ الحقَّ وعانده. ﴿فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم﴾: بتلك الآياتِ البيّناتِ، فقال له [فرعون] <sup>(١)</sup>: ﴿إني لأظنك يا موسى مسحوراً﴾. فقال موسى: ﴿لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا ربُّ السموات والأرض بصائرٍ وإني لأظنك يا فرعونُ مشهوراً﴾. وقال تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾.

﴿٤٦﴾ وقال هنا: ﴿ثم أرسلنا موسى وأخاه هارونَ بآياتنا وسلطانٍ مُبينٍ. إلى فرعونَ وملئِهِ﴾: كهامان وغيره من رؤسائهم، ﴿فاستكبروا﴾؛ أي: تكبّروا عن الإيمان بالله واستكبروا على أنبيائه، ﴿وكانوا قوماً عالين﴾؛ أي: وصفهم العلوُّ والتفهُرُ والفسادُ في الأرض، فلهذا صدر منهم الاستكبار، ذلك غيرُ مستكثرٍ منهم.

﴿٤٧﴾ ﴿فقالوا﴾ كِبَراً وتِيهاً وتحذيراً لضعفاء العقول وتمويهاً: ﴿أنؤمنُ لبشرين مثلنا﴾: كما قاله مَنْ قبلهم سواءً بسواءٍ؛ تشابهت قلوبهم في الكفر، فتشابهت أقوالهم وأفعالهم، وجحدوا منّة الله عليهما بالرسالة. ﴿وقومُهُما﴾؛ أي: بنو إسرائيل. ﴿لنا عابدون﴾؛ أي: معبّدون بالأعمال والأشغال الشاقّة؛ كما قال تعالى: ﴿وإذ نجّيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذابِ يذبّون أبناءكم ويستخيون نساءكم وفي ذلكم بلاءٌ من ربكم عظيمٌ﴾: فكيف نكون تابعين بعد أن كُنّا متبوعين؟! وكيف يكون هؤلاء رؤساء علينا؟! ونظيرُ قولهم قولُ قوم نوح: ﴿أنؤمنُ لك واتّبِعَكَ الأرذلون﴾، ﴿وما نراك اتّبِعَكَ إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي﴾.

﴿٤٨﴾ من المعلوم أن هذا لا يَضْلُحُ لدفع الحقِّ، وأنه تكذيبٌ ومعاندةٌ، ولهذا قال: ﴿فكذبوهما فكانوا من المهلكين﴾: في الغرقِ في البحرِ وبنو إسرائيل ينظرون.

﴿٤٩﴾ ﴿ولقد آتينا موسى﴾: بعدما أهلك الله فرعونَ وخلّص الشعبَ الإسرائيليّ مع موسى وتمكّن حينئذٍ من إقامة أمرِ الله فيهم وإظهارِ شعائره؛

(١) في (أ): «موسى»، والصواب ما أثبت من (ب).

وعده الله أن ينزل عليه التوراة أربعين ليلة، فذهب لميقات ربه؛ قال الله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾. ولهذا قال هنا: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾؛ أي: بمعرفة تفاصيل الأمر والنهي والثواب والعقاب ويعرفون ربهم بأسمائه وصفاته.

﴿رَجَعْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ (٥٠).

﴿٥٠﴾ أي: وامتننا على عيسى ابن مريم وجعلناه وأمه من آيات الله العجيبة؛ حيث حملته وولده من غير أب، وتكلم في المهد صبياً، وأجرى الله على يديه من الآيات ما أجرى. ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ﴾؛ أي: مكان مرتفع، وهذا والله أعلم وقت وضعها، ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾؛ أي: مستقر وراحة، ﴿وَمَعِينٍ﴾؛ أي: ماء جار؛ بدليل قوله: ﴿قد جعل ربك تحتك﴾؛ أي: تحت المكان الذي أنت فيه لارتفاعه ﴿سَرِيًّا﴾؛ أي: نهراً، وهو المعين. ﴿وهزني إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنياً. فكلي واشربي وقرب عينا﴾.

﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (٥١) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فِرْحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرَهُمْ فِي عَمْرِيهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ ﴿٥٥﴾ سُارِعٌ لَّهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾.

﴿٥١﴾ هذا أمر منه تعالى لرسوله بأكل الطيبات التي هي: الرزق والطيب الحلال، والشكر لله<sup>(١)</sup> بالعمل الصالح الذي به يصلح القلب والبدن والدنيا والآخرة، ويخبرهم أنه بما يعملون عليم؛ فكل عمل عمله وكل سعي اكتسبه؛ فإن الله يعلمه، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء وأفضله، فدل هذا على أن الرسل كلهم متفقون على إباحة الطيبات من المأكول وتحريم الخبائث منها، وأنهم متفقون على كل عمل صالح، وإن تنوعت بعض أجناس المأمورات واختلفت بها الشرائع؛ فإنها كلها عمل صالح، ولكن تتفاوت بتفاوت الأزمنة. ولهذا؛ الأعمال الصالحة التي هي صلاح في جميع الأزمنة قد اتفقت عليها الأنبياء والشرائع؛ كالأمر بتوحيد الله وإخلاص الدين له ومحبة وخوفه ورجائه والبر والصدق والوفاء بالعهد

(١) في (ب): «الرزق الطيب الحلال وشكر الله».

وصلة الأرحام وبرّ الوالدين والإحسان إلى الضعفاء والمساكين واليتامى والحنوّ والإحسان إلى الخلق ونحو ذلك من الأعمال الصالحة، ولهذا كان أهل العلم والكتب السابقة والعقل حين بعث الله محمداً ﷺ يستدلّون على نبوته بأجناس ما يأمر به وينهى عنه؛ كما جرى لِهَرَقْل وغيره؛ فإنه إذا أمر بما أمر به الأنبياء الذين من قبله ونهى عما نهوا عنه؛ دلّ على أنه من جنسهم؛ بخلاف الكذاب؛ فلا بدّ أن يأمر بالشرّ وينهى عن الخير.

﴿٥٢﴾ ولهذا قال تعالى للرسول: ﴿وَأِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً﴾؛ أي: جماعتكم يا معشر الرسل ﴿واحدة﴾: متفقّة على دين واحدٍ وربّكم واحدٌ. ﴿فَاتَّقُونِ﴾: بامتنال أوامري واجتناب زواجري. وقد أمر الله المؤمنين بما أمر به المرسلين؛ لأنّهم بهم يفتنون وخلفهم يسلكون، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنَّ كُتُوبَكُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾: فالواجب على<sup>(١)</sup> كل المنتسبين إلى الأنبياء وغيرهم أن يمتثلوا هذا ويعملوا به.

﴿٥٣﴾ ولكنّ أبي الظالمون المُفْتَرِقُونَ<sup>(٢)</sup> إلاً عصياناً، ولهذا قال: ﴿فَنَقُطِعُوا أَمْهَمَ بَيْنَهُمْ زُبْرًا﴾؛ أي: تقطّع المنتسبون إلى أتباع الأنبياء ﴿أمرهم﴾؛ أي: دينهم ﴿بَيْنَهُمْ زُبْرًا﴾؛ أي: قطعاً. ﴿كلّ حزب بما لديهم﴾؛ أي: بما عندهم من العلم والدين ﴿فرحون﴾: يزعمون أنّهم المحقّون، وغيرهم على غير الحقّ، مع أنّ المحقّ منهم من كان على طريق الرّسل من أكل الطيبات والعمل الصالح، وما عداهم فإنّهم مبطلون.

﴿٥٤﴾ ﴿فَدَزَّهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾؛ أي: في وسط جهلهم بالحقّ ودعواهم أنّهم هم المحقّون ﴿حتى حين﴾؛ أي: إلى أن ينزل العذاب بهم؛ فإنّهم لا ينفع فيهم وعظّ، ولا يفيدهم زجرٌ؛ فكيف<sup>(٣)</sup> يفيد بمن يزعم أنّه على الحقّ ويطمع في دعوة غيره إلى ما هو عليه؟

﴿٥٥ - ٥٦﴾ ﴿أَيُّحْسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينٍ﴾. نساغ لهم في الخيرات؛ أي: أيظنون أنّ زيادتنا إيّاهم بالأموال والأولاد دليل على أنّهم من أهل الخير والسعادة، وأنّ لهم خير الدنيا والآخرة، وهذا مقدّم لهم؟! ليس الأمر

(٢) أي: المغلوبون في الخصومة.

(١) في (ب): «من».

(٣) في (ب): «وكيف».

كذلك؛ ﴿بل لا يشعرون﴾: أئما نُملِي لهم ونُملِهُم ونُمدُّهم بالنعم ليزدادوا إئماً وليتوقَّر عقابهم في الآخرة، وليغْتَبِطُوا بما أوتوا، حتى إذا فَرِحُوا بما أوتوا؛ أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشِيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْحَزِينِ لَهُمْ لَهَا سَعِيرُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَبْلُغُ الْحَقَّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى الَّذِينَ جَمَعُوا بَيْنَ الْإِسَاءَةِ وَالْأَمْنِ، الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّ عَطَاءَ اللَّهِ إِيَاهُمْ فِي الدُّنْيَا دَلِيلٌ عَلَى خَيْرِهِمْ وَفَضْلِهِمْ؛ ذَكَرَ الَّذِينَ جَمَعُوا بَيْنَ الْإِحْسَانِ وَالْخَوْفِ، فَقَالَ:

﴿٥٧﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشِيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾؛ أَي: وَجِلُونَ، مُشْفِقَةٌ قُلُوبُهُمْ، كُلُّ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ؛ خَوْفًا أَنْ يَضَعَ عَلَيْهِمْ عَدْلَهُ؛ فَلَا يُبْقِي لَهُمْ حَسَنَةً، وَسَوْءَ ظَنُّ بَأَنْفُسِهِمْ أَنْ لَا يَكُونُوا قَدْ قَامُوا بِحَقِّ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَوْفًا عَلَى إِيْمَانِهِمْ مِنَ الزَّوَالِ، وَمَعْرِفَةً مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ وَمَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الْإِجْلَالِ وَالْإِكْرَامِ. وَخَوْفُهُمْ وَإِسْفَاقُهُمْ يَوْجِبُ لَهُمُ الْكَفَّ عَمَّا يَوْجِبُ الْأَمْرُ الْمَخَوْفُ مِنَ الذُّنُوبِ وَالتَّقْصِيرِ فِي الْوَاجِبَاتِ.

﴿٥٨﴾ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أَي: إِذَا ثَلَيْتَ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ؛ زَادَتْهُمْ إِيْمَانًا، وَتَفَكَّرُونَ أَيْضًا فِي الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ، وَتَدَبَّرُونَهَا، فَيَبِينُ لَهُمْ مِنْ مَعَانِي الْقُرْآنِ وَجَلَالَتِهِ وَاتِّفَاقِهِ وَعَدَمَ اخْتِلَافِهِ وَتَنَاقُضِهِ وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ مَعْرِفَةِ اللَّهِ وَخَوْفِهِ وَرَجَائِهِ وَأَحْوَالِ الْجَزَاءِ، فَيَحْدُثُ لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ تَفَاصِيلِ الْإِيْمَانِ مَا لَا يُعْبَرُ عَنْهُ اللَّسَانُ، وَتَفَكَّرُونَ أَيْضًا فِي الْآيَاتِ الْأَفْقِيَّةِ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ...﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ.

﴿٥٩﴾ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾؛ أَي: لَا شَرِكًا جَلِيًّا؛ كَاتَخَذَ غَيْرَ اللَّهِ مَعْبُودًا يَدْعُوهُ وَيَرْجُوهُ، وَلَا شَرِكًا خَفِيًّا؛ كَالرِّيَاءِ وَنَحْوِهِ، بَلْ هُمْ مُخْلِصُونَ لِلَّهِ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ وَسَائِرِ أَحْوَالِهِمْ.

﴿٦٠﴾ ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا؛ أَي: يَعْطُونَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ مِمَّا أَمَرُوا بِهِ مَا آتَوْا مِنْ كُلِّ مَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ مِنْ صَلَاةٍ وَزَكَاةٍ وَحَجٍّ وَصَدَقَةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَمَعَ هَذَا

﴿قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾؛ أي: خائفة ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾؛ أي: خائفة عند عرض أعمالها عليه والوقوف بين يديه أن تكون أعمالهم غير منجية من عذاب الله؛ لعلمهم بربهم، وما يستحقه من أصناف العبادات.

﴿٦١﴾ ﴿أُولَئِكَ يَسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾؛ أي: في ميدان التسارع في أفعال الخير؛ همهم ما يقربهم إلى الله، وإرادتهم مصروفة فيما يُنجي من عذابه؛ فكلُّ خير سمعوا به أو سنحت لهم الفرصة [إليه]؛ انتهزوه وبأذروه؛ قد نظروا إلى أولياء الله وأصفيائه أمامهم، ويمنة ويسرة؛ يسارعون في كلِّ خير، وينافسون في الزلْفى عند ربهم؛ فنافسوه، ولما كان المسابق لغيره المسارع؛ قد سبق لجدّه وتشميره، وقد لا يسبق لتقصيره؛ أخبر تعالى أن هؤلاء من القسم السابقين، فقال: ﴿وهم لها﴾؛ أي: للخيرات، ﴿سابقون﴾: قد بلغوا ذروتها، وتباروا هم والرعيّل الأول، ومع هذا قد سبقت لهم من الله سابقة السعادة أنهم سابقون.

﴿٦٢﴾ ولما ذكر مسارعتهم إلى الخيرات وسبقهم إليها؛ ربما وهم واهم أن المطلوب منهم ومن غيرهم أمر غير مقدور أو متعسر؛ أخبر تعالى أنه ﴿لا تكلف نفساً إلا وسعها﴾؛ أي: بقدر ما تسعه ويفضل من قوتها عنه، ليس مما يستوعب قوتها؛ رحمة منه وحكمة؛ لتيسير طريق الوصول إليه، ولتعمر جادة السالكين في كل وقت إليه. ﴿ولدينا كتاب ينطق بالحق﴾: وهو الكتاب الأول الذي فيه كل شيء، وهو يطابق كل واقع يكون؛ فلذلك كان حقاً. ﴿وهم لا يظلمون﴾: ينقص من إحسانهم، أو يزداد<sup>(١)</sup> في عقوبتهم وعصيانهم.

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ﴾ ﴿١٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَخْفَتُونَ ﴿١٤﴾ لَا يَجْعَلُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تَضُرُّونَ ﴿١٥﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنْتَلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تُنْكِبُونَ ﴿١٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿١٧﴾ أَفَلَمْ يَذَّبُوا الْقَوْلَ إِذْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿١٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمُ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴿٢١﴾ بَلْ أَلَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٢﴾

(١) في (ب): «يزاد».

(٢) الآيات ما بين المعقوفتين؛ لا توجد في النسختين.



﴿٦٣﴾ يخبر تعالى أن قلوب المكذبين في غمرة من هذا؛ أي: وسط غمرة من الجهل والظلم والغفلة والإعراض تمنعهم من الوصول إلى هذا القرآن؛ فلا يهتدون به، ولا يصل إلى قلوبهم منه شيء، ﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً، وجعلنا على قلوبهم أكنةً أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً﴾؛ فلما كانت قلوبهم في غمرة منه؛ عملوا<sup>(١)</sup> بحسب هذا الحال من الأعمال الكفرية والمعاندة للشرع ما هو موجب لعقابهم، ولكن ﴿لهم أعمال من دون﴾: هذه الأعمال ﴿هم لها عاملون﴾؛ أي: فلا يستغربوا عدم وقوع العذاب فيهم؛ فإن الله يمهّلهم ليعملوا هذه الأعمال التي بقيت عليهم مما كتبت عليهم؛ فإذا عملوها، واستوفوها؛ انتقلوا بشر حالة إلى غضب الله وعقابه.

﴿٦٤ - ٦٥﴾ ﴿حتى إذا أخذنا مترفيهم﴾؛ أي: متنعميهم الذين ما اعتادوا إلا الترف والرفاهية والنعيم، ولم تحصل لهم المكاره؛ فإذا أخذناهم ﴿بالعذاب﴾، ووجدوا مسه؛ ﴿إذا هم يجأرون﴾: يصرخون ويتوجعون؛ لأنه أصابهم أمر خالف ما هم عليه، ويستغيثون، فيقال لهم: ﴿لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون﴾: وإذا لم تأتيم النصرة من الله، وانقطع عنهم الغوث من جانبه؛ لم يستطيعوا نصر أنفسهم، ولم ينصّرهم أحد.

﴿٦٦﴾ فكأنه قيل: ما السبب الذي أوصلهم إلى هذه الحال؟ قال: ﴿قد كانت آياتي تتلى عليكم﴾: لتؤمنوا بها وتقبلوا عليها، فلم تفعلوا ذلك، بل ﴿كنتم على أعقابكم نكصون﴾؛ أي: راجعين القهقري إلى الخلف، وذلك لأنّ باتباعهم القرآن يتقدمون، وبالإعراض عنه يستأخرون، وينزلون إلى أسفل سافلين.

﴿٦٧﴾ ﴿مستكبرين به سامراً تهجرون﴾: قال المفسرون: معناه: مستكبرين به: الضمير يعود إلى البيت المعهود عند المخاطبين أو الحرم؛ أي: متكبرين على الناس بسببه، تقولون: نحن أهل الحرم؛ فنحن أفضل من غيرنا وأعلا. ﴿سامراً﴾؛ أي: جماعة يتحدثون بالليل حول البيت. ﴿تهجرون﴾؛ أي: تقولون الكلام الهجّر الذي هو القبيح في هذا القرآن؛ فالمكذبون كانت طريقتهم في القرآن الإعراض عنه، ويوصي بعضهم بعضاً بذلك، ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾، وقال الله عنهم: ﴿أفمن هذا الحديد تغجبون﴾.

(١) في (أ): «علموا». والصواب كما أثبت في (ب).

وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ. وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦٨﴾، ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾ فلما كانوا جامعين لهذه الرذائل؛ لا جَرَمَ حَقَّتْ عَلَيْهِمُ الْعُقُوبَةُ، وَلَمَّا وَقَعُوا فِيهَا؛ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ نَاصِرٌ يَنْصُرُهُمْ وَلَا مَغِيثٌ يَنْقِذُهُمْ، وَيُوبِخُونَ عِنْدَ ذَلِكَ بِهَذِهِ الْأَعْمَالِ السَّاقِطَةِ.

﴿٦٨﴾ ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾؛ أي: أفلا يتفكرون في القرآن ويتأملونه ويتدبرونه؛ أي: فإنهم لو تدبروه؛ لأوجب لهم الإيمان، ولمنعهم من الكفر، ولكن المصيبة التي أصابتهم بسبب إعراضهم عنه. ودل هذا على أن تدبر القرآن يدعو إلى كل خير ويعصم من كل شر، والذي منعهم من تدبره أن على قلوبهم أقالها. ﴿أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: أو منعهم من الإيمان أنه جاءهم رسول وكتاب ما جاء آباءهم الأولين، فرضوا بسلك طريق آبايهم الضالين، وعارضوا كل ما خالف ذلك! ولهذا قالوا هم ومن أشبههم من الكفار ما أخبر الله عنهم: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾. فأجابهم بقوله: ﴿قَالَ أَوْلَوْ جِئْتُمْكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ فَهَلْ تُتَّبِعُونِ﴾: إن كان قصدكم الحق. فأجابوا بحقيقة أمرهم: ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾.

﴿٦٩﴾ وقوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مَنكَرُونَ﴾؛ أي: أو منعهم من اتباع الحق أن رسولهم محمداً ﷺ غير معروف عندهم فهم منكرون له يقولون: لا نعرفه ولا نعرف صدقه، دعونا [حتى] ننظر حاله ونسأل عنه من له به خبرة؟ أي: لم يكن الأمر كذلك؛ فإنهم يعرفون الرسول ﷺ معرفة تامة، صغيرهم وكبيرهم، يعرفون منه كل خلق جميل، ويعرفون صدقه وأمانته، حتى كانوا يسمونه - قبل البعثة -: الأمين<sup>(١)</sup>؛ فلم لا يصدقونه حين جاءهم بالحق العظيم والصدق المبين؟!

﴿٧٠﴾ ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾؛ أي: جنون؛ فلهذا قال ما قال! والمجنون غير مسموع منه، ولا عبرة بكلامه؛ لأنه يهذي بالباطل والكلام السخيف! قال الله في الرد عليهم في هذه المقالة: ﴿بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ﴾؛ أي: بالأمر الثابت الذي هو صدق وعدل لا اختلاف فيه ولا تناقض؛ فكيف يكون من جاء به، به جنة؟! وهلاً يكون إلا في أعلى درج الكمال من العلم والعقل ومكارم الأخلاق! وأيضاً؛ فإن في

(١) كما في قصة بناء الكعبة: أخرجه الإمام أحمد (٤٢٥/٣)، والحاكم (٤٥٨/١)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٩٢/٣): «رواه أحمد، وفيه هلال بن جندب، وهو ثقة، وفيه كلام، وبقية رجاله رجال الصحيح». وانظر «فقه السيرة» (ص ٨٠) فقد حسنها الشيخ الألباني.

هذا الانتقال مما تقدّم؛ أي: بل الحقيقة التي منعتهم من الإيمان أنّه ﴿جاءهم بالحقّ وأكثرهم للحقّ كارهون﴾، وأعظم الحقّ الذي جاءهم به: إخلاصُ العبادة لله وحده، وترك ما يُعبَد من دون الله، وقد علم كراحتهم لهذا الأمر وتعجّبهم منه؛ فكونُ الرسول أتى بالحقّ، وكونهم كارهين للحقّ بالأصل، هو الذي أوجب لهم التكذيب بالحقّ؛ لا شكّاً ولا تكذيباً للرسول؛ كما قال تعالى: ﴿فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآياتِ الله يخحدون﴾.

﴿٧١﴾ فإن قيل: لم يكن الحقّ موافقاً لأهوائهم؛ لأجل أن يؤمنوا أو يسرعوا الانقياد؟ أجب تعالى بقوله: ﴿ولو اتَّبَعَ الحقُّ أهواءهم لفسدت السموات والأرضُ﴾: ووجه ذلك أن أهواءهم متعلّقة بالظلم والكفر والفساد من الأخلاق والأعمال؛ فلو اتَّبَعَ الحقُّ أهواءهم؛ لفسدت السموات والأرضُ؛ لفساد التصرف والتدبير المبني على الظلم وعدم العدل؛ فالسموات والأرض ما استقامتا إلّا بالحقّ والعدل. ﴿بل أتيناهم بذكرهم﴾؛ أي: بهذا القرآن المذكر لهم بكل خير، الذي به فخرهم وشرفهم حين يقومون به ويكونون به سادة الناس. ﴿فهم عن ذكرهم معرضون﴾: شقاوة منهم وعدم توفيق؛ ﴿نسوا الله فَنَسِيهِمْ﴾، ﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾؛ فالقرآن ومن جاء به أعظم نعمة ساقها الله إليهم، فلم يقابلوها إلا بالرد والإعراض؛ فهل بعد هذا الحرمان حرمان؟! وهل يكون وراءه إلّا نهاية الخسران!؟

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَّاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (٧٢).

﴿٧٢﴾ أي: أو منّعهم من أتباعك يا محمد أنك تسألهم على الإجابة أجرًا؛ ﴿فهم من مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾: يتكلّفون من أتباعك بسبب ما تأخذ منهم من الأجر والخراج، ليس الأمر كذلك. ﴿فخرّاجُ ربِّك خيرٌ وهو خيرُ الرازقين﴾: وهذا كما قال الأنبياء لأممهم: ﴿يا قوم لا أسألكم عليه أجرًا إن أجريّ إلّا على الله﴾؛ أي: ليسوا يدعون الخلق طمعاً فيما يُصيبيهم منهم من الأموال، وإنما يدعونهم نصحاً لهم وتحصيلاً لمصالحهم، بل كان الرسل أنصح للخلق من أنفسهم، فجزأهم الله عن أممهم خير الجزاء، ورزقنا الاقتداء بهم في جميع الأحوال.

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٧٣) ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكِبُونَ﴾ (٧٤).

﴿٧٣ - ٧٤﴾ ذكر الله تعالى في هذه الآيات الكريمات كل سبب موجب

للإيمان، وذَكَرَ الموانع، وبيّن فسادها واحداً بعد واحدٍ، فذكر من الموانع: أنّ قلوبهم في غَمْرَةٍ، وأنهم لم يدبّروا القول، وأنهم اقتدوا بأبائهم، وأنهم قالوا: برسولهم جِنَّةٌ؛ كما تقدم الكلام عليها.

وذكر من الأمور الموجبة لإيمانهم: تدبُّر القرآن، وتلقّي نعمة الله بالقبول، ومعرفة حال الرسول محمد ﷺ وكمال صدقه وأمانته، وأنه لا يسألهم عليه أجراً، وإنما سعيه لنفعهم ومصلحتهم، وأنّ الذي يدعوهم إليه صراطٌ مستقيمٌ، سهلٌ على العاملين لاستقامته، موصلٌ إلى المقصود من قرب، حنيفيةٌ سمحةٌ؛ حنيفيةٌ في التوحيد، سمحةٌ في العمل؛ فدعوتك إيّاهم إلى الصراط المستقيم موجب لمن يريد الحقّ أن يتبعك؛ لأنّه مما تشهد العقول والفطر بحسنه وموافقته للمصالح؛ فأين يذهبون إن لم يتابعوك؟ فإنّهم ليس عندهم ما يُغنيهم ويكفيهم عن متابعتك؛ لأنّهم ﴿عن الصراط﴾: ناكبون، متجنبون، منحرفون عن الطريق الموصل إلى الله وإلى دار كرامته، ليس في أيديهم إلاّ ضلالاتٌ وجهالاتٌ، وهكذا كلٌّ من خالف الحقّ؛ لا بدّ أن يكون منحرفاً في جميع أمورهِ؛ قال تعالى: ﴿فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنّهم يتبعون أهواءهم ومن أضلّ ممن اتبع هواه بغير هدى من الله﴾.

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرِّ لَلْجُؤِ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْسِئُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿٧٥﴾ هذا بيانٌ لشدة تمردهم وعنادهم، وأنهم إذا أصابهم الضرُّ؛ دَعَوْا الله أن يكشف عنهم ليؤمنوا، أو ابتلاهم بذلك ليرجعوا إليه؛ أنّ الله إذا كشف الضرّ عنهم؛ ﴿لَجُؤا﴾؛ أي: استمروا ﴿في طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُون﴾؛ أي: يجولون في كفرهم حائرين مترددين؛ كما ذكر الله حالهم عند ركوب الفلك، وأنّهم يدعون<sup>(١)</sup> مخلصين له الدين، وينسّون ما يشركون به، فلما أنجاهم؛ إذا هم يَبْغُونَ في الأرض بالشرك وغيره.

﴿٧٦﴾ ﴿ولقد أخذناهم بالعذاب﴾: قال المفسرون: المرادُ بذلك الجوع الذي أصابهم سبع سنين، وأنّ الله ابتلاهم بذلك ليرجعوا إليه بالذلل والاستسلام، فلم

(١) في (ب): «يدعونه».

يَنْجَعُ فِيهِمْ، وَلَا نَجَّحَ مِنْهُمْ أَحَدٌ. ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ﴾؛ أي: خضعوا وذلُّوا، ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾: إليه ويفتقرون، بل مرَّ عليهم ذلك ثم زال كأنه لم يُصِبنهم، لم يزالوا في غيِّهم وكفرهم.

﴿٧٧﴾ ولكن وراءهم العذاب الذي لا يردُّ، وهو قوله: ﴿حتى إذا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾: كالقتل يومَ بدرٍ وغيره؛ ﴿إذا هم فيه مُبْلِسُونَ﴾: آيسون من كلِّ خيرٍ، قد حَصَرَهُم الشَّرُّ وأسبابُه؛ فليخَذَرُوا قبل نزول عذاب الله الشديد، الذي لا يردُّ؛ بخلاف مجرَّد العذاب؛ فإنَّه ربما أقلع عنهم؛ كالعقوبات الدنيويَّة التي يؤدِّب الله بها عباده؛ قال تعالى فيها: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾.

﴿٧٨﴾ يخبرُ تعالى بِمِنِّهِ على عباده الذَّاعي لهم إلى شكرِهِ والقيام بحقِّه، فقال: ﴿وهو الذي أنشأ لكم السمع﴾: لِتُذَكِّرُوا به المسموعاتِ فَتَنْتَفِعُوا في دينكم ودُنْيَاكم، ﴿والأبصار﴾: لِتُذَكِّرُوا بها المُبْصِرَاتِ فَتَنْتَفِعُوا بها<sup>(١)</sup> في مصالحكم، ﴿والأفئدة﴾؛ أي: العقول التي تدرِّكون بها الأشياءَ وتتميِّزون بها عن البهائم؛ فلو عدِمْتُم السمعَ والأبصارَ والعقولَ بأن كنتم صمًّا عمياً بكمأ؛ ماذا تكونُ حالكم؟ وماذا تفقدون من ضروريَّاتكم وكمالكم؟ أفلا تشكرون الذي منَّ عليكم بهذه النعم؛ فتقومون بتوحيدهِ وطاعته؟ ولكنكم قليلاً شكركم<sup>(٢)</sup> مع توالي النعم عليكم.

﴿٧٩﴾ ﴿وهو﴾: تعالى ﴿الذي ذرأكم في الأرض﴾؛ أي: بثَّكم في أقطارها وجهاتها، وسلَّطكم على استخراج مصالحها ومنافعها، وجعلها كافيةً لمعاشيكم ومساكنكم. ﴿وإليه تُحْشَرُونَ﴾: بعد موتكم فيجازيكم بما عملتم في الأرض من خيرٍ وشرٍّ، وتُحدِّث الأرضُ التي كنتم فيها بأخبارها.

﴿٨٠﴾ ﴿وهو﴾: تعالى وحده ﴿الذي يحيي ويميت﴾؛ أي: المتصرِّف في الحياة والموت هو الله وحده. ﴿وله اختلاف الليل والنهار﴾؛ أي: تعاقبهما وتناوبهما؛ فلو شاء أن يجعلَ النهارَ سرمداً، من إلهٍ غيرِ الله يأتكم بليل تسكنون

(١) في (ب): «فتنتفعون به».

(٢) كذا في (ب)، وفي (أ): «شكرهم».

فيه؟ ولو شاء أن يجعل الليل سرمداً من إله غير الله يأتكم بضياء أفلا تبصرون؟ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون. ولهذا قال هنا: ﴿أفلا تعقلون﴾؛ فتعرفون أن الذي وهب لكم من النعم السمع والأبصار والأفئدة، والذي نَشركم في الأرض وحده، والذي يحيي ويميت وحده، والذي يتصرف بالليل والنهار وحده؛ إن ذلك موجب لكم أن تُخلصوا له العبادة وحده لا شريك له، وتتركوا عبادة مَنْ لا ينفع ولا يضر ولا يتصرف بشيء، بل هو عاجز من كل وجه؛ فلو كان لكم عقل؛ لم تفعلوا ذلك.

﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذَا لَمَبَعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿٨١ - ٨٣﴾ أي: بل سلك هؤلاء المكذبون مسلك الأولين من المكذبين بالبعث، واستبعدوه غاية الاستبعاد، وقالوا: ﴿إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِنْآ لَمَبَعُوثُونَ﴾؛ أي: هذا لا يتصور ولا يدخل العقل بزعمهم. ﴿لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ﴾؛ أي: ما زلنا نعهد بأن البعث كائن نحن وآبائنا، ولم نره، ولم يأت بعد. ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: قصصهم وأسمارهم التي يتحدث بها وتلهي، وإلا؛ فليس لها حقيقة، وكذبوا قبحهم الله؛ فإن الله أراهم من آياته أكبر من البعث، ومثله: ﴿لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾، ﴿وَضَرَبَ لَنَا مِثْلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ...﴾. الآيات، ﴿وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت...﴾ الآيات.

﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْمَكْرَسِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْفِقُ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ مِنْ بَيْنِهِ مَلَكُوتٌ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُحْيِيهِ وَلَا يُمِيتُهُ وَإِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿٨٤ - ٨٥﴾ أي: قل لهؤلاء المكذبين بالبعث، العادلين بالله غيره؛ محتجاً عليهم بما أثبتوه وأقرؤا به من توحيد الربوبية وانفراد الله بها على ما أنكروه من توحيد الإلهية والعبادة، وبما أثبتوه من خلق المخلوقات العظيمة على ما أنكروه من إعادة الموتى الذي هو أسهل من ذلك: ﴿لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا﴾؛ أي: مَنْ هو الخالق للأرض وَمَنْ عليها من حيوان ونبات وجمادٍ وبحارٍ وأنهارٍ وجبال، المالك

لذلك، المدبّر له؛ فإنك إذا سألتهم<sup>(١)</sup> عن ذلك؛ لا بدّ أن يقولوا: الله وحده. فقل لهم إذا أقرؤا بذلك: ﴿أفلا تذكرون﴾؛ أي: أفلا ترجعون إلى ما ذكركم الله به مما هو معلومٌ عندكم مستقرٌّ في فطركم قد يُغييه الإعراضُ في بعض الأوقات، والحقيقة أنكم إن رجعتم إلى ذاكرتكم بمجرد التأمل؛ علمتم أن مالك ذلك هو المعبود وحده، وأن إلهية من هو مملوكٌ أبطل الباطل.

﴿٨٦ - ٨٧﴾ ثم انتقل إلى ما هو أعظم من ذلك، فقال: ﴿قل من ربّ السموات السبع﴾: وما فيها من النيرات والكواكب السيّارات والثوابت، ﴿وربّ العرش العظيم﴾: الذي هو أعلى المخلوقات وأوسعها وأعظمها؛ فمن الذي خلق ذلك ودبّره وصرّفه بأنواع التدبير؟ ﴿سيقولون لله﴾؛ أي: سيقرون بأنّ الله ربّ ذلك كله، قل لهم حين يقرؤون بذلك: ﴿أفلا تتقون﴾: عبادة المخلوقات العاجزة وتتقون الربّ العظيم كامل القدرة عظيم السلطان؟! وفي هذا من لطف الخطاب من قوله: ﴿أفلا تذكرون﴾، ﴿أفلا تتقون﴾؛ والوعظ بأداة العرض الجاذبة للقلوب ما لا يخفى.

﴿٨٨ - ٨٩﴾ ثم انتقل إلى إقرارهم بما هو أعمّ من ذلك كله، فقال: ﴿قل من بيده ملكوت كل شيء﴾؛ أي: ملك كل شيء من العالم العلويّ والعالم السفليّ، ما نبصره وما لا نبصره، والملكوت صيغةٌ مبالغة؛ بمعنى الملك. ﴿وهو يجزي﴾: عبادة من الشرّ ويدفع عنهم المكارة ويحفظهم مما يضرهم، ﴿ولا يجاز عليه﴾؛ أي: لا يقدر أحدٌ أن يجزي على الله ولا يدفع الشرّ الذي قدره الله، بل ولا يشفع أحدٌ عنده إلاّ بإذنه. ﴿سيقولون لله﴾؛ أي: سيقرون أنّ الله المالك لكل شيء، المجزي الذي لا يجاز عليه، ﴿قل﴾ لهم حين يقرؤون بذلك ملزماً لهم: ﴿فأنتي تسخرون﴾؛ أي: فأين تذهب عقولكم حيث عبدتم من علمتم أنّهم لا ملك لهم ولا قسطن من الملك، وأنهم عاجزون من جميع الوجوه، وتركتم الإخلاص للمالك العظيم القادر المدبّر لجميع الأمور؟ فالعقول التي دلّتكم على هذا لا تكون إلاّ مسحورة، وهي بلا شكّ قد سخّرها الشيطان بما زين لهم، وحسن لهم وقلّب الحقائق لهم فسخّر عقولهم، كما سخّرت السحرة أعين الناس.

﴿بَلْ آتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩١﴾ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلِيٍّ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ إِلَهٍ إِذَا

لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَمَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَلِيمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ .

﴿٩٠ - ٩٢﴾ يقول تعالى: بل أتينا هؤلاء المكذبين بالحق؛ المتضمن للصدق في الأخبار، العدل في الأمر والنهي؛ فما بالهم لا يعترفون به، وهو أحق أن يتبع، وليس عندهم ما يعوضهم عنه إلا الكذب والظلم؟! ولهذا قال: ﴿وإنهم لكاذبون. ما اتخذ الله من ولدٍ وما كان معه من إله﴾: كذب يُعرف بخبر الله وخبر رسوله، ويُعرف بالعقل الصحيح، ولهذا نبه تعالى على الدليل العقلي على امتناع إلهين فقال: ﴿إذاً﴾؛ أي: لو كان معه آلهة كما يقولون؛ ﴿لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾؛ أي: لانفرد كل واحدٍ من الإلهين بمخلوقاته واستقل بها، ولحرص على ممانعة الآخر ومغالبتها، ﴿ولعلا بعضهم على بعض﴾؛ فالغالب يكون<sup>(١)</sup> هو الإله؛ فمع التمانع<sup>(٢)</sup> لا يمكن وجود العالم ولا يتصور أن ينتظم هذا الانتظام المدهش للعقول، واعتبر ذلك بالشمس والقمر والكواكب الثابتة والسيارة؛ فإنها منذ خلقت وهي تجري على نظام واحدٍ وترتيب واحدٍ، كلها مسخرة بالقدرة، مدبرة بالحكمة لمصالح الخلق كلهم، ليست مقصورة على مصلحة أحدٍ دون أحدٍ، ولن ترى فيها خلافاً ولا تناقضاً ولا معارضةً في أدنى تصرف؛ فهل يتصور أن يكون ذلك تقدير إلهين ربين. ﴿سبحان الله عما يصفون﴾: قد نطقت بلسانٍ حالها، وأفهمت ببدیع أشكالها: أن المدبر لها إله واحد؛ كامل الأسماء والصفات، قد افتقرت إليه جميع المخلوقات في ربوبيته لها وفي إلهيته لها؛ فكما لا وجود لها ولا دوام إلا بربوبيته؛ كذلك لا صلاح لها ولا قوام إلا بعبادته وإفراده بالطاعة. ولهذا نبه على عظمة صفاته بأنموذج من ذلك، وهو علمه المحيط، فقال: ﴿عالم الغيب﴾؛ أي: الذي غاب عن أبصارنا وعلمنا من الواجبات والمستحيلات والممكنات ﴿والشهادة﴾: وهو ما نشاهد من ذلك. ﴿فتعالى﴾؛ أي: ارتفع وعظم ﴿عما يشركون﴾: به، ولا علم عندهم إلا ما علمه الله.

﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْرِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ .

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «أن يكون». والصواب ما أثبت.

(٢) كذا في (ب). في (أ): «فمن التمانع». والصواب ما أثبت.



﴿٩٣ - ٩٥﴾ لَمَّا أَقَامَ تَعَالَى عَلَى الْمَكْذِبِينَ أَدَلَّتْهُ الْعَظِيمَةُ، فَلَمْ يَلْتَفِتُوا لَهَا، وَلَمْ يُذْعِنُوا لَهَا؛ حَقٌّ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ، وَوُعِدُوا بِنَزْوِلِهِ، وَأَرشَدَ اللَّهُ رَسُولَهُ أَنْ يَقُولَ: ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ﴾؛ أَي: أَيَّ وَقْتٍ أَرَيْتَنِي عَذَابَهُمْ وَأَحْضَرْتَنِي ذَلِكَ، ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾؛ أَي: اعْصِمْنِي وَازْحَمْنِي مِمَّا ابْتَلَيْتَهُمْ بِهِ مِنَ الذُّنُوبِ الْمَوْجِبَةِ لِلنَّقَمِ، وَاحْمِنِي أَيْضاً مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي يَنْزِلُ بِهِمْ؛ لِأَنَّ الْعُقُوبَةَ الْعَامَّةَ تَعُمُّ عِنْدَ نَزْوِلِهَا الْعَاصِي وَغَيْرِهِ. قَالَ اللَّهُ فِي تَقْرِيْبِ عَذَابِهِمْ: ﴿وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لِقَادِرُونَ﴾: وَلَكِنْ إِنْ أَخْرَزَاهُ؛ فَلِحِكْمَةٍ، وَإِلَّا؛ فَقَدَرْتَنَا صَالِحَةً لِإِبْقَاعِهِ [فِيهِمْ].

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ (٩٦) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾.

﴿٩٦﴾ هَذَا مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِهَا، فَقَالَ: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾؛ أَي: إِذَا أَسَاءَ إِلَيْكَ أَعْدَاؤُكَ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ؛ فَلَا تَقَابِلْهُمْ بِالْإِسَاءَةِ؛ مَعَ أَنَّهُ يَجُوزُ مَعَاقِبَةُ الْمَسِيءِ بِمِثْلِ إِسَاءَتِهِ، وَلَكِنْ ادْفَعْ إِسَاءَتَهُمْ إِلَيْكَ بِالْإِحْسَانِ مِنْكَ إِلَيْهِمْ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ فَضْلٌ مِنْكَ عَلَى الْمَسِيءِ، وَمِنْ مَصَالِحِ ذَلِكَ أَنَّهُ تَخَفُ الْإِسَاءَةِ عِنْدَكَ فِي الْحَالِ وَفِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَأَنَّهُ أَدْعَى لِحُجْلِبِ الْمَسِيءِ إِلَى الْحَقِّ، وَأَقْرَبَ إِلَى نَدْمِهِ وَأَسْفِهِ وَرَجُوعِهِ بِالتَّوْبَةِ عَمَّا فَعَلَ، وَيُصِفُ<sup>(١)</sup> الْعَافِي بِصِفَةِ الْإِحْسَانِ، وَيَقْهَرُ بِذَلِكَ عَدُوَّهُ الشَّيْطَانَ، وَيَسْتَوْجِبُ الثَّوَابَ مِنَ الرَّبِّ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ. وَمَا يُلْقَاهَا﴾؛ أَي: مَا يُوَفِّقُ لِهَذَا الْخُلُقِ الْجَمِيلِ ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

وقوله: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾؛ أَي: بِمَا يَقُولُونَ مِنَ الْأَقْوَالِ الْمُتَضَمِّنَةِ لِلْكَفْرِ وَالتَّكْذِيبِ بِالْحَقِّ، قَدْ أَحَاطَ عَلْمُنَا بِذَلِكَ، وَقَدْ حَلِمْنَا عَنْهُمْ وَأَمَهَلْنَاهُمْ وَصَبَرْنَا عَلَيْهِمْ، وَالحَقُّ لَنَا، وَتَكْذِيبُهُمْ لَنَا؛ فَأَنْتَ يَا مُحَمَّدُ يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَصْبِرَ عَلَى مَا يَقُولُونَ، وَتَقَابِلْهُمْ بِالْإِحْسَانِ. هَذِهِ وَظِيفَةُ الْعَبْدِ فِي مَقَابَلَةِ الْمَسِيءِ مِنَ الْبَشَرِ.

﴿٩٧ - ٩٨﴾ وَأَمَّا الْمَسِيءُ مِنَ الشَّيَاطِينِ؛ فَإِنَّهُ لَا يُفِيدُ فِيهِ الْإِحْسَانَ، وَلَا يَدْعُو

(١) فِي (ب): «وَلِيُصِفُ».

حِزْبُهُ إِلَّا لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ؛ فالوظيفة في مقابلته أن يسترشد بما أرشد الله إليه رسوله، فقال: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ﴾؛ [أي: أعتصم بحولك وقوتك متبرئاً من حولي وقوتي]، ﴿مَنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ. وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾؛ أي: أعوذ بك من الشر الذي يصيبني بسبب مباشرتهم وهمزهم ومسهم، ومن الشر الذي بسبب حضورهم ووسوستهم، وهذه استعاذة من مادة الشر كله وأصله، ويدخل فيه الاستعاذة من جميع نزغات الشيطان ومن مسه ووسوسته؛ فإذا أعاد الله عبده من هذا الشر، وأجاب دعاءه؛ سَلِمَ مِنْ كُلِّ شَرٍّ، ووَفَّقَ لِكُلِّ خَيْرٍ.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا ﴿١٠٠﴾ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿٩٩ - ١٠٠﴾ يخبر تعالى عن حال مَنْ حَضَرَهُ الموت من المفرطين الظالمين: أنه يندم في تلك الحال إذا رأى ماله، وشاهد قُبْحَ أعماله، فيطلب الرجعة إلى الدنيا، لا للتمتع بلذاتها واقتطاف شهواتها، وإنما ذلك يقول: ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾: من العمل وفرطت في جنب الله. ﴿كَلَّا﴾؛ أي: لا رجعة له ولا إمهال، قد قضى الله أنهم إليها لا يُرْجَعُونَ، ﴿إِنَّهَا﴾؛ أي: مقالته التي تمتئ فيها الرجوع إلى الدنيا ﴿كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾؛ أي: مجرد قول باللسان، لا يفيد صاحبه إلا الحسرة والندم، وهو أيضاً غير صادق في ذلك؛ فإنه لو رُدَّ لَعَادَ لما نُهِيَ عنه. ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾؛ أي: من أمامهم وبين أيديهم برزخ، وهو الحاجز بين الشيتين؛ فهو هنا الحاجز بين الدنيا والآخرة، وفي هذا البرزخ يتنعم المطيعون، ويعذب العاصون من موتهم إلى يوم يبعثون؛ أي: فليعدوا له عُدَّتَهُ، وليأخذوا له أهْبَتَهُ.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ حَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارَ وَمَعَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَاتِي تُنَالِ عَلَيْهِمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا عِندُنَا مُذْنَبُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ أَخَشَوْا فِيهَا وَلَا تَكْفُمُونَ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا فَرِيقًا مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاعْتَفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِغْرًا حَتَّىٰ أَنسَوَكُمُ

ذَكَرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١٠١﴾ إِنِّي جَزَيْتَهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَٰكِرُونَ ﴿١٠٢﴾ قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِّ الْعَادِينَ ﴿١٠٤﴾ قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ .

﴿١٠١﴾ يخبر تعالى عن هول يوم القيامة، وما في ذلك [اليوم] من المزعجات والمقلقات، وأنه إذا نُفِخَ في الصور نفخة البعث، فحُشِرَ الناس أجمعون، لميقات يوم معلوم؛ أنه يُصِيبُهُم من الهول ما يُنْسِيهِم أنسابهم التي هي أقوى الأسباب، فغير الأنساب من باب أولى، وأنه لا يسأل أحدٌ أحداً عن حاله؛ لاشتغاله بنفسه؛ فلا يدري هل يَنجُو نِجَاةً لا شقاوةَ بعدها أو يشقى شقاوةً لا سعادةَ بعدها؛ قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّٰخَةُ. يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ. وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ. لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.

﴿١٠٢﴾ وفي القيامة مواضع يشتد كربها ويعظم وقعها؛ كالميزان الذي يُمَيِّزُ به أعمالُ العبد، ويُنظَرُ فيه بالعدل ما له وما عليه، وتبين فيه مثاقيل الدر من الخير والشر. ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾: بأن رَجَحَتْ حسناته على سيئاته؛ ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: لنجاتهم من النار، واستحقاقهم الجنة، وفوزهم بالثناء الجميل.

﴿١٠٣﴾ ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾: بأن رَجَحَتْ سيئاته على حسناته وأحاطت بها خطيئاته؛ ﴿فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾: كلُّ خسارةٍ غير هذه الخسارة؛ فإنها بالنسبة إليها سهلة، ولكن هذه خسارة صعبة؛ لا يُجَبَّرُ مُصَابِهَا، ولا يُسْتَدْرَكُ فَاثِتْهَا؛ خسارة أبدية وشقاوة سرمديّة، قد خسر نفسه الشريفة التي يتمكّن بها من السعادة الأبدية، ففوتها هذا النعيم المقيم في جوار الربّ الكريم. ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾: لا يخرجون منها أبد الآبدین، وهذا الوعيد إنما هو - كما ذكرنا - لمن أحاطت خطيئاته بحسناته، ولا يكون ذلك إلا كافرًا؛ فعلى هذا لا يُحَاسَبُ محاسبةً من توزنُ حسناته وسيئاته؛ فإنهم لا حسنات لهم، ولكن تعدّ أعمالهم وتُحصى، فيوقفون عليها، ويقرّرون بها، ويُخزّون بها.

وأما مَنْ مَعَهُ أصلُ الإيمان، ولكن عَظُمَتْ سيئاته، فرَجَحَتْ على حسناته؛ فإنه وإن دَخَلَ النار؛ لا يَخْلُدُ فيها كما دلّت على ذلك نصوص الكتاب والسنة.

﴿١٠٤﴾ ثم ذَكَرَ تعالى سوء مصير الكافرين، فقال: ﴿تَلَفُّحٌ وَجْوهُهُمُ النَّارُ﴾؛ أي: تغشاهم من جميع جوانبهم، حتى تصيب أعضاءهم الشريفة، ويتقطّع لهاها عن

وجوههم، ﴿وهم فيها كالِحُونَ﴾: قد عَبَسَتْ وجوههم وَقَلَصَتْ شفاههم، من شدة ما هم فيه، وعظيم ما يَلْقَوْنَهُ.

﴿١٠٥﴾ فيقال لهم توبيخاً ولوماً: ﴿ألم تكن آياتي تُتلى عليكم﴾: تُدْعَوْنَ بها لِتُؤْمِنُوا وتُعْرَضَ عليكم لِتَنْظُرُوا؛ ﴿فكنتم بها تكذبون﴾: ظلماً منكم وعناداً، وهي آياتٌ بيناتٌ، دالّاتٌ على الحقِّ والباطل، مبيّناتٌ للمحقِّ والمبطل؟!!

﴿١٠٦﴾ فحينئذٍ أقرؤا بظلمهم حيث لا ينفع الإقرار: ﴿قالوا ربّنا غلبت علينا شِقْوَتُنَا؛ أي: غلبت علينا الشقاوة الناشئة عن الظلم والإعراض عن الحقِّ والإقبال على ما يضرُّ وترك ما ينفعُ، ﴿وكنا قوماً ضالّين﴾: في عملهم، وإن كانوا يدرون أنّهم ظالمون؛ أي: فعلنا في الدنيا فعلَ التائبِ الضالِّ السفيفِ؛ كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿وقالوا لو كنا نسمعُ أو نعقلُ ما كنا في أصحابِ السّعيرِ﴾.

﴿١٠٧﴾ ﴿ربّنا أخرجنا منها فإنّ عذنا فإنّا ظالمون﴾: وهم كاذبون في وعدهم هذا؛ فإنّهم كما قال تعالى: ﴿لو ردّوا لعادوا لما نُهوا عنه﴾، ولم يُنقِ الله لهم حجّةً، بل قطع أعضارهم، وعمّرهم في الدنيا ما يتذكّر فيه من تذكّر<sup>(١)</sup>، ويرتدّع فيه المجرمُ.

﴿١٠٨﴾ فقال الله جواباً لسؤالهم: ﴿اخسؤوا فيها ولا تكلمون﴾: وهذا القول - نسألُه تعالى العافية - أعظمُ قول على الإطلاق يسمعه المجرمون في التخييبِ والتوبيخِ والذلِّ والخسارِ والتأييسِ من كلِّ خيرٍ والبُشرى بكلِّ شرٍّ، وهذا الكلام والغضب من الربِّ الرحيم أشدُّ عليهم، وأبلغُ في نكابتهم من عذاب الجحيمِ.

﴿١٠٩﴾ ثم ذكر الحال التي أوصلتهم إلى العذاب وقطعت عنهم الرحمة، فقال: ﴿إنّهُ كان فريقٌ من عبّادي يقولون ربّنا آمنا فأغفر لنا وازحمننا وأنّت خيرُ الراحمين﴾: فجمعوا بين الإيمانِ المقتضي لأعمالِهِ الصالحة، والدعاءِ لربِّهم بالمغفرةِ والرحمة، والتوسُّلِ إليه بربوبيّته ومُنّته عليهم بالإيمان، والإخبار بسعةِ رحمتهِ وعمومِ إحسانِهِ، وفي ضمّنيهِ ما يدلُّ على خضوعهم وخشوعهم وانكسارِهِم لربِّهم وخوفهم ورجائهم؛ فهؤلاءِ ساداتُ الناسِ وفضلاؤهم.

﴿١١٠﴾ ﴿فأتخذتموهم﴾: أيها الكفرةُ الأنذالُ ناقصو العقول والأحلام، ﴿سِخْرِيًّا﴾: تهزؤون بهم وتحتقرونهم حتى اشتغلتم بذكر السّفه، ﴿حتى أنسوكم

(١) في (ب): «المتذكّر».

ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١١﴾: وهذا الذي أوجب لهم نسيان الذكر اشتغالهم بالاستهزاء بهم؛ كما أن نسيانهم للذكر يحثهم على الاستهزاء؛ فكلُّ من الأمرين يمدُّ الآخر؛ فهل فوق هذه الجرأة جرأة؟!

﴿١١١﴾ ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾: على طاعتي وعلى أذاكم حتى وصلوا إليَّ ﴿أَنْتُمْ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾: بالنعيم المقيم والنَّجاة من الجحيم؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ...﴾ الآيات.

﴿١١٢ - ١١٤﴾ ﴿قَالَ﴾ لهم على وجه اللوم وأنهم سفهاء الأحلام حيث اكتسبوا في هذه المدَّة اليسيرة كلَّ شرٍّ أوصلهم إلى غضبه وعقوبته، ولم يكتسبوا ما اكتسبه المؤمنون من الخير<sup>(١)</sup> الذي يوصلهم إلى السعادة الدائمة ورضوان ربهم: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ. قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾: كلامهم هذا مبني على استقصارهم جدًّا لمدَّة مكثهم في الدنيا، وأفاد ذلك، لكنَّه لا يفيد مقداره ولا يعيئه؛ فلهاذا قالوا: ﴿فَاسْأَلِ الْعَادِينَ﴾؛ أي: الضابطين لعدده، وأمَّا هم؛ ففي شغل شاغل وعذاب مذهل عن معرفة عدده. فقال لهم: ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾: سواء عيَّنتم عدده أم لا، ﴿لَوْ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ ﴿١١٦﴾﴾.

﴿١١٥ - ١١٦﴾ أي: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ﴾ أيها الخلق، ﴿أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾؛ أي: سدى وباطلاً تأكلون وتشربون وتمرحون وتمتعون بلذات الدنيا وترككم لا نأمركم ولا ننهاكم<sup>(٢)</sup> ولا نثيبكم ونعاقبكم، ولهذا قال: ﴿وَأَنْكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾؟ لا يخطر هذا ببالكم. ﴿فتعالى الله﴾؛ أي: تعظّم وارتفع عن هذا الظن الباطل الذي يرجع إلى القدر في حكمته، ﴿الملك الحق لا إله إلا هو ربُّ العرش العظيم﴾: فكونه ملكاً للخلق كلهم حقاً في صدقه ووعدِهِ [و] وعيدِهِ مألوهاً معبوداً لما له من الكمال ربُّ العرش العظيم فما دونه من باب أولى يمنع أن يخلقكم عبثاً.

﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعِفِّرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّحِيمِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

(٢) في (ب): «وننهاكم».

(١) في (ب): «الخير».

﴿١١٧﴾ أي: ومن دعا مع الله آلهة غيره بلا بيّنة من أمره ولا برهانٍ على ذلك يدلُّ على<sup>(١)</sup> ما ذهب إليه، وهذا قيدٌ ملازمٌ؛ فكلُّ من دعا غير الله؛ فليس له برهانٌ على ذلك، بل دلت البراهينُ على بطلانِ ما ذهب إليه، فأعرض عنها ظلماً وعناداً؛ فهذا سيقدمُ على ربِّه فيجازيه بأعماله ولا ينيله من الفلاح شيئاً؛ لأنه كافر، ﴿إنه لا يفلح الكافرون﴾: فكفرهم منعهم من الفلاح.

﴿١١٨﴾ ﴿وقل﴾: داعياً لربِّك مخلصاً له الدين: ﴿رب اغفر﴾: لنا حتى تُنجينا من المكروه، وارحمنا لتوصلنا برحمتك إلى كلِّ خير. ﴿وأنت خيرُ الراحمين﴾: فكلُّ راحمٍ للعبيد؛ فالله خيرٌ له منه، أرحمٌ بعبده من الوالدة بولدها، وأرحمٌ به من نفسه.

تم تفسير سورة المؤمنين من فضله<sup>(٢)</sup> وإحسانه



## تفسير سورة النور

وهي مدينة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آياتٍ بينتٍ لعلَّكم تذكرون﴾ ﴿١﴾.

﴿١﴾ أي: هذه ﴿سورة﴾ عظيمةُ القدرِ، ﴿أنزلناها﴾: رحمةً منا بالعباد، وحفظناها من كلِّ شيطان، ﴿وفرضناها﴾؛ أي: قدرنا فيها ما قدرنا من الحدود والشهادات وغيرها، ﴿وأنزلنا فيها آياتٍ بيناتٍ﴾؛ أي: أحكاماً جليلاً وأوامر وزواجر وحكماً عظيمة؛ ﴿لعلَّكم تذكرون﴾: حين نبين لكم، ونُعَلِّمكم ما لم تكونوا تعلمون.

ثم شرع في بيان تلك الأحكام المشار إليها، فقال:

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢﴾.

﴿٢﴾ هذا الحكم في الزاني والزانية البكرين: أنهما يُجلد كلُّ منهما مائة جلدة،

(١) في (ب): «ولا برهان يدل على». (٢) في (ب): «فضل الله».

وأما الثيب؛ فقد دلت السنة الصحيحة المشهورة أن حدَّه الرجم<sup>(١)</sup>.

ونهانا تعالى أن تأخذنا رافةً بهما<sup>(٢)</sup> في دين الله تمنعنا من إقامة الحدِّ عليهما، سواء رافةً طبيعياً، أو لأجل قرابة أو صداقة أو غير ذلك، وأن الإيمان موجبٌ لانتفاء هذه الرافة المانعة من إقامة أمرِ الله؛ فرحمته حقيقةً بإقامة الحدِّ<sup>(٣)</sup> عليه، فنحن وإن رَجِمْنَا لِجَرِيَانِ الْقَدْرِ عَلَيْهِ؛ فَلَا نَرْحَمُهُ مِنْ هَذَا الْجَانِبِ.

وأمرَ تعالى أن يَحْضُرَ عَذَابَ الزَّانِيَيْنِ ﴿طَائِفَةٌ﴾؛ أي: جماعة من المؤمنين؛ ليشتهر ويحصل بذلك الخزي والارتداع، وليشاهدوا الحدَّ فعلاً؛ فإنَّ مشاهدة أحكام الشرع بالفعل مما يَفْقَى به العلم، ويستقرُّ بها الفهم، ويكونُ أقربَ لإصابة الصواب؛ فلا يَزَادُ فِيهِ وَلَا يَنْقُصُ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿٣﴾ هذا بيان لرذيلة الزنا، وأنه يدنس عرض صاحبه وعرض من قارنَه ومازجَه ما لا يفعله بقيَّةُ الذنوب، فأخبر أن الزاني لا يُقَدِّمُ على نكاحه من النساء إلا أنثى زانيةً تناسب حاله حالها، أو مشركةً بالله لا تؤمن ببعثٍ ولا جزاء، ولا تلتزم أمر الله.

والزانيةُ كذلك لا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ.

﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: حرم عليهم أن يُنكِحُوا زَانِيًا أَوْ يَنْكِحُوا زَانِيَةً. ومعنى الآية أن مَنْ اتَّصَفَ بِالزَّنَا مِنْ رَجُلٍ أَوْ امْرَأَةٍ، وَلَمْ يَثْبُتْ مِنْ ذَلِكَ؛ أَنْ الْمُقَدِّمَ عَلَى نِكَاحِهِ مَعَ تَحْرِيمِ اللَّهِ لِذَلِكَ لَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ لَا يَكُونُ مُلتَزمًا لِحُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ؛ فَذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا مُشْرِكًا، وَإِمَّا أَنْ يَكُونُ مُلتَزمًا لِحُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَاقْدَمَ عَلَى نِكَاحِهِ، مَعَ عِلْمِهِ بِزَنَاهُ؛ فَإِنَّ هَذَا النِّكَاحَ زَانًا، وَالنَّاكِحَ زَانٍ مُسَافِحٌ؛ فَلَوْ كَانَ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ حَقًّا؛ لَمْ يُقَدِّمِ عَلَى ذَلِكَ.

وهذا دليلٌ صريحٌ على تحريم نكاح الزانية حتى تتوب، وكذلك نكاح الزاني حتى يتوب؛ فإنَّ مقارنة الزوج لزوجته والزوجة لزوجها أشدُّ الاقترانان

(١) كما في «صحيح البخاري» (٦٨١٤)، ومسلم (١٦٩٢).

(٢) في (ب): «رافةً في».

(٣) في (ب): «حد الله».

والازدواجات، وقد قال تعالى: ﴿احشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾؛ أي: قرناءهم، فحرّم الله ذلك لما فيه من الشرّ العظيم، وفيه من قِلَّةِ الغَيْرَةِ وإلحاق الأولاد الذين ليسوا من الزوج، وكون الزاني لا يعفها بسبب اشتغاله بغيرها؛ مما بعثه كافٍ في التحريم<sup>(١)</sup>.

وفي هذا دليلٌ أنّ الزاني ليس مؤمناً كما قال النبي ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»<sup>(٢)</sup>؛ فهو وإن لم يكن مشركاً، فلا يُطلقُ عليه اسم المدح الذي هو الإيمان المطلق.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ .

﴿٤﴾ لما عظمّ تعالى أمر الزنا<sup>(٣)</sup> بوجوب جلده وكذا رَجْمِهِ إن كان محصناً، وأنه لا تجوز مقارنته ولا مخالطته على وجه لا يسلم فيه العبد من الشر؛ بين تعالى تعظيم الإقدام على الأعراض بالرمي بالزنا، فقال: ﴿والذين يرمون المحصنات﴾؛ أي: النساء الأحرار العفائف، وكذلك الرجال، لا فرق بين الأمرين، والمراد بالرمي الرمي بالزنا؛ بدليل السياق. ﴿ثم لم يأتوا﴾: على ما رموا به ﴿بأربعة شهداء﴾؛ أي: رجال عدول يشهدون بذلك صريحاً ﴿فاجلدوهم ثمانين جلدَةً﴾: بسوطٍ متوسطٍ يؤلّم فيه، ولا يبالغُ بذلك حتى يتلفه؛ لأن القصد التأديب لا الإتلاف.

وفي هذا تقريرُ حدِّ القذف، ولكن بشرط أن يكون المقدوف كما قال تعالى محصناً مؤمناً، وأما قذف غير المحصن؛ فإنه يوجبُ التعزير، ﴿ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً﴾؛ أي: لهم عقوبة أخرى، وهو أنّ شهادة القاذف غير مقبولة، ولو حدّ على القذف، حتى يتوب؛ كما يأتي. ﴿وأولئك هم الفاسقون﴾؛ أي: الخارجون عن طاعة الله، الذين قد كثُر شرُّهم، وذلك لانتهاك ما حرّم الله، وانتهاك عِزِّ أخيه، وتسليط الناس على الكلام بما تكلم به، وإزالة الأخوة التي عقدها الله بين أهل الإيمان، ومحبة أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا. وهذا دليلٌ على أن القذف من كبائر الذنوب.

(١) في (ب): «كافٍ للتحريم».

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) كذا في (ب)، وفي (أ) يوجد بياض على الكلمة. ولعل الصواب الزاني، والله أعلم.



﴿٥﴾ وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: فالتوبة في هذا الموضع أن يُكَذِّبَ القاذِفُ نفسه، ويقرُّ أَنَّهُ كاذِبٌ فيما قال، وهو واجبٌ عليه أن يُكَذِّبَ نفسه، ولو تيقَّن وقوعه؛ حيث لم يأت بأربعة شهداء؛ فإذا تاب القاذِفُ وأصلح عَمَلَهُ وبَدَّلَ<sup>(١)</sup> إِسَاءَتَهُ إِحْسَانًا؛ زال عنه الفسوقُ، وكذلك تُقبل شهادته على الصحيح؛ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا لِمَنْ تَابَ وَأَنَابَ. وَإِنَّمَا يُجَلِّدُ القاذِفَ إِذَا لَمْ يَأْتِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ إِذَا لَمْ يَكُنْ زَوْجًا؛ فَإِن كَانَ زَوْجًا؛ فَقَدْ ذُكِرَ بِقَوْلِهِ:

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِذَا كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

وإنما كانت شهادتُ الزوج على زوجته دارئة عنه الحد؛ لأنَّ الغالب أنَّ الزوج لا يُقَدِّمُ على رمي زوجته التي يدنسُه ما يدنسُها إلا إذا كان صادقًا، ولأنَّ له في ذلك حقًا، وخوفًا من إلحاق أولادٍ ليسوا منه به، ولغير ذلك من الحكم المفقودة في غيره، فقال:

﴿٦ - ٧﴾ ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾؛ أي: الأحرار لا المملوكات ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ﴾: على رَمِيهِمْ بِذَلِكَ ﴿شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ﴾: بأن لم يُقيموا شهداء على ما رموهم به، ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾: سماها شهادة لأنها نائبة مناب الشهود؛ بأن يقول: أشهد بالله أنني لمن الصادقين فيما رميتها به. ﴿وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾؛ أي: يزيد في الخامسة مع الشهادة المذكورة مؤكِّدًا تلك الشهادات بأن يدعُو على نفسه باللعنة إن كان كاذبًا؛ فإذا تَمَّ لعانته؛ سقط عنه حدُّ القذف.

وظاهرُ الآياتِ ولو سَمَّى الرَّجُلَ الذي رماها به؛ فَإِنَّهُ يَسْقُطُ حَقُّهُ تَبَعًا لَهَا. وهل يُقام عليها الحدُّ بمجرد لعان الرجل ونكولها أم تُحبس؟ فيه قولان للعلماء، الذي يدلُّ عليه الدليل أنه يُقام عليها الحدُّ؛ بدليل قوله: ﴿ويدرؤوا عنها العذاب أن

(١) في (ب): «بَدَّلَ».

تَشْهَدُ... ﴿ إلى آخره؛ فلولا أن العذاب - وهو الحد - قد وَجَبَ بِلَعَانِهِ؛ لم يكن لعانها دارثاً له .

﴿٨ - ٩﴾ ﴿ويدروا عنها﴾؛ أي: يدفع عنها العذاب إذا قابلت شهادات الزوج بشهادات من جنسها؛ ﴿أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾، وتزید فی الخامسة مؤكدةً لذلك أن تدعو على نفسها بالغضب، فإذا تمَّ اللعان بينهما؛ فُرِّقَ بينهما [إلى] الأبد، وانتفى الولد الملاعن عنه .

وظاهر الآيات يدلُّ على اشتراط هذه الألفاظ عند اللعان منه ومنها، واشتراط الترتيب فيها، وأن لا يُنْقَضَ منها شيءٌ ولا يبدل شيءٌ بشيء، وأن اللعان مختصٌّ بالزوج إذا رمى امرأته، لا بالعكس، وأن الشبه في الولد مع اللعان لا عبرة به؛ كما لا يعتبر مع الفراش، وإنما يعتبر الشبه حيث لا مرجح إلا هو .

﴿١٠﴾ ﴿ولولا فضلُ الله عليكم ورحمته وأنَّ الله تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾: وجواب الشرط محذوفٌ يدلُّ عليه سياق الكلام؛ أي: لأحلَّ بأحد المتلاعنين الكاذب منهما ما دعا به على نفسه، ومن رحمته وفضله ثبوتُ هذا الحكم الخاصِّ بالزوجين؛ لشدة الحاجة إليه، وأن بيِّنَ لكم شدة الزنا وفضاعته وفضاعة القذف به، وأن شرَّعَ التوبة من هذه الكبائر وغيرها .

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا نَحْسَبُهُمْ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ<sup>(١)</sup> لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ<sup>(١١)</sup> وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ<sup>(١٢)</sup> لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شَهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ<sup>(١٣)</sup> وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ<sup>(١٤)</sup> إِذْ تَلَقَّوهُ بِالْسَبِّ وَالْقَوْلِ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ<sup>(١٥)</sup> وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ<sup>(١٦)</sup> يُعْظَمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ<sup>(١٧)</sup> وَيَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ<sup>(١٨)</sup> إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ<sup>(١٩)</sup> وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ

(١) في النسختين إلى آخر الآيات وهو قوله: ﴿لهم مغفرة ورزق كريم﴾ .

عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴿٢٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ  
 وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ  
 مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴿٢٦﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةَ  
 أَن يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ  
 لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴿٢٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاطِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا  
 وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴿٢٨﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَسِنَّتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴿٢٩﴾  
 يَوْمَئِذٍ يُؤْفِكُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ ﴿٣٥﴾ لَقَبَيْتُ لِّلْحَيِّثِينَ وَالْحَيِّثُونَ  
 لِّلْحَيِّثَاتِ وَالطَّيِّبَاتِ لِّلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِّلطَّيِّبَاتِ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ  
 كَرِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴿٣٦﴾ .

لما ذكر فيما تقدم تعظيم الرمي بالزنا عموماً؛ صار ذلك كأنه مقدمة لهذه القصة التي وقعت على أشرف النساء أم المؤمنين رضي الله عنها، وهذه الآيات نزلت في قصة الإفك المشهورة الثابتة في الصحاح والسُنن والمساند<sup>(١)</sup>، وحاصلها أن النبي ﷺ في بعض غزواته ومعه زوجته عائشة الصديقة بنت الصديق، فانقطع عَقْدُهَا، فأنحسبت في طلبه، وَرَحَلُوا جَمَلَهَا وَهُوَ دَجَّهَا فلم يَفْقِدوها، ثم استقل الجيش راحلاً، وجاءت مكانهم، وعلمت أنهم إذا فقدوها؛ رجعوا إليها، فاستمروا في مسيرهم، وكان صفوان بن المعطل السلمي من أفاضل الصحابة رضي الله عنه، قد عرس في أخريات القوم ونام، فرأى عائشة رضي الله عنها، فعرفها، فأناخ راحلته، فركبته من دون أن يكلمها أو تكلمه، ثم جاء يقودُ بها بعدما نزل الجيش في الظهيرة، فلما رأى بعض المنافقين الذين في صحبة النبي ﷺ في ذلك السفر مجيء صفوان بها في هذه الحال؛ أشاع ما أشاع، ووشي الحديث، وتلقفته الألسن، حتى اغترَّ بذلك بعض المؤمنين، وصاروا يتناقلون هذا الكلام، وانحسب الوحي مدةً طويلةً عن رسول الله ﷺ، وبلغ الخبرُ عائشة بعد ذلك بمدة، فحزنت حزناً شديداً؛ فأنزل الله براءتها في هذه الآيات، ووعظ الله المؤمنين وأعظم ذلك، ووصاهم بالوصايا النافعة.

(١) قصة الإفك: أخرجها البخاري (٤٧٥٠ و ٤٧٥٧)، ومسلم (٢٧٧٠)، وأحمد (١٩٤/٦)، وانظر «تفسير ابن كثير» (٢٣/٦).

﴿١١﴾ فقله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ﴾؛ أي: الكذب الشنيع، وهو رمي أم المؤمنين، ﴿عصبة منكم﴾؛ أي: جماعة منتسبون إليكم يا معشر المؤمنين، منهم المؤمن الصادق في إيمانه، لكنه اغترّ بترويح المنافقين، ومنهم المنافق. ﴿لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم﴾: لما تضمن ذلك تبرئة أم المؤمنين ونزاهتها والتنويه بذكرها، حتى تناول عموم المدح سائر زوجات النبي ﷺ، ولما تضمن من بيان الآيات المضطّر إليها العباد، التي ما زال العمل بها إلى يوم القيامة؛ فكل هذا خير عظيم، لولا مقالة أهل الإفك، لم يحصل بذلك<sup>(١)</sup>، وإذا أراد الله أمراً؛ جعل له سبباً، ولذلك جعل الخطاب عاماً مع المؤمنين كلهم، وأخبر أن قدح بعضهم ببعض كقدح في أنفسهم؛ ففيه أن المؤمنين في توأدهم وتراحمهم وتعاطفهم واجتماعهم على مصالحهم كالجسد الواحد، والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً؛ فكما أنه يكره أن يقدح أحد في عرضه؛ فليكره من كل أحد أن يقدح في أخيه المؤمن الذي بمنزلة نفسه، وما لم يصل العبد إلى هذه الحالة؛ فإنه من نقص إيمانه وعدم نصحته. ﴿لكل امرئٍ منكم ما اكتسب من الإثم﴾: وهذا وعيد للذين جاؤوا بالإفك، وأنهم سيعاقبون على ما قالوا من ذلك، وقد حدّ النبي ﷺ منهم جماعة، ﴿والذي تولى كبره﴾؛ أي: معظم الإفك، وهو المنافق الخبيث عبد الله بن أبي بن سلول لعنه الله. ﴿له عذاب عظيم﴾: ألا وهو الخلود في الدرك الأسفل من النار.

﴿١٢﴾ ثم أرشد الله عباده عند سماع مثل هذا الكلام، فقال: ﴿لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً﴾؛ أي: ظن المؤمنون بعضهم ببعض خيراً، وهو السلامة مما رُموا به، وأن ما معهم من الإيمان المعلوم يدفع ما قيل فيهم من الإفك الباطل. ﴿وقالوا﴾ بسبب ذلك الظن: ﴿سبحانك﴾؛ أي: تنزيهاً لك من كل سوء، وعن أن تبتلني أصفياءك بالأمور الشنيعة. ﴿هذا إفك مبين﴾؛ أي: كذب وبهت من أعظم الأشياء وأبينها؛ فهذا من الظن الواجب حين سماع المؤمن عن أخيه المؤمن مثل هذا الكلام، وأن يبرئه بلسانه، ويكذب القائل لذلك.

﴿١٣﴾ ﴿لولا جاؤوا عليه بأربعة شهداء﴾؛ أي: هلاً جاء الرامون على ما رَمَوْا به بأربعة شهداء؛ أي: عدول مرضيين، ﴿فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم

(١) في (ب): «ذلك».

الكاذبون ﴿١٤﴾: وإن كانوا في أنفسهم قد تيقنوا ذلك؛ فإنهم كاذبون في حكم الله؛ لأنه حرّم عليهم التكلم بذلك من دون أربعة شهود، ولهذا قال: ﴿فأولئك عند الله هم الكاذبون﴾: ولم يقل: فأولئك هم الكاذبون، وهذا كله من تعظيم حرمة عَرْضِ المسلم؛ بحيث لا يجوز الإقدام على رميه من دون نصاب الشهادة بالصدق.

﴿١٤﴾ ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة﴾: بحيث شملكم إحسانه فيهما في أمر دينكم ودنياكم ﴿لَمَسَّكُمْ فيما أَفْضَيْتُمْ﴾؛ أي: خضتم ﴿فيه﴾: من شأن الإفك ﴿عذابٌ عظيمٌ﴾: لاستحقاقكم ذلك بما قلتم، ولكن من فضل الله عليكم ورحمته أن شرّع لكم التوبة، وجعل العقوبة مطهرة للذنوب.

﴿١٥﴾ ﴿إِذ تَلَقَّوْنَهُ بِالسِّتْرِ﴾؛ أي: تلقفونه ويلقيه بعضكم إلى بعض وتستوشون حديثه وهو قول باطل. ﴿وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم﴾: والأمران محظوران؛ التكلم بالباطل، والقول بلا علم. ﴿وتحسبونه هيناً﴾: فلذلك أقدم عليه من أقدم من المؤمنين الذين تابوا منه. وتطهروا بعد ذلك. ﴿وهو عند الله عظيمٌ﴾: وهذا فيه الزجر البليغ عن تعاطي بعض الذنوب على وجه التهاون بها؛ فإن العبد لا يفيد حسابته شيئاً، ولا يخفف من عقوبته الذنب، بل يضاعف الذنب، ويسهل عليه مواعته مرة أخرى.

﴿١٦﴾ ﴿ولولا إذ سمعتموه﴾؛ أي: وهلاً إذ سمعتم أيها المؤمنون كلام أهل الإفك، ﴿قلتم﴾: منكرين لذلك معظمين لأمره: ﴿ما يكون لنا أن نتكلم بهذا﴾؛ أي: ما ينبغي لنا وما يليق بنا الكلام بهذا الإفك الميين؛ لأن المؤمن يمنعه إيمانه من ارتكاب القبائح. ﴿هذا بهتانٌ﴾؛ أي: كذب عظيم.

﴿١٧﴾ ﴿يعظّمكم الله أن تعودوا لمثله﴾؛ أي: لنظيره من رمي المؤمنين بالفجور؛ فالله يعظّمكم وينصّحكم عن ذلك، ونعم المواعظ والنصائح من ربنا؛ فيجب علينا مقابلتها بالقبول والإذعان والتسليم والشكر له على ما بين لنا، أن الله نِعماً يعظّمكم به. ﴿إن كنتم مؤمنين﴾: دل ذلك على أن الإيمان الصادق يمنع صاحبه من الإقدام على المحرمات.

﴿١٨﴾ ﴿ويبين الله لكم الآيات﴾: المشتمة على بيان الأحكام والوعظ والزجر والترغيب والترهيب، يوضّحها لكم توضيحاً جلياً. ﴿والله عليم حكيم﴾<sup>(١)</sup>؛ أي:

(١) زيادة من هامش (أ) بخط مغاير.

كامل العلم، عامُ الحكمة؛ فمن علمه وحكمته أن علمكم من علمه، وإن كان ذلك راجعاً لمصالحكم في كل وقت.

﴿١٩﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ﴾؛ أي: الأمور الشنيعة المستقبحة، فيحبون أن تشتهر الفاحشة ﴿في الذين آمنوا لهم عذابٌ أليمٌ﴾؛ أي: موجع للقلب والبدن، وذلك لغشّه لإخوانه المسلمين، ومحبة الشرِّ لهم، وجراءته على أعراضهم؛ فإذا كان هذا الوعيد لمجرد محبة أن تشيع الفاحشة واستحلاء ذلك بالقلب؛ فكيف بما هو أعظم من ذلك من إظهاره ونقله؟ وسواء كانت الفاحشة صادرةً أو غير صادرة، وكل هذا من رحمة الله لعباده المؤمنين، وصيانة أعراضهم؛ كما صان دماءهم وأموالهم، وأمرهم بما يقتضي المصافاة، وأن يحبَّ أحدهم لأخيه ما يحبُّ لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه. ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾: فلذلك علمكم، ويبيِّن لكم ما تجهلونّه.

﴿٢٠﴾ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: قد أحاط بكم من كلِّ جانب ﴿ورحمته﴾ عليكم، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ رَعُوفٌ رَحِيمٌ﴾: لما بيَّن لكم هذه الأحكام والمواعظ والحكم الجليّة، ولما أمهل من خالف أمره، ولكنَّ فضله ورحمته، وأنَّ ذلك وصفه اللازم أثر لكم من الخير الدنيوي والأخروي ما لن تحصوه أو تعدّوه.

﴿٢١﴾ ولما نهى عن هذا الذنب بخصوصه؛ نهى عن الذنوب عموماً، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾؛ أي: طرقه ووساوسه. وخطوات الشيطان يدخل فيها سائر المعاصي المتعلقة بالقلب واللسان والبدن.

ومن حكمته تعالى أن بيَّن الحكم - وهو النهي عن اتباع خطوات الشيطان - والحكمة - وهو بيان ما في المنهي عنه من الشرِّ المقتضي والداعي لتركه -، فقال: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ﴾؛ أي: الشيطان ﴿يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾؛ أي: ما تستفحشه العقول والشرائع من الذنوب العظيمة مع ميل بعض النفوس إليه، ﴿وَالْمُنْكَرِ﴾: وهو ما تُنكره العقول ولا تعرفه؛ فالمعاصي التي هي خطوات الشيطان لا تخرُج عن ذلك، فنهى الله عنها العباد نعمةً منه عليهم أن يشكروه ويذكروه؛ لأنَّ ذلك صيانة لهم عن التدنُّس بالردائل والقبائح؛ فمن إحسانه عليهم أن نهاهم عنها كما نهاهم عن أكل السموم القاتلة ونحوها. ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾؛ أي: ما تطهَّر من اتباع خطوات الشيطان؛ لأنَّ الشيطان يسعى هو وجنّده في الدعوة إليها وتحسينها، والنفس ميالة إلى السوء أمانة

به، والنقصُ مستولٍ على العبدِ من جميع جهاتِهِ، والإيمانُ غير قوِيٍّ؛ فلو خُلِّيَ وهذه الدواعي؛ ما زكى أحدٌ بالتطهّرِ من الذُّنوبِ والسيئاتِ والنماءِ بفعلِ الحسناتِ؛ فإنَّ الزكاءَ يتضمَّنُ الطهارةَ والنماءَ، ولكنَّ فضلَهُ ورحمتهُ أوجباً أن يتزكَّى منكم من تزكَّى، وكان من دعاءِ النبي ﷺ: «اللهمَّ! آتِ نفسي تقواها، وزكِّها أنتَ خيرٌ من زكَّاها، أنتَ وليُّها ومولاها»<sup>(١)</sup>. ولهذا قال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَزْكِي مَنْ يَشَاءُ﴾: من يعلمُ منه أن يتزكَّى<sup>(٢)</sup> بالتزكية، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿٢٢﴾ ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾؛ أي: لا يحلف ﴿أولو الفضل منكم والسَّعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكينَ والمهاجرينَ في سبيلِ اللَّهِ وَلْيَغْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾: كان من جملة الخائضينَ في الإفكِ مسطحِ بنِ أئانَةَ، وهو قريبٌ لأبي بكرِ الصديقِ رضي اللهُ عنه، وكان مسطحٌ فقيراً من المهاجرينِ في سبيلِ اللَّهِ، فحلفَ أبو بكرٍ أن لا يُنْفِقَ عليه؛ لقولِهِ الذي قال، فنزلتْ هذه الآيةُ [ينهاه]<sup>(٣)</sup> عن هذا الحلفِ المتضمَّنِ لقطعِ النفقةِ عنه، ويحثُّه على العفوِ والصفحِ، ويَعِدُّه بمغفرةِ اللَّهِ إنْ غَفَرَ له، فقال: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: إذا عامَلْتُم عبيدَهُ بالعفوِ والصفحِ؛ عاملكم بذلك، فقال أبو بكرٍ لما سمعَ هذه الآيةَ: بلى والله؛ إني لأحبُّ أن يغفَرَ اللهُ لي، فَرَجَعَ النفقةَ إلى مسطحٍ.

وفي هذه الآيةِ دليلٌ على النفقةِ على القريبِ، وأنه لا تُتركُ النفقةُ والإحسانُ بمعصيةِ الإنسانِ، والحثُّ على العفوِ والصفحِ ولو جرى منه ما جرى من أهلِ الجرائمِ.

﴿٢٣﴾ ثم ذكر الوعيدَ الشديدَ على رميِ المحصناتِ، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾؛ أي: العفافِ عن الفجورِ ﴿الغافلاتِ﴾: اللاتي<sup>(٤)</sup> لم يَخْطُرْ ذَلِكَ بقلوبهنَّ، ﴿المؤمناتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾: واللعنةُ لا تكونُ إلا على ذنبِ كبيرٍ، وأكَّد اللعنةَ بأنها متواصلةٌ عليهم في الدارينِ. ﴿ولهم عذابٌ عظيمٌ﴾: وهذا زيادةٌ على اللعنةِ، أبعدهم عن رحمتهِ وأحلَّ بهم شدةَ نِقْمَتِهِ، وذلك العذابُ يومِ القيامةِ.

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢٢) من حديث زيد بن أرقم.

(٢) في (ب): «يزكي».

(٣) كذا في (ب). وفي (أ): «ينهاهم».

(٤) في (ب): «التي».

﴿٢٤﴾ ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: فكلُّ جارحةٍ تشهدُ عليه بما عمَلته، يُنطِقُها الذي أنطق كلَّ شيءٍ؛ فلا يمكنه الإنكار، ولقد عدل في العباد من جعلَ شهودهم من أنفسهم.

﴿٢٥﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾؛ أي: جزاءهم على أعمالهم الجزاء الحق الذي بالعدل والقسط؛ يجدون جزاءها موثقاً لم يفقدوا منها شيئاً، ﴿وقالوا يا وَيَلَّتْنَا مالِ هذا الكتابِ لا يغازرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلمُ ربُّك أحداً﴾، ﴿ويعلمون﴾ في ذلك الموقف العظيم ﴿أنَّ اللهَ هو الحقُّ المبينُ﴾، فيعلمون انحصار الحق المبين في الله تعالى؛ فأوصافه العظيمة حقٌّ، وأفعاله هي الحقُّ، وعبادته هي الحقُّ، ولقاؤه حقٌّ، [ووعده] ووعيدُه حقٌّ، وحكمه الدينيُّ والجزائيُّ حقٌّ، ورسله حقٌّ؛ فلا ثمَّ حقٌّ إلا في الله، وما من الله.

﴿٢٦﴾ ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾؛ أي: كلُّ خبيثٍ من الرجال والنساء والكلمات والأفعال مناسبٌ للخبيث وموافقٌ له ومقتربٌ به ومشاكلٌ له، وكلُّ طيبٍ من الرجال والنساء والكلمات والأفعال مناسبٌ للطيب وموافقٌ له ومقتربٌ به ومشاكلٌ له؛ فهذه كلمةٌ عامةٌ وحصرٌ لا يخرجُ منه شيءٌ، من أعظم مفرداته أنَّ الأنبياء، خصوصاً أولي العزم منهم، خصوصاً سيدهم محمد ﷺ، الذي هو أفضلُ الطيبين من الخلق على الإطلاق، لا يناسبهم إلا كلُّ طيبٍ من النساء؛ فالقدح في عائشة رضي الله عنها بهذا الأمر قدحٌ في النبي ﷺ، وهو المقصودُ بهذا الإفك من قصد المنافقين؛ فمجردُ كونها زوجةً للرسول ﷺ يعلمُ أنَّها لا تكون إلا طيبةً طاهرةً من هذا الأمر القبيح؛ فكيف وهي ما هي<sup>(١)</sup> صديقةُ النساء وأفضلهن وأعلمهن وأطيبهن حبيبةُ رسول ربِّ العالمين التي لم ينزل الوحيُّ عليه وهو في لحافِ زوجةٍ من زوجاته غيرها<sup>(٢)</sup>!؟

ثم صرَّح بذلك بحيث لا يبقى لمبطل مقالاً، ولا لشكٍّ وشبهةٍ مجالاً، فقال: ﴿أولئك مبرؤون مما يقولون﴾: والإشارةُ إلى عائشة رضي الله عنها أصلاً، وللمؤمنات المحصنات الغافلات تبعاً لها. ﴿مغفرة﴾: تستغرق الذنوب. ﴿ورزق كريم﴾: في الجنة صادرٌ من الربِّ الكريم.

(١) في (ب): «وهي هي».

(٢) أخرجه البخاري (٢٥٨١)، ومسلم (٢٤٤٢) عن عائشة رضي الله عنها.



﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تُذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ .

﴿٢٧﴾ يُرشد الباري عباده المؤمنين أن لا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم بغير استئذان؛ فَإِنَّ فِي ذَٰلِكَ عِدَّةٌ مَّفَاسِدَ:

منها: ما ذكره الرسول ﷺ: حيث قال: «إِنَّمَا جُعِلَ الاستئذانُ من أجلِ البصرِ»<sup>(١)</sup>؛ فبسبب الإخلال به يقع البصر على العورات التي داخل البيوت؛ فَإِنَّ البيت للإنسان في ستر عورة ما وراءه بمنزلة الثوب في ستر عورة جسده.

ومنها: أَنَّ ذَٰلِكَ يوجب الرِّيبَةَ من الداخل، ويتَّهم بالشرِّ سرقةً أو غيرها؛ لأنَّ الدُّخول خفيةٌ يدلُّ على الشرِّ، ومنع الله المؤمنين من دخول غير بيوتهم ﴿حتى تَسْتَأْذِنُوا﴾<sup>(٢)</sup>؛ أي: تستأذِنوا، سمي الاستئذان استئناساً؛ لأنَّ به يحصل الاستئناس، وبعدمه تحصل الوحشة، ﴿وتُسَلِّمُوا على أهلها﴾: وصفة ذلك ما جاء في الحديث: «السلام عليكم، أَدخِل؟»<sup>(٣)</sup>. ﴿ذَٰلِكُمْ﴾؛ أي: الاستئذان المذكور ﴿خيرٌ لكم لعلَّكم تُذَكَّرُونَ﴾: لاشتماله على عدَّة مصالِح، وهو من مكارم الأخلاق الواجبة؛ فَإِنْ أذن؛ دخل المستأذن.

﴿٢٨﴾ ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا﴾: فلا تدخلوا فيها ﴿حتى يُؤْذَنَ لكم وإن قيلَ لكم ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾؛ أي: فلا تمتنعوا من الرجوع ولا تغضبوا منه؛ فَإِنَّ صاحب المنزل لم يمتنعكم حقاً وواجباً لكم، وإِنَّمَا هو متبرِّع؛ فَإِنْ شاء أذن أو منع؛ فأنتم لا تأخذ أحدكم الكبر والاشمئزاز من هذه الحال؛ ﴿هو أَزْكَىٰ لكم﴾؛ أي: أشدُّ لتطهيركم من السيئات وتنميتكم بالحسنات. ﴿والله بما تعملونَ عَلِيمٌ﴾: فيجازي كلَّ عامل بعمله من كثرةٍ وقلَّةٍ وحسنٍ وعلوِّه.

(١) أخرجه البخاري (٦٢٤١)، ومسلم (٢١٥٦) من حديث سهل بن سعد.

(٢) في (ب): «يستأنسوا».

(٣) أخرجه أحمد (٤١٤/٣)، وأبو داود (٥١٧٦)، والترمذي (٢٨٥٣)، والحديث صححه الألباني في «الصحيحة» (٨١٨).

﴿٢٩﴾ هذا الحكم في البيوت المسكونة سواء كان فيها متاع للإنسان أم لا، وفي البيوت غير المسكونة التي لا متاع فيها للإنسان، وأما البيوت التي ليس فيها أهلها، وفيها متاع الإنسان المحتاج للدخول إليه، وليس فيها أحد يتمكن من استئذانه، وذلك كبيوت الكراء وغيرها؛ فقد ذكرها بقوله: ﴿ليس عليكم جناح﴾؛ أي: حرج وإثم؛ دل على أن الدخول من غير استئذان في البيوت السابقة أنه محرّم وفيه حرج ﴿أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم﴾: وهذا من احترازاات القرآن العجيبة؛ فإنّ قوله: ﴿لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم﴾: لفظ عام في كل بيت ليس ملكاً للإنسان، أخرج منه تعالى البيوت التي ليست ملكه وفيها متاعه وليس فيها ساكن، فأسقط الحرج في الدخول إليها. ﴿والله يعلم ما تبدون وما تكتمون﴾: أحوالكم الظاهرة والخفية، وعلم مصالحكم؛ فلذلك شرع لكم ما تحتاجون إليه وتضطرون من الأحكام الشرعية.

﴿قُلْ لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَّهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ .

﴿٣٠﴾ أي: أرشد المؤمنين وقُل لهم الذين معهم إيماناً يمنعهم من وقوع ما يُخلُّ بالإيمان ﴿يغضُّوا من أبصارهم﴾: عن النظر إلى العورات وإلى النساء الأجنبية وإلى المزدان، الذين يُخاف بالنظر إليهم الفتنة وإلى زينة الدنيا التي تفتن وتوقع في المحذور. ﴿ويحفظوا فروجهم﴾: عن الوطء الحرام في قُبُل أو دُبُر أو ما دون ذلك وعن التمكين من مسها والنظر إليها. ﴿ذلك﴾: الحفظ للأبصار والفروج ﴿أزكى لهم﴾: أظهر وأطيب وأنمى لأعمالهم؛ فإن من حفظ فرجه وبصره؛ طهر من الحَبَث الذي يتدنس به أهل الفواحش، وزكّت أعماله بسبب ترك المحرّم الذي <sup>(١)</sup> تطمع إليه النفس وتدعو إليه؛ فمن ترك شيئاً لله؛ عوضه الله خيراً منه، ومن غصّ بصره عن المحرم أنار الله بصيرته، ولأنّ العبد إذا حفظ فرجه وبصره عن الحرام ومقدماته مع دواعي الشهوة؛ كان حفظه لغيره أبلغ، ولهذا سمّاه الله حفظاً؛ فالشيء المحفوظ إن لم يجتهد حافظه في مراقبته وحفظه وعمل الأسباب الموجبة لحفظه؛ لم يتحفظ، كذلك البصر والفرج إن لم يجتهد العبد في حفظهما؛ أوقعا في بلايا ومحن.

(١) في (ب): «التي».

وتأمل كيف أمر بحفظ الفرج مطلقاً لأنه لا يُباح في حالة من الأحوال، وأما البصر؛ فقال: ﴿يَغْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾: أتى بأداة مِنْ الدالة على التبعيض؛ فإنه يجوز النظر في بعض الأحوال لحاجة؛ كنظر الشاهد والمعامل والخاطب ونحو ذلك. ثم ذكروهم بعلمه بأعمالهم ليجتهدوا في حفظ أنفسهم من المحرمات.

﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الذَّكَرِ لَمْ يَطْهَرُوا عَلَىٰ عَوَاتِبِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿٣١﴾ لما أمر المؤمنين بغض الأبصار وحفظ الفروج؛ أمر المؤمنات بذلك، فقال: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾: عن النظر إلى العورات والرجال بشهوة ونحو ذلك من النظر الممنوع. ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾: من التمكين من جماعها أو مسها أو النظر المحرم إليها، ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾: كالثياب الجميلة والحلي وجميع البدن كله من الزينة. ولما كانت الثياب الظاهرة لا بد لها منها؛ قال: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾؛ أي: الثياب الظاهرة التي جرت العادة بلبسها إذا لم يكن في ذلك ما يدعو إلى الفتنة بها، ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾: ولهذا لكمال الاستتار.

ويدل ذلك على أن الزينة التي يحرم إداؤها يدخل فيها جميع البدن كما ذكرنا. ثم كرر النهي عن إبداء زينتهن؛ ليستثني منه قوله: ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾؛ أي: أزواجهن، ﴿أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾: يشمل الأب بنفسه والجد وإن علا، [أو أو أبنائهن أو أبناء بُعُولَتِهِنَّ]: ويدخل فيه الأبناء، أو أبناء البعولة مهما نزلوا، ﴿أو إخوانهن أو بنى إخوانهن﴾: أشقاء أو لأب أو لأم. ﴿أو بنى أخواتهن أو نسائهن﴾؛ أي: يجوز للنساء أن ينظرن بعضهن إلى بعض مطلقاً، ويحتمل أن الإضافة تقتضي الجنسية؛ أي: النساء المسلمات اللاتي من جنسكن؛ فيه دليل لمن قال: إن المسلمة لا يجوز أن تنظر إليها الذميمة، ﴿أو ما ملكت أيمانهن﴾: فيجوز للمملوك إذا كان كله للأنتى أن ينظر لسيدته ما دامت مالكة له كله؛ فإذا زال الملك أو بعضه؛ لم يجز

النظر، ﴿أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال﴾؛ أي: [أو] <sup>(١)</sup> الذين يتبعونكم ويتعلقون بكم من الرجال الذين لا إربة لهم في هذه الشهوة؛ كالمعتوه الذي لا يدري ما هنالك، وكالعنين الذي لم يبق له شهوة لا في فرجه ولا في قلبه؛ فإن هذا لا محذور من نظره. ﴿أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء﴾؛ أي: الأطفال الذين دون التمييز؛ فإنه يجوز نظرهم للنساء الأجانب، وعلل تعالى ذلك بأنهم ﴿لم يظهروا على عورات النساء﴾؛ أي: ليس لهم علم بذلك، ولا وجدت فيهم الشهوة بعد، ودل هذا أن المميز تستر منه المرأة؛ لأنه يظهر على عورات النساء.

﴿ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن﴾؛ أي: لا يضربن الأرض بأرجلهن ليصوت ما عليهن من حلي كخلاخل وغيرها، فتعلم زينتها بسببه، فيكون وسيلة إلى الفتنة.

ويؤخذ من هذا ونحوه قاعدة سد الوسائل، وأن الأمر إذا كان مباحاً ولكنه يفضي إلى محرم أو يخاف من وقوعه؛ فإنه يمنع منه. فالضرب بالرجل في الأرض الأصل أنه مباح، ولكن لما كان وسيلة لعلم الزينة؛ منع منه.

ولما أمر تعالى بهذه الأوامر الحسنة، ووصى بالوصايا المستحسنة، وكان لا بد من وقوع تقصير من المؤمن بذلك؛ أمر الله تعالى بالتوبة، فقال: ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون﴾، [لأن المؤمن يدعو إيمانه إلى التوبة]. ثم علق على ذلك الفلاح، فقال: ﴿لعلكم تفلحون﴾: فلا سبيل إلى الفلاح إلا بالتوبة، وهي الرجوع مما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه ظاهراً وباطناً. ودل هذا أن كل مؤمن محتاج إلى التوبة؛ لأن الله خاطب المؤمنين جميعاً. وفيه الحث على الإخلاص بالتوبة في قوله: ﴿وتوبوا إلى الله﴾؛ أي: لا لمقصد غير وجهه من سلامة من آفات الدنيا أو رياء وسمعة، أو نحو ذلك من المقاصد الفاسدة.

﴿وَأَنكحُوا الْأَيْمَانَ مِنكُمُ وَالصَّالِحِينَ مِن عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ وَلِاسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُعْهِمَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتُغُونَ الْكِتَابَ بِمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَمَا كَاتِبْتُمُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَإِذَا هُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرَهُوا فَتِينَكُمْ عَلَى الْبِعَاءِ إِنْ أَرَدْنَا نَحْنُ لَنَنْتَعِزَّ بِعِزِّ الْحَيَّةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

(١) في (أ): «والذين».

﴿٣٢﴾ يأمر تعالى الأولياء والأسياد بإنكاح مَنْ تحت ولايتهم من الأيامي، وهم مَنْ لا أزواج لهم من رجالٍ ونساءٍ ثَيِّبٍ وأبكارٍ، فيجب على القريب وولي اليتيم أن يزوّج مَنْ يحتاج للزواج ممّن تجب ثقته عليه، وإذا كانوا مأمورين بإنكاح مَنْ تحت أيديهم؛ كان أمرهم بالنكاح بأنفسهم من باب أولى. ﴿والصالحين من عبادكم وإمائكم﴾: يُحتمل أن المراد بالصالحين صلاح الدين، وأن الصالح من العبيد والإماء - وهو الذي لا يكون فاجراً زانياً - مأمورٌ سيّده بإنكاحه جزاءً له على صلاحه وترغيباً له فيه، ولأنّ الفاسد بالزنا منهّي عن تزوّجه، فيكون مؤيداً للمذكور في أول السورة أن نكاح الزاني والزانية محرّم حتى يتوب، ويكون التخصيص بالصالح في العبيد والإماء دون الأحرار؛ لكثرة وجود ذلك في العبيد عادة.

ويُحتمل أن المراد بالصالحين الصالحين للتزوّج المحتاجين إليه من العبيد والإماء، يؤيّد هذا المعنى أن السيّد غير مأمور بتزويج مملوكه قبل حاجته إلى الزواج، ولا يبيد إرادة المعنيين كليهما. والله أعلم. وقوله: ﴿إن يكونوا فقراء﴾؛ أي: الأزواج والمتزوّجين، ﴿يُغْنِيهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾: فلا يمنعكم ما تنوّهون من أنّه إذا تزوّج افتقر بسبب كثرة العائلة ونحوه.

وفيه حثٌ على التزوّج ووعده للمتزوّج بالغنى بعد الفقر. ﴿والله واسع﴾: كثير الخير عظيم الفضل. ﴿عليم﴾: بمن يستحقّ فضله الديني والدنيوي أو أحدهما ممّن لا يستحقّ، فيعطي كلّ ما علمه، واقتضاه حكمه.

﴿٣٣﴾ ﴿وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾: هذا حكم العاجز عن النكاح، أمره الله أن يستعفف؛ أن يكف عن المحرّم ويفعل الأسباب التي تكفّه عنه، من صرف دواعي قلبه بالأفكار التي تخطر بإيقاعه فيه، ويفعل أيضاً كما قال النبي ﷺ: «يا معشر الشباب! من استطاع منكم الباءة؛ فليتزوّج، ومن لم يستطع؛ فعليه بالصوم، فإنّه له وجاء»<sup>(١)</sup>. وقوله: ﴿الذين لا يجدون نكاحاً﴾؛ أي: لا يقدرون نكاحاً؛ إما لفقرهم، أو فقر أوليائهم وأسيادهم، أو امتناعهم من تزويجهم، وليس لهم قدرة<sup>(٢)</sup> على إجبارهم على ذلك. وهذا التقدير أحسن من تقدير مَنْ قَدَّر لا يجدون مهر نكاح، وجعلوا المضاف إليه نائباً

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٥)، ومسلم (١٤٠٠) من حديث ابن مسعود.

(٢) في (ب): «من قدرة».

مناب المضاف؛ فإن في ذلك محذورين: أحدهما: الحذف في الكلام، والأصل عدم الحذف. والثاني: كون المعنى قاصراً على مَنْ له حالان: حالة غنى بماله، وحالة عُدْم، فيخْرُج العبيد والإماء وَمَنْ إنكاحُهُ على وليه كما ذكرنا، ﴿حتى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾: وعدٌ للمستعفف أن الله سَيُغْنِيهِ وَيَسِّرُ له أمره، وأمرٌ له بانتظار الفرج؛ لئلا يشقَّ عليه ما هو فيه.

وقوله: ﴿والذين يبتغون الكتاب مما مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً﴾؛ أي: من ابتغى وطلب منكم الكتابة وأن يَشْتَرِي نفسه من عبيد وإماء؛ فأجيبوه إلى ما طلب، وكاتبوه، ﴿إن علمتم فيهم﴾؛ أي: في الطالبين للكتابة ﴿خيراً﴾؛ أي: قدرة على التكسب وصلاحاً في دينه؛ لأنَّ في الكتابة تحصيل المصلحتين: مصلحة العتق والحرية، ومصلحة العوض الذي يبذله في فداء نفسه، وربما جدَّ واجتهد وأدرك لسيدِّه في مدَّة الكتابة من المال ما لا يحصلُ في رَقِّه، فلا يكون ضررٌ على السيد في كتابته، مع حصول عظيم المنفعة للعبد؛ فلذلك أمر الله بالكتابة على هذا الوجه أمر إيجاب؛ كما هو الظاهر، أو أمر استحباب على القول الآخر، وأمر بمعاوَنَتِهِمْ على كتابَتِهِمْ؛ لكونهم محتاجين لذلك؛ بسبب أنَّهم لا مال لهم، فقال: ﴿وآتوهم من مال الله الذي آتاكم﴾؛ يدخل في ذلك أمر سيده الذي كاتبه أن يعطيه من كتابته أو يسقط عنه منها وأمر الناس بمعاونتهم، ولهذا جعل الله للمكاتبين قسطاً من الزكاة ورغب في إعطائه بقوله: ﴿من مال الله الذي آتاكم﴾؛ أي: فكما أن المال مال الله، وإئتما الذي بأيديكم عطيةً من الله لكم ومحض مئة؛ فأحسنوا لعباد الله كما أحسن الله إليكم.

ومفهوم الآية الكريمة أن العبد إذا لم يطلب الكتابة؛ لا يؤمَّر سيده أن يبتدىء بكتابته، وأنه إذا لم يعلم منه خيراً؛ بأن عَلِمَ منه عكسه: إمَّا أنه يعلم أنه لا كَسْب له، فيكون بسبب ذلك كلاً على الناس ضائعاً، وإمَّا أن يخاف إذا عتق وصار في حرية نفسه أن يتمكن من الفساد؛ فهذا لا يؤمر بكتابته، بل ينهى عن ذلك؛ لما فيه من المحذور المذكور.

ثم قال تعالى: ﴿ولا تكرهوا فتياتكم﴾؛ أي: إماءكم ﴿على البغاء﴾؛ أي: أن تكون زانية؛ ﴿إن أردن تحصناً﴾: لأنه لا يَتَّصَرُّ إكراهها إلا بهذه الحال، وأما إذا لم تُرَدِّ تحصناً؛ فإنها تكون بغياً يجب على سيدها منعها من ذلك، وإنما هذا نهى لما كانوا يستعملونه في الجاهلية من كون السيد يُجْبِرُ أُمَّتَهُ على البغاء؛ ليأخذ منها أجرة

ذلك، ولهذا قال: ﴿لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: فلا يَلِيقُ بكم أن تكونَ إِمَاؤكم خيراً منكم وأعفَّ عن الزُّنَا وأتمَّ تفعلونَ بهنَّ ذلكَ لأجلِ عَرَضِ الْحَيَاةِ؛ متاع قليل يَغْرَضُ ثم يزولُ؛ فكسبكم النِزَاهَةَ والنِظَافَةَ والمِروءَةَ بقطع النظر عن ثوابِ الآخرة وعقابها أفضلُ من كسبكم العَرَضِ القليل الذي يُكْسِبُكم الرذالَةَ والخسَةَ.

ثم دعا مَنْ جرى منه الإكراه إلى التوبة، فقال: ﴿وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: فليتبَّ إلى الله، وليقلع عما صدر منه مما يُغْضِبُهُ؛ فإذا فَعَلَ ذلكَ؛ عَفَرَ اللَّهُ ذنوبَهُ وَرَجَمَهُ؛ كما رَجَمَ نفسه بفكاكها من العذاب، وكما رَجَمَ أُمَّتَهُ بعدم إكراهها على ما يضرُّها.

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٣٤﴾.

﴿٣٤﴾ هَذَا تَعْظِيمٌ وَتَفْخِيمٌ لِهَذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي تَلَاهَا عَلَى عِبَادِهِ؛ ليعرفوا قَدْرَهَا ويقوموا بحَقِّهَا، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ﴾؛ أي: واضحاتِ الدَّلَالَةِ على كُلِّ أمرٍ تحتاجون إليه من الأصول والفروع؛ بحيث لا يبقى فيها إشكالٌ ولا شبهة. ﴿و﴾: أنزلنا إليكم أيضاً ﴿مَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ﴾: من أخبار الأولين؛ الصالح منهم والظالم، وصفة أعمالهم، وما جرى لهم وجرى عليهم؛ تعتبرونه مثلاً ومعتبراً لمن فَعَلَ مثل أعمالهم أن يُجَازَى مثل ما جُوزوا. ﴿وموعظةً للمتقين﴾؛ أي: وأنزلنا إليكم موعظةً للمتقين؛ من الوعدِ والوعيدِ والترغيبِ والترهيبِ؛ يَتَّعِظُ بها الْمُتَّقُونَ، فيكفُّون عما يكره الله إلى ما يحبه الله.

﴿اللَّهُ نُورٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كِشْفُورٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ أَلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿٣٥﴾.

﴿٣٥﴾ ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: الحسيُّ والمعنويُّ. وذلك أَنَّهُ تعالى بذاتِهِ نورٌ، وحجابه نورٌ، الذي لو كَشَفَهُ لأحرقَتْ سُبُحاتُ وجهِهِ ما انتهى إليه بصره من خلقه، وبه استنار العرش والكرسيُّ والشمسُ والقمر والنورُ، وبه استنارت الجنة. وكذلك [النور] المعنويُّ يرجعُ إلى الله؛ فكتابه نورٌ، وشرعه نورٌ، والإيمانُ والمعرفةُ في قلوب رسله وعباده المؤمنين نورٌ؛ فلولا نورُهُ تعالى؛ لتراكمتِ الظلمات، ولهذا كُلُّ محلٍّ يفقد نورَهُ؛ فثَمَّ الظلمةُ والحصرُ. ﴿مِثْلُ نُورِهِ﴾: الذي

يهدي إليه، وهو نورُ الإيمان والقرآن في قلوب المؤمنين ﴿كمشكاة﴾؛ أي: كوة ﴿فيها مصباح﴾: لأنَّ الكوة تجمع نورَ المصباح بحيث لا يتفرَّق. ذلك ﴿المصباح في زُجاجةِ الزجاجَةِ﴾: من صفائها وبهائها، ﴿كأنها كوكبٌ دُرِّيٌّ﴾؛ أي: مضيء إضاءة الدرِّ، ﴿يوقدُ﴾: ذلك المصباح الذي في تلك الزجاجَةِ الدُرِّيَّةِ ﴿من شجرة مباركة زيتونة﴾؛ أي: يوقد من زيت الزيتون، الذي ناره من أنور ما يكون ﴿لا شرقية﴾: فقط؛ فلا تصيبها الشمس آخر النهار ﴿ولا غربية﴾: فقط؛ فلا تصيبها الشمس [آخر]<sup>(١)</sup> النهار. وإذا انتفى عنها الأمران؛ كانت متوسطةً من الأرض؛ كزيتون الشام؛ تصيبه الشمس أول النهار وآخره، فيخسُن ويَطيبُ ويكونُ أصفى لزيتها، ولهذا قال: ﴿يكاذُ زيتُها﴾: من صفائه ﴿يضيءُ ولو لم تمسسه نارٌ﴾: فإذا مسَّته النار؛ أضاء إضاءةً بليغةً. ﴿نورٌ على نورٍ﴾؛ أي: نور النار ونور الزيت.

وجه هذا المثل الذي ضربه الله وتطبيقه على حالة المؤمن ونور الله في قلبه أنَّ فطرته التي فطرَ عليها بمنزلة الزيت الصافي؛ ففطرته صافيةٌ مستعدةٌ للتعاليم الإلهية والعمل المشروع؛ فإذا وصل إليه العلم والإيمان؛ اشتعل ذلك النور في قلبه بمنزلة اشتعال النار في فتيلة ذلك المصباح، وهو صافي القلب من سوء القصدِ وسوء الفهم عن الله، إذا وصل إليه الإيمان؛ أضاء إضاءةً عظيمةً لصفائه من الكدورات، وذلك بمنزلة صفاء الزجاجَةِ الدُرِّيَّةِ، فيجتمع له نورُ الفطرة ونورُ الإيمان ونورُ العلم وصفاء المعرفة نورٌ على نوره.

ولما كان هذا من نور الله تعالى، وليس كلُّ أحدٍ يصلحُ له ذلك؛ قال: ﴿يهدي الله لنوره من يشاء﴾: ممَّن يعلم زكاه وطهارته، وأنه يزكي معه وينمو. ﴿ويضربُ الله الأمثالَ للناس﴾: ليعقلوا عنه ويفهموا؛ لطفاً منه بهم، وإحساناً إليهم، وليتَّضحَ الحقُّ من الباطل؛ فإنَّ الأمثالَ تقرَّبُ المعاني المعقولة من المحسوسة، فيعلمها العبادُ علماً واضحاً. ﴿والله بكلِّ شيءٍ عليمٌ﴾: فعلمه محيطٌ بجميع الأشياء، فلتعلَّموا أنَّ ضربة الأمثالِ ضَرْبٌ مَن يعلمُ حقائق الأشياء وتفاصيلها وأنها مصلحةٌ للعباد؛ فليكن اشتغالكم بتدبرها وتعقلها لا بالاعتراض عليها ولا بمعارضتها؛ فإنَّه يعلم وأنتم لا تعلمون.

ولما كان نورُ الإيمان والقرآن أكثر وقوع أسبابه في المساجد؛ ذكرها منوهاً بها، فقال:

(١) كذا في النسختين، وقد طمست الكلمة في (أ) وكتب بدلها: أول، بخط مغاير. وهو الصواب.



﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ (٣٦) رَجَالٌ لَا لَّهُمْ فِيهَا بَيْعٌ وَلَا بَيْعٌ عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ وَاقْرَأِ الصَّلَاةَ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿ لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٣٧).

﴿٣٦﴾ أي: يُتَعَبَّدُ لِلَّهِ ﴿فِي بُيُوتٍ﴾: عظيمة فاضلة هي أحب البقاع إليه، وهي المساجد، ﴿أُذِنَ لِلَّهِ﴾؛ أي: أمر ووصى ﴿أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾: هذان مجموع أحكام المساجد، فيدخل في رفعها بناؤها وكنسها وتنظيفها من النجاسات والأذى وصورها عن المجانين والصبيان الذين لا يتحرزون عن النجاسات وعن الكافر وأن تُصان عن اللغو فيها ورفع الأصوات بغير ذكر الله. ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾: يدخل في ذلك الصلاة كلها؛ فرضها ونفلها، وقراءة القرآن، والتسبيح، والتهليل، وغيره من أنواع الذكر، وتعلم العلم وتعليمه، والمذاكرة فيها، والاعتكاف، وغير ذلك من العبادات التي تُفَعَّلُ في المساجد، ولهذا كانت عمارة المساجد على قسمين: عمارة بنيان وصيانة لها، وعمارة بذكر اسم الله من الصلاة وغيرها، وهذا أشرف القسمين، ولهذا شُرِعَتِ الصلوات الخمس والجمعة في المساجد وجوباً عند أكثر العلماء واستحباباً عند آخرين.

﴿٣٧﴾ ثم مدح تعالى عمارها بالعبادة، فقال: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ﴾: إخلاصاً ﴿بِالْغُدُوِّ﴾: أول النهار ﴿وَالْآصَالِ﴾: آخره ﴿رَجَالٌ﴾: خص هذين الوقتين لشرَفهما ولتيسر السير فيهما إلى الله وسهولته، ويدخل في ذلك التسبيح في الصلاة وغيرها، ولهذا شُرِعَتِ أذكار الصباح والمساء وأورادهما عند الصباح والمساء؛ أي: يسبح فيها لله رجال، وأي رجال؟! ليسوا ممن يؤثروا على ربّه دنيا ذات لذات ولا تجارة ومكاسب مشغلة عنه. ﴿لَا تُلْهِيمُ تِجَارَةً﴾: وهذا يشمل كل تكسب يقصد به العوض، فيكون قوله: ﴿وَلَا بَيْعٌ﴾: من باب عطف الخاص على العام؛ لكثرة الاشتغال بالبيع على غيره؛ فهؤلاء الرجال وإن اتجروا وباعوا واشتروا؛ فإن ذلك لا محذور فيه، لكنّه لا تلهيهم تلك بأن يقدموها ويؤثروها على ﴿ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾: بل جعلوا طاعة الله وعبادته غاية مرادهم ونهاية مقصدهم؛ فما حال بينهم وبينها رفضوه.

ولما كان ترك الدنيا شديداً على أكثر النفوس وحب المكاسب بأنواع التجارات محبوباً لها، ويشق عليها تركه في الغالب وتتكلف من تقديم حق الله على ذلك؛ ذكّر ما يدعوها إلى ذلك ترغيباً وترهيباً، فقال: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ

والأبصار﴾: من شدة هولِهِ وإزعاجِهِ للقلوب والأبدان؛ فلذلك خافوا ذلك اليوم، فسَهَّلَ عليهم العملَ وترك ما يَشغَلُ عنه.

﴿٣٨﴾ ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾: والمراد بـ ﴿أحسن ما عملوا﴾: أعمالهم الحسنة الصالحة؛ لأنها أحسن ما عملوا؛ لأنهم يعملون المباحات وغيرها؛ فالثواب لا يكون إلا على العمل الحسن؛ كقوله تعالى: ﴿ليُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، ﴿ويزيدهم من فضله﴾: زيادة كثيرة عن الجزاء المقابل لأعمالهم. ﴿والله يزرُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: بل يُعطيهِ من الأجر ما لا يبلغُهُ عمله، بل ولا تبلغُهُ أمنيته، ويعطيه من الأجر بلا عد ولا كيل، وهذا كناية عن كثرتِهِ جداً.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّيْتَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾ أَوْ كَطَلْمُنْتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَفْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ طَلْمُنْتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُمُ لَمْ يَكْدُرْ بِرَبِّهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾.

هذان مثلان ضربهما الله لأعمال الكفار في بطلانها وذهابها سدى وتحسر عاملها منها، فقال:

﴿٣٩﴾ ﴿والذين كفروا﴾: برّبهم وكذبوا رسله ﴿أعمالهم كسراب بقيعة﴾؛ أي: بقاع لا شجر فيه ولا نبت ﴿بحسبه الظمان ماء﴾: شديد العطش، الذي يتوهم ما لا يتوهم غيره، بسبب ما معه من العطش، وهذا حساباً باطل، فيقصده ليزيل ظمأه ﴿حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً﴾: فندم ندماً شديداً، وازداد ما به من الظمأ بسبب انقطاع رجائه؛ كذلك أعمال الكفار بمنزلة السراب، تُرى ويظنّها الجاهل الذي لا يدري الأمور أعمالاً نافعة، فيغرّه صورتها، ويخلّبُه خيالها، وبحسبها هو أيضاً أعمالاً نافعة لهواه، وهو أيضاً محتاج إليها، بل مضطرٌّ إليها؛ كاحتياج الظمان للماء، حتى إذا قدم على أعماله يوم الجزاء؛ وجدها ضائعة، ولم يجدها شيئاً، والحال أنه لم يذهب لا له ولا عليه، بل ﴿وجد الله عنده فوفاه حساباً﴾: لم يخف عليه من عمله نقيز ولا قطمير، ولن يعدم منه قليلاً ولا كثيراً. ﴿والله سريع الحساب﴾: فلا يستبطن الجاهلون ذلك الوعد؛ فإنه لا بد من إتيانه، ومثلها الله بالسراب الذي ﴿بقيعة﴾؛ أي: لا شجر فيه ولا نبات، وهذا مثال لقلوبهم؛ لا خير

فيها ولا برّ فتزكو فيها الأعمال، وذلك للسبب المانع، وهو الكفر.

﴿٤٠﴾ والمثل الثاني لبطلان أعمال الكفار: ﴿كَظَلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾: بعيد فعرة طويل مداه، ﴿يَغْشَاءُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظَلَمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾: ظلمة البحر اللجّي، ثم فوقه ظلمة الأمواج المتراكمة، ثم فوق ذلك ظلمة السحب المدلّهمة، ثم فوق ذلك ظلمة الليل البهيم، فاشتدت الظلمة جداً؛ بحيث أن الكائن في تلك الحال ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْ بِهَا﴾: مع قربها إليه؛ فكيف بغيرها؟! كذلك الكفار تراكت على قلوبهم الظلمات؛ ظلمة الطبيعة التي لا خير فيها، وفوقها ظلمة الكفر، وفوق ذلك ظلمة الجهل، وفوق ذلك ظلمة الأعمال الصادرة عما ذكّر، فبقوا في الظلمة متحيرين، وفي غمرتهم يغمهون، وعن الصراط المستقيم مذبرون، وفي طرق الغي والضلال يترددون، وهذا لأن الله خذلهم فلم يُعْطِهِمْ مِنْ نُورِهِ. ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾: لأن نفسه ظالمة جاهلة، فليس فيها من الخير والنور إلا ما أعطاها مولاها ومنحها ربها.

يُحْتَمَلُ أَنَّ هَذِينَ الْمَثَالِينَ لِأَعْمَالِ جَمِيعِ الْكُفَّارِ؛ كُلٌّ مِنْهُمَا مَنْطِقٌ عَلَيْهَا، وَعَدَّدَهُمَا لِتَعَدُّدِ الْأَوْصَافِ، وَيُحْتَمَلُ أَنَّ كُلَّ مِثَالٍ لَطَائِفَةٌ وَفَرْقَةٌ؛ فَالْأَوَّلُ لِلْمُتَبَوِّعِينَ، وَالثَّانِي لِلتَّابِعِينَ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّيْتُ كُلَّ قَدِّ عِلْمٍ صَلَاتُهُ وَتَسْبِيحُهُ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿٤١﴾ نَبِّهَ<sup>(١)</sup> تعالى عباده على عظمته وكمال سلطانه وافتقار جميع المخلوقات له في ربوبيتها وعبادتها، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: من حيوان وجماد، ﴿وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ﴾؛ أي: صافات أجنحتها في جوف السماء تسبح ربها. ﴿كُلٌّ﴾: من هذه المخلوقات ﴿قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾؛ أي: كل له صلاة وعبادة بحسب حاله اللائقة به، وقد ألهمه الله تلك الصلاة والتسبيح: إما بواسطة الرسل كالجن والإنس والملائكة، وإما بإلهام منه تعالى كسائر المخلوقات غير ذلك.

وهذا الاحتمال أرجح؛ بدليل قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾؛ أي: علم جميع

(١) في (ب): «ينبه».

أفعالها، فلم يخفَ عليه منه شيء، وسيجازيهم بذلك، فيكون على هذا قد جَمَعَ بين علمها بأعمالهم، وذلك بتعليمه، وبين علمه بأعمالهم المتضمَّن للجزاء. ويُحتمل أن الضمير في قوله: ﴿قد علم صلاته وتسبيحه﴾: يعودُ إلى الله، وأنَّ الله تعالى قد عَلِمَ عباداتهم، وإن لم تَعَلِّموا أيها العبادُ منها إلا ما أطلعكم الله عليه. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ له السَّمَوَاتُ السَّبْعُ والأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّه كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

﴿٤٢﴾ فلما بيَّن عبوديتهم وافتقارهم إليه من جهة العبادة والتوحيد؛ بيَّن افتقارهم من جهة الملك والتربية والتدبير، فقال: ﴿ولله ملكُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ﴾: خالقهما<sup>(١)</sup> ورازقهما والمتصرفُ فيهما في حكمه الشرعيِّ والقدريِّ في هذه الدار وفي حكمه الجزائيِّ بدار القرار؛ بدليل قوله: ﴿والى الله المصيرُ﴾؛ أي: مرجع الخلق ومآلهم ليجازيهم بأعمالهم.

﴿الرَّ تَرَّ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ يَقْلَبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿٤٣﴾ أي: ألم تشاهد ببصرك عظيم قدرة الله وكيف ﴿يزجي﴾؛ أي: يسوق ﴿سحاباً﴾: قطعاً متفرقة، ﴿ثم يؤلف﴾: بين تلك القطع، فيجعله سحاباً متراكماً مثل الجبال ﴿فترى الودق﴾؛ أي: الوابل والمطر يخرج من خلال السحابِ نقطاً متفرقة؛ ليحصلَ بها الانتفاع من دون ضرر، فتمتلىء بذلك الغدران، وتتدفق الخُلجان، وتسيل الأودية، وتنبث الأرض من كلِّ زوج كريم. وتارة ينزلُ الله من ذلك السحابِ برداً يُنلَفُ ما يصيبه ﴿فَيصيبُ به من يشاء ويصرفه عن من يشاء﴾؛ أي: بحسب اقتضاء حكمه القدريِّ وحكمته التي يُخمدُ عليها، ﴿يكاد سنا بركه﴾؛ أي: يكاد ضوءُ برق ذلك السحاب من شدته ﴿يذهبُ بالأبصار﴾؛ أليس الذي أنشأها وساقها لعبادته المفتقرين وأنزلها على وجهٍ يحصلُ به النفع ويتنفي به الضررُ كامل القدرة نافذ المشيئة واسع الرحمة؟!

﴿٤٤﴾ ﴿يقلبُ الله الليل والنهار﴾: من حرٍّ إلى برد، ومن بردٍ إلى حرٍّ، ومن ليل

(١) في (ب): «خالقها».

إلى نهار، ونهار إلى ليل ويُبدل الأيام بين عباده. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ﴾؛ أي: لذوي البصائر والعقول النافذة للأمور المطلوبة منها كما تنفذ الأبصار إلى الأمور المشاهدة الحسية؛ فالبصير ينظرُ إلى هذه المخلوقات نَظْرَ اعتبار وتفكر وتدبر لما أريد بها ومنها، والمعرضُ الجاهل نَظَرُهُ إليها نظرُ غفلة بمنزلة نَظَرِ البهائم.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿٤٥﴾ ينبئه عباده على ما يشاهدونه أَنَّهُ خَلَقَ جميع الدواب التي على وجه الأرض ﴿من ماءٍ﴾؛ أي: مادتها كلها الماء؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾؛ فالحيوانات التي تتوالد، مادتها ماء النطفة حين يلحق الذكر الأنثى، والحيوانات التي تتولد من الأرض لا تتولد إلا من الرطوبات المائية؛ كالحشرات، لا يوجد منها شيء يتولد من غير ماء أبدأ؛ فالمادة واحدة، ولكن الخلقة مختلفة من وجوه كثيرة. ﴿فمنهم من يمشي على بطنه﴾؛ كالحية ونحوها، ﴿ومنهم من يمشي على رجلين﴾؛ كالأدميين وكثير من الطيور، ﴿ومنهم من يمشي على أربع﴾؛ كبهيمة الأنعام ونحوها؛ فاختلافها مع أن الأصل واحد يدل على نفوذ مشيئة الله وعموم قدرته. ولهذا قال: ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾؛ أي: من المخلوقات على ما يشاءه من الصفات. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ كما أنزل المطر على الأرض، وهو لقاح واحد، والأمم واحدة، وهي الأرض، والأولاد مختلفو الأصناف والأوصاف. ﴿وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿٤٦﴾ أي: لقد رحمتنا عبادنا وأنزلنا إليهم آيات بينات؛ أي: ووضحت الدلالة على جميع المقاصد الشرعية والآداب المحمودة والمعارف الرشيدة، فاتضح بذلك السبل، وتبين الرشد من العي والهدى من الضلال؛ فلم يبق أدنى شبهة لمبطل يتعلّق بها، ولا أدنى إشكال لمريد الصواب؛ لأنها تنزيل من كمل علمه وكملت رحمته وكمل بيانه؛ فليس بعد بيانه بيان. ليهلك بعد ذلك من هلك عن بينة ويخيا من حي عن بينة. ﴿والله يهدي من يشاء﴾: ممن سبقت لهم سابقة الحسنى وقدم الصدق

﴿إلى صراطٍ مستقيم﴾؛ أي: طريق واضح مختصر موصل إليه وإلى دار كرامته متضمن العلم بالحق وإيثاره والعمل به. عمم البيان التأم لجميع الخلق، وخصص بالهداية من يشاء؛ فهذا فضله وإحسانه، وما فضل الكريم بممنون، وذاك عدله، وقطع الحجّة للمحتج، والله أعلم حيث يجعل مع مواقع إحسانه.

﴿وَيَقُولُونَ ءَأَمَنَا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمْ لِقَاءُ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعَبِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ آتَاؤُاْ أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ .

﴿٤٧﴾ يخبر تعالى عن حالة الظالمين ممن في قلبه مرض وضعف إيمان أو نفاق وزنب وضعف، علم أنهم يقولون بألسنتهم ويلتزمون الإيمان بالله والطاعة، ثم لا يقومون بما قالوا، ويتولى فريق منهم عن الطاعة تولى عظيماً؛ بدليل قوله: ﴿وهم معرضون﴾؛ فإن المتولى قد يكون له نيّة عود ورجوع إلى ما تولى عنه، وهذا المتولى معرض لا التفات له ولا نظر لما تولى عنه. وتجذ هذه الحالة مطابقة لحال كثير ممن يدعي الإيمان والطاعة لله، وهو ضعيف الإيمان، تجده لا يقوم بكثير من العبادات، خصوصاً العبادات التي تشق على كثير من النفوس؛ كالزكوات، والنفقات الواجبة والمستحبة، والجهاد في سبيل الله، ونحو ذلك.

﴿٤٨﴾ ﴿وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم﴾؛ أي: إذا صار بينهم وبين أحد حكومة ودعوا إلى [حكم] الله ورسوله، ﴿إذا فريق منهم معرضون﴾: يريدون أحكام الجاهلية ويفضلون أحكام القوانين غير الشرعية على الأحكام الشرعية؛ لعلمهم أن الحق عليهم، وأن الشرع لا يحكم إلا بما يطابق الواقع.

﴿٤٩﴾ ﴿وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه﴾؛ أي: إلى حكم الشرع ﴿مذعبين﴾: وليس ذلك لأجل أنه حكم شرعي، وإنما ذلك لأجل موافقة أهوائهم؛ فليسوا بمدوحين في هذه الحال، ولو أتوا إليه مذعنين؛ لأن العبد حقيقة من يتبع الحق فيما يحب ويكره، وفيما يسره ويحزنه. وأما الذي يتبع الشرع عند موافقة هواه وينبذ عند مخالفته، ويقدم الهوى على الشرع؛ فليس بعبد على الحقيقة.

﴿٥٠﴾ قال الله في لومهم على الإعراض عن الحكم الشرعي: ﴿أفي قلوبهم مرض﴾؛ أي: علة أخرجت القلب عن صحته وأزالت حاسته فصار بمنزلة المريض

الذي يعرضُ عمَّا ينفعه ويُقبلُ على ما يضرُّه. ﴿أَمْ ارْتَابُوا﴾؛ أي: شكوا وقلقت قلوبهم من حكم الله ورسوله وأتهموه أنه لا يحكم بالحق. ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ﴾؛ أي: يحكم عليهم حكماً ظالماً جائراً، وإنما هذا وصفهم؛ ﴿بَلْ أَوْلَتْكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، وأما حكم الله ورسوله؛ ففي غاية العدالة والقسط وموافقة الحكمة، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

وفي هذه الآيات دليلٌ على أنَّ الإيمان ليس هو مجرد القول حتى يقترب به العمل، ولهذا نفى الإيمان عمَّن تولى عن الطاعة ووجوب الانقياد لحكم الله ورسوله في كلِّ حال، وأنَّ مَنْ لم يتقدَّ له دلٌّ على مرض في قلبه وزنب في إيمانه، وأنه يحرم إساءة الظنِّ بأحكام الشريعة، وأنَّ يظنَّ بها خلاف العدل والحكمة. ولما ذكر حالة المعرضين عن الحكم الشرعي، ذكر حالة المؤمنين الممدوحين، فقال:

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿٥١﴾ أي: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: حقيقة، الذين صدَّقوا إيمانهم بأعمالهم حين يدعون ﴿إلى الله ورسوله لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾: سواء وافق أهواءهم أو خالفها، ﴿أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾؛ أي: سمعنا حكم الله ورسوله وأجبنا مَنْ دعانا إليه وأطعنا طاعةً تامةً سالمةً من الحرج. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: حَصَرَ الْفَلَاحَ فِيهِمْ؛ لِأَنَّ الْفَلَاحَ الْفَوْزُ بِالْمَطْلُوبِ وَالنَّجَاةُ مِنَ الْمَكْرُوهِ، وَلَا يُفْلِحُ إِلَّا مَنْ حَكَّمَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَأَطَاعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ.

﴿٥٢﴾ ولما ذكر فضل الطاعة في الحكم خصوصاً؛ ذكر فضلها عموماً في جميع الأحوال، فقال: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: فيصدق خبرهما ويمثل أمرهما ﴿وَيَخْشَى اللَّهَ﴾؛ أي: يخافه خوفاً مقروناً بمعرفة، فيترك ما نهى عنه، ويكف نفسه عمَّا تهوى، ولهذا قال: ﴿وَيَتَّقْهُ﴾: بترك المحذور؛ لِأَنَّ التَّقْوَى عِنْدَ الْإِطْلَاقِ يَدْخُلُ فِيهَا فِعْلُ الْمَأْمُورِ وَتَرْكُ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ، وَعِنْدَ اقْتِرَانِهَا بِالْبَرِّ أَوْ الطَّاعَةِ - كَمَا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ - تَفْسَّرُ بِتَوْقِي عَذَابِ اللَّهِ بِتَرْكِ مَعَاصِيهِ. ﴿فَأُولَئِكَ﴾: الَّذِينَ جَمَعُوا بَيْنَ طَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، وَخَشْيَةِ اللَّهِ وَتَقْوَاهُ ﴿هُمُ الْفَائِزُونَ﴾: بِنَجَاتِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ؛ لِتَرْكِهِمْ أَسْبَابَهُ، وَوَصُولِهِمْ إِلَى الثَّوَابِ؛ لِفَعْلِهِمْ أَسْبَابَهُ؛ فَالْفَوْزُ مُحْصُورٌ فِيهِمْ، وَأَمَّا

مَنْ لَمْ يَتَّصِفْ بِوَصْفِهِمْ؛ فَإِنَّهُ يَفُوتُهُ مِنَ الْفَوْزِ بِحَسَبِ مَا قَصَّرَ عَنْهُ مِنْ هَذِهِ الْأَوْصَافِ الْحَمِيدَةِ.

واشتملت هذه الآية على الحق المشترك بين الله وبين رسوله، وهو الطاعة المستلزمة للإيمان، والحق المختص بالله، وهو الخشية والتقوى، وبقي الحق الثالث المختص بالرسول، وهو التعزير والتوقير؛ كما جمَعَ بين الحقوق الثلاثة في سورة الفتح في قوله: ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَزُّوهُ وَتُقِرُّوهُ وَتَسْبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.

﴿٥٣﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُفْسِمُوا طَاعَةَ مَعْرُوفَةَ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ يِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾.

﴿٥٣﴾ يخبرُ تعالى عن حالة المتخلفين عن الرسول ﷺ في الجهاد من المنافقين ومن في قلوبهم مرض وضعف إيمان أنهم يقسمون بالله: ﴿لئن أمرتهم﴾: فيما يستقبل أو لئن نصبت عليهم حين خرجت؛ ﴿ليخرجن﴾ والمعنى الأول أولى. قال الله راداً عليهم: ﴿قل لا تقسموا﴾؛ أي: لا نحتاج إلى إقسامكم وإلى أعداركم؛ فإن الله قد نبأنا من أخباركم. وطاعتكم معروفة لا تخفى علينا، قد كنا نعرف منكم الثاقل والكسل من غير عذر؛ فلا وجه لعذرهم وقسمكم، إنما يحتاج إلى ذلك من كان أمره محتملاً وحاله مشتبهة؛ فهذا ربما يفيد العذر براءة، وأما أنتم؛ فكلًا ولمًا، وإنما ينتظر بكم ويخاف عليكم حلول بأس الله ونقمته، ولهذا توعدهم بقوله: ﴿إن الله خير بما تعملون﴾: فيجازيكم عليها أتم الجزاء.

﴿٥٤﴾ هذه حالهم في نفس الأمر، وأما الرسول عليه الصلاة والسلام؛ فوظيفته أن يأمركم وينهاكم، ولهذا قال: ﴿قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن﴾: امتثلوا؛ كان حظكم وسعادتكم، وإن ﴿تولوا فإنما عليه ما حمل﴾: من الرسالة، وقد أذاه، ﴿وعليكم ما حملتم﴾: من الطاعة، وقد بانت حالكم وظهرت، فبان ضلالكم وغيبكم واستحقاقكم العذاب. ﴿وإن تطيعوه تهتدوا﴾: إلى الصراط المستقيم قولاً وعملاً؛ فلا سبيل لكم إلى الهداية إلا بطاعته، وبدون ذلك لا يمكن، بل هو محال. ﴿وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾؛ أي: تبليغكم البين الذي لا يبغي لأحد شكاً ولا شبهة، وقد فعل ﷺ؛ بلغ البلاغ المبين، وإنما الذي يحاسبكم ويجازيكم هو الله تعالى؛ فالرسول ليس له من الأمر شيء، وقد قام بوظيفته.



﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ .

﴿٥٥﴾ هذا من أوعاده الصادقة التي شوهدت تأويلها ومخبرها؛ فإنه وعد من قام بالإيمان والعمل الصالح من هذه الأمة أن يستخلفهم في الأرض، يكونون هم الخلفاء فيها، المتصرفين في تدبيرها، وأنه يمكن ﴿لهم دينهم الذي ارتضى لهم﴾، وهو دين الإسلام الذي فاق الأديان كلها، ارتضاه لهذه الأمة لفضلها وشرفها ونعمته عليها بأن يتمكنوا من إقامته وإقامة شرائعها الظاهرة والباطنة في أنفسهم وفي غيرهم؛ لكون غيرهم من أهل الأديان وسائر الكفار مغلوبين ذليلين، وأنه يبدلهم ﴿من بعد خوفهم﴾؛ الذي كان الواحد منهم لا يتمكن من إظهار دينه وما هو عليه إلا بأذى كثير من الكفار، وكون جماعة المسلمين قليلين جداً بالنسبة إلى غيرهم، وقد رماهم أهل الأرض عن قوس واحدة، وبعوا لهم الغوائل، فوعدهم الله هذه الأمور وقت نزول الآية، وهي لم تشهد الاستخلاف في الأرض والتمكين فيها والتمكين من إقامة الدين الإسلامي والأمن التام بحيث يعبدون الله ولا يشركون به شيئاً ولا يخافون أحداً إلا الله، فقام صدر هذه الأمة من الإيمان والعمل الصالح بما يفوق<sup>(١)</sup> على غيرهم، فمكّنهم من البلاد والعباد، وفتحت مشارق الأرض ومغاربها، وحصل الأمن التام والتمكين التام؛ فهذا من آيات الله العجيبة الباهرة، ولا يزال الأمر إلى قيام الساعة، مهما قاموا بالإيمان والعمل الصالح؛ فلا بد أن يوجد ما وعدهم الله، وإنما يسلط عليهم الكفار والمنافقين ويبدلهم في بعض الأحيان بسبب إخلال المسلمين بالإيمان والعمل الصالح. ﴿ومن كفر بعد ذلك﴾: التمكين والسلطنة التامة لكم يا معشر المسلمين، ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾: الذين خرجوا عن طاعة الله وفسدوا، فلم يصلحوا لصالح، ولم يكن فيهم أهلية للخير؛ لأن الذي يترك الإيمان في حال عزه وقهره وعدم وجود الأسباب المانعة منه يدل على فساد نيته وخبث طويته؛ لأنه لا داعي له لترك الدين إلا ذلك.

ودلت هذه الآية أن الله قد مكّن من قبلنا واستخلفهم في الأرض؛ كما قال موسى لقومه: ﴿ويستخلفكم في الأرض فينظّر كيف تعملون﴾، وقال تعالى:

(١) في (ب): «يفوقون».

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا فِي الْأَرْضِ [ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين] ونمكن لهم في الأرض﴾ .

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا وَهُمْ إِلَّا نَارٌ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾ .

﴿٥٦﴾ يأمر تعالى بإقامة الصلاة بأركانها وشروطها وآدابها ظاهراً وباطناً، وبياتاء الزكاة من الأموال التي استخلف الله عليها العباد وأعطاهم إياها؛ بأن يؤتوها الفقراء وغيرهم ممن ذكّرهم الله لمصرف الزكاة؛ فهذان أكبر الطاعات وأجلهما، جامعتان لحقه وحق خلقه، للإخلاص للمعبود وللإحسان إلى العبيد. ثم عطف عليهما الأمر العام، فقال: ﴿وأطيعوا الرسول﴾: وذلك بامثال أوامره واجتناب نواهيه، ﴿ومن يطع الرسول فقد أطاع الله﴾، ﴿لعلكم﴾: حين تقومون بذلك ﴿تُرْحَمُونَ﴾: فمن أراد الرحمة؛ فهذا طريقها، ومن رجاها من دون إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإطاعة<sup>(١)</sup> الرسول؛ فهو متمن كاذب، وقد مته نفسه الأمانى الكاذبة.

﴿٥٧﴾ ﴿لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض﴾: فلا يغرزك ما متّعوا به في الحياة الدنيا؛ فإن الله وإن أمهلهم؛ فإنه لا يهملهم؛ ﴿نمتّعهم قليلاً ثم نضطرّهم إلى عذاب غليظ﴾. ولهذا قال هنا: ﴿وماؤاهم النار ولبئس المصير﴾؛ أي: بس المال مال الكافرين؛ مال الشر والحسرة والعقوبة الأبدية.

﴿يَتَأَذُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَذِّنْكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَفَاتٌ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَذِنُوا كَمَا اسْتَذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ .

﴿٥٨﴾ أمر المؤمنين أن يستأذنتهم ممالئكمهم والذين لم يبلغوا الحلم منهم، قد ذكّر الله حكمته، وأنه ثلاث عوارث للمستأذنين عليهم؛ وقت نومهم بالليل بعد العشاء، وعند انبياهم قبل صلاة الفجر؛ فهذا في الغالب أن النائم يستعمل للنوم

(١) في (ب): «وطاعة».

في الليل ثوباً غير ثوبه المعتاد، وأمّا نومُ النهار؛ [فلَمَّا] <sup>(١)</sup> كان في الغالب قليلاً قد ينام فيه العبد بثيابه المعتادة؛ قيده بقوله: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ﴾؛ أي: للقائلة وسط النهار؛ ففي ثلاث <sup>(٢)</sup> هذه الأحوال يكون المماليك والأولاد الصغار كغيرهم لا يمكّنون من الدخول إلاّ بإذن، وأمّا ما عدا هذه الأحوال الثلاثة؛ فقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾؛ أي: ليسوا كغيرهم؛ فإنهم يحتاج إليهم دائماً، فيشق الاستئذان منهم في كلِّ وقتٍ، ولهذا قال: ﴿طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾؛ أي: يترددون عليكم في قضاء أشغالكم وحوادثكم. ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾: بياناً مقروناً بحكمته؛ ليتأكد ويتقوى ويعرف به رحمة شارعه وحكمته، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: له العلم المحيط بالواجبات و[المستحيلات] <sup>(٣)</sup> والممكنات والحكمة التي وضعت كلَّ شيءٍ موضعه، فأعطى كلَّ مخلوق خلقه اللائق به، وأعطى كلَّ حكم شرعي حكمه اللائق به، ومنه هذه الأحكام التي بيّنها وبين ما أخذها وحسنها.

﴿٥٩﴾ ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ﴾: وهو إنزالُ المنى يقظةً أو مناماً؛ ﴿فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: في سائر الأوقات، والذين من قبلهم هم الذين ذكّرهم الله بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا...﴾ الآية. ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾: ويوضحها ويفصل أحكامها. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وفي هاتين الآيتين فوائد:

منها: أنّ السيّد وولي الصغير مخاطبان بتعليم عبيدهم ومن تحت ولايتهم من الأولاد العلم والآداب الشرعيّة؛ لأنّ الله وجه الخطاب إليهم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ...﴾ الآية، ولا يمكن ذلك إلاّ بالتعليم والتأديب، ولقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾.

ومنها: الأمر بحفظ العورات والاحتياط لذلك من كلِّ وجه، وأنّ المحلّ والمكان الذي مَظَنَّةٌ لرؤية عورة الإنسان فيه، أنّه منهى عن الاغتسال فيه والاستنجاء ونحو ذلك.

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «فلو».

(٢) في (ب): «ثلاثة».

(٣) كذا في (ب). وفي (أ): «المستحبات». والصواب ما أثبت من (ب).

ومنها: جواز كشف العورة لحاجة؛ كالحاجة عند النوم وعند البول والغائط ونحو ذلك.  
ومنها: أن المسلمين كانوا معتادين القيلولة وسط النهار؛ كما اعتادوا نوم الليل؛  
لأن الله خاطبهم ببيان حالهم الموجودة.  
ومنها: أن الصغير الذي دون البلوغ لا يجوز أن يمكّن من رؤية العورة، ولا  
يجوز أن ترى عورته؛ لأن الله لم يأمر باستئذانهم إلا عن أمر ما يجوز.  
ومنها: أن المملوك أيضاً لا يجوز أن يرى عورة سيده؛ كما أن سيده لا يجوز  
أن يرى عورته؛ كما ذكرنا في الصغير.  
ومنها: أنه ينبغي للواعظ والمعلم ونحوهم ممن يتكلم في مسائل العلم الشرعي أن  
يقرن بالحكم بيان مأخذه ووجهه، ولا يلقيه مجرداً عن الدليل والتعليل؛ لأن الله لما  
بين الحكم المذكور؛ علله بقوله: ﴿ثلاث عورات لكم﴾.  
ومنها: أن الصغير والعبد مخاطبان كما أن وليهما مخاطب؛ لقوله: ﴿ليس  
عليكم ولا عليهم جناح بعدهن﴾.  
ومنها: أن ريق الصبي طاهر، ولو كان بعد نجاسة؛ كالقيء؛ لقوله تعالى:  
﴿طوافون عليكم﴾؛ مع قول النبي ﷺ حين سُئِلَ عن الهرة: «إنها ليست بنجس،  
إنها من الطوافين عليكم والطوافات»<sup>(١)</sup>.  
ومنها: جواز استخدام الإنسان من تحت يده من الأطفال على وجه معتاد لا  
يشق على الطفل؛ لقوله: ﴿طوافون عليكم﴾. ومنها: أن الحكم المذكور المفضل  
إنما هو لما دون البلوغ، وأما<sup>(٢)</sup> ما بعد البلوغ؛ فليس إلا الاستئذان.  
ومنها: أن البلوغ يحصل بالإنزال، فكل حكم شرعي رُتِبَ على البلوغ؛ حصل  
بالإنزال، وهذا مجمع عليه، وإنما الخلاف هل يَحْضُلُ البلوغ بالسن أو الإنبات  
للعانة. والله أعلم.

﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ يَدَيْهُنَّ  
عَبْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾  
﴿٦٠﴾ ﴿والقواعد من النساء﴾؛ [أي]: اللاتي قعدن عن الاستمتاع والشهوة،  
﴿اللاتي لا يرجون نكاحاً﴾؛ أي: لا يطمعن في النكاح ولا يطمعن فيهن، وذلك لكونها

(١) أخرجه أبو داود (٧٥)، والترمذي (٩٢)، والنسائي (٥٥/١)، وابن ماجه (٣٦٧)، والحديث  
صححه جماعة من أهل العلم. انظر «الإرواء» (١٧٣).

(٢) في (ب): «فأما».

عجوزاً لا تشتهي أو دميمة الخلقة لا تُشتهي ولا تُشتهي. ﴿فليس عليهن جناح﴾؛ أي: حرج وإثم، ﴿أن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾؛ أي: الثياب الظاهرة كالخمار ونحوه، الذي قال الله فيه للنساء: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾؛ فهؤلاء يجوز لهن أن يَكشِفْنَ وجوههنَّ لأمن المحذور منها وعليها.

ولما كان نفْيُ الحرج عنهنَّ في وضع الثياب ربّما تُوهَم منه جواز استعمالها لكل شيء؛ دَفَعَ هذا الاحتراز بقوله: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾؛ أي: غير مظهرات للناس زينة من تحمّل بثياب ظاهرة، وتُسْتَرُّ وجهها، ومن ضرب الأرض ليعلم ما تُخفي من زينتها؛ لأنَّ مجرد الزينة على الأنثى، ولو مع تسترها، ولو كانت لا تُشتهي؛ يفتن فيها ويوقِع الناظر إليها في الحرج. ﴿وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾: والاستعفاف طلب العفة بفعل الأسباب المقتضية لذلك من تزوج وترك لما يُخشى منه الفتنة. ﴿والله سميعٌ﴾: لجميع الأصوات. ﴿عليمٌ﴾: بالنيات والمقاصد؛ فليحذرن من كل قول وقصد فاسد، ويَعْلَمَنَّ أَنَّ الله يُجازي على ذلك.

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْهُمُ مَفَاحِشُهُمْ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ بَيِّنَاتٌ لَكُمْ لِكُمْ آيَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿٦١﴾ يخبر تعالى عن منتهى على عباده، وأنه لم يجعل عليهم في الدين من حرج، بل يسره غاية التيسير، فقال: ﴿ليس على الأعمى حرجٌ ولا على الأعرج حرجٌ ولا على المريض حرجٌ﴾؛ أي: ليس على هؤلاء جناح في ترك الأمور الواجبة التي تتوقّف على واحدٍ منها، وذلك كالجهاد ونحوه مما يتوقّف على بصر الأعمى أو سلامة الأعرج أو صحّة المريض، ولهذا المعنى العام الذي ذكّرناه؛ أطلق الكلام في ذلك، ولم يقيد؛ كما قيّد قوله: ﴿ولا على أنفسكم﴾؛ أي: حرج، ﴿أن تأكلوا من بيوتكم﴾؛ أي: بيوت أولادكم. وهذا موافق للحديث الثابت: «أنت ومالك لأبيك»<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه أحمد (١٧٩/٢)، وأبو داود (٣٥٣٠)، وابن ماجه (٢٢٩١)، والحديث صححه

الألباني في «الإرواء» (٨٣٨).

والحديث الآخر: «إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلْتُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ، وَإِنَّ أَوْلَادَكُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ»<sup>(١)</sup>.

وليس المراد من قوله: ﴿مَنْ بِيوتِكُمْ﴾: بيت الإنسان نفسه؛ فإنَّ هذا من باب تحصيل الحاصل، الذي يُنَزَّه عنه كلامُ الله، ولأنَّه نفي الحرج عمَّا يُظُنُّ أو يتوهَّم فيه الإثم من هؤلاء المذكورين، وأمَّا بيتُ الإنسان نفسه؛ فليس فيه أدنى توهَّم. ﴿أو بيوتِ آبَائِكُمْ أو بيوتِ أمهاتِكُمْ أو بيوتِ إخوانِكُمْ أو بيوتِ أخواتِكُمْ أو بيوتِ أعمامِكُمْ أو بيوتِ عمَّاتِكُمْ أو بيوتِ أخوالِكُمْ أو بيوتِ خالاتِكُمْ﴾: وهؤلاء معروفون. ﴿أو ما مَلَكتُمْ مفاتيحَهُ﴾؛ أي: البيوت التي أنتم متصرفون فيها بوكالةٍ أو ولايةٍ ونحو ذلك، وأمَّا تفسيرُها بالمملوك؛ فليس بوجيه؛ لوجهين: أحدهما: أنَّ المملوك لا يُقال فيه: ملكت مفاتيحَهُ، بل يقال: ما ملكْتُموه، أو: ما ملكت أيمانكُم؛ لأنَّهم مالكون له جملةً، لا لمفاتيحِهِ فقط. والثاني: أنَّ بيوت الممالِك غيرُ خارجةٍ عن بيت الإنسان نفسه؛ لأنَّ المملوك وما ملكه لسيده؛ فلا وجه لنفي الحرج عنه.

﴿أو صديقكُم﴾: وهذا الحرج المنفي من<sup>(٢)</sup> الأكل من هذه البيوت؛ كلُّ ذلك إذا كان بدون إذن، والحكمة فيه معلومة من السياق؛ فإنَّ هؤلاء المسمَّين قد جرت العادة والعرف بالمسامحة في الأكل منها؛ لأجل القرابة القريبة أو التصرف التام أو الصداقة؛ فلو قُدِّر في أحدٍ من هؤلاء عدم المسامحة والشح في الأكل المذكور؛ لم يَجْزِ الأكل ولم يرتفع الحرجُ نظراً للحكمة والمعنى. وقوله: ﴿ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً﴾؛ فكلُّ ذلك جائز؛ أكل أهل البيت الواحد جميعاً، أو أكل كلِّ واحدٍ منهم وحده، وهذا نفي للحرج لا نفي للفضيلة، وإلَّا؛ فالأفضل الاجتماع على الطعام. ﴿فإذا دَخَلْتُمْ بيوتاً﴾: نكرة في سياق الشرط؛ يشمَلُ بيتَ الإنسان وبيتَ غيره، سواء كان في البيت ساكنٌ أم لا؛ فإذا دَخَلَهَا الإنسان؛ ﴿فلسلموا على أنفسِكُمْ﴾؛ أي: فليسلم بعضكم على بعض؛ لأنَّ المسلمين كأنَّهم شخصٌ واحدٌ من توأدهم وتراحمهم وتعاطفهم؛ فالسلامُ مشروعٌ لدخول سائر البيوت؛ من غير فرق بين بيتٍ وبيتٍ، والاستئذانُ تقدَّم أن فيه تفصيلاً في أحكامه، ثم مدح هذا السلام، فقال: ﴿تحيةٌ من عند الله مباركةٌ طيبةٌ﴾؛ أي: سلامكم بقولكم: السلام عليكم ورحمةُ الله وبركاته، أو: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين؛ إذ تدخُلون البيوتَ ﴿تحيةٌ من عند الله﴾؛ أي: قد شرعها لكم وجعلها تحيةً لكم، ﴿مباركةٌ﴾: لاشتمالها على

(١) أخرجه أحمد (٣١/٦)، وأبو داود (٣٥٢٨)، والنسائي (٧/٢٤٠). وانظر ما قبله.

(٢) في (ب): «عن».

السلامة من النقص وحصول الرحمة والبركة والثماء والزيادة، ﴿طيبة﴾: لأنها من الكَلِم الطَّيِّبِ المحبوب عند الله، الذي فيه طيبُ نفسٍ للمحيًا ومحبةٌ وجلبٌ مودَّةٌ.

لما بيَّن لنا هذه الأحكام الجليلة؛ قال: ﴿كَذَلِكَ يبيِّنُ اللهُ لَكُمْ الآيَاتِ﴾: الدَّالَّاتِ على أحكامِهِ الشرعيَّةِ وَحِكْمِهَا ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: عنه؛ فتفهمونها وتَعْقِلُونَهَا بِقُلُوبِكُمْ، ولتكونوا من أهل العقول والألباب الرزينة؛ فإن معرفة أحكامه الشرعيَّة على وجهها يزيدُ في<sup>(١)</sup> العقل ويَنمو به اللُّبُّ؛ لكون معانيها أجلَّ المعاني وآدابها أجلَّ الآداب، ولأنَّ الجزء من جنس العمل؛ فكما استعمل عقله للعقل عن ربِّه وللتفكر في آياته التي دعاه إليها؛ زاده من ذلك.

وفي هذه الآيات دليلٌ على قاعدةٍ عامَّةٍ كليَّةٍ، وهي: أنَّ العرف والعادة مخصَّص للآلِفاظ؛ كتخصيص اللفظ للفظ؛ فإنَّ الأصل أن الإنسان ممنوع من تناول طعام غيره مع أنَّ الله أباح الأكل من بيوت هؤلاء للعُرف والعادة؛ فكلُّ مسألة تتوقَّف على الإذن من مالك الشيء إذا عُلِمَ إذنه بالقول أو العُرف؛ جاز الإقدام عليه.

وفيها: دليلٌ على أنَّ الأب يجوزُ له أن يأخذَ ويتملِّك من مال ولديه ما لا يضرُّه؛ لأنَّ الله سَمَّى بيته بيتاً للإنسان.

وفيها: دليلٌ على أن المتصرِّف في بيت الإنسان كزوجته وأخته ونحوهما يجوزُ لهما الأكل عادةً وإطعام السائل المعتاد.

وفيها: دليلٌ على جواز المشاركة في الطعام، سواء أكلوا مجتمعين أو متفرقين، ولو أفضى ذلك إلى أن يأكل بعضهم أكثر من بعض.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوا مِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذِنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٦﴾ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلْلُونَ مِنكُمْ لِيُحَذِّرَ الَّذِينَ يَخْلِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٨﴾﴾.

(١) في (ب): «به».

﴿٦٢﴾ هَذَا إِرْشَادٌ مِنَ اللَّهِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُمْ إِذَا كَانُوا مَعَ الرَّسُولِ ﷺ عَلَيْهِ أَمْرٌ جَامِعٌ؛ أَي: مِنْ ضَرُورَتِهِ أَوْ مَصْلَحَتِهِ أَنْ يَكُونُوا فِيهِ جَمِيعًا؛ كَالْجِهَادِ وَالْمَشَاوِرَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَشْتَرِكُ فِيهَا الْمُؤْمِنُونَ؛ فَإِنَّ الْمَصْلَحَةَ تَقْتَضِي اجْتِمَاعَهُمْ عَلَيْهِ وَعَدَمُ تَفَرُّقِهِمْ؛ فَالْمُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ حَقًّا لَا يَذْهَبُ لِأَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ؛ لَا يَرْجِعُ لِأَهْلِيهِ، وَلَا يَذْهَبُ لِبَعْضِ الْحَوَائِجِ الَّتِي يَشُدُّ بِهَا عَنْهُمْ؛ إِلَّا بِإِذْنِ مِنَ الرَّسُولِ أَوْ نَائِبِهِ مِنْ بَعْدِهِ، فَجَعَلَ مَوْجِبَ الْإِيمَانِ عَدَمَ الذَّهَابِ إِلَّا بِإِذْنِ، وَمَدَحَهُمْ عَلَى فِعْلِهِمْ هَذَا وَأَدَبَهُمْ مَعَ رَسُولِهِ وَوَلِيِّ الْأَمْرِ مِنْهُمْ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾؛ وَلَكِنْ؛ هَلْ يَأْذَنُ لَهُمْ أَمْ لَا؟ ذَكَرَ لِإِذْنِهِ لَهُمْ شَرْطَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ لِشَأْنٍ مِنْ شُؤْنِهِمْ وَشُغْلٍ مِنْ أَشْغَالِهِمْ، فَأَمَّا مَنْ يَسْتَأْذِنُ مِنْ غَيْرِ عِذْرٍ؛ فَلَا يُؤْذَنُ لَهُ. وَالثَّانِي: أَنْ يَشَاءَ الْإِذْنَ، فَتَقْتَضِيهِ الْمَصْلَحَةُ مِنْ دُونِ مَضَرَّةٍ بِالْإِذْنِ؛ قَالَ: ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذِنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾؛ فَإِذَا كَانَ لَهُ عِذْرٌ، وَاسْتَأْذَنَ؛ فَإِنْ كَانَ فِي قَعُودِهِ وَعَدَمِ ذَهَابِهِ مَصْلَحَةٌ بِرَأْيِهِ أَوْ شَجَاعَتِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ؛ لَمْ يَأْذَنْ لَهُ. وَمَعَ هَذَا؛ إِذَا اسْتَأْذَنَ وَإِذْنٌ لَهُ بِشَرْطِيهِ؛ أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُ لِمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ مَقْصِرًا فِي الْاسْتِثْنَانِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ يَغْفِرُ لَهُمُ الذُّنُوبَ، وَيَرْحَمُهُمْ؛ بَأَنْ جَوَّزَ لَهُمُ الْاسْتِثْنَانِ مَعَ الْعِذْرِ.

﴿٦٣﴾ ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾؛ [أَي لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ إِيَّاكُمْ، وَدُعَاءَكُمْ لِلرَّسُولِ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا]، فَإِذَا دَعَاكُمْ؛ فَأَجِيبُوهُ وَجُوبًا، حَتَّى إِنَّهُ تَجِبُ إِجَابَةُ الرَّسُولِ ﷺ فِي حَالِ الصَّلَاةِ، وَلَيْسَ أَحَدٌ إِذَا قَالَ قَوْلًا يَجِبُ عَلَى الْأُمَّةِ قَبُولُ قَوْلِهِ وَالْعَمَلُ بِهِ إِلَّا الرَّسُولَ؛ لِعِصْمَتِهِ، وَكُونِنَا مَخَاطَبِينَ بِاتِّبَاعِهِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾. وَكَذَلِكَ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَكُمْ لِلرَّسُولِ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا؛ فَلَا تَقُولُوا: يَا مُحَمَّدُ عِنْدَ نَدَائِكَ، أَوْ: يَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ! كَمَا يَقُولُ ذَلِكَ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ، بَلْ مِنْ شَرَفِهِ وَفَضْلِهِ وَتَمَيُّزِهِ ﷺ عَنْ غَيْرِهِ أَنْ يُقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! يَا نَبِيَّ اللَّهِ! ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا﴾. لَمَّا مَدَحَ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ الَّذِينَ إِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ؛ تَوَعَّدَ مَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ وَذَهَبَ مِنْ غَيْرِ اسْتِثْنَانٍ؛ فَهُوَ؛ وَإِنْ خَفِيَ عَلَيْكُمْ بِذَهَابِهِ عَلَى وَجْهِ خَفِيٍّ، وَهُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا﴾؛ أَي: يَلُودُونَ وَقَتَّ تَسَلَّلَهُمْ وَانْطَلَقَهُمْ بِشَيْءٍ يَحْجُبُهُمْ عَنِ الْعْيُونِ؛ فَاللَّهُ يَعْلَمُهُمْ، وَسَيَجَازِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ أْتَمَّ الْجَزَاءِ، وَلِهَذَا تَوَعَّدَهُمْ بِقَوْلِهِ:



﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره﴾؛ أي: يذهبون إلى بعض شؤونهم عن أمر الله ورسوله؛ فكيف بمن لم يذهب إلى شأن من شؤونه، وإنما ترك أمر الله من دون شغل له؛ ﴿أن تُصيبهم فتنة﴾؛ أي: شركٌ وشرٌّ، ﴿أو يُصيبهم عذابٌ أليمٌ﴾.

﴿٦٤﴾ ﴿ألا إنَّ لله ما في السموات والأرض﴾: ملكاً وعبيداً يتصرف فيهم بحكمه القدرى وحكمه الشرعى. ﴿قد يعلم ما أنتم عليه﴾؛ أي: قد أحاط علمه بما أنتم عليه من خيرٍ وشرٍّ، وعلم جميع أعمالكم؛ أحصاها علمه، وجرى بها قلمه، وكتبها عليكم الحفظ الكرام الكاتبون. ﴿ويومٌ يُرجعون إليه﴾؛ أي<sup>(١)</sup>: يوم القيامة ﴿فينبئهم بما عملوا﴾: يخبرهم بجميع أعمالهم؛ دقيقتها وجليلها؛ إخباراً مطابقاً لما وقَّع منهم، ويستشهد عليهم أعضاءهم؛ فلا يعدمون منه فضلاً أو عدلاً. ولما قيَّد علمه بأعمالهم؛ ذكر العموم بعد الخصوص، فقال: ﴿والله بكلِّ شيءٍ عليمٌ﴾.



## تفسير سورة الفرقان

وهي مكية عند الجمهور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقِيرًا ﴿٢﴾﴾.

﴿١﴾ هذا بيان لعظمته الكاملة وتفردّه بالوحدانية من كل وجه وكثرة خيراياه وإحسانيه، فقال: ﴿تبارك﴾؛ أي: تعاضم، وكملت أوصافه، وكثرت خيراياه، الذي من أعظم خيراياه ونعمه أن نزل هذا القرآن الفارق بين الحلال والحرام والهدى والضلال وأهل السعادة من أهل الشقاوة، ﴿على عبده﴾: محمد ﷺ، الذي كمل مراتب العبودية وفاق جميع المرسلين؛ ﴿ليكون﴾: ذلك الإنزال للفرقان على عبده ﴿للعالمين نذيراً﴾: ينذرهم بأس الله ونقمته ويبين لهم مواقع رضا الله من سخطه، حتى إن من قبل نذارته وعمل بها؛ كان من الناجين في الدنيا والآخرة، الذين حصلت لهم السعادة الأبدية والملك السرمدي؛ فهل فوق هذه النعمة وهذا الفضل

(١) في (ب): «في».

والإحسان شيء؟! فتبارك الذي هذا [من] بعض إحسانه وبركاته.

﴿٢﴾ ﴿الذي له مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: له التصرف فيهما<sup>(١)</sup> وحده، وجميع من فيهما<sup>(٢)</sup> ممالك وعبيد له مدعون لعظمته خاضعون لربوبيته فقراء إلى رحمته، الذي ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ﴾: وكيف يكون له ولد أو شريك؛ وهو المالك وغيره مملوك، وهو القاهر وغيره مقهور، وهو الغني بذاته من جميع الوجوه والمخلوقون مفتقرون إليه [فقراً ذاتياً]<sup>(٣)</sup> من جميع الوجوه؟! وكيف يكون له شريك في الملك ونواصي العباد كلهم بيديه؛ فلا يتحركون أو يسكنون ولا يتصرفون إلا بإذنه؛ فتعالى الله عن ذلك علواً قديراً؛ فلم يقدره حق قدره من قال فيه ذلك، ولهذا قال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾: شمل العالم العلوي والعالم السفلي من حيواناته ونباتاته وجماداته، ﴿فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾؛ أي: أعطى كل مخلوق منها ما يليق به ويناسبه من الخلق وما تقتضيه حكمته من ذلك؛ بحيث صار كل مخلوق لا يتصور العقل الصحيح أن يكون بخلاف شكله وصورته المشاهدة، بل كل جزء وعضو من المخلوق الواحد لا يناسبه غير محله الذي هو فيه؛ قال تعالى: ﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى. وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾، وقال تعالى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾.

ولما بين كماله وعظمته وكثرة إحسانه؛ كان ذلك مقتضياً لأن يكون وحده المحبوب المألوه المعظم المفرد بالإخلاص وحده لا شريك له؛ ناسب أن يذكر بطلان عبادة ما سواه، فقال:

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ ﴿٣﴾.

﴿٣﴾ أي: من أعجب العجائب وأدل الدليل على سفههم ونقص عقولهم، بل أدل على ظلمهم وجراءتهم على ربهم: أن اتخذوا آلهة بهذه الصفة، في غاية<sup>(٣)</sup> العجز أنها لا تقدر على خلق شيء، بل هم مخلوقون، بل بعضهم مما عملته أيديهم، ﴿ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً﴾؛ أي: لا قليلاً ولا كثيراً؛ لأنه نكرة في سياق النفي. ﴿ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً﴾؛ أي: بعثاً بعد الموت.

(٢) في (أ): «فقراء».

(١) في (ب): «فيها».

(٣) في (ب): «كمال».

فأعظمُ أحكام العقل بطلانُ إلهيتها وفسادُها وفسادُ عقل من اتخذها آلهةً وشركاءَ  
للمخلوق لسائر المخلوقات من غير مشاركةٍ له في ذلك، الذي بيده النفع والضررُ  
والعطاء والمنع، الذي يُحيي ويميتُ ويبعثُ مَنْ في القبور ويجمعُهُمْ يومَ النشور،  
وقد جعلَ لهم دارين: دار الشقاء والخزي والنكال لمن اتخذ معه آلهةً أخرى، ودار  
الفوز والسعادة والنعيم المقيم لمن اتخذهُ وحده معبوداً.

ولما قرّر بالدليل القاطع الواضح صحّة التوحيد وبطلان ضده؛ قرّر صحّة الرسالة  
وبطلان قول من عارضها واعترضها، فقال:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا  
وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ  
أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦﴾﴾.

﴿٤﴾ أي: وقال الكافرون بالله، الذي أوجب لهم كفرهم أن قالوا في القرآن  
والرسول: إن هذا القرآن كذبٌ كذبه محمد، وإفكٌ افتراه على الله، وأعانه على  
ذلك قومٌ آخرون؛ فردّ الله عليهم ذلك بأن هذا مكابرةٌ منهم وإقدامٌ على الظلم  
والزور الذي لا يمكن أن يدخل عقل أحد؛ وهم أشدُّ الناس معرفةً بحالة  
الرسول ﷺ وكمال صدقهِ وأمانتِهِ وبرّه التام، وأنه لا يمكنه لا هو ولا سائر الخلق  
أن يأتوا بهذا القرآن الذي هو أجلُّ الكلام وأعلاه، وأنه لم يجتمع بأحدٍ يُعينه على  
ذلك؛ ﴿فقد جاؤوا﴾ بهذا القول ظلماً ﴿وزوراً﴾.

﴿٥﴾ ومن جملة أقاويلهم فيه أن قالوا: هذا الذي جاء به محمدٌ ﴿أساطيرُ  
الأولين اكتبها﴾؛ أي: هذا قصص الأولين وأساطيرهم، التي تتلقاها الأفواه وينقلها  
كلُّ أحدٍ، استنسخها محمدٌ؛ ﴿فهي تملئ عليه بكرةً وأصيلاً﴾: وهذا القول منهم  
فيه عدةٌ عظام:

منها: رميهم الرسول الذي هو أبرُّ الناس وأصدقهم بالكذب والجرأة العظيمة.  
ومنها: إخبارهم عن هذا القرآن الذي هو أصدق الكلام وأعظمه وأجله بأنه كذبٌ  
وافتراءً.

ومنها: أن في ضمن ذلك أنهم قادرون أن يأتوا بمثله، وأن يضاهاه المخلوق  
الناقص من كل وجه للمخلوق الكامل من كل وجه بصفة من صفاته، وهي  
الكلام.

ومنها: أَنَّ الرَسُولَ قَدْ عُلِمَتْ حَالُهُ<sup>(١)</sup>، وَهَمَّ أَشَدُّ النَّاسِ عِلْمًا بِهَا؛ أَنَّهُ لَا يَكْتُبُ وَلَا يَجْتَمِعُ بِمَنْ يَكْتُبُ لَهُ؛ وَهَمَّ قَدْ زَعَمُوا ذَلِكَ.

﴿٦﴾ فَلذَلِكَ رَدَّ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أَي: أَنْزَلَهُ مَنْ أَحَاطَ عِلْمُهُ بِمَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَالْجَهْرِ وَالسِّرِّ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾. وَوَجْهُ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ أَنَّ الَّذِي أَنْزَلَهُ هُوَ الْمَحِيطُ بِعِلْمِهِ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَيَسْتَحِيلُ وَيَمْتَنِعُ أَنْ يَقُولَ مَخْلُوقٌ وَيَقُولَ عَلَيْهِ هَذَا الْقُرْآنَ، وَيَقُولَ: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِهِ، وَيَسْتَحِيلُ دِمَاءَ مَنْ خَالَفَهُ وَأَمْوَالَهُمْ، وَيَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ قَالَ لَهُ ذَلِكَ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ، وَمَعَ ذَلِكَ؛ فَهُوَ يُؤَيِّدُهُ وَيَنْصُرُهُ عَلَى أَعْدَائِهِ وَيَمَكِّنُهُ مِنْ رِقَابِهِمْ وَبِلَادِهِمْ؛ فَلَا يُمْكِنُ أَحَدًا أَنْ يُنْكِرَ هَذَا الْقُرْآنَ إِلَّا بَعْدَ إِنْكَارِ عِلْمِ اللَّهِ، وَهَذَا لَا يَقُولُ بِهِ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي آدَمَ سِوَى الْفَلَّاسِفَةِ الدُّهْرِيَّةِ.

وَأَيْضًا: فَإِنَّ ذِكْرَ عِلْمِهِ تَعَالَى الْعَامِ يَنْبَهُهُمْ وَيَحْضُهُمْ عَلَى تَدْبِيرِ الْقُرْآنِ، وَأَنَّهُمْ لَوْ تَدَبَّرُوا؛ لَرَأَوْا فِيهِ مِنْ عِلْمِهِ وَأَحْكَامِهِ مَا يَدُلُّ دَلَالَةً قَاطِعَةً عَلَى أَنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ.

وَمَعَ إِنْكَارِهِمْ لِلتَّوْحِيدِ وَالرِّسَالَةِ؛ مِنْ لَطْفِ اللَّهِ بِهِمْ أَنَّهُ لَمْ يَدْعُهُمْ وَظَلَّمَهُمْ، بَلْ دَعَاهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ، وَوَعَدَهُمْ بِالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ إِنْ هُمْ تَابُوا وَرَجَعُوا، فَقَالَ: ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا﴾؛ أَي: وَصَفُهُ الْمَغْفِرَةَ لِأَهْلِ الْجَرَائِمِ وَالذَّنُوبِ إِذَا فَعَلُوا أَسْبَابَ الْمَغْفِرَةِ، وَهِيَ الرَّجُوعُ عَنْ مَعَاصِيهِ وَالتَّوْبَةُ مِنْهَا. ﴿رَحِيمًا﴾: بِهِمْ؛ حَيْثُ لَمْ يَعْاجِلْهُمْ بِالْعُقُوبَةِ وَقَدْ فَعَلُوا مَقْتَضَاهَا وَحَيْثُ قَبِلَ تَوْبَتَهُمْ بَعْدَ الْمَعَاصِي، وَحَيْثُ مَحَا مَا سَلَفَ مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ، وَحَيْثُ قَبِلَ حَسَنَاتِهِمْ، وَحَيْثُ أَعَادَ الرَّاجِعُ إِلَيْهِ بَعْدَ شُرُودِهِ وَالْمَقْبَلُ عَلَيْهِ بَعْدَ إِعْرَاضِهِ إِلَى حَالَةِ الْمَطْبِعِينَ الْمُنِيِّينَ إِلَيْهِ.

﴿وَقَالُوا مَا لِي هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَسْئَلُ فِي الْأَمْثَالِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مَلَكٌ فَيَكُتُبُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُنْفَخَ إِلَيْنَا كِتَابٌ أَوْ تَكُونُ لَكَ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٨﴾ أَنْظَرَ كَيْفَ صَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

(١) في (ب): «حالته».

الْأَنْهَرُ وَيَجْعَلُ لَكَ فُجُورًا ﴿١٥﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١٦﴾ إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَّانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٧﴾ وَإِذَا أَلْقَا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٨﴾ لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ .

﴿٧﴾ هذا من مقالة المكذبين للرسول، التي قدحوا [بها] في رسالتيه، وهو أنهم اعترضوا بأنه هلاً كان ملكاً أو ملكاً أو يساعده ملك؛ فقالوا: ﴿مال هذا الرسول﴾؛ أي: ما لهذا الذي ادعى الرسالة تهكماً منهم واستهزاء ﴿يأكل الطعام﴾: وهذا من خصائص البشر؛ فهلاً كان ملكاً لا يأكل الطعام ولا يحتاج إلى ما يحتاج إليه البشر، ﴿ويمشي في الأسواق﴾: للبيع والشراء، وهذا بزعمهم لا يليق بمن يكون رسولاً؛ مع أن الله قال: ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق﴾. ﴿لولا أنزل إليه ملك﴾؛ أي: هلاً أنزل معه ملك يساعده ويعاونه ﴿فيكون معه نذيراً﴾: وبزعمهم أنه غير كافٍ للرسالة، ولا بطوقه وقدرته القيام بها.

﴿٨﴾ ﴿أو يلقى إليه كنز﴾؛ أي: مالٌ مجموع من غير تعب، ﴿أو تكون له جنة يأكل منها﴾: فيستغني بذلك عن مشيه في الأسواق لطلب الرزق، ﴿وقال الظالمون﴾: حملهم على القول ظلّمهم، لا اشتباه منهم: ﴿إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً﴾: هذا وقد علموا كمال عقله وحسن حديثه وسلامته من جميع المطاعن.

﴿٩﴾ ولما كانت هذه الأقوال منهم عجيبة جداً؛ قال تعالى: ﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال﴾: وهي: هلاً كان ملكاً وزالت عنه خصائص البشر، أو معه ملك لأنه غير قادر على ما قال، أو أنزل عليه كنز، أو جعلت له جنة تُغنيه عن المشي في الأسواق، أو أنه كان مسحوراً. ﴿فضلوا فلا [يستطيعون]﴾<sup>(١)</sup> سبيلاً: قالوا: أقوالاً متناقضة، كلها جهلٌ وضلالٌ وسفاهة، ليس في شيء منها هداية، بل ولا في شيء منها أدنى شبهةٍ تقدح في الرسالة، فبمجرد النظر إليها وتصورها يجزم العاقل بطلانها، ويكفيه عن ردّها. ولهذا أمر تعالى بالنظر إليها وتدبرها والنظر: هل توجب التوقف عن الجزم للرسول بالرسالة والصدق؟!

﴿١٠﴾ ولهذا أخبر أنه قادر على أن يعطيك خيراً كثيراً في الدنيا، فقال: ﴿تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك﴾؛ أي: خيراً مما قالوا، ثم فسره بقوله:

(١) في النسختين: «يهتدون».

﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا﴾: مرتفعة مزخرفة؛ فقدرتُه ومشيتُهُ لا تقصُرُ عن ذلك، ولكِنَّه تعالى لما كانت الدنيا عنده في غاية البعد والحقارة؛ أعطى منها أولياءه ورسله ما اقتضته حكمته منها، واقتراح أعدائهم بأنهم هلاً رزقوا منها رزقاً كثيراً جداً ظلمَ وجراءه.

﴿١١﴾ ولَمَّا كانت تلك الأقوال التي قالوها معلومة الفساد؛ أخبر تعالى أنها لم تصدُرْ منهم لطلبِ الحقِّ ولا لاتباعِ البرهان، وإنما صدرت منهم تعنتاً وظلماً وتكديباً بالحق، فقالوا ما في قلوبهم من ذلك، ولهذا قال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾: والمكذبُ المتعنتُ الذي ليس له قصدٌ في اتباعِ الحقِّ لا سبيلَ إلى هدايته ولا حيلةَ في مجادلته، وإنما له حيلةٌ واحدة، وهي<sup>(١)</sup> نزولُ العذابِ به؛ فلهذا قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾؛ أي: ناراً عظيمةً قد اشتدَّ سعيرُها وتغيَّظتْ على أهلها واشتدَّ زفيرُها.

﴿١٢﴾ ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾؛ أي: قبل وصولهم ووصولها إليها؛ ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا﴾: عليهم ﴿وزفيرًا﴾: تعلقُ منهم الأفئدة، وتتصدعُ القلوب، ويكاد الواحد منهم يموتُ خوفاً منها ودُعراً، قد غضبت عليهم لغضبِ خالقها، وقد زاد لها لزيادة كفرهم وشرهم.

﴿١٣﴾ ﴿وَإِذَا أَلْقَا مِنْهَا مَكَانًا ضِيقًا مُقْرَنِينَ﴾؛ أي: وقت عذابهم<sup>(٢)</sup> وهم في وسطها جمعٌ في مكان، بين ضيقِ المكان وتزاحمِ السُّكان وتقرينهم بالسلاسل والأغلال؛ فإذا وصلوا لذلك المكان النحس وحبسوا في أشْرُ حبس؛ ﴿دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾: دعوا على أنفسهم بالثُّبور والخزي والفضيحة، وعلموا أنهم ظالمون معتدون، قد عدلَ فيهم الخالق حيث أنزلهم بأعمالهم هذا المنزل.

﴿١٤﴾ وليس ذلك الدعاء والاستغاثة بنافعة لهم ولا مغنية من عذاب الله، بل يُقال لهم: ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَاذْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾؛ أي: لو زاد ما قلتم أضعاف أضعافه؛ ما أفادكم إلا الهَمُّ والغَمُّ والحزن.

لَمَّا بَيَّنَّ جزاء الظالمين؛ ناسب أن يذكَرَ جزاء المتقين، فقال:

﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾  
لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴿١٦﴾﴾.

(١) في (ب): «وهو».

(٢) في (ب): «أي عذابهم».

﴿١٥﴾ أَي: قُلْ لَهُمْ مَبِينًا لِسَفَاهَةِ رَأْيِهِمْ وَاخْتِيَارِهِمُ الضَّارَّ عَلَى النَّافِعِ: ﴿أَذْكَ﴾: الَّذِي وَصَفْتُ لَكُمْ مِنَ الْعَذَابِ ﴿خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾: الَّتِي زَادَهَا تَقْوَى اللَّهِ؛ فَمَنْ قَامَ بِالتَّقْوَى؛ فَاللَّهُ قَدْ وَعَدَهُ إِيَّاهَا، ﴿كَانَتْ لَهُمْ جِزَاءً﴾: عَلَى تَقْوَاهُمْ، ﴿وَمُصِيرًا﴾: مَوْتَلًا يَرْجِعُونَ إِلَيْهَا، وَيَسْتَقْرُونَ فِيهَا، وَيَخْلُدُونَ دَائِمًا أَبَدًا.

﴿١٦﴾ ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾؛ أَي: يَطْلُبُونَ وَتَتَعَلَّقُ بِهِ أَمَانِيهِمْ وَمَشِيئَتِهِمْ؛ مِنْ الْمَطَاعِمِ، وَالْمَشَارِبِ اللَّذِيذَةِ، وَالْمَلَابِسِ الْفَاخِرَةِ، وَالنِّسَاءِ الْجَمِيلَاتِ، وَالْقُصُورِ الْعَالِيَاتِ، وَالجَنَّاتِ وَالْحَدَائِقِ الْمَرْجِحَّةِ<sup>(١)</sup>، وَالْفَوَاكِةِ الَّتِي تَسْرُ نَاضِرِيهَا وَأَكْلِيهَا مِنْ حَسْنِهَا وَتَنوعِهَا وَكَثْرَةِ أَصْنَافِهَا، وَالْأَنْهَارِ الَّتِي تَجْرِي فِي رِيَاضِ الْجَنَّةِ وَبَسَاتِينِهَا حَيْثُ شَاؤُوا يَصْرِفُونَهَا وَيَفْجُرُونَهَا أَنْهَارًا مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ، وَأَنْهَارًا مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ، وَأَنْهَارًا مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ، وَأَنْهَارًا مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَرَوَاحٍ طَيِّبَةٍ، وَمَسَاكِنَ مَزْخَرَفَةٍ، وَأَصْوَاتٍ شَجِيَّةٍ تَأْخُذُ مِنْ حَسْنِهَا بِالْقُلُوبِ، وَمِزَاجَةٍ الْإِخْوَانِ، وَالتَّمَتُّعِ بِلِقَاءِ الْأَحْبَابِ، وَأَعْلَى مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ التَّمَتُّعُ بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِ الرَّبِّ الرَّحِيمِ، وَسَمَاعِ كَلَامِهِ وَالْحِظْوَةِ بِقُرْبِهِ وَالسَّعَادَةِ بِرِضَاةِ، وَالْأَمْنِ مِنْ سَخَطِهِ وَاسْتِمْرَارِ هَذَا النِّعَمِ وَدَوَامِهِ وَزِيَادَتِهِ عَلَى مَرَمِّ الْأَوْقَاتِ وَتَعَاقِبِ الْآنَاتِ. ﴿كَانَ﴾: دَخُولُهَا وَالْوَصُولُ إِلَيْهَا ﴿عَلَى رَبِّكَ وَعِدًّا مَسْئُولًا﴾: يَسْأَلُهُ إِيَّاهَا عِبَادُهُ الْمُتَّقُونَ بِلِسَانِ حَالِهِمْ وَلِسَانِ مَقَالِهِمْ.

فَأَيُّ الدَّارَيْنِ الْمَذْكُورَتَيْنِ خَيْرٌ وَأَوْلَى بِالْإِيثَارِ؟! وَأَيُّ الْعَامِلِينَ عُمَالِ دَارِ الشَّقَاءِ أَوْ عَمَالِ دَارِ السَّعَادَةِ أَوْلَى بِالْفَضْلِ وَالْعَقْلِ وَالْفَخْرِ يَا أَوْلَى الْأَلْبَابِ؟! لَقَدْ وَضَحَ الْحَقُّ وَاسْتَنَارَ السَّبِيلُ، فَلَمْ يَبْقَ لِلْمَفْرُطِ عَذْرٌ فِي تَرْكِهِ الدَّلِيلِ؛ فَزَجُوكَ يَا مَنْ قَضَيْتَ عَلَى أَقْوَامِ الشَّقَاءِ وَأَقْوَامِ السَّعَادَةِ أَنْ تَجْعَلَنَا مِمَّنْ كَتَبَتْ لَهُمُ الْحَسَنَى وَزِيَادَةَ، وَنَسْتَعِيثُ بِكَ اللَّهُمَّ مِنْ حَالَةِ الْأَشْقِيَاءِ وَنَسْأَلُكَ الْمَعَاوَةَ مِنْهَا.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَوَالِدَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا نَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يظَلِمِ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ

(١) أَي: الْمَتَّعَةُ الْمُنْبَسِطَةُ.

مِنَ الْمُتْرِكِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَشْرَبُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴿١٧﴾

﴿١٧﴾ يخبر تعالى عن حالة المشركين وشركائهم يوم القيامة وتبريهم منهم وبطلان سعيهم، فقال: ﴿ويوم يحشرهم﴾؛ أي: المكذبين المشركين، ﴿وما يعبدون من دون الله فيقول﴾: الله مخاطباً للمعبودين على وجه التقريع لمن عبدهم: ﴿أنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل﴾: هل أمرتموهم بعبادتكم وزيتهم لهم ذلك أم ذلك من تلقاء أنفسهم؟

﴿١٨﴾ ﴿قالوا سبحانك﴾: نزهوا الله عن شرك المشركين به، وبرؤوا أنفسهم من ذلك، ﴿ما كان ينبغي لنا﴾؛ أي: لا يليق بنا ولا يحسن منا أن نتخذ من دونك من أولياء نتولاهم ونعبدهم وندعوهم؛ فإذا كنا محتاجين ومفتقرين إلى عبادتك ومبترين من عبادة غيرك؛ فكيف تأمر أحداً بعبادتنا؟! هذا لا يكون. أو: سبحانك أن نتخذ ﴿من دونك من أولياء﴾: وهذا كقول المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام: ﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب. ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم...﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة هؤلاء إياكم كانوا يعبدون. قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون﴾، ﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾.

فلما نزهوا أنفسهم أن يدعوا لعبادة غير الله أو يكونوا أضلّوهم؛ ذكروا السبب الموجب لإضلال المشركين، فقالوا: ﴿ولكن متفتتهم وآباءهم﴾: في لذات الدنيا وشهواتها ومطالبها النفسية، ﴿حتى نسوا الذكر﴾: اشتغالا في لذات الدنيا وإكباباً على شهواتها؛ فحافظوا على دنياهم وضيعوا دينهم، ﴿وكانوا قوماً بوراً﴾؛ أي: بائرين، لا خير فيهم، ولا يصلحون لصالح، لا يصلحون إلا للهلاك والبوار، فذكروا المانع من اتباعهم الهدى، وهو التمتع في الدنيا، الذي صرفهم عن الهدى، وعدم المقتضي للهدى، وهو أنهم لا خير فيهم؛ فإذا عدمو<sup>(١)</sup> المقتضي ووجد

(١) في (ب): عدم



المانع؛ فلا تشاء من شرِّ وهلاكٍ إلاَّ وجَدْتَهُ فيهم.

﴿١٩﴾ فلما تبرَّوا منهم؛ قال الله توبيخاً وتقريعاً للمعاندين: ﴿فقد كذَّبوكم بما تقولون﴾: إنَّهم أمروكم بعبادتهم ورَضُوا فِعْلَكُمْ وإنَّهم شفِعاء لكم عند ربكم؛ كذَّبوكم في ذلك الزعم، وصاروا من أكبر أعدائِكُمْ، فحقَّ عليكم العذاب. ﴿فما تستطيعون صرفاً﴾: للعذاب عنكم بفِعْلِكُمْ أو بفِداءٍ أو غير ذلك ﴿ولا نصراً﴾: لعجزكم وعدم ناصرِكُمْ. هذا حكم الضالِّين المقلِّدين الجاهلين كما رأيت، أسوأ حكم وأشْرُ مصير. وأما المعاند منهم الذي عَرَفَ الحقَّ وصدَفَ عنه؛ فقال في حقِّه: ﴿ومن يظلم منكم﴾: بترك الحقِّ ظلماً وِعناداً؛ ﴿نُدِّقْهُ عذاباً كبيراً﴾: لا يُقادِرُ قَدْرُهُ ولا يُبلِّغُ أمره.

﴿٢٠﴾ ثم قال تعالى جواباً لقول المكذبين -: ﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾ -: ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلاَّ إنَّهم ليأكلون الطَّعامَ وَيَمْشُونَ في الأسواق﴾: [فما جَعَلْنَاهُمْ جسداً لا يأكلون الطَّعامَ وما جَعَلْنَاهُمْ ملائكةً؛ فلك فيهم أسوءُ، وأما الغنى والفقْرُ؛ فهو فتنةٌ وحكمةٌ من الله تعالى؛ كما قال: ﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة﴾: الرسول فتنةٌ للمرسل إليهم واختبارٌ للمطيعين من العاصين، والرُّسل فتَنَاهُمْ بدعوة الخلق، والغني فتنةٌ للفقير، والفقير فتنةٌ للغني، وهكذا سائر أصناف الخلق في هذه الدار دار الفتن والابتلاء والاختبار، والقصد من تلك الفتنة: ﴿أنصبرون﴾، فتقومون بما هو وظيفتُكم اللازمة الراتبه، فيثيبُكم مولاكم، أم لا تصبرون فتستحقُّون المعاقبة؟ ﴿وكان ربُّك بصيراً﴾: يعلم أحوالكم، ويضطفي من يَعْلَمُهُ يَضْلُحُ لرسالته، ويختصه بتفضيله ويعلم أعمالكم فيجازيكم عليها إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

﴿٢١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُوتُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ يَقُولُونَ جِئْنَا بِمَنْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٣﴾

﴿٢١﴾ أي: قال المكذَّبون للرسول، المكذَّبون بوعد الله ووعيده، الذين ليس في قلوبهم خوفُ الوعيد ولا رجاء لقاء الخالق: ﴿لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا﴾؛ أي: هلاً نزلت الملائكة تشهد لك بالرسالة وتؤيِّدك عليها، أو تنزل رسلاً مستقلين، أو نرى ربنا فيكلِّمنا ويقول: هذا رسولي؛ فاتبعوه! وهذا معارضة للرسول

بما ليس بمعارضٍ، بل بالتكبر والعلو والعتو. ﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾: حيث اقترحوا هذا الاقتراح وتجرؤوا هذه الجرأة؛ فمن أنتم يا فقراء ويا مساكين حتى تطلبوا رؤية الله وتزعموا<sup>(١)</sup> أن الرسالة متوقِّف ثبوتها على ذلك؟! وأي كِبَرٍ أعظم من هذا؟! ﴿وَعَتَوْا عُنْتَوْا كَبِيرًا﴾؛ أي: قسوا وصلبوا عن الحق قساوة عظيمة؛ فقلوبهم أشد من الأحجار وأصلب من الحديد، لا تلين للحق ولا تُضغي للناصحين؛ فلذلك لم ينجع فيهم وعظ ولا تذكير، ولا اتبعوا الحق حين جاءهم النذير، بل قابلوا أصدق الخلق وأنصحهم وآيات الله البيّنات بالإعراض والتكذيب [والمعارضة]؛ فأبي عتو أكبر من هذا العتو؟! ولذلك بطلت أعمالهم، واضمحلت، وخسروا أشد الخسران، [وحرموا غاية الحرمان].

﴿٢٢﴾ ﴿يَوْمَ يَرُونَ الْمَلَائِكَةَ﴾: [التي اقترحوا نُزُولَهَا]، ﴿لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾: وذلك أنهم لا يَرَوْنَهَا مع استمرارهم على جُزْمِهِمْ وعنادهم إلا لعقوبتهم وحلول البأس بهم: فأول ذلك عند الموت إذا تنزلت عليهم الملائكة؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمْرَاتِ الموتِ وَالْمَلَائِكَةُ بِأَسْطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنْفُسَكُمْ اليَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الهُونِ بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون﴾. ثم في القبر حيث<sup>(٢)</sup> يأتيهم منكرٌ ونكيرٌ، فيسألهم عن ربهم ونبئهم ودينهم، فلا يجيبون جواباً يُنجيهم، فيحلون بهم النقمة وتزول عنهم بهم الرحمة.

ثم يوم القيامة حين تسوقهم الملائكة إلى النار، ثم يسلمونهم لخزنة جهنم، الذين يتولون عذابهم ويباشرّون عقابهم. فهذا الذي اقترحوه وهذا الذي طلبوه إن استمرؤا على إجرامهم لا بد أن يَرَوْهُ وَيَلْقَوْهُ، وحينئذ يتعوذون من الملائكة ويفرون، ولكن لا مفرّ لهم، ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾: ﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تُنْقِذُوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسُلْطَانٍ﴾.

﴿٢٣﴾ ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى ما عملوا من عمل﴾؛ أي: أعمالهم التي رجّوا أن تكون خيراً وتعبوا فيها، ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾؛ أي: باطلاً مضمحلاً قد خسروه وحرّموا أجره وعوقبوا عليه، وذلك لفقده الإيمان وصدوره عن مكذب لله ورسله؛ فالعمل الذي يقبله الله ما صدر من المؤمن المخلص المصدق للرسول المتبع لهم فيه.

(٢) في (ب): «حين».

(١) في (ب): «وتزعمون».

﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ .

﴿٢٤﴾ أي: في ذلك اليوم الهائل كثير البلبال، ﴿أصحاب الجنة﴾: الذين آمنوا بالله وعملوا صالحاً وأتقوا ربهم ﴿خير مستقراً﴾: من أهل النار، ﴿وأحسن مقيلاً﴾؛ أي: مستقرهم في الجنة وراحتهم التي هي القيلولة هو المستقر النافع والراحة التامة؛ لاشتغال ذلك على تمام النعيم الذي لا يشوبه كدر؛ بخلاف أصحاب النار؛ فإن جهنم مستقرهم ساءت مستقراً ومقيلاً، وهذا من باب استعمال أفعال التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر منه شيء؛ لأنه لا خير في مقييل أهل النار ومستقرهم؛ كقوله: ﴿الله خيرٌ أما يُشركون﴾ .

﴿وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِّمْ وَزُلَّ الْمَلَكُتُ تَنْزِيلًا ﴿٢٥﴾ أَلَمْ تَكُ يَوْمَئِذٍ أَحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَوْمَئِذٍ لَيْتَنِي لَمْ أَخَذْ فَلَانًا حَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَدُولًا ﴿٢٩﴾﴾ .

﴿٢٥ - ٢٦﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ عَظَمَةِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَا فِيهِ مِنَ الشَّدَّةِ وَالْكَرُوبِ وَمَزْعَجَاتِ الْقُلُوبِ، فَقَالَ: ﴿وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِّمْ﴾: وذلك الغمام الذي ينزل الله فيه؛ ينزل من فوق السماوات، فَتَنْفَطِرُ لَهُ السَّمَاوَاتُ وَتَشْقُقُ وَتَنْزِلُ [ملائكة] (١) كُلُّ سَمَاءٍ، فيقفون صفًا صفًا، إِمَّا صَفًّا وَاحِدًا مُحِيطًا بِالْخَلَائِقِ، وَإِمَّا كُلُّ سَمَاءٍ يَكُونُونَ صَفًّا، ثُمَّ السَّمَاءُ الَّتِي تَلِيهَا صَفًّا (٢)، وَهَكَذَا الْقَصْدُ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ عَلَى كَثْرَتِهِمْ وَقَوَّتِهِمْ يَنْزِلُونَ مُحِيطِينَ بِالْخَلْقِ مُذْعِنِينَ لِأَمْرِ رَبِّهِمْ لَا يَتَكَلَّمُ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ؛ فَمَا ظَنُّكَ بِالْأَدْمِيِّ الضَّعِيفِ، خُصُوصًا الَّذِي بَارَزَ مَالِكَهُ بِالْعِظَائِمِ، وَأَقْدَمَ عَلَى مَسَاطِيهِ، ثُمَّ قَدِمَ عَلَيْهِ بِذُنُوبٍ وَخَطَايَا لَمْ يَتَبَّ مِنْهَا، فَيُحَكَّمُ فِيهِ الْمَلِكُ الْخَلَائِقُ (٣) بِالْحُكْمِ الَّذِي لَا يَجُورُ وَلَا يَظْلُمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾: لضعوبته الشديدة وتعسر أمره عليه؛ بخلاف المؤمن؛ فإنه

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «الملائكة».

(٢) رواه الحاكم (٥٦٩/٤ و ٥٧٠) عن ابن عباس موقوفًا، وقال الذهبي: «إسناده قوي». ورواه الدارمي في «الرد على الجهمية» (١٤٢ و ١٤٣)، وانظر «الدر المشور» (١٢٣/٥).

(٣) في (ب): «الحق».

يسيرُ عليه خفيفُ الحمل: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفدًا. وَنَسْوَ قُ الْمَجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ زُرَدًا﴾. وقوله: ﴿الملك يومئذ﴾؛ أي: يوم القيامة، ﴿الحقُّ للرحمن﴾: لا يبقى لأحدٍ من المخلوقين مُلكٌ ولا صورةٌ مُلكٌ؛ كما كانوا في الدنيا، بل قد تساوت الملوكُ ورعاياهم والأحرارُ والعيبدُ والأشرافُ وغيرهم.

ومما يرتاحُ له القلبُ وتطمئنُ به النفسُ وينشرحُ له الصدرُ أنه أضاف الملكَ في يوم القيامة لاسمِهِ الرحمن؛ الذي وسعت رحمتهُ كلُّ شيءٍ، وعمت كلُّ حيٍّ، وملاّت الكائناتِ، وعمرت بها الدنيا والآخرة، وتمَّ بها كلُّ ناقصٍ، وزال بها كلُّ نقصٍ، وغلبت الأسماءُ الدالَّةُ عليه الأسماءُ الدالَّةُ على الغضب، وسبقت رحمتهُ غضبهُ وغلبتهُ؛ فلها سبقُ والغلبةُ، وحلَّقَ هذا الآدميُّ الضعيفُ وشرفهُ وكرمه ليُتمَّ عليه نعمته وليتغمَّده برحمته، وقد حضروا في موقف الذلِّ والخضوع والاستكانة بين يديه؛ ينتظرون ما يحكم فيهم وما يُجري عليهم، وهو أرحم بهم من أنفسهم ووالديهم؛ فما ظنُّك بما يعاملهم به، ولا يَهْلِكُ على الله إلا هالكٌ، ولا يخرج من رحمته إلا من غلبت عليه الشقاوة، وحقت عليه كلمة العذاب.

﴿٢٧﴾ ﴿ويوم يعص الظالم﴾: بشركه وكفروه وتكذيبه للرسول ﴿على يديه﴾: تأسفًا وتحسُّرًا وحزنًا وأسفًا، ﴿يقول يا ليتني اتَّخَذْتُ مع الرسول سبيلاً﴾؛ أي: طريقاً بالإيمان به وتصديقه وأتباعه.

﴿٢٨﴾ ﴿يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلاناً﴾: وهو الشيطان الإنسيُّ أو الجنِّيُّ ﴿خليلاً﴾؛ أي: حبيباً مضافاً، عاديثُ أنصح الناس لي وأبرهم بي وأرفقهم بي، وواليتُ أعدى عدوِّ لي، الذي لم تُفدني ولايتهُ إلا الشقاء والخسارَ والخزيَّ والبوارَ.

﴿٢٩﴾ ﴿لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني﴾: حيث زين له ما هو عليه من الضلال بخدعه وتسويله، ﴿وكان الشيطان للإنسان خذولاً﴾: يزين له الباطل ويبخُّ له الحقَّ ويعده الأمانى ثم يتخلَّى عنه ويتبرأ منه؛ كما قال لجميع أتباعه حين قُضي الأمرُ وفرغَ الله من حساب الخلق: ﴿وقال الشيطان لما قُضي الأمرُ إنَّ اللهَ وَعَدَّكُمْ وَعَدَّ الحقُّ ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطانٍ إلا أن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتُم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمُضْرِحِكُمْ وما أنتم بمُضْرِحِي إنِّي كُفرتُ بما أشركتُموني من قبل...﴾ الآية؛ فلينظر العبد لنفسه وقت الإمكان،

وليتدارك<sup>(١)</sup> الممكن قبل أن لا يمكن، وليوالي من ولايته فيها سعادته، ويعادي من تنفعه عداوته وتضره صداقته. والله الموفق.

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

﴿٣٠﴾ ﴿وقال الرسول﴾: منادياً لربه وشاكياً عليه إعراض قوميه عما جاء به ومتأسفاً على ذلك منهم: ﴿يا رب إن قومي﴾: الذي أرسلتني لهدايتهم وتبليغهم ﴿اتخذوا هذه القرآن مهجوراً﴾؛ أي: قد أعرضوا عنه وهجروه وتركوه، مع أن الواجب عليهم الانقياد لحكمه والإقبال على أحكامه والمشى خلفه.

﴿٣١﴾ قال الله مسلياً لرسوله ومخبراً: إن هؤلاء الخلق لهم سلف صنعوا كصنيعهم، فقال: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين﴾؛ أي: من الذين لا يصلحون للخير ولا يزكون عليه؛ يعارضونهم، ويرثون عليهم، ويجادلونهم بالباطل. من بعض فوائد ذلك أن يعلو الحق على الباطل، وأن يتبين الحق ويتضح اتضاحاً عظيماً؛ لأن معارضة الباطل للحق مما تزيد وضوحاً وبياناً وكمالاً استدلالاً، وأن نتبين ما يفعل الله بأهل الحق من الكرامة، وبأهل الباطل من العقوبة؛ فلا تحزن عليهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، ﴿وكفى بربك هادياً﴾: يهديك فيحصل لك المطلوب ومصالح دينك ودنياك، ﴿ونصيراً﴾: ينصرك على أعدائك، ويدفع عنك كل مكروه في أمر الدين والدنيا؛ فاكثف به وتوكل عليه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

﴿٣٢﴾ هذا من جملة مقترحات الكفار الذي توحيه إليهم أنفسهم، فقالوا: ﴿لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة﴾؛ أي: كما أنزلت الكتب قبله. وأي محذور من نزوله على هذا الوجه؟! بل نزوله على هذا الوجه أكمل وأحسن، ولهذا قال: ﴿كذلك﴾: أنزلناه متفرقاً ﴿لنثبت به فؤادك﴾: لأنه كلما نزل عليه شيء من القرآن؛ ازداد طمأنينة وثباتاً، وخصوصاً عند ورود أسباب القلق؛ فإن نزول القرآن عند حدوته يكون له موقع عظيم وتثبيت كثير أبلغ مما لو كان نازلاً قبل ذلك ثم تذكره

(١) في (ب): «وليتدارك».

عند حلول سببه، ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾؛ أي: مَهْلِنَاهُ، ودرَجْنَاكَ فِيهِ تَدْرِجًا.

وهذا كله يدلُّ على اعتناء الله بكتابه القرآن وبرسوله محمد ﷺ؛ حيث جعل إنزال كتابه جارياً على أحوال الرسول ومصالحه الدينية.

﴿٣٣﴾ ولهذا قال: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾: يعارضون به الحق ويدفعون به رسالتك، ﴿إِلَّا جِنَّاتِكُ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾؛ أي: أنزلنا عليك قرآناً جامعاً للحق في معانيه والوضوح والبيان التام في ألفاظه؛ فمعانيه كلها حق وصدق لا يشوبها باطل ولا شبهة بوجه من الوجوه، وألفاظه وحدوده للأشياء أوضح ألفاظاً وأحسن تفسيراً، مبين للمعاني بياناً كاملاً.

وفي هذه الآية دليل على أنه ينبغي للمتكلم في العلم من محدث ومعلم وواعظ أن يقتدي بربه في تدبيره حال رسوله، كذلك العالم يدبر أمر الخلق، وكلما حدث موجب أو حصل موسم؛ أتى بما يناسب ذلك من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والمواعظ الموافقة لذلك.

وفيه رد على المتكلمين من الجهمية ونحوهم ممن يرى أن كثيراً من نصوص القرآن محمولة على غير ظاهرها، ولها معانٍ غير ما يفهم منها؛ فإذا على قولهم لا يكون القرآن أحسن تفسيراً من غيره، وإنما التفسير الأحسن على زعمهم تفسيرهم الذي حرّفوا له المعاني تحريفاً!

﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (٣٤).

﴿٣٤﴾ يخبر تعالى عن حال المشركين الذين كذبوا رسوله وسوء مآلهم وأنهم يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ: في أشنع مرأى وأفظع منظر، تسحبهم ملائكة العذاب ويجزؤونهم ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾: الجامعة لكل عذاب وعقوبة، ﴿أُولَٰئِكَ﴾: الذين بهذه الحال ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾: ممن آمن بالله وصدق رسله ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾: وهذا من باب استعمال أفعال التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر منه شيء؛ فإن المؤمنين حسن مكانهم ومستقرهم، واهتدوا في الدنيا إلى الصراط المستقيم، وفي الآخرة إلى الوصول إلى جنات النعيم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا﴾ (٣٥) ﴿فَلَمَّا أَذْهَبَ إِلَىٰ الْتَمِيمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَذَمَرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾ (٣٦) ﴿وَقَوْمٌ نُوْحٌ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٣٧) ﴿وَإِذْ أَخْبَرْنَا لُقْمَانَ الرِّسَّ وَقَرُونَا﴾

بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَنْبِيْرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَنَا عَلَى الْقَرْيَةِ  
الَّتِي أَمْطَرْتُ مَطَرَ السَّوْءِ أَفْكَمَ يَكْفُرُونَ بِرَبِّهِمْ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ شُورًا ﴿٤٠﴾ .

﴿٣٥ - ٤٠﴾ أشار تعالى إلى هذه القصص، وقد بسطها في آياتٍ أُخَرَ؛ ليحذّر  
المخاطبين من استمرارهم على تكذيب رسولهم، فيصيبهم ما أصاب هؤلاء الأمم الذين  
كانوا<sup>(١)</sup> قريباً منهم ويعرفون قصصهم بما استفاض واشتهر عنهم، ومنهم مَنْ يَرُونَ أَنَا زَهُم  
عياناً؛ كقوم صالح في الحجر، وكالقرية التي<sup>(٢)</sup> أَمْطَرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ بحجارة من سجيل؛  
يمرّون عليهم مصبحين وبالليل في أسفارهم؛ فَإِنَّ أَوْلَئِكَ الْأُمَّمَ لَيْسُوا شُرًا مِنْهُمْ، ورسلمهم  
ليسوا خيراً من رسول هؤلاء؛ ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَئِكَمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾، ولكنّ  
الذي منع هؤلاء من الإيمان مع ما شاهدوا من الآيات أنهم كانوا لا يَزْجُونَ بَعْثًا وَلَا  
نُشُورًا؛ فلا يرجون لقاء ربهم، ولا يَخْشَوْنَ نَكَالَهُ؛ فلذلك استمروا على عنادهم، وإلّا؛  
فقد جاءهم من الآيات ما لا يبقى معه شكٌ ولا شبهةٌ ولا إشكالٌ ولا ارتيابٌ.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَنْخُذُونَكَ إِلَّا هُزُؤًا أَهْذًا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِنْ كَادَ لِيُضِلَّنَا  
عَنِ الْهَيْتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا  
﴿٤٢﴾ أَوَيْتَ مِنَ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْبَهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ  
يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ .

﴿٤١﴾ أي: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ﴾: يا محمد؛ هؤلاء المكذّبون لك، المعاندون لآيات  
اللّه، المستكبرون في الأرض؛ استهزؤوا بك، واحترقوا، وقالوا على وجه  
الاحتقار والاستصغار: ﴿أَهْذًا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾؛ أي: غير مناسب ولا لائق  
أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ هَذَا الرَّجُلَ! وهذه من شدّة ظلمهم وعنادهم وقلبهم الحقائق؛ فَإِنَّ  
كَلَامَهُمْ هَذَا يُفْهِمُ أَنَّ الرَّسُولَ - حَاشَاهُ - فِي غَايَةِ الْخِيسَةِ وَالْحِقَارَةِ، وَأَنَّهُ لَوْ كَانَتْ  
الرِّسَالَةُ لغيره؛ لكان أنسب. ﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين  
عظيم﴾؛ فهذا الكلام لا يصدرُ إلّا من أجهل الناس وأضلهم، أو من أعظمهم  
عناداً، وهو متجاهلٌ، قصده ترويح ما معه من الباطل بالقدح بالحقّ وبمن جاء به،  
وإلّا؛ فمن تدبّر أحوال محمد بن عبد الله ﷺ؛ وَجَدَهُ رَجُلًا الْعَالَمَ وَهَمَامَهُمْ  
ومقدّمهم في العقل والعلم واللّب والرّزانة ومكارم الأخلاق ومحاسن الشيم والعفة

(١) في (ب): «الذين قريباً».

(٢) كذا في (ب). وفي (أ): «الذي».

والشجاعة والكرم وكلُّ خُلُقٍ فاضلٍ. وأنَّ المحتقرَ له والشانئ له قد جمع من السَّفَه والجهل والضلال والتناقض والظلم والعدوان ما لا يجمعه غيره. وحسبه جهلاً وضلالاً أن يَقْدَحَ بهذا الرسول العظيم والهمام الكريم، والقصد من قدحهم فيه واستهزائهم به؛ تصلبهم على باطلهم وغروراً لضعفاء العقول.

﴿٤٢﴾ ولهذا قالوا: ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ [هذا الرجل]: بأن يجعل الآلهة إلهاً واحداً، ﴿لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾: لأضلنا. زعموا قبَّحهم الله أن الضلال هو التوحيد، وأن الهدى ما هم عليه من الشرك؛ فلهدا تواصوا بالصبر عليه، ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امشوا واصبروا على آلهتكم﴾، وهنا قالوا: ﴿لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾: والصبر يُحمد في المواضع كلها؛ إلا في هذا الموضع؛ فإنه صبرٌ على أسباب الغضب، وعلى الاستكثار من حطب جهنم، وأما المؤمنون؛ فهم كما قال الله عنهم: ﴿وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾، ولما كان هذا حكماً منهم بأنهم المهتدون والرسول ضالاً، وقد تقرر أنهم لا حيلة فيهم توعدهم بالعذاب، وأخبر أنهم في ذلك الوقت، ﴿حين يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾: يعلمون علماً حقيقياً، ﴿مَنْ﴾ هو ﴿أَضَلَّ سَبِيلاً﴾. ﴿ويوم يَعْصُ الظالم على يديه يقول يا ليتني اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً...﴾ الآيات.

﴿٤٣﴾ وهل فوق ضلال مَنْ جعل إلهه معبوده<sup>(١)</sup>؛ فما هو به فعله؟! فلهدا قال: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾: ألا تعجب من حاله وتنظر ما هو فيه من الضلال وهو يحكم لنفسه بالمنازل الرفيعة، ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾؛ أي: لست عليه بمسيطر مسلط، بل إنما أنت منذرٌ قد<sup>(٢)</sup> قمتَ بوظيفتك. وحسابه على الله.

﴿٤٤﴾ ثُمَّ سَجَّلَ تَعَالَى عَلَى ضَلَالِهِمُ الْبَلِيغَ بِأَنْ سَلَبَهُمُ الْعُقُولَ وَالْأَسْمَاعَ، وَشَبَّهَهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ بِالْأَنْعَامِ السَّائِمَةِ الَّتِي لَا تَسْمَعُ إِلَّا دَعَاءَ وَنِدَاءَ ﴿صَمَّ بِكُمْ عَمِيٌّ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، بل هم أضلُّ من الأنعام؛ فإن<sup>(٣)</sup> الأنعام يهديها راعيها فتهتدي، وتعرف طريق هلاكها فتجتنبه، وهي أيضاً أسلم عاقبةً من هؤلاء، فتبيِّن بهذا أن الرامي للرسول بالضلال أحقُّ بهذا الوصف، وأنَّ كلَّ حيوان بهيم؛ فهو أهدى منه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظَّلْمَ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾  
ثُمَّ قَبَضَتْهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾.

(٢) في (ب): «وقد».

(١) كذا في النسخين.

(٣) في (ب): «لأن».



﴿٤٥ - ٤٦﴾ أي: ألم تشاهد ببصرك وبصيرتك كمال قدرة ربك وسعة رحمته: أنه مدَّ على العباد الظلَّ، وذلك قبل طلوع الشمس، ﴿ثم جعلنا الشمس عليه﴾؛ أي: على الظلَّ ﴿دليلاً﴾: فلولا وجود الشمس؛ لما عرِفَ الظلُّ؛ فإنَّ الضدَّ يعرف بضده، ﴿ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً﴾؛ فكُلَّمَا ارتفعتِ الشمس؛ تقلَّصَ الظلُّ شيئاً فشيئاً، حتى يذهب بالكُلِّيَّة. فتوالي الظل والشمس على الخلق الذي يشاهدونه عياناً، وما يترتَّب على ذلك من اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما وتعاقبِ الفصول وحصول المصالح الكثيرة بسبب ذلك؛ من أدلِّ دليل على قدرة الله وعظمته، وكمال رحمته وعنايته بعباده، وأنه وحده المعبودُ المحمودُ المحبوبُ المعظمُ ذو الجلال والإكرام.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِيَأْسَ وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾.

﴿٤٧﴾ أي: من رحمته بكم ولطفه أن جعلَ الليلَ لكم بمنزلةِ اللباسِ الذي يَغشاكم حتى تستقروا فيه، وتهذؤوا بالنوم وتسبُت حركاتكم؛ أي: تقطع عند النوم؛ فلولا الليل؛ لما سكن العبادُ، ولا استمروا في تصرفهم، فضرَّهم ذلك غاية الضرر، ولو استمرَّ أيضاً الظلام؛ لتعطلت عليهم معاشهم ومصالحهم، ولكنه جعل النهار نُشوراً؛ ينتشرون فيه لتجاراتهم وأسفارهم وأعمالهم، فيقوم بذلك ما يقوم من المصالح.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْاسٍ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾.

﴿٤٨ - ٤٩﴾ أي: هو وحده الذي رحم عباده وأدرَّ عليهم رزقه بأن أرسل الرياح مبشراتٍ بين يدي رحمته، وهو المطر، فثار بها السحاب وتألَّف، وصار كِسْفًا وألْقَحَتْهُ وأدرَّته بإذن أمرها والمتصرف فيها؛ ليقع استبشار العباد بالمطر قبل نزوله، وليستعدوا له قبل أن يَفْجَأَهُمْ دفعةً واحدة، ﴿وأنزلنا من السماء ماء طهوراً﴾: يطهر من الحدث والحَبَث، ويطهر من الغش والأدناس، وفيه بركة من بركته؛ أنه أنزله ليحيي به بلدةً ميتاً، فتختلف أصناف النوبات والأشجار فيها مما يأكل الناس والأنعام، ﴿ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسٍ كثيراً﴾؛ أي: نسقيكموه أنتم وأنعامكم؛ أليس الذي أرسل الرياح المبشرات، وجعلها في عملها متنوعات، وأنزل

من السماء ماء طهوراً مباركاً، فيه رزقُ العباد ورزقُ بهائمهم؛ هو الذي يستحقُّ أن يُعبدَ وحده ولا يُشركَ معه غيره؟!!

﴿٥٠﴾ ولما ذكر تعالى هذه الآيات العيانة المشاهدة، وصرّفاً للعباد ليعرفوه ويشكروه ويذكروه؛ مع ذلك: أبى ﴿أكثرُ الناس إلا كُفوراً﴾: لفساد أخلاقهم وطبائعهم.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾.

﴿٥١﴾ يخبر تعالى عن نفوذ مشيئته، وأنه لو شاء؛ لبعث في كل قرية نذيراً؛ أي: رسولاً يندبهم ويحذّرهم؛ فمشيئته غير قاصرة عن ذلك، ولكن اقتضت حكمته ورحمته بك وبالعباد يا محمد أن أرسلك إلى جميعهم؛ أحمرهم وأسودهم، عربيتهم وعجميتهم، إنسهم وجنهم.

﴿٥٢﴾ ﴿فلا تُطِيعُ الكافرين﴾: في ترك شيء مما أُرسلتَ به، بل ابدل جهداً في تبليغ ما أُرسلتَ به، ﴿وجاهدْهم﴾: بالقرآن ﴿جهاداً كبيراً﴾؛ أي: لا تُبتغِ من مجهودك في نصر الحقِّ وقمع الباطل إلاً بذلته، ولو رأيت منهم من التكذيب والجرأة ما رأيت؛ فابدل جهداً، واستفرغ وسعك، ولا تيأس من هدايتهم، ولا تترك إبلأغهم لأهوائهم.

﴿هُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾.

﴿٥٣﴾ أي: ﴿وهو﴾: وحده ﴿الذي مَرَجَ البحرين﴾: يلتقيان؛ البحر العذب، وهي الأنهار السارحة على وجه الأرض، والبحر الملح، وجعل منفعة كل واحد منهما مصلحةً للعباد. ﴿وجعل بينهما برزخاً﴾؛ أي: حاجزاً يحجز من اختلاط أحدهما بالآخر، فتذهب المنفعة المقصودة منها ﴿وحجراً محجوراً﴾؛ أي: حاجزاً حصيناً.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾.

﴿٥٤﴾ أي: وهو الله وحده لا شريك له الذي خلق آدمي من ماء مهين، ثم نشر منه ذرية كثيرة، وجعلهم أنساباً وأصهاراً، متفرقين ومجتمعين، والمادة كلها من

ذَٰلِكَ الْمَاءَ الْمَمِينِ؛ فهذا يدلُّ على كمال اقتداره؛ لقوله: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾، ويدلُّ على أنَّ عبادته هي الحقُّ وعبادة غيره باطلة؛ لقوله:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾.

﴿٥٥﴾ أي: يعبدون أصناماً وأمواتاً لا تضرُّ ولا تنفع، ويجعلونها أنداداً لمالك النفع والضرر والعطاء والمنع؛ مع أنَّ الواجب عليهم أن يكونوا مُقْتَدِينَ بِإِرشَادَاتِ رَبِّهِمْ، ذَابِينَ عن دينه، ولكنَّهُمْ عكسوا القضية، ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾: فالباطل الذي هو الأوثان والأنداد أعداء لله؛ فالكافر عاونها وظاهرها على ربِّها، وصار عدواً لربِّه مبارزاً له في العداوة والحرب؛ هذا هو الذي خلقه ورزقه وأنعم عليه بالنعمة الظاهرة والباطنة، وليس يخرجُ عن ملكه وسلطانه وقبضته، والله لم يقطع عنه إحسانه وبره، وهو بجعله مستمرًّا على هذه المعاداة والمبارزة.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِن أَجْرٍ إِلَّا مِن شَاءِ أَن يَتَّخِذَ إِلَيْكَ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ۗ وَكَفَىٰ بِهِ إِذْ تُؤَيَّدُ بِهِ عِبَادُهُ خَيْرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَأَلْ بِهِ خَيْرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾﴾.

﴿٥٦﴾ يخبر تعالى أنه ما أرسل رسوله محمداً ﷺ مسيطراً على الخلق، ولا جعله ملكاً، ولا عنده خزائن الأشياء، وإنما أرسله ﴿مُبَشِّرًا﴾: يبشِّر من أطاع الله بالثواب العاجل والآجل. ﴿ونذيراً﴾: ينذر من عصى الله بالعقاب العاجل والآجل، وذلك مستلزمٌ لتبيين ما به البشارة، وما تحصلُ به النذارة من الأوامر والنواهي.

﴿٥٧﴾ وإنك يا محمد لا تسألهم على إبلاغهم القرآن والهدى أجراً حتى يَمْنَعَهُمْ ذلك من أتباعك ويتكلفون من الغرامة، ﴿إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾؛ أي: إلا مَن شاء أن يُنْفِقَ نفقةً في مرضاة ربِّه وسبيله؛ فهذا؛ وإن رغبتكم فيه؛ فلستُ أجبركم عليه، وليس أيضاً أجراً لي عليكم، وإنما هو راجعٌ لمصلحتكم وسلوكم للسبيل الموصلة إلى ربكم.

﴿٥٨﴾ ثم أمره أن يتوكَّل عليه ويستعين به، فقال: ﴿وتوكل على الحي﴾: الذي له الحياة الكاملة المطلقة ﴿الذي لا يموتُ وسبح بحمده﴾؛ أي: عبده وتوكل عليه

في الأمور المتعلقة بك والمتعلقة بالخلق، ﴿وكفى به بذنوب عباده خبيراً﴾: يَعلِّمها ويجازي عليها؛ فانتَ ليس عليك من هداهم شيء، وليس عليك حفظ أعمالهم، وإنما ذلك كله بيد الله.

﴿٥٩﴾ ﴿الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى﴾: بعد ذلك ﴿على العرش﴾: الذي هو سقف المخلوقات وأعلاها وأوسعها وأجملها، ﴿الرحمن﴾: استوى على عرشه الذي وسع السماوات والأرض باسمه الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء، فاستوى على أوسع المخلوقات بأوسع الصفات، فأثبت بهذه الآية خلقه للمخلوقات وإطلاعه على ظاهريهم وباطنيهم وعلوه فوق العرش ومباينته إياهم. ﴿فاسأل به خبيراً﴾؛ يعني: بذلك نفسه الكريمة؛ فهو الذي يعلم أوصافه وعظمته وجلاله، وقد أخبركم بذلك، وأبان لكم من عظمته ما [تسعدون]<sup>(١)</sup> به من معرفته، فعرفه العارفون وخضعوا لجلاله، واستكبر عن عبادته الكافرون، واستكفوا عن ذلك.

﴿٦٠﴾ ولهذا قال: ﴿وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن﴾؛ أي: وحده، الذي أنعم عليكم بسائر النعم، ودفع عنكم جميع النقم، ﴿قالوا﴾ جحداً وكفراً: ﴿وما الرحمن﴾: بزعمهم الفاسد أنهم لا يعرفون الرحمن، وجعلوا من جملة قوادجهم في الرسول أن قالوا: ينهانا عن اتخاذ آلهة مع الله، وهو يدعو معه إلهاً آخر؛ يقول: يا رحمن<sup>(٢)</sup>! ونحو ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿قل اذعوا لله أو اذعوا للرحمن أيأ ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾: فأسمائه تعالى كثيرة لكثرة أوصافه وتعدد كماله؛ فكل واحد منها دل<sup>(٣)</sup> على صفة كمال، ﴿أنسجد لما تأمرنا﴾؛ أي: لمجرد أمرِك إيانا، وهذا مبني منهُم على التكذيب بالرسول واستكبارهم عن طاعته، ﴿وزادهم﴾: دعوتهم إلى السجود للرحمن ﴿نفوراً﴾: هرباً من الحق إلى الباطل وزيادة كفر وشقاء.

﴿بَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِيفَةً لِمَن أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾.

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «تستعدون».

(٢) أخرجه البخاري في «خلق أفعال العباد» (٣٥٥). وانظر «تفسير الطبري» (١٧/٥٨٠).

(٣) في (ب): «دال».

كُرِّرَ تعالى في هذه السورة الكريمة قوله: ﴿تبارك﴾؛ ثلاث مرّات؛ لأنّ معناها كما تقدّم أنّها تدلّ على عظمة الباري وكثرة أوصافه وكثرة خيراته وإحسانه.

وهذه السورة فيها من الاستدلال على عظمته وسعة سلطانه ونفوذ مشيئته وعموم علمه وقدرته وإحاطة ملكه في الأحكام الأمريّة والأحكام الجزائيّة وكمال حكمته.

وفيها: ما يدلّ على سعة رحمته وواسع جوده وكثرة خيراته الدينيّة والدنيويّة ما هو مقتضى لتكرار هذا الوصف الحسن.

﴿٦١﴾ فقال: ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجاً﴾: وهي النجوم عمومها أو منازل الشمس والقمر التي [تنزلها]<sup>(١)</sup> منزلةً منزلةً، وهي بمنزلة البروج والقلاع للمدن في حفظها، كذلك النجوم بمنزلة البروج المجعولة للحراسة؛ فإنّها رجومٌ للشياطين، ﴿وجعل فيها سراجاً﴾: فيه النور والحرارة، وهي<sup>(٢)</sup> الشمس ﴿وقمراً منيراً﴾: فيه النور لا الحرارة، وهذا من أدلّة عظمته وكثرة إحسانه؛ فإنّ ما فيها من الخلق الباهر والتدبير المنتظم والجمال العظيم دالٌّ على عظمة خالقها في أوصافه كلّها، وما فيها من المصالح للخلق والمنافع دليلٌ على كثرة خيراته.

﴿٦٢﴾ وهو الذي جعل الليل والنهار خلفاً؛ أي: يذهب أحدهما؛ فيخلّفه الآخر، هكذا أبداً لا يجتمعان ولا يرتفعان، ﴿لمن أراد أن يذكّر أو أراد شكوراً﴾؛ أي: لمن أراد أن يتذكّر بهما ويعتبر ويستدلّ بهما على كثير من المطالب الإلهيّة ويشكر الله على ذلك، ولمن أراد أن يذكّر الله ويشكره، وله وردٌ من الليل أو النهار؛ فمن فاتّه ورده من أحدهما؛ أدركه في الآخر، وأيضاً؛ فإنّ القلوب تتقلّب وتنتقل في ساعات الليل والنهار، فيحدث لها النشاط والكسل والذكور والغفلة والقبض والبسط والإقبال والإعراض، فجعل الله الليل والنهار يتوالى على العباد ويتكرران؛ ليحدث لهما الذكر والنشاط والشكر لله في وقت آخر، ولأنّ أوقات<sup>(٣)</sup> العبادات تتكرّر بتكرّر الليل والنهار؛ فكلمًا تكرّرت الأوقات؛ أحدث للعبد همّة غير همّته التي كسلت في الوقت المتقدّم، فزاد في تذكرها وشكرها، فوظائف الطاعات بمنزلة سقي الإيمان الذي يمده؛ فلولا ذلك؛ لذوى غرس الإيمان ويبس، فلله أتمّ حمدٍ وأكملهُ على ذلك.

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «تنزل».

(٢) في (ب): «وهو».

(٣) في (ب): «أوراد».

ثم ذكر من جملة كثرة خيرِهِ، مَنَّهُ على عبادِهِ الصالحين وتوفيقِهِم للأعمال الصالحات التي أكسبتهُم المنازل العاليات في غرف الجنات، فقال:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾  
 وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ  
 النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ  
 الْمَكَادِبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَحْتَدِّ فِيهِ مِهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا  
 فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا  
 فَإِنَّهُ يَنْوِبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾  
 وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ  
 لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا فُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ  
 الْفُرْقَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا مَجِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا  
 ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾ .

﴿٦٣﴾ العبودية لله نوعان: عبودية لربوبيته؛ فهذه يشترك فيها سائر الخلق؛ مسلمهم وكافرهم، برهم وفاجرهم؛ فكلهم عبيد لله مربوبون مدبرون، ﴿إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا﴾ .

وعبودية لألوهيته وعبادته ورحمته، وهي عبودية أنبيائه وأوليائه، وهي المراد هنا، ولهذا أضافها إلى اسمه الرحمن؛ إشارة إلى أنهم إنما وصلوا إلى هذه الحال بسبب رحمته، فذكر [أن] صفاتهم أكمل الصفات ونعوتهم أفضل النعوت، فوصفهم بأنهم ﴿يمشون على الأرض هونا﴾؛ أي: ساكنين متواضعين لله وللخلق؛ فهذا وصف لهم بالوقار والسكينة والتواضع لله و لعباده، ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون﴾؛ أي: خطاب جهل؛ بدليل إضافة الفعل وإسناده لهذا الوصف، ﴿قالوا سلاما﴾؛ أي:

(١) في النسختين إلى آخر السورة الكريمة .

خَاطَبُوهم خطاباً يَسْلَمُونَ فيه من الإثم، وَيَسْلَمُونَ من مقابلة الجاهل بجهله، وهذا مدح لهم بالحلم الكثير ومقابلة المسيء بالإحسان والعفو عن الجاهل ورزانة العقل الذي أوصلهم إلى هذه الحال.

﴿٦٤﴾ ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾؛ أي: يكثرُونَ من صلاة الليل مخلصين فيها لربهم متذللين له؛ كما قال تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ. فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿٦٥﴾ ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾؛ أي: ادفعه عنا بالعصمة من أسبابه ومغفرة ما وَقَعَ مِنَّا مما هو مقتضٍ للعذاب، ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾؛ أي: ملازمًا لأهلها بمنزلة ملازمة الغريم لغريمه.

﴿٦٦﴾ ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾: وهذا منهم على وجه التضرع لربهم، وبيان شدة حاجتهم إليه، وأنهم ليس في طاقتهم احتمال هذا العذاب، وليتذكروا مئة الله عليهم؛ فإنَّ صرف الشدة بحسب شدتها وفضاعتها يعظم وقعها، ويشتد الفرخ بصرفها.

﴿٦٧﴾ ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا: النِّفَقَاتِ الْوَاجِبَةِ وَالْمُسْتَحَبَّةِ لَمْ يُسْرِفُوا﴾: بأن يزيدوا على الحدِّ فيدخلوا في قسم التبذير، ﴿وَلَمْ يَفْتَرُوا﴾: فيدخلوا في باب البخل والشح، وإهمال الحقوق الواجبة، ﴿وَكَانَ﴾: إنفاقهم ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾: بين الإسراف والتقتير ﴿قَوْمًا﴾: يبذلون في الواجبات من الزكوات والكفارات والنفقات الواجبة وفيما ينبغي على الوجه الذي ينبغي من غير ضررٍ ولا ضرارٍ، وهذا من عدلهم واقتصادهم.

﴿٦٨﴾ ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾: بل يعبدونه وحده مخلصين له الدين حنفاء مقبلين عليه معرضين عما سواه، ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾: وهي نفس المسلم والكافر المعاهد ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾: كقتل النفس بالنفس، وقتل الزاني المحصن والكافر الذي يجلُّ قتله، ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾: بل يحفظون فروجهم؛ إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم، ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾؛ أي: الشرك بالله أو قتل النفس التي حرم الله بغير حقٍّ أو الزنا؛ فسوف ﴿يُنَلِّقْ أَثَامًا﴾.

﴿٦٩﴾ ثم فسره بقوله: ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ﴾؛ أي: في العذاب ﴿مهاناً﴾، فالوعيد بالخلود لمن فعلها كلها ثابت لا شك فيه، وكذلك لمن

أشركَ بالله، وكذلك الوعيد بالعذاب الشديد على كلِّ واحدٍ من هذه الثلاثة؛ لكونها إمَّا شرك وإمَّا من أكبر الكبائر، وأما خلود القاتل والزاني في العذاب؛ فإنه لا يتناوله الخلود؛ لأنه قد دلَّت النصوصُ القرآنيَّة والسنةُ النبويَّة أنَّ جميع المؤمنين سيخْرُجون من النار، ولا يخلدُ فيها مؤمنٌ، ولو فعل من المعاصي ما فعل. ونصَّ تعالى على هذه الثلاثة لأنها أكبر الكبائر: فالشرك فيه فساد الأديان، والقتل فيه فساد الأبدان، والزنا فيه فساد الأعراض.

﴿٧٠﴾ ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾: عن هذه المعاصي وغيرها بأنَّ أقلَّعَ عنها في الحال، وندم على ما مضى له من فعلها، وعزم عزمًا جازمًا أن لا يعود، ﴿وَأَمَّنْ﴾ بالله إيمانًا صحيحًا يقتضي تركَ المعاصي وفعل الطاعات، ﴿وعمل صالحًا﴾: مما أمر به الشارعُ إذا قَصَدَ به وجه الله؛ ﴿فأولئك يبدلُ الله سيئاتهم حسناتٍ﴾؛ أي: تتبدلُ أفعالهم وأقوالهم التي كانت مستعدَّة لعمل السيئات، تتبدلُ حسناتٍ، فيتبدلُ شِرْكُهُم إيمانًا، ومعصيتهم طاعةً، وتتبدلُ نفس السيئات التي عملوها ثم أحدثوا عن كل ذنب منها توبةً وإنابةً وطاعةً، تبدلُ حسناتٍ كما هو ظاهر الآية، وورد في ذلك حديث الرجل الذي حاسبه الله ببعض ذنوبه، فعَدَّها عليه، ثم أبدل مكان كل سيئة حسنةً، فقال: يا ربِّ! إنَّ لي سيئاتٍ لا أراها هاهنا<sup>(١)</sup>. والله أعلم. ﴿وكان الله غفوراً﴾: لمن تاب يغفر الذنوب العظيمة. ﴿رحيمًا﴾: بعبادِهِ؛ حيثُ دعاهم إلى التوبة بعد مبارزته بالعظائم، ثم وقَّعهم لها، ثم قَبِلها منهم.

﴿٧١﴾ ﴿ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً﴾؛ أي: فليعلم أنَّ توبته في غاية الكمال؛ لأنها رجوعٌ إلى الطريق الموصول إلى الله، الذي هو عينُ سعادة العبد وفلاحه؛ فَلْيُخْلِصْ فيها، وَلْيُخْلِصْها من شوائب الأغراض الفاسدة. فالمقصودُ من هذا الحثِّ على تكميل التوبة وأتباعها على أفضل الوجوه وأجلها؛ ليقدم على من تاب إليه، فيوفيه أجره بحسب كمالها.

﴿٧٢﴾ ﴿والذين لا يشهدون الزور﴾؛ أي: لا يحضرون الزور؛ أي: القول والفعل المحرم، فيجتنبون جميع المجالس المشتملة على الأقوال المحرمة أو الأفعال المحرمة؛ كالخوض في آيات الله، والجدال الباطل، والغيبة، والنميمة، والسب، والقذف، والاستهزاء، والغناء المحرم، وشرب الخمر، وفرش الحرير

(١) أخرجه مسلم (١٩٠) من حديث أبي ذر.



والصور... ونحو ذلك، وإذا كانوا لا يشهدون الزور؛ فمن باب أولى وأحرى أن لا يقولوه ويفعلوه، وشهادة الزور داخله في قول الزور، تدخل في هذه الآية بالأولية، ﴿وإذا مرؤوا باللغو﴾: وهو الكلام الذي لا خير فيه ولا فيه فائدة دينية ولا دنيوية؛ ككلام السفهاء ونحوهم ﴿مرؤوا كراماً﴾؛ أي: نزهوا أنفسهم، وأكرموا عن الخوض فيه، ورأوا الخوض فيها وإن كان لا إثم فيه؛ فإنه سفة ونقص للإنسانية والمروءة؛ فربؤوا بأنفسهم عنه. وفي قوله: ﴿إذا مرؤوا باللغو﴾: إشارة إلى أنهم لا يقصدون حضوره ولا سماعه، ولكن عند المصادفة التي من غير قصد يكرمون أنفسهم عنه.

﴿٧٣﴾ ﴿والذين إذا ذكروا بآيات ربهم﴾: التي أمرهم باستماعها والاهتداء بها ﴿لم يخشوا عليها ضمًا وعمياناً﴾؛ أي: لم يقابلوها بالإعراض عنها، والصمم عن سماعها، وصرف النظر والقلوب عنها كما يفعله من لم يؤمن بها ويصدق، وإنما حالهم فيها وعند سماعها كما قال تعالى: ﴿إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون﴾: يقابلونها بالقبول والافتقار إليها والانتقياد والتسليم لها، وتجذ عندهم أذاناً سامعةً وقلوباً واعيةً، فيزداد بها إيمانهم، ويتم بها إيقانهم، وتحدث لهم نشاطاً، ويفرحون بها سروراً واعتباطاً.

﴿٧٤﴾ ﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا﴾؛ أي: قرنائنا من أصحاب وأقران وزوجات، ﴿وذرياتنا قررة أعين﴾؛ أي: تقر بهم أعيننا، وإذا استقرأنا حالهم وصفاتهم؛ عرفنا من هممهم وعلو مرتبتهم [أنهم لا تقر أعينهم حتى يروهم مطيعين لربهم عالمين عاملين وهذا كما أنه دعاء لأزواجهم] وذرياتهم في صلاحهم؛ فإنه دعاء لأنفسهم؛ لأن نفعه يعود عليهم، ولهذا جعلوا ذلك هبة لهم، فقالوا: ﴿هب لنا﴾، بل دعاؤهم يعود إلى نفع عموم المسلمين؛ لأن بصلاح من ذكر يكون سبباً لصلاح كثير ممن يتعلق بهم وينتفع بهم.

﴿واجعلنا للمتقين إماماً﴾؛ أي: أوصلنا يا ربنا إلى هذه الدرجة العالية؛ درجة الصديقين والكامل من عباد الله الصالحين، وهي درجة الإمامة في الدين، وأن يكونوا قدوة للمتقين في أقوالهم وأفعالهم، يقتدى بأفعالهم ويطمئن لأقوالهم ويسير أهل الخير خلفهم، فيهدون ويهتدون. ومن المعلوم أن الدعاء ببلوغ شيء دعاء بما لا يتم إلا به، وهذه الدرجة - درجة الإمامة في الدين - لا تتم إلا بالصبر واليقين؛ كما قال تعالى: ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾:

فهذا الدعاء يستلزم من الأعمال والصبر على طاعة الله وعن معصيته وأقداره المؤلمة ومن العلم التام الذي يوصل صاحبه إلى درجة اليقين خيراً كثيراً وعطاءً جزيلاً، وأن يكونوا في أعلى ما يمكن من درجات الخلق بعد الرسل.

﴿٧٥ - ٧٦﴾ ولهذا لما كانت هممهم ومطالبهم عالية، كان الجزاء من جنس العمل، فجازاهم بالمنازل العاليات، فقال: ﴿أولئك يُجْزَوْنَ الغَرْفَةَ بما صبروا﴾؛ أي: المنازل الرفيعة والمساكن الأنيقة الجامعة لكل ما يشتهى وتلذّه الأعين، وذلك بسبب صبرهم نالوا ما نالوا؛ كما قال تعالى: ﴿والملائكة يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ. سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾، ولهذا قال هنا: ﴿وَيُلْقَوْنَ فِيهَا تحِيَّةً وسَلَاماً﴾: من ربهم ومن ملائكته الكرام ومن بعض على بعض، ويسلمون من جميع المنغصات والمكدرات.

والحاصل أن الله وصفهم بالوقار، والسكينة، والتواضع له ولعباده، وحسن الأدب، والحلم، وسعة الخلق، والعفو عن الجاهلين، والإعراض عنهم، ومقابلة إساءتهم بالإحسان، وقيام الليل، والإخلاص فيه، والخوف من النار، والتضرع لربهم أن يُنجيهم منها، وإخراج الواجب والمستحب في النفقات، والاقتصاد في ذلك. وإذا كانوا مقتصدين في الإنفاق الذي جرت العادة بالتفريط فيه أو الإفراط؛ فاقْتَصَادُهُمْ وتوسُّطُهُمْ في غيره من باب أولى، والسلامة من كبائر الذنوب، والاتصاف بالإخلاص لله في عبادته، والعفة عن الدماء والأعراض، والتوبة عند صدور شيء من ذلك، وأنهم لا يحضرون مجالس المنكر والفسوق القولية والفعلية، ولا يفعلونها بأنفسهم، وأنهم يتنزّهون من اللغو والأفعال الرديئة، التي لا خير فيها، وذلك يستلزم مروءتهم وإنسانيّتهم وكمالهم ورفعة أنفسهم عن كل خسيس قوليّ وفعليّ، وأنهم يقابلون آيات الله بالقبول لها والتفهم لمعانيها والعمل بها والاجتهاد في تنفيذ أحكامها، وأنهم يدعون الله تعالى بأكمل الدعاء في الدعاء الذي ينتفعون به، وينتفع به من يتعلّق بهم، وينتفع به المسلمون من صلاح أزواجهم وذريّتهم، ومن لوازم ذلك سعيهم في تعليمهم ووعظهم ونصيحهم؛ لأنّ مَنْ حَرَصَ على شيءٍ ودعا الله فيه؛ لا بدّ أن يكون متسبباً فيه، وأنهم دعوا الله ببلوغ أعلى الدرجات الممكنة لهم، وهي درجة الإمامة والصدقيّة؛ فلله ما أعلى هذه الصفات، وأرفع هذه الهمم، وأجل هذه المطالب، وأزكى تلك النفوس، وأطهر تيك القلوب، وأصفى هؤلاء الصفوة، وأتقى هؤلاء السادة. ولله فضل الله عليهم، ونعمته، ورحمته التي جللتهم، وطفه الذي أوصلهم إلى هذه المنازل.

ولله مئةُ الله على عباده أن يبين لهم أوصافهم ونعت لهم هيئاتهم، ويبين لهم هممهم وأوضح لهم أجورهم؛ ليشتاقوا إلى الانصاف بأوصافهم، ويبدلوا جهدهم في ذلك، ويسألوا الذي من عليهم وأكرمهم، الذي فضله في كل زمان ومكان وفي كل وقت وأوان أن يهديهم كما هداهم، ويتولاهم بتربيته الخاصة كما تولاهم.

فاللهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك المستغاث، ولا حول ولا قوة إلا بك، لا نملك لأنفسنا نفعاً ولا ضرراً، ولا نقدر على مثقال ذرة من الخير إن لم تُيسر ذلك لنا؛ فإننا ضعفاء عاجزون من كل وجه، نشهد أنك إن وكلتنا إلى أنفسنا طرفة عين؛ وكلتنا إلى ضعفٍ وعجزٍ وخطيئة؛ فلا نتق يا ربنا إلا برحمتك، التي بها خلقتنا ورزقتنا وأنعمت علينا بما أنعمت من النعم الظاهرة والباطنة، وصرفت عنا من النقم؛ فارحمنا رحمةً تُغنيننا بها عن رحمة من سواك، فلا خاب من سألَكَ ورجاك.

﴿٧٧﴾ ولما كان الله تعالى قد أضاف هؤلاء العباد إلى رحمته واختصهم بعبوديته لشرفهم وفضلهم، ربما توهم متوهم أنه أيضاً غيرهم؛ فلم لا يدخل في العبودية؟! فأخبر تعالى أنه لا يبالي ولا يعاب بغير هؤلاء، وأنه لولا دعاؤكم إياه دعاء العبادة ودعاء المسألة؛ ما عبأ بكم ولا أحبكم، فقال: ﴿قُلْ مَا يَغْبَأُ بكم رَبِّي لولا دَعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَمَانِكُمْ﴾؛ أي: عذاباً يلزمكم لزوم الغريم لغريمه، وسوف يحكم الله بينكم وبين عباده المؤمنين.

تم تفسير سورة الفرقان. فله الحمد والثناء والشكر أبداً.

## تفسير سورة الشعراء

وهي مكية عند الجمهور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَخِيعٌ نَفْسِكَ آلاَ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِنْ شَاءَ نَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُّحَدِّثٍ إِلَىٰ كَانُوا عَنْهُ مُّعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَأْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾

﴿١ - ٢﴾ يشير الباري تعالى إشارة تدلُّ على التعظيم لآيات الكتاب المُبين البيِّن الواضح الدالُّ على جميع المطالب الإلهية والمقاصد الشرعية؛ بحيث لا يبقى عند الناظر فيه شكٌ ولا شبهةٌ فيما أخبر به أو حكم به؛ لوضوحه ودلالته على أشرف المعاني وارتباط الأحكام بحكمها وتعليقها بمناسبتها، فكان رسول الله ﷺ يُنذِرُ به الناس، ويَهدي به الصراطَ المستقيمَ، فيهتدي بذلك عبادُ الله المتَّقون، ويعرضُ عنه من كَتَبَ عليه الشقاء، فكان يحزنُ حزناً شديداً على عدم إيمانهم؛ حرصاً منه على الخير، ونصحاً لهم.

﴿٣﴾ فلَهذا قال تعالى لنبيه: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ﴾؛ أي: مهلكها وشاقٌ عليها ﴿أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: فلا تفعل ولا تُذهِبْ نَفْسَكَ عليهم حشرات؛ فإنَّ الهداية بيد الله، وقد أدت ما عليك من التبليغ، وليس فوق هذا القرآن المُبين آيةٌ حتى تُنزلها ليؤمنوا بها؛ فإنه كافٍ شافٍ لمن يريد الهداية.

﴿٤﴾ ولَهذا قال: ﴿إِن نَشَأ نُنزِّلْ عَلَيْهِم مِنَ السَّمَاءِ آيَةً﴾؛ أي: من آيات الاقتراح ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ﴾؛ أي: أعناق المكذبين ﴿لَهَا خاضعين﴾: ولكن لا حاجة إلى ذلك ولا مصلحة فيه؛ فإنه إذ ذاك الوقت يكون الإيمان غير نافع، وإنما الإيمان النافع الإيمان بالغيب؛ كما قال تعالى: ﴿هَل يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيْمَانُهَا...﴾ الآية.

﴿٥﴾ ﴿وما يأتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ﴾: يأمرهم وينهاهم ويذكرهم ما ينفعهم ويضرهم ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾: بقلوبهم وأبدانهم. هذا إعراضهم عن الذكر المُحدث الذي جرت العادة أنه يكون موقعه أبلغ من غيره؛ فكيف بإعراضهم عن غيره؟! وهذا لأنهم لا خير فيهم، ولا تنجع فيهم المواعظ.

﴿٦﴾ ولَهذا قال: ﴿فقد كذَّبوا﴾؛ أي: بالحق، وصار التَكذيبُ لهم سجيئة لا تتغيَّر ولا تتبدَّل، ﴿فسيأتِيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون﴾؛ أي: سيقع بهم العذاب ويحلُّ بهم ما كذَّبوا به؛ فإنهم قد حثَّت عليهم كلمة العذاب.

﴿٧﴾ قال الله منبهاً على التفكير الذي ينفع صاحبه: ﴿أولم يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زوجِ كَرِيمٍ﴾: من جميع أصناف النباتات، حسنة المنظر، كريمة في نفعها.

﴿٨﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾: على إحياء الله الموتى بعد موتهم؛ كما أحيأ

الأرض بعد موتها، ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾.

﴿٩﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾: الذي قد قهر كل مخلوق، ودان له العالم العلوي والسفلي. ﴿الرحيم﴾: الذي وسعت رحمته كل شيء، ووصل جوده إلى كل حي، العزيز الذي أهلك الأشقياء بأنواع العقوبات، الرحيم بالسعداء؛ حيث أنجاهم من كل شر وبلاء.

﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ الْفَقِيرُ الظَّالِمِينَ﴾<sup>(١)</sup> ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَصِيبُ صَدْرِي وَلَا يَطَّلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِمَا بَيْنَنَا إِنََّّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عَمْرِكَ سِنَّينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلْتَنَا الْآتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنَّا عَلَيْ إِذْ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لِمَنْ أَتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوْلَوْ جَنَّتِكَ بِشَيْءٍ مُؤْمِنِينَ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُنِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءٌ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَدْرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْعُفْ فِي الدَّائِنِ حَشِيرِينَ ﴿٣٦﴾ يَا تُورَكُ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِيَلْقَيْنَ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعَ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَنَا أَجْرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا

(١) في النسخين: إلى آخر القصة. قوله: ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾.

مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٤٢﴾ قَالَتُوا جَاهِلْمٌ وَعَصِيَّتُهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْعَالِيُونَ ﴿٤٣﴾ قَالَتِي  
 مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٤﴾ قَالَتِي السَّحَرَةُ سَجِدِينَ ﴿٤٥﴾ قَالُوا أَمَانتَا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ  
 ﴿٤٦﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٧﴾ قَالَ أَمَسْتُمْ لِمَ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّكُمْ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ  
 فَلَسَوْفَ نَعْتَمِدُ لَدُفْعِنَ أَيْدِيكُمْ وَأَنزِلُكُمْ مِنْ خِلْفٍ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمِيعًا ﴿٤٨﴾ قَالُوا لَا ضَرَرَ لَنَا إِلَىٰ رَبِّنَا  
 مُتَقَلِّبُونَ ﴿٤٩﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتِنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٠﴾ ﴿٥١﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ  
 مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَوْسَلَ فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَذِهِ لَشِرْذِمَةٌ  
 قَالِيُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لِعَايِدُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ  
 وَمَقَارٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْفَقْنَاهَا بَيْنَ إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَنْبَغُوهُمْ مُشْرِفِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَىٰ الْجَمْعَانَ  
 قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَنَدْرُكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَزِيدُنِي ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ  
 أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزَلْنَا نَمَّ الْأَخْرِينَ ﴿٦٤﴾  
 وَأَوْحَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْأَخْرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ  
 مُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴿٦٩﴾

أعاد الباري تعالى قصة موسى وثناها في القرآن ما لم يُثنَّ غيرها؛ لكونها مشتملة على حكم عظيمة وعبر، وفيها نبؤه مع الظالمين والمؤمنين، وهو صاحب الشريعة الكبرى، وصاحب التوراة أفضل الكتب بعد القرآن، فقال:

﴿١٠ - ١١﴾ واذكُرْ حالة موسى الفاضلة وقت نداء الله إياه حين كلمه ونبأه وأرسله، فقال: ﴿أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾: الذين تكبروا في الأرض وعلوا على أهلها وادعى كبيرهم الربوبية، ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ﴾؛ أي: قُلْ لهم بليغ قولٍ ولطفٍ عبارة: أَلَا تَتَّقُونَ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ فَتَتَّقُونَ ما أنتم عليه من الكفر.

﴿١٢ - ١٤﴾ فقال موسى عليه السلام معتذراً من ربه ومبيناً لعذره وسائلاً له المعونة على هذا الحمل الثقيل: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾. ويضيق صدري ولا ينطلق لساني، فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾. ويسر لي أمري. واخلل عُقْدَةَ من لساني. يفقهوا قولي واجعل لي وزيراً من أهلي. هارون أخي، ﴿فَارْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ﴾: فأجاب الله طلبته ونبأ أخاه [هارون] كما نبأه، ﴿فَارْسِلْهُ مَعِيَ رِدْأً﴾؛ أي: معاوناً لي على أمري. ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ﴾؛ أي: في قتل القبطي، ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾.

﴿١٥ - ١٧﴾ **﴿قال كلاً﴾**؛ أي: لا يتمكنون من قتلِكَ؛ فإننا سنجعل لكما سلطاناً؛ فلا يصلون إليكما [بآياتنا] أنتما ومن أتبعكما الغالبون، ولهذا لم يتمكن فرعون من قتل موسى مع منابذته له غاية المنابذة وتسفيه رأيه وتضليله وقومه، **﴿فأذهبنا بآياتنا﴾**: الدالة على صدقكما وصحة ما جئتما به، **﴿إننا معكم مستمعون﴾**: أحفظكما وأكلؤكما، **﴿فأتيا فرعون فقولاً إننا رسول رب العالمين﴾**؛ أي: أرسلنا إليك لتؤمن به وبنا، وتنقاد لعبادته وتدع لتوحيدهِ. **﴿أن أرسِلَ معنا بني إسرائيل﴾**: فكف عنهم عذابك، وازفغ عنهم يدك؛ ليعبدوا ربهم، ويقيموا أمر دينهم.

﴿١٨ - ١٩﴾ فلما جاء لفرعون وقال له ما قال الله لهما؛ لم يؤمن فرعون، ولم يلن، وجعل يعارض موسى، فقال: **﴿الم نربك فينا وليداً﴾**؛ أي: ألم ننعم عليك ونقوم بتربيتك منذ كنت وليداً في مهدك ولم تزل كذلك، **﴿ولبئس فينا من عمرك سنين. وفعلت فعلتك التي فعلت﴾**: وهي قتل موسى للقبطي حين استغائهُ الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى ففضى عليه... الآية. **﴿وأنت من الكافرين﴾**؛ أي: وأنت إذ ذاك طريقك طريقنا وسبيلك سبيلنا في الكفر، فأقر على نفسه بالكفر من حيث لا يدري.

﴿٢٠ - ٢٢﴾ فقال موسى: **﴿فعلتها إذا وأنا من الضالين﴾**؛ أي: عن غير كفر، وإنما كان عن ضلال وسفه، فاستغفرت ربي فغفر لي، **﴿ففررت منكم لماً خفتكم﴾**: حين تراجعتم بقتلي، فهربت إلى مدين، ومكثت سنين، ثم جئتم وقد وهب **﴿لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين﴾**.

فالحاصل أن اعتراض فرعون على موسى اعتراض جاهل أو متجاهل؛ فإنه جعل المانع من كونه رسولاً أن جرى منه القتل، فبيّن له موسى أن قتله على وجه الضلال والخطأ الذي لم يقصد نفس القتل، وأن فضل الله تعالى غير ممنوع منه أحد؛ فلم منعتم ما منحني الله من الحكم والرسالة؟

بقي عليك يا فرعون إدلاؤك بقولك: **﴿الم نربك فينا وليداً﴾**؟ وعند التحقيق يتبين أن لا مئة لك فيها، ولهذا قال موسى: **﴿وتلك نعمة﴾** تمن بها **﴿علي أن عبذت بني إسرائيل﴾**؛ أي: تدلي عليّ بهذه المئة لأنك سخزت بني إسرائيل، وجعلتهم لك بمنزلة العبيد، وأنا قد أسلمتني من تعبيدك وتسخيرك، وجعلتها عليّ نعمة؛ فعند التصور يتبين أن الحقيقة أنك ظلمت هذا الشعب الفاضل، وعدبتهم

وسخَّرْتَهُمْ بِأَعْمَالِكِ، وَأَنَا قَدْ سَلَّمْتَنِي اللَّهَ مِنْ أَدَاكَ، مَعَ وَصُولِ أَدَاكَ لِقَوْمِي؛ فَمَا هَذِهِ الْمَنَّةُ الَّتِي تَمَّتْ<sup>(١)</sup> بِهَا وَتُدَلِّي بِهَا؟!

﴿٢٣ - ٢٥﴾ قال فرعونُ وما ربُّ العالمينَ: ﴿وهذا إنكارٌ منه لربِّه ظلماً وعلوًّا، مع تيقُّنِ صحة ما دعاه إليه موسى، ﴿قال ربُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؛ أي: الذي خَلَقَ الْعَالَمَ الْعُلُويَّ وَالسُّفْلِيَّ، وَدَبَّرَهُ بِأَنْوَاعِ التَّنْذِيرِ، وَرَبَّاهُ بِأَنْوَاعِ التَّرْبِيَةِ، وَمِنْ جَمَلَةِ ذَلِكَ أَنْتُمْ أَيُّهَا الْمَخَاطَبُونَ؛ فَكَيْفَ تَنْكِرُونَ خَالِقَ الْمَخْلُوقَاتِ وَفَاطَرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ، ﴿إِنْ كُنْتُمْ مَوْقِنِينَ﴾، فقال فرعون متجرهماً ومعجباً لقوله: ﴿أَلَا تَسْتَمْعُونَ﴾: ما يقوله هذا الرجل.

﴿٢٦ - ٢٧﴾ فقال موسى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾: تَعَجَّبْتُمْ أَمْ لَا، اسْتَكْبَرْتُمْ أَمْ أَدْعَيْتُمْ، فَقَالَ فِرْعَوْنُ مُعَانِدًا لِلْحَقِّ قَادِحًا بِمَنْ جَاءَ بِهِ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أَرْسَلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾: حَيْثُ قَالَ خِلَافَ مَا نَحَرْنَا عَلَيْهِ، وَخَالَفْنَا فِيهِمَا ذَهَبْنَا إِلَيْهِ؛ فَالْعَقْلُ عِنْدَهُ وَأَهْلُ الْعَقْلِ مَنْ زَعَمُوا أَنَّهُمْ لَمْ يُخْلَقُوا، أَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مَا زَالَتَا مَوْجُودَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ مَوْجِدٍ، وَأَنَّهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ خَالِقٍ! وَالْعَقْلُ عِنْدَهُ أَنْ يُعَبِّدَ الْمَخْلُوقَ النَاقِصُ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ! وَالْجَنُونَ عِنْدَهُ أَنْ يُثَبِّتَ الرَّبَّ الْخَالِقَ لِلْعَالَمِ الْعُلُويِّ وَالسُّفْلِيِّ وَالْمَنْعَمُ بِالنَّعْمِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ وَيُدْعَى إِلَى عِبَادَتِهِ! وَزَيْنٌ لِقَوْمِهِ هَذَا الْقَوْلُ، وَكَانُوا سَفَهَاءَ الْأَحْلَامِ خَفِيفِي الْعُقُولِ، ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

﴿٢٨﴾ فقال موسى عليه السلام مجيباً لإنكار فرعون وتعطيله لربِّ العالمين: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾: مِنْ سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ، ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾: فَقَدْ أَذَيْتُمْ لَكُمْ مِنَ الْبَيَانِ وَالتَّبْيِينِ مَا يَفْهَمُهُ كُلُّ مَنْ لَهُ أَدْنَى مُسَكَّةٍ مِنْ عَقْلِ؛ فَمَا بِالْكُمْ تَتَجَاهَلُونَ فِي مَا أَخَاطَبِكُمْ بِهِ؟! وَفِيهِ إِيمَاءٌ وَتَنْبِيهٌُ إِلَى أَنَّ الَّذِي رَمَيْتُمْ بِهِ مُوسَى مِنَ الْجَنُونَ أَنَّهُ دَاؤُكُمْ، فَرَمَيْتُمْ أَزْكَى الْخَلْقِ عَقْلًا وَأَكْمَلَهُمْ عِلْمًا [بِالْجَنُونَ]!، وَالْحَالُ أَنَّكُمْ أَنْتُمْ الْمَجَانِينُ؛ حَيْثُ ذَهَبْتُمْ عَقُولَكُمْ عَنْ إِنْكَارِ أَظْهَرِ الْمَوْجُودَاتِ؛ خَالِقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ وَمَا بَيْنَهُمَا؛ فَإِذَا جَحَدْتُمُوهُ؛ فَأَيُّ شَيْءٍ تَتَّبِعُونَ؟! وَإِذَا جَهَلْتُمُوهُ؛ فَأَيُّ شَيْءٍ تَعْلَمُونَ؟! وَإِذَا لَمْ تَتَّوَمَّنُوا بِهِ وَبِآيَاتِهِ؛ فَبِأَيِّ شَيْءٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ تَتَّوَمَّنُونَ؟! تَاللَّهِ؛ إِنَّ الْمَجَانِينَ الَّذِينَ بِمَنْزِلَةِ الْبَهَائِمِ أَعْقَلُ مِنْكُمْ، وَإِنَّ الْأَنْعَامَ السَّارِحَةَ أَهْدَى مِنْكُمْ.

(١) في (ب): «كلمة غير واضحة من حيث الخط».



﴿٢٩ - ٣٣﴾ فلما خنقت فرعونَ الحجةَ وعجزت قدرتهُ وبيانهُ عن المعارضة؛  
 ﴿قال﴾: متوعداً لموسى بسلطانه: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ  
 المسجونين﴾: زعم قبحه الله أنه قد طمع في إضلال موسى، وأن لا يتخذَ إلهاً  
 غيره، وإلاً؛ فقد تقرر أنه هو ومن معه على بصيرةٍ من أمرهم، فقال له موسى:  
 ﴿أولو جثثك بشيءٍ مُبين﴾؛ أي: آية ظاهرة جليئة على صحة ما جئتُ به من  
 خوارق العادات، ﴿قال فأت به إن كنت من الصادقين﴾. فألقى عصاه فإذا هي  
 ثعبانٌ؛ أي: ذكر الحيات. ﴿مبين﴾: ظاهرٌ لكلِّ أحدٍ لا خيال ولا تشبيه، ﴿ونزع  
 يده﴾: من جيبه، ﴿فإذا هي بيضاء للناظرين﴾؛ أي: لها نورٌ عظيم لا نقص فيه  
 لمن نظر إليها.

﴿٣٤ - ٣٧﴾ ﴿قال﴾ فرعون ﴿للملأ حوله﴾: معارضاً للحقِّ ومَن جاء به: ﴿إن  
 هذا لساحرٌ عليمٌ. يريد أن يُخرِجَكُم من أرضِكُم﴾: مؤه عليهم لعلمه بضغيف  
 عقولهم أن هذا من جنس ما يأتي به السحرة؛ لأنه من المتقرر عندهم أن السحرة  
 يأتون من العجائب بما لا يقدرُ عليه الناس، وخوفهم أنه قصدُه بهذا السحر التوصل  
 إلى إخراجهم من وطنهم؛ ليجدوا ويجتهدوا في معادةٍ مَن يريدُ إجلاءهم عن  
 أولادهم وديارهم، ﴿فماذا تأمرون﴾ أن نفعَل به؟ ﴿قالوا أزرجه وأخاه﴾؛ أي:  
 أخزهما، ﴿وابعث في المدائن حاشرين﴾: جامعين للناس، يأتوك أولئك  
 [الحاشرون] ﴿بكلِّ سحرٍ عليم﴾؛ أي: ابعث في جميع مُدُنِكَ التي هي مقرُّ العلم  
 ومعدنُ السحر مَن يجمعُ لك كلَّ ساحرٍ ماهرٍ عليمٍ في سحره؛ فإنَّ الساحرَ يُقَابِلُ  
 بسحر من جنس سحره، وهذا من لطفِ الله؛ أن يري العبادَ بطلانَ ما مؤه به  
 فرعونُ الجاهل الضالُّ المضلُّ أن ما جاء به موسى سحرٌ؛ قيضهم أن جمعوا أهل  
 المهارة بالسحر؛ لينعقد المجلسُ عن حضرة الخلق العظيم، فيظهر الحقُّ على  
 الباطل، ويقر أهل العلم وأهل الصناعة بصحة ما جاء به موسى، وأنه ليس بسحر.

﴿٣٨ - ٤٠﴾ فعمل فرعون برأيهم، فأرسل في المدائن من يجمعُ السحرة،  
 واجتهد في ذلك وجدَّ، ﴿فجمع السحرة لميقات يوم معلوم﴾: قد واعدهم إياه  
 موسى، وهو يوم الزينة الذي يتفرغون فيه من أشغالهم، ﴿وقيل للناس هل أنتم  
 مُجتمعون﴾؛ أي: نودي بعموم الناس بالاجتماع في ذلك اليوم الموعود، ﴿لعلنا  
 نَتَّبِعُ السحرة إن كانوا هم الغالبين﴾؛ أي: قالوا للناس: اجتمعوا لتَنظُرُوا غلبة  
 السحرة لموسى، وأنهم ماهرون في صناعتهم، فتتبعهم ونعظّمهم ونعرف فضيلة علم

السحر. فلو وُفِّقوا للحق؛ لقالوا: لعلنا نتَّبِعَ المحقَّ منهم، ونعرف الصواب؛ فلذلك ما أفاد فيهم ذلك إلا قيام الحجة عليهم.

﴿٤١ - ٤٢﴾ ﴿فلما جاء السحرة﴾: ووصلوا لفرعون؛ قالوا له: ﴿إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾: لموسى، ﴿قال نعم﴾: لكم أجر وثواب، وإنا لكم لمن المقربين عندي؛ وعدهم الأجر والقربة منه؛ ليزداد نشاطهم ويأتوا بكل مقدورهم في معارضة ما جاء به موسى.

﴿٤٣ - ٤٥﴾ فلما اجتمعوا للموعِدِ هم وموسى وأهل مصر؛ وعظَّمهم موسى وذكَّرهم وقال: ﴿وَيْلَكُمْ لا تفتروا على الله كذباً فيُنسِجَ لكم عذاباً وقد خاب من افترى﴾، فتنازعوا وتخاصموا، ثم شجَّعهم فرعون وشجَّع بعضهم بعضاً، ﴿قال لهم موسى ألقوا ما أنتم مُلقون﴾؛ أي: ألقوا كل ما في خواطركم إلقاؤه ولم يقيده بشيء دون شيء لجزمه ببطلان ما جاؤوا به من معارضة الحق، ﴿فألقوا حبالهم وعصيهم﴾: فإذا هي حيات تسعى، وسَحَرُوا بذلك أعين الناس. ﴿وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون﴾: فاستعانوا بعزة عبد ضعيف عاجز من كل وجه؛ إلا أنه قد تجبَّر وحصل له صورة مُلك وجنود، فغرَّتْهم تلك الأبهة، ولم تنفذ بصائرهم إلى حقيقة الأمر، أو أن هذا قَسَمٌ منهم بعزة فرعون، والمقسَم عليه أنهم غالبون، ﴿فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف﴾: تتلُع وتأخذ ﴿ما يَفْكُون﴾: فَالْتَمَّتْ جميع ما ألقوا من الحبال والعصي؛ لأنها إفك وكذب وزور، وذلك كله باطل لا يقوم للحق ولا يقاومه.

﴿٤٦ - ٤٨﴾ فلما رأى السحرة هذه الآية العظيمة؛ تيقنوا لعلمهم أن هذا ليس بسحر، وإنما هو آية من آيات الله ومعجزة تنبئ بصدق موسى وصحة ما جاء به، ﴿فألقي السحرة ساجدين﴾: لربهم، ﴿قالوا آمنا برب العالمين. رب موسى وهارون﴾: وانقمع الباطل في ذلك المجمع، وأقر رؤساؤه ببطلانه، ووضَّح الحق وظهر، حتى رأى ذلك الناظرون بأبصارهم.

﴿٤٩ - ٥١﴾ ولكن أبى فرعون إلا عتوا وضللاً وتمادياً في غيِّه وعناداً، فقال للسحرة: ﴿أنتم له قبل أن آذن لكم﴾ يتعجب ويُعجب قومه من جراتهم عليه وإقداهم على الإيمان من غير إذنه ومؤامرتيه، ﴿إنه لكبيركم الذي علمكم السحر﴾: هذا؛ وهو الذي جمع السحرة، وملؤه الذين أشاروا عليه بجمعهم من مدائهم، وقد علموا أنهم ما اجتمعوا بموسى ولا رأوه قبل ذلك، وأنهم جاؤوا من السحر بما

يَحِيزُ النَّازِرِينَ وَيُهِيلُهُمْ، وَمَعَ ذَلِكَ؛ فَرَاخَ عَلَيْهِمْ هَذَا الْقَوْلَ الَّذِي هُمْ بِأَنْفُسِهِمْ وَقَفُوا عَلَى بَطْلَانِهِ؛ فَلَا يُسْتَنْكَرُ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْعُقُولِ أَنْ لَا يُؤْمِنُوا بِالْحَقِّ الْوَاضِحِ وَالآيَاتِ الْبَاهِرَةِ؛ لِأَنَّهُمْ لَوْ قَالَ لَهُمْ فِرْعَوْنُ عَنْ أَيِّ شَيْءٍ كَانَ، أَنَّهُ عَلَى خِلَافِ حَقِيقَتِهِ؛ صَدَّقُوهُ. ثُمَّ تَوَعَّدَ السَّحْرَةَ، فَقَالَ: ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾؛ أَي: الْيَدِ الْيَمْنَى وَالرَّجْلَ الْيَسْرَى؛ كَمَا يَفْعَلُ بِالْمُفْسِدِ فِي الْأَرْضِ، ﴿وَلَأَصْلَبُنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾: لَتَخْتَزُوا وَتَذَلُّوا، فَقَالَ السَّحْرَةُ حِينَ وَجَدُوا حِلَاوَةَ الْإِيمَانِ وَذَاقُوا لَذَّتَهُ: ﴿لَا ضَيْرَ﴾؛ أَي: لَا نُبَالِي بِمَا تَوَعَّدْتَنَا بِهِ، ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ. إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبِّنَا خَطَايَانَا﴾: مِنَ الْكُفْرِ وَالسَّحْرِ وَغَيْرِهِمَا ﴿أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: بِمُوسَى مِنْ هَؤُلَاءِ الْجُنُودِ. فَثَبَّتَهُمُ اللَّهُ وَصَبَّرَهُمْ؛ فَيُحْتَمَلُ أَنَّ فِرْعَوْنَ فَعَلَ [بِهِمْ] مَا تَوَعَّدَهُمْ بِهِ لِسُلْطَانِهِ وَاقْتِدَارِهِ إِذْ ذَاكَ، وَيُحْتَمَلُ أَنَّ اللَّهَ مَنَعَهُ مِنْهُمْ.

﴿٥٢﴾ ثُمَّ لَمْ يَزَلْ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ مُسْتَمِرِّينَ عَلَى كُفْرِهِمْ؛ يَأْتِيهِمْ مُوسَى بِالآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ، وَكَلَّمَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ وَبَلَغَتْ مِنْهُمْ كُلَّ مَبْلَغٍ؛ وَعَدُوا مُوسَى وَعَاهَدُوهُ لِيُنْ كَشَفَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلِيُرْسَلَنَّ مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَيُكْشِفُهُ اللَّهُ، ثُمَّ يَنْكُثُونَ. فَلَمَّا يَتَسَّ مُوسَى مِنْ إِيْمَانِهِمْ، وَحَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ، وَأَنَّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَنْجِيَهُمْ مِنْ أَسْرِهِمْ وَيَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ؛ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى مُوسَى: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾؛ أَي: أَخْرِجْ بَيْنِي إِسْرَائِيلَ أَوَّلَ اللَّيْلِ؛ لِيَتِمَادُوا وَيَتَمَهَّلُوا فِي ذَهَابِهِمْ ﴿إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾؛ أَي: سَيَتَّبِعُكُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ. وَوَقَعَ كَمَا أَخْبَرَ؛ فَإِنَّهُمْ لَمَّا أَصْبَحُوا، وَإِذَا بَنُو إِسْرَائِيلَ قَدْ سَرَوْا كُلَّهُمْ مَعَ مُوسَى.

﴿٥٣ - ٥٦﴾ ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾: يَجْمَعُونَ النَّاسَ؛ لِيُوقِعَ بَيْنِي إِسْرَائِيلَ، وَيَقُولُ مُشْجِعاً لِقَوْمِهِ: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾؛ أَي: بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ. وَإِنَّهُمْ لَنَا لِعَائِظُونَ﴾: فَتَرِيدُ أَنْ نَنْفَذَ غِيظَنَا فِي هَؤُلَاءِ الْعَبِيدِ الَّذِينَ أَبْقُوا مَتاً، ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَازِرُونَ﴾؛ أَي: الْحَازِرُ عَلَى الْجَمِيعِ مِنْهُمْ، وَهُمْ أَعْدَاءُ لِلْجَمِيعِ، وَالْمُصْلِحَةُ مُشْرَكَةٌ.

﴿٥٧ - ٥٩﴾ فَخَرَجَ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ فِي جَيْشٍ عَظِيمٍ وَنَفِيرٍ عَامٍّ، لَمْ يَتَخَلَّفْ مِنْهُمْ سِوَى أَهْلِ الْأَعْدَارِ الَّذِينَ مَنَعَهُمُ الْعَجْزُ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْونٍ﴾؛ أَي: بَسَاتِينَ مِصْرَ وَجَنَّاتِهَا الْفَائِقَةَ وَعَيْونَهَا الْمَتَدَفِّقَةَ وَزُرُوعَ قَدِ مَلَأَتْ أَرْضِيهِمْ وَعَمَرَتْ بِهَا حَاضِرَتَهُمْ وَبُؤَادِيَهُمْ، ﴿وَمَقَامِ كَرِيمٍ﴾: يُعْجِبُ النَّازِرِينَ وَيُلْهِئُ الْمُتَأَمِّلِينَ؛ تَمَتَّعُوا بِهِ دَهْرًا طَوِيلًا، وَقَضَوْا بِلَذَائِهِ وَشَهَوَاتِهِ عَمْرًا مَدِيدًا عَلَى الْكُفْرِ

والعناد والتكبر على العباد والته العظيم، ﴿كذلك وأورثناها﴾؛ أي: هذه البساتين والعيون والزروع والمقام الكريم ﴿بني إسرائيل﴾: الذين جعلوهم من قبل عبيدهم وسخرُوا في أعمالهم الشاقة؛ فسبحان من يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء ويعز من يشاء بطاعته، ويذل من يشاء بمعصيته.

﴿٦٠ - ٦٢﴾ ﴿فاتبِعُوهم مشرقين﴾؛ أي: اتبع قوم فرعون قوم موسى وقت شروق الشمس، وساقوا خلفهم مُحجَّينَ على غيظٍ وحنقٍ قادرين، ﴿فلما تراءى الجمعان﴾؛ أي: رأى كلُّ منهما صاحبه، ﴿قال أصحاب موسى﴾: شاكين لموسى وحزينين: ﴿إنا لمُذْرَكُونَ﴾. فقال موسى مثبِّتاً لهم ومخبراً لهم بوعده ربِّه الصادق: ﴿كلاً﴾؛ أي: ليس الأمر كما ذكرتم أنكم مُذْرَكُونَ، ﴿إنَّ معي ربِّي سيِّهدين﴾: لما فيه نجاتي ونجاتكم.

﴿٦٣ - ٦٨﴾ ﴿فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر﴾: فضربه، ﴿فانفلق﴾: اثني عشر طريقاً، ﴿فكان كلُّ فِرْقٍ كالطود﴾؛ أي: الجبل العظيم: فدخله موسى وقومه، ﴿وأزلفنا ثم﴾: في ذلك المكان ﴿الآخرين﴾؛ أي: فرعون [واقومه، وقربناهم، وأدخلناهم في ذلك الطريق الذي سلك منه موسى وقومه، ﴿وأنجينا موسى ومن معه أجمعين﴾: استكملوا خارجين، لم يتخلف منهم أحد، ﴿ثم أغرقنا الآخرين﴾: لم يتخلف منهم عن الغرق أحد. ﴿إنَّ في ذلك لآية﴾: عظيمة على صدق ما جاء به موسى عليه السلام وبطلان ما عليه فرعون وقومه، ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾: مع هذه الآيات المقتضية للإيمان؛ لفساد قلوبكم، ﴿وإنَّ ربَّك لهُو العزيز الرحيم﴾: بعزته أهلك الكافرين المكذبين، وبرحمته نجى موسى ومن معه أجمعين.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنفِطُلُ لَهَا عَظْمِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَبْقَؤُنَكُمْ أَوْ يَصُرون ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُبَسِّئُنِي ثُمَّ يُجَحِّينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ

(١) في النسختين إلى آخر هذه القصة: ﴿وإن ربك لهُو العزيز الرحيم﴾.

يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٧﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَأَغْفِرْ لِأَيِّئِ اللَّهِ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨١﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَزْلَفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَنْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكَبَّكِرُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَخُودٌ إِلَّا لَيْسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَبِّحُكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صِدِّيقِينَ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةٌ فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ .

﴿٦٩ - ٧١﴾ أي: واثل يا محمد على الناس نبأ إبراهيم الخليل وخبره الجليل في هذه الحالة بخصوصها، وإلا؛ فله أنباء كثيرة، ولكن من أعجب أنبيائه وأفضلها هذا النبأ المتضمن لرسالاته ودعوته وقومه ومحاجته إياهم و[إبطاله]<sup>(١)</sup> ما هم عليه، ولذلك قيده بالظرف فقال: ﴿إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون. قالوا: متبجحين بعبادتهم: ﴿نعبد أصناماً﴾: ننجتها ونعملها بأيدينا، ﴿فنظّل لها عاكفين﴾؛ أي: مقيمين على عبادتها في كثير من أوقاتنا.

﴿٧٢ - ٧٤﴾ فقال لهم إبراهيم مينا لعدم استحقاقها للعبادة: ﴿هل يسمعونكم إذ تدعون﴾: فيستجيبون دعاءكم ويفرجون كربكم ويزيلون عنكم كل مكره، ﴿أو ينفعونكم أو يضرون﴾: فأقروا أن ذلك كله غير موجود فيها؛ فلا تسمع دعاء، ولا تنفع، ولا تضرا! ولهذا لما كسرها وقال: ﴿بل فعلة كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾؛ قالوا له: ﴿لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾؛ أي: هذا أمر متقرر من حالها، لا يقبل الإشكال والشك. فلجؤوا إلى تقليد آبائهم الضالين، فقالوا: ﴿بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾: فتبغناهم على ذلك، وسلطنا سبيلهم، وحافظنا على عاداتهم.

﴿٧٥ - ٨٢﴾ فقال لهم إبراهيم: أنتم وآباؤكم كلكم خصوم في [هذا] الأمر، والكلام مع الجميع واحد: ﴿أفأرأيتم ما كنتم تعبدون. أنتم وآباؤكم الأقدمون. فإنهم

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «وإبطالهم».

عدو لي: ﴿فَلْيَضْرِبُوا بِأَدْنَىٰ شَيْءٍ مِنَ الضَّرَرِ، وَلْيَكِيدُوا فَلَا يَقْدِرُونَ.﴾ [إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ. الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِي]: هو [المتفرد]<sup>(١)</sup> بنعمة الخلق ونعمة الهداية للمصالح الدينية والدينية، ثم خصص منها بعض الضروريات، فقال: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ. وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ. وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ. وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾: فهذا هو وحده المتفرد بذلك، فيجب أن يفرد بالعبادة والطاعة، وتترك هذه الأصنام التي لا تخلق ولا تهدي، ولا تمرض ولا تشفي، ولا تطعم ولا تسقي، ولا تميت ولا تحيي، ولا تنفع عابديها بكشف الكروب ولا مغفرة الذنوب؛ فهذا دليل قاطع وحجة باهرة لا تقدر أنتم وآباؤكم على معارضتها، فدل على اشتراككم في الضلال وترككم طريق الهدى والرشد. قال الله تعالى: ﴿وَحَاجُّهُ قَوْمُهُ قَالُوا أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ...﴾ الآيات.

﴿٨٣ - ٨٤﴾ ثم دعا عليه السلام ربه، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾؛ أي: علماً كثيراً أعرف به الأحكام والحلال والحرام، وأحكم به بين الأنام، ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾: من إخوانه الأنبياء والمرسلين، ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾؛ أي: اجعل لي ثناء صدق مستمر إلى آخر الدهر. فاستجاب الله دعاءه، فوهب له من العلم والحكم ما كان به من أفضل المرسلين، وألحقه بإخوانه المرسلين، وجعله محبوباً مقبولاً معظماً مثنياً عليه في جميع الملل في كل الأوقات، قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ. إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿٨٥﴾ ﴿وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾؛ أي: من أهل الجنة التي يورثهم الله إياها، فأجاب الله دعاءه، فرفع منزلته في جنات النعيم.

﴿٨٦﴾ ﴿وَاعْفُزْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾؛ وهذا الدعاء بسبب الوعد الذي قال لأبيه: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾.

﴿٨٧ - ٨٩﴾ ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾؛ أي: بالتوبيخ على بعض الذنوب والعقوبة عليها والفضيحة، بل أسعدني في ذلك اليوم الذي لا ينفع فيه مال ولا

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «المتفرد».

بنون؛ ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾: فهذا الذي ينفعه عندك، وهذا الذي ينجو من العقاب ويستحق جزيل الثواب.

والقلب السليم: معناه: الذي سَلِمَ من الشرك والشك ومحبة الشر والإصرار على البدعة والذنوب، ويلزم من سلامته مما ذُكِرَ اتصافه بأضدادها من الإخلاص والعلم واليقين ومحبة الخير وتزيينه في قلبه، وأن تكون إرادته ومحبته تابعة لمحبة الله، وهواه تبعاً لما جاء عن الله.

﴿٩٥ - ٩٠﴾ ثم ذكر من صفات ذلك اليوم العظيم وما فيه من الثواب والعقاب، فقال: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ﴾؛ أي: قُرِبَتْ ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾: ربهم، الذين امتثلوا أوامره، واجتنبوا زواجره وأتقوا سخطه وعقابه. ﴿وَبُرَزَّتِ الْجَحِيمُ﴾؛ أي: بُرِزَتْ واستعدت بجميع ما فيها من العذاب ﴿لِلْغَاوِينَ﴾: الذين أَوْضَعُوا في معاصي الله، وتجرؤوا على محارمِهِ، وكذبوا رسَلَهُ، وردُّوا ما جاؤوهم به من الحق، ﴿وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون. من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون﴾: بأنفسهم؛ أي: فلم يكن من ذلك من شيء، وظهر كذبهم وخزيهم، ولاحت خسارتهم وفضيحتهم، وبان ندمهم، وضل سعيهم. ﴿فكَبِكِبُوا فيها﴾؛ أي: ألقوا في النار ﴿هم﴾؛ أي: ما كانوا يعبدون، ﴿والغاوون﴾: العابدون لها، ﴿وجنود إبليس أجمعون﴾: من الإنس والجن، الذين أُرْهِم إلى المعاصي أُرًا، وتسلط عليهم بشركهم وعدم إيمانهم، فصاروا من دعائِهِ والساعين في مرضاتِهِ، وهم ما بين داعٍ لطاعته ومجيبٍ لهم ومقلدٍ لهم على شركهم.

﴿٩٦ - ١٠٤﴾ ﴿قالوا﴾؛ أي: جنود إبليس الغاوون لأصنامهم وأوثانهم التي عبدوها: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ. إِذْ نَسُوْكُمْ بربِّ الْعَالَمِينَ﴾: في العبادة والمحبة والخوف والرجاء، وندعوكم كما ندعوه. فتبين لهم حينئذ ضلالهم، وأقروا بعدل الله في عقوبتهم، وأنها في محلها، وهم لم يسؤوهم بربِّ العالمين؛ إلا في العبادة، لا في الخلق؛ بدليل قولهم: ﴿بربِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ أنهم مقرُّون أن الله ربُّ العالمين كلهم، الذين من جملتهم أصنامهم وأوثانهم، ﴿وما أضلنا﴾: عن طريق الهدى والرشد ودعانا إلى طريق الغيِّ والفسق ﴿إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾: وهم الأئمة الذين يدعون إلى النار، ﴿فما لنا﴾: حينئذ ﴿من شافعين﴾: يشفعون لنا لِنُقِذْنَا من عذابه ﴿ولا صديق حميم﴾؛ أي: قريب مصافٍ ينفعنا بأدنى نفع؛ كما جرت العادة بذلك في الدنيا؛ فأيسوا من كل خير، وألبسوا بما كسبوا، وتمنَّوا العودة إلى الدنيا ليعملوا

صالحاً؛ ﴿فلو أن لنا كزرة﴾؛ أي: رجعة إلى الدنيا وإعادة إليها، ﴿فنكون من المؤمنين﴾: لنسلم من العقاب ونستحق الثواب. هيهات هيهات؛ قد حيل بينهم وبين ما يشتهون، وقد غلقت منهم الرهون. ﴿إن في ذلك﴾: الذي ذكرنا لكم ووصفنا ﴿آية﴾: لكم، ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾: مع نزول الآيات.

﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾<sup>(١)</sup> ﴿١١٥﴾ إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون ﴿١١٦﴾ إني لكم رسول أمين ﴿١١٧﴾ فاتقوا الله وأطيعون ﴿١١٨﴾ وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ﴿١١٩﴾ فاتقوا الله وأطيعون ﴿١٢٠﴾ قالوا أنؤمن لك واتبعك الأزدلون ﴿١٢١﴾ قال وما علي بما كانوا يعملون ﴿١٢٢﴾ إن حسابهم إلا على ربّي لو تشعرون ﴿١٢٣﴾ وما أنا بطارد المؤمنين ﴿١٢٤﴾ إن أنا نذير مبين ﴿١٢٥﴾ قالوا لئن لم تنته بنوح لكثرتنا لنكونن من المرحومين ﴿١٢٦﴾ قال رب إن قومى كذّبون ﴿١٢٧﴾ فافتح بيني وبينهم فتحاً ونجى ومن معي من المؤمنين ﴿١٢٨﴾ فأجيبته ومن معه في الفلك المشحون ﴿١٢٩﴾ ثم أفرقنا بعد الباقين ﴿١٣٠﴾ إن في ذلك آية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴿١٣١﴾ وإن ربك لهم العزيز الرحيم ﴿١٣٢﴾ .

﴿١٠٥ - ١١٠﴾ يذكر تعالى تكذيب قوم نوح لرسولهم نوح، وما ردّ عليهم وردوا عليه، وعاقبة الجميع، فقال: ﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾: جمعهم، لأن<sup>(٢)</sup> تكذيب نوح كتكذيب جميع المرسلين؛ لأنهم كلهم اتفقوا على دعوة واحدة وأخبار واحدة؛ فتكذيب أحدهم كتكذيب جميع ما جاؤوا به من الحق. كذبوه ﴿إذ قال لهم أخوهم﴾: في النسب ﴿نوح﴾: وإنما ابتعث الله الرسل من نسب من أرسل إليهم؛ لئلا يسمتروا من الانقياد له، ولأنهم يعرفون حقيقته؛ فلا يحتاجون أن يبحثوا عنه، فقال لهم مخاطباً بألف خطاب؛ كما هي طريقة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم: ﴿ألا تتقون﴾: الله تعالى، فنتركون ما أنتم مقيمون عليه من عبادة الأوثان، وتخليصون العبادة لله وحده. ﴿إني لكم رسول أمين﴾: فكونه رسولاً إليهم بالخصوص يوجب لهم تلقي ما أُرسل به إليهم، والإيمان به، وأن يشكروا الله تعالى على أن خصّهم بهذا الرسول الكريم. وكونه أميناً يقتضي أنه لا يقول<sup>(٣)</sup> على الله، ولا يزيد في وحيه ولا ينقص. ولهذا يوجب لهم التصديق بخبره

(١) في النسختين: إلى آخر القصة.

(٢) في (ب): «وجعل».

(٣) في (ب): «يقول».



والطاعة لأمره، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾: فيما أمركم به ونهاكم<sup>(١)</sup> عنه؛ فإنّ هذا هو الذي يترتب على كونه رسولاً إليهم أميناً؛ فلذلك رتبّه بالفاء الدالة على السبب، فذكر السبب الموجب، ثم ذكر انتفاء المانع، فقال: ﴿وما أسألكم عليه من أجر﴾: فتكلفون من المعزّم الثقيل ﴿إنّ أجرِي إلّا على ربّ العالمين﴾: أرجو بذلك القرب منه والثواب الجزيل، وأمّا أنتم؛ فمُنِّيْتِي ومُنْتَهَى إرادتي منكم النصح لكم وسلوكم الصراط المستقيم، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾: كرّر ذلك عليه السلام؛ لتكريره دعوة قومه وطول مكثه في ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إلّا خمسين عاماً﴾، و﴿قال ربّ إنّي دعوتُ قومي ليلاً ونهاراً. فلم يزدهم دعائي إلّا فراراً...﴾ الآيات.

﴿١١١﴾ فقالوا ردّاً لدعوته ومعارضة له بما ليس يصلح للمعارضة: ﴿أنؤمن لك واتبعك الأردلون﴾؛ أي: كيف نتبعك ونحن لا نرى أتباعك إلّا أسافل الناس وأراذلهم وسقطهم. بهذا يُعرف تكبرهم عن الحقّ وجهلهم بالحقائق؛ فإنهم لو كان قصدهم الحقّ؛ لقالوا - إن كان عندهم إشكال وشكّ في دعوته -: بين لنا صحة ما جئت به بالطرق الموصلة إلى ذلك! ولو تأملوا حقّ التأمل؛ لعلموا أنّ أتباعه هم الأغلّون، خيار الخلق، أهل العقول الرزينة والأخلاق الفاضلة، وأنّ الأردل من سلب خاصية عقله، فاستحسن عبادة الأحجار، ورضي أن يسجد لها ويدعوها، وأبى الانقياد لدعوة الرّسل الكمّل. وبمجرد ما يتكلّم أحد الخصمين في الكلام الباطل؛ يُعرف فساد ما عنده؛ بقطع النظر عن صحة دعوى خصمه؛ فقوم نوح لما سمعنا عنهم أنهم قالوا في ردّه دعوة نوح: ﴿أنؤمن لك واتبعك الأردلون﴾: فبتوا على هذا الأصل الذي كلُّ أحدٍ يعرف فسادَهُ ردّ دعوته؛ عرفنا أنّهم ضالّون مخطئون، ولو لم نشاهد من آيات نوح ودعوته العظيمة ما يفيد الجزم واليقين بصدقه وصحة ما جاء به.

﴿١١٢ - ١١٥﴾ فقال نوح عليه السلام: ﴿وما علمي بما كانوا يعملون. إن حسابهم إلّا على ربّي لو تشعرون﴾؛ أي: أعمالهم وحسابهم على الله، إنّما عليّ التبليغ، وأنتم دعوهم عنكم؛ إن كان ما جئتكم به الحقّ؛ فانقادوا له، وكلّ له عمله، ﴿وما أنا بطارد المؤمنين﴾: كأنهم - قبّهم الله - طلبوا منه أن يطردهم عنه

(١) في (ب): «وأنهاكم».

تَكْبُرًا وَتَجْبُرًا لِيُؤْمِنُوا، فَقَالَ: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَسْتَحْقُونَ الطَّرْدَ وَالْإِهَانَةَ، وَإِنَّمَا يَسْتَحْقُونَ الْإِكْرَامَ الْقَوْلِيَّ وَالْفِعْلِيَّ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾. ﴿إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾؛ أَي: مَا أَنَا إِلَّا مُنْذِرٌ وَمُبَلِّغٌ عَنِ اللَّهِ، وَمَجْتَهِدٌ فِي نَصْحِ الْعِبَادِ وَلَيْسَ لِي مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ إِنْ الْأَمْرُ إِلَّا لِلَّهِ.

﴿١١٦﴾ فَاسْتَمَرَ نُوحٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى دَعْوَتِهِمْ لَيْلًا وَنَهَارًا، سِرًّا وَجَهَارًا، فَلَمْ يَزِدَادُوا إِلَّا نَفُورًا، وَ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ يَا نُوحُ﴾: مِنْ دَعْوَتِكَ إِنَّا نَأْتِيكَ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ؛ ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾؛ أَي: لَنَقْتُلَنَّكَ شَرًّا قَتْلَةً؛ بِالرَّمْيِ بِالْحِجَارَةِ؛ كَمَا يُقْتَلُ الْكَلْبُ فِتْنًا لَهُمْ! مَا أَقْبَحَ هَذِهِ الْمَقَابِلَةَ! يَقَابِلُونَ النَّاصِحَ الْأَمِينُ الَّذِي هُوَ أَشْفَقُ عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ بَشَرًا مُقَابِلَةً.

﴿١١٧ - ١١٨﴾ لَا جَرَمَ لَمَّا انْتَهَى ظَلْمُهُمْ وَاشْتَدَّ كَفْرُهُمْ؛ دَعَا عَلَيْهِمْ نَبِيُّهُمْ بِدَعْوَةِ أَحَاطَتْ بِهِمْ، فَقَالَ: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِيَارًا...﴾. ﴿الآيَاتِ، وَهَنَا قَالَ: ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾؛ أَي: أَهْلِكَ الْبَاغِي مَنًّا، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنََّّهُمُ الْبَغَاةُ الظَّالِمَةُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿١١٩ - ١٢٢﴾ ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ﴾؛ أَي: السَّفِينَةَ ﴿الْمَشْحُونِ﴾: مِنَ الْخَلْقِ وَالْحَيَوَانَاتِ، ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ﴾؛ أَي: بَعْدَ نُوحٍ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿الْبَاقِينَ﴾؛ أَي: جَمِيعَ قَوْمِهِ. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾؛ أَي: نَجَاةَ نُوحٍ وَأَتْبَاعِهِ وَإِهْلَاكَ مَنْ كَذَّبَهُ ﴿لَايَةً﴾: دَالَّةٌ عَلَى صِدْقِ رُسُلِنَا وَصِحَّةِ مَا جَاؤُوا بِهِ وَبَطْلَانِ مَا عَلَيْهِ أَعْدَاؤُهُمُ الْمَكْذِبُونَ بِهِمْ. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُو الْعَزِيزُ﴾: الَّذِي قَهَرَ بَعْزَهُ أَعْدَاءَهُ فَأَغْرَقَهُمُ بِالطُّوفَانِ. ﴿الرَّحِيمُ﴾: بِأَوْلِيَائِهِ؛ حَيْثُ نَجَّى نُوحًا وَمَنْ مَعَهُ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ.

﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾<sup>(١)</sup> ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ آلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُرُّ رَسُولٍ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْتُونَ بِكُلِّ رِيحٍ مَائَةً تَبْتُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَسْخُدُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيْنَ ﴿١٣٣﴾ وَحَنَّتِ

(١) فِي النُّسخَتَيْنِ إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ.

وَعْيُونِ ﴿١٢٦﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٢٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ  
الْوَاعِظِينَ ﴿١٢٦﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٢٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكَنَّهُمْ إِنَّ فِي  
ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٣٠﴾ .

﴿١٢٣ - ١٢٧﴾ أي: كذبت القبيلة المسماة عاداً رسولهم هوداً، وتكذبتهم له  
تكذيباً لغيره؛ لاتفاق الدعوة، ﴿إذ قال لهم أخوهم﴾: في النسب ﴿هود﴾: بلطف  
وحسن خطاب: ﴿ألا تتقون﴾: الله، فتتركون الشرك وعبادة غيره، ﴿إني لكم  
رسول أمين﴾؛ أي: أرسلني الله إليكم رحمةً بكم واعتناء بكم، وأنا أمين؛ تعرفون  
ذلك مني. رتب على ذلك قوله: ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾؛ أي: أدوا حق الله  
تعالى، وهو التقوى، وأدوا حقي؛ بطاعتي فيما أمركم به وأنهاكم عنه؛ فهذا موجب  
لأن تتبوني وتطيعوني، وليس ثم مانع يمنعكم من الإيمان، فلست أسألكم على  
تبليغي إياكم ونصحي لكم أجراً حتى تستقبلوا ذلك المغرم. ﴿إن أجري إلا على  
رب العالمين﴾: الذي رباهم بنعمه وأدر عليهم فضله وكرمه؛ خصوصاً ما ربى به  
أوليائه وأنبياؤه.

﴿١٢٨ - ١٣٥﴾ ﴿أتبنون بكل ريع﴾؛ أي: مدخل بين الجبال ﴿آية﴾؛ أي:  
علامة ﴿تعبثون﴾؛ أي: تفعلون ذلك عبثاً لغير فائدة تعود بمصالح دينكم ودنياكم،  
﴿وتتخذون مصانع﴾؛ أي: بركاً ومجاري للمياه؛ ﴿لعلكم تتخلدون﴾: والحال أنه لا  
سبيل إلى الخلود لأحد. ﴿وإذا بطشتم﴾: بالخلق ﴿بطشتم جبارين﴾: قتلاً وضرباً  
وأخذ أموال. وكان الله تعالى قد أعطاهم قوة عظيمة، وكان الواجب عليهم أن  
يستعينوا بقوتهم على طاعة الله، ولكنهم فخرُوا واستكبروا وقالوا: من أشد منا  
قوة؟ واستعملوا قوتهم في معاصي الله وفي العبث والسفه؛ فلذلك نهاهم نبئهم عن  
ذلك. ﴿فاتقوا الله﴾: واركبوا شرككم ويطركم ﴿وأطيعون﴾: حيث علمتم  
أنني رسول الله إليكم أمين ناصح. ﴿واتقوا الذي أمدكم﴾؛ أي: أعطاكم ﴿بما  
تعلمون﴾؛ أي: أمدكم بما لا يُجهل ولا يُنكر من الأنعام، ﴿أمدكم بأنعام﴾: من  
إبل وبقر وغنم، ﴿وبنين﴾؛ أي: وكثرة نسل؛ كثر أموالكم وكثر أولادكم؛  
خصوصاً الذكور؛ أفضل القسمين. هذا تذكيرهم بالنعم، ثم ذكرهم حلول  
عذاب الله فقال: ﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾؛ أي: إني من شفقتي  
عليكم، وبري بكم أخاف أن ينزل بكم عذاب عظيم. إذا نزل لا يرد إن استمررتم  
على كفركم وبغيتكم.

﴿١٣٦ - ١٣٨﴾ فقالوا معاندين للحقّ مكذّبين لنبيّهم: ﴿سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين﴾؛ أي: الجميع على حدّ سواء! وهذا غاية العتوّ؛ فإنّ قوماً بلغت بهم الحال إلى أن صارت مواعظُ الله التي تُذيبُ الجبال الصّمّ الصّلاب، وتتصدّع لها أفئدةُ أولي الألباب، وجودها وعدمها عندهم على حدّ سواء؛ لقومٍ انتهى ظلمهم واشتدّ شقاؤهم وانقطع الرجاء من هدايتهم، ولهذا قالوا: ﴿إن هذا إلّا خُلِقَ الأوّلين﴾؛ أي: هذه الأحوال والنعم ونحو ذلك عادةُ الأوّلين؛ تارةً يستغنون، وتارةً يفتقرون، وهذه أحوال الدهر؛ لأنّ هذه محنٌ ومنحٌ من الله تعالى وابتلاءٌ لعباده. ﴿وما نحن بمُعذّبين﴾: وهذا إنكارٌ منهم للبعث، أو تنزّلٌ مع نبيّهم وتهكّمٌ به؛ أنّا على فرض أنّنا نُبعثُ؛ فإنّنا كما أدّرت علينا النعم في الدنيا؛ كذلك لا تزال مستمرةً علينا إذا بُعثنا.

﴿١٣٩ - ١٤٠﴾ ﴿فكذبوه﴾؛ أي: صار التّكذيب سجيّةً لهم وخُلُقاً لا يردّعهُم عنه رادعٌ؛ ﴿فأهلكناهم﴾: ﴿بريح صرصر عاتية. سخّرها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنّهم أعجاز نخل خاوية﴾. ﴿إنّ في ذلك لآيةٌ﴾: على صِدق نبيّنا هودٍ عليه السلام، وصحّة ما جاء به، وبطلان ما عليه قومه من الشرك والجبروت. ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾: مع وجود الآياتِ المقتضية للإيمان، ﴿وإنّ ربّك لهو العزيز﴾: الذي أهلك بقوته قوم هودٍ على قوتهم وبطشهم. ﴿الرحيم﴾: بنبيّه هودٍ حيث نجاه ومنّ معه من المؤمنين.

﴿كَذَبَتْ ثمودُ المرسلين﴾ (١) ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُكْفَرُونَ فِي مَا هُنَّآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّتِ وَعِثُونَ ﴿١٤٧﴾ وَرُزِعَ وَنَحَلِ طَلْمَهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنَحَّتُونَ مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَيِّنَاتٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمْسُوهَا بِسَوْءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَمَقَرُّوهَا فَاصْبِرُوا نَدِيمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

﴿١٤١ - ١٤٤﴾ ﴿كذبت ثمود﴾ القبيلة المعروفة في مدائن الحجر المرسلين: ﴿كذبوا صالحاً عليه السلام، الذي جاء بالتوحيد، الذي دعئ إليه المرسلون، فكان تكذيبهم له تكديباً للجميع، ﴿إذ قال لهم أخوهم صالح﴾: في النسب برفق ولين: ﴿ألا تتقون﴾: الله تعالى وتَدعون الشرك والمعاصي. ﴿إني لكم رسول﴾: من الله ربكم، أرسَلني إليكم لطفاً بكم ورحمةً، فتلقوا رحمته بالقبول، وقابلوها بالإذعان. ﴿أمين﴾: تعرفون ذلك مني، وذلك يوجب عليكم أن تؤمنوا بي وبما جئتُ به، ﴿وما أسألكم عليه من أجر﴾: فتقولون: يمنعنا من اتباعك أنك تريد أخذ أموالنا. ﴿إن أجرِي إلا على رب العالمين﴾؛ أي: لا أطلب الثواب إلا منه.

﴿١٤٥ - ١٥٢﴾ ﴿أنتزكون في ما هاهنا آمينين. في جنات وعيون. وزروع ونخل طلعها هضيم﴾؛ أي: نضيد كثير؛ أي: أتحسبون أنكم تُتْرَكُونَ في هذه الخيرات والنعم سدى تتنعمون وتمتعون كما تتمتع الأنعام؟ وتُتْرَكُونَ سدى لا تؤمرون ولا تنهون، وتستعينون بهذه النعم على معاصي الله، ﴿وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين﴾؛ أي: بلغت بكم الفراهة والحذق إلى أن اتخذتم بيوتا من الجبال الصم الصلاب. ﴿فانقوا الله وأطيعون. ولا تطيعوا أمر المسرفين﴾: الذين تجاوزوا الحد، ﴿الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾؛ أي: الذين وصفهم ودأبهم الإفساد في الأرض بعمل المعاصي والدعوة إليها إفساداً لا إصلاح فيه، وهذا أضر ما يكون؛ لأنه شر محض، وكان أناساً عندهم مستعدون لمعارضة نبيهم. موضعون في الدعوة لسبيل الغي، فنهاهم صالح عن الاغترار بهم، ولعلمهم الذين قال الله فيهم: ﴿وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾.

﴿١٥٣ - ١٥٤﴾ فلم يُفد فيهم هذا النهي والوعظ شيئاً، فقالوا لصالح: ﴿إنما أنت من المسخرين﴾؛ أي: قد سُجِرْتَ فأنت تهذي بما لا معنى له، و﴿ما<sup>(١)</sup> أنت إلا بشر مثلنا﴾؛ فأئى فضيلة ففقتنا بها حتى تدعونا إلى اتباعك، ﴿فأت بآية إن كنت من الصادقين﴾؛ هذا مع أن مجرد اعتبار حالته وحالة ما دعا إليه من أكبر الآيات البيّنات على صحّة ما جاء به وصدقِهِ، ولكنهم من قسوتهم سألوا آيات الاقتراح التي في الغالب لا يُفْلِح مَنْ طلبها؛ لكون طلبه مبنياً على التعنّت لا على الاسترشاد.

(١) في (ب): شطبت «الواو».

﴿١٥٥ - ١٥٦﴾ فقال صالح: ﴿هذه ناقة﴾: تخرج من صخرة صماء ملساء - تابغنا في هذا كثيراً من المفسرين، ولا مانع من ذلك - ترونها وتشاهدونها بأجمعكم، ﴿لها شرب ولكم شرب يوم معلوم﴾؛ أي: تشرب ماء البئر يوماً، وأنتم تشربون لبنها، ثم تصدّر عنكم اليوم الآخر، وتشربون أنتم ماء البئر، ﴿ولا تمسوها بسوء﴾: بعقر أو غيره؛ ﴿فياخذكم عذاب يوم عظيم﴾.

﴿١٥٧ - ١٥٩﴾ فخرجت، واستمرت عندهم بتلك الحال، فلم يؤمنوا، واستمروا على طغيانهم، ﴿فعقروها فأصبحوا نادمين. فأخذهم العذاب﴾: وهي صيحة نزلت عليهم فدمرتهم أجمعين. ﴿إن في ذلك لآية﴾: على صدق ما جاء به رسلنا وبتلان قول معارضيهم. ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾.

﴿كذبت قوم لوط المرسلين﴾<sup>(١)</sup> ﴿١٦٦﴾ إِذ قَالَ لَهُمْ أَنَّهُمْ لَوْطُ آلَا نَفَقُونَ ﴿١٦٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٦﴾ فَانقُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ ﴿١٦٦﴾ وَمَا أَسْتَأْذِنُ عَلَيْهٖ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٦﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ إِنَّكُمْ عَلَىٰ عُدُوْتِكُمْ لَأَعْمَىٰ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَنْ نَمَسَّهٖ بِلُوطٍ نَّكَونُ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَجَنَّبْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا سَآءًا مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾.

﴿١٦٥ - ١٦٧﴾ قال لهم وقالوا كما قال من قبلهم، تشابهت قلوبهم في الكفر، فتشابهت أقوالهم، وكانوا مع شركهم يأتون فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين؛ يختارون نكاح الذكران المستقدر الخبيث، ويرغبون عما خلق لهم من أزواجهم؛ لإسرافهم وعدوانهم، فلم يزل ينهاهم حتى ﴿قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين﴾؛ أي: من البلد.

﴿١٦٨ - ١٧٥﴾ فلما رأى استمرارهم عليه؛ ﴿قال إني لعالمكم من القالين﴾؛ أي: المبغضين [له] الناهين عنه المحذرين، قال: ﴿رب نجني وأهلي مما

(١) في النسختين: إلى آخر القصة.

يعملون: ﴿ من فعله وعقوبته، فاستجاب الله له ﴿ فنَجَّيناهُ وأهله أجمعين. إلا عَجوزاً في الغابرين﴾؛ أي: الباقين في العذاب، وهي امرأته. ﴿ ثم دَمَرْنَا الآخِرِينَ. وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾؛ أي حجارة من سِجِّيل، ﴿ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ﴾: أهلكهم الله عن آخرهم. ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ العزيز الرحيم.﴾

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْمِرْثَلِ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْحِجْلَةَ الْأُولَى (١٨٤) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَخَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٩١)﴾.

﴿ ١٧٦ - ١٨٠ ﴾ أصحاب الأيكة؛ أي: البساتين الملتفة الأشجار<sup>(٢)</sup>، وهم أصحاب مَدْيَنَ، فكذبوا نبيهم شعيباً الذي جاء بما جاء به المرسلون. ﴿ إذ قال لهم شعيب ألا تتقون﴾: الله تعالى فتتركون ما يسخطه ويغضبه من الكفر والمعاصي، ﴿ إنني لكم رسول أمين﴾: يترتب على ذلك أن تتقوا الله، وتطيعون.

﴿ ١٨١ - ١٨٤ ﴾ وكانوا مع شريكهم يبخسون المكييل والموازين؛ فلذلك قال لهم: ﴿ أوفوا الكيل﴾؛ أي: أتموه وأكملوه، ﴿ ولا تكونوا من المخسرين﴾: الذين ينقصون الناس أموالهم ويسلبونها ببخس المكيال والميزان، ﴿ وزنوا بالقسط المستقيم﴾؛ أي: بالميزان العادل الذي لا يميل، ﴿ وأتقوا الذي خلقكم والحجلة الأولى﴾؛ أي: الخليقة الأولى؛ فكما انفرد بخلقكم وخلق من قبلكم من غير مشاركة له في ذلك؛ فأفردوه بالعبادة والتوحيد، وكما أنعم عليكم بالإيجاد والإمداد بالنعم؛ فقابلوه بشكره.

(٢) في (ب): «أشجاره».

(١) في النسختين: إلى آخر القصة.

﴿١٨٥ - ١٨٧﴾ قالوا له مكذِّبين له راڊين لقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ﴾: فأنْت تهذي وتتكلَّم كلامَ المسحور الذي غايتهُ أن لا يؤاخَذَ به، ﴿وما أنت إلا بشرٌ مثلنا﴾: فليس فيك فضيلةٌ اختصصتَ بها علينا حتى تدعونا إلى اتِّباعك. وهذا مثل قول من قبلهم ومن بعدهم، ممن عارضوا الرسل بهذه الشبهة، التي لم يزالوا يُدلون بها ويصولون ويتفقون عليها؛ لاتفاقهم على الكفر، وتشابُه قلوبهم، وقد أجابت عنها الرسلُ بقولهم: ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾. ﴿وإن نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾: وهذا جراءةٌ منهم وظلمٌ وقولٌ زورٌ، قد انطوا على خلافه؛ فإنه ما من رسول من الرسل واجهه قومه ودعاهم وجادلهم وجادلوه؛ إلا وقد أظهر الله على يديه من الآيات ما به يتيقنون صدقه وأمانته، خصوصاً شعيباً عليه السلام، الذي يسمَّى خطيبَ الأنبياء؛ لحسن مراجعته قومه ومجادلتهم بالتي هي أحسن؛ فإن قومه قد تيقنوا صدقه وأن ما جاء به حقٌ، ولكن إخبارهم عن ظنِّ كذبه كذبٌ منهم. ﴿فأسقِطْ علينا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾؛ أي: قطع عذاب تستأصلنا، ﴿إن كنت من الصادقين﴾؛ كقول إخوانهم: ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحقُّ من عندك فأمطرْ علينا حجارةً من السماء أو ائتنا بعذابٍ أليم﴾، أو أنهم طلبوا بعض آيات الاقتراح التي لا يلزمُ تميمٌ مطلوبٍ من سألها.

﴿١٨٨﴾ ﴿قال﴾ شعيبٌ عليه السلام: ﴿ربِّي أعلمُ بما تعملون﴾؛ أي: نزول العذاب ووقوع آيات الاقتراح لستُ أنا الذي آتي بها وأنزلها بكم، وليس عليّ إلا تبليغكم ونصحكم، وقد فعلتُ، وإنما الذي يأتي بها ربي، العالم بأعمالكم وأحوالكم، الذي يجازيكم ويحاسبكم.

﴿١٨٩ - ١٩١﴾ ﴿فكذبوه﴾؛ أي: صار التكذيب لهم وصفاً، والكفر لهم ديدناً، بحيث لا تفيدهم الآيات، وليس بهم حيلةٌ إلا نزول العذاب، ﴿فأخذهم عذابٌ يوم الظلَّة﴾: أظلمتهم سحابةً، فاجتمعوا تحتها مستلذنين لظلمها غير الظليل، فأحرقتهم بالعذاب، فظلوا تحتها خامدين، ولديارهم مفارقين، ولدار الشقاء والعذاب نازلين، ﴿إنه كان عذابٌ يوم عظيم﴾: لا كرامة لهم إلى الدنيا فيستأنفوا العمل، ولا يفتروا عنهم العذاب ساعةً ولا هم ينظرون. ﴿إن في ذلك لآيةً﴾: دالة على صدق شعيب وصحة ما دعا إليه وبطلان ردِّ قومه عليه، ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾: مع رؤيتهم الآيات؛ لأنهم لا زكاء فيهم ولا خير لديهم؛ ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾. ﴿وإن ربك لهو العزيز﴾: الذي امتنع بقوته عن إدراك أحدٍ وقهر كل مخلوق.



﴿الرحيم﴾: الذي الرحمة وصفه، ومن آثارها جميع الخيرات في الدنيا والآخرة، من حين أوجد الله العالم إلى ما نهاية له، ومن عزته أن أهلك أعداءه حين كذبوا رسله، ومن رحمته أن نجى أوليائه ومن اتبعهم من المؤمنين.

﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾ (١٩٢) ﴿نزل به الروح الأمين﴾ (١٩٣) ﴿على قلبك لتكون من المنذرين﴾ (١٩٤) ﴿بلسان عربي مبين﴾ (١٩٥) ﴿وإنه لفي زبور الأولين﴾ (١٩٦) ﴿أولئك لم يكن لهم آية أن يعلموا علمتوا بآية إسراءيل﴾ (١٩٧) ﴿ولو نزلناه على بعض الأعجميين﴾ (١٩٨) ﴿فقرأهم عليهم ما كانوا به مؤمنين﴾ (١٩٩) ﴿كذلك سلكناه في قلوب المجريين﴾ (٢٠٠) ﴿لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم﴾ (٢٠١) ﴿فأتاهم بفتة وهم لا يشعرون﴾ (٢٠٢) ﴿فيقولوا هل نحن منظرُونَ﴾ (٢٠٣).

﴿١٩٢﴾ لما ذكر قصص الأنبياء مع أممهم، وكيف دعّوهم وردّوا عليهم به، وكيف أهلك الله أعداءهم وصارت لهم العاقبة؛ ذكر هذا الرسول الكريم والنبي المصطفى العظيم وما جاء به من الكتاب الذي فيه هداية لأولي الألباب، فقال: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾: فالذي أنزله فاطر الأرض والسموات، المربي جميع العالم العلوي والسفلي، وكما أنه ربّاهم بهدائيتهم لمصالح دنياهم وأبدانهم؛ فإنه يربّيهم أيضاً بهدائيتهم لمصالح دينهم وأخراهم، ومن أعظم ما ربّاهم به إنزال هذا الكتاب الكريم، الذي اشتمل على الخير الكثير والبرّ الغزير، وفيه من الهداية لمصالح الدارين والأخلاق الفاضلة ما ليس في غيره، [و] في قوله: ﴿إنه لتنزيل رب العالمين﴾ من تعظيمه وشدة الاهتمام فيه من كونه نزل من الله لا من غيره مقصوداً فيه نفعكم وهدايتكم.

﴿١٩٣ - ١٩٥﴾ ﴿نزل به الروح الأمين﴾: وهو جبريل عليه السلام، الذي هو أفضل الملائكة وأقواهم، الأمين الذي قد آمن أن يزيد فيه أو ينقص ﴿على قلبك﴾: يا محمد ﴿لتكون من المنذرين﴾: تهدي به إلى طريق الرشاد وتنذر به عن طريق الغي، ﴿بلسان عربي﴾: وهو أفضل الألسنة، بلغة من بعث إليهم وياشر دعوتهم أصلاً، اللسان البين الواضح.

وتأمل كيف اجتمعت هذه الفضائل الفاخرة في هذا الكتاب الكريم؛ فإنه أفضل الكتب، نزل به أفضل الملائكة، على أفضل الخلق، على أفضل بضعة فيه، وهي قلبه على أفضل أمة أخرجت للناس، بأفضل الألسنة وأفصحها وأوسعها، وهو اللسان العربي المبين.

﴿١٩٦﴾ ﴿وَأِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: قد بشرت به كتبُ الأوّلين وصدّقته، وهو لما نزل طَبَّقَ ما أخبرت به، صدّقها، بل جاء بالحقّ وصدّق المرسلين.

﴿١٩٧﴾ ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ﴾: على صحته وأنه من الله ﴿أَنْ يَغْلَمَهُ علماء بني إسرائيل﴾: الذين قد انتهى إليهم العلم، وصاروا أعلم الناس، وهم أهل الصنف؛ فإنّ كلّ شيء يحصل به اشتباه يُزَجَعُ فيه إلى أهل الخبرة والدراية، فيكون قولهم حجّة على غيرهم؛ كما عرف السحرة الذين مَهَرُوا في علم السحر صدق معجزة موسى، وأنه ليس بسحر؛ فقول الجاهلين بعد هذا لا يُؤَبِّهُ به.

﴿١٩٨ - ١٩٩﴾ ﴿ولو نرّناهم على بعض الأعجمين﴾: الذين لا يفقهون لسانهم ولا يقدرّون على التعبير لهم كما ينبغي. ﴿فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين﴾: يقولون ما نفقّه ما يقول ولا ندري ما يدعو إليه! فليحمدوا ربهم أن جاءهم على لسان أفصح الخلق وأقدرهم على التعبير على المقاصد بالعبارات الواضحة وأنصحهم، وليأدروا إلى التصديق به وتلقّيه بالتسليم والقبول.

﴿٢٠٠ - ٢٠٣﴾ ولكنّ تكذيبهم له من غير شبهة إنّ هو إلا محض الكفر والعناد وأمر قد توارثته الأمم المكذبة؛ فلماذا قال: ﴿كذلك سلّكناهم في قلوب المجرمين﴾؛ أي: أذخّلنا التكذيب وأنظمناه في قلوب أهل الإجمام؛ كما يَدْخُلُ السلك في الإبرة، فتشربّته، وصار وصفاً لها، وذلك بسبب ظلمهم وجرمهم؛ فلذلك ﴿لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم﴾: على تكذيبهم، ﴿فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون﴾؛ أي: يأتيهم على حين غفلة وعدم إحساس منهم ولا استشعار بنزوله؛ ليكون أبلغ في عقوبتهم والنكال بهم، ﴿فيقولوا﴾: إذ ذاك: ﴿هل نحن مُنظرون﴾؛ أي: يطلبون أن يُنظروا ويُنهلوا، والحال أنه قد فات الوقت، وحلّ بهم العذاب الذي لا يُرْفَع عنهم، ولا يُقْتَر ساعة.

﴿أفبعذابنا يستعجلون﴾ ﴿أفرئيت إن متّعنهم سين﴾ ﴿ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ﴾.

﴿٢٠٤﴾ يقول تعالى: ﴿أفبعذابنا﴾: الذي هو العذاب الأليم العظيم الذي لا يُستهان به ولا يُحتقر ﴿يستعجلون﴾؟! فما الذي غرهم؟! هل فيهم قوّة وطاقّة للصبر عليه؟! أم عندهم قوّة يقدرّون على دفعه أو رفعه إذا نزل؟! أم يُعجزوننا ويظنون أننا لا نقدر على ذلك؟!!

﴿٢٠٥ - ٢٠٧﴾ ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾؛ أي: أفرايت إذا لم نستعجل عليهم بإنزال العذاب وأمهلناهم عدّة سنين يتمتّعون في الدنيا، ﴿ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾: من العذاب، ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتِّعُونَ﴾: من اللذات والشّهوات؛ أي: أي شيء تغني عنهم وتفيدهم، وقد مضت وبطلت واضمحلت، وأعقت تبعاتها، وضوعف لهم العذاب عند طول المدّة. القصد أنّ الحذر من وقوع العذاب واستحقاقهم له، وأما تعجيله [أو] (١) تأخيره؛ فلا أهميّة تحته، ولا جدوى عنده.

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذَكَرْنَا وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا نَزَّلْنَا بِهِ الشَّيَاطِينَ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾.

﴿٢٠٨ - ٢٠٩﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كَمَالِ عَدْلِهِ فِي إِهْلَاكِ الْمَكْذِبِينَ، وَأَنَّهُ مَا أَوْقَعَ بِقَرِيَةٍ هَلَاكًا وَعَذَابًا إِلَّا بَعْدَ أَنْ يُعَذِّرَ مِنْهُمْ، وَيُبْعَثَ فِيهِمُ النَّذْرَ بِالآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ، فَيُدْعُونَهُمْ إِلَى الْهُدَى، وَيُنْهَوْنَهُمْ عَنِ الرَّدَى، وَيَذْكُرُونَهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَيُنْهَوْنَهُمْ عَلَى أَيَّامِهِ فِي نِعْمِهِ وَنِقْمِهِ. ﴿ذَكَرْنَا﴾: لهم وإقامة حُجّة عليهم، ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾: فنهلك القرى قبل أن نُنذِرَهُمْ ونأخذهم وهم غافلون عن النذر؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، ﴿رَسُولًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾.

﴿٢١٠ - ٢١٢﴾ وَلَمَّا بَيَّنَّ تَعَالَى كَمَالَ الْقُرْآنِ وَجَلَالَتِهِ؛ نَرَّهَ عَنْ كُلِّ صِفَةٍ نَقَصَ، وَحَمَاهُ وَقَتَّ نَزُولِهِ وَبَعْدَ نَزُولِهِ مِنْ شَيَاطِينِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، فَقَالَ: ﴿وَمَا تَنْزَّلْتُ بِهِ الشَّيَاطِينَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ﴾؛ أي: لا يليق بحالهم ولا يناسبهم، ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾: ذلك ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾: قد أبعادوا عنه، وَأَعَدَّتْ لَهُمُ الرَّجُومَ لِحِفْظِهِ، وَنَزَلَ بِهِ جَبْرِيْلُ أَقْوَى الْمَلَائِكَةِ، الَّذِي لَا يَقْدِرُ شَيْطَانٌ أَنْ يَقْرَبَهُ أَوْ يَحُومَ حَوْلَ سَاحَتِهِ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

﴿فَلَا تَلْعَبْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُكْرِمَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَخُفِضَ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَاكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾.

﴿٢١٣﴾ يَنْهَى تَعَالَى رَسُولَهُ أَصْلًا وَأُمَّتَهُ أَسْوَةً لَهُ فِي ذَلِكَ عَنْ دَعَاءِ غَيْرِ اللَّهِ مِنْ

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «و».

جميع المخلوقين، وأن ذلك موجبٌ للعذاب الدائم والعقاب السرمديّ؛ لكونه شركاً، ومن يشرك بالله؛ فقد حَرَّمَ اللهُ عليه الجنة، ومأواه النار، والنهي عن الشيء أمرٌ بضده؛ فالنهي عن الشرك أمرٌ بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له؛ محبةً وخوفاً ورجاءً وذلاً وإنايةً إليه في جميع الأوقات.

﴿٢١٤﴾ ولما أمره بما فيه كمال نفسه؛ أمره بتكميل غيره، فقال: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾: الذين هم أقربُ الناس إليك، وأحَقُّهم بإحسانك الدينيّ والدنيويّ، وهذا لا ينافي أمره بإنذار جميع الناس؛ كما إذا أمر الإنسان بعموم الإحسان، ثم قيل له: أحسن إلى قرابتك؛ فيكون هذا الخصوص<sup>(١)</sup> دالاً على التأكيد وزيادة الحث. فامتثل ﷺ هذا الأمر الإلهي، فدعا سائر بطون قريش، فعمم وخصص، وذكرهم ووعظهم، ولم يبق ﷺ من مقدوره شيئاً من نصحهم وهدايتهم إلا فعله، فاهتدى من اهتدى، وأعرض من أعرض.

﴿٢١٥﴾ ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: بلين جانبك، ولطف خطابك لهم وتودُّدك وتحبُّبك إليهم وحسن خُلقك والإحسان التامّ بهم، وقد فعل ﷺ ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿بِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾؛ فهذه أخلاقه ﷺ أكمل الأخلاق التي يحصلُ بها من المصالح العظيمة ودفع المضار ما هو مشاهد؛ فهل يليق بمؤمن بالله ورسوله يدعي اتِّباعه والاقْتداء به أن يكون كلاً على المسلمين، شرس الأخلاق، شديد الشكيمة [عليهم]، غليظ القلب، فظ القول فظيعة، وإن رأى منهم معصية أو سوء أدب؛ هَجَرَهُمْ وَمَقَّتَهُمْ وَأَبْغَضَهُمْ، لا لين عنده، ولا أدب لديه، ولا توفيق؛ قد حصل من هذه المعاملة من المفاسد وتعطيل المصالح ما حصل، ومع ذلك تجدُّه محتقراً لِمَنِ اتَّصَفَ بصفات الرسول الكريم، وقد<sup>(٢)</sup> رماه بالثفاق والمداهنة، وذكر نفسه ورفَّعها وأعجَبَ بعمله؟! فهل يعدُّ هذا<sup>(٣)</sup> إلا من جهله وتزيين الشيطان وخدعه له؟!

﴿٢١٦﴾ ولهذا قال الله لرسوله: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾: في أمر من الأمور؛ فلا تبتراً منهم، ولا تترك معاملتهم بخفض الجناح ولين الجانب، بل تبتراً من عملهم؛

(١) في (ب): «خصوصاً».

(٢) في (ب): «قد».

(٣) في (ب): «فهل هذا».

فِعْظُهُمْ عَلَيْهِ، وَاِنْصَحَهُمْ، وَاِبْدُلْ قَدْرَتَكَ فِي رَدِّهِمْ عَنْهُ وَتَوْبَتِهِمْ مِنْهُ. وَهَذَا الدَّفْعُ احْتِرَازٌ وَهُمْ مِنْ يَتَوَهَّمُ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَاحْفَظْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: يَقْتَضِي الرِّضَاءَ بِجَمِيعِ مَا يَصْدُرُ مِنْهُمْ مَا دَامُوا مُؤْمِنِينَ، فَدَفَعَ هَذَا بِهَذَا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرِنَكَ مِنْ تَقْوَمِ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلِّبَكَ فِي السَّجْدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾.

﴿٢١٧﴾ أَعْظَمُ مُسَاعِدٍ لِلْعَبْدِ عَلَى الْقِيَامِ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْاِعْتِمَادُ عَلَى رَبِّهِ وَالِاسْتِعَانَةُ بِمَوْلَاهُ عَلَى تَوْفِيقِهِ لِلْقِيَامِ بِالْأُمُورِ؛ فَلِذَلِكَ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، فَقَالَ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾: وَالتَّوَكُّلُ هُوَ اِعْتِمَادُ الْقَلْبِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي جَلْبِ الْمَنَافِعِ وَدَفْعِ الْمَضَارِّ، مَعَ ثِقَتِهِ بِهِ وَحَسَنِ ظَنِّهِ بِحُصُولِ مَطْلُوبِهِ؛ فَإِنَّهُ عَزِيزٌ رَحِيمٌ؛ بَعَزَتِهِ يَقْدِرُ عَلَى إِيْصَالِ الْخَيْرِ وَدَفْعِ الشَّرِّ عَنْ عَبْدِهِ، وَبِرَحْمَتِهِ بِهِ يَفْعَلُ ذَلِكَ.

﴿٢١٨ - ٢٢٠﴾ ثُمَّ نَبَّهَهُ عَلَى الْاِسْتِعَانَةِ بِاسْتِحْضَارِ قُرْبِ اللَّهِ وَالتَّزْوُلِ فِي مَنْزِلِ الْإِحْسَانِ، فَقَالَ: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ. وَتَقَلِّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾؛ أَي: يَرَاكَ فِي هَذِهِ الْعِبَادَةِ الْعَظِيمَةِ، الَّتِي هِيَ الصَّلَاةُ؛ وَقْتَ قِيَامِكَ وَتَقَلِّبَكَ رَاكِعًا وَسَاجِدًا؛ خَصَّهَا بِالدُّكْرِ لِفَضْلِهَا وَشَرَفِهَا، لِأَنَّ مِنْ اسْتِحْضَارِ فِيهَا قُرْبَ رَبِّهِ؛ خَشَعَ وَذَلَّ وَأَكْمَلَهَا، وَبِتَكْمِيلِهَا يَكْمُلُ سَائِرُ عَمَلِهِ، وَيَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى جَمِيعِ أُمُورِهِ. ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾: لِسَائِرِ الْأَصْوَاتِ عَلَى اخْتِلَافِهَا وَتَشْتَتِهَا وَتَنَوُّعِهَا. ﴿الْعَلِيمُ﴾: الَّذِي أَحَاطَ بِالظُّوَاهِرِ وَالبُاطِنِ وَالغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ. فَاسْتِحْضَارُ الْعَبْدِ رُؤْيَا اللَّهِ لَهُ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ، وَسَمْعُهُ لِكُلِّ مَا يَنْطِقُ بِهِ، وَعِلْمُهُ بِمَا يَنْطَوِي عَلَيْهِ قَلْبُهُ مِنَ الْهَمِّ وَالْعَزْمِ وَالنِّيَّاتِ؛ مِمَّا يَعِينُهُ عَلَى مَنْزِلَةِ الْإِحْسَانِ.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتَرَهُمْ كَذِبًا ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ وَأَنصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسِعَعُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾.

هَذَا جَوَابٌ لِمَنْ قَالَ مِنْ مَكْذِبِي الرِّسُولِ: إِنَّ مُحَمَّدًا يَنْزِلُ عَلَيْهِ شَيْطَانٌ، وَقَوْلُ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ شَاعِرٌ.

﴿٢٢١ - ٢٢٣﴾ فَقَالَ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾؛ أَي: أَخْبِرْكُمْ الْخَبَرَ الْحَقِيقِيَّ الَّذِي لَا

شكَّ فيه ولا شبهة عن<sup>(١)</sup> مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ عَلَيْهِ؛ أَي: بصفة الأشخاص الذين تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الشَّيَاطِينُ. ﴿تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ﴾؛ أَي: كذاب كثير القول للزُّورِ والإفك بالباطل، ﴿أَنِيمٌ﴾: فِي فِعْلِهِ كَثِيرُ الْمَعَاصِي. هَذَا الَّذِي تَنَزَّلُ عَلَيْهِ الشَّيَاطِينُ وَتَنَاسَبَ حَالُهُ حَالَهُمْ. ﴿يُلْقُونَ﴾: عَلَيْهِ ﴿السَّمْعُ﴾: الَّذِي يَسْتَرْقُونَهُ مِنَ السَّمَاءِ، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾؛ أَي: أَكْثَرُ مَا يُلْقُونَ إِلَيْهِ كَذِبًا، فَيَصْدُقُ وَاحِدَةً وَيَكْذِبُ مَعَهَا مَائَةً، فَيَخْتَلطُ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ، وَيُضْمَحَلُّ الْحَقُّ بِسَبَبِ قَلْبِهِ وَعَدَمِ عِلْمِهِ. فَهَذِهِ صِفَةُ الْأَشْخَاصِ الَّذِينَ تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الشَّيَاطِينُ، وَهَذِهِ صِفَةُ وَحِيهِمْ لَهُ.

وَأَمَّا مُحَمَّدٌ ﷺ؛ فَحَالُهُ مَبَايِنَةٌ لِهَذِهِ الْأَحْوَالِ أَعْظَمُ مَبَايِنَةٌ؛ لِأَنَّهُ الصَّادِقُ الْأَمِينُ الْبَارُّ الرَّاشِدُ، الَّذِي جَمَعَ بَيْنَ بَرِّ الْقَلْبِ وَصِدْقِ اللَّهْجَةِ وَنَزَاهَةِ الْأَفْعَالِ مِنَ الْمَحْرَمِ، وَالْوَحْيِ الَّذِي يَنْزِلُ عَلَيْهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يَنْزِلُ مُحْرَسًا مَحْفُوظًا مُشْتَمَلًا عَلَى الصِّدْقِ الْعَظِيمِ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا رَيْبَ؛ فَهَلْ يَسْتَوِي يَا أَهْلَ الْعُقُولِ هَذَا وَأَوْلَئِكَ؟! وَهَلْ يَشْتَهَانِ إِلَّا عَلَى مَجْنُونٍ لَا يَمَيِّزُ وَلَا يَفْرُقُ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ؟!

﴿٢٢٤ - ٢٢٦﴾ فلما نَزَّهَهُ عَنِ نَزْوِ الشَّيَاطِينِ عَلَيْهِ؛ بَرَّاهُ أَيْضًا مِنَ الشُّعْرِ، فَقَالَ: ﴿وَالشُّعْرَاءُ﴾؛ أَي: هَلْ أُنْبِئُكُمْ أَيْضًا عَنِ حَالَةِ الشُّعْرَاءِ وَوَصْفِهِمُ الثَّابِتُ؛ فَإِنَّهُمْ ﴿يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾: عَنِ طَرِيقِ الْهُدَى، الْمُقْبِلُونَ عَلَى طَرِيقِ الْعُغْيِ وَالرَّدَى؛ فَهَمُ فِي أَنْفُسِهِمْ غَاوُونَ، وَتَجِدُ أَتْبَاعَهُمْ كُلَّ غَاوٍ ضَالٍّ فَاسِدٍ. ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: غَوَايَتَهُمْ وَشِدَّةَ ضَلَالَتِهِمْ، ﴿أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ﴾: مِنْ أَوْدِيَةِ الشُّعْرِ ﴿يَهيمُونَ﴾: فَتَارَةٌ فِي مَدْحٍ، وَتَارَةٌ فِي قَدْحٍ، وَتَارَةٌ فِي صِدْقٍ، وَتَارَةٌ فِي كَذِبٍ، وَتَارَةٌ يَتَغَزَّلُونَ، وَأُخْرَى يَسْخَرُونَ، وَمَرَّةٌ يَمْرَحُونَ، وَأَوْنَةٌ يَحْزَنُونَ؛ فَلَا يَسْتَقِرُّ لَهُمْ قَرَارٌ، وَلَا يَثْبُتُونَ عَلَى حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ. ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾؛ أَي: هَذَا وَصْفُ الشُّعْرَاءِ: أَنَّهُمْ تَخَالَفُوا أَقْوَالَهُمْ أَفْعَالَهُمْ؛ فَإِذَا سَمِعَتِ الشَّاعِرَةُ يَتَغَزَّلُ بِالْغَزْلِ الرَّقِيقِ؛ قَلَّتْ: هَذَا أَشَدُّ النَّاسِ غَرَامًا، وَقَلْبُهُ فَارِعٌ مِنْ ذَلِكَ، وَإِذَا سَمِعَتْهُ يَمْدَحُ أَوْ يذُمُّ؛ قَلَّتْ: هَذَا صِدْقًا! وَهُوَ كَذِبٌ. وَتَارَةٌ يَتَمَدَّحُ بِأَفْعَالٍ لَمْ يَفْعَلْهَا، وَتَرَوِكٌ لَمْ يَتْرَكْهَا، وَكِرْمٌ لَمْ يَحْمِ حَوْلَ سَاحَتِهِ، وَشِجَاعَةٌ يعلو بها على الفرسان، وَتَرَاهُ أَجْبَنَ مِنْ كُلِّ جَبَانٍ. هَذَا وَصْفُهُمْ؛ فَانظُرْ هَلْ يَطَابِقُ حَالَةَ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ الرَّاشِدِ الْبَارِّ، الَّذِي يَتَّبِعُهُ كُلُّ رَاشِدٍ وَمُهْتَدٍ، الَّذِي قَدْ اسْتَقَامَ عَلَى الْهُدَى وَجَانَبَ الرَّدَى وَلَمْ تَتَنَاقُضْ أَعْمَالُهُ، [وَلَمْ

(١) فِي (ب): «عَلَى».

تُخَالِفَ أَقْوَالَهُ أَفْعَالَهُ<sup>(١)</sup>؛ الذي لا يأمرُ إلا بالخير، ولا ينهى إلا عن الشرِّ، ولا أخبر بشيء إلا صدق، ولا أمر بشيء إلا كان أول الفاعلين له، ولا نهى عن شيء إلا كان أول التاركين له؛ فهل تناسب حاله حالة الشعراء أو يقارِبُهُمْ؟ أم هو مخالف لهم من جميع الوجوه؟ فصلواتُ الله وسلامه على هذا الرسول الأكمل، والهمام الأفضل، أبد الآبدين، ودهر الداهرين، الذي ليس بشاعرٍ ولا ساحرٍ ولا مجنونٍ، ولا يليقُ به إلا كلُّ كمال.

﴿٢٢٧﴾ ولما وَصَفَ الشعراء بما وَصَفَهُمْ به؛ استثنى منهم مَنْ آمَنَ بالله ورسوله وَعَمِلَ صالحاً وأكثر من ذِكرِ الله وانتصر من أعدائِهِ المشركين من بعد ما ظلموهم، فصار شعْرُهُمْ من أعمالهم الصالحة وآثار إيمانهم؛ لاشتمالِهِ على مدح أهل الإيمان والانتصار من أهل الشرك والكفر والذب عن دين الله وتبيين العلوم النافعة والحث على الأخلاق الفاضلة، فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾: إلى موقفٍ وحسابٍ لا يغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها ولا حقاً إلا استوفاه. والحمد لله ربِّ العالمين.



## تفسير سورة النمل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طَسَّ تَلَكَّ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيْنًا لَمْ أَعْمَلَهُمْ فَهَمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرَوْا الْعَذَابَ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ (عَلِيمٍ) ﴿٦﴾﴾.

﴿١﴾ ينبه تعالى عباده على عظمة القرآن، ويشيرُ إليه إشارة دالة على التعظيم، فقال: ﴿تلك آيات القرآن وكتاب مبين﴾؛ أي: هي أعلى الآيات وأقوى البينات

(١) زيادة من (ب) لا توجد في (أ).

وأوضح الدلالات وأبينها على أجل المطالب وأفضل المقاصد وخير الأعمال وأزكى الأخلاق؛ آيات تدلُّ على الأخبار الصادقة والأوامر الحسنة والنهي عن كل عمل وخيم وخلقٍ ذميم، آيات بلغت في وضوحها وبيانها للبصائر النيِّرة مبلغ الشمس للأبصار، آيات دلَّت على الإيمان ودعت للوصول إلى الإيقان وأخبرت عن الغيوب الماضية والمستقبلية [على] طبق ما كان ويكون، آيات دعت إلى معرفة الربِّ العظيم بأسمائه الحسنى وصفاته العلى وأفعاله الكاملة، آيات عرَّفتنا برسله وأولياته ووصفتهم حتى كأننا ننظرُ إليهم بأبصارنا.

﴿٢﴾ ولكن مع هذا؛ لم ينتفع بها كثيرٌ من العالمين، ولم يهتدِ بها جميع المعاندين؛ صوناً لها عن من لا خير فيه ولا صلاح ولا زكاء في قلبه، وإنما اهتدى بها من خصَّهم الله بالإيمان واستنارت بذلك قلوبهم وصفت سرائرهم، فلهذا قال: ﴿هدى وبُشرى للمؤمنين﴾؛ أي: تهديهم إلى سلوك الصراط المستقيم، وتبين لهم ما ينبغي أن يسلكوه أو يتزكوه، وتبشِّرهم بثواب الله. المرتب على الهداية لهذا الطريق.

﴿٣﴾ ربَّما قيل: لعله يكثر مدعو الإيمان؛ فهل يُقبل من كلِّ أحدٍ ادَّعى أنه مؤمنٌ ذلك؟ أم لا بدُّ لذلك من دليل وهو الحقُّ؟ فلذلك بين تعالى صفة المؤمنين، فقال: ﴿الذين يقيمون الصلاة﴾: فرضها ونفلها؛ فيأتون بأفعالها الظاهرة من أركانها وشروطها وواجباتها [بل] ومستحباتها وأفعالها الباطنة وهو الخشوع الذي هو روحها ولبها؛ باستحضار قرب الله وتدبُّر ما يقوله المصلي ويفعله، ﴿ويؤتون الزكاة﴾: المفروضة لمستحقها. ﴿وهم بالآخرة هم يوقنون﴾؛ أي: قد بلغ معهم الإيمان إلى أن وصل إلى درجة اليقين، وهو العلم التأمُّ الواصل إلى القلب الداعي إلى العمل، ويقينهم بالآخرة يقتضي كمال سعيهم لها وحذرهم من أسباب العذاب وموجبات العقاب، وهذا أصل كلِّ خير.

﴿٤﴾ إنَّ الذين لا يؤمنون بالآخرة: ويكذبون بها ويكذبون من جاء بإثباتها؛ زيناً لهم أعمالهم فهم يغمهون: حائرين، مترددين، مؤثرين سخط الله على رضاه، قد انقلبت عليهم الحقائق، فأروا الباطل حقاً والحق باطلاً.

﴿٥﴾ أولئك الذين لهم سوء العذاب: أي: أشده وأسوؤه وأعظمه. ﴿وهم﴾ بالآخرة ﴿هم الأخسرون﴾: حصَرَ الخسارَ فيهم لكونهم خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، وخسروا الإيمان الذي دعتهم إليه الرسل.



﴿٦﴾ ﴿وَإِنَّكَ لَتَلَقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ [عَلِيمٍ]﴾<sup>(١)</sup>؛ أي: وإن هذا القرآن الذي ينزل عليك، وتلقئه ينزل من عند حكيم، يَضَعُ الأشياءَ مواضعها، وينزلها منازلها، [خبير]<sup>(٢)</sup> بأسرار الأحوال<sup>(٣)</sup> وبواطنها كظواهرها. وإذا كان من عند حكيم [خبير]<sup>(٢)</sup>؛ علم أنه كلُّه حكمةً ومصالحٌ للعباد من الذي أعلم بمصالحهم منهم.

﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِيهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾<sup>(٤)</sup> سَتَائِكُمْ مِنْهَا يَخْبِرُ أَوْ آتَيْكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَمْسُوجٌ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَّى يُعْجَبٌ يَمْسُوجٌ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمَرْسُوعِ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حِسَابًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ يَيْضَاءً مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي شِعَابِ الْبَابِ وَإِنِّي أَخْبِرُكَ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ وَحَدِّثُوا بِهَا وَأَسْتَفِئْتَهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلْمًا وَطُلُوعًا فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ .

﴿٧﴾ يعني: اذكر هذه الحالة الفاضلة الشريفة من أحوال موسى بن عمران ابتداء الوحي إليه واصطفائه برسالته وتكليم الله إياه، وذلك أنه لما مكث في مدين عدة سنين، وسار بأهله من مدين متوجهاً إلى مصر، فلما كان في أثناء الطريق؛ ضل، وكان في ليلة مظلمة باردة، فقال لهم: ﴿إني آنستُ ناراً﴾؛ أي: أبصرتُ ناراً من بعيد، ﴿سأتیکم منها بخبر﴾: عن الطريق، ﴿أو آتیکم بشهابٍ قبسٍ لعلکم تصطلون﴾؛ أي: تستدفنون، وهذا دليلٌ على أنه تائه ومشتدُّ برده هو وأهله.

﴿٨﴾ ﴿فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها﴾؛ أي: ناداه الله تعالى وأخبره أن هذا محلٌّ مقدسٌ مبارك، ومن بركته أن جعله الله موضعاً لتكليم الله لموسى وندائه وإرساله. ﴿وسبحان الله رب العالمين﴾: عن أن يُظنَّ به نقصٌ أو سوء، بل هو الكامل في وصفه وفعله.

﴿٩﴾ ﴿يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم﴾؛ أي: أخبره الله أنه الله المستحقُّ للعبادة وحده لا شريك له؛ كما في الآية الأخرى: ﴿إني أنا الله لا إله إلا أنا

(١) في النسختين: «خبير».

(٢) كذا في النسختين.

(٣) في (ب): «الأمور».

(٤) في النسختين إلى آخر قصته.

فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٠﴾ . ﴿العزیز﴾ : الذي قَهَرَ جميع الأشياء وأذعنت له كلُّ المخلوقات . ﴿الحكيم﴾ : في أمره وخلقِهِ، ومن حكمته أَنْ أرسلَ عبده موسى بن عمران، الذي عَلِمَ اللهُ منه أَنَّهُ أَهْلٌ لِرِسالته ووحیه وتكليمه، ومن عزَّتِهِ أَنْ تعتمد عليه ولا تستوحش من انفرادك وكثرة أعدائك وجبروتهم؛ فَإِنَّ نواصيهم بيد الله وحركاتهم وسكونهم بتدبيره .

﴿١٠﴾ ﴿وَأَلْتِي عَصَاكَ﴾ : فألقاها، ﴿فَلَمَّا رآها تهتَرُ كأنها جَانٌّ﴾ : وهو ذكر الحيات سريع الحركة؛ ﴿وَلَيْ مُذْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ : دُعِرًا من الحية التي رأى على مقتضى الطبائع البشرية، فقال اللهُ له: ﴿يا موسى لا تخف﴾، وقال في الآية الأخرى: ﴿اقْبَلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ . ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيْ الْمُرْسَلِينَ﴾ : لأنَّ جميع المخاوف مندرجة في قضائِهِ وقدرِهِ وتصريفِهِ وأمرِهِ، فالذين اختصَّهُم اللهُ برسالتِهِ واصطفاهم لوحِيهِ لا ينبغي لهم أن يخافوا غيرَ اللهِ؛ خصوصاً عند زيادة القُرْبِ منهم والحظوة بتكليمه .

﴿١١﴾ ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حَسَنًا بَعْدَ سَوْءٍ﴾ ؛ أي: فهذا الذي هو محلُّ الخوف والوحشة؛ بسبب ما أسدى من الظلم وما تقدّم له من الجرم، وأما المرسلون؛ فما لهم وللوحشة والخوف؟! ومع هذا؛ من ظلم نفسه بمعاصي الله و<sup>(١)</sup>تاب وأناب فبدل سيئاته حسناتٍ ومعاصيه طاعاتٍ؛ فَإِنَّ الله غفورٌ رحيمٌ؛ فلا ييأس أحدٌ من رحمته ومغفرتِهِ؛ فَإِنَّه يغفر الذنوبَ جميعاً، وهو أرحمُ بعباده من الوالدة بولدها .

﴿١٢﴾ ﴿وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ﴾ : لا برص ولا نقص، بل بياضٌ يبهّر الناظرين شعاعه ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾ ؛ أي: هاتان الآيتان - انقلابُ العصا حيّة تسعى وإخراجُ اليد من الجيب فتخرجُ بيضاء - في جملة تسع آياتٍ تذهبُ بها وتدعو فرعون وقومه . ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ : فسقوا بشركهم وعتوهم وعلوهم على عباد الله واستكبارهم في الأرض بغير الحقّ .

﴿١٣﴾ فذهب موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه، ودعاهم إلى الله تعالى، وأراهم الآيات، ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مَبْصُرَةً﴾ : مضيئة تدلُّ على الحقِّ ويُبصِرُ بها كما تُبصِرُ الأبصارُ بالشمس، ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ : لم يكنهم مجردُ القول بأنه

سحرًا، بل قالوا: مبینٌ ظاهرٌ لكلِّ أحدٍ! وهذا من أعجب العجائب؛ الآيات المبصرات والأنوار الساطعات تُجَعَلُ من أبین الخُرْغِبات وأظهر السحرِ، هل هذا إلا من أعظم المكابرة وأوقح السفسطة؟!

﴿١٤﴾ ﴿وجحدوا بها﴾؛ أي: كفروا بآيات الله جاحدين لها، ﴿واستيقنوها أنفسهم﴾؛ أي: ليس جحدهم مستنداً إلى الشك والريب، وإنما جحدهم مع علمهم وتيقنهم بصحتها ﴿ظلماً﴾: منهم لحق ربهم ولأنفسهم، ﴿وعلوًا﴾: على الحق وعلى العباد وعلى الانتقياد للرسول. ﴿فانظُرْ كيفَ كان عاقبةَ المفسدين﴾: أسوأ عاقبة؛ دمرهم الله، وغرقهم في البحر، وأخزاهم، وأورث مساكنهم المستضعفين من عباده.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ (١) وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (٢)﴾  
 ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَأْتِيهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مِنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْأَمِينُ ﴿١٦﴾ وَخُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمَلَةٌ يَأْتِيهَا النَّمْلُ آذِنُوا لِمَنْ لَكُمْ لَمْ يَحْطَمْكُمُ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَنَسَسَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْيَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَايِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأَعَذَّبَنَّكَ عَبْدًا شَكِيدًا أَوْ لَأَأَذِجَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَتْ عَيْرٌ بِعَبِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحْطُ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَاءٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ أَذْهَبَ بِكِنَانِي هَذَا قَالِقَةَ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَأْتِيهَا الْمَلَأُوا إِنِّي أُلْفَىٰ إِلَىٰ كِنَانِ كَرِيمٍ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٥﴾ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأْتُوهُنَّ مَسْلُومَاتٍ ﴿٣٦﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَتُّوْنَ فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُوْنَ ﴿٣٧﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلَاؤُا قَوَّوْمٌ وَأَوْلَاؤُا بَآئِسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَاجَ أَهْلِهَا آذَنًا وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٩﴾ وَإِنِّي مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَيْنِيَ اللَّهُ خَيْرَ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ فَخْرُونَ ﴿٤١﴾ أَنْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا آذَنَةً وَهُمْ صَوْرُونَ ﴿٤٢﴾ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَتَيْتُمْ بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَنِي مَسْلُومًا ﴿٤٣﴾ قَالَ عِفْرِيْتُ مَنِ الْإِنْسَانُ أَنَا ءَايَتُكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٤٤﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَايَتُكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ عَزِيزٌ كَرِيمٌ ﴿٤٥﴾ قَالَ تَكَرُّوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَنْهَدِيحَ أَمْ نَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوَيْنَا أَلْعَلِمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٨﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٩﴾ ﴿

﴿١٥﴾ يذكر في هذا القرآن وبنوه بمثته على داود وسليمان ابنه بالعلم الواسع الكثير؛ بدليل التَّنْكِير؛ كما قال تعالى: ﴿وداود وسليمان إذ يحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحَكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾. ففهمناها سليمان وكلاً آتينا حكماً وعلماً... ﴿ الآية. وقالوا شاكرين لربهما منته الكبرى بتعليمهما: ﴿الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين﴾: فحمدا لله على جعلهما من المؤمنين أهل السعادة، وأنهم كانوا من خواصهم. ولا شك أن المؤمنين أربع درجات: الصالحون، ثم فوقهم الشهداء، ثم فوقهم الصديقون، ثم فوقهم الأنبياء. وداود وسليمان من خواص الرسل، وإن كانوا دون درجة أولي العزم الخمسة، لكنهم من جملة الرسل الفضلاء الكرام، الذين نوه الله بذكرهم ومدحهم في كتابه مدحاً عظيماً، فحمدوا الله على بلوغ هذه المنزلة، وهذا عنوان سعادة العبد: أن يكون شاكرًا لله على نعمه الدينية والدنيوية، وأن يرى جميع النعم من ربه؛ فلا يفخر بها ولا يعجب بها، بل يرى أنها تستحق عليه شكرياً كثيراً.

﴿١٦﴾ فلما مدحهما مشتركين؛ خصَّ سليمان بما خصَّه به لكون الله أعطاه ملكاً عظيماً وصار له من الماجريات ما لم يكن لأبيه صلى الله عليهما وسلم، فقال: ﴿وورث سليمان داود﴾؛ أي: ورث علمه ونبوته، وانضمَّ علم أبيه إلى علمه، فلعله تعلَّم من أبيه ما عنده من العلم مع ما كان عليه من العلم وقت أبيه؛ كما تقدَّم من قوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾. ﴿وقال﴾: شكراً لله وتبجحاً بإحسانه وتحديثاً بنعمته: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مِنْ مَنطِقِ الطَّيْرِ﴾: فكان عليه الصلاة والسلام يفقه ما تقول وتتكلم به؛ كما راجع الهدى وراجعته، وكما فهم قول النملة للنمل كما يأتي، وهذا لم يكن لأحدٍ غير سليمان عليه السلام، ﴿وأوتينا من كلِّ شيء﴾؛ أي: أعطانا الله من النعم ومن أسباب الملك ومن السلطنة والقهر ما لم يؤت أحداً من الآدميين، ولهذا دعا ربّه، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مَلِكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾: فسخر الله له الشياطين يعملون له كلَّ ما شاء من الأعمال التي يعجز عنها غيرهم، وسخر له الريح غدوها شهرٌ ورواحها شهرٌ. ﴿إِنَّ هَذَا﴾: الذي أعطانا الله، وفضلنا، واختصنا به ﴿لهو الفضل المبين﴾: الواضح الجلي، فاعترف أكمل اعتراف بنعمة الله تعالى.

﴿١٧﴾ ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾: أي جمع له جنوده الكثيرة الهائلة المتنوعة من بني آدم ومن الجن والشياطين ومن الطيور. ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾: يُدَبَّرُونَ ويردُّ أولهم على آخرهم وينظَّمون غاية التنظيم في سيرهم ونزولهم وحلهم وتزحالهم، قد استعدَّ لذلك وأعدَّ له عدته، وكلُّ هذه الجنود مؤتمرةٌ بأمره لا تقدرُ على عصيانه ولا تتمردُ عليه؛ كما قال تعالى: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾؛ أي: أعط بغير حساب.

﴿١٨﴾ فسار بهذه الجنود الضخمة في بعض أسفاره، ﴿حتى إذا أتوا على وادي النمل قالت نملة﴾: منبهة لرفقتها وبني جنسها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَخَاطِبَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: فنصحت هذه النملة وأسمعت النمل: إما بنفسها، ويكون الله قد أعطى النمل أسماعاً خارقة للعادة؛ لأنَّ التنبيه للنمل الذي قد ملأ الوادي بصوت نملة واحدة من أعجب العجائب. وإما بأنها أخبرت من حولها من النمل ثم سرى الخبر من بعضهم لبعض حتى بلغ الجميع وأمرتهم بالحذر والطريق في ذلك، وهو دخول مساكنهم، وعرفت حالة سليمان وجنوده وعظمت سلطانه، واعتذرت عنهم أنهم إن حطموكم؛ فليس عن قصدٍ منهم ولا شعورٍ.

﴿١٩﴾ فسمع سليمان عليه الصلاة والسلام قولها وفهمه، ﴿فتبسّم ضاحكاً من

قولها: ﴿إِعْجَاباً مِنْهُ بِفَصَاحَتِهَا وَنُصْحِهَا وَحَسَنِ تَعْبِيرِهَا، وَهَذَا حَالُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ الْأَدَبُ الْكَامِلُ، وَالتَّعَجُّبُ فِي مَوْضِعِهِ، وَأَنْ لَا يَبْلُغَ بِهِمُ الضَّحِكُ إِلَّا إِلَى التَّبَسُّمِ؛ كَمَا كَانَ الرَّسُولُ ﷺ جُلُّ ضَحِكِهِ التَّبَسُّمُ<sup>(١)</sup>؛ فَإِنَّ الْقَهْقَهَةَ تَدُلُّ عَلَى خَفَةِ الْعَقْلِ وَسُوءِ الْأَدَبِ، وَعَدَمِ التَّبَسُّمِ وَالْعَجَبِ مِمَّا يُتَّعَجَّبُ مِنْهُ يَدُلُّ عَلَى شِرَاسَةِ الْخَلْقِ وَالْجَبْرُوتِ، وَالرَّسُلِ مَنْزَهُونَ عَنْ ذَلِكَ. وَقَالَ شَاكِرٌ لِلَّهِ الَّذِي أَوْصَلَهُ إِلَى هَذِهِ الْحَالِ: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾؛ أَي: أَلْهَمْنِي وَوَفَّقْنِي ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيْكَ﴾: فَإِنَّ النِّعْمَةَ عَلَى الْوَالِدَيْنِ نِعْمَةٌ عَلَى الْوَلَدِ، فَسَأَلَ رَبَّهُ التَّوْفِيقَ لِلْقِيَامِ بِشُكْرِ نِعْمَتِهِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ عَلَيْهِ وَعَلَى وَالِدَيْهِ، ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ﴾؛ أَي: وَوَفَّقْنِي أَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ؛ لِكُونِهِ مُوَافِقاً لِأَمْرِكَ مُخْلِصاً فِيهِ سَالِماً مِنَ الْمَفْسَدَاتِ وَالْمُنْقَصَاتِ، ﴿وَأَدْخَلْنِي بِرَحْمَتِكَ﴾: الَّتِي مِنْهَا الْجَنَّةُ، ﴿فِي﴾: جَمَلَةٌ ﴿عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾: فَإِنَّ الرَّحْمَةَ مَجْعُولَةٌ لِلصَّالِحِينَ عَلَى اخْتِلَافِ دَرَجَاتِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ. فَهَذَا نَمُودَجٌ ذَكَرَهُ اللَّهُ مِنْ حَالَةِ سَلِيمَانَ عِنْدَ سَمَاعِ خُطَابِ النَّمْلَةِ وَنَدَائِهَا.

﴿٢٠﴾ ثم ذَكَرَ نَمُودَجاً آخَرَ مِنْ مَخَاطَبَتِهِ لِلطَّيْرِ، فَقَالَ: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾: دَلٌّ هَذَا عَلَى كِمَالِ عَزَمِهِ وَحَزْمِهِ وَحَسَنِ تَنْظِيمِهِ لِحُجُودِهِ وَتَدْبِيرِهِ بِنَفْسِهِ لِلْأُمُورِ الصَّغَارِ وَالْكِبَارِ، حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يُهْمِلْ هَذَا الْأَمْرَ، وَهُوَ تَفَقُّدُ الطَّيْرِ، وَالنَّظْرُ هَلْ هِيَ مَوْجُودَةٌ كُلُّهَا أَمْ مَفْقُودَةٌ مِنْهَا شَيْءٌ؟ وَهَذَا هُوَ الْمَعْنَى لِلآيَةِ.

وَلَمْ يَصْنَعْ شَيْئاً مَنْ قَالَ: إِنَّهُ تَفَقَّدَ الطَّيْرَ لِيَنْظَرَ أَيْنَ الْهَدَّهِدُ مِنْهُ لِيَدُلَّهُ عَلَى بَعْدِ الْمَاءِ وَقَرِيبِهِ؛ كَمَا زَعَمُوا عَنِ الْهَدَّهِدِ أَنَّهُ يَبْصُرُ الْمَاءَ تَحْتَ الْأَرْضِ الْكَثِيفَةِ؛ فَإِنَّ هَذَا الْقَوْلَ لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ دَلِيلٌ، بَلِ الدَّلِيلُ الْعَقْلِيُّ وَاللَّفْظِيُّ دَالٌّ عَلَى بَطْلَانِهِ: أَمَا الْعَقْلِيُّ؛ فَإِنَّهُ قَدْ عُرِفَ بِالْعَادَةِ وَالتَّجَارِبِ وَالْمَشَاهِدَاتِ أَنَّ هَذِهِ الْحَيَوَانَاتِ كُلُّهَا لَيْسَ مِنْهَا شَيْءٌ يَبْصُرُ هَذَا الْبَصَرَ الْخَارِقَ لِلْعَادَةِ وَيَنْظُرُ الْمَاءَ تَحْتَ الْأَرْضِ الْكَثِيفَةِ، وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ؛ لَذَكَرَهُ اللَّهُ؛ لِأَنَّهُ مِنْ أَكْبَرِ الْآيَاتِ. وَأَمَا الدَّلِيلُ اللَّفْظِيُّ؛ فَلَوْ أُرِيدَ هَذَا الْمَعْنَى؛ لِقَالَ: وَطَلَبَ الْهَدَّهِدَ لِيَنْظُرَ لَهُ الْمَاءَ، فَلَمَّا فَقَدَهُ؛ قَالَ مَا قَالَ، أَوْ: فَفَتَّشَ عَنِ الْهَدَّهِدِ، أَوْ: بَحَثَ عَنْهُ. وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنَ الْعِبَارَاتِ. وَإِنَّمَا تَفَقُّدُ الطَّيْرِ لِيَنْظَرَ الْحَاضِرَ مِنْهَا وَالْغَائِبَ وَلِزُومِهَا لِلْمَرَكَزِ وَالْمَوَاضِعِ الَّتِي عَيْنُهَا لَهَا. وَأَيْضاً؛ فَإِنَّ سَلِيمَانَ عَلَيْهِ

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٤/١٩٠)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٣٦٤٥)، وَالحَدِيثُ صَحِيحُهُ الْأَبَانِيُّ فِي «مَخْتَصَرِ

السلام لا يحتاج ولا يضطرُّ إلى الماء بحيث يحتاج لهندسة الهدهد؛ فإنَّ عنده من الشياطين والعماريات ما يحفرون له الماء، ولو بلغ في العمق ما بلغ، وسخر الله له الريح غدوها شهرٌ ورواحها شهرٌ؛ فكيف مع ذلك يحتاج إلى الهدهد؟!

وهذه التفسير التي توجد وتشتهر بها أقوال لا يُعرف غيرها تنقل هذه الأقوال عن بني إسرائيل مجردة، ويغفل الناقل عن مناقضتها للمعاني الصحيحة وتطبيقها على الأقوال، ثم لا تزال تتناقل وينقلها المتأخر مسلماً للمتقدم، حتى يُظنَّ أنها الحق، فيقع من الأقوال الرديئة في التفسير ما يقع، واللبيب الفطن يعرف أنَّ هذا القرآن الكريم العربي المبين الذي خاطب الله به الخلق كلهم عالمهم وجاهلهم وأمرهم بالتفكير في معانيه وتطبيقها على ألفاظه العربية المعروفة المعاني التي لا تجهلها العربُ العرباء، وإذا وجد أقوالاً منقولة عن غير رسول الله ﷺ، رَدَّها إلى هذا الأصل؛ فإن وافقه؛ قبلها؛ لكون اللفظ دالاً عليها، وإن خالفته لفظاً ومعنى أو لفظاً أو معنى؛ رَدَّها وجزم ببطلانها؛ لأنَّ عنده أصلاً معلوماً مناقضاً لها، وهو ما يعرفه من معنى الكلام ودلالته.

والشاهد أنَّ تفقَّد سليمان عليه السلام للطير وفقده الهدهد يدلُّ على كمال حزمه وتديبه للملك بنفسه وكمال فطنته، حتى فقَد هذا الطائر الصغير، ﴿فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين﴾؛ أي: هل عدم رؤيتي إيَّاه لقلة فطنتي به لكونه خفياً بين هذه الأمم الكثيرة؟ أم على بابها بأن كان غائباً من غير إذني ولا أمري؟!

﴿٢١﴾ فحينئذ تغيط عليه وتوعده فقال: ﴿لأعذبنه عذاباً شديداً﴾: دون القتل ﴿أو لأذبحته أو ليأتيني بسلطان مبين﴾؛ أي: حجة واضحة على تخلفه. وهذا من كمال ورعه وإنصافه؛ أنه لم يقسم على مجرد عقوبته بالعذاب أو القتل؛ لأنَّ ذلك لا يكون إلا من ذنب، وغيبته قد تحتمل أنها لعذر واضح؛ فلذلك استثناه لورعه وفطنته.

﴿٢٢﴾ ﴿فمكث غير بعيد﴾: ثم جاء، وهذا يدلُّ على هيبة جنوده منه وشدة ائتمارهم لأمره، حتى إن هذا الهدهد الذي خلفه العذر الواضح لم يقدر على التخلف زمناً كثيراً، ﴿فقال﴾ لسليمان: ﴿أحطت بما لم تحط به﴾؛ أي: عندي من العلم علم ما أحطت به على علمك الواسع وعلو درجتك فيه، ﴿وجئتك من سبأ﴾: القبيلة المعروفة في اليمن ﴿بنبا يقين﴾؛ أي: خبر متيقن.

﴿٢٣﴾ ثم فسّر هذا التبا فقال: ﴿إني وجدت امرأة تملكهم﴾؛ أي: تملك قبيلة

سبأ، وهي امرأة، ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾: يؤتاه الملوك من الأموال والسلاح والجنود والحصون وقلاع ونحو ذلك، ﴿ولها عرشٌ عظيمٌ﴾؛ أي: كرسي ملكها الذي تجلس عليه عرش هائل، وعِظْمُ العروش تدلُّ على عظمة المملكة وقوة السلطان وكثرة رجال الشورى.

﴿٢٤﴾ ﴿وَجَدْنَاهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾؛ أي: هم مشركون يعبدون الشمس، ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾: فرأوا ما هم عليه هو الحق، ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾: لأنَّ الذي يرى أنَّ الذي عليه حق لا مطمع في هدايته حتى تتغير عقيدته.

﴿٢٥﴾ ثم قال: ﴿أَلَا﴾؛ أي: هلاً ﴿يسجدوا لله الذي يُخْرِجُ الحَبَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: يعلم الخفي الخبيء في أقطار السماوات وأنحاء الأرض من صغار المخلوقات وبذور النباتات وخفايا الصدور، ويخرج حَبَّ الأرض والسماء بانزال المطر وإنبات النبات، ويخرج حَبَّ الأرض عند النفخ في الصور وإخراج الأموات من الأرض ليجازيهم بأعمالهم، ﴿ويعلم ما تُخْفُونَ وما تُعْلِنُونَ﴾.

﴿٢٦﴾ ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا تنبغي العبادة والإنابة والذلُّ والحبُّ إلاَّ له؛ لأنَّه المألوه؛ لما له من الصفات الكاملة والنعم الموجبة لذلك. ﴿رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ﴾: الذي هو سقف المخلوقات، ووسع الأرض والسماوات. فهذا الملك عظيم السلطان كبير الشأن هو الذي يُدُلُّ له ويُخضعُ ويُسجدُ له وَيُرَكَّبُ.

﴿٢٧ - ٢٨﴾ فسلم الهدهد حين ألقى إليه هذا النبا العظيم، وتعجب سليمان كيف خفي عليه، وقال مثبتاً لكماله وعقله ورزاقته: ﴿سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الكَاذِبِينَ﴾. اذهب بكتابي هذا: ﴿وسياتي نصه، ﴿فألقه إليهم ثم تولَّ عنهم﴾؛ أي: استأخر غير بعيد، ﴿فانظر ماذا يرجعون﴾: إليك وما يتراجعون به.

﴿٢٩ - ٣١﴾ فذهب به، فألقاه عليها، فقالت لقومها: ﴿إني ألقى إلي كتاب كريم﴾؛ أي: جليل المقدر، من أكبر ملوك الأرض، ثم بينت مضمونه، فقالت: ﴿إنه من سليمان وإنه بئسئم الله الرحمن الرحيم. أن لا تغلوا عليَّ وأتوني مسلمين﴾؛ أي: لا تكونوا فوقِي، بل اخضعوا تحت سلطاني، وانقادوا لأوامري، وأقبلوا إليَّ مسلمين. ولهذا في غاية الوجازة مع البيان التام؛ فإنه تضمَّن نهيته<sup>(١)</sup> عن

(١) في (ب): «نهيهم».



العلو عليه والبقاء على حالهم التي هم عليها، والانقياد لأمره والدخول تحت طاعته، ومجيئهم إليه ودعوتهم إلى الإسلام. وفيه استحباب ابتداء الكتب بالبسملة كاملة، وتقديم الاسم في أول عنوان الكتاب.

﴿٣٢ - ٣٣﴾ فمن حزمها وعقلها أن جمعت كبار دولتها ورجال مملكتها وقالت: ﴿يا أيها الملاء أفتوني في أمري﴾؛ أي: أخبروني ماذا نجيبه به؟! وهل ندخل تحت طاعته وننقاد أم ماذا نفعل؟! ﴿ما كنت قاطعةً أمراً حتى تشهدون﴾؛ أي: ما كنت مستبدةً بأمر دون رأيكم ومشورتكم، ﴿قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد﴾؛ أي: إن رددت عليه قوله، ولم تدخل في طاعته؛ فإننا أقوياء على القتال. فكأنهم مالوا إلى هذا الرأي الذي لو تم، لكان فيه دمارهم، ولكنهم أيضاً لم يستقروا عليه، بل قالوا: ﴿والأمر إليك﴾؛ أي: الرأي ما رأيت؛ لعلمهم بعقلها وحزمها ونصحها لهم، ﴿فانظري﴾: نظر فكري وتدبر ﴿ماذا تأمرين﴾.

﴿٣٤ - ٣٥﴾ فقالت لهم مقنعة لهم عن رأيهم، ومبينة سوء مغبة القتال: ﴿إن الملوكة إذا دخلوا قرية أفسدوها﴾: قتلاً وأسراً ونهباً لأموالها وتخريباً لديارها، ﴿وجعلوا أعزة أهلها أذلة﴾؛ أي: جعلوا الرؤساء السادة أشرف الناس من الأزدلين<sup>(١)</sup>؛ أي: فهذا رأي غير سديد، وأيضاً؛ فلست بمطيعه له قبل الاختبار وإرسال من يكشف عن أحواله ويتدبرها، وحينئذ نكون على بصيرة من أمرنا. فقالت: ﴿وإني مرسله إليهم بهديّة فناظرة بما يرجع المرسلون﴾: منه؛ هل يستمر على رأيه وقوله؟ أم تخذعه الهدية وتبدل فكرته؟! وكيف أحواله وجنوده؟!

﴿٣٦﴾ فأرسلت إليه بهديّة<sup>(٢)</sup> مع رسل من عقلاء قومها وذوي الرأي منهم. ﴿فلما جاء سليمان﴾؛ أي: جاء الرسل بالهدية، ﴿قال﴾: منكرأ عليهم ومتغيظاً على عدم إجابتهم: ﴿أتميدونن بمال فما آتاني الله خيراً مما آتاكم﴾: فليست تقع عندي موقعا، ولا أفرح بها، قد أغناني الله عنها، وأكثر عليّ النعم، ﴿بل أنتم بهديتكم تفرحون﴾: لحبكمم للدنيا، وقلة ما بأيديكم بالنسبة لما أعطاني الله.

﴿٣٧﴾ ثم أوصى الرسول من غير كتاب لما رأى من عقله وأنه سينقل كلامه على وجهه، فقال: ﴿ارجع إليهم﴾؛ أي: بهديتكم، ﴿فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم﴾؛ أي: لا طاقة لهم ﴿بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون﴾: فرجع إليهم

(٢) في (ب): «له هدية».

(١) في (ب): «الأزدلين».

وَأَبْلَغَهُمْ مَا قَالَ سُلَيْمَانَ، وَتَجَهَّزُوا لِلْمَسِيرِ إِلَى سُلَيْمَانَ.

﴿٣٨ - ٤٠﴾ وَعَلِمَ سُلَيْمَانُ أَنَّهُمْ لَا بَدَّ أَنْ يَسِيرُوا إِلَيْهِ، فَقَالَ لِمَنْ حَضَرَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ: ﴿أَيْكُمْ يَأْتِينِي بَعْرَشُهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾؛ أَي: لِأَجْلِ أَنْ نَتَصَرَّفَ فِيهِ قَبْلَ أَنْ يُسَلِّمُوا فَتَكُونَ أَمْوَالُهُمْ مُحْتَرَمَةً، ﴿قَالَ عَفْرِيْتُ مِنَ الْجِنِّ﴾: وَالْعَفْرِيْتُ هُوَ الْقَوِيُّ النَشِيطُ جَدًّا، ﴿أَنَا أَتَيْكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لِقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾: وَالظَّاهِرُ أَنَّ سُلَيْمَانَ إِذْ ذَاكَ فِي الشَّامِ، فَيَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَبَأٍ نَحْوَ مَسِيرَةِ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ؛ شَهْرَانِ ذَهَابًا وَشَهْرَانِ إِيَابًا، وَمَعَ ذَلِكَ يَقُولُ هَذَا الْعَفْرِيْتُ: أَنَا أَلْتَزِمُ بِالْمَجِيءِ بِهِ عَلَى كِبَرِهِ وَثِقَلِهِ وَبُعْدِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَجْلِسِكَ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ، وَالْمَعْتَادُ مِنَ الْمَجَالِسِ الطَّوِيلَةِ أَنْ تَكُونَ مَعْظَمَ الضُّحَى نَحْوَ ثُلُثِ يَوْمٍ، هَذَا نَهَائِيَّةُ الْمَعْتَادِ، وَقَدْ يَكُونُ دُونَ ذَلِكَ أَوْ أَكْثَرَ، وَهَذَا الْمَلِكُ الْعَظِيمُ الَّذِي عِنْدَ أَحَادٍ رَعِيَّتِهِ هَذِهِ الْقُوَّةُ وَالْقُدْرَةُ.

وَأَبْلَغُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾: قَالَ الْمَفْسُورُونَ: هُوَ رَجُلٌ عَالِمٌ صَالِحٌ عِنْدَ سُلَيْمَانَ، يُقَالُ لَهُ: أَصْفُ بْنُ بَرْخِيَا، كَانَ يَعْرِفُ اسْمَ اللَّهِ الْأَعْظَمِ، الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ؛ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ: ﴿أَنَا أَتَيْكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَزْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾: بِأَنْ يَدْعُوَ اللَّهَ بِذَلِكَ الْاسْمِ، فَيَحْضُرُ حَالًا، وَأَنَّهُ دَعَا اللَّهَ، فَحَضَرَ. فَاللَّهُ أَعْلَمُ؛ هَلْ هَذَا الْمَرَادُ، أَمْ أَنَّ عِنْدَهُ عِلْمًا مِنَ الْكِتَابِ يَقْتَدِرُ بِهِ عَلَى جَلْبِ الْبَعِيدِ وَتَحْصِيلِ الشَّدِيدِ؟! ﴿فَلَمَّا رَأَاهُ﴾ سُلَيْمَانَ ﴿مُسْتَقْرًا عِنْدَهُ﴾: حَمْدُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى أَقْدَارِهِ وَمَلِكِهِ وَتَيْسِيرِ الْأُمُورِ لَهُ، وَ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُغَنِي أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾؛ أَي: لِيُخْتَبِرَنِي بِذَلِكَ، فَلَمْ يَخْتَرْ عَلَيْهِ السَّلَامَ بِمُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ وَقُدْرَتِهِ كَمَا هُوَ دَابُّ الْمُلُوكِ الْجَاهِلِينَ، بَلْ عَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ اخْتِبَارٌ مِنْ رَبِّهِ، فَخَافَ أَنْ لَا يَقُومَ بِشُكْرِ هَذِهِ النِّعْمَةِ، ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّ هَذَا الشُّكْرَ لَا يَنْتَفِعُ اللَّهَ بِهِ، وَإِنَّمَا يَرْجِعُ نَفْعُهُ إِلَى صَاحِبِهِ، فَقَالَ: ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾: غَنِيٌّ عَنِ أَعْمَالِهِ، كَرِيمٌ كَثِيرُ الْخَيْرِ، يَعْمُ بِهَ الشَّاكِرُ وَالْكَافِرُ؛ إِلَّا أَنَّ شُكْرَ نَعْمِهِ دَاعٍ لِلْمَزِيدِ مِنْهَا، وَكَفَرُهَا دَاعٍ لِرُؤُوسِهَا.

﴿٤١﴾ ثُمَّ قَالَ لِمَنْ عِنْدَهُ: ﴿نَكُرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾؛ أَي: غَيِّرُوهُ بِزِيَادَةٍ وَنَقْصٍ، وَنَحْنُ فِي ذَلِكَ<sup>(١)</sup>: ﴿نَنْظُرُ﴾: مُخْتَبِرِينَ لِعَقْلِهَا: ﴿أَتَهْتَدِي﴾ لِلصَّوَابِ وَيَكُونُ عِنْدَهَا

(١) فِي (ب): «وَنَحْوُ ذَلِكَ».

ذكاءً وفتنةً تليقُ بملكها، ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

﴿٤٢﴾ ﴿فلما جاءت﴾: قادمةً على سليمان؛ عرض عليها عرشها، وكان عهدُها به قد خَلَفَتْه في بلدِها، و﴿قِيلَ لَهَا أَهْكَذَا عَرْشُكَ﴾؛ أي: أنه استقرَّ عندنا أن لك عرشاً عظيماً؛ فهل هو كهذا العرش الذي أَحْضَرْنَاهُ لك؟ ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾: وهذا من ذكائها وفتنتها: لم تَقُلْ هو لوجود التغيير فيه والتكثير، ولم تَنْفِ أنه هو لأنها عَرَفَتْه، فأنت بلفظٍ محتملٍ للأمرين، صادقٍ على الحالين.

فقال سليمان متعجباً من هدايتها وعقلها وشاكراً لله أن أعطاه أعظمَ منها: ﴿وَأوتينا العلمَ مِن قِبَلِهَا﴾؛ أي: الهدايةَ والعقلَ والحزمَ من قبل هذه الملكة، ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾: وهي الهدايةُ النافعةُ الأصليةُ.

ويُحتملُ أن هذا من قول ملكة سبأ: وَأوتينا العلمَ عن مُلْكِ سليمانَ وسلطانِهِ وزيادةً اقتدارِهِ من قبل هذه الحالة التي رأينا فيها قدرته على إحضار العرش من المسافة البعيدة، فأذعنَّا له وجئنا مسلمين له خاضعين لسلطانِهِ.

﴿٤٣﴾ قال الله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنَ دُونِ اللَّهِ﴾؛ أي: عن الإسلام، وإلّا؛ فلها من الذكاء والفتنة ما به تعرفُ الحقُّ من الباطل، ولكنَّ العقائد الباطلة تُذْهِبُ بصيرة القلب. ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ كَافِرِينَ﴾: فاستمرت على دينهم، وانفردوا الواحد عن أهل الدين والعادة المستمرة بأمر يراه بعقلِهِ من ضلالهم وخطئهم من أندر ما يكون؛ فلهذا لا يُسْتغْرَبُ بقاؤها على الكفر.

﴿٤٤﴾ ثم إنَّ سليمان أراد أن ترى من سلطانِهِ ما يَبْهَرُ العقولَ، فأمرها أن تَدْخُلَ الصرْحَ، وهو<sup>(١)</sup> المجلسُ المرتفع المتسع، وكان مجلساً من قوارير، تجري تحته الأنهار. ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾: ماءً؛ لأنَّ القوارير شفافة يرى الماء الذي تحتها كأنه بذاته يجري ليس دونه شيءٌ، ﴿وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا﴾: للخياضة، وهذا أيضاً من عقلها وأدبها؛ فإنها لم تَمْتَنِعْ من الدُخول للمحلِّ الذي أَمَرَتْ بدخولِهِ لعلَّها أنها لم تُسْتَدْعَ إلا للإكرام، وأنَّ ملكَ سليمان وتنظيمه قد بناه على الحكمة، ولم يكن في قلبها أدنى شكٍّ من حالة السوء بعدما رأت ما رأت، فلما استعدت للخوض؛ قيل لها: ﴿إِنَّهُ صرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾؛ أي: مجلسٌ ﴿من قوارير﴾: فلا حاجةً منك لكشفِ الساقين؛ فحينئذٍ لما وصلت إلى سليمان وشاهدت ما

(١) في (ب): «وهي».

شاهدت وعلمت نبوته ورسالته؛ تابث ورجعت عن كفرها و﴿قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾.

فهذا ما قصه الله علينا من قصة ملكة سبأ وما جرى لها مع سليمان، وما عدا ذلك من الفروع المولدة والقصص الإسرائيلية؛ فإنه لا يتعلق بالتفسير لكلام الله، وهو من الأمور التي يقف الحزم بها على الدليل المعلوم المعصوم، والمنقولات في هذا الباب كلها أو أكثرها ليس كذلك؛ فالحزم كل الحزم الإعراض عنها وعدم إدخالها في التفسير. والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فِئْرَانٍ يَخْتَصِمُونَ﴾ (٤٥)  
 قَالَ يَتَقَوَّمُ لِمَ نَسْتَعِجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾  
 قَالُوا أَطِئْنَا بِكَ وَبَيْنَ مَعَكَ قَالَ طَئِرِكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ بَيْعَةٌ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَبَلَكَ يَوْمَهُمْ خَاوِبَةً يَمَّا ظَلَمُوا إِيَّاكَ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَخْبَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾

﴿٤٥﴾ يخبرُ تعالى أنه أرسل إلى ثمود القبيلة المعروفة أخاهم في النسب صالحاً، وأنه أمرهم أن يعبدوا الله وحده، ويتركوا الأنداد والأوثان؛ ﴿فإذا هم فريقان يختصمون﴾: منهم المؤمن، ومنهم الكافر - وهم معظمهم -.

﴿٤٦﴾ ﴿قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة﴾؛ أي: لم تبادرون فعل السيئات وتحرصون عليها قبل فعل الحسنات التي بها تحسن أحوالكم وتصلح أموركم الدينية والدينية، والحال أنه لا موجب لكم إلى الذهاب لفعل السيئات ﴿لولا تستغفرون الله﴾: بأن تتوبوا من شريككم وعضيانكم وتدعون أن يغفر لكم، ﴿لعلكم ترحمون﴾: فإن رحمة الله قريب من المحسنين، والثائب من الذنوب هو من المحسنين.

﴿٤٧﴾ ﴿قالوا﴾: لنبيهم صالح مكذِّبين ومعارضين: ﴿أَطِيزْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾: زعموا قَبَّحَهُمُ اللَّهُ أَنَّهُمْ لَمْ يَزُواْ عَلَى وَجْهِ صَالِحٍ خَيْرًا، وَأَنَّهُ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ صَارُوا سَبِيًّا لَمَنْعَ بَعْضِ مَطَالِبِهِمُ الدُّنْيَوِيَّةِ! فَقَالَ لَهُمْ صَالِحٌ: ﴿طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾؛ أَي: مَا أَصَابَكُمْ إِلَّا بِذُنُوبِكُمْ. ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾: بِالسَّرَاءِ وَالضَّرَاءِ، وَالْخَيْرِ وَالشَّرِّ؛ لِيَنْظُرَ هَلْ تُقْلَعُونَ وَتَتُوبُونَ أَمْ لَا؛ فَهَذَا دَأْبُهُمْ فِي تَكْذِيبِ نَبِيِّهِمْ وَمَا قَابَلُوهُ بِهِ.

﴿٤٨﴾ ﴿وكان في المدينة﴾: التي فيها صالح، الجامعة لمعظم قومه ﴿تسعة﴾ رهط يفسدون في الأرض ولا يُضِلِّحُونَ؛ أَي: وَصَفُهُمُ الْإِفْسَادَ فِي الْأَرْضِ، وَلَا لَهُمْ قَصْدٌ وَلَا فِعْلٌ بِالْإِصْلَاحِ، قَدْ اسْتَعَدُّوا لِمَعَادَةِ صَالِحٍ وَالطَّعْنِ فِي دِينِهِ وَدَعْوَةِ قَوْمِهِمْ إِلَى ذَلِكَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا. وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ. الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُضْلِحُونَ﴾.

﴿٤٩﴾ فلم يزالوا بهذه الحال الشنيعة حتى أَنَّهُمْ مِنْ عداوتهم ﴿تقاسموا﴾ فيما بينهم؛ كُلُّ وَاحِدٍ أَقْسَمَ لِلْآخِرِ: ﴿لَنُبَيِّنَنَّ أَهْلَهُ﴾؛ أَي: لَنَأْتِيَنَّهُمْ <sup>(١)</sup> لَيْلًا هُوَ وَأَهْلُهُ، فَلَنَقْتُلَنَّهُمْ، ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لَوْلِيهِ﴾: إِذَا قَامَ عَلَيْنَا وَادَّعَى عَلَيْنَا أَنَا قَتَلْنَاكُمْ؛ نَنكِرُ ذَلِكَ وَنَنْفِيهِ وَنَحْلِفُ: ﴿إِنَّا لَصَادِقُونَ﴾.

﴿٥٠﴾ فتواطؤوا على ذلك، ﴿ومكروا مكراً﴾: دَبَّرُوا أَمْرَهُمْ عَلَى قَتْلِ صَالِحٍ وَأَهْلِهِ عَلَى وَجْهِ الْخُفْيَةِ حَتَّى مِنْ قَوْمِهِمْ <sup>(٢)</sup> خَوْفًا مِنْ أَوْلِيَائِهِ، ﴿وَمَكَّرْنَا مَكْرًا﴾: بَنَصْرٍ نَبِيَّنَا صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَيْسِيرِ أَمْرِهِ وَإِهْلَاكِ قَوْمِهِ الْمَكْذِبِينَ. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿٥١﴾ ﴿فانظر كيف كان عاقبة مكرهم﴾: هل حصل مقصودهم وأدركوا بذلك المكر مطلوبهم؟ أم انتقض عليهم الأمر؟! ولهذا قال: ﴿أَنَا دَمْرُنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾: أَهْلَكْنَاهُمْ وَاسْتَأْصَلْنَا شَأْنَهُمْ فَجَاءَتْهُمْ صِيحَةٌ عَذَابٍ فَأَهْلِكُوا عَنْ آخِرِهِمْ.

﴿٥٢﴾ ﴿فتلك بيوتهم خاوية﴾: قَدْ تَهَدَّمَتْ جِدْرَانِهَا عَلَى سَقُوفِهَا، وَأَوْحَشَتْ مِنْ سَاكِنَيْهَا، وَعَطَّلَتْ مِنْ نَازِلِيهَا ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾؛ أَي: هَذَا عَاقِبَةُ ظَلْمِهِمْ وَشِرْكَهِمْ بِاللَّهِ وَبِغِيهِمْ فِي الْأَرْضِ. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾: الْحَقَائِقُ، وَيَتَدَبَّرُونَ

(٢) في (ب): «حتى قومهم».

(١) في (ب): «نأتيهم».

وقائع الله في أوليائه وأعدائه، فيعتبرون بذلك، ويعلمون أن عاقبة الظلم الدمار والهلاك، وأن عاقبة الإيمان والعدل النجاة والفوز.

﴿٥٣﴾ ولهذا قال: ﴿وَأُنَجِّنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾؛ أي: أنجينا المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وكانوا يتقون الشرك بالله والمعاصي، ويعملون بطاعته وطاعة رسوله.

﴿رُلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾<sup>(١)</sup> ﴿٥٤﴾ أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْأَسُ يَبْطِهُرُونَ﴾<sup>(٣)</sup> ﴿٥٦﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾<sup>(٤)</sup> ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾<sup>(٥)</sup> ﴿٥٨﴾.

﴿٥٤﴾ أي: واذكر عبدنا ورسولنا لوطاً ونباه الفاضل حين قال لقومه داعياً لهم إلى الله وناصحاً: ﴿اتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾؛ أي: الفعلة الشنعاء التي تستفحشها العقول والفطر وتستقبحها الشرائع. ﴿وَأَنْتُمْ تَبْصِرُونَ﴾: ذلك وتعلمون قبّحه، فعاندتم وارتكبتم ذلك ظلماً منكم وجرأة على الله.

﴿٥٥﴾ ثم فسّر تلك الفاحشة فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾؛ أي: كيف توصلتم إلى هذه الحال، فصارت شهوتكم للرجال وأدبارهم محل الغائط والنجس والخبث، وتركتم ما خلق الله لكم من النساء من المحال الطيبة التي جيلت النفوس إلى الميل إليها، وأنتم انقلب عليكم الأمر، فاستحسنتم القبيح، واستقبختم الحسن؟! ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ [مُسْرِفُونَ]﴾<sup>(٦)</sup> متجاوزون لحدود الله متجرئون على محارمه.

﴿٥٦﴾ ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾: قبول ولا انزجار ولا تذكّر وادكار، إنما كان جوابهم المعارضة والمناقضة والتوعد لنبئهم الناصح ورسولهم الأمين بالإجلاء عن وطنه والتشريد عن بلده؛ فما كان جواب قومه ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾: فكأنه قيل: ما نعمتم منهم وما ذنبهم الذي أوجب لهم الإخراج؟ فقالوا: ﴿إِنَّهُمْ أَنْأَسُ يَبْطِهُرُونَ﴾؛ أي: ينتزهون عن اللواط وأدبار الذكور!! فقبحهم الله؛

(١) في النسختين: إلى آخر القصة.

(٢) كذا في النسختين. وصواب الآية ﴿تجهلون﴾.

جعلوا أفضل الحسنات بمنزلة أقبح السيئات، ولم يكتفوا بمعصيتهم لنبئهم فيما وعظهم به، حتى وصلوا إلى إخراجِهِ، والبلاء موكل بالمنطق؛ فهم قالوا: أخرجوهم من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون! ومفهوم هذا الكلام: وأنتم متلوثون بالخبث والقذارة المقتضي لنزول العقوبة بقريبتكم ونجاة من خرج منها.

﴿٥٧ - ٥٨﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا مَا مِنْ الْغَابِرِينَ﴾: وذلك لما جاءته الملائكة في صورة أضياف، وسمع بهم قومه، فجاؤوا إليه يريدونهم بالشر، وأغلق الباب دونهم، واشتد الأمر عليه، ثم أخبرتهم الملائكة عن جلية الحال، وأنهم جاؤوا لاستنقاذه وإخراجه من بين أظهرهم، وأنهم يريدون إهلاكهم، وأن موعدهم الصبح، وأمره أن يسري بأهله ليلاً إلا امرأته؛ فإنه سيصيها ما أصابهم، فخرج بأهله ليلاً، فنجوا، وصبّحهم العذاب، فقلب الله عليهم ديارهم، وجعل أعلاها أسفلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك، ولهذا قال هنا: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فِئَاءً مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾؛ أي: بشس المطر مطرهم، وبشس العذاب عذابهم؛ لأنهم أنذروا وخوفوا فلم ينزجروا ولم يرتدعوا، فأحل الله بهم عقابه الشديد.

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرُكُونَ﴾.

﴿٥٩﴾ أي: قل الحمد لله الذي يستحق كمال الحمد والمدح والثناء؛ لكمال أوصافه وجميل معروفه وهباته وعدله وحكمته في عقوبته المكذبين وتعذيب الظالمين، وسلم أيضاً على عباده الذين تخيرهم واصطفاهم على العالمين من الأنبياء والمرسلين وصفوة الله رب العالمين، وذلك لرفع ذكركم وتنويعاً بقدرهم وسلامتهم من الشر والأدناس وسلامة ما قالوه في ربهم من النقائص والعيوب. ﴿اللَّهُ خَيْرٌ أَمْ مَا يَشْرُكُونَ﴾: ولهذا استفهام قد تقرّر وعرف؛ أي: الله الرب العظيم كامل الأوصاف عظيم الألفاظ خير أم الأصنام والأوثان التي عبدوها معه وهي ناقصة من كل وجه؛ لا تنفع ولا تضر ولا تملك لأنفسها ولا لعابديها مثقال ذرة من الخير؛ فالله خير مما يشركون.

ثم ذكر تفاصيل ما به يُعرف ويتعين أنه الإله المعبود، وأن عبادته هي الحق وعبادة ما سواه هي الباطل، فقال:

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتِ

بِهَجَةٍ مَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ؕ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ .

﴿٦٠﴾ أي: أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَمَا فِيهَا مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهَا مِنْ جِبَالٍ وَبِحَارٍ وَأَنْهَارٍ وَأَشْجَارٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ﴾؛ أي: لِأَجْلِكُمْ ﴿مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ﴾؛ أي: بِسَاتِينَ ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾؛ أي: حَسَنَ مَنْظَرٍ مِنْ كَثْرَةِ أَشْجَارِهَا وَتَنوعِهَا وَحَسَنِ ثَمَارِهَا. ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾: لَوْلَا مِثُّهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ بِإِنْزَالِ الْمَطَرِ. ﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ﴾: فَعَلَّ هَذِهِ الْأَفْعَالَ حَتَّى يُعْبَدَ مَعَهُ وَيُشْرَكَ بِهِ، ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾: بِهِ غَيْرِهِ، وَيَسُوُّونَ بِهِ سِوَاهُ، مَعَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ وَحْدَهُ خَالِقُ الْعَالَمِ الْعُلُويِّ وَالسَّفَلِيِّ وَمَنْزِلُ الرِّزْقِ.

﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ؕ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٦١﴾ .

﴿٦١﴾ أي: هَلِ الْأَصْنَامُ وَالْأَوْثَانُ النَّاقِصَةُ مِنْ كُلِّ وَجْهِ الَّتِي لَا فَعَلَ مِنْهَا وَلَا رِزْقٌ وَلَا نَفْعٌ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الَّذِي ﴿جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾: يَسْتَقِرُّ عَلَيْهَا الْعِبَادُ وَيَتِمَكَّنُونَ مِنَ السَّكْنَى وَالْحَرثِ وَالْبِنَاءِ وَالذَّهَابِ وَالْإِيَابِ، ﴿وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا﴾؛ أي: جَعَلَ فِي خِلَالِ الْأَرْضِ أَنْهَارًا يَنْتَفِعُ بِهَا الْعِبَادُ فِي زُرُوعِهِمْ وَأَشْجَارِهِمْ وَشُرْبِهِمْ وَشُرْبِ مَوَاشِيهِمْ، ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾؛ أي: جِبَالًا تُرْسِيهَا وَتُثْبِتُهَا لِثَلَا تَمِيدَ وَتَكُونَ أَوْتَادًا لَهَا لِثَلَا تَضْطَرِبَ، ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ﴾: الْبَحْرِ الْمَالِحِ وَالْبَحْرِ الْعَذْبِ ﴿حَاجِزًا﴾: يَمْنَعُ مِنْ اخْتِلَاطِهِمَا فَتَفُوتِ الْمَنْفَعَةُ الْمَقْصُودَةُ مِنْ كُلِّ مَنِمَاهُ، بَلْ جَعَلَ بَيْنَهُمَا حَاجِزًا مِنَ الْأَرْضِ؛ جَعَلَ مَجْرَى الْأَنْهَارِ فِي الْأَرْضِ مَبْعُدَةً عَنِ الْبِحَارِ، فَيَحْضُلُ مِنْهَا مَقَاصِدُهَا وَمَصَالِحُهَا. ﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ﴾: فَعَلَ ذَلِكَ حَتَّى يُعَدَّلَ بِهِ اللَّهُ وَيُشْرَكَ بِهِ مَعَهُ، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: فَيُشْرِكُونَ بِاللَّهِ تَقْلِيدًا لِرُؤْسَائِهِمْ، وَإِلَّا؛ فَلَوْ عَلِمُوا حَقَّ الْعِلْمِ لَمْ يَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا.

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ؕ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَدَّكَّرُونَ﴾ ﴿٦٢﴾ .

﴿٦٢﴾ أي: هَلِ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ الَّذِي أَقْلَقْتَهُ الْكَرُوبُ وَتَعَسَّرَ عَلَيْهِ الْمَطْلُوبُ وَاضْطَرَّ لِلْخِلَاصِ بِمَا هُوَ فِيهِ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ؟! وَمَنْ يَكْشِفُ السُّوءَ؟ أي: الْبَلَاءَ وَالشَّرَّ وَالنَّقْمَةَ؛ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ؟! وَمَنْ يَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ يَمَكِّنُكُمْ مِنْهَا وَيَمُدُّ لَكُمْ بِالرِّزْقِ وَيُوصِلُ إِلَيْكُمْ نِعْمَهُ وَتَكُونُونَ خُلَفَاءَ مَنْ قَبْلَكُمْ كَمَا أَنَّهُ سَيَمِيتُكُمْ وَيَأْتِي



بقوم بعدكم؟! أإله مع الله يفعل هذه الأفعال؟! لا أحد يفعل مع الله شيئاً من ذلك، حتى بإقراركم أيها المشركون، ولهذا كانوا إذا مسهم الضرُّ دَعَوْا اللَّهَ مخلصين له الدين؛ لعلمهم أنه وحده المقتدر على دفعه وإزالته، ﴿قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ﴾؛ أي: قليلاً تذكركم وتدبركم للأمر التي إذا تذكرتموها اذكرتم ورجعتم إلى الهدى، ولكن الغفلة والإعراض شاملٌ لكم؛ فلذلك ما ازعويتم ولا اهتديتم.

﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتٍ أَلْوَىٰ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَيْسَ اللَّهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَىٰ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٦٣).

﴿٦٣﴾ أي: من هو الذي يهديكم حين تكونون في ظلمات البرِّ والبحر حيث لا دليل ولا معلّم يرى ولا وسيلة إلى النجاة إلا هدايته لكم وتيسيره الطريق وجعل ما جعل لكم من الأسباب التي تهتدون بها؟! ﴿وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾؛ أي: بين يدي المطر، فيرسلها، فتثير السحاب، ثم تؤلفه، ثم تجمعها، ثم تُلْقِئُهَا، ثم تُدْرِعُهَا، فيستبشر بذلك العباد قبل نزول المطر. ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَىٰ﴾؛ أي: أم هو وحده الذي انفرد به؟! فلم أشركتم معه غيره وعبدتم سواه؟! ﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: تعظم وتنزه وتقدس عن شركهم وتساويتهم به غيره.

﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٦٤).

﴿٦٤﴾ أي: من هو الذي يبدأ الخلق وينشئ المخلوقات ويبتدي خلقها ثم يعيد الخلق يوم البعث والنشور؟! ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ بالمطر والنبات؟! ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَىٰ﴾: يفعل ذلك ويقدر عليه، ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾؛ أي: حججتكم ودليلكم على ما قلت: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وإلا؛ فبتقدير أنكم تقولون: إن الأصنام لها مشاركة له في شيء من ذلك؛ فذلك مجرد دعوى صدقوها بالبرهان، وإلا؛ فاعرفوا أنكم مبطلون لا حجة لكم، فارجعوا إلى الأدلة اليقينية والبراهين القطعية الدالة على أن الله هو المتفرد بجميع التصرفات وأنه المستحق أن يُصْرَفَ<sup>(١)</sup> له جميع أنواع العبادات.

﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ (٦٥) ﴿بَلْ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي سَكِّ مَتْنًا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ (٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا آءِذَا كُنَّا

(١) في (ب): «تصرف».

تُرَابًا وَمَأْبُوتًا آيَاتًا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ [قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ] ﴿٦٦﴾ (١).

﴿٦٥﴾ يخبر تعالى أنه المنفردُ بعلم غيب السماوات والأرض؛ كقوله تعالى: ﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حية في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾، وكقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ...﴾ إلى آخر السورة؛ فهذه الغيوب ونحوها اختص الله بعلمها، فلم يعلمها ملك مقرب ولا نبي مرسل، وإذا كان هو المنفرد بعلم ذلك، والمحيط علمه بالسرائر والبواطن والخفايا؛ فهو الذي لا تنبغي العبادة إلا له.

ثم أخبر تعالى عن ضعف علم المكذبين بالآخرة، منتقلاً من شيء إلى ما هو أبلغ منه، فقال: ﴿وما يشعرون﴾؛ أي: وما يدرون ﴿آيَاتٍ يُبْعَثُونَ﴾؛ أي: متى البعث والنشور والقيام من القبور؛ أي: فلذلك لم يستعدوا.

﴿٦٦﴾ ﴿بل أدارك علمهم في الآخرة﴾؛ أي: بل ضعف وقل ولم يكن يقيناً ولا علماً واصلاً إلى القلب، وهذا أقل وأدنى درجة للعلم، ضعفه ووهاؤه، بل ليس عندهم علم ولا ضعف، وإنما ﴿هم في شك منها﴾؛ أي: من الآخرة، والشك زال به العلم؛ لأن العلم بجميع مراتبه لا يُجامع الشك. ﴿بل هم منها﴾؛ أي: من الآخرة ﴿عمون﴾: قد عميت عنها بصائرهم، ولم يكن في قلوبهم من وقوعها، ولا احتمال، بل أنكروها واستبعدوها.

﴿٦٧﴾ ولهذا قال: ﴿وقال الذين كفروا إذا كنا تراباً وآبائنا إنا لمُخْرَجُونَ﴾؛ أي: هذا بعيد غير ممكن؛ قاسوا قدرة كامل القدرة بقدرهم الضعيفة.

﴿٦٨﴾ ﴿لقد وعدنا هذا﴾؛ أي: البعث ﴿نحن وآبائنا من قبل﴾؛ أي: فلم يجتئنا ولا رأينا منه شيئاً. ﴿إن هذا إلا أساطير الأولين﴾؛ أي: قصصهم وأخبارهم التي تقطع بها الأوقات، وليس لها أصل، ولا صدق فيها. فانتقل في الإخبار عن أحوال المكذبين بالإخبار أنهم لا يدرون متى وقت الآخرة، ثم الإخبار بضعف علمهم فيها، ثم الإخبار بأنه شك، ثم الإخبار بأنه عمى، ثم الإخبار بإنكارهم

(١) الآية ما بين المعقوفتين زيادة على النسختين.

لذلك واستبعادهم وقوعه؛ أي: وبسبب هذه الأحوال؛ تَرَحَّلَ خَوْفَ الآخرة من قلوبهم، فأقدموا على معاصي الله، وسَهَّلَ عليهم تكذيب الحق والتصديق بالباطل، واستحلوا الشهوات على القيام بالعبادات، فخرسوا دُنياهم وأخراهم.

﴿٦٩﴾ ثُمَّ نَبَّهَهُمْ عَلَى صَدَقَ مَا أَخْبَرْتَ بِهِ الرِّسْلَ، فَقَالَ: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾؛ فلا تجدون مجرماً قد استمرَّ على إجرامه إلا وعاقبته شرُّ عاقبه، وقد أحلَّ الله به من الشرِّ والعقوبة ما يليق بحاله.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (٧٠) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٧١) قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ (٧٢).

﴿٧٠﴾ أي: لا تحزن يا محمد على هؤلاء المكذبين وعدم إيمانهم؛ فإنك لو علمت ما فيهم من الشرِّ وأنهم لا يصلحون للخير؛ لم تأس ولم تحزن، ولا يضيق صدرك ولا تقلق نفسك بمكرهم؛ فإن مكرهم سيعود عاقبته عليهم، ﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾.

﴿٧١﴾ ويقول المكذبون بالمعاد وبالحق الذي جاء به الرسول مستعجلين للعباب: ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾: وهذا من سفاهة رأيهم وجهلهم؛ فإن وقوعه ووقته قد أجله الله بأجله وقدره بقدر؛ فلا يدلُّ عدم استعجاله على بعض مطلوبهم، ولكن مع هذا قال تعالى محذراً لهم وقوع ما يستعجلون<sup>(١)</sup>:

﴿٧٢﴾ ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ﴾؛ أي: قرب منكم وأوشك أن يقع بكم بعض الذي تستعجلون﴾: من العذاب.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (٧٤) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٧٥).

﴿٧٣﴾ ينبه عباده على سعة جوده وكثرة أفضاله، ويحثهم على شكرها، ومع هذا؛ فأكثر الناس قد أعرضوا عن الشكر، واشتغلوا بالنعم عن المنعم.

﴿٧٤﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ﴾؛ أي: تنطوي عليه ﴿صدورهم وما يُعلنون﴾: فليحذروا من عالم السرائر والظواهر وليراقبوه.

(١) في (ب): «ما استعجلوه».

﴿٧٥﴾ ﴿وما من غائبة في السماء والأرض﴾؛ أي: خفية وسر من أسرار العالم العلوي والسفلي ﴿إلا في كتاب مبين﴾: قد أحاط ذلك الكتاب بجميع ما كان ويكون إلى أن تقوم الساعة؛ فكل حادث يحدث جلي أو خفي؛ إلا وهو مطابق لما كتب في اللوح المحفوظ.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُضُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿٧٦﴾ وهذا خبر عن هيمنة القرآن على الكتب السابقة وتفصيله وتوضيحه لما كان فيها قد وقع فيه اشتباه واختلاف عند بني إسرائيل، فقضه هذا القرآن قصاً زال به الإشكال، وبيّن الصواب من المسائل المختلف فيها.

﴿٧٧﴾ وإذا كان بهذه المثابة من الجلالة والوضوح وإزالة كل خلاف وفضل كل مشكل؛ كان أعظم نعم الله على العباد، ولكن ما كل أحد يقابل النعمة بالشكر، ولهذا بين أن نفعه ونوره وهدهه مختص بالمؤمنين، فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَهْدَى﴾: من الضلالة والغي والشبه، ﴿ورحمة﴾: تتلج له صدورهم وتستقيم به أمورهم الدينية والديوية، ﴿للمؤمنين﴾: به المصدقين له المتلقين له بالقبول المقبلين على تدبره المتفكرين في معانيه؛ فهؤلاء تحصل لهم به الهداية إلى الصراط المستقيم والرحمة المتضمنة للسعادة والفوز والفلاح.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿٧٨﴾ أي: إن الله تعالى سيفصل بين المختصمين وسيحكم بين المختلفين بحكمه العدل وقضائه القسط؛ فالأمور؛ وإن حصل فيها اشتباه في الدنيا بين المختلفين لخفاء الدليل أو لبعض المقاصد؛ فإنه سيبين فيها الحق المطابق للواقع حين يحكم الله فيها. ﴿وهو العزيز﴾: الذي قهر الخلائق فأذعنوا له. ﴿العليم﴾: بجميع الأشياء، العليم بأقوال المختلفين، وعن ماذا صدرت، وعن غاياتها ومقاصدها، وسيجازي كلا بما علمه فيه.

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَىٰ الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْكَلِمَةَ وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَدَىٰ الْعَمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿٧٩﴾ أي: اعتمد على ربك في جلب المصالح ودفع المضار وفي تبليغ الرسالة وإقامة الدين وجهاد الأعداء. ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾: الواضح، والذي على الحق يدعو إليه ويقوم بنصرته أحق من غيره بالتوكل؛ فإنه يسعى في أمر مجزوم به، معلوم صدقه، لا شك فيه ولا مزية، وأيضاً؛ فهو حق في غاية البيان، لا خفاء به ولا اشتباه.

﴿٨٠﴾ وإذا قمت بما حملت وتوكلت على الله في ذلك؛ فلا يضرك ضلال من ضلّ وليس عليك هداهم؛ فلماذا قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصَّمِّ الدُّعَاءَ﴾؛ أي: حين تدعوهم وتناديهم، وخصوصاً: ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾: فإنه يكون أبلغ في عدم إسماعهم.

﴿٨١﴾ ﴿وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم﴾: كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾. ﴿إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾؛ أي: هؤلاء الذين يتقادون لك، الذين يؤمنون بآيات الله ويتقادون لها بأعمالهم واستسلامهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ. وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ (٨٢).

﴿٨٢﴾ أي: إذا وقع على الناس القول الذي حتمه الله وفرض وقته؛ ﴿أخرجنا لهم دابة﴾ خارجة ﴿من الأرض﴾، أو دابة من دواب الأرض، ليست من السماء، وهذه الدابة ﴿تكلمهم﴾؛ أي: تكلم العباد ﴿أنَّ الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون﴾؛ أي: لأجل أن الناس ضعف علمهم ويقينهم بآيات الله؛ فإظهار<sup>(١)</sup> الله هذه الدابة من آيات الله العجيبة؛ ليبين للناس ما كانوا فيه يمترون. وهذه الدابة المشهورة التي تخرج في آخر الزمان، وتكون من أشراط الساعة؛ كما تكاثرت بذلك الأحاديث<sup>(٢)</sup>، [لم يذكر الله ورسوله كيفية هذه الدابة، وإنما ذكر أثرها والمقصود منها، وأنها من آيات الله؛ تكلم الناس كلاماً خارقاً للعادة حين يقع القول على الناس

(١) في (ب): «فأظهر».

(٢) كما في «صحيح مسلم» (١٥٨ و ٢٩٤٧)، و«مسند الإمام أحمد» (٢٦٨/٥)، وانظر كتاب «أشراط الساعة» للشيخ يوسف الوابل وفقه الله.

وحين يمترون بآيات الله، فتكون حجة وبرهاناً للمؤمنين، وحجة على المعاندين<sup>(١)</sup>.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَآذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿٨٣﴾ يخبر تعالى عن حالة المكذبين في موقف القيامة، وأن الله يجمعهم ويحشر من كل أمة من الأمم فوجاً وطائفة، ﴿مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾: يُجْمَعُ أَوْلَهُمْ عَلَىٰ آخِرِهِمْ، وآخِرهم على أولهم؛ ليعمهم السؤال والتوبيخ واللوم.

﴿٨٤﴾ ﴿حتى إذا جاؤوا﴾: وحضروا؛ قال لهم موبخاً ومقرعاً: ﴿أَكذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا﴾؛ أي: الواجب عليكم التوقف حتى ينكشف لكم الحق، وأن لا تتكلموا إلا بعلم؛ فكيف كذبتهم بأمر لم تحيطوا به علماً. ﴿أَمْ مَاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: يسألهم عن عملهم وعن عملهم، فيجد علمهم تكذيباً بالحق وعملهم غير الله، أو على غير سنة رسوله.

﴿٨٥﴾ ﴿ووقع القول عليهم بما ظلموا﴾؛ أي: حقت عليهم كلمة العذاب بسبب ظلمهم الذي استمرؤا عليه وتوجهت عليهم الحجة، ﴿فهم لا ينطقون﴾: لأنه لا حجة لهم.

﴿الَّذِينَ يَرَوْنَ أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنَّا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿٨٦﴾ أي: ألم يشاهدوا هذه الآية العظيمة والنعمة الجسيمة، وهو تسخير الله لهم الليل والنهار، هذا بظلمته لَيْسَكُنَّا فِيهِ ويستريحوا من التعب ويستعدوا للعمل، وهذا بضيائه لِيَنْتَشِرُوا فِيهِ فِي مَعَاشِهِمْ وَتَصْرُفَاتِهِمْ. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: على كمال وحدانية الله وسبوغ نعمته.

﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَرَجَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوَّهٍ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ

(١) ما بين المعقوفتين زيادة من هامش (أ) وفي هامش (ب): «ولم يأت دليل يدل على كيفيتها، ولا من أي نوع، وإنما دلت الآية الكريمة على أن الله يخرجها للناس، وأن هذا التكليم منها خارق للعوائد المألوفة، وأنه من الأدلة على صدق ما أخبر الله به في كتابه. والله أعلم».

خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِمَّا مَنِهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَأَمْتُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَنْ جَاءَ  
بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ .

﴿٨٧﴾ يخوفُ تعالى عباده ما أمامهم من يوم القيامة وما فيه من المحن والكروب ومزعجات القلوب، فقال: ﴿ويوم ينفخ في الصور ففزع﴾: بسبب النفخ فيه ﴿من في السموات ومن في الأرض﴾؛ أي: انزعجوا وارتاعوا وماج بعضهم ببعض خوفاً مما هو مقدّمة له ﴿إلا من شاء الله﴾: ممن أكرمه الله وثبته وحفظه من الفزع. ﴿وكل﴾ من الخلق عند النفخ في الصور ﴿أتوه داخرين﴾: صاغرين ذليلين؛ كما قال تعالى: ﴿إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً﴾. ففي ذلك اليوم يتساوى الرؤساء والمرؤسون في الدُّل والخضوع لملك الملك.

﴿٨٨﴾ ومن هولاء أنك ﴿ترى الجبال تحسبها جامدة﴾: لا تفقد شيئاً منها<sup>(١)</sup>، وتظنّها باقية على الحال المعهودة، وهي قد بلغت منها الشدائد والأحوال كل مبلغ، وقد تفتت، ثم تضمحل وتكون هباءً منبثاً، ولهذا قال: ﴿وهي تمرّ مرّ السحاب﴾: من خفتها وشدّة ذلك الخوف، وذلك ﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما [تفعلون]<sup>(٢)</sup>﴾: فيجازيكم بأعمالكم.

﴿٨٩﴾ ثم بين كيفية جزائه، فقال: ﴿من جاء بالحسنة﴾: اسم جنس، يشمل كل حسنة قولية أو فعلية أو قلبية، [فله عشر أمثالها]<sup>(٣)</sup>: هذا أقل التفضيل. ﴿وهم من فزع يومئذ آمنون﴾؛ أي: من الأمر الذي فزع الخلق لأجله آمنون، وإن كانوا يفرعون معهم.

﴿٩٠﴾ ﴿ومن جاء بالسّيئة﴾: اسم جنس يشمل كل سيئة، ﴿فكُبت وجوههم في النار﴾؛ أي: ألقوا في النار على وجوههم، ويقال لهم: ﴿هل تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾.

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ عَبَّدَ رَبُّ هَذِهِ الْبَلَدَةَ الَّتِي حَرَمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمْرُهُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِ لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ

(١) في (ب): «لا تفقد منها».

(٢) في النسختين: «تعملون».

(٣) كذا في النسختين؛ والآية: ﴿فله خير منها﴾.

الْمُنذِرِينَ ﴿٩١﴾ وَقُلِ لِحَمْدِ اللَّهِ سَبِّحْكُمُ اللَّيْلُ نَوْمًا وَالنَّهَارُ ﴿٩٢﴾ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ .

﴿٩١﴾ أي: قل لهم يا محمد: ﴿إِنَّمَا أَمْرُ أَنْ أُعْبَدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ﴾؛ أي: مكة المكرمة ﴿الَّذِي﴾<sup>(١)</sup> ﴿حَرَّمَهَا﴾ وأنعم على أهلها؛ فيجب أن يقابلوا ذلك بالشكر والقبول، ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾: من العلويات والسفليات؛ أتى به لثلاً يُتَوَهَّمُ اختصاصُ ربوبيَّته بالبيت وحده. وأمرتُ لأن ﴿أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾<sup>(٢)</sup>؛ أي: أبادر إلى الإسلام. وقد فعل ﷺ؛ فإنه أول هذه الأمة إسلاماً، وأعظمها استسلاماً.

﴿٩٢﴾ ﴿و﴾ أمرتُ أيضاً ﴿أَنْ أُنَلِّقَ﴾ عليكم ﴿الْقُرْآنَ﴾: لِيَتَهْتَدُوا بِهِ وَتَقْتَدُوا وتعلموا ألفاظه ومعانيه؛ فهذا الذي عليّ، وقد أدبته، ﴿فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾: نفعه يعود عليه، وثمرته عائدة إليه، ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَضَلَّ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾: وليس بيدي من الهداية شيء.

﴿٩٣﴾ ﴿وقل الحمد لله﴾: الذي له الحمد في الأولى والآخرة، ومن جميع الخلق، خصوصاً أهل الاختصاص والصفوة من عباده؛ فإن الذي وقع والذي ينبغي أن يَقَعَ<sup>(٣)</sup> منهم من الحمد والثناء على ربهم أعظم مما يقع من غيرهم؛ لرفعة درجاتهم وكمال قربهم منه وكثرة خيراته عليهم، ﴿سَبِّحِكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾: معرفة تدلُّكم على الحق والباطل؛ فلا بد أن يريكم من آياته ما تستترون به في الظلمات؛ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة. ﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾: بل قد علم ما أنتم عليه من الأعمال والأحوال، وعلم مقدار جزاء تلك الأعمال، وسيحكم بينكم حكماً تحمدونه عليه، ولا يكون لكم حجة بوجه من الوجوه عليه.

تم تفسير سورة النمل بفضل الله وإعانتة وتيسيره، ونسأله تعالى أن لا تزال الطافه ومعونته مستمرة علينا وواصله منه إلينا، فهو أكرم الأكرمين، وخير الراحمين، وموصل المنقطعين، ومجيب السائلين، ميسر الأمور العسيرة، وفتاح أبواب بركاته، ومجزل في جميع الأوقات هباته، ميسر القرآن للمتذكِّرين، ومسهل طرقه وأبوابه للمقبلين، ويمد مائدة خيراته ومبرَّاته للمتفكِّرين. والحمد لله رب العالمين. وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

على يد جامعته وممليه عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي غفر الله له

(٢) في النسختين: «أول المسلمين».

(١) في (ب): «التي».

(٣) فإن الذي ينبغي أن يقع.



ولوالديه ولجميع المسلمين. وذلك في ٢٢ رمضان سنة ١٣٤٣. وتمّ تحريره من  
خط مؤلفه في ٢٩ ذي الحجة سنة ١٣٤٦.



تم الجزء الخامس من «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، ويليهِ  
الجزء السادس، أوله تفسير سورة القصص.  
ويليه في النشر عقب هذا أصول من أصول التفسير وتفسير ألفاظ عامّة يكثر في  
القرآن مرورها، ويحتاجُ الناس إلى معرفتها<sup>(١)</sup>.

(١) انظر مقدمة الكتاب.



المجلد السادس  
من  
تيسير الكريم الرحمن  
في  
تفسير كلام المنان

من ممن الله على عبده وابن عبده وابن أمته  
عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي



## تفسير سورة القصص

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طَسَمَ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾﴾ (١) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَذِيحُ أَيْدِيَهُمْ أَسَاءَ هُمْ وَيَسْتَكْبِرُ سَاءَ هُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُكِنُّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تخَافِي وَلَا تحزني إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِبِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذُهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ قُودًا أُرِ مُوسَىٰ فَرِيضًا إِنَّ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتِ لِأَخْتِهِ قُصِيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلِ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُمْ ناصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أَبِيهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِنَعْلَمَ أَنَّ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَئِنْ أَكْثَرْتَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُمَ وَأَسْتَوَىٰ مَا أَلَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نجزي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ هَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعْتَنَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ

(١) في النسختين: إلى آخر القصة.



سِحْرٌ مُّفْتَرَى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَىٰ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ  
 بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا  
 الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمُنُنَّ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي  
 أُطِيعُ إِلَهَ إِلَهٍ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ  
 بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِنَّمَا لَانَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ  
 فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يُذَكِّرُ إِلَى الْكَارِ وَيَوْمَ  
 الْقِيَامَةِ لَا يُبْصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ  
 ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى  
 وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ  
 الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا فِرْعَوْنَ فَطَّوَلْ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ تَأْوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ  
 تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءآيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن  
 رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمُ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ لَا  
 أَنْ نُصِيبَهُمْ مُصِيبَةً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَنَّا لَوَلَّا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءآيَاتِكَ  
 وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوفِيَ مِثْلَ مَا أُوفِيَ  
 مُوسَىٰ أَوْلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوفِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلِ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَيْفُونٍ ﴿٤٨﴾  
 قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِنْ لَمْ  
 يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ  
 إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ .

﴿٢﴾ ﴿تلك﴾ الآيات المستحقة للتعظيم والتفخيم، ﴿آيات الكتاب المبين﴾ :  
 لكل أمر يحتاج إليه العباد؛ من معرفة ربهم، ومعرفة حقوقه، ومعرفة أوليائه  
 وأعدائه، ومعرفة وقائعه وأيامه، ومعرفة ثواب الأعمال وجزاء العمال؛ فهذا القرآن  
 قد بينها غاية التبيين، وجلاها للعباد، ووضحها.

﴿٣﴾ من جملة ما أبان، قصة موسى وفرعون؛ فإنه أبداها وأعادها في عدة  
 مواضع، وبسطها في هذا الموضع، فقال: ﴿نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون  
 بالحق﴾: فإن نباها غريب وخبرها عجيب، ﴿لقوم يؤمنون﴾: فالإيها يساق

الخطابُ ويوجِّهُ الكلام؛ حيث إنَّ معهم من الإيمان ما يُقبِلُونَ به على تدبُّر ذلك وتلقَّيه بالقبول والاهتداء بمواقع العِبَر، ويزدادون به إيماناً و يقيناً وخيراً إلى خيرهم، وأما مَنْ عداهم؛ فلا يستفيدون منه إلا إقامة الحجَّة عليهم، وصانه الله عنهم، وجعل بينهم وبينه حجاباً أن يفقهوه.

﴿٤﴾ فأول هذه القِصَّة: ﴿إِنَّ فرعونَ علا في الأرض﴾: في ملكه وسلطانِه وجنودِه وجبروتِه، فصار من أهل العلوِّ فيها، لا من الأغلبن فيها، ﴿وجعل أهلها شيعاً﴾؛ أي: طوائف متفرقة يتصرَّف فيهم بشهوته وينفَّذ فيهم ما أراد من قهره وسطوته، ﴿يستضعفُ طائفةٌ منهم﴾: وتلك الطائفةُ هم بنو إسرائيل، الذين فضَّلهم الله على العالمين، الذي ينبغي له أن يكرِّمهم ويجلِّهم، ولكنَّه استضعفهم بحيثُ إنه رأى أنَّهم لا مَنعَةَ لهم تمنعُهم مما أرادهم فيهم، فصار لا يُبالي بهم ولا يهتمُّ بشأنهم، وبلغت به الحال إلى أنَّه ﴿يذَّبِحُ أبناءهم ويستحيي نساءهم﴾: خوفاً من أن يكثرُوا فيغمروه في بلاده، ويصير لهم الملك. ﴿إنَّه كان من المفسدين﴾: الذين لا قصدَ لهم في صلاح<sup>(١)</sup> الدين ولا صلاح<sup>(١)</sup> الدنيا. وهذا من إفساده في الأرض.

﴿٥﴾ ﴿ونريدُ أن نُمَنَّ على الذين استضعفوا في الأرض﴾: بأن نُزيلَ عنهم موادَّ الاستضعاف ونُهِّلِكَ من قواصمهم ونخذل من ناوهم، ﴿ونجعلُهم أئمةً﴾ في الدين، وذلك لا يحصلُ مع الاستضعاف، بل لابدُّ من تمكين في الأرض، وقدرية تامَّة، ﴿ونجعلهم الوارثين﴾: للأرض، الذين لهم العاقبة في الدنيا قبل الآخرة.

﴿٦﴾ ﴿ونمكن لهم في الأرض﴾: فهذه الأمور كلها قد تعلَّقت بها إرادة الله وجرت بها مشيئته. ﴿و﴾: كذلك نريد أن ﴿نُري فرعون وهامان﴾: وزيره ﴿وجنودهما﴾: التي بها صالوا، وجالوا وعلَّوا وبَعَّوا، ﴿منهم﴾؛ أي: من هذه الطائفة المستضعفة ﴿ما كانوا يحذرون﴾: من إخراجهم من ديارهم، ولذلك كانوا يسعون في قمعهم وكسر شوكتهم وتقتيل أبنائهم الذين هم محلُّ ذلك؛ فكل هذا قد أَرادَه الله، وإذا أرادَ أمراً؛ سهَّل أسبابه ونهَّجَ طريقه، وهذا الأمر كذلك؛ فإنَّه قدَّر وأجرى من الأسباب - التي لم يشعر بها لا أولياؤه ولا أعداؤه - ما هو سببُ موصلٍ إلى هذا المقصود.

(١) في (ب): «إصلاح».



﴿٧﴾ فأول ذلك لما أوجد الله رسوله موسى الذي جعل استنقاذ هذا الشعب الإسرائيلي على يديه وبسببه، وكان في وقت تلك المخافة العظيمة التي يدبّحون بها الأبناء، أوحى إلى أمه أن ترضعه ويمكث عندها، ﴿فإذا خفت عليه﴾: بأن أحسستِ أحداً تخافين عليه منه أن يوصله إليهم، ﴿فألقيه في اليمِّ﴾؛ أي: نيل مصر، في وسط تابوت مغلق، ﴿ولا تخافي ولا تحزني إننا رأوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾: فبشرها بأنه سيرده عليها وأنه سيكبر ويسلم من كيدهم ويجعله الله رسولاً، وهذا من أعظم البشائر الجليلة. وتقديم هذه البشارة<sup>(١)</sup> لأم موسى ليطمئن قلبها، ويسكن روعها.

﴿٨﴾ فكأنها خافت عليه، وفعلت ما أمرت به، ألقته في اليمِّ، وساقه الله تعالى، حتى التقطه ﴿أل فرعون﴾: فصار من لقطهم، وهم الذين باشروا وُجدانه؛ ﴿ليكون لهم عدواً وحزناً﴾؛ أي: لتكون العاقبة والمآل من هذا الالتقاط أن يكون عدواً لهم وحزناً يخزئهم؛ بسبب أن الحذر لا ينفع من القدر، وأن الذي خافوا منه من بني إسرائيل قيض الله أن يكون زعيمهم يتربى تحت أيديهم وعلى نظريهم ويكفالتهم.

وعند التدبر والتأمل تجد في طي ذلك من المصالح لبني إسرائيل ودفع كثير من الأمور الفادحة بهم ومنع كثير من التعديت قبل رسالته؛ بحيث إنه صار من كبار المملكة، وبالطبع لا بد أن يحصل منه مدافعة عن حقوق شعبه، هذا وهو هو ذو الهمة العالية والغيرة المتوقدة، ولهذا وصلت الحال بذلك الشعب المستضعف - الذي بلغ بهم الدُّل والإهانة إلى ما قص الله علينا بعضه - أن صار بعض أفراده ينازع ذلك الشعب القاهر العالي في الأرض كما سيأتي بيانه، وهذا مقدمة للظهور؛ فإن الله تعالى من سننه الجارية أن جعل الأمور تمشي على التدرج شيئاً فشيئاً، ولا تأتي دفعة واحدة. وقوله: ﴿إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين﴾؛ أي: فأرذنا أن نعاقبهما على خطئهما، ونكيدهم جزاء على مكرهم وكيدهم.

﴿٩﴾ فلما التقطه آل فرعون؛ حزن الله عليه امرأة فرعون الفاضلة الجليلة المؤمنة آسية بنت مزاحم، ﴿وقالت﴾: هذا الولد ﴿قرّة عين لي ولك لا تقتلوه﴾؛ أي: أبوه لنا لتقرّ به أعيننا، ونسرّ به في حياتنا، ﴿عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً﴾؛ أي: لا

(١) في (ب): «البشائر».

يخلو: إمّا أن يكون بمنزلة الخدم الذين يَسْعَوْنَ في نفعنا وخدمتنا، أو نرقّيه درجة<sup>(١)</sup> أعلى من ذلك؛ نجعلهُ ولدًا لنا ونكرّمهُ ونُجِلّه. فقدّر الله تعالى أنّه نَفَعَ امرأةَ فرعونَ التي قالت تلك المقالة؛ فإنّه لما صار قُرّةَ عين لها وأحبّته حبًّا شديدًا، فلم يزل لها بمنزلة الولد الشفيق، حتى كَبُرَ، ونبّأه الله، وأرسله، فبادرت إلى الإسلام والإيمان به، رضي الله عنها، وأرضاها. قال الله تعالى [عن] هذه المراجعات والمقاولات في شأن موسى: ﴿وهم لا يشعرون﴾: ما جرى به القلم، ومضى به القدر من وصوله إلى ما وَصَلَ إليه. وهذا من لطفه تعالى؛ فإنّهم لو شَعَرُوا؛ لكان لهم وله شأنٌ آخر.

﴿١٠﴾ ولما فقدت موسى أمه حزنت حزناً شديداً، وأصبح فؤادها فارغاً من القلق الذي أزعجها على مقتضى الحالة البشريّة، مع أنّ الله تعالى نهاها عن الحزن والخوف، ووعدها برده. ﴿إن كادَتْ لتُبدي به﴾؛ أي: بما في قلبها ﴿لولا أن ربّطنا على قلبها﴾: فثبّتناها، فصبرت ولم تُبدي به؛ ﴿لتكون﴾: بذلك الصبر والثبات ﴿من المؤمنين﴾: فإنّ العبد إذا أصابته مصيبةٌ فصر وثبت؛ ازداد بذلك إيمانه، ودلّ ذلك على أنّ استمرار الجزع مع العبد دليلٌ على ضعف إيمانه.

﴿١١﴾ ﴿وقالت﴾ أم موسى ﴿لأختي قصّيه﴾؛ أي: اذهبي فقصّي الأثر عن أخيك، وابحثي عنه؛ من غير أن يُحسّ بك أحدٌ أو يشعروا بمقصودك، فذهبت تقصّه، ﴿فبصّرت به عن جنبٍ وهم لا يشعرون﴾؛ أي: أبصرتُه على وجهٍ كأنّها مارةٌ لا قصد لها فيه، وهذا من تمام الحزم والحذر؛ فإنّها لو أبصرتُه وجاءت إليهم قاصدةً؛ لظنّوا بها أنها هي التي ألقته، فربّما عزموا على ذبحه عقوبةً لأهله.

﴿١٢﴾ ومن لطف الله بموسى وأمه أن مَنَعَهُ من قبول ثدي امرأة، فأخرجه إلى السوق رحمةً به، ولعلّ أحداً يطلبه، فجاءت أخته وهو بتلك الحال، ﴿فقال هل أدلّكم على أهل بيتٍ يكفلونه لكم وهم له ناصحون﴾: وهذا جُلُّ غرضهم؛ فإنّهم أحبّوه حبًّا شديدًا، وقد منعهُ الله من المرضع، فخافوا أن يموت.

﴿١٣﴾ فلما قالت لهم أخته تلك المقالة المشتملة على الترغيب في أهل هذا البيت بتمام حفظه وكفالتِه والتّصح له؛ بادروا إلى إيجابتها، فأعلّمتهم ودلّتهم على أهل هذا البيت. ﴿فرَدّناه إلى أمه﴾: كما وَعَدْنَاها بذلك؛ ﴿كي تَقَرَّ عينها ولا

(١) في (ب): «منزلة».

تَحَزَنَ ﴿١﴾: بحيث إنه تربى عندها على وجه تكون فيه آمنة مطمئنة تفرح به وتأخذ الأجرة الكثيرة على ذلك، ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾: فأريناها بعض ما وعدناها به عياناً ليطمئن بذلك قلبها ويزداد إيمانها، ولتعلم أنه سيحصل وعد الله في حفظه ورسالته. ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾: فإذا رأوا السبب متشوشاً؛ شوش ذلك إيمانهم؛ لعدم علمهم الكامل أن الله تعالى يجعل المحن والعقبات الشاقة<sup>(١)</sup> بين يدي الأمور العالية والمطالب الفاضلة.

فاستمر موسى عليه الصلاة والسلام عند آل فرعون يتربى في سلطانهم ويركب مراكبهم ويلبس ملابستهم، وأمه بذلك مطمئنة، قد استقر أنها أمه من الرضاع، ولم يستنكر ملازمته إياها و[حنوها عليه]<sup>(٢)</sup>. وتأمل هذا اللطف وصيانة نبه موسى من الكذب في منطقته وتيسير الأمر الذي صار به التعلق بينه وبينها، الذي بان للناس هو الرضاع الذي بسببه سميها أمًا، فكان الكلام الكثير منه ومن غيره في ذلك كله صدقاً وحقاً.

﴿١٤﴾ ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾: من القوة والعقل واللب، وذلك نحو أربعين سنة في الغالب، ﴿واستوى﴾: كملت فيه تلك الأمور ﴿أتيناها حكماً وعلماً﴾؛ أي: حكماً يعرف به الأحكام الشرعية، ويحكم به بين الناس، وعلماً كثيراً. ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾: في عبادة الله، المحسنين لخلق الله؛ يعطيهم علماً وحكماً بحسب إحسانهم. ودل هذا على كمال إحسان موسى عليه السلام.

﴿١٥ - ١٧﴾ ﴿ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها﴾: إما وقت القائلة أو غير ذلك من الأوقات التي بها يغفلون عن الانتشار، ﴿فوجد فيها رجلين يقتتلان﴾: [أي] يتخاصمان ويتضاربان. ﴿هذا من شيعته﴾؛ أي: من بني إسرائيل، ﴿وهذا من عدوه﴾: القبط، ﴿فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه﴾: لأنه قد اشتهر وعلّم الناس أنه من بني إسرائيل، واستغاثه لموسى دليل على أنه بلغ موسى عليه السلام مبلغاً يخاف منه ويرجى من بيت المملكة والسلطان. ﴿فوكزة موسى﴾؛ أي: وكز الذي من عدوه استجابة لاستغاثة الإسرائيلي، ﴿فقضى عليه﴾؛ أي: أماته من تلك الوكزة لشدتها وقوة موسى. فندم موسى عليه السلام على ما جرى منه، و﴿قال هذا من عمل الشيطان﴾؛ أي: من تزيينه ووسوسته. ﴿إنه عدو مضل﴾

(٢) في (أ): «حنوه عليها».

(١) في (ب): «المحن الشاقة».

مبين: ﴿ فلذلك أجرى ما أجرى بسبب عداوته البيّنة وحرصه على الإضلال. ثم استغفر ربّه، ف﴿ قال ربّ إنّي ظلمت نفسي فاغفر لي فعفر له إنّه هو الغفور الرحيم ﴾: خصوصاً للمُخبتين إليه، المبادرين للإنباء والتوبة؛ كما جرى من موسى عليه السلام، ف﴿ قال ﴾ موسى: ﴿ ربّ بما أنعمت عليّ ﴾: بالتوبة والمغفرة والنعم الكثيرة، ﴿ فلن أكون ظهيراً ﴾؛ أي: مُعيناً ومساعداً ﴿ للمجرمين ﴾؛ أي: لا أعين أحداً على معصية. وهذا وعدٌ من موسى عليه السلام بسبب مِنّة الله عليه أن لا يُعين مجرماً كما فعل في قتل القبطي، وهذا يفيد أن النعم تقتضي من العبد فعل الخير وترك الشرّ.

﴿ ١٨ - ١٩ ﴾ فلما جرى منه قتل الذي هو من عدوّه؛ أصبح ﴿ في المدينة خائفاً يترقب ﴾: هل يشعر به آل فرعون أم لا؟ وإنما خاف لأنّه قد عليم أنّه لا يتجرأ أحدٌ على مثل هذه الحال سوى موسى من بني إسرائيل. فبينما هو على تلك الحال؛ ﴿ فإذا الذي استنصره بالأمس ﴾: على عدوّه. ﴿ يستصرّخه ﴾: على قبطني آخر، ﴿ قال له موسى ﴾: موبخاً على حاله: ﴿ إنك لغويّ مبين ﴾؛ أي: بين الغواية ظاهر الجراءة، ﴿ فلما أن أراد أن يبطش ﴾: موسى ﴿ بالذي هو عدو لهما ﴾: أي له وللمخاصم المستصرخ لموسى؛ أي: لم يزل اللجاج بين القبطي والإسرائيلي، وهو يستغيث بموسى، فأخذته الحميّة، حتى همّ أن يبطش بالقبطي، ف﴿ قال ﴾ له القبطي زاجراً له عن قتله: ﴿ أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض ﴾: لأنّ من أعظم آثار الجبار في الأرض قتل النفس بغير حق. ﴿ وما تريد أن تكون من المصلحين ﴾: وإلا؛ فلو أردت الإصلاح؛ لخلت بيني وبينه من غير قتل أحد. فانكفّ موسى عن قتله، وازعوى لوعظِهِ وزجرِهِ.

﴿ ٢٠ ﴾ وشاع الخبرُ بما جرى من موسى في هاتين القضيتين حتى تراوَدَ ملاً فرعونَ وفرعونَ على قتله، وتشاوروا على ذلك، فقيض<sup>(١)</sup> الله ذلك الرجل الناصح، وبادرهم إلى الإخبار لموسى بما اجتمع عليه رأي ملثهم، فقال: ﴿ وجاء رجلٌ من أقصى المدينة يسعى ﴾؛ أي: ركضاً على قدميه من نُضجِه لموسى وخوفِهِ أن يوقعوا به قبل أن يشعر، فقال: ﴿ يا موسى إنّ الملا يأتيمرون ﴾؛ أي: يتشاورون فيك؛ ﴿ ليقتلوك فاخرج ﴾: عن المدينة ﴿ إنّي لك من الناصحين ﴾: فامثل نُصحِهِ.

(١) في (ب): «وقيض».

﴿٢١﴾ ﴿فخرج منها خائفاً يترقب﴾: أن يُوقَع به القتل، ودعا الله و ﴿قال رب نجني من القوم الظالمين﴾: فإنه قد تاب من ذنبيه، وفعله غضباً من غير قصدٍ منه للقتل؛ فتوَعَّدُهم له ظلَّم منهم وجراءً.

﴿٢٢﴾ ﴿ولمَّا توجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾؛ أي: قاصداً بوجهه مدينَ، وهو جنوبي فلسطين؛ حيث لا ملك لفرعون، ﴿قال عسى ربِّي أن يَهْدِيَنِي سِوَاءَ السَّبِيلِ﴾؛ أي: وسط الطريق المختصر الموصل إليها بسهولة ورفقٍ. فهده الله سواء السبيل، فوصل إلى مَدْيَنَ.

﴿٢٣﴾ ﴿ولمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾: مواشيهم، وكانوا أهل ماشية كثيرة، ﴿ووجد من دونهم﴾؛ أي: دون تلك الأمة ﴿امرأتين تزدودان﴾: غنمهما عن حياض الناس؛ لعجزهما عن مزاحمة الرجال، ويخلِهم وعدم مروءتهم عن السقي لهما، ﴿قال﴾: لهما موسى: ﴿ما حَظَّبُكُمَا﴾؛ أي: ما شَأْنُكُمَا بهذه الحالة؟ ﴿قالتا لا نسقي حتى يُضدِرَ الرِّعَاءُ﴾؛ أي: قد جرت العادةُ أنه لا يحصلُ لنا سقي حتى يُضدِرَ الرِّعَاءُ مواشيهم؛ فإذا خلا لنا الجوُّ؛ سقينا، ﴿وأبونا شيخَ كبيرٍ﴾؛ أي: لا قوَّة له على السقي، فليس فينا قوَّةٌ نقتدِرُ بها، ولا لنا رجالٌ يزايمون الرِّعَاءَ.

﴿٢٤﴾ ﴿فرق لهما موسى عليه السلام ورجمهما، فسقى لهما﴾: غير طالبٍ منهما الأجر، ولا له قصدٌ غير وجه الله تعالى، فلما سقى لهما، وكان ذلك وقت شدة حرِّ وسط النهار؛ بدليل قوله: ﴿ثمَّ تولى إلى الظلِّ﴾؛ مستريحاً لتلك الظلال بعد التعب، ﴿فقال﴾ في تلك الحالة مسترزقاً ربِّه: ﴿ربِّ إنِّي لما أنزلت إليَّ من خيرٍ فقيرٌ﴾؛ أي: إنِّي مفتقرٌ للخير الذي تسوقه إليَّ وتيسره لي، وهذا سؤالٌ منه بحالِهِ، والسؤال بالحال أبلغ من السؤال بلسان المقال.

﴿٢٥﴾ ﴿فلم يزل في هذه الحالة داعياً ربه متملقاً، وأما المرأتان؛ فذهبتا إلى أبيهما وأخبرتا بما جرى، فأرسل أبوهما إحداهما إلى موسى، فجاءته ﴿تمشي على استحياء﴾، وهذا يدلُّ على كرم عنصرها وخلقها الحسن؛ فإنَّ الحياء من الأخلاق الفاضلة، وخصوصاً في النساء، ويدلُّ على أنَّ موسى عليه السلام لم يكن فيما فعله من السقي لهما بمنزلة الأجير والخادم الذي لا يستحي منه عادة، وإنما هو عزيز النفس، رأَتْ من حسن خُلُقِهِ ومكارم أخلاقه ما أوجب لها الحياء منه، ﴿قالت﴾: له: ﴿إنَّ أباي يدعوكَ لِيَجْزِيكَ أَجْرَ ما سَقَيْتَ لنا﴾؛ أي: لا لمنَّ عليك، بل أنت

الذي ابتدأتنا بالإحسان، وإثما قصده أن يكافئك على إحسانك، فأجابها موسى، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ﴾: من ابتداء السبب الموجب لهربه إلى أن وصل إليه، ﴿قَالَ﴾: له مسكناً رزوعه جابراً قلبه: ﴿لَا تَخَفْ نَجْوَتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: ليذهب خوفك ورزوعك؛ فإن الله نجاك منهم حيث وصلت إلى هذا المحل الذي ليس لهم عليه سلطان.

﴿٢٦﴾ ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا﴾؛ أي: إحدى ابنتيه: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾؛ أي: اجعله أجيراً عندك يرعى الغنم ويسقيها، ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾؛ أي: إن موسى أولى من استؤجر؛ فإنه جمع القوة والأمانة، وخير أجير استؤجر من جمعهما؛ [أي]: القوة والقدرة على ما استؤجر عليه، والأمانة فيه بعدم الخيانة، وهذان الوصفان ينبغي اعتبارهما في كل من يتولى للإنسان عملاً بإجارة أو غيرها؛ فإن الخلل لا يكون إلا بفقديهما أو فقد إحداهما، وأما اجتماعهما؛ فإن العمل يتم ويكتمل. وإثما قالت ذلك لأنها شاهدت من قوة موسى عند السقي لهما ونشاطه ما عرفت به قوته، وشاهدت من أمانته وديانته وأنه رحمهما في حالة لا يرجى نفعهما، وإثما قصده بذلك وجه الله تعالى.

﴿٢٧﴾ ﴿قَالَ﴾ صاحب مدين لموسى: ﴿إِنِّي أريدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتِي هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي﴾؛ أي: تصير أجيراً عندي ﴿ثَمَانِي حِجَجٍ﴾؛ أي: ثمانين سنين، ﴿فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمَنْ عِنْدِكَ﴾: تبرع منك لا شيء واجب عليك. ﴿وَمَا أريدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾: فأحتم عشر السنين، أو ما أريد أن أستأجرك لأكلفك أعمالاً شاقة، وإثما استأجرتك لعمل سهل يسير لا مشقة فيه. ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾: فرغبه في سهولة العمل وفي حسن المعاملة، وهذا يدل على أن الرجل الصالح ينبغي له أن يحسن خلقه مهما أمكنه، وأن الذي يطلب منه أبلغ من غيره.

﴿٢٨﴾ ﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام مجيباً له فيما طلب منه: ﴿ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾؛ أي: هذا الشرط الذي أنت ذكرت رضى به، وقد تم فيما بيني وبينك، ﴿أَيُّمَا الْأَجْلِينَ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾: سواء قضيت الثمان الواجبة أم تبرعت بالزائد عليها، ﴿وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾: حافظ يراقبنا ويعلم ما تعاقدا عليه.

وهذا الرجل أبو المرأتين صاحب مدين ليس بشعيب النبي المعروف كما اشتهر

عند كثير من الناس؛ فَإِنَّ هَذَا قَوْلٌ لَمْ يَدُلَّ عَلَيْهِ دَلِيلٌ<sup>(١)</sup>، وَغَايَةٌ مَا يَكُونُ أَنْ شَعِيبًا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ كَانَتْ بَلَدُهُ مَدِينًا، وَهَذِهِ الْقَضِيَّةُ جَرَتْ فِي مَدِينٍ؛ فَأَيْنَ الْمَلَاذِمَةُ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ؟! وَأَيْضًا؛ فَإِنَّهُ غَيْرُ مَعْلُومٍ أَنَّ مُوسَى أَدْرَكَ زَمَانَ شَعِيبٍ؛ فَكَيْفَ بِشَخْصِهِ؟! وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ الرَّجُلُ شَعِيبًا؛ لَذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَلَسَمَّئَهُ الْمَرَاتَانَ. وَأَيْضًا؛ فَإِنَّ شَعِيبًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَدْ أَهْلَكَ اللَّهُ قَوْمَهُ بِتَكْذِيبِهِمْ إِيَّاهُ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ آمَنَ بِهِ، وَقَدْ أَعَاذَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ أَنْ يَرْضَوْا لِبَنْتِي نَبِيِّهِمْ بِمَنْعِهِمَا عَنِ الْمَاءِ وَصَدِّ مَاشِيَتِهِمَا حَتَّى يَأْتِيَهُمَا رَجُلٌ غَرِيبٌ فَيُحْسِنُ إِلَيْهِمَا وَيَسْقِي مَاشِيَتَهُمَا، وَمَا كَانَ شَعِيبٌ لِيَرْضَى أَنْ يَرعى مُوسَى عِنْدَهُ وَيَكُونُ خَادِمًا لَهُ وَهُوَ أَفْضَلُ مِنْهُ وَأَعْلَى دَرَجَةً؛ إِلَّا أَنْ يُقَالَ: هَذَا قَبْلَ نَبْوَةِ مُوسَى؛ فَلَا مَنَافَاةَ. وَعَلَى كُلِّ حَالٍ؛ لَا يُعْتَمَدُ عَلَى أَنَّهُ شَعِيبُ النَّبِيِّ بِغَيْرِ نَقْلِ صَحِيحٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿٢٩﴾ ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ﴾: يُحْتَمَلُ أَنَّهُ قَضَى الْأَجَلَ الْوَاجِبَ أَوْ الزَّائِدَ عَلَيْهِ كَمَا هُوَ الظَّنُّ بِمُوسَى وَوَفَائِهِ؛ اشْتِاقٌ إِلَى الْوَصُولِ إِلَى أَهْلِهِ وَوَالِدَيْهِ وَعَشِيرَتِهِ وَوَطْنِهِ، وَظَنَّ<sup>(٢)</sup> مِنْ طَوْلِ الْمَدَّةِ أَنَّهُمْ قَدْ تَنَاسَوْا مَا صَدَرَ مِنْهُ. ﴿سَارَ بِأَهْلِهِ﴾: قَاصِدًا مِصْرَ، ﴿أَنَسَ﴾؛ أَي: أَبْصَرَ، ﴿مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾، ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أَوْ آتِيكُمْ بِشَهَابٍ قَبَسَ، ﴿لَعَلَّكُمْ تَضْطَلُونَ﴾: وَكَانَ قَدْ أَصَابَهُمُ الْبَرْدُ، وَتَاهُوا الطَّرِيقَ.

﴿٣٠﴾ ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ﴾: ﴿يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾: فَأَخْبِرَهُ بِالْوَهْيَةِ وَرُبُوبِيَّتِهِ، وَيَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ يَأْمُرَهُ بِعِبَادَتِهِ وَتَأْلُفِهِ كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى، ﴿فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾.

﴿٣١﴾ ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾: فَالْقَاهَا، ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزَّتْ﴾: تَسْعَى سَعْيًا شَدِيدًا، وَلَهَا صُورَةٌ مُهَيْلَةٌ ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾: ذَكَرَ الْحَيَاتِ الْعَظِيمِ، ﴿وَلِيٌّ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾؛ أَي: يَرْجِعُ لِاسْتِيْلَاءِ الرُّوعِ عَلَى قَلْبِهِ، فَقَالَ اللَّهُ لَهُ: ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾: وَهَذَا أَبْلَغُ مَا يَكُونُ فِي التَّأْمِينِ وَعَدَمِ الْخَوْفِ؛ فَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿أَقْبِلْ﴾:

(١) قال الطبري (٥٦٢/١٩): «وهذا مما لا يدرك علمه إلا بخبر ولا خبر بذلك تجب حجته». وقال ابن كثير: «إنه لو كان إياه [أنه شعيب النبي عليه السلام] لأوشك أن ينص على اسمه في القرآن هاهنا، وما جاء في بعض الأحاديث، من التصريح بذكره في قصة موسى لم يصح إسناده»، «تفسير ابن كثير» (٢٣٨/٦).

(٢) في (ب): «وعلم».

يقتضي الأمر بإقباله ويجب عليه الامتثال، ولكن قد يكون إقباله وهو لم يزل الأمر المخوف، فقال: ﴿وَلَا تَخَفْ﴾: أمر له بشيئين: إقباله، وأن لا يكون في قلبه خوف. ولكن يبقى احتمالاً، وهو أنه قد يُقْبَلُ وهو غير خائف، ولكن لا تحصل له الوقاية والأمن من المكروه فقال: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾: فحينئذ اندفع المحذور من جميع الوجوه. فأقبل موسى عليه السلام غير خائف ولا مرعوب، بل مطمئناً واثقاً بخبر ربه، قد ازداد إيمانه وتم يقينه. فهذه آية أراه الله إياها قبل ذهابه إلى فرعون؛ ليكون على يقين تام، ليكون أجراً له وأقوى وأصلب.

﴿٣٢﴾ ثم أراه الآية الأخرى، فقال: ﴿اسْأَلْكَ يَدْرَكَ﴾؛ أي: أدخلها ﴿في جيبك تَخْرُجُ بِيضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ﴾: فسألها وأخرجها كما ذكر<sup>(١)</sup> الله تعالى، ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾؛ أي: ضم جناحك - وهو عضدك - إلى جنبك؛ ليزول عنك الرهب والخوف. ﴿فَذُنُوبَكُمْ﴾؛ أي: حجتان قاطعتان من الله ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأَتْهُنَّ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾: فلا يفهم مجرد الإنذار وأمر الرسول إياهم، بل لا بد من الآيات الباهرة إن نفعت.

﴿٣٣ - ٣٤﴾ وَقَالَ ﴿مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعْتَذِرًا مِنْ رَبِّهِ وَسَائِلًا لَهُ الْمَعُونَةَ عَلَىٰ مَا حَمَلَهُ وَذَكَرًا لَهُ الْمَوَانِعَ الَّتِي فِيهِ لِيُزِيلَ رَبُّهُ مَا يَحْذَرُهُ مِنْهَا﴾: ﴿رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾؛ أي: ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ. وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْتُهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾؛ أي: معاوناً ومساعداً، يصدقون فإنه مع تضافر الأخبار يقوى الحق.

﴿٣٥﴾ فأجابه الله إلى سؤاله، فقال: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾؛ أي: نعاونك به ونقويك. ثم أزال عنه محذور القتل، فقال: ﴿وَنَجْعَلُ لَكَ سُلْطَانًا﴾؛ أي: تسلطاً وتمكناً من الدعوة بالحجة والهيبة الإلهية من عدوهما لهما؛ ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾: وذلك بسبب آياتنا وما دلت عليه من الحق وما أزعجت به من باشرها ونظر إليها؛ فهي التي بها حصل لكما السلطان، واندفع بها عنكم كيد عدوكم<sup>(٢)</sup>، وصارت لكم أبلغ من الجنود أولي العدد والعدد. ﴿أَنْتُمْ وَمَنْ أَتْبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾: وهذا وعد لموسى في ذلك الوقت، وهو وحده فريد، وقد رجع إلى بلده بعدما كان شريداً، فلم تزل الأحوال تتطور والأمور تنتقل حتى أنجز له موعوده، ومكته

(١) في (ب): «ذكره».

(٢) في (ب): «عدوهم».



من العباد والبلاد، وصار له ولأتباعه الغلبة والظهور.

﴿٣٦﴾ فذهب موسى برسالة ربه، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾: واضحات الدلالة على ما قال لهم<sup>(١)</sup>، ليس فيها قصور ولا خفاء، ﴿قَالُوا﴾: على وجه الظلم والعلو والعناد: ﴿مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرٍ﴾؛ كما قال فرعون في تلك الحال التي ظهر فيها الحق، واستعلى على الباطل، واضمحل الباطل، وخضع له الرؤساء العارِفون حقائق الأمور: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾! هذا؛ وهو الذكي غير الزكي، الذي بلغ من المكر والخداع والكيد ما قصه الله علينا، وقد علم ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض، ولكن الشقاء غالب، ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ﴾: وقد كذبوا في ذلك؛ فإن الله أرسل يوسف قبل موسى؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زُلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ سَرِيفٌ مُّرْتَابٌ﴾.

﴿٣٧﴾ ﴿وَقَالَ مُوسَى﴾: حين زعموا أن الذي جاءهم به سحر وضلال، وأن ما هم عليه هو الهدى: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾؛ أي: إذا لم تُفِدِ المقابلة معكم وتبين الآيات البيِّنات وأبيثم إلا التَّمادي في غيكم واللجاج على كفركم؛ فالله تعالى العالم بالمهتدي وغيره ومن تكون له عاقبة الدار؛ نحن أم أنتم. ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾: فصار عاقبة الدار لموسى وأتباعه والفلاح والفوز، وصار لأولئك الخسار وسوء العاقبة والهلاك.

﴿٣٨﴾ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾: متجرئاً على ربه ومموها على قوميه السفهاء أخفاء العقول: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾؛ أي: أنا وحدي إلهكم ومعبودكم، ولو كان ثم إله غيري؛ لعلمته! فانظر إلى هذا الورع التام من فرعون؛ حيث لم يقل: ما لكم من إله غيري! بل تورع وقال: ما علمت لكم من إله غيري! ولهذا لأنه عندهم العالم الفاضل، الذي مهما قال؛ فهو الحق، ومهما أمر؛ أطاعوه.

فلما قال هذه المقالة التي قد تحتمل أن ثم إلهها غيره؛ أراد أن يحقق النفي الذي جعل فيه ذلك الاحتمال، فقال لهامان: ﴿فَأَوْقَدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ﴾: ليجعل له لبناً من فخار، ﴿فَاجْعَلْ لِي صِرْحًا﴾؛ أي: بناءً عاليًا<sup>(٢)</sup>؛

(١) في (ب): «ما قاله لهم».

﴿لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلِهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ﴾ كاذباً ولكن سنحَقُّ هَذَا الظَّنَّ وَنُرِيكُمْ كَذِبَ مُوسَى.

فانظُرْ هَذِهِ الْجَرَاءَةَ الْعَظِيمَةَ عَلَى اللَّهِ، الَّتِي مَا بَلَغَهَا آدَمِيٌّ! كَذَبَ مُوسَى، وَادَّعَى أَنَّهُ اللَّهُ، وَنَفَى أَنْ يَكُونَ لَهُ عِلْمٌ بِالْإِلَهِ الْحَقِّ، وَفَعَلَ الْأَسْبَابَ لِتَوْصِلَ إِلَى إِلِهِ مُوسَى، وَكُلَّ هَذَا تَرْوِيجٌ. وَلَكِنَّ الْعَجَبَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمَلَأِ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ كِبَارُ الْمَمْلَكَةِ الْمُدَبِّرُونَ لَشُؤُونِهَا؛ كَيْفَ لَعِبَ هَذَا الرَّجُلُ بِعَقُولِهِمْ، وَاسْتَخَفَّ أَحْلَامَهُمْ؟! وَهَذَا لِفِسْقِهِمْ الَّذِي صَارَ صِفَةً رَاسِخَةً فِيهِمْ؛ فَسَدَ دِينَهُمْ، ثُمَّ تَبَعَ ذَلِكَ فَسَادَ عَقُولِهِمْ؛ فَسَأَلْنَاكَ اللَّهُمَّ الثِّبَاتَ عَلَى الْإِيمَانِ، وَأَنْ لَا تُزَيِّعَ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا، وَتَهَبَ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ.

﴿٣٩﴾ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾: اسْتَكْبَرُوا عَلَى عِبَادِ اللَّهِ، وَسَامَوْهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، وَاسْتَكْبَرُوا عَلَى رِسْلِ اللَّهِ وَمَا جَاؤُوهُمْ بِهِ مِنَ الْآيَاتِ، فَكَذَّبُوهَا، وَزَعَمُوا أَنَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ أَعْلَى مِنْهَا وَأَفْضَلُ، ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُزْجَعُونَ﴾: فَلذَلِكَ <sup>(١)</sup> تَجَرَّؤُوا، وَإِلَّا؛ فَلَوْ عَلِمُوا أَوْ ظَنُّوا أَنَّهُمْ يُزْجَعُونَ إِلَى اللَّهِ؛ لَمَا كَانَ مِنْهُمْ مَا كَانَ.

﴿٤٠﴾ ﴿فَأَخَذْنَا هُنَالِكَ مِنْهُمْ سُوءَ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾: عِنْدَمَا اسْتَمَرَّ عِنَادُهُمْ وَبَغْيُهُمْ، ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاظْنُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾: كَانَتْ أَسْرُّ الْعَوَاقِبِ وَأَخْسَرَهَا عَاقِبَةٌ، أَعْقَبَتْهَا الْعُقُوبَةُ الدِّنْيَوِيَّةُ الْمُسْتَمِرَّةُ الْمُتَّصِلَةُ بِالْعُقُوبَةِ الْآخِرَوِيَّةِ.

﴿٤١﴾ ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾؛ أَي: جَعَلْنَا فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ مِنَ الْأَئِمَّةِ الَّذِينَ يُقْتَدَى بِهِمْ، وَيُمَشَّى خَلْفَهُمْ إِلَى دَارِ الْخِزْيِ وَالشَّقَاءِ. ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَّرُونَ﴾: مِنْ عَذَابِ اللَّهِ؛ فَهَمْ أَضْعَفُ شَيْءٍ عَنْ دَفْعِهِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ، وَلَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ.

﴿٤٢﴾ ﴿وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾؛ أَي: وَأَتَّبَعْنَاهُمْ زِيَادَةً فِي عُقُوبَتِهِمْ وَخِزْيِهِمْ فِي الدُّنْيَا لَعْنَةً يَلْعَنُونَ، وَلَهُمْ عِنْدَ الْخَلْقِ الثَّنَاءُ الْقَبِيحُ وَالْمَقْتُ وَالذَّمُّ، وَهَذَا أَمْرٌ مُشَاهِدٌ؛ فَهَمْ أَئِمَّةُ الْمَلْعُونِينَ فِي الدُّنْيَا وَمَقْدَمَتِهِمْ. ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾: الْمَبْعَدِينَ، الْمُسْتَقْدِرَةَ أَعْمَالِهِمْ، الَّذِينَ <sup>(٢)</sup> اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَقْتُ اللَّهِ وَمَقْتُ خَلْقِهِ وَمَقْتُ أَنْفُسِهِمْ.

(٢) فِي (ب): «الَّذِي».

(١) فِي (ب): «فَكَذَلِكَ».

﴿٤٣﴾ ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾: وهو التوراة ﴿من بعد ما أهلكنا القرون الأولى﴾: الذين كان خاتمهم في الإهلاك العام فرعون وجنوده، وهذا دليل على أنه بعد نزول التوراة انقطع الهلاك العام، وشرع جهاد الكفار بالسيف؛ ﴿بصائر للناس﴾؛ أي: كتاب الله الذي أنزله على موسى فيه بصائر للناس؛ أي: أمور يبصرون بها ما ينفعهم وما يضرهم، فتقوم الحجّة على العاصي، وينتفع بها المؤمن، فتكون رحمة في حقّه وهداية له إلى الصراط المستقيم، ولهذا قال: ﴿وهديّ ورحمةً لهم يتذكرون﴾.

﴿٤٤﴾ ﴿ولما قصّ الله على رسوله ما قصّ من هذه الأخبار الغيبية؛ نبه العباد على أنّ هذا خبرٌ إلهيٌّ محضٌ، ليس للرسول طريقٌ إلى علمه؛ إلاّ من جهة الوحي؛ ولهذا قال: ﴿وما كنتَ بجانبِ الغربيِّ﴾؛ أي: بجانب الطور الغربي وقت قضائنا لموسى الأمر، ﴿وما كنتَ من الشاهدين﴾: على ذلك حتى يُقال: إنه وصل إليك من هذا الطريق.

﴿٤٥﴾ ﴿ولكنّا أنشأنا قروناً فتناول عليهم العُمُر﴾: فاندرس العلم ونُسيت آياته، فبعثناك في وقتٍ اشتدت الحاجة إليك وإلى ما علمناك وأوحينا إليك، ﴿وما كنتَ ثاوياً﴾؛ أي: مقيماً، ﴿في أهل مدينٍ تتلو عليهم آياتنا﴾؛ أي: تعلمهم وتعلم منهم، حتى أخبرت بما أخبرت من شأن موسى في مدين. ﴿ولكنّا كنّا مرسلين﴾؛ أي: ولكن ذلك الخبر الذي جئت به عن موسى أثرٌ من آثار إرسالنا إياك ووحى لا بسبيل لك إلى علمه بدون إرسالنا.

﴿٤٦﴾ ﴿وما كنتَ بجانبِ الطورِ إذ نادينا﴾: موسى وأمرناه أن يأتي القوم الظالمين ويلتئم رسالتنا ويريهم من آياتنا وعجايبنا ما قصصنا عليك.

والمقصود أن الماجريات التي جرت لموسى عليه الصلاة والسلام في هذه الأماكن، فقصصتها كما هي من غير زيادة ولا نقص، لا يخلو من أحد أمرين: إما أن تكون حصرتها وشاهدتها، أو ذهبت إلى محالها فتعلمتها من أهلها؛ فحينئذٍ قد لا يدل ذلك على أنك رسول الله؛ إذ الأمور التي يُخبر بها عن شهادة ودراسة من الأمور المشتركة غير المختصة بالأنبياء، ولكن هذا قد علم وتيقن أنه ما كان وما صار؛ فأولياؤك وأعداؤك يعلمون عدم ذلك. فتعيّن الأمر الثاني، وهو أن هذا جاءك من قبل الله ووحيه وإرساله، ثبت بالدليل القطعي صحة رسالتك ورحمة الله بك للعباد، ولهذا قال: ﴿ولكن رحمةً من

رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَّذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴿٤٧﴾؛ أَي: العرب وقريش؛ فَإِنَّ الرِّسَالَةَ عِنْدَهُمْ لَا تُعْرَفُ وَقَدْ أُرْسِلَ الرَّسُولُ وَقَبْلَهُ بِأَزْمَانٍ مُتَطَاوِلَةٍ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْذَرُونَ﴾: تَفْصِيلُ الْخَيْرِ فَيَفْعَلُونَهُ، وَالشَّرُّ فَيَتْرَكُونَهُ. فَإِذَا كُنْتَ بِهَذِهِ الْمَنْزِلَةِ؛ كَانَ الْوَاجِبُ عَلَيْهِمُ الْمُبَادَرَةُ إِلَى الْإِيمَانِ بِكَ وَشُكْرُ هَذِهِ النِّعْمَةِ الَّتِي لَا يُفَادَرُ قَدْرُهَا وَلَا يُدْرَكُ شُكْرُهَا. وَإِنذَارُهُ لِلْعَرَبِ لَا يَنْفِي أَنْ يَكُونَ مَرْسَلًا لِغَيْرِهِمْ؛ فَإِنَّهُ عَرَبِيٌّ، وَالْقُرْآنُ الَّذِي نَزَلَ<sup>(١)</sup> عَلَيْهِ عَرَبِيٌّ، وَأَوَّلُ مَنْ بَاشَرَ بِدَعْوَتِهِ الْعَرَبُ، فَكَانَتْ رِسَالَتُهُ لَهُمْ أَصْلًا وَلِغَيْرِهِمْ تَبَعًا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾.

﴿٤٧﴾ ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾: مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي، لَقَالُوا: ﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أَي: فَارْسَلْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ، لَدَفَعِ حُجَّتِهِمْ، وَقَطَعَ مَقَالَتَهُمْ.

﴿٤٨﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾: الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ ﴿مِنْ عِنْدِنَا﴾: وَهُوَ الْقُرْآنُ الَّذِي أَوْحَيْنَاهُ إِلَيْكَ، ﴿قَالُوا﴾: مَكْذِبِينَ لَهُ وَمَعْتَرِضِينَ بِمَا لَيْسَ يُعْتَرَضُ بِهِ: ﴿لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلُ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾؛ أَي: أَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ مِنَ السَّمَاءِ جَمَلَةٌ وَاحِدَةٌ؛ أَي: فَأَمَّا مَا دَامَ يَنْزِلُ مُتَفَرِّقًا؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَأَيُّ دَلِيلٍ فِي هَذَا؟! وَأَيُّ شَبْهَةٍ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ حِينَ نَزَلَ مَفْرَقًا؟! بَلْ مِنْ كَمَالِ هَذَا الْقُرْآنِ وَعِتْنَاءِ اللَّهِ بِمَنْ أَنْزَلَ عَلَيْهِ أَنْ نَزَلَ مُتَفَرِّقًا؛ لِيُثَبِّتَ اللَّهُ بِهِ فُؤَادَ رَسُولِهِ، وَيَحْصُلَ زِيَادَةُ الْإِيمَانِ لِلْمُؤْمِنِينَ، ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمِثْلِ إِلَّا جِنَّاتِكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾. وَأَيْضًا؛ فَإِنَّ قِيَاسَهُمْ عَلَى كِتَابِ مُوسَى قِيَاسٌ قَدْ نَقَضُوهُ؛ فَكَيْفَ يَقِيسُونَهُ عَلَى كِتَابِ كُفْرًا بِهِ وَلَمْ يُؤْمِنُوا [بِهِ]؟! وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَوْلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلِ قَالُوا سِحْرَانَ تَطْأَاهِرًا﴾؛ أَي: الْقُرْآنَ وَالتَّوْرَةَ تَعَاوَنَا فِي سِحْرِهِمَا وَإِضْلَالِ النَّاسِ ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ﴾: فَثَبَّتْ بِهَذَا أَنَّ الْقَوْمَ يَرِيدُونَ إِبْطَالَ الْحَقِّ بِمَا لَيْسَ بِبِرَهَانٍ، وَيَنْقُضُونَهُ بِمَا لَا يُنْقَضُ، وَيَقُولُونَ الْأَقْوَالَ الْمُتَنَاقِضَةَ الْمُخْتَلِفَةَ، وَهَذَا شَأْنُ كُلِّ كَافِرٍ، وَلِهَذَا صَرَّحَ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِالْكِتَابِينَ وَالرُّسُولِينَ.

﴿٤٩﴾ ﴿وَلَكِنْ هَلْ كَفَرْتُمْ بِهِمَا طَلِبًا لِلْحَقِّ وَاتِّبَاعًا لِأَمْرِ عِنْدَهُمْ خَيْرٌ مِنْهُمَا، أَمْ

(١) فِي (ب): «أَنْزَلَ».



## فصل

في ذِكْرِ بعض الفوائد والعبر في هذه القصة العجبية

فمنها: أَنَّ آيَاتِ اللَّهِ [تعالى] وعبره وأيامه في الأمم السابقة إنما يستفيد بها ويستنير المؤمنون؛ فعلى حسب إيمان العبد تكون عبرته، وَأَنَّ اللَّهَ تعالى إنما يسوقُ القصص لأجلهم، وأما غيرهم؛ فلا يعباُ الله بهم، وليس لهم منها نورٌ وهدى.

ومنها: أَنَّ اللَّهَ تعالى إذا أراد أمراً؛ هياُ أسبابه، وأتى بها شيئاً فشيئاً بالتدرج لا دفعة واحدة.

ومنها: أَنَّ الأُمَّةَ المستضعفة، ولو بلغت في الضعف ما بلغت، لا ينبغي لها أن يستولي عليها الكسلُ عن طلبِ حقها، ولا الإيأسُ من ارتقائها إلى أعلى الأمور، خصوصاً إذا كانوا مظلومين؛ كما استنقذ الله أمة بني إسرائيل الأُمَّةَ الضعيفة من أسر فرعون وملئه، ومكّنهم في الأرض، وملكهم بلادهم.

ومنها: أَنَّ الأُمَّةَ ما دامت ذليلةً مقهورة، لا تأخذُ حقها، ولا تتكلمُ به لا يقوم لها أمرٌ دينها ولا دُنياها، ولا يكون لها إمامةٌ فيه.

ومنها: لطف الله بأمّ موسى وتهوينه عليها المصيبةَ بالبشارة بأنّ الله [تعالى] سيردُ إليها ابنها، ويجعله من المرسلين.

ومنها: أَنَّ اللَّهَ يَقْدُرُ على عبده بعضَ المشاقِّ لِيُنِيلَهُ سروراً أعظم من ذلك، أو يدفع عنه شراً أكثر منه؛ كما قدر على أمّ موسى ذلك الحزن الشديد والهَمَّ البليغ الذي هو وسيلةٌ إلى أن يَصِلَ إليها ابنها على وجهٍ تطمئنُّ به نفسها، وتقرُّ به عينها، وتزداد به غبطةً وسروراً.

ومنها: أَنَّ الخوفَ الطبيعيَّ من الخَلْقِ لا يُنافي الإيمان ولا يزيله؛ كما جرى لأمّ موسى، ولموسى من تلك المخاوف.

ومنها: أَنَّ الإيمان يزيد وينقص، وَأَنَّ من أعظم ما يزيد به الإيمان، ويتمُّ به اليقين؛ الصبرُ عند المزعجات، والتثبيت من الله عند المقلقات؛ كما قال تعالى: ﴿لَوْلا أَن رَّبَطْنَا على قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: ليزداد إيمانها بذلك، ويطمئن قلبها.

ومنها: أَنَّ من أعظم نعم الله على عبده وأعظم معونةٍ للعبد على أموره تثبيتُ الله إياه وربطُ جأشه وقلبه عند المخاوف وعند الأمور المذهلة؛ فإنه بذلك

يتمكّن من القول الصواب والفعل الصواب؛ بخلاف من استمرّ قلبه وروعه وانزعاجه؛ فإنه يضيع فكره، ويذهل عقله؛ فلا يتفّع بنفسه في تلك الحال.

ومنها: أن العبد ولو عرّف أنّ القضاء والقدر ووعد الله نافذ لا بدّ منه؛ فإنه لا يهمل فعل الأسباب التي أمر بها، ولا يكون ذلك منافياً لإيمانه بخير الله؛ فإنّ الله قد وعد أمّ موسى أن يرده عليها، ومع ذلك اجتهدت في رده، وأرسلت أخته لتقصّه وتطلّبه.

ومنها: جواز خروج المرأة في حوائجها وتكليمها للرجال من غير محذور كما جرى لأخت موسى وابنتي صاحب مدين.

ومنها: جواز أخذ الأجرة على الكفالة والرضاع والدلالة على من يفعل ذلك.

ومنها: أن الله من رحمته بعبده الضعيف الذي يريد إكرامه أن يُريه من آياته ويُشهِده من بيناته ما يزيد به إيمانه؛ كما ردّ الله موسى على أمه؛ لتعلم أنّ وعد الله حقّ.

ومنها: أن قتل الكافر الذي له عهدٌ بعقدٍ أو عرفٍ لا يجوز؛ فإنّ موسى عليه السلام عدّ قتله القبطيّ الكافر ذنباً، واستغفر الله منه.

ومنها: أن الذي يقتل النفوس بغير حقّ؛ يعدّ من الجبارين الذين يفسدون في الأرض.

ومنها: أن من قتل النفوس بغير حقّ، وزعم أنه يريد الإصلاح في الأرض وتهيب أهل المعاصي؛ فإنه كاذبٌ في ذلك، وهو مفسدٌ؛ كما حكى الله قول القبطيّ: ﴿إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين﴾: على وجه التقرير له لا الإنكار.

ومنها: أن إخبار الرجل غيره بما قيل فيه على وجه التحذير له من شرّ يقع فيه؛ لا يكون ذلك نميمَةً، بل قد يكون واجباً؛ كما أخبر ذلك الرجل لموسى ناصحاً له ومحذراً.

ومنها: أنه إذا خاف القتل والتلف في الإقامة؛ فإنه لا يلقي بيده إلى التهلكة، ولا يستسلم لذلك، بل يذهب عنه كما فعل موسى.

ومنها: أنه عند تراحم المفسدتين؛ إذا كان لا بدّ من ارتكاب إحداهما؛ فإنه يرتكب الأخفّ منهما الأسلم؛ كما أنّ موسى لما دار الأمر بين بقائه في مصر ولكنه

يُقتل، أو<sup>(١)</sup> يذهب إلى بعض البلدان البعيدة التي لا يَعْرِفُ الطريق إليها، وليس معه دليلٌ يدلُّه<sup>(٢)</sup> غير ربِّه، ولكن هذه الحالة أرجى<sup>(٣)</sup> للسلامة من الأولى، فتبعتها موسى.

ومنها: أن الناظر في العلم عند الحاجة إلى التكلُّم فيه إذا لم يترجَّح عنده أحدُ القولين؛ فإنه يستهدي ربِّه، ويسأله أن يَهْدِيَه الصواب من القولين بعد أن يقصد بقلبه الحقَّ ويبحث عنه؛ فإنَّ الله لا يخيبُ من هذه حاله؛ كما خرج موسى تلقاء مدين، فقال: ﴿عسى ربِّي أن يَهْدِيَنِي سِوَى السَّبِيلِ﴾.

ومنها: أن الرحمة بالخلق والإحسان على مَنْ يَعْرِفُ وَمَنْ لا يَعْرِفُ من أخلاق الأنبياء، وأن من الإحسان سقي الماشية الماء وإعانة العاجز.

ومنها: استحباب الدعاء بتبيين الحال وشرحها، ولو كان الله عالماً بها؛ لأنه تعالى يحبُّ تضرُّع عبده وإظهار ذلِّه ومسكنته؛ كما قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

ومنها: أن الحياء - خصوصاً من الكرام - من الأخلاق الممدوحة.

ومنها: المكافأة على الإحسان لم يزل دأب الأمم السابقين.

ومنها: أن العبد إذا فعل العمل لله تعالى، ثم حصل له مكافأة عليه من غير قصد بالقصد الأول؛ فإنه<sup>(٤)</sup> لا يلام على ذلك؛ كما قبل موسى مجازاة صاحب مدين عن معروفه الذي لم يتبع له، ولم يستشرف بقلبه على عوض.

ومنها: مشروعية الإجارة، وأنها تجوز على رعاية الغنم ونحوها مما لا يُقدَّر به العمل، وإنما مرده العرف.

ومنها: أنه تجوز الإجارة بالمنفعة، ولو كانت المنفعة بضعاً.

ومنها: أن خطبة الرجل لابنته الرجل الذي يتخيَّره لا يلام عليه.

ومنها: أن خير أجبرٍ وعاملٍ يعمل للإنسان أن يكون قوياً أميناً.

ومنها: أن من مكارم الأخلاق أن يُحَسِّنَ خُلُقَه لأجيريه وخادميه، ولا يشقُّ عليه بالعمل؛ لقوله: ﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُثِقَّ عَلَيْكَ سِتْرِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

(١) في (ب): «و».

(٢) في (ب): «دليل له».

(٣) في (ب): «أنه».

(٤) في (ب): «أقرب».



ومنها: جواز عقد الإجارة وغيرها من العقود من دون إسهاد؛ لقوله: ﴿والله على ما نقول وكيل﴾.

ومنها: ما أجرى الله على يد موسى من الآيات البينات والمعجزات الظاهرة من الحيّة وانقلاب يده بيضاء من غير سوء ومن عصمة الله لموسى وهارون من فرعون ومن الغرق.

ومنها: أن من أعظم العقوبات أن يكون الإنسان إماماً في الشر، وذلك بحسب معارضته لآيات الله وبيناته؛ كما أن من أعظم نعمة أنعم الله بها على عبده، أن يجعله إماماً في الخير هادياً مهدياً.

ومنها: ما فيها من الدلالة على رسالة محمد ﷺ؛ حيث أخبر بذلك تفصيلاً مطابقاً وتأصيلاً موافقاً قصه قصاً صدق به المرسلين وأيد به الحق المبين، من غير حضور شيء من تلك الوقائع، ولا مشاهدة لموضع واحد من تلك المواضع، ولا تلاوة دَرَسَ فيها شيئاً من هذه الأمور، ولا مجالسة أحد من أهل العلم، إن هو إلا رسالة الرحيم الرحمن، ووحى أنزله عليه الكريم المنان؛ لينذر به قوماً جاهلين، وعن النذير والرسول غافلين؛ فصلوات الله وسلامه على من مجرد خبره ينبيء أنه رسول الله، ومجرد أمره ونهيه ينبئ العقول النيرة أنه من عند الله؛ كيف وقد تطابق على صحة ما جاء به وصدق به، خبر الأولين والآخرين، والشرع الذي جاء به من رب العالمين، وما جيل عليه من الأخلاق الفاضلة التي لا تناسب ولا تصلح إلا لأعلى الخلق درجة، والنصر المبين لدينه وأمته، حتى بلغ دينه مبلغ الليل والنهار، وفتحت أمته معظم بلدان الأمصار بالسيف والسنان وقلوبهم بالعلم والإيمان، ولم تزل الأمم المعاندة والملوك الكفرة المتعاضدة ترميه بقوس واحدة وتكيد له المكائد وتمكرو لإطفائه وإخفائه وإخماده من الأرض، وهو قد بهرها وعلاها، لا يزداد إلا نمواً، ولا آياته وبراهينه إلا ظهوراً، وكل وقت من الأوقات يظهر من آياته ما هو عبرة للعالمين، وهداية للعالمين، ونوراً وبصيرة للمتوسمين. والحمد لله وحده.

﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْثَبَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُنَادِي عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَّنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ [مُسْلِمِينَ] ﴿٥٣﴾ أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ

بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا  
وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِي الْجَهِيلِينَ ﴿٥٣﴾ .

﴿٥٢﴾ يذكر تعالى عظمة القرآن وصدقته وحقه، وأن أهل العلم بالحقيقة يعرفونه، ويؤمنون به، ويقرون بأنه الحق، فقال: ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله﴾: وهم أهل التوراة والإنجيل، الذين لم يغيروا ولم يبدلوا، ﴿هم به﴾؛ أي: بهذا القرآن ومن جاء به ﴿يؤمنون﴾.

﴿٥٣﴾ ﴿وإذا يُتلى عليهم﴾: استمعوا له وأذعنوا، و﴿قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا﴾: لموافقته ما جاءت به الرسل، ومطابقته لما دُكر في الكتب، واشتماله على الأخبار الصادقة والأوامر والنواهي الموافقة لغاية الحكمة، وهؤلاء الذين تفيد شهادتهم وينفع قولهم؛ لأنهم لا يقولون ما يقولون إلا عن علم وبصيرة؛ لأنهم أهل الخبرة وأهل الكتب، وغيرهم لا يدلُّ ردهم ومعارضتهم للحق على شبهة فضلاً عن الحجّة؛ لأنهم ما بين جاهل فيه أو متجاهل معاند للحق؛ قال تعالى: ﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يُتلى عليهم يخرون للأذقان سُجداً...﴾ ﴿الآيات، وقوله: ﴿إنا كنا من قبله [مسلمين]﴾<sup>(١)</sup>: فلذلك ثبتنا على ما من الله به علينا من الإيمان، فصدقنا بهذا القرآن، آمنا بالكتاب الأول والكتاب الآخر، وغيرنا ينقض تكذيبه بهذا الكتاب إيمانه بالكتاب الأول.

﴿٥٤﴾ ﴿أولئك﴾: الذين آمنوا بالكتابين ﴿يؤتون أجرهم مرتين﴾: أجرأ على الإيمان الأول، وأجرأ على الإيمان الثاني؛ ﴿بما صبروا﴾: على الإيمان، وثبتوا على العمل، فلم تُزعزعهم<sup>(٢)</sup> عن ذلك شبهة، ولا ثنهم عن الإيمان رياسة ولا شهوة. ﴿و﴾ من خصالهم الفاضلة التي هي من آثار إيمانهم الصحيح أنهم ﴿يدرؤون بالحسنة السيئة﴾؛ أي: دأبهم وطريقتهم الإحسان لكل أحد، حتى للمسيء إليهم بالقول والفعل؛ يقابلونه بالقول الحميد والفعل الجميل؛ لعلمهم بفضيلة هذا الخلق العظيم، وأنه لا يوفق له إلا ذو حظ عظيم.

﴿٥٥﴾ ﴿وإذا سمعوا اللغو﴾: من جاهل خاطبهم به، ﴿قالوا﴾: مقالة عباد الرحمن أولي الألباب: ﴿لنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾؛ أي: كل سيجازى بعمله الذي عمله وحده، ليس عليه من وزر غيره شيء، ولزم من ذلك أنهم يتبرؤون مما

(٢) في (ب): «يزعزعهم».

(١) في النسختين: «مؤمنين».

عليه الجاهلون من اللغو والباطل والكلام الذي لا فائدة فيه. ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: لا تسمعون منّا إلاّ الخير، ولا نخطبكم بمقتضى جهلكم؛ فإنّكم وإن رضيتُمْ لأنفسِكُم هذا المرتع اللثيم؛ فإنّا ننزّه أنفسنا عنه ونصونها عن الخوض فيه، ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾: من كلّ وجه.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (٥٦).

﴿٥٦﴾ يخبر تعالى أنّك يا محمد - وغيرك من باب أولى - لا تقدرُ على هداية أحدٍ، ولو كان من أحبّ الناس إليك؛ فإنّ هذا أمرٌ غيرُ مقدورٍ للخلق؛ هداية التوفيق وخلق الإيمان في القلب، وإنّما ذلك بيد الله تعالى؛ يهدي من يشاء وهو أعلم بمن يصلح للهداية فيهديه ممن لا يصلح لها فيبقيه على ضلاله. وأمّا إثبات الهداية للرسول في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾: فتلك هداية البيان والإرشاد؛ فالرسول يبيّن الصراط المستقيم، ويرغب فيه، ويبذل جهده في سلوك الخلق له، وأمّا كونه يخلق في قلوبهم الإيمان، ويوفّقهم بالفعل؛ فحاشا وكلاً، ولهذا لو كان قادراً عليها؛ لهدى من وصل إليه إحسانه ونصره ومنعه من قومه؛ عمّه أبا طالب، ولكنه أوصل إليه من الإحسان بالدعوة له للدين والنصح التام ما هو أعظم مما فعله معه عمّه، ولكنّ الهداية بيد الله.

﴿وَقَالُوا إِن نَّبِيعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ تَنَحَّطَفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ نُمْكِن لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٧) ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِكَ بِطَرَفِ مَعِيشَتَهَا فَيَأْكُلُ مِنْ ثَمَرِهِمْ لَمْ يَسْأَلْهُمْ لَمَّا سَكَنُوا مِنْ بَدْرِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ (٥٨) ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رُسُلًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ (٥٩).

﴿٥٧﴾ يخبر تعالى أنّ المكذّبين من قريش وأهل مكة يقولون للرسول ﷺ: ﴿إِن نَّبِيعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ تَنَحَّطَفُ مِنْ أَرْضِنَا﴾: بالقتل والأسر ونهب الأموال؛ فإنّ الناس قد عادوك وخالفوك؛ فلو تابعناك؛ لتعرضنا لمعاداة الناس كلّهم، ولم يكن لنا بهم طاقة. وهذا الكلام منهم يدلّ على سوء الظنّ بالله تعالى، وأنّه لا ينصر دينه ولا يعلي كلمته، بل يمكّن الناس من أهل دينه، فيسومونهم سوء العذاب، وظنّوا أنّ الباطل سيعلو على الحق. قال الله مبيناً لهم حاله هم بها دون الناس وأنّ الله اختصهم بها، فقال: ﴿أَوْلَمْ نُمْكِن لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾؛ أي:

أولم نجعلهم متمكنين مُمكنين في حرم يكثره المتابون ويقصده الزائرون، قد احترمه القريبُ والبعيد؛ فلا يُهاج أهله، ولا يُنتَقِصون بقليل ولا كثير، والحالُ أن كل ما حولهم من الأماكن قد حَفَّ بها الخوف من كل جانب، وأهلها غيرُ آمنين ولا مطمئنين؛ فليُحَمِّدوا ربَّهم على هذا الأمن التام الذي ليس فيه غيرهم، وعلى الرزق الكثير الذي يُجِبي إليهم من كل مكان من الثمرات والأطعمة والبضائع ما به يرتزقون ويتوسعون، وليُتَّبِعُوا هذا الرسولَ الكريم؛ لِيَتِمَّ لَهُمُ الأمانُ والرغدُ، وإياهم وتكذيبه والبطرُ بنعمة الله؛ فيبدلوا من بعد أمنهم خوفاً، وبعد عزهم ذلاً، وبعد غناهم فقراً.

﴿٥٨﴾ ولهذا توعددهم بما فعل بالأمم قبلهم، فقال: ﴿وكم أهلكنا من قريةٍ بطرت معيشتها﴾؛ أي: فخرت بها وألهتها واشتغلت بها عن الإيمان بالرسول، فأهلكهم الله، وأزال عنهم النعمة، وأحلَّ بهم النعمة، ﴿فتلك مساكنهم لم تُسكن من بعدهم إلا قليلاً﴾؛ لتوالي الهلاك والتلف عليهم وإيحاشها من بعدهم، ﴿وكننا نحن الوارثين﴾: للعباد؛ نميئهم ثم يرجع<sup>(١)</sup> إلينا جميع ما متعناهم به من النعم، ثم نعيدهم إلينا، فنجازيهم بأعمالهم.

﴿٥٩﴾ ومن حكمته ورحمته أن لا يعذب الأمم بمجرد كفرهم قبل إقامة الحجَّة عليهم بإرسال الرسل إليهم، ولهذا قال: ﴿وما كان ربك مهلك القرى﴾؛ أي: بكفرهم وظلمهم؛ ﴿حتى ينبعث في أمها﴾؛ أي: في القرية والمدينة التي إليها يَرْجِعُونَ، ونحوها يترددون، وكل ما حولها ينتجعها، ولا تخفى عليه أخبارها، ﴿رسولاً يتلو عليهم آياتنا﴾: الدالة على صحَّة ما جاء به وصدق ما دعاهم إليه، فيبلغ قوله قاصيهم ودانيهم؛ بخلاف بعث الرسل في القرى البعيدة والأطراف النائية؛ فإن ذلك مظنة الخفاء والجفاء، والمدن الأمهات مظنة الظهور والانتشار، وفي الغالب أنهم أقل جفاء من غيرهم، ﴿وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون﴾: بالكفر والمعاصي، مستحقون للعقوبة. والحاصل أن الله لا يعذب أحداً إلا بظلمه وإقامة الحجَّة عليه.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ شَيْءٍ مِّنْ شَيْءٍ مِّنْ نَّهَىٰ عَنْ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا يَعْلَمُونَ﴾ (١١)  
 أَمَّن وَعَدْنَاهُ وَعَدًّا حَسَنًا فَهُوَ لَنَقِيهِ كَمَنْ مَّنَعْنَاهُ مَنَعَ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿١١﴾

(١) في (ب): «ترجع».

﴿٦٠﴾ هَذَا حِصٌّ مِنْهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ عَلَى الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا وَعَدَمِ الْاِغْتِرَارِ بِهَا، وَعَلَى الرِّغْبَةِ فِي الْآخِرَى وَجَعَلَهَا مَقْصُودَ الْعَبْدِ وَمَطْلُوبَهُ، وَيُخْبِرُهُمْ أَنَّ جَمِيعَ مَا أُوتِيَ الْخَلْقُ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْحَيَوَانَاتِ وَالْأَمْتَعَةِ وَالنِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْمَأْكُلِ وَالْمَشَارِبِ وَاللَّذَاتِ كُلِّهَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا؛ أَي: يَتَمَتَّعُ بِهِ وَقْتًا قَصِيرًا مَتَاعًا قَاصِرًا مَحْشُورًا بِالْمَتَعِّصَاتِ مَمْزُوجًا بِالْغُصَصِ، وَيَتَزَيَّنُ بِهِ زَمَانًا يَسِيرًا لِلْفَخْرِ وَالرِّيَاءِ، ثُمَّ يَزُولُ ذَلِكَ سَرِيعًا، وَيَنْقُضِي جَمِيعًا، وَلَمْ يَسْتَفِدْ صَاحِبُهُ مِنْهُ إِلَّا الْحَسْرَةَ وَالنَّدَمَ وَالْخِيْبَةَ وَالْحَرْمَانَ، ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾: مِنَ النِّعَمِ الْمَقِيمِ وَالْعَيْشِ السَّلِيمِ ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾؛ أَي: أَفْضَلُ فِي وَصْفِهِ وَكَمِّيَّتِهِ، وَهُوَ دَائِمٌ أَبَدًا وَمُسْتَمِرٌّ سَرْمَدًا، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؛ أَي: أَفَلَا تَكُونُ لَكُمْ عَقُولٌ بِهَا تَزِنُونَ؛ أَيُّ الْأَمْرَيْنِ أَوْلَى بِالْإِيثَارِ؟! وَأَيُّ الدَّارَيْنِ أَحَقُّ لِلْعَمَلِ لَهَا؟! فَدَلَّ ذَلِكَ أَنَّهُ بِحَسَبِ عَقْلِ الْعَبْدِ يُؤَثَّرُ بِالْآخِرَى عَلَى الدُّنْيَا، وَأَنَّهُ مَا أَثَرَ أَحَدُ الدُّنْيَا إِلَّا لِنَقْصِ فِي عَقْلِهِ.

﴿٦١﴾ وَلِهَذَا نَبَّهَ الْعُقُولَ عَلَى الْمَوَازَنَةِ بَيْنَ عَاقِبَةِ مُؤَثِّرِ الدُّنْيَا وَمُؤَثِّرِ الْآخِرَةِ، فَقَالَ: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ﴾؛ أَي: هَلْ يَسْتَوِي مُؤْمِنٌ، سَاعَ لِلْآخِرَةِ سَعِيَهَا، قَدْ عَمِلَ عَلَى وَعْدِ رَبِّهِ لَهُ بِالثَّوَابِ الْحَسَنِ الَّذِي هُوَ الْجَنَّةُ وَمَا فِيهَا مِنَ النِّعَمِ الْعَظِيمِ؛ فَهُوَ لَاقِيهِ مِنْ غَيْرِ شُكٍّ وَلَا ارْتِيَابٍ؛ لِأَنَّهُ وَعَدَ مِنْ كَرِيمٍ صَادِقٍ الْوَعْدِ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ لِعَبْدٍ قَامَ بِمَرْضَاتِهِ وَجَانِبِ سَخَطِهِ؛ ﴿كَمَنْ مَتَّغَنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فَهُوَ يَأْخُذُ فِيهَا وَيُعْطِي، وَيَأْكُلُ وَيَشْرَبُ، وَيَتَمَتَّعُ كَمَا تَتَمَتَّعُ الْبَهَائِمُ، قَدْ اشْتَغَلَ بِدُنْيَاهُ عَنْ آخِرَتِهِ، وَلَمْ يَرْفَعْ بِهَدْيِ اللَّهِ رَأْسًا، وَلَمْ يَنْقُدْ لِلْمُرْسَلِينَ؛ فَهُوَ لَا يَزَالُ كَذَلِكَ؛ لَا يَتَزَوَّدُ مِنْ دُنْيَاهُ إِلَّا الْخُسَارَ وَالْهَلَاقَ. ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾: لِلْحِسَابِ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يَقْدَمْ خَيْرًا لِنَفْسِهِ، وَإِنَّمَا قَدَّمَ جَمِيعَ مَا يَضُرُّهُ، وَانْتَقَلَ إِلَى دَارِ [الْجَزَاءِ بِالْأَعْمَالِ]؛ فَمَا ظَنُّكُمْ إِلَّا بِصِيرِ إِلَيْهِ؟! وَمَا تَحْسِبُونَ مَا يَصْنَعُ بِهِ؟! فَلْيُخَيِّرِ الْعَاقِلُ لِنَفْسِهِ مَا هُوَ أَوْلَى بِالِاخْتِيَارِ وَأَحَقُّ الْأَمْرَيْنِ بِالْإِيثَارِ.

﴿وَيَوْمَ يَأْتِيهِمْ فَيَقُولُ آيَنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٦﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٧﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٨﴾ وَيَوْمَ يَأْتِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٩﴾ فَعَمِيَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿٦٢ - ٦٣﴾ هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَمَّا يَسْأَلُ عَنْهُ الْخَلَائِقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنَّهُ

يسألهم عن أصول الأشياء؛ عن عبادة الله، وإجابة رسله، فقال: ﴿ويوم يناديهم﴾؛ أي: ينادي مَنْ أشركوا به شركاء يعبدونهم ويرجون نفعهم ودفع الضرر عنهم، فيناديهم ليبين لهم عجزها وضلالهم، ﴿فيقول أين شركائي﴾: وليس لله شريك، ولكن ذلك بحسب زعمهم وافترائهم، ولهذا قال: ﴿الذين كنتم تزعمون﴾: فأين هم بدواتهم؟! وأين نفعهم؟! وأين دفعهم؟! ومن المعلوم أنهم يتبين لهم في تلك الحال أن الذي عبدوه ورجوه باطلٌ مضمحلٌ في ذاته وما رجوا منه، فيقرؤون على أنفسهم بالضلالة والغواية، ولهذا ﴿قال الذين حق عليهم القول﴾: من الرؤساء والقادة في الكفر والشرك؛ مقرين بغوايتهم وإغوائهم: ﴿ربنا هؤلاء﴾: التابعون ﴿الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا﴾؛ أي: كلنا قد اشترك في الغواية وحق عليه كلمة العذاب، ﴿سبرأنا إليك﴾: من عبادتهم؛ أي: نحن برآء منهم ومن عملهم. ﴿ما كانوا إيانا يعبدون﴾: وإنما كانوا يعبدون الشياطين.

﴿٦٤﴾ ﴿وقيل﴾ لهم: ﴿ادعوا شركاءكم﴾: على ما أمثلتم فيهم من النفع، فأمروا بدعائهم في ذلك الوقت الحرج الذي يضطر فيه العابد إلى مَنْ عبده، ﴿فدعوهم﴾: لينفعوهم أو يدعوا عنهم من عذاب الله من شيء، ﴿فلم يستجيبوا لهم﴾: فعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين مستحقين للعقوبة، ﴿ورأوا العذاب﴾: الذي سيحلُّ بهم عياناً بأبصارهم بعدما كانوا مكذِّبين به منكِّرين له؛ ﴿لو أنهم كانوا يهتدون﴾؛ أي: لما حصل عليهم ما حصل، ولهدوا إلى صراط الجنة كما اهتدوا في الدنيا، ولكن لم يهتدوا، فلم يهتدوا.

﴿٦٥ - ٦٦﴾ ﴿ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين﴾: هل صدقتموهم وأتبعتموهم؟ أم كذبتموهم وخالفتموهم؟ ﴿فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون﴾؛ أي: لم يحيروا عن هذا السؤال جواباً، ولم يهتدوا إلى الصواب، ومن المعلوم أنه لا يُنجي في هذا الموضع إلا التصريح بالجواب الصحيح المطابق لأحوالهم من أننا أجبناهم بالإيمان والانقياد، ولكن لما علموا تكذيبهم لهم وعنادهم لأمرهم؛ لم ينطقوا بشيء، ولا يمكن أن يتساءلوا، ويتراجعوا بينهم في ماذا يجيبون به، ولو كان كذباً.

﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَسَوَّىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ (١٧).

﴿٦٧﴾ لما ذكر تعالى سؤال الخلق عن معبودهم وعن رسلهم؛ ذكر الطريق الذي ينجو به العبد من عقاب الله تعالى، وأنه لا نجاة إلا لمن أتصف بالتوبة من

الشرك والمعاصي، وآمن بالله فعبده، وآمن برسوله فصدقهم، وعمل صالحاً متبعاً فيه للرسول. ﴿فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ﴾: من جمَع هذه الخصال ﴿من المفلحين﴾: الناجحين بالمطلوب، الناجين من المرهوب؛ فلا سبيل إلى الفلاح بدون هذه الأمور.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْآخِرَةُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةُ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿٦٨ - ٧٠﴾ هذه الآيات فيها عموم خلقه لسائر المخلوقات، ونفوذ مشيئته بجميع البريات، وانفراذه باختيار من يختاره ويختصه من الأشخاص والأوامر والأزمان والأماكن، وأنّ أحداً ليس له<sup>(١)</sup> من الأمر والاختيار شيء، وأنه تعالى منزّه عن كل ما يشركون به من الشريك والظهير والعوين والولد والصاحبة ونحو ذلك مما أشرك به المشركون، وأنه العالم بما أكتته الصدور وما أعلنوه، وأنه وحده المعبود المحمود في الدنيا والآخرة على ما له من صفات الجلال والجمال، وعلى ما أسداه إلى خلقه من الإحسان والإفضال، وأنه هو الحاكم في الدارين؛ في الدنيا بالحكم القدري الذي أثره جميع ما خلق وذراً، والحكم الديني الذي أثره جميع الشرائع والأوامر والنواهي. وفي الآخرة يحكم بحكمه القدري والجزائي، ولهذا قال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: فيجازي كلّا منكم بعمله من خير وشر.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِاللَّيْلِ تَسْكُونُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمَنْ رَحِمْتَهُ جَعَلْ لَكَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِسْكَوًا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ. وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿٧١ - ٧٣﴾ هذا امتنان من الله على عباده؛ يدعوهم به إلى شكره والقيام بعبوديته وحقه أن<sup>(٢)</sup> جعل لهم من رحمته النهار ليتبغوا من فضل الله وينتسروا لطلب أرزاقهم ومعاشيهم في ضيائه، والليل ليهدؤوا فيه ويسكنوا وتستريح أبدانهم وأنفسهم من تعب التصرف في النهار؛ فهذا من فضله ورحمته بعباده؛ فهل أحد

(٢) في (ب): «أنه».

(١) في (ب): «لهم».

يقدِرُ على شيءٍ من ذلك فلو جَعَلَ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ الليلَ سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياءٍ أفلا تسمعون؟ ﴿: مواظ الله وآياته سماع فهم وقبول وانقياد، ولو جعل عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون؟ ﴿: مواظ العبر ومواضع الآيات فتستنير بصائرکم وتسلكون الطريق المستقيم، وقال في الليل: ﴿أفلا تسمعون﴾، وفي النهار: ﴿أفلا تبصرون﴾؛ لأن سلطانَ السمع في الليل أبلغ من سلطانِ البصر، وعكسه النهار.

وفي هذه الآيات تنبيهٌ إلى أنَّ العبد ينبغي له أن يتدبر نعم الله عليه، ويستبصر<sup>(١)</sup> فيها، ويقيسها بحال عدمها؛ فإنه إذا وازن بين حالة وجودها وبين حالة عدمها؛ تنبه عقله لموضع المنية؛ بخلاف مَنْ جرى مع العوائد، ورأى أنَّ هذا أمر لم يزل مستمراً ولا يزال، وعمي قلبه عن الثناء على الله بنعمه ورؤية افتقاره إليها في كل وقت؛ فإنَّ هذا لا يحدث له فكرة شكرٍ ولا ذكرٍ.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَزَعَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ .

﴿٧٤ - ٧٥﴾ أي: ويوم ينادي الله المشركين به العادلين به غيره، الذين يزعمون أنَّ له شركاء يستحقون أن يُعبدوا وينفعون ويضرّون؛ فإذا كان يوم القيامة؛ أراد الله أن يُظهر جراتهم وكذبهم في زعمهم وتكذيبهم<sup>(٢)</sup> لأنفسهم؛ يناديهم ﴿أين شركائِيَ الذين كنتم تزعمون﴾؛ أي: بزعمهم لا بنفس الأمر؛ كما قال: ﴿وما يتبع الذين يذعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظنَّ [وإن هم إلا يخرصون]﴾، فإذا حضروا هم وإياهم؛ نزع ﴿من كل أمة﴾: من الأمم المكذبة ﴿شهاداً﴾: يشهد على ما جرى في الدنيا من شركهم واعتقادهم، وهؤلاء بمنزلة المتخبيين؛ أي: انتخبنا من رؤساء المكذبين مَنْ يتصدى للخصومة عنهم والمجادلة عن إخوانهم، وهم على طريق واحد؛ فإذا برزوا للمحاكمة، ﴿فقلنا هاتوا برهانكم﴾: حججتكم ودليلكم على صحة شرككم؛ هل أمرناكم بذلك؟ هل أمرتكم رُسلي؟ هل وجدتم ذلك في شيء من كتبي؟ هل فيهم أحد يستحق شيئاً من الإلهية؟ هل ينفعونكم أو يدفعون عنكم من عذاب الله أو يُغنون عنكم؟ فليفعلوا إذاً إن كان فيهم أهليةٌ ولئروكم إن كان لهم قدرة، ﴿فعلموا﴾: حينئذ بطلان قولهم وفساده، و﴿أنَّ الحقَّ لله﴾: تعالى، قد

(١) في (ب): «ويتبصر».

(٢) في (ب): «وتكذيب».



تَوَجَّهَتْ عَلَيْهِمُ الْخُصُومَةُ وَاِنْقَطَعَتْ حُجَّتَهُمْ وَأَفْلَجَتْ حُجَّةَ اللَّهِ، ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾: من الكذب والإفك؛ اضمحل وتلاشى وعدم، وعلموا أن الله قد عدل فيهم؛ حيث لم يضع العقوبة إلا بمن استحقها واستأهلها.

﴿إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾<sup>(١)</sup> ﴿وَأَلَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَاتَّبَعَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا وَلَا يَسْأَلُ عَنْ دُونِهِمْ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُرُونًا إِنَّهُمْ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّادِقُونَ ﴿٨٠﴾ فَسَفَفْنَا بِهٖ وَيَدَارِو الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِتْنَةٍ يَصْخَرُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنْ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَافُ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيُنَازِنُهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿٧٦﴾ يخبر تعالى عن حالة قارون وما فعلَ وفعلَ به ونصحَ ووعدَ، فقال: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾؛ أي: من بني إسرائيل، الذين فضلوا العالمين وفاقوهم في زمانهم، وامتنَّ الله عليهم بما امتنَّ به، فكانت حالهم مناسبة للاستقامة، ولكنَّ قارون بهذا بغى على قومه، وطغى بما أُوتيه من الأموال العظيمة المُطغية، ﴿وَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ﴾؛ أي: كنوز الأموال شيئاً كثيراً، ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾: والعُصبة من العشرة إلى التسعة إلى السبعة ونحو ذلك؛ أي: حتى إنَّ مفاتيح خزائن أمواله تُثقلُ الجماعة القوية عن حملها؛ هذه المفاتيح؛ فما ظنك بالخزائن؟! ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ﴾: ناصحين له محذرين له عن الطغيان: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾؛ أي: لا تفرح بهذه الدنيا العظيمة، وتفتخر بها، وتلهيك عن الآخرة؛ فإنَّ الله لا يحبُّ الفرحين بها المكبين على محبتها.

(١) في النسختين: إلى آخر القصة.

﴿٧٧﴾ ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾؛ أي: قد حصل عندك من وسائل الآخرة ما ليس عند غيرك من الأموال، فابتغ بها ما عند الله، وتصدق، ولا تقتصر على مجرد نيل الشهوات وتحصيل اللذات، ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيحَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾؛ أي: لا نأمرُك أن تتصدق بجميع مالك وتبقى ضائعاً، بل أنفق لأخرك وأستمتع بدنياك استمتاعاً لا يثلم دينك ولا يضر بأخرك، ﴿وَأَحْسِنْ﴾: إلى عباد الله ﴿كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ﴾: عليك بهذه الأموال، ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾: بالتكبر والعمل بمعاصي الله والاشتغال بالنعم عن المنعم. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمَفْسِدِينَ﴾: بل يعاقبهم على ذلك أشد العقوبة.

﴿٧٨﴾ ﴿قَالَ﴾ قَارُونَ رَادًّا لِنَصِيحَتِهِمْ كَافِرًا لِنِعْمَةِ رَبِّهِ: ﴿إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾؛ أي: إنما أدركت هذه الأموال بكسبي ومعرفتي بوجوه المكاسب وحثي. أو: على علم من الله بحالي؛ يعلم أنني أهل لذلك؛ فلم تنصحوني على ما أعطاني الله؟! قال تعالى مبيناً أن عطاءه ليس دليلاً على حسن حالة المغطى: ﴿أُولَئِكَ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا﴾: فما المانع من إهلاك قارون مع مضي عادتنا وسنتنا بإهلاك من هو مثله وأعظم منه إذا فعل ما يوجب الهلاك؟! ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾: بل يعاقبهم الله ويعذبهم على ما يعلمه منهم؛ فهم وإن أثبتوا لأنفسهم حالة حسنة وشهدوا لها بالثجاة؛ فليس قولهم مقبولاً، وليس ذلك راداً عنهم من العذاب شيئاً؛ لأن ذنوبهم غير خفية؛ فإنكارهم لها لا محل له.

﴿٧٩﴾ فلم يزل قارون مستمراً على عناده وبغيه وعدم قبول نصيحة قومه، فرحاً بطراً، قد أعجبته نفسه وغرّه ما أوتيته من الأموال، ﴿فَخَرَجَ﴾ ذات يوم ﴿فِي زِينَتِهِ﴾؛ أي: بحالة أرفع ما يكون من أحوال دنياه، قد كان له من الأموال ما كان، وقد استعدّ وتجمل بأعظم ما يمكنه، وتلك الزينة في العادة من مثله تكون هائلة، جمعت زينة الدنيا وزهرتها وبهجتها وفضارتها وفخرها، فرمقته في تلك الحالة العيون، وملأت بزتة القلوب، واختلبت زينته النفوس، فانقسم فيه الناظرون قسمين، كل تكلم بحسب ما عنده من الهمة والرغبة، ﴿قَالَ الَّذِينَ يَرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾؛ أي: الذين تعلقت إرادتهم فيها، وصارت منتهى رغبتهم، ليس لهم إرادة في سواها: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾: من الدنيا ومتاعها وزهرتها، ﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾: وصدقوا إنه لذو حظ عظيم لو كان الأمر منتهياً إلى رغباتهم وإنه

ليس وراء الدنيا دار أخرى؛ فإنه قد أُعطيَ منها ما به غايةُ التمتع<sup>(١)</sup> بنعيم الدنيا، واقتدر بذلك على جميع مطالبه، فصار هذا الحظُّ العظيم بحسب همّتهم، وإنَّ هِمَّةَ جعلت هذا غاية مرادها ومنتهى مطلبها؛ لمن أدنى الهمم وأسفلها وأدناها، وليس لها أدنى صعود إلى المرادات العالية والمطالب الغالية.

﴿٨٠﴾ ﴿وقال الذين أوتوا العلم﴾: الذين عرفوا حقائق الأشياء ونظروا إلى باطن الدنيا حين نظر أولئك إلى ظاهرها: ﴿ويلكم﴾: متوجّعين من ما تمّنوا لأنفسهم، راثين لحالهم، منكرين لمقالهم، ﴿ثوابُ الله﴾: العاجلُ من لذة العبادة ومحبته والإنابة إليه والإقبال عليه، والأجلُ من الجنة وما فيها ممّا تشتهيهِ الأنفس وتلذُّ الأعينُ خير من هذا الذي تمثيتم ورجبتم فيه؛ فهذه حقيقة الأمر، ولكن ما كلُّ مَنْ يعلم ذلك يؤثر الأعلى على الأدنى، فما يُلقي ذلك ويوفِّق له ﴿إلا الصابرون﴾: الذين حبسوا أنفسهم على طاعة الله وعن معصيته وعلى أقداره المؤلمة وصبروا على جواذب الدنيا وشهواتها أن تشغلهم عن ربهم وأن تحول بينهم وبين ما خلّقوا له؛ فهؤلاء الذين يؤثرون ثواب الله على الدنيا الفانية.

﴿٨١﴾ فلما انتهت بقارون حالة البغي والفخر، واژنت الدنيا عنده، وكثرت بها إعجابُه؛ بَعَثَهُ العذاب، ﴿فَحَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضُ﴾: جزاء من جنس عمله؛ فكما رفع نفسه على عباد الله؛ أنزله الله أسفل سافلين هو وما اغترّ به من داره وأثابه ومتاعه. ﴿فما كان له من فتية﴾؛ أي: جماعة وعصية وخدم وجنود، ﴿ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين﴾؛ أي: جاءه العذاب فما نصّر ولا انتصر.

﴿٨٢﴾ ﴿وأصبح الذين تمّنوا مكانه بالأمس﴾؛ أي: الذين يريدون الحياة الدنيا، الذين قالوا: يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون ﴿يقولون﴾: متوجّعين ومعتبرين وخائفين من وقوع العذاب بهم: ﴿ويكأنَّ الله يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾؛ أي: يضيّق الرزق على من يشاء. فعلمنا حينئذٍ أن بسطه لقارون ليس دليلاً على خير فيه، وأننا غالطون في قولنا: إنه لذو حظ عظيم، ﴿ولولا أن مَنَّ الله علينا﴾: فلم يعاقبنا على ما قلنا؛ فلولا فضله ومثته؛ ﴿لخسف بنا﴾: فصار هلاك قارون عقوبة له وعبرة وموعظة لغيره، حتى إن الذين غبطوه سمعت كيف ندموا، وتغيّر فكرهم الأول، ﴿ويكأنه لا يفلح الكافرون﴾؛ أي: لا في الدنيا، ولا في الآخرة.

(١) في (ب): «التمتع».

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ بَجَعَلْنَاهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٨٣).

﴿٨٣﴾ لما ذَكَرَ تعالى قارونَ وما أُوتيه من الدنيا وما صارت إليه عاقبة أمره، وأن أهل العلم قالوا: ثوابُ الله خيرٌ لمن آمنَ وعمل صالحاً؛ رَغِبَ تعالى في الدار الآخرة، وأخبر بالسبب الموصول إليها، فقال: ﴿تلك الدارُ الآخرةُ﴾: التي أخبر الله بها في كتبه وأخبرت بها رسله التي قد جمعت كلَّ نعيمٍ واندفع عنها كلُّ مكدرٍ ومنغصٍ، ﴿نجعلها﴾: داراً وقراراً للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً؛ أي: ليس لهم إرادة؛ فكيف العمل للعلو في الأرض على عبادِ الله والتكبر عليهم وعلى الحق؟! ﴿ولا فساداً﴾: وهذا شاملٌ لجميع المعاصي؛ فإذا كان<sup>(١)</sup> لا إرادة لهم في العلو في الأرض ولا الفساد<sup>(٢)</sup>؛ لزم من ذلك أن تكون إرادتهم مصروفة إلى الله، وقصدُهم الدارَ الآخرة، وحالُهم التواضع لعبادِ الله والانقياد للحق والعمل الصالح، وهؤلاء هم المتقون، الذين لهم العاقبة، ولهذا قال: ﴿والعاقبة﴾؛ أي: حالة الفلاح والنجاح التي تستقرُّ وتستمرُّ لمن اتقى الله تعالى. وغيرهم، وإن حصل لهم بعض الظهور والراحة؛ فإنه لا يطولُ وقته، ويزولُ عن قريب.

وعلم من هذا الحصر في الآية الكريمة أن الذين يريدون العلو في الأرض أو الفساد ليس لهم في الدار الآخرة نصيبٌ، ولا لهم منها نصيبٌ.

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِمَّا مَنِجَّاهُ مِنَ الْجَهَنَّمَ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يَجْزِيهِ الْعَمَلُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَسْعَوْنَ﴾ (٨٤).

﴿٨٤﴾ يخبر تعالى عن مضاعفة فضله وتمازج عدله، فقال: ﴿من جاء بالحسنة﴾: شَرَطَ فيها أن يأتي بها العاملُ؛ لأنه قد يعملها ولكن يقترن بها ما لا تُقبلُ منه أو يبطلها؛ فهذا لم يَجِءْ بالحسنة، والحسنة اسم جنس يشمل جميع ما أمر الله به ورسوله من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة المتعلقة بحقه تعالى وحقوق العباد<sup>(٣)</sup>، ﴿فله خيرٌ منها﴾؛ أي: أعظم وأجلُّ، وفي الآية الأخرى: ﴿فله عشرُ أمثالها﴾: هذا التضعيف للحسنة لا بد منه، وقد يقترن بذلك من الأسباب ما تزيد به المضاعفة؛ كما قال تعالى: ﴿والله يضاعف لمن يشاء والله واسعٌ عليمٌ﴾:

(٢) في (ب): «والإفساد».

(١) في (ب): «كانوا».

(٣) في (ب): «وحق عباده».

بحسب حالِ العاملِ وعَمَلِهِ ونَفْعِهِ ومَحَلِّهِ ومَكَانِهِ، ﴿ومن جاء بالسيئة﴾: وهي كلُّ ما نهى الشارعُ عنه نهى تحريم؛ ﴿فلا يُجزى الذين عَمِلُوا السيئاتِ إِلَّا ما كانوا يعملون﴾؛ كقوله تعالى: ﴿مَنْ جاء بالحسنةِ فله عشرُ أمثالِها ومن جاء بالسيئةِ فلا يُجزى إِلَّا مثلُها وهم لا يُظلمون﴾.

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدَكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلَتْ إِلَيْكَ وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿٨٥﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾؛ أي: أنزله، وفرض فيه الأحكام، وبيّن فيه الحلال والحرام، وأمرك بتبليغِهِ للعالمين والدعوة لأحكامِهِ جميع المكلفين؛ لا يليقُ بحكمته أن تكون الحياة هي الحياة الدنيا فقط من غير أن يُتاب العبادُ ويعاقبوا، بل لا بدُّ أن يردَّكَ إلى معادٍ يُجازى فيه المحسنون بإحسانهم والمسيئون بمعصيتهم، وقد بيّنت لهم الهدى وأوضحت لهم المنهج؛ فإنَّ تبعوك؛ فذلك حظهم وسعادتهم، وإنَّ أبوا إِلَّا عِضْيَانَكَ والقُدْحَ بما جئت به من الهدى وتفضيل ما معهم من الباطل على الحق؛ فلم يبقَ للمجادلة محلٌّ، ولم يبقَ إِلَّا المجازاة على الأعمال من العالم بالغيب والشهادة والمحق والمبطل، ولهذا قال: ﴿قل ربِّي أعلم مَنْ جاء بالهدى ومَنْ هو في ضلالٍ مبين﴾: وقد علم أنَّ رسوله هو المهدي الهادي، وأنَّ أعداءه هم الضالُّون المضلُّون.

﴿٨٦﴾ ﴿وما كنتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾؛ أي: لم تكن متحرِّياً لنزول هذا الكتاب عليك، ولا مستعداً له، ولا متصدياً، ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾: بك وبالعباد، فأرسلك بهذا الكتاب الذي رَجِمَ به العالمين، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، وزكاهم وعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبلُ لفي ﴿ضلالٍ مبين﴾: فإذا علمت أنَّه أنزله إليك رحمةً منه؛ علمت أنَّ جميع ما أمر به ونهى عنه؛ فإنَّه رحمةٌ وفضلٌ من الله؛ فلا يكن في صدرك حرجٌ من شيءٍ منه، وتظنُّ أنَّ مخالفته أصلح وأنفع، ﴿فلا تكوننَّ ظهيراً للكافرين﴾؛ أي: معيناً لهم على ما هو من شعب كفرهم، ومن جملة مظاهرهم أن يُقال في شيءٍ منه: إنَّه خلافُ الحكمة والمصلحة والمنفعة.

﴿٨٧﴾ ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بِعَدِ إِذْ أَنْزَلَتْ إِلَيْكَ﴾: بل أبلغها وأنفذها، ولا تُبالِ بمكرهم، ولا يخذعُكَ عنها، ولا تتبِعْ أهواءهم، ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾؛ أي: اجعل الدعوة إلى ربك منتهى قصدك وغاية عمَلِك، فكلُّ ما خالف ذلك؛ فارقضه من رياءٍ أو سمعةٍ أو موافقةٍ أغراض أهل الباطل؛ فإنَّ ذلك داع إلى الكون معهم ومساعدتهم على أمرهم، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمَشْرِكِينَ﴾: لا في شركهم، ولا في فروعه وشعبه التي هي جميع المعاصي.

﴿٨٨﴾ ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾: بل اخلِصْ لله عبادتك؛ فإنه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾: فلا أحد يستحقُّ أن يؤلَّهُ ويحبُّ ويعبدُ إلاَّ الله الكامل الباقي الذي ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾: وإذا كان كلُّ شيءٍ هالكٌ مضمحلٌّ سواه؛ فعبادة الهالك الباطل باطلَةٌ ببطلان غايتها وفساد نهايتها، ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾: في الدنيا والآخرة، ﴿وإِلَيْهِ﴾: لا إلى غيره ﴿تَرْجَعُونَ﴾: فإذا كان ما سوى الله باطلاً هالكاً، والله هو الباقي الذي لا إله إلا هو، وله الحكم في الدنيا والآخرة، وإليه مرجعُ الخلائق كلهم؛ ليجازيهم بأعمالهم؛ تعيَّن على مَنْ له عقلٌ أن يعبدَ الله وحده لا شريك له، ويعملُ لما يقربُه ويُدنيه، ويحذَرُ من سخطِهِ وعقابه، وأن يُقدِّمَ على ربِّه غير تائب ولا مقلع عن خطيئِهِ وذنوبِهِ.

تم تفسير سورة القصص.

ولله الحمد والثناء والمجد دائماً أبداً.



## تفسير سورة العنكبوت

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿آلَمْ أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَأَمَّنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾.

﴿١ - ٣﴾ يخبر تعالى عن تمام حكمته، وأنَّ حكمته لا تقتضي أنَّ كلَّ مَنْ قال إنه مؤمنٌ وادَّعى لنفسه الإيمان؛ أن يَبْقُوا في حالة يَسْلَمُونَ فيها من الفتن والمحن، ولا يَغْرِضُ لهم ما يشوِّس عليهم إيمانهم وفروعه؛ فإنهم لو كان الأمر كذلك؛ لم

يتميّز الصادق من الكاذب والمحق من المبطل، ولكن سنّته وعادته في الأولين وفي هذه الأمة أن يبتليهم بالسراء والضراء والعسر واليسر<sup>(١)</sup> والمنشط والمكره والغنى والفقر وإدالة الأعداء عليهم في بعض الأحيان ومجاهدة الأعداء بالقول والعمل ونحو ذلك من الفتن، التي ترجع كلها إلى فتنة الشبهات المعارضة للعقيدة والشهوات المعارضة للإرادة؛ فمن كان عند ورود الشبهات يثبت إيمانه ولا يتزلزل ويدفعها<sup>(٢)</sup> بما معه من الحق، وعند ورود الشهوات الموجبة والداعية إلى المعاصي والذنوب أو الصارفة عن ما أمر الله به ورسوله، يعمل بمقتضى الإيمان ويجاهد شهوته؛ دل ذلك على صدق إيمانه وصحته، ومن كان عند ورود الشبهات تؤثر في قلبه شكاً وريباً، وعند اعتراض الشهوات تصرفه إلى المعاصي أو تصدّفه عن الواجبات؛ دل ذلك على عدم صحّة إيمانه وصدقه. والناس في هذا المقام درجات لا يحصيها إلا الله؛ فمستقلّ ومستكثر. فنسأل الله تعالى أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن يثبت قلوبنا على دينه؛ فالابتلاء والامتحان للنفوس بمنزلة الكبر يخرج خبثها وطبيها.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾﴾

﴿٤﴾ أي: أحسب الذين همهم فعل السيئات وارتكاب الجنایات أن أعمالهم ستهمل وأن الله سيغفل عنهم أو يفوتونه؛ فلذلك أقدموا عليها وسهل عليهم عملها؟! ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾؛ أي: ساء حكمهم؛ فإنه حكم جائر لتضمّنه إنكار قدرة الله وحكمته، وأن لديهم قدرة يمتنعون بها من عقاب الله، وهم أضعف شيء وأعجزه.

﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾

﴿٥﴾ يعني: يا أيها المحبُّ لربّه، المشتاق لقربه ولقائه، المسارع في مرضاته! أبشّر بقرب لقاء الحبيب؛ فإنه آت، وكل ما هو آت قريب<sup>(٣)</sup>، فتزوّد للقاءه، وسرّ نحوه مستصحباً الرجاء مؤملاً الوصول إليه.

(٢) في (ب): «ويدفعه».

(١) في (ب): «واليسر والعسر».

(٣) في (ب): «إنما هو قريب».

﴿٦﴾ ولكن ما كل من يدعى يُعطى بدعواه، ولا كل من تمنى يُعطى ما تمناه؛ فإن الله سميع للأصوات عليم بالنيات؛ فمن كان صادقاً في ذلك؛ أناله ما يرجو، ومن كان كاذباً؛ لم تنفعه دعواه، وهو العليم بمن يصلح لحبه ومن لا يصلح، ﴿ومن جاهد﴾: نفسه وشیطانه وعدوه الكافر؛ ﴿فإنما يجاهد لنفسه﴾: لأن نفعه راجع إليه، وثمرته عائدة إليه، والله غني عن العالمين، لم يأمرهم بما أمرهم به ليتفتح به، ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلاً منه عليهم، وقد علم أن الأوامر والنواهي يحتاج المكلف فيها إلى جهاد؛ لأن نفسه تتأقل بطبعها عن الخير، وشیطانه ينهأ عنه، وعدوه الكافر يمنعه من إقامة دينه كما ينبغي، وكل هذه<sup>(١)</sup> معارضات تحتاج إلى مجاهدات وسعي شديد.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾.

﴿٧﴾ يعني: أن الذين من الله عليهم بالإيمان والعمل الصالح سيكفر الله عنهم سيئاتهم؛ لأن الحسنات يُذهبن السيئات، ﴿ولنجزيَنَّهُم أحسن الذي كانوا يعملون﴾؛ وهي أعمال الخير من واجبات ومستحبات، فهي أحسن ما يعمل العبد؛ لأنه يعمل المباحات أيضاً وغيرها.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿٨﴾ أي: وأمرنا الإنسان ووصيناه بوالديه حسناً؛ أي: ببرهما والإحسان إليهما بالقول والعمل، وأن يحافظ على ذلك ولا يعقهما ويسيء إليهما في قوله وعمله، ﴿وإن جاهداك﴾ على أن تشرك ﴿بي ما ليس لك به علم﴾: وليس لأحد علم بصحة الشرك بالله، وهذا تعظيم لأمر الشرك. ﴿فلا تطعهما إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾: فأجازيكم بأعمالكم؛ فبروا والديكم، وقدموا طاعتها إلا على طاعة الله ورسوله؛ فإنها مقدمة على كل شيء.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾﴾.

(١) في (ب): «هذا».



﴿٩﴾ أي: مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَعَمَلَ صَالِحًا؛ فَإِنَّ اللَّهَ وَعَدَهُ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ فِي جَمَلَةِ عِبَادِ<sup>(١)</sup> اللَّهِ الصَّالِحِينَ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشَّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، كُلٌّ عَلَى حَسَبِ دَرَجَتِهِ وَمَرْتَبَتِهِ عِنْدَ اللَّهِ؛ فَالْإِيمَانُ الصَّحِيحُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ عُنْوَانٌ عَلَى سَعَادَةِ صَاحِبِهِ، وَأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الرَّحْمَنِ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولَنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

﴿١٠ - ١١﴾ لما ذكر تعالى أنه لا بد أن يمتحن من ادعى الإيمان؛ ليظهر الصادق من الكاذب؛ بين تعالى أن من الناس فريقاً لا صبر لهم على المحن ولا ثبات لهم على بعض الزلازل، فقال: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾: بضرب أو أخذ مال أو تعبير؛ ليرتد عن دينه، وليراجع الباطل؛ ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾؛ أي: يجعلها صادةً له عن الإيمان والثبات عليه؛ كما أن العذاب صادٌ عما هو سببه. ﴿ولئن جاء نصرٌ من ربك ليقولنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾: لأنه موافق للهوى.

فهذا الصنف من الناس من الذين قال الله فيهم: ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرفٍ فإن أصابه خيرٌ اطمأن به وإن أصابته فتنةٌ انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين﴾. ﴿أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين﴾: حيث أخبركم<sup>(٢)</sup> بهذا الفريق الذي حاله كما وصّف لكم، فتعرفون بذلك كمال علمه وسعة حكمته. ﴿وليعلمنَّ الله الذين آمنوا وليعلمنَّ المنافقين﴾؛ أي: فلذلك قدر محناً وابتلاءً؛ ليظهر علمه فيهم، فيجازيهم بما ظهر منهم، لا بما يعلمه بمجردة؛ لأنهم قد يحتجون على الله أنهم لو ابتلوا لثبتوا.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلنَحْمِلَ خَطِيئَتَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ أَلْفَيْكُمْ عَمَّا كَانُوا يَقْتُرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

(٢) في (ب): «خبركم».

(١) في (ب): «عباده».

﴿١٢﴾ يخبر تعالى عن افتراء الكفار ودعوتهم للمؤمنين إلى دينهم، وفي ضمن ذلك تحذير المؤمنين من الاغترار بهم والوقوع في مكرهم، فقال: ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا أتبعوا سبيلنا﴾: فاتركوا دينكم أو بعضه، وأتبعونا في ديننا؛ فإننا نضمن لكم الأمر، ونحمل ﴿خطاياكم﴾: وهذا الأمر ليس بأيديهم؛ فلماذا قال: ﴿وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء﴾: لا قليل ولا كثير؛ فهذا التحمل ولو رضي به صاحبه؛ فإنه لا يفيد شيئاً؛ فإن الحق لله، والله تعالى لم يمكن العبد من التصرف في حقه إلا بأمره وحكمه، وحكمه أن لا تزر وازرة وزر أخرى.

﴿١٣﴾ ولما كان قوله: ﴿وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء﴾: قد يتوهم منه أيضاً أن الكفار الداعين إلى كفرهم - ونحوهم ممن دعا إلى باطله - ليس عليهم إلا ذنبهم الذي ارتكبه دون الذنب الذي فعله غيرهم، ولو كانوا متسببين فيه؛ قال محترزاً عن هذا الوهم: ﴿ولئحمله أثقالهم﴾؛ أي: أثقال ذنوبهم التي عملوها، ﴿وأثقالاً مع أثقالهم﴾: وهي الذنوب التي بسببهم ومن جرأتهم؛ فالذنب الذي فعله التابع لكل من التابع والمتبوع حصّة منه: هذا لأنه فعله وباشره، والمتبوع لأنه تسبّب في فعله ودعا إليه؛ كما أن الحسنة إذا فعلها التابع له أجرها بالمباشرة وللداعي أجره بالتسبب، ﴿وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون﴾: من الشرّ وتزيينه وقولهم: ﴿ولنحمل خطاياكم﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَجْنَيْنَهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿١٤﴾ يخبر تعالى عن حكمه وحكمته في عقوبات <sup>(١)</sup> الأمم المكذبة، وأن الله أرسل عبده ورسوله نوحاً عليه [الصلاة و] السلام إلى قومه يدعوهم إلى التوحيد وإفراد الله بالعبادة والنهي عن الأنداد والأصنام، ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ﴾: نبياً داعياً ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾: وهو لا يني بدعوتهم ولا يفتّر في نصحهم؛ يدعوهم ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، فلم يرشدوا ولا <sup>(٢)</sup> اهتدوا بل استمروا على كفرهم وطغيانهم، حتى دعا عليهم نبيهم نوح عليه الصلاة والسلام مع شدة صبره وحلمه واحتماله، فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَارًا﴾، ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾؛ أي:

(١) في (ب): «عقوبة».

(٢) في (ب): «ولم».

الماء الذي نزل من السماء بكثرة وتَبَع<sup>(١)</sup> من الأرض بشدة، ﴿وهم ظالمون﴾؛ مستحقون للعذاب.

﴿١٥﴾ ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾: الذين ركبوا معه؛ أهله ومن آمن به، ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾؛ أي: السفينة أو قصة نوح ﴿آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾: يعتبرون بها على أن مَنْ كَذَّبَ الرسلَ آخِرُ أمرِهِ الهلاكُ، وأنَّ المؤمنين سيَجعلُ اللهُ لهم من كلِّ هَمٍّ فرجاً ومن كلِّ ضيقٍ مخرجاً، وجعل اللهُ أيضاً السفينة؛ أي: جنسها آيةً للعالمين؛ يعتبرون بها رحمة ربهم الذي قيَّضَ لهم أسبابها، ويسَّرَ لهم أمرها، وجعلها تحملهم، وتحویلُ متاعهم من محلِّ إلى محلِّ، ومن قطر إلى قطر.

﴿وَأَبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقَابُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنْشَأَ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿١٦﴾ يذكر تعالى أنه أرسل خليله إبراهيم عليه السلام إلى قومه يدعوهم إلى الله، فقال لهم<sup>(٢)</sup>: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾؛ أي: وحده وأخلصوا له العبادة وامتلوا ما أمركم به، ﴿واتقوه﴾: أن يغضب عليكم فيعذبكم، وذلك بترك ما يغضبه من المعاصي. ﴿ذلكم﴾؛ أي: عبادة الله وتقواه ﴿خير لكم﴾: من ترك ذلك، وهذا من باب إطلاق أفعال التفضيل بما ليس في الطرف الآخر منه شيء؛ فإن تَرَكَ عبادة الله وتَرَكَ تقواه لا خير فيه بوجه، وإنما كانت عبادة الله وتقواه خيراً للناس لأنه لا سبيل إلى نيل كرامته في الدنيا والآخرة إلا بذلك، وكلُّ خيرٍ يوجد في الدنيا والآخرة؛ فإنه من آثار عبادة الله وتقواه. ﴿إن كنتم تعلمون﴾: ذلك؛ فاعلموا الأمور، وانظروا ما هو أولى بالإيثار.

(١) في (ب): «فتبع».

(٢) في (ب): «فقال».

﴿١٧ - ١٨﴾ فلَمَّا أمرهم بعبادة الله وتقواه؛ نهاهم عن عبادة الأصنام، وبيّن لهم نقصها وعدم استحقاقها للعبودية، فقال: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكَاءً﴾: تنجثونها، وتخلقونها بأيديكم، وتخلقون لها أسماء الآلهة، وتختلقون الكذب بالأمر بعبادتها والتمسك بذلك. ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فِي نَقْصِهِ وَأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ مَا يَدْعُو إِلَىٰ عِبَادَتِهِ، ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾: فكأنه قيل: قد بان لنا أنّ هذه الأوثان مخلوقة ناقصة لا تملك نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وأنّ من هذا وصفه لا يستحقّ أدنى أدنى مثقال مثقال ذرة من العبادة والتأله، والقلوب لا بدّ أن تطلب معبوداً تأله وتساله حوائجها. فقال حاثاً لهم على من يستحقّ العبادة: ﴿فَاتَّبِعُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾: فإنه هو الميسر له المقدر المجيب لدعوة من دعاه لمصالح دينه ودنياه، ﴿وَاعْبُدُوهُ﴾: وحده لا شريك له؛ لكونه الكامل النافع الضارّ المتفرد بالتدبير، ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾: وحده؛ لكون جميع ما وصل ويصل إلى الخلق من النعم فمنه، وجميع ما اندفع ويندفع من النقم عنهم؛ فهو الدافع لها. ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: فيجازيكم<sup>(١)</sup> على ما عملتم، وينبئكم بما أسررتم وأعلنتم؛ فاحذروا القدوم عليه وأنتم على شرككم، وازعّبوا فيما يقرّبكم إليه ويشيكم عند القدوم عليه.

﴿١٩﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يَعِيدُهُ﴾: يوم القيامة. ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يَعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾.

﴿٢٠﴾ ﴿قُلْ﴾: لهم إن حصل معهم ربّ وشكّ في الابتداء: ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾: بأبدانكم وقلوبكم، ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾: فأنكم ستجدون أمماً من الأدميين والحيوانات لا تزال توجد شيئاً فشيئاً، وتجدون النبات والأشجار كيف تحدث وقتاً بعد وقت، وتجدون السحاب والرياح ونحوها مستمرة في تجددها، بل الخلق دائماً في بدء وإعادة؛ فانظر إليهم وقت موتهم الصغرى - النوم -؛ وقد هجم عليهم الليل بظلامه، فسكنت منهم الحركات، وانقطعت منهم الأصوات، وصاروا في فرشهم ومأواهم كالميتين، ثم إنهم لم يزالوا على ذلك طول ليلهم حتى انفلق الأصباح، فانتبهوا من رقدتهم، وبعثوا من موتهم؛ قائلين: الحمد لله الذي أحيانا

(١) في (ب): «يجازيكم».

بعدما أماتنا وإليه التُّشور. ولهذا قال: ﴿ثُمَّ اللَّهُ﴾: بعد الإعادة ﴿يُنشِئُ النُّشَاءَ الآخرة﴾: وهي النُّشَاءُ التي لا تُقْبَلُ موتاً ولا نوماً، وإِنَّمَا هو الخلودُ والدوامُ في إحدى الدارين. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: فقدرته تعالى لا يُعْجِزُهَا شَيْءٌ، وكما قَدَرَ بها على ابتداءِ الخلق؛ فقدرته على الإعادة من باب أولى وأحرى.

﴿٢١﴾ ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾؛ أي: هو المنفرد بالحكم الجزائي، وهو إثابةُ الطائعين ورحمتهم، وتعذيبُ العاصين والتنكيل بهم، ﴿وإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾؛ أي: ترجعونَ إلى الدار التي بها تجري عليكم أحكام عذابه ورحمته، فاكْتَسَبُوا في هذه الدار ما هو من أسباب رحمته من الطاعات، وابتعدوا من أسباب عذابه وهو المعاصي.

﴿٢٢﴾ ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾؛ أي: يا هؤلاء المكذَّبون المتجرِّؤون على المعاصي! لا تحسبوا أنه مغفولٌ عنكم أو أنكم معجزون<sup>(١)</sup> لله في الأرض ولا في السماء؛ فلا تُعْزِئْكُمْ قدرتكم وما زينت لكم أنفسكم وخذعتكم من النجاة من عذاب الله، فليستُم بمعجزينَ الله في جميع أقطار العالم، ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾: يتولَّأكم فيحصلَ لكم مصالح دينكم ودنياكم. ﴿وَلَا نَصِيرٌ﴾: ينصركم فيدفع عنكم المكاره.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَسْأَوْنَ مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿٢٣﴾ يخبر تعالى من هم الذين زال عنهم الخَيْرُ وَحَصَلَ لَهُمُ الشَّرُّ، وأنهم الذين كفروا به وبرسله وبما جاؤوهم به، وكذَّبوا بلقاء الله، فليس عندهم إلا الدنيا؛ فلذلك أقدموا<sup>(٢)</sup> على ما أقدموا عليه من الشرك والمعاصي؛ لأنه ليس في قلوبهم ما يخوفهم من عاقبة ذلك، ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ يَسْأَوْنَ مِنْ رَحْمَتِي﴾؛ أي: فلذلك لم يعملوا سبباً واحداً يُحْصِلُونَ به الرحمة، وإلَّا؛ فلو طمعوا في رحمته؛ لعملوا لذلك أعمالاً.

والإياس من رحمة الله من أعظم المحاذير، وهو نوعان: إياسُ الكفَّار منها وتركهم جميع سبب يقربهم منها. وإياسُ العصاة بسبب كثرة جنایاتهم أو حشَّتْهُمْ فمَلَكَتْ قلوبهم، فأحدث لها الإياس. ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: مؤلم موجه.

(٢) في (ب): «قدموا».

(١) في (ب): «أو معجزين الله».

وكان هذه الآياتِ معترضاتٍ بين كلام إبراهيم لقومه وردّهم عليه، والله أعلم بذلك.

﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَصِيرَةٍ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿٢٤﴾ أي: فما كان مجاوبة قوم إبراهيم لإبراهيم<sup>(١)</sup> حين دعاهم إلى ربه قبول دعوتيه والاهتداء بنصحه ورؤية نعمة الله عليهم بإرساله إليهم، وإنما كان مجاوبتهم له شرّاً مجاوبة، ﴿قالوا اقتلوه أو حرقوه﴾: أشنع القتلات، وهم أناس مقتدرون، لهم السلطان، فآلقوه في النار، ﴿فأنجاه الله﴾: منها. ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾: فيعلمون صحّة ما جاءت به الرسل وبرّهم ونصحهم وبطلان قول من خالفهم وناقضهم، وأن المعارضين للرسل كأنهم تواصوا وحث بعضهم بعضاً على التكذيب.

﴿٢٥﴾ وقال: لهم إبراهيم في جملة ما قاله من نصحه: ﴿إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودةً بينكم في الحياة الدنيا﴾؛ أي: غاية ذلك مودة في الدنيا ستنتقطع وتضمحل، ﴿ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً﴾؛ أي: يتبرأ كل من العابدين والمعبودين من الآخر، وإذا حشر الناس؛ كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين؛ فكيف تتعلّقون بمن يعلم أنه سيتبرأ من عابديه، ويلعنهم. وأن ماوى الجميع العابدين والمعبودين ﴿النار﴾: وليس أحد ينصّرهم من عذاب الله، ولا يدفع عنهم عقابه.

﴿فَقَامَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَيْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَعَاقَبْتَهُ أَجْرًا فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿٢٦﴾ أي: لم يزل إبراهيم عليه الصلاة والسلام يدعو قومه، وهم مستمرّون

(١) في (ب): «إبراهيم».

على عنادهم؛ إلا أنه آمن له بدعوته لوط الذي نبأه الله وأرسله إلى قومه كما سيأتي ذكره، ﴿وقال﴾: إبراهيم حين رأى أن دعوة قومه لا تفيدهم شيئاً: ﴿إني مهاجرٌ إلى ربي﴾؛ أي: هاجر أرض السوء، ومهاجرٌ إلى الأرض المباركة، وهي الشام. ﴿إنه هو العزيز﴾؛ أي: الذي له القوة، وهو يقدر على هدايتكم، ولكنه حكيم، ما اقتضت حكمته ذلك.

ولما اعتزلهم وفارقهم وهم بحالهم؛ لم يذكر الله عنهم أنه أهلكهم بعذاب، بل ذكر اعتزاله إياهم وهجرته من بين أظهرهم، فأما ما يُذكر في الإسرائيليات أن الله تعالى فتح على قومه باب البعوض، فشرب دماءهم، وأكل لحومهم، وأتلفهم عن آخرهم؛ فهذا يتوقف الجزم به على الدليل الشرعي، ولم يوجد؛ فلو كان الله استأصلهم بالعذاب؛ لذكره كما ذكر إهلاك الأمم المكذبة، ولكن هل من أسرار ذلك أن الخليل عليه السلام من أرحم الخلق وأفضلهم وأحلمهم وأجلهم؛ فلم يدع على قومه كما دعا غيره، ولم يكن الله ليخزي بسببه عذاباً عاماً؟ ومما يدل على ذلك أنه راجع الملائكة في إهلاك قوم لوط، وجادلهم، ودافع عنهم، وهم ليسوا قومه. والله أعلم بالحال.

﴿٢٧﴾ ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب﴾؛ أي: بعدما هاجر إلى الشام، ﴿وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾: فلم يأت بعده نبي إلا من ذريته، ولا نزل كتاب إلا على ذريته، حتى ختموا بابنه محمد ﷺ وعليهم أجمعين. وهذا من أعظم المناقب والمفاخر، أن تكون مواد الهداية والرحمة والسعادة والفلاح والفوز في ذريته، وعلى أيديهم اهتدى المهتدون، وآمن المؤمنون، وصلاح الصالحون، ﴿وآتيناها أجره في الدنيا﴾: من الزوجة الجميلة فائقة الجمال، والرزق الواسع، والأولاد الذين بهم قرئت عينه، ومعرفة الله ومحبة والإجابة إليه. ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾: بل هو ومحمد صلى الله عليهما وسلم أفضل الصالحين على الإطلاق وأعلاهم منزلة. فجمع الله له بين سعادة الدنيا والآخرة.

﴿ولو طأ إذ قال لقومي إنكم لتأتون الفحشاء ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ (٢٨) ﴿إنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر فما

كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَأَتَيْنَا بَعْدَ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ [وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا مَحْرُوبٌ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا تُرِيدُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِوَى يَوْمِهِمْ وَضَافَ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالُوا لَا تَحْزَنْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيُكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا تَكُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِمَّنِ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾] (١).

تقدّم أن لوطاً عليه السلام آمن لإبراهيم وصار من المهتدين به، وقد ذكروا أنه ليس من ذرية إبراهيم، وإنما هو ابن أخي إبراهيم؛ فقله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾: وإن كان عامًّا؛ فلا يناقض كون لوط نبيًّا رسولاً، وهو ليس من ذرّيته؛ لأنّ الآية جيء بها لسياق المدح والثناء على الخليل، وقد أخبر أن لوطاً اهتدى على يديه، ومن اهتدى على يديه؛ أكمل ممّن اهتدى من ذرّيته بالنسبة إلى فضيلة الهادي. والله أعلم.

﴿٢٨ - ٢٩﴾ فأرسل الله لوطاً إلى قومه، وكانوا مع شركهم قد جمعوا بين فعل الفاحشة في الذكور وتقطيع السبيل وفُسُو المُنْكَرَاتِ فِي مَجَالِسِهِمْ، فنصحهم لوط عن هذه الأمور، وبيّن لهم قبائحها في نفسها وما تؤول إليه من العقوبة البليغة، فلم يزعموا ولم يذكروا. ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَأَتَيْنَا بَعْدَ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

﴿٣٠ - ٣٥﴾ فأيس منهم نبيهم، وعلم استحقاقهم العذاب، وجزع من شدة تكذيبهم له، فدعا عليهم، و﴿قال رب انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾: فاستجاب الله دعاءه، فأرسل الملائكة لإهلاكهم، فمروا بإبراهيم قبل ذلك، وبشروه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، ثم سألهم إبراهيم: أين يريدون؟ فأخبروه أنهم يريدون إهلاك قوم لوط، فجعل يراجعهم ويقول: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾، فقالوا له: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا تَكُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾: ثم مَضَوْا حَتَّى أَتَوْا

(١) ما بين المعقوفتين زيادة لا توجد في (أ). وفي (ب): إلى آخر القصة.



لوطاً، فسأه مجيئهم، وضاق بهم ذرعاً؛ بحيث إنه لم يعرفهم، وظنَّ أنهم من جملة أبناء السبيل الضيوف، فخاف عليهم من قومه، فقالوا له: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾: وأخبروه أنهم رسل الله، ﴿إِنَّا مَنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ. إِنَّا نُنزِلُكَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رَجُلًا﴾؛ أي: عذاباً ﴿مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾: فأمروه أن يسري بأهله ليلاً، فلما أصبحوا؛ قلب الله عليهم ديارهم، فجعل عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارةً من سجيل متتابعة حتى أبادتهم وأهلكتهم فصاروا سمرأ من الأسمار وعبرةً من العبر. ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾؛ أي: تركنا من ديار قوم لوط آثاراً بيّنة لقوم يعقلون العبر بقلوبهم فينتفعون بها؛ كما قال تعالى: ﴿وَرَأَيْتُمْ لَتْمُورَنَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ. وَبِاللَّيْلِ أَفْلًا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ مَدْيَنَ فَتَلَّوْا فِي الْأَرْضِ مَكِيدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذْتُمُ الرِّجْفَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جثيمين ﴿٣٧﴾﴾.

﴿٣٦ - ٣٧﴾ أي: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى مدين﴾: القبيلة المعروفة المشهورة ﴿شعيباً﴾: فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، والإيمان بالبعث ورجائه والعمل له، ونهاهم عن الإفساد في الأرض ببخس المكاييل والموازين والسعي بقطع الطرق. ﴿فكذبوه﴾: فأخذهم عذاب الله، ﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾.

﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَّيَّرَ لَكُمْ مِنْ مَسْكِنِهِمْ وَرَزَقَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَدْرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُؤْمِنُونَ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَافِرِينَ ﴿٣٩﴾ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿٣٨﴾ أي: وكذلك ما فعلنا بعد عاد وثمود، وقد علمت<sup>(١)</sup> قصصهم، وتبين لكم بشيء تشاهدونه بأبصاركم من مساكنهم وآثارهم التي بانوا عنها، وقد جاءتهم رسلهم بالآيات البينات المفيدة للبصيرة، فكذبوهم وجادلوهم، وزين لهم الشيطان

(١) في (ب): «علمتم».

عملهم، حتى ظنوا أنه أفضل مما جاءتهم به الرسل.

﴿٣٩﴾ وكذلك قارون وفرعون وهامان، حين بعث الله إليهم موسى بن عمران بالآيات البينات والبراهين الساطعات، فلم ينقادوا، واستكبروا في الأرض على عباد الله فأذئوهم، وعلى الحق فردوه فلم يقدروا على النجاء حين نزلت بهم العقوبة. ﴿وما كانوا سابقين﴾: الله ولا فائتين، بل سلّموا واستسلموا.

﴿٤٠﴾ ﴿فكلاً﴾: من هؤلاء الأمم المكذبة ﴿أخذنا بذنبيه﴾: على قدره وبعقوبة مناسبة له، ﴿فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً﴾؛ أي: عذاباً يخصبهم كقوم عاد حين أرسل الله ﴿عليهم الريح العقيم﴾ و﴿سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾، ﴿ومنهم من أخذته الصيحة﴾: كقوم صالح، ﴿ومنهم من خسفنا به الأرض﴾: كقارون، ﴿ومنهم من أغرقنا﴾: كفرعون وهامان وجنودهما. ﴿وما كان الله﴾؛ أي: ما ينبغي ولا يليق به تعالى أن يظلمهم لكمال عدله وغناه التام عن جميع الخلق، ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾: منعوها حقها التي هي بصدده؛ فإنها مخلوقة لعبادة الله وحده؛ فهؤلاء وضعوها في غير موضعها، وسغلوها<sup>(١)</sup> بالشهوات والمعاصي، فضرّوها غاية الضرر من حيث ظنوا أنهم ينفعونها.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿٤١﴾ هذا مثل ضربه الله لمن عبد معه غيره يقصد به التعزُّز والتقوي والنفع، وأن الأمر بخلاف مقصوده؛ فإن مثله كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً يقيمها من الحر والبرد والآفات، ﴿وإن أوهن البيوت﴾: أضعفها وأوهاها ﴿لبيت العنكبوت﴾: فالعنكبوت من الحيوانات الضعيفة، وبيتها من أضعف البيوت؛ فما ازدادت باتخاذها إلا ضعفاً.

كذلك هؤلاء الذين يتخذون من دونه أولياء فقراء عاجزون من جميع الوجوه،

(١) في (ب): «وأشغلوها».

وحين اتَّخَذُوا الأولياء من دونه يتعزَّزون بهم ويستنصرونهم؛ ازدادوا ضَعْفًا إلى ضعفهم ووهناً إلى وهنهم؛ فإنَّهم اتَّكَلُوا عليهم في كثير من مصالحهم، وألقَوْها عليهم، وتخلَّوْا هم عنها؛ على أنَّ أولئك سيقومون بها، فخذلوهم، فلم يحصلوا منهم على طائل، ولا أنالوهم من معونتهم أقلَّ نائل؛ فلو كانوا يعلمون حقيقة العلم حالهم وحال من اتَّخذوهم؛ لم يتَّخذوهم، ولتبرؤوا منهم، ولتولَّوا الربَّ القادر الرحيم، الذي إذا تولَّاه عبده وتوكَّل عليه؛ كفاه مؤونة دينه ودنياه، وازداد قوَّة إلى قوَّته في قلبه وبدنه<sup>(١)</sup> وحاله وأعماله.

﴿٤٢﴾ ولَمَّا بَيَّنَّ نِهَآيَةَ ضَعْفِ آلِهَةِ الْمُشْرِكِينَ؛ ارتقى من هَذَا إِلَى مَا هُوَ أْبْلَغُ مِنْهُ، وَأَنَّهَا لَيْسَ بِشَيْءٍ، بَلْ هِيَ مَجْرَدُ أَسْمَاءٍ سَمَّوْهَا وَظَنُّونَ اعْتَقَدُوهَا، وَعِنْدَ التَّحْقِيقِ يَتَبَيَّنُ لِلْعَاقِلِ بَطْلَانُهَا وَعَدَمُهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾؛ أَي: إِنَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ - وَهُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ - أَنَّهُمْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شَيْئًا مَوْجُودًا وَلَا إِلَهًا لَهُ حَقِيقَةٌ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾: الَّذِي لَهُ الْقُوَّةُ جَمِيعًا، الَّتِي قَهَرَ بِهَا جَمِيعَ الْخَلْقِ. ﴿الْحَكِيمُ﴾: الَّذِي يَضَعُ الْأَشْيَاءَ مَوَاضِعَهَا، الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَأَتَقَنَ مَا أَمَرَهُ.

﴿٤٣﴾ ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لَضَرِبِهَا لِلنَّاسِ﴾؛ أَي: لِأَجْلِهِمْ وَلِانْتِفَاعِهِمْ وَتَعْلِيمِهِمْ؛ لِكُونِهَا مِنَ الطَّرِيقِ الْمَوْضُوحَةِ لِلْعُلُومِ؛ لِأَنَّهَا تُقَرِّبُ الْأُمُورَ الْمَعْقُولَةَ بِالْأُمُورِ الْمَحْسُوسَةِ، فَيَتَّضِحُ الْمَعْنَى الْمَطْلُوبُ بِسَبَبِهَا؛ فَهِيَ مَصْلُحَةٌ لِعَمُومِ النَّاسِ. ﴿و﴾ لَكِنْ ﴿مَا يَعْقِلُهَا﴾: لِفَهْمِهَا وَتَدْبِيرِهَا وَتَطْبِيقِهَا عَلَى مَا ضَرِبَتْ لَهُ وَعَقَلَهَا فِي الْقَلْبِ ﴿إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾؛ أَي: إِلَّا أَهْلَ الْعِلْمِ الْحَقِيقِيِّ، الَّذِينَ وَصَلَ الْعِلْمُ إِلَى قُلُوبِهِمْ. وَهَذَا مَدْحٌ لِلْأَمْثَالِ الَّتِي يَضْرِبُهَا، وَحَثٌّ عَلَى تَدْبِيرِهَا وَتَعْقِلِهَا، وَمَدْحٌ لِمَنْ يَعْقِلُهَا، وَأَنَّهُ عِنَاةٌ عَلَى أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، فَعَلِمَ أَنَّ مَنْ لَمْ يَعْقِلْهَا لَيْسَ مِنَ الْعَالِمِينَ.

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْأَمْثَالَ الَّتِي يَضْرِبُهَا اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ إِنَّمَا هِيَ لِلْأُمُورِ الْكِبَارِ وَالْمَطَالِبِ الْعَالِيَةِ وَالْمَسَائِلِ الْجَلِيلَةِ، فَأَهْلُ الْعِلْمِ يَعْرِفُونَ أَنَّهَا أَهْمٌ مِنْ غَيْرِهَا؛ لِاعْتِنَاءِ اللَّهِ بِهَا، وَحَثِّ عِبَادِهِ عَلَى تَعْقِلِهَا وَتَدْبِيرِهَا، فَيَبْذُلُونَ جَهْدَهُمْ فِي مَعْرِفَتِهَا،

(١) فِي (ب): «وَفِي بَدَنِهِ».

وأما من لم يَعْقِلْهَا مع أهميتها؛ فَإِنَّ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَعْرِفِ الْمَسَائِلَ الْمَهْمَةَ، فَعَدَمُ مَعْرِفَتِهِ غَيْرَهَا مِنْ بَابِ أَوْلَى وَأَحْرَى، وَلِهَذَا أَكْثَرُ مَا يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ فِي أَصُولِ الدِّينِ وَنَحْوِهَا.

﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٤).

﴿٤٤﴾ أي: هو تعالى المنفردُ بخلق السماواتِ على علوِّها وارتفاعها وسَعَتِهَا وحبسها وما فيها من الشمس والقمر والكواكب والملائكة، والأرض وما فيها من الجبال والبحار والبراري والقفار والأشجار ونحوها، وكلُّ ذَلِكَ خَلَقَهُ بِالْحَقِّ؛ أي: لَمْ يَخْلُقْهَا عَبَثًا وَلَا سُدَى وَلَا لغير فائدة، وإنَّما خَلَقَهَا ليقوم أمره وشرعُه، ولتتمَّ نعمته على عباده، وليروا من حكمته وقهره وتديبيره ما يدلُّهم على أَنَّهُ وَحْدَهُ مَعْبُودُهُمْ وَمَحْبُوبُهُمْ وَالْهَمُّ. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: على كثير من المطالب الإيمانية، إذا تدبَّرها المؤمن؛ رأى ذلك فيها عياناً.

﴿أَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (٤٥).

﴿٤٥﴾ يأمر تعالى بتلاوة وحيه وتنزيله، وهو هذا الكتاب العظيم، ومعنى تلاوته: أتباعه بامثال ما يأمر به واجتناب ما ينهى [عنه]، والاهتداء بهداه، وتصديق أخباره، وتدبُّر معانيه، وتلاوة ألفاظه. فصار تلاوة لفظه جزء المعنى وبعضه، وإذا كان هذا معنى تلاوة الكتاب؛ عَلِمَ أَنَّ إقامَةَ الدِّينِ كُلُّهُ دَاخِلَةٌ فِي تِلَاوَةِ الْكِتَابِ، فيكون قوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾: من باب عطف الخاصِّ على العامِّ؛ لفضل الصلاة وشرفها وآثارها الجميلة، وهي: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾: فالفحشاء كلُّ ما استُعْظِمَ واستُفْجِحَ من المعاصي التي تشتهيها النفوس، والمنكر كلُّ معصية تُنْكِرُهَا الْعُقُولُ وَالْفِطْرُ.

ووجه كون الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر: أَنَّ الْعَبْدَ الْمُقِيمَ لَهَا الْمُتَمِّمَ لِأركانها وشروطها وخشوعها يستبْرِئُ قَلْبَهُ وَيَتَطَهَّرُ فؤاده ويزداد إيمانه وتقوى رغبته في الخير وتقلُّ أو تعدم رغبته في الشرِّ؛ فبالضرورة مداومتها، والمحافظة عليها على هذا الوجه تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ فهذا من أعظم مقاصد الصلاة<sup>(١)</sup> وثمراتها.

(١) في (ب): «أعظم مقاصدها».

وَتَمَّ فِي الصَّلَاةِ مَقْصُودٌ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا وَأَكْبَرُ، وَهُوَ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْبَدَنِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِنَّمَا خَلَقَ الْعِبَادَةَ<sup>(١)</sup> لِعِبَادَتِهِ، وَأَفْضَلُ عِبَادَةٍ تَقَعُ مِنْهُمْ الصَّلَاةُ، وَفِيهَا مِنْ عِبُودِيَّاتِ الْجَوَارِحِ كُلِّهَا مَا لَيْسَ فِي غَيْرِهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾: وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ لَمَّا أَمَرَ بِالصَّلَاةِ وَمَدَحَهَا؛ أَخْبَرَ أَنَّ ذِكْرَهُ تَعَالَى خَارِجَ الصَّلَاةِ أَكْبَرُ مِنَ الصَّلَاةِ؛ كَمَا هُوَ قَوْلُ جَمْهُورِ الْمُفَسِّرِينَ، لَكِنَّ الْأَوَّلَ أَوْلَى؛ لِأَنَّ الصَّلَاةَ أَفْضَلَ مِنَ الذِّكْرِ خَارِجِهَا، وَلَائِذَا - كَمَا تَقَدَّمَ - بِنَفْسِهَا مِنْ أَكْبَرِ الذِّكْرِ. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾: مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، فَيَجَازِيكُمْ عَلَى ذَلِكَ أَكْمَلَ الْجِزَاءِ وَأَوْفَاهُ.

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَاللَّهُنَّ وَاللَّهُمَّ وَبِحَدِّ وَنَحْنُ لَكُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (٤٦).

﴿٤٦﴾ ينهى تعالى عن مجادلة أهل الكتاب إذا كانت عن غير بصيرة من المجادل أو بغير قاعدة مرضية، وأن لا يجادلوا إلا بالتي هي أحسن؛ بحسن خلق ولطف ولين كلام ودعوة إلى الحق وتحسينه، ورد عن الباطل وتهجينه بأقرب طريق موصل لذلك، وأن لا يكون القصد منها مجرد المجادلة والمغالبة وحب العلو، بل يكون القصد بيان الحق وهداية الخلق، ﴿إِلَّا﴾: مَنْ ظَلَمَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ؛ بَأَنَّ ظَهَرَ مِنْ قَصْدِهِ وَحَالِهِ أَنَّهُ لَا إِرَادَةَ لَهُ فِي الْحَقِّ، وَإِنَّمَا يَجَادِلُ عَلَى وَجْهِ الْمَشَاغِبَةِ وَالْمِغَالِبَةِ؛ فَهَذَا لَا فَائِدَةَ فِي جِدَالِهِ؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْهَا ضَائِعٌ، ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَاللَّهُنَّ وَاللَّهُمَّ وَبِحَدِّ﴾؛ أَي: وَلَتَكُنْ مِجَادِلَتُكُمْ لِأَهْلِ الْكِتَابِ مَبْنِيَّةً عَلَى الْإِيمَانِ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَأُنزِلَ إِلَيْهِمْ، وَعَلَى الْإِيمَانِ بِرَسُولِكُمْ وَرَسُولِهِمْ، وَعَلَى أَنَّ الْإِلَهَ وَاحِدٌ، وَلَا تَكُنْ مَنَاطِرَتُكُمْ إِيَّاهُمْ عَلَى وَجْهِ يَحْضُلُ بِهِ الْقَدْحُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ أَوْ بِأَحَدٍ مِنَ الرُّسُلِ كَمَا يَفْعَلُهُ الْجَهْلَةُ عِنْدَ مَنَاطِرَةِ الْخُصُومِ يَقْدَحُ بِجَمِيعِ مَا مَعَهُمْ مِنْ حَقٍّ وَبَاطِلٍ؛ فَهَذَا ظَلَمٌ وَخُرُوجٌ عَنِ الْوَاجِبِ وَأَدَابِ النَّظَرِ؛ فَإِنَّ الْوَاجِبَ أَنْ يُرَدَّ مَا مَعَ الْخُصْمِ مِنَ الْبَاطِلِ، وَيُقْبَلَ مَا مَعَهُ مِنَ الْحَقِّ، وَلَا يُرَدُّ الْحَقُّ لِأَجْلِ قَوْلِهِ، وَلَوْ كَانَ كَافِرًا.

وأيضاً؛ فَإِنَّ بِنَاءَ مَنَاطِرَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَى هَذَا الطَّرِيقِ فِيهِ إِلْزَامٌ لَهُمْ بِالْإِقْرَارِ بِالْقُرْآنِ وَبِالرُّسُولِ الَّذِي جَاءَ بِهِ؛ فَإِنَّهُ إِذَا تَكَلَّمَ فِي الْأَصُولِ الدِّينِيَّةِ وَالَّتِي اتَّفَقَتْ عَلَيْهَا

(١) فِي (ب): «الخلق».

الأنبياء والكُتُب وتقرّرت عند المتناظرين وثبتت حقائقها عندهما وكانت الكتب السابقة والمرسلون مع القرآن ومحمد ﷺ قد بيّنتها، ودلّت عليها وأخبرت بها؛ فإنه يلزم التصديق بالكتب كلها والرسول كلهم، وهذا من خصائص الإسلام، فأما أن يُقال: نؤمن بما دلّ عليه الكتابُ الفلانيُّ دون الكتابِ الفلاني، وهو الحقُّ الذي صدّق ما قبله؛ فهذا ظلمٌ وهوى<sup>(١)</sup>، وهو يرجع إلى قوله بالتكذيب؛ لأنه إذا كذب القرآن الدالُّ عليها المصدق لما بين يديه من التوراة؛ فإنه مكذب لما زعم أنه به مؤمن. وأيضاً؛ فإن كلَّ طريق ثبت بها نبوة أي نبي كان؛ فإن مثلها وأعظم منها دالة على نبوة محمد ﷺ، وكلُّ شبهة يُقدح بها في نبوة محمد ﷺ؛ فإن مثلها أو<sup>(٢)</sup> أعظم منها يمكن توجيهها إلى نبوة غيره؛ فإذا ثبت بطلانها في غيره؛ فثبوت بطلانها في حقّه ﷺ أظهر وأظهر. وقوله: ﴿ونحنُ له مسلمون﴾؛ أي: متقادون مستسلمون لأمره، ومن آمن به واتّخذهُ إلهاً وآمن بجميع كتبه ورسوله وانقاد لله واتبع رسله؛ فهو السعيد، ومن انحرف عن هذا الطريق؛ فهو الشقي.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَامَنَتْهُمْ ءَالِكُتَابُ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِآتَابَ الْمُبِطُونَ ﴿٤٨﴾﴾ .

﴿٤٧﴾ أي: ﴿وكذلك أنزلنا إليك﴾: يا محمد، هذا ﴿الكتاب﴾ الكريم، المبيّن كلَّ نبأ عظيم، الداعي إلى كلِّ خُلُقٍ فاضلٍ وأمرٍ كامل، المصدّق للكتب السابقة، المخبر به الأنبياء الأقدمون، ﴿فالذين آتيناهم الكتاب﴾: فعرفوه حقَّ معرفته ولم يداخلهم حسدٌ وهوى، ﴿يؤمنون به﴾: لأنهم تيقنوا صدقه بما لديهم من الموافقات، وبما عندهم من البشارات، وبما تميّزوا به من معرفة الحسن والقبيح والصدق والكذب. ﴿ومن هؤلاء﴾: الموجودين ﴿من يؤمن به﴾: إيماناً عن بصيرة لا عن رغبة ولا رهبة، ﴿وما يجحدُ بآياتنا إلا الكافرون﴾: الذين دأبهم الجحود للحقِّ والعناد له، وهذا حصّر لمن كفر به؛ أنه لا يكون من أحدٍ قصده متابعه الحق، وإلا؛ فكلُّ مَنْ له قصدٌ صحيح؛ فإنه لا بدُّ أن يؤمن به؛ لما اشتمل عليه من البينات لكلِّ مَنْ له عقلٌ أو ألقى السمع وهو شهيد. ومما يدلُّ على صحته أنه جاء به هذا النبي الأمين، الذي عرّف قومه صدقه وأمانته ومدخله ومخرجه وسائر

(١) في (ب): «وجور».

(٢) في (ب): «و».

أحواله، وهو لا يكتب بيده خطأ، بل ولا<sup>(١)</sup> يقرأ خطأ مكتوباً، فإتيانه به في هذه الحال من أظهر البيّنات القاطعة التي لا تقبل الارتياب أنه من عند الله العزيز الحميد.

﴿٤٨﴾ ولهذا قال: ﴿وما كنت تتلو﴾؛ أي: تقرأ ﴿من قبله من كتاب ولا تحطه بيمينك إذا﴾: لو كنت بهذه الحال ﴿لارتاب المبطلون﴾: فقالوا تعلمه من الكتب السابقة أو استنسخه منها، فأما وقد نزل على قلبك كتاباً جليلاً تحدّيت به الفصحاء والبلغاء الأعداء الألداء أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله، فعجزوا غاية العجز، بل ولا حدّثتهم أنفسهم بالمعارضة؛ لعلمهم ببلاغته وفصاحته، وأنّ كلام أحد من البشر لا يبلغ أن يكون مجارياً له أو على منواله، ولهذا قال:

﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿٤٩﴾ أي: بل هذا القرآن ﴿آيات بينات﴾: لا خفيات ﴿في صدور الذين أوتوا العلم﴾: وهم سادة الخلق وعقلاؤهم، وأولو الألباب منهم والكامل منهم، فإذا كان آيات بينات في صدور أمثال هؤلاء؛ كانوا حجة على غيرهم، وإنكار غيرهم لا يضر، ولا يكون ذلك إلا ظلماً، ولهذا قال: ﴿وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾: لأنه لا يجحدّها إلا جاهل، تكلم بغير علم، ولم يقنّد بأهل العلم، وهو متمكّن من معرفته على حقيقته، وإمّا متجاهل عرف أنه حقّ فعانده، وعرف صدقه فخالفه.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُكَ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرًا لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَطْلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿٥٠﴾ أي: واعترض هؤلاء الظالمون المكذّبون للرسول ولما جاء به، واقترحوا عليه نزول آيات عينوها؛ كقولهم: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً...﴾ الآيات، فتعيين الآيات ليس عندهم ولا عند الرسول ﷺ؛ فإنّ في ذلك تدبيراً مع الله، وأنه لو كان كذا، وينبغي أن يكون كذا، وليس لأحد من الأمر شيء، ولهذا قال: ﴿قل إنّما<sup>(٢)</sup> الآيات عند الله﴾: إن شاء أنزلها أو منعها، ﴿وإنما

(١) في (ب): «خطأ ولا».

(٢) في (ب): «ولهذا قال: إنما...».

أنا نذيرٌ مبينٌ»: وليس لي مرتبة فوق هذه المرتبة. وإذا كان القصدُ بيانَ الحقِّ من الباطل؛ فإذا حصل المقصود بأيِّ طريق كان؛ كان اقتراحُ الآياتِ المعيناتِ على ذلك ظلماً وجوراً وتكبيراً على الله وعلى الحق، بل لو قُدِّرَ أن تنزلَ تلك الآياتِ ويكونَ في قلوبهم أنهم لا يؤمنون بالحقِّ إلا بها؛ كان ذلك ليس بإيمان، وإنما ذلك شيء وافق أهواءهم، فأمنوا لا لأنه حقٌّ، بل لتلك الآياتِ؛ فأبي فائدة حصلت في إنزالها على التقدير الفرضي؟

﴿٥١﴾ ولما كان المقصودُ بيانَ الحقِّ؛ ذكر تعالى طريقه، فقال: ﴿أولم يكفهم﴾: في علمهم بصدقك وصدق ما جئت به، ﴿أنا أنزلنا عليك الكتابَ يتلى عليهم﴾: وهذا كلامٌ مختصرٌ جامعٌ فيه من الآياتِ البيناتِ والدلالاتِ الباهراتِ شيءٌ كثير؛ فإنه كما تقدّم إتيانُ الرسولِ به بمجردِه وهو أميٌّ من أكبر الآياتِ على صدقه، ثم عجزهم عن معارضته وتحديهم إيَّاه<sup>(١)</sup> آيةً أخرى، ثم ظهوره وبروزه جهراً علانيةً يتلى عليهم، ويقالُ هو من عند الله، قد أظهره الرسول وهو في وقتٍ قلَّ فيه أنصاره وكثُرَ مخالفوه وأعداؤه؛ فلم يُخفِه، ولم يثنِ ذلك عزمه، بل صرَّح به على رؤوسِ الأشهاد، ونادى به بين الحاضر والباد؛ بأن هذا كلامُ ربي؛ فهل أحدٌ يقدر على معارضته أو ينطقُ بمباراته أو يستطيع مجاراته؟! ثم إخباره عن قصص الأولين وأبناء السالفين<sup>(٢)</sup> والغيوب المتقدِّمة والمتأخِّرة، مع مطابقته للواقع.

ثم هيمنتُه على الكتب المتقدِّمة وتصحيحُه للصحيح، ونفي ما أُدخِلَ فيها من التحريف والتبديل، ثم هدايته لسواء السبيل في أمره ونهيه؛ فما أمر بشيء فقال العقلُ: ليته لم يأمر به، ولا نهى عن شيءٍ فقال العقلُ: ليته لم ينه عنه، بل هو مطابقٌ للعدل والميزان والحكمة المعقولة لذوي البصائر والعقول، ثم مسابرةً إرشاداته وهدايته وأحكامه لكلِّ حال وكلِّ زمان بحيث لا تصلحُ الأمورُ إلا به؛ فجميع ذلك يكفي مَنْ أراد تصديقَ الحقِّ، وعَمِلَ على طلبِ الحقِّ؛ فلا كفى الله من لم يكفِه القرآن، ولا شفى الله من لم يشفِه الفرقان، ومن اهتدى به واكتفى؛ فإنه رحمةٌ له وخيرٌ<sup>(٣)</sup>؛ فلذلك قال: ﴿إن في ذلك لرحمةً وذكرى لقوم يؤمنون﴾: وذلك لما يحصلون فيه من العلم الكثير، والخير الغزير، وتزكية القلوب والأرواح،

(١) في (ب): «إياهم».

(٢) في (ب): «السابقين».

(٣) في (ب): «فإنه خير له».



وتطهير العقائد، وتكميل الأخلاق، والفتوحات الإلهية والأسرار الربانية.

﴿٥٢﴾ ﴿٥٢﴾ قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً: فأنا قد استشهدته؛ فإن كنت كاذباً؛ أحلّ بي ما به تعتبرون، وإن كان إنما يؤيدني، وينصرني، ويسرّ لي الأمور؛ فلتكفكم هذه الشهادة الجليلة من الله؛ فإن وقع في قلوبكم أن شهادته - وأنتم لم تسمّوه ولم تروّه - لا تكفي دليلاً؛ فإنه ﴿يعلم ما في السموات والأرض﴾: ومن جملة معلوماته حالي وحالكوم ومقالي لكم<sup>(١)</sup>؛ فلو كنت متقولاً عليه مع علمه بذلك وقدرته على عقوبتي؛ لكان قدحاً في علمه وقدرته وحكمته؛ كما قال تعالى: ﴿ولو نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقْوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾. ﴿والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون﴾: حيث خسرُوا الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وحيث فاتهم النعيم المقيم، وحيث حصل لهم في مقابلة الحقّ الصحيح كلُّ باطل قبيح، وفي مقابلة النعيم كلُّ عذاب أليم، فخسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة.

﴿وَسْتَجْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥٣)  
 ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٥٥).

﴿٥٣﴾ يخبر تعالى عن جهل المكذبين للرسول وما جاء به، وأنهم يقولون استعجالاً للعذاب وزيادة تكذيب: ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟﴾ يقول تعالى: ﴿ولولا أجلّ مسمى: مضروبٌ لنزوله ولم يأت بعد، ﴿لجاءهم العذاب﴾: بسبب تعجزهم لنا وتكذيبهم الحقّ؛ فلو أخذناهم بجهلهم؛ لكان كلامهم أسرع لبلائهم وعقوبتهم، ولكن مع ذلك؛ فلا يستبطئون<sup>(٢)</sup> نزوله فإنه سيأتيهم ﴿بغتة وهم لا يشعرون﴾ فوق كما أخبر الله تعالى، لما قدموا لبدري بطرين مفاخرين ظانين أنهم قادرون على مقصودهم، فأحانهم<sup>(٣)</sup> الله، وقتل كبارهم، واستوعب جملة أشرارهم، ولم يبق منهم بيت إلا أصابته تلك المصيبة، فاتاهم العذاب من حيث لم يحتسبوا، ونزل بهم وهم لا يشعرون.

(٢) في (ب): «فلا يستعجلون».

(١) في (ب): «ومقالكم».

(٣) أي: أهلكتهم.

﴿٥٤﴾ هذا؛ وإن لم ينزل عليهم العذاب الديني؛ فإن أمامهم العذاب الأخروي الذي لا يخلص منهم أحدٌ منه، سواء عوجِلَ بعذاب الدنيا أو أمهل، ف﴿إن جهنم لمحيطَةٌ بالكافرين﴾: ليس لهم عنه معدلٌ ولا متصرفٌ؛ قد أحاطت بهم من كل جانب كما أحاطت بهم ذنوبهم وسيئاتهم وكفرهم، وذلك العذاب هو العذاب الشديد.

﴿٥٥﴾ ﴿يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون﴾: فإن أعمالكم انقلبت عليكم عذاباً، وشملكم العذاب كما شملكم الكفرُ والذنوبُ.

﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعِبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِنَّا نَرْجِعُهُمْ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرٍ الْعَمَلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿٥٦ - ٥٩﴾ يقول تعالى: ﴿يا عبادي الذين آمنوا﴾: بي وصدقوا رسولي، ﴿إن أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعِبُدُونِ﴾: فإذا تعذرت عليكم عبادة ربكم في أرض؛ فارتحلوا منها إلى أرض أخرى؛ حيث كانت العبادة لله وحده؛ فأماكن العبادة ومواضعها واسعة، والمعبود واحد، والموت لا بد أن ينزل بكم، ثم ترجعون إلى ربكم، فيجازي من أحسن عبادته وجمع بين الإيمان والعمل الصالح بإنزاله الغرف العالية والمنازل الأنيقة الجامعة، لما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين، وأنتم فيها خالدون. فنعمة تلك المنازل في جنات النعيم أجر العاملين لله. ﴿الذين صبروا﴾: على عبادة الله ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾: في ذلك، فصبرهم على عبادة الله يقتضي بذل الجهد والطاقة في ذلك، والمحاربة العظيمة للشيطان، الذي يدعوهم إلى الإخلال بشيء من ذلك. وتوكلهم يقتضي شدة اعتمادهم على الله، وحسن ظنهم به أن يحقق ما عزموا عليه من الأعمال ويكملها. ونص على التوكل وإن كان داخلاً في الصبر؛ لأنه يحتاج إليه في كل فعل وتركٍ مأمور به، ولا يتم إلا به.

﴿وَكَايْنٍ مِّن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿٦٠﴾ أي: الباري تبارك وتعالى قد تكفل بأرزاق الخلائق كلهم قوتهم وعاجزهم؛ فكم ﴿من دابة﴾ في الأرض ضعيفة القوى ضعيفة العقل، ﴿لا تحمِلُ رزقها﴾: ولا تدخره، بل لم تنزل لا شيء معها من الرزق، ولا يزال الله يسخر لها

الرزق في كل وقت وبوقته. ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾: فكلكم عيال الله القائم برزقكم كما قام بِخَلْقِكُمْ وتديبيركم. ﴿وهو السميع العليم﴾: فلا تخفى<sup>(١)</sup> عليه خافية، ولا تهلك دابة من عدم الرزق بسبب أنها خافية عليه؛ كما قال تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين﴾.

﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فَاَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾  
اللَّهُ يَسِطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنْ أَرَادَ أَنْ يَنْزِلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿٦١ - ٦٣﴾ هذا استدلال على المشركين المكذبين بتوحيد الإلهية والعبادة، والزام لهم بما أثبتوه من توحيد الربوبية؛ فأنت لو ﴿سألتهم من خلق السموات والأرض﴾؟ ومن نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها؟ ومن بيده تدبير جميع الأشياء؟ ﴿ليقولن: الله﴾ وحده، ولا اعترفوا بعجز الأوثان ومن عبده مع الله على شيء من ذلك! فاعجب لإفكهم وكذبهم وعدولهم إلى من أقروا بعجزه وأنه لا يستحق أن يدبر شيئاً! وستجلى عليهم لعدم العقل، وأنهم السفهاء ضعفاء الأحلام! فهل تجد أضعف عقلاً وأقل بصيرة ممن أتى إلى حجر أو قبر ونحوه - وهو يدري أنه لا ينفع ولا يضر ولا يخلق ولا يرزق -، ثم صرف له خالص الإخلاص وصافي العبودية، وأشركه مع الرب الخالق الرازق النافع الضار؟! وقل: الحمد لله الذي بين الهدى من الضلال، وأوضح بطلان ما عليه المشركون؛ ليحذره الموقنون. وقل: الحمد لله الذي خلق العالم العلوي والسفلي، وقام بتديبرهم ورزقهم، وبسط الرزق على من يشاء، وضيقه على من يشاء حكماً منه، ولعلمه بما يصلح عباده، وما ينبغي لهم.

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُمْ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكَبُوا فِي الْفُلِكِ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَسْتَمْتَعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَنَحْنُطِفُ النَّاسَ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفِيَالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَنِعْمَةَ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ

(١) في (ب): «تخفى».

أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۗ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٥﴾ .

﴿٦٤﴾ يخبر تعالى عن حالة الدنيا والآخرة، وفي ضمن ذلك التزهيد في الدنيا والتشويق للأخرى، فقال: ﴿وما هذه الحياة الدنيا﴾: في الحقيقة ﴿إلا لهو ولعب﴾: تلهو بها القلوب، وتلعب بها الأبدان؛ بسبب ما جعل الله فيها من الزينة واللذات والشهوات الخالبة للقلوب المعرضة، الباهجة للعيون الغافلة، المفرحة للنفوس المبطلّة الباطلة، ثم تزول سريعاً وتنقضي جميعاً ولم يحصل منها محببها إلا على الندم والحسرة والخسران. وأما الدار الآخرة؛ فإنها دار ﴿الحيوان﴾؛ أي: الحياة الكاملة، التي من لوازمها أن تكون أبدان أهلها في غاية القوة، وقواهم في غاية الشدة؛ لأنها أبدان وقوى خُلقت للحياة، وأن يكون موجوداً فيها كل ما تكمل به الحياة، وتتم به اللذة من مفرحات القلوب وشهوات الأبدان من المآكل والمشارب والمناكح وغير ذلك، ممّا لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

﴿لو كانوا يعلمون﴾: لما آثروا الدنيا على الآخرة، ولو كانوا يعقلون؛ لما رغبوا عن دار الحيوان، ورغبوا في دار اللهو واللعب. فدل ذلك: أن<sup>(١)</sup> الذين يعلمون لا بد أن يؤثروا الآخرة على الدنيا؛ لما يعلمونه من حالة الدارين.

﴿٦٥ - ٦٦﴾ ثم ألزم تعالى المشركين بإخلاصهم لله في حال<sup>(٢)</sup> الشدة عند ركوب البحر وتلاطم أمواجه وخوفهم الهلاك؛ يتركون إذا أندادهم، ويخلصون الدعاء لله وحده لا شريك له، فلما زالت عنهم الشدة - ونجّاهم من أخلصوا له الدعاء إلى البرّ - أشركوا به من لا نجّاهم من شدة، ولا أزال<sup>(٣)</sup> عنهم مشقة؛ فهلاًّ أخلصوا لله الدعاء في حال الرخاء والشدة واليسر والعسر؛ ليكونوا مؤمنين به حقاً، مستحقّين ثوابه، مندفعاً عنهم عقابه، ولكن شركهم هذا بعد نعمتنا عليهم بالنجاة من البحر ليكون غاقبته كفر ما آتيناهم، ومقابلة النعمة بالإساءة، وليكملوا تمتعهم في الدنيا، الذي هو كتمتع الأنعام، ليس لهم هم إلا بطونهم وفروجهم. ﴿فسوف يعلمون﴾: حين يتقلّبون من الدنيا إلى الآخرة شدة الأسف وأليم العقوبة.

(٢) في (ب): «حالة».

(١) في (ب): «على أن».

(٣) في (ب): «زال».

﴿٦٧﴾ ثم امتنَّ عليهم بحرمه الآمن، وأنهم أهلُه في أمنٍ وسعةٍ ورزقٍ، والناس من حولهم يُتَخَطَّفُونَ ويخافون، أفلا يعبدونَ الذي أطعمهم من جوعٍ وآمَنَهم من خوفٍ؟! ﴿أفالباطل يؤمنون﴾: وهو ما هم عليه من الشركِ والأقوالِ والأفعالِ الباطلةِ، ﴿وبنعمَةِ اللَّهِ﴾: هم ﴿يكفرون﴾؟ فأينَ ذهبَت عقولهم، وانسلخت أحلامُهم حيث آثروا الضلالَ على الهدى، والباطلَ على الحقِّ والشَّقَاءَ على السعادةِ، وحيث كانوا أظلمَ الخلق؟!!

﴿٦٨﴾ فمن ﴿أظلم ممَّن افترى على الله كذباً﴾: فنسب ما هو عليه من الضلالِ والباطلِ إلى الله، ﴿وكذب بالحقِّ لما جاءه﴾: على يد رسوله محمدٍ ﷺ، ولكنَّ هذا الظالمَ العنيدَ أمامه جهنمُ، ﴿أليس في جهنمِ مثوىً للكافرين﴾: يُؤخَذُ بها منهم الحقُّ، ويخزُون بها، وتكون منزلهم الدائم الذي<sup>(١)</sup> لا يخرجون منه؟

﴿٦٩﴾ ﴿والذين جاهدوا فينا﴾: وهم الذين هاجروا في سبيلِ الله وجاهدوا أعداءهم وبدلوا مجهودهم في اتباع مرضاته؛ ﴿لنهديَنَّهُم سُبُلَنَا﴾؛ أي: الطرق الموصلة إلينا، وذلك لأنهم محسنون. والله مع المحسنين: بالعون والنصر والهداية.

دلَّ هذا على أنَّ أحرى الناس بموافقة الصواب أهلُ الجهاد، وعلى أنَّ مَنْ أحسنَ فيما أمرَ به؛ أعانه الله ويسرَّ له أسبابَ الهداية، وعلى أنَّ مَنْ جدَّ واجتهد في طلب العلم الشرعيِّ؛ فإنه يحصلُ له من الهداية والمعونة على تحصيل مطلوبه أمورٌ إلهيَّةٌ خارجةٌ عن مدرك اجتهاده، وتيسر له أمر العلم؛ فإنَّ طلب العلم الشرعيِّ من الجهاد في سبيلِ الله، بل هو أحدُ نوعي الجهاد، الذي لا يقومُ به إلا خواصُّ الخلق، وهو الجهادُ بالقول واللسان للكفار والمنافقين، والجهادُ على تعليم أمور الدين وعلى ردِّ نزاع المخالفين للحقِّ، ولو كانوا من المسلمين.

تم تفسير سورة العنكبوت - بحمد الله وعونه.



(١) في (ب): «الذين».

## تفسير سورة الروم

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الذِّكْرُ ١﴾ غَلَبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي آدَنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بَيْضِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعَدَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ .

﴿١ - ٥﴾ كانت الفرس والروم في ذلك الوقت من أقوى دول الأرض، وكان يكون بينهما من الحروب والقتال ما يكون بين الدول المتوازنة، وكانت الفرس مشركين يعبدون النار، وكانت الروم أهل كتاب ينتسبون إلى التوراة والإنجيل، وهم أقرب إلى المسلمين من الفرس، [فكان المؤمنون]<sup>(١)</sup> يحبون غلبتهم وظهورهم على الفرس، وكان المشركون لا اشتراكهم والفرس في الشرك يحبون ظهور الفرس على الروم، فظهر الفرس على الروم وغلبوهم<sup>(٢)</sup> غلباً لم يحط بمُلكهم بل بأدنى أرضهم، ففرح بذلك مشركو مكة وحزن المسلمون، فأخبرهم الله، ووعدهم أن الروم ستغلب الفرس ﴿في بضع سنين﴾: تسع أو ثمان ونحو ذلك مما لا يزيد على العشر ولا ينقص عن الثلاث، وأن غلبة الفرس للروم ثم غلبة الروم للفرس كل ذلك بمشيئته وقدره، ولهذا قال: ﴿لله الأمر من قبل ومن بعد﴾: فليس الغلبة والنصر لمجرد وجود الأسباب، وإنما هي لا بد أن يقترن بها القضاء والقدر.

﴿ويومئذ﴾؛ أي: يوم يغلب الروم الفرس ويقهرونهم، ﴿يفرح المؤمنون﴾. ينصر الله ينصر من يشاء؛ أي: يفرحون بانتصارهم على الفرس، وإن كان الجميع كفاراً، ولكن بعض الشر أهون من بعض، ويحزن يومئذ المشركون. ﴿وهو العزيز﴾: الذي له العزة التي قهر بها الخلائق أجمعين، يوتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء. ﴿الرحيم﴾: بعباده المؤمنين؛ حيث قيض لهم من الأسباب التي تسعدهم وتنصرهم ما لا يدخل في الحساب.

(١) في (أ): «فكانوا».

(٢) في (ب): «فغلبوهم».

﴿٦﴾ ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾: فتيقنوا ذلك، واجزموا به، واعلموا أنه لا بد من وقوعه. فلما نزلت هذه الآيات التي فيها هذا الوعد؛ صدق بها المسلمون، وكفر بها المشركون، حتى تراهن بعض المسلمين وبعض المشركين على مدة سنين عينوها، فلما جاء الأجل الذي ضربه الله. انتصر الروم على الفرس، وأجلوهم من بلادهم التي أخذوها منهم، وتحقق وعد الله. وهذا من الأمور الغيبية التي أخبر بها الله قبل وقوعها ووجدت في زمان من أخبرهم الله بها من المسلمين والمشركين. ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾: أن ما وعد الله به حق؛ فلذلك يوجد فريق منهم يكذبون بوعد، ويكذبون آياته.

﴿٧﴾ وهؤلاء الذين لا يعلمون؛ أي: لا يعلمون بواطن الأشياء وعواقبها، وإنما يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا﴾: فينظرون إلى الأسباب، ويجزمون بوقوع الأمر الذي في رأيهم انعقدت أسباب وجوده، ويتيقنون عدم الأمر الذي لم يشاهدوا له من الأسباب المقتضية لوجوده شيئاً؛ فهم واقفون مع الأسباب، غير ناظرين إلى مسببها المتصرف فيها. ﴿وهم عن الآخرة هم غافلون﴾: قد توجهت قلوبهم وأهواؤهم وإراداتهم إلى الدنيا وشهواتها وحطامها؛ فعملت لها وسعت وأقبلت بها وأدبرت، وغفلت عن الآخرة؛ فلا الجنة تشتاق إليها، ولا النار تخافها وتخشاها، ولا المقام بين يدي الله ولقائه يروغها ويزعجها، وهذا علامة الشقاء، وعنوانه الغفلة عن الآخرة.

ومن العجب أن هذا القسم من الناس قد بلغت بكثير منهم الفطنة والذكاء في ظاهر الدنيا إلى أمر يحير العقول ويدهش الألباب، وأظهروا من العجائب الذرية<sup>(١)</sup> والكهربائية والمراكب البرية والبحرية والهوائية ما فاقوا به، وبرزوا وأعجبوا بعقولهم، ورأوا غيرهم عاجزاً عما أقدرهم الله عليه، فنظروا إليهم بعين الاحتقار والازدراء، وهم مع ذلك أبلد الناس في أمر دينهم، وأشدهم غفلة عن آخرتهم، وأقلهم معرفة بالعواقب. قد رأهم أهل البصائر النافذة في جهلهم يتخبطون، وفي ضلالهم يغمهون، وفي باطلهم يترددون، نسوا الله فأنساهم أنفسهم، أولئك هم الفاسقون، ثم نظروا إلى ما أعطاهم الله وأقدرهم عليه من الأفكار الدقيقة في الدنيا وظواهرها، وحرموا من العقل العالي، فعرفوا أن الأمر لله والحكم له في عباده، إن هو إلا توفيقه أو<sup>(٢)</sup> خذلانه، فخافوا ربهم وسألوه أن يتم لهم ما وهبهم من نور العقول والإيمان حتى يصلوا إليه ويحلوا بساحته. وهذه الأمور لو قارنها الإيمان

(١) في (ب): «النارية».

(٢) في (ب): «و».

وُبَيِّنَتْ عَلَيْهِ؛ لِأَثْمَرَتِ الرَّقِيَّ الْعَالِي وَالْحَيَاةَ الطَّيْبَةَ، وَلَكِنهَا لَمَّا بُنِيَ كَثِيرٌ مِنْهَا عَلَى الْإِلْحَادِ؛ لَمْ تَثْمُرْ إِلَّا هَبُوطَ الْأَخْلَاقِ وَأَسْبَابَ الْفَنَاءِ وَالتَّدْمِيرِ.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِي رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَنَارُوا الْآرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَحَمَتُهُمْ رُؤْسُهُمْ بِالْبَيْتَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظْلَمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوَى السَّمَوَاتِ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾﴾

﴿٨﴾ أي: أفلم يتفكر هؤلاء المكذبون لرسول الله ولقائه ﴿في أنفسهم﴾؛ فإن في أنفسهم آيات يعرّفون<sup>(١)</sup> بها أن الذي أوجدهم من العدم سيعيدهم بعد ذلك، وأن الذي نقلهم أطواراً من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى آدمي قد نفخ فيه الروح إلى طفل إلى شاب إلى شيخ إلى هرم غير لائق أن يتركهم سدى مهملين. لا يُنْهَوْنَ، ولا يُؤْمَرُونَ، ولا يثابون، ولا يعاقبون. ﴿ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾؛ أي: ليلوكم أيكم أحسن عملاً، ﴿وأجل مسمى﴾؛ أي: مؤت بقاؤهما إلى أجل تنقضي به الدنيا وتجيء القيامة، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات. ﴿وإن كثيراً من الناس بقاء ربهم لكافرون﴾: فلذلك لم يستعدوا للقاءه، ولم يصدقوا رسله التي أخبرت به.

﴿٩﴾ وهذا الكفر عن غير دليل، بل الأدلة القاطعة دلّت على البعث والجزاء، ولهذا نبههم على السير في الأرض والنظر في عاقبة الذين كذبوا رسلهم وخالفوا أمرهم ممن هم أشد من هؤلاء قوّة وأكثر آثاراً في الأرض من بناء قصور ومصانع ومن غرس أشجار ومن زرع وإجراء أنهار، فلم تُغْنِ عنهم قوتهم، ولا نفعتهم آثارهم حين كذبوا رسلهم الذين جاؤوهم بالبينات الدالات على الحق وصحة ما جاؤوهم به؛ فإنهم حين ينظرون في آثار أولئك؛ لم يجدوا إلا أمماً بائدة، وخلقاً مهلكين، ومنازل بعدهم موحشة. وذم من الخلق عليهم متتابع، وهذا جزاء معجل نموذج للجزاء الأخروي ومبتدأ له؛ وكل هذه الأمم المهلكة لم يظلمهم الله بذلك الإهلاك، وإنما ظلموا أنفسهم وتسببوا في هلاكها.

(١) في (ب): «يعرف».



﴿١٠﴾ ثم كان عاقبة الذين أساؤا﴿؛ أي: المسيئين ﴿السوأى﴾؛ أي: الحالة السيئة الشنيعة، وصار ذلك داعياً لهم لأن ﴿كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾: فهذا عقوبة لسوئهم وذنوبهم، ثم ذلك الاستهزاء والتكذيب يكون سبباً لأعظم العقوبات وأعضل المثلات.

﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفَخُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿١١ - ١٣﴾ يخبر تعالى أنه المتفرّد بإبداء المخلوقات، ثم يعيدهم. ثم إليه يرجعون بعد إعادتهم ليجازيهم بأعمالهم. ولهذا ذكر جزاء أهل الشر ثم جزاء أهل الخير، فقال: ﴿ويوم تقوم الساعة﴾: ويقوم الناس لرب العالمين، [ويرون]<sup>(١)</sup> القيامة عياناً، يومئذ ﴿يُبْلِسُ المجرمون﴾؛ أي: يياسون من كل خير، وذلك أنهم ما قدّموا لذلك اليوم إلا الإجمام، وهي الذنوب من كفر وشرك ومعاص، فلما قدّموا أسباب العقاب، ولم يخلطوها بشيء من أسباب الثواب؛ أيسوا، وأبلسوا، وأفلسوا، وضل عنهم ما كانوا يفترونه من نفع شركائهم وأنهم يشفعون لهم، ولهذا قال: ﴿ولم يكن لهم من شركائهم﴾: التي عبدها مع الله ﴿شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين﴾: تبرأ المشركون ممن أشركوهم مع الله، وتبرأ المعبودون وقالوا: تبرأنا إليك، ما كانوا إيانا يعبدون، والتعنوا وابتعدوا.

﴿١٤ - ١٦﴾ وفي ذلك اليوم يفترق أهل الخير والشر كما افترقت أعمالهم في الدنيا. ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾: آمنوا بقلوبهم وصدّقوا ذلك بالأعمال الصالحة ﴿فهم في روضة﴾: فيها سائر أنواع النبات وأصناف المشتتهيات ﴿يُحْبَرُونَ﴾؛ أي: يُسَرَّون، وينعمون بالمآكل اللذيذة والأشربة والهور الحسان والخدم والولدان والأصوات المطربات والسماع المشجي والمناظر العجيبة والروائح الطيبة والفرح والسرور واللذة والحبور، مما لا يقدر أحد أن يصفه. ﴿وأما الذين كفروا﴾: وجحدوا نعمه، وقابلوها بالكفر، ﴿وكذبوا بآياتنا﴾: التي جاءتهم بها

(١) في (أ): «ويردون».

رسلنا ﴿فأولئك في العذاب مُخَضَّرُونَ﴾: فيه، قد أحاطت بهم جهنم من جميع جهاتهم، وأطلع العذاب الأليم على أفئدتهم، وشوى الحميم وجوههم، وقطع أمعاهم؛ فأين الفرق بين الفريقين؟! وأين التساوي بين المنعمين والمعذبين!؟

﴿فَسَبَّحَنَّا اللَّهَ حِينَ نُسُوتُ وَحِينَ نُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾

﴿١٧ - ١٨﴾ هذا إخبار عن تنزهه عن السوء والنقص وتقديسه عن أن يماثله أحد من الخلق، وأمر للعباد أن يسبحوه حين يُمسون، وحين يُصبحون، ووقت العشي ووقت الظهيرة؛ فهذه الأوقات الخمسة أوقات الصلوات الخمس، أمر الله عباده بالتسبيح فيها والحمد، ويدخل في ذلك الواجب منه؛ كالمشتملة عليه الصلوات الخمس، والمستحب؛ كأذكار الصباح والمساء وأدبار الصلوات وما يقترن بها من النوافل؛ لأن هذه الأوقات التي اختارها الله لأوقات المفروضات هي أفضل الأوقات؛ فالتسبيح والتحميد فيها والعبادة فيها أفضل من غيرها، بل العبادة وإن لم تشمل على قول: سبحان الله؛ فإن الإخلاص فيها تنزيه لله بالفعل أن يكون له شريك في العبادة، أو أن يستحق أحد من الخلق ما يستحقه من الإخلاص والإنابة.

﴿١٩﴾ ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾: كما يُخرج النبات من الأرض الميتة، والسنبلة من الحبة، والشجرة من النواة، والفرخ من البيضة، والمؤمن من الكافر... ونحو ذلك. ﴿ويُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾: بعكس المذكور، ﴿ويُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: فينزل عليها المطر وهي ميتة هامة؛ فإذا أنزل عليها الماء؛ اهتزت، وربت، وأنبثت من كل زوج بهيج. ﴿وكذلك تُخْرَجُونَ﴾: من قبوركم.

فهذا دليل قاطع وبرهان ساطع أن الذي أحيا الأرض بعد موتها فإنه يحيي الأموات؛ فلا فرق في نظر العقل بين الأمرين، ولا موجب لاستبعاد أحدهما مع مشاهدة الآخر.

﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿٢٠﴾ هَذَا شَرْعٌ فِي تَعْدَادِ آيَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى انْفِرَادِهِ بِالْإِلَهِيَّةِ وَكَمَالِ عَظَمَتِهِ وَنَفُوذِ مَشِيئَتِهِ وَقُوَّةِ اقْتِدَارِهِ وَجَمِيلِ صَنِيعِهِ وَسَعَةِ رَحْمَتِهِ وَإِحْسَانِهِ، فَقَالَ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾: وَذَلِكَ بِخَلْقِ أَصْلِ النَّسْلِ أَدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾؛ [أَي: الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ أَصْلِ وَاحِدٍ وَمَادَّةٍ وَاحِدَةٍ]، وَبَثَّكُمْ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ وَأَرْجَائِهَا.

فَفِي ذَلِكَ آيَاتٍ عَلَى أَنَّ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ هَذَا الْأَصْلِ، وَبَثَّكُمْ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ هُوَ الرَّبُّ الْمَعْبُودُ الْمَلِكُ الْمَحْمُودُ وَالرَّحِيمُ الْوَدُودُ، الَّذِي سَيُعِيدُكُمْ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ.

﴿٢١﴾ ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾: الدَّالَّةُ عَلَى رَحْمَتِهِ وَعِنَايَتِهِ بِعِبَادِهِ وَحُكْمَتِهِ الْعَظِيمَةِ وَعَلِمِهِ الْمَحِيطِ، ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾: تَنَاسُبَكُمْ، وَتَنَاسُبُونَهُنَّ، وَتَشَاكُلُكُمْ، وَتَشَاكِلُونَهُنَّ؛ ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾: بِمَا رَتَّبَ عَلَى الزَّوْجِ مِنَ الْأَسْبَابِ الْجَالِبَةِ لِلْمَوَدَّةِ وَالرَّحْمَةِ، فَحَصَلَ بِالزَّوْجَةِ الْاسْتِمْتَاعُ وَاللَّذَّةُ وَالْمَنْفَعَةُ بِوُجُودِ الْأَوْلَادِ وَتَرْبِيَتِهِمْ وَالسُّكُونُ إِلَيْهَا؛ فَلَا تَجِدُ بَيْنَ أَحَدٍ فِي الْغَالِبِ مِثْلَ مَا بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ مِنَ الْمَوَدَّةِ وَالرَّحْمَةِ. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ﴾: يُعْمَلُونَ أَفْكَارَهُمْ، وَيَتَدَبَّرُونَ آيَاتِ اللَّهِ، وَيَتَّقِلُونَ مِنْ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَافُ السِّنِّكُمْ وَالْوَبَاكُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ (٢٢).

﴿٢٢﴾ وَالْعَالِمُونَ: هُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ الَّذِينَ يَفْهَمُونَ الْعِبَرَ وَيَتَدَبَّرُونَ الْآيَاتِ، وَالْآيَاتُ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ: فَمِنْ آيَاتِ خَلْقِ ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: وَمَا فِيهِمَا؛ أَنَّ ذَلِكَ دَالٌّ عَلَى عَظَمَةِ سُلْطَانِ اللَّهِ وَكَمَالِ اقْتِدَارِهِ، الَّذِي أَوْجَدَ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الْعَظِيمَةَ، وَكَمَالِ حُكْمَتِهِ؛ لِمَا فِيهَا مِنَ الْإِتْقَانِ، وَسَعَةِ عِلْمِهِ؛ لِأَنَّ الْخَالِقَ لَا بَدَّ أَنْ يَعْلَمَ مَا خَلَقَهُ؛ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾، وَعَمُومِ رَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ؛ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَنَافِعِ الْجَلِيلَةِ، وَأَنَّهُ الْمُرِيدُ الَّذِي يَخْتَارُ مَا يَشَاءُ؛ لِمَا فِيهَا مِنَ التَّخْصِيصَاتِ وَالْمَزَايَا، وَأَنَّهُ وَحْدَهُ الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ وَيُوحَّدَ؛ لِأَنَّهُ الْمُنْفَرِدُ بِالْخَلْقِ؛ فَيَجِبُ أَنْ يُفْرَدَ بِالْعِبَادَةِ.

فَكُلُّ هَذِهِ أَدَلَّةٌ عَقْلِيَّةٌ نَبَّهَ اللَّهُ الْعُقُولَ إِلَيْهَا، وَأَمْرًا بِالتَّفَكُّرِ وَاسْتِخْرَاجِ الْعِبْرَةِ مِنْهَا، ﴿وَكَذَلِكَ فِي﴾ اخْتِلَافِ السِّنِّكُمْ وَالْوَبَاكِ: عَلَى كَثْرَتِكُمْ وَتَبَايُنِكُمْ مَعَ أَنَّ

الأصل واحدٌ ومخارج الحروف واحدة، ومع ذلك؛ لا تجدُ صوتين متَّفِقين من كل وجه، ولا لونين متشابهين من كلِّ وجه؛ إلا وتجد من الفرق بين ذلك ما به يحصل التمييز.

وهذا دالٌّ على كمال قدرته ونفوذ مشيئته وعنايته بعباده ورحمته بهم، أن قدر ذلك الاختلاف؛ لئلا يقع التشابه، فيحصل الاضطراب، ويفوت كثير من المقاصد والمطالب.

﴿وَمِن آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (٢٣).

﴿٢٣﴾ أي: سماع تدبُّر وتعقُّل للمعاني والآيات في ذلك؛ إنَّ ذلك دليلٌ على رحمة الله تعالى؛ كما قال: ﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾، وعلى تمام حكمته؛ إذ حكمته اقتضت سكون الخلق في وقت ليستريحوا [به] ويجموا، وانتشارهم في وقت لمصالحهم الدنيئة والدنيوية، ولا يتم ذلك إلا بتعاقب الليل والنهار عليهم، والمنفرد بذلك هو المستحق للعبادة.

﴿وَمِن آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٢٤).

﴿٢٤﴾ أي: ومن آياته أن يُنزلَ عليكم المطر الذي تحيا به البلاد والعباد، ويريكُم قبل نزوله مقدّماته من الرعد والبرق الذي يُخاف ويُطمع فيه. ﴿إنَّ في ذلك آياتٍ﴾: دالةٌ على عموم إحسانه وسعة علمه وكمال إتقانه وعظيم حكمته، وأنه يُحيي الموتى، كما أحيا الأرض بعد موتها، ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾؛ أي: لهم عقولٌ تعقل بها ما تسمعه وتراه وتحفظه، وتستدلُّ به على ما جعل دليلاً عليه.

﴿وَمِن آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ (٢٥) ﴿وَلَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْءٌ لَّمْ يَكُنْ لَكُمْ قَنُونًا﴾ (٢٦) ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَبُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢٧).

﴿٢٥﴾ أي: ومن آياته العظيمة أن قامت السماوات والأرض واستقرتا وثبتتا لأمره، فلم ينزلزا، ولم تسقط السماء على الأرض؛ فقدرته العظيمة التي بها

أَمْسَكَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا؛ يَقْدِرُ بِهَا عَلَى أَنَّهُ إِذَا دَعَا الْخَلْقَ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ؛ إِذَا هُمْ يَخْرُجُونَ. ﴿لَخَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾.

﴿٢٦﴾ ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: الْكُلُّ خَلْقُهُ وَمَمَالِكُهُ وَالْمَتَصَرِّفُ فِيهِمْ مِنْ غَيْرِ مَنَازِعٍ وَلَا مَعَاوِنٍ وَلَا مَعَارِضٍ، وَكُلُّهُمْ قَانِتُونَ لَجَلَالِهِ، خَاضِعُونَ لِكَمَالِهِ.

﴿٢٧﴾ ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ﴾؛ أَي: إِعَادَةُ الْخَلْقِ بَعْدَ مَوْتِهِمْ، ﴿أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾: مِنْ ابْتِدَاءِ خَلْقِهِمْ، وَهَذَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْأَذْهَانِ وَالْعُقُولِ؛ فَإِذَا كَانَ قَادِرًا عَلَى الْإِبْتِدَاءِ الَّذِي تَقْرُونَ بِهِ؛ كَانَ قَدْرَتُهُ عَلَى الْإِعَادَةِ الَّتِي هِيَ أَهْوَنُ أَوْلَى وَأَوْلَى.

وَلَمَّا ذَكَرَ مِنَ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ مَا بِهِ يُعْتَبَرُ الْمَعْتَبِرُونَ، وَيَتَذَكَّرُ الْمُؤْمِنُونَ، وَيَسْتَبْصِرُ الْمُهْتَدُونَ؛ ذَكَرَ الْأَمْرَ الْعَظِيمَ وَالْمَطْلَبَ الْكَبِيرَ، فَقَالَ: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: وَهُوَ كُلُّ صِفَةِ كِمَالٍ، وَالْكِمَالُ مِنْ تِلْكَ الصِّفَةِ، وَالْمَحَبَّةُ وَالْإِنَابَةُ النَّامَةُ الْكَامِلَةُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ الْمَخْلُصِينَ وَالذِّكْرَ الْجَلِيلَ وَالْعِبَادَةَ مِنْهُمْ؛ فَالْمَثَلُ الْأَعْلَى هُوَ وَصْفُهُ الْأَعْلَى وَمَا تَرْتَّبَ عَلَيْهِ، وَلِهَذَا كَانَ أَهْلُ الْعِلْمِ يَسْتَعْمِلُونَ فِي حَقِّ الْبَارِيِّ قِيَاسَ الْأَوْلَى، فَيَقُولُونَ: كُلُّ صِفَةٍ كِمَالٍ فِي الْمَخْلُوقَاتِ؛ فَخَالِفُهَا أَحَقُّ بِالْإِتِّصَافِ بِهَا عَلَى وَجْهِ لَا يَشَارِكُهُ فِيهَا أَحَدٌ، وَكُلُّ نَقْصٍ فِي الْمَخْلُوقِ <sup>(١)</sup> يُنَزِّهُ عَنْهُ؛ فَتَنْزِيهِ الْخَالِقِ عَنْهُ مِنْ بَابِ أَوْلَى وَأُحْرَى. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾؛ أَي: لَهُ الْعِزَّةُ الْكَامِلَةُ وَالْحِكْمَةُ الْوَاسِعَةُ، فَعِزَّتُهُ أَوْجَدَ بِهَا الْمَخْلُوقَاتِ وَأَظْهَرَ الْمَأْمُورَاتِ، وَحِكْمَتُهُ أَتَقَنَّ بِهَا مَا صَنَعَهُ وَأَحْسَنَ فِيهَا مَا شَرَعَهُ.

﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٧٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿٢٨﴾ هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ لِتُفْحِحَ الشُّرَكَاءَ وَتَهْجِيئِهِ، مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ لَا يَحْتَاجُ إِلَى حَلٍّ وَتَرْحَالٍ وَإِعْمَالِ الْجِمَالِ. ﴿هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ﴾؛ أَي: هَلْ أَحَدٌ مِنْ عِبِيدِكُمْ وَإِمَائِكُمْ الْأَرْقَاءِ يَشَارِكُكُمْ فِي رِزْقِكُمْ، وَتَرَوْنَ

(١) فِي (ب): «الْمَخْلُوقَاتِ».

أَنْكُمْ وَهَم فِيهِ عَلَى حَدِّ سِوَاءٍ. ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾؛ أَي: كَالْأَحْرَارِ الشَّرَكَاءِ فِي الْحَقِيقَةِ، الَّذِينَ <sup>(١)</sup> يُخَافُ مِنْ قِسْمِهِ وَإِخْتِصَاصِ كُلِّ شَيْءٍ بِحَالِهِ؟! لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ شَرِيكاً لَكُمْ فِيمَا رَزَقَكُمْ اللَّهُ تَعَالَى، هَذَا؛ وَلَسْتُمْ الَّذِينَ خَلَقْتُمُوهُمْ وَرَزَقْتُمُوهُمْ، وَهَمٌ أَيْضاً مِمَّا لَكُمْ مِثْلُكُمْ؛ فَكَيْفَ تَرْضَوْنَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ شَرِيكاً مِنْ خَلْقِهِ، وَتَجْعَلُونَهُ بِمَنْزِلَتِهِ وَعَدِيلاً لَهُ فِي الْعِبَادَةِ، وَأَنْتُمْ لَا تَرْضَوْنَ مَسَاوَةَ مَمَالِكِكُمْ لَكُمْ؟! هَذَا مِنْ أَعْجَبِ الْأَشْيَاءِ، وَمَنْ أَدَلَّ شَيْءٍ عَلَى سَفَهٍ مِنْ اتَّخَذَ شَرِيكاً مَعَ اللَّهِ، وَأَنْ مَا اتَّخَذَهُ بَاطِلٌ مُضْمَحَلٌّ، لَيْسَ مَسَاوِياً لِلَّهِ وَلَا لَهُ مِنَ الْعِبَادَةِ شَيْءٍ. ﴿كَذَلِكَ نَفْضُلُ الْآيَاتِ﴾: بِتَوْضِيحِهَا بِأَمْثَلِهَا ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾: الْحَقَائِقُ وَيَعْرِفُونَ. وَأَمَّا مَنْ لَا يَعْقِلُ؛ فَلَوْ فَضِلَتْ لَهُ الْآيَاتُ وَبَيَّنَّتْ لَهُ الْبَيِّنَاتُ؛ لَمْ يَكُنْ لَهُ عَقْلٌ يَبْصُرُ بِهِ مَا تَبَيَّنَ، وَلَا لُبٌّ يَعْقِلُ بِهِ مَا تَوَضَّحَ؛ فَأَهْلُ الْعُقُولِ وَالْأَلْبَابِ هُمُ الَّذِينَ يُسَاقُ إِلَيْهِمُ الْكَلَامُ، وَيُوجَّهُ الْخُطَابُ.

﴿٢٩﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ هَذَا الْمِثَالِ أَنَّ مَنْ اتَّخَذَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شَرِيكاً يَعْْبُدُهُ وَيَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ فِي أُمُورِهِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ مَعَهُ مِنَ الْحَقِّ شَيْءٌ؛ فَمَا الَّذِي أَوْجَبَ لَهُمُ الْإِقْدَامَ عَلَى أَمْرٍ بَاطِلٍ تَوَضَّحَ بِطِلَانِهِ وَظَهَرَ بِرَهَائِهِ؟ أَوْجَبَ لَهُمُ ذَلِكَ اتِّبَاعُ الْهَوَى، فَلِهَذَا قَالَ: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: هَوَيْتُ أَنْفُسَهُمُ النَّاقِصَةَ الَّتِي ظَهَرَ مِنْ نَقْصِهَا <sup>(٢)</sup> مَا تَعَلَّقَ بِهِ هَوَاهَا أَمْراً يَجْزِمُ الْعَقْلُ بِفَسَادِهِ وَالْفِطْرُ بِرَدِّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ دَلَّهْمُ عَلَيْهِ وَلَا بَرَهَانَ قَادَهُمْ إِلَيْهِ، ﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾؛ أَي: لَا تَعْجَبُوا مِنْ عَدَمِ هِدَايَتِهِمْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَضَلَّهُمْ بِظُلْمِهِمْ، وَلَا طَرِيقَ لِهِدَايَةِ مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مُعَارِضاً لِلَّهِ أَوْ مُنَازِعاً لَهُ فِي مُلْكِهِ، ﴿وَمَالِهِمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾: يَنْصُرُونَهُمْ حِينَ تَحَقُّ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ، وَتَنْقَطِعُ بِهِمُ الْوَصْلُ وَالْأَسْبَابُ.

﴿فَأَقْذِرْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَنِينُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٩﴾ ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿٣٠﴾ ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعْباً كُلٌّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ ﴿٣١﴾.

﴿٣٠﴾ يَا مُرُ تَعَالَى بِالْإِخْلَاصِ لَهُ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ وَإِقَامَةِ دِينِهِ، فَقَالَ: ﴿فَأَقِمْ

(٢) فِي (ب): «نَقْصَانَهَا».

(١) فِي (ب): «الَّذِي».

وَجَهَكَ؛ أي: انصبه ووجهه ﴿لِلدِّينِ﴾: الذي هو الإسلام والإيمان والإحسان، بأن تتوجه بقلبك وقصدك وبدنك إلى إقامة شرائع الدين الظاهرة كالصلاة والزكاة والصوم والحج ونحوها، وشرائعه الباطنة كالمحبة والخوف والرجاء والإنابة، والإحسان في الشرائع الظاهرة والباطنة؛ بأن تعبد الله فيها كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه؛ فإنه يراك.

وخص الله إقامة الوجه؛ لأن إقبال الوجه تبع لإقبال القلب، ويترتب على الأمرين سعي البدن، ولهذا قال: ﴿حَنِيفًا﴾؛ أي: مقبلًا على الله في ذلك معرضًا عما سواه، وهذا الأمر الذي أمرناك به هو ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾: ووضع في عقولهم حُسْنَهَا واستقباح غيرها؛ فإن جميع أحكام الشرع الظاهرة والباطنة قد وَضَعَ اللَّهُ في قلوب الخلق كلهم الميل إليها، فوضع في قلوبهم محبة الحق وإيثار الحق، وهذا حقيقة الفطرة. وَمَنْ خَرَجَ عَنْ هَذَا الْأَصْلِ؛ فلعارض عرض لفطرته أسدها؛ كما قال النبي ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ؛ فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِهِ أَوْ نَصْرَانِيَّةٍ أَوْ يَمَجْسَانِيَّةٍ»<sup>(١)</sup>. ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾؛ أي: لا أحد يبذل خلق الله فيجعل المخلوق على غير الوضع الذي وَضَعَهُ اللَّهُ. ﴿ذَلِكَ﴾: الذي أمرناك به ﴿الَّذِينَ الْقِيَمُ﴾؛ أي: الطريق المستقيم الموصل إلى الله وإلى كرامته؛ فإن من أقام وجهه للدين حنيفًا؛ فإنه سالك الصراط المستقيم في جميع شرائعه وطرقه، ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: فلا يتعرفون الدين القيم، وإن عرفوه؛ لم يسلكوه.

﴿٣١﴾ ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ﴾: وهذا تفسير لإقامة الوجه للدين؛ فإن الإنابة إنابة القلب وانجذاب دواعيه لمراضى الله تعالى، ويلزم من ذلك عمل<sup>(٢)</sup> البدن بمقتضى ما في القلب، فشمّل ذلك العبادات الظاهرة والباطنة، ولا يتم ذلك إلا بترك المعاصي الظاهرة والباطنة؛ فلذلك قال: ﴿وَاتَّقُوهُ﴾؛ فهذا يشمل فعل المأمورات وترك المنهيات، وخص من المأمورات الصلاة لكونها تدعو إلى الإنابة والتقوى لقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾: فهذا إعادتها على التقوى، ثم قال: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾: فهذا حثها على الإنابة. وخص من

(١) أخرجه البخاري (١٣٥٩)، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في (ب): «حمل».

المنهيات أصلها، والذي لا يُقبل معه عملٌ، وهو الشركُ، فقال: ﴿ولا تكونوا من المشركين﴾: لكونِ الشركِ مضاداً للإِنابة التي رُوحها الإِخلاصُ من كلِّ وجه.

﴿٣٢﴾ ثم ذَكَرَ حالة المشركين مهجناً لها ومقبّحاً، فقال: ﴿من الذين فرّقوا دينهم﴾: مع أنّ الدين واحدٌ، وهو إِخلاصُ العبادة لله وحده، وهؤلاء المشركون فرّقوه: منهم من يعبدُ الأوثان والأصنام، ومنهم من يعبدُ الشمس والقمر، ومنهم من يعبدُ الأولياء والصالحين، ومنهم يهودٌ، ومنهم نصارى، ولهذا قال: ﴿وكانوا شيعاً﴾؛ أي: كلُّ فرقةٍ من فرق الشرك تاهت وتعضّبت على نصرٍ ما معها من الباطل ومنازعةٍ غيرِهِم ومحاربتِهِم. ﴿كلُّ حزبٍ بما لديهم﴾: من العلوم المخالفة لعلوم الرسل ﴿فرحون﴾: به يحكمون لأنفسِهِم بأنّه الحقُّ وأنّ غيرِهِم على باطل.

وفي هذا تحذيرٌ للمسلمين من تشبّثهم وتفرّقهم فرقا، كلُّ فريق يتعضّب لما معه من حقٍّ وباطل، فيكونون مشابهين بذلك للمشركين في التفرّق، بل الدين واحدٌ، والرسول واحدٌ، والإله واحدٌ، وأكثر الأمور الدينية وقع فيها الإجماع بين العلماء والأئمّة، والأخوة الإيمانية قد عقدها الله وربّطها أتمّ ربط؛ فما بال ذلك كله يلغى ويبنى التفرّق والشقاق بين المسلمين على مسائل خفيفةٍ أو فروع خلافيةٍ يضلُّ بها بعضهم بعضاً ويتميّز بها بعضهم عن بعض؟! فهل هذا إلّا من أكبر نزغات الشيطان وأعظم مقاصده التي كاد بها المسلمين؟! وهل السعي في جمع كلمتهم وإزالة ما بينهم من الشقاق المبني على ذلك الأصل الباطل إلّا من أفضل الجهاد في سبيل الله وأفضل الأعمال المقربة إلى الله؟!

ولما أمر تعالى بالإِنابة إليه، وكان المأمور بها هي الإِنابة الاختيارية، التي تكون في حال العسر واليسر والسعة والضيق؛ ذكر الإِنابة الاضطرارية التي لا تكون مع الإنسان إلّا عند ضيقه وكرهه؛ فإذا زال عنه الضيق؛ تبدّأ وراء ظهره، وهذه غيرُ نافعة، فقال:

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَاهُمْ مَتَهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ فَتَمْتَعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿٣٣ - ٣٤﴾ ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ﴾: مرضٌ أو خوفٌ من هلاكٍ ونحوه، ﴿دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾: ونسوا ما كانوا به يشركون في تلك الحال؛ لعلمِهِم أنّه



لا يكشف الضّرَّ إِلَّا اللهُ، ﴿إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً﴾: شفاهم من مرضهم وآمنهم من خوفهم، ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾: ينقضون تلك الإنابة التي صدرت منهم، ويشركون به مَنْ لا دَفَعَ عنهم ولا أغنى ولا أفقر ولا أغنى، وكلُّ هذا كفرٌ بما آتاهم اللهُ ومَنْ به عليهم حيث أنجاهم وأنقذهم من الشدة وأزال عنهم المشقة؛ فهلاً قابلوا هذه النعمة الجليلة بالشكر والدوام على الإخلاص له في جميع الأحوال؟!

﴿٣٥﴾ ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾؛ أي: حجة ظاهرة، ﴿فَهُوَ﴾؛ أي: ذلك السلطان ﴿يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يَشْرِكُونَ﴾: ويقول لهم: اثبتوا على شرككم واستمروا على شككم؛ فإن ما أنتم عليه هو الحق، وما دعيتكم الرسل إليه باطل؛ فهل ذلك السلطان موجودٌ عندهم حتى يوجب لهم شدة التمسك بالشرك؟ أم البراهين العقلية والسمعية والكتب السماوية والرسل الكرام وسادات الأنام قد نهوا أشد النهي عن ذلك، وحذروا من سلوك طرقه الموصلة إليه، وحكموا بفساد عقل ودين من ارتكبه؟! فشركٌ هؤلاء بغير حجة ولا برهان، وإنما هو أهواء النفوس ونزغات الشيطان.

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿٣٦ - ٣٧﴾ يخبر تعالى عن طبيعة أكثر الناس في حال الرخاء والشدة أنهم إذا أذاقهم الله منه رحمةً من صحّةٍ وغنىٍ ونصرٍ ونحو ذلك؛ فرحوا بذلك فرحاً بظن لا فرح شكرٍ وتبجح بنعمة الله. ﴿وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ﴾؛ أي: حال تسوؤهم، وذلك ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾: من المعاصي، ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾: يياسون من زوال ذلك الفقر والمرض ونحوه، وهذا جهلٌ منهم وعدم معرفة. ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾: فالقنوط بعدما علم أن الخير والشر من الله والرزق سعته وضيقه من تقديره ضائع ليس له محل؛ فلا تنظر أيها العاقل لمجرد الأسباب، بل اجعل نظرك لمسببها، ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: فهم الذين يعتبرون ببسط الله لمن يشاء وقبضه، ويعرفون بذلك حكمة الله ورحمته وجوده وجذب القلوب لسؤاله في جميع مطالب الرزق.

﴿فَتَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا آتَاكُمْ مِّن رَّبِّا لَّيْرَبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَاكُمْ مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿٣٨﴾ أي: فأعطِ القريب منك - على حسب قربه وحاجته - حقه الذي أوجبه الشارع أو حضّ عليه من النفقة الواجبة والصدقة والهدية والبرّ والسلام والإكرام والعفو عن زلته والمسامحة عن هفوته، وكذلك آت المسكين الذي أسكته<sup>(١)</sup> الفقر والحاجة ما تُزيل به حاجته وتدفع به ضرورته من إطعامه وسقيه وكسوته. ﴿وابن السبيل﴾: الغريب المنقطع به في غير بلده، الذي في مظنة شدة الحاجة، وأنه لا مال معه ولا كسب قد دبر نفسه به في سفره؛ بخلاف الذي في بلده؛ فإنه وإن لم يكن له مال، لكن لا بدّ في الغالب أن يكون في حرفة أو صناعة ونحوها تسد حاجته، ولهذا جعل الله في الزكاة حصّة للمسكين وابن السبيل.

﴿ذلك﴾؛ أي: إيتاء ذي القربى والمسكين وابن السبيل: ﴿خيرٌ للذين يريدون﴾: بذلك العمل ﴿ووجه الله﴾؛ أي: خير غزيرٌ وثوابٌ كثيرٌ؛ لأنه من أفضل الأعمال الصالحة، والنفع المتعدّي الذي وافق محلّه المقرون به الإخلاص؛ فإن لم يُردّ به وجه الله؛ لم يكن خيراً للمعطي، وإن كان خيراً ونفعاً للمعطي؛ كما قال تعالى: ﴿لا خيرَ في كثيرٍ من نجواهم إلاّ من أمر بصدقةٍ أو معروفٍ أو إصلاحٍ بينَ الناس﴾: مفهومها أنّ هذه المستثنيات خيرٌ؛ لنفعها المتعدّي، ولكن من يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله؛ فسوف نؤتيه أجراً عظيماً، وقوله: ﴿وأولئك﴾: الذين عملوا هذه الأعمال وغيرها لوجه الله، ﴿هم المفلحون﴾: الفائزون بثواب الله الناجون من عقابه.

﴿٣٩﴾ ولما ذكر العمل الذي يُفصد به وجهه من النفقات؛ ذكر العمل الذي يُفصد به مقصدٌ دنيويٌّ، فقال: ﴿وما آتيتُم من ربا ليزبوا في أموال الناس﴾؛ أي: ما أعطيتُم من أموالكم الزائدة عن حوائجكم، وقصدكم بذلك أن يزبوا؛ أي: يزيد في أموالكم؛ بأن تُعطوها لمن تطمعون أن يعاوضكم عنها بأكثر منها؛ فهذا العمل لا يربو أجره عند الله؛ لكونه معدوم الشرط الذي هو الإخلاص.

ومثل ذلك العمل الذي يُراد به الزيادة في الجاه والرياء عند الناس؛ فهذا كله لا يربو عند الله. ﴿وما آتيتُم من زكاة﴾؛ أي: مال يطهركم من الأخلاق الرذيلة، ويطهر أموالكم من البخل بها، ويزيد في دفع حاجة المعطي؛ ﴿تريدون﴾: بذلك ﴿وجه الله فأولئك هم المضعفون﴾؛ أي: المضاعف لهم الأجر، الذين تربو

(١) في (ب): «أسكته».

نفقاتهم عند الله، ويربيها الله لهم، حتى تكون شيئاً كثيراً، ودلّ قوله: ﴿وما آتيتهم من زكاة﴾: أن الصدقة مع اضطرارٍ من يتعلّق بالمنفق أو مع دينٍ عليه لم يقضيه ويقدم عليه الصدقة؛ أن ذلك ليس بزكاة يؤجر عليه العبد، ويردّ تصرفه شرعاً؛ كما قال تعالى في الذي يمدح: ﴿الذي يؤتي ماله يتزكى﴾؛ فليس مجرد إيتاء المال خيراً، حتى يكون بهذه الصفة، وهو أن يكون على وجه يتزكى به المؤتي.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِثْلَ مِثْقَلِ ذَرَّةٍ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿٤٠﴾ يخبر تعالى أنه وحده المنفرد بخلقكم ورزقكم وإماتتكم وإحيائكم، وأنه ليس أحدٌ من الشركاء التي يدعوها المشركون من يشارك الله في شيء من هذه الأشياء؛ فكيف يشركون بمن انفرد بهذه الأمور من ليس له تصرفٌ فيها بوجه من الوجوه؟ فسبحانه وتعالى، وتقدس، وتنزهه، وعلا عن شركهم؛ فلا يضره ذلك، وإنما وبأله<sup>(١)</sup> عليهم.

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿٤١﴾ أي: استعلن الفساد في البر والبحر؛ أي: فساد معاشهم ونقصها وحلول الآفات بها وفي أنفسهم من الأمراض والوباء وغير ذلك، وذلك بسبب ما قدمت أيديهم من الأعمال الفاسدة المفسدة بطبعها. هذه المذكورة، ﴿ليذيقهم بعض الذي عملوا﴾؛ أي: ليعلموا أنه المجازي على الأعمال، فعجل لهم نموذجاً من جزاء أعمالهم في الدنيا؛ ﴿لعلهم يرجعون﴾: عن أعمالهم التي أثرت لهم من الفساد ما أثرت، فتصلح أحوالهم، ويستقيم أمرهم؛ فسبحان من أنعم ببلائه، وتفضل بعقوبته، وإلّا؛ فلو أذاقهم جميع ما كسبوا؛ ما ترك على ظهرها من دابة.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿٤٢﴾ والأمر بالسير في الأرض يدخل فيه السير بالأبدان<sup>(٢)</sup> والسير في القلوب للنظر والتأمل بعواقب المتقدمين، ﴿كان أكثرهم مشركين﴾: تجدون عاقبتهم شرّاً

(١) في (ب): «وبالهم».

(٢) في (ب): «في الأبدان».

العواقب، ومآلهم شرٌّ مآلٍ: عذابٌ استأصلهم، وذمٌّ، ولعنٌ من خلق الله يتبعهم، وخزني متواصلٌ؛ فاحذروا أن تفعلوا أفعالهم؛ يُحذى بكم حذوهم؛ فإن عدل الله وحكمته في كل زمان ومكان.

﴿فَأَقْرَهُ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾ .

﴿٤٣﴾ أي: أقبل بقلبك وتوجّه بوجهك، واسع ببدنك لإقامة الدين القيم المستقيم، فنقذ أوامره ونواهيه بجدّ واجتهاد، وقم بوظائفه الظاهرة والباطنة، وبادر زمانك وحياتك وشبابك، ﴿من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له من الله﴾: وهو يوم القيامة، الذي إذا جاء؛ لا يمكن رده، ولا يُرجأ العاملون ليستأنفوا<sup>(١)</sup> العمل، بل فرغ من الأعمال، ولم يبق إلا جزاء العمال. ﴿يومئذ يصدعون﴾؛ أي: يتفرقون عن ذلك اليوم، ويصدرون أشتاتاً متفاوتين؛ ليروا أعمالهم.

﴿٤٤ - ٤٥﴾ ﴿مَنْ كَفَرَ﴾: منهم، ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾: ويعاقب هو بنفسه، لا تزرّ وازرةً وزرّ أخرى، ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾: من الحقوق التي لله والتي للعباد الواجبة والمستحبة ﴿فَلِأَنْفُسِهِمْ﴾: لا لغيرهم؛ ﴿يَمْهَدُونَ﴾؛ أي: يهيئون، ولأنفسهم يعمرون آخرتهم، ويستعدّون للفوز بمنازلها وغرفاتها، ومع ذلك جزاؤهم ليس مقصوداً على أعمالهم، بل يجزيهم الله من فضله الممدود وكرمه غير المحدود ما<sup>(٢)</sup> لا تبلغه أعمالهم، وذلك لأنه أحبّهم، وإذا أحبّ الله عبداً؛ صبّ عليه الإحسان صبّاً، وأجزل له العطايا الفاخرة، وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة، ولهذا بخلاف الكافرين؛ فإن الله لما أبغضهم ومقتهم؛ عاقبهم وعذبهم، ولم يزدهم كما زاد من قبلهم؛ فلهذا قال: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ .

﴿وَمَنْ آيَنِيهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِتُكْمَرُ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ .

﴿٤٦﴾ أي: ومن<sup>(٣)</sup> الأدلة الدالة على رحمته وبعثه الموتى وأنه الإله المعبود

(٢) في (ب): «وما» .

(١) في (ب): «أن يستأنفوا» .

(٣) في (ب): «من» .

والمملك المحمود، أن أرسل ﴿الرياح﴾: أمام المطر ﴿مبشرات﴾: بإثارتها للسحاب ثم جمعها، فنبش بذلك النفوس قبل نزوله، ﴿وليذيقكم من رحمته﴾: فيُنزَل عليكم مطراً تحيا به البلاد والعباد وتذوقون من رحمته ما تعرفون أن رحمته هي المنقذة للعباد الجالبة لأرزاقهم، فتشاقون إلى الإكثار من الأعمال الصالحة الفاتحة لخزائن الرحمة، ﴿ولتجزي الفلك﴾: في البحر ﴿بأمره﴾: القدري، ﴿وليتنبخوا من فضله﴾: بالتصرف في معاشكم ومصالحكم. ﴿ولعلكم تشكرون﴾: من سخر لكم الأسباب، ويسر لكم الأمور؛ فهذا المقصود من النعم أن تقابل بشكر الله تعالى؛ ليزيدكم الله منها، ويبقيها عليكم، وأما مقابلة النعم بالكفر والمعاصي؛ فهذه حال من بدل نعمة الله كفراً، ونعمته محنة، وهو معرض لها للزوال والانتقال منه إلى غيره.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْفَقْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿٤٧﴾ أي: ﴿ولقد أرسلنا من قبلك﴾: في الأمم السالفة ﴿رسلاً إلى قومهم﴾: حين جحدوا توحيد الله وكذبوا بالحق، فجاءتهم رسلهم يدعونهم إلى التوحيد والإخلاص والتصديق بالحق وبطلان ما هم عليه من الكفر والضلال، وجاؤوهم بالبينات والأدلة على ذلك، فلم يؤمنوا ولم يزولوا عن غيهم، ﴿فانفقنا من الذين أجزموا﴾: ونصرنا المؤمنين أتباع الرسل، ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾؛ أي: أوجبنا ذلك على أنفسنا، وجعلناه من جملة الحقوق المتعينة، ووعدناهم به؛ فلا بد من وقوعه، فأنتم أيها المكذبون لمحمد ﷺ إن بقيتم على تكذيبكم؛ حلت بكم العقوبة، ونصرناه عليكم.

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُحْمَلُ فِيهَا السَّحَابُ فِيبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَلْسِينَ ﴿٤٩﴾ فَأَنْظِرْ إِلَى آثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَجْمِ الْمُؤْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿٤٨ - ٤٩﴾ يخبر تعالى عن كمال قدرته وتمام نعمته أنه ﴿يرسل الرياح فتحمل السحاب﴾: من الأرض، ﴿فيبسطه في السماء﴾؛ أي: يمدّه ويوسعه ﴿كيف يشاء﴾؛ أي: على أي حالة أرادها من ذلك، ﴿ثم يجعله﴾؛ أي: ذلك السحاب الواسع ﴿كسفا﴾؛ أي: سحاباً ثخيناً قد طبّق بعضه فوق بعض. ﴿فترى الودق

يَخْرُجُ مِنْ خَلَالِهِ؛ أَي: السحاب؛ نَقَطًا صَغَارًا مَتَفَرِّقَةً، لَا تَنْزِلُ جَمِيعًا فَتُقْسِدُ مَا أَتَتْ عَلَيْهِ، ﴿فَإِذَا أَصَابَ﴾؛ أَي: بِذَلِكَ الْمَطَرِ مَنْ ﴿يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾: يَبْشُرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِنَزُولِهِ، وَذَلِكَ لِشِدَّةِ حَاجَتِهِمْ وَضُرُورَتِهِمْ إِلَيْهِ؛ فَلهَذَا قَالَ: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾؛ أَي: آيِسِينَ قَانَطِينَ لِتَأَخُّرِ وَقْتِ مَجِيئِهِ؛ أَي: فَلَمَّا نَزَلَ فِي تِلْكَ الْحَالِ؛ صَارَ لَهُ مَوْقِعٌ عَظِيمٌ عِنْدَهُمْ وَفَرَحٌ وَاسْتِبْشَارٌ.

﴿٥٠﴾ ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: فَاهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ. ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾: الَّذِي أَحْيَا الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴿لَمُخْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: فَقَدَرْتُهُ تَعَالَى لَا يَتَعَاصَى عَلَيْهَا شَيْءٌ، وَإِنْ تَعَاصَى عَلَى قَدْرِ خَلْقِهِ، وَدَقَّ عَنْ أَفْهَامِهِمْ، وَحَارَتْ فِيهِ عَقُولُهُمْ.

﴿وَلَيْنَ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ ﴿٥١﴾ ﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْكَلِمَةَ وَلَا تَسْمَعُ الضَّمَّةَ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ ﴿٥٢﴾ ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعَمِّيَّ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿٥٣﴾.

﴿٥١﴾ يخبر تعالى عن حالة الخلق وأنهم مع هذه النعم عليهم بإحياء الأرض بعد موتها ونشر رحمة الله تعالى: لو أرسلنا على هذا النبات الناشئ عن المطر وعلى زروعهم ريحاً مضرّة متلفة أو منقصة، ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾: قَدْ تَدَاعَى إِلَى التَّلْفِ، ﴿لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾: فَيَنْسُونَ النِّعْمَ الْمَاضِيَةَ، وَيَبَادِرُونَ إِلَى الْكُفْرِ! وَهُؤُلَاءِ لَا يَنْفَعُ فِيهِمْ وَعْظٌ وَلَا زَجْرٌ.

﴿٥٢﴾ ﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْكَلِمَةَ وَلَا تَسْمَعُ الضَّمَّةَ الدُّعَاءَ﴾: وَبِالْأُولَى: ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾: فَإِنَّ الْمَوَانِعَ قَدْ تَوَفَّرَتْ فِيهِمْ عَنِ الْإِنْقِيَادِ وَالسَّمَاعِ النَّافِعِ كَتَوَفَّرَ هَذِهِ الْمَوَانِعَ الْمَذْكُورَةَ عَنِ سَمَاعِ الصَّوْتِ الْحَسِيِّ.

﴿٥٣﴾ ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعَمِّيَّ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾: لِأَنَّهَمْ لَا يَقْبَلُونَ الْإِبْصَارَ بِسَبَبِ عَمَاهُمْ؛ فَلَيْسَ فِيهِمْ <sup>(١)</sup> قَابِلِيَّةٌ لَهُ. ﴿إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾: فَهُؤُلَاءِ الَّذِينَ يَنْفَعُ فِيهِمْ إِسْمَاعُ الْهَدْيِ، الْمُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا بِقُلُوبِهِمْ، الْمُنْقَادُونَ لِأَوْامِرِنَا، الْمُسْلِمُونَ لَنَا؛ لِأَنَّ مَعَهُمُ الدَّاعِيَ الْقَوِيَّ لِقَبُولِ النَّصَائِحِ وَالْمَوَاعِظِ، وَهُوَ

(١) في (ب): «منهم».

استعدادهم للإيمان بكل آية من آيات الله، واستعدادهم لتنفيذ ما يقدرون عليه من أوامر الله ونواهيه.

﴿الله الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ (٥٤).

﴿٥٤﴾ يخبر تعالى عن سعة علمه وعظيم اقتداره وكمال حكمته؛ أنه ابتداء خلق آدميين من ضعف، وهو الأطوار الأولى من خلقه من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى أن صار حيواناً في الأرحام إلى أن ولد وهو في سن الطفولية، وهو إذ ذاك في غاية الضعف وعدم القوة والقدرة، ثم ما زال الله يزيد في قوته شيئاً فشيئاً، حتى بلغ سن الشباب، واستوت قوته، وكملت قواه الظاهرة والباطنة، ثم انتقل من هذا الطور ورجع إلى الضعف والشيبة والهرم. ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾: بحسب حكمته، ومن حكمته أن يُري العبد ضعفه، وأن قوته محفوفة بضعفين، وأنه ليس له من نفسه إلا النقص، ولولا تقوية الله له؛ لما وصل إلى قوة وقدرة، ولو استمرت قوته في الزيادة؛ لطغى وبغى وعتا، وليعلم العباد كمال قدرة الله، التي لا تزال مستمرة؛ يخلق بها الأشياء، ويدبر بها الأمور، ولا يلحقها إعياء ولا ضعف ولا نقص بوجه من الوجوه.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِرُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ (٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمَ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾.

﴿٥٥﴾ يخبر تعالى عن يوم القيامة وسرعة مجيئه، وأنه إذا قامت الساعة؛ أقسم ﴿المجرمون﴾: بالله أنهم ﴿ما لبثوا﴾: في الدنيا ﴿إلا ساعة﴾، وذلك اعتذار منهم؛ لعله ينفعهم العذر، واستقصار لمدة الدنيا. ولما كان قولهم كذباً لا حقيقة له؛ قال تعالى: ﴿كذلك كانوا يؤفكون﴾؛ أي: ما زالوا وهم في الدنيا يؤفكون عن الحقائق ويأتفكون الكذب؛ ففي الدنيا كذبوا الحق الذي جاء<sup>(١)</sup> به المرسلون، وفي الآخرة أنكروا الأمر المحسوس، وهو اللبث الطويل في الدنيا؛ فهذا خلقهم القبيح، والعبد يبعث على ما مات عليه.

(١) في (ب): «جاءتهم».

﴿٥٦﴾ وقال الذين أوتوا العلم والإيمان؛ أي: من الله عليهم بهما، وصارا وصفاً لهم، العلم بالحق والإيمان المستلزم إثبات الحق، وإذا كانوا عالمين بالحق، مؤثرين له؛ لزم أن يكون قولهم مطابقاً للواقع مناسباً لأحوالهم؛ فلماذا قالوا الحق: ﴿لقد لبثتم في كتاب الله﴾؛ أي: في قضائه وقدره الذي كتبه الله عليكم وفي حكمه ﴿إلى يوم البعث﴾؛ أي: عُمَرتُم عمراً يتذكَّر فيه المتذكَّر، ويتدبَّر فيه المتدبِّر ويعتبر فيه المعبر، حتى صار البعث، ووصلتُم إلى هذه الحال. ﴿فلماذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون﴾: فلذلك أنكرتموه في الدنيا، وأنكرتُم إقامتكم في الدنيا وقتاً تتمكنون فيه من الإنابة والتوبة، فلم يزل الجهلُ شعاركم، وآثاره من التكذيب والخسارِ دثاركم.

﴿٥٧﴾ ﴿فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم﴾: فإن كذبوا، وزعموا أنهم ما قامت عليهم الحجَّة، أو ما تمكَّنوا من الإيمان؛ ظهر كذبهم بشهادة أهل العلم والإيمان وشهادة جلودهم وأيديهم وأرجلهم، وإن طلبوا الإعذار، وأنهم يردُّون، ولا يعودون لما نُهوا عنه؛ لم يمكَّنوا؛ فإنه فات وقت الإعذار، فلا تُقبل معذرتهم. ﴿ولا هم يستغثون﴾؛ أي: يُزال عتبهم والعتاب عنهم.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿٥٨ - ٥٩﴾ أي: ﴿ولقد ضربنا﴾: لأجل عنايتنا ورحمتنا ولطفنا وحسن تعليمنا للناس في هذا القرآن من كلِّ مثل: تتَّضح به الحقائق وتُعرف به الأمور وتنقطع به الحجَّة، وهذا عامٌّ في الأمثال التي يضرُّها الله في تقريب الأمور المعقولة بالمحسوسة، وفي الإخبار بما سيكون وجلاء حقيقته حتى كأنه وَقَعَ، ومنه في هذا الموضع ذكرُ الله تعالى ما يكون يوم القيامة، وحالة المجرمين فيه، وشدة أسفهم، وأنه لا يقبل منهم عذرٌ ولا عتاب، ولكن أبى الظالمون الكافرون إلا معاندة الحق الواضح، ولهذا قال: ﴿ولئن جئتهم بآية﴾؛ أي: أي آية تدلُّ على صحة ما جئت به، ﴿ليقولنَّ الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون﴾؛ أي: قالوا للحق: إنه باطل! وهذا من كفرهم وجراءتهم وطبع الله على قلوبهم وجَهَلهم المفرط، ولهذا قال: ﴿كذلك يطبعُ الله على قلوب الذين لا يعلمون﴾: فلا يدخلها خيرٌ، ولا تدرك الأشياء على حقيقتها، بل ترى الحقَّ باطلاً والباطل حقاً.



﴿٦٠﴾ ﴿فاصبر﴾: على ما أمرت به وعلى دعوتهم إلى الله ولو رأيت منهم إعراضاً؛ فلا يصدّتك ذلك. ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾؛ أي: لا شك فيه، وهذا مما يُعين على الصبر؛ فإنَّ العبد إذا علم أنَّ عمله غير ضائع، بل سيجده كاملاً؛ هانَّ عليه ما يلقاه من المكاره، وتيسر<sup>(١)</sup> عليه كلُّ عسير، واستقلَّ من عمله كلُّ كثير. ﴿وَلَا يَسْتَخْفِنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾؛ أي: قد ضعف إيمانهم وقلَّ يقينهم فخفتَ لذلك أحلامهم، وقلَّ صبرهم؛ فإيّاك أن يستخفك هؤلاء؛ فإنك إن لم تجعلهم<sup>(٢)</sup> منك على بالٍ، وتحذّر منهم، وإلّا؛ استخفوك وحملوك على عدم الثبات على الأوامر والنواهي، والنفوس تساعدهم على هذا، وتطلّب التشبّه والموافقة<sup>(٣)</sup>، وهذا مما يدلُّ على أنَّ كلَّ مؤمن موقن رزين العقل؛ يسهلُّ عليه الصبر، وكلُّ ضعيف اليقين؛ ضعيف العقل خفيفه؛ فالأول بمنزلة اللب، والآخر بمنزلة القشور. فالله المستعان.



## تفسير سورة لقمان

[وهي] مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

﴿٢﴾ يشيرُ تعالى إشارة دالّة على التعظيم إلى ﴿آيات الكتاب الحكيم﴾؛ أي: آياته محكمة صدرت من حكيم خبير.

ومن<sup>(٤)</sup> إحكامها أنها جاءت بأجلّ الألفاظ وأفصحها وأبينها، الدالّة على أجلّ المعاني وأحسنها.

ومن إحكامها أنها محفوظة من التغيير والتبديل والزيادة والنقص والتحريف.

(٢) في (ب): «تجعل».

(٤) في (ب): «من».

(١) في (ب): «ويسر».

(٣) في (ب): «والمرافقة».

ومن إحكامها أن جميع ما فيها من الأخبار<sup>(١)</sup> السابقة واللاحقة والأمور الغيبية كلها مطابقة للواقع، مطابق لها الواقع، لم يخالفها كتاب من الكتب الإلهية، ولم يخبر بخلافها نبي من الأنبياء، ولم يأت ولن يأتي علم محسوس ولا معقول صحيح يناقض ما دلّت عليه.

ومن إحكامها أنها ما أمرت بشيء إلا وهو خالص المصلحة أو راجحها، ولا نهت عن شيء إلا وهو خالص المفسدة أو راجحها، وكثيراً ما يجمع بين الأمر بالشيء مع ذكر حكمته وفائدته، والنهي عن الشيء مع ذكر مضرته.

ومن إحكامها أنها جمعت بين الترغيب والترهيب والوعظ البليغ الذي تعتدل به النفوس الخيرة، وتحتكم فتعمل بالحزم.

ومن إحكامها: أنك تجد آياتها<sup>(٢)</sup> المتكررة كالقصص والأحكام ونحوها قد اتفقت كلها وتواطأت، فليس فيها تناقض ولا اختلاف؛ فكلما ازداد بها البصير تدبراً وأعمل فيها العقل تفكيراً؛ انبهر عقله وذهل لبه من التوافق والتواطؤ، وجزم جزماً لا يمتري فيه أنه تنزيل من حكيم حميد.

﴿٣﴾ ولكن مع أنه حكيم يدعو إلى كل خلق كريم وينهى عن كل خلق لئيم، أكثر الناس محرومون من الاهتداء به، معرضون عن الإيمان والعمل به؛ إلا من وفقه الله تعالى وعصمه، وهم المحسنون في عبادة ربهم، والمحسنون إلى الخلق؛ فإنه ﴿هدى﴾: لهم يهديهم إلى الصراط المستقيم، ويحذرهم من طرق الجحيم. ﴿ورحمة﴾: لهم تحصل لهم به السعادة في الدنيا والآخرة والخير الكثير والثواب الجزيل والفرح والسرور، ويندفع عنهم الضلال والشقاء.

﴿٤﴾ ثم وصف المحسنين بالعلم التام، وهو اليقين الموجب للعمل والخوف من عقاب الله، فيتركون معاصيه، ووصفهم بالعمل، وخص من العمل عمليين فاضلين: ﴿الصلاة﴾ المشتملة على الإخلاص، ومناجاة الله تعالى، والتعبد العام للقلب واللسان والجوارح المعينة على سائر الأعمال. ﴿والزكاة﴾: التي تزكي صاحبها من الصفات الرذيلة، وتنفع أخاه المسلم وتسد حاجته، ويبين بها أن العبد يؤثر محبة الله على محبته للمال، فيخرج<sup>(٣)</sup> محبوبه من المال لما هو أحب إليه، وهو طلب مرضاة الله.

(٢) في (ب): «آياته».

(١) في (ب): «الأحكام».

(٣) في (ب): «فيخرجه».

﴿٥﴾ فَ﴿أَوْلَٰئِكَ﴾: المحسنون الجامعون بين العلم التام والعمل ﴿على هدى﴾؛ أي: عظيم كما يفيدُه التنكيرُ، وذلك الهدى حاصلٌ لهم وواصلٌ إليهم ﴿من ربهم﴾: الذي لم يزل يرببهم بالنعمة ويدفع عنهم النقمَ، ولهذا الهدى الذي أوصله إليهم من تربيته الخاصّة بأوليائه، وهو أفضلُ أنواع التربية. ﴿وأولئك هم المفلحون﴾: الذين أدركوا رضا ربهم وثوابه الدنيوي والأخروي، وسلموا من سخطه وعقابه، وذلك لسلوكلهم طريق الفلاح، الذي لا طريق له غيرها.

ولمَّا ذَكَرَ تعالى المهتدين بالقرآن المقلبين عليه؛ ذَكَرَ من أَعْرَضَ عنه ولم يرفع به رأساً، وأتته عوقب على ذلك بأن تَعَوَّضَ عنه كل باطل من القول، فترك أعلى الأقوال وأحسن الحديث، واستبدل به أسفل قول وأقبحه؛ فلذلك قال:

﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا نُنْتَلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَنَسَاهُ يُعَذِّبُ آلِيمٌ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾.

﴿٦﴾ أي: ﴿ومن الناس من﴾ هو محرومٌ مخذولٌ ﴿يشترى﴾؛ أي: يختارُ ويرغب رغبة من يبذلُ الثمن في الشيء، ﴿لهو الحديث﴾؛ أي: الأحاديث الملهية للقلوب، الصادّة لها عن أجلٍ مطلوب، فدخل في هذا كلُّ كلامٍ محرّمٍ وكلُّ لغوٍ وباطلٍ<sup>(١)</sup> وهذيان؛ من الأقوال المرغبة في الكفر والفسوق والعصيان، ومن أقوال الرادين على الحقّ المجادلين بالباطل ليُدْحِضُوا به الحقّ، ومن غيبةٍ ونميمةٍ وكذبٍ وشمٍ وسبٍّ، ومن غناءٍ ومزامير شيطان. ومن الماجريات الملهية التي لا نفع فيها في دين ولا دنيا؛ فهذا الصنف من الناس ﴿يشترى لهو الحديث﴾ عن هدي الحديث ﴿ليضل﴾ الناس ﴿بغير علم﴾؛ أي: بعد ما ضلَّ في فعله أضلُّ غيره؛ لأنَّ الإضلال ناشئٌ عن الضلال، وإضلاله في هذا الحديث صدّه عن الحديث النافع والعمل النافع والحقّ المُبين والصرائط المستقيم، ولا يتمُّ له هذا حتى يقدر في الهدى والحقّ، ويتخذ آيات الله هُزُوًا، يَسْخَرُ<sup>(٢)</sup> بها ويمنَّ جاء بها؛ فإذا جمع بين مدح الباطل والترغيب فيه والقدح في الحقّ والاستهزاء به وبأهله؛ أضلُّ مَنْ لا علم

(١) في (ب): «لغو باطل».

(٢) في (ب): «وسخر».

عنده، وَخَدَعَهُ بما يوحيه إليه من القول الذي لا يميّزه ذلك الضالُّ، ولا يعرف حقيقته، ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ (مهين)﴾<sup>(١)</sup>: بما ضلُّوا، وأضلُّوا، واستهزؤوا بآيات الله، وكذبوا الحقَّ الواضح.

﴿٧﴾ ولهذا قال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾: ليؤمنَ بها وينقادَ لها، ﴿وَلَىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾؛ أي: أدبر إِدبار مستكبرٍ عنها رادُّ لها ولم تدخل قلبه ولا أثرت فيه بل أدبر عنها ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾، بل: ﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾؛ أي: صمماً لا تصل إليها الأصوات؛ فهذا لا حيلة في هدايته. ﴿فبَشِّرْهُ﴾: بشارَةٌ تؤثر في قلبه الحزن والغم، وفي بشرته السوء والظلمة والغبرة، ﴿بعذاب اليم﴾: مؤلم لقلبه ولبدنه، لا يقاдр قدره، ولا يُدرى بعظيم أمره؛ فهذه<sup>(٢)</sup> بشارَةٌ أهل الشرِّ؛ فلا نعمتِ البشارة.

﴿٨ - ٩﴾ وأما بشارَةٌ أهل الخير؛ فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: جمعوا بين عبادة الباطن بالإيمان والظاهر بالإسلام والعمل الصالح، ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾: بشارَةٌ لهم بما قدّموه وقرى لهم بما أسلفوه ﴿خالدين فيها﴾؛ أي: في جنات النعيم نعيم القلب والروح والبدن. ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾: لا يمكن أن يُخلف ولا يغيّر ولا يتبدّل. ﴿وهو العزيز الحكيم﴾: كامل العزّة، كامل الحكمة، من عزّته وحكمته، وُقِّ من وُقِّ، وخَدَل بحسب ما اقتضاه علمه فيهم وحكمته.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَالْأَرْضِ رَواسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾.

﴿١٠﴾ يتلو تعالى على عباده آثاراً من آثار قدرته وبدائع من بدائع حكمته ونعماً من آثار رحمته، فقال: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ﴾: السبع على عظمها وسعتها وكثافتها وارتفاعها الهائل ﴿بغير عمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾؛ أي: ليس لها عمَد، ولو كان لها عمَد؛ لرؤيت، وإنما استقرّت، واستمسكت بقدره الله تعالى، ﴿وَألقى في الأرض رواسي﴾؛ أي: جبلاً عظيمة ركزها في أرجائها وأنحائها لئلا تميد بكم؛ فلو لا الجبال الراسيات؛ لمادت الأرض ولما استقرّت ساكنيها، ﴿وبثَّ فيها من كلِّ

(١) في النسختين: ﴿اليم﴾. والآية: ﴿مهين﴾.

(٢) في (ب): «وهذه».

دَابَّةٍ؛ أي: نشر في الأرض الواسعة من جميع أصناف الدواب التي هي مسخرة لبني آدم ولمصالحهم ومنافعهم، ولما بثها في الأرض؛ علم تعالى أنه لا بد لها من رزق تعيش به، فأنزل من السماء ماء مباركاً، ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾: المنظر، نافع، مبارك، فرتعت فيه الدواب المنبئة، وسكن إليه كل حيوان.

﴿١١﴾ ﴿هَذَا﴾؛ أي: خَلَقُ الْعَالَمِ الْعُلُويِّ وَالسَّفَلِيِّ من جماد وحيوانٍ وسوق أرزاق الخلق إليهم، ﴿خَلَقَ اللَّهُ﴾: وحده لا شريك له، كلُّ مَقْرٌ بِذَلِكَ، حتى أنتم يا معشر المشركين، ﴿فَأُرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾؛ أي: الذين جعلتموهم له شركاء تدعونهم وتعبدونهم، يلزم على هذا أن يكون لهم خَلَقٌ كَخَلْقِهِ وَرِزْقٌ كَرِزْقِهِ؛ فَإِنْ كَانَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ؛ فَأُرُونِيهِ؛ لِيَصِحَّ مَا ادَّعَيْتُمْ فِيهِمْ مِنْ اسْتِحْقَاقِ الْعِبَادَةِ. ومن المعلوم أنهم لا يقدرُونَ أَنْ يُرَوْهُ شَيْئاً مِنَ الْخَلْقِ لَهَا؛ لِأَنَّ جَمِيعَ الْمَذْكُورَاتِ قَدْ أَفْرُوا أَنَّهَا خَلَقَ اللَّهُ وَحْدَهُ، وَلَا تَمَّ شَيْءٌ يَعْلَمُ غَيْرَهَا، فثبت عجزهم عن إثبات شيء لها تستحق به أن تُعْبَدَ، وَلَكِنْ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهَا عَنْ غَيْرِ عِلْمٍ وَبِصِيرَةٍ، بَلْ عَنْ جَهْلٍ وَضَلَالٍ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾؛ أي: جليّ واضح؛ حيث عَبَدُوا مِنْ لَا يَمْلِكُ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً وَلَا مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نَشُوراً، وَتَرَكُوا الْإِخْلَاصَ لِلْخَالِقِ الرَّازِقِ الْمَالِكِ لِكُلِّ الْأُمُورِ.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَى لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَذَا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَتَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَأَتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ تُرْ إِلَى مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ يَبْنَى إِيَّاهَا إِنْ تَكُ يَنْقَالَ حَبْرٌ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ يَبْنَى أَقْبَرِ الصَّلَاةِ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ

وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١١﴾ .

﴿١٢﴾ يخبرُ تعالى عن امتنائه على عبده الفاضل لقمان بالحكمة، وهي العلم بالحق على وجهه وحكمته؛ فهي العلم بالأحكام، ومعرفة ما فيها من الأسرار والأحكام؛ فقد يكون الإنسان عالماً ولا يكون حكيماً، وأما الحكمة؛ فهي مستلزمة للعلم، بل وللعمل، ولهذا فُسِّرَت الحكمةُ بالعلم النافع والعمل الصالح. ولما أعطاه الله هذه المنة العظيمة؛ أمره أن يشكره على ما أعطاه؛ ليبارك له فيه، وليزيده من فضله، وأخبره أن شكر الشاكرين يعودُ نفعه عليهم، وأن من كفر فلم يشكر الله؛ عاد وبال ذلك عليه، والله غني عنه حميدٌ فيما يقدره ويقضيه على من خالف أمره؛ فغناه تعالى من لوازم ذاته، وكونه حميداً في صفات كماله حميداً في جميل صنعه من لوازم ذاته، وكل واحد من الوصفين صفة كمال، واجتماع أحدهما إلى الآخر زيادة كمال إلى كمال.

واختلف المفسرون هل كان لقمان نبياً أو عبداً صالحاً<sup>(١)</sup>، والله تعالى لم يذكر عنه إلا أنه آتاه الحكمة، وذكر بعض ما يدل على حكمته في وعظه لابنه، فذكر أصول الحكمة وقواعدها الكبار، فقال:

﴿١٣﴾ ﴿وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه﴾؛ أو: قال له قولاً به يعظه، والوعظ: الأمر والنهي<sup>(٢)</sup> المقرون بالترغيب والترهيب؛ فأمره بالإخلاص ونهاه عن الشرك وبيّن له السبب في ذلك، فقال: ﴿إن الشرك لظلمٌ عظيمٌ﴾: ووجه كونه عظيماً أنه لا أفظع وأبشع ممّن سوّى المخلوق من تراب بمالك الرقاب، وسوّى الذي لا يملك من الأمر شيئاً بمالك الأمر كله، وسوّى الناقص الفقير من جميع الوجوه بالربّ الكامل الغني من جميع الوجوه، وسوّى من لم يُنعم بمثقال ذرة من النعم، بالذي ما بالخلق من نعمة في دينهم ودنياهم وأخراهم وقلوبهم وأبدانهم إلا منه، ولا يصرف السوء إلا هو؛ فهل أعظم من هذا الظلم شيء؟! وهل أعظم ظلماً ممّن

(١) قال ابن كثير: «ولهذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبياً، وإنما ينقل كونه نبياً عن عكرمة إن صح السند إليه، فإنه رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث وكيع عن إسرائيل عن جابر عن عكرمة قال: كان لقمان نبياً، وجابر هذا ابن يزيد الجعفي، وهو ضعيف، والله أعلم». «تفسير ابن كثير» (٦/٣٣٧).

(٢) في (ب): «يعظه بالأمر والنهي».

خلقه الله لعبادته وتوحيده، فذهب بنفسه الشريفة، فجعلها في أخسّ المراتب، جعلها عابدة لمن لا يسوى شيئاً، فظلم نفسه ظلماً كبيراً؟!!

﴿١٤﴾ ولما أمر بالقيام بحقه بترك الشرك الذي من لوازمه القيام بالتوحيد؛ أمر بالقيام بحق الوالدين، فقال: ﴿ووصينا الإنسان﴾؛ أي: عهدنا إليه وجعلناه وصيةً عنده سنسأله عن القيام بها وهل حفظها أم لا؟ فوصيناه ﴿بوالديه﴾، وقلنا له: ﴿اشكّر لي﴾: بالقيام بعبوديتي وأداء حقوقي وأن لا تستعينَ بنعمي على معصيتي ﴿ولوالديك﴾: بالإحسان إليهما بالقول اللين والكلام اللطيف والفعل الجميل والتواضع لهما وإكرامهما وإجلالهما والقيام بمؤونتهما واجتناب الإساءة إليهما من كل وجه بالقول والفعل، فوصيناه بهذه الوصية وأخبرناه أن ﴿إليّ المصير﴾؛ أي: سترجع أيها الإنسان إلى من وصاك وكلفك بهذه الحقوق، فيسألك: هل قمتَ بها فيثيبك الثواب الجزيل، أم ضيعتَها فيعاقبك العقاب الوبيل؟! ثم ذكرَ السببَ الموجبَ لبرِّ الوالدين في الأم، فقال: ﴿حملته أمه وهناً على وهن﴾؛ أي: مشقة على مشقة؛ فلا تزال تلاقي المشاقَّ من حين يكون نطفةً من الوحم والمرض والضعف والثقل وتغير الحال، ثم وجع الولادة ذلك الوجع الشديد، ثم ﴿فصاله في عامين﴾: وهو ملازمٌ لحضانه أمه وكفالتها ورضاعها. أفما يحسنُ بمن تحمّل على ولده هذه الشدائد مع شدة الحب أن يؤكد على ولده، ويوصي إليه بتمام الإحسان إليه؟

﴿١٥﴾ ﴿وإن جاهداك﴾؛ أي: اجتهد والداك ﴿على أن تشرك بي ما ليس لك به علمٌ فلا تطعهما﴾: ولا تظنَّ أن هذا داخل في الإحسان إليهما؛ لأنَّ حق الله مقدّم على حق كل أحد، ولا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق، ولم يقل: وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علمٌ؛ فعقهما، بل قال: ﴿فلا تطعهما﴾؛ أي: في الشرك<sup>(١)</sup>، وأما برُّهما؛ فاستمرَّ عليه، ولهذا قال: ﴿وصاحبتهما في الدنيا معروفًا﴾؛ أي: صحبة إحسان إليهما بالمعروف، وأما اتّباعهما وهما بحالة الكفر والمعاصي؛ فلا يتبعهما، ﴿واتبع سبيل من أناب إليّ﴾: وهم المؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله، المستسلمون لربهم، المنيبون إليه، واتّباع سبيلهم أن يسلك مسلكهم في الإنابة إلى الله، التي هي انجذابٌ دواعي القلب وإراداته إلى الله، ثم يتبعها سعي

(١) في (ب): «بالشرك».

البدن فيما يرضي الله ويقربُ منه، ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾: الطائع والعاصي والمنيب وغيره، ﴿فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: فلا يخفى على الله من أعمالهم خافيةً.

﴿١٦﴾ ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾: التي هي أصغرُ الأشياء وأحقَرُها ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾؛ أي: في وسطها، ﴿أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ﴾: في أيِّ جهة من جهاتهما؛ ﴿يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾: لسعةِ علمه وتمامِ خبرته وكمالِ قدرته، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾؛ أي: لطف في علمه رَخبيرته، حتى أطلع على البواطن والأسرار وخفايا القفار والبحار. والمقصودُ من هذا الحثِّ على مراقبة الله والعمل بطاعته مهما أمكن، والترهيبُ من عمل القبيح قلَّ أو كثُر.

﴿١٧﴾ ﴿يَا بَنِيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾: حثُّه عليها وخصَّها لأنها أكبرُ العبادات البدنية، ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾: وذلك يستلزم العلم بالمعروف؛ ليأمر به، والعلم بالمنكر؛ لينهى عنه، والأمر بما لا يتمُّ الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر إلَّا به، من الرفق والصبر، وقد صرَّح به في قوله: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾: ومن كونه فاعلاً لما يأمر به، كافاً لما يُنهى عنه، فتضمَّن هذا تكميلَ نفسه بفعل الخير وترك الشر، وتكميلَ غيره بذلك بأمره ونهيه. ولما عَلِمَ أنه لا بدَّ أن يُبتلى إذا أمر ونهى وأنَّ في الأمر والنهي مشقة على النفوس؛ أمره بالصبر على ذلك، فقال: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ﴾: الذي وَعَظَ به لقمانُ ابنه ﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾؛ أي: من الأمور التي يُعزَّمُ عليها، ويهتمُّ بها، ولا يوفق لها إلا أهلُ العزائم.

﴿١٨﴾ ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾؛ أي: لا تُجملهُ وتعبس بوجهك للناس تكبراً عليهم وتعاضماً، ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا﴾؛ أي: بطراً فخرأً بالنعم ناسياً المنعم معجباً بنفسك. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾: في نفسه وهيبته وتعاضمه ﴿فَخُورٍ﴾: بقوله.

﴿١٩﴾ ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾؛ أي: امش متواضعاً مستكيناً لا مشي البطر والتكبر ولا مشي التماوت، ﴿وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾: أدباً مع الناس ومع الله، ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ﴾؛ أي: أفظعها وأبشعها ﴿لِصَوْتِ الْحَمِيرِ﴾: فلو كان في رفع الصوت البليغ فائدةٌ ومصلحةٌ؛ لما اختصَّ بذلك الحمار الذي قد عَلِمْتَ خسئته وبلاذته.

وهذه الوصايا التي وصَّى بها لقمانُ لابنه؛ تجمَعُ أمهاتِ الحكم، وتستلزم ما لم



يُذَكِّرُ مِنْهَا<sup>(١)</sup>، وكلُّ وصية يُقرن بها ما يدعو إلى فعلها إن كانت أمراً وإلى تركها إن كانت نهياً، وهذا يدلُّ على ما ذكرنا في تفسير الحكمة: أنها العلم بالأحكام وحكمتها ومناسباتها: فأمره بأصل الدين وهو التوحيد، ونهاه عن الشرك، وبيّن له الموجب لتركه. وأمره ببرِّ الوالدين، وبيّن له السبب الموجب لبرِّهما، وأمره بشكره وشكرهما، ثم احترز بأن محلَّ برِّهما وامثال أوامرهما ما لم يأمر بمعصية، ومع ذلك؛ فلا يعثُّهما، بل يحسُن إليهما، وإن كان لا يطيعهما إذا جاهداه على الشرك. وأمره بمراقبة الله وخوفه القدوم عليه، وأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من الخير والشِّرِّ إلَّا أتى بها، ونهاه عن التكبر. وأمره بالتواضع ونهاه عن البَطْرِ والأشْرِ والمرح. وأمره بالسُّكُون في الحركات والأصوات، ونهاه عن ضدِّ ذلك. وأمره بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الصلاة وبالصبر اللذين يسهل بهما كلُّ أمر؛ كما قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾. فحقيق بمن أوصى بهذه الوصايا أن يكون مخصوصاً بالحكمة مشهوراً بها، ولهذا من مَنَّة الله [عليه وعلى سائر] عباده أن قصَّ عليهم من حكمته ما يكون لهم به أسوة حسنة.

﴿الَّذِينَ تَرَوُا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهَرَ وَبَاطِنًا وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَبِّئُكَ مَا وجدْنَا عَلَيْهِ آيَاتًا تَأْوَلُو كَان الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾.

﴿٢٠ - ٢١﴾ يمتنُّ تعالى على عباده بنعمه، ويدعوهم إلى شكرها ورؤيتها وعدم الغفلة عنها، فقال: ﴿ألم تروا﴾؛ أي: تشاهدوا وتبصروا بأبصاركم وقلوبكم، ﴿أنَّ الله سَخَّرَ لَكُمْ ما في السموات﴾: من الشمس والقمر والنجوم كلها مسخرات لنفع العباد، ﴿وما في الأرض﴾: من الحيوانات والأشجار والزروع والأنهار والمعادن ونحوها؛ كما قال تعالى: ﴿هو الذي خَلَقَ لَكُمْ ما في الأرض جميعاً﴾، ﴿وأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: عمَّكم وغمركم نعمه الظاهرة والباطنة؛ التي نعلم بها والتي تخفى علينا؛ نعم الدنيا ونعم الدين، حصول المنافع ودفع المضار؛ فوظيفتكم أن تقوموا بشكر هذه النعم بمحبة المنعم والخضوع له وصرفها في الاستعانة على طاعته وأن لا يُستعان بشيء منها على معصيته. ﴿و﴾ لكن مع توالي هذه النعم ﴿منَّ الناس من﴾: لم يشكروها، بل كفرها، وكفر بمن أنعم بها، وجحد الحق الذي أنزل

(١) في (ب): «فيها».

به كتبه، وأرسل به رسله، فجعل ﴿يجادل في الله﴾؛ أي: يجادل عن الباطل ليدحض به الحق، ويدفع به ما جاء به الرسول من الأمر بعبادة الله وحده، ولهذا المجادل على غير بصيرة؛ فليس جداله عن علم؛ فيترك شأنه، ويسمح له في الكلام. ﴿ولا هدى﴾: يقتدي به بالمهتدين ﴿ولا كتاب منير﴾؛ أي: نير مبين للحق؛ فلا معقول ولا منقول ولا اقتداء بالمهتدين، وإنما جداله في الله مبنئ على تقليد آباء غير مهتدين، بل ضالين مضلين، ولهذا قال: ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله﴾: على أيدي رسله؛ فإنه الحق، وبُيِّنَتْ لهم أدلته الظاهرة، ﴿قالوا﴾ معارضين ذلك: ﴿بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا﴾: فلا نترك ما وجدنا عليه آباءنا لقول أحد كائناً من كان. قال تعالى في الرد عليهم وعلى آبائهم: ﴿أولئكَ كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير﴾؛ أي: فاستجاب له آباؤهم، ومشوا خلفه، وصاروا من تلاميذ الشيطان، واستولت عليهم الحيرة؛ فهل هذا موجب لاتباعهم لهم ومشيهم على طريقتهم؟! أم ذلك يرهبهم من سلوك سبيلهم، وينادي على ضلالهم وضلال من تبعهم؟! وليس دعوة الشيطان لآبائهم ولهم محبة لهم ومودة، وإنما ذلك عداوة لهم ومكر لهم، وبالْحَقِيقَةِ أتباعه من أعدائه الذين تمكن منهم، وظفر بهم، وقرت عينه<sup>(١)</sup> باستحقاقهم عذاب السعير بقبول دعوته.

﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿٢٢﴾ ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾؛ أي: يخضع له وينقاد له بفعل الشرائع مخلصاً له دينه، ﴿وهو محسن﴾: في ذلك الإسلام؛ بأن كان عمله مشروعاً، قد أتبع فيه الرسول ﷺ، أو: ومن يسلم وجهه إلى الله بفعل جميع العبادات وهو محسن فيها؛ بأن يعبد الله كأنه يراه؛ فإن لم يكن يراه؛ فإنه يراه. أو: ومن يسلم وجهه إلى الله بالقيام بحقوقه، وهو محسن إلى عباد الله، قائم بحقوقهم، والمعاني متلازمة، لا فرق بينها إلا من جهة اختلاف مورد اللفظتين، وإلا؛ فكلها متفقة على القيام بجميع شرائع الدين على وجه تقبل به وتكمل؛ فمن فعل ذلك؛

(١) في (ب): «عينهم».

﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾؛ أي: بالعروة التي من تمسك بها؛ توثق ونجا وسلم من الهلاك وفاز بكل خير، ومن لم يسلم وجهه لله، أو: لم يحسن؛ لم يستمسك بالعروة الوثقى، وإذا لم يستمسك [بالعروة الوثقى]؛ لم يكن ثم إلا الهلاك واليوار. ﴿وإلى الله عاقبة الأمور﴾؛ أي: رجوعها وموتها ومنتهاها، فيحكم في عباده ويجازيهم بما آلت إليه أعمالهم، ووصلت إليه عواقبهم، فليستعدوا لذلك الأمر.

﴿٢٣﴾ ﴿ومن كفر فلا يحزنك كفره﴾: لأنك أدت ما عليك من الدعوة والبلاغ؛ فإذا لم يهتد<sup>(١)</sup>؛ فقد وجب أجرك على الله، ولم يبق للحزن موضع على عدم اهتدائه؛ لأنه لو كان فيه خير؛ لهداه الله، ولا تحزن أيضاً على كونهم تجرؤوا عليك بالعداوة، ونابدوك المحاربة، واستمروا على غيهم وكفرهم، ولا تتحرق عليهم بسبب أنهم ما بودروا بالعذاب، إن ﴿إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا﴾: من كفرهم وعداوتهم وسعيهم في إطفاء نور الله وأذى رسله. إنه ﴿عليم بذات الصدور﴾: التي ما نطق بها الناطقون؛ فكيف بما ظهر وكان شهادة؟!

﴿٢٤﴾ ﴿نمتعهم قليلاً﴾: في الدنيا؛ ليزداد إثمهم ويتوفر عذابهم. ﴿ثم نضطرهم﴾؛ أي: نلجئهم ﴿إلى عذاب غليظ﴾؛ أي: انتهى في عظمه وكبره وفضاعته وألمه وشدته.

﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ (٢٥) ﴿لله ما في السموات والأرض إن الله هو الغني الحميد﴾ (٢٦) ﴿ولو أنما في الأرض من شجرة أقلن وألبحر يمد من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم﴾ (٢٧) ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كفيس واحدة إن الله سميع بصير﴾ (٢٨) .

﴿٢٥﴾ أي: ﴿ولئن﴾ سألت هؤلاء المشركين المكذبين بالحق: ﴿من خلق السموات والأرض﴾: لعلموا أن أصنامهم ما خلقت شيئاً من ذلك، ولبادروا بقولهم: ﴿الله﴾: الذي خلقهما وحده، ف﴿قل﴾ لهم ملزماً لهم ومحتجاً عليهم بما أقرؤا به على ما أنكروا: ﴿الحمد لله﴾: الذي بين النور وأظهر الاستدلال عليكم من أنفسكم؛ فلو كانوا يعلمون؛ لجزموا أن المنفرد بالخلق والتدبير هو الذي يُفرد

(١) في (ب): «يهتدوا».

بالعبادة والتوحيد، ولكن ﴿أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: فلذلك أشركوا به غيره، ورَضُوا بتناقض ما ذهبوا إليه على وجه الحيرة والشك لا على وجه البصيرة.

﴿٢٦﴾ ثم ذكر في هاتين الآيتين نموذجاً من سعة أوصافه؛ ليدعو عباده إلى معرفته ومحبته وإخلاص الدين له، فذكر عموم ملكه، وأن جميع ما في السماوات والأرض، وهذا شامل لجميع العالم العلوي والسفلي؛ أنه ملكه، يتصرف فيهم بأحكام الملك القدرية وأحكامه الأمرية وأحكامه الجزائية؛ فكلهم عبيد مماليك مدبرون مسخرون، ليس لهم من الملك شيء، وأنه واسع الغنى؛ فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه أحد من الخلق، ﴿ما أريد منهم من رزقٍ وما أريد أن يُطعمون﴾، وأن أعمال النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين لا تنفع الله شيئاً، وإنما تنفع عامليها، والله غني عنهم وعن أعمالهم، ومن غناه أن أغناهم وأقناهم في دنياهم وأخراهم.

ثم أخبر تعالى عن سعة حمده، وأن حمده من لوازم ذاته؛ فلا يكون إلا حميداً من جميع الوجوه؛ فهو حميد في ذاته، وهو حميد في صفاته؛ فكل صفة من صفاته يستحق عليها أكمل حمد وأتمه؛ لكونها صفات عظيمة وكمال، وجميع ما فعله وخلقه يُحمد عليه، وجميع ما أمر به ونهى عنه يُحمد عليه، وجميع ما حكم به في العباد وبين العباد في الدنيا والآخرة يُحمد عليه.

﴿٢٧﴾ ثم أخبر عن سعة كلامه وعظمة قوله بشرح يبلغ من القلوب كل مبلغ، وتنبه له العقول وتحير فيه الأفئدة وتسيح في معرفته أولو الأبواب والبصائر، فقال: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام﴾: يكتب بها، ﴿والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر﴾: مداداً يستمدُّ بها؛ لتكسرت تلك الأقلام، ولفني ذلك المداد، ولم تنفذ كلمات الله: وهذا ليس مبالغة لا حقيقة له، بل لما علم تبارك وتعالى أن العقول تتقاصر عن الإحاطة ببعض صفاته، وعلم تعالى أن معرفته لعباده أفضل نعمة أنعم بها عليهم وأجل منقبة حصلوها، وهي لا تمكّن على وجهها، ولكن ما لا يُدرك كله لا يُترك كله، فنبههم تعالى على بعضها تنبيهاً تستنير به قلوبهم، وتنسّخ له صدورهم، ويستدلون بما وصلوا إليه إلى ما لم يصلوا إليه، ويقولون كما قال أفضلهم، وأعلمهم بربه: «لا نُخصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»<sup>(١)</sup>، وإلا؛ فالأمر أجل من ذلك وأعظم.

(١) كما في «صحيح مسلم» (٤٨٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وهذا التمثيلُ من باب تقريب المعنى الذي لا يُطاق الوصول إليه إلى الأفهام والأذهان، وإلّا؛ فالأشجار وإن تضاعفت على ما ذُكِرَ أضعافاً كثيرة، والبحور لو امتدّت بأضعاف مضاعفة؛ فإنّه يُتصوّر نفاذها وانقضاؤها؛ لكونها مخلوقةً، وأمّا كلام الله تعالى؛ فلا يُتصوّر نفاذه، بل دلّنا الدليلُ الشرعيُّ والعقليُّ على أنّه لا نفاذ له ولا منتهى؛ فكل شيء ينتهي إلّا الباري وصفاته، ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾، وإذا تصوّر العقلُ حقيقة أوّلِيّته تعالى وآخِرِيّته، وأنّ<sup>(١)</sup> كلّ ما فرضه الذهنُ من الأزمان السابقة مهما تسلسل الفرض والتقدير؛ فهو تعالى قبل ذلك إلى غير نهاية، وأنّه مهما فرض الذهنُ والعقلُ من الأزمان المتأخّرة وتسلسل الفرض والتقديرُ وساعد على ذلك مَنْ ساعد بقلبه ولسانه؛ فالله تعالى بعد ذلك إلى غير غايةٍ ولا نهاية، والله في جميع الأوقات يحكمُ ويتكلّمُ ويقولُ ويفعلُ كيف أراد، وإذا أراد، لا مانع له من شيء من أقواله وأفعاله؛ فإذا تصوّر العقلُ ذلك؛ عرف أن المثل الذي ضربه الله لكلامه لِيُذَرِّكَ العبادُ شيئاً منه، وإلّا؛ فالأمرُ أعظم وأجلُّ.

ثم ذكر جلاله عزّته وكمال حكمته، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ أي: له العزّة جميعاً الذي ما في العالم العلويّ والسفليّ من القوّة إلّا منه، هو الذي أعطاهم للخلق؛ فلا حول ولا قوّة إلّا به، وبِعزّته قهر الخلق كلّهم، وتصرف فيهم ودبرهم، وبحكمته خَلَقَ الخلق، وابتدأه بالحكمة، وجعل غايته والمقصود منه الحكمة، وكذلك الأمرُ والنهي وُجِدَ بالحكمة، وكانت غايته المقصودة الحكمة؛ فهو الحكيم في خلقه وأمره.

﴿٢٨﴾ ثم ذكر عظمة قدرته وكمالها، وأنّه لا يمكن أن يتصوّرها العقلُ، فقال: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بِعُنْكُمْ إِلَّا كُنُفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾: وهذا شيءٌ يحير العقول: أن خَلَقَ جميع الخلق على كثيرتهم وبعثهم بعد موتهم بعد تفرّقهم في لمحة واحدة كخلقهم نفساً واحدة؛ فلا وجه لاستبعاد البعث والتشور والجزاء على الأعمال؛ إلّا الجهل بعظمة الله وقوّة قدرته. ثم ذكّر عموم سمعِهِ لجميع المسموعات وبصرِهِ لجميع المبصرات، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ

(١) في (ب): «وأنه».

يَجْرِي إِلَيْكَ لِأَجْلِ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْباطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ .

﴿٢٩﴾ وهذا فيه أيضاً انفراده بالتصرف والتدبير، وسعة تصرفه بإيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل؛ أي: إدخال أحدهما على الآخر؛ فإذا دخل أحدهما؛ ذهب الآخر، وتسخيره للشمس والقمر يجريان بتدبير ونظام لم يختل منذ خلقهما؛ ليقيم بذلك من مصالح العباد ومنافعهم في دينهم ودنياهم ما به يعتبرون ويتفعلون، و﴿كل﴾ منهما ﴿يجري إلى أجل مسمى﴾: إذا جاء ذلك الأجل؛ انقطع جريانهما وتعطل سلطانهما، وذلك في يوم القيامة حين تكوّر الشمس، ويخسف القمر، وتنتهي دار الدنيا، وتبتدىء الدار الآخرة. ﴿وأن الله بما تعملون﴾: من خير وشر. ﴿خبير﴾: لا يخفى عليه شيء من ذلك، وسيجازيكم على تلك الأعمال بالثواب للمطيعين والعقاب للعاصين.

﴿٣٠﴾ ﴿ذلك﴾<sup>(١)</sup>: الذي بين لكم من عظمته وصفاته ما بين ﴿بأن الله هو الحق﴾: في ذاته وفي صفاته، ودينه حق، ورسله حق، ووعدته حق، ووعدته حق، وعبادته هي الحق. ﴿وأن ما يدعون من دونه الباطل﴾: في ذاته وصفاته؛ فلولا إيجاد الله له؛ لما وُجد، ولولا إمداده؛ لما بقي؛ فإذا كان باطلاً؛ كانت عبادته أبطل وأبطل. ﴿وأن الله هو العليُّ﴾: بذاته فوق جميع مخلوقاته الذي علت صفاته أن يقاس بها صفات [أحد من الخلق]، وعلا على الخلق؛ فقهرهم ﴿الكبير﴾: الذي له الكبرياء في ذاته وصفاته، وله الكبرياء في قلوب أهل السماء والأرض.

﴿ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمت الله ليريهكم من آياته إن في ذلك لآية لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَّجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا بَجَنَّهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمَنَّهُمْ مُّقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ .

﴿٣١﴾ أي: ألم تر من آثار قدرته ورحمته وعنايته بعباده أن سخر البحر تجري فيه الفلك بأمره القدرتي ولطفه وإحسانه؛ ﴿ليريهكم من آياته﴾: ففيها الانتفاع والاعتبار. ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ فهم المنتفعون بالآيات ﴿صبار﴾

(١) في (ب): «وذلك».

على الضراء. ﴿شكور﴾ على السراء، صَبَّارٍ على طاعة الله وعن معصيته وعلى أقداره، شكورٍ لله على نِعَمِهِ الدنيئة والدنيوة.

﴿٣٢﴾ وذكر تعالى حال الناس عند ركوبهم البحر وغشيان الأمواج كالظلل فوقهم أنهم يخلصون الدعاء لله والعبادة، ﴿فلما نجَّاهم إلى البر﴾: انقسموا فريقين: فرقة مقتصدة؛ أي: لم تقم بشكر الله على وجه الكمال، بل هم مذنبون ظالمون لأنفسهم، وفرقة كافرة لنعمة الله جاحدة لها، ولهذا قال: ﴿وما يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾؛ أي: غدار، ومن غدره أنه عاهد ربه لئن أنجيتنا من البحر وشدته ل نكونن من الشاكرين. فغدر، ولم يف بذلك. ﴿كفور﴾: لنعم الله؛ فهل يليق بمن نجَّاهم الله من هذه الشدة إلا القيام التام بشكر نعم الله؟!

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ أَنْفُؤُا رَبِّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْرِي وَالِدٌ عَنْ وَالدِّهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَايزٌ عَن وَالدِّهِ شَيْئًا إِنَّ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَغْرَنُّكُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغْرَنُّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿٣٣﴾ يأمر تعالى الناس بتقواه، التي هي امتثال أوامره وترك زواجره، ويستلفتهم لخشية يوم القيامة، اليوم الشديد الذي فيه كلُّ أحدٍ لا يهّمه إلا نفسه. و﴿لا يجزي والدٌ عن ولده ولا مولودٌ﴾ عن والده شيئاً: لا يزيد في حسناته ولا ينقص من سيئاته، قد تمَّ على كلِّ عبدٍ عمله، وتحقَّق عليه جزاؤه. فلفتُ النظر لهذا اليوم المهيل مما يقوي العبد ويسهل عليه تقوى الله، وهذا من رحمة الله بالعباد؛ يأمرهم بتقواه التي فيها سعادتهم، ويعدُّهم عليها الثواب، ويحذِّرهم من العقاب، ويزعجهم إليه بالمواعظ والمخوفات، فلك الحمد يا ربَّ العالمين. ﴿إنَّ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾: فلا تمتروا فيه، ولا تعملوا عمل غير المصدق؛ فلهذا قال: ﴿فلا تَغْرَنُّكُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾: بزينتها وزخارفها وما فيها من الفتن والمحن. ﴿ولا يَغْرَنُّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾: الذي هو الشيطان، الذي ما زال يخدع الإنسان، ولا يغفل عنه في جميع الأوقات؛ فإنَّ لله على عباده حقًا، وقد وعدهم موعداً يجازيهم فيه بأعمالهم وهل وفوا حقَّه أم قصَّروا فيه؟ وهذا أمرٌ يجب الاهتمام به، وأن يجعله العبد نصب عينيه ورأس مال تجارته التي يسعى إليه، ومن أعظم العوائق عنه والقواطع دونه الدنيا الفتانة والشيطان الموشوس المسوول، فهي تعالى عباده أن تغرهم الدنيا أو يغرهم بالله الغرور، ﴿يعدُّهم ويمنِّيهم وما يعدُّهم الشيطان إلا غروراً﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا

تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ .

﴿٣٤﴾ قد تقرر أن الله تعالى أحاط علمه بالغيب والشهادة والظواهر والبواطن، وقد يُطْلَعُ اللهُ عبادَه على كثير من الأمور الغيبية، وهذه الأمور الخمسة من الأمور التي طَوَى علمها عن جميع الخلق؛ فلا يعلمها نبي مرسل ولا ملك مقرَّب، فضلاً عن غيرهما، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾؛ أي: يعلم متى مُرْسَاها؛ كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاها. قُلْ إِنَّمَا عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيها لَوْعِتها إِلَّا هُوَ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً...﴾ الآية، ﴿وَيُنزَلُ الْغَيْثُ﴾؛ أي: هو المنفرد بإنزاله، وعلم وقت نزوله، ﴿ويعلم ما في الأرحام﴾: فهو الذي أنشأ ما فيها، وعلم ما هو؛ هل هو ذكَّر أم أنثى؟

ولهذا يسأل الملك الموكل بالأرحام ربّه: هل هو ذكَّر أم أنثى؟ فيقضي الله ما يشاء<sup>(١)</sup>. ﴿وما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَدًا﴾: من كَسَبَ دينها ودنياها، ﴿وما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾: بل الله تعالى هو المختص بعلم ذلك جميعه. ولَمَّا خَصَّصَ [الله] هذه الأشياء؛ عمم علمه بجميع الأشياء، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾: محيط بالظواهر والبواطن والخفايا والخبايا والسرائر، ومن حكمته التأمّة أن أخفى علم هذه الخمسة عن العباد؛ لأنّ في ذلك من المصالح ما لا يخفى على من تدبر ذلك.

تم تفسير سورة لقمان بفضل الله وعونه والحمد لله.



## تفسير سورة السجدة

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىكَ الْكِتَابَ لَا رَبَّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَنْتَ مِنْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٢﴾ .

﴿٢﴾ يخبر تعالى أن هذا الكتاب الكريم تنزيل نزل من رب العالمين، الذي

(١) كما في «صحيح البخاري» (٦٥٩٥)، و«مسلم» (٢٦٤٦) من حديث أنس رضي الله عنه.



رَبَّاهُمْ بِنِعْمَتِهِ، وَمَنْ أَعْظَمَ مَا رَبَّاهُمْ بِهِ هَذَا الْكِتَابُ، الَّذِي فِيهِ كُلُّ مَا يُصْلِحُ أَحْوَالَهُمْ وَيَتَمُّمُ أَخْلَاقَهُمْ، وَأَنْتَ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَا شَكَّ وَلَا امْتِرَاءَ.

﴿٣﴾ وَمَعَ ذَلِكَ؛ قَالَ الْمَكْذِبُونَ لِلرَّسُولِ الظَّالِمُونَ فِي ذَلِكَ: افْتَرَاهُ مُحَمَّدٌ وَاخْتَلَقَهُ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ! وَهَذَا مِنْ أَكْبَرِ الْجِرَاءَةِ عَلَى إِنْكَارِ كَلَامِ اللَّهِ، وَرَمَى مُحَمَّدٍ بِأَعْظَمِ الْكُذِبِ، وَقَدْرَةَ الْخَلْقِ عَلَى كَلَامٍ مِثْلِ كَلَامِ الْخَالِقِ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ، مِنْ الْأُمُورِ الْعِظَائِمِ، قَالَ اللَّهُ رَادًّا عَلَى مَنْ قَالَ: افْتَرَاهُ: ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ﴾: الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿مَنْ رَبُّكَ﴾: أَنْزَلَهُ رَحْمَةً لِلْعِبَادِ، ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾؛ أَي: هُمْ فِي حَالِ ضَرُورَةٍ وَفَاقَةَ لِإِرْسَالِ الرَّسُولِ وَإِنْزَالِ الْكِتَابِ لِعَدَمِ النَّذِيرِ، بَلْ هُمْ فِي جَهْلِهِمْ يَعْصَمُونَ، وَفِي ظُلْمَةٍ ضَلَالِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ، فَأَنْزَلْنَا الْكِتَابَ عَلَيْكَ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾: مِنْ ضَلَالِهِمْ، فَيَعْرِفُونَ الْحَقَّ وَيُؤْثِرُونَهُ. وَهَذِهِ الْأَشْيَاءُ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ كُلُّهَا مُنَاقِضَةٌ لِتَكْذِيبِهِمْ لَهُ، وَإِنَّهَا تَقْتَضِي مِنْهُمْ الْإِيمَانَ وَالتَّصَدِيقَ التَّامَّ بِهِ، وَهُوَ كَوْنُهُ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأَنْتَ حَقٌّ، وَالْحَقُّ مَقْبُولٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَأَنْتَ لَا رَيْبَ فِيهِ بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ؛ فَلَيْسَ فِيهِ مَا يُوجِبُ الرَّيْبَةَ؛ لَا بِخَبَرٍ غَيْرِ مُطَابِقٍ لِلْوَاقِعِ<sup>(١)</sup>، وَلَا بِخَفَاءٍ وَاشْتِبَاهٍ مَعَانِيهِ، وَأَنْهُمْ فِي ضَرُورَةٍ وَحَاجَةٍ إِلَى الرَّسَالَةِ، وَأَنْ فِيهِ الْهَدَايَةَ لِكُلِّ خَيْرٍ وَإِحْسَانٍ.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ ④ يَذُرُّ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ⑤ ذَلِكَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ⑥ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ⑦ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ⑧ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوْحِهِ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ⑨ ﴿

﴿٤﴾ يَخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كِمَالِ قُدْرَتِهِ بِخَلْقِهِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، أَوْلَاهَا يَوْمَ الْأَحَدِ، وَآخِرَهَا الْجُمُعَةَ، مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى خَلْقِهَا بِلِحْظَةٍ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى رَفِيقٌ حَكِيمٌ، ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾: الَّذِي هُوَ سَقْفُ الْمَخْلُوقَاتِ اسْتِوَاءً يَلِيقُ بِجَلَالِهِ، ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾: يَتَوْلَاكُمْ فِي أُمُورِكُمْ فَيَنْفَعُكُمْ ﴿وَلَا شَفِيعَ﴾:

(١) فِي (ب): «لَا بِخَبَرٍ لَا يَطَابِقُ الْوَاقِعَ».

يشفعُ لكم إن توجّه عليكم العقاب. ﴿أفلا تتذكرون﴾: فتعلمون أن خالق الأرض والسموات، المستوي على العرش العظيم، الذي انفرد بتدبيركم وتوليكم، وله الشفاعة كلها، هو المستحق لجميع أنواع العبادة!

﴿٥﴾ ﴿يدبّر الأمر﴾: القدريّ والأمر الشرعيّ، الجميع هو المنفرد بتدبيره، نازلة تلك التدابير من عند الملك القدير، ﴿من السماء إلى الأرض﴾: فيسعدُ بها ويشقي، ويغني ويفقر، ويعزّ ويذلّ ويكرم ويهين، ويرفع أقواماً ويضع آخرين، وينزل الأرزاق، ﴿ثم يعرجُ إليه﴾؛ أي: الأمر ينزل من عنده، ويعرجُ إليه ﴿في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون﴾: وهو يعرجُ إليه، ويصله في لحظة.

﴿٦﴾ ﴿ذلك﴾: الذي خلق تلك المخلوقات العظيمة، الذي استوى على العرش العظيم، وانفرد بالتدابير في المملكة، ﴿عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم﴾: فسعة علمه وكمال عزّته وعموم رحمته أوجدّها، وأودع فيها من المنافع ما أودع، ولم يعسر عليه تدبيرها.

﴿٧﴾ ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه﴾؛ أي: كل مخلوق خلقه الله؛ فإن الله أحسن خلقه، وخلقَه خلقاً يليقُ به ويوافقُه؛ فهذا عامٌّ، ثم خصّ آدمي لشرفه وفضله، فقال: ﴿وبدأ خلق الإنسان من طين﴾: وذلك بخلق آدم عليه السلام أبي البشر.

﴿٨﴾ ﴿ثم جعل نسله﴾؛ أي: ذرية آدم ناشئة ﴿من ماء مهين﴾: وهو النطفة المستقدرة الضعيفة.

﴿٩﴾ ﴿ثم سواه﴾ بلحمه وأعضائه وأعصابه وعروقه، وأحسن خلقته، ووضع كل عضو منه بالمحل الذي لا يليقُ به غيره، ﴿ونفخ فيه من روحه﴾: بأن أرسل إليه الملك؛ فينفخ فيه الروح، فيعود بإذن الله حيواناً بعد أن كان جماداً، ﴿وجعل لكم السمع والأبصار﴾؛ أي: ما زال يعطيكم من المنافع شيئاً فشيئاً حتى أعطاكم السمع والأبصار ﴿والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾: الذي خلقكم، وصوركم.

﴿وقالوا أيذا ضللنا في الأرض أيّنا لفي خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كفرون ﴿١٠﴾ قل يتوفّلكم ملك الموت الذي وكلّ بكم ثمّ إلى ربّكم ترجعون ﴿١١﴾﴾.

﴿١٠﴾ أي: قال المكذّبون بالبعث على وجه الاستبعاد: ﴿إذا ضللنا في الأرض﴾؛ أي: بلينا وتمزّقنا وتفرّقنا في المواضع التي لا تعلم، ﴿إننا لفي خلق

جديد؛ أي: لمبعوثون بعثاً جديداً؛ بزعمهم أن هذا من أبعد الأشياء! وذلك بقياسهم<sup>(١)</sup> قدرة الخالق على قُدْرِهِمْ<sup>(٢)</sup>، وكلامهم هذا ليس لطلب الحقيقة، وإنما هو ظلمٌ وعنادٌ وكفرٌ بلقاء ربهم وجحدٌ، ولهذا قال: ﴿بل هم بلقاء ربهم كافرون﴾: فكلامهم عُلِمَ<sup>(٣)</sup> مصدرهٌ وغايتهُ، وإلّا؛ فلو كان قصدُهم بيان الحق لُيِّنَ لهم من الأدلة القاطعة على ذلك ما يجعله مشاهداً للبصيرة بمنزلة الشمس للبصر، ويكفيهم أنهم عندهم<sup>(٤)</sup> عُلِمَ أنهم قد ابتدئوا من العدم؛ فالإعادةُ أسهل من الابتداء، وكذلك الأرض الميتة ينزل الله عليها المطرَ فتحيا بعد موتها، وينبتُ به متفرقٌ بذورها.

﴿١١﴾ ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وُكِّلَ بكم﴾؛ أي: جعله الله وكيلاً على قبض الأرواح، وله أعوان، ﴿ثم إلى ربكم ترجعون﴾: فيجازيكم بأعمالكم، وقد أنكرتم البعث؛ فانظروا ماذا يفعل الله بكم.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ فَذُوقُوا يَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ يَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿١٢﴾ لما ذكر تعالى رجوعهم إليه يوم القيامة؛ ذكر حالهم في مقامهم بين يديه، فقال: ﴿ولو ترى إذ المجرمون﴾: الذين أصروا على الذنوب العظيمة، ﴿ناكسوا رؤوسهم عند ربهم﴾: خاشعين خاضعين، أذلاء مقرين [بجرمهم]<sup>(٥)</sup>، سائلين الرجعة قائلين: ﴿ربنا أبصرنا وسمِعنا﴾؛ أي: بان لنا الأمرُ ورأينا عياناً، فصار عين يقين، ﴿فارجعنا نعمل صالحاً إِنَّا موقنون﴾؛ أي: صار عندنا الآن يقين بما كنا نكذب به؛ أي: لرأيت أمراً فظيماً وحالاً مزعجةً وأقواماً خاسرين وسؤالاً غير مجاب؛ لأنه قد مضى وقت الإمهال.

﴿١٣﴾ وكلُّ هذا بقضاء الله وقدره؛ حيث خلّى بينهم وبين الكفر والمعاصي؛

(٢) بقدرهم.

(٤) في (ب): «معهم».

(١) في (ب): «لقياسهم».

(٣) في (ب): «ظلم».

(٥) كذا في (ب). وفي (أ): «بجرمكم».

فلهذا قال: ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها﴾؛ أي: لهدينا الناس كلهم وجمَعناهم على الهدى، فمَشِئْتُنَا صالحةٌ لذلك، ولكنَّ الحكمة تَأبَى أن يكونوا كلهم على الهدى، ولهذا قال: ﴿ولكن حقَّ القولُ مِنِّي﴾؛ أي: وجب وثبت ثبوتاً لا تغيَّر فيه، ﴿لأملأنَّ جهنَّم من الجِنَّةِ والنَّاسِ أَجمَعينَ﴾: فهذا الوعدُ لا بدَّ منه ولا محيداً عنه؛ فلا بدَّ من تقرير أسبابه من الكفرِ والمعاصي.

﴿١٤﴾ ﴿وذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾؛ أي: يقال للمجرمين الذين ملكهم الذلُّ، وسألوا الرجعة إلى الدنيا؛ ليستدركوا ما فاتهم: قد فات وقت الرجوع، ولم يبق إلا العذابُ، فذوقوا العذابَ الأليم بما نسيتم لقاء يومكم هذا، وهذا النسيانُ نسيانُ ترك؛ أي: بما أعرضتم عنه، وتركتم العمل له، وكأنتكم غير قادمين عليه ولا ملاقيه. ﴿إنَّا نسيناكم﴾؛ أي: تركناكم بالعذاب جزاءً من جنس عملكم؛ فكما نسيتم نسيتم، ﴿وذوقوا عذابَ الخُلْدِ﴾؛ أي: العذاب غير المنقطع؛ فإنَّ العذاب إذا كان له أجلٌ وغايةٌ؛ كان فيه بعضُ التنفيس والتخفيف، وأمَّا عذابُ جهنَّم - أعادنا الله منه -؛ فليس فيه روحٌ راحةٌ ولا انقطاع لعذابهم فيها؛ ﴿بما كنتم تعملون﴾: من الكفر والفسوق والمعاصي.

﴿إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿١٥﴾ ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً وممَّا رزقناهم ينفقون﴾ ﴿١٦﴾ ﴿فلا تعلم نفسٌ ممَّا أخفى لهم من قُرءٍ أعينٍ جزاءً بما كانوا يعملون﴾ ﴿٧﴾.

﴿١٥﴾ لما ذكَّر الكافرين بآياته وما أعدَّ لهم من العذاب؛ ذكَّر المؤمنين بها ووضفهم وما أعدَّ لهم من الثواب، فقال: ﴿إنما يؤمن بآياتنا﴾؛ أي: إيماناً حقيقياً من يوجد منه شواهد الإيمان، وهم ﴿الذين إذا ذكروا﴾ بآيات ربهم، فتليَّت عليهم آيات القرآن، وأنتهم النصائح على أيدي رسل الله، ودعوا إلى التذكُّر؛ سمعواها فقبلوها وانقادوا و﴿خرُّوا سُجَّدًا﴾؛ أي: خاضعين لها خضوعَ ذكْرٍ لله وفرح بمعرفته، ﴿وسبَّحوا بحمدِ ربهم وهم لا يستكبرون﴾: لا بقلوبهم ولا بأبدانهم فيمتنعون من الانقياد لها، بل متواضعون لها، قد تلقَّوها بالقبول والتسليم وقابلوها بالانشراح والتسليم، وتوصَّلوا بها إلى مرضاة الربِّ الرحيم، واهتَدَوْا بها إلى الصراط المستقيم.

﴿١٦﴾ ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾؛ أي: ترتفع جنوبهم وتنزعج عن

مضاجعها اللذيذة إلى ما هو ألدُّ عندهم منه وأحبُّ إليهم، وهو الصلاة في الليل ومناجاة الله تعالى، ولهذا قال: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾؛ أي: في جلب مصالحهم الدينية والدينيَّة ودفع مضارِّهما ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾؛ أي: جامعين بين الوصفين؛ خوفاً أن تُرَدَّ أعمالهم، وطمعاً في قبولها؛ خوفاً من عذاب الله، وطمعاً في ثوابه، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾: من الرزق قليلاً أو كثيراً، ﴿يُنْفِقُونَ﴾: ولم يذكر قيد النفقة، ولا المنفق عليه؛ ليدلُّ على العموم؛ فإنه يدخل فيه النفقة الواجبة؛ كالزكوات والكفارات ونفقة الزوجات والأقارب، والنفقة المستحبة في وجوه الخير، والنفقة والإحسان المالي خيرٌ مطلقاً؛ سواء وافق فقيراً أو غنياً<sup>(١)</sup>، قريباً أو بعيداً، ولكن الأجر يتفاوت بتفاوت النفع، فهذا عملهم.

﴿١٧﴾ وأما جزاؤهم؛ فقال: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾: يدخل فيه جميع نفوس الخلق؛ لكونه نكرة في سياق النفي؛ أي: فلا يعلم أحدٌ ﴿مَا أَخْفَى لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾: من الخير الكثير والنعيم الغزير والفرح والسرور واللذة والحبور؛ كما قال تعالى على لسان رسوله: «أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطرَ على قلب بشر»<sup>(٢)</sup>؛ فكما صلُّوا في الليل ودعوا وأخفوا العمل؛ جازاهم من جنس عملهم، فأخفى أجرهم، ولهذا قال: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿١٨﴾ ينبئه تعالى العقول على ما تقرَّرَ فيها من عدم تساوي المتفاوتين المتباينين، وأن حكمته تقتضي عدم تساويهما، فقال: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا﴾: قد عمَّر قلبه بالإيمان، وانقادت جوارحه لشرائعه، واقتضى إيمانه آثاره وموجباته من ترك مساختِ الله التي يضرُّ وجودها بالإيمان، ﴿كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا﴾: قد خرب قلبه وتعطل من الإيمان، فلم يكن فيه وازعٌ ديني، فأسرعت جوارحه بموجبات الجهل

(١) في (ب): «غنياً أو فقيراً».

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٧٩) ومسلم (٢٨٢٤) عن أبي هريرة.

والظلم في<sup>(١)</sup> كل إثم ومعصية، وخرج بنفسه عن طاعة ربه، أفيستوي هذان الشخصان؟! ﴿لا يستوون﴾: عقلاً وشرعاً؛ كما لا يستوي الليل والنهار والضيء والظلمة، وكذلك لا يستوي ثوابهما في الآخرة.

﴿١٩﴾ ﴿أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾: من فروض ونوافل، ﴿فلهم جنات﴾ ﴿المأوى﴾؛ أي: الجنات التي هي مأوى اللذات، ومعدن الخيرات، ومحل الأفراح، ونعيم القلوب والنفوس والأرواح، ومحل الخلود، وجوار الملك المعبود، والتمتع بقربه والنظر إلى وجهه وسماع خطابه، ﴿نزلاً﴾: لهم؛ أي: ضيافة وقرى؛ ﴿وما كانوا يعملون﴾: فأعمالهم التي تفضل الله بها عليهم هي التي أوصلتهم لتلك المنازل الغالية العالية، التي لا يمكن التوصل إليها ببذل الأموال، ولا بالجنود والخدم، ولا بالأولاد، بل ولا بالنفوس والأرواح، ولا يتقرب إليها بشيء أصلاً سوى الإيمان والعمل الصالح.

﴿٢٠﴾ ﴿وأما الذين فسقوا فمأواهم النار﴾؛ أي: مقرهم ومحل خلودهم النار، التي جمعت كل عذاب وشقاء، ولا يُقترن عنهم العقاب ساعة، ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها﴾: فكلما حدثتهم إرادتهم بالخروج لبلوغ العذاب منهم كل مبلغ؛ زدوا إليها، فذهب عنهم روح ذلك الفرج، واشتد عليهم الكرب، ﴿وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون﴾.

فهذا عذاب النار الذي يكون فيه مقرهم ومأواهم، وأما العذاب الذي قبل ذلك ومقدمة له، وهو عذاب البرزخ؛ فقد ذكّر بقوله:

﴿وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَأَسْفُوتَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿٢١﴾ أي: ولنذيقنهم المذبذبين نموذجاً من العذاب الأدنى، وهو عذاب البرزخ، فنذيقهم طرفاً منه قبل أن يموتوا؛ إما بعذاب بالقتل ونحوه كما جرى لأهل بدر من المشركين، وإما عند الموت؛ كما في قوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسهم اليوم تُجزون عذاب الهون﴾، ثم يكمل لهم العذاب الأدنى في برزخهم.

وهذه الآية من الأدلة على إثبات عذاب القبر، ودلالاتها ظاهرة؛ فإنه قال:

(١) في (ب): «من».

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ﴾؛ أي: بعض وجزء منه، فدلَّ على أن ثَمَّ عذاباً أدنى قبل العذاب الأكبر، وهو عذاب النار، ولما كانت الإذاقة من العذاب الأدنى في الدنيا قد لا يتَّصلُ بها الموت، فأخبر تعالى أنه يذيقهم ذلك؛ لعلهم يرجعون إليه، ويتوبون من ذنوبهم؛ كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْفِقُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿٢٢﴾ أي: لا أحد أظلم وأزيد تعدياً ممن ذُكِّرَ بآياتِ ربِّه، التي أوصلها إليه ربُّه، الذي يريد تربيته وتكميل نعمته عليه على يد رسليهِ، تأمره وتذكُّره مصالحة الدينيَّة والدينيويَّة، وتنهاء عن مضارِّه الدينيَّة والدينيويَّة، التي تقتضي أن يقابلها بالإيمان والتسليم والانقياد والشكر، فقابلها هذا الظالم بضدِّ ما ينبغي، فلم يؤمن بها ولا اتَّبَعها، بل أعرض عنها وتركها وراء ظهره؛ فهذا من أكبر المجرمين، الذين يستحقُّون شديد العقوبة، ولهذا قال: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْفِقُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿٢٣﴾ لما ذكر تعالى آياته التي ذُكِّرَ بها عباده، وهو القرآن الذي أنزله على محمد ﷺ، ذكر أنه ليس ببدع من الكتب، ولا من جاء به بغريب من الرسل، فقد أتى الله ﴿موسى الكتاب﴾: الذي هو التوراة المصدَّقة للقرآن، التي قد صدَّقها القرآن، فتطابق حَقُّهما، وثبت برهانُهما. ﴿فلا تكن في مريَّة من لقائه﴾: لأنَّه قد تواردت أدلَّة الحقِّ وبياناته، فلم يبق للشكِّ والمريَّة محلٌّ، ﴿وجعلناه﴾؛ أي: الكتاب الذي آتينا موسى ﴿هدى لبني إسرائيل﴾: يهتدون به في أصول دينهم، وفروعهم، وشرائعه موافقةً لذلك الزمان في بني إسرائيل، وأما هذا القرآن الكريم؛ فجعله الله هدايةً للناس كلِّهم؛ لأنَّه هدايةٌ للخلق في أمر دينهم ودنياهم إلى يوم القيامة، وذلك لكمالِهِ وعلوِّهِ، ﴿وإنَّه في أم الكتاب لدينا لعلِّي حكيمٌ﴾.

﴿٢٤﴾ ﴿وجعلنا منهم﴾؛ أي: من بني إسرائيل، ﴿أئمة يهدون بأمرنا﴾؛ أي: علماء بالشرع وطرق الهداية مهتدين في أنفسهم يهدون غيرهم بذلك الهدى؛ فالكتاب الذي أنزل إليهم هدى، والمؤمنون به منهم على قسمين: أئمة يهدون

بأمرِ الله، وأتباع مهتدون بهم، والقسمُ الأول أرفع الدرجات بعد درجة النبوة والرسالة، وهي درجة الصديقين، وإنما نالوا هذه الدرجة العالية، ﴿لما صبروا﴾: على التعلُّم والتعليم والدعوة إلى الله والأذى في سبيله، وكفوا نفوسهم عن جماحها في المعاصي واسترسالها في الشهوات. ﴿وكانوا بآياتنا يوقنون﴾؛ أي: وصلوا في الإيمان بآيات الله إلى درجة اليقين، وهو العلم التام الموجب للعمل، وإنما وصلوا إلى درجة اليقين؛ لأنهم تعلّموا تعلّمًا صحيحًا، وأخذوا المسائل عن أدلتها المفيدة لليقين، فما زالوا يتعلّمون المسائل، ويستدلّون عليها بكثرة الدلائل، حتى وصلوا لذلك؛ فبالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين.

﴿٢٥﴾ وثمّ مسائل اختلف فيها بنو إسرائيل، منهم من أصاب فيها الحقّ، ومنهم من أخطأه خطأ أو عمدًا، والله تعالى ﴿يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾: وهذا القرآن يقصّ على بني إسرائيل بعض الذي يختلفون فيه؛ فكلّ خلاف وقع بينهم، ووُجد في القرآن تصديق لأحد القولين؛ فهو الحقّ، وما عداه مما خالفه باطلٌ.

﴿أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مسكيتهم إن في ذلك لآياتٍ أفلا يسمعون ﴿٢٦﴾ أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الفرج فنجريه فيه زرعًا تأكل منه أنفهم وأنفسهم أفلا يبصرون ﴿٢٧﴾﴾.

﴿٢٦﴾ يعني: أولم يتبيّن لهؤلاء المكذّبين للرسول<sup>(١)</sup> ويهديهم إلى الصواب كم أهلكنا قبلهم من القرون الذين سلّكوا مسلكهم، ﴿يمشون في مساكنهم﴾: فيشاهدونها عيانًا؛ كقوم هود وصالح وقوم لوط. ﴿إن في ذلك لآياتٍ﴾: يستدلّ بها على صدق الرسل التي جاءتهم، وبطلان ما هم عليه من الشرك والشرّ، وعلى أنّ مَنْ فعل مثل فعلهم؛ ففعل بهم كما فعل بأشباعه من قبل، وعلى أنّ الله تعالى مجازي العباد وباعثهم للحشر والتناد. ﴿أفلا يسمعون﴾: آيات الله، فيعونها، فينتفعون بها؛ فلو كان لهم سمعٌ صحيحٌ وعقلٌ رجيحٌ؛ لم يقيموا على حالة يجزم بها<sup>(٢)</sup> بالهلاك.

(١) في (ب): «لرسل».

(٢) في (ب): «لم يجزم».



﴿٢٧﴾ ﴿أولم يَرَوْا﴾: بأبصارهم نعمتنا وكمال حكمتنا، ﴿أنا نسوقُ الماء إلى الأرض الجرز﴾: التي لا نبات فيها، فيسوق الله المطر الذي لم يكن قبلُ موجوداً فيها، فيفرغُه فيها من السحاب أو من الأنهار؛ ﴿فنخرجُ به زرعاً﴾؛ أي: نباتاً مختلف الأنواع، ﴿تأكلُ منه أَعْمَاهُمْ﴾: وهو نباتُ البهائم ﴿وأنفسُهُمْ﴾: وهو طعام الآدميين. ﴿أفلا يبصرون﴾: تلك المنة التي أحيا الله بها البلاد والعباد، فيستبصرون فيهتدون بذلك البصر وتلك البصيرة إلى الصراط المستقيم؟ ولكن غلب عليهم العمى، واستولت عليهم الغفلة، فلم يبصروا في ذلك بصر الرجال، وإنما نظروا إلى ذلك نظر الغفلة ومجرد العادة، فلم يوفقوا للخير.

﴿ويقولون﴾ متى هذا الفتح إن كنتم صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَاَنْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ ﴿٣٠﴾.

﴿٢٨﴾ أي: يستعجلُ المجرمون بالعذاب الذي وُعدوا به على التأكيد جهلاً منهم ومعاندة، ﴿ويقولون متى هذا الفتح﴾: الذي يفتح بيننا وبينكم بتعدينا على زعمكم ﴿إن كنتم﴾ [أيها الرسل] ﴿صَادِقِينَ﴾: في دعواكم.

﴿٢٩﴾ ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ﴾: الذي يحصلُ به عقابكم لا تستفيدون به شيئاً؛ فلو كان إذا حَصَلَ؛ حَصَلَ إِمَاهُكُمْ لتستدركوا ما فاتكم حين صار الأمر عندكم يقيناً؛ لكان لذلك وجه، ولكن إذا جاء يومُ الفتح؛ انقضى الأمر، ولم يبق للمحنة والابتلاء محلٌّ، فلا ﴿ينفعُ الذين كفروا إيمانهم﴾: لأنه صار إيماناً ضرورة، ﴿ولا هم يُنظَرُونَ﴾؛ أي: يُمهَلون، فيؤخَّر عنهم العذاب، فيستدركون أمرهم.

﴿٣٠﴾ ﴿فأعرض عنهم﴾: لما وصل خطابهم لك وظلمهم إلى حالة الجهل واستعجال العذاب. ﴿وانتظر﴾: الأمر الذي يحلُّ بهم؛ فإنه لا بدُّ منه، ولكن له أجلٌ إذا جاء لا يتقدَّم ولا يتأخَّر، ﴿إنهم منتظرون﴾: بك رَبِّب المنون، ومرتبصون بكم دوائر السوء، والعاقبة للتعوى.

تم تفسير سورة السجدة بحول الله ومَنه. فله تعالى كمال الحمد والثناء والمجد.



## تفسير سورة الأحزاب

[وهي] مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ آتَى اللَّهِ وَلَا تُطِيعُ الْكُفْرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾  
وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ  
وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾ .

﴿١ - ٢﴾ أي: يا أيها الذي من الله عليه بالنبوة واختصه بوحيه وفضله على سائر الخلق! اشكر نعمه ربك عليك باستعمال تقواه التي أنت أولى بها من غيرك، والذي يجب عليك منها أعظم من سواك؛ فامتثل أوامره ونواهيه، وبلغ رسالاته، وأد إلى عبادته وخيه، وابدل النصيحة للخلق، ولا يصدنك عن هذا المقصود صاذاً ولا يردك عنه راداً، فلا تطع كل كافرٍ قد أظهر العداوة لله ولرسوله<sup>(١)</sup>، ولا منافق قد استطن الكذب والكفر وأظهر ضده؛ فهؤلاء هم الأعداء على الحقيقة؛ فلا تطعمهم في بعض الأمور التي تنقض التقوى وتناقضها، ولا تتبع أهواءهم؛ يضلوك عن الصواب. ﴿و﴾ لكن ﴿اتبع ما يوحي إليك من ربك﴾: فإنه هو الهدى والرحمة، وارج بذلك ثواب ربك؛ فإنه ﴿بما تعملون خبيراً﴾: يجازيكم بحسب ما يعلمه منكم من الخير والشر.

﴿٣﴾ فإن وقع في قلبك أنك إن لم تطعمهم في أهوائهم المضلة؛ حصل عليك منهم ضرر، أو حصل نقص في هداية الخلق؛ فادفع ذلك عن نفسك، واستعمل ما يقاومه ويقاوم غيره، وهو التوكل على الله؛ بأن تعتمد على ربك اعتماد من لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً في سلامتك من شرهم وفي إقامة الدين الذي أمرت به، وثق بالله في حصول ذلك الأمر على أي حال كان.

﴿وكفى بالله وكيلاً﴾: توكل إليه الأمور، فيقوم بها وبما هو أصلح للعبد، وذلك لعلمه بمصالح عبده من حيث لا يعلم العبد، وقدرته على إيصالها إليه من حيث لا يقدر عليها العبد، وأنه أرحم بعبده من نفسه ومن والديه وأرأف به من كل

(١) في (ب): «ورسوله».

أحدي، خصوصاً خواصَّ عبيده، الذين لم يزل يرئبهم بربّه ويدرّ عليهم بركاته الظاهرة والباطنة، خصوصاً وقد أمره بإلقاء أمره إليه، ووعدّه أن يقوم بها؛ فهناك لا تسأل عن كلّ أمرٍ يتيسّر، وصعب يتسهّل<sup>(١)</sup>، وخطوب تهون، وكروب تزول، وأحوال وحوائج تُقضى، وبركات تنزل، ونقَم تُدفع، وشرور تُرفع. وهناك ترى العبد، الضعيف الذي فوض أمره لسيّده قد قام بأمرٍ لا تقوم بها أمة من الناس، وقد سهّل الله عليه ما كان يصعبُ على فحول الرجال. وباللّٰه المستعان.

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ الَّتِي تَظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾  
 ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْرَجُوهُمْ فِي الدِّينِ وَمَوْلَاكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥﴾﴾.

﴿٤﴾ يعاتبُ تعالى عباده عن التكلم بما لا حقيقة له من الأقوال، ولم يجعله الله تعالى كما قالوا؛ فإنّ ذلك القول منكم كذبٌ وزورٌ يترتب عليه منكرات من الشرع، وهذه قاعدة عامة في التكلم في كلّ شيء والإخبار بوقوع ووجود ما لم يجعله الله تعالى، ولكن خصّ هذه الأشياء المذكورة لوقوعها وشدة الحاجة إلى بيانها، فقال: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾: هذا لا يوجد؛ فإياكم أن تقولوا عن أحدي: إنّ له قلبين في جوفه، فتكونوا كاذبين على الخلقة الإلهية، ﴿وما جعل أزواجكم اللاتي تظاهرون منهن﴾: بأن يقول أحدكم لزوجته أنت عليّ كظهر أمي أو كأمي؛ فما جعلهنّ الله ﴿أمهاتكم﴾: أمك من ولدك وصارت أعظم النساء عليك حرمةً وتحريمًا، وزوجتك أحلّ النساء لك؛ فكيف تشبه أحد المتناقضين بالآخر؟! هذا أمرٌ لا يجوز؛ كما قال تعالى: ﴿الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هنّ أمهاتهم إنّ أمهاتهم إلا اللاتي ولدنهنّ وإنهن ليقولن منكراً من القول وزوراً﴾.

﴿وما جعل أدعياءكم أبناءكم﴾: والأدعياء: الولد الذي كان الرجل يدعيه وهو ليس له، أو يدعى إليه بسبب تبنيّه إيّاه؛ كما كان الأمر في الجاهلية<sup>(٢)</sup> وأول الإسلام، فأراد الله تعالى أن يُبطله ويزيله، فقدّم بين يدي ذلك بياناً قبحه، وأنّه باطلٌ وكذبٌ، وكل باطلٍ وكذبٍ لا يوجد في شرع الله ولا يتّصف به عبادة الله،

(١) في (ب): «يسهل».

(٢) في (ب): «بالجاهلية».

يقول تعالى: فالله لم يجعل الأدعياء الذين تدعونهم أو يدعون إليكم أبناءكم؛ فإن أبناءكم في الحقيقة من ولدتموهم وكانوا منكم، وأما هؤلاء الأدعياء من غيركم؛ فلا جعل الله هذا كهذا، ﴿ذلكم﴾: القول الذي تقولون في الدعوي: إنه ابن فلان الذي ادعاه، أو والده فلان، ﴿قولكم بأفواهكم﴾؛ أي: قول لا حقيقة له ولا معنى له، ﴿والله يقول الحق﴾؛ أي: اليقين والصدق؛ فلذلك أمركم باتباعه على قوله وشرعيه؛ فقولهُ حقٌ، وشرعهُ حقٌ، والأقوال والأفعال الباطلة لا تُنسب إليه بوجه من الوجوه، وليست من هدايته؛ لأنه لا يَهدي إلا إلى السبيل المستقيمة والطرق الصادقة، وإن كان ذلك واقعاً بمشيئته؛ فمشيئته عامة لكل ما وجد من خير وشر.

﴿٥﴾ ثم صرح لهم بترك الحالة الأولى المتضمنة للقول الباطل، فقال: ﴿ادعوهم﴾؛ أي: الأدعياء ﴿لآبائهم﴾: الذين ولدوهم ﴿هو أفسط عند الله﴾؛ أي: أعدل وأقوم وأهدى، ﴿فإن لم تعلموا آباءهم﴾: الحقيقيين ﴿فإخوانكم في الدين ومواليكم﴾؛ أي: إخوانكم في دين الله ومواليكم في ذلك؛ فادعوهم بالأخوة الإيمانية الصادقة والموالاتة على ذلك؛ فترك الدعوة إلى من تبناهم حتم لا يجوز فعلها، وأما دعاؤهم لآبائهم؛ فإن علموا؛ دعوا إليهم، وإن لم يعلموا؛ اقتصر على ما يُعلم منهم، وهو أخوة الدين والموالاتة؛ فلا تظنوا أن حالة عدم علمكم بآبائهم عذر في دعوتهم إلى من تبناهم؛ لأن المحذور لا يزول بذلك.

﴿وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به﴾: بأن سبق على لسان أحدكم دعوته إلى من تبناهم؛ فهذا غير مؤاخذ به، أو علم أبوه ظاهراً فدعوتومه إليه، وهو في الباطن غير أبيه<sup>(١)</sup>؛ فليس عليكم<sup>(٢)</sup> في ذلك حرج إذا كان خطأ. ﴿ولكن﴾ يؤاخذكم بما تعمدت قلوبكم من الكلام بما لا يجوز. ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾: غفر لكم ورحمكم؛ حيث لم يعاقبكم بما سلف، وسمح لكم بما أخطأتم به، ورحمكم؛ حيث بين لكم أحكامه التي تُصلح دينكم ودنياكم؛ فله الحمد تعالى.

﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أُنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَأَوْلِيَٰ الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَيْكُمْ أُولِيَٰكُمْ مَّعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾.

(١) في (ب): «ليس آباءه».

(٢) في (ب): «فليس في عليكم».

﴿٦﴾ يخبر تعالى المؤمنين خبراً يعرفون به حالة الرسول ﷺ ومرتبته، فيعاملونه بمقتضى تلك الحالة، فقال: ﴿النبيُّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾: أقرب ما للإنسان وأولى ما له نفسه؛ فالرسولُ أولى به من نفسه؛ لأنه عليه الصلاة والسلام بذلَ لهم من النصيح والشفقة والرأفة ما كان به أرحم الخلق وأرأفهم؛ فرسولُ الله أعظمُ الخلق مئةً عليهم من كلِّ أحدٍ؛ فإنه لم يصل إليهم مثقالُ ذرَّةٍ من الخير ولا اندفع عنهم مثقالُ ذرَّةٍ من الشرِّ إلا على يديه وبسببه؛ فلذلك وجب عليهم<sup>(١)</sup> إذا تعارض مرادُ النفس أو مرادُ أحدٍ من الناس مع مرادِ الرسول أن يقدم مرادِ الرسول، وأن لا يعارض قول الرسول بقول أحدٍ كائناً ما كان، وأن يفدوه بأنفسهم وأموالهم وأولادهم، ويقدموا محبته على محبة الخلق كلهم، وألا يقولوا حتى يقول، ولا يتقدموا بين يديه، وهو ﷺ أب للمؤمنين؛ كما في قراءة بعض الصحابة يربُّهم كما يربِّي الوالد أولاده، فترتب على هذه الأبوة أن كان نساؤه أمهاتهم؛ أي: في الحرمة والاحترام والإكرام، لا في الخلوة والمحرمية، وكأنَّ هذا مقدّمة لما سيأتي في قصة زيد بن حارثة، الذي كان يُدعى قبل زيد بن محمد، حتى أنزل الله: ﴿ما كان محمدٌ أباً أحدٍ من رجالكم﴾، فقطع نسبه وانتسابه منه.

فأخبر في هذه الآية أن المؤمنين كلهم أولادٌ للرسول؛ فلا مزية لأحدٍ عن أحدٍ، وإن انقطع عن أحدهم انتساب الدعوة؛ فإنَّ النسبَ الإيماني لم ينقطع عنه؛ فلا يحزن ولا يأسف، وترتب على أن زوجات الرسول أمهات المؤمنين: أنهنَّ لا يحلنَّ<sup>(٢)</sup> لأحدٍ من بعده؛ كما سيصرح<sup>(٣)</sup> بذلك، ولا يحلُّ لكم أن تتكحوا أزواجه من بعده أبداً.

﴿وأولو الأرحام﴾؛ أي: الأقارب قَرَّبوا أو بعدوا ﴿بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾؛ أي: في حكمه، فيرث بعضهم بعضاً ويبرُّ بعضهم بعضاً؛ فهم أولى من الحلف والنصرة، والأدعياء الذين كانوا من قبل يرثون بهذه الأسباب دون ذوي الأرحام، فقطع تعالى التوارث بذلك، وجعله للأقارب لطفاً منه وحكمة؛ فإنَّ الأمر لو استمرَّ على العادة السابقة؛ لحصل من الفساد والشرِّ والتحيل لحرمان الأقارب من الميراث شيءٌ كثيرٌ، ﴿من المؤمنين والمهاجرين﴾؛ أي: سواء كان الأقارب مؤمنين مهاجرين أو غير مهاجرين؛ فإنَّ ذوي الأرحام مقدّمون في ذلك. وهذه

(١) في (ب): «عليه».

(٢) في (ب): «لا يحل».

(٣) في (ب): «كما الله صرح».

(٤) في (ب): «و».

الآية حجة على ولاية ذوي الأرحام في جميع الولايات؛ كولاية النكاح والمال وغير ذلك، ﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾؛ أي: ليس لهم حق مفروض، وإنما هو بإرادتكم، إن شئتم أن تبرعوا<sup>(١)</sup> لهم تبرعاً وتعطوهم معروفاً منكم، ﴿كَانَ﴾: ذلك الحكم المذكور ﴿فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾؛ أي: قد سطر وكتب وقدره الله؛ فلا بد من نفوذه.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾.

﴿٧ - ٨﴾ يخبر تعالى أنه أخذ من النبيين عموماً ومن أولي العزم - وهم هؤلاء الخمسة المذكورون خصوصاً - ميثاقهم الغليظ وعهدهم الثقيل المؤكد على القيام بدين الله والجهاد في سبيله، وأن هذا سبيل قد مشى عليه الأنبياء المتقدمون، حتى ختموا بسيدهم وأفضلهم محمد ﷺ، وأمر الناس بالاقتراء بهم، وسيسال الله الأنبياء وأتباعهم عن هذا العهد الغليظ؛ هل وفوا فيه وصدقوا فيثيبهم جنات النعيم، أم كفروا فيعذبهم العذاب الأليم؟ قال تعالى: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾.

﴿٩ - ١١﴾ يذكر تعالى عباده المؤمنين نعمته عليهم، ويحثهم على شكرها حين جاءتهم جنود أهل مكة والحجاز من فوقهم وأهل نجد من أسفل منهم، وتعاهدوا وتعاهدوا على استئصال الرسول والصحابة، وذلك في وقعة الخندق، ومالاتهم طوائف اليهود الذين حوالي المدينة، فجاؤوا بجنود عظيمة وأمم كثيرة، وخندق رسول الله ﷺ على المدينة، فحصرها المدينة، واشتد الأمر، وبلغت القلوب الحناجر، حتى بلغ الظن من كثير من الناس كل مبلغ لما رأوا من الأسباب

(١) في (ب): «تبرعوا».

المستحكمة والشدائد الشديدة، فلم يزل الحصارُ على المدينة مدةً طويلة، والأمر كما وصف الله: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾؛ أي: الظنون السيئة أن الله لا ينصر دينه ولا يتم كلمته، ﴿هناك ابتلي المؤمنون﴾: بهذه الفتنة العظيمة، ﴿وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا﴾: بالخوف والقلق والجوع؛ لتيبين إيمانهم ويزيد إيقانهم، فظهر والله الحمد من إيمانهم وشدة يقينهم ما فاقوا فيه الأولين والآخرين. وعندما اشتدَّ الكربُ وتفاقمَت الشدائدُ؛ صار إيمانهم عين اليقين، ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾.

وهناك تبين نفاق المنافقين، وظهر ما كانوا يضمرون؛ قال تعالى:

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (١١).

﴿١٢﴾ وهذه عادة المنافق عند الشدة والمحنة؛ لا يثبت إيمانه، وينظر بعقله القاصر إلى الحالة الحاضرة<sup>(١)</sup>، ويصدق ظنه.

﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ (١٢) ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَمْطَارِهَا ثُمَّ سَبَّحُوا بِالْفِتْنَةِ لَاتَّوَّهَآ وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا بَسِيرًا﴾ (١٣) ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عِنْدَهُوَ اللَّهُ مِنْ قَبْلِ لَا يُؤْلُونَ إِلَّا نَذِيرًا وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ (١٤) ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تَمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٥) ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (١٦) ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّضِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٧) ﴿أَشْحَثَ عَلَيْكُمْ إِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأْبْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ إِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسَّيْفِ إِذْ أَشْحَثَ عَلَى الْخَيْرِ أَوْلَيْتَكَ لَوْ يُؤْمِنُوا فَاحْبَطُوا أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (١٨) ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْتَأْذِنُ عَنْ أَنْبِيَائِهِمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٩) ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ

(١) في (ب): «القاصرة».

حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَى نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنْفِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَأْتُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا ﴿٢٥﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَبَنَاتَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْعَمُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴿١﴾

﴿١٣﴾ ﴿وإذ قالت طائفة﴾: من المنافقين بعد ما جزعوا وقل صبرهم صاروا أيضاً من المخذلين؛ فلا صبروا بأنفسهم، ولا تركوا الناس من شرهم، فقالت هذه الطائفة: ﴿يا أهل يثرب﴾: يريدون: يا أهل المدينة! فنادوهم باسم الوطن المنبئ<sup>(٢)</sup> عن التسمية فيه؛ إشارة إلى أن الدين والأخوة الإيمانية ليس له في قلوبهم قدر؛ وأن الذي حملهم على ذلك مجرد الخور الطبيعي. ﴿يا أهل يثرب لا مقام لكم﴾: أي: في موضعكم الذي خرجتم إليه خارج المدينة، وكانوا عسكروا دون الخندق وخارج المدينة، ﴿فارجعوا﴾: إلى المدينة. فهذه الطائفة تُخَذَلُ عن الجهاد وتبين أنهم لا قوة لهم بقتال عدوهم ويأمرونهم بترك القتال؛ فهذه الطائفة أشد الطوائف وأضرها، وطائفة أخرى دونهم، أصابهم الجبن والجزع، وأحبوا أن ينخزلوا عن الصفوف، فجعلوا يعتذرون بالأعذار الباطلة، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة﴾؛ أي: عليها الخطر ونخاف عليها أن يهجم عليها الأعداء ونحن غيب عنها؛ فأذن لنا؛ نرجع إليها فنحرسها، وهم كذبة في ذلك، ﴿وما هي بعورة إن يريدون﴾؛ أي: ما قصدهم ﴿إلا فراراً﴾: ولكن جعلوا هذا الكلام وسيلة وعذراً لهم؛ فهؤلاء قل إيمانهم، وليس له ثبوت عند اشتداد المحن.

﴿١٤﴾ ﴿ولو دخلت عليهم﴾: المدينة ﴿من أقطارها﴾؛ أي: لو دخل الكفار إليها

(١) الآيات ما بين المعقوفتين إلى ٢٧ لا توجد في النسختين.

(٢) في (ب): «المنبي فيه».



من نواحيها واستولوا عليها؛ لا كان ذلك، ثم سُئِلَ هُوَلاء ﴿الفتنة﴾؛ أي: الانقلاب عن دينهم والرجوع إلى دين المستولين المتغلبين، ﴿لأتوها﴾؛ أي: لأعطاها مبادرين، ﴿وما تَلَبَّثُوا بها إِلَّا يسيراً﴾؛ أي: ليس لهم منعة ولا تصلُّب على الدين، بل بمجرد ما تكون الدولة للأعداء؛ يعطونهم ما طلبوا، ويوافقونهم على كفرهم.

﴿١٥﴾ هذه حالهم، والحال أنهم قد ﴿عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسؤولاً﴾: سيسألهم عن ذلك العهد، فيجدهم قد نقضوه؛ فما ظنهم إذا برُّهم؟!

﴿١٦﴾ ﴿قل﴾: لهم لائماً على فرارهم ومخبراً أنهم لا يفيدهم ذلك شيئاً: ﴿لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل﴾: فلو كنتم في بيوتكم؛ لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم، والأسباب تنفع إذا لم يعارضها القضاء والقدر؛ فإذا جاء القضاء والقدر؛ تلاشى كلُّ سبب، وبطلت<sup>(١)</sup> كل وسيلة ظنها الإنسان تنجيه، ﴿وإذا﴾: حين فررتم؛ لتسلموا من الموت والقتل، لتنعموا في الدنيا؛ فإنكم ﴿لا تمتعون إلا قليلاً﴾: متاعاً لا يسوى فراركم وترككم أمر الله وتفويتكم على أنفسكم التمتع الأبدي في النعيم السرمدى.

﴿١٧﴾ ثم بيّن أنّ الأسباب كلها لا تغني عن العبد شيئاً إذا أَرَادَهُ اللهُ بسوء، فقال: ﴿قل من ذا الذي يعصمكم﴾؛ أي: يمتنعكم من ﴿الله إن أراد بكم سوءاً﴾؛ أي: شراً، ﴿أو أراد بكم رحمة﴾: فإنه هو المعطي المانع، الضار النافع، الذي لا يأتي بالخير إلا هو، ولا يدفع السوء إلا هو، ﴿ولا يجدون لهم من دون الله ولياً﴾: يتولاهم فيجلب لهم المنافع<sup>(٢)</sup> ﴿ولا نصيراً﴾: ينصرهم<sup>(٣)</sup> فيدفع عنهم المضار؛ فلم يمتثلوا طاعة المنفرد بالأمور كلها، الذي نفذت مشيئته ومضى قدره ولم ينفخ مع ترك ولايته ونصرتيه وليّ ولا ناصر.

﴿١٨﴾ ثم توعد تعالى المخذلين المعوقين وتهددهم فقال: ﴿قد يعلم الله المعوقين منكم﴾: عن الخروج لمن لم يخرجوا، ﴿والقاتلين لإخوانهم﴾: الذين خرجوا: ﴿هلّم إلينا﴾؛ أي: ارجعوا كما تقدّم من قولهم: ﴿يا أهل يثرب لا مقام لكم فازجعوا﴾، وهم مع تعويقهم وتخذييلهم ﴿لا يأتون البأس﴾: القتال والجهاد

(٢) في (ب): «النفع».

(١) في (ب): «وبطل».

(٣) في (ب): «أي ينصرهم».

بأنفسهم، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾: فهم أشدُّ الناس حرصاً على التخلف لعدم الداعي لذلك من الإيمان والصبر، [ووجود] المقتضي للجبن من النفاق وعدم الإيمان.

﴿١٩﴾ ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾: بأبدانهم عند<sup>(١)</sup> القتال، وأموالهم عند النفقة فيه؛ فلا يجاهدون بأموالهم وأنفسهم، ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾: نظر المَغْشِي ﴿عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾: من شدَّة الجبن الذي خلع قلوبهم والقلق الذي أذهلهم وخوفاً من إجبارهم على ما يكرهون من القتال، ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ﴾: وصاروا في حال الأمن والطمأنينة؛ ﴿سَلَقُوكُمْ بِاللَّسِنَةِ حِدَادٍ﴾؛ أي: خاطبوكم وتكلّموا معكم بكلام حديد ودعوا غير صحيحة، وحين سمعهم تظنُّهم أهل الشجاعة والإقدام. ﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾: الذي يُراد منهم، وهذا شرُّ ما في الإنسان: أن يكون شحيحاً بما أمر به، شحيحاً بما له أن ينفقه في وجهه، شحيحاً في بدنيه أن يجاهد أعداء الله أو يدعو إلى سبيل الله، شحيحاً بجاهه، شحيحاً بعلمه ونصيحته ورأيه. ﴿أُولَئِكَ﴾: الذين بتلك الحالة ﴿لَمْ يُؤْمِنُوا﴾: بسبب عدم إيمانهم؛ أحبط الله أعمالهم. ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾: وأما المؤمنون؛ فقد وقَّاهم الله شحَّ أنفسهم، ووفَّقهم لبذل ما أمروا به من بذل أبدانهم في القتال في سبيله وإعلاء كلمته، وأموالهم للنفقة في طرق الخير، وجاههم وعلمهم.

﴿٢٠﴾ ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾؛ أي: يظنُّون أنَّ هؤلاء الأحزاب الذين تحزَّبوا على حرب رسول الله ﷺ وأصحابه لم يذهبوا حتى يستأصلوهم، فخاب ظنُّهم، وبطل حسابانهم. ﴿وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ﴾: مرَّةً أخرى، ﴿يُودُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ﴾؛ أي: لو أتى الأحزاب مرَّة ثانية مثل هذه المرَّة؛ ودَّ هؤلاء المنافقون أنهم ليسوا في المدينة، ولا في القرب منها، وأنهم مع الأعراب في البادية، يستخبرون عن أخباركم، ويسألون عن أنبائكم ماذا حصل عليكم؛ فتبَّأ لهم وبعداً؛ فليسوا ممن يُغالي<sup>(٢)</sup> بحضورهم، فلو ﴿كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾: فلا تبالوهم، ولا تأسوا عليهم.

﴿٢١﴾ ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾: حيث حَضَرَ الهيجا بن نفسه الكريمة، وباشر موقف الحرب وهو الشريف الكامل والبطل<sup>(٣)</sup> الباسل، فكيف تشحون

(٢) في (ب): «يبالي».

(١) في (ب): «عن».

(٣) في (ب): «الكامل البطل».

بأنفسكم عن أمرٍ جادٍ<sup>(١)</sup> رسولُ الله ﷺ بنفسه فيه، فتأسوا به في هذا الأمر وغيره.

واستدلَّ الأصوليون في هذه الآية على الاحتجاج بأفعال الرسول ﷺ، وأنَّ الأصل أنَّ أمته أسوته في الأحكام؛ إلا ما دلَّ الدليل الشرعيُّ على الاختصاص به؛ فالأسوة نوعان: أسوة حسنة وأسوة سيئة، فالأسوة الحسنه في الرسول ﷺ؛ فإنَّ المتأسِّي به سالكُ الطريق الموصول إلى كرامة الله، وهو الصراط المستقيم، وأما الأسوة بغيره إذا خالفه؛ فهو الأسوة السيئة؛ كقول المشركين<sup>(٢)</sup> حين دعته الرسل للتأسِّي بهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾؛ وهذه الأسوة الحسنه إنَّما يسلكها ويوفِّق لها مَنْ كان يرجو الله واليوم الآخر؛ فإنَّ ذلك ما معه<sup>(٣)</sup> من الإيمان وخوفِ الله ورجاءِ ثوابه وخوفِ عقابه يحثُّه على التأسِّي بالرسول ﷺ.

﴿٢٢﴾ لما ذكر حالة المنافقين عند الخوف؛ ذكر حال المؤمنين فقال: ﴿ولمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ﴾: الذين تحزَّبوا ونزلوا منازلهم وانتهى الخوف، ﴿قالوا هذا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾: في قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِبًا﴾ والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب، ﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾: فإنَّا رأينا ما أخبرنا به، ﴿وما زادهم﴾: ذلك الأمر ﴿إلا إيماناً﴾: في قلوبهم، ﴿وتسليماً﴾: في جوارحهم، وانقياداً لأمر الله.

﴿٢٣﴾ ولما ذكر أنَّ المنافقين عاهدوا الله لا يولون الأديار ونقضوا ذلك العهد؛ ذكر وفاء المؤمنين به، فقال: ﴿من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾؛ أي: وقَّوا به وأتموه وأكملوه، فبدلوا مَهَجَهُمْ في مرضاته، وسبَّلوا نفوسهم في طاعته. ﴿فمنهم من قضىٰ نجبة﴾؛ أي: إرادته ومطلوبه وما عليه من الحق، فقتل في سبيل الله أو مات مؤدياً لحقه لم ينقضه شيئاً، ﴿ومنهم من ينتظر﴾: تكميل ما عليه؛ فهو شارحٌ في قضاء ما عليه ووفاء نجبه ولما يكمله، وهو في رجاء تكميله ساع في ذلك مجدِّ، ﴿وما بدلوا تبديلاً﴾: كما بدل غيرهم، بل لم يزالوا على العهد، لا يلوون ولا يتغيرون؛ فهؤلاء الرجال على الحقيقة، ومن<sup>(٤)</sup> عداهم فضورهم صورُ رجال وأما الصفات؛ فقد قصرت عن صفات الرجال.

(٢) الكفار.

(١) في (ب): «جاء».

(٤) في (ب): «وما».

(٣) في (ب): «فإن ما معه».

﴿٢٤﴾ ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾؛ أي: بسبب صدقهم في أقوالهم وأحوالهم ومعاملتهم مع الله واستواء ظاهريهم وباطنيهم، قال الله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا...﴾. الآية؛ أي: قدرنا ما قدرنا من هذه الفتن والمحن والزلازل ليتبين الصادق من الكاذب، فيجزى الصادقين بصدقهم، ﴿ويعذب المنافقين﴾: الذين تغيرت قلوبهم وأعمالهم عند حلول الفتن، ولم يفوا بما عاهدوا الله عليه، ﴿إن شاء﴾: تعذيبهم؛ بأن لم يشأ هدايتهم، بل علم أنهم لا خير فيهم، فلم يوفقهم، ﴿أو يتوب عليهم﴾: بأن يوفقهم للتوبة والإنابة، وهذا هو الغالب على كرم الكريم، ولهذا ختم الآية باسمين دالين على المغفرة والفضل والإحسان، فقال: ﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾؛ غفوراً لذنوب المسرفين على أنفسهم، ولو أكثروا من العصيان، إذا أتوا بالمتاب. ﴿رحيماً﴾: بهم؛ حيث وفقهم للتوبة، ثم قبلها منهم، وستر عليهم ما اجترحوه.

﴿٢٥﴾ ﴿وردَّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً﴾؛ أي: ردَّهم خائبين، لم يحصل لهم الأمر الذي كانوا حريصين عليه، مغتاضين، قادرين عليه، جازمين بأن لهم الدائرة، قد غرَّتهم جموعهم وأعجبوا بتحزُّبهم وفرحوا بعددهم وعددهم، فأرسل الله عليهم ريحاً عظيمة، وهي <sup>(١)</sup> ريح الصَّبا، فزعزت مراكزهم، وقوّضت خيامهم، وكفأت قدورهم، وأزعجتهم، وضربهم الله بالرعب، فانصرفوا بغيظهم، وهذا من نصر الله لعباده المؤمنين. ﴿وكفى الله المؤمنين القتال﴾: بما صنَّع لهم من الأسباب العادية والقدرية. ﴿وكان الله قوياً عزيزاً﴾: لا يغالبه أحدٌ إلا غلب، ولا يستنصره أحدٌ إلا غلب، ولا يعجزه أمرٌ أَرادَه، ولا ينفع أهل القوة والعزة قوتهم وعزَّتهم إن لم يُعْنهم بقوته وعزَّته.

﴿٢٦﴾ ﴿وأنزل الذين ظاهروهم﴾؛ أي: عاونوهم ﴿من أهل الكتاب﴾؛ أي: من اليهود ﴿من صياصبيهم﴾؛ أي: أنزلهم من حصونهم نزولاً مظهوراً بهم مجعولين تحت حكم الإسلام، ﴿وقذف في قلوبهم الرعب﴾: فلم يقووا على القتال، بل استسلموا وخضعوا وذلُّوا. ﴿فريقاً تقتلون﴾: وهم الرجال المقاتلون، ﴿وتأسرون فريقاً﴾: من عداهم من النساء والصبيان.

(١) في (ب): «وهو».

﴿٢٧﴾ ﴿وَأُورِثِكُمْ﴾؛ أي: غنمكم ﴿أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَّوُّوهَا﴾؛ أي: أرضاً كانت من قبل من شرفها وعزتها عند أهلها لا تتمكنون من وطنها، فمكنكم الله، وخذلهم، وغممتم أموالهم، وقتلتموهم، وأسزتموهم، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾: لا يعجزه شيء، ومن قدرته قدر لكم ما قدر.

وكانت هذه الطائفة من أهل الكتاب هم بنو قريظة من اليهود في قرية خارج المدينة غير بعيد، وكان النبي ﷺ حين هاجر إلى المدينة وادعهم وهاذتهم فلم يقاتلهم ولم يقاتلوه، وهم باقون على دينهم، لم يغير عليهم شيئاً، فلما رأوا يوم الخندق الأحزاب الذين تحزبوا على رسول الله وكثرتهم وقلّة المسلمين، وظنوا أنهم سيستأصلون الرسول والمؤمنين، وساعد على ذلك تدجيل بعض رؤسائهم عليهم، فنقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ، ومالوا المشركين على قتاله، فلما خذّل الله المشركين؛ تفرغ رسول الله ﷺ لقتالهم، فحاصرهم في حصنهم، فنزلوا على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه، فحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم وتغنم أموالهم، فأتى الله لرسوله والمؤمنين المنّة، وأسبغ عليهم النعمة، وأقر أعينهم بخذلان من انخذل من أعدائهم، وقتل من قتلوا، وأسر من أسروا، ولم يزل لطف الله بعبادته المؤمنين مستمراً.

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلٌّ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرِيئَتَهَا فَتَعَالَيْكَ أُمْتَعَكُنَّ وَأُسْرِحَكُنَّ سَرَلًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾.

﴿٢٨﴾ لما اجتمع نساء رسول الله ﷺ عليه في الغيرة، وطلبن منه النفقة والكسوة؛ طلبن منه أمراً لا يقدر عليه في كل وقت، ولم يزلن في طلبهنّ متفقات وفي<sup>(١)</sup> مرادهنّ متعنتات، فشق ذلك على الرسول، حتى وصلت به الحال إلى أنه ألى منهنّ شهراً، فأراد الله أن يسهل الأمر على رسوله، وأن يرفع درجة زوجاته، ويذهب عنهنّ كل أمر ينقص أجرهنّ فأمر رسوله أن يخيرهن<sup>(٢)</sup>، فقال: ﴿وَمَا أُنْهَى النَّبِيُّ قُلٌّ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾؛ أي: ليس لكنّ في غيرها مطلب، وصرتنّ ترضين لوجودها وتغضبن لفقدها؛ فليس لي فيكنّ أربّ وحاجة وأتنّ بهذه

(١) في (ب): «متفقات في».

(٢) في (ب): «يخبرهن».

الحال، ﴿فَتَعَالَيْنِ أُمْتَعُنْ﴾: شيئاً مما عندي من الدنيا، ﴿وَأَسْرُخُكُنْ﴾؛ أي: أفرقكن ﴿سراحاً جميلاً﴾: من دون مغاضبة ولا مشاتمة، بل بسعة صدرٍ وانسراح بال، قبل أن تبلغ الحال إلى ما لا ينبغي.

﴿٢٩﴾ ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ﴾؛ أي: هذه الأشياء مرادكُنْ وغاية مقصودكُنْ، وإذا حصل لكُنْ الله ورسوله والجنة؛ لم تبالين بسعة الدنيا وضيقها ويُسرها وعُسرها، وقتعتن من رسول الله بما تيسر، ولم تطلبين منه ما يشق عليه، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمَحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾: رتب الأجر على وصفهن بالإحسان؛ لأنه السبب الموجب لذلك، لا لكونهن زوجات للرسول؛ فإن مجرد ذلك لا يكفي، بل لا يفيد شيئاً مع عدم الإحسان، فخيرهن رسول الله ﷺ في ذلك، فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة كلهن، لم<sup>(١)</sup> يتخلف منهن واحدة رضي الله عنهن.

وفي هذا التخيير فوائد عديدة:

منها: الاعتناء برسوله والغيرة عليه أن يكون بحالة يشق عليه كثرة مطالب زوجاته الدنيوية.

ومنها: سلامته ﷺ بهذا التخيير من تبعه حقوق الزوجات، وأنه يبقى في حرية نفسه إن شاء أعطى وإن شاء منع، ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له.

ومنها: تنزيهه عما لو كان فيهن من تؤثّر الدنيا على الله ورسوله والدار الآخرة عنها، وعن مقارنتها.

ومنها: سلامة زوجاته رضي الله عنهن عن الإثم والتعرض لسخط الله ورسوله، فحسم الله بهذا التخيير عنهن التسخط على الرسول الموجب لسخطه المُسخط لربه الموجب لعقابه.

ومنها: إظهار رفعتهن وعلو درجاتهن وبيان علو همهن أن كان الله ورسوله والدار الآخرة مرادهن ومقصودهن دون الدنيا وحطامها.

ومنها: استعدادهن بهذا الاختيار للأمر الخيار للوصول إلى خيار درجات الجنة وأن يكن زوجاته في الدنيا والآخرة.

(١) في (ب): «ولم».

ومنها: ظهورُ المناسبةِ بينه وبينهنَّ؛ فإنه أكملُ الخلق، وأراد اللهُ أن تكون نساؤه كاملاتٍ مكملاتٍ طيباتٍ مطيباتٍ، ﴿الطيباتُ للطيبين والطيبونُ للطيبات﴾ .

ومنها: أنَّ هذا التخييرُ داعٍ وموجبٌ للقناعة التي يطمئنُّ لها القلبُ وينشرحُ لها الصدرُ، ويزولُ عنهنَّ جشعُ الحرصِ وعدمُ الرِّضا الموجبُ لقلق القلبِ واضطرابِهِ وهَمُّه وغمُّه .

ومنها: أن يكون اختيارهنَّ لهذا سبباً لزيادة أجرهنَّ ومضاعفتِهِ، وأن يكنَّ بمرتبةٍ ليس فيها أحدٌ من النساء، ولهذا قال:

﴿يُنْسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتَهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ .

﴿٣٠﴾ لما اخترن الله ورسوله والدار الآخرة؛ ذَكَرَ مضاعفةَ أجرهنَّ ومضاعفةَ وزرهنَّ وإثمنهنَّ لو جرى منهنَّ؛ ليزداد حذرهنَّ وشكرهنَّ اللهُ تعالى، فجعل من أتى منهنَّ بفاحشةٍ ظاهرةٍ لها العذابُ ضعفين .

﴿٣١﴾ ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ﴾؛ أي: تطيع الله ورسوله وتعمل صالحاً قليلاً أو كثيراً، ﴿نُؤْتَهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾؛ أي: مثل ما نعطي غيرها مرتين، ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾: وهي الجنة، فَقَسَّتْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَعَمِلْنَ صَالِحًا، فعلم بذلك أجرهنَّ .

﴿يُنْسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَأَذْكُرَنَّ مَا بُدِّلَ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ .

﴿٣٢﴾ يقول تعالى: ﴿يا نساء النبي﴾: خطابٌ لهنَّ كلهنَّ ﴿لستُنَّ كأحدٍ من النساءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ﴾: الله؛ فإنَّكُنَّ بذلك تفقن النساء ولا يلحقكُنَّ أحدٌ من النساء؛ فكمَلْنَ التقوى بجميع وسائلها ومقاصدها، فلهذا أرشدنَّ إلى قطع وسائل المحرم، فقال: ﴿فلا تخضعن بالقول﴾؛ أي: في مخاطبة الرجال، أو بحيث يسمعون، فَتَلْنِ فِي ذَلِكَ، وتتكلمن بكلام رقيق، يدعو ويطمع ﴿الذي في قلبه مرض﴾؛ أي:

مرض شهوة الزنا فإنه مستعدٌ ينتظرُ أدنى محركٍ يحركه لأنَّ قلبه غيرُ صحيح؛ فإنَّ القلبَ الصحيحَ ليس فيه شهوةٌ لما حرَّم الله؛ فإنَّ ذلك لا تكاد تُميله ولا تُحركه الأسبابُ لصحةِ قلبه وسلامتهِ من المرض؛ بخلاف مريض القلبِ الذي لا يتحمَّلُ ما يتحمَّلُ الصحيح، ولا يصبرُ على ما يصبرُ عليه؛ فأدنى سببٍ يوجدُ ويدعوه إلى الحرام يُجيب دعوته ولا يتعاصى عليه؛ فهذا دليلٌ على أنَّ الوسائل لها أحكام المقاصد؛ فإنَّ الخضوعَ بالقول واللين فيه في الأصل مباح، ولكن لما كان وسيلةً إلى المحرَّم؛ منع منه، ولهذا ينبغي للمرأة في مخاطبة الرجال أن لا تُلينَ لهم القول.

ولما نهاهنَّ عن الخضوع في القول؛ فربما تُوهَمُ أنهنَّ مأموراتٌ بإغلاظ القول؛ دَفَعَ هذا بقوله: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾؛ أي: غير غليظ ولا جاف؛ كما أنه ليس بليِّن خاضع. وتأمَّل كيف قال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾، ولم يقل: فلا تَلِينَنَّ بالقول، وذلك لأنَّ المنهَى عنه القول اللين الذي فيه خضوع المرأة للرجل وانكسارها عنده، والخاضِعُ هو الذي يُطمع فيه، بخلاف من تكلمت كلاماً ليناً ليس فيه خضوعٌ، بل ربَّما صار فيه ترفعٌ وقهرٌ للخصم؛ فإنَّ هذا لا يطمع فيه خصمه، ولهذا مدح الله رسوله باللين، فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾، وقال لموسى وهارون: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ. فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾.

ودل قوله: ﴿فِيَطْمَعِ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾؛ مع أمره بحفظ الفرج وثنايته على الحافظين لفروجهم والحافظات، ونهيه عن قربان الزنا: أنه ينبغي للعبد إذا رأى من نفسه هذه الحالة، وأنه يهش<sup>(١)</sup> لفعل المحرم عندما يرى أو يسمع كلام من يهواه ويجد دواعي طمعه قد انصرفت إلى الحرام، فليعرف أنَّ ذلك مرض، فليجتهد في إضعاف هذا المرض وحسم الخواطر الرديئة ومجاهدة نفسه على سلامتها من هذا المرض الخطر وسؤال الله العصمة والتوفيق، وأنَّ ذلك من حفظ الفرج المأمور به.

﴿٣٣﴾ ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾؛ أي: اقررنَّ فيها؛ لأنه أسلم وأحفظ لَكُنَّ، ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾؛ أي: لا تُكثِرَنَّ الخروج متجملات أو متطيبات كعادة أهل الجاهلية الأولى، الذين لا علم عندهم ولا دين؛ فكلُّ هذا دفع للشرِّ وأسبابه.

(١) في (ب): «يشتهي».



ولما أمرهنَّ بالتقوى عموماً وبجزئيات من التقوى نصَّ عليها لحاجة النساء إليها، كذلك أمرهن بالطاعة، خصوصاً الصلاة والزكاة اللتان يحتاجهما ويضطرُّ إليهما كلُّ أحدٍ، وهما أكبر العبادات وأجلُّ الطاعات، وفي الصلاة الإخلاص للمعبود، وفي الزكاة الإحسان إلى العبيد.

ثم أمرهنَّ بالطاعة عموماً، فقال: ﴿وَأَطِئْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: يدخلُ في طاعة الله ورسوله كلُّ أمرٍ أمراً<sup>(١)</sup> به أمرٌ إيجاب أو<sup>(٢)</sup> استحباب، ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ﴾: بأمرِكُنَّ بما أمرَكُنَّ به ونَهِيَكُنَّ عَمَّا<sup>(٣)</sup> نَهَاكُنَّ عنه؛ ﴿لِيَذْهَبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ﴾؛ أي: الأذى والشر والخبث ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾: حتى تكونوا طاهرينَّ مطهرينَّ؛ أي: فاحمدوا، ربِّكم واشكروه على هذه الأوامر والنواهي التي أخبركم بمصلحتها، وأنها محضُ مصلحتِكُم، لم يرد الله أن يجعلَ عليكم بذلك حرجاً ولا مشقةً، بل لتتزكى نفوسُكم، وتطهَّر<sup>(٤)</sup> أخلاقُكم، وتُحسِنَ أعمالُكم، ويعظُمَ بذلك أجرُكم.

﴿٣٤﴾ ولما أمرهنَّ بالعمل الذي هو فعلٌ وتركٌ؛ أمرهنَّ بالعلم، وبينَ لهنَّ طريقه، فقال: ﴿وَأذْكَرَنَّ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾، والمرادُ بآياتِ الله القرآن، والحكمةُ أسرارُه أو سنُّهُ رسوله، وأمرهنَّ بذكره يشملُ ذكْرَ لفظِه بتلاوته وذكر معناه بتدبره والتفكُّر فيه واستخراج أحكامه وحِكْمِه، وذكْرُ العمل به وتأويله.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾: يدرك سرَّائِر<sup>(٥)</sup> الأمور وخفايا الصدور وخبايا السماوات والأرض والأعمال التي تَبِين وتُسَرُّ؛ فلفظُه وخبرته يقتضي حُثَّه على الإخلاص وإسرار الأعمال ومجازاة الله على تلك الأعمال. ومن معاني اللطيف: الذي يسوق عبده إلى الخير، ويعصمه من الشرِّ بطريقِ خفيةٍ لا يشعر بها، ويسوق إليه من الرزق ما لا يدريه، ويريه من الأسباب التي تكرهها النفوس، ما يكون ذلك طريقاً له إلى أعلى الدرجات وأرفع المنازل.

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ

(١) في (ب): «أمر».

(٣) في (ب): «بما».

(٥) في (ب): «أسرار».

(٢) في (ب): «و».

(٤) في (ب): «ولتطهر».

وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّامِتِينَ وَالصَّامِتَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ .

﴿٣٥﴾ لما ذَكَرَ تعالى ثوابِ زوجاتِ الرسول ﷺ وعقابهنَّ لو قُدِّرَ عدم الامتثالِ وأَنَّهُ ليس مثلهنَّ أحدٌ من النساءِ؛ ذكر بقيةَ النساءِ غيرهنَّ، ولما كان حكمهنَّ والرجالِ واحداً؛ جعل الحكمَ مشتركاً، فقال: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾: وهذا في الشرائعِ الظاهرةِ إذا كانوا قائمين بها، ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾: وهذا في الأمورِ الباطنةِ من عقائدِ القلبِ وأعماله، ﴿وَالْقَانِتِينَ﴾؛ أي: المطيعين لله ولرسوله، ﴿وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ﴾: في مقالهم وفعالهم، ﴿وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ﴾: على الشدائدِ والمصائبِ، ﴿وَالصَّابِرَاتِ وَالخَاشِعِينَ﴾: في جميع أحوالهم خصوصاً في عباداتهم ولا سيما<sup>(١)</sup> في صلواتهم، ﴿وَالخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ﴾: فرضاً ونفلاً، ﴿وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّامِتِينَ وَالصَّامِتَاتِ﴾: شمل ذلك الفرض والنفل، ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ﴾: عن الزنا ومقدماته، ﴿وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾؛ أي: في أكثر الأوقات، خصوصاً في أوقات الأورادِ المقيدةِ؛ كالصباحِ والمساءِ، وأدبارِ الصلواتِ المكتوباتِ، ﴿وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ﴾؛ أي: لهؤلاء الموصوفين بتلك الصفاتِ الجميلةِ والمناقِبِ الجليلةِ، التي هي ما بين اعتقاداتِ وأعمالِ قلوبِ وأعمالِ جوارحِ وأقوالِ لسانِ ونفعٍ متعدِّ وقاصرٍ وما بين أفعالِ الخيرِ وتركِ الشرِّ الذي مَنْ قام بهنَّ فقد قام بالدينِ كلُّه ظاهره وباطنه بالإسلامِ والإيمانِ والإحسانِ، فجازاهم على عملهم بالمغفرةِ لذنوبهم؛ لأنَّ الحسناتِ يُذهِبْنَ السيئاتِ. ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾: لا يقدرُ قَدْرَهُ إِلَّا الذي أعطاه؛ مما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلبِ بشر. نسألُ الله أن يجعلنا منهم.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلًّا مُبِينًا﴾ ﴿٣٦﴾ .

﴿٣٦﴾ أي: لا ينبغي ولا يليقُ بمن<sup>(٢)</sup> اتَّصف بالإيمانِ إِلَّا الإسراعُ في مرضاةِ الله ورسوله والهربُ من سَخَطِ الله ورسوله وامتثالُ أمرهما واجتنابُ نهيهما؛ فلا يليقُ بمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ، ﴿إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾: من الأمورِ

(٢) في (ب): «ممن».

(١) في (ب): «خصوصاً».

وَحَتْمًا بِهِ وَأَلْزَمًا بِهِ ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾؛ أي: الخيار هل يفعلونه أم لا؟ بل يعلم المؤمن والمؤمنة أن الرسول أولى به من نفسه؛ فلا يجعل بعض أهواء نفسه حجاباً بينه وبين أمر الله ورسوله، ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾؛ أي: بيتنا؛ لأنه ترك الصراط المستقيم الموصلة إلى كرامة الله إلى غيرها من الطرق الموصلة للعذاب الأليم، فذكر أولاً السبب الموجب لعدم معارضة أمر الله ورسوله، وهو الإيمان، ثم ذكّر المانع من ذلك، وهو التخويف بالضلال الدال على العقوبة والنكال.

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَنْزُوجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾.

﴿٣٧﴾ وكان سبب نزول هذه الآيات<sup>(١)</sup> أن الله تعالى أراد أن يشرع شرعاً عاماً للمؤمنين أن الأدعياء ليسوا في حكم الأبناء حقيقة من جميع الوجوه، وأن أزواجهم لا جناح على من تبتأهم نكاحهن، وكان هذا من الأمور المعتادة التي لا تكاد تزول إلا بحادث كبير، فأراد أن يكون هذا الشرع قولاً من رسوله وفعلاً، وإذا أراد الله أمراً؛ جعل له سبباً، فكان<sup>(٢)</sup> زيد بن حارثة يُدعى زيد بن محمد، قد تبتأه النبي ﷺ، فصار يُدعى إليه، حتى نزل ﴿ادعوهم لأبائهم﴾؛ فقبل له: زيد بن حارثة، وكانت تحته زينب بنت جحش ابنة عمه رسول الله ﷺ، وكان قد<sup>(٣)</sup> وقع في قلب الرسول لو طلقها زيد لتزوجها، فقدّر الله أن يكون بينها وبين زيد ما اقتضى أن جاء زيد بن حارثة يستأذن النبي ﷺ في فراقها؛ قال الله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ؛ أي: بالإسلام، ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾: بالعتق والإرشاد والتعليم حين جاءك مشاوراً في فراقها، فقلت له ناصحاً له ومخبراً بمصلحته مقدماً لها على رغبتك مع وقوعها في قلبك: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾؛ أي: لا تفارقها واصبر على ما جاءك منها.

(١) أخرجه البخاري (٤٧٨٧ و ٧٤٢٠)، وقال الحافظ في «الفتح» (٥٢٣/٨): «وقد أخرج ابن أبي حاتم هذه القصة من طريق السدي فساقها سياقاً واضحاً حسناً».

(٢) في (ب): «وكان».

(٣) في (ب): «وقد كان قد».

﴿وَاتَّقِ اللَّهَ﴾: تعالى في أمورك عامّة وفي أمر زوجك خاصّة؛ فَإِنَّ التقوى تحث على الصبر وتأمّر به، ﴿وتُخْفِي في نَفْسِكَ ما اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾: والذي أخفاه أنّه لو طَلَّقها زَيْدًا؛ لتزوّجها ﷺ، ﴿وتُخْشَى الناس﴾: في عدم إبداء ما في نفسك، ﴿واللّٰهُ أَحَقُّ أَنْ تُخْشَاهُ﴾: فَإِنَّ خَشِيَتَهُ جالِبَةٌ لكلِّ خَيْرٍ مانعةٌ من كلِّ شَرٍّ، ﴿فلما قضى زيدٌ منها وطراً﴾؛ أي: طابت نفسه ورغب عنها وفارقها، ﴿زَوَّجْنَاكُهَا﴾: وإنما فعلنا ذلك لفائدة عظيمة، وهي: ﴿لكيلا يكونَ على المؤمنين حرجٌ في أزواج أَدْعِيائِهِمْ﴾: حيث رأوك تزوّجت زوج زيد بن حارثة الذي كان من قَبْلِ يَنْتَسِبُ إِلَيْكَ، ولما كان قوله: ﴿لكيلا يكونَ على المؤمنين حرجٌ في أزواج أَدْعِيائِهِمْ﴾: عامًّا في جميع الأحوال، وكان من الأحوال ما لا يجوز ذلك، وهي قبل انقضاء وطره منها؛ قَيَّدَ ذلك بقوله: ﴿إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطْرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾؛ أي: لا بدُّ من فعلِهِ ولا عائق له ولا مانع.

وفي هذه الآيات المشتملات<sup>(١)</sup> على هذه القصة فوائد:

منها: الثناء على زيد بن حارثة، وذلك من وجهين: أحدهما: أَنَّ اللَّهَ سَمَّاهُ في القرآن ولم يسمِّ من الصحابة باسمه غيره. والثاني: أَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ أَنَّهُ أَنْعَمَ عَلَيْهِ؛ أي: بنعمة الإسلام والإيمان، وهذه شهادة من الله له أنه مسلم مؤمن ظاهرًا وباطنًا، وإلّا؛ فلا وجه لتخصيصه بالنعمة؛ إلّا أَنَّ<sup>(٢)</sup> المراد بها النعمة الخاصة.

ومنها: أَنَّ الْمُعْتَقَ في نعمة المعتق.

ومنها: جواز تزوج زوجة<sup>(٣)</sup> الدّعي كما صرح به.

ومنها: أَنَّ التعلِيمَ الفعليَّ أبلغ من القولِي، خصوصاً إذا اقترن بالقول؛ فَإِنَّ ذلك نورٌ على نور.

ومنها: أَنَّ المحبة التي في قلب العبد لغير زوجته ومملوكته ومحارمه إذا لم يَقْتَرِنَ بها محذورٌ لا يَأْتُمُّ عليها العبد، ولو اقترن بذلك أمنيته أَنْ لو طَلَّقها زَوْجُهَا لتزوّجها من غير أن يسعى في فرقة بينهما أو يتسبب بأيّ سبب كان؛ لأنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ أَنَّ الرسول ﷺ أخفى ذلك في نفسه.

ومنها: أَنَّ الرسول ﷺ قد بَلَّغَ البلاغَ المبين، فلم يدغ شيئاً مما أوحى إليه إلّا

(٢) في (ب): «لولا أن».

(١) في (ب): «المشتملة».

(٣) في (ب): «بزوجة».

وبلَّغَهُ، حتى هذا الأمر الذي فيه عتابه، وهذا يدلُّ على أنَّه رسولُ الله، ولا يقول إلا ما أوحى إليه، ولا يريد تعظيمَ نفسه.

ومنها: أنَّ المستشارَ مؤتمَنٌ، يجبُ عليه - إذا استُشير في أمر من الأمور - أن يُشير بما يعلمه أصلح للمستشير<sup>(١)</sup>، ولو كان له حظُّ نفس بتقدُّم<sup>(٢)</sup> مصلحة المستشار على هوى نفسه وغرضه.

ومنها: أنَّ من الرأي الحسن لمن استشار في فراق زوجة أن يُؤمَرَ بامساكها مهما أمكن صلاح الحال؛ فهو أحسن من الفرقة.

ومنها: أنَّه يتعيَّن أن يقدِّم العبد خشية الله على خشية الناس، وأنها أحقُّ منها وأولى.

ومنها: فضيلةُ زينب رضي الله عنها أم المؤمنين؛ حيث تولَّى الله تزويجها من رسوله ﷺ من دون خطبة ولا شهود، ولهذا كانت تفتخرُ بذلك على أزواج رسول الله ﷺ، وتقول: زَوَّجَكُنَّ أَهَالِيكُنَّ وَزَوَّجَنِي اللَّهُ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ<sup>(٣)</sup>.

ومنها: أنَّ المرأة إذا كانت ذات زوج لا يجوزُ نكاحها ولا السعيُّ فيه وفي أسبابه حتى يقضيَ زوجها وطْرَهُ منها، ولا يقضيَ وطْرَهُ حتى تنقضيَ عدَّتُها؛ لأنَّها قبل انقضاء عدتها وهي في عصمتِهِ أو في حقِّه الذي له وطْرٌ إليها ولو من بعض الوجوه.

﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَقْدُورًا﴾ (٣٨) الَّذِينَ يَلْبِغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَحْشُونَكُمْ وَلَا يَحْشُونَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾.

﴿٣٨﴾ هذا دفع لظعن من ظعن في الرسول ﷺ في كثرة أزواجه، وأنَّه ظعنٌ بما لا مظعن فيه، فقال: ﴿ما كان على النبي من حرج﴾؛ أي: إثم وذنْب ﴿فيما فرض الله له﴾؛ أي: قدر له من الزوجات؛ فإنَّ هذا قد أباحه الله له كما أباحه للأنبياء قبله، ولهذا قال: ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرًا مقدورًا﴾؛ أي: لا بدُّ من وقوعه.

(١) في (ب): «للمستشار».

(٢) في (ب): «يفتدم».

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٢٠) من حديث أنس بن مالك.

﴿٣٩﴾ ثم ذَكَرَ مَنْ هُم الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ قَدْ خَلَوْا مِنْهُمْ وَعَادَتِهِمْ، وَأَنْهُمْ الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رَسُولَاتِ اللَّهِ: فَيَتْلُونَ عَلَى الْعِبَادِ آيَاتِ اللَّهِ وَحُجُجَهُ وَبِرَاهِينَهُ وَيَدْعُونَهُمْ إِلَى اللَّهِ، ﴿وَيَخْشَوْنَهُ﴾: وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا﴾: إِلَّا اللَّهَ؛ فَإِذَا كَانَ هَذَا سَنَةً فِي الْأَنْبِيَاءِ الْمُعْصُومِينَ الَّذِينَ وَظِيفَتُهُمْ قَدْ أَدَّوْهَا وَقَامُوا بِهَا أَمَّ الْقِيَامِ، وَهُوَ دَعْوَةُ الْخَلْقِ إِلَى اللَّهِ وَالْخَشْيَةِ مِنْهُ وَحَدَهُ، الَّتِي تَقْتَضِي فِعْلَ كُلِّ مَأْمُورٍ وَتَرْكَ كُلِّ مُحْظُورٍ، [دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ لَا نَقْصَ فِيهِ بِوَجْهِهِ]. ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾: مُحَاسِبًا عِبَادَهُ مُرَاقِبًا أَعْمَالَهُمْ. وَعُلِمَ مِنْ هَذَا أَنَّ النِّكَاحَ مِنْ سُنَنِ الْمُرْسَلِينَ.

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ ﴿٤٠﴾.

﴿٤٠﴾ أي: لم يكن الرسول ﴿محمد﴾: ﷺ ﴿أبا أحدٍ من رجالكم﴾: أيُّها الأمة، فقطع انتساب زيد بن حارثة منه من هذا الباب. ولما كان هذا النفي عامًا في جميع الأحوال إن حُمِلَ ظاهر اللفظ على ظاهره؛ أي: لا أبوة نسب ولا أبوة ادعاء، وكان قد<sup>(١)</sup> تقرر فيما تقدم أن الرسول ﷺ أب للمؤمنين كلهم، وأزواجه أمهاتهم، فاحترز أن يدخل هذا النوع بعموم النهي المذكور؛ فقال: ﴿ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾؛ أي: هذه مرتبته؛ مرتبة المطاع المتبوع المهتدى به المؤمن له الذي يجب تقديم محبته على محبة كل أحد، الناصح، الذي لهم - أي: للمؤمنين - من بره ونصحه كأنه أب لهم، ﴿وكان الله بكل شيء عليمًا﴾؛ أي: قد أحاط علمه بجميع الأشياء، ويعلم حيث يجعل رسالاته، ومن يصلح لفضله ومن لا يصلح.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾.

﴿٤١﴾ يأمر تعالى المؤمنين بذكره ذكراً كثيراً؛ من تهليل وتحميد وتسبيح وتكبير

(١) في (ب): «وقد كان».

وغير ذلك من كل قولٍ فيه قُرْبَةٌ إلى الله، وأقلُّ ذلك أن يلازمَ الإنسانُ أوردَ الصباح والمساء وأدبار الصلوات الخمس وعند العوارض والأسباب، وينبغي مداومة ذلك في جميع الأوقات على جميع الأحوال؛ فإنَّ ذلك عبادةٌ يسبِّقُ بها العامل وهو مستريحٌ وداعٍ إلى محبة الله ومعرفتهِ وعونٌ على الخير وكفٌّ للسان عن الكلام القبيح.

﴿٤٢﴾ ﴿وسبِّحوه بكرةً وأصيلاً﴾؛ أي: أول النهار وآخره؛ لفضلهما وشرفهما وسهولة العمل فيهما.

﴿٤٣﴾ ﴿هو الذي يصلِّي عليكم وملائكته ليخرجنكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً﴾؛ أي: من رحمته بالمؤمنين ولطفه بهم أن جعلَ من صلاتِهِ عليهم وثنائِهِ وصلاحِ ملائكته ودعائِهِ ما يخرِجُهُم من ظلمات الذنوب والجهل إلى نور الإيمان والتوفيق والعلم والعمل؛ فهذه أعظمُ نعمةٍ أنعم بها على العباد الطائعين، تستدعي منهم شكرها والإكثار من ذكر الله الذي لطف بهم ورحمهم وجعل حملةَ عرشِهِ أفضل الملائكة ومن حوله يسبِّحون بحمْدِ رَبِّهِمْ، ويستغفرونَ للذين آمنوا، فيقولون: ﴿ربُّنا وسعت كلَّ شيءٍ رحمةً وعلماً فاغفر للذين تابوا واتَّبَعوا سبيلَكَ وقهِّم عذابَ الجحيم. ربُّنا وأدخلهم جناتِ عدنٍ التي وعدتَهُم ومَن صَلَّحَ من آبائِهِم وأزواجِهِم وذُرِّيَّاتِهِم إِنَّكَ أنتَ العزيزُ الحكيم. وقهِّم السيئاتِ ومَن تق السيئاتِ يومئذٍ فقد رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ الفوزُ العظيم﴾: فهذه رحمته ونعمته عليهم في الدنيا.

﴿٤٤﴾ ﴿وأما رحمته بهم في الآخرة؛ فأجلُ رحمةٍ وأفضلُ ثواب، وهو الفوز برضا ربِّهم وتحيتِهِ، واستماع كلامه الجليل، ورؤية وجهه الجميل، وحصول الأجر الكبير الذي لا يدره ولا يعرفُ كُنْهَهُ إِلَّا من أعطاهم إياه، ولهذا قال: ﴿تحيتُهُم يوم يلقونه سلامٌ وأعدَّ لهم أجراً كريماً﴾.

﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴿٤٥﴾ وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً ﴿٤٧﴾ وَلَا تَطْعَمِ الْكٰفِرِينَ وَالْمُنٰفِقِينَ وَدَعَّ أَدْبَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴿٤٨﴾﴾.

﴿٤٥﴾ هذه الأشياء التي وصف الله بها رسوله محمداً ﷺ هي المقصود من رسالته وزبدتها وأصولها التي اختصَّ بها، وهي خمسة أشياء:

أحدها: كونه ﴿شاهداً﴾؛ أي: شاهداً<sup>(١)</sup> على أمته بما عملوه من خير وشر؛ كما قال تعالى: ﴿لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾، ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيدٍ وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾: فهو ﷺ شاهد عدل مقبول.

الثاني والثالث: كونه ﴿مبشراً ونذيراً﴾: وهذا يستلزم ذكر المبشّر والمنذر وما يبشّر به ويُنذَرُ والأعمال الموجبة لذلك: فالمبشّر هم المؤمنون المتقون، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح وترك المعاصي، لهم البشرى في الحياة الدنيا بكل ثواب دنيويٍّ ودينيٍّ رُتّبَ على الإيمان والتقوى، وفي الأخرى بالنعيم المقيم، وذلك كلُّه يستلزم ذكر تفصيل المذكور من تفاصيل الأعمال وخصال التقوى وأنواع الثواب. والمنذر هم المجرمون الظالمون، أهل الظلم والجهل، لهم النذارة في الدنيا من العقوبات الدنيويّة والدينيّة المرتّبة على الجهل والظلم، وفي الأخرى بالعقاب الويل والعذاب الطويل. وهذه الجملة تفصيلها ما جاء به ﷺ من الكتاب والسنة المشتمل على ذلك.

﴿٤٦﴾ الرابع: كونه ﴿داعياً إلى الله﴾؛ أي: أرسله الله يدعو الخلق إلى ربهم ويشوقهم<sup>(٢)</sup> لكرامته ويأمرهم بعبادته التي خلّقوا لها، وذلك يستلزم استقامته على ما يدعو إليه وذكر تفاصيل ما يدعو إليه؛ بتعريفهم لربهم بصفاته المقدّسة، وتزويجه عما لا يليق بجلاله، وذكر أنواع العبوديّة، والدعوة إلى الله بأقرب طريق موصل إليه، وإعطاء كل ذي حقّ حقه، وإخلاص الدّعوة إلى الله لا إلى نفسه وتعظيمها؛ كما قد يعرض ذلك لكثير من النفوس في هذا المقام، وذلك كلُّه بإذن ربه له<sup>(٣)</sup> في الدعوة وأمره وإرادته وقدره.

الخامس: كونه ﴿سراجاً منيراً﴾ وذلك يقتضي أنّ الخلق في ظلمة عظيمة، لا نور يهتدى به في ظلماتها، ولا علم يُستدلُّ به في جهاتها، حتى جاء الله بهذا النبيّ الكريم، فأضاء الله به تلك الظلمات، وعلم به من الجهالات، وهدى به ضلالاً إلى الصراط المستقيم، فأصبح أهل الاستقامة قد وضح لهم الطريق، فمَشَوْا خلف هذا الإمام، وعرفوا به الخير والشرّ وأهل السعادة من أهل الشقاوة، واستناروا به

(٢) في (ب): «ويشوقهم».

(١) في (ب): «مشاهداً».

(٣) في (ب): «بإذن الله».



لمعرفة معبودهم، وعرفوه بأوصافه الحميدة وأفعاله السديدة وأحكامه الرشيدة.

﴿٤٧﴾ وقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾: ذكر في هذه الجملة المبشّر، وهم المؤمنون، وعند ذِكْرِ الإيمان بمفرده تدخل فيه الأعمال الصالحة، وذكّر المبشّر به، وهو الفضل الكبير؛ أي: العظيم الجليل الذي لا يقادر قدره من النصر في الدنيا وهداية القلوب وغفران الذنوب وكشف الكروب وكثرة الأرزاق الدارّة وحصول النعم السارة والفوز برضا ربهم وثوابه والنجاة من سخطه وعقابه، وهذا مما ينشط العاملين أن يذكّر لهم من ثواب الله على أعمالهم ما به يستعينون على سلوك الصراط المستقيم، وهذا من جملة حكّم الشرع: كما أن من حكّمه أن يذكّر في مقام الترهيب العقوبات المرّبة على ما يرهب منه؛ ليكون عوناً على الكف عما حرم الله.

﴿٤٨﴾ ولما كان ثمّ طائفة من الناس مستعدة للقيام بصدّ الداعين إلى الله من الرسل وأتباعهم، وهم المنافقون الذين أظهروا الموافقة في الإيمان وهم كفرة فجرة في الباطن، والكفار ظاهراً وباطناً؛ نهى الله رسوله عن طاعتهم وحذره ذلك، فقال: ﴿وَلَا تَطْعَمِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾؛ أي: في كلّ أمر يصدّ عن سبيل الله، ولكن لا يقتضي هذا أذاهم، بل لا تطعمهم، ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾: فإنّ ذلك جالب لهم وداع إلى قبول الإسلام وإلى كفّ كثير من أذيتهم له ولأهله، ﴿وتوكّل على الله﴾: في إتمام أمرك وخذلان عدوك، ﴿وكفى بالله وكيلاً﴾: توكّل إليه الأمور المهمّة، فيقوم بها ويسهلها على عبده.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدْوٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَعْتَدُوهُنَّ وَسَرَخُوهُنَّ سَرَامًا جَمِيلًا﴾.

﴿٤٩﴾ يخبر تعالى المؤمنين أنّهم إذا نكحوا المؤمنات ثم طلقوهنّ من قبل أن يمسوهنّ؛ فليس عليهنّ في ذلك عدّة يعتدّها أزواجهنّ عليهنّ، وأمرهم بتمتعيهنّ بهذه الحالة بشيء من متاع الدنيا الذي يكون فيه جبرّ لخواتمهنّ لأجل فراقهنّ، وأن يفارقوهنّ فراقاً جميلاً من غير مخاصمة ولا مشاتمة ولا مطالبة ولا غير ذلك.

ويستدلّ بهذه الآية على أنّ الطلاق لا يكون إلاّ بعد النكاح، فلو طلقها قبل أن ينكحها أو علّق طلاقها على نكاحها؛ لم يقع؛ لقوله: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾، فجعل الطلاق بعد النكاح، فدل على أنّه قبل ذلك لا محلّ له. وإذا

كان الطلاق الذي هو فرقة تامة وتحريم تام لا يقع قبل النكاح؛ فالتحريم ناقص لظهار أو إيلاء ونحوه من باب أولى وأحرى أن لا يقع قبل النكاح؛ كما هو أصح قولي العلماء.

[ویدل] على جواز الطلاق لأن الله أخبر به عن المؤمنين على وجه لم يلمهم عليه، ولم يؤنبهم مع تصدير الآية بخطاب المؤمنين.

وعلى جوازه قبل المسيس؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ﴾.

وعلى أن المطلقة قبل الدخول لا عدّة لها، بل بمجرد طلاقها يجوز لها التزوج حيث لا مانع.

وعلى أن عليها العدّة بعد الدخول. وهل المراد بالدخول والمسيس الوطء كما هو مجمع عليه أو وكذلك الخلوة ولو لم يحصل معها وطء كما أفتى بذلك الخلفاء الراشدون، وهو الصحيح؛ فمتى<sup>(١)</sup> دخل عليها وطئها أم لا، إذا خلا بها، وجب عليها العدّة.

وعلى أن المطلقة قبل المسيس تمتع على الموسع قدره وعلى المقتر قدره، ولكن هذا إذا لم يفرض لها مهر؛ فإن كان لها مهر مفروض؛ فإنه إذا طلق قبل الدخول؛ تنصّف المهر، وكفى عن المتعة.

وعلى أنه ينبغي لمن فارق زوجته قبل الدخول أو بعده أن يكون الفراق جميلاً يحمد فيه كل منهما الآخر، ولا يكون غير جميل؛ فإن في ذلك من الشر المترتب عليه من قبح كل منهما بالآخر شيء كثير.

وعلى أن العدّة حق للزوج؛ لقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ﴾: دل مفهومه أنه لو طلقها بعد المسيس؛ كان له عليها عدّة.

وعلى أن المفارقة بالوفاة تعتد مطلقاً؛ لقوله: ﴿ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ...﴾ الآية.

وعلى أن من عدا غير المدخول بها من المفارقات من الزوجات بموت أو حياة عليهنّ العدّة.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنْ أَحَلَّ لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي آتَيْتَ أُجْرَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِنْ أَفْءَاءَ

(١) في (ب): «فمن».

اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتٍ عَمَّكَ وَبَنَاتٍ عَمَّتِكَ وَبَنَاتٍ خَالَكَ وَبَنَاتٍ خَالَكَ أَلَّتِي هَاجَرَنَ مَعَكَ وَأَمْرَةً  
مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ  
عَلِمْنَا مَا قَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ  
وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٠﴾ .

﴿٥٠﴾ يقول تعالى ممتناً على رسوله بإحلاله له ما أحلّ مما يشترك هو  
والمؤمنون وما ينفرد به ويختصّ: ﴿يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت  
أجورهنّ﴾؛ أي: أعطيتهنّ مهورهنّ من الزوجات، وهذا من الأمور المشتركة بينه  
وبين المؤمنين؛ فإنّ المؤمنين كذلك يباح لهم من<sup>(١)</sup> آتوهنّ أجورهنّ من الأزواج.  
﴿و﴾ كذلك أحللنا لك ﴿ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾؛ أي: الإماء التي ملكت، ﴿مِمَّا  
أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾: من غنيمة الكفار من عبيدهم، والأحرار من لهنّ زوج منهم ومن  
لا زوج لهن، وهذا أيضاً مشترك، وكذلك من المشترك قوله: ﴿وبَنَاتٍ عَمَّكَ وَبَنَاتٍ  
عَمَاتِكَ وَبَنَاتٍ خَالِكَ وَبَنَاتٍ خَالَاتِكَ﴾: شمل العمّ والعمة والخال والخالة القرييين  
والبعيدين، وهذا حصرُ المحللات، يؤخذ من مفهومه أنّ ما عداهنّ من الأقارب  
غير محلّل؛ كما تقدّم في سورة النساء؛ فإنّه لا يُباح من الأقارب من النساء غير  
هؤلاء الأربع، وما عداهنّ من الفروع مطلقاً، والأصول مطلقاً، وفروع الأب والأم،  
وإن نزلوا، وفروع من فوقهم لصلبيّه؛ فإنّه لا يُباح.

وقوله: ﴿اللّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾: قيّد لِحُلِّ هُؤْلَاءِ لِرَسُولٍ؛ كما هو الصواب  
من القولين في تفسير هذه الآية، وأما غيره عليه الصلاة والسلام؛ فقد علم أنّ هذا  
قيد لغير الصّحة. ﴿و﴾ أحللنا لك امرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي: بمجرّد  
هبتها نفسها، ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾؛ أي: هذا تحت الإرادة والرغبة،  
﴿خالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ يعني: إباحة الموهوبة<sup>(٢)</sup>، وأما المؤمنون؛ فلا  
يحلّ لهم أن يتزوجوا امرأة بمجرّد هبتها نفسها لهم. ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا قَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي  
أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾؛ أي: قد علمنا ما على المؤمنين وما يحلّ لهم وما  
لا يحلّ من الزوجات وملك اليمين، وقد أعلمناهم بذلك، وبيّنا فرائضه فما في  
هذه الآية مما يخالف ذلك؛ فإنّه خاصّ لك؛ لكون الله جعله خطاباً للرسول وحده  
بقوله: ﴿يا أيها النبي إنا أحللنا لك...﴾ إلى آخر الآية.

(٢) في (ب): «الموهبة».

(١) في (ب): «ما».

وقوله: ﴿خالصةً لك من دون المؤمنين﴾: وأبخنا لك يا أيها النبي ما لم نُبِح لهم، ووسّعنا عليك ما لم نوسّع على غيرك؛ ﴿لكيلا يكونَ عليك حرجٌ﴾: وهذا من زيادة اعتناء الله تعالى برسوله ﷺ، ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾؛ أي: لم يزل متصفاً بالمغفرة والرحمة، وينزل على عباده من مغفرته ورحمته وجوده وإحسانه ما اقتضته حكمته، ووجدت منهم أسبابه.

﴿تُرْجَىٰ مَن تَشَاءُ مِنْهُمْ وَقُوَىٰ إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمِنَ ابْتِغَايَةِ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾.

﴿٥١﴾ وهذا أيضاً من توسعة الله على رسوله ورحمته به أن أباح له ترك القسم بين زوجاته على وجه الوجوب، وأنه إن فعل ذلك؛ فهو تبرع منه، ومع ذلك؛ فقد كان ﷺ يجتهد في القسم بينهن في كل شيء، ويقول: «اللهم! هذا قسمي فيما أملك؛ فلا تلمني فيما لا أملك»<sup>(١)</sup>، فقال هنا: ﴿ترجي من تشاء منهم﴾؛ أي: توخر من أردت من زوجاتك، فلا تؤويها إليك، ولا تبئت عندها، ﴿وتؤوي إليك من تشاء﴾؛ أي: تضمها وتبيت عندها، ﴿ومع ذلك؛ لا يتعين هذا الأمر. فمن ابتغيت﴾؛ أي: أن تؤويها، ﴿فلا جناح عليك﴾: والمعنى أن الخيرة بيدك في ذلك كله. وقال كثير من المفسرين: إن هذا خاص بالواهبات له أن يرجي من يشاء ويؤوي من يشاء؛ أي: إن شاء؛ قيل من وهبت نفسها له، وإن شاء؛ لم يقبلها. والله أعلم.

ثم بين الحكمة في ذلك، فقال: ﴿ذلك﴾؛ أي: التوسعة عليك وكون الأمر راجعاً إليك وبيدك وكون ما جاء منك إليهن تبرعاً منك؛ ﴿أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزنن ويرضين بما آتيتهن كلهن﴾: لعلمهن أنك لم تترك واجباً ولم تفرط في حق لازم، ﴿والله يعلم ما في قلوبكم﴾؛ أي: ما يعرض لها عند أداء الحقوق الواجبة والمستحبة وعند المزامحة في الحقوق؛ فلذلك شرع لك التوسعة يا رسول الله؛ لتطمئن قلوب زوجاتك، ﴿وكان الله عليماً حليماً﴾؛ أي: واسع العلم، كثير

(١) أخرجه أحمد (١٤٤/٦)، وأبو داود (٢١٣٤)، وابن ماجه (١٩٧١)، والنسائي (٦٤/٧)، والترمذي (١١٤٠)، وابن حبان (٥/١٠)، والحاكم (١٨٢/٢)، وصححه ووافقه الذهبي، واختلف في وصله وإرساله، وانظر: «الأرواء» (٢٠١٨).

الحلم، ومن علمه أن شرع لكم ما هو أصلح لأموركم وأكثر لأجوركم، ومن حلمه أن لم يعاقبكم بما صدر منكم، وما أصرت عليه قلوبكم من الشر.

﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾ .

﴿٥٢﴾ وهذا شكر من الله الذي لم يزل شكوراً لزوجات رسوله رضي الله عنهن، حيث اخترن الله ورسوله والدار الآخرة؛ أن رجمهن وقصر رسوله عليهن، فقال: ﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾: زوجاتك الموجودات، ﴿ولا أن تبدل بهن من أزواج﴾؛ أي: ولا أن تطلق بعضهن فتأخذ بديلها، فحصل بهذا أمنهن من الضرائر ومن الطلاق؛ لأن الله قضى أنهن زوجاته في الدنيا والآخرة، لا يكون بينه وبينهن فرقة، ﴿ولو أعجبك حسنهن﴾؛ أي: حسن غيرهن؛ فلا يخلن لك، ﴿إلا ما ملكت يمينك﴾؛ أي: السراري؛ فذلك جائز لك؛ لأن المملوكات في كراهة الزوجات لسن بمنزلة الزوجات في الإضرار للزوجات. ﴿وكان الله على كل شيء رقيباً﴾؛ أي: مراقباً للأموال وعالماً بما إليه تؤول وقائماً بتدبيرها على أكمل نظام وأحسن إحكام.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَظِيرِ  
إِنَّهُ وَلَكِنَّ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَقْسِمِينَ لِحَدِيثِ إِنْ ذَاكُم كَانَ  
يُؤْذَى النَّبِيُّ فَيَسْتَجِبْ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَجِبُ مِنَ الْخَبِيِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ  
وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ  
تَنْكِحُوا أَرْوَاحَهُنَّ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾ إِنْ بُدُوا شَيْئًا أَوْ  
تُخَفَّوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٣﴾﴾ .

﴿٥٣﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالتأدب مع رسول الله ﷺ في دخول بيوته، فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام﴾؛ أي: لا تدخلوها بغير إذن للدخول فيها لأجل الطعام، وأيضاً لا تكونوا ﴿ناظرين إناه﴾؛ أي: منتظرين ومتأنين لانتظار نضجه أو سعة صدر بعد الفراغ منه. والمعنى: أنكم لا تدخلوا بيوت النبي إلا بشرطين: الإذن لكم بالدخول، وأن يكون جلوسكم بمقدار الحاجة، ولهذا قال: ﴿ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم

فانتشروا ولا مُستأنسينَ لحديثٍ ﴿٥١﴾؛ أي: قبل الطعام وبعده.

ثم بيّن حكمة النهي وفائدته، فقال: ﴿إِنَّ ذَلِكَم﴾؛ أي: انتظاركم الزائد على الحاجة ﴿كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ﴾؛ أي: يتكلّف منه ويشقّ عليه حبسكم إيّاه عن شؤون بيته وأشغاله فيه، ﴿فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ﴾: أن يقول لكم: اخْرُجُوا! كما هو جاري العادة أن الناس - خصوصاً أهل الكرم منهم - يَسْتَحْيُونَ أن يُخْرِجُوا الناس من مساكنهم، ﴿وَ﴾ لكن ﴿اللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾: فالأمر الشرعيّ، ولو كان يُتَوَهَّم أن في تركه ألباً وحياءً؛ فإن<sup>(١)</sup> الحزم كلّ الحزم اتّباع الأمر الشرعيّ، وأن يجزّم أن ما خالفه ليس من الأدب في شيء، والله تعالى لا يستحيي أن يأمركم بما فيه الخير لكم والرفق لرسوله كأنما ما كان.

فهذا أدبهم في الدخول في بيوته، وأما أدبهم معه في خطاب زوجاته؛ فإنّه: إمّا أن يحتاج إلى ذلك، أو لا يحتاج إليه؛ فإن لم يحتاج إليه؛ فلا حاجة إليه، والأدب تركه، وإن احتيج إليه، كأن يسألهنّ متاعاً أو غيره من أواني البيت أو نحوها؛ فإنهنّ يُسألنّ ﴿من وراء حجاب﴾؛ أي: يكون بينكم وبينهنّ سترٌ يستر عن النظر؛ لعدم الحاجة إليه، فصار النظر إليهنّ ممنوعاً بكلّ حال، وكلامهنّ فيه التفصيل الذي ذكره الله. ثم ذكر حكمة ذلك بقوله: ﴿ذَلِكَم أَطَهْرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾؛ لأنّه أبعّد عن الريبة، وكلّما بعّد الإنسان عن الأسباب الداعية إلى الشرّ؛ فإنّه أسلم له وأطهر لقلبه؛ فلهذا من الأمور الشرعيّة التي بيّن الله كثيراً من تفاصيلها أن جميع وسائل الشرّ وأسبابه ومقدّماته ممنوعة، وأنه مشروع البعد عنها بكلّ طريق.

ثم قال كلمة جامعة وقاعدة عامة: ﴿وما كان لكم﴾: يا معشر المؤمنين؛ أي: غير لائق ولا مستحسن منكم، بل هو أفبح شيء، ﴿أن تُؤذوا رسولَ الله﴾؛ أي: أذية قولية أو فعلية بجميع ما يتعلّق به، ﴿ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً﴾: هذا من جملة ما يؤذيه؛ فإنّه ﷺ له مقام التعظيم والرفعة والإكرام، وتزوّج زوجاته بعده مخلّ بهذا المقام، وأيضاً؛ فإنهنّ زوجاته في الدنيا والآخرة، والزوجيّة باقية بعد موته؛ فلذلك لا يحلّ نكاح زوجاته بعده لأحدٍ من أمته. ﴿إِنَّ ذَلِكَم كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً﴾: وقد امتثلت هذه الأمة هذا الأمر، واجتنبت ما نهى الله عنه منه، ولله الحمد والشكر.

(١) في (ب): «فإنه».

﴿٥٤﴾ ثم قال تعالى: ﴿إِنْ تَبَدَّوْا شَيْئًا﴾؛ أي: تظهروه، ﴿أَوْ تُخْفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾: يعلم ما في قلوبكم، وما أظهرتموه؛ فيجازيكم عليه.

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيءِ آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾.

﴿٥٥﴾ لما ذكر أنهم لا يُسألن متاعاً إلا من وراء حجاب، وكان اللفظ عاماً لكلٍ أحدٍ؛ احتيج أن يُستثنى منه هؤلاء المذكورون من المحارم، وأنه ﴿لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ﴾ في عدم الاحتجاب عنهم، ولم يذكر فيها الأعمام والأخوال؛ لأنهن إذا لم يَحْتَجِبْنَ عَمَّنْ هُنَّ عَمَاتُهُ وَخَالَاتُهُ مِنْ أَبْنَاءِ الْإِخْوَةِ وَالْأَخَوَاتِ مَعَ رَفْعَتِهِنَّ عَلَيْهِمْ؛ فعدم احتجابهن عن عمهن وخالهن من باب أولى، ولأن منطوق الآية الأخرى المصروفة بذكر العم والخال مقدّمة على ما يفهم من هذه الآية، وقوله: ﴿ولا نساءهن﴾؛ أي: لا جناح عليهن أن لا يحتجبن عن نساءهن؛ أي: اللاتي من جنسهن في الدين، فيكون ذلك مخرجاً لنساء الكفار، ويحتمل أن المراد جنس النساء؛ فإن المرأة لا تحتجب عن المرأة، ﴿ولا ما مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾: ما دام العبد في ملكها جميعه، ولما رفع الجناح عن هؤلاء؛ شَرَطَ فِيهِ وَفِي غَيْرِهِ لَزُومَ تَقْوَى اللَّهِ، وَأَنْ لَا يَكُونَ فِي ذَلِكَ مَحْذُورٌ شَرْعِيٌّ، فَقَالَ: ﴿وَاتَّقِينَ اللَّهَ﴾؛ أي: استعملن تقواه في جميع الأحوال. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾: يشهد أعمال العباد ظاهرها وباطنها، ويسمع أقوالهم، ويرى حركاتهم؛ ثم يجازيهم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾.

﴿٥٦﴾ وهذا فيه تنبيه على كمال رسول الله ﷺ ورفعة درجته وعلو منزلته عند الله وعند خلقه ورفع ذكره، و﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ تعالى ﴿وملائكته يصلون﴾ عليه؛ أي: يثنى الله عليه بين الملائكة وفي الملائكة الأعلى لمحبة تعالى له، ويثنى عليه الملائكة المقربون، ويدعون له ويتضرعون. ﴿يا أيُّها الذين آمنوا صلُّوا عليه وسلِّموا تسليماً﴾: اقتداءً بالله وملائكته، وجزاء له على بعض حقوقه عليكم، وتكميلاً لإيمانكم، وتعظيماً له ﷺ ومحبة وإكراماً، وزيادةً في حسناتكم. وتكفيراً من سيئاتكم، وأفضلُ هِئَاتِ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - مَا عَلَّمَ بِهِ أَصْحَابَهُ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ

مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد<sup>(١)</sup>. وهذا الأمر بالصلاة والسلام عليه مشروع في جميع الأوقات، وأوجبته كثير من العلماء في الصلاة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾  
وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٨﴾﴾.

﴿٥٧ - ٥٨﴾ لما أمر تعالى بتعظيم رسوله ﷺ والصلاة والسلام عليه؛ نهى عن أذيته، وتوعد عليها، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: وهذا يشمل كل أذية قولية أو فعلية من سب وشتم أو تنقص له أو لدينه أو ما يعود إليه بالأذى، ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا﴾؛ أي: أبعدهم وطردهم، ومن لعنهم في الدنيا أنه يتحتم<sup>(٢)</sup> قتل من شتم الرسول وآذاه، ﴿وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُبِينًا﴾<sup>(٣)</sup>: جزاء له على أذاه أن يؤذى بالعذاب [الأليم]<sup>(٤)</sup>، فأذية الرسول ليست كأذية غيره؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لا يؤمن العبد بالله حتى يؤمن برسوله، وله من التعظيم الذي هو من لوازم الإيمان ما يقتضي ذلك أن لا يكون مثل غيره، وإن كان أذية المؤمنين عظيمة وإثمها عظيمًا، ولهذا قال فيها: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾؛ أي: بغير جنابة منهم موجبة للأذى، ﴿فَقَدِ احْتَمَلُوا﴾: على ظهورهم ﴿بُهْتَانًا﴾: حيث آذوهم بغير سب، ﴿وَإِثْمًا مُبِينًا﴾: حيث تعدوا عليهم وانتهكوا حرمة أمر الله باحترامها، ولهذا كان سب أحاد المؤمنين موجبًا للتعزير بحسب حالته وعلو مرتبته؛ فتعزير من سب الصحابة أبلغ، وتعزير من سب العلماء وأهل الدين أعظم من غيرهم.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلٌّ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْرِكُنَّ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبَابِهِنَّ ذَلِكَ أَدْفَعُ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾ \* لَنْ لَرَّ يَنْدِهَ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَارُواوَكَّ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَلْعُونِينَ

(١) أخرجه البخاري (٦٣٥٧)، ومسلم (٤٠٦) من حديث كعب بن عجرة. وانظر «جلاء الأفهام» لابن القيم.

(٢) في (ب): «يحتم».

(٣) في النسختين: «أليما».

(٤) كذا في النسختين.



أَيْنَمَا تُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ .

﴿٥٩﴾ هذه الآية هي التي تسمى آية الحجاب، فأمر الله نبيه أن يأمر النساء عموماً، ويبدأ بزوجاته وبناته - لأنهن أكد من غيرهن، ولأن<sup>(١)</sup> الأمر لغيره ينبغي أن يبدأ بأهله قبل غيرهم؛ كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾. ﴿أَنْ يُذِنَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيهِنَّ﴾: وهن اللاتي يكنن فوق الثياب من ملحفة وخمارٍ ورداءٍ ونحوه؛ أي: يغطين بها وجوههن وصدورهن، ثم ذكر حكمة ذلك، فقال: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾: دل على وجود أذية إن لم يحتجبن، وذلك لأنهن إذا لم يحتجبن، ربما ظن أنهن غير عفيفات، فيتعرض لهن من في قلبه مرض، فيؤذيهن، وربما استهين بهن، وظن أنهن إماء، فتهاون بهن من يريد الشر؛ فالاحتجاب حاسم لمطامع الطامعين فيهن. ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾: حيث غفر لكم ما سلف ورحمكم بأن بين لكم الأحكام وأوضح الحلال والحرام؛ فهذا سد للباب من جهتهن.

﴿٦٠ - ٦١﴾ وأما من جهة أهل الشر؛ فقد توعدهم بقوله: ﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ﴾؛ أي: مرض شك أو شهوة، ﴿والمرجفون في المدينة﴾؛ أي: المخوفون المرهبون الأعداء، المحدثون<sup>(٢)</sup> بكثرتهم وقوتهم وضعف المسلمين، ولم يذكر المعمول الذي ينتهون عنه؛ ليعم ذلك كل ما توحى به أنفسهم إليهم، وتوسوس به، وتدعو إليه من الشر من التعريض بسب الإسلام وأهله، والإرجاف بالمسلمين، وتوهين قواهم، والتعرض للمؤمنات بالسوء والفاحشة. وغير ذلك من المعاصي الصادرة من أمثال هؤلاء.

﴿لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ﴾؛ أي: نأمرك بعقوبتهم وقتالهم ونسلطك عليهم، ثم إذا فعلنا ذلك؛ لا طاقة لهم بك، وليس لهم قوة ولا امتناع، ولهذا قال: ﴿ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً﴾؛ أي: لا يجاورونك في المدينة إلا قليلاً؛ بأن تقتلهم أو تنفيهم، وهذا فيه دليل لنفي أهل الشر الذين يتضرر بإقامتهم بين أظهر المسلمين؛ فإن ذلك أحسم للشر وأبعد منه، ويكونون ﴿ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً﴾؛ أي: مبعدين حيث<sup>(٣)</sup>

(٢) في (ب): «المحدثون».

(١) في (ب): «ولأنه».

(٣) في (ب): «أين».

وَجِدُوا، لَا يَحْضُلُ لَهُمْ أَمْنٌ، وَلَا يَقْرَأُ<sup>(١)</sup> لَهُمْ قَرَارٌ، يَخْشُونَ أَنْ يُقْتَلُوا أَوْ يُحْبَسُوا أَوْ يَعْاقَبُوا.

﴿٦٢﴾ ﴿سُئِنَّا اللَّهُ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾: أَنْ مَنْ تَمَادَى فِي الْعَصِيَانِ وَتَجَرَّأَ عَلَى الْأَذَى وَلَمْ يَنْتَهَ مِنْهُ؛ فَإِنَّهُ يَعْاقَبُ عَقُوبَةً بَلِيغَةً، ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾؛ أَي: تَغْيِيرًا، بَلِ سُنَّتِهِ تَعَالَى وَعَادَتُهُ جَارِيَةٌ مَعَ الْأَسْبَابِ الْمَقْتَضِيَةِ لِأَسْبَابِهَا.

﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُذِيرُكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خٰلِدِينَ فِيهَا أَلَا يَجِدُونَ لِوٰيَا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يٰلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَعْنَا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ .

﴿٦٣﴾ أَي: يَسْتَخْبِرُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ اسْتَعْجَالًا لَهَا، وَبَعْضُهُمْ تَكْذِيبًا لَوْقَعِهَا وَتَعْجِيزًا لِلَّذِي أَخْبَرَ بِهَا، ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾؛ أَي: لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ؛ فَلَيْسَ لِي وَلَا لِغَيْرِي بِهَا عِلْمٌ، وَمَعَ هَذَا؛ فَلَا<sup>(٢)</sup> تَسْتَبْطِئُوهَا، ﴿وَمَا يُذِيرُكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾.

﴿٦٤ - ٦٦﴾ وَمَجْرَدُ مَجِيءِ السَّاعَةِ قَرِيبًا وَبَعْدًا لَيْسَ تَحْتَهُ نَتِيجَةٌ وَلَا فَائِدَةٌ، وَإِنَّمَا النَّتِيجَةُ وَالْخَسَارُ وَالرِّيحُ وَالشَّقَاوَةُ<sup>(٣)</sup> وَالسَّعَادَةُ: هَلْ يَسْتَحِقُّ الْعَبْدُ الْعَذَابَ أَوْ يَسْتَحِقُّ الثَّوَابَ؛ فَهَذِهِ سَأَخْبِرُكُمْ بِهَا وَأَصِفُ لَكُمْ مَسْتَحَقَّهَا، فَوَصَفُ مَسْتَحَقِّ الْعَذَابِ وَوَصَفُ الْعَذَابِ؛ لِأَنَّ الْوَصْفَ الْمَذْكُورَ مَنْطَبِقٌ عَلَى هَؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ بِالسَّاعَةِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكٰفِرِينَ﴾؛ أَي: الَّذِينَ صَارَ الْكُفْرُ دَابَّهُمْ وَطَرِيقَتَهُمُ الْكُفْرَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَبِمَا جَاؤُوا بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَأَبْعَدَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَكَفَى بِذَلِكَ عِقَابًا، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾؛ أَي: نَارًا مَوْقَدَةً تُسْعَرُ فِي أَجْسَامِهِمْ، وَيَبْلُغُ الْعَذَابَ إِلَى أَفْئِدَتِهِمْ، وَيَخْلُدُونَ فِي ذَلِكَ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ، فَلَا يَخْرُجُونَ مِنْهُ، وَلَا يُفْتَرُّ عَنْهُمْ سَاعَةٌ، ﴿وَلَا يَجِدُونَ﴾ لَهُمْ ﴿وَلِيًّا﴾: فَيُعْطِيهِمْ مَا طَلَبُوهُ ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾: يَدْفَعُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ، بَلِ قَدْ تَخَلَّى عَنْهُمْ الْعَلِيِّ النَّصِيرِ وَأَحَاطَ بِهِمْ عَذَابُ السَّعِيرِ، وَبَلَغَ مِنْهُمْ مَبْلَغًا عَظِيمًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾: فَيَذُقُونَ

(٢) في (ب): «قد تستبطنونها».

(١) في (ب): «ولا يقرء».

(٣) في (ب): «والشقا».

حَرْهَا، وَيَشْتَدُّ عَلَيْهِمْ أَمْرُهَا، وَيَتَحَسَّرُونَ عَلَى مَا أَسْلَفُوا. و ﴿يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾: فسلّمنا من هذا العذاب، واستحققنا كالمطيعين جزيل الثواب، ولكن أمنية فات وقتها، فلم تفدهم إلا حسرة وندماً وهماً وغماً وألماً.

﴿٦٧﴾ ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا﴾: وقلدناهم على ضلالهم، ﴿فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾؛ كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتِنَا اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا. يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا. لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ [بعد إذ جاءني]. . .﴾ الآية .

﴿٦٨﴾ ولما علموا أنهم هم وكبراءهم مستحقون للعقاب؛ أرادوا أن يشتموا ممن أضلّوهم، فقالوا: ﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾: فيقول الله ﴿لِكُلِّ ضِعْفٍ﴾: فكلكم اشركتم في الكفر والمعاصي، فتشركون في العقاب، وإن تفاوت عذاب بعضكم على بعض بحسب تفاوت الجرم.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ ﴿١٩﴾ .

﴿٦٩﴾ يحذر تعالى عبادة المؤمنين عن أذية رسولهم محمد ﷺ النبي الكريم الرؤوف الرحيم، فيقابلوه بضد ما يجب له من الإكرام والاحترام، وأن لا يتشبهوا بحال الذين آدوا موسى بن عمران كليم الرحمن، فبرّاه الله مما قالوا من الأذية؛ أي: أظهر الله لهم براءته، والحال أنه عليه الصلاة والسلام ليس محلّ التهمة والأذية؛ فإنه كان وجيهاً عند الله، مقرباً لديه، من خواص المرسلين، ومن عباد الله<sup>(١)</sup> المخلصين، فلم يجرهم ما له من الفضائل عن أذيته والتعرض له بما يكره. فاحذروا أيها المؤمنون أن تتشبهوا بهم في ذلك، والأذية المشار إليها قول بني إسرائيل عن موسى<sup>(٢)</sup> لما رأوا شدة حياته وتستره عنهم: إنه ما يمنعه من ذلك إلا أنه آدر؛ أي: كبير الخصيتين، واشتهر ذلك عندهم، فأراد الله أن يبرّته منهم، فاغتسل يوماً، ووضع ثوبه على حجر، ففرّ الحجر بثوبه، فأهوى موسى عليه السلام في طلبه، فمرّ به على مجالس بني إسرائيل، فأروه أحسن خلق الله، فزال عنه ما رموه به<sup>(٣)</sup>.

(١) في (ب): «عباده».

(٢) في (ب): «الموسى».

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٠٤)، ومسلم (٣٣٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ .

﴿٧٠﴾ يأمر تعالى المؤمنين بتقواه في جميع أحوالهم في السر والعلانية، ويخص منها ويندب للقول السديد، وهو القول الموافق للصواب أو المقارب له عند تعذر اليقين من قراءة وذكر وأمر بمعروف ونهي عن منكر وتعلم علم وتعليمه والحرص على إصابة الصواب في المسائل العلمية وسلوك كل طريق موصل لذلك وكل وسيلة تُعين عليه. ومن القول السديد لين الكلام ولطفه في مخاطبة الأنام والقول المتضمن للنصح والإشارة بما هو الأصلح.

﴿٧١﴾ ثم ذَكَرَ ما يترتب على تقواه وقول القول السديد، فقال: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾؛ أي: يكون ذلك سبباً لصلاحها وطريقاً لقبولها؛ لأن استعمال التقوى تُتَقَبَلُ به الأعمال؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾: ويوفق فيه الإنسان للعمل الصالح، ويُصْلِحُ الله الأعمال أيضاً بحفظها عما يفسدُها وحفظ ثوابها ومضاعفته؛ كما أن الإخلال بالتقوى والقول السديد سبب لفساد الأعمال وعدم قبولها وعدم ترتب آثارها عليها، ﴿ويغفر لكم﴾: أيضاً ﴿ذنوبكم﴾: التي هي السبب في هلاككم؛ فالتقوى تستقيم بها الأمور، ويندفع بها كل محذور، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ .

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِعَذَبِ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَالَّذِينَ أُشْرِكُوا وَالشُّرِكُوتِ وَالشُّرِكِينَ وَالشُّرِكَةَ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ .

﴿٧٢﴾ يعظم تعالى شأن الأمانة التي ائتمن الله عليها المكلفين، التي هي امتثال الأوامر واجتناب المحارم في حال السر والخفية كحال العلانية، وأنه تعالى عرضها على المخلوقات العظيمة السماوات والأرض والجبال عرض تخيير لا تحتيم، وأنتك إن قمت بها وأدبتيها على وجهها؛ فلك الثواب، وإن لم تقومي بها ولم تؤدبها؛ فعليك العقاب، ﴿فأبين أن يحملنها وأشفقن منها﴾؛ أي: خوفاً أن لا يقمن بما حملن، لا عصياناً لرَبَّن ولا زهداً في ثوابه، وعرضها الله على الإنسان على ذلك الشرط المذكور، فقبلها وحملها مع ظلمه وجهله، وحمل هذا الحمل الثقيل.

﴿٧٣﴾ فانقسم الناس بحسب قيامهم بها وعدمه إلى ثلاثة أقسام: منافقون

[أظهروا أنهم] قاموا بها ظاهراً لا باطناً، ومشركون تركوها ظاهراً وباطناً، ومؤمنون قائمون بها ظاهراً وباطناً. فذكرَ الله تعالى أعمالَ هذه الأقسام الثلاثة وما لهم من الثواب والعقاب، فقال: ﴿لِيَعَذَّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾: فله تعالى الحمدُ حيث حَتَمَ هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين الدالّين على تمام مغفرة الله وسعة رحمته وعموم جوده، مع أن المحكوم عليهم كثيرٌ، منهم لم يستحقَّ المغفرة والرحمة، لِنِفاقِهِ وشركِهِ.

تم تفسير سورة الأحزاب بحمد الله وعونه.



## تفسير سورة سبأ

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَلَمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ (٢).

﴿١﴾ ﴿الحمدُ﴾: الثناء بالصفات الحميدة والأفعال الحسنة؛ فله تعالى الحمد؛ لأن جميع صفاته يُحمد عليها لكونها صفات كمال، وأفعاله يُحمد عليها لأنها دائمة بين الفضل الذي يُحمد عليه ويُشكر، والعدل الذي يُحمد عليه ويُعترف بحكمته فيه. وحمدَ نفسه هنا على أن ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾: ملكاً وعبداً يتصرف فيهم بحمده. ﴿وله الحمد في الآخرة﴾: لأن في الآخرة يظهر من حمده والثناء عليه ما لا يكون في الدنيا؛ فإذا قضى الله تعالى بين الخلائق كلهم، ورأى الناس والخلق كلهم ما حكم به وكمال عدله وقسطه وحكمته فيه؛ حمدوه كلهم على ذلك، حتى أهل العقاب؛ ما دخلوا النار إلا وقلوبهم ممتلئة من حمده، وأن هذا من جزاء أعمالهم، وأنه عادلٌ في حكمه بعقابهم.

وأما ظهورُ حمده في دار النعيم والثواب؛ فذلك شيء قد تواردت به الأخبار وتوافق عليه الدليلُ السمعيُّ والعقليُّ؛ فإنهم في الجنة يرون من توالي نعم الله

وإدراير خيره وكثرة بركاته وسعة عطاياه التي لم يبق في قلوب أهل الجنة أمنية ولا إرادة إلا وقد أعطي فوق ما تمئى وأراد، بل يُعْطُونَ من الخير ما لم تتعلّق به أمانيتهم ولم يخْطُرْ بقلوبهم؛ فما ظنك بحمدِهم لرّبهم في هذه الحال مع أن في الجنة تضمحلّ العوارض والقواطع التي تقطع عن معرفة الله ومحبّته والثناء عليه، ويكون ذلك أحبّ إلى أهلها من كلّ نعيم وألذّ عليهم من كلّ لذة؟! ولهذا؛ إذا رأوا الله تعالى وسمعوا كلامه عند خطابه لهم؛ أذهلهم ذلك عن كلّ نعيم، ويكون الذكر لهم في الجنة كالتنفس متواصلًا في جميع الأوقات، هذا إذا أضفت ذلك إلى أنّه يظهر لأهل الجنة في الجنة كلّ وقت من عظمة ربهم وجلاله وجماله وسعة كماله ما يوجب لهم كمال الحمد والثناء عليه. ﴿وهو الحكيم﴾: في ملكه وتدييره، الحكيم في أمره ونهيه. ﴿الخبير﴾: المطلّع على سرائر الأمور وخفاياها.

﴿٢﴾ ولهذا فضل علمه بقوله: ﴿يعلم ما يلج في الأرض﴾؛ أي: من مطر وبذر وحيوان، ﴿وما يخرج منها﴾: من أنواع النباتات وأصناف الحيوانات، ﴿وما ينزل من السماء﴾: من الأملاك والأرزاق والأقدار، ﴿وما يعرج فيها﴾: من الملائكة والأرواح وغير ذلك. ولما ذكر مخلوقاته وحكمته فيها وعلمه بأحوالها؛ ذكر مغفرته ورحمته لها، فقال: ﴿وهو الرحيم الغفور﴾؛ أي: الذي الرحمة والمغفرة وصفه، ولم تنزل آثارهما تنزل على العباد<sup>(١)</sup> كلّ وقت بحسب ما قاموا به من مقتضياتهما.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يُعْزِبُ عَنْهُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغُرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزِ أَلِيمٍ ﴿٥﴾﴾.

﴿٣﴾ لما بين تعالى عظمته بما وصف به نفسه، وكان هذا موجباً لتعظيمه وتقديسه والإيمان به؛ ذكر أن من أصناف الناس طائفة لم تُقدّر ربها حق قدره، ولم تعظمه حق عظمته، بل كفروا به وأنكروا قدرته على إعادة الأموات وقيام الساعة، وعارضوا بذلك رسله، فقال: ﴿وقال الذين كفروا﴾؛ أي: بالله وبرسله وبما جاؤوا به، فقالوا بسبب كفرهم: ﴿لا تأتينا الساعة﴾؛ أي: ما هي إلا هذه الحياة الدنيا

(١) في (ب): «عباده».

نموت ونحيا! فأمر الله رسوله أن يردّ قولهم ويُبَيِّنْهُ وَيُقَسِّمَ عَلَى الْبَعْثِ وَأَنَّهُ سَيَأْتِيهِمْ، واستدلَّ على ذلك بدليل مِّنْ أَقْرَبَ بِهِ؛ لزمه أن يصدّق بالبعث ضرورةً، وهو علمه تعالى الواسعُ العامُّ، فقال: ﴿عَالَمِ الْغَيْبِ﴾؛ أي: الأمور الغائبة عن أبصارنا وعن علمنا؛ فكيف بالشهادة؟! ثم أكَّد علمه فقال: ﴿لَا يَعْرُبُ﴾؛ أي: لا يغيب عن علمه ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: جميع الأشياء بذواتها وأجزائها، حتى أصغر ما يكون من الأجزاء، وهو المثاقيل منها، ﴿وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: قد أحاط به علمه وجرى به قلمه وتضمَّنه الكتابُ المبيِّنُ الذي هو اللوحُ المحفوظ.

فالذي لا يخفى عن علمه مِثْقَالُ الذرة فما دونه في جميع الأوقات، ويعلم<sup>(١)</sup> ما تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنَ الْأَمْوَاتِ وما يبقى من أجسادهم؛ قادرٌ على بعثهم من باب أولى، وليس بعثهم بأعجب من هذا العلم المحيط.

﴿٤﴾ ثم ذكر المقصودَ من البعث، فقال: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: بقلوبهم صدَّقوا الله، وصدَّقوا رسله تصديقاً جازماً، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: تصديقاً لإيمانهم. ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾: لذنوبهم، بسبب إيمانهم وعملهم يندفعُ بها كُلُّ سُوءٍ وَعِقَابٍ، ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾: بإحسانهم، يحصلُ لهم به كُلُّ مطلوبٍ ومرغوبٍ وأمنيَّة.

﴿٥﴾ ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾؛ أي: سعوا فيها كفرًا بها وتعجيزاً لمن جاء بها وتعجيزاً لمن أنزلها كما عجزوه في الإعادة بعد الموت. ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رَجِزٍ أَلِيمٍ﴾؛ أي: مؤلم لأبدانهم وقلوبهم.

﴿وَبَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾.

﴿٦﴾ لما ذكر تعالى إنكارَ من أنكر البعث، وأنهم يرونَ ما أنزل على رسوله ليس بحق؛ ذكر حالة الموقَّفين من العباد، وهم أهل العلم، وأنهم يرون ما أنزل الله على رسوله؛ من الكتاب وما اشتملَ عليه من الأخبارِ ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾؛ أي: الحقُّ منحصرٌ فيه، وما خالفه وناقضه فإنه باطل؛ لأنهم وصلوا من العلم إلى درجة

(١) في (ب): «وعلم».

اليقين، ويرون أيضاً أنه في أوامره ونواهيهِ؛ ﴿يَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾: وذلك لأنهم<sup>(١)</sup> جزموا بصدق ما أخبر بها من وجوه كثيرة: من جهة عليهم بصدق مَنْ أخبر بها، ومن جهة موافقتها للأمور الواقعة والكتب السابقة، ومن جهة ما يشاهدون من أخبارها التي تقع عياناً، ومن جهة ما يشاهدون من الآيات العظيمة الدالة عليها في الآفاق وفي أنفسهم، ومن جهة موافقتها لما دلت عليه أسماؤه تعالى وأوصافه، ويرون في الأوامر والنواهي أنها تهدي إلى الصراط المستقيم المتضمن للأمور<sup>(٢)</sup> بكل صفة تزكي النفس وتنمي الأجر وتفيد العامل وغيره؛ كالصدق والإخلاص وبر الوالدين وصلة الأرحام والإحسان إلى عموم الخلق ونحو ذلك، وتنتهي عن كل صفة قبيحة، تدنس النفس، وتحبط الأجر، وتوجب الإثم والوزر من الشرك والزنا والربا والظلم في الدماء والأموال والأعراض.

وهذه منقبة لأهل العلم وفضيلة وعلامة لهم، وأنه كلما كان العبد أعظم علماً وتصديقاً بأخبار ما جاء به الرسول وأعظم معرفةً بحكم أوامره ونواهيهِ؛ كان من أهل العلم الذين جعلهم الله حجةً على ما جاء به الرسول، احتج الله بهم على المكذبين المعاندين كما في هذه الآية وغيرها.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكَ عَلَىٰ رَجُلٍ يَبْتَئِثُكُمْ إِذَا مَزَقْتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّكُمْ لَبِئَ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفَتَرَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ شَأْنًا خَفِيفٌ بِهِمُ الْأَرْضُ أَوْ نُقِيطَ عَلَيْهِمْ كَيْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَلِآيَةِ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنبِئٍ ﴿٩﴾﴾.

﴿٧﴾ أي: ﴿وقال الذين كفروا﴾: على وجه التكذيب والاستهزاء والاستبعاد، وذكر وجه الاستبعاد؛ أي: قال بعضهم لبعض: ﴿هل ندلكم على رجل يبتئثكم إذا مزقتم كل ممزقٍ إنكم لفي خلقٍ جديدٍ﴾؛ يعنون بذلك الرجل رسول الله ﷺ، وأنه رجل أتى بما يستغرب منه، حتى صار بزعمهم فرجةً يتفرجون عليه وأعجوبةً يسخرون منه، وأنه كيف يقول: إنكم مبعوثون بعد ما مزقكم البلى وتفرقت أوصالكم، واطمحلّت أعضاؤكم!

﴿٨﴾ فهذا الرجل الذي يأتي بذلك: هل افتري ﴿على الله كذباً﴾: فتجرأ عليه

(٢) في (ب): «للامر».

(١) في (ب): «أنهم».



وقال ما قال، ﴿أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾: فلا يُستغرب منه؛ فإنَّ الجنون فنونٌ، وكلُّ هذا منهم على وجه العناد والظلم، ولقد علموا أنه أصدقُ خلقِ الله وأعقلهم، ومن عليهم أنهم أبدوا وأعادوا في معاداتهم، وبذلوا أنفسهم وأموالهم في صدِّ الناس عنه؛ فلو كان كاذباً مجنوناً؛ لم ينبغ لكم يا أهل العقول غير الزاكية أن تُضغوا لما قال ولا تحتفلوا بدعوته؛ فإنَّ المجنون لا ينبغي للعاقل أن يُلفت إليه نظره أو يبلغ قوله منه كلُّ مبلغ، ولولا عنادكم وظلمكم؛ لبأذرتُم لإجابته وليتَّسبم دعوته، ولكن ما تُغني الآياتُ والتُّذر عن قوم لا يؤمنون، ولهذا قال تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾، ومنهم الذين قالوا تلك المقالة ﴿فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾؛ أي: في الشقاء العظيم والضلال البعيد الذي ليس بقريب من الصواب، وأيُّ شقاءٍ وضلال أبلغ من إنكارهم لقدرة الله على البعث، وتكذيبهم لرسولهم الذي جاء به، واستهزائهم به، وجزمهم بأنَّ ما جاؤوا به هو الحقُّ فرأوا الحقَّ باطلاً والباطل والضلال حقاً وهدي؟!

﴿٩﴾ ثم نبَّههم على الدليل العقلي الدالُّ على عدم استبعاد البعث الذي استبعده، وأنهم لو نظروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض، فرأوا من قدرة الله فيهما ما يُبهرُ العقول، ومن عظمته ما يُذهلُ العلماء الفحول، وأنَّ خلقهما وعظمتهما وما فيهما من المخلوقات أعظم من إعادة الناس بعد موتهم من قبورهم؛ فما الحامل لهم على ذلك التكذيب مع التصديق بما هو أكبر منه؟! نعم؛ ذلك خبرٌ غيبيٌّ إلى الآن ما شاهدوه؛ فلذلك كذبوا به. قال الله: ﴿إِنْ نَشَأْ نُخَسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾؛ أي: من العذاب؛ لأنَّ الأرض والسماء تحت تدبيرنا؛ فإنَّ أمرناهما؛ لم يستعصيا؛ فاحذروا إصراركم على تكذيبكم فنعاقبكم أشدَّ العقوبة. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾؛ أي: خلق السماوات والأرض وما فيهما من المخلوقات ﴿لَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾: فكلُّما كان العبدُ أعظم إنابةً إلى الله؛ كان انتفاعه بالآياتِ أعظم؛ لأنَّ المنيبَ مقلِّبٌ إلى ربه، قد توجهت إرادته وهمائته لربه، ورجع إليه في كلِّ أمر من أموره، فصار قريباً من ربه، ليس له همٌّ إلاَّ الاشتغال بمرضاته، فيكون نظره للمخلوقات نظراً فكرياً وعبرة لا نظر غفلة غير نافية.

﴿٩﴾ وَقَدَدَ عَائِنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضَلًّا يَنْجَالُ أَوْيَ مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَالنَّارُ لَهُ الْحَدِيدُ ﴿١٠﴾ إِنْ أَعْمَلَ سَيِّئَاتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرِّ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴿١١﴾

﴿١٠ - ١١﴾ أي: ولقد منّا على عبدنا ورسولنا داود عليه الصلاة والسلام، وآتيناه فضلاً من العلم النافع والعمل الصالح والنعم الدينيّة والديويّة: ومن نعمه عليه:

ما خصّه به من أمره تعالى الجمادات كالجبال والحيوانات من الطيور أن تؤوب معه وتُرَجَّع التسبيح بحمد ربّها مجاوبه له، وفي هذا من النعمة عليه أن كان ذلك من خصائصه التي لم تكن لأحد قبله ولا بعده، وأن ذلك يكون منهضاً له ولغيره على التسبيح إذا رآوا هذه الجمادات والحيوانات تتجاوب بتسبيح ربّها وتمجيدِهِ وتكبيرِهِ وتمجيدِهِ؛ كان ذلك مما يهيج على ذكر الله تعالى.

ومنها: أن ذلك كما قال كثير من العلماء أنه طرباً بصوت داود؛ فإن الله تعالى قد أعطاه من حُسن الصوت ما فاق به غيره، وكان إذا رجَّع التسبيح والتهليل والتمجيد<sup>(١)</sup> بذلك الصوت الرخيم الشجي المطرب؛ طرب كل من سمعه من الإنس والجن، حتى الطيور والجبال، وسبّحت بحمد ربّها.

ومنها: أنه لعله ليحصل له أجر تسبيحها، لأنه سبب ذلك، وتسبح تبعاً له.

ومن فضله عليه أن الآن له الحديد؛ ليعمل الدروع السابغات، وعلمه تعالى كيفية صنعته؛ بأن يقدره في ﴿السرد﴾؛ أي: يقدره خلقاً ويصنعه كذلك ثم يدخل بعضها ببعض، قال تعالى: ﴿وعلمناه صنعة لبوس لكم لئتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون﴾، ولما ذكر ما امتن به عليه وعلى آله؛ أمره بشكره وأن يعملوا صالحاً، ويراقبوا الله تعالى فيه بإصلاحه وحفظه من المفسدات؛ فإنه بصير بأعمالهم، مطلع عليها، لا يخفى عليه منها شيء.

﴿وَلَسَلِّتَنَ الرِّيحَ غُدُوهاً شَهراً وَرَواحهاً شَهراً وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ القِطْرِ وَمِنَ الجِجَنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذِذِ رِيحِهِ وَمَنْ يَرْجُ مِنْهُمْ عَن آمْرِنَا نُدِقُهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٧﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْدِرَبٍ وَتَمْثِيلٍ وَحِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشُّكُورِ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا فَصَيَّنَا عَلَيْهِ المَوْتَ مَا دَلَّمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الجِجَنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي العَذَابِ المِهِينِ ﴿١٩﴾﴾

(١) في (ب): «والتمجيد».

﴿١٢﴾ لَمَّا ذَكَرَ فَضْلَهُ عَلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ ذَكَرَ فَضْلَهُ عَلَى ابْنِهِ سَلِيمَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ، وَأَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ وَتَحْمِلُهُ وَتَحْمِلُ جَمِيعَ مَا مَعَهُ وَتَقْطَعُ الْمَسَافَةَ الْبَعِيدَةَ جَدًّا فِي مَدَّةٍ يَسِيرَةٍ، فَتَسِيرُ فِي الْيَوْمِ مَسِيرَةَ شَهْرَيْنِ: ﴿غَدَوْهَا شَهْرًا﴾؛ أَي: أَوَّلَ النَّهَارِ إِلَى الزَّوَالِ، ﴿وَرَوَّاحُهَا شَهْرًا﴾: مِنَ الزَّوَالِ إِلَى آخِرِ النَّهَارِ، ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾؛ أَي: سَخَّرْنَا لَهُ عَيْنَ الثُّحَاسِ وَسَهَّلْنَا<sup>(١)</sup> لَهُ الْأَسْبَابَ فِي اسْتِخْرَاجِ مَا يُسْتَخْرَجُ مِنْهَا مِنَ الْأَوَانِي وَغَيْرِهَا، وَسَخَّرَ اللَّهُ لَهُ أَيْضًا<sup>(٢)</sup> الشَّيَاطِينَ وَالْجِنَّ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يَسْتَعْصُوا<sup>(٣)</sup> عَنْ أَمْرِهِ، ﴿وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

﴿١٣﴾ وَأَعْمَالُهُمْ<sup>(٤)</sup>؛ كُلُّ مَا شَاءَ سَلِيمَانُ عَمَلُوهُ؛ ﴿مَنْ مَحَارِبٌ﴾: وَهُوَ كُلُّ بِنَاءٍ يُعْقَدُ وَتَحْكَمُ بِهِ الْأَبْنِيَّةُ؛ فَهَذَا فِيهِ ذِكْرُ الْأَبْنِيَّةِ الْفَخْمَةِ. ﴿وَتَمَائِيلٌ﴾؛ أَي: صُورَ الْحَيَوَانَاتِ وَالْجِمَادَاتِ مِنْ إِتْقَانِ صَنَعَتِهِمْ، وَقَدْرَتِهِمْ عَلَى ذَلِكَ، وَعَمَلُهُمْ لِسَلِيمَانَ. ﴿وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ﴾؛ أَي: كَالْبَرْكِ الْكَبِيرِ يَعْمَلُونَهَا لِسَلِيمَانَ لِلطَّعَامِ؛ لِأَنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى مَا لَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ غَيْرُهُ. ﴿وَوَعَمَلُونَ لَهُ قُدُورًا﴾ رَاسِيَاتٍ: لَا تُزَالُ<sup>(٥)</sup> عَنْ أَمَاكِنِهَا مِنْ عَظَمَتِهَا، فَلَمَّا ذَكَرَ مِثْقَةَ عَلَيْهِمْ؛ أَمَرَهُمْ بِشُكْرِهَا، فَقَالَ: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ﴾: وَهُمْ دَاوُدُ وَأَوْلَادُهُ وَأَهْلُهُ؛ لِأَنَّ الْمِثْقَةَ عَلَى الْجَمِيعِ، وَكَثِيرٌ مِنْ هَذِهِ الْمَصَالِحِ عَائِدٌ لِكُلِّهِمْ ﴿شُكْرًا﴾: لِلَّهِ عَلَى مَا أَعْطَاهُمْ، وَمُقَابِلَةٌ لِمَا أَوْلَاهُمْ. ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِي الشَّاكِرِينَ﴾: فَأَكْثَرُهُمْ لَمْ يَشْكُرُوا اللَّهَ تَعَالَى عَلَى مَا أَوْلَاهُمْ مِنْ نِعْمِهِ وَدَفَعَ عَنْهُمْ مِنَ النِّقَمِ. وَالشُّكْرُ: اعْتِرَافُ الْقَلْبِ بِمِثْقَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَلْقِيهَا افْتِقَارًا إِلَيْهَا، وَصَرَفُهَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَصَوْنُهَا عَنْ صَرَفِهَا فِي الْمَعْصِيَةِ.

﴿١٤﴾ فَلَمْ يَزَلِ الشَّيَاطِينُ يَعْمَلُونَ لِسَلِيمَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامُ كُلَّ بِنَاءٍ، وَكَانُوا قَدْ مَوَّهُوا عَلَى الْإِنْسِ، وَأَخْبَرُوهُمْ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ، وَيَطَّلِعُونَ عَلَى الْمَكْنُونَاتِ، فَأَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُرِيَّ الْعِبَادَ كَذِبَهُمْ فِي هَذِهِ الدَّعْوَى، فَمَكَّنُوا يَعْمَلُونَ عَلَى عَمَلِهِمْ، وَقَضَى اللَّهُ الْمَوْتَ عَلَى سَلِيمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَاتَّكَأَ عَلَى عَصَاهُ، وَهِيَ الْمَنْسَأَةُ، فَصَارُوا إِذَا مَرَوْا بِهِ وَهُوَ مَتَّكِيٌّ عَلَيْهَا؛ ظَنُّوهُ حَيًّا وَهَابُوهُ، فَغَدُوا عَلَى عَمَلِهِمْ كَذَلِكَ سَنَةً كَامِلَةً عَلَى مَا قِيلَ، حَتَّى سُلِّطَتْ دَابَّةُ الْأَرْضِ عَلَى عَصَاهُ، فَلَمْ

(٢) فِي (ب): «أَيْضًا لَهُ».

(٤) فِي (ب): «وَأَعْمَالُهُ».

(١) فِي (ب): «سَهَّلْنَا».

(٣) فِي (ب): «لَا يَسْتَعْصُونَ».

(٥) فِي (ب): «لَا تَزُولُ».

تزل ترعاه حتى باد وسقط، فسقط سليمان، وتفرقت الشياطين وتبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين: وهو العمل الشاق عليهم؛ فلو علموا الغيب؛ لعلموا موت سليمان الذي هم أحرص شيء عليه ليسلموا مما هم فيه.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُمْ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكْمَلٍ خَمْطٍ وَأَنْثَلِ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَافِرُ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّبْأَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالٍ وَأَيَّامًا مَمِينٍ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوَفِّي بِالْآخِرَةِ مَعَن هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾

﴿١٥ - ١٩﴾ سبأ قبيلة معروفة في أداني اليمن، ومسكنهم بلدة يُقال لها: مارب، ومن نعم الله ولطفه بالناس عموماً وبالعرب خصوصاً أنه قص في القرآن أخبار المهلكين والمعاقبين ممن كان يجاور العرب، ويشاهد آثاره، ويتناقل الناس أخباره؛ ليكون ذلك أدعى إلى التصديق وأقرب للموعظة، فقال: ﴿لقد كان لسبأ في مسكنهم﴾؛ أي: محلهم الذي يسكنون فيه ﴿آية﴾: والآية هنا ما أدر الله عليهم من النعم، وصرف عنهم من النقم، الذي يقتضي ذلك منهم أن يعبدوا الله ويشكروه. ثم فسّر الآية بقوله: ﴿جنتان عن يمين وشمال﴾: وكان لهم وإد عظيم تأتيه سيول كثيرة، وكانوا بنوا سداً محكماً يكون مجمعاً للماء، فكانت السيول تأتيه، فيجتمع هناك ماء عظيم، فيفرقونه على بساتينهم التي عن يمين ذلك الوادي وشماله، وتغل لهم تلك الجنتان العظيمتان من الثمار ما يكفيهم ويحصل لهم به الغبطة والسرور، فأمرهم الله بشكر نعمة التي أدرها عليهم من وجوه كثيرة:

منها: هاتان الجنتان اللتان غالب أوقاتهم منهما.

ومنها: أن الله جعل بلدتهم بلدة طيبة لحسن هوائها وقلة وخبثها وحصول الرزق الرغد فيها.

ومنها: أَنْ اللَّهَ تَعَالَى وَعَدَّهْمُ إِنْ شَكَرُوا أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ وَيَرْحَمَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾.

ومنها: أَنْ اللَّهَ لَمَّا عَلِمَ احتياجهم في تجارتهم ومكاسبهم إلى الأرض المباركة - الظاهر أنها قري صنعاء كما قاله غير واحد من السلف، وقيل: إنها الشام -؛ هيأ لهم من الأسباب ما به يتيسر وصولهم إليها بغاية السهولة من الأمن وعدم الخوف وتواصل القرى بينهم وبينها؛ بحيث لا يكون عليهم مشقة بحمل الزاد والمزاد، ولهذا قال: ﴿وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير﴾؛ أي: سيراً مقدرًا يعرفونه ويحكمون عليه بحيث لا يتيهون عنه ليالي وأياماً.

﴿أَمْنِينَ﴾؛ أي: مطمئنين في السير في تلك الليالي والأيام غير خائفين، وهذا من تمام نعمة الله عليهم أن أمنهم من الخوف. فأعرضوا عن المنعم وعن عبادته، وبطروا النعمة وملوها، حتى إنهم طلبوا وتمنوا أن تتباعد أسفارهم بين تلك القرى التي كان السير فيها متيسراً. ﴿وظلموا أنفسهم﴾: بكفرهم بالله وبنعمته، فعاقبهم الله تعالى بهذه النعمة التي أطعته، فأبأدها عليهم، فأرسل عليها ﴿سيل العرم﴾؛ أي: السيل المتوعر الذي خرب سددهم، وأتلف جناتهم، وخرب بساتينهم، فتبدلت تلك الجنات ذات الحداثق المعجبة والأشجار المثمرة، وصار بدلها أشجار لا نفع فيها. ولهذا قال: ﴿وبدلناهم جنتين ذواتي أكل﴾؛ أي: شيء قليل من الأكل الذي لا يقع منهم موقعا، ﴿خمط وأثل وشيء من سدر قليل﴾: وهذا كله شجر معروف، وهذا من جنس عملهم؛ فكما بدلوا الشكر الحسن بالكفر القبيح؛ بدلوا تلك النعمة بما ذكر. ولهذا قال: ﴿ذلك جزئناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور﴾؛ أي: وهل نجازي جزاء العقوبة - بدليل السياق - إلا من كفر بالله وبطّر النعمة؟! فلما أصابهم ما أصابهم؛ تفرقوا وتمزقوا بعدما كانوا مجتمعين، وجعلهم الله أحاديث يتحدث بهم وأسماراً للناس، وكان يضرب بهم المثل، فيقال: «تفرقوا أيدي سبأ»؛ فكل أحد يتحدث بما جرى لهم، ولكن لا ينتفع بالعبارة فيهم إلا من قال الله: ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾: صبار على المكاره والشدائد، يتحملها لوجه الله، ولا يتسخطها، بل يصبر عليها، شكور لنعمة الله تعالى، يقر بها، ويعترف، ويشي على من أولاهها، ويصرفها في طاعته.

فهذا إذا سمع بقصصتهم وما جرى منهم وعليهم؛ عرف بذلك أن تلك العقوبة

جزاءً لكَفَرِهِمْ نِعْمَةَ اللَّهِ، وَأَنْ مَنْ فَعَلَ مِثْلَهُمْ؛ فَعِيلٌ بِهِ كَمَا فُعِلَ بِهِمْ، وَأَنْ شُكِّرَ اللَّهُ تَعَالَى حَافِظٌ لِلنِّعْمَةِ دَافِعٌ لِلنِّقْمَةِ، وَأَنْ رُسُلَ اللَّهِ صَادِقُونَ فِيمَا أَخْبَرُوا بِهِ، وَأَنْ الْجَزَاءُ حَقٌّ كَمَا رَأَى أُنْمُوذَجَهُ فِي دَارِ الدُّنْيَا.

﴿٢٠﴾ ثم ذكر أن قوم سبا من الذين صدق عليهم إبليس ظنه؛ حيث قال لربه: ﴿فِعْزَتِكَ لِأَعْوِيَّتِهِمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾: وهذا ظن من إبليس لا يقين؛ لأنه لا يعلم الغيب ولم يأتيه خبر من الله أنه سيغويهم أجمعين؛ إلا من استثنى؛ فهؤلاء وأمثالهم ممن صدق عليه إبليس ظنه ودعاهم وأغواهم، ﴿فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: ممن لم يكفر بنعمة الله؛ فإنه لم يدخل تحت ظن إبليس، ويحتمل أن قصة سبا انتهت عند قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾. ثم ابتداء فقال: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على جنس الناس، فتكون الآية عامة في كل من اتبعه.

﴿٢١﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ﴾؛ أي: لإبليس ﴿عليهم من سلطان﴾؛ أي: تسلط وقهر وقسر على ما يريده منهم، ولكنَّ حكمة الله تعالى اقتضت تسليطه وتسويله لبني آدم؛ ﴿لَنَعْلَمَ مِنْ يَوْمُنَا بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾؛ أي: ليقوم سوق الامتحان، ويُعلم به الصادق من الكاذب، ويُعرف من كان إيمانه صحيحاً يثبت عند الامتحان والاختبار وإلقاء الشبه الشيطانية ممن إيمانه غير ثابت يترزُل بأدنى شبهة ويزول بأقل دواع يدعوها إلى ضده؛ فالله تعالى جعله امتحاناً يمتحن به عباده ويُظهر الخبيث من الطيب. ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾: يحفظ العباد ويحفظ عليهم أعمالهم، ويحفظ تعالى جزاءها؛ فيوفيهما إياها كاملة موفرة.

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرِكٍ وَمَا لَهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَاعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿٢٢ - ٢٣﴾ أي: ﴿قل﴾: يا أيها الرسول للمشركين بالله غيره من المخلوقات التي لا تنفع ولا تضر ملزماً لهم بعجزها وميئناً بطلان عبادتها: ﴿ادعوا الذين زعمتم من دون الله﴾؛ أي: زعمتموهم شركاء لله إن كان دعاؤكم ينفع؛ فإنهم قد توفرت فيهم أسباب العجز وعدم إجابة الدعاء من كل وجه؛ فإنهم ليس لهم أدنى ملك، فلا يملكون مثقال ذرة في السماوات والأرض: على وجه الاستقلال، ولا على

وجه الاشتراك، ولهذا قال: ﴿وما لهم﴾؛ أي: لتلك الآلهة الذين زعمتم ﴿فيهما﴾؛ أي: في السماوات والأرض ﴿من شرك﴾؛ أي: لا شرك قليل ولا كثير؛ فليس لهم ملك ولا شركة ملك.

بقي أن يُقال: ومع ذلك؛ فقد يكونون أعواناً للمالك ووزراء له؛ فدعاؤهم يكون نافعاً؛ لأنهم بسبب حاجة الملك إليهم يقضون حوائج من تعلق بهم، فنفى تعالى هذه المرتبة، فقال: ﴿وما له﴾؛ أي: لله تعالى الواحد القهار ﴿منهم﴾؛ أي: من هؤلاء المعبودين ﴿من ظهير﴾؛ أي: معاونٍ ووزير يساعده على الملك والتدبير. فلم يبقَ إلا الشفاعة، فنفاها بقوله: ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾: فهذه أنواع التعلقات التي يتعلّق بها المشركون بأناداهم وأوثانهم من البشر والشجر والحجر وغيرهم، قَطَعَهَا اللَّهُ وَبَيَّنَّ بطلانها تبييناً حاسماً لموادّ الشرك قاطعاً لأصوله؛ لأنّ المشرك إنّما يدعو ويعبدُ غير الله؛ لما يرجو منه من النفع؛ فهذا الرجاء هو الذي أوجب له الشرك؛ فإذا كان من يدعو غير الله لا مالكا للنفع والضرّ ولا شريكاً للمالك ولا عوناً وظهيراً للمالك ولا يقدرُ أن يشفَعَ بدون إذن المالك؛ كان هذا الدعاء وهذه العبادة ضلالاً في العقل باطلةً في الشرع، بل ينعكسُ على المشركِ مطلوبه ومقصوده؛ فإنه يريدُ منها النفع، فبيّن الله بطلانه وعدمه، وبيّن في آياتٍ أخرٍ ضررها على عابديها<sup>(١)</sup>، وأنه يوم القيامة يكفرُ بعضهم ببعض ويلعنُ بعضهم بعضاً ومأواهم النارُ، وإذا حُسِرَ الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين.

والعجب أن المشرك استكبر عن الانقياد للرسول بزعمهم أنهم بشرٌ، ورضي أن يعبدُ ويدعو الشجر والحجر، استكبر عن الإخلاص للملك الرحمن الديان، ورضي بعبادة من ضره أقرب من نفعه طاعةً لأعدى عدو له وهو الشيطان!

وقوله: ﴿حتى إذا فُزِعَ عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العليّ الكبير﴾: يُحتمل أن الضمير في هذا الموضع يعودُ إلى المشركين؛ لأنهم مذكورون في اللفظ، والقاعدة في الضمائر أن تعودُ إلى أقرب مذكور، ويكونُ المعنى: إذا كان يوم القيامة وفُزِعَ عن قلوب المشركين؛ أي: زال الفزع وسئلوا حين رجعت إليهم عقولهم عن حالهم في الدنيا وتكذيبهم للحق الذي جاءت به الرسل؛ أنّهم

(١) في (ب): «ضرره على عابديه».

يَقْرُونَ أَنَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالشُّرْكِ بَاطِلٌ، وَأَنَّ مَا قَالَ اللَّهُ وَأُخْبِرَتْ بِهِ عَنْهُ رِسْلُهُ هُوَ الْحَقُّ، فَبَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ، وَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ، وَاعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ. ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾: بذاته فوق جميع المخلوقات، وقهره لهم وعلو قدره بما له من الصفات العظيمة جليلة المقدار. ﴿الْكَبِيرُ﴾: في ذاته وصفاته، ومن علوه أَنَّ حُكْمَهُ تَعَالَى يعلو، وتُدْعِيَنَّ لَهُ النُّفُوسُ، حَتَّى نَفُوسَ الْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُشْرِكِينَ، وَهَذَا الْمَعْنَى أَظْهَرَ، وَهُوَ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ السِّيَاقُ.

وَيُحْتَمَلُ أَنَّ الضَّمِيرَ يَعُودُ إِلَى الْمَلَائِكَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ؛ سَمِعَتْهُ الْمَلَائِكَةُ فَصَعِقُوا وَخَرُّوا لِلَّهِ سَجْدًا، فَيَكُونُ أَوَّلُ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيْلُ، فَيَكَلِّمُهُ اللَّهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ؛ فَإِذَا زَالَ الصَّعَقُ عَنِ الْقُلُوبِ الْمَلَائِكَةِ وَزَالَ الْفَزَعُ، فَيَسْأَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَنْ ذَلِكَ الْكَلَامِ الَّذِي صَعِقُوا مِنْهُ: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: قَالَ الْحَقُّ: إِمَّا إِجْمَالًا لَعَلَّمَهُمْ أَنَّهُ لَا يَقُولُ إِلَّا حَقًّا، وَإِمَّا أَنْ يَقُولُوا: قَالَ كَذَا وَكَذَا<sup>(١)</sup>، لِلْكَلامِ الَّذِي سَمِعُوهُ مِنْهُ، وَذَلِكَ مِنَ الْحَقِّ. فَيَكُونُ الْمَعْنَى عَلَى هَذَا أَنَّ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا مَعَ اللَّهِ تِلْكَ الْأَلْهَةَ الَّتِي وَصَفْنَا لَكُمْ عَجْزَهَا وَنَقَصَهَا وَعَدِمَ نَفْعَهَا بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ كَيْفَ صَدَفُوا وَصَرَفُوا عَنِ إِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لِلرَّبِّ الْعَظِيمِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ الَّذِي مِنْ عَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ الْكَرَامَ وَالْمُقَرَّبِينَ مِنَ الْخَلْقِ يَبْلُغُ بِهِمُ الْخُضُوعَ وَالصَّعَقُ عِنْدَ سَمَاعِ كَلَامِهِ هَذَا الْمَبْلُغَ، وَيَقْرُونَ كُلُّهُمْ لِلَّهِ أَنَّهُ لَا يَقُولُ إِلَّا الْحَقَّ؛ فَمَا بِالْهُؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ اسْتَكْبَرُوا عَنِ عِبَادَةِ مَنْ هَذَا شَأْنُهُ وَعَظْمَةُ مَلِكِهِ وَسُلْطَانِهِ؟! فَتَعَالَى الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ عَنِ شَرِكِ الْمُشْرِكِينَ وَإِفْكِهِمْ وَكَذِبِهِمْ.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبِّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَنْحَرْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿٢٤﴾ يَا مَرْءَ تَعَالَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَقُولَ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ وَيَسْأَلَهُ عَنْ صِحَّةِ<sup>(٢)</sup>

(١) كما في «صحيح البخاري» (٤٨٠٠)، و«السنة» لأبي عاصم (٥١٥).

(٢) في (ب): «حجة».



شركه: ﴿مَنْ يَرْزُقْكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: فَإِنَّهُمْ لَا بَدَّ أَنْ يَقْرُوا أَنَّهُ اللَّهُ، وَلَثْنٌ لَمْ يَقْرُوا؛ فَ﴿قُلِ اللَّهُ﴾: فَإِنَّكَ لَا تَجِدُ مِنْ يَدْفَعُ هَذَا الْقَوْلَ. فَإِذَا تَبَيَّنَ أَنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ الَّذِي يَرْزُقْكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيُنزِلُ لَكُمْ الْمَطْرَ وَيُنْبِتُ لَكُمْ النَّبَاتَ وَيَفْجُرُ لَكُمْ الْأَنْهَارَ وَيُطْلِعُ لَكُمْ مِنْ ثَمَارِ الْأَشْجَارِ وَجَعَلَ لَكُمْ الْحَيَوَانَاتِ جَمِيعَهَا لِنَفْعِكُمْ وَرِزْقِكُمْ؛ فَلَيْمَ تَعْبُدُونَ مَعَهُ مِنْ لَا يَرْزُقْكُمْ شَيْئاً وَلَا يَفِيدُكُمْ نَفْعاً؟! وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هَدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾؛ أَي: إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ مَنَّا وَمِنْكُمْ عَلَى الْهَدَىٰ مُسْتَعْلِيَةً عَلَيْهِ، أَوْ فِي ضَلَالٍ بَيْنٍ مَنَعْمَرَةً فِيهِ.

وهذا الكلام يقوله من تبين له الحق وأنضح له الصواب وجزم بالحق الذي هو عليه وبطلان ما عليه خصمه؛ أي: قد شرحنا من الأدلة الواضحة عندنا وعندكم ما به يُعْلَمُ علماً يقينياً لا شك فيه من المحق منا ومن المبطل ومن المهتدي ومن الضال، حتى إنه يصير التعيين بعد ذلك لا فائدة فيه؛ فَإِنَّكَ إِذَا وَازَنْتَ<sup>(١)</sup> بَيْنَ مَنْ يَدْعُو إِلَىٰ عِبَادَةِ الْخَالِقِ لِسَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ، الْمُتَصَرِّفِ فِيهَا بِجَمِيعِ أَنْوَاعِ التَّصَرُّفَاتِ، الْمَسْدِي جَمِيعِ النِّعَمِ، الَّذِي رَزَقَهُمْ وَأَوْصَلَ إِلَيْهِمْ كُلَّ نِعْمَةٍ وَدَفَعَ عَنْهُمْ كُلَّ نِقْمَةٍ، الَّذِي لَهُ الْحَمْدُ كُلُّهُ وَالْمَلِكُ كُلُّهُ وَكُلُّ أَحَدٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فَمَنْ دُونَهُمْ خَاضِعُونَ لِهَيْبَتِهِ مُتَذَلِّلُونَ لِعَظَمَتِهِ، وَكُلُّ الشُّفَعَاءِ تَخَافُهُ، لَا يَشْفَعُ أَحَدٌ مِنْهُمْ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ، الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ فِي ذَاتِهِ وَأَوْصَافِهِ وَأَفْعَالِهِ، الَّذِي لَهُ كُلُّ كَمَالٍ وَكُلُّ جَلَالٍ وَكُلُّ جَمَالٍ وَكُلُّ حَمْدٍ وَثَنَاءٍ وَمَجْدٍ، يَدْعُو إِلَىٰ التَّقَرُّبِ لِمَنْ هَذَا شَأْنُهُ، وَإِخْلَاصِ الْعَمَلِ لَهُ، وَيَنْهَىٰ عَنِ عِبَادَةِ مَنْ سِوَاهُ، وَبَيْنَ مَنْ يَتَقَرَّبُ إِلَىٰ أَوْثَانٍ وَأَصْنَامٍ وَقُبُورٍ لَا تَخْلُقُ وَلَا تَرْزُقُ وَلَا تَمْلِكُ لِأَنْفُسِهَا وَلَا لِمَنْ عَبَدَهَا نَفْعاً وَلَا ضَرّاً وَلَا مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نَشُوراً، بَلْ هِيَ جَمَادَاتٌ لَا تَعْقِلُ وَلَا تَسْمَعُ دَعَاءَ عَابِدِيهَا، وَلَوْ سَمِعَتْهُ؛ مَا اسْتَجَابَتْ لَهُمْ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشُرْكِهِمْ وَيَتَبَرَّوْنَ مِنْهُمْ وَيَتَلَاعَنُونَ بَيْنَهُمْ، لَيْسَ لَهُمْ قِسْطٌ مِنَ الْمَلِكِ، وَلَا شَرِكَةٌ فِيهِ وَلَا إِعَانَةٌ فِيهِ، وَلَا لَهُمْ شَفَاعَةٌ يَسْتَقْلُونَ بِهَا دُونَ اللَّهِ؛ فَهُوَ يَدْعُو مَنْ هَذَا وَصْفُهُ، وَيَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَكْنَهُ، وَيَعَادِي مَنْ أَخْلَصَ الدِّينَ لِلَّهِ وَيَحَارِبُهُ، وَيَكْذِبُ رَسُلَ اللَّهِ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِخْلَاصِ لِلَّهِ وَحْدَهُ؛ تَبَيَّنَ لَكَ<sup>(٢)</sup> أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ: الْمَهْتَدِي مِنَ الضَّالِّ وَالشَّقِيَّ مِنَ السَّعِيدِ، وَلَمْ يَحْتَجْ إِلَىٰ أَنْ يَعِينَ لَكَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ وَصْفَ الْحَالِ أَوْضَحَ مِنْ لِسَانِ الْمَقَالِ.

(١) فعل الشرط، كذا في الحاشية بخط المؤلف رحمه الله.

(٢) جواب الشرط، كذا في الحاشية بخط المؤلف رحمه الله.

﴿٢٥﴾ ﴿قل﴾ لهم: ﴿لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أُجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: كلُّ منَّا ومنكم له عمله، أنتم لا تُسألون عن إجرامنا وذنوبنا لو أذنبنا، ونحن لا نُسأل عن أعمالكم؛ فليكن المقصودُ منَّا ومنكم طلبُ الحقائق وسلوك طريق الإنصاف، ودَعوا ما كُنَّا نعملُ، ولا يكن مانعاً لكم من اتِّباع الحقِّ؛ فإنَّ أحكام الدنيا تجري على الظواهر، ويَتَّبَع فيها الحقُّ ويُجْتَنَبُ الباطلُ، وأما الأعمال؛ فلها دارٌ أخرى يَحْكُمُ فيها أحكمُ الحاكمين، ويفصِّلُ بين المختصمين أعدلُ العادلين.

﴿٢٦﴾ ولهذا قال: ﴿قل يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا﴾؛ أي: يحكم بيننا حكماً يَتَبَيَّنُ به الصادقُ من الكاذب، والمستحقُّ للثواب من المستحقُّ للعقاب وهو خير الفاتحين.

﴿٢٧﴾ ﴿قل﴾: لهم يا أيها الرسولُ، وَمَنْ نَابِ مِنْكُمْ مِنَ الَّذِينَ أَحَقَّتْ بِهِمْ شُرَكَاءُ؟ أي: أين هم؟ وأين السبيل إلى معرفتهم؟ وهل هم في الأرض أم في السماء؟ فإنَّ عالم الغيب والشهادة قد أخبرنا أنَّه ليس في الوجودِ له شريكٌ: ﴿ويعبدونَ من دون الله ما لا يضرُّهم ولا ينفعُهم ويقولون هؤلاءِ شفعاؤنا عند الله قل أنتبنون الله بما لا يعلم...﴾ [الآية]، ﴿وما يتَّبِعُ الذين يدعونَ من دون الله شركاء؟ إن يتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وإن هم إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، وكذلك خواصُّ خلقه من الأنبياء والمرسلين لا يعلمون له شريكاً؛ فيا أيُّها المشركون! أروني الذين أحقتم بزعمكم الباطل بالله شركاء! وهذا السؤال لا يمكنهم الإجابة عنه، ولهذا قال: ﴿كلا﴾؛ أي: ليس لله شريكٌ ولا ندٌّ ولا ضدٌّ، ﴿بل هو الله﴾: الذي لا يستحقُّ التأله والتعبد إلا هو ﴿العزیز﴾: الذي قهر كلَّ شيء؛ فكلُّ ما سواه فهو مقهورٌ مسخرٌ مدبَّر. ﴿الحكيم﴾: الذي أتقن ما خلَّقه، وأحسن ما شرَّعه، ولو لم يكن في حكمته في شرعيه إلا أنه أمر بتوحيده وإخلاص الدين له، وأحبَّ ذلك وجعله طريقاً للنجاة، ونهى عن الشرك به وأتخذ الأنداد من دونه، وجعل ذلك طريقاً للشقاء والهلاك؛ لكفى<sup>(١)</sup> بذلك برهاناً على كمال حكمته؛ فكيف وجميع ما أمر به ونهى عنه مشتمل على الحكمة؟!

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

(١) في (ب): «يكفي».

﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعْرِفُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ .

﴿٢٨﴾ يخبر تعالى أنه ما أرسل رسوله ﷺ إلا ليشير جميع الناس بثواب الله، ويخبرهم بالأعمال الموجبة لذلك، وينذرهم عقاب الله، ويخبرهم بالأعمال الموجبة له؛ فليس لك من الأمر شيء، وكل ما افترح عليك أهل التكذيب والعناد؛ فليس من وظيفتك، إنما ذلك بيد الله تعالى. ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾؛ أي: ليس لهم علم صحيح، بل إما جهال أو معاندون لم<sup>(١)</sup> يعملوا بعلمهم، فكأنهم لا علم لهم، ومن عدم علمهم جعلهم عدم الإجابة لما اقترحوه على الرسول موجبا لرد دعوته.

﴿٢٩﴾ فمما اقترحوه استعجالهم العذاب الذي أنذروهم به، فقال: ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾: وهذا ظلم منهم؛ فأبي ملازمة بين صدقته وبين الإخبار بوقت وقوعه؟! وهل هذا إلا رد للحق وسفه في العقل؟! أليس النذير في أمر من أحوال الدنيا لو جاء قوماً يعلمون صدقته ونصحه ولهم عدو ينتهز الفرصة منهم ويعدو لهم، فقال لهم: تركت عدوكم قد سار يريد اجتياحكم واستئصالكم؛ فلو قال بعضهم: إن كنت صادقاً؛ فأخبرنا بأية ساعة يصل إلينا؟ وأين مكانه الآن؟ فهل يعد هذا القائل عاقلاً أم يحكم بسفهه وجنونه؟! هذا والمخبر يمكن صدقته وكذبه، والعدو قد يبدو له غيرهم وقد تنحل عزمته، وهم قد يكون بهم منعة يدافعون بها عن أنفسهم؛ فكيف بمن كذب أصدق الخلق المعصوم في خبره، الذي لا ينطق عن الهوى بالعذاب اليقين، الذي لا مدفع له ولا ناصر منه، أليس رد خبره بحجة عدم بيان وقت وقوعه من أسفه السفه؟!

﴿٣٠﴾ ﴿قل﴾ لهم مخبراً بوقت وقوعه الذي لا شك فيه: ﴿لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون﴾: فاحذروا ذلك اليوم وأعدوا له عدته.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لَأَنْتُمْ

(١) في (ب): «ولم».

صَدَدْنَا عَنْ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكَ بَلٌ كُنْتُمْ تُجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلٌ مَكْرٌ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْلَىٰ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْرُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾

﴿٣١﴾ لما ذكر تعالى أن ميعاد المستعجلين بالعذاب لا بد من وقوعه عند حلول أجله؛ ذكر هنا حالهم في ذلك اليوم، وأنتك لو رأيت حالهم إذ وقفوا عند ربهم واجتمع الرؤساء والأتباع في الكفر والضلال؛ لرأيت أمراً عظيماً وهولاً جسيماً، ورأيت كيف يتراجع و «يرجع بعضهم إلى بعض القول»، فيقول «الذين استضعفوا»: وهم الأتباع، «للذين استكبروا»: وهم القادة: «لولا أنتم لكننا مؤمنين»: ولكنكم حلتم بيننا وبين الإيمان، وزينتكم لنا الكفران<sup>(١)</sup>، فتبعناكم على ذلك، ومقصودهم بذلك أن يكون العذاب على الرؤساء دونهم.

﴿٣٢﴾ «قال الذين استكبروا للذين استضعفوا»: مستفهمين لهم ومخبرين أن الجميع مشتركون في الجرم: «أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم»: أي: بقوتنا وقهرنا لكم، «بل كنتم مجرمين»: أي: مختارين للإجرام، لستم مقهورين عليه، وإن كننا قد زيننا لكم؛ فما كان لنا عليكم من سلطان.

﴿٣٣﴾ فقال «الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً»: أي: بل الذي دهانا منكم ووصل إلينا من إضلالكم ما دبّرتموه من المكر في الليل والنهار؛ إذ تحسّنون لنا الكفر وتدعوننا إليه، وتقولون: إنه الحق، وتقدحون في الحق، وتهجنونه وتزعمون أنه الباطل؛ فما زال مكركم بنا وكيدكم إيانا حتى أغويتمونا وقتلتمونا. فلم تُفد تلك المراجعة بينهم شيئاً إلا تبري بعضهم من بعض والندامة العظيمة، ولهذا قال: «وأسرؤا الندامة لما رأوا العذاب»: أي: زال عنهم ذلك الاحتجاج الذي احتج به بعضهم<sup>(٢)</sup> لينجو من العذاب، وعلم أنه ظالم مستحق له، فندم كل منهم غاية الندم، وتمنى أن لو كان على الحق، وأنه ترك<sup>(٣)</sup> الباطل الذي أوصله إلى هذا العذاب، سراً في أنفسهم؛ لخوفهم من الفضيحة في إقرارهم على أنفسهم! وفي بعض مواقف القيامة وعند

(٢) في (ب): «بعضهم على بعض».

(١) في (ب): «الكفر».

(٣) في (ب): «وترك».

دخولهم النار يُظهِرون ذلك الندمَ جهراً: ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً. يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً...﴾ الآيات، ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ. فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحِقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾. ﴿وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا﴾: يُعْلَوْنَ كما يُعْلَى المسجون الذي سيهان في سجنه؛ كما قال تعالى: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ...﴾ الآيات. ﴿هل يُجْزَوْنَ﴾: في هذا العذاب والتكال وتلك الأغلال الثقال ﴿إِلَّا مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾: من الكفر والفسوق والعصيان.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِندَنَا ذُلْفَىٰ إِلَّا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جِزَاءٌ لِّصَفِهِمَ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَابِنَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿٣٤﴾ يخبر تعالى عن حالة الأمم الماضية المكذبة للرسول أنها كحال هؤلاء الحاضرين المكذبين لرسولهم محمد ﷺ، وأن الله إذا أرسل رسولا في قرية من القرى؛ كفر به متترفوها، وأبطرتهم نعمتهم، وفخروا بها.

﴿٣٥﴾ ﴿وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً﴾؛ أي: ممن اتبع الحق، ﴿وما نحن بمُعذَّبين﴾؛ أي: أولاً لسنا بمبعوثين؛ فإن بُعِثنا؛ فالذي أعطانا الأموال والأولاد في الدنيا؛ سيعطينا أكثر من ذلك في الآخرة، ولا يعدُّبنا.

﴿٣٦﴾ ﴿فأجابهم الله تعالى بأن بسط الرزق وتضييقه ليس دليلاً على ما زعمتم؛ فإن الرزق تحت مشيئة الله؛ إن شاء؛ بسطه لعبده، وإن شاء؛ ضيقه.

﴿٣٧﴾ وليست الأموال والأولاد ﴿بالتي﴾ تقرب إلى الله ﴿رُزْقِي﴾: وتُذني إليه، وإنما الذي يقرب منه رزقي الإيمان بما جاء به المرسلون والعمل الصالح الذي هو من لوازم الإيمان؛ فإن أولئك<sup>(١)</sup> لهم الجزاء عند الله تعالى مضاعفاً الحسنه بعشر

(١) في (ب): «فأولئك».

أمثالها إلى سبعمائة ضعفٍ إلى أضعافٍ كثيرة لا يعلمها إلا الله. ﴿وهم في الغُرَفَاتِ آمَنُونَ﴾؛ أي: في المنازل العاليات المرتفعات جداً، ساكنين فيها مطمئنين، آمنون من المكدرات والمنغصات لما هم فيه من اللذات وأنواع المشتهيات، وآمنون من الخروج منها والحزن فيها.

﴿٣٨﴾ وأما الذين سعوا في آياتنا على وجه التعجيز لنا ولرسلنا والتكذيب؛ ﴿أولئك في العذاب مُخَضَّرُونَ﴾.

﴿٣٩﴾ ثم أعادَ تعالى أنه ﴿يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾: وَيَقْدِرُ لَهُ لِيُرْتَبَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾: نفقةً واجبةً أو مستحبةً على قريب أو جارٍ أو مسكينٍ أو يتيمٍ أو<sup>(١)</sup> غير ذلك، ﴿فهو﴾ تعالى ﴿يُخْلِفُهُ﴾: فلا تتوهموا أن الإنفاق مما يُنْقِصُ الرِّزْقَ، بل وعد بالخلف للمنفق الذي يسط الرزق لمن يشاء وَيَقْدِرُ. ﴿وهو خيرُ الرازقين﴾: فاطلبوا الرزقَ منه، واسعوا في الأسباب التي أمركم بها.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلَيْسَ مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَقَوْلُ الَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿٤٠ - ٤١﴾ ﴿ويوم يحشرهم جميعاً﴾؛ أي: العابدين لغير الله والمعبودين من دونه من الملائكة، ﴿ثم يقول﴾: الله ﴿للملائكة﴾: على وجه التوبيخ لِمَنْ عَبَدَهُمْ: ﴿أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون﴾؟ فتبرؤوا من عبادتهم و﴿قالوا سبحانك﴾؛ أي: تنزيهاً لك وتقديساً أن يكونَ لك شريكٌ أو ندٌّ، ﴿أنت ولينا من دونهم﴾: فنحن مفتقرون إلى ولايتك، مضطرون إليها؛ فكيف ندعو غيرنا إلى عبادتنا؟ أم كيف نصلح لأن نأخذ من دونك أولياء وشركاء، ولكن هؤلاء المشركون ﴿كانوا يعبدون الجن﴾؛ أي: الشياطين، يأمرؤنهم<sup>(٢)</sup> بعبادتنا أو عبادة غيرنا، فيطيعونهم بذلك، وطاعتهم هي عبادتهم؛ لأن العبادة الطاعة؛ كما قال تعالى مخاطباً لكل من اتخذ معه آلهة: ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين. وأن أعبدوني هذا صراط مستقيم﴾. ﴿أكثرهم بهم مؤمنون﴾؛ أي: مصدقون للجن متقادون لهم؛ لأن الإيمان هو التصديق الموجب للانقياد.

(٢) في (ب): «يأمرؤن».

(١) في (ب): «و».

﴿٤٢﴾ فلما تبرؤوا منهم؛ قال تعالى مخاطباً لهم<sup>(١)</sup>: ﴿فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ولا ضرراً﴾: تقطعت بينكم الأسباب، وانقطع بعضكم من بعض، ﴿ونقول للذين ظلموا﴾: بالكفر والمعاصي بعدما ندخلهم النار: ﴿ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون﴾: فاليوم عاينتموها ودخلتموها جزاء لتكذيبكم وعقوبة لما أحدثه ذلك التكذيب من عدم الهرب من أسبابها.

﴿وَإِذَا نُنَادِي عَالِيَهُمْ أَيُّنَّا يَكْتُمِبُ قَالَ أُولَٰئِكَ مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤَكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرَىٰ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعْشَرَ مَا آتَيْنَهُمْ فَكَذَّبُوا رَسُولِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿٤٣﴾ يخبر تعالى عن حالة المشركين عندما تولى عليهم آيات الله البينات وحججه الظاهرات وبراهينه القاطعات، الدالة على كل خير، الناهية عن كل شر، التي هي أعظم نعمة جاءتهم ومنة وصلت إليهم، الموجبة لمقابلتها بالإيمان والتصديق والانقياد والتسليم، أنهم يقابلونها بضد ما ينبغي ويكذبون من جاءهم بها ويقولون: ﴿ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم﴾؛ أي: هذا قصده حين يأمركم بالإخلاص لله لتركوا عوائد آبائكم الذين تعظمون وتمشون خلفهم، فردوا الحق بقول الضالين، ولم يوردوا<sup>(٢)</sup> برهاناً ولا شبهة؛ فأى شبهة إذا أمرت الرسل بعض الضالين باتباع الحق فادعوا أن إخوانهم الذين على طريقتهم لم يزالوا عليه؟! وهذه السفاهة ورد الحق بأقوال الضالين إذا تأملت كل حق رُد؛ فإذا هذا ماله، لا يرد إلا بأقوال الضالين من المشركين والذهريين والفلاسفة والصابئين والملحدين في دين الله المارقين؛ فهم أسوة كل من رد الحق إلى يوم القيامة.

ولما احتجوا بفعل آبائهم وجعلوها دافعة لما جاءت به الرسل؛ طعنوا بعد هذا بالحق، ﴿وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى﴾؛ أي: كذب افتراه هذا الرجل الذي جاء به، ﴿وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين﴾؛ أي: سحر ظاهر بين لكل أحد؛ تكذيباً بالحق وترويجاً على السفهاء.

﴿٤٤﴾ ولما بين ما ردوا به الحق، وأنها أقوال دون مرتبة الشبهة، فضلاً أن

(٢) في (ب): «يردوا».

(١) في (ب): «قال تعالى لهم».

تكون حجة؛ ذكر أنهم وإن أراد أحد أن يحتج لهم؛ فإنهم لا مستند لهم ولا لهم شيء يعتمدون عليه أصلاً، فقال: ﴿وما آتيناكم من كتب يدرسونها﴾: حتى تكون عمدة لهم، ﴿وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير﴾: حتى يكون عندهم من أقواله وأحواله ما يدفعون به ما جثتهم به؛ فليس عندهم علم ولا أثاره من علم.

﴿٤٥﴾ ثم خوفهم ما فعل بالأمم المكذبين قبلهم، فقال: ﴿وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا﴾؛ أي: ما بلغ هؤلاء المخاطبون ﴿معشار ما آتيناكم فكذبوا﴾؛ أي: الأمم الذين من قبلهم ﴿رسلي فكيف كان نكير﴾؛ أي: إنكاري عليهم وعقوبتي إياهم، قد أعلمنا ما فعل بهم من النكال، وأن منهم من أغرقه، ومنهم من أهلكه بالريح العقيم وبالصيحة وبالرجفة وبالخسف بالأرض وبارسال الحاصب من السماء؛ فاحذروا يا هؤلاء المكذبون أن تدموا على التكذيب، فياخذكم كما أخذ من قبلكم ويصيبكم ما أصابهم.

﴿٤٦﴾ قل إنما أعظكم بوجده أن تقوموا لله مثنى وفردى ثم تفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد ﴿٤٦﴾ قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله وهو على كل شيء شهيد ﴿٤٧﴾ قل إن ربي يقذف بالحق علم الغيوب ﴿٤٨﴾ قل جاء الحق وما يبدئ البطل وما يعبد ﴿٤٩﴾ قل إن ضللت فإنا أضل على نفسي وإن اهتديت فما يوحى إلي ربي إنهم سميع قريب ﴿٥٠﴾

﴿٤٦﴾ أي: ﴿قل﴾: يا أيها الرسول لهؤلاء المكذبين المعاندين المتصدئين لرد الحق وتكذيبه والقدح بمن جاء به: ﴿إنما أعظكم بواحدة﴾؛ أي: بخصلة واحدة أشير عليكم بها وأنصح لكم في سلوكها، وهي طريق نصف، لست أدعوكم بها إلى اتباع قولي ولا إلى ترك قولكم من دون موجب لذلك، وهي: ﴿أن تقوموا لله مثنى وفردى﴾؛ أي: تنهضوا بهمة ونشاط وقصد لاتباع الصواب وإخلاص لله مجتمعين ومتباحثين في ذلك ومتناظرين وفردى، كل واحد يخاطب نفسه بذلك؛ فإذا قُمت لله مثنى وفردى؛ استعملتم فكركم وأجلتموه وتديرتُم أحوال رسولكم: هل هو مجنون فيه صفات المجانين من كلامه وهيئته وصفته؟ أم هو نبي صادق منذر لكم ما يضرركم مما أمامكم من العذاب الشديد؟ فلو قبلوا هذه الموعظة واستعملوها؛ لتبين لهم أكثر من غيرهم أن رسول الله ﷺ ليس بمجنون؛ لأن هيئاته ليست كهيئات المجانين في خفقهم واختلاجهم ونظرهم، بل هيئته أحسن الهيئات، وحركاته أجل الحركات، وهو أكمل الخلق أدباً وسكينةً وتواضعاً ووقاراً، لا يكون إلا لأرزن الرجال عقلاً.



ثم إذا تأملوا كلامه الفصيح ولفظه المليح وكلماته التي تملأ القلوب أمناً وإيماناً وترزقي النفوس وتطهر القلوب وتبعث على مكارم الأخلاق وتحث على محاسن الشيم وترهب عن مساوىء الأخلاق ورذائلها، إذا تكلم؛ رَمَقْتَهُ العيونُ هيبَةً وإجلالاً وتعظيماً؛ فهل هذا يشبه هذيان المجانين وعربدتهم وكلامهم الذي يشبه أحوالهم؟! فكل من تدبر أحواله وقصده استعلام: هل هو رسولُ الله أم لا؟ سواء تفكر وحده أم معه غيره؛ جزم بأنه رسولُ الله حقاً ونبياً صدقاً، خصوصاً المخاطبين، الذي هو صاحبهم، يعرفون أول أمره وآخره.

﴿٤٧﴾ وَتَمَّ مانعٌ للنفوس آخرُ عن اتِّباعِ الداعي إلى الحقِّ، وهو أنه يأخذُ أموالَ مَنْ يستجيبُ له ويأخذُ أجرَةً على دعوتِهِ، فيبَيِّنُ اللهَ تعالى نزاهةَ رسوله عن هذا الأمر، فقال: ﴿قل ما سألتُكم من أجرٍ﴾؛ أي: على اتِّباعكم للحقِّ ﴿فهو لكم﴾؛ أي: فأشهدكم أن ذلك الأجر على التقدير أنه لكم. ﴿إن أجري إلا على الله وهو على كلِّ شيءٍ شهيدٌ﴾؛ أي: محيطٌ علمه بما أدعو إليه؛ فلو كنتُ كاذباً؛ لأخذني بعقوبته، وشهيدٌ أيضاً على أعمالكم، سيحفظها عليكم ثم يجازيكم بها.

﴿٤٨﴾ ولَمَّا بيَّنَ البراهينَ الدالَّةَ على صحةِ الحقِّ وبطلانِ الباطل؛ أخبر تعالى أن هذه سنَّته وعادته أن يَقْدِفَ بالحقِّ على الباطل فيدمغهُ فإذا هو زاهقٌ؛ لأنَّه بيِّنَ من الحقِّ في هذا الموضع ردّاً به أقوالَ المكذِّبين ما كان عبرةً للمعتبرين وآيةً للمتأملين؛ فإنَّك كما ترى كيف اضمحلَّت أقوالُ المكذِّبين، وتبيَّنَ كذبهم وعنادهم، وظهر الحقُّ وسطع، وبطل الباطل وانقمع، وذلك بسبب بيانِ ﴿عَلَامِ الغُيُوبِ﴾، الذي يعلم ما تنطوي عليه القلوبُ من الوسواس والشبه، ويعلم ما يقابلُ ذلك ويدفعه من الحُجج، فيعلم بها عباده، ويبينها لهم.

﴿٤٩﴾ ولِهَذَا قال: ﴿قل جاء الحقُّ﴾؛ أي: ظهر وبان وصار بمنزلة الشمس وظهَرَ سلطانه، ﴿وما يُبدىءُ الباطلَ وما يعيدُ﴾؛ أي: اضمحلَّ وبطل أمره وذهب سلطانه؛ فلا يُبدىء ولا يُعيد.

﴿٥٠﴾ ولَمَّا تبيَّنَ الحقُّ بما دعا إليه الرسولُ، وكان المكذِّبونَ له يرمونه بالضلال؛ أخبرهم بالحقِّ، ووضَّحه لهم وبيَّنَ لهم عجزهم عن مقاومته، وأخبرهم أن رميهم له بالضلال ليس بضائر الحقِّ شيئاً ولا دافع ما جاء به، وأنَّه إن ضلَّ - وحاشاه من ذلك، لكن على سبيل التنزُّل في المجادلة -؛ فإنَّما يضلُّ على نفسه؛ أي: ضلاله قاصرٌ على نفسه، غيرٌ متعدِّ إلى غيره، ﴿وإن اهتديتُ﴾: فليس ذلك من نفسي وحولي وقوتي،

وإنما هدايتي بما ﴿يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾: فهو مادة هدايتي؛ كما هو مادة هداية غيري؛ إنَّ رَبِّي سَمِيعٌ لِلأَقْوَالِ وَالأَصْوَاتِ كُلِّهَا، قَرِيبٌ مَمَّنْ دَعَاهُ وَسَأَلَهُ وَعَبَدَهُ.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فِرَعَوُا فَلَا فُوتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا ءَأَمْنَا بِهِ وَأَنْتَ لَهُمْ التَّنَاوُسُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿٥١﴾ يقول تعالى: ﴿ولو ترى﴾: أيها الرسولُ ومن قام مقامك حال هؤلاء المكذبين ﴿إذ فرعوا﴾: حين رأوا العذاب وما أخبرتهم به الرسلُ وما كذبوا به؛ لرأيتُ أمراً هائلاً ومنظراً مفضعاً وحالة منكرة وشدة شديدة، وذلك حين يحقُّ عليهم العذاب، وليس لهم عنه مهربٌ ولا فوتٌ، ﴿وأخذوا من مكانٍ قريبٍ﴾؛ أي: ليس بعيداً عن محلِّ العذاب، بل يُؤخذون ثم يُقدفون في النار.

﴿٥٢﴾ ﴿وقالوا﴾: في تلك الحال: آمناً بالله، وصدقنا ما به كذبنا، ﴿و﴾ لكن أنى لهم التناؤسُ؟ أي: تناول الإيمان، ﴿من مكانٍ بعيدٍ﴾: قد حيل بينهم وبينه، وصار من الأمور المُحالة في هذه الحالة.

﴿٥٣﴾ فلو أنهم آمنوا وقت الإمكان؛ لكان إيمانهم مقبولاً، ولكنهم ﴿كفروا به من قبلُ ويقدفون﴾؛ أي: يرمون ﴿بالغيب من مكانٍ بعيدٍ﴾: بقذفهم الباطل ليُدحضوا به الحقُّ، ولكن لا سبيل إلى ذلك؛ كما لا سبيل للرامي من مكانٍ بعيد إلى إصابة الغرض؛ فكذلك الباطل من المُحال أن يغلب الحقُّ أو يدفعه، وإنما يكون له صولةٌ وقت غفلة الحقِّ عنه، فإذا برزَّ الحقُّ وقاوم الباطل؛ قمعه.

﴿٥٤﴾ ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾: من الشهوات واللذات والأولاد والأموال والخدم والجنود، قد انفردوا بأعمالهم، وجاؤوا فرادى كما خَلِقُوا وَتَرَكُوا ما حَوَّلُوا وراءَ ظهورهم، ﴿كما فعل بأشْياعِهِمْ﴾: من الأمم السابقين حين جاءهم الهلاك حيل بينهم وبين ما يشتهون. ﴿إنهم كانوا في شكٍّ مرِيبٍ﴾؛ أي: مُحدث الريبة وقلق القلب؛ فلذلك لم يؤمنوا، ولم يعتبوا حين استغيبوا.

تم تفسير سورة سبأ.

ولله الحمد والمئة والفضل، ومنه العون، وعليه التوكُّل، وبه الثقة<sup>(١)</sup>.

(١) في (ب): «والثقة».

## تفسير سورة فاطر

[وهي] مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّانِ الرَّحِيمِ

﴿أَتَمَدُّ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعًا يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾

﴿١﴾ يمدح [الله] تعالى نفسه الكريمة المقدسة على خلقه السماوات والأرض وما اشتملنا عليه من المخلوقات؛ لأن ذلك دليل على كمال قدرته وسعة ملكه وعموم رحمته وبديع حكمته وإحاطة علمه. ولما ذكر الخلق؛ ذكر بعده ما يتضمن الأمر، وهو أنه جعل ﴿الملائكة رسلاً﴾: في تدبير أوامره القدرية ووسائط بيته وبين خلقه في تبليغ أوامره الدينية. وفي ذكره أنه جعل الملائكة رسلاً ولم يستثن منهم أحداً دليل على كمال طاعتهم لرّبهم وانقيادهم لأمره؛ كما قال تعالى: ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون﴾. ولما كانت الملائكة مدبرات بإذن الله ما جعلهم الله موكلين فيه؛ ذكر قوتهم على ذلك وسرعة سيرهم؛ بأن جعلهم ﴿أولي أجنحة﴾: تطير بها فتسرّع بتنفيذ ما أمرت به، ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾؛ أي: منهم من له جناحان وثلاثة وأربعة بحسب ما اقتضته حكمته. ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾؛ أي: يزيد بعض مخلوقاته على بعض في صفة خلقها وفي القوة وفي الحسن وفي زيادة الأعضاء المعهودة وفي حسن الأصوات ولذة النغمات. ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾: فقدرته تعالى تأتي على ما يشاؤه، ولا يستعصي عليها شيء، ومن ذلك زيادة مخلوقاته بعضها على بعض.

﴿٢﴾ ثم ذكر انفرادَه تعالى بالتدبير والعطاء والمنع، فقال: ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك﴾: من رحمته عنهم ﴿فلا مرسل له من بعده﴾: فهذا يوجب التعلق بالله تعالى والافتقار إليه من جميع الوجوه، وأن لا يدعى إلا هو ولا يخاف ويرجى إلا هو. ﴿وهو العزيز﴾: الذي قهر الأشياء كلها. ﴿الحكيم﴾: الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها.

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ أذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا

إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفَ تُؤْفَكُونَ ﴿٦﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧﴾ .

﴿٣﴾ يَأْمُرُ تَعَالَى جَمِيعَ النَّاسِ أَنْ يَذْكُرُوا نِعْمَتَهُ عَلَيْهِمْ، وَهَذَا شَامِلٌ لِذِكْرِهَا بِالْقَلْبِ اعْتِرَافًا وَبِاللِّسَانِ ثَنَاءً وَبِالْجَوَارِحِ انْقِيَادًا، فَإِنَّ ذِكْرَ نِعْمَةِ تَعَالَى دَاعٍ لَشُكْرِهِ. ثُمَّ نَبَّهَهُمْ عَلَى أَصُولِ النُّعْمِ، وَهِيَ الْخَلْقُ وَالرِّزْقُ، فَقَالَ: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾: وَلَمَّا كَانَ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ يَخْلُقُ وَيَرْزُقُ إِلَّا اللَّهُ؛ نَتَجَّ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ كَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى الْوَهَيْتِهِ وَعِبُودِيَّتِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآتَىٰ تَوْفِيقُونَ﴾؛ أَي: تُضَرِّفُونَ مِنَ عِبَادَةِ الْخَالِقِ الرَّازِقِ لِعِبَادَةِ الْمَخْلُوقِ الْمَرْزُوقِ.

﴿٤﴾ ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ؛ فَلِكَ أَسْوَأَ بَمَنْ قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ؛ ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾: فَأَهْلِكَ الْمَكْذِبُونَ، وَنَجَّى اللَّهُ الرَّسُلَ وَأَتْبَاعَهُمْ. ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

﴿بَيِّنَاتٍ لِّلنَّاسِ إِن وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَفْرُوكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفْرٌ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾ .

﴿٥ - ٦﴾ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن وَعَدَ اللَّهُ﴾: بِالْبَعْثِ وَالْجِزَاءِ عَلَى الْأَعْمَالِ ﴿حَقًّا﴾؛ أَي: لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا مَرِيَّةَ وَلَا تَرَدُّدَ، قَدْ دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ الْأَدْلَةُ السَّمْعِيَّةُ وَالْبَرَاهِينُ الْعَقْلِيَّةُ، فَإِذَا كَانَ وَعْدُهُ حَقًّا؛ فَتَهَيَّؤُوا لَهُ وَابْدُرُوا أَوْقَاتِكُمْ الشَّرِيفَةَ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَلَا يَقْطَعُكُمْ عَنْ ذَلِكَ قَاطِعٌ. ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾: بِلَذَائِهَا وَشَهَوَاتِهَا وَمَطَالِبِهَا النَّفْسِيَّةِ، فَتُلْهِيْكُمْ عَمَّا خُلِقْتُمْ لَهُ، ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾: الَّذِي هُوَ الشَّيْطَانُ، الَّذِي هُوَ عَدُوُّكُمْ فِي الْحَقِيقَةِ. ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾؛ أَي: لِتَكُنْ مِنْكُمْ عِدَاوَتُهُ عَلَى بَالٍ، وَلَا تُهْمَلُوا مُحَارَبَتَهُ كُلَّ وَقْتٍ؛ فَإِنَّهُ يَرَاكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَرَوْنَهُ، وَهُوَ دَائِمًا لَكُمْ بِالْمُرْصَادِ. ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾: هَذَا غَايَتُهُ وَمَقْصُودُهُ مِمَّنْ تَبِعَهُ أَنْ يُهَانَ غَايَةَ الْإِهَانَةِ بِالْعَذَابِ الشَّدِيدِ.

﴿٧﴾ ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ النَّاسَ انْقَسَمُوا بِحَسَبِ طَاعَةِ الشَّيْطَانِ وَعَدْمِهَا إِلَى قَسْمَيْنِ، وَذَكَرَ جِزَاءَ كُلِّ مِنْهُمَا، فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أَي: جَحَدُوا مَا جَاءَتْ بِهِ الرَّسُلُ وَدَلَّتْ عَلَيْهِ الْكُتُبُ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾: فِي نَارِ جَهَنَّمَ، شَدِيدٌ فِي ذَاتِهِ وَوَصْفِيهِ،

وأنهم خالدون فيها أبداً، ﴿والذين آمنوا﴾: بقلوبهم بما دعا الله إلى الإيمان به، ﴿وعملوا﴾ - بمقتضى ذلك الإيمان بجوارحهم - الأعمال الصالحة ﴿لهم مغفرة﴾: لذنوبهم، يزول بها عنهم الشرُّ والمكروه، ﴿وأجرٌ كبيرٌ﴾: يحصلُ به المطلوبُ.

﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿٨﴾ يقولُ تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ﴾: عمله السيئ القبيح، زينه له الشيطان وحسنه في عينه<sup>(١)</sup>، ﴿فرآه حسناً﴾؛ أي: كمن هداه الله إلى الصراطِ المستقيم والدين القويم؛ فهل يستوي هذا وهذا؟! فالأول عمل السيئ، ورأى الحقُّ باطلاً والباطل حقاً، والثاني عمل الحسن ورأى الحقُّ حقاً والباطل باطلاً، ولكن الهداية والإضلال بيد الله تعالى. ﴿فإنَّ الله يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على الضالِّين الذين زُيِّنَ لهم سوء أعمالهم، وصدَّهم الشيطان عن الحقِّ ﴿حسراتٍ﴾: فليس عليك إلا البلاغ، وليس عليك من هداهم شيء، والله هو الذي يُجازيهم بأعمالهم. ﴿إنَّ الله عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُبْرِئُ سَكَابًا فَسُقْنَتُهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ اللَّهُ الشُّورُ ﴿٩﴾﴾.

﴿٩﴾ يخبر تعالى عن كمال اقتداره وسعة جوده وأنه ﴿أرسلَ الرياحَ فتثيرُ سحاباً فسقناه إلىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾: فأنزله الله عليها، ﴿فأحيينا به الأرض بعد موتها﴾: فحييت البلادُ والعبادُ، وارتزقت الحيواناتُ، ورتعت في تلك الخيرات، ﴿كذلك﴾: الذي أحيا الأرض بعد موتها ينشر الأموات من قبورهم بعدما مزَّقهم البلاء، فيسوق إليهم مطراً كما ساقه إلى الأرض الميتة، فينزله عليهم، فتحيا الأجساد والأرواح من القبور، فيأتون للقيام بين يدي الله، ليحكم بينهم ويفصل بحكمه العدل.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾.

﴿١٠﴾ أي: يا مَنْ يُريد العزَّة! اطلبها ممن هي بيده؛ فإنَّ العزَّة بيد الله، ولا

(١) في (ب): «عينه».

ثنال إلاً بطاعته، وقد ذكّرها بقوله: ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾: من قراءة وتسيح وتحميد وتهليل وكل كلام حسن طيب، فيرفع إلى الله، ويُعرض عليه، ويثني الله على صاحبه بين الملائ الأعلى، ﴿والعمل الصالح﴾: من أعمال القلوب وأعمال الجوارح ﴿يرفعه﴾: الله تعالى إليه أيضاً كالكلم الطيب. وقيل: والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب؛ فيكون رفع الكلم الطيب بحسب أعمال العبد الصالحة فهي التي ترفع كلمه الطيب، فإذا لم يكن له عمل صالح؛ لم يُرفع له قول إلى الله تعالى. فهذه الأعمال التي تُرفع إلى الله تعالى ويرفع الله صاحبها ويعزّه، وأمّا السيئات؛ فإنّها بالعكس، يريد صاحبها الرفعة بها، ويمكّر ويكيد ويعود ذلك عليه، ولا يزداد إلاً هواناً ونزولاً، ولهذا قال: ﴿والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد﴾: يهانون فيه غاية الإهانة. ﴿ومكّر أولئك هو يبور﴾؛ أي: يهلك ويضمحل ولا يفيدهم شيئاً؛ لأنّه مكّر بالباطل لأجل الباطل.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِضُ مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿١١﴾ يذكر تعالى خلقه الآدمي وتنقله في هذه الأطوار من تراب إلى نطفة وما بعدها، ﴿ثم جعلكم أزواجاً﴾؛ أي: لم يزل ينقلكم طوراً بعد طور حتى أوصلكم إلى أن كنتم أزواجاً؛ ذكر يتزوج أنثى، ويراد بالزواج الذرية والأولاد؛ فهو وإن كان النكاح من الأسباب فيه؛ فإنه مقترن بقضاء الله وقدره وعلمه. ﴿وما تحمّل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه﴾: وكذلك أطوار الآدمي كلّها بعلمه وقضائه ﴿وما يعمر من معمر ولا ينقض من عمره﴾؛ أي: عمر الذي كان معمرًا عمراً طويلاً، ﴿إلاً﴾: بعلمه تعالى، أو: وما ينقض من عمر الإنسان الذي هو بصدد أن يصل إليه لولا ما سلكه من أسباب قصر العمر؛ كالزنا وعقوق الوالدين وقطيعة الأرحام ونحو ذلك مما ذكر أنّها من أسباب قصر العمر، والمعنى أنّ طول العمر وقصره بسبب وبغير سبب كله بعلمه تعالى، وقد أثبت ذلك ﴿في كتاب﴾: حوى ما يجري على العبد في جميع أوقاته وأيام حياته. ﴿إنّ ذلك على الله يسير﴾؛ أي: إحاطة علمه بتلك المعلومات الكثيرة، وإحاطة كتابه بها.

فهذه ثلاثة أدلّة من أدلّة البعث والنشور، كلّها عقلية، نبّه الله عليها في هذه الآيات: إحياء الأرض بعد موتها، وأنّ الذي أحيها سيحيي الموتى. وتنتقل الآدمي في تلك الأطوار، فالذي أوجده ونقله طبقاً بعد طبق وحالاً بعد حال حتى بلغ ما

قُدِّرَ له؛ فهو على إعادته وإنشائه النشأة الأخرى أقدر، وهو أهونٌ عليه. وإحاطة علمه بجميع أجزاء العالم العلوي والسفلي دقيقتها وجليلها، الذي في القلوب، والأجنَّة التي في البطون، وزيادة الأعمار ونقصها، وإثبات ذلك كله في كتاب؛ فالذي كان هذا<sup>(١)</sup> يسيراً عليه؛ فإعادته للأموات أيسرٌ وأيسرُ. فتبارك من كثَّرَ خيرُه، ونَبَّه عباده على ما فيه صلاحُهم في معاشهم ومعادهم.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شْرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَازِرَ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعْوَكُمْ وَتَوَسَّعُوا لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾

﴿١٢﴾ هذا إخبارٌ عن قدرته وحكمته ورحمته، أنه جعل البحرين لمصالح العالم الأرضي كلهم، وأنه لم يسو بينهما؛ لأن المصلحة تقتضي أن تكون الأنهار عذبةً فراتاً سائغاً شرابها؛ لينتفع بها الشاربون والغارسون والزارعون، وأن يكون البحر ملحاً أجاجاً؛ لئلاً يفسد الهواء المحيط بالأرض بروائح ما يموت في البحر من الحيوانات، ولأنه ساكنٌ لا يجري؛ فملوحته تمنعه من التغيير، وتكون حيواناته أحسن وألذ، ولهذا قال: ﴿ومن كل﴾: من البحر الملح والعذب ﴿تأكلون لحمًا طريًّا﴾: وهو السمك المتيسر صيده في البحر، ﴿وتستخرجون حليَّةً تلبسونها﴾: من لؤلؤ ومرجان وغيره مما يوجد في البحر، فهذه مصالحٌ عظيمةٌ للعباد.

ومن المصالح أيضاً والمنافع في البحر أن سخَّره الله تعالى يحملُ الفلك من السفن والمراكب، فتراها تمخرُ البحر وتشقُّه، فتسلك من إقليم إلى إقليم آخر ومن محلٍ إلى محل، فتحمل السائرين وأثقالهم وتجاراتهم، فيحصل بذلك من فضل الله وإحسانه شيءٌ كثير، ولهذا قال: ﴿وليتبعوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾.

﴿١٣﴾ ومن ذلك أيضاً إيلاجهُ تعالى الليل بالنهار والنهار بالليل؛ يَدْخُلُ هذا على هذا وهذا على هذا، كلما أتى أحدهما؛ ذهب الآخر، ويزيد أحدهما وينقص

(١) أضاف الشيخ هنا في هامش (أ) و(ب): «نعتة» ثم شطب عليها في هامش (أ).

الآخِرُ ويتساويان، فيقوم بذلك ما يقوم من مصالح العبادِ في أبدانهم وحيواناتهم وأشجارهم وزروعهم، وكذلك ما جعل الله في تسخير الشمس والقمر من مصالح الضياء والنور والحركة والسكون وانتشار العباد في طلب فضله وما فيهما من تنضيج الثمار وتجفيف ما يجفِّف<sup>(١)</sup> وغير ذلك مما هو من الضروريات التي لو فُقدت؛ لَلِحَقَّ النَّاسَ الضَّرُّ.

وقوله ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ أي: كلٌّ من الشمس والقمر يسيران في فلكهما ما شاء الله أن يسيرا؛ فإذا جاء الأجلُ وقَرَبَ انقضاءُ الدنيا؛ انقطع سيرهما، وتعطلَّ سلطانهما، وخسفَ القمرُ، وكُوِّرَتِ الشمسُ، وانتثرتِ النُّجُومُ.

فلما بيَّن تعالى ما بيَّن من هذه المخلوقات العظيمة وما فيها من العبرِ الدالَّةِ على كماله وإحسانه قال: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾؛ أي: الذي انفرد بخلق هذه المذكورات وتسخيرها هو الربُّ المألوه المعبودُ الذي له الملكُ كُلُّهُ. ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾: من الأوثان والأصنام، لا يملِكُونَ ﴿مِنْ قَطْمِيرٍ﴾؛ أي: لا يملكون شيئاً لا قليلاً ولا كثيراً، حتى ولا القطمير الذي هو أحقر الأشياء، وهذا من تنصيبِ النفي وعمومه؛ فكيف يُدْعَوْنَ وهم غير مالكيين لشيء من ملك السماوات والأرض؟!!

﴿١٤﴾ ومع هذا: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ﴾: لا يسمعون؛ لأنهم ما بين جمادٍ<sup>(٢)</sup> وأمواتٍ وملائكةٍ مشغولين بطاعة ربهم، ﴿ولو سمعوا﴾: على وجه الفرض والتقدير ﴿ما استجابوا لكم﴾: لأنهم لا يملكون شيئاً ولا يرضى أكثرهم بعبادة مَنْ عَبدَهُ، ولهذا قال: ﴿ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾؛ أي: يتبرؤون منكم، ويقولون: سبحانك أنت ولينا من دونهم، ﴿ولا ينبئك مثل خبير﴾؛ أي: لا أحد ينبئك أصدق من الله العليم الخبير؛ فاجزِمْ بأنَّ هذا الأمر الذي نبأ به كأنه رأي عين، فلا تشكَّ فيه ولا تمتري. فتضمَّنت هذه الآيات الأدلَّة والبراهين الساطعة الدالَّة على أنَّه تعالى المألوه المعبود الذي لا يستحقُّ شيئاً من العبادة سواه، وأنَّ عبادة ما سواه باطلة متعلقة بباطل لا تفيده عباده شيئاً.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَسْتَرُ الْفُقَرَاءِ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ إِنَّ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ

(١) في (ب): «وتخفيف ما يخفف». (٢) في (ب): «جمادات».



وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِمْلَتِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ .

﴿١٥﴾ يخاطبُ تعالى جميع الناس، ويخبرهم بحالهم ووصفهم، وأنهم فقراء إلى الله من جميع الوجوه: فقراء في إيجادهم؛ فلولا إيجاده إياهم لم يوجدوا، فقراء في إعدادهم بالقوى والأعضاء والجوارح، التي لولا إعداده إياهم بها؛ لما استعدوا لأي عمل كان، فقراء في إمدادهم بالأقوات والأرزاق والنعم الظاهرة والباطنة؛ فلولا فضله وإحسانه وتيسيره الأمور، لما حصل لهم من الرزق والنعم شيء، فقراء في صرف النقم عنهم ودفع المكاره وإزالة الكروب والشدائد؛ فلولا دفعه عنهم وتفريجه لكرباتهم وإزالته لعسرهم؛ لاستمرت عليهم المكاره والشدائد، فقراء إليه في تربيتهم بأنواع التربية وأجناس التدبير، فقراء إليه في تألههم له وحُبهم له وتعبدهم وإخلاص العباد له تعالى؛ فلو لم يوفقهم لذلك؛ لهلكوا وفسدت أرواحهم وقلوبهم وأحوالهم، فقراء إليه في تعليمهم ما لا يعلمون وعملهم بما يضلحهم؛ فلولا تعليمه؛ لم يتعلموا، ولولا توفيقه؛ لم يضلحوا؛ فهم فقراء بالذات إليه بكل معنى وبكل اعتبار، سواء شعروا ببعض أنواع الفقر أم لم يشعروا، ولكن الموفق منهم الذي لا يزال يشاهد فقره في كل حال من أمور دينه ودنياه، ويتضرع له ويسأله أن لا يكبله إلى نفسه طرفة عين وأن يعينه على جميع أموره، ويستصحب هذا المعنى في كل وقت؛ فهذا حريٌّ بالإعانة التامة من ربه وإلهه الذي هو أرحمُ به من الوالدة بولدها.

﴿والله هو الغني الحميد﴾؛ أي: الذي له الغنى التام من جميع الوجوه؛ فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه خلقه، ولا يفتقر إلى شيء مما يفتقر إليه الخلق، وذلك لكمال صفاته، وكونها كلها صفات كمال ونعوت جلال، ومن غناه تعالى أنه أغنى الخلق في الدنيا والآخرة، الحميد في ذاته، وأسمائه؛ لأنها حسنى، وأوصافه؛ لكونها عليا، وأفعاله؛ لأنها فضل وإحسان وعدل وحكمة ورحمة، وفي أوامره ونواهيه؛ فهو الحميد على ما فيه، وعلى ما منه<sup>(١)</sup>، وهو الحميد في غناه، الغني في حمده.

(١) «قوله على ما فيه: أي من الصفات، وعلى ما منه من الفضل والإنعام وعلى الجزاء بالعدل»،

كذا في هامش نسخة (أ) بخط المؤلف.

﴿١٦﴾ ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾: يُحْتَمَلُ أَنَّ الْمَرَادَ: إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِغَيْرِكُمْ مِنَ النَّاسِ أَطْوَعَ لِلَّهِ مِنْكُمْ، وَيَكُونُ فِي هَذَا تَهْدِيدٌ لَهُمْ بِالْهَلَاكِ وَالْإِبَادَةِ، وَأَنَّ مَشِيئَتَهُ غَيْرُ قَاصِرَةٍ عَنْ ذَلِكَ. وَيُحْتَمَلُ أَنَّ الْمَرَادَ بِذَلِكَ إِبْطَاءُ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ، وَأَنَّ مَشِيئَةَ اللَّهِ تَعَالَى نَافِذَةٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَفِي إِعَادَتِكُمْ بَعْدَ مَوْتِكُمْ خَلْقًا جَدِيدًا، وَلَكِنْ لَذَلِكَ الْوَقْتُ أَجَلٌ قَدَرَهُ اللَّهُ لَا يَتَقَدَّمُ عَنْهُ وَلَا يَتَأَخَّرُ.

﴿١٧﴾ ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾؛ أَي: بِمَمْتَنِعٍ وَلَا مَعْجِزٍ لَهُ.

﴿١٨﴾ وَيَدُلُّ عَلَى الْمَعْنَى الْأَخِيرِ مَا ذَكَرَهُ بَعْدَهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾؛ أَي: فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلُّ أَحَدٍ يُجَازَى بِعَمَلِهِ، وَلَا يَحْمَلُ أَحَدٌ ذَنْبَ أَحَدٍ. ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ نُفْسٍ مُثْقَلَةٍ﴾؛ أَي: نَفْسٌ مُثْقَلَةٌ بِالْخَطَايَا وَالذُّنُوبِ تَسْتَعِيْثُ بِمَنْ يَحْمَلُ عَنْهَا بَعْضَ أَوْزَارِهَا، ﴿لَا يَحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾: فَإِنَّهُ لَا يَحْمَلُ عَنْ قَرِيبٍ، فَلَيْسَتْ حَالُ الْآخِرَةِ بِمَنْزِلَةِ حَالِ الدُّنْيَا يَسَاعِدُ الْحَمِيمَ حَمِيمَهُ وَالصَّدِيقُ صَدِيقَهُ، بَلْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَتَمَتَّى الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ لَهُ حَقٌّ عَلَى أَحَدٍ، وَلَوْ عَلَى وَالِدِيهِ وَأَقْرَابِهِ. ﴿إِنَّمَا تَنْذَرُ الَّذِينَ يُخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾؛ أَي: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَقْبَلُونَ النَّذَاةَ وَيَنْتَفِعُونَ بِهَا، أَهْلُ الْخَشْيَةِ لِلَّهِ بِالْغَيْبِ. الَّذِينَ <sup>(١)</sup> يَخْشَوْنَهُ فِي حَالِ السَّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ وَالْمَشْهَدِ وَالْمَغِيبِ وَأَهْلُ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ بِحُدُودِهَا وَشُرُوطِهَا وَأَرْكَانِهَا وَوَاجِبَاتِهَا وَخُشُوعِهَا؛ لِأَنَّ الْخَشْيَةَ لِلَّهِ تَسْتَدْعِي مِنَ الْعَبْدِ الْعَمَلَ بِمَا يَخْشَى مِنْ تَضْيِيعِهِ الْعِقَابَ وَالْهَرَبَ مِمَّا يَخْشَى مِنْ ارْتِكَابِهِ الْعَذَابَ، وَالصَّلَاةُ تَدْعُو إِلَى الْخَيْرِ وَتَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ. ﴿وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ﴾؛ أَي: وَمَنْ زَكَّىٰ نَفْسَهُ بِالتَّنْقِيهِ مِنَ الْعِيُوبِ كَالرِّبَاءِ وَالْكِبْرِ وَالْكَذِبِ وَالْغَشِّ وَالْمَكْرِ وَالْخُدَاعِ وَالنَّفَاقِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ، وَتَحَلَّى بِالْأَخْلَاقِ الْجَمِيلَةِ مِنَ الصَّدَقِ وَالْإِخْلَاصِ وَالتَّوَاضُّعِ وَلِيْنَ الْجَانِبِ وَالتَّصَحُّحِ لِلْعِبَادِ وَسَلَامَةِ الصَّدْرِ مِنَ الْحَقْدِ وَالْحَسَدِ وَغَيْرِهِمَا مِنْ مَسَاوِيءِ الْأَخْلَاقِ؛ فَإِنَّ تَزَكِّيَتَهُ يَعُودُ نَفْعُهَا إِلَيْهِ وَيَصِلُ مَقْصُودُهَا إِلَيْهِ، لَيْسَ يَضِيْعُ مِنْ عَمَلِهِ شَيْءٌ. ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾: فَيَجَازِي الْخَلَائِقَ عَلَى مَا أَسْلَفُوهُ، وَيَحَاسِبُهُمْ عَلَى مَا قَدَّمُوهُ وَعَمِلُوهُ، وَلَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٦﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿١٧﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿١٨﴾﴾

﴿١٦﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿١٧﴾

(١) في (ب): «أَي الَّذِينَ».

إِن أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ .

﴿١٩ - ٢٣﴾ يخبر تعالى أنه لا يتساوى الأضدادُ في حكمة الله وفيما أودعَه في فطر عباده، فلا ﴿يستوي الأعمى﴾: فاقد البصر ﴿والبصيرُ﴾. ولا الظلمات ولا النور. ولا الظلُّ ولا الحرورُ. وما يستوي الأحياء ولا الأمواتُ؛ فكما أنه من المتقرر عندكم الذي لا يقبلُ الشكُّ أن هذه المذكورات لا تتساوى؛ فكذلك فلتعلموا أن عدم تساوي المتضاداتِ المعنويةِ أولى وأولى؛ فلا يستوي المؤمن والكافر، ولا المهتدي والضالُّ، ولا العالم والجاهل، ولا أصحاب الجنة وأصحاب النار، ولا أحياء القلوبِ وأمواتها؛ فبين هذه الأشياء من التفاوتِ والفرقِ ما لا يعلمه إلا الله تعالى. فإذا علمتِ المراتبَ وميزتِ الأشياءَ وبان الذي ينبغي أن يتنافسَ في تحصيله من ضده؛ فليختر الحازمُ لنفسه ما هو أولى به وأحقُّ بالإيثار. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ﴾: سماع فهم وقبول؛ لأنه تعالى هو الهادي الموفق. ﴿وما أنت بمسمعٍ من في القبور﴾؛ أي: أموات القلوب، أو: كما أن دعاءك لا يفيدُ سكان القبور شيئاً، كذلك لا يفيدُ المعرضَ المعاند شيئاً، ولكنَّ وظيفتكِ الندارةُ وإبلاغ ما أرسلتَ به؛ قُبِلَ منك أم لا، ولهذا قال: ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾.

﴿٢٤﴾ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾؛ أي: مجردُ إرسالنا إياك بالحق؛ لأنَّ الله تعالى بعثك على حين فترةٍ من الرسل وطموسٍ من السُّبلِ واندراسٍ من العلم وضرورةٍ عظيمةٍ إلى بعثك، فبعثك الله رحمةً للعالمين، وكذلك ما بعثناك به من الدين القويم والصراطِ المستقيم حقاً لا باطل، وكذلك ما أرسلناك به من هذا القرآن العظيم وما اشتملَ عليه من الذِّكرِ الحكيمِ حقاً وصدق، ﴿بشيراً﴾: لمن أطاعك بثواب الله العاجل والآجل ﴿ونذيراً﴾<sup>(١)</sup>: لمن عصاك بعقاب الله العاجل والآجل، ولست بيدع من الرسل. فما ﴿من أُمَّةٍ﴾: من الأممِ الماضيةِ والقرونِ الخاليةِ ﴿إلا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾: يقيمُ عليهم حجةَ الله؛ ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾.

﴿وإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَإِلَّا يَكْتُوبِ الْغَيْبِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾ .

(١) في (ب): «نذيراً».

﴿٢٥﴾ أي: وإن يكذّبك أيها الرسول هؤلاء المشركون؛ فلست أول رسول كذّب، ﴿فقد كذّب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات﴾: الدالات على الحق وعلى صدقهم فيما أخبروهم به. ﴿والزُّبُر﴾؛ أي: الكتب المكتوبة المجموع فيها كثير من الأحكام. ﴿والكتاب المنير﴾؛ أي: المضيء في أخباره الصادقة وأحكامه العادلة، فلم يكن تكذيبهم إياهم ناشئاً عن اشتباه أو قصور بما جاءتهم به الرسل، بل بسبب ظلمهم وعنادهم.

﴿٢٦﴾ ثم أخذت الذين كفروا: بأنواع العقوبات ﴿فكيف كان نكير﴾: عليهم؟ كان أشد النكير وأعظم التنكيل؛ فإياكم وتكذيب هذا الرسول الكريم، فيصيبكم كما أصاب أولئك من العذاب الأليم والخزي الوخيم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾.

يذكر تعالى خلقه للأشياء المتضادات التي أصلها واحد ومادتها واحدة وفيها من التفاوت والفرق ما هو مشاهد معروف؛ ليدل العباد على كمال قدرته وبديع حكمته:

﴿٢٧﴾ فمن ذلك أن الله تعالى أنزل من السماء ماء، فأخرج به من الثمرات المختلفات والنباتات المتنوعات ما هو مشاهد للناظرين، والماء واحد والأرض واحدة. ومن ذلك الجبال التي جعلها الله أوتاداً للأرض؛ تجدها جبلاً مشتبكاً، بل جبلاً واحداً، وفيها ألوان متعددة، فيها ﴿جدد بيض﴾؛ أي: طرائق بيض، وفيها طرائق صفراء وحمراء، وفيها ﴿غرابيب سود﴾؛ أي: شديدة السواد جداً.

﴿٢٨﴾ ومن ذلك الناس والدواب والأنعام؛ فيها من اختلاف الألوان والأوصاف والأصوات والهيئات ما هو مرئي بالأبصار مشهود للناظر، والكل من أصل واحد ومادة واحدة، فتفاوتها دليل على مشيئة الله تعالى التي خصصت ما خصصت منها بلونه ووصفه، وقدرة الله تعالى حيث أوجدها كذلك، وحكمته ورحمته حيث كان ذلك الاختلاف وذلك التفاوت فيه من المصالح والمنافع ومعرفة الطرق ومعرفة الناس بعضهم بعضاً ما هو معلوم، وذلك أيضاً دليل على سعة علم الله تعالى، وأنه يتبع من في القبور. ولكن الغافل ينظر في هذه الأشياء وغيرها نظراً غفلة لا تحدث

له تذكراً، وإنما ينتفع بها من يخشى الله تعالى ويعلم بفكره الصائب وجه الحكمة فيها، ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾: فكلُّ من كان بالله أعلم؛ كان أكثر له خشيةً، وأوجب له خشيةً الله الانكفاف عن المعاصي والاستعداد للقاء مَنْ يخشاه، وهذا دليلٌ على فضيلة العلم؛ فإنه داع إلى خشية الله، وأهل خشية هم أهل كرامته؛ كما قال تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾: كامل العزة، ومن عزته خلق هذه المخلوقات المتضادات. ﴿غَفُورٌ﴾: لذنوب التائبين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُؤْفِقَهُمْ أَجْرَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿٢٩﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾؛ أي: يتبعونه في أوامره فيمتثلونها وفي نواهيه فيتركونها وفي أخباره فيصدقونها ويعتقدونها ولا يقدمون عليه ما خالفه من الأقوال، ويتلون أيضاً ألفاظه بدراسته، ومعانيه بتتبعها واستخراجها، ثم خص من التلاوة بعدما عم الصلاة - التي هي عماد الدين ونور المسلمين وميزان الإيمان وعلامة صدق الإسلام - النفقة<sup>(١)</sup> على الأقارب والمساكين واليتامى وغيرهم من الزكاة والكفارات والنذور والصدقات، ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾: في جميع الأوقات؛ ﴿يَرْجُونَ﴾: بذلك ﴿تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾؛ أي: لن تكسد وتفسد، بل تجارة هي أجل التجارات وأعلاها وأفضلها ألا وهي رضا ربهم والفوز بجزيلا ثوابه والنجاة من سخطه وعقابه، وهذا فيه الإخلاص<sup>(٢)</sup> بأعمالهم، وأنهم لا يرجون بها من المقاصد السيئة والنيات الفاسدة شيئاً.

﴿٣٠﴾ ذكر أنهم حصل لهم ما رزقوه، فقال: ﴿لِيُؤْفِقَهُمْ أَجْرَهُمْ﴾؛ أي: أجور أعمالهم على حسب قلتها وكثرتها وحسنها وعدمه، ﴿وَيَزِيدَهُمْ مِّن فَضْلِهِ﴾: زيادة عن أجورهم. ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾: غفر لهم السيئات، وقبل منهم القليل من الحسنات.

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ

(٢) في (ب): «أنهم يخلصون».

(١) في (ب): «والنفقة».

بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُاذِنُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي آتَانَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴿٣٥﴾ .

﴿٣١﴾ يذكر تعالى أن الكتاب الذي أوحاه إلى رسوله ﴿هو الحق﴾: من كثرة ما اشتمل عليه من الحق، كأن الحق منحصر فيه؛ فلا يكن في قلوبكم حرج منه ولا تبتروا منه ولا تستهينوا به؛ فإذا كان هو الحق؛ لزم أن كل ما دل عليه من المسائل الإلهية والغيبية وغيرها مطابق لما في الواقع؛ فلا يجوز أن يراد به ما يخالف ظاهره وما دل عليه. ﴿مصدقاً لما بين يديه﴾: من الكتب والرسول؛ لأنها أخبرت به، فلما وُجِدَ وظهر؛ ظهر به صدقها؛ فهي بشرت به وأخبرت، وهو صدقها، ولهذا لا يمكن أحداً أن يؤمن بالكتب السابقة وهو كافر بالقرآن أبداً؛ لأن كفره به ينقض إيمانه بها؛ لأن من جملة أخبارها الخبر عن القرآن، ولأن أخبارها مطابقة لأخبار القرآن. ﴿إن الله بعباده لخبير بصير﴾: فيعطي كل أمة وكل شخص ما هو اللائق بحاله، ومن ذلك أن الشرائع السابقة لا تليق إلا بوقتها وزمانها، ولهذا ما زال الله يرسل الرسل رسولاً بعد رسول حتى ختمهم بمحمد ﷺ، فجاء بهذا الشرع الذي يصلح لمصالح الخلق إلى يوم القيامة، ويتكفل بما هو الخير في كل وقت، ولهذا لما كانت هذه الأمة أكمل الأمم عقولاً وأحسنهم أفكاراً وأرقهم قلوباً وأزكاهم أنفسهم؛ اصطفاها تعالى واصطفى لهم دين الإسلام وأورثهم الكتاب المهيم على سائر الكتب.

﴿٣٢﴾ ولهذا قال: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾: وهم هذه الأمة. ﴿فمنهم ظالم لنفسه﴾: بالمعاصي التي هي دون الكفر، ﴿ومنهم مقتصد﴾: مقتصر على ما يجب عليه، تارك للمحرم، ﴿ومنهم سابق بالخيرات﴾: أي: سارع فيها، واجتهد فسبق غيره، وهو المؤدي للفرائض، المكثر من النوافل، التارك للمحرم والمكروه؛ فكلهم اصطفاها الله تعالى لوراثة هذا الكتاب، وإن تفاوتت مراتبهم وتميزت أحوالهم؛ فلكل منهم قسط من وراثته، حتى الظالم لنفسه؛ فإن ما معه من أصل الإيمان وعلوم الإيمان وأعمال الإيمان من وراثة الكتاب؛ لأن المراد بوراثة الكتاب وراثته علمه وعمله ودراسة ألفاظه واستخراج معانيه، وقوله:

﴿يَا ذَن لِّلّٰه﴾ : راجعٌ إلى السابق إلى الخيرات<sup>(١)</sup> ؛ لئلا يغترَّ بعمله، بل ما سَبَقَ إلى الخيرات إلا بتوفيق الله تعالى ومعونته؛ فينبغي له أن يشتغلَ بشكر الله تعالى على ما أنعم به عليه. ﴿ذٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ ؛ أي: وراثه الكتاب الجليل لمن اصطفى تعالى من عباده هو الفضلُ الكبيرُ الذي جميع النعم بالنسبة إليه كالعدم، فأجلُّ النعم على الإطلاق وأكبرُ الفضل وراثتهُ هذا الكتاب.

﴿٣٣﴾ ثم ذكر جزاء الذين أوزنهم كتابه، ﴿جَنَاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ ؛ أي: جناتٌ مشتملاتٌ على الأشجار والظلِّ والظليل والحدائق الحسنة والأنهار المتدفقة والقصور العالية والمنازل المزخرقة في أبدٍ لا يزول وعيش لا ينفد. والعَدْنُ: الإقامة؛ فجنات عدنٍ؛ أي: جنات إقامة، أضافها للإقامة لأنَّ الإقامة والخلود وصفها ووصف أهلها، ﴿يَحَلُّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ : وهو الحليُّ الذي يجعل في اليدين على ما يحبون ويرون أنه أحسن من غيره، الرجال والنساء في الحلية في الجنة سواء. ﴿وَيَحَلُّونَ فِيهَا لَوْلُؤًا﴾ : يُنظَّم في ثيابهم وأجسادهم، ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ : من سندس ومن إستبرق أخضر.

﴿٣٤﴾ ﴿وَلَمَّا تَمَّ نَعِيمُهُمْ وَكَمَلَتْ لَدَتُهُمْ﴾ ؛ قالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزنَ: وهذا يشمل كلَّ حزنٍ؛ فلا حزنٌ يعرض لهم بسبب نقص في جمالهم ولا في طعامهم وشرابهم ولا في لذاتهم ولا في أجسادهم ولا في دوام لبيتهم؛ فهم في نعيم ما يرون عليه مزيداً، وهو في تزايدٍ أبد الآباد. ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ : حيث غفر لنا الزلات. ﴿شكورٌ﴾ : حيث قبل منا الحسنات وضاعفها، وأعطانا من فضله ما لم تبلغه أعمالنا ولا أمانينا. فبمغفرته؛ نَجُوا من كلِّ مكروه ومرهوب، وبشكره وفضله؛ حصل لهم كلُّ مرغوبٍ محبوبٍ.

﴿٣٥﴾ ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا﴾ ؛ أي: أنزلنا نزول حلول واستقرار، لا نزول معبرٍ واعتبار ﴿دار المقامة﴾ ؛ أي: الدار التي تدوم فيها الإقامة، والدار التي يُرغب في المقام فيها؛ لكثرة خيراتها وتوالي مسراتها وزوال كدوراتها، وذلك الإحلال بفضله علينا وكرمه، لا بأعمالنا؛ فلولا فضله؛ لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه، ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ ؛ أي: لا تعبٌ في الأبدان ولا في القلب والثوى ولا في كثرة التمتع.

(١) في (ب): «بالخيرات».

وهذا يدل على أن الله تعالى يجعل أبدانهم في نشأة كاملة ويهيئ لهم من أسباب الراحة على الدوام ما يكونون بهذه الصفة؛ بحيث لا يمسه نصب ولا لغوب ولا هم ولا حزن.

ويدل على أنهم لا ينامون في الجنة؛ لأن النوم فائدته زوال التعب وحصول الراحة به، وأهل الجنة بخلاف ذلك، ولأنه موت أصغر، وأهل الجنة لا يموتون. جعلنا الله منهم بمنه وكرمه.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ .

﴿٣٦﴾ لما ذكر تعالى حال أهل الجنة ونعيمهم؛ ذكر حال أهل النار وعذابهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: جحدوا ما جاءتهم به رسلهم من الآيات وأنكروا لقاء ربهم، ﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾: يعذبون فيها أشد العذاب وأبلغ العقاب، ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾: بالموت ﴿فَيَمُوتُوا﴾: فيستريحوا، ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾: فشدة العذاب وعظمته مستمر عليهم في جميع الآتات واللحظات. ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾.

﴿٣٧﴾ ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾؛ أي: يصرخون ويتصايحون ويستغيثون ويقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾: فاعترفوا بذنبهم، وعرفوا أن الله عدل فيهم، ولكن سألوا الرجعة في غير وقتها، فيقال لهم ألم: ﴿نُعَمِّرْكُم مَّا﴾؛ أي: دهرًا وعمراً ﴿يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾؛ أي: يتمكن فيه من أراد التذكر من العمل، متغناكم في الدنيا، وأدرنا عليكم الأرزاق، وقضنا لكم أسباب الراحة، ومددنا<sup>(١)</sup> لكم في العمر، وتابغنا عليكم الآيات، وواصلنا إليكم النذر، وابتليناكم بالسراء والضراء؛ لئيبوا إلينا وترجعوا إلينا، فلم ينبغ فيكم إنذار، ولم تفد فيكم موعظة، وأخزنا عنكم العقوبة، حتى إذا انقضت آجالكم وتمت أعماركم ورحلتم عن دار الإمكان بأشرف الحالات ووصلتم إلى هذه الدار دار الجزاء على

(١) في (ب): «ومدينا».



الأعمال؛ سألتُم الرجعة! هيهات هيهات! فات وقتُ الإمكان، وغضب عليكم الرحيم الرحمن، واشتدَّ عليكم عذاب النار، ونسيكُم أهل الجنة، فامكثوا فيها خالدين مخلدّين وفي العذاب مُهانين، ولهذا قال: ﴿فذوقوا فما للظالمين من نصير﴾: ينصُرهم فيُخْرِجُهم منها، أو يخفِّفُ عنهم من عذابها.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَيْكُمْ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٣٨).

﴿٣٨﴾ لَمَّا ذَكَرَ جَزَاءَ أَهْلِ الدَّارَيْنِ، وَذَكَرَ أَعْمَالَ الْفَرِيقَيْنِ؛ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ سَعَةِ عَلَيْهِ تَعَالَى وَأَطْلَاعِهِ عَلَى غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّتِي غَابَتْ عَنْ أَبْصَارِ الْخَلْقِ وَعَنْ عِلْمِهِمْ، وَأَنَّهُ عَالِمٌ بِالسَّرَائِرِ وَمَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ الصُّدُورُ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَالزُّكَاةِ وَغَيْرِهِ، فَيُعْطِي كَلَّامًا مَا يَسْتَحِقُّهُ، وَيُنزِلُ كُلَّ أَحَدٍ مِنْزِلَتَهُ.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ خَلْقَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَارًا﴾ (٣٩).

﴿٣٩﴾ يَخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كَمَالِ حِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ أَنَّهُ قَدَّرَ بِقَضَائِهِ السَّابِقِ أَنْ يَجْعَلَ بَعْضَهُمْ يَخْلُفُ بَعْضًا فِي الْأَرْضِ، وَيُرْسِلُ لِكُلِّ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ النَّذْرَ، فَيَنْظُرُ كَيْفَ يَعْمَلُونَ؟ ﴿فَمَنْ كَفَرَ﴾: بِاللَّهِ وَبِمَا جَاءَتْ بِهِ رِسَالُهُ؛ فَإِنَّ كُفْرَهُ عَلَيْهِ، وَعَلَيْهِ إِثْمُهُ وَعَقُوبَتُهُ، وَلَا يَحْمِلُ عَنْهُ أَحَدٌ، وَلَا يَزِدَادُ الْكَافِرَ بِكُفْرِهِ إِلاَّ مَقْتًا رَبِّهِ لَهُ وَبِغْضِهِ إِلَيْهِ، وَأَيُّ عَقُوبَةٍ أَعْظَمُ مِنْ مَقْتِ الرَّبِّ الْكَرِيمِ؟! ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَارًا﴾؛ أَي: يَخْسِرُونَ أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ وَأَعْمَالَهُمْ وَمَنَازِلَهُمْ فِي الْجَنَّةِ؛ فَالْكَافِرُ لَا يَزَالُ فِي زِيَادَةِ مِنَ الشَّقَاءِ وَالْخَسْرَانِ وَالْخِزْيِ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ خَلْقِهِ وَالْحَرَمَانِ.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ لَهُنَّ عِزَّةٌ كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ عَلَى يَمِينٍ مِّنْهُ بَلْ إِنْ يَبْعُدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلاَّ غُرُورًا﴾ (٤٠).

﴿٤٠﴾ يَقُولُ تَعَالَى مَعْجَزًا لِأَلْهَةِ الْمُشْرِكِينَ وَمُبَيِّنًا نَقْصَهَا وَبَطْلَانَ شِرْكِهِمْ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ: ﴿قُلْ﴾ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَهُمْ: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾؛ أَي: أَخْبِرُونِي عَنْ شُرَكَائِكُمْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ: هَلْ هُمْ مُسْتَحَقُّونَ لِلدَّعَاءِ وَالْعِبَادَةِ؟! فَأَرُونِي ﴿مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾: هَلْ خَلَقُوا بَحْرًا أَمْ خَلَقُوا جِبَالًا أَوْ خَلَقُوا حَيَوَانًا أَوْ خَلَقُوا جَمَادًا؟! سَيَقْرُونَ أَنَّ الْخَالِقَ لِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى. أَمْ لَشُرَكَائِكُمْ ﴿شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾: فِي خَلْقِهَا وَتَدْبِيرِهَا؟! سَيَقُولُونَ: لَيْسَ لَهُمْ شِرْكَةٌ! فَإِذَا لَمْ يَخْلُقْ شَيْئًا

ولم يَشْرِكُوا الخَالِقَ فِي خلقه؛ فلم عبدُثْمُوهم ودعوثْمُوهم مع إقراركم بعجزهم؟! فانفضى الدليل العقلي على صحّة عبادتهم، ودلّ على بطلانها.

ثم ذكر الدليل السمعي، وأنه أيضاً منتفٍ، فلهدأ قال: ﴿أم آتيناهم كتاباً﴾: يتكلّم بما كانوا به يَشْرِكُونَ؛ يأمرهم بالشرك وعبادة الأوثان. ﴿فهم﴾: في شركهم ﴿على بينة﴾: من ذلك الكتاب الذي نزل عليهم في صحة الشرك، ليس الأمر كذلك؛ فإنهم ما نزل عليهم كتاب قبل القرآن، ولا جاءهم نذير قبل رسول الله محمد ﷺ، ولو قدّر نزول كتاب إليهم وإرسال رسول إليهم وزعموا أنه أمرهم بِشْرِكِهِمْ؛ فإننا نجزمُ بكذبهم؛ لأنّ الله قال: ﴿وما أزلنا من قبلك من رسول إلاّ نوحى إليه أنه لا إله إلاّ أنا فاعبدون﴾: فالرسلُ والكتبُ كلها متفقة على الأمر بإخلاص الدين لله تعالى: ﴿وما أمروا إلاّ ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾. فإن قيل: إذا كان الدليل العقلي والنقلي قد دلّا على بطلان الشرك؛ فما الذي حمل المشركين على الشرك وفيهم ذوو العقول والذكاء والفتنة؟! أجاب تعالى بقوله: ﴿بل إن يعبد الظالمون بعضهم بعضاً إلاّ غروراً﴾؛ أي: ذلك الذي مَشَوْا عليه ليس لهم فيه حُجَّةٌ، وإنّما ذلك توصيةٌ لبعضهم لبعض به، وتزيينٌ بعضهم لبعض، واقتداء المتأخّر بالمتقدّم الضالّ، وأماني مآها الشياطين، وزين لهم سوء أعمالهم<sup>(١)</sup>، فنشأت في قلوبهم، وصارت صفةً من صفاتها، فعسر زوالها وتعسر انفصالها، فحصل ما حصل من الإقامة على الكفر والشرك الباطل المضمحل.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

﴿٤١﴾ يخبر تعالى عن كمال قدرته وتمام رحمته وسعة حلمه ومغفرته، وأنه تعالى ﴿يَمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾: عن الزوال؛ فإنهما لو زالتا؛ ما أمسكهما أحدٌ من الخلق، لعجزت قدرُهم وقواهم عنهما، ولكنه تعالى قضى أن يكونا كما وجدّا؛ ليحصل للخلق القراز والنفع والاعتبار، وليعلموا من عظيم سلطانه وقوة قدرته ما به تمتلئ قلوبهم له إجلالاً وتعظيماً ومحبةً وتكريماً، وليعلموا كمال حلمه ومغفرته بامهال المذنبين وعدم معاجلته للعاصين، مع أنه لو أمر السماء؛ لَحَصَبْتَهُمْ، ولو أذن للأرض؛ لابتلعتهم، ولكن وَسِعَتْهُمُ مغفرته وحلمه وكرمه. ﴿إنه كان حلماً غفوراً﴾.

(١) في (ب): «وزين لهم أعمالهم».

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنَ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأُولَىٰ فَلَن نَّجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن نَّجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ .

﴿٤٢﴾ أي: وأقسم هؤلاء الذين كذبوك يا رسول الله قسماً اجتهدوا فيه بالآيمان الغليظة: ﴿لئن جاءهم نذيرٌ ليكوننَّ أهدى من إحدى الأمم﴾؛ أي: أهدى من اليهود والنصارى أهل الكتب، فلم يفوا بتلك الإقسامات والعهود، ﴿فلما جاءهم نذيرٌ﴾: لم يهتدوا، ولم يصيروا أهدى من إحدى الأمم، بل لم يدوموا على ضلالهم الذي كان، بل ﴿ما زادهم﴾ ذلك ﴿إلا نفوراً﴾: زيادة ضلال وبغي وعناد.

﴿٤٣﴾ وليس إقسامهم المذكور لقصدٍ حسنٍ وطلبٍ للحقِّ، وإلا؛ لو فُوقوا له، ولكنه صادرٌ عن استكبارٍ في الأرض على الخلق وعلى الحقِّ، وبهرجةٍ في كلامهم هذا؛ يريدون به المكر والخداع، وأنهم أهل الحقِّ الحريصون على طلبه، فيغتر بهم المغترون، ويمشي خلفهم المقتدون، ﴿ولا يحيق المكر السيئ﴾: الذي مقصوده مقصودٌ سيئٌ ومآله وما يرمي إليه سيئٌ باطل ﴿إلا بأهله﴾: فمكرهم إنما يعود عليهم. وقد أبان الله لعباده في هذه المقالات وتلك الإقسامات أنهم كذبةٌ في ذلك مزورون، فاستبان خزيهم، وظهرت فضيحتهم، وتبين قصدهم السيئ، فعاد مكرهم في نحورهم، وردَّ الله كيدهم في صدورهم، فلم يبق لهم إلا انتظار ما يحلُّ بهم من العذاب، الذي هو سنَّة الله في الأولين، التي لا تبدل ولا تُغيَّر؛ أن كلَّ من سار في الظلم والعناد والاستكبار على العباد أن تحلَّ به نعمته وتُسلب عنه نعمته، فليترقَّب هؤلاء ما فعل بأولئك.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُوَاقِدُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ .

﴿٤٤﴾ يحضُّ تعالى على السير في الأرض في القلوب والأبدان للاعتبار لا لمجرد النظر والغفلة، وأن ينظروا إلى عاقبة الذين من قبلهم ممن كذبوا الرسل

وكانوا أكثر منهم أموالاً وأولاداً وأشدَّ قوةً وعمروا الأرض أكثر مما عمرها<sup>(١)</sup> هؤلاء، فلما جاءهم العذاب؛ لم تنفعهم قوتهم، ولم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً، ونفذت فيهم قدرة الله ومشيتته، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾: لكمال علمه وقدرته. ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيرًا﴾.

﴿٤٥﴾ ثم ذَكَرَ تعالى كمالَ حلمِهِ وشِدَّةَ إِمهالِهِ وإِنظَارِهِ أربَابَ الجرائمِ والذنوبِ، فقال: ﴿وَلَوْ يَؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا﴾: من الذنوب ﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾؛ أي: لاستوعبت العقوبة حتى الحيوانات غير المكلفة. ﴿وَلَكِنْ﴾: يُمهلهم تعالى ولا يُمهلهم<sup>(٢)</sup>، ﴿يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾: فيجازيهم بحسب ما عَلِمَهُ منهم من خيرٍ وشرٍّ.

تم تفسير سورة فاطر. والحمد لله رب العالمين.



### تفسير سورة يس

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يس ١﴾ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَن صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَیْ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْتَقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْنَا أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْتَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾ .

﴿٢﴾ هذا قسم من الله تعالى بالقرآن الحكيم الذي وَضَعَهُ الحكمة، وهي وضع

(١) في (ب): «وعمرها أكثر مما عمرها». (٢) في (ب): «يمهلهم».